

كتاب الشعب

تفسير القرطبي

الجامع لأحكام القرآن
لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

خيركم من علم القرآن وعلمه
حديث شريف

(إذا كان « القرطبي » سيجلد في مجلد واحد فتشزع هذه الورقة

في أعلام درجات الشهداء . قال الله تعالى : ﴿ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ لَعَلَّ مَا أَصَابَكَ مِنْ ذَلِكَ مِنْ عَرْمِ الْأُمُورِ ﴾ . وقد روى عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل تكلم بكلمة حتى عند سلطان جائر فقتله " . وسيأتي القول في هذا في «آل عمران» إن شاء الله تعالى .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُوا ﴾ أى في الإنفاق في الطاعة ، أو أحسنوا الظن بالله في إخلافه عليكم . وقيل : أحسنوا في أعمالكم بامتثال الطاعات ، روى ذلك عن بعض الصحابة . قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا الْحَجَّ وَالْمَعْرَةَ لِلَّهِ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى - اختلف العلماء في المعنى المراد بإتمام الحج والعمرة لله ، فقليل : أداؤها والإتيان بهما ؛ كقوله : ﴿ فَاتَّقُونِ ﴾ وقوله : ﴿ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ أى أتوا بالصيام ، وهذا على مذهب من أوجب العمرة ، على ما يأتي . ومن لم يوجبها قال : المراد إتمامها بعد الشروع فيهما ، فإن من أحرم بشك وجب عليه المضى فيه ولا يفسخه ، قال معناه الشعبي وابن زيد . وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه إتمامهما أن تحريم بهما من ذبيرة أهلك . وروى ذلك عن عمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص ، وفضله عمران بن حصين . وقال سفيان الثوري : إتمامهما أن تخرج قاصدا لما لا لتجارة ولا لغير ذلك . ويقوى هذا قوله «لله» . وقال عمر : إتمامهما أن يُفرد كل واحد منهما من غير تمتع وقران . وقاله ابن حبيب . وقال مقاتل : إتمامهما ألا تستحلوا فيهما مالا ينسب لکم ؛ وذلك أنهم كانوا يشركون في إحرامهم فيقولون : ليك اللهم ليسك ، لا شريك لك إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . فقال : فاتمهما ولا تخطوطهما بشيء آخر .

قلت : أنا ما روى عن علي وفضله عمران بن حصين في الإحرام قبل المواقيت التي وقتها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال به عبد الله بن مسعود وجماعة من السلف ، وثبت أن عمر أهلك من إيلياء . وكان الأسود وعلقمة وعبد الرحمن وأبو اسحاق يحرمون من بيوتهم ؛

ورخص فيه الشافعي . وروى أبو داود والدارقطني عن أم سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحرم من بيت المقدس بحتج أو عمرة كان من ذنوبه كيوم ولدته أمه »^(١) في رواية « غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » . وحرره أبو داود وقال : « رحم الله وكيعا ! أحرم من بيت المقدس ؛ يعني إلى مكة » . ففى هذا إجازة الإحرام قبل الميقات ، وكزه مالك رحمه الله أنه يحرم أحد قبل الميقات ، ويروى ذلك عن عمر بن الخطاب ، وأنه أنكر على عمران بن حصين إحرامه من البصرة . وأنكر عثمان على ابن عمر إحرامه قبل الميقات . وقال أحمد وإسحاق : وجه العمل الموافقة ؛ ومن الوجه لهذا القول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه المواقيت وغنيها فصارت بيانا لمجمل الحج ، ولم يحرم صلى الله عليه وسلم من بيته مجتمه ، بل أحرم من ميقاته الذى وقته لأتمته . وما فعله صلى الله عليه وسلم فهو الأفضل إن شاء الله . وكذلك صنع جمهور الصحابة والتابعين بعدهم . واحتج أهل المقالة الأولى وأن ذلك أفضل بقول عائشة : ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما . وبحديث أم سلمة مع ما ذكر عن الصحابة في ذلك ، وقد شهدوا إحرام رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجتمه من ميقاته ، وعرفوا مغزاه ومراده ، وعلموا أن إحرامه من ميقاته كان تيسيرا على أمته .

الثانية — روى الأئمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت لأهل المدينة ذا الحليفة^(٢) ، ولأهل الشام الجحفة^(٣) ، ولأهل نجد قرن^(٤) ، ولأهل اليمن يلم^(٥) ، من لمن ولن آق طلين من غير أهلهم ممن أراد الحج والعمره . ومن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ ؛ حتى أهل مكة من مكة

(١) كذا في الدارقطني . وفي الأصول : « كهيئة يوم » . (٢) في شرح الموطأ للزقاق : « ... على عهد الله بن عامر » . وعبد الله بن عامر هذا ، ابن خال عثمان وكان والباله على البصرة . (٣) ذا الحليفة (صخر حقة) : قرية نحرية بينها وبين مكة مائتا ميل . (٤) الجحفة (بضم الجيم وسكون المهملة) : قرية نحرية بينها وبين مكة خمس مراحل ، ويقرب منها القرية المعروفة برابع — براء وموعدة وعين مبيسة — فيصح الإحرام منها . (٥) قرن (بفتح القاف وسكون الراء) : جبل مشرف على عرفات . وهو على مرحلتين من مكة . (٦) يلم (بفتح التحتية واللام وسكون الميم وفتح اللام) : مكان على مرحلتين من مكة .

يُهلون منها . وأجمع أهل العلم على القول بظاهر هذا الحديث واستعماله ، لا يخالفون شيئا منه .
واختلفوا في ميقات أهل العراق وفيمن وقته ؛ فروى أبو داود والترمذى عن ابن عباس أن النبي -
صلى الله عليه وسلم- وقت لأهل المشرق العقيق . قال الترمذى : هذا حديث حسن . وروى
أن عمر وقت لأهل العراق ذات عرق^(١) . وفي كتاب أبي داود عن عائشة أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم وقت لأهل العراق ذات عرق . وهذا هو الصحيح ، ومن روى أن عمر وقته ،
لأن العراق في وقته افتتحت ؛ فنفلة منه ، بل وقته رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وقت
لأهل الشام الجحفة . والشام كلها يومئذ دار كفر كما كانت العراق وغيرها يومئذ من البلدان ،
ولم تفتح العراق ولا الشام إلا على عهد عمر ، وهذا مالا خلاف فيه بين أهل السير . قال
أبو عمر : كل عراقى أو مشرقى أحرم من ذات عرق فقد أحرم عند الجميع من ميقاته ، والعقيق
أحوط عندهم وأولى من ذات عرق ، وذات عرق ميقاتهم أيضا بإجماع .

الثالثة - أجمع أهل العلم على أن من أحرم قبل أن يأتى الميقات أنه محرم ، وإنما نزع
من ذلك من رأى الإحرام عند الميقات أفضل ، كراهية أن يضيق المرء على نفسه ما قد وسع
الله عليه ، وأن يتعرض بما لا يؤمن أن يحدث فى إحرامه ، وكلهم ألزمه الإحرام إذا مل
ذلك ، لأنه زاد ولم ينقص .

الرابعة - فى هذه الآية دليل على وجوب العمرة ، لأنه تعالى أمر بإتمامها كما أمر
بإتمام الحج . قال الصبي^(٢) بن معبد : أتيت عمر رضى الله عنه فقلت إني كنت نصرانيا فأسلمت ،
وإني وجدت الحج والعمرة مكتوبتين على ، وإني أهلت بهما جميعا . فقال له عمر : هديت لسنة
نبيك . قال ابن المنذر : ولم ينكر عليه قوله : وجدت الحج والعمرة مكتوبتين على . ويوجوبهما
قال على بن أبي طالب وابن عمر وابن عباس . وروى الدارقطنى عن ابن جريح قال : أخبرنى
نافع أن عبيد الله بن عمر كان يقول : ليس من خلق الله أحد إلا عليه حجة وعمرة واجبتان

(١) ذات عرق : قرية على مرحلتين من مكة .

(٢) الصبي (بضم الصاد المهملة وفتح الباء الواحدة وتشديد الهمزة) .

من استطاع إلى ذلك سبيلا؛ فمن زاد بعدا شيئا فهو خير وتطوع . قال : ولم أسمعه يقول في أهل مكة شيئا . قال ابن جرير : وأخبرت عن عكرمة أن ابن عباس قال : العمرة واجبة كوجوب الحج من استطاع إليه سبيلا . ومن ذهب إلى وجوبها من التابعين : عطاء وطاوس وعجاجة والحسن وابن سيرين والشعبي وسعيد بن جبير وأبو بردة ومسروق وعبد الله بن شاذان والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو عبيد وابن الجهم من المالكيين . وقال الثوري : سمعنا أنها واجبة . وسئل زيد بن ثابت عن العمرة قبل الحج ، فقال : صلاتان لا يضرك بأيهما بدأت . ذكره الدارقطني . وروى مرفوعا عن محمد بن سيرين عن زيد بن ثابت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الحج والعمرة فريضتان لا يضرك بأيهما بدأت » . وكان مالك يقول : « العمرة سنة ولا تعلم أحدا أرخص في تركها » . وهو قول النخعي وأصحاب الرأي فيما حكى ابن المنذر . وحكى بعض القزوينيين والبيهقيين عن أبي حنيفة أنه كان يوجبها كالحج ، وبأنها سنة ثابتة . قاله ابن مسعود وجابر بن عبد الله . روى الدارقطني حدثنا محمد بن القاسم بن ذكريا حدثنا محمد بن العلاء أبو كريب حدثنا عبد الرحيم بن سليمان عن حجاج عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : سألت رجلا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة والزكاة والحج : أوجب هو ؟ قال : « نعم » فسأله عن العمرة : أواجبة هي ؟ قال : « لا وأن تعتمر غيرك » . رواه يحيى بن أيوب عن حجاج وابن جرير عن ابن المنكدر عن جابر موقوفا من قول جابر . فهذه حجة من لم يوجبها من السنة . قالوا : وأما الآية فلا حجة فيها للوجوب ، لأن الله سبحانه إنما قرنهما في وجوب الإتمام لا في الابتداء ، فإنه ابتداء الصلاة والزكاة فقال : (وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) . وابتداء بالحج فقال : (وَبِهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ) . ولما ذكر العمرة أمر بإتمامها لا بابتدائها ، فلو حج عشرين حججا ، أو اعتمر عشرين عمررا لم الإتمام في جميعها ، فلما جاءت الآية لإلزام الإتمام لا لإلزام الابتداء . والله أعلم . واحتج المخالف من جهة النظر على وجوبها بأن قال : عماد الحج الوقوف برفة ،

(١) في نسخ الأصل : « محمد » والتصويب عن سنن الله ارتضى .

وليس في العمرة وقوف؛ فلو كانت كسنة الحج لوجب أن تساويه في أنفاله؛ كما إن سنة الصلاة تساوى فريضتها في أنفاله.

الخامسة — قرأ الشعبي وأبو حنيفة برفع التاء في العمرة؛ وهي تدل على عدم الوجوب. وقرأ الجماعة «العمرة» بنصب التاء، وهي تدل على الوجوب. وفي مصحف ابن مسعود «وأتموا الحج والعمرة إلى البيت^(١) لله» وروى عنه «وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت» وقائمة التخصيص بذكر الله هنا أن العرب كانت تقصد الحج للاجتماع والتظاهر والتناضل والتنافر وقضاء الحاجة وحضور الأسواق؛ وكل ذلك ليس لله فيه طاعة، ولا حظ بقصد، ولا قرينة بمعتقد؛ فامر الله سبحانه بالقصد إليه لأداء فرضه وقضاء حقه، ثم ساع في التجارة على ما يأتي.

السادسة — لا خلاف بين العلماء فيمن شهد تناسك الحج وهو لا ينوي حجا ولا عمرة — والقلم جاري له وعليه — أن شهودها بغير نية ولا قصد غير مؤني عنه، وأن النية تجب فرضا، لقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا﴾ ومن تمام العبادة حضور النية، وهي فرض كالإحرام عند الإحرام؛ لقوله عليه السلام لما ركب راحته: «لَيْتَ بِحُجَّةٍ وَعَمْرَةٍ مَعَا». على ما يأتي. وذكر الزبيعي في كتاب البويطي عن الشافعي قال: ولو لبي رجل ولم ينو حجا ولا عمرة لم يكن حاجا ولا متعمرا، ولو نوى ولم يلب حتى قضى المناسك كان حجه تاما. واحتج بحديث النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ». قال: ومن فعل مثل ما فعل علي حين أهل على إحلال النبي صلى الله عليه وسلم أجرته تلك النية؛ لأنها وقعت على نية لغيره قد تقدمت، بخلاف الصلاة.

السابعة — واختلف العلماء في المراهق والعبد يحرمان بالحج ثم يحتمل هذا ويثبت هذا قبل الوقوف بعرفة؛ فقال مالك: لا سبيل لهما إلى رفض الإحرام ولا لأحد، متمسكا بقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ ومن رفض إحرامه فلا يتم حجه ولا عمرته. وقال أبو حنيفة: جائر للصبي إذا بلغ قبل الوقوف بعرفة أن يحدد إحراما؛ فإن تمادى على حجه ذلك لم يجره. (١) قال أبو حنيفة في البحر يثبت أن يحمل هذا كله على التفسير لأنه يخالف لسواد المصنف الذي أجمع عليه المسلمون.

من حجة الإسلام . واحتج بأنه لما لم يكن الحج يجرى عنه ، ولم يكن الفرض لازماً له حين أحرم بالحج ثم رُفِع حين بلغ ، ائتمثال أن يُسَلَّ عن فرض قد تعين عليه بنافلة و يسقط فرضه ؛ كن دخل في نافلة وأقيمت عليه المكتوبة وخشي فوتها ، قطع النافلة ودخل في المكتوبة . وقال الشافعي : إذا أحرم الصبي ثم بلغ قبل الوقوف بعرفة فوقف بها محرماً أجزاءً من حجة الإسلام ، وكذلك العبد . قال : ولو عتق بمزدلفة وبلغ الصبي بها فرجماً إلى عرفة بعد العتق والبلوغ فادركا الوقوف بها قبل طلوع الفجر أجزت عنهما من حجة الإسلام ، ولم يكن عليهما دم ؛ ولو احتاطا فأمرافاً دماً كان أحب إلى ، وليس ذلك بالبين عندي . واحتج بإسقاط تجديد الإحرام بمجرد حديث علي رضي الله عنه إذ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل من اليمن مهلاً بالحج : "بِمِ أَهَلَّتْ" قال قلت : لِيَكُ اللَّهُمَّ بِإِهْلَالِ كَاهِلَالِ نَبِيِّكَ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فَإِنِّي أَهَلَّتُ بِالْحَجِّ وَسَقَتْ الْمَدْيُ" . قال الشافعي : ولم ينكر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته ، ولا أمره بتجديد نية لإفراد أو تمتع أو قرآن . وقال مالك في النصراني يسلم عشية عرفة فيُحْرِمَ بالحج : أجزاءً من حجة الإسلام ، وكذلك العبد يعتق ، والصبي يبلغ إذا لم يكونوا محررين ولا دم على واحد منهم ؛ وإنما يلزم الدم من أراد الحج ولم يحرم من الميقات . وقال أبو حنيفة : يلزم العبد الدم . وهو كالحرة عندهم في تجاوز الميقات بخلاف الصبي والنصراني فإنهما لا يلزمهما الإحرام لدخول مكة لسقوط الفرض عنهما . فإذا أسلم الكافر وبلغ الصبي كان حكمهما حكم المكي ، ولا شيء عليهما في ترك الميقات .

قوله تعالى : (فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ قَالًا سَبَّيْتُمْ مِنَ الْمَدْيِ) فيه اثنا عشرة مسألة :

الأولى - قال ابن العربي : هذه آية مشككة ، عُضِّلَ من المُضِل .

قلت : لا إشكال فيها ونحن نبينها غاية البيان فنقول : الإحصار هو المنع من الوجه الذي تقصده بالموائق جملة ، بقلة بأى عذر كان ، كأن حصر عدو أو جور سلطان أو مرض أو ما كان . واختلف العلماء في تعيين المانع هنا على قولين : الأول - قال علقمة وعروة

(١) هراق الماء وأمرته وأمراته : صبه . وأصله : أراهه .

ابن الزبير وغيرهما : هو المرض لا المدق . وقيل : المدق خاصة . قاله ابن عباس وابن عمر وأنس والشافعي . قال ابن العربي : وهو اختيار علمائنا . ورأى أكثر أهل اللغة وعصمائها على أن أحصر عُرضَ المرض ، وحُصرَ نزل به المدق .

قلت : ما حكاه ابن العربي من أنه اختيار علمائنا لم يقل به إلا أشهب وحده ، وخالفه سائر أصحاب مالك في هذا وقالوا : الإحصار إما هو المرض ، وأما المدق فإما يقال فيه : حُصر حقراً فهو محصور . قاله الباجي في المتقى . وحكى أبو إسحاق الزجاج أنه كذلك عند جميع أهل اللغة على ما أتى . وقال أبو عبيدة والكاساني : أحصر بالمرض وحصر بالمدق . وفي المجمل لابن فارس على المكس ، فحصر بالمرض ، وأحصر بالمدق . وقالت طائفة : يقال أحصر فيهما جميعاً من الراعي . حكاه أبو عمر .

قلت : وهو يشبه قول مالك حيث ترجم في موطأه « أحصره » فيهما فتأمله .

وقال الفراء : هما بمعنى واحد في المرض والمدق . قال القشيري أبو نصر : وأدعت الشافعية أن الإحصار يستعمل في المدق ، فأما المرض فيستعمل فيه الحصر ، والصحيح أنها يستعملان فيهما .

قلت : ما ادعته الشافعية قد نصّ الخليل بن أحمد وغيره على خلافه . قال الخليل : حصرت الرجل حصراً منته وحبسته ، وأحصر الحاج عن بلوغ المناسك من مرض أو نحوه . هكذا قال . جعل الأول ثلاثياً من حصرت ، والثاني في المرض رباعياً ، وعلى هذا خرج قول ابن عباس : لا حصر إلا حصر المدق . وقال ابن السكيت : أحصره المرض إذا منعه من السفر أو من حاجة يريد بها . وقد حصره المدق يحصرونه إذا ضيقوا عليه فأطافوا به . وحاصروه محاصرة وحصاراً . قال الأخفش : حصرت الرجل فهو محصور ، أي حبسته . قال : وأحصرني بولي ، وأحصرني مرضي ، أي جعلني أحصر نفسي . قال أبو عمرو الشيباني : حصرني الشيء ، وأحصرني ، أي حبسني .

قلت : فالأكثر من أهل اللغة على أن حصر في العدو ، وأحصر في المرض ؛ وقد قيل ذلك في قول الله تعالى : ﴿ لِفَقْرَاءَ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ . وقال ابن ميادة : وما هجر تلي أن تكون تباعدت . عليك ولا أن أحصرتك شغل

وقال الزجاج : الإحصار عند جميع أهل اللغة إنما هو من المرض ، فأما من العدو فلا يقال فيه إلا أحصر . يقال : حُصِرَ حصرا ، وفي الأول أحصر إحصارا ، فدل على ما ذكرناه . وأصل الكلمة من الحبس ؛ ومنه الحصر الذي يحبس نفسه عن البحر بصره . والحصر : الملك لأنه كالمحبوس من وراء الحجاب . والحصر الذي يحبس عليه لانضمام بعض طاقات البدن^(١) إلى بعض ؛ يحبس الشيء مع غيره .

الثانية - ولما كان أصل الحصر الحبس قالت الحنفية : المحصر من بصير ممنوعا من مكة بعد الإحرام بمرض أو عدو أو غير ذلك . واحتجوا بمقتضى الإحصار مطلقا . قالوا : وذكر الأمن في آثر الآية لا يدل على أنه لا يكون من المرض ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " الزكام أمان من الجذام " . وقال : " مَنْ سَبَقَ الْعَاطِسُ بِالْجُدِّ أَيْنَ الشُّوْصِ وَاللُّوْصِ وَالْعِلْوْصِ " . الشُّوْصُ : وجع السن . واللُّوْصُ : وجع الأذن . والعِلْوْصُ : وجع البطن . أخرجه ابن ماجه في سننه . قالوا : وإنما جعلنا حبس العدو حصارا قياسا على المرض إذا كان في حكمه ، لا بدلالة الظاهر . وقال ابن عمر وابن الزبير وابن عباس والشافعي وأهل المدينة : المراد بالآية حصر العدو ، لأن الآية نزلت في سنة ست في عمرة الحديبية حين صد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة . قال ابن عمر : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لغال كفار قريش دون البيت ، ففتح النبي صلى الله عليه وسلم هذبة وحات رأسه . ودل على هذا قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّا أَيْنُتُمْ ﴾ . ولم يقل : برأتم . والله أعلم .

الثالثة - بجمهور الناس على أن المحصر بعدو يحل حيث أحصر ويحرم هذبه إن كان يتم هذى ويحل رأسه . وقال قتادة وأبراهيم : يعمت بهديه إن أمكن ، فإذا بلغ حيلة صار حلالا .

(١) البردى (فتح الموحدة وسكون الراء) : بات يسل منه الحصر . وبضمها وسكون الراء : ضرب من أجود النمر .

وقال أبو حنيفة: دم الإحصار لا يتوقف على يوم النحر، بل يجوز ذبحه قبل يوم النحر إذا بلغ حِلَّهُ . وخالفه أصحابه فقالوا : يتوقف على يوم النحر، وإن نحر قبله لم يجزه . وسيأتي لهذه المسئلة زيادة بيان .

الرابعة - الأكثر من العلماء على أن من أحصر بدو كافر أو مسلم، أو سلطان حبسه في سجن أن عليه الهدى؛ وهو قول الشافعي، وبه قال أشهب . وكان ابن القاسم يقول : ليس على من صد عن البيت في حج أو عمرة هدى إلا أن يكون ساقه معه . وهو قول مالك . ومن حجتهما أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما نحر يوم الحديبية هدياً قد كان أشعره وقده حين أحرم بعمرة، فلما لم يبلغ ذلك الهدى حِلَّهُ للصد، أسر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فنحر . لأنه كان هدباً وجب بالتقليد والإشعار، ونحر لله فلم يجز الرجوع فيه، ولم يجزه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل الصد؛ فذلك لا يجب على من صد عن البيت هدى . وأحج الجاهليون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحل يوم الحديبية ولم يحلق رأسه حتى نحر الهدى، فدل ذلك على أن من شرط إحلال المحصر ذبح هدى إن كان عنده، وإن كان فقيراً فبقي وجهه وقدر عليه لا يحل إلا به . وهو مقتضى قوله : (فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ) . وقد قيل : يحل ويهدى إذا قدر عليه ؛ والقولان للشافعي ، وكذلك من لا يجد هدباً يستريه قولان .

الخامسة - قال عطاء وغيره : المحصر يمرض كالْمَحْصَرِ . وقال مالك والشافعي وأصحابهما : من أحصره المرض فلا يحل إلا الطواف بالبيت وإن أقام سبسين حتى يُمَيِّتَ . وكذلك من أخطأ المدد أو خفى عليه الهلال . قال مالك : وأهل مكة في ذلك كأهل الأفاق . وإن احتاج المريض إلى دواء تكاوى به واقتدى وبقي على إحرامه لا يحل من شيء حتى يبرأ من مرضه ؛ فإذا برئ من مرضه مضى إلى البيت فطاف به سبعا، وسعى بين الصفا والمروة وحل من حجته أو عمرته . وهذا كله قول الشافعي، وذهب في ذلك إلى ما روى عن عمر

وَأَبْنُ عَبَّاسٍ وَعَائِشَةُ وَابْنُ عُمَرَ وَابْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّهُمْ قَالُوا فِي الْمُحْصَرِّ بِمَرَضٍ أَوْ خَطَأٍ الْمَدَدُ :
 أَنَّهُ لَا يَحِلُّهُ إِلَّا الطَّوْفُ بِالْبَيْتِ . وَكَذَلِكَ مَنْ أَصَابَهُ كَسْرٌ أَوْ بَطْنٌ مَنْخَرَقٌ . وَحَكْمٌ مَنْ كَانَتْ
 هَذِهِ حَالُهُ عِنْدَ مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ أَنْ يَكُونَ بِالْخِيَارِ إِذَا خَافَ قُوَّةَ الْقَوِفِ بِعَرَفَةِ لِمَرْضِهِ ، إِنْ شَاءَ
 مَضَى إِذَا أَتَاهُ إِلَى الْبَيْتِ فَطَافَ وَتَمَلَّحَ بِعَمْرَةٍ ، وَإِنْ شَاءَ أَقَامَ عَلَى إِحْرَامِهِ إِلَى قَابِلٍ ، وَإِنْ أَقَامَ
 عَلَى إِحْرَامِهِ وَلَمْ يَرَوْعَ شَيْئًا مِمَّا نَهَى عَنْهُ الْحَاجُّ فَلَا هُدًى عَلَيْهِ ، وَمَنْ حُجَّ فِي ذَلِكَ الْإِجْمَاعِ مِنْ
 الصَّحَابَةِ عَلَى أَنَّ مَنْ أخطأ العدد أن هذا حكمه لَا يَحِلُّهُ إِلَّا الطَّوْفُ بِالْبَيْتِ . وَقَالَ فِي الْمَكَّةِ
 إِذَا بَقِيَ مُحْصَرُونَ حَتَّى فَرَّغَ النَّاسُ مِنْ حُجَّتِهِمْ : فَإِنَّهُ يُخْرِجُ إِلَى الْحِلِّ فَيَلْبِي وَيُفْعَلُ مَا يَفْعَلُهُ
 الْمُعْتَمِرُ وَيَحِلُّ ؛ فَإِذَا كَانَ قَابِلَ حِجٍّ وَأَهْدَى . وَقَالَ ابْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ فِي إِحْصَارٍ مِنْ أَحْصَرَ
 بِمَكَّةَ مِنْ أَهْلِهَا : لَا يَبْدُلُهُ مِنْ أَنْ يَقِفَ بِعَرَفَةِ وَإِنْ نَشَأَ نَشَأَ . وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ
 ابْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَكْرِ الْمَالِكِيُّ فَقَالَ : قَوْلُ مَالِكٍ فِي الْمُحْصَرِّ الْمَكِّيِّ أَنَّ عَلَيْهِ مَا عَلَى
 الْأَفَاقِ مِنْ إِعَادَةِ الْحِجِّ وَالْهُدَى خِلَافَ ظَاهِرِ الْكِتَابِ ، فَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ
 أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ . قَالَ : وَالْقَوْلُ عِنْدِي فِي هَذَا قَوْلُ الزُّهْرِيِّ فِي أَنَّ الْإِبَاحَةَ
 مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنَّ يَقِيمُ بَعْدَ الْمَسَافَةِ يَتَجَالَجُ
 وَإِنْ قَامَهُ الْحِجُّ ؛ فَأَمَّا مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مَا لَا تَقْصُرُ فِي مِثْلِهِ الصَّلَاةُ فَإِنَّهُ يُحْضَرُ
 الْمَشَاهِدَ وَإِنْ نَشَأَ نَشَأَ لِقَرَبِ الْمَسَافَةِ بِالْبَيْتِ . وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ : كُلُّ مَنْ مَنَعَ مِنْ
 الْوُصُولِ إِلَى الْبَيْتِ بَعْدَ أَنْ مَرَضَ أَوْ ذَهَابَ نَفَقَةٌ أَوْ إِضْلَالٌ رَاحِلَةٌ أَوْ لَدَغٌ هَامَةٌ فَإِنَّهُ يَقِفُ
 مَكَانَهُ عَلَى إِحْرَامِهِ وَيَسْعَتُ بِهَدْيِهِ أَوْ بَنَى هَدْيَهُ ، فَإِذَا نَحَرَ فَقَدْ حَلَّ مِنْ إِحْرَامِهِ . كَذَلِكَ قَالَ
 عُرْوَةُ وَقَتَادَةُ وَالْحَسَنُ وَعَطَاءُ وَالنَّخْعِيُّ وَمُجَاهِدٌ وَأَهْلُ الْعِرَاقِ لِقَوْلِهِ ، تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ
 فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ الْآيَةُ .

السادسة - قَالَ مَالِكٌ وَأَصْحَابُهُ : لَا يَنْفَعُ الْحَرَمُ الْإِشْطِرَاطُ فِي الْحِجِّ إِذَا خَافَ الْحَصْرَ بِمَرَضٍ
 أَوْ عَدُوٍّ ؛ وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِمْ . وَالْإِشْطِرَاطُ أَنْ يَقُولَ إِذَا أَهْلٌ : لِيَكِ
 اللَّهُمَّ لِيكَ ، وَيَحِلُّ حَيْثُ حَبَسْتَنِي مِنَ الْأَرْضِ . وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَإِسْحَاقُ بْنُ رَافِعٍ

وأبو ثور : لا بأس أن يشترط وله شرطه . وقاله غير واحد من الصحابة والتابعين ، وجمعت حديث ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب أنها أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إني أردت الحج ، أشتري؟ قال : "نعم" . قالت : فكيف أقول؟ قال : "قولي ليبيك اللهم ليبيك ويحلي من الأرض حيث حسنتي" . أخرجه أبو داود والدارقطني وغيرهما . قال الشافعي : لو ثبت حديث ضباعة لم أعده ، وكان محله حيث حسبه الله .

قلت : قد صححه غير واحد ، منهم أبو حاتم البستي وابن المنذر ، قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لضباعة بنت الزبير : "حجتي واشترطي" . وبه قال الشافعي إذ هو العراق ، ثم وقف عنه بمصر . قال ابن المنذر : وبالقول الأول أقول . وذكره عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج قال : أخبرني أبو الزبير أن طاوسا وعكرمة أخبراه عن ابن عباس قال : جاءت ضباعة بنت الزبير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إني امرأة ثقيلة وإني أريد الحج ، فكيف تأمرني أن أهمل؟ قال : "أهمل واشترطي أن يحل حيث حسنتي" . قال : فأدركت . وهذا إسناده صحيح .

السابعة - واختلف العلماء أيضا في وجوب القضاء على من أحصر ، فقال مالك والشافعي : من أحصر بعدؤ فلا قضاء عليه بحجه ولا عمرته ، إلا أن يكون ضرورة ^(١) لم يكن حج ، فكون عليه الحج على حسب وجوبه عليه . وكذلك الممرة عند من أوجبها فرضا . وقال أبو حنيفة : المحصر بمرض أو عدو عليه حجة وعمره ، وهو قول الطبري . قال أصحاب الرأي : إن كان مهلا بحج قضى حجة وعمره ، لأن إحرامه بالحج صار عمرة . وإن كان قارئا قضى حجة وعمرتين . وإن كان مهلا بعمرة قضى عمرة . وسواء عندهم المحصر بمرض أو عدو على ما تقدم . واحتجوا بحديث ميمون بن مهران قال : خرجت معتمرا عام حاصر أهل الشام ابن الزبير بمكة وبست معي رجال من قومي بهدي ، فلما انتهيت إلى أهل الشام منعوني أن أدخل الحرم ، فصرحت

(١) قوله : فأدركت . معناه أدركت الحج ولم تحلل حتى فرغت منه . (٢) الضرورة (الساد الموبة) :

الذي لم يحج قط . ويطلق أيضا على من لم يترتج . وأما من الضر : المجلس والنحو .

الهدى مكانى ثم حلت ثم رجعت ؛ فلما كان من العام المقبل خرجت لأقضى عمرى ، فأتيت ابن عباس فسأله . فقال : أبطل الهدى ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه أن يبدلوا الهدى الذى منحوا عام الحديبية فى عمرة القضاء . واستدلوا بقوله عليه السلام : "مَنْ كُسِرَ أَوْ عَرِجَ فَقَدْ حَلَّ وَعَلَيْهِ حِجَّةٌ أُخْرَى أَوْ عَمْرَةٌ أُخْرَى" . رواه عكرمة عن الجمح بن عمرو الأنصارى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "مَنْ عَرِجَ أَوْ كُسِرَ فَقَدْ حَلَّ وَعَلَيْهِ حِجَّةٌ أُخْرَى" . قالوا : فاعتار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى العام المقبل من عام الحديبية إنما كان قضاء تلك العمرة . قالوا : ولذلك قيل لها عمرة القضاء . واحتج مالك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأمر أحدا من أصحابه ولا ممن كان معه أن يقضوا شيئا ولا أن يعودوا لشيء ، ولا حفظ ذلك عنه بوجه من الوجوه ، فلا قال فى العام المقبل : إن عمرتى هذه قضاء عن العمرة التى حُصِرْتُ فيها ، ولم ينقل ذلك عنه . قال : وعمرة القضاء وعمرة القضية سواء ، وإنما قيل لها ذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضى قريشا وصالحهم فى ذلك العام على الرجوع عن البيت وقصده من قابل ؛ فسميت بذلك عمرة القضية .

الثامنة - لم يقل أحد من الفقهاء فيمن كسر أو عرج أنه يحل مكانه بنفس الكسر غير أبى ثور على ظاهر حديث الجمح بن عمرو ، وتابعه على ذلك داود بن علي وأصحابه . وأجمع العلماء على أنه يحل من كسر ؛ ولكن اختلفوا فيما به يحل ؛ فقال مالك وغيره : يحل بالطواف بالبيت لا يحل غيره . ومن خالفه من الكوفيين يقول : يحل بالنية وفعل ما يحل به على ما تقدم من مذهبه .

التاسعة - لاختلاف بين علماء الأمصار أن الإحصار عام فى الحج والعمرة . وقال ابن مسيرين : لا إحصار فى العمرة ، لأنها غير مؤقتة ، وأجيب بأنها وإن كانت غير مؤقتة لكن فى الصبر إلى زوال المذر ضرر ، وفى ذلك نزلت الآية . وحكى عن ابن الزبير أن من أحصره العدو أو المرض فلا يحل له إلا الطواف بالبيت . وهذا أيضا مخالف لنص الخبر عام الحديبية .

العاشرة — الحاصر لا يخلو أن يكون كافرا أو مسلما، فإن كان كافرا لم يحز قتله ولو وثق بالظهور عليه، ويقتل بموضعه، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ كما تقدم . ولو سال الكافر جُمْلًا لم يحز لأن ذلك وَهْنٌ في الإسلام . فإن كلف مسلما لم يحز قتله بحال ، ووجب التحلل . فإن طلب شيئا ويقتل عن الطريق جاز دفعه ، ولم يحز القتال لما فيه من إلتاف المنهج ، وذلك لا يلزم في أداء العبادات فإن البين أسمع . وأما بذل الجمل فلما فيه من دفع أعظم الضررين بأحدهما ، ولأن الجمل مما ينفق فيه المال، فيقتد هذا من الشفقة .

الحادية عشرة — والسد الحاصر لا يخلو أن يتقن بقائه واستيطانه لقوته وكثرت أولاده فإن كان الأول حل المحصر مكانه من ساعته . وإن كان الثاني وهو مما يرجى زواله فهذا لا يكون محصورا حتى يبقى بينه وبين الجمل مقدار ما يعلم أنه إن زال العدو لا يدرك فيه الجمل، فيحل حيثن عند ابن القاسم وابن الماجشون . وقال أشهب : لا يحل من حصر من الجمل بدق حتى يوم النحر ولا يقطع التلية حتى يروح الناس الى عرفة . وجه قول ابن القاسم أن هذا وقت يأمن من إكمال حجه لعدو غالب، بغازله أن يحل فيه، أصل ذلك يوم عرفة . ووجه قول أشهب أن عليه أن يأتي من حكم الإحرام بما يمكنه [والتزامه] له الى يوم النحر، الوقت الذي يجوز للحاج التحلل بما يمكنه [الاتيان به] فكان ذلك عليه .

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ ما ، في موضع رفع، أى فالواجب أو فعليكم ما استيسر . ويحتمل أن يكون في موضع نصب، أى فانحروا أو فاهدوا . وما استيسر عند جمهور أهل العلم شاة . وقال ابن عمر وعائشة وابن الزبير : ما استيسر حمل دون حمل ، وبقرة دون بقرة لا يكون من غيرهما . وقال الحسن أعلى الهدي بدنة وأوسطه بقرة وأخسه شاة . وفي هذا دليل على ما ذهب إليه مالك من أن المحصر بدق لا يجب عليه القضاء، لقوله : ﴿فَإِذَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ ولم يذكر قضاء . والله اعلم .

الثانية عشرة - قوله تعالى : (مِنْ الْهَدْيِ) الْهَدْيُ وَالْهَدْيُ لثَنان، وهو ما يُهْدَى إلى بيت الله من بَدَن أو غيرها . والعرب تقول : كم هَدَيْتُ فُلاناً ، أى كم لِمِلْهم . وقال أبو بكر : سَمِعْتُ هَدِيّاً لِأَنَّ مِنْهَا ما يُهْدَى إلى بيت الله ، فسميت بما يلحق بعضها ، كما قال تعالى : (فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْنَ يَعْصِمُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْقَذَابِ) . أراد فإن زنى الإمام فعل الأمة منهن إذا زنت نصف ما على الحرة البكر إذا زنت . فذكر الله المحصنات وهو يريد الأبكار ؛ لأن الإحصان يكون في أكثرهن فسمين بأمر يوجد في بعضهن . والمحصنة من الحرار هي ذات الزوج ، يجب عليها الرجم إذا زنت ، والرجم لا يتبعض ، فيكون على الأمة نصفه ؛ فأنكشف بهذا أن المحصنات يراد بهن الأبكار لا أولات الأزواج . وقال الفراء : أهل الججاز ومنو أسد يخففون الهدى ، قال : وتيم وسُقْل قيس يتقلون فيقولون : هَدَيْ . قال الشاعر :

حَلَقْتُ رَبِّ مَكَّةَ وَالْمُصَلِّ • وَأَعْتَقَ الْهَدْيَ مُقْلَمَاتِ

قال : وواحد الهدى هدية . ويقال في جمع الهدى : أهداء .

قوله تعالى : (وَلَا تَحْقِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ) فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَلَا تَحْقِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ) الخطاب لجميع الأمة : مُحَصَّرٌ وَمَحَلٌّ . ومن العلماء من براهوا للحصرين خاصة ، أى لا تقبلوا من الإحرام حتى ينحر الهدى . والمَحَلُّ : الموضع الذى يحل فيه ذبحه . فالمَحَلُّ في حصر العدو عند مالك والشافعي موضع الحصر ؛ اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية ؛ قال الله تعالى : (وَالْهَدْيُ مَحْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ) قيل : محبوساً إذا كانت محصراً ممنوعاً من الوصول إلى البيت العتيق . وعند أبي حنيفة محل الهدى في الإحصار الحرم ؛ لقوله تعالى : (ثُمَّ حَلَّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) . وأجيب عن هذا بأن المخاطب به الامن الذى يجد الوصول إلى البيت . فأما المحصر فنخرج من قول الله تعالى : (ثُمَّ حَلَّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) دليل بحر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه هدمهم بالحديبية وليس من الحرم . واحتجوا من السنة بحديث ناجية ابن جندب صاحب النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أبست مى

المهدي فأنحره بالحرم . قال : " فكيف تصنع به " قال : أنحره في الأودية لا يقدرون عليه ، فأتطلق به حتى أنحره في الحرم . وأجيب بأن هذا لا يصح ، وإنما ينحر حيث حل ؛ اقتداء بفعله عليه السلام بالحديبية . وهو الصحيح الذي رواه الأئمة ، ولأن المهدي تابع للمهدي ، والمهدي حل بموضعه ؛ فالمهدي أيضا يحل معه .

الثانية — واختلف العلماء على ما قررناه في المحصر هل له أن يحل أو يحل بشيء من الحبل قبل أن ينحر ما استيسر من المهدي ؛ فقال مالك : السنة الثابتة التي لا اختلاف فيها عندنا أنه لا يجوز لأحد أن يأخذ من شعره حتى ينحر هديه ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْقِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْمَدَىٰ عِلَّةٌ ﴾ . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إذا حل المحصر قبل أن ينحر هديه فعله دم ، ويعود حراما كما كان حتى ينحر هديه . وإن أصاب صيدا قبل أن ينحر المهدي ففليه الجزاء . وسواء في ذلك الموسر والمعسر لا يحل أبدا حتى ينحر أو ينحر عنه . قالوا : وأقل ما يهديه شاة لا عيبا ، ولا مقطوعة الأذنين ؛ وليس هذا عندهم موضع صيام . قال أبو عمر : قول الكوفيين فيه ضعف وتناقض ؛ لأنهم لا يميزون لمحصر يعذوق ولا مرض أن يحل حتى ينحر هديه في الحرم . وإذا أجازوا للمحصر بمرض أن يبعث يهدي ويؤاتد حامله يوما ينحره فيه فيحل ويحلق ، فقد أجازوا له أن يحل على غيريقيين من نحر المهدي وبلوغه ، وحمله على الإحلال بالظنون . والعلماء متفقون على أنه لا يجوز لمن لزمه شيء من فرائضه أن يخرج منه بالظن ؛ والدليل على أن ذلك ظن قولهم : لو عطب ذلك المهدي أو ضل أو سرق فحل مرسله وأصاب النساء وصاد أن يسود حراما وعليه جزاء ما صاد ؛ فأباحوا له فساد الحج والزموه ما يلزم من لم يحل من إحرامه . وهذا ما لا يخاف فيه من التناقض وضعف المذاهب ، وإنما بنوا مذهبهم هذا كله على قول ابن مسعود ولم ينظروا في خلاف غيره له . وقال الشافعي في المحصر إذا أعسر المهدي فيه قولان : لا يحل أبدا إلا يهدي . والقول الآخر : أنه مأمور أن يأتي بما قدر عليه ؛ فإن لم يقدر على شيء كان عليه أن يأتي به إذا قدر عليه . قال الشافعي : ومن قال هذا قال : يحل مكاته ويذبح إذا قدر ؛ فإن قدر على أن يكون الذبح بمكة لم يحزه أن يذبح إلا بها ،

وان لم يقدر ذبح حيث قدر . قال ويقال : لا يميزه إلا هدى . ويقال : اذا لم يجد هديا كان عليه الإطعام أو الصيام . وإن لم يجد واحدا من هذه الثلاثة أتى بواحد منها اذا قدر . وقال في العبد : لا يميزه إلا الصوم ، تقوم له الشاة درايم ثم الدرايم طعاما ثم يصوم عن كل مد يوما . ١

الثالثة — واختلفوا اذا نحر المحصر هديه هل له أن يحلق أولا؟ قالت طائفة : ليس عليه أن يحلق رأسه؛ لأنه قد ذهب عنه النسك . واحتجوا بأنه لما سقط عنه الإحصار جميع المناسك كالطواف والسعي — وذلك مما يحل به المحرم من إحرامه — سقط عنه سائر ما يحل به المحرم من أجل أنه محصر . ومن احتج بهذا وقال به أبو حنيفة ومحمد بن الحسن قالا : ليس على المحصر تقصير ولا حلاق . وقال أبو يوسف : يحلق المقصر، فإن لم يحلق فلا شيء عليه . وقد حكى ابن أبي عمير عن ابن سميعة عن أبي يوسف في نوادره أن عليه الحلاق، والتقصير لا بد له منه . واختلف قول الشافعي في هذه المسئلة على قولين : أحدهما أن الحلاق للمحصر من النسك؛ وهو قول مالك . والآخر ليس من النسك كما قال أبو حنيفة . والحجة لمالك أن الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة قد مُنِعَ من ذلك كله المحصر وقد صدَّ عنه؛ فسقط عنه ما قد حيل بينه وبينه . وأما الحلاق فلم يحل بينه وبينه وهو قادر على أن يفعله، وما كان قادرا على أن يفعله فهو غير ساقط عنه . ومما يدل على أن الحلاق باق على المحصر كما هو باق على من قد وصل إلى البيت سواء، قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ﴾ ، وما رواه الأئمة من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم للمحلقين ثلاثا وللمقصرين واحدة . وهو الحجمة القاطعة والنظر الصحيح في هذه المسئلة . وإلى هذا ذهب مالك وأصحابه . والحلاق عندهم نسك على الحاج الذي قد أتم حجه، وعلى من فاتته الحج والمحصر بعدئذ والمحصر بمرض .

الرابعة — روى الأئمة واللفظ لمالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اللهم ارحم المحلقين " قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : " اللهم ارحم المحلقين " قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : " والمقصرين " . قال

علماؤنا : ففى دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم للمقين ثلاثا وللقصرين مرة دليل على أن الحلق فى الحج والعمره أفضل من التقصير، وهو مقتضى قوله تعالى : (وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ) الآية، ولم يقل تقصروا . وأجمع أهل العلم على أن التقصير يميز عن الرجال، إلا نبي. ذكر عن الحسن أنه كان يوجب الحلق فى أول حجة يحجها الانسان .

الخامسة - لم تدخل النساء فى الحلق، وإن ستن التقصير، لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ليس على النساء حلق إنما عليهن التقصير " . أخرجه أبو داود عن ابن عباس . وأجمع أهل العلم على القول به . وراى جماعة أن حلقها رأسها من المنة، واختلفوا فى قدر ما تقصر من رأسها، فكان ابن عمر والشافعى وأحمد وإسحاق يقولون : تقصر من كل قرن مثل الأذنة . وقال عطاء : قدر ثلاث أصابع مقبوضة . وقال قتادة : تقصر الثلث أو الربع . وفترقت حفصة بنت سيرين بين المرأة التى فعلت فتأخذ الربع، وفى الشابة أشارت بأذنها تأخذ وتقل، وقال مالك : تأخذ من جميع قرون رأسها، وما أخذت من ذلك فهو يكفها، ولا يميز عنده أن تأخذ من بعض القرون وتبقى بعضا . قال ابن المنذر : يميز ما وقع عليه اسم تقصير، وأحوط أن تأخذ من جميع القرون قدر أذنة .

السادسة - لا يجوز لأحد أن يحلق رأسه حتى يحجرهديه، وذلك أن سنة الذبح قبل الحلاق . والأصل فى ذلك قوله تعالى : (وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ) . وكذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، بدأ فتحرهديه ثم حلق بعد ذلك؛ فمن خالف هذا فقدم الحلاق قبل التحر فلا يخلو أن يقرمه خطأ وجهلا أو عمدا وقصدنا، فإن كان الأكل فلا شئ عليه، رواه ابن حبيب عن ابن القاسم، وهو المشهور من مذهب مالك . وقال ابن الماجشون : عليه الهدى، وبه قال أبو حنيفة . وإن كان الثانى فقد روى القاضى أبو الحسن أنه يجوز تقديم الحلق على التحر، وبه قال الشافعى . والظاهر من المذهب المنع، والصحيح الجواز، لحديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له فى الذبح والحلق والزمنى والتقديم والتأخير فقال : " لا حرج " رواه مسلم . وأخرج ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو أن النبي

صلى الله عليه وسلم سئل عن ذبح قبل أن يخلق، أو خلق قبل أن يذبح فقال :
« لا حرج » .

السابعة - لا خلاف أن خلق الرأس في الحج تنسك مندوب إليه، وفي غير الحج جائز؛
خلافًا لمن قال : إنه مثله . ولو كان مثله ما جاز في الحج ولا غيره، لأن رسول الله صلى الله عليه
وسلم نهى عن المثلة، وقد خلق رموس بن جعفر بعد أن آناه قبله بثلاثة أيام، ولو لم يحز الخلق
ما حلقتهم . وكان علي بن أبي طالب رضى الله عنه يخلق رأسه . قال ابن عبد البر : وقد أجمع
العلماء على حبس الشعر وعلى إباحة الخلق، وكفى بهذا حجة وبالله التوفيق .

قوله تعالى : (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَذَبْحَةٍ مِنْ صِيَامِهِ أَوْ صَدَقَةٍ
أَوْ نُسُكٍ) فيه تسع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا) استدلت بعض علماء الشافعية بهذه
الآية على أن المحصر في أول الآية المدلول المرض، وهذا لا يلزم؛ فإن معنى قوله : (فَمَنْ كَانَ
مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ) خلق قذية، أى قذية قذية، وإذا كان هذا وإرداق المرض
بلا خلاف، كان الظاهر أن أول الآية ورد فيمن ورد فيه وسطها وآخرها، لأساق الكلام
بعضه على بعض، وانتظام بعضها ببعض . ورجوع الإحصار في آخر الآية إلى من خوطب
في أولها؛ فيجب حمل ذلك على ظاهره حتى يدل الدليل على المدول عنه . وبما يدل على
ما قلناه سبب نزول هذه الآية، روى الأئمة واللفظ للدارقطني « عن كعب بن عجرة أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم رآه وقوله ينساقط على وجهه فقال : « أيؤذيكَ مَرَاتِكَ » قال : نعم .
فأمره أن يخلق وهو بالحديدية، ولم يبين لهم أنهم يحلون بها وهم على طمع أن يدخلوا مكة؛
فأنزل الله القذية، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطى فرقًا بين ستة مساكين، أو يهدى
شاة، أو يصوم ثلاثة أيام . » خرجه البخارى بهذا اللفظ أيضا . فقوله : ولم يبين لهم أنهم

(١) الفرق (بالتحريك) : يكال بضع ستة عشر مثلاً، وهو اثنا عشر مثلاً، أو ثلاثة أسع عند أهل الجواز .

وقيل : نحة أنساط، والنسب : نصف صاع . والفرق (بالسكون) : مائة وعشرون مثلاً . عن نهاية ابن الأثير .

يملكون بها، يدل على أنهم ما كانوا على يقين من حصر الصدق لهم؛ فإذا الموجب للقضية الحلق للأذى والمرض، والله أعلم .

الثانية — قال الأوزاعي في الحرم يصيبه أذى في رأسه : إنه يميزه أن يكفر بالقضية قبل الحلق .

قلت : فعل هذا يكون المعنى : فن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك إن أراد أن يحلق . ومن قدر خلق فدية؛ فلا يشتد حتى يحلق . والله أعلم .

الثالثة — قال ابن عبد البر : كل من ذكر النسك في هذا الحديث مفسراً فلما ذكره بشاة، وهو أمر لا خلاف فيه بين العلماء . وأما الصوم والإطعام فاختلفوا فيه؛ فجمهور فقهاء المسلمين على أن الصوم ثلاثة أيام، وهو محفوظ صحيح في حديث كعب بن عُجْرة . وجاء من الحسن وعكرمة ونافع أنهم قالوا : الصوم في فدية الأذى عشرة أيام، والإطعام عشرة مساكين . ولم يقل أحد بهذا من فقهاء الأمصار ولا أئمة الحديث . وقد جاء من رواية أبي الزبير عن مجاهد عن عبد الرحمن عن كعب بن عُجْرة أنه حدثه أنه كان أهلاً في ذى القعدة، وأنه أتى رأسه فأتى عليه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوقد تحت قدر له؛ فقال له : «كأنك يؤذيك هوام رأسك» . فقال : أجل . قال : «أحلق وأهد هدياً» . فقال : ما أجد هدياً . قال : «فأطعم ستة مساكين» . فقال : ما أجد . فقال : «صم ثلاثة أيام» . قال أبو عمر : كان ظاهر هذا الحديث على الترتيب وليس كذلك، ولو صح هذا كان معناه الاختيار أولاً فثلاً؛ وعامة الآثار عن كعب بن عُجْرة وردت بلفظ التخير، وهو نص القرآن، وعليه مضى عمل العلماء في كل الأمصار وقنواهم، وبالله التوفيق .

الرابعة — اختلف العلماء في الإطعام في فدية الأذى؛ فقال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم : الإطعام في ذلك مَدَانٌ مَدَانٌ بمدة النبي صلى الله عليه وسلم . وهو قول أبي نوز وداود . وروى عن الشوري أنه قال في الفدية : من البر نصف صاع، ومن التمر والشعير

والزبيب صاع . وروى عن أبي حنيفة أيضا مثله ، جل نصف صاع برعندل صاع تمر . قال ابن المنذر : وهذا غلط ، لأن في بعض أخبار كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : " أن تصلي ثلثة أصح من تمر على ستة مساكين " . وقال أحمد بن حنبل مرة كما قال مالك والشافعي . ومرة قال : إن أطعم برأ فذلك لكل مسكين ، وإن أطعم تمرا فنصف صاع . الخامسة - ولا يجوز أن يغتدى المساكين وبشيم في كفارة الأذى حتى يعطى كل مسكين مدين مدين بمدة النبي صلى الله عليه وسلم . وبذلك قال مالك والثوري والشافعي ومحمد بن الحسن . وقال أبو يوسف : يجوز أن يغتدى وبشيم .

السادسة - أجمع أهل العلم على أن المحرم ممنوع من حلق شعره وجذّه وإتلافه بحلق أو قورة أو غير ذلك ، إلا في حالة العلة كما نص على ذلك القرآن . واجمعوا على وجوب القدية على من حلق وهو محرم بغير علة ، واختلفوا فيما على من فصل ذلك ، أو لبس أو تطيب بغير حذر عابدا ، فقال مالك : بشئ ما فعل ! وعليه القدية ، وهو غير فيها . وسواء عنده العمد في ذلك والخطأ ، لضرورة وغير ضرورة . وقال أبو حنيفة والشافعي وأصحابهما وأبو ثور : ليس بغير إلا في الضرورة ؛ لأن الله تعالى قال : (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفَتَا حَلَقَ رَأْسَهُ أَوْ لَبَسَ أَوْ لَبَسَ حَذْرَ فَلَيْسَ بِغَيْرِ عَلَيْهِ دَمٌ لَا غَيْرَ .

السابعة - واختلفوا فيما فعل ذلك ناسيا ، فقال مالك رحمه الله : العمد والناسي في ذلك سواء في وجوب القدية . وهو قول أبي حنيفة والثوري والليث . وللشافعي في هذه المسئلة قولان : أحدهما - لا غدية عليه . وهو قول داود وإسحاق . والثاني - عليه القدية . وأكثر العلماء يوجبون القدية على المحرم بلبس القيط وتغطية الرأس أو بعضه ، ولبس الخفين وتقليم الأظافر ومس العيب وإمالة الأذى ، وكذلك إذا حلق شعر جسده أو أظفله ، أو حلق مواضع المحاجم . والمرأة كالرجل في ذلك ، وعليها القدية في الكحل وإن لم يكن فيه طيب . والرجل أن يكتحل بالاطيب فيه . وعلى المرأة القدية إذا غطت وجهها أو لبست الفزازين ، (١) الثوبة (ضم النون) : حجر الكلس ثم غلبت على أظلام تصاف إليه من زرنج وغيره ؛ يحصل لازالة الشعر .

والعمد والمهوى والجهل في ذلك سواء ؛ وبعضهم يحتل عليهما قماً في كل شيء من ذلك .
وقال داود : لا شيء عليهما في حلق شعر الجسد .

الثامنة — واختلف العلماء في موضع القدية المذكورة ؛ فقال عطاء : ما كان من دم
فيمكته ، وما كان من طعام أو صيام فبقيت شاء ؛ وبخو ذلك قال أصحاب الرأي . وعن الحسن
أن الدم بمكة . وقال طاووس والشافعي : الإطعام والدم لا يكونان إلا بمكة ، والصوم حيث
شاء ؛ لأن الصيام لا منفعة فيه لأهل الحرم ؛ وقد قال الله سبحانه : ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَفَّةِ ﴾
وفقاً لمساكين جيران بيته . فالإطعام فيه منفعة بخلاف الصيام ، والله أعلم . وقال مالك :
يفضل ذلك أين شاء ؛ وهو الصحيح من القول ، وهو قول مجاهد . والذبح هنا عند مالك نسك
وليس يهدي لنص القرآن والسنة ؛ والنسك يكون حيث شاء ، والهدى لا يكون إلا بمكة .
ومن حجته أيضاً ما رواه عن يحيى بن سعيد في موطاء ، وفيه : فأمر علي بن أبي طالب
رضي الله عنه برأسه — يعني رأس حسين — فخلق ثم نسك عنه بالسقيا فتحرر عنه بغيره . قال
مالك قال يحيى بن سعيد : وكان حسين يخرج مع عثمان في سفر إلى مكة . ففى هذا أوضح دليل
على أن قدية الأذى جائز أن تكون بغير مكة ، وجائز عند مالك في الهدى إذا نحر في الحرم أن
يعطاه غير أهل الحرم ؛ لأن البنية فيه إطعام مساكين المسلمين . قال مالك : ولما جاز الصوم
أن يؤتى به بغير الحرم جاز إطعام غير أهل الحرم . ثم إن قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا ﴾
إلاية ، أوضح الدلالة على ما قلناه ؛ فإنه تعالى لما قال : ﴿ فَعِدَّةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾
لم يقل في موضع دون موضع ، فالظاهر أنه حيث ما فعل أجزاء . وقال : « أو نسك » فسمى
ما يذبح نسكاً ، وقد سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك ولم يسمه هدياً ؛ فلا يلزمنا أن
نوده قياساً على الهدى ، ولا أن ننتبه بالهدى مع ما جاء في ذلك عن علي . وأيضاً فإن النبي
صلى الله عليه وسلم لما أمر كعباً بالقدية ما كان في الحرم ؛ فصيح أن ذلك كله يكون خارج
الحرم . وقد روى عن الشافعي مثل هذا في وجه بعيد .

(١) العليا : منزل بين مكة والمدينة ؛ قيل : هي على يمين من المدينة .

التاسعة - قوله تعالى : ﴿ أَوْ تُنْكِرُ ﴾ النكس : جمع نيككة ، وهي الذبيحة ينسكها العبد لله تعالى . ويجمع أيضا على نساك . والنكس : العبادة في الأصل . ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوِنَا مَنَاسِكَنا ﴾ أى مُتَعَبِدَاتِنَا . وقيل : إن أصل النكس في اللغة النسل ومنه نَسَكَ ثوبه إذا غسله . فكان العابد غسل نفسه من أدوار الذنوب بالعبادة . وقيل : النُكْ : سبائك الفضة ، كل سبيكة منها نسيكة . فكان العابد خلص نفسه من دنس الآثام وسبكها .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ مِّنْ مَّتَاعِ الْمَعْمَرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ ﴾ قيل : معناه برأهم من المرض . وقيل : من خوفكم من العدو المحصر ؛ قاله ابن عباس وقتادة . وهو أشبه باللفظ إلا أن يخفيل الخوف من المرض فيكون الأمن منه ، كما تقدم . والله أعلم .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ﴾ الآية . اختلف العلماء في مخاطب بهذا ؟ فقال عبدالله بن الزبير وعلقمة وإبراهيم : الآية في المحصرين دون المخلي سبلهم . وصورة التمتع عند ابن الزبير : أن يُحَصِّرَ الرجل حتى يفوته الحج ، ثم يصل الى البيت فيحل بعمره ، ثم يقضى الحج من قابل ؛ فهذا قد تمتع بما بين العمرة الى حج القضاء . وصورة التمتع المحصر عند غيره : أن يُحَصِّرَ فيحل دون عمرة ويؤخرها حتى يأتي من قابل فيعتمر في أشهر الحج ويحج من عامه . وقال ابن عباس وجماعة : الآية في المحصرين وغيرهم ممن خلى سبيله .

الثالثة - لا خلاف بين العلماء في أن التمتع جائز على ما يأتي تفصيله ، وأن الأفراد جائز ، وأن القرآن جائز ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رضى كلًّا ولم ينكره في حجته على أحد من أصحابه ، بل أجازهم ورضيه منهم صلى الله عليه وسلم . وإنما اختلف العلماء فيما كان به رسول الله صلى الله عليه وسلم محرمًا في حجته وفي الأفضل من ذلك ، لاختلاف الآثار الواردة في ذلك ؛ فقال قائلون منهم مالك : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مُقَرَّدًا ، والأفراد أفضل من التران . قال : والقرآن أفضل من التمتع . وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت : نرجنا

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أراد متكأ أن يُجَلَّ بِحَجِّهِ وعمره ظليل ومن أراد أن يُجَلَّ بِحَجِّهِ فليُجَلَّ ومن أراد أن يُجَلَّ بعمره فليُجَلَّ " . قالت عائشة : فأهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بحج ، وأهل به ناس معه ، وأهل ناس بالعمرة والحج ، وأهل ناس بعمره ، وكنت فيمن أهل بالعمرة . رواه جماعة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة . وقال بعضهم فيه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وأما أنا فأهل بالحج " . وهذا نص في موضع الخلاف ، وهو حجة من قال بالإفراد وفضله . وحكى محمد بن الحسن عن مالك أنه قال : إذا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثان مختلفان وبلغنا أن أبا بكر وعمر عملا بأحد الحديثين وترك الآخر كان في ذلك دلالة على أن الحق فيما عملا به . واستحب أبو ثور الإفراد أيضا وفضله على التمتع والقرآن . وهو أحد قولى الشافعى في المشهور عنه . واستحب آخرون التمتع بالعمرة الى الحج ، قالوا : وذلك أفضل . وهو مذهب عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ، وبه قال أحمد بن حنبل ، وهو أحد قولى الشافعى . قال الثوري قال الشافعى : احترت الإفراد ، والتمتع حسن لا نكرهه . احتج من فضل التمتع بما رواه مسلم عن عمران بن حصين قال : نزلت آية التمتع في كتاب الله — يعني متعة الحج — وأمر بها رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم ثم لم يقل آية تنسخ^(١) [آية] متعة الحج ، ولم ينه عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات ، قال رجل برأيه بعد ما شاء . وروى الترمذى حديثا قتيبة بن سعيد عن مالك بن أنس عن ابن شهاب عن محمد بن عبد الله بن الحارث بن نوفل أنه سمع سعد بن أبي وقاص والضحاك ابن قيس عام حج معاوية بن أبي سفيان وهما يذكران التمتع بالعمرة الى الحج ، فقال الضحاك بن قيس : لا يصنع ذلك إلا من جهل أمر الله تعالى . فقال سعد : بئس ما قلت يا بن أمي ! فقال الضحاك : فإن عمر بن الخطاب قد نهى عن ذلك . فقال سعد : قد صنعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصنعناها معه . هذا حديث صحيح . وروى ابن اسحاق عن الزهري عن سالم قال : إني للجالس مع ابن عمر في المسجد إذ جاءه رجل من أهل الشام فسأله عن التمتع

(١) زيادة من صحيح مسلم .

بالعمرة الى الحج ، فقال ابن عمر : حسن جميل . قال : فإن أبلك كان ينهى عنها . فقال : وبلك ! فإن كان أبى ينهى عنها وقد فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر به ، أنيقول أبى آخذ ، أم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ؟ قم عني . أخرجه التذكرة طبعي ، وأخرجه أبو عيسى الترمذي من حديث صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سالم . وروى عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال : تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان ، وأول من نهى عنها معاوية . حديث حسن . قال أبو عمر : حديث ليث هذا حديث منكرو ، وهو ليث بن أبي سليم ضعيف . والمشهور عن عمر وعثمان أنهما كانا ينيان عن التمتع ، وإن كان جماعة من أهل العلم قد زعموا أن المنة التي نهى عنها عمر وضرب عليها فسخ الحج في العمرة . فاما التمتع بالعمرة الى الحج فلا . وزعم من صحح نهى عمر عن التمتع أنه إنما نهى عنه لِيُتَجَمَّعَ البيت مرتين أو أكثر في العام حتى تكثر عمارته بكثرة الزوار له في غير الموسم ، وأراد إدخال الرقيق على أهل الحرم بدخول الناس تحقيقا لدعوة إبراهيم : « وَاجْعَلْ أَيْدِيَهُ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ » . وقال آخرون : إنما نهى عنها لأنه رأى الناس مالوا الى التمتع ليسارته وحفته ، فنهى أن يضيع الأفراد والقران وهما ستان للنبي صلى الله عليه وسلم . واحتج أحمد في اختياره التمتع بقوله صلى الله عليه وسلم : « لو استقبلتُ من أمرى ما استدبرتُ ما سقتُ الهدى وبلغتها عمرة » . أخرجه الأئمة . وقال آخرون : القرآن أفضل ، منهم أبو حنيفة والثوري . وبه قال المزني قال : لأنه يكون مؤذيا للفرضين جميعا ، وهو قول إسماعيل . قال إسماعيل : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قارئا ، وهو قول علي بن أبي طالب . واحتج من استحب القرآن وفضله بما رواه البخاري عن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يواذي الصفيق يقول : « أتاني الليلة آت من ربي فقال صلى في هذا الوادي المبارك وقل عمرة في حجة » . وروى الترمذي عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **ليك بعمره وحجة** » . وقال : حديث حسن صحيح . قال أبو عمر : والأفراد إن شاء الله أفضل ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مُفْرَداً ، فلذلك قلنا إنه أفضل ؛ لأن الآثار أجمع عنه (١) الصفيق : موضع بين وبين المدينة أربعة أميال .

في إفراذه صلى الله عليه وسلم، ولأن الأفراد أكثر عملاً، ثم العمرة عمل آخر. وذلك كله طاعة والأكثر منها أفضل. وقال أبو جعفر النحاس: المفرد أكثر تبعاً من المنتع، لإقامته على الإحرام وذلك أعظم ثوابه. والوجه في اتفاق الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أمرنا بالتمتع والقرآن جاز أن يقال: تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرن، كما قال جلي وعمر: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾. وقال عمر بن الخطاب: رجما ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإنما أمر بالرجم.

قلت: الأظهر في حجة عليه السلام القران، وأنه كان قارناً، لحديث عمر وأنس المذكورين. وفي صحيح مسلم عن بكر عن أنس قال: «سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يلبى بالجمع والعمرة معاً. قال بكر: فحدثت بذلك ابن عمر فقال: لبي بالجمع وحده؛ فلفقت أنسا فحدثته بقول ابن عمر؛ فقال أنس: ما تعدوننا إلا صبياناً! سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ليكن عمرة وحجاً». وفي صحيح مسلم أيضاً عن ابن عباس قال: أهل النبي صلى الله عليه وسلم بعمرة وأهل أصحابه بنحج؛ فلم يعل النبي صلى الله عليه وسلم ولا من ساق الهدى من أصحابه، وحل بقتيم. قال بعض أهل العلم: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قارناً، وإذا كان قارناً فقد حج وأضمر، واتفقت الأحاديث. وقال النحاس: ومن أحسن ما قيل في هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل بعمرة؛ فقال من رآه: تمتع ثم أهل بجمعة. فقال من رآه: أفرد ثم قال: «ليكن جمعة وعمرة». فقال من سمعه: قرن. فاتفقت الأحاديث. والدليل على هذا أنه لم يرو أحد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: أفردت الحج ولا تمتعت. وضح عنه أنه قال: «قرنت» كما رواه النسائي عن علي أنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي: «كيف صنعت» قلت: أهملت بإهلاكك. قال: «فإني سقت الهدى وقرنت». قال. وقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لفضلت كما فعلتم ولكنني سقت الهدى وقرنت». وثبت عن حفصة قالت: قلت: يا رسول الله، ما بال الناس

قد جئوا من عمرتهم ولم تحل أنت ؟ قال : " إني لبنت رأسي وسقت هدي فلا أحل حتى التحر " . وهذا بين أنه كان قارنا لأنه لو كان متمما أو مفردا لم يتمتع من نحر الهدى .

قلت : ما ذكره النحاس أنه لم يرو أحد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أفردت الحج فقد تقدم من رواية عائشة أنه قال : " وأما أنا فأهل بالحج " . وهذا معناه : فانا أفرد الحج . إلا أنه يحتمل أن يكون قد أحرم بالعمرة ؛ ثم قال : فانا أهل بالحج . وبما بين هذا ما رواه مسلم عن ابن عمر ، وفيه : وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج . فلم يبق في قوله : " فانا أهل بالحج " دليل على الافراد . وبني قوله عليه السلام : " فاني قرنت " . وقول أنس خادمه أنه سمعه يقول : " ليك بحجة وعمرة معا " نص صريح في القران لا يحتمل التأويل . وروى الثارقي عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال : إنما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الحج والعمرة ، لأنه علم أنه ليس بجناح بعدها .

الرابعة - وإذا مضى القول في الأفراد والتمتع والقران وأن كل ذلك جائز بإجماع ، فاتممت بالعمرة إلى الحج عند العلماء على أربعة أوجه ؛ منها وجه واحد مجتمع عليه ، والثلاثة مختلف فيها . فاما الوجه المجتمع عليه فهو التمتع المراد بقول الله جل وعز : (**فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ**) وذلك أن يحرم الرجل بمسرة في أشهر الحج - على ما يأتي ببيانها - وأن يكون من أهل الآفاق ، وقدم مكة ففرغ منها ثم أقام حلالا بمكة إلى أن أنشأ الحج منها في مائة ذلك قبل رجوعه إلى بلده أو قبل خروجه إلى ميقات أهل ناحيته ؛ فإذا فعل ذلك كان متمما وعليه ما أوجب الله على المتمتع ، وذلك ما استيسر من الهدى ، يذبحه ويعطيه للساكنين بني أو بمكة ، فان لم يجد صام ثلاثة أيام ، وسبعة اذا رجع إلى بلده - على ما يأتي - وليس له صيام يوم التحري بإجماع المسلمين . واختلف في صيام أيام التشريق على ما يأتي . فهذا إجماع أهل العلم قديما وحديثا في المنعة ، ورابطها ثمانية شروط : الأول - أن يجمع بين الحج والعمرة . الثاني - في سفر واحد . الثالث - في عام واحد . الرابع - في أشهر

الحج . الخامس - تقديم العمرة . السادس - ألا يزوجها ، بل يكون إحرام الحج بعد الفراغ من العمرة . السابع - أن تكون العمرة والحج عن شخص واحد . الثامن - أن يكون من غير أهل مكة . وتأمل هذه الشروط فيما وصفنا من حكم التمتع مجعدا .

والوجه الثاني من وجوه التمتع بالعمرة إلى الحج : القرآن ، وهو أن يحج بينهما في إحرام واحد فيلبيهما جميعا في أشهر الحج أو غيرها ، يقول ليك بحجة وعمرة معا . فإنا قدم مكة طواف بحجته وعمرة طوافا واحدا وسعى سعيًا واحدا عند من رأى ذلك ، وهم مالك والثاقي وأصحابه وإسحاق وأبو ثور ، وهو مذهب عبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وعطاء بن أبي رباح والحسن ومجاهد وطاوس ، لحديث عائشة رضي الله عنها قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فأهلنا بعمرة ، الحديث . وفيه : وأما الذين جمعوا بين الحج والعمرة فإنا طافوا طوافا واحدا . أخرجه البخاري . وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة يوم النفر ولم تكن طافت بالبيت وحاضت : " سَعَيْكَ طَوَافُكَ لِحَجَّتِكَ وَعِمْرَتِكَ " في رواية : " يُبَيِّزُ عَنْكَ طَوَافُكَ بِالصَّفا وَالْمَرْوَةِ عَنْ حَجِّكَ وَعِمْرَتِكَ " . أخرجه مسلم - أو طاف طوافين وسعى سعيين عند من رأى ذلك ، وهو أبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي والحسن بن صالح وابن أبي ليلى . وروى عن علي وابن مسعود ، وبه قال الشعبي وجابر بن زيد . واحتجوا بأحاديث عن علي عليه السلام أنه جمع بين الحج والعمرة فطاف لما طوافين وسعى لما سعيين ، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل . أخرجها الذارقطنى في سننه وضمنها كلها . وإنما جعل القرآن من باب التمتع ، لأن التارن يتمتع بترك النَّصَب في السفر إلى العمرة مرة وإلى الحج أخرى ، ويتمتع بجمعهما ، ولم يحرم لكل واحدة من ميقاته ، وضم الحج إلى العمرة ، فدخل تحت قول الله عز وجل : (قَمَنَ تَمَتَّعَ بِالْعَمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَبَسَّرَ مِنَ الْهَدْيِ) . وهذا وجه من التمتع لا خلاف بين العلماء في جوازه . وأهل المدينة لا يميزون الجمع بين العمرة والحج إلا بسباق الهدى ، وهو عندهم بدنة لا يجوز دونها . وما يدل على أن الله ان تمت قوله ابن عمر : إنما جعل

(١) يوم النفر (فتح الثوب وتكفين القاء ، وضعا) : اليوم الذي يفر (يزل) الناس فيه من حنى .

القران لأهل الآفاق ، وتلا قول الله جل وعز : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ فن كان من حاضري المسجد الحرام وتتمتع أو قرّن لم يكن عليه دم قران ولا تمتع . قال مالك : وما سمعت أن مكيّا قرن ، فإن فعل لم يكن عليه هدى ولا صيام . وعمل قول مالك بجمهور الفقهاء في ذلك . وقال عبد الملك بن الماجشون : إذا قرن المكي الحج مع العمرة كان عليه دم القران من أجل أن الله إنما أسقط عن أهل مكة الدم والصيام في التمتع .

الوجه الثالث من التمتع هو الذي توعده عليه عمر بن الخطاب وقال : متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أنهى عنهما وأعاقب عليهما : متعة النساء ومتعة الحج . وقد تنازع العلماء في جواز هذا بعد هلم جزأ ، وذلك أن يحرم الرجل بالحج حتى إذا دخل مكة فسح حجه في عمرة ، ثم حل وأقام حلالاً حتى يهل بالحج يوم التروية . فهذا هو الوجه الذي تواردت به الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيه أنه أمر الصحابة في حجة من لم يكن معه هدى ولم يسقه وقد كان أحرم بالحج أن يجعلها عمرة . وقد أجمع العلماء على تصحيح الآثار بذلك عنه صلى الله عليه وسلم ولم يدفعوا شيئاً منها ؛ إلا أنهم اختلفوا في القول بها والعمل لعل ؛ بجمهورهم على ترك العمل بها ، لأنها عندهم خصوص حصص بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في حجة تلك . قال أبو ثور : كانت المتعة لنا في الحج خاصة . أخرجه مسلم . وفي رواية عنه قال : « لا تصلح المتعتان إلا لنا خاصة ، يعني متعة النساء ومتعة الحج » . والعلّة في الخصوصية وجه القائده فيها ما قاله ابن عباس رضي الله عنه قال : « كانوا يرون أن العمرة

(١) كذا في الأصل . وفي المتن لباس بحث طويل في هذه المسألة ، فارجع إليه . (٢) يوم التروية : يوم قبل يوم عرفة ، وهو الثامن من ذي الحجة ؛ سمى به لأن الججاج يرتدون فيه من الماء ، ويهضون إلى متى ولا ماء بها . (٣) الضمير في كانوا يعود إلى الجاهلية . وقوله : ويجعلون الحرم صفراً . المراد الإخبار عن النبي الذي كانوا يغطونه بمسحوق يسون الحرم صفراً ويجعلونه ، ويشنون الحرم ، أي يزينونه تحريمه إلى ما بعد صفراً لا يتوال عليهم ثلاثة أشهر محرمة تضيق عليهم أموره من الغارة وغيرها . واللهد : المخرج الذي يحصل في ظهر الإبل من اصطكاك الأظفار ؛ قاتها كانت تدبر بالسير عليها الحج . وهذا الأثر : أي درس وأجس ، والمراد أثر الإبل وغيرها في سيرها ، هذا أثرها لعل مرور الأيام . وقال الخطابي : المراد أثر الدبر . وهذه الألفاظ تقرأ كلها بكسرة الأثر ويوقف عليها ؛ لأن مرادهم السج . من شرح الترمذي لمصحح مسلم .

في أشهر الحج من أجرة الفجور في الأرض ويعملون المحرم صقراً ويقولون : إذا برأ الذبيرة وعفا الآخر، وانسلخ صقرو، حلت العمرة لمن اعتمر . فقدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه صبيحة ^(١) وإمعة مهلين بالحج ، فأمرهم أن يعملوها عمرة ، فتعاطم ذلك عندهم فقالوا : يا رسول الله ، أي الحِلِّ ؟ قال : "الحِلُّ كله" . أخرجه مسلم . وفي المستند الصحيح لأبي حاتم عن ابن عباس قال : والله ما أعمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة في ذى الحجة إلا ليقطع بذلك أمر أهل الشرك ، فإن هذا الحِلَّ من قريش ومن دان دينهم كانوا يقولون : إذا عفا البرأ الذبيرة وانسلخ صقرو ، حلت العمرة لمن اعتمر . فقد كانوا يحزمون العمرة حتى ينسلخ ذو الحجة ، فما أعمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة إلا ليقض ذلك من قولهم . ففى هذا دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما فسح الحج في العمرة ليريم أن العمرة في أشهر الحج لا بأس بها . وكان ذلك له ولبن معه خاصة ، لأن الله عز وجل قد أمر بإتمام الحج والعمرة كل من دخل فيها أمراً مطلقاً ، ولا يجب أن يخالف ظاهر كتاب الله إلا إلى مالا إشكال فيه من كتاب ناسخ أو سنة مبيحة . واحتجوا بما ذكرناه عن أبي ذر وبحديث الحارث بن بلال عن أبيه قال قلنا : يا رسول الله ، فسح الحج لنا خاصة أم للناس عامة ؟ قال : "بل لنا خاصة" . وعلى هذا جماعة فقهاء الحجاز والعراق والشام ، إلا شيء يروى عن ابن عباس والحسن والسدي ، وبه قال أحمد بن حنبل . قال أحمد : لا أريد تلك الآثار الواردة المتواترة الصحاح في فسح الحج في العمرة بحديث الحارث بن بلال عن أبيه ويقول أبي ذر . قال : ولم يجمعوا على ما قال أبو ذر ، ولو أجمعوا كان حجة ، قال : وقد خالف ابن عباس أبا ذر ولم يعمل به خصوصاً . واحتج أحمد بالحديث الصحيح : حديث جابر الطويل في الحج ، وفيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدي وجعلتها عمرة" فقام سُرَاقَةُ بن مالك بن جُحَشم فقال : يا رسول الله ! لعائنة هذا أم لأيد ؟ فسبك رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابعه واحدة في الأخرى ^(٢) : "دخلت العمرة في الحج مرتين لا بل لأيد أيد" . لفظ مسلم . وإلى هذا والله أعلم ^(٣) مالا يخفى .

(١) أى صبح رابعة من ذى الحجة . (٢) قوله : أى الحِل . أى هل هو الحِلُّ العام لكل ما حرم بالإجماع حتى بالجماع ، أو هل خاص . (٣) قوله : مرتين . أى قاله مرتين .

حيث ترجم « باب من لي بالجمع وسماء » وساق حديث جابر بن عبد الله : قدما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن قول : ليك بالجمع ؛ فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفعلناها عمرة . وقال قوم : إن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإحلال كان على وجه آخر . وذكر مجاهد ذلك الوجه ، وهو أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا فرضوا الحج أولا ، بل أصرهم أن يتلوا مطلقا وينظروا ما يؤمرون به ؛ وكذلك أهل علي بائني . وكذلك كان إحرام النبي صلى الله عليه وسلم ، ويدل عليه قوله عليه السلام : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي وجعلتها عمرة » فكانه خرج ينتظر ما يؤمر به ويأمر أصحابه بذلك ، ويدل على ذلك قوله عليه السلام : « أتاني آت من ربي في هذا الوادي المبارك وقال قل حجة في عمرة » .

والوجه الرابع من المتعة - متعة المحصر ومن صد عن البيت ؛ ذكر يعقوب بن شبة قال حدثنا أبو سلمة التبوذكي حدثنا وهيب حدثنا إسحاق بن سويد قال سمعت عبد الله بن الزبير وهو يخطب يقول : أيها الناس ، إنه والله ليس التمتع بالعمرة إلى الحج كما تصنعون ، ولكن التمتع أن يخرج الرجل حاجا فيحبسه عدو أو أمر يعذر به حتى تذهب أيام الحج ، فيأتي البيت فيطوف ويسعى بين الصفا والمروة ، ثم يتنحى بحله إلى العام المقبل ثم يحج ويهدي .

وقد مضى القول في حكم المحصر وما للعلماء في ذلك مينا والحمد لله .

فكان من مذهبه أن المحصر لا يحل ولكنه يبقى على إحرامه حتى يذبح عنه الهدي يوم النحر ، ثم يحلق ويبقى على إحرامه حتى يقدم مكة فيتحلل من حجه بعمل عمرة . والذي ذكره ابن الزبير خلاف عموم قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ قَمَّا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ بعد قوله : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ ولم يفصل في حكم الإحصار بين الحج والعمرة ، والنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه حين أحصرُوا بالمدية حلوا وحل ، وأصرهم بالإحلال .

واختلف العلماء أيضا لم تسمى التمتع متمما ؛ فقال ابن القاسم : لأنه تمتع بكل ما لا يجوز للحرم فعله من . وقت حله في العمرة إلى وقت إنشائه الحج . وقال غيره :

سمى متمما لأنه تمتع بإسقاط أحد السفرين ، وذلك أن حق العمرة أن تقصد بسفره
وحق الحج كذلك ؛ فلما تمتع بإسقاط أحدهما ألزمه الله هديا ؛ كالقارن الذي يجتمع بين الحج
والعمرة في سفر واحد ، والوجه الأول أعم ؛ فانه يتمتع بكل ما يجوز للحلال أن يفعله ، وسقط
عنه السفر نحوه من بلده ، وسقط عنه الإحرام من ميقانه في الحج . وهذا هو الوجه الذي كرهه
عمر وابن مسعود ، وقالا أو قال أحدهما : يأتي أحدكم منى وذكره بقطر منيا . وقد أجمع
المسلمون على جواز هذا . وقد قال جماعة من العلماء : إنما كرهه عمر لأنه أحب أن يزار
البيت في العام مرتين : مرة في الحج ، ومرة في العمرة . ورأى الأفراد أفضل ؛ فكان يأمر به
ويبل إليه وينهى عن غيره استجابة ؛ ولذلك قال : افصلوا بين حجتكم وعمرتكم ، فانه أتم الحج
أحدكم [وأتم^(١)] لعمرة أن يستمر في غير أشهر الحج .

الخامسة - اختلف العلماء في من اعتمر في أشهر الحج ثم رجع الى بلده ومثله ثم حج
من عامه ؛ فقال الجمهور من العلماء : ليس يتمتع ولا هدى عليه ولا صيام . وقال الحسن
البصري : هو يتمتع وإن رجع الى أهله ، حج أو لم يحج . قال لأنه كان يقال : عمرة
في أشهر الحج متعة . رواء هشيم عن يونس عن الحسن . وقد روى عن يونس عن الحسن
ليس عليه هدى . والصحيح القول الأول ، هكذا ذكر أبو عمر حج أو لم يحج ولم يذكره
ابن المنذر . قال ابن المنذر : وجهه ظاهر الكتاب قوله عز وجل : **فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ**
إِلَى الْحَجِّ . ولم يستثن راجعا الى أهله وغير راجع ، ولو كان الله جل ثناؤه في ذلك مراد لبيته
في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم . وقد روى عن سعيد بن المسيب مثل قول
الحسن . قال أبو عمر : وقد روى عن الحسن أيضا في هذا الباب قول لم يتابع عليه أيضا ،
ولا ذهب إليه أحد من أهل العلم . وذلك أنه قال : من أعتمر بعد يوم النحر فهي متعة .
وقد روى عن طاوس قولان هما أشد شذوفا مما ذكرنا عن الحسن ، أحدهما : أن من
أعتمر في غير أشهر الحج ، ثم أقام حتى دخل وقت الحج ، ثم حج من عامه أنه يتمتع . هذا لم يقل به
أحد من العلماء غيره ، ولا ذهب إليه أحد من فقهاء الأمصار ، وذلك بحديثه وأعلم :-

(١) الزيادة من الموطأ .

أن شهر الحج أحق بالحج من العمرة ؛ لأن العمرة جائزة في السنة كلها ، والحج إنما موضعه شهر
معلومة ؛ فإذا جعل أحد العمرة في أشهر الحج فقد جعلها في موضع كان الحج أولى به ، إلا أن الله
تعالى قد وخص في كتابه وعلى لسان رسوله في عمل العمرة في أشهر الحج للمتعمم وللحارث وللمن
شاء أن يفردھا ، رحمة منه ، وجعل منها ما استيسر من الهدى . والوجه الآخر قاله في المكي إذا
تمتع من مصر من الأمصار فعليه الهدى ، وهذا لم يخرج عليه ، لظاهر قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ
لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ . والتمتع الجائز عند جماعة العلماء ما أوصناه بالشرايط
التي ذكرناها وبالله توفيقنا .

السادسة - أجمع العلماء على أن رجلا من غير أهل مكة لو قدم مكة معتمرا في أشهر
الحج عازما على الإقامة بها ثم أنشأ الحج من عامه فخرج أنه تمتع ، عليه ما على المتمتع . وأجمعوا
في المكي يحج من وراء الميقات محرما بعمره ، ثم ينشئ الحج من مكة وأهله بمكة ولم يسكن
سواها أنه لا دم عليه . وكذلك إذا سكن غيرها وسكنها وكان له فيها أهل وفي غيرها . وأجمعوا
على أنه إن انتقل من مكة بأهله ثم قدمها في أشهر الحج معتمرا فأقام بها حتى حج من عامه
أنه تمتع .

السابعة - وافق مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم والثوري وأبو ثور على أن
التمتع يطوف لعمرته بالبيت ويسعى بين الصفا والمروة ، وعليه بعد أيضا طواف آخر لجه
وسعى بين الصفا والمروة . وروى عن عطاء وطاوس أنه يكفيه سعي واحد بين الصفا
والمروة . والأئول المشهور ، وهو الذي عليه الجمهور ، وأما طواف القارن فقد تقدم .

الثامنة - واختلفوا فيمن أنشأ عمرة في غير أشهر الحج ثم عمل لها في أشهر الحج ؛ فقال
بمالك : عمرته في الشهر الذي حل فيه . يريد إن كان حل منها في غير أشهر الحج فليس بتمتع ،
وإن كان حل فيها في أشهر الحج فهو تمتع إن حج من عامه . وقال الشافعي : إذا طاف بالبيت
في الأشهر الحرم بالعمرة فهو تمتع إن حج من عامه . وذلك أن العمرة إنما تكمل بالطواف بالبيت ،
وانما ينظر إلى كمالها . وهو قول الحسن البصري والحكم بن عيينة وابن شبرمة وسفيان الثوري .

وقال قتادة وأحمد وإسحاق : عمرته للشهر الذي أهل فيه . وروى معنى ذلك عن جابر بن عبد الله . وقال طاووس : عمرته للشهر الذي يدخل فيه الحرم . وقال أصحاب الرأي : إن طاف لما ثلاثة أشواط في رمضان، وأربعة أشواط في شوال فحج من عامه أنه متمتع . وإن طاف في رمضان أربعة أشواط، وفي شوال ثلاثة أشواط لم يكن متمتعا . وقال أبو ثور : إذا دخل في العمرة في غير أشهر الحج فسواء طاف لما في رمضان أو في شوال لا يكون بهذه العمرة متمتعا . وهو معنى قول أحمد وإسحاق : عمرته للشهر الذي أهل فيه .

التاسعة - أجمع أهل العلم على أن لمن أهل بعمره في أشهر الحج أن يدخل طيفا الحج ما لم يفتح الطواف بالبيت، ويكون قارنا بذلك، يلزمه ما يلزم القارن الذي أنشأ الحج والعمره معا . واختلفوا في إدخال الحج على العمرة بعد أن افتتح الطواف فقال مالك : يلزمه ذلك ويصير قارنا ما لم يتم طوافه . وروى مثله عن أبي حنيفة، والمشهور عنه أنه لا يجوز إلا قبل الأخذ في الطواف، وقد قيل : له أن يدخل الحج على العمرة ما لم يركع ركعتي الطواف . وكل ذلك قول مالك وأصحابه . فإذا طاف المعتمر شوطا واحدا لعمرته ثم أحرم بالحج صار قارنا، وسقط عنه باقي عمرته ولزمه دم القران . وكذلك من أحرم بالحج في أضفاف طوافه أو بعد فراغه منه قبل ركوعه . وقال بعضهم : له أن يدخل الحج على العمرة ما لم يكمل السعي بين الصفا والمروة . قال أبو عمر : وهذا كله شذوذ عند أهل العلم . وقال أشهب : إذا طاف لعمرته شوطا واحدا لم يلزمه الإحرام به ولم يكن قارنا، ومضى على عمرته حتى يتمها ثم يحرم بالحج . وهذا قول الشافعي وعطاء، وبه قال أبو ثور .

العاشرة - واختلفوا في إدخال العمرة على الحج فقال مالك وأبو ثور وإسحاق : لا تدخل العمرة على الحج، ومن أضاف العمرة إلى الحج فليست العمرة بشيء . قاله مالك، وهو أحد قولي الشافعي، وهو المشهور عنه بمصر . وقال أبو حنيفة وأصحابه والشافعي في التصديق : يصير قارنا، ويكون عليه ما على القارن ما لم يطف لجمته شوطا واحدا، فإن طاف لم يلزمه؛ لأنه قد عمل في الحج . قال ابن المنذر : ويقول مالك أقول في هذه المسألة .

الحادية عشرة - قال مالك : من أهدى هديا للعمرة وهو متمتع لم يميزه ذلك ، وعليه هدى آخرتته ؛ لأنه إنما يصير متمعا إذا أنشأ الحج بعد أن حل من عمرته ، وحينئذ يجب عليه الهدى . وقال أبو حنيفة وأبو ثور وإسحاق : لا يجر هديه إلا يوم النحر . وقال أحمد : إن قدم المتمتع قبل العشر طاف وسعى ونحر هديه . وإن قدم في العشر لم يجر إلا يوم النحر . وقاله عطية . وقال الشافعي : يحل من عمرته إذا طاف وسعى ، ساق هديا أو لم يسقه .

الثانية عشرة - واختلف مالك والشافعي في المتمتع يموت ؛ فقال الشافعي : إذا أحرز بالحج وجب عليه دم التمتع إذا كان واجداً لذلك . حكاه الزعفراني عنه . وروى ابن وهب عن مالك أنه سئل عن المتمتع يموت بعد ما يحرم بالحج بعرفة أو غيرها ، أترى عليه هديا ؟ قال : من مات من أولئك قبل أن يرى جمره العقبة فلا أرى عليه هديا . ومن روى الجرة ثم مات قبله الهدى . قيل له : من رأس المال أو من الثلث ؟ قال : بل من رأس المال .

الثالثة عشرة - قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ قد تقدم الكلام فيه . قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ﴾ إلى قوله : ﴿ شِدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ﴾ يعني الهدى ، إذا لهدم المال أو لهدم الحيوان . صام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى بلده . والثلاثة الأيام في الحج آخرها يوم عرفة . هذا قول طاوس . وروى عن الشعبي وعطاء ومجاهد والحسن البصري والنخعي وسعيد بن جبير وعلقمة وعمرو بن دينار وأصحاب الرأي ، حكاه ابن المنذر . وحكى أبو ثور عن أبي حنيفة يصومها في إحرامه بالعمرة ، لأنه أحد إحرام التمتع ؛ بخلاف صوم الأيام فيه كإحرامه بالحج . وقال أبو حنيفة أيضا وأصحابه : يصوم قبل يوم التروية يوما ، ويوم التروية ويوم عرفة . وقال ابن عباس ومالك بن أنس : له أن يصومها منذ يحرم بالحج إلى يوم النحر ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ﴾ فإذا صامها في العمرة فقد أتاه قبل وقته فلم يميزه . وقال الشافعي وأحمد بن حنبل : يصومهن ما بين أن يهل بالحج إلى يوم عرفة . وهو قول ابن عمر .

وعائشة، وروى هذا عن مالك، وهو مقتضى قوله في موطنه؛ ليكون يوم عرفة مفطرا؛
فذلك أتبع للسنة، وأقوى على العبادة. وسأيتي. وعن أحمد أيضا جاز أن يصوم الثلاثة قبل أن
يحرم. وقال الثوري والأوزاعي: يصومون من أول أيام النحر. وبه قال طه. وقال
عروة: يصومها ما دام بمكة في أيام منى، وقاله أيضا مالك وجماعة من أهل المدينة.

وأيام منى هي أيام التشریق الثلاثة التي تلي يوم النحر. روى مالك في الموطأ عن عائشة
أم المؤمنين أنها كانت تقول: «الصيام لمن تتع بالعمرة إلى الحج لمن لم يجد هديا ما بين أن يهل
بالحج إلى يوم عرفة، فإن لم يصم صام أيام منى». وهذا اللفظ يقتضي صحة الصوم من وقت
يحرم بالخروج إلى يوم عرفة، وأن ذلك مبتدأ، إما لأنه وقت الإقام وما بعد ذلك من أيام
منى. وقت القضاء، على ما يقوله أصحاب الشافعي. وإما لأن في تقديم الصيام قبل يوم النحر
إبراء للذمة، وذلك ما موريه. والأظهر من المذهب أنها على وجه الأداء، وإن كان الصوم
قبلها أفضل؛ كوقت العبادة الذي فيه سعة للأداء، وإن كان أوله أفضل من آخره. وهذا هو
الصحيح، وأما الآية فلا تقتضي؛ فإن قوله: أيام في الحج. يحتمل أن يريد موضع الحج، ويحتمل
أن يريد أيام الحج؛ فإن كان المراد أيام الحج فهذا القول صحيح؛ لأن آخر أيام الحج يوم النحر،
ويحتمل أن يكون آخر أيام الحج أيام الرمي؛ لأن الرمي عمل من عمل الحج خالصا لو لم يكن من
أركانها. وإن كان المراد موضع الحج صامه ما دام بمكة في أيام منى؛ كما قال عروة، ويقوى
جدا. وقد قال قوم: له أن يؤخرها ابتداء إلى أيام التشریق، لأنه لا يجب عليه الصيام
إلا بالأيام الهدى يوم النحر. فإن قيل وهي:

الثانية - فقد ذهب جماعة من أهل المدينة والشافعي في الجديد وعليه أكثر أصحابه
إلى أنه لا يجوز صوم أيام التشریق نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيام أيام منى؛
فيلزم له: إن ثبت النهي فهو عام يخص من منه المتمتع بما ثبت في البخاري أنك حلقته كانت
تصومها. وعن ابن عمر وعائشة قالا: لم يرخص في أيام التشریق أن يصمن إلا لمن لم يجد
الهدى. وقال الثوري: إسناد صحيح، ورواه مرفوعا عن ابن عمر وعائشة من طريق ثقة.

ضعفها . وإنما رخص في صومها لأنه لم يبق من أيامه إلا بمقدارها ، وبذلك يتحقق وجوب الصوم لعدم الهدى . قال ابن المنذر : وقد رويناه عن علي بن أبي طالب أنه قال : إذا فاته الصوم صام بعد أيام التشريق ، وقاله الحسن وعطاء . قال ابن المنذر : وكذلك تقول . وقالت طائفة : اختلافه الصوم في الشهر لم يحزه إلا الهدى . روى ذلك عن ابن عباس وسعيد ابن جبير وطاوس ومجاهد ، وحكاه أبو عمر عن أبي حنيفة وأصحابه عنه فتأمل .

الثالثة - أجمع العلماء على أن الصوم لا سبيل للتمتع إليه إذا كان يعد الهدى ، واختلفوا فيه إذا كان غير واجد للهدى فصام ثم وجد الهدى قبل إكمال صومه ، فذكر ابن وهب عن مالك قال : إذا دخل في الصوم ثم وجد هدياً فأحب إلى أن يهدي ، فإن لم يفعل أجزأه الصيام . وقال الشافعي : يضي في صومه وهو فرضه . وكذلك قال أبو ثور ، وهو قول الحسن وقتادة ، واختاره ابن المنذر . وقال أبو حنيفة : إذا أيسر في اليوم الثالث من صومه بطل الصوم ووجب عليه الهدى . وإن صام ثلاثة أيام في الحج ثم أيسر كان له أن يصوم السبعة الأيام لا يرجع إلى الهدى ، وبه قال الثوري وابن أبي نجيح وحماد .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ وَبِشَاةٍ ﴾ قراءة الجمهور بالخفض على المطف . وقرأ زيد ابن علي « وبشة » بالنصب ، على معنى وصوموا ببيعة .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ يعني إلى بلادكم . قاله ابن عمر وقتادة والربيع ومجاهد وعطاء ، وقاله مالك في كتاب محمد ، وبه قال الشافعي . قال قتادة والزبيعي : هذه رخصة من الله تعالى ، فلا يجب على أحد صوم السبعة إلا إذا وصل وطنه ، إلا أن يشتد أحد ، كما يفعل من يصوم في السفر في رمضان . وقال أحمد وإسحاق : يحزه الصوم في الطريق . وروى عن مجاهد وعطاء . قال مجاهد : إن شاء صامها في الطريق ، إنما هي رخصة . وكذلك قال عكرمة والحسن . والتقدير عند بعض أهل اللغة : إذا رجعت من الحج ، أي إذا رجعت إلى ما كنتم عليه قبل الإحرام من الحل . وقال مالك في الكتاب : إذا رجع من مي فلا بأس

أن يصوم . قال ابن العربي : « إن كان تخفيفا ورخصة فيجوز تقديم الرخص وترك الرفق فيها الى المزمة إجماعا . وإن كان ذلك نوقتها فليس فيه نص ، ولا ظاهراً أنه أراد البلاد ، وأنها المراد في الأغلب » .

قلت : بل فيه ظاهر يقرب الى النص ، بينه ما رواه مسلم عن ابن عمر قال : تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى ، فساق معه الهدى من ذى الحليفة ، وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاهل بالعمرة ثم اهل بالحج ، وتمتع الناس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعمرة الى الحج ، فكان من الناس من اهل فساق الهدى ، ومنهم من لم يهد ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة قال للناس : « من كان منكم اهدى فلا يحمل من شيء ، حرم منه حتى يقضى حجه ومن لم يكن منكم اهدى فليطهه بالبيت وبالصفا والمروة وليقصّر وليحل ثم ليحل بالحج وليهد فن لم يهد هدنيا فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة اذا رجع الى أهله » الحديث . وهذا كالنص في أنه لا يجوز صوم السبعة الأيام إلا في أهله وبلده . والله أعلم . وكذا قال البخاري في حديث ابن عباس : ثم امرنا عشية التروية أن نهل بالحج فاذا فرغنا من المناسك جئنا فططنا بالبيت وبالصفا والمروة وقد تم حجتنا وطينا الهدى ، كما قال الله تعالى : ﴿ قَدْ اسْتَسْرَمَ مِنَ الْهُدَىٰ فَنَ لَمْ يَصِدْ فَصَيَّامٌ لِّثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتَ ﴾ . الى أمصاركم . الحديث ، وسيأتي . قال النحاس : وكان هذا إجماعا .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ يقال : كمل يكمل مثل نصر ينصره وكل يكمل مثل عظم يعظم ، وكل يكمل مثل حمد يحمده ، ثلاث لغات . واختلفوا في معنى قوله : ﴿ تِلْكَ عَشْرَةٌ ﴾ وقد علم أنها عشرة ؛ فقال الزجاج : لما جاز أن يتوهم متوهم التأخيرين ثلاثة أيام في الحج أو سبعة اذا رجع بدلا منها ؛ لأنه لم يقل وسبعة أخرى أزيل فذك بالجملة

(١) كما في أحكام القرآن لابن العربي . وفي الأصل : « بدل » .

(٢) عبارة ابن العربي : « ... ولا ظاهراً أنه أراد البلاد ، وإنما المراد في الأغلب والأظهر أنه الحج » .

من قوله « تلك عشرة » ثم قال : « كاملة » . وقال الحسن : كاملة في الثواب كمن أهدى .
وقيل : كاملة في البدل عن الهدى ، يعني العشرة كلها بدل عن الهدى . وقيل : كاملة في الثواب
كمن لم يتبع . وقيل : لفظها لفظ الإخبار ومعناها الأمر ، أى أكلوها فذلك فرضها . وقال
اللمبرد : عشرة دلالة على انقضاء العدد ؛ لئلا يتوهم متوهم أنه قد بقي منه شيء بعد ذكر السبعة .
وقيل : هو تأكيد ؛ كما تقول : كبت بيدي . ومنه قول الشاعر :

ثلاث واثنتان فهن خمس • وسادة تميل الى شيمى

قوله : خمس ، تأكيد . ومثله قول الآخر :

ثلاث بالغداة فذلك حسبي • وصت حين يدركنى الداء

فذلك تسعة في اليوم ربي • وشرب المرو فوق الرى داء

وقوله : « كاملة » ، تأكيد آخر ، فيه زيادة توصية بصيامها وأن لا ينقص من عددها ؛ كما
تقول لمن تأمره بأمر ذى بال : الله الله لا تقصر .

السابعة - قوله تعالى : (ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أى إنما يجب
أهم التمتع عن الغريب الذى ليس من حاضرى المسجد الحرام . خرج البخارى « عن ابن عباس
أنه سئل عن متعة الحج فقال : أهل المهاجرين والأنصار وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم في حجة
الوداع وأهلنا ؛ فلما قدمنا مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اجعلوا إلهالكم بالحج عمرة
إلا من قلده الهدى" . طُفْنَا بالبيت وبالصفاء والمروة وأتينا النساء ولبسنا الثياب . وقال :
"من قلده الهدى فإنه لا يحل حتى يبلغ محله" . ثم أمرنا عشية التروية أن نخل بالحج ، فإذا
فرغنا من المناسك جئنا نطفنا بالبيت وبالصفاء والمروة فقدمت حجنا وءلينا الهدى ، كما قال الله
تعالى : فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم . إلى أمصاركم ،
الشيء يُجْزَى . فجمعوا مُسَكِّنِينَ في عام بين الحج والعمرة ، فإن الله أنزله في كتابه وسنه نبيه صلى
الله عليه وسلم وأباحه للناس غير أهل مكة ، قال الله عز وجل : ذلك لمن لم يكن أهله
حاضري المسجد الحرام . وأشهر الحج التى ذكر الله عز وجل : شَوَّالٌ وذو القعدة وذو الحجة ،

فمن تمتع في هذه الأشهر فضليه دم أو صوم . والزفت الجماع . والقسوق المعامى .
والجدال المراء . .

الثامنة — اللام في قوله «لَنْ» بمعنى على ، أى وجوب الدم على من لم يكن من أهل مكة ؛ كقوله عليه السلام : « اشتري لى الولاء » . وقوله تعالى : (وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) أى فعلها . وذلك إشارة الى التمتع والقران للغريب عند أبى حنيفة وأصحابه ، لا تمتع ولا قران لحاضرى المسجد الحرام عندهم . ومن فعل ذلك كان عليه دم جناية لا يأكل منه ؛ لأنه ليس بدم تمتع . وقال الشافعى : لم تمتع وقران . والإشارة ترجع الى الهدى والصيام ، فلا هدى ولا صيام عليهم . وفوق عبد الملك بن الماجشون بين التمتع والقران ، فأوجب الدم فى القران وأسقطه فى التمتع . على ما تقدم عنه .

التاسعة — واختلف الناس فى حاضرى المسجد الحرام — بعد الإجماع على أن أهل مكة وما اتصل بها من حاضريه . وقال الطبرى : بعد الإجماع على أهل الحرم . قال ابن عطية : وليس كما قال — فقال بعض العلماء : من كان يجب عليه الجمعة فهو حضرى ، ومن كان أبعد من ذلك فهو بدوى ؛ بفعل النقطة من الحضارة والبداءة . وقال مالك وأصحابه : هم أهل مكة وما اتصل بها خاصة . وعند أبى حنيفة وأصحابه : هم أهل المواقيت ومن وراءها من كل ناحية ؛ فمن كان من أهل المواقيت أو من أهل ما وراءها فهم من حاضرى المسجد الحرام . وقال الشافعى وأصحابه : هم من لا يلزمه تقصير الصلاة من موضعه الى مكة ، وذلك أقرب المواقيت . وعلى هذه الأقوال مذاهب السلف فى تأويل الآية .

الساخرة — قوله تعالى : (وَأَتَّقُوا اللَّهَ) أى فيما فرضه عليكم . وقيل : هو أمر بالتقوى على العموم ، وتحذير من شدة عقابه .

قوله تعالى — (الحج أشهر معلومات) الى قوله تعالى : (بِأُولَى الْأَنْبَابِ) . فيه أربع عشرة مسألة .

الأولى - قوله تعالى : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ لما ذكر الحج والعمرة سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ وَأَتُوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ بين اختلافهما في الوقت ، بجميع السنة وقت للإحرام بالعمرة ، ووقت العمرة . وأما الحج فيقع في السنة مرة ، فلا يكون في غير هذه الأشهر . والحج أشهر معلومات ، ابتداء وخبر ، وفي الكلام حذف تقديره : أشهر الحج أشهر ، أو وقت الحج أشهر ، أو وقت عمل الحج أشهر . وقيل : التقدير الحج في أشهر . ويلزم مع سقوط حرف الجر نصب الأشهر ، ولم يقرأ أحد بنصبها ، إلا أنه يجوز في الكلام النصب على أنه ظرف . قال الفراء : الأشهر رفع ، لأن معناه وقت الحج أشهر معلومات . قال الفراء : وسمعت الكاسي يقول : إنما الصيف شهران ، وإنما الطيلسان ثلاثة أشهر . أراد وقت الصيف ، ووقت ليل الطيلسان ، لحذف .

الثانية - واختلف في الأشهر المعلومات ؛ فقال ابن مسعود وابن عمر وعطاء والزبير ومجاهد والزهري : أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة كله . وقال ابن عباس والسدي والشعمي والنخعي : هي شوال وذو القعدة وعشرة من ذي الحجة . وروى عن ابن مسعود ، وقاله ابن الزبير . والقولان مرويان عن مالك . حكى الأخير ابن حبيب ، والأول ابن المنذر . وفائدة الفرق تعلق الدم ؛ فمن قال : إن ذا الحجة كله من أشهر الحج لم يردمَ فيما يقع من الأعمال بعد يوم النحر ، لأنها في أشهر الحج . وعلى القول الأخير يتقضى الحج بيوم النحر ، ويلزم الدم قبلها حمل بعد ذلك لتأخيرها عن وقته .

الثالثة - لم يسم الله تعالى أشهر الحج في كتابه ، لأنها كانت معلومة عندهم . ولنفذ الأشهر قد يقع على شهرين وبعض الثالث ، لأن بعض الشهر يتزل منزلة كله ؛ كما قال : رأيتك سنة كذا ، أو على عهد فلان . ولعله إنما رآه في ساعة منها ، فالوقت يذكر بعضه بأكمله ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أيام نبي ثلاثة " . وإنما هي يومان وبعض الثالث . ويقولون : رأيتك اليوم ، وجئتك العام . وقيل : لما كان الاثنان وما فوقهما جمع قال : أشهر . والله أعلم .

الرابعة - اختلف في الإهلال بالبح في غير أشهر الحج، فروى عن ابن عباس من سنة الحج أن يُحرم به في أشهر الحج . وقال عطاء ومجاهد وطاوس والأوزاعي : من أحرم بالبح قبل أشهر الحج لم يحزه ذلك عن حجه ويكون عمرة؛ كن دخل في صلاة قبل وقتها فانه لا تجزئه وتكون نافلة . وبه قال الشافعي وأبو ثور . وقال الأوزاعي : يحل بعمرة . وقال أحمد بن حنبل : هذا مكروه . وروى عن مالك . والمشهور عنه جواز الإحرام بالبح في جميع السنة كلها . وهو قول أبو حنيفة - وقال النخعي : لا يحل حتى يقضى حجه ، لقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ وقد تخدم القول فيها . وما ذهب إليه الشافعي أصح ، لأن تلك عامة ، وهذه الآية خاصة . ويحتمل أن يكون من باب النص على بعض أشخاص الموم ، لفضل هذه الأشهر على غيرها ؛ وعليه فيكون قول مالك صحيحا ، والله أعلم .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ قَدْ قَرَضَ فِيهِ الْحَجَّ ﴾ أى ألزمه نفسه بالشروع فيه بالنية قصدا باطنا ، وبالإحرام فعلا ظاهرا ، وبالتلبية نطقا مسموعا . قاله ابن حبيب وأبو حنيفة في التلبية . وليست التلبية عند الشافعي من أركان الحج . وهو قول الحسن بن حي . قال الشافعي : تكنى النية في الإحرام بالبح . وأوجب التلبية أهل الظاهر وغيرهم . وأصل القرض في اللغة : الحز والقطع ؛ ومنه قرضة القوس والنهر والجبل . فقرضية الحج لازمة للعبد الحر كلزوم الحز للقدح . وقيل : فرض أى أبان ؛ وهذا يرجع الى القطع ، لأن من قطع شيئا فقد أبانه عن غيره . ومن رفع بالابتداء ومناها الشرط ، والخبر قوله : قرض ، لأن « من » ليست بموصولة ؛ فكانه قال : رجل فرض . وقال : فحين ، ولم يقل فيها ؛ فقال قوم : هما سواء في الاستعمال . وقال المازني أبو عثمان : الجمع الكثير لما لا يفعل يأتي كالأواحدة المؤنثة ، والقليل ليس كذلك ؛ تقول : الأجداع انكسرت ، والجذوع انكسرت . ويؤيد ذلك قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ مِدَّةَ الشُّهُورِ ﴾ ثم قال : ﴿ مِنْهَا ﴾ .

(١) فريضة القوس (بضم أوله وسكون ثانيه) : الخربق عليه الوتر . وقريضة البئر : شرب الماء منه . وقريضة الحبل : ما يتحد من وسطه ورجليه .

السابعة - قوله تعالى : ﴿ فَلَا رَفَثَ ﴾ قال ابن عباس وابن جبير والسدي وقادة والحسن وعكرمة والزهرى ومجاهد ومالك : الرَفَثُ الجماع ، أى فلا جماع لأنه يفسده . وأجمع العلماء على أن الجماع قيل الوقوف بصفة مفسد للجماع ، وعليه حج قابل والمهدى . وقال عبد الله بن عمر وطاوس وعطاء وغيرهم : الرَفَثُ الإغشاش للمرأة بالكلام ، لقوله : إذا أحللتنا فعلنا بك كذا ؛ من غير كناية . وقاله ابن عباس أيضا ، وأشد وهو محرم :

وَمَنْ يَمِشْ بِبَنَاتِ هَيْمَسَا * إِنْ تَصَدَّقَ الطَّيْرُ نِكَاحًا ^(١)

فقال له صاحبه حصين بن قيس : أتُرث وأنت محرم ؟ فقال : إن الرَفَثَ ما قيل عند النساء . وقال قوم : الرَفَثُ الإغشاش بذكر النساء ، كان ذلك بمحضرتين أم لا . وقيل : الرَفَثُ كلمة جامعة لما يريد الرجل من أهله . وقال أبو عبيدة : الرَفَثُ اللغا من الكلام ، وأشد : وَرُبَّ أَسْرَابٍ حَبِيجٍ كُطِّمَ * عَنْ أَلْفَا وَرَفَثَ التَّكْلِيمِ

يقال : رفث يرفث بضم الفاء وكسرهما . وقرأ ابن مسعود « فلا رفوث » على الجمع . قال ابن العربي : « المراد بقوله : « فلا رفث » نفيه مشروعا لا موجودا ، فإنما تجد الرَفَثَ فيه ونشأه ، وخبر الله سبحانه لا يجوز أن يقع بخلاف غيره ، وإنما يرجع النفي الى وجوده مشروعا لا الى وجوده محسوسا ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ معناه شرعا لا حسا ، فإنما تجد المطلقات لا يتربصن ؛ فساد النفي الى الحكم الشرعى لا الى الوجود الحسى ؛ وهذا كقوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ إذا قلنا : إنه وارد فى الآدميين - وهو الصحيح - أن معناه لا يمس أحد منهم شرعا ، فإن وجد المس فعله خلاف حكم الشرع . وهذه الدقيقة هى التى فاتت العلماء فقالوا : إن الخبر يكون بمعنى النهى ، وما وجد ذلك قط ، ولا يصح أن يوجد ، فإنهما مختلفان حقيقة ومتضادان وصفا .

السابعة - قوله تعالى : ﴿ وَلَا فُسُوقَ ﴾ يعنى جميع المعاصى كلها . قاله ابن عباس وعطاء والحسن . وكذلك قال ابن عمر وجماعة : الفسوق إتيان معاصى الله عز وجل

في حال إخمائه بالبحر؛ كقتل الصيد وقص الظفر وأخذ الشعر، وشبه ذلك . وقال ابن زيد ومالك : الفسوق الذبح للأضنام ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِتِغْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ . وقال الضحاك : الفسوق التنازع بالأنفاب ؛ ومنه قوله : ﴿ يَنْسُ أَلَانُ الْمُنُكُوتِ ﴾ . وقال ابن عمر أيضا : الفسوق السباب ؛ ومنه قوله عليه السلام : « سَبَابُ الْمُسْلِمِ فَسُوقٌ وَقَتْلُهُ كُفْرٌ » . والقول الأول أصح ، لأنه يتناول جميع الأقوال . قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَجَّ ظَهْرَهُ يَفْتُ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » . [قال] : « وَالْحُجَّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ » . نخرجه مسلم وغيره . وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « وَالَّذِي قَضَى بِيَدِهِ مَا بَيْنَ الْعِلَّةِ وَالْأَرْضِ مِنْ عَمَلٍ أَفْضَلُ مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ حِجَّةً مَبْرُورَةً لَا رَفَثَ فِيهَا وَلَا فَسُوقَ وَلَا جِدَالَ » . وقال الفقهاء : الحج المبرور هو الذي لم يعص الله تعالى فيه أشياء أدانها . وقال الفراء : هو الذي لم يعص الله سبحانه بعده . ذكر القولين ابن العربي رحمه الله .

قلت : الحج المبرور هو الذي لم يعص الله سبحانه فيه ولا بعده . قال الحسن : الحج المبرور هو أن يرجع صاحبه زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة . وقيل غير هذا ، وسيأتي .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ قرئ « فَلَا رَفَثٌ وَلَا فَسُوقٌ » . بالرفع والتثنية فيهما . وقرئ بالنصب بنيرتين . وأجمعوا على الفتح في « وَلَا جِدَالَ » وهو يقوى قراءة النصب فيما قبله ، ولأن المقصود النفي العام من الرَفَثِ والفسوق والجِدَالِ ، وليكون الكلام على نظام واحد في عموم المنفي كله . وعلى النصب أكثر القراء . والأصححة الثلاثة في موضع رفع ، كل واحد مع لا . وقوله « فِي الْحَجِّ » خبر عن جميعها . ووجه قراءة الرفع أن « لَا » بمعنى « لَيْسَ » فارتفع الاسم بعدها ، لأنه أسمها ، والخبر محذوف تقديره : « فَلَيْسَ بِرَفَثٍ وَلَا فَسُوقٍ فِي الْحَجِّ » ، دل عليه في الحج الثاني الظاهر وهو خبر « لَا جِدَالَ » . وقال أبو عمرو بن العلاء : الرفع بمعنى فلا يكون رَفَثٌ وَلَا فَيُوقُ ، أى شيء يخرج من الحج ، ثم ابتدأ النفي فقال : وَلَا جِدَالَ .

(١) في الأصول : « كَرَّمَ وَكَلَّمَ » . والتصحيح عن صحيح مسلم .

(٢) هذا على أحد قولين للتثنية والثاني أن لا ساملة في الاسم النصب وما بعده خبر .

قلت : فيحتمل أن تكون كان تامة ، مثل قوله : (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ) فلا تحتاج إلى خبر . ويحتمل أن تكون ناقصة والخبر محذوف ، كما تقدم آتفا . ويجوز أن يرفع رثت وفسوق بالابتداء ، ولا للنفي ، والخبر محذوف أيضا . وقرأ أبو جعفر بن القمقح بالرفع في الثلاثة . ورويت عن عاصم في بعض الطرق ، وعليه يكون « في الج » خبر الثلاثة ، كما قلنا في قراءة النصب ؛ وإنما لم يحسن أن يكون « في الج » خبر عن الجميع مع اختلاف القراءة ، لأن خبر ليس منصوب وخبر ولا جدال مرفوع ؛ لأن « ولا جدال » مقطوع من الأول وهو في موضع رفع بالابتداء ، ولا يعمل عاملان في اسم واحد . ويجوز « فلا رثت ولا فسوق » تعطفه على الموضع . وأشد النحويون :

لا نَسَبَ اليَوْمَ ولا حُلَّةً * اتَّسَعَ الخُرْقُ على الزَّاقِعِ ^(١)

ويجوز في الكلام « فلا رثت ولا فسوقا ولا جدالا في الج » عطفا على اللفظ على ما كان يجب في لا . قال الفراء : ومثله :

فَلا أَبَ وَأَبْنَاءُ مِثْلُ حَرْوَانَ وابْنِهِ * إذا هو بالمَجْدِ آرَدَتِي وَأَزْرًا

وقال أبو رجاء العطاردي : فلا رثت ولا فسوق بالنصب فيهما ، ولا جدال بالرفع والتنوين . وأشد الأخفش :

هَذَا وَجَدْتُمُ الصَّغَارَ بَيْنَهُ * لا أُمِّي إِنْ كَانَ ذَاكَ وَلَا أَبَ

وقيل : إن معنى « فلا رثت ولا فسوق » النهي ، أي لا ترفثوا ولا تفسقوا . ومعنى « ولا جدال » النفي ، فلما اختلفا في المعنى خولف بينهما في اللفظ . قال القشيري : وفيه نظر ، إذ قيل : ولا جدال نهى أيضا ، أي لا تجادلوا ، فلم يفرق بينهما .

الثاسمة - قوله تعالى : (وَلَا جِدَالَ) الجدال وزنه فعال من المجادلة ، وهي مشتقة من الجَدَل وهو القتل ، ومنه زمام مجدول . وقيل : هي مشتقة من الجدالة التي هي الأرض .

(١) أبيت لأبي بن عباس السلي . والشاهد فيه : نصب المصروف وتثنيه على إلقاء « لا » الثانية ، وزادتها فأكسبه النفي ، ولورثت « آتلة » على الموضع بملازمة .

فَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُحْصِينَ يَاقُومُ صَاحِبَهُ حَتَّى يَنْفُلَهُ ، فَيَكُونُ كَمَنْ ضَرَبَ بِهِ الْجِدَالَ .
قال الشاعر :

قَدْ أَزْكَبُ الْآلَةَ بَعْدَ الْآلَةِ * وَأَتْرُكُ الْعَاجِزَ بِالْجَسَدِ الْإِنْسَانِيَّةِ

* مُتَعَفِّراً لَيْسَتْ لَهُ عِجَالُهُ *

الماشرة — واختلفت العلماء في المعنى المراد به هنا على أقوال مستتة ؛ فقال ابن مسعود وابن عباس وعطاء : الجدال هنا أن تمارى مسلماً حتى تنفضيه فينتهي إلى السباب ؛ فأما مذاكرة العلم فلا ينهى عنها . وقال قتادة : الجدال السباب . وقال ابن زيد ومالك بن أنس : الجدال هنا أن يختلف الناس ، أيهم صادف موقف إبراهيم عليه السلام ، كما كانوا يفعلون في الجاهلية حين كانت قريش تقف في غير موقف سائر العرب ، ثم يتجادلون بعد ذلك . فالعنى على هذا التأويل : لا جدال في مواضعه . وقالت طائفة : الجدال هنا أن تقول طائفة : الحج اليوم ، وتقول طائفة : الحج غداً . وقال مجاهد وطائفة معه : الجدال المارة في الشهور حسب ما كانت عليه العرب من النسيء ، كانوا ربما جعلوا الحج في غير ذى الحجة ، ويقف بعضهم بجمع وبعضهم بمعرفة ، ويتأرون في المصواب من ذلك .

قلت : فعل هذين التأويلين لا جدال في وقته ولا في موضعه ، هذان القولان أصح ما قيل في تأويل قوله « ولا جدال » ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » الحديث . وسيأتى في « برائة » . يعنى رجوع أمر الحج كما كان ، أى عاد إلى يومه ووقته . وقال صلى الله عليه وسلم لما حج : « خذوا عني متاسككم » . فبين بهذا مواقف الحج ومواضعه . وقال محمد بن كعب القرظي : الجدال أن تقول طائفة : حجنا آثر من حجكم . ويقول الآخر مثل ذلك . وقيل : الجدال كان في الفخر بالأباء . والله أعلم .

الحادية عشرة — قوله تعالى : (وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَسْمُهُ اللَّهُ) شرط وجوابه . والمعنى : إن الله يجازيكم على أعمالكم ، لأن المجازاة إنما تقع من العالم بالشيء . وقيل :

(١) الآية سبأ طائفة ، وثلاثة .

(٢) في المراجعة .

هو تحريض وحث على حسن الكلام مكان الفحش ، وعلى البر والتقوى في الأخلاق مكان
الفسوق والجبدال . وقيل : جعل فعل الخير عبارة عن ضبط نفهم حتى لا يوجد
مانعوا عنه .

الثانية عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَزُودُوا ﴾ أمر باتخاذ الزاد . قال ابن عمر وعكرمة ومجاهد
وقسادة وابن زيد : نزلت الآية في طائفة من العرب كانت تخرج إلى الحج بلا زاد ، ويقول
بعضهم : كيف نخرج بيت الله ولا يطعمنا ؟ فكانوا يقولون عالة على الناس ، فنها عن ذلك ،
وأمروا بالزاد . وقال عبد الله بن الزبير : كان الناس يتكلم بعضهم على بعض بالزاد ؛ فأمروا
بالزاد . وكان للنبي صلى الله عليه وسلم في مسيره راحلة عليها زاد ، وقدم عليه ثلاثة رجل من
مُزَيْنَةَ ، فلما أرادوا أن ينصرفوا قال : ” يا عمر زود القوم “ . وقال بعض الناس : تزودوا ،
الرفيق الصالح . قال ابن عطية : وهذا تخصيص ضعيف ، والأولى في معنى الآية : وتزودوا
لمعادكم من الأعمال الصالحة .

قلت : القول الأول أصح ، فإن المراد الزاد المتخذ في سفر الحج المأكول حقيقة كما ذكرناه ؛
كما روى البخاري عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يخرجون ولا يتزودون ويقولون :
نحن المتوكلون . فاذا قدموا مكة سألوا الناس ، فازل الله تعالى : ﴿ وَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ
التَّقْوَى ﴾ وهذا نص فيما ذكرناه وعليه أكثر المفسرين . قال الشعبي : الزاد الثمر والسويق .
ابن جبير : الكعك والسويق . قال ابن العربي : « أمر الله تعالى بالتزود لمن كان له مال ،
ومن لم يكن له مال فإن كان ذا حرفة تنفق في الطريق أو سائلا فلا خطاب عليه ، وإنما
خطب الله أهل الأموال الذين كانوا يتركون أموالهم ويخرجون بغير زاد ويقولون : نحن
المتوكلون . والتوكل له شروط ، من قام بها خرج بغير زاد ولا يدخل في الخطاب ، فانه خرج
على الأغلب من الخلق وهم المقصرون عن درجة التوكل النافلون عن حقايقه . والله عز وجل
أعلم » . قال أبو الفرج الجوزي : وقد لبس إبليس على قوم يدعون التوكل ، فخرجوا بلا زاد
وظنوا أن هذا هو التوكل وهم على غاية الخطأ . قال وجل لأحمد بن حنبل : أريد أن أخرج

إلى مكة على التوكل بغير زاد . فقال له أحمد : اخرج في غير القافلة . فقال : لا ، إلا معهم .
قال : فعلى جُرب الناس توكلت .

الثالثة عشرة - قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ أخبر تعالى أن خير الزاد اتباعه
المنهيات ، فأمرهم أن يضموا إلى التزوّد التقوى ، وجاء قوله « فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » محولا
على المعنى ؛ لأن معنى تزوّدوا : اتّوا الله في اتباع ما أمركم به من الخروج بالزاد . وقيل :
يحتمل أن يكون المعنى : فإن خير الزاد ما اتقى به المسافر من الهلكة أو الحاجة إلى السؤال
والتكفف . وقيل : فيه تنبيه على أن هذه الدار ليست بدار قرار . قال أهل الإشتراطات :
ذكرهم الله تعالى سفر الآخرة وحثهم على تزوّد التقوى ، فإن التقوى زاد الآخرة .
قال الأعشى :

إذ أنت لم ترحل بزاد من التقى * ولاقيت بعد الموت من قصرت زودا
ندمت على ألا تكون كشله * وأنت لم ترصد كما كان أرسدا

وقال آخر :

الموت بجر طامح موجه * تذهب فيه حيلة الساج
يا نفس إني قاتل فاسمى * مقالة من مشفق ناصح
لا يصحب الإنسان في قبره * غير التقى والمعمل الصالح

الرابعة عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَ أُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ خصّ أولى الألباب
بالخطاب - وإن كان الأمر يعم الكل - لأنهم الذين قامت عليهم حجة الله وهم قائلو
أوامره والناهضون بها . والألباب : جمع لب . ولَبَّ كل شيء : خالسه ؛ ولعلك
قبل للمقل : لب . قال النحاس : سمعت أبا إسحاق يقول قال لك أحمد بن يحيى ثعلبة :
أعترف في كلام العرب شيئا من المضاعف جاء على فعل ؟ قلت : نعم ، حكى صبيبه عن
يونس لبّبت لب . فاستحسنه وقال : ما أعرف له نظيرا .

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ فيه مستثان :

الأولى - قوله تعالى : (جُنَاحٌ) أى إثم ، وهو اسم ليس . أن تتفوا ، فى موضع نصب خبر ليس ، أى فى أن تتفوا . وعلى قول الخليل والكسائى أنها فى موضع خفض . ولما أمر تعالى بنزله ^{البحر} عن الرث والفسوق والجلال رخص فى التجارة . المعنى : لا جناح عليكم فى أى تتفوا بفضل الله . وإثناء الفضل وردّ فى القرآن بمعنى التجارة ، قال الله تعالى : (فَاتَّبِعُوا فِي الْأَمْشِ وَأَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ) . والدليل على صحة هذا ما رواه البخارى عن أبيه ^{هنا} قال : كانت عكاظ ومجّة وذو الحجاز أسواقا فى الجاهلية قائما أن يهروا فى المواسم ^(١) فزلت : ليس عليكم جناح أن تتفوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج .

الثانية - إذا ثبت هذا، قى الآية دليل على جواز التجارة في الحج لحاج مع أداء العبادة، وأن القصد الى ذلك لا يكون شركاً ولا يفرض به المكلف عن رسم الإخلاص المفترض عليه، خلافاً للتفسير^(١٧) أن الحج دون تجارة أفضل، لعمره عن شوائب الدنيا وتعلق القلب بغيره .
وروى الإمام طعن في سننه عن أبي أمامة التيمي قال قلت لأبي عمر : إني رجل أكرى في هذا الوباء، وإن غلبوا يقولون : إنه لا حج لك . فقال أبي عمر : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مثل هذا الذي سألتك، فسكت حتى نزلت هذه الآية : «ليس عليكم جناح أن تنسوا الحج وبجوهكم» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن لك حجا» .
قوله تعالى : ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ الى قوله : ﴿الْقَائِلِينَ﴾ فيه ست عشرة مسألة .

(١٥) الذي في القلبي : « كانت غزو الحجاز وعكاظ متبركتين في الجاهلية ؛ فلما جاء الاسلام كاتهم كرهوا ذلك حتى تركته... الخ » وقوله : تبقى مواسم الحج - زادها أبي قرقاة - وعكاظ : نخل في وادي يه ومن الطائف **١٦** ويعبرون مكة ثلاث ليال . وهذا الحجاز خلف عرة . وبعثة يترلقونان : قرب جبل يقال له : الاسفره **١٧** وهي باعقلى مكة على قدر يرد منها . وهذه أسواق العرب ، وكان أهل الجاهلية يصحبون بعكاظ يوم هلال ذي القعدة ، فيجلبون من كل بعثة يبعثونها منى من ذي القعدة ؛ فاذا رأوا هلال ذي الحجة ذهبوا من بعثة الى ذي الحجاز ، **١٨** فيروا بعثة بعثة ، فيجلبون الى عرة . ولم ترك هذه الأسواق فاعية في الاسلام الى أن كان أول ما ترك منها سوق عكاظ في زمن النبي صلى الله عليه وسلم سبع وعشرين ومائة لما تخرج الطوري بمكة مع أبي حزة المختار بن هوف ، خاف الناس ان يتبرأ من مكة الى الكن ، ثم ترك ذو الحجاز وبعثة بمكة ذلك ، واستأوا بالأسواق بمكة وبني دهرمة . (من شرح التفسير) . (١٦) لله يرد بالقرارة الصوقية .

الأولى - قوله تعالى : (فَإِذَا أَقْتَضْتُمْ) أى اندفتم . ويقال : فاض الإله إذا امتلأ حتى ينصب عن نواحيه . ورجل قياض أى مندفق بالعطاء . قال زهير :
 وأيسس قياض يدها غمامة * على معنفيه مأثب فواضله^(١)
 وحديث مستفيض أى شائع .

الثانية - قوله تعالى : (مِنْ عَرَافَاتٍ) قراءة الجماعة « عرافات » بالتونين . وكذلك لو سميت امرأة بمسلمات ، لأن التونين هنا ليس فرقاً بين ما ينصرف وما لا ينصرف فتحذفه ، وإنما هو بمثالة النون في مسلمين . قال النحاس : هذا الجيد . وحكى سيويه عن العرب حذف التونين من عرافات ؛ يقول : هذه عرافات يا هذا ، ورأيت عرافات يا هذا ، بكسر التاء وبغير تونين . قال : لما جعلوها معرفة حذفوا التونين . وحكى الأخفش والكوفيون فتح التاء ، تشبيهاً بتاء فاطمة وطلحة . وأنشدوا :

تتورتها من أذرعَات وأهلها * يثيرب أدنى دارها نظرٌ مَال

والقول الأول أحسن ، وأن التونين فيه على حده في مسلمات ، الكسرة مقابلة الياء في مسلمين ، والتونين مقابل للنون . وعرافات اسم علم ، سمي بجمع كأذرعَات . وقيل : سمي بما حوله ، كأرض سبايب^(٢) . وقيل : سميت تلك البقعة عرافات ، لأن الناس يتعارقون بها . وقيل : لأن آدم لما هبط وقع بالهند ، وحواء بُيُوتَة ، فاجتمعا بعد طول الطلب بعرفات يوم عرفة وتعارفا ؛ نسى اليوم عرفة ، والموضع عرافات . قاله الضحاك . وقيل غير هذا لما تقدم ذكره عند قوله تعالى : (وَأَرَادْنَا مَتَاسِكًا) . قال ابن عطية : والظاهر أن اسمه مرجل كسائر أسماء البقاع . وعرفة هي تَمَان الأراك ؛ وفيها يقول الشاعر :

تَرَوْدْتُ مِنْ تَمَانٍ عُوْدَ أَرَاكِ * لَهْنِدٍ وَلَكِنْ مَنْ يَلْغُهُ هَنْدًا

(١) الفياض : الكثير العطاء . المحضون : الطالبون ما حده . يقال : عفاه وأعفاه : إذا أتاه يطلب معروفه .
 مأثب فواضله : أى عطاياه دائمة لا تنقطع . (٢) جاء في اللسان : « وحكى الحياثي يده مبيته »
 ويده سبايب ؛ كأنهم جعلوا كل جزء منه سبباً ؛ ثم جمعه على هذا . « والبسبب : الفقر والمفاقة » . وقيل : الأرض المشوية البعيدة . (٣) كل هذا يحتاج إلى التثبت

وقيل : ياخوفة من العرف وهو الطيب ؛ قال الله تعالى : (عَرَفْتُمْ) أى طيبتا ؛
فهي طيبة بخلاف منى التي فيها الفروث والدماء ؛ فلذلك سميت عرفات . ويوم الوقوف :
يوم عرفة . وقال بعضهم : أصل هذين الاسمين من الصبر ؛ يقال : رجل عارف ، إذا كان
مجاهدا خاشعا . ويقال فى المثل : النفس عرووف وما حملتها تحمل . قال :

فَصَبِرْتُ عَارِفَةً لَدَاكَ حُرَّةٌ ^(١)

وقال ذو الرمة :

عُرُوفٌ لِمَا خَطَلَتْ عَلَيْهِ الْمَقَادِرُ ^(٢)

أى مضبور على قضاء الله ؛ فسمى بهذا الاسم لخضوع الحاج وتذللهم ، وصبرهم على الدماء
وأشكال البلاء واحتمال الشدائد ؛ لإقامة هذه العبادة .

الثالثة - أجمع أهل العلم على أن من وقف بعرفة يوم عرفة قبل الزوال ثم أفاض
منها قبل الزوال أنه لا يستدبر وقوفه ذلك قبل الزوال . وأجمعوا على تمام حج من وقف بعرفة
بعد الزوال وأفاض نهارا قبل الليل ؛ إلا مالك بن أنس فإنه قال : لا بد أن يأخذ من الليل
شيئا . وأما من وقف بعرفة بالليل فإنه لا خلاف بين الأمة فى تمام حجه . والجملة للمجهور
مطلق قوله تعالى : (فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ) ولم يخص ليلا من نهار . وحديث عروة بن
مُسَرَّس قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو فى الموقف من جمع ، فقلت : يا رسول الله ،
يجتلك من جبل منى ، أكلت مطيتى ، وأتممت نفسى ، والله إن تركت من جبل إلا وقفت ^(٣)
عليه ، فهل لى من حج يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من صلى معنا

(١) الفروث : جمع فرث ، وهو العرجين (الزيل) ما دام فى الكرش .

(٢) البيت لعقبة ، وقامه : • ترسو إذا قس الجبان تعلق •

(٣) سستوا البيت : • إذا خاف شيئا وفرقه طيبة •

(٤) رواية الدارقطني بإسناد صحيح . وفى بعض كتب الحديث ونهاية ابن الأثير بالحساء المهمة المقترحة وسكون الموحدة .
قال القرطبي فى سننه : « قوله : من حبل . إذا كان من رمل يقال له حبل ، وإذا كان من جارة يقال له حبل » .
وقال ابن الأثير فى تفسير هذه الحكاية : « الحبل : المستطيل من الرمل » وقيل : الضخم منه ، وجملة حبال . وقيل :
الحبال التى فى الرمل كلبان فى غير الرمل . وقال الخطابي : الحبال ما دون الجبال فى الارض .

(١) صلاة الغداة يجمع وقد أتى عرفات قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد قضى تقفه وتم حجه . أخرجه غير واحد من الأئمة ، منهم أبو داود والنسائي والدارقطني واللفظ له . وقال الترمذي حديث حسن صحيح . وقال أبو عمرو : حديث عروة بن مضر الطائي حديث ثابت صحيح ، رواه جماعة من أصحاب الشعبي الثقات عن الشعبي عن عروة بن مضر ، منهم اسماعيل بن أبي خالد وداود بن أبي هند وزكريا بن أبي زائدة وعبد الله بن أبي السَّفر ومطرف ، كلهم عن الشعبي عن عروة بن مضر بن أوس بن حارثة بن لام . وحجة مالك من السنة الثابتة ، حديث جابر الطويل ، نَحَرِه مسلم ، وفيه : فلم يزل واقفاً حتى غَرَبَت الشمس وذهبت الصفرة قايلاً حتى غاب القُرس . وأُنعِمَ له على الوجوب ، لا سيما في الحج ، وقد قال : " خذوا عني مناسككم " .

الرابعة — واختلفت الجمهور فيمن أفاض قبل غروب الشمس ولم يرجع ماذا عليه مع حجة الحج ، فقال عطاء وسفيان الثوري والشافعي وأحمد وأبو نوري وأصحاب الرأي وغيرهم : عليه دم . وقال الحسن البصري : عليه هَدْى . وقال ابن جريح : عليه بدنة . وقال مالك : عليه حج قابل ، والهدي يخرجه في حج قابل ، وهو كمن فاتته الحج . فان عاد إلى عرفة حتى يدفع بعد مغيب الشمس ، فقال الشافعي : لا شيء عليه . وهو قول أحمد وإسحاق وداود ، وبه قال الطبري . وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري : لا يسقط عنه الدم وإن رجع بعد غروب الشمس . وبذلك قال أبو نوري .

الخامسة — ولا خلاف بين العلماء في أن الوقوف بعرفة رَكَاة لمن قدر عليه أفضل ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كذلك وقف إلى أن دَفَعَ منها بعد غروب الشمس ، وأردف أسامة بن زيد . وهذا محفوظ في حديث جابر الطويل ، وحديث علي ، وفي حديث ابن عباس

(١) قال صاحب التلخيص المضي على سنن الدارقطني : « وقوله : وقضى تقفه . قيل : المراد به أنه أتى ما عليه من المناسك ، والمشهور أن الفتح ما بينته المحرم عند حله من تعمير شر أو حلقه أو حلق المائة وثبت الإبط وغيره من خصال النفرة ، ويدخل في ضمن ذلك نحر البدن ، وقضاء جميع المناسك ، لأنه لا يقضى الفتح إلا بعد ذلك ، وأصل الفتح الروح والقدرة . قاله الشوكاني . »

أيضا . قال جابر : ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقله القصواء إلى الصخرات ، وجعل حبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة ؛ فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلا حتى غاب القرص ، وأردف أسامة بن زيد خلفه ، الحديث . فان لم يقدر على الركوب وقف قائما على رجله ، داعيا ما دام يقدر ، ولا حرج عليه في الجلوس اذا لم يقدر على الوقوف ، وفي الوقوف رابعا مباهاة وتظيم للحج « ومن يظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » . قال ابن وهب في موطأه : قال لي مالك : الوقوف برفة على النواب والإبل أحب إلى من أن أقف قائما ، قال : ومن وقف قائما فلا بأس ان يستريح .

السادسة - ثبت في صحيح مسلم وغيره عن أسامة بن زيد أنه عليه السلام كان إذا أفاض من عرفة يسير العتيق^(١) فإذا وجد بقوة نص . قال هشام بن عروة : والنص فوق العتيق . وهكذا ينبغي على أئمة الحاج قن دونهم ؛ لأن في استعجال السير إلى المزدلفة استعجال الصلاة بها ، ومعلوم أن المغرب لا تصل تلك الليلة إلا مع العشاء بالمزدلفة ، وتلك سبتها ، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

ظاهر عموم القرآن والسنة الثابتة يدل على أن عرفة كلها موقف ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « ووقفتُ هاهنا وعرفة كلها موقف » . رواه مسلم وغيره من حديث جابر الطويل . وفي موطأ مالك أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عرفة كلها موقف وارتفعوا عن بطن عُرنة والمزدلفة كلها موقف وارتفعوا عن بطن مُحَسَّر » . قال ابن عبد البر : هذا الحديث يتصل من حديث جابر بن عبد الله ، ومن حديث ابن عباس ، ومن

(١) الصخرات : هي صخرات مفترشات في أسفل جبل الرحمة ، وهو الجبل الذي يوسط أرض مرفات .

(٢) قال ابن الأثير : « وحبل حبل المشاة بين يديه ، أي طريقهم الذي يسلكونه في الرمل . وقيل : أراد صفهم ويجمعهم في مشهم تشبيها بحبل الرمل » .

(٣) العتيق (عركه) : سير سريع فسيح واسع للإبل والهاجرة . والقبيرة : الموضع المتسع بين شقين .

حديث علي بن أبي طالب، وأكثر الآثار ليس فيها استثناء بطن عرنة من عرفة، وبطن عسرة من الزدلفة؛ وكذلك قلها الحفاظ الثقات الإثبات من أهل الحديث في حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر. قال أبو عمر: واختلف الفقهاء فيمن وقف بعرفة بعرفة؛ فقال مالك فيما ذكر ابن المنذر عنه: يهريق دما وحجه تام. وهذه رواية رواها خالد بن زرار عن مالك. وذكر أبو المصعب أنه كن لم يقف وحجه فائت، وعليه الحج من قابل إذا وقف ببطن عرنة. وروى عن ابن عباس قال: من أفاض من عرنة فلاح له. وهو قول ابن القاسم وسالم، وذكر ابن المنذر هذا القول عن الشافعي، قال وبه أقول: لا يميزه أن يقف بمكان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يقف به. قال ابن عبد البر: الاستثناء ببطن عرنة من عرفة لم يحن مجيئا تزم حجه، لا من جهة النقل ولا من جهة الإجماع. وحجة من ذهب مذهب أبي المصعب أن الوقوف بعرفة فرض يجمع عليه في موضع معين، فلا يجوز آذانه إلا بيقين، ولا يقين مع الاختلاف. وبطن عرنة يقال بفتح الراء وضما، وهو بئر في مسجد عرفة حتى لقد قال بعض العلماء: إن الجدار القريب من مسجد عرفة لو سقط سقط في بطن عرنة. وحكى الباقى عن ابن حبيب أن عرفة في الحل، وعرنة في الحرم. قال أبو عسيرة: وأما بطن عسرة فذكر وكيع: حدثنا سفيان عن أبي الزبير عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم أوضع في بطن عسرة.

السابعة - ولا بأس بالتعريف في المساجد يوم عرفة بغير عرفة، تشبها بأهل عرفة. روى شعبة عن قتادة عن الحسن قال: أول من صنع ذلك ابن عباس بالبصرة. معنى إجماع الناس يوم عرفة في المسجد بالبصرة. وقال موسى بن أبي عائشة: رأيت عمر بن الخطاب يخطب يوم عرفة وقد اجتمع الناس إليه. وقال الأثرم: سألت أحمد بن حنبل عن التبريد في الأمصار، مجتمعون يوم عرفة؛ فقال: أرجو ألا يكون به بأس، قد فعله غير واحد من الحسن وبكر وثابت وعبد بن واسع كانوا يشهدون المسجد يوم عرفة.

(١) الإضاح: سير مثل تلبس. يقال: وضع الجبريغ وضحا، وأوضعه راحه إضاحا. (٢) مرة السر.

الثامنة - في فضل يوم عرفة . يوم عرفة فضله عظيم وثوابه جسيم ، يكفر الله فيه الذنوب العظام ، ويضاعف فيه الصالح من الأعمال . قال صلى الله عليه وسلم : " صوم يوم عرفة يكفر السنة الماضية والباقية " . أخرجه الصحيح . وقال صلى الله عليه وسلم : " أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له " . وروى الدارقطني عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من يوم أكثر أن يتنشق الله فيه عددا من النار من يوم عرفة وإنه ليدنو عز وجل ثم يباهي بهم الملائكة يقول ما أريد هؤلاء " . وفي الموطأ عن عبيد الله بن كزيع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما روى الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغبط منه في يوم عرفة وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة ونجاوزه الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر " . قيل : وما رأى [يوم بدر] يا رسول الله ؟ قال : " أنا إنه قد رأى جبريل ^(١) يزع الملائكة ^(٢) " . قال أبو عمر : روى هذا الحديث أبو النضر اسماعيل بن إبراهيم الصجلي عن مالك عن إبراهيم بن أبي عبلة عن طلحة بن عبيد الله بن كزيع عن أبيه ، ولم يقل في هذا الحديث عن أبيه غيره وليس بشيء ، والصواب ما في الموطأ . وذكر الترمذي الحكيم في نوادر الأصول - حدثنا حاتم بن نعيم التميمي أبو روح قال حدثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسي قال حدثنا عبد القاهر بن السري السلمي قال حدثني ابن لكانة بن عباس بن مرداس عن أبيه عن جده عباس بن مرداس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لأمنته عشية عرفة بالمغفرة والرحمة ، وأكثر الدعاء ، فأجابه : إني قد فعلت الا ظلم بعضهم بعضا فأما ذنوبهم فيما بيني وبينهم فقد غفرتها . قال : " يا رب إنك قادر أن تنيب هذا المظلوم خيرا من مظلمته وتنفر لهذا الظالم " فلم يجبه تلك العشية ؛ فلما كان الغداة غداة المزدلفة اجتهد في الدعاء فأجابه : إني قد غفرت لهم ؛ فبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقيل له : تبسمت يا رسول الله في ساعة لم تكن تبسم فيها ؟ فقال : " تبسمت

(١) زيادة من الموطأ .

(٢) قوله : يزع الملائكة . يرتهم ويسرحهم ويعصهم هرب ؛ فكانه يكفهم عن التفرق والاختلاف .

من عذرة الله إيليس إنه لما علم أن الله قد استجاب لي في أمي أحمى يدعو بالويل والتبور ويثني التراب على رأسه ويضرّ . وذكر أبو عبد الفتى الحسين بن عليّ حلتنا عبد الزقاق حلتنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا كان يوم عرفة غفر الله الحاج الخالص وإذا كان ليلة المزدلفة غفر الله التجار وإذا كان يوم نفي غفر الله للجائين وإذا كان يوم حجة العتبة غفر الله للسؤال ولا يشهد ذلك الموقف خلق من قال لا إله الا الله إلا غفر له" . قال أبو عمر : هذا حديث غريب من حديث مالك ، وليس محفوظاً عنه إلا من هذا الوجه ، وأبو عبد الفتى لا أعرفه ، وأهل العلم ما زالوا يسامعون أنفسهم في روايات الرغائب والفضائل عن كل أحد ، إنما كانوا يتشدّدون في أحاديث الأحكام .

التاسعة — استحباب أهل العلم صوم يوم عرفة إلا برفة . روى الأئمة واللفظ للترمذي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم أفطر برفة ، وأرسلت إليه أم الفضل بلبين فشرّب . قال : حديث حسن صحيح ، وقد روى عن ابن عمر قال : حججت مع النبي صلى الله عليه وسلم فلم يصمه — يعني يوم عرفة — ومع أبي بكر فلم يصمه ، ومع عمر فلم يصمه . والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم ، يستحبون الإنطار برفة ليتقوى به الرجل على البقاء ، وقد صام بعض أهل العلم يوم عرفة برفة . وأسند عن ابن عمر مثل الحديث الأول ، وزاد في آخره : ومع عثمان فلم يصمه ، وأنا لا أصومه ولا أسر به ولا أنهي عنه . حديث حسن . وذكر ابن المنذر . وقال عطاء في صوم يوم عرفة : أصوم في الشتاء ولا أصوم في الصيف . وقال يحيى الأنصاري : يجب الفطر يوم عرفة . وكانت عثمان بن أبي العاصي وابن الزبير وعائشة يصومون يوم عرفة . قال ابن المنذر : الفطر يوم عرفة برفقات أحب إلى اتباعاً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصوم بخير عرفة أحب إلى ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن صوم يوم عرفة فقال : "يكثر السنة الماضية والباقية" .

(١) في نسخة من الأصل : « الحسن » . والله يروى عن عبد الزقاق بن هشام الحميري — أحد رجال

هذا السنن — هو الحسن بن عليّ الخلال أبو حمزة ، قليل أبو محمد .

وقد روينا عن عطاه أنه قال : من أفطر يوم عرفة لينقو على الدعاء فإن له مثل أجر الصائم .

العاشرة - في قوله تعالى : ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ أى اذكروه بالدعاء والتلبية عند المشعر الحرام ، ويسمى جمعا لأنه يجمع ثم المغرب والعشاء ، قاله قتادة . وقيل : لاجتماع آدم فيه مع حواء واذلف إليها ، أى دانمها ، وبه سميت المزدلفة ؛ ويحوز أن يقال : سميت بفعل أهلها ، لأنهم يزدلفون إلى الله ، أى يتقربون بالوقوف فيها . وسمى مشعرا من الشعار وهو العلامة ؛ لأنه معلم للحج والصلاة والمبيت به ، والدعاء عنده من شعائر الحج ، ووصف بالحرام لحرمته .

الحادية عشرة - ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى المغرب والعشاء بالمزدلفة جميعا . وأجمع أهل العلم - لا اختلاف بينهم - أن السنة أن يجمع الحاج بين المغرب والعشاء . واختلفوا فيما صلحا قبل أن يأتى جمعا ؛ فقال مالك : من وقف مع الإمام ودفع بدنه فلا يصلى حتى يأتى المزدلفة فيجمع بينهما . واستدل على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم لأسماء بن زيد : " الصلاة أمامك " . قال ابن حبيب : من صلى قبل أن يأتى المزدلفة دون مائة يبعد متى ما علم ؛ بمنزلة من قد صلى قبل الزوال ؛ لقوله عليه السلام : " الصلاة أمامك " . وبه قال أبو حنيفة . وقال أشهب : لا إعادة عليه ، إلا أن يصلحها قبل مغيب الشفق يبعد العشاء وحدها . وبه قال الشافعى ، وهو الذى نصره القاضى أبو الحسن ، واحتج له بأن هاتين صلاتان من الجمع بينهما ، فلم يكن ذلك شرطا في صحتهما ، وإنما كان على معنى الاستحباب ، كالجمع بين الظهر والعصر بصفة . واختار ابن المنذر هذا القول ، وحكاه عن عطاه ابن أبي رباح وعروة بن الزبير والقاسم بن محمد وسعيد بن جبيرة وأحمد وإسحاق وأبى ثور وميمون . وحكى عن الشافعى أنه قال : لا يصلى حتى يأتى المزدلفة ، فإن أدركه نصف الليل قبل أن يأتى المزدلفة صلاهما .

الثانية عشرة - ومن أسرع فأتى المزدلفة قبل مغيب الشفق فقد قال ابن حبيب : لا صلاة لمن عمل إلى المزدلفة قبل مغيب الشفق ، لا لإمام ولا غيره حتى يغيب الشفق ؛ لقوله عليه السلام : " الصلاة أمامك " . ثم صلاها بالمزدلفة بعد مغيب الشفق . ومن جهة المعنى أن وقت هذه الصلاة بعد مغيب الشفق ؛ فلا يجوز أن يؤتى بها قبله ، ولو كان لها وقت قبل مغيب الشفق لما انحوت عنه .

الثالثة عشرة - وأما من أتى عرفة بعد دفع الإمام ، أو كان له عذر عن وقف مع الإمام فقد قال ابن المواز : من وقف بعد الإمام فليصل كل صلاة لوقتها . وقال مالك فيمن كان له عذر يمنه أن يكون مع الإمام : إنه يصلي إذا غاب الشفق الصلاتين يجمع بينهما . وقال ابن القاسم فيمن وقف بعد الإمام : إن رجا أن يأتي المزدلفة ثلث الليالي فليؤخر الصلاة حتى يأتي المزدلفة ، وإلا صلى كل صلاة لوقتها . بفعل ابن المواز تأخير الصلاة إلى المزدلفة لمن وقف مع الإمام دون غيره ، وراعى مالك الوقت دون المكان ، واعتبر ابن القاسم الوقت المختار للصلاة والمكان ، فإذا خاف فوات الوقت المختار بطل اعتبار المكان ، وكان مراعاة وقتها المختار أولى .

الرابعة عشرة - اختلف العلماء في هيئة الصلاة بالمزدلفة على وجهين : أحدهما - الأذان والإقامة . والآخر - هل يكون جمعهما متصلا لا يفصل بينهما بعمل ، أو يجوز العمل بينهما وحدهما والرجال ونحو ذلك ؛ فاما الأذان والإقامة فتثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى المغرب والعشاء بالمزدلفة بأذان واحد وإقامتين . أخرجه الصحيح من حديث جابر الطويل ، وبه قال أحمد بن حنبل وأبو ثور وابن المنذر . وقال مالك : يصليهما بأذنين وإقامتين ، وكذلك الظهر والعصر برفة ، إلا أن ذلك في أول وقت الظهر بإجماع . قال أبو عمر : لا أعلم فيه قاله مالك حديثا مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بوجه من الوجوه ، ولكنه روى عن عمر بن الخطاب ، وزاد ابن المنذر ابن مسعود . ومن الجهة لمالك في هذا الباب من جهة النظر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سن في الصلاتين

بمزدلفة وعرفة أن الوقت لهما جميعا وقت واحد، وإذا كان وقتها واحدا، وكانت كل صلاة
تصل في وقتها لم تكن واحدة منهما أولى بالأذان والإقامة من الأخرى ؛ لأن ليس واحدة
منهما تقضى، وإنما هي صلاة تصل في وقتها، وكل صلاة صليت في وقتها مستها أن يؤذن لها
وتقام في الجماعة، وهذا بين . والله أعلم . وقال آخرون : أما الأولى منهما فتصل بأذان
 وإقامة، وأما الثانية فتصل بلا أذان ولا إقامة، وإنما أمر عمر بالتأذين الثاني ؛ لأن الناس
قد تفرقوا لشأنهم فأذن لجمعهم . قالوا : . وكذلك تقول إذا تفرق الناس عن الإمام لشأنه
أو غيره، أمر المؤذنين فأذنوا لجمعهم، وإذا أذن أقام . قالوا : فهذا معنى ما روى عن
عمر، وذكروا حديث عبد الرحمن بن يزيد قال : كان ابن مسعود يجعل المشاء بالمزدلفة
بين الصلاتين وفي طريق أخرى، وصل كل صلاة بأذان وإقامة . ذكره عبد الرزاق . وقال
آخرون : تصل الصلاتان جميعا بالمزدلفة بإقامة ولا أذان في شيء منهما . روى عن ابن عمر وبه
قال الثوري . وذكر عبد الرزاق وعبد الملك بن الصباح عن الثوري عن سلمة بن كهيل عن
سعيد بن جبير عن ابن عمر قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المغرب والعشاء بجمع،
صلى المغرب ثلاثا والعشاء ركعتين بإقامة واحدة . وقال آخرون : تصل الصلاتان جميعا بين
المغرب والعشاء بجمع بأذان واحد وإقامة واحدة . وذهبوا في ذلك إلى ما رواه هشيم عن يونس
ابن عبيد عن سعيد بن جبير عن ابن عمر أنه جمع بين المغرب والعشاء بجمع بأذان واحد وإقامة
واحدة، لم يعمل بينهما شيئا . وروى مثل هذا مرفوعا من حديث خزيمة بن ثابت ، وليس
بالقوى وحكى الجوزجاني عن محمد بن الحسن عن أبي يوسف عن أبي خنيفة أنها تصليان
بأذان واحد وإقامتين، يؤذن للمغرب ويقام للعشاء فقط . وإلى هذا ذهب الطحاوي لحديث
جابر، وهو القول الأول وعليه المقول . وقال آخرون : تصل بإقامتين دون أذان لواحدة
منهما . ومن قال ذلك الشافعي وأصحابه وإسحاق وأحمد بن حنبل في أحد قوليه، وهو قول

(١) الجوزجاني (يعني دواود بن زكريا) سمعته ثم جيم أخرى : هذه التوبة إلى مدينة غرسان مما يلي بلخ ؟ وهو
أبرسلمان موسى بن مليانة، صاحب الإمام محمد بن الحسن بن فرقد، أخذ الفقه عنه وروى كتبه .

سالم بن عبد الله والقاسم بن محمد . واحتجوا بما ذكره عبد الرزاق عن معمر عن ابن شهاب عن سالم عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما جاء بالمزدلفة جمع بين المغرب والعشاء، صلى المغرب ثلاثا والعشاء ركعتين بإقامة لكل واحدة منهما ولم يصل بينهما شيئا فقال أبو هريرة: والآثار عن ابن عمر في هذا القول من أثبت ما روى عنه في هذا الباب، ولكنهم محتلة للتأويل، وحديث جابر لم يختلف فيه فهو أولى؛ ولا مدخل في هذه المسألة للنظر، وإنما فيها الاتباع .

الخامسة عشرة — وأما الفصل بين الصلاتين بعمل غير الصلاة فثبت من أسامة بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما جاء بالمزدلفة نزل فتوضأ فأسخ الوضوء؛ ثم أقيمت الصلاة فصل المغرب، ثم أتاه كل إنسان بعيره في منزله، ثم أقيمت الصلاة فصلها، ولم يصل بينهما شيئا . في رواية : ولم يحلوا حتى أقام العشاء الآخرة فصلى ثم حلوا . وقد ذكرنا أنفا عن ابن مسعود أنه كان يعمل العشاء بين الصلاتين، ففي هذا جواز الفصل بين الصلاتين يتجبع . وقد سئل مالك فيمن أتى بالمزدلفة : أيبدأ بالصلاة أو يؤخر حتى يحط عن راحلته ؟ فقال : أما الرجل الخفيف فلا بأس أن يبدأ به قبل الصلاة، وأما المحامل والزوامل فلا أدرى، وليبدأ بالصلاتين ثم يحط عن راحلته . وقال أشهب في كتبه : له حط رحله قبل الصلاة، وحطه له بعد أن يصل المغرب أحب إلى ما لم يضطر إلى ذلك؛ لما بدايته من الثقل، أو لغير ذلك من العذر . وأما التفرق بين الصلاتين فقال ابن المنذر : ولا أعلمهم يختلفون أن من السنة ألا يتطرح بينهما الجامع بين الصلاتين، وفي حديث أسامة : ولم يصل بينهما شيئا .

السادسة عشرة — وأما المبيت بالمزدلفة فليس ركنا من الحج عند الجمهور . واحتجوا فيها بحديث عن من لم يبيت بالمزدلفة ليلة النحر ولم يحف يتجبع؛ فقال مالك : من لم يبيت بها فعليه دم، ومن قام بها أكثر ليلة فلا شيء عليه؛ لأن المبيت بها ليلة النحر سنة مؤكدة عند

(١) قوله : ولم يحلوا . هو من الحل بمعنى القك . أو من الحلال بمعنى التزول . أي لم يحلوا ما على الجلال ، أو ما نزول أتمام التزول الذي يريد المسافر البالغ منزله .

مالك وأصحابه ، لا فرض . ونحوه قول عطاء والزهرى وقادة وسفيان الثورى وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأصحاب الراى فيمن لم يبت . وقال الشافعى : إن خرج منها بعد نصف الليل فلا شئ . عليه ، وإن خرج قبل نصف الليل فلم يعد الى المزدلفة اقتدى ، والقضية شاة . وقال عكرمة والشمعى والنخعى والحسن البصرى : الوقوف بالمزدلفة فرض ، ومن فاته جمع ولم يقف فقد فاته الحج ، ويحصل إحرامه عمرة . وروى ذلك عن ابن الزبير وهو قول الأوزاعى . وروى عن الثورى مثل ذلك ، والاشجع عنه أن الوقوف بها سنة مؤكدة . وقال حماد بن أبى سليمان : من فاتته الإفاضة من جمع فقد فاته الحج ، وليتحل بعمره ثم ليحج قابلاً . واحتجوا بظاهر الكتاب والسنة ، فأما الكتاب فقول الله تعالى : (فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْرِقِ الْحَرَامِ) . وأما السنة فقوله صلى الله عليه وسلم : " من أدرك جمعاً فوقف مع الناس حتى يفيض فقد أدرك ومن لم يدرك ذلك فلا حج له " . ذكره ابن المنذر . وروى الثارقلنى عن عمرو بن مضرس : قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يجمع فقلت له : يا رسول الله ، هل لى من حج ؟ فقال : " من صلى معنا هذه الصلاة ثم وقف معنا حتى يفيض وقد أفاض [قبل] ذلك [من عرفات] ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه وقضى ففته " . فقال الشمعى : من لم يقف بجمع جعلها عمرة . وأجاب من احتج بالمجهور بأن قال : أما الآية فلا حجة فيها على الوجوب فى الوقوف ولا المييت ، إذ ليس ذلك مذكوراً فيها ، وإنما فيها مجرد الذكر . وكل قد أجمع أنه لو وقف بمزدلفة ولم يذكر الله أن حجه تام ، فإذا لم يكن الذكر المأمور به من جلب الحج فشهود الموطن أولى بالأى يكون كذلك . قال أبو عمر : وكذلك أجمعوا أن الشمس إذا طلعت يوم النحر فقد فات وقت الوقوف بجمع ، وأن من أدرك الوقوف بها قبل طلوع الشمس فقد أدرك ، ممن يقول إن ذلك فرض ، ومن يقول إن ذلك سنة . وأما حديث عمرو بن مضرس فقد جاء فى بعض طرقه بيان الوقوف بعرفة دون المييت بالمزدلفة ، ومثله حديث عبد الرحمن بن يعمر الدبلى قال : شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة ، وإياه ناس من أهل نجد فسألوه عن الحج ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الحج عرفة ومن "

أدركها قبل أن يطلع الفجر من ليلة جمع فقد تم حجه . رواه النسائي قال : أخبرنا إسحاق ابن إبراهيم قال وكيع قال سفيان - يعني الثوري - عن بكير بن عطاء عن عبد الرحمن بن يعمر الدبلي قال : شهدت ، فذكره . ورواه أبو عينة عن بكير عن عبد الرحمن بن يعمر الدبلي قال : شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الجمع عرفات فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك وأيام منى ثلاثة فمن تعجل في يومين فلا أثم عليه ومن تأخر فلا أثم عليه" . وقوله في حديث عروة : "من صلى صلاتنا هذه" . فذكر الصلاة بالمزدلفة ؛ فقد أجمع العلماء أنه لو بات بها ووقف ونام عن الصلاة فلم يصل مع الإمام حتى فاتته أن حجه تام . فلما كان حضور الصلاة مع الإمام ليس من صلب الحج كان الوقوف بالموطن الذي تكون فيه الصلاة أخرى أن يكون كذلك . قالوا : فلم يتحقق بهذا الحديث ذلك الفرض إلا بعرفة خاصة .

السادسة عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَذَا كُمْ ﴾ (كَرَّ الْأَمْرُ تَأْكِيدًا ، كَمَا تَقُولُ : اذْكُرْ أَرْبَع . وقيل : الأول أَمْرٌ بِالذِّكْرِ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ . والثاني أَمْرٌ بِالذِّكْرِ عَلَى حَكْمِ الْإِخْلَاصِ . وقيل : المراد بالثاني تعديد النعمة وأَمْرٌ بِشُكْرِهَا . ثم ذَكَرَهُمْ بِحَالِ ضَلَالِهِمْ لِيُظْهِرَ قَدْرَ الْإِنْعَامِ فَقَالَ : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَلِيلٍ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ . والكاف في « كَمَا » نعت لمصدر محذوف ، وما مصدرية أو كافة . والمعنى : اذْكُرُوهُ ذِكْرًا حَسَنًا كَمَا هَدَاكُمْ هِدَايَةً حَسَنَةً ، واذْكُرُوهُ كَمَا عَلِمْتُمْ كَيْفَ تَذْكُرُونَهُ لَا تَعْدِلُوا عَنْهُ . وإن ، مخففة من الثقيلة ، يدل على ذلك دخول اللام في الخبر . قاله سيويه . القراء : نافية بمعنى ما ، واللام بمعنى إلا ؛ كما قال :

تَكَلَّفْتُ أَتَمُّكَ إِنْ قَتَلْتُ لِمُسْلِمًا * حَلَّتْ عَلَيْكَ عِقَابُةُ الرَّحْمَنِ

أو بمعنى قد ، أي قد كنتم ؛ ثلاثة أقوال . والضمير في « قبله » عائد إلى المبدى . وقيل إلى القرآن ، أي ما كنتم من قبل إزالته إلا ضالين . وإن شئت على النسخة صلى الله عليه وسلم ، كناية عن غير مذكور . والأول أظهر ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ فيه أربع مسائل .

الأولى - قوله تعالى : (ثُمَّ أَيْفُضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ) قيل : الخطاب للمؤمنين ، فإنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات ، بل كانوا يقفون بالمزدلفة وهي من الحرم ، وكانوا يقولون : نحن قطين^(١) لله ، فينبغي لنا أن نعلم الحرم ، ولا نعلم شيئا من الحل ، وكانوا مع مرقمهم وإقرارهم أن عرفة موقف إبراهيم عليه السلام لا يخرجون من الحرم ، ويقفون بجمع ويفضون منه ويقف الناس بعرفة ؛ ف قيل لهم : أفيضوا مع الجملة . وهم ، ليست في هذه الآية للترتيب ، وإنما هي لمطف جملة كلام هي منها منقطعة . وقال الضحاك : مخاطب بالآية جملة الأمة ، والمراد بالناس إبراهيم عليه السلام ؛ كما قال : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ) وهو يريد واحدا . ويحتمل على هذا أن يؤمروا بالإفاضة من عرفة . ويحتمل أن تكون إفاضة أخرى ، وهي التي من المزدلفة ؛ فتجيء « ثم » على هذا الاحتمال على بابها . وعلى هذا الاحتمال عول القرطبي . والمعنى : أفيضوا من حيث أفاض إبراهيم من مزدلفة ، أى ثم أفيضوا إلى متى ؛ لأن الإفاضة من عرفات قبل الإفاضة من جمع .

قلت : ويكون في هذا حجة لمن أوجب الوقوف بالمزدلفة ، للأمر بالإفاضة منها ، والله أعلم . والصحيح في تأويل هذه الآية من القولين القول الأول . روى الترمذي عن عائشة قالت : كانت قريش ومن كان على دينها وهم الخمس يقفون بالمزدلفة يقولون : نحن قطين لله ، وكان من سواهم يقفون بعرفة ؛ فأنزل الله تعالى : (ثُمَّ أَيْفُضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ) . هذا حديث حسن صحيح . وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت : الخمس هم الذين أنزل الله فيهم : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » . قالت : كان الناس يفيضون من عرفات ، وكان الخمس يفيضون من المزدلفة ، يقولون : لا نفيض إلا من الحرم ؛ فلما نزلت : « أفيضوا من حيث أفاض الناس » ، وجعوا إلى عرفات . وهذا نص صريح ، ومشله كثير صحيح ، فلا معقول على غيره من الأقوال ، والله المستعان . وقرأ سعيد بن جبير « الناس » وتأويله آدم عليه السلام ؛ لقوله تعالى : (فَتَنِّي وَلَمْ يَجِدْ لَهُ مَرَمًا) . ويجوز عند بعضهم تخفيف الياء

(١) قطين الله ، أى سكان حربه ؛ والقطين جمع قاطن كقطان .

فيقول : الناس ، كالفاض والماد . أين عطية : أما جوازها في العريضة فذكره سيويوه ، وأما جوازها مقروءاً به فلا أحفظه . وأمر تعالى بالاستغفار لأنها مواطئه ، ومطابق القبول ومساقط الرحمة . وقالت فرقة : المتى واستغفروا الله من فعلكم الذي كان مخالفاً لسنة إبراهيم في وقوفكم بقرح من المزدلفة دون عرفة .

الثانية - روى أبو داود عن علي قال : فلما أصبح - يعني النبي صلى الله عليه وسلم - وقف على قرح فقال : " هذا قرح وهو الموقف وجمع كلها موقف ونحرت هاهنا وبني كلها متحراً فأنحروا في رجالكم " . فحكم الجميع إذا دفعوا من عرفة إلى المزدلفة أن يبيتوا بها ، ثم ينطلق بالصبح الإمام بالناس ويقفون بالمشر الحرام . والقرح هو الحل الذي يقف عليه الإمام ، ولا يزالون يذكر الله ويدعون إلى قرب طلوع الشمس ، ثم يدفعون قبل الطلوع ، على مخالفة العرب ؛ فإنهم كانوا يدفعون بعد الطلوع ويقولون : أشرق^(١) ثير ، كما نغير ، أى كما تقرب من التحلل فتوصل إلى الإغارة . وروى النحاس عن عمرو بن ميمون قال : شهدت عمر صلى الله عليه وسلم ثم وقف فقال : إن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس ويقولون : أشرق ثير . وإن النبي صلى الله عليه وسلم خالفهم فدفع قبل أن تطلع الشمس . وروى ابن عينة عن ابن جريح عن محمد بن قيس بن مخزومة عن ابن طلوس عن أبيه أن أهل الجاهلية كانوا يدفعون من عرفة قبل غروب الشمس ، وكانوا يدفعون من المزدلفة بعد طلوع الشمس ، فأنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا ، ونجّل هذا أخر الدفع من عرفة ، ونجّل الدفع من المزدلفة مخالفاً هذين المشركين .

الثالثة - فإذا دفعوا قبل الطلوع فحكمهم أن يدفعوا على هيئة الدفع من عرفة ، وهو أن يسير الإمام بالناس سبب المتى ، فإذا وجد أحدهم قرجة زاد في المتى شيئاً . والمتى منى للدواب معروفة لا يجهل . والنص فوق المتى ، كأنه يلب أو فوق ذلك . وفي صحيح مسلم

(١) ثير (فتح المنة وكسر الموحدة وتكون التنية) : جبل عظيم بالمزدلفة على يسار الذهاب منها إلى منى . هذا هو المراد ، ولقرب جبال أناس كل منها ثير . (عن زهر الرى السيرى) .

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما وسئل : كيف كان يسير رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أفاض من عرفة ؟ قال : كان يسير العتي ، فإذا وجد بقوة نص . قال هشام : والنص فوق العتي . وقد تقدم . ويستحب له أن يحزك في بطن محسر قدرمية بمجر ، فإن لم يفعل فلا حرج ، وهو من مئى . روى الترمذى وغيره عن أبى الزبير عن جابر قال : دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه السكينة وقال لهم : "أَوْضِعُوا فِي وَادِي مُحَسَّرٍ" . وقال لهم : "خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكُمْ" . فإذا أتوا مئى وذلك غدوة يوم النحر ، رموا بحجارة العقبة بها عُمى ركبانا إن قدروا ، ولا يستحب الركوب في غيرها من الجمار ، ويرمونها بسبع حصيات كل حصاة منها مثل حصي الخنثف^(١) . على ما يأتى بيانه . فإذا رموها حل لهم كل ما حرم عليهم من اللباس والتفت كله ، إلا النساء والطيب والصبيد عند مالك وإسحاق في رواية أبى داود الخفاف عنه . وقال عمر بن الخطاب وابن عمر : يحل له كل شيء إلا النساء والطيب . ومن تطيب عند مالك بعد الرمي وقبل الإفاضة لم ير عليه فدية ، لما جاء في ذلك . ومن صاد عنده بعد أن رمى بحجارة العقبة وقبل أن يفيض كان عليه الجزاء . وقال الشافعى وأحمد وإسحاق وأبو ثور : يحل له كل شيء إلا النساء . وروى عن ابن عباس .

الرائدة - ويقطع الحاج التلية بأول حصاة يرميها من حجارة العقبة ، وعلى هذا أكثر أهل العلم بالمدينة وغيرها ، وهو جائز مباح عند مالك . والمشهور عنه قطعها عند زوال الشمس من يوم عرفة ، على ما ذكر في موطنه عن على ، وقال : هو الأمر عندنا .

قلت : والأصل في هذه الجملة من السنة ما رواه مسلم عن الفضل بن عباس ، وكان زديف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في عشية عرفة وغداة جمع للناس حين دفعوا : "عليكم بالسكينة" وهو كأف ناقته حتى دخل محسرا - وهو من مئى - قال : "عليكم بمعى"

(١) الخنثف (إثنا: المعجمة القنطرة والقال المعجمة الساكنة) : رمك حصاة أو نواة تأخذها بين الإبهام والوسطى وترى بها .

(٢) قره : كاف ناقه . من الكف بمعنى المنع ، أى يمنعها الإسراع .

الخلف الذي يرى به الجمرة . وقال : لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقي حتى روى
 بحجرة العقبة - في رواية - والنبي صلى الله عليه وسلم يشير بيده كما يتخيف الإنسان . وفي البخاري
 عن عبد الله أنه انتهى إلى الجمرة الكبرى جعل البيت عن يساره ، ومضى عن يمينه ورمى جميع
 وقال : هكذا روى الذي أنزلت عليه سورة البقرة صلى الله عليه وسلم . لم يروى النازعني عن
 عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا رميت وحلقم وذبحت فقد حل لكم كل
 شيء إلا النساء وحل لكم الثياب والطيب " . وفي البخاري عن عائشة قالت : طيبت
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يدي هاتين ، حين أحرم ، وحلله حين أحل قبل أن يطوف ؛
 وبسط يديها . وهذا هو التحلل الأصغر عند العلماء ، والتحلل الأكبر طواف الإفاضة ، وهو
 الذي يحل النساء وجميع محظورات الإحرام ، وسيأتي ذكره في سورة الحج . إن شاء الله تعالى .
 قوله تعالى : (فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ) فيه سستان :

الأولى - قوله تعالى : (فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ) قال مجاهد : المناسك الذبائح وحرقة
 الدماء . وقيل : هي شعائر الحج ؛ لقوله عليه السلام : " حنوا مني مناسككم " . المعنى :
 فإذا فعلتم مناسك الحج فاذكروا الله واشتوا عليه بالأنه عندكم . وأبو عمر يذهب للكاف
 في الكاف ، وكذلك « ما سلككم » ، لأنهما مثلان . وقضيت هنا بمعنى أدبتم وفرقتم ، قال الله
 تعالى : (فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ) أي أدبتم الجمعة . وقد يعبر بالقضاء عما فعل من العبادات
 خارج وقتها المحدود لها .

الثانية - قوله تعالى : (فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ) كانت عادة العرب إذا قضت
 حجهما تنف عند الجمرة ، فتغادر الآباء ، وتذكر أيام أسلافها من بسالة وكرم ، وغير ذلك ؛ حتى
 أن الواحد منهم يقول : اللهم إن أبي كان عظيم القوة ، عظيم الجفنة ، كثير المال ، فاعطوني
 مثل ما أعطيته . فلا يذكر غيره أبوه ؛ فزلت الآية يلزموا أنفسهم ذكر الله أكثر من التزامهم
 ذكر أيام الجاهلية . هذا قول جمهور المفسرين . وقال ابن عباس وعطاء والضاحك والربيع ،

(١) الجفنة : أعظم ما يكون من التمتع .

معنى الآية واذكروا الله كذا الأطفال أباهم وأمهاتهم : أبه، أمه، أى فاستغيثوا به والنجثوا إليه كما كنتم تفعلون في حال صغركم بآبائكم . وقالت طائفة : معنى الآية اذكروا الله وعظموه وذنبوا عن حرمه، وادفعوا من أراد الشرك في دينه ومشاعره، كما تذكرون آباءكم بالخير إذا غص أحد منهم ، وتحبون جوانبهم وتذبون عنهم . وقال أبو الجوزاء لابن عباس : إن الرجل اليوم لا يذكر أباه، فما معنى الآية ؟ قال : ليس كذلك، ولكن أن تنضب لله تعالى إذا عصي أشد من غضبك لوالدك إذا شتما . والكاف من قوله « كذا كركم » في موضع نصب ، أى ذكر كركم . أو أشد، قال الزجاج : أو أشد، في موضع خفض عطف على ذكر كركم ، المعنى : أو كأشد ذكرا، ولم ينصرف لأنه أصل صفة ، ويجوز أن يكون في موضع نصب بمعنى أو اذكروه أشد . وذكرا، نصب على البيان .

قوله تعالى — ﴿ قِنَّ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا ﴾ من ، في موضع رفع بالابتداء، وإن شئت بالصفة . يقول ربنا آتينا في الدنيا، صلة من ، والمراد المشركون . قال أبو وائل والسدي وابن زيد : كانت عادة الجاهلية أن تدعو في مصالح الدنيا فقط ، فكانوا يسألون الإبل والغنم والفقير بالعدو، ولا يطلبون الآخرة، إذ كانوا لا يعرفونها ولا يؤمنون بها ، فهوا عن ذلك الدعاء المخصوص بأمر الدنيا . وجاء النهي في صيغة المنع عنهم . ويجوز أن يتناول هذا الوعيد المؤمن أيضا إذا قصر دعواته في الدنيا، وعلى هذا فالله في الآخرة من خلق ، أى لخلق الذى يسأل الآخرة . والخلق النصيب . ومن زائدة، وقد تقدم .

قوله تعالى — ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ أى من الناس وهم المسلمون يطلبون خير الدنيا والآخرة . واختلف في تأويل الحسنتين على أقوال عديدة؛ فروى عن عبد بن أبي طالب رضى الله عنه أن الحسنة في الدنيا المرأة الحسنة ، وفي الآخرة الحور العين . وقنا عذاب النار ، المرأة السوء .

قلت : وهذا فيه بُدءٌ ، ولا يصح عن عليٍّ ؛ لأنَّ النار حقيقة في النار المحرقة ، وبعبارة المرأة عن النار تجوز . وقال قتادة : حسنة الدنيا العافية في الصحة وكفاف المال . وقال الحسن : حسنة الدنيا العلم والعبادة . وقيل غير هذا . والذي عليه أكثر أهل العلم أن المراد بالحسنتين نعم الدنيا والآخرة ، وهذا هو الصحيح ؛ فإنَّ اللفظ يقتضي هذا كله ، فإنَّ حسنة نكرة في سياق الدعاء ، فهو محتمل لكل حسنة من الحسنات على البذل ، وحسنة الآخرة الجنة بإجماع . وقيل : لم يرد حسنة واحدة ، بل أراد أعطنا في الدنيا عطية حسنة ، نحذف الاسم .

الثانية - قوله تعالى : (وَفَقَّا عَذَابَ النَّارِ) أصلُ فقا أو فقا ، حذف الواو كما حذف في بني وئى ؛ لأنها بين ياء وكسرة ، مثل يمد . هذا قول البصريين ، وقال الكوفيون : حذفت فرقا بين اللازم والمتعدي . قال محمد بن يزيد : هذا خطأ لأنَّ العرب تقول : ويرمَّ يرم ، فيحذفون الواو . والمراد بالآية الدعاء في ألا يكون المرء ممن يدخلها بمعاصيه وتخبره الشفاعة . ويحتمل أن يكون دعاء مؤكدا لطلب دخول الجنة ؛ لتكون الرغبة في معنى النجاة والفوز من الطرفين ؛ كما قال أحد الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم : أنا إنما أقول في دعائي : اللهم أدخلني الجنة وعافني من النار ، ولا أدري ما تدنتك ولا تدنته معاذ . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حوّلها تدنتك » ترجمه أبو داود في سننه وابن ماجه أيضا .

الثالثة - هذه الآية من جوامع الدعاء التي عمت الدنيا والآخرة ، قيل لأنس : ادع الله لنا ؛ فقال : اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . قالوا : زدنا . قال : ما تريدون ! قد سألت الدنيا والآخرة . وفي الصحيحين عن أنس قال : كان

(١) الدعة : أن يتكلم الرجل الكلام نسع نفسه ولا يفهم ؛ وهو أروع من المبهنة قليلا .

(٢) في نهاية ابن الأثير والسان : « حوّلها » بالثنية . فعل الأول معناه حول مقالته ؛ أي كلاما غريب من كلامك . وعمل الثاني معناه حول الجنة والنار ؛ أي في طلبها تدن . ومنه تدن الرجل إذا انحط في مكان واحد مجتعا وزعجا .

أكثر دعوة يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . قال : فكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها ، فإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه . وفي حديث عمر أنه كان يطوف بالبيت ويقول : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، ماله هيجرى غيرها . ذكره أبو عبيد . وقال ابن جرير : بائني أنه كان يأمر أن يكون أكثر دعاء المسلم في الموقف هذه الآية : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . وقال ابن عباس : إن عند الركن ملكا قائما منذ خلق الله السموات والأرض يقول آمين ، فقولوا : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . وسئل عطاء بن أبي رباح عن الركن اليماني وهو يطوف بالبيت ، فقال عطاء : حدثني أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « وكل به سبعون ملكا فن قال اللهم أني أسألك المغفرة والعافية في الدنيا والآخرة ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار قالوا آمين » ، الحديث . أخرجه ابن ماجه في السنن ، وسيأتي بجماله مسندا في « الحج » إن شاء الله .

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَصِبْ بِمَا كَانُوا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَصِبْ بِمَا كَانُوا ﴾ هذا يرجع الى الفريق الثاني ، فريق الإسلام ؛ أي لم تواب الحج أو ثواب الدعاء ، فان دعاء المؤمنين عبادة . وقيل : يرجع « أولئك » الى الفريقين ؛ فلمؤمن ثواب عمله ودعائه ، وللكافر عقاب شركه وقصر نظره على الدنيا . وهو مثل قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ بِمَا عَمِلُوا ﴾ .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ تَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ من سرع يسرع - مثل عظم يعظم - سرعا وسرعة ؛ فهو سريع . الحساب مصدر كالحاجة . وقد يسمى المحسوب حسابا .

والحساب العتد ؛ يقال : حسب يحسب حسابا وحسابا وحسابا وحسابا أى عتد .
وأشدد ابن الأعرابي :

يا مجمل أسفلك بلا حسابة ^(١) . سُقياَ عليك حَسَنِي الرِّبَاةِ
• قَتَلْتَنِي بِالذِّلِّ وَالْحَسَلَاةِ •

والحسب ما عتد من مفاتيح المرء . ويقال : حسب دينه . ويقال : ماله ؛ ومنه الحديث
" الحسب المال والكرم التقوى " رواه ثمر بن جندب ، أخرجه ابن ماجه ، وهو في الشهاب
أيضا . والرجل حسيب ، وقد حسب حسابا بالضم ، مثل خطب خطابة . والمعنى في الآية
أن الله سبحانه سريع الحساب ، لا يحتاج الى عتد ولا الى عقد ولا الى إعمال فكر كما يفعله
الحساب ؛ ولهذا قال وقوله الحق : ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
" اللهم منزل الكتاب سريع الحساب " الحديث . فانه جل وعز عالم بما للعباد وطيبهم ،
فلا يحتاج الى تذكر وتامل ، إذ قد علم ما للحاسب وعليه ؛ لأن الفائدة في الحساب علم
حقيقته . وقيل : سريع المجازاة للعباد بأعمالهم . وقيل : المعنى لا يشغله شأن عن شأن ،
فيحاسبهم في حالة واحدة ؛ كما قال وقوله الحق : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْسَبُكُمْ إِلَّا كَنَافِثٍ وَّاحِدَةٍ ﴾ .
قال الحسن : حسابه أسرع من لمح البصر . وفي الخبر : « إن الله يحاسب في قدر حلب شاة » .
وقيل : هو أنه إذا حاسب واحدا فقد حاسب جميع الخلق . وقيل لعل بن أبي طالب
رضي الله عنه : كيف يحاسب الله العباد في يوم ؟ قال : كما يرزقهم في يوم . ومعنى الحساب
تعريف الله عباده بمقادير الجزاء على أعمالهم وتذكيره لإياهم بما قد نسوه ؛ بدليل قوله تعالى :
﴿ يَوْمَ يَحْشُرُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ . وقيل : معنى الآية سريع
يحيى يوم الحساب . فالمقصود بالآية الإنتار بيوم القيامة .

(١) هكذا أورده الجوهرى في المطبع . ورواب انشاده : يا مجمل أسفيت . أى أسفيت بلا حساب
ولا هتزاز . والرباية (بالكر) : القيام على الشيء بإصلاحه وترتيبه . وفي الأصول الرباية . والخلافة (بالكر) :
أن تحلب المرأة قلب الزيل باللفظ القول وأعدبه .

قلت : ولكل محمل ، فياخذ العبد لنفسه في تخفيف الحساب عنه بالأعمال الصالحة ،
ولا يخفف الحساب في الآخرة على من حاسب نفسه في الدنيا .

الباقية : قال ابن عباس في قوله تعالى : (أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا) هو
الرسل وأتباعهم ألا يحج به عن غيره ، فيكون له ثواب . وروى عنه في هذه الآية أن رجلا قال :
يا رسول الله ، مات أبي ولم يحج ، أفأحج عنه ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لو كان على
أبيك حجة ففرضته أما كان ذلك يحزني " . قال : نعم . قال : " فدين الله أحق أن يقضى " .
قال : فهل لي من أمر ؟ فأتوا الله تعالى : (أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا) يعني من حج
عن أبيه كان الأجر ينسب إليه . قال أبو عبد الله محمد بن حوز منداد في أحكامه :
قول ابن عباس نحو قول مالك ، لأن تحصل مذهب مالك أن المحجوج عنه يحصل له ثواب
التي كان عليه الحاج ، فكانه يكون له ثواب بدنه وأعماله ، والمحجوج عنه ثواب ماله وإخافه ،
وهذا قلنا : لا يخالف في هذا حكم من حج عن نفسه حجة الإسلام أو لم يحج ، لأن الأعمال
التي تنسب إليها الثابة لا يختلف حكم المستتاب فيها . أن يكون قد أدى عن نفسه أو لم يؤد ،
أصلها بأعمال الدين والدنيا ، ألا ترى أن الذي عليه زكاة أو كفارة أو غير ذلك يجوز أن يؤدى
عن غيره أو لم يؤد عن نفسه ، وكذلك من لم يراع مصالحه في الدنيا يصح أن يتوب عن غيره
في مثلها فتم لغیره وإن لم تم لنفسه ، ويرزق غيره وإن لم يرزق نفسه .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : **وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ مِّن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ آتَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنكُم إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴿٢٢٠﴾

قوله تعالى : **(وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ)** فيه ست مسائل :

الأولى — قال الكوفيون : الألف والتاء في « معدودات » لأقل العدد . وقال البصريون : هما للقليل والكثير ؛ بدليل قوله تعالى : **« وَهُمْ فِي التَّفَرُّقَاتِ آمَنُونَ »** والتفوقات كثيرة . ولا خلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات في هذه الآية هي أيام متى ، وهي أيام التشريق ، وأن هذه الثلاثة الأسماء واقعة عليها ، وهي أيام رمي الجمار ، وهي واقعة على الثلاثة الأيام التي يتعجل الحاج منها في يومين بعد يوم النحر ، فقف على ذلك . وقال التلمبي وقال إبراهيم : الأيام المعدودات أيام المشر ، والمعلومات أيام النحر ؛ وكذا حكى مكي والمهدوي أن الأيام المعدودات هي أيام العشر . ولا يصح لما ذكرناه من الإجماع ، على ما نقله أبو عمر بن عبد البر وغيره . قال ابن عطية : وهذا إما أن يكون من تصحيف النسخة ، وإما أن يريد المشر الذي بعد النحر ؛ وفي ذلك بعد .

الثانية — أمر الله سبحانه وتعالى عباده بذكره في الأيام المعدودات ، وهي الثلاثة التي بعد يوم النحر وليس يوم النحر منها ؛ لإجماع الناس أنه لا يتغير أحد يوم النحر وهو ثاني يوم النحر ، ولو كان يوم النحر في المعدودات لساغ أن يتغير من شاء متبجلاً يوم النحر ؛ لأنه قد أخذ يومين من المعدودات . خرج الدارقطني والترمذي وغيرهما عن عبد الرحمن بن عيسى الدليل أن ناساً من أهل نجد أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بعرفة فسألوه ؛

فأمر متاديا فتأدى : «تأجل عرفة فمن جاء ليلة جمع قبل طلوع الفجر فقد أدرك أيام منى الثلاثة فمن تسجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه» أى من تسجل من الحاج في يومين من أيام منى صار مقامه بمنى ثلاثة أيام بيوم النحر ، ويصير جمع رميه يتسع وأربعين حصاة ، ويسقط عنه روى يوم الثالث . ومن لم ينفر منها إلا في آخر اليوم الثالث حصل له بمنى مقام أربعة أيام من أجل يوم النحر ، واستوفى العدد في الرمي ، على ما يأتي بيانه . ومن الدليل على أن أيام منى ثلاثة - مع ما ذكرناه - قول العربى :

ما نلتقي إلا ثلاث منى * حتى يفرق بينا النحر

فأيام الرمي معدودات ، وأيام النحر معلومات . وروى نافع عن ابن عمر أن الأيام المعدودات والأيام المعلومات يجمعها أربعة أيام : يوم النحر وثلاثة أيام بعده ؛ فيوم النحر معلوم غير معدود ، واليومان بعده معلومات معدودان ، واليوم الرابع معدود لا معلوم ؛ وهذا مذهب مالك وغيره . وأما ما كان كذلك لأن الأول ليس من الأيام التي تختص بمنى في قوله سبحانه وتعالى : «وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ» ولا من التي عين النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : «أيام منى ثلاثة» فكان معلوما ؛ لأن الله تعالى قال : «وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ هَلْ مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَيْمَةِ الْأَتَامِ» ولا خلاف أن المراد به النحر ، وكان النحر في اليوم الأول وهو يوم الأضحية والثاني والثالث ، ولم يكن في الرابع نحر بإجماع من علمائنا ؛ فكان الرابع غير مراد في قوله : «معلومات» لأنه لا ينحرف فيه وكان مما يرمى فيه ؛ فصار معدودا لأجل الرمي ، غير معلوم لعدم النحر فيه . قال ابن العربى : والحقيقة فيه أن يوم النحر معدود بالرمي معلوم بالذبح ، لكنه عند علمائنا ليس مرادا في قوله تعالى : «وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ» . وقال أبو حنيفة والشافعى : الأيام المعلومات المشر من أول ذى الحجة ، وأتبعها يوم النحر ؛ لم يختلف قولهما في ذلك ، وروى ذلك عن ابن عباس . وروى الطحاوى عن أبى يوسف : أن الأيام المعلومات أيام النحر . وقال أبو يوسف : روى ذلك عن عمرو بن لعل وإليه أذهب ؛

لأنه تعالى قال : « وَيَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ فِي أَيَّامِ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَةِ الْأَنْعَامِ » .
وحكى الكرخي عن محمد بن الحسن أن الأيام المعلومات أيام النحر الثلاثة : يوم الأضحي
ويومان بعده . قال اليكا الطبري : فعلى قول أبي يوسف ومحمد لافرق بين المعلومات
والمعدودات ؛ لأن المعدودات المذكورة في القرآن أيام التشريق بلا خلاف ولا يشك أحد
أن المعدودات لا تناول أيام العشر؛ لأن الله تعالى يقول : « فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ
عَلَيْهِ » وليس في العشر حكم يتعلق بيومين دون الثالث . وقد روى عن ابن عباس أن
المعلومات العشر، والمعدودات أيام التشريق؛ وهو قول الجمهور .

قلت : وقال ابن زيد : الأيام المعلومات عشر ذي الحجة وأيام التشريق، وقبيل هذه
لما ذكرناه، وظاهر الآية ينفعه . وجعل الله الذكر في الأيام المعدودات والمعلومات يدل
على خلاف قوله، فلا معنى للاشتغال به .

الثالثة — ولا خلاف أن المخاطب بهذا الذكر هو الحاج، فخطب بالتكبير عند رمي
الجمار وعلى ما رُزق من بيمية الأنعام في الأيام المعلومات، وعند أدبار الصلوات دون تلبية؛
وهل يدخل غير الحاج في هذا أم لا ؟ فالذي عليه فقهاء الأمصار والمشايخ من الصحابة
والتابعين على أن المراد بالتكبير كل أحد — وخصوصا في أوقات الصلوات — فيكبر عند
انقضاء كل صلاة — كانت المصل وحده أو في جماعة — تكبيرا ظاهرا في هذه الأيام،
اقتداء بالسلف رضي الله عنهم . وفي المختصر : ولا يكبر النساء دُبر الصلوات . والأوّل أشهر،
لأنه يلزمها حكم الإحرام كالرجل؛ قاله في المدونة .

الرابعة — ومن نسي التكبير بإثر صلاة كبر إن كان قريبا، وإن تباعد فلا شيء عليه؛
قاله ابن الجلاب . وقال مالك في المختصر : يكبر ما دام في مجلسه، فإذا قام من مجلسه فلا شيء
عليه . وفي المدونة من قول مالك : إن نسي الإمام التكبير فإن كان قريبا قصد فكبر، وإن
تباعد فلا شيء عليه، وإن ذهب ولم يكبر والقوم جلوس فليكبروا .

الخامسة - واختلف العلماء في طرفي مدة التكبير؛ فقال عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب وابن عباس : يكبر من صلاة الصبح يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق . وقال ابن مسعود وأبو حنيفة : يكبر من غداة عرفة إلى صلاة العصر من يوم النحر . وقاله صاحباه فقالا بالقول الأول ، قول عمر وعلى رضى الله عنهم ؛ فأخفقوا في الابتداء دون الانتهاء . وقال مالك : يكبر من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق ؛ وبه قال الشافعي ، وهو قول ابن عمر وابن عباس أيضا . وقال زيد بن ثابت : يكبر من ظهر يوم النحر إلى آخر أيام التشريق . قال ابن العربي : فأما من قال يكبر يوم عرفة ويقطع العصر من يوم النحر فقد خرج عن الظاهر ؛ لأن الله تعالى قال : « فِي أَيَّامٍ مَّتَدُودَاتٍ » وأيامها ثلاثة ؛ وقد قال هؤلاء : يكبر في يومين ؛ فتركوا الظاهر لغير دليل . وأما من قال يوم عرفة وأيام التشريق ، فقال إنه قال : « فَإِذَا أَقْبَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ » فيذكر عرفات داخل في ذكر الأيام ؛ هذا كان يصح لو كان قال : يكبر من المغرب يوم عرفة ؛ لأن وقت الإفاضة حينئذ ؛ فأما قبل فلا يقتضيه ظاهر اللفظ ، ويلزمه أن يكون من يوم التروية عند الحلول يعني .

السادسة - واختلفوا في لفظ التكبير؛ فمشهور مذهب مالك أن يكبر إثر كل صلاة ثلاث تكبيرات؛ رواه زياد بن زياد عن مالك . وفي المذهب رواية يقال بعد التكبيرات الثلاث : لا إله إلا الله ، والله أكبر وله الحمد . وفي المختصر عن مالك : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله ، والله أكبر الله أكبر وله الحمد .

قوله تعالى : (قَدْ تَسْجِدُ فِي يَوْمَيْنِ قَلِيلًا أَلَمْ عَلَيْكَ فِيهِ إِحْدَى وَعِشْرُونَ مَسَاجِدَ : الأولى - قوله تعالى : (قَدْ تَسْجِدُ) السجدة لا يكون هنا إلا في آخر النهار ، وكذلك اليوم الثالث ، لأن الرمي في تلك الأيام إنما وقته بعد الزوال . وأجمعوا على أن يوم النحر لا تُرمى فيه غير جرة العقبة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرم يوم النحر من الجمرات غيرها ؛ ووقتها من طلوع الشمس إلى الزوال ، وكذلك أجمعوا أن وقت رمي الجمرات في أيام

التسريق بعد الزوال إلى الغروب ؛ واختلفوا فيمن رى حمرة العقبة قبل طلوع الفجر أو بعد طلوع الفجر قبل طلوع الشمس ؛ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد وإسحاق : جائزهما بعد الفجر قبل طلوع الشمس . وقال مالك : لم يلفنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص لأحد برى قبل أن يطلع الفجر ، ولا يجوز رميها قبل الفجر ؛ فإن رماها قبل الفجر أعادها ؛ وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه : لا يجوز رميها ، وبه قال أحمد وإسحاق . ورخصت طائفة في الرمي قبل طلوع الفجر ؛ روى عن أسماء بنت أبي بكر أنها كانت ترى بالليل وتقول : إنا كنا نصنع هذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أخرجه أبو داود . وروى هذا القول عن عطاء وابن أبي مليكة وعكرمة بن خالد ، وبه قال الشافعي ؛ إذا كان الرمي بعد نصف الليل . وقالت طائفة : لا يرمى حتى تطلع الشمس ؛ قاله مجاهد والنخعي والثوري . وقال أبو ثور : إن رماها قبل طلوع الشمس فإن اختلفوا فيه لم يجره ، وإن أجمعوا وكانت فيه سنة أجزأه . قال أبو عمر : أما قول الثوري ومن تابعه فحجته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رى الحمرة بعد طلوع الشمس وقال : ” غدا عني منا سككم “ . وقال ابن المنذر : السنة أن لا ترمى إلا بعد طلوع الشمس ، ولا يجوز الرمي قبل طلوع الفجر ؛ فإن رماها ، إذ فاعله مخالف لما سنّه الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته . ومن رماها بعد طلوع الفجر قبل طلوع الشمس فلا إعادة عليه ، إذ لا أعلم أحدا قال لا يجره .

الثانية — روى معمر قال أخبرني هشام بن عروة عن أبيه قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أتم سلمة أن تصبح بمكة يوم النحر وكان يومها . قال أبو عمر : اختلف على هشام في هذا الحديث ؛ فرواه طائفة عن هشام عن أبيه مرسل كما رواه معمر ، ورواه آخرون عن هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أتم سلمة بذلك مستندا ، ورواه آخرون عن هشام عن أبيه عن زينب بنت أبي سلمة عن أتم سلمة مستندا أيضا ، وكلهم ثقات . وهو يدل على أنها رمت الحمرة بمنى قبل الفجر ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرها أن تصبح بمكة يوم النحر ، وهذا لا يكون إلا وقد رمت

الجمرة بمنى ليلا قبل الفجر، والله أعلم . ورواه أبو داود قال حدثنا هارون بن عبد الله قال حدثنا ابن أبي قتيب عن الضحاك بن عثمان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأم سلمة ليلة النحر فمرت بالجمرة قبل الفجر ثم مضت فافاضت ، وكان ذلك اليوم ^(١) [اليوم] الذي يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها . وإذا ثبت فالزمي بالليل جائز لمن فعله ، والاختيار من طلوع الشمس إلى زوالها . قال أبو عمر : وأجمعوا أنه إن رماها قبل غروب الشمس من يوم النحر فقد أجزأ عنه ولا شيء عليه ، إلا مالكا فإنه قال : استحبه له إن ترك جمرة العقبة حتى أمسى أن يريق دما يسمى به من الليل . واختلفوا فيمن لم يرمها حتى غابت الشمس فرمها من الليل أو من الندى ؛ فقال مالك : عليه دم ، واحتج بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت رمى الجمرة وقتا وهو يوم النحر ، فمن رمى بعد غروب الشمس فقد رماها بعد خروج وقتها ، ومن فعل شيئا في الحج بعد وقته فعليه دم . وقال الشافعي : لا دم عليه ؛ وهو قول أبي يوسف وعمر ، وبه قال أبو ثور ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له السائل : يا رسول الله ، رميت بعد ما أمسيت . فقال : « لا حرج » قال مالك : من نسي رمى الجمار حتى يمسى فليرمي أية ساعة ذكر من ليل أو نهار ، كما يصل أية ساعة ذكر ، ولا يرمى إلا ما فاته خاصة ، وإن كانت جمرة واحدة رماها ثم يرمى بعدها من الجمار ؛ فإن الترتيب في الجمار واجب ، فلا يجوز أن يشرع في رمى جمرة حتى يكمل رمى الجمرة الأولى كركعات الصلاة ؛ هذا هو المشهور من المذهب . وقيل : ليس الترتيب بواجب في حجة الرمي ، بل إذا كان الرمي كله في وقت الأداء أجزأه ،

الثالثة - فإذا مضت أيام الرمي فلا رمي ، فإن ذكر بعد ما يصلى وهو بمكة أو بعد ما يخرج منها فعليه الهدى ، وسواء ترك الجمار كلها أو جمرة منها أو حصاة من جمرة حتى خرجت أيام منى فعليه دم . وقال أبو حنيفة : إن ترك الجمار كلها فعليه دم ، وإن ترك جمرة واحدة

(١) زيادة عن متن أبي داود .

كان عليه بكل حصاة من الجمرة إطعام مسكين نصف صاع، إلى أن يبلغ دماً فيطعم ماشاء، إلا جمره العقبة فعليه دم . وقال الأوزاعي : يتصدق إن ترك حصاة . وقال الثوري : يطعم في الحصاة والحصاتين والثلاث، فإن ترك أربعة فصاعداً فعليه دم . وقال الليث : في الحصاة الواحدة دم؛ وهو أحد قولي الشافعي . والقول الآخر وهو المشهور : إن في الحصاة الواحدة مدّاً من طعام، وفي حصاتين مدين وفي ثلاث حصيات دم .

الرابعة — ولا سبيل عند الجميع إلى رمي ما فاته من الجمار في أيام التشريق حتى غابت الشمس من آخرها، وذلك اليوم الرابع من يوم النحر وهو الثالث من أيام التشريق، ولكن يميزه الدم أو الاطعام على حسب ما ذكرنا .

الخامسة — ولا تيموز البيّوت بركة وغيرها عن رمي ليالي التشريق؛ فإن ذلك غير جائز عند الجميع إلا للرّعاء ولن وليّ السّقاية من آل العباس . قال مالك : من ترك المبيت ليلة من ليالي رمي من غير الرّعاء وأهل السّقاية فعليه دم . روى البخاري عن ابن عمر أن العباس استأذن النبي صلى الله عليه وسلم ليبيت بركة ليالي رمي من أجل سقايته فأذن له . قال ابن عبد البر : كان العباس ينظر في السّقاية ويقوم بأمرها، ويسقى الحاج ثرابها أيام الموسم؛ فذلك أرخص له في المبيت عن رمي، كما أرخص لرعاء الإبل من أجل حاجتهم لرعى الإبل وضروهم إلى الخروج بها نحو المراعى التي تبعد عن رمي .

وسُميت رمي «رمي» لما رمي فيها من الدماء، أي يراق . وقال ابن عباس : انما سُميت رمي لأن جبريل قال لأدم عليه السلام : تمّن . قال : أتني الجنة؛ فسُيتم رمي . قال : وانما سميت رميًّا لأنه اجتمع بها حواء وأدم عليهما السلام، والجمع أيضا هو المزدلفة، وهو المشعر الحرام، كما تقدّم .

السادسة — وأجمع الفقهاء على أن المبيت للحاج غير الذين رخص لهم ليالي رمي رمي من شاترا الحج ونسكه، والنظر يوجب على كل مسقط لنسكه دماً؛ قياماً على سائر الحج ونسكه .

وفي موطن مالك عن نافع عن ابن عمر قال قال عمر : لا يبيت أحد من الحاج [ليلتي ^(١)] من وراء العقبة . والعقبة التي منع عمر أن يبيت أحد وراءها هي العقبة التي عند الجمره التي يرميها الناس يوم النحر مما يلي مكة . رواه ابن نافع عن مالك في المبسوط ؛ قال وقال مالك : ومن بات وراءها ليلتي متى فعله الفدية ؛ وذلك أنه بات بتبرعتي ليلتي متى ، وهو ميت مشروع في الحج فزعم الدم بتركه كالميت بالمزدلفة ، ومعنى الفدية هنا عند مالك الهدى . قال مالك : هو هدي يساق من الحبل إلى الحرم .

السابعة - روى مالك عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه أن أبا البَاح بن عاصم بن عدى أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُرخص لرعاة الإبل في البيوتة عن متى يرمون يوم النحر ثم يرمون الغد ومن بعد الغد ليومين ، ثم يرمون يوم النحر . قال أبو عمر : لم يقل مالك بمقتضى هذا الحديث ، وكان يقول : يرمون يوم النحر - يعني جمره العقبة - ثم لا يرمون من الغد ؛ فإذا كان بعد الغد وهو الثاني من أيام التشريق وهو اليوم الذي يتعجل فيه النحر من يريد التمتع أو من يجوز له التمتع رما اليومين لذلك اليوم ولليوم الذي قبله ؛ لأنهم يقضون ما كان عليهم ، ولا يقضى أحد عنده شيئا إلا بعد أن يجب عليه ؛ هذا معنى ما فسره مالك هذا الحديث في موطنه . وغيره يقول : لا بأس بذلك كله ما في حديث مالك ؛ لأنها أيام رمى كلها ؛ وإنما لم يميز عند مالك للزعاء تقديم الرمي لأن غير الرعاء لا يجوز لهم أن يرموا في أيام التشريق شيئا من الجمار قبل الزوال ، فإن رمى قبل الزوال أعادها ؛ ليس لهم التقديم . وإنما رخص لهم في اليوم الثاني إلى الثالث . قال ابن عبد البر : الذي قاله مالك في هذه المسألة موجود في رواية ابن جريح قال : أخبرني محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه أن أبا البَاح بن عاصم بن عدى أخبره أن النبي صلى الله عليه وسلم أُرخص للرعاة أن يتعاقبوا يرموا يوم النحر ثم يدعوا يوما و ليلة ثم يرمون الغد . قال علياؤنا : ويسقط رمي الجمره الثالثة عن تعجل . قال ابن أبي زئيم ^(٢) : ^(١) زيادة عن الموطأ . ^(٢) هو محمد بن عبد الله بن يحيى بن أبي زئيم المزي من أهل البصرة ، رمى بدة بالأنلس . (عن النكتة لكتاب الله) .

يرمىها يوم النحر الأول حين يريد التحجيل . قال ابن المنذر : روى المتجمل في يومين بأحدى وعشرين حصاة ، كل جمرة بسبع حصيات ، فيصير جمع رمية وتسع وأربعين حصاة ، لأنه قد روى جمرة العقبة يوم النحر بسبع . قال ابن المنذر : ويسقط روى اليوم الثالث .

الثامنة - روى مالك عن يحيى بن سعيد عن عطاء بن أبي رباح أنه سمعه يذكر أنه أخص للرماء أن يرموا بالليل ، يقول في الزمن الأول . قال الباقى : « قوله في الزمن الأول يقتضى إطلاقه زمن النبي صلى الله عليه وسلم لأنه أول زمان هذه الشريعة ، فعلى هذا هو مرسل . ويحتمل أن يريد به أول زمن أدركه عطاء ، فيكون موقوفا متصلاً^(١) » والله أعلم .

قلت : هو مسند من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ترجمه الدارقطني وغيره ، وقد ذكرناه في « المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس » ؛ وإنما أبعج لهم الرى بالليل لأنه أدقق بهم وأحوط فيما يحاولونه من روى الإبل ، لأن الليل وقت لا ترى فيه ولا تنتشر ، فيرمون في ذلك الوقت . وقد اختلفوا فيمن فاته الرى حتى غربت الشمس ؛ فقال عطاء : لا رى بالليل إلا لرماء الإبل ، فأما التجار فلا . وروى عن ابن عمر أنه قال : من فاته الرى حتى تنيب الشمس فلا يرم حتى تطلع من الند ، وبه قال أحمد وإسحاق . وقال مالك : إذا تركه نهاراً رماء ليلاً ، وعليه دم في رواية ابن القاسم ، ولم يذكر في الموطأ أن عليه دمًا . وقال الشافعي وأبو ثور ويعقوب ومحمد : إذا نسي الرى حتى أسمى يرمى ولا دم عليه . وكان الحسن البصري يرخس في روى الجمار ليلاً . وقال أبو حنيفة : يرمى ولا شيء عليه ، وإن لم يذكرها من الليل حتى يأتى الند فعليه أن يرميها وعليه دم . وقال الثوري : إذا أتم الرى الى الليل ناسياً أو متعمداً أهرق دمًا .

قلت : أما من روى من رءاء الإبل أو أهل السقاية بالليل فلا دم يجب ، للحديث ؛ وإن كان من غيرهم فالنظر يوجب الدم لكن مع العمد ؛ والله أعلم .

(١) في الأصل : « موقوفة مستأ » والتصويب من شرح الباقى الوطأ .

التاسعة - ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى جرة العقبة يوم النحر على راحلته . واستحب مالك وغيره أن يكون الذي يرميها راكبا . وقد كان ابن عمر وابن الزبير وسالم يرمونها وهم مشاة ، ويرى في كل يوم من الثلاثة بأحدى وعشرين حصاة ، يكبر مع كل حصاة ، ويكون وجهه في حال رميه إلى الكعبة ، ويرتب الجمرات ويجمعهن ولا يفترقهن ولا ينكسهن ؛ يبدأ بالجمرة الأولى فيرميها بسبع حصيات رميا ولا يضمها وضعا ؛ كذلك قال مالك والشافعي وأبو ثور وأصحاب الرأي ؛ فإن طرحها طرحا جاز عند أصحاب الرأي . وقال ابن القاسم : لا تجزئ في الوجهين جميعا ، وهو الصحيح ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرميها ، ولا يرى عندهم بمحصاتين أو أكثر في مرة ؛ فإن فعل عنها حصاة واحدة ، فإذا فرغ منها تقدم أمامها فوقف طويلا للدعاء بما تيسر . ثم يرى الثانية وهي الوسطى وينصرف عنها ذات الشمال في بطن المسيل ، ويطيل الوقوف عندها للدعاء . ثم يرى الثالثة بموضع جرة العقبة بسبع حصيات أيضا ، يرميها من أسفلها ولا يقف عندها ، ولو رامها من فوقها أجزأه ، ويكبر في ذلك كله مع كل حصاة يرميها . وسنة الذكر في رمي الجمار التكبير دون غيره من الذكر ، ورميها ماشيا بخلاف جرة يوم النحر ؛ وهذا كله توقيف رحمه الناسي والدارقطني عن الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رمى الجمرة التي تلى المسجد - مسجد مي - يرميها بسبع حصيات ، يكبر كلما رمى بحصاة ، ثم تقدم أمامها فوقف مستقبل القبلة رافعا يديه يدعو ، وكان يطيل الوقوف . ثم يأتي الجمرة الثانية فيرميها بسبع حصيات ، يكبر كلما رمى بحصاة ، ثم يغادر ذات اليسار مما يلي الوادي فيقف مستقبل القبلة رافعا يديه ثم يدعو . ثم يأتي الجمرة التي عند العقبة فيرميها بسبع حصيات ، يكبر كلما رمى بحصاة ثم ينصرف ولا يقف عندها . قال الزهري : سمعت سالم بن عبد الله يحدث بهذا عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : وكان ابن عمر فعله ، لفظ الدارقطني .

المباشرة - وحكم الجمار أن تكون طاهرة غير نجسة ، ولا مما رمى به ، فإن رمى بما قد رمى به لم يجزه . عند مالك ، وقد قال عنه ابن القاسم : إن كان ذلك في حصاة واحدة أجزأه ، ونزلت بآب القاسم فأنافه بهذا .

الحادية عشرة - واستحب أهل العلم أخذها من المزدلفة لا من حصي المسجد، وإن أخذ زيادة على ما يحتاج ويقي ذلك بيده بعد الرمي دفنه ولم يطرحه؛ قاله أحمد بن حنبل وغيره.
 الثانية عشرة - ولا تُنسل عند الجمهور خلافا لطاوس، وقد روى أنه لو لم يسبق الجمار النجسة أو رمى بما قد رمى به أنه أماء وأجزأ عنه. قال ابن المنذر: يكره أن يرمى بما قد رمى به، ويميز أن رمى به، إذ لا أعلم أحدا أوجب على من فعل ذلك الإعادة، ولا نعلم في شيء من الأخبار التي جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه غسل الحصى ولا أمر ينسله، وقد روينا عن طاوس أنه كان ينسله.

الثالثة عشرة - ولا يميز في الجمار ^(١) المدر ولا شيء غير الحجر، وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق. وقال أصحاب الرأي: يميز بالطين اليابس، وكذلك كل شيء دامها من الأرض فهو يميز. وقال الثوري: من رمى بالخزف والمدر لم يمد الرمي. قال ابن المنذر: لا يميز الرمي إلا بالحصى، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "عليكم بحصى الخذف" ^(٢). وبالحصى رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الرابعة عشرة - واختلف في قدر الحصى؛ فقال الشافعي: يكون أصغر من الأكلة طولاً وعرضاً. وقال أبو ثور وأصحاب الرأي: يمثل حصي الخذف، وروينا عن ابن عمر أنه كان يرمي بالحجرة يمثل بعر الفم؛ ولا معنى لقول مالك: أكبر من ذلك أحب إلى؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم سئل الرمي بمنثل حصي الخذف، ويجوز أن يرمى بما وقع عليه اسم حصاة، واتباع السنة أفضل؛ قاله ابن المنذر.

قلت: وهو الصحيح الذي لا يجوز خلافه لمن اعتدى واعتدى. وروى النسائي عن ابن عباس قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم غداة العقبة وهو على راحلته: "هات آقظ لي -

(١) المدر (بالضمة) : قطع الطين اليابس. وقيل: الطين الذي لا رمل فيه.

(٢) الخذف (يفتح الخاء وسكون الهمزة) : ريشك بمصاة أو نواة تأخذها بين يديك وترى بها، أو تجمل خفة من خشب ترى بها بين الإبهام والسبابة. والمراد بحصى الخذف، الحصى المتناثر إلى الصفرة.

فلما ظلت له حصيات من حمى الخُذْف، فلما وضعت في يده قال: — بأمثال هؤلاء وإياكم والفلو في الدين فإني أهلك من كان قبلكم الفلو في الدين. فدل قوله: « وإياكم والفلو في الدين » على كراهة الرمي بالجمار الكبار، وأن ذلك من الفلو، والله أعلم .

الخامسة عشرة — ومن بقى في يده حصاة لا يدري من أي الجمار هي جعلها من الأولى، ورمى بعدها الوسطى والآخرة؛ فإن طال استأنف جميعا .

السادسة عشرة — قال مالك والشافعي وعبد الملك وأبو ثور وأصحاب الرأي فيمن قدم بحجرة على حجرة: لا يجزئه إلا أن يرى على الولاء . وقال الحسن وعطاء وبعض الناس: يجزئه . واحتج بعض الناس بقول النبي صلى الله عليه وسلم: « من قدم فسكابين يدي سكت فلا حرج — وقال: — لا يكون هذا بأكثر من رجل اجتمعت عليه صلوات أو صيام ففضى بعضا قبل بعض » . والأقول: أحوط، والله أعلم .

السابعة عشرة — واختلقوا في رمي المريض والرمي عنه؛ فقال مالك: يُرمى عن المريض والصبي، ولذين لا يطيقان الرمي، ويُتخذى المريض حين رميهم فيكبر سبع تكبيرات لكل حجرة وعليه المحدثي، وإذا تمح المريض في أيام الرمي رمى عن نفسه، وعليه مع ذلك دم عند مالك . وقال الحسن والشافعي وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي: يُرمى عن المريض، ولم يذكروا هذيانا، ولا خلاف في الصبي الذي لا يقدر على الرمي أنه يُرمى عنه؛ وكان ابن عمر يفعل ذلك . الثامنة عشرة — روى الدارقطني عن أبي سعيد الخدري قال قلنا: يا رسول الله هذه الجمار التي يرمى بها كل عام، فحسب أنها تنقص؛ فقال: « إنه ما تُحبل منها رُفَع ولو لا ذلك لرأيتها أمتثال الجبال » .

التاسعة عشرة — قال ابن المنذر: وأجمع أهل العلم على أن لمن أراد الخروج من الحاج من متى شاخصا ملك يده خارجا عن الحرم غير مقيم بمكة في النحر الأول أن ينفرد بعد زوال الشمس إذا رمى في اليوم الذي يلي يوم النحر قبل أن يمسي؛ لأن الله جل ذكره قال: « فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه » فليُفرد من أراد النحر ما دام في شيء من النهار . وقد روينا عن

النخعي والحسن أنهما قالا : من أدركه العصر وهو بمكي من اليوم الثاني من أيام التشريق لم ينفّر حتى الغد . قال ابن المنذر : وقد يحتمل أن يكونا قالا ذلك استحبابا ، والقول الأول به نقول ، لظاهر الكتاب والسنة .

الموفية عشرين - واختلفوا في أهل مكة هل ينفرون في النفر الأول ، فروينا عن حمير ابن الخطّاب أنه قال : من شاء من الناس كلّمهم أن ينفروا في النفر الأول ، إلا آل خزيمه فلا ينفرون إلا في النفر الآخر . وكان أحمد بن حنبل يقول : لا يسجد لمن نذر النفر الأول أن يقيم بمكة ، وقال : أهل مكة أخف . وجعل أحمد وإسحاق معنى قول عمر بن الخطّاب «إلا آل خزيمه» أي أنهم أهل حرم . وكان مالك يقول في أهل مكة : من كان له عذر فله أن يتعمّل في يومين ، فإن أراد التخفيف عن نفسه مما هو فيه من أمر الحج فلا ، فرأى التعجيل لمن يبعد قُطره . وقالت طائفة : الآية على العموم ، والرخصة لجميع الناس ، أهل مكة وغيرهم ، أراد الخارج عن منى المقام بمكة أو الشخص إلى بلده . وقال عطاء : هي للناس عامة . قال ابن المنذر : وهو يشبه مذهب الشافعي ، وبه نقول . وقال ابن عباس والحسن وعكرمة ومجاهد وقادة والنخعي : من نذر في اليوم الثاني من الأيام الممدودات فلا حرج ، ومن تأخر إلى الثالث فلا حرج ، فمضى الآية كل ذلك مباح ، وعبر عنه بهذا التقسيم اهتماما وتأكيذا ، إذ كان من العرب من يذم المتعجل وبالعكس ، فزلت الآية رافعة للجُحاح في كل ذلك . وقال علي بن أبي طالب وابن عباس وابن مسعود وإبراهيم النخعي أيضا : معنى من تسبّل فقد غفر له ، ومن تأخر فقد غفر له ، واحتجوا بقوله عليه السلام : «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق نخرج من خطاياهم كيوم ولدته أمه» . فقوله : «فلا إثم عليه» أي عام وتبيرة مطلقة . وقال مجاهد أيضا : معنى الآية من تسبّل أو تأخر فلا إثم عليه إلى العام المقبل . وأسند في هذا القول أثر . وقال أبو العالية في الآية : لا إثم عليه لمن اتقى بقية عمره ، والحاج مغفور له آليته ، أي ذهب إثم كفه إن اتقى الله فيما بقي من عمره . وقال أبو صالح وغيره : معنى الآية لا إثم عليه لمن اتقى قتل الصيد وما يجب عليه تجنبه في الحج . وقال أيضا : لمن اتقى في حجه فأتى به تاما حتى كان مبرورا .

الخلادية والعشرون — « من » في قوله « فَن تَسْبَل » رفع بالابتداء، والخبر فلا إثم عليه .
 ويحذف في غير القرآن فلا إثم عليهم ؛ لأن معنى « من » جماعة ؛ كما قال جل وعز : « وَمِنْهُمْ
 مَن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ » وكذا « وَمَنْ تَأْتَرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » . واللام من قوله « لِيَأْتِيَ » متعلقة
 بالغفران ، التقدير المغفرة لمن أتى ؛ وهذا على تفسير ابن مسعود وعلى . قال قتادة : ذكر لنا
 أن ابن مسعود قال : إنما جعلت المغفرة لمن أتى بعد انصرافه من الحج عن جميع المعاصي .
 وقال الأخفش : التقدير ذلك لمن أتى . وقال بعضهم : لمن أتى يعني قتل الصيد في الإحرام
 وفي الحرم . وقيل : التقدير الإباحة لمن أتى ؛ روى هذا عن ابن عمر . وقيل : السلامة لمن
 أتى . وقيل : هي متعلقة بالذكر الذي في قوله تعالى : « وَأَذْكُرُوا » أى الذكر لمن أتى . وقروا
 سالم بن عبد الله « فلا إثم عليه » بوصل الألف تخفيفاً ؛ والعرب قد تستعمله . قال الشاعر :

« إن لم أقاتل فالسوى برعاً »

ثم أمر الله تعالى بالتقوى وذكر بالحشر والوقوف .

قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ » (١٠١)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ) لما ذكر الذين قصرت هممتهم
 على الدنيا — في قوله : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا » — والمؤمنين الذين سألوا
 خير الدارين ذكر المنافقين ؛ لأنهم أظهروا الإيمان وأسرأوا الكفر . قال السدي وغيره من
 المفسرين : نزلت في الأخنس بن شريق ، واسمه أبى ، والأخنس لقب لقب به ؛ لأنه خنس
 يوم بدر بثلاثمائة رجل من حلفائه من بني زُهرة عن قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على
 ما يأتي في « آل عمران » بيانه . وكان رجلاً حلو القول والمنظر ؛ فجاء بعد ذلك إلى النبي صلى
 الله عليه وسلم ف أظهر الإخلاص وقال : الله يلم أنى صادق ؛ ثم هرب بعد ذلك ، فترى زرع قوم

من المسلمين ويُجرُّ فارق الزرع وعقر الحمر . قال المهدي : وفيه نزلت « وَلَا تُطِيع كُلَّ حُلَافٍ مِثْلِهِ . هَمَّا زَمْشَاءَ يَتِيمٍ » و « وَيُلْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٌ » . قال ابن عطية : ثابت قط أن الأحنس أسلم . وقال ابن عباس : نزلت في قوم من المنافقين تكلموا في الذين قُتلوا في غزوة الرجيع : عاصم بن ثابت ، وخُبيب ، وغيرهم ؛ وقالوا : وَيَجْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا تَمُوتُ قُتِلُوا فِي بَيْتِهِمْ ، وَلَا هُمْ أَتَوْا رِسَالَةَ صَاحِبِهِمْ ؛ فنزلت هذه الآية في صفات المنافقين ، ثم ذكر المستشهدين في غزوة الرجيع في قوله : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ » . وقال قتادة ومجاهد وجماعة من العلماء : نزلت في كل مُبْطِل كَفَرَا أَوْ تَقَاا أَوْ كَذَبَا أَوْ إِضْرَارَا ، وهو يظهر بلسانه خلاف ذلك ؛ فهي عامة ، وهي تشبه ما ورد في الترمذي أن في بعض كتب الله تعالى : إن من عباد الله قوما أَلْسَنُ مِنْ الْعَمَلِ وَقُلُوبُهُمْ أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ ، يَلْبِسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللَّيْنِ ، يَشْتَرُونَ الدِّينَ بِالْأَدْنَى ، يقول الله تعالى : أَلَيْسَ يَفْتَرُونَ وَعَلَى يَحْتَرُونَ فِي حَلْفَتِهِمْ لَا يَتَّقُونَ لَمْ تَنْتَهِ تَدْعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانٌ . ومعنى « وَيُشْهِدُ اللَّهُ » أى يقول : الله يعلم أنى أقول حقا . وقرأ ابن محيصن « وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ » بفتح الياء والماء في « يُشْهِدُ » « اللَّهُ » بالرفع ، والمعنى يعجبك قوله ، والله يعلم منه خلاف ما قال . دليله قوا : « وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ » . وقرأ ابن عباس « وَاللَّهُ يَشْهَدُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ » . وقرأه الجماعة أبلغ في الذم ؛ لأنه أقوى على نفسه التزام الكلام الحسن ثم ظهر من باطنه خلافه . وقرأ أبى وابن مسعود « وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ » وهي حجة لقراءة الجماعة .

الثانية — قال علماؤنا : وفي هذه الآية دليل وتنبيه على الاحتياط فيما يتعلق بأموال الدين والدنيا ، واستبراء أحوال الشهود والقضاة ، وأن الحاكم لا يعمل على ظاهرها أحوال الناس وما يبدو من إيمانهم وصلاتهم حتى يبحث عن باطنهم ؛ لأن الله تعالى بين أحوال الناس ، وأن منهم من يظهر قولا جليلا وهو ينوى قبيحا .

فان قيل : هذا ينافيه قوله عليه السلام : « أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » الحديث ، وقوله : « فَأَقْبَضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمِعُ » فالجواب أن هذا كان في صدر الإسلام ، حيث كان إسلامهم سلامتهم ، وأما وقد عم الفساد فلا ؛ قاله ابن العربي .

قلت : والصحيح أن الظاهر يعمل عليه حتى يقين خلافه ؛ لقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه في صحيح البخارى : أيها الناس ، إن الوحي قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم ؛ فن أظهر لنا خيرا أثناء وقربناه ، وليس لنا من سريره ، الله يحاسبه في سريره ، ومن أظهر لنا سوا لم يؤمنه ولم نصدقه ، وإن قال إن سريره حسنة .

الثالثة - قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي الْخَصَّامُ) الألد : الشديد الخصومة ؛ وهو رجل ألد ، وامرأة لئام ، وهم أهل لئد . وقد لئدت - بكسر اللال - تلتد - بالفتح - لئدا ، أى صرت ألد . ولئدته - بفتح اللال - ألدّه - بضمها - إذا جادته فغلته . والألد مشتق من اللئدين ، وهما صفحتا العنق ، أى فى أى جانب أخذ من الخصومة غلب . قال الشاعر :

والذ ذى حنقى على كائنا • تغل عداوة صدره فى مرجل

وقال آخر :

إن تحت التراب عزماً وحرماً • وخصياً ألد ذا يغفلق

والخصام فى الآية مصدو خاصم ؛ قاله الخليل . وقيل : جمع خصم ؛ قاله الزجاج ؛ ككلاب وكلاب ، وصعب وصحاب ، وضخم وضخام . والمعنى أشد المخاصمين خصومة ، أى هو ذو جدال ، إذا كلمك وراجعت رأيت لكلامه طلاوة وباطنه باطل . وهذا يدل على أن الجدل لا يجوز إلا بما ظاهره وباطنه سواء . وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِنْ أَبْغَضَ الرَّجَالُ إِلَى اللَّهِ الْأَلْدَ الْخَلِيعَ " .

قوله تعالى : وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا) قيل : «تولى وسعى» من فعل القلب ؛ فيجى «تولى» بمعنى ضل وغضب وأتلف فى نفسه . و«سعى» أى سعى بجيلة وإدارة

النواثر على الإسلام وأهله، عن ابن جريج وغيره . وقيل : هما فعل شخص ، فيجىء « تولى » بمعنى أدبر وذهب عتك ياخذ . و « سعى » أى بقدميه فقطع الطريق وأفسدها ، عن ابن عباس وغيره . وكلا السعيين فساد . يقال : سعى الرجل يسعى سعيًا ، أى عداً ، وكذلك إذا عمل وكسب . وفلان يسعى على عياله أى يعمل فى نفهم .

قوله تعالى : ﴿ وَيَهْلِكُ ﴾ عطف على يفسد . وفى قراءة أبى « ولهلك » وقرأ الحسن وقتادة « ويهلك » بالرفع ، وفى رفسه أنوال : يكون معطوفاً على يسجد . وقال أبو حاتم : هو معطوف على سعى ، لأن معناه يسعى ويهلك . وقال أبو إسحاق : وهو يهلك . وروى عن ابن كثير « ويهلك » بفتح الياء وضم الكاف . « الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ » مرفوعان يهلك ؛ وهى قراءة الحسن وابن أبى إسحاق وأبى حبة وابن محيصن ، ورواه عبد الوارث عن أبى عمرو . وقرأ قوم « ويهلك » بفتح الياء واللام ، ورفع الحرث ؛ وهى لغة هلك يهلك ؛ مثل ركن يركن ، وأبى يأتى ، وسَلَّ يسَلُّ ، وقُلَّ يقلُّ ، وشبهه . والمعنى فى الآية الأخنس فى إحراقه الزرع وقتله الحمر ؛ قاله الطبري . قال غيره : ولكنها صارت عامة لجميع الناس ، فمن عمل مثل عمله استوجب تلك اللعنة والمقوبة . قال بعض العلماء : إن من يقتل حماراً أو يحرق كُدماً استوجب الملازمة ، وليقنه الشين الى يوم القيامة . وقال مجاهد : المراد أن الظالم يفسد فى الأرض فيمسك الله المطر فيهلك الحرث والنسل . وقيل : الحرثُ النساءُ ، والنسلُ الأولادُ ؛ وهذا لأن التناق يردى الى تفريق الكلمة ووقوع القتال ، وفيه هلاك الخلق ؛ قال معناه الزجاج . والسعي فى الأرض المشى بسرعة ؛ وهذه عبارة عن إيقاع الفتنة والتضريب بين الناس ، وانه أعلم . وفى الحديث : « إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله عقاب من عنده » . وسأيت بيان هذا إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ ﴾ الحرث فى اللغة : الشق ؛ ومنه الحراثت لما ينشق به الأرض . والحرث : كسب المال وجمعه ؛ وفى الحديث : « أُحِرْتُ لديناك كأنك تميش

(١) الكس (ضم الكاف وضعها وسكون الدال) : القرعة من الطعام والتمز والقرام .

لها . والحراث الزرع . والحراث الزراع . وقد حرت وأحترت ، مثل زرع وازدوع .
ويقال : احترت القرآن ، أى أدركته . وحترت الناقة وأحرتها ، أى سرت عليها حتى هزلت .
وحترت النار حركتها . والحراث : ما يحرك به نار التور ، عن الجوهري .

والنسل : ما خرج من كل أنثى من ولد . وأصله الخروج والسقوط ، ومنه نسل الشعر ،
وريش الطائر ، والمستقبل ينسل ، ومنه : إلی رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ، « مِنْ كُلِّ حَذَبٍ
يَنْسِلُونَ » . وقال امرؤ القيس :

• قَسْلُ ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَسْلِيلٌ •

قلت : ودلت الآية على الحراث وزراعة الأرض ، وغرسها بالاشجار حملا على الزرع ،
وطلب النسل ، وهو نماء الحيوان ، وبذلك يتم قوام الإنسان . وهو يرث على من قال بترك
الأمساب ، وسيأتى بيانه في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ قال العباس بن الفضل : الفساد هو الخراب .
وقال سعيد بن المسيب : قطع الدراهم من الفساد في الأرض . وقال عطاء : إن رجلا كان
يقال له عطاء بن منبه أكرم في جبة فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يترعها . قال قتادة قلت
لعطاء : إنا كنا نسمع أن يشقها ، فقال عطاء : إن الله لا يحب الفساد .

قلت : والآية بعمومها تم كل فساد كان في أرض أو مال أو دين ، وهو الصحيح إن شاء
الله تعالى . قيل : معنى لا يحب الفساد أى لا يجه من أهل الملاح ، أو لا يجه دينا .
ويحتمل أن يكون المعنى لا يامر به ، والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُ آتِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسِبُوهُ جَاهِلًا
وَلَيْسَ الْمُهَادُّ

وَلَيْسَ الْمُهَادُّ

(١) مصدر البيت : • وإن كنت قد نأمتك من خليفة •

يقول : إن كان في خلق ما لا ترضيه قسلي ثيابي من ثيابك ، أى انصرفي وأخرجي أمرى من أمرك . (من شرح
البرهان) .

هذه صفة الكافر والمنافي الناهب بنفسه زهواً، ويكره للؤمن أن يوقه الحرج في بعض هذا . وقال عبد الله : كفى بالمرء إثمًا أن يقول له أخوه أتى الله، فيقول : عليك بنفسك ؛ مثلك يوصيني ! والعزة : القوة والعلبة ؛ من عزه يعزه إذا غلبه . ومنه : « وعزني في الخطاب » وقيل : العزة هنا الحمية ؛ ومنه قول الشاعر :

أخذته عزَّة من جهله • فتولى مُغَضِّباً فعل الضجر

وقيل : العزة هنا المنة وشدة النفس ، أى اعترفى نفسه واتقى فأوقته تلك العزة في الإثم حين أخذته وألزته إياه . وقال قتادة : المعنى إذا قيل له مهلاً ازداد إقداماً على المعصية ؛ والمعنى حملته العزة على الإثم . وقيل : أخذته العزة بما يؤثمه ، أى ارتكب الكفر للعزة وحمية الجاهلية . ونظيره « يَا الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » وقيل : الباء في « بالإثم » بمعنى اللام، أى أخذته العزة والحمية عن قبول الوعد للإثم الذى في قلبه، وهو النفاق؛ ومنه قول عنترة يصف عرق الناقة :

وكان رباً أو كحيلاً مُعَقِّباً • حَشَّ الوُقُودُ به جوانب مُعَقِّمٍ^(١)

أى حش الوقود له . وقيل : الباء بمعنى مع ، أى أخذته العزة مع الإثم؛ فمضى الباء يختطف بحسب التأويلات . وذكر أن يهودياً كانت له حاجة عند هارون الرشيد فاختلف إلى بابه سنة، فلم يقض حاجته ، فوقف على الباب؛ فلما خرج هارون سعى حتى وقف بين يديه وقال : أتى الله يا أمير المؤمنين ! فقتل هارون عن دابته وتحرّساجداً ، فلما رفع رأسه احترى بحاجته ففضيت؛ فلما رجع قيل له : يا أمير المؤمنين، نزلت عن دابتك لقول يهودى ! قال : لا ولكن تذكرت قول الله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جُحُومٍ وَلَئِنَّ الْمُبَاهِدَ . حسب أى كفيه معاقبة وجزاء؛ كما تقول للرجل : كفالك ما حل بك ! وأنت تستعظم وتُظَمُّ عليه ما حل . والمهاد جمع المهد، وهو الموضع للمها للثوم؛ ومنه مهد الصبي؛

(١) الرب (بضم الراء) : اللاد. الحار. والكميل (معداً) : الخط. أو انظران تطلب به الابل . والمعد (بفتح القاف) : أى أمه تحصى حتى انقضى ونظ . وحش : اتعد . واقسم (بالضم) : ضرب من الأوال .

وسمى جهنم مهادا لأنها مستقر الكفار . وقيل : لأنها بدل لم من المهاد؛ كقوله : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » ونظيره من الكلام قولهم : « نَحْيَةُ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ » .

قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْشِرُ نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ » (٢٧)

« ابتغاء » صلب على المفعول من أجله . ولما ذكر صنيع المنافقين ذكر بعده صنيع المؤمنين . قيل : نزلت في صُبيب فإنه أقبل مهاجرا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتبعه قمر من قريش ، قتل عن راحته وانتقل ما في كلاته وأخذ قوسه وقال : لقد علمت أني من أركم ، وأيم الله لا تصلون إلى حتى أرى بما في كلاتي ، ثم أضرب بسيفي ما بين يدي منه شيء ، ثم افعلوا ما شئتم . فقالوا : لا تركك تذهب عنا غيا وقد جئنا صُعلوكا ، ولكن دُلنا على مالك بمكة . ونَحَلَّ عنك ؛ فما هدوه على ذلك ففعل ؛ فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْشِرُ نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ » الآية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رَجِمَ الْبَيْعُ أَبَا بَيْحٍ » ، وتلا عليه الآية ، أنرجه رزين ؛ وقاله سعيد بن المسيب رضي الله عنهما . وقال المفسرون : أخذ المشركون صُبيبا فمذّبوه ، فقال لم صُبيب : إني شيخ كبير ، لا بضركم أمكنكم كنت أم من غيركم ، فهل لكم أن تأخذوا مالي وتدرون وديني ؛ ففعلوا ذلك ، وكان شرط عليهم راحلة ونفقة ؛ فخرج إلى المدينة فلقاه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ورجال ؛ فقال له أبو بكر : رَجِمَ بَيْعُكَ أَبَا بَيْحٍ ، فقال له صُبيب : ويبيك فلا ينجس ، فما ذاك ؟ فقال : أنزل الله فيك كفا ؛ وقرأ عليه هذه الآية . وقال الحسن : أتدرون فيمن نزلت هذه الآية ، نزلت في المسلم لقي الكافر فقال له : قل لا إله إلا الله ، فإذا قلنا

(١) هذا مجزيت لمدى كرب ، صدوه ؛ « وعيل قد دَلَفَتْ لها بجيل » .

(٢) هو صُبيب بن سنان بن مالك الزبي ، سبه الزوم [وهو صبيح] بلط إلى مكة فاشترى عبد الله بن جدعان . وقيل : بل هرب من الزوم فقدم مكة وحالف ابن جدعان . وكان صُبيب من السابقين الأولين ، شهد بدرا والمشاهد كلها . توفي بالمدينة سنة ثمان وثلاثين . (من النجوم الزاهرة) . (٣) اختلف ما في كلاته : أي استخرج ما فيها من السهام . والكثافة : جمعة السهام ، تنفذ من جلود لا غشب لها ، أو من غشب لا جلود فيها .

حصبتم ماله ونفسك؛ فأبى أن يقولها، فقال المسلم : والله لأشترن نفسي لله، فنهضم فقاتل حتى قُتل . وقيل : نزلت فيمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر؛ وصل ذلك ثلثاً عمر وعمل ابن عباس رضي الله عنهم، قال عليّ وابن عباس : اقتل الرجلان، أي قال المتقي^(١) للفسد : اتقي الله؛ فأبى المفسد وأخذته العزة، فشرى المتقي نفسه من الله وقاتله فاقتلا . وقال أبو الخليل : سمع عمر بن الخطاب إنساناً يقرأ هذه الآية، فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون قام رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقتل . وقيل : إن عمر سمع ابن عباس يقول : اقتل الرجلان عند قراءة القارئ هذه الآية ، فسأله عما قال ففسره له هذا التفسير؛ فقال له عمر : لله بئلاذك يا ابن عباس ! وقيل : نزلت فيمن يقتحم القتال . حل هشام بن عامر على الصف في القسطنطينية فقاتل حتى قُتل، فقرأ أبو هريرة « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله »؛ ومثله عن أبي أيوب . وقيل : نزلت في شهيداء خزوة الرجيع . وقال قتادة : هم المهاجرون والأنصار . وقيل : نزلت في عليّ رضي الله عنه حين تركه النبي صلى الله عليه وسلم على فراشه ليلة نرج إلى الفار، على ما يأتي بيانه في « براءة » إن شاء الله تعالى . وقيل : الآية عامة ، تناول كل مجاهد في سبيل الله أو مستشهد في ذاته أو مغير منكر . وقد تقدم حكم من حمل على الصف ، ويأتي ذكر المغير لغيره وشروطه وأحكامه في « آل عمران » إن شاء الله تعالى .

ويشرى معناه يبيع؛ ومنه « وشرّوه بيمينهم » أي باعوه، وأصله الاستبدال؛ ومنه قوله تعالى : « إِنْ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْحَيَاةُ » . ومنه قول الشاعر وإن كان ريب الدهر أمضاك في الألى • شرّوا هذه الدنيا بيمانهم الخلد وقال آخر :

وشريرٌ برّداً لينسى • من بعد برّد كنت هامّة

البرد هنا اسم غلام . وقال آخر :

يسل بها ثمناً فيمنعها • ويقول صاحبها ألا فاشير

(١) في بعض نسخ الأصل : « الخير » . (٢) راجع المسألة الثانية - ٢٠٣ طبع ثانية .

وبيع النفس هنا هو بذلها لأوامر الله . « ابتداء » مفعول من أجله . ووقف الكسائي على « مرضات » بالهاء ، والباقون بالهاء . قال أبو علي : وقف الكسائي بالهاء إنما على لغة من يقول : طلعت وعظمت ، ومنه قول الشاعر :

بل جَوَزَتْهَا كَطَهْرَ الْجَفَّتِ^(١) .

وإما أنه لما كان المضاف إليه في ضمن اللفظة ولا بد أن ثبت التاء كما ثبتت في الوصل ليعلم أن المضاف إليه مراد . والمرضاة الرضا ، يقال رضى رضى رضى ورضا ورضا . وحكى قوم أنه يقال : شري بمعنى اشترى ، ويحتاج الى هذا من تأول الآية في صيب ، لأنه اشترى نفسه بماله ولم يبعها ، اللهم إلا أن يقال : إن عرض صيب على قتلهم بيع لنفسه من الله ، فيستقيم اللفظ على معنى باع .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُرْءُودٌ مُبِينٌ^(٢)

لما بين الله سبحانه الناس الى مؤمن وكافر وموافق فقال : كونوا على ملة واحدة ، واجتمعوا على الاسلام وأتبعوا عليه . فالسلم هنا بمعنى الإسلام ، قاله مجاهد ، ورواه أبو مالك عن ابن عباس . ومنه قول الشاعر الكندي :

دَعَوْتُ شِعْرِي لِلْسَّلْمِ لَمَّا رَأَيْتُهُمْ تَوَلَّوْا مَسْجِدَنَا

أى الى الإسلام لما ارتدت كنفة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم مع الأثمت بن قيس الكندي ، ولأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالدخول في المسألة التي هي الصلح ، وإنما قيل النبي صلى الله عليه وسلم أن يحجج السلم إذا جنحوا له ، وأما أن يعتدى بها فلا ، قاله الطبري . وقيل : أمر من آمن بأقوامهم أن يدخلوا فيه بقلوبهم . وقال طائوس ومجاهد : ادخلوا في أمر الدين . سفیان الثوري : في أنواع البر كلها . وقوي « السلم » بكسر السين .

(١) الجفنة (بالتحريك) بتقديم الحاء على الميم) : القرس اذا كان من جلود ليس فيه غش ولا عيب .

قال الكسائي : السَّلم والسَّلم بمعنى واحد ، وكذا هو عند أكثر البصريين ، وهما جميعا يعانان للإسلام والمسالمة . وقرئ أبو عمرو بن العلاء بينهما ، فقرأها هنا : « أدخلوا في السَّلم » وقال هو الإسلام . وقرأ التي في « الأنفال » والتي في سورة « عبث » صلى الله عليه وسلم « السَّلم » بفتح السين ، وقال : هي بالفتح المسالمة . وأنكر المبرد هذه التفرقة . وقال عاصم الجحدري : السَّلم الإسلام ، والسَّلم الصلح ، والسَّلم الاستسلام . وأنكر محمد بن يزيد هذه التفرقات وقال : اللغة لا تؤخذ هكذا ، وإنما تؤخذ بالسَّماع لا بالقياس ؛ وبحاجة من فرق إلى دليل . وقد حكى البصريون : بنو فلان يَسلمُ ويَسلمُ وسلمٌ ، بمعنى واحد . قال الجوهري : والسَّلم الصلح ، بفتح وبكسر ، ويذكر ويؤنث ، وأصله من الاستسلام والالقياد ؛ ولذلك قيل للصلح : يَسلمُ . قال زهير :

وقد قلنا إن نَدرك السَّلمَ واسعاً • بمالٍ ومعروفٍ من الأمر تَسلمُ

ورجح الطبري حمل اللفظة على معنى الإسلام بما تقدم . وقال حذيفة بن اليمان : في هذه الآية الإسلام ثمانية أسهم : الصلاة سهم ، والزكاة سهم ، والصوم سهم ، والحج سهم ، والعمرة سهم ، والجهاد سهم ، والأمر بالمعروف سهم ، والنهي عن المنكر سهم ؛ وقد خاب من لا سهم له في الإسلام . وقال ابن عباس : نزلت الآية في أهل الكتاب ؛ والمعنى يأيا الذين آمنوا بموسى وعيسى أدخلوا في الإسلام بحمد صلى الله عليه وسلم كافة . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصراني ثم [يموت] لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » . و (كَافَّةٌ) معناه جميعا ، فهو نصب على الحال من السلم أو من ضمير المؤمنين ؛ وهو مشتق من قولهم : كففت أى منعت ، أى لا يتمتع منكم أحد من الدخول في الإسلام . والكف المنع ؛ ومنه كُفَّةُ القميص — بالضم — لأنها تمنع الثوب من الانتشار ؛ ومنه كِفَّةُ الميزان — بالكسر — التي تجمع الموزون وتمنع أن يتشر ؛ ومنه كُفُّ الإنسان ، الذي يجمع

منافعه ومضائره؛ وكل مستدير كفة، وكل مستطيل كفة . ورجل مكفوف البصر، أى منع من النظر، فالجماعة تسمى كافة لامتناعهم عن التفرق . (وَلَا تَتَّبِعُوا) نهي . (خُطُوبَاتِ) مفعول ، وقد تقدم . وقال مقاتل : استأذن عبد الله بن سلام وأصحابه بأن يقرءوا التوراة في الصلاة وأن يعملوا ببعض ما في التوراة ؛ فترلت « وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ » فإن اتباع السنة أولى بعد ما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم من خطوات الشيطان . وقيل : لا تسلكوا الطريق الذي يدعوكم إليه الشيطان ؛ (إِنَّهُ لَكُمْ عُدُوٌّ مُبِينٌ) ظاهر العداوة؛ وقد تقدم^(١) .

قوله تعالى : فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

أى تتحيم عن طريق الاستقامة . وأصل الزلل في القدم، ثم يستعمل في الاعتقادات والآراء وغير ذلك؛ يقال : زَلَّ يَزِلُّ زَلًّا وَزَلًّا وَزُلُولًا، أى دَحَضَتْ قَدَمُهُ . وقرأ أبو السَّيَالِ العدوى « زَلَلْتُمْ » بكسر اللام، وهما لنتان . وأصل الحرف من الزلق، والمعنى ضلَّتم وتَّجَمَّ من الحق . (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ) أى المعجزات وآيات القرآن، إن كان الخطاب للؤمنين، فإن كان الخطاب لأهل الكفاين فالبيِّنات ما ورد في شرعهم من الإِعلام بمحمد صلى الله عليه وسلم والتعريف به . وفى الآية دليل على أن عقوبة العالم بالذنب أعظم من عقوبة الجاهل به ، ومن لم تبلغه دعوة الإسلام لا يكون كافرا بترك الشرائع . وحكى النقاش أن كعب الأخبار لما أسلم كان يتعلم القرآن، فأقرأه الذى كان يعلمه « فأعلموا أن الله غفور رحيم » فقال كعب : إني لأستكر أن يكون هكذا؛ ومرة بهما رجل فقال كعب : كيف تقرأ هذه الآية ؟ فقال الرجل : « فأعلموا أن الله عزيز حكيم » فقال كعب : هكذا ينفى . و« عزيز » لا يتمتع عليه ما يريد . « حكيم » فيما يفعله .

(١) راجع المسألة الثالثة ج ٢ ص ٢٠٨ طبع ثانية .

(٢) راجع المسألة الرابعة ج ٢ ص ٢٠٩ طبع ثانية .

قوله تعالى : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ
وَالْمَلَائِكَةُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٦٠﴾

يعني التاركين الدخول في السلم، وهل يراد به هنا التجدد، أي ما ينظرون إلا أن يأتيهم
في ظُلل من الغمام والملائكة . نظرتُه وانتظرته بمعنى . والنظر الاستظار . وقرأ قتادة وأبو جعفر
يزيد بن القعقاع والضحاك « في ظلال من الغمام » . وقرأ أبو جعفر « والملائكة » بالغضض
عطفا على الغمام، وتقديره مع الملائكة ؛ تقول العرب : أقبل الأمير في المسكر، أي مع المسكر .
« ظُلل » جمع ظُلة في التكسير، كظُلة وظُلم وفي التسليم ظُللات ، وأنشد سيويه :
إِذَا الْوَحْشُ حَمَّ الْوَحْشُ فِي ظُلَلِهَا • سَوَاقِطٌ مِّنْ حُرُوقٍ كَانَتْ أَظْهَرًا^(١)
وُطُلَات . وظلال جمع ظل في الكثير، والقليل أظلال . ويموز أن يكون ظلال جمع ظُلة،
مثل قوله : قُلة وقِلَال، كما قال الشاعر :

• مَمْزُوجَةٌ بِمَاءِ الْقِلَالِ •

قال الأخفش سعيد : والملائكة بالغضض بمعنى وفي الملائكة . قال : والرفع أجود؛
كما قال : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ » ، « وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » .
قال الفراء : وفي قراءة عبد الله « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله والملائكة في ظلال من الغمام » .
قال قتادة : الملائكة يعني تأتيهم لقبض أرواحهم ؛ ويقال يوم القيامة، وهو أظهر . قال
أبو العالية والربيع : تأتيهم الملائكة في ظلال من الغمام ، ويأتيهم الله فيها شاء . وقال الزجاج :
التقدير في ظلال من الغمام ومن الملائكة . وقيل : ليس الكلام على ظاهره في حقه سبحانه، وإنما
المعنى يأتيهم أمر الله وحكمه . وقيل : أي بما وعدهم من الحساب والعذاب في ظلال ، مثل
« فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا » أي بخذلانه إياهم؛ هذا قول الزجاج، والأول قول الأخفش
سعيد . وقد يحتمل أن يكون معنى الإتيان راجعا إلى الجزاء؛ فسمي الجزاء إتيانا كما سمي

(١) البيت مهدى . ومعنى أظهر : صار في وقت الظهيرة . وصف سيره في المجاورة إذا استكن الوحش من حر
النس واحتداهما ولحق بكنهه . (٢) القلال (بالكسر جمع قلة بالنسبة) : الحفرة، وقيل : هراء . لغريب كالجفرة .

التخويف والعذيب في قصة نمرود إتيانا فقال : « فَأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّهُمْ مِنَ التَّوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ
السَّفْهُ مِنْ قُوَّتِهِمْ » . وقال في قصة النضير : « فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ
فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ » ، وقال : « وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ نَجْدٍ لَأَتَيْنَا بِهَا » . وإنما احتمل
الإتيان هذه المعاني لأن أصل الإتيان عند أهل اللغة هو القصد إلى الشيء ؛ فعنى الآية :
هل ينظرون إلا أن يظهر الله تعالى فعلا من الأفعال مع خلق من خلقه يقصد إلى مجازاتهم
ويقضي في أمرهم ما هو قاض ؛ وكما أنه سبحانه أحدث فعلا سماه نزولا واستواء كذلك يحدث
فعلا يسميه إتيانا ، وأفعاله بلا آلة ولا علة ، سبحانه ! وقال ابن عباس في رواية أبي صالح :
هذا من المكنوم الذي لا يُفسر . وقد سكت بعضهم عن تأويلها ، وتأولها بعضهم كما ذكرنا .
وقيل : بمعنى الباء ، أى يأتيمهم بظُلل ، ومنه الحديث : « يأتيمهم الله في صورة » أى بصورة
امتعانا لهم . ولا يجوز أن يحمل هذا وما أشبهه مما جاء في القرآن والخبر على وجه الانتقال
والحركة والزوال ، لأن ذلك من صفات الأجرام والأجسام ، تعالى الله الكبير المتعال ،
ذو الجلال والإكرام عن جملة الأجسام علوا كبيرا . والغناء : السحاب الرقيق الأبيض ؛
سُمي بذلك لأنه يَنُمُّ ، أى يستقر كما تقدم . وقرأ معاذ بن جبل « وقضاء الأمر » . وقرأ يحيى
ابن يعمر « وقضى الأمور » بالجمع . والجمهور « وقضى الأمر » فالمعنى وقع الجزاء وعذب
أهل العصيان . وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي « ترجع الأمور » على بناء الفعل للفاعل ،
وهو الأصل ؛ دليله « أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » ، « إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ » . وقرأ الباقون
« تُرجع » على بناءه للفعل ، وهى أيضا قراءة حسنة ؛ دليله « ثُمَّ تَرَدُّونَ » ، « ثُمَّ رُدُّوا
إِلَى اللَّهِ » ، « وَلَتَنْ رُدُّدَتْ إِلَى رَبِّي » . والقراءتان حستان بمعنى ، والأصل الأولى ، وبناءه
للفعل توسع وفرغ ، والأمور كلها راجعة إلى الله قبل وبعد . وإنما نبه بذلك في يوم
القيامة على زوال ما كان منها إلى الملوك في الدنيا .

قوله تعالى : سَلِّ بِنِي إِسْرَءِيلَ كَرَّمَاتِهِمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١١﴾

(سَلِّ) من السؤال . بتخفيف الهزمة ، فلما تحركت السين لم ينجح الى ألف الوصل .
وقيل : إن للعرب في سقوط ألف الوصل في « سَلِّ » وثبوتها في « وآسأل » وجهين :
أحدهما - حذفها في أحدهما وثبوتها في الأخرى ، وجاء القرآن بهما ، فاتبع خط المصحف في إثباته للهزمة وإسقاطها . والوجه الثاني - أنه يختلف لثبوتها وإسقاطها باختلاف الكلام المستعمل فيه ، فحذف الهزمة في الكلام المتبداً ، مثل قوله : « سَلِّ نَبِيَّ إِسْرَءِيلَ » ،
وقوله : « سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ ذَلِكَ رِزْقٌ » . وثبتت في المطلق ، مثل قوله : « وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ » ،
وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ » قاله علي بن عيسى . وقرأ أبو عمرو في رواية ابن عباس عنه « إيسال »
على الأصل . وقرأ قوم « إيسل » على نقل الحركة إلى السين وإبقاء ألف الوصل ، على لغة
من قال : الآخر . و « كَرَّمَ » في موضع نصب ، لأنها مفعول ثانٍ لآتيناهم . وقيل : بقمل
مضمر ، تقديره كم آتيناهم . ولا يجوز أن يتقدم الفعل لأن لها صدر الكلام .
(مِنْ آيَةٍ) في موضع نصب على التمييز على التقدير الأول ، وعلى الثاني مفعول ثانٍ لآتيناهم ،
ويجوز أن تكون في موضع رفع بالابتداء ، والخبر في آتيناهم ؛ وبصيرفيه عائد على كم ، تقديره : كم
آتيناهموه ، ولم يعرب وهي اسم لأنها بمثابة الحروف لما وقع فيه معنى الاستفهام ؛ وإذا فرق
بين كم وبين الاسم كان الاختيار أن تأتي من كما في هذه الآية ، فإن حذفها نصبت في الاستفهام
والخبر ، ويجوز انخفاض في الخبر ؛ كما قال الشاعر :

كَمْ يَجُودُ مُقْرِفٌ نَالُ الْعَلَا • وَكَرِيمٌ مُجْهَلٌ قَدْ وَضَعَا

والمراد بالآية كم جاءهم في أمر عهد عليه السلام من آية مُعْرِفَةٍ به دالة عليه . قال مجاهد
والحسن وغيرهما : يعني الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام من فلق البحر والظلال من
النعام والمصا واليد وغير ذلك . وأمر الله تعالى نبيه بسؤالهم على جهة التفريع لم والتوبيخ .

قوله تعالى : (وَمَنْ يُدِلَّ نِعْمَةً اللَّهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ) لفظ عام لجميع العامة ، وإن كان المشار اليه بنى إسرائيل ، لكنهم بئلا ما في كتبهم ووجدوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فاللفظ منسحب على كل مبتذل نعمة الله تعالى . وقال الطبري : النعمة هنا الإسلام ؛ وهذا قريب من الأول . ويدخل في اللفظ أيضا كفار قريش ؛ فإن بعث محمد صلى الله عليه وسلم فيهم نعمة عليهم ، فبئلا قبولها والشكر عليها كفرا .

قوله تعالى : (فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) خبر يتضمن الوعيد . والعقاب مأخوذ من العقب ؛ كأن المعاقب يمشي بالمجازاة له في آثار عقبه ؛ ومنه عقبه ^(١) الراكب وعقبه القدير . في الصحاح والعقب أيضا : شئ من المرق يرده مستمبر القدر إذا ردها . فالعقاب والعقوبة يكونان يعقب الذنب ؛ وقد عاقبه بذنبه .

قوله تعالى : زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

قوله تعالى : (زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) على ما لم يسم فاعله . والمراد رؤساء قريش . وقرا مجاهد وحيد بن قيس على بناء الفاعل . قال النحاس : وهي قراءة شاذة ؛ لأنه لم يتقدم للفاعل ذكر . وقرا ابن أبي عملة « زَيْنَتْ » بإظهار العلامة ؛ وجاز ذلك لكون التأنيث غير حقيق ، والمزين هو خالفها ومخرعها وخالف الكفر ، وزينها أيضا الشيطان بوسوسته وإغوائه . وخص الذين كفروا بالذكر لقبولهم الترين جملة ، وإقبالهم على الدنيا وإعراضهم عن الآخرة بسببها . وقد جعل الله ما على الأرض زينة لها ليلو الخلق أيهم أحسن عملا ؛ فالمؤمنون الذين هم على سنن الشرع لم تغنهم الزينة ، والكفار تملكهم لأنهم لا يمتنعون

(١) عقبه الراكب (بضم فسكون) : الموضع يركب منه .

(٢) عقبه القدير : ما المرق في أسفلها من تابل وغيره .

غيرها . وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين قدم عليه بالمال : اللَّهُمَّ إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ إِلَّا أَنْ تَهْرَحَ بِمَا زَيْتَ لَنَا .

قوله تعالى : ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إشارة إلى كفار قريش ، فإنهم كانوا يظلمون سالم من الدنيا ويغتبطون بها ، ويسخرون من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم . قال ابن جريج : في طلبهم الآخرة . وقيل : لفقرهم وإقلاهم ؛ بكلام وصيب وابن مسعود وغيرهم ؛ رضي الله عنهم . فبني سبحانه على خفض منزلتهم لتبجح فعلهم بقوله : «وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» . وروى علي بن النعمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «من أسندل مؤمنا أو مؤمنة أو حقره لفقره وقلة ذات يده شهره الله يوم القيامة ثم فضمه ومن بهت مؤمنا أو مؤمنة أو قال فيه ما ليس فيه أقامه الله تعالى على كل من نار يوم القيامة حتى يخرج مما قال فيه وإن عظم المؤمن أعظم عند الله وأكرم عليه من ملك مقرب وليس شيء أحب إلى الله من مؤمن تائب أو مؤمنة تائبة وإن الرجل المؤمن يعرف في السماء كما يعرف الرجل أهله وولده» . ثم قيل : معنى «وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أى في الدرجة ؛ لأنهم في الجنة والكفار في النار . ويحتمل أن يراد بالفوق المكان ؛ من حيث إن الجنة في السماء ، والنار في أسفل السافلين . ويحتمل أن يكون التفضيل على ما يتضمنه زعم الكفار ؛ فإنهم يقولون : وإن كان معاد فلنا فيه الحظ أكثر مما لكم ؛ ومنه حديث خباب ^(١) مع العاص بن وائل ، قال خباب : كان لي على العاص بن وائل دين فأنبئه أنه ضاه ؛ فقال لي : لن أقضيك حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم . قال : فقلت له : إني لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث . قال : وإني لأبعوث من بعد الموت ، فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مالي وولدي ؛ الحديث . وسأبني بتمامه إن شاء الله تعالى . ويقال : سخرت منه وسخرت به ، وصحكت منه وصحكت به ، وهزئت منه وبه ؛ كل ذلك يقال ، حكاه الأَخفش . والاسم السخرية والسخرى والسخرى ،

(١) خباب (بفتح الخاء وتشديد الباء) : بن الأزد ؛ شهد بدرًا ، وكان قينا في الجاهلية ومن المهاجرين الأولين .

(٢) منه قوله تعالى : «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ...» آية ٧٧ سورة «مريم» .

وقرىٰ بهما قوله تعالى : « لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حِجْرِيًّا » وقوله : « فَاتَّخِذُوهُمْ حِجْرِيًّا » .
ورجلٌ مُّشْكِرٌ . مُّشْكِرُهُ ، يُشْكِرُهُ ، ويُسْكِرُهُ — يفتح الحاء — يَسْكُرُ من الناس . وفلان مُّشْكِرٌ يَسْكُرُ
في العمل ، يقال : خَادَمَهُ مُشْكِرٌ ، وسَكَّرَهُ تَسْكِيرًا كَلَّفَهُ عَمَلًا بِلَا أَجْرَةٍ .

قوله تعالى : (وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) قال الضحاك : يعنى من غير تَبِعَةٍ
في الآخرة . وقيل : هو إشارة الى هؤلاء المستضعفين ، أى يرزقهم علو المنزل ؛ فالآية تنبيه
على عظيم النعمة عليهم . وجعلَ رزقهم بغير حساب من حيث هو دائم لا يتناهى ، فهو
لا ينعد . وقيل : إن قوله « بِغَيْرِ حِسَابٍ » صفة لِرِزْقِ الله تعالى كيف يصرف ؛ إذ هو جلت
قدرته لَا يُنْفِقُ بَعْدَ ؛ ففضله كله بغير حساب ، والذي بحساب ما كان على عمل قدمه العبد ؛
قال الله تعالى : « جَزَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا » . والله أعلم . ويحتمل أن يكون المعنى بغير
احساب من المرزوقين ، كما قال : « وَيَرْزُقُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » .

قوله تعالى : كَانَتِ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ
وْمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا
فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا
بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ
يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١١٣﴾

قوله تعالى : (كَانَتِ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) أى على دين واحد . قال أبى بن كعب
وابن زيد : المراد بالناس بنو آدم حين أخرجهم الله نسبا من ظهر آدم فافترقوا له بالوحدانية .
وقال مجاهد : الناس آدم وحده ؛ وسمى الواحد بلفظ الجمع لأنه أصل النسل . وقيل : آدم
وحواء . وقال ابن عباس وقتادة : المراد بالناس القرون التى كانت بين آدم ونوح ، وهى عشرة
كانوا على الحق حتى اختلفوا فبعث الله نوحا قن بعده . وقال ابن أبى خيثمة : منذ خلق الله
آدم عليه السلام إلى أن بعث محمدا صلى الله عليه وسلم خمسة آلاف سنة وثمانمائة سنة . وقيل

أَكْفَرُ مِنْ ذَلِكَ ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ أَلْفُ سَنَةٍ وَمِائَتَا سَنَةٍ . وَعَاشَ آدَمُ تِسْعَ مِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً .
 وَكَانَ النَّاسُ فِي زَمَانِهِ أَهْلَ مِلَّةٍ وَاحِدَةٍ ، مُتَمَسِّكِينَ بِالَّذِينَ ، تَصَافَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ، وَدَلَمُوا عَلَى ذَلِكَ .
 إِلَى أَنْ رُفِعَ إِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاخْتَلَفُوا . وَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ ؛ لِأَنَّ إِدْرِيسَ بَعْدَ نُوحٍ عَلَى الصَّحِيحِ .
 وَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ الْكَلْبِيُّ وَالْوَاهِدِيُّ : الْمُرَادُ نُوحٌ وَمَنْ فِي السَّفِينَةِ ، وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ثُمَّ بَعْدَ وَفَاةِ نُوحٍ
 اخْتَلَفُوا . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا : كَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً عَلَى الْكُفْرِ ؛ يَرِيدُ فِي مَدَّةِ نُوحٍ حِينَ بَعَثَهُ اللَّهُ ؛
 وَعَنْهُ أَيْضًا : كَانَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُمَّةً وَاحِدَةً ، كُلُّهُمْ كُفَّارٌ ؛ وَوَلَدَ إِبْرَاهِيمَ
 فِي جَاهِلِيَةِ قَبِضَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ وَغَيْرَهُ مِنَ النَّبِيِّينَ . فَهَذَا كَانَ عَلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ عَلَى بَابِهَا مِنَ الْمَضِيِّ .
 الْمُنْقَضِ . وَكُلٌّ مِنْ قَدَرِ النَّاسِ فِي الْآيَةِ مُؤْمِنِينَ قَدَرُ فِي الْكَلَامِ فَاخْتَلَفُوا فَبَعَثَ ؛ وَدَلَّ عَلَى هَذَا
 الْحَنِيفِ « وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ » أَيْ كَانَ النَّاسُ عَلَى دِينِ الْحَقِّ فَاخْتَلَفُوا فَبَعَثَ اللَّهُ
 النَّبِيِّينَ ، مُبَشِّرِينَ مِنْ أَطْلَاعٍ وَمُنْذِرِينَ مِنْ عَصَى . وَكُلٌّ مِنْ قَدَرِهِمْ كُفَّارًا كَانَتْ بَعَثَةُ النَّبِيِّينَ
 إِلَيْهِمْ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ « كَانَ » لِلثَّبُوتِ ، وَالْمُرَادُ الْإِخْبَارُ عَنِ النَّاسِ الَّذِينَ هُمْ الْجَنَسُ كُلُّهُ
 أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ فِي خُلُوقِهِمْ عَنِ الشَّرَائِعِ وَجِهَلِهِمْ بِالْحَقَائِقِ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ وَتَفَضَّلَهُ بِالرَّسْلِ
 إِلَيْهِمْ ؛ فَلَا يَخْتَصُ « كَانَ » عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ بِالْمَضِيِّ فَقَطْ ، بَلْ مَعْنَاهُ مَعْنَى قَوْلِهِ : « وَكَانَ اللَّهُ
 غَفُورًا رَحِيمًا » .

و « أُمَّة » مَأْخُودَةٌ مِنْ قَوْلِهِمْ : أُمِّتْنَا كَذَا ، أَيْ قَصَدْتُهُ ؛ فَمَعْنَى « أُمَّة » مَقْصِدُهُمْ وَاحِدٌ ؛
 وَيُقَالُ لِلوَاحِدِ : أُمَّةٌ ؛ أَيْ مَقْصِدُهُ غَيْرُ مَقْصِدِ النَّاسِ ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 فِي قُسِّ بْنِ سَاعِدَةَ : « يُبَشِّرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَاحِدَةً » . وَكَذَلِكَ قَالَ فِي زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ
 نُعَيْلٍ . وَالْأُمَّةُ الْقَامَةُ ، كَأَنَّهَا مَقْصِدُ سَائِرِ الْبِلَدِ . وَالْإِمَّةُ (بِالْكَسْرِ) : النِّعْمَةُ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ
 يَقْصِدُونَ قَصْدَهَا . وَقِيلَ : إِمَامٌ ، لِأَنَّ النَّاسَ يَقْصِدُونَ قَصْدَ مَا يَفْعَلُ ؛ عَنْ النَّحَّاسِ .
 وَقَرَأَ آيَةُ بَنِي كَسْبٍ : « كَانَ الْبَشَرُ أُمَّةً وَاحِدَةً » . وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ « كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً
 فَاخْتَلَفُوا فَبَعَثَ » .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (قَبِضَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ) وَجَمَعَهُمْ مِائَةً وَأَرْبَعَةً وَعِشْرُونَ أَلْفًا ، وَالرَّسُلُ مِنْهُمْ
 ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَلَاثَةٌ عَشَرَ ، وَالْمَذْكُورُونَ فِي الْقُرْآنِ بِالْأَسْمَاءِ ثَمَانِيَةٌ عَشَرَ ، وَأَوَّلُ الرُّسُلِ آدَمُ ،

على ما جاء في حديث أبي ذر ، أخرجه الأجرى وأبو حاتم البستي . وقيل : نوح ، لحديث الشافعية ؛ فان الناس يقولون له : أنت أول الرسل . وقيل : إدريس ، وسيأتي بيان هذا في « الأعراف »^(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : (مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) نصب على الحال . (وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ) اسم جنس بمعنى الكتب . وقال الطبري : الألف واللام في الكتاب للمعهد ، والمراد التوراة . و (لِيُحْكَمَ) مستند إلى الكتاب في قول الجمهور ؛ وهو نصب بإضمار أنت ، أي لأن يحكم ، وهو مجاز مثل « هَذَا كِتَابًا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ » . وقيل : أي ليحكم كل نبي بكلامه ، وإذا حكم بالكتاب فكانت حكم الكتاب . وقراءة عاصم الجعدري « لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ » على ما لم يسم فاعله ، وهي قراءة شاذة ؛ لأنه قد تقدم ذكر الكتاب . وقيل : المعنى ليحكم الله ، والضمير في « فيه » عائد على « ما » من قوله « فَيَا » والضمير في « فيه » الثانية يحتمل أن يعود على الكتاب ، أي وما اختلف في الكتاب إلا الذين أوتوه . موضع « الذين » رفع بفعلهم . و « أَوْتَوْهُ » بمعنى أعطوه . وقيل : يعود على المنزل عليه ؛ وهو عهد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله الزجاج . أي وما اختلف في النبي عليه السلام إلا الذين أعطوا علمه . (بَيِّنَاتٍ لِّبَيْنِهِمْ)^(٢) نصب على المفعول له ، أي لم يختلفوا إلا للبيِّن ، وقد تقدم معناه . وفي هذا تنبيه على السفة في فعلهم ، والقبح الذي واقعوه . و « هدى » معناه أرشد ، أي فهدى الله أمة محمد إلى الحق بأن بين لهم ما اختلف فيه من كان قبلهم . وقالت طائفة : معنى الآية أن الأمم كذب بعضهم كتاب بعض ؛ فهدى الله أمة محمد للتصديق بجمعها . وقالت طائفة : إن الله هدى المؤمنين للحق فها اختلف فيه أهل الكافرين ؛ من قولهم : إن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا . وقال ابن زيد وزيد بن أسلم : من قبلهم ؛ فان اليهود إلى بيت المقدس ، والنصارى إلى المشرق ؛ ومن يوم الجمعة فان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « هذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدينا الله له فاليهود غد وللنصارى بعد غد » ومن صيغهم ، ومن جمع ما اختلفوا فيه . وقال ابن زيد :

(١) عذ قوله تعالى : « وَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ... » آية ٩٠ .

(٢) راجع ٢ ص ٢٨ طبة ثانية . (٣) في بعض نسخ الأصل : « الشنة » .

واختلفوا في عيسى بقلته اليهود لقرية، وجعلته النصارى رباً؛ فهدى الله المؤمنين بأن جعلوه عبد الله. وقال الفراء: هو من المقلوب — واختاره الطبري — قال: وتقدره فهدى الله الذين آمنوا الحق بما اختلفوا فيه. قال ابن عطية: «ودعا الى هذا التقدير خوف أن يحتمل اللفظ أنهم اختلفوا في الحق فهدى الله المؤمنين لبعض ما اختلفوا فيه، وعساه غير الحق في نفسه. نحا الى هذا الطبري في حكايته عن الفراء، وأدله القلب على لفظ تجاب الله دون ضرورة تدفع الى ذلك عجز وسوء نظر؛ وذلك أن الكلام يخرج على وجهه ووصفه، لأن قوله: «فهدى» يقتضي أنهم أصابوا الحق، وتم المعنى في قوله «فيه» وتبين بقوله: «من الحق» إذ جنس ما وقع الخلاف فيه، قال المهدوي: وقدم لفظ الاختلاف على لفظ الحق اهتماماً العناية إنما هي بذكر الاختلاف. قال ابن عطية: وليس هذا عندي بقوة. وفي قراءة عبد الله بن مسعود: لما اختلفوا عنه من الحق «أى عن الإسلام» و«(بأذنيه) قال الزجاج: معناه بابه. قال النحاس: وهذا غلط، والمعنى بأمره، وإذ أذنت في الشيء فقد أمرت به؛ أى فهدى الله الذين آمنوا بأن أمرهم بما يجب أن يستعملوه. وفي قوله: «وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» رد على المعتزلة في قولهم: إن العبد يستبد بهدياته نفسه.

قوله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَقَّتْهُمْ أَبْشَاءُ وَضُرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿١١١﴾

قوله تعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ) حسبت معناه ظنتم. قال قتادة والسدي واكثر المفسرين: نزلت هذه الآية في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدّة، والحز والبرد وسوء العيش وأنواع الشدائد؛ وكان كما قال الله تعالى: «وَبَلَّغْتَ الْقُلُوبَ الْحَنَاطِرَ». وقبل: نزلت في حرب أحد؛ نظيرها — في آل عمران — «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ» نزلت الآية تلبية للمهاجرين حين تركوا ديارهم

وأموالهم بأيدي المشركين ، وآثروا رضا الله ورسوله ، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسرت قوم من الأغنياء النفاق ؛ فأنزل الله تعالى تطيباً لقلوبهم « أَمْ حَسِبْتُمْ » . و « أَمْ هُنَا مَقْطَعَةٌ » بمعنى بل ؛ وحكى بعض اللغويين أنها قد نجيء بمثابة ألف الاستفهام ليبدأ بها ، و « حَسِبْتُمْ » تطلب مفعولين ؛ فقال النحاة : « أَنْ تَدْخُلُوا » تسد مسد المفعولين . وقيل : للمفعول الثاني محذوف : أحسبتم دخولكم الجنة واقما . و « لَمْ » بمعنى لم . و « مَثَلٌ » معناه شبه ؛ أى ولم تتمتحنوا بمثل ما امتحن به من كان قبلكم فتصبروا كما صبروا . وحكى النضر بن شميل^(١) أن « مثل » يكون بمعنى صفة ، ويحوز أن يكون المعنى ولما يصيبكم مثل الذى أصاب الذين من قبلكم ، أى من البلاء . قال وهب^(٢) : وجد فيها بين مكة والطائف سبعون نيا موقى ، كان سبب موتهم الجوع والقمل ، ونظير هذه الآية « أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » على ما يأتى ؛ فاستدعاهم تعالى إلى الصبر ، ووعدهم على ذلك بالنصر فقال : « أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » . والزلزلة : شدة التحريك ، تكون فى الأشخاص وفى الأحوال ؛ يقال : زلزل الله الأرض زلزلة وزلازلا - بالكسر - فزلزلت إذا تحركت واضطربت ؛ فعنى « زُلْزِلُوا » خُوفُوا وَتَرَكُوا . والزلازل - بالفتح - الاسم . والزلازل : الشدائد . وقال الزجاج : أصل الزلزلة من زل الشىء عن مكانه ؛ فإذا قلت : زلزلته فعناه كررت زلله من مكانه . ومذهب سيويه أن زلزل رباعى كدحرج . وقرا نافع « حتى يقولُ » بالرفع ، والباقون بالنصب . ومذهب سيويه فى « حتى » أن النصب فيها بعدها من جهتين والرفع من جهتين ؛ قول : سرت حتى أدخل المدينة - بالنصب - على أن السير والدخول جميعا قد مضيا ، أى سرت إلى أن أدخلها ، وهذه غايه ؛ وعليه قراءة من قرأ بالنصب . والوجه الآخر فى النصب فى غير الآية سرت حتى أدخلها ، أى كى أدخلها . والوجهان فى الرفع سرت حتى أدخلها ، أى سرت فأدخلها ،

(١) فى بعض نسخ الأمل : « وحكى البصريون » . (٢) يخبر الله لوم .

وقد مضيا جميعا، أى كنت سرت قدخلت . ولا تعمل حتى ها هنا بإخمار أن، لأن بعدها جملة؛ كما قال الفرزدق :

• يَا عَجَبًا حَتَّى كُتِبَ نَسَبِي^(١) •

قال النحاس : « فعلى هذا القراءة بالرفع أين وأصح معنى ، أى وزلزلوا حتى الرسول يقول، أى حتى هذه حاله ؛ لأن القول إنما كان عن الزلزلة غير منقطع منها، والنصب على الغاية ليس فيه هذا المعنى » . والرسول هنا شئيا فى قول مقاتل، وهو اليسع . وقال الكلبي : هذا فى كل رسول بُعث إلى أمته وأجهد فى ذلك حتى قال : متى نصر الله ؟ . وروى عن الضحاك قال : يعنى عمدا صلى الله عليه وسلم ، وعليه يدل نزول الآية، والله أعلم . والوجه الآخر فى غير الآية سرت حتى أدخلها ، على أن يكون السير قد مضى والدخول الآن . وحكى سيويه : مريض حتى لا يرجوه ، أى هو الآن لا يرجى ، ومثله سرت حتى أدخلها لا أتمنع . وبالرفع قرأ مجاهد والأعرج وابن مُحَيِّص وشيبة . وبالنصب قرأ الحسن وأبو جعفر وابن أبى اسحاق وشبل وغيرهم . قال مكى : وهو الاختيار، لأن جماعة القراء عليه . وقرأ الأعمش « وزلزلوا ويقول للرسول » بالواو بدل حتى . وفى مصحف ابن مسعود « وزلزلوا ثم زلزلوا ويقول » . وأكثر المتأولين على أن الكلام إلى آخر الآية من قول الرسول والمؤمنين ، أى بلغ الجهد بهم حتى استبطلوا النصر؛ فقال الله تعالى : « أَلَا إِنَّ نَعْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » . ويكون ذلك من قول الرسول على طلب استعجال النصر لا على شك وأرتياب . والرسول اسم جنس . وقالت طائفة : فى الكلام تهديم وتأخير، والتقدير: حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله ؛ فيقول الرسول : ألا إن نصر الله قريب ؛ فقدم الرسول فى الرتبة لمكانته، ثم قدم قول المؤمنين لأنه المتقدم فى الزمان . قال ابن عطية : وهذا تحمك، وحمل الكلام على

(١) وقام البيت : • كَانَ أَبَاكَ تَهْتَلُ أَوْ مُجَانِحَ •

جهاكليب بن يرمع وهط جبر، وجعلهم من الضمة بحيث لا يسايرن منه لشره . ونهشل ومجاشع : وهط الفرزدق، ومها ابتادام (عن شرح التواهد) .

وجهه غير متعذر . ويحتمل أن يكون « ألا إن نصر الله قريب » إخبارا من الله تعالى مؤثقا بعد تمام ذكر القول .

قوله تعالى : (مَتَى نَصْرُ اللَّهِ) رفع بالابتداء على قول سيويه ، وعلى قول أبي العباس رفع بفعل ، أى متى يقع نصر الله ، و« قريب » خبر « إن » . قال النحاس : ويجوز فى غير القرآن « قريبا » أى مكانا قريبا . و« قريب » لا تشبه العرب ولا تجمعها ولا تؤنثه فى هذا المعنى ؛ قال الله عز وجل : « إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » . وقال الشاعر :^(١)
له الوليل إن أمسى ولا أم هانم . قريب ولا بَسْبَاسَةٌ بِنْتُ يَشْكُرَا
فإن قلت : فلان قريب لى شئت وجمعت ؛ فقلت : قريون وأقرباء وقرباء .

قوله تعالى : يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَتَقَرَّمُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْآفَرِينِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾
فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ) إن خففت الهمزة ألقيت حركتها على السبىن ففتحتها وحذفت الهمزة فقلت : يَسْأَلُونَكَ . وزلت الآية فى عمرو بن الجَوْح ، وكان شيخا كبيرا فقال : يا رسول الله إن مالى كثير ، فإذا أتصلىق ، وعلى من أنفق ؟ فقلت « يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ » .

الثانية - قوله تعالى : (مَاذَا يُنْفِقُونَ) « ما » فى موضع رفع بالابتداء ، و« ذا » الخبر ، وهو بمعنى الذى ، وحذفت الهاء لطول الأسم ، أى ما الذى ينفقونه ؛ وإن شئت كانت « ما » فى موضع نصب ب« ينفقون » و« ذا » مع « ما » بمثابة شىء واحد ولا يحتاج الى ضمير ، ومتى كانت اسما مركبا فهى فى موضع نصب ؛ إلا ما جاء فى قول الشاعر :

(١) هو امرؤ القيس ؛ كما فى ديوانه .

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا * سوى أن يقولوا إني لك عاشق

فإن «عسى» لا تعمل فيه؛ فـ«ماذا» في موضع رفع وهو مركب، إذ لا صلة لـ«ما» .

الثالثة — قيل : إن السائلين هم المؤمنون ، والمعنى يسألونك ما هي الوجوه التي ينفقون فيها ، وأين يضعون ما لزم إنفاقه . قال السدي : نزلت هذه الآية قبل فرض الزكاة . ثم نسختها الزكاة المفروضة . قال ابن عطية : ويهم المهدوي على السدي في هذا . فتسبب إليه أنه قال : إن الآية في الزكاة المفروضة ثم نسخ منها الوالدان . وقال ابن جريج وغيره : هي نذبة ، والزكاة غير هذا الانفاق ؛ فكل هذا لا نسخ فيها ، وهي مينة لمصارف صدقة التطوع ، فواجب على الرجل الثني أن ينفق على أبويه المحتاجين ما يصلحهما في قدر حالهما من حاله ، من طعام وكسوة وغير ذلك . قال مالك : ليس عليه أن يزوجه أباه ، وعليه أن ينفق على امرأة أبيه ؛ كانت أمه أو أجنبية ، وإنما قال مالك : ليس عليه أن يزوجه أباه لأنه رآه يدنفق عن التزويج غالباً ، ولو احتاج حاجة ماسة لوجب أن يزوجه ؛ لولا ذلك لم يوجب عليه أن ينفق عليهما . فأما ما يتعلق بالعبادات من الأموال فليس عليه أن يعطيه ما يحجب به أو يزوجه ، وعليه أن يخرج عنه صدقة الفطر ؛ لأنها مستحقة بالثقة والإسلام .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَقْتُمُ ﴾ « ما » في موضع نصب بداءة مقم وكذا « وما تنفقوا » وهو شرط والجواب « قالوا الدين » ، وكذا « وما تفعلوا من خير » شرط ، وجوابه « فإن الله به عليم » وقد مضى القول في اليتيم والمسكين وابن السبيل . ونظير هذه الآية قوله تعالى : « قَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ » . وقرأ علي بن أبي طالب « ففعلوا » بإياء على ذكر الغائب ، وظاهر الآية الخبر ، وهي تتضمن الوعد بالمجازاة .

قوله تعالى : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٢١﴾

(١) تراجع المسئلة الخامسة وما بعدها ج ٢ ص ١٤ طبع ثانية

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (كُتِبَ) معناه فرض ، وقد تقدم مثله . وفراً قدم « كتب عليكم القتل » ، وقال الشافعي :

كُتِبَ القتل والقتال علينا . وعلى الغنائم بَرَّ الذبُول

هذا هو فرض الجهاد ، بين سبحانه أن هذا مما استحبوا به وجعل وصلة إلى الجنة . والمراد بالقتال قتال الأعداء من الكفار ، وهذا كان معلوما لهم بقرائن الأحوال ، ولم يؤذن للنبي صلى الله عليه وسلم في القتال مدة إقامته بمكة ؛ فلما هاجر أُذِنَ له في قتال من يقاتله من المشركين فقال : « أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا » ثم أُذِنَ له في قتال المشركين عامة . واختلقوا من المراد بهذه الآية ؛ فقيل : أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، فكان القتال مع النبي صلى الله عليه وسلم فرض عين عليهم ؛ فلما استقر الشريعة صار على الكفاية ؛ قاله عطاء والأوزاعي . قال ابن جريح : قلت لعطاء : أوجب الفروع على الناس في هذه الآية ؟ فقال : لا ، إنما كُتِبَ على أولئك . وقال الجمهور من الأمة : أول فرضه إنما كان على الكفاية دون تعيين ، غير أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا استغفرهم تعيين عليهم التفرع لوجوب طاعته . وقال سعيد بن المسيب : إن الجهاد فرض على كل مسلم في عينه أبداً ؛ حكاه الماوردي . قال ابن عطية : والذي استمر عليه الإجماع أن الجهاد على كل أمة بعد صلى الله عليه وسلم فرض كفاية ، فإذا قام به من قام من المسلمين سقط عن الباقي ؛ إلا أن يتزل العدو بساحة الإسلام فهو حيثئذ فرض عين ، وسيأتي هذا مبيناً في سورة « براءة » إن شاء الله تعالى . وذكر المهدي وغيره عن الثوري أنه قال : الجهاد تطوع . قال ابن عطية : وهذه العبارة عندي إنما هي على سؤال مسائل وقد قيم بالجهاد ؛ فقيل له : ذلك تطوع .

الثانية - قوله تعالى : (وَهُوَ كَرِهَ لَكُمْ) ابتداء وخبر ، وهو كره في الطباع . قال ابن عرفة : الكره المشقة ، والكره - بالفتح - ما أكرهت عليه ؛ هذا هو الاختيار ،

ويجوز الضم في معنى الفتح فيكونان لنتين ؛ يقال : كرهت الشيء كرها وكرها وكراهما وكراهما ، وأكرهته عليه إكراها . وإنما كان الجهاد كرها لأن فيه إخراج المال ومفارقة الوطن والأهل ، والتعرض بالجسد للشجاج والجراح وقطع الأطراف وذهاب النفس ؛ فكانت كراهيتهم لذلك ، لأنهم كرهوا فرض الله تعالى . وقال عكرمة في هذه الآية : إنهم كرهوه ثم أحبوه وقالوا : سمعنا وأطعنا ؛ وهذا لأن امتثال الأمر يتضمن مشقة ، لكن إذا عُرِفَ الثواب هان في جنبه مُقاساة المشقات .

قلت : ومثاله في الدنيا إزالة ما يؤلم الإنسان ويغاف منه ؛ كقطع عضو وقع ضرره وقصده وجمامة آتباء العافية ودوام الصحة ، ولا نعيم أفضل من الحياة الدائمة في دار الخلد والكرامة في مقعد صدق .

الثالثة — قوله تعالى : (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا) قيل : «عسى» بمعنى قد ؛ قاله الأصم . وقيل : هي واجبة . و«عسى» من الله واجبة في جميع القرآن إلا قوله تعالى : «عَسَى رَبُّهُ أَنْ يُلَاقَكُمْ أَنْ تُبَدِّلَهُ» . وقال أبو حبيدة : «عسى» من الله لإيجاب ، والمعنى عسى أن تَكْرَهُوا ما في الجهاد من المشقة وهو خير لكم في أنكم تَتَلَبَّوْنَ وتُظْفِرُونَ وتَنْتَبِهُونَ وتُؤَجِّرُونَ ، ومن مات مات شهيدا ، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم في أنكم تَتَلَبَّوْنَ وتُذَلَّوْنَ ويذهب أمركم .

قلت : وهذا صحيح لا غبار عليه ؛ كما اتفق في بلاد الأندلس ، تركوا الجهاد وجبئوا من القتال وأكثروا من الفرار ؛ فاستولى المسلمون على البلاد ، وأتى بلاد ؟ وأسروا وقتلوا وسبيوا وأسرقوا ، فأتانا قه وإنا إليه راجعون ! ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته ! وقال الحسن في معنى الآية : لا تَكْرَهُوا الملمات الواقعة ؛ قُرْبَ أمر تَكْرَهُه فيه نجاتك ، وُرْبَ أمر تحبه فيه عطفك ؛ وأنشد أبو سعيد الضرري :

رَبِّ أَمْرٍ تَتَّقِيهِ • بَرٍّ أَمْرًا تَرْتَضِيهِ

حَقِّ الْمُحِبِّ مِنْهُ • وَبَدَأَ الْمَكْرَهُ فِيهِ

قوله تعالى : **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ**
وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ
اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن
دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِّنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ
فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾

فيه اثنا عشرة مسألة .

الأولى - قوله تعالى : **(يَسْأَلُونَكَ)** تقدم القول فيه . وروى جرير بن عبد الحميد
ومحمد بن فضيل عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ما رأيت قوما
خيرا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة كلهن
في القرآن : « يسألونك عن المحيض » ، « يسألونك عن الشهر الحرام » ، « يسألونك عن النامي » ؛
ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم . قال ابن عبد البر : ليس في الحديث من الثلاث عشرة
مسألة إلا ثلاث . وروى أبو اليسار عن جندب بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث
رهطا وبعث عليهم أبا عبيدة بن الحارث أو عبيدة بن الحارث ؛ فلما ذهب لينطلق بكى صباة
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فبعث عبد الله بن جحش ، وكتب له كتابا وأمره ألا يقرأ
الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا ، وقال : ولا تكلمن أصحابك على المسير ؛ فلما بلغ المكان قرأ
الكتاب فاسترجع وقال : سمعنا وطاعة لله ولرسوله ، قال : فرجع رجلان ومضى بقيتهم ، فلقوا
ابن الحضرمي فقتلوه ، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب ؛ فقال المشركون : قتلتم في الشهر
الحرام ؛ فأنزل الله تعالى : **« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ »** الآية . وروى أن سبب نزولها أن
رجلين من بني كلاب لقيا عمرو بن أمية الضمري وهو لا يعلم أنهما كانا عند النبي صلى الله عليه

وسلم وذلك في أول يوم من رجب فقتلها؛ فقالت قريش : قتلها في الشهر الحرام؛ فتلّت الآية . والقول بأن تزولها في قصة عبد الله بن جحش أكثر وأشهر، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه مع نسعة رَهط، وقيل ثمانية، في جمادى الآخرة قبل بذر شهرين، وقيل في رجب . قال أبو عمر - في كتاب الدرر له - : ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من طلب كُرْز ابن جابر - وتُعرف تلك الخرجة بيدر الأولى - أقام بالمدينة بقية جمادى الآخرة ورجب، وبعث في رجب عبد الله بن جحش بن رثاب الأسدي ومعه ثمانية رجال من المهاجرين، وهم أبو حذيفة بن عتبة، وعُكاشة بن مُخَصَّن، وعُتْبة بن غَزْوَان، وسُهَيْل بن بَيْضَاه الفهري، وسعد بن أبي وقاص، وطامر بن ربيعة، وواقد بن عبد الله التميمي، وخالد بن بكير الليثي . وكتب لعبد الله بن جحش كتاباً، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه [في بعضي لِمَا أمره به] ولا يستكره أحداً من أصحابه، وكان أميرهم، ففعل عبد الله بن جحش ما أمره به؛ فلما فتح الكتاب وقرأه وجد فيه : «إنا نظرت في كتابي هذا فأضحتي تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم» . فلما قرأ الكتاب قال : «سمماً وطاعة» ثم أخبر أصحابه بذلك، وبأنه لا يستكره أحداً منهم، وأنه ناهض لوجهه بمن أطاعه، وأنه إن لم يطمعه أحد مضى وحده؛ فمن أحب الشهادة فليتهنّض، ومن كره الموت فليرجع . فقالوا : كلنا نرغب فيما ترغب فيه، وما منا أحد إلا وهو سامعٌ مطيعٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ونهضوا معه؛ فسلك على الجواز، وشرّد سعد بن أبي وقاص وعُتْبة بن غَزْوَان حمل كانا يعتقبانه فتخلفا في طلبه، وتقدّم عبد الله بن جحش مع سائرهم لوجهه حتى نزل بنخلة؛ فزوت بهم غير قريش تحمل زيباً ونجارة فيها عمرو بن الحضرمي - واسم الحضرمي عبد الله بن عباد من الصّدَف، والصّدَف بطن من حضرموت - وعُتْبَان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل ابن عبد الله بن المغيرة الخزوميّان، والحكم بن كيسان مولى بني المغيرة؛ فتشاور المسلمون وقالوا : نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام؛ فإن نحن قاتلناهم متكا حُرمة الشهر الحرام، وإن

(١) زيادة عن سورة ابن هشام وتاريخ الطبري . راجع مزية عبد الله بن جحش .

تَرَكَاهُم اللَّيْلَةَ دَخَلُوا الْحَرَمَ ، ثُمَّ انْهَضُوا عَلَى قَتْلِهِمْ ، فَرَى وَأَقْدَبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ عَمْرُو بْنُ
 الْحَضْرَمِيِّ قَتْلَهُ ، وَأَسْرَوْا عِثَانَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَالْحَكَمَ بْنَ كَيْسَانَ ، وَأَقْلَتَ نُوْفَلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، ثُمَّ
 قَدِمُوا بِالْبَيْرِ وَالْأَسِيرِينَ ، وَقَالَ لَهُمْ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ : اعْزِلُوا عَنَّا غَنِيمَةَ الْخُمْسِ لِرَسُولِ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَفَعَلُوا ، فَكَانَ أَوَّلُ خُمْسٍ فِي الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ : «وَأَعْلُوا أَيْمَانَ
 غَنِيمَتِمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ نِصْفَهُ» فَأَقْرَأَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَفَعَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ وَرَضِيَهُ وَسَمَّاهُ
 لِلْأُمَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَهِيَ أَوَّلُ غَنِيمَةٍ غَنِمَتْ فِي الْإِسْلَامِ ، وَأَوَّلُ أَمِيرٍ ، وَعَمْرُو بْنُ الْحَضْرَمِيِّ
 أَوَّلُ قَتِيلٍ . وَأَنْكَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَتْلَ ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ ، فَسُقِطَ
 فِي أَيْدِي الْقَوْمِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَنْ وَجَلٍ : «يَسْأَلُكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ» إِلَى قَوْلِهِ :
 «مَنْ فِيهَا خَالِدُونَ» . وَقِيلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفِدَاءُ فِي الْأَسِيرِينَ ، فَأَمَّا عِثَانُ بْنُ
 عَبْدِ اللَّهِ فَاتَّ بِمَكَّةَ كَافِرًا ، وَأَمَّا الْحَكَمُ بْنُ كَيْسَانَ فَاسْلَمَ وَأَقَامَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 حَتَّى اسْتَشْهَدَ بِبَيْتِ مَعُونَةَ ، وَرَجَعَ سَعْدُ وَعَبَّةُ إِلَى الْمَدِينَةِ سَالِمِينَ . وَقِيلَ : إِنْ انْطَلَقَ سَعْدُ
 ابْنُ أَبِي وَقَاصٍ وَعَبَّةُ فِي طَلَبِ بَيْرِهِمَا كَانَ عَنْ إِذْنٍ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ ، وَإِنْ عَمِرُو بْنُ
 الْحَضْرَمِيِّ وَأَصْحَابُهُ لَمْ يَأْوُوا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَابِوَهُمْ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ
 ابْنُ جَحْشٍ : إِنْ الْقِسْمُ قَدْ فُزِعَا مِنْكُمْ ، فَأَحْلِقُوا رَأْسَ وَجَلٍ مِنْكُمْ فَلْيَتَرَضَّ لَهُمْ ، فَإِذَا رَأَوْهُ
 مَغْلُوقًا أَمْنُوا وَقَالُوا : قَوْمُ عُمَارٍ لَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ ، وَتَشَاوَرُوا فِي قَتْلِهِمْ ، الْحَدِيثُ . وَتَوَامَلَتْ
 الْيَهُودُ وَقَالُوا : وَأَقْدَبُ وَقَدَّتِ الْحَرْبُ ، وَعَمْرُو عَمَرَتِ الْحَرْبُ ، وَالْحَضْرَمِيُّ حَضَرَتِ الْحَرْبُ .
 وَبِئْسَ أَهْلُ مَكَّةَ فِي فِدَاءِ أُسْرِيهِمْ ، فَقَالَ : لَا تُقَدِّمُ حَتَّى يَقْدَمَ سَعْدُ وَعَبَّةُ ، وَإِنْ لَمْ يَقْدَمَا
 قَتَلْنَاهُمَا جَمْعًا ، فَلَمَّا قَدِمَا فَأَدَاهُمَا ، فَأَمَّا الْحَكَمُ فَاسْلَمَ وَأَقَامَ بِالْمَدِينَةِ حَتَّى قُتِلَ يَوْمَ بَيْتِ مَعُونَةَ
 شَهِيدًا ، وَأَمَّا عِثَانُ فَرَجَعَ إِلَى مَكَّةَ فَاتَّ بِهَا كَافِرًا ، وَأَمَّا نُوْفَلٌ فَضَرِبَ بَطْنُ فُرْسِهِ يَوْمَ الْأَحْزَابِ
 لِيَدْخُلَ الْخَنْدَقَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَوَقَعَ فِي الْخَنْدَقِ مَعَ فُرْسِهِ فَتَحَطَّ بِجَمِيعِهِمَا قَتَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَطَلَبَ
 الْمُشْرِكُونَ جِيْفَتَهُ بِاتِّمَنِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «خَذُوهُ فَإِنَّهُ خَيْثُ الْحَيْفَةِ خَيْثُ
 الْآدِيَةِ» ، فَهَذَا سَبَبُ نَزُولِ قَوْلِهِ تَعَالَى : «يَسْأَلُكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ» . وَذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّ قَتْلَ

مرو بن الحضرى كان في آخريوم من رجب؛ على ما تقدم. وذكر الطبري عن السدي وغيره أن ذلك كان في آخريوم من جمادى الآخرة، والأول أشهر؛ على أن ابن عباس قد ورد عنه أن ذلك كان في أول ليلة من رجب، والمسلمون يظنونها من جمادى. قال ابن عطية: وذكر صاحب بن عباد في رسالته المعروفة بالأسدية أن عبد الله بن جحش بنى أمير المؤمنين في ذلك الوقت لكونه مؤمرا على جماعة من المؤمنين.

الثانية - واختلف العلماء في نسخ هذه الآية؛ فالجمهور على نسخها، وأن قتال المشركين في الأشهر الحرم مباح. واختلفوا في ناسخها؛ فقال الزهري: نسخها «وقتلوا المشركين كافة». وقيل: نسخها غزو النبي صلى الله عليه وسلم تحيقا في الشهر الحرام، وإغزائه أبا عامر إلى أوطاس في الشهر الحرام. وقيل: نسخها بيعة الرضوان على القتال في ذي القعدة، وهذا ضعيف؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه قتل عثمان بمكة وأنهم عازمون على خربه بايع حينئذ المسلمين على دفعهم لا على الاستداء بقتلهم. وذكر البيهقي عن عروة بن الزبير عن غير حديث محمد بن إسحاق في أثر قصة الحضري: «فأنزل الله عز وجل: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ» الآية قال: فغضبهم الله في كتابه أن القتال في الشهر الحرام حرام كما كان، وأن الذي يستحلون من المؤمنين هو أكبر من ذلك من صدهم عن سبيل الله حين يسجنونهم ويعذبونهم ويحبسونهم أن يهاجروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكفرهم بالله وصبتهم المسلمين عن المسجد الحرام في الحج والعمرة والصلاة فيه، وإخراجهم أهل المسجد الحرام وهم سكانه من المسلمين، وقتلتهم إياهم عن الدين؛ فبلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم عقل ابن الحضري وحرم الشهر الحرام كما كان يحرمه، حتى أنزل الله عز وجل: «بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ». وكان عطاء يقول: الآية محكمة، ولا يجوز القتال في الأشهر الحرم، ويخلف على ذلك؛ لأن الآيات التي وردت بعدها عامة في الأزمنة، وهذا

(١) هو أبو عامر الأشعري، ابن عم أبي موسى الأشعري.

(٢) أوطاس: راد في ديار هوازن، وفيه كانت حكمة حين. وابع طبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام في غزوة حنين.

(٣) في بعض النسخ: «يسجنونهم». (٤) عقل القتل: أهلك ورثته دمه بعد قتله.

خاص والعام لا ينسخ الخاص باعناق . وروى أبو الزبير عن جابر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقاتل في الشهر الحرام إلا أن يُفْزَى ^(١) .

الثالثة - قوله تعالى : (قَاتِلْ فِيهِ) « قتال » بدل عند سيبويه بدل اشتغال ، لأن السؤال اشتمل على الشهر وعلى القتال ، أى يسألك الكفار تعجباً من هتك حرمة الشهر ، فسألهم عن الشهر إنما كان لأجل القتال فيه . قال الزجاج : المعنى يسألونك عن القتال في الشهر الحرام . وقال القتيبي : يسألونك عن القتال في الشهر الحرام هل يجوز ؟ فأبدل قتالا من الشهر ، وأشد سيبويه :

فما كان قبس هلكه هلك واحد . ولكنه بُيِّنَ قوم هدماً ^(٢)

وقرأ عكرمة « يسألونك عن الشهر الحرام قتل فيه قل قتل » بغير ألف فيهما . وقيل : ألقى يسألونك عن الشهر الحرام وعن قتال فيه ، وهكذا قرأ ابن مسعود ، فيكون مخفوضاً بمن على التكرير ، قاله الكسائي . وقال الفراء : هو مخفوض على نية عن . وقال أبو عبيدة : هو مخفوض على الجوار . قال النحاس : لا يجوز أن يُرَبَّ الشيء على الجوار في كتاب الله ولا في شيء من الكلام ، وإنما الجوار غلط ، وإنما وقع في شيء شاذ ، وهو قولهم : هذا جحر صَبَّ تحريب ، والدليل على أنه غلط قول العرب في التثنية : هذان جحرا صَبَّ خربان ، وإنما هذا بمتلة الإقواء ، ولا يجوز أن يحمل شيء من كتاب الله على هذا ، ولا يكون إلا بأفصح اللغات وأصحها ، قال ابن عطية : وقال أبو عبيدة : هو خفض على الجوار ، وقوله هذا خطأ . قال النحاس : ولا يجوز إضمار عن ، والقول فيه أنه بدل . وقرأ الأعمش « يسألونك عن الشهر الحرام قَاتِلْ فِيهِ » بالرفع . قال النحاس : وهو غامض في العربية ، والمعنى فيه يسألونك عن الشهر الحرام أجازت قتال فيه ؟ فقله : « يسألونك » بدل على الاستفهام ، كما قال امرؤ القيس :

(١) كذا في تفسير الفهر الرازي وكثير من كتب التفسير وفي الاحول : « إلا أن يفزى أو يفزوا » . وفي الطبري :

« إلا أن يفزى أو يفزوا حتى إذا حضر ذلك أقام حتى ينلخ » . (٢) البيت لمحمد بن الطيب ، وفيه

قبس بن طاسم المقرئ ، وكان سيد أهل اليرموك تميم . (من كتاب سيبويه ج ١ ص ٧٧ طبع بولاق) .

أَصَاحُ تَرَى بَرَقًا أُرِيكَ وَيَمِضُهُ • كَلِمَتِ الْيَتِيمِ فِي حَيٍّ مُكَلَّلٍ
والمعنى : أترى برقًا، فحذف ألف الاستفهام ؛ لأن الألف التي في «أصاح» تدل عليها وإن
كانت حرف نداء، كما قال الشاعر •

• تَرَوْحُ مِنَ الْحَيِّ أَمْ تَبْتَخِرُ •

والمعنى : أتروح ؛ فحذف الألف لأن أم تدل عليها •

الرابعة - قوله تعالى : (قُلْ قَاتِلْ فِيهِ كَبِيرٌ) ابتداء وخبر، أى مستنكر ؛ لأن تحريم
القتال في الشهر الحرام كان ثابتا يومئذ إذ كان الابتداء من المسلمين • والشهر في الآية اسم
جنس، وكانت العرب قد جعل الله لها الشهر الحرام قواما تمتثل عنده، فكانت لا تسفك دماء
ولا تُغير في الأشهر الحرم، وهى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم؛ ثلاثة سرود وواحد فرد •
وسياتى لهذا مزيد بيان في «المائدة» إن شاء الله تعالى •

الخامسة - قوله تعالى : (وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) ابتداء (وَكُفِّرَ بِهِ) عطف على
«صد» (وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ) عطف على سبيل الله (وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ) عطف على صد، وخبر
الابتداء (أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ) أى أعظم إنما من القتال في الشهر الحرام؛ قاله المبرد وغيره • وهو
الصحيح، لظول منع الناس عن الكعبة أن يطاف بها • وَكُفِّرَ بِهِ أى بالله، وقيل :
«وكفر به» أى بالحج والمسجد الحرام • «وإخراج أهله منه أكبر» أى أعظم عقوبة عند الله من
القتال في الشهر الحرام • وقال الفراء : «صد» عطف على «كبير» • «والمسجد» عطف على الماء
في به ؛ فيكون الكلام نسفا متصلا غير منقطع • قال ابن عطية : وذلك خطأ ؛ لأن المعنى
يسوق الى أن قوله : «وكفر به» أى بالله عطف أيضا على «كبير» • ويحى من ذلك أن إخراج
أهل المسجد منه أكبر من الكفر عند الله وهذا بين فساد • ومعنى الآية على قول الجمهور :

(١) الوبيض : لم برق • قوله : كلع الدين • أراد كركة الدين وتقليبها • والحي : ما ارتفع من السحاب •
ويقل : هو الذى يترى أعراض الجبل قبل أن يلقى السحاب • والمكحل من السحاب : الملع بالرق • ويقال :
هو الذى تلع من السحاب • (٢) الثلاثة السرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم • والسرد التاج • والواحد
القدر : رجب؛ وصار فردا لأنه أتى بعده شعبان وشهر رمضان وشوال •

لأنكم يا كفار قريش تستظلمون علينا القتال في الشهر الحرام، وما تفعلون أثم من الصّد عن سبيل الله لمن أراد الإسلام، ومن كفركم بالله وإخراجكم أهل المسجد منه؛ كما فعلتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أكبر جرماً عند الله . وقال عبد الله بن جحش رضى الله عنه :

تُعذّبون قتلاً في الحرام عظيمة * وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صُدودكم عما يقول محمد * وكفر به والله راء وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله * لئلا يرى الله في البيت ساجد
فأنا وإن عيرتمونا بقتله * وأرجف بالإسلام باغ وحاسد
سقيت من أبى الحضرى رماحنا * بنقلة لما أوقد الحرب وأقد
دماً وأبى عبد الله ضارب بيننا * ينازعه غل من اليد فأيّد

وقال الزهرى ومجاهد وغيرهما : قوله تعالى : « قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كِبَرٌ » ملسوخ بقوله : « وقالوا للمشركين كافة » . وقوله : « اقتلوا المشركين » . وقال عطاء : لم ينسخ، ولا يبنى القتال في الأشهر الحرم؛ وقد تقدم .

السادسة - قوله تعالى : « وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ » قال مجاهد وغيره : الفتنة هنا الكفر، أى كفركم أكبر من قتلنا أولئك . وقال الجمهور : معنى الفتنة هنا فتنهم المسلمين عن دينهم حتى يهلكوا، أى أن ذلك أشد اجتراماً من قتلهم في الشهر الحرام .

السابعة - قوله تعالى : « وَلَا يَزَالُونَ » ابتداء وخبر من الله تعالى، وتحذير منه للأئمة من شر الكفرة . قال مجاهد : يعنى كفار قريش . و« يردوكم » نصب بحتى، لأنها غاية مجودة .

الثامنة - قوله تعالى : « وَمَنْ يَزِدْكُمْ » أى يرجع من الإسلام الى الكفر (فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ) أى بطلت وفسدت؛ ومنه الحبط وهو فساد يلحق المواشى في بطونها من كثرة أكلها الكلأ فتفتخ أجوافها، وربما تموت من ذلك؛ فالآية تهديد للمسلمين لينتروا على دين الإسلام .

التاسعة - واختلف العلماء في المرتدة هل يستتاب أم لا؟ وهل يحبط عمله بنفس المرتدة أم لا، إلا على الموافاة على الكفر؟ وهل يورث أم لا؟ فهذه ثلاث مسائل :

الأولى - قالت طائفة : يستتاب، فإن تاب وإلا قُتل . وقال بعضهم : سامة وإسنة . وقال آخرون : يستتاب شهرا . وقال آخرون : يستتاب ثلاثا، على ما روى عن عمرو بن عثمان . وهو قول مالك رواه عنه ابن القاسم . وقال الحسن : يستتاب مائة مرة، وقد روى عنه أنه يقتل دون استنابة، وبه قال الشافعي في أحد أقواله، وهو أحد قول طائفتين صغيرتين . وذكر محمد بن عبد العزيز بن أبي سامة الماسجئون كان يقول : يقتل المرتد ولا يستتاب؛ واحتج بحديث معاذ وأبي موسى، وفيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعث أبا موسى إلى اليمن أتبعه معاذ بن جبل فلما قِيم عليه قال : ازل، وألقي إليه سادة، وإذا رجل عنده موتى، قال : ما هذا؟ قال : هذا كان يهوديا فأسلم ثم راجع دينه دين السوء فتبوء . قال : لا أجلس حتى يُقتل، قضاء الله ورسوله؛ فقال : اجلس . قال : [نعم] لا أجلس حتى يُقتل، قضاء الله ورسوله - ثلاث مرات - فأمر به فقتل؛ خرجه مسلم وغيره . وذكر أبو يوسف عن أبي حنيفة أن المرتد يُعرض عليه الإسلام فإن أسلم وإلا قُتل مكانه، إلا أن يطلب أن يؤجل، فإن طلب ذلك أُجل ثلاثة أيام؛ والمشهور عنه وعن أصحابه أن المرتد لا يقتل حتى يستتاب . والزندقي عندهم والمرتد سواء . وقال مالك : وتقتل الزنادقة ولا يستابون . وقد مضى هذا أول «البقرة» . واختلفوا فيمن خرج من كفر إلى كفر؛ فقال مالك وجهور الفقهاء : لا يُعرض له؛ لأنه انتقل إلى ما لو كان عليه في الابتداء لأقر عليه . وحكى ابن عبد الحكم عن الشافعي أنه يقتل؛ لقوله عليه السلام : " من بدل دينه فاقتلوه " ولم يخص مسلما من كافر . وقال مالك : معنى الحديث من خرج من الإسلام إلى الكفر، وأما من خرج من كفر إلى كفر فلم يُمن بهذا الحديث؛ وهو قول جماعة من الفقهاء . والمشهور عن الشافعي ما ذكره المزني والربيع أن المبدل ليس من أهل الذمة يُحققه الإمام

أرض الحرب ويُخرج من بلده ويستحلّ ماله مع أموال الحربين إن غلب على الدار ؛ لأنه إنما جعل له النّعمة على الذين كان عليه في حين عقد المهد . واختلفوا في المرتدة ؛ فقال مالك والأوزاعي والثافعي والليث بن سعد : تقتل كما يقتل المرتد سواء ؛ وحجّتهم ظاهر الحديث : " من بدل دينه فأقتلوه " . و « من » يصلح للدّكر والإثني . وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه : لا تقتل المرتدة ؛ وهو قول ابن شبرمة ، وإليه ذهب ابن عيّنة ، وهو قول عطاء والحسن . واحتجوا بأن ابن عباس روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من بدل دينه فأقتلوه " ثم إن ابن عباس لم يقتل المرتدة ؛ ومن روى حديثا كان أعلم بتأويله ؛ وروى عن عليّ مثله . ونهى صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والصبيان . واحتج الأولون بقوله عليه السلام : " لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث كفر بعد إيمان ... " فعم كل من كفر بعد إيمانه ؛ وهو أصح .

العائنة — قال الثافعي : إن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام لم يحبط عمله ولا تحجّه الذي فرغ منه ؛ بل إن مات على الرّدة غيبت حبط أعماله . وقال مالك : تحبط بنفس الرّدة ؛ ويظهر الخلاف في المسلم إذا حج ثم ارتد ثم أسلم ؛ فقال مالك : يلزمه الحج ، لأن الأول قد حبط بالرّدة . وقال الثافعي : لا إعادة عليه ، لأن عمله باق . واستظهر علمائنا بقوله تعالى : « لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْطَبَنَّ عَمَلُكَ » . قالوا : وهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ؛ لأنه عليه السلام يستحيل منه الرّدة شرعا . وقال أصحاب الثافعي : بل هو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم على طريق التغليظ على الأئمة ، وبيان أن النبي صلى الله عليه وسلم على شرف منزله لو أشرك لحبط عمله ؛ فكيف أتم ! لكنه لا يشرك لتفضل مرتبته ؛ كما قال : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ مِنْ يَأْتِ مِنْكَ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ » وذلك لشرف منزلته ؛ وإلا فلا يتصور إتيان منهنّ صيانة لزوجهنّ المكرم المعظم ؛ ابن العربي . وقال علمائنا : إنما ذكر الله الموافاة شرطا ها هنا لأنه ملق عليها الخلود في النار جزاء ؛ فمن وافى على الكفر خلدته الله في النار بهذه الآية ، ومن أشرك حبط عمله بالآية الأخرى ، فهما آيتان

مفيدتان لمعنيين وحكيمن متفايرين . وما خوطب به عليه السلام فهو لأمنه حتى ثبت اختصاصه ، وما ورد في أزواجه فإنما قيل ذلك فيمن ليين أنه لو تصور لكنت حنكاً أحدهما لحُرمة الدين والثاني لحُرمة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكل هتك حُرمة صائب ، وينزل ذلك منزلة من عمي في الشهر الحرام أو في البلد الحرام أو في المسجد الحرام ، يضاعف عليه العذاب بعدد ما هتك من الحرمات . والله أعلم .

الحادية عشرة — وهي اختلاف العلماء في ميراث المرتد ؛ قال علي بن أبي طالب والحسن والشعبي والحكم والليث وأبو حنيفة وإسحاق بن راهوية : ميراث المرتد لورثته من المسلمين . وقال مالك وربيعة وابن أبي ليلى والشافعي وأبو نوري : ميراثه في هتك المال به . وقال ابن شبرمة وأبو يوسف ومحمد والأوزاعي في إحدى الروايتين : ما اكتسبه المرتد بعد الزدة فهو لورثته المسلمين . وقال أبو حنيفة : ما اكتسبه المرتد في حال الزدة فهو له . وما كان مكتسباً في حالة الاسلام ثم ارتد يرثه ورثته المسلمون ؛ وأما ابن شبرمة وأبو يوسف ومحمد فلا يقضون بين الأمرين ؛ ومطلق قوله عليه السلام : " لا وراثه بين أهل ملتين " يدل على بطلان قولهم . وأجمعوا على أن ورثته من الكفار لا يرثونه ، سوى عمر بن عبد العزيز فإنه قال : يرثونه .

الثانية عشرة ^(١) — قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿٢١٨﴾

قال جندب بن عبد الله وعروة بن الزبير وغيرهما : لما قتل واقد بن عبد الله التيمي عمرو بن الحضرمي في الشهر الحرام توقف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أخذ حنكته الذي وفق في فرضه له عبد الله بن جحش وفي الأسيرين فصنف المسلمون عبد الله بن جحش وأصحابه حتى شق ذلك عليهم فلتأفهم الله عز وجل بهذه الآية في الشهر الحرام وفرج عنهم ، وأخبر أن لهم ثواب من هاجر وغزا ، فالإشارة إليهم في قوله : « إن الذين آمنوا » ثم هي باقية في كل

(١) يلاحظ أن هذه المسألة من تحت مسائل الآية الباقية .

من فصل ما ذكره الله عز وجل . وقيل : أنت لم تكونوا أصابوا وزراً فليس لهم أجر
فأنزل الله « إن الذين آمنوا والذين هاجروا » الى آخر الآية .

والهجرة معناه الانتقال من موضع الى موضع ، وقصد ترك الأول إيتاراً للثاني . والمهجر
ضد الوصل . وقد هجره هجراً وهجراناً ، والاسم الهجرة . والمهاجرة من أرض الى أرض ترك
الأولى للثانية . والتهاجر التقاطع . ومن قال : المهاجرة الانتقال من البادية الى الحاضرة فقد
أوهى ؛ بسبب أنت ذلك كان الأغلب في العرب ، وليس أهل مكة مهاجرين على قوله .
« وجاهد » مفاصلة من جهد اذا استخرج الجهد ، مجاهدة وجهاداً . والاجتهاد والتجاهد :
بذل الوسع والمجهود . والجهاد (بالفتح) : الأرض الصلبة . و« يرجون » معناه يطمعون
ويستقربون . وإنما قال : « يرجون » وقد مدحهم لأنه لا يعلم أحد في هذه الدنيا أنه صائر
الى الجنة ولو بلغ في طاعة الله كل مبلغ ، لأمرين : أحدهما - لا يدري بما يُعْجَم له . والثاني -
لئلا يتكلم على عمله . والرجاء تنم ، والرجاء أبداً معه خوف ولا بُد ، كما أن الخوف معه رجاء .
والرجاء من الأمل ممدود ؛ يقال : رجوت فلاناً رجواً ورجاءً ورجاوة ، يقال : ما أيتك
إلا رجاوة الخير . وترجيته وأرجيته ورجيته وكله بمعنى رجوته ، قال بشرى مخاطب بته :

فرجى الخير وأنتظري لما ي . إذا ما الفارط العتري آبا

ومالى في فلان رجية ، أى ما أرجو . وقد يكون الرجو والرجاء بمعنى الخوف ، قال الله تعالى :
« مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً » أى لا تخافون عظمة الله ؛ قال أبو ذؤيب :

إذا لسمته التمل لم يرج سمها ^(١) وخالفها في بيت نوب عوايل

أى لم يخف ولم يبال . والرجا - مقصور - : ناحية البر وحافاتها ، وكل ناحية رجاً .
والعوام من الناس يخطئون في قولهم : يا عظيم الرجاء فيقصدون ولا يعمون .

(١) يريد أن المسلمين وأهل السرية لما خرج الله عنهم ما كانوا فيه من أمر قل ابن الحضرمي في الشبر الحرام
بأنزل قوله تعالى : « يسألك عن الشبر الحرام » الآية ، ظنوا أنه إما نفي عنهم الإثم فقط ولا أجر لهم صلحوا فيه
فقاروا : يا رسول الله أطلع أن تكون لنا غزوة نطلى فيها أجراء المجاهدين ؟ وفي رواية : أن لم يكونوا أصابوا وزراً
فلا أجر لهم ؟ فأنزل الله قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هاجروا » الآية فوضعهم الله في ذلك على أعظم رجل .
(٢) خالفها (بالاء المحبة) : خلقها الى علفها وهي نائمة قد مرحت ترى . يرى : « حاقها » بالحاء المهملة ،
أى لازمها . والنوب : التمل ، وهو جم نائب ؛ لأنها ترى ثم تنوب الى موضعها .

قوله تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ بَيِّنَ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣١﴾

قوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) . فيه تسع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ) السائلون هم المؤمنون ، كما تقدم . والخمر مأخوذة من نحر إذا ستر ، ومنه نحر المرأة . وكل شيء غطى شيئا فقد نحره ، ومنه «نَحَرُوا أَيْتَكُمْ» . فالخمر نحر العقل ، أى تغطيه وتستره ، ومن ذلك الشجر الملتف يقال له : الخمر (منع الميم) لأنه يغطى ما تحته ويستتره ؛ يقال منه : انْحَرَتِ الأرض كثر نحرها ؛ قال الشاعر :

أَلَا يَزِيدُ وَالْقَمَحُكَ سَيَرَا * فَقَدْ جَاوَزْنَا نَحْرَ الطَّرِيقِ

أى سيرا مُدْبِلِينَ فقد جاوزنا الوعدة التى يستتر بها الدُّبُّ وغيره . وقال العجاج يصف جيشاً يمشى برايات وجبوش فير مستخيف :

فِي لَامِعِ الْيَقْبَانِ لَا يَمِشِي الْخَمْرُ * يُوجِّهُ الْأَرْضَ وَيَسْتَأْذِنُ الشَّجَرَ ﴿١٣٢﴾

ومنه قولهم : دخل فى نحر الناس ونحارهم ؛ أى هوى فى مكان خاف . فلما كانت الخمر تستر العقل وتغطيه سُمِّيت بذلك . وقيل : إنما سُمِّيت الخمر نحرًا لأنها تُركت حتى أدركت ؛ كما يقال : قد اختمر العجين ، أى بلغ إدراكه . ونحر الرأى ، أى ترك حتى يبين فيه الوجه . وقيل : إنما سُمِّيت الخمر نحرًا لأنها تحاطل العقل ، من المخامرة وهى المخاططة ؛ ومنه قولهم : دخلت فى نحر الناس ، أى اخططت بهم . فالعاقبة الثلاثة متقاربة ؛ فالخمر تُركت ونُحِرَت حتى أدركت ، ثم خالطت العقل ، ثم نحرته ؛ والأصل الستر .

(١) راجع ص ٢٧ من هذا الجزء . (٢) يقبآن (جمع قباب) : الزايات . وقوله : «يوجه الأرض» أى لا يمر بشيء إلا جعله جهة واحدة ؛ فيكون وجهه مع وجهه حيث يذهب . وقوله : «يستأذن الشجر» أى يمر بأرضه (مرعى من مراعى الأبل) والبرغ وسائر الشجر فيستأذنه ؛ يذهب به من كثرة .

والخمر : ماء العنب الذي غلى أو طبخ ؛ وما خامر العقل من غيره فهو في حكمه ، لأن إجماع العلماء أن التهازل حرام . وإنما ذكر الميسر من بينه لجعل كله قياسا على الميسر ، والميسر إنما كان قارا في الجزر خاصة ؛ فكذلك كل ما كان كالخمر فهو بمنزلتها .

الثانية - والجمهور من الأمة على أن ما أسكر كثيره من غير نمر العنب فحرم قليله . وكثيره ، والحد في ذلك واجب . وقال أبو حنيفة والثوري وأبن أبي ليلى وابن شبرمة وجماعة من فقهاء الكوفة : ما أسكر كثيره من غير نمر العنب فهو حلال ، وإذا سكر منه أحد دون أن يعتمد الوصول إلى حد السكر فلا حد عليه ؛ وهذا ضعيف يرده النظر والخبر ، على ما يأتي بيانه في «المائدة والنمل» إن شاء الله تعالى .

الثالثة - قال بعض المفسرين : إن الله تعالى لم يدع شيئا من الكرامة والبر إلا أعطاه هذه الأمة ، ومن كرامته وإحسانه أنه لم يوجب عليهم الشرائع دفعة واحدة ، ولكن أوجب عليهم مرة بعد مرة ؛ فكذلك تحريم الخمر . وهذه الآية أول ما نزل في أمر الخمر ، ثم بعده : « لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى » ثم قوله : « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوفِعَ بَيْنَكُمْ الْمَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » ثم قوله : « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ » على ما يأتي بيانه في «المائدة» .

الرابعة - قوله تعالى : (وَالْمَيْسِرُ) الميسر : قار العرب بالأزلام . قال ابن عباس : كان الرجل في الجاهلية يخاطر الرجل على أهله وماله فأينما قمر صاحبه ذهب بآله وأهله ، فزلت الآية . وقال مجاهد وعبد بن سيرين والحسن وابن المسيب وعطاء وقسادة ومعاوية ابن صالح وطاوس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عباس أيضا : كل شيء فيه قار من زرد وسطرنج فهو الميسر ، حتى لعب الصبيان بالجوذ والكباب^(١) ؛ إلا ما أبيع من الرهان في الخيل والقرعة في إفراز الحقوق ؛ على ما يأتي . وقال مالك : الميسر ميسران : ميسر اللهو ،

(١) أى قلبه . (٢) الكباب : ضرور الزرد .

وميسر الفهار؛ فَمِيسِرُ الْقَهْوِ الْقَرْدُ وَالشُّطْرُجُ وَالْمَلَاهِي كُلُّهَا . وميسر التهار : ما يتقاطر الناس عليه . قال حنّ بن أبي طالب : الشُّطْرُجُ ميسر العجم . وكلّ ما قورم به فهو ميسر عند مالك وغيره من العلماء . وسيأتي في « يونس » زيادة بيان لهذا الباب إن شاء الله تعالى .

والميسر مأخوذ من اليسر، وهو وجوب الشيء لصاحبه؛ يقال : يَسِرُ كذا إذا وجب لهو يسر يسراً وميسراً . والياسر : اللاعب بالقِداح، وقد يَسِرُ يسيراً قال الشاعر :

فَايَعْنَهُمْ وَأَيَسِّرْ بِمَا يَسِرُّوا بِهِ • وَإِذَا هُمْ تَزَلُّوا بِضَنِّكَ فَاتَزَلَّ

وقال الأزهري : الميسر : الجزور الذي كانوا يتقامرون عليه ؛ سُمِّيَ ميسراً لأنه يُجْزَأُ جزاءً، فكأنه موضع التجزئة، وكلُّ شيء جزأته فقد يَسَرَّه . والياسر : الجازد ؛ لأنه يَجْزِي لُحْمَ الْجَزُورِ . قال : وهذا الأصل في الياسر؛ ثم يقال للضاربين بالقِداح والمتقامرين على الجزور : يامرون ؛ لأنهم جازرون إذ كانوا سبياً لذلك . وفي الصَّحاح : ويسر القومُ الجزور أي اجترروها واقتسموا أعضائها . قال تميم بن قيس اليربوعي

أَقُولُ لِمَ بِالشَّعْبِ إِذْ يَسِرُّونِي • أَلَمْ تَيَّاسُوا أَنِي أَبْنُ قَارِسٍ زَهْدِي^(٢)

كان قد وقع عليه سياء فضرب عليه بالسهم . ويقال : يسر القومُ إذا قامروا . ورجل يسر وييسر بمعنى، والجمع أيسار؛ قال النابغة :

أَنِي أُنَمُّ أَيْسَارِي وَأُمْنَحُهُمْ • مَتْنِي الْأَيْدِي وَأَكْسُو الْخَفَّةَ الْأَدْمَا^(٣)

وقال طرفة :

وَهُمْ أَيْسَارُ لَقَاتِ إِذَا • أَغْلَتِ الشُّتُوْةُ أَبْدَاءَ الْجَزُورِ^(٤)

وكان من تطلوع بنجرها عمدوها عندهم؛ قال الشاعر :

وَتَاجِيَةٌ نَحَرَتْ لِقَوْمٍ صَدِيقِي • وَمَا نَادَيْتُ أَيْسَارُ الْجَزُورِ

(١) عند قوله تعالى : فَلْيَكْفُرْ وَيَكُفُّوا عُنَى أَيْدِيهِمْ فَالْعَص . آية ٣٢ (٢) تياسوا

(من يئس) بمعنى علم . وزهدم (يكتفر) : اسم فرس . (٣) قوله : « متني الأيدي » هو أن يمد يديه

ممن أو لئلا . (٤) الشتوة (واحد جمه شتاء) والرب تجمل الشتاء بجماعة ؛ لأن الناس يلزمون فيه البيوت

ولا يخرجون للاعتلاج . وأبداء (جمع بده) : شيء عظم في الجزور . وقيل : هو خير نصيب فيها .

الخامسة - روى مالك في الموطأ عن داود بن حصين أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: كان من ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين، وهذا يحول عند مالك وجمهور أصحابه في الجنس الواحد، حيوانه بلحمه؛ وهو عنده من باب المُرَابَةِ ^(١) والفَرِّ والفار، لأنه لا يَدْرَى هل في الحيوان مثل اللحم الذي أعطى أو أقل أو أكثر، وبيع اللحم باللحم لا يجوز متفاضلا، فكأن بيع الحيوان باللحم كبيع اللحم المُقَبِّب في جلده إذا كان من جنس واحد، والجنس الواحد عنده الإبل والبقر والغنم والقطباء والوعول وسائر الوحوش، وذوات الأربع المأكولات كلها عنده جنس واحد، لا يجوز بيع شيء من حيوان هذا الصنف والجنس كله بشيء واحد من لحمه بوجه من الوجوه؛ لأنه عنده من باب المُرَابَةِ، كبيع الزبيب بالعنب والزيتون بالزيت والتشريح بالسهم، ونحو ذلك. والطير عنده كله جنس واحد، وكذلك الحيتان من سمك وغيره. وروى عنه أن الجراد وحده صنف. وقال الشافعي وأصحابه والليث ابن سعد: لا يجوز بيع اللحم بالحيوان على حال من الأحوال من جنس واحد كان أم من جنسين مختلفين؛ على عموم الحديث. وروى عن ابن عباس أن جزورا ثخرت على عهد أبي بكر الصديق فقسمت على عشرة أجزاء؛ فقال رجل: أعطوني جزءا منها بشاة؛ فقال أبو بكر: لا يصلح هذا. قال الشافعي: ولست أعلم لأبي بكر في ذلك عقالا من الصحابة. قال أبو عمر: قد روى عن ابن عباس أنه أجاز بيع الشاة باللحم، وليس بالقوى. وذكر عبد الرزاق عن الثوري عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كره أن يُباع حتى يميت؛ يعني الشاة المذبوحة بالقائمة. قال سفيان: ونحن لا نرى به بأسا. قال المزني: إن لم يصح الحديث في بيع الحيوان باللحم فالقياس أنه جائز، وإن صح بطل القياس وأُتبع الأثر. قال أبو عمر: وللكوفيين في أنه جائز بيع اللحم بالحيوان جميع كثيرة من جهة القياس والاعتبار؛ إلا أنه إذا صح الأثر بطل

(١) المُرَابَةِ: بيع الرطب في رموس النخل بالتمر. وعنده مالك: كل جزاف لا يعلم كنه ولا عدده ولا وزنه بيع بمس من مكيل وموزون ومسدود؛ أو يبيع معلوم مجهول من جنسه؛ أو يبيع مجهول مجهول من جنسه.

(٢) الفَرِّ: بيع السك في الماء والطير في الهواء. وقيل: ما كان له ظاهر غير المشتري وبالغن مجهول. وقال الأزهري: ويدخل في بيع الفَرِّ البيع المجهول لا لا يحيط بكنهه المتباين حتى تكون مطروحة.

القياس والنظر . وروى مالك عن زيد بن أسلم عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع الحيوان بالحم . قال أبو عمر : ولا أعلمه يتصل عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجه ثابت ، وأحسن أسانيده مرسلٌ سعيد بن المسيب عن مالك في موطنه ، وإليه ذهب الشافعي ؛ وأصله أنه لا يقبل المراسيل إلا أنه زعم أنه افتقد مراسيل سعيد فوجدتها أو أكثرها صحاحا . فكّره بيع أنواع الحيوان بأنواع اللحوم على ظاهر الحديث وعمومه ؛ لأنه لم يأت أثرٌ يَحْتَصُّه ولا إجماع . ولا يجوز عنده أن يُحْتَصَّ النَّصُّ بالقياس . والحيوان عنده اسم لكل ما يعيش في البرّ والماء وإن اختلفت أجناسه ؛ كالطعام الذي هو اسم لكل ما كُؤِل أو مشروب ؛ فأعلم .

السادسة — قوله تعالى : (قُلْ فِيهِمَا) يعني النجر والميسر (ثُمَّ كَبِيرٌ) ثُمَّ النجر ما يصدر عن الشارب من الخاصمة والمشامة وقول الفُحْش والزُّور وزوال العقل الذي يعرف به ما يجب لحالقه ، وتمطيل الصلوات والتعوق عن ذكر الله ، إلى غير ذلك . روى الشافعي عن عثمان رضى الله عنه قال : اجتنبوا النجر فإنها أمّ الخبائث ، إنه كان رجل من كان قبلكم تعبّد فعلقته امرأة غويّة ، فأرسلت إليه جاريتها فقالت له : إنا ندعوك للشهادة ؛ فانطلق مع جاريتها فطفقت كلّما دخل بابا أغلقتة دونه ، حتى أفضى إلى امرأة وصيّفة عندها غلام وباطيةٌ نمر ؛ فقالت : إني والله ما دعوتك للشهادة ، ولكن دعوتك لتقع على ، أو تشرب من هذه النجر كأسا أو تقتل هذا الغلام . قال : فاسقيني من هذه النجر ؛ كأسا فسقته كأسا . قال : زيدوني ؛ فلم يرم حتى وقع عليها ، وقتل النفس ؛ فاجتنبوا النجر ، فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإيمان النجر ؛ إلا لبوشك أن يخرج أحدهما صاحبه ؛ وذكره أبو عمر في الاستيعاب . وروى أن الأعمش لما توجه إلى المدينة أسلم فلقبه بعض المشركين في الطريق فقالوا له : أين تذهب ؟ فأخبرهم بأنه يريد عهدا صلى الله عليه وسلم ؛ فقالوا : لا تصل إليه ، فإنه يأمرك بالصلاة ؛ فقال : إن خدمة الرب واجبة . فقالوا : إنه يأمرك بإعطاء المال إلى الفقراء . فقال :

(١) يرم (يفتح اليا . وكسر الواو . من دلم يرم) ؛ أى ظم يرم .

اصطناع المعروف واجب . فقيل له : إنه ينهى عن الزنا . فقال : هو خشن وقبيح في العقل ، وقد صرت شيئا فلا أحتاج إليه . فقيل له : إنه ينهى عن شرب الخمر . فقال : أما هذا فإني لا أصبر عنه ! فرجع وقال : أشرب الخمر سنة ثم أرجع إليه ؛ فلم يصل إلى منزله حتى سقط عن البعير فأنكسرت عنقه فمات . وكان قيس بن عاصم المِثْقَرِيُّ شربا لها في الجاهلية ثم حرمها على نفسه ؛ وكان سبب ذلك أنه غمز عُنْكَةَ أخته وهو مسكران ، وسبَّ أبويه ، ورأى النمر فتكلم بشيء ؛ وأعطى الخمار كثيرا من ماله ؛ فلما أفانق أخبر بذلك لحزمها خل نفسه ، وفيها يقول :

رأيت الخمر صالحة وفيها * خصال تُفسد الرجل الحليما
فلا والله أشربها صحبة * ولا أشقى بها أبدا سقيا
ولا أعطى بها ثمنا حياتي * ولا ادعو لها أبدا نديما
فإن الخمر تفضح شاريها * وتجنيم بها الأمر العظيما

قال أبو عمر : وروى ابن الأعرابي عن المغفل الضبي أن هذه الآيات لا يرحمهن النقيض فالحا في تركه الخمر ، وهو القائل رضى الله عنه :

إذا مِتُّ فأدفني إلى جنب كَرْمَةٍ * تُروى عظامي بدم موقٍ عروقها
ولا تدفني بالفلاة فإني * أخاف إذا ما مِتُّ أن لا أنوقها

وجله عمر الحد عليا مرارا ، ونفاه إلى جزيرة في البحر ؛ فلحق بسعد فكتب إليه عمران يحبسه لنفسه ؛ وكان أحد الشجعان بهم ؛ فلما كان من أمره في حرب القادسية ما هو معروف حل قيوده وقال : لا تجلدك على الخمر أبدا . قال أبو عَجْن : وأنا والله لا أشربها أبدا ؛ فلم يشربها بعد ذلك . في رواية : قد كنت أشربها إذ يقام علي الحد [وأطهر منها] ، وأما إذ بهرجتني فوالله لا أشربها أبدا . وذكر الميثم بن عدي أنه أخبره من رأى قبر أبي عَجْن بأذربيجان ،

(١) الملكة : ما أتوى وتقى من لم يكن منها
الذي لا يُدري من أين يؤتى له من شدة بأسه .
(٢) اليوم (بضم فتح جمع الهمة) : القارس
(٣) زيادة عن كتاب « الانبياء » .
(٤) البرج (من معانيه) : الشيء المباح . أي (هلوتني بإسقاط الحد مني) .

أَوْ قَالَ : فِي نَوَاسِ بُرْجَان ، وَقَدْ نَبَتَ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَصُولٍ تَحْتَمُ وَقَدْ طَالَتْ وَأَثْمَرَتْ ، وَهِيَ مَعْرُوشَةٌ عَلَى قَبْرِهٖ ، مَكْتُوبٌ عَلَى قَبْرِهٖ « هَذَا قَبْرُ أَبِي عَمْرٍو » قَالَ : بَخِلْتُ أَنْتَجِيبَ وَأَذْكُرُ قَوْلَهٗ :

• اِنَّمَا مَتَّ فَاذِقْنِي إِلَى جَنْبِ كَرَمَةٍ •

ثُمَّ إِنَّ الشَّارِبَ يَصِيرُ مُحْكَمَةً لِلْعُقْلَاءِ ، فَيَلْبَسُ بِيُولَهٗ وَعِزَّتَهٗ ، وَرَبَّمَا يَسْحُ وَجْهَهٗ ، حَتَّى رَوَى بَعْضُهُمْ يَسْحُ وَجْهَهٗ بِيُولَهٗ وَيَقُولُ : اَللّٰهُمَّ أَجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَأَجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ • وَرَوَى بَعْضُهُمُ وَالْكَلْبَ يَلْحَسُ وَجْهَهٗ وَهُوَ يَقُولُ لَهُ : أَكْرَمَكَ اَللّٰهُ •

وَأَمَّا الْقَهَّارُ فَيُورِثُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ، لِأَنَّهُ أَكَلَ مَالَ النَّبِيِّ بِأَبَاطِلَ •

السَّابِقَةُ — قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) أَمَّا فِي الْحُمْرِ فَرَجُ التِّجَارَةِ ، فَاتَمُّ كَانُوا يَحْلِبُونَهَا مِنَ الشَّامِ بُرْخَسَ فَيَبْعُونَهَا فِي الْمَجَازِ بِرُحْ ، وَكَانُوا لَا يَرُونَ الْمَسَاكَةَ فِيهَا ، فَهَشَرَتِي طَالِبُ الْحُمْرِ الْخَمْرُ بِالثَّمَنِ الثَّانِي • هَذَا أَحْمَرُ مَا قِيلَ فِي مُتَفَعِّهَا ، وَقَدْ قِيلَ فِي مُنَافِعِهَا : إِنَّمَا تَهَيَّئْتُمُ الطَّعَامَ ، وَتَقْوَى الضَّمْفَ ، وَتَدِينُ عَلَى الْبَاءِ ، وَتَسْخِي الْبَحِيلَ ، وَتَشْجَعُ الْجَبَانَ ، وَتَصْنَعُ اللَّوْنَ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ اللَّذَّةِ بِهَا • وَقَدْ تَلَّى حَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اَللّٰهُ عَنْهُ :

وَنَشْرِبُهَا فَتَرْكًا مَلُوكًا • وَأُسْدًا مَا يَنْهِنُهَا اَلْقَاءُ

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَفْرَاحِهَا • وَقَالَ أُخَرُ :

فَإِذَا شَرِبْتُ فَاثْنَى • رَبِّ اَلْخَوَزَقِ وَالسِّدِيرِ

وَإِذَا مَحْصُوتُ فَاثْنَى • رَبِّ الشُّوْبَةِ وَالْبَعِيرِ

وَمِنْغَمَةُ الْمَيْسَرِ مَصِيرُ الشَّيْءِ إِلَى الْإِنْسَانِ فِي الْقَهَّارِ بِفِرْكَهٖ وَلَا تَعْبُ ، فَكَانُوا يَشْتَرُونَ الْجَزْوَاقَ وَيَضْرِبُونَ بِسَهَامِهِمْ فَمَنْ خَرَجَ سَهْمُهُ أَخَذَ نَصِيْبَهٗ مِنَ الْحُمْرِ وَلَا يَكُونُ عَلَيْهِ مِنَ الثَّمَنِ شَيْءٌ ، وَمَنْ بَقِيَ سَهْمُهُ أَحْرًا كَانَ عَلَيْهِ ثَمْنُ الْجَزْوَاقِ وَلَا يَكُونُ لَهُ مِنَ الْحُمْرِ شَيْءٌ • وَقِيلَ : مُتَفَعِّهُ التَّوَسُّعَةُ عَلَى الْحَاوِجِ فَإِنَّ مِنْ قَوْمٍ مِنْهُمْ كَانَ لَا يَأْكُلُ مِنَ الْجَزْوَاقِ وَكَانَ يَفْرَقُهُ فِي الْمُتَحَاجِّينَ •

وسهام إلى سبعة عشر سهما ، منها سبعة لها حظوظ وفيها فروض على عدد الحظوظ ، وهي :
 « القَدَّ » وفيه علامة واحدة وله نصيب وعليه نصيب إن خاب . الثاني — « التَّوَام » وفيه
 علامتان وله وعليه نصيبان . الثالث — « الزَّيْب » وفيه ثلاث علامات على ما ذكرنا .
 الرابع — « الخَلَص » وله أربع — الخامس — « النافز » والنافس أيضا وله خمس . السادس —
 « المسيل » وله ست . السابع — « المَعْل » وله سبع . فذلك ثمانية وعشرون فرضا ، وأنصبا
 الجزور ^(١) كذلك في قول الأصمعي . وبقى من السهام أربعة ، وهي الأغفال لا فروض لها
 ولا أنصبا ^(٢) وهي : « المَصْدَر » و « المَضْعَف » و « المَنِيح » و « السَّيْفِج » . وقيل :
 الباقية الأغفال الثلاثة : « السَّيْفِج » و « المَنِيح » و « الوَعْد » تزد هذه الثلاثة لتكثر السهام
 على الذي ^(٣) يجيئها فلا يعد إلى الميل مع أحد سبيلا . ويسمى المحيل المقيض ^(٤) والضارب والضريب ،
 والجمع الضرباء . وقيل : يُعمل خلفه رقيب لثلاث بحاي أحدا ، ثم يمتو الضريب على ركبته ،
 ويلتحف بثوب ويخرج رأسه ويدخل يده في الرِّبَاة فيخرج . وكانت عادة العرب أن
 تضرب الجزور بهذه السهام في الشَّوْة وضيق الوقت وكَلَب البرد على الفقراء ؛ يُسْتَرَى الجزور
 ويضمن الأيسار منها ورضى صاحبها من حقه ، وكانوا يفتخرون بذلك ويذمون من لم يفعل
 ذلك منهم ، ويسمونه « البرم » قال متم بن نويرة :
 ولا برما تهدي النساء لبرسه . إذا القشع من برد الشتاء ^(٥) تنقعما

ثم تحمر وتقيم على عشرة أقسام . قال ابن عطية : وأخطأ الأصمعي في قسمة الجزور ،
 فذكر أنها على قدر حظوظ السهام ثمانية وعشرون قسما ، وليس كذلك ؛ ثم يضرب على العشرة
 فمن فاز سهمه بأن يخرج من الرِّبَاة متقعما أخذ أنصباؤه وأعطاه الفقراء . والرِّبَاة (بكسر الراء) :
 شبيهة بالكثانة تُجمع فيها سهام الميسر ؛ وربما سموا جميع السهام ربابة ؛ قال أبو ذؤيب يصف
 الحمار وأنته :

(١) بجيئها : هو من أجال بجيئ إذا حركها ، أى يضع يده في الخريطة ويحركها مرتين أو ثلاثا .
 (٢) الاقامة بالقدح : الضرب بها وإجالتها عند القمار . (٣) سيذكر المؤلف رحمه الله تعالى معنى الرِّبَاة .
 (٤) البرم (شتمين) : الذي يدخل مع القوم في المهر . والقشع : بيت من جلد .

وكانت رباباً وكانه * يسرفيض على القلاح ويصدع^(١)

والرابة أيضا : العهد والميثاق ؛ قال الشاعر^(٢) :

وكنْتُ أَمراً أنضت اليك ربابي * وقبلك ربيتي قُضمت رُبوب^(٣)

وفي أحبان ربما تقاسروا لأنفسهم ثم يفرم الثمن من لم يفرم سهمه ؛ كما تقدم . ويعيش بهذه
السيرة فقراء الحلى ؛ ومنه قول الأعشى :

المطمعو أضيف إذا ما شئوا * وأجلا علو الصوت على اليا مير

ومنه قول آخر :

بأيديهم . مقرومة ومغاليق * سود بأرزاق العفا مبيحة^(٤)

و « المنيع » في هذا البيت المستمنح ؛ لأنهم كانوا يستمرون السهم الذي قد أتمس وكثر فوزة ؛
فذلك المنيع المدوح . وأما المنيع الذي هو أحد الأفعال فذلك إنما يوصف بالكرة ولما
أراد الأخطل بقوله^(٥) :

ولقد عطفن على فزارة عطفة * كَرَّ المنيع وجُلن ثم مجالا

وفي الصراح : « والمنيع سهم من سهام الميسر لما لا نصيب له إلا أن يُمنَح صاحبه شيئاً »
ومن الميسر قول أبيد^(٦) :

(١) يفيض : يطلع ؛ ومنه الأفاضة . وصعدت الشيء : أظهرته وبينه . (٢) هو طمعة بن عبدة ؛ كما
في ديوانه . (٣) ربيتي أي ملكتي أرباب من الملوك فضمت حتى صرت اليك . والربوب (جمع رب) :
الملك . (٤) هو عمر بن قبة ؛ كما في تاج العروس واللسان ، مادة « غلق » . (٥) المقرومة :
الموسومة بالعلامات . والمغاليق : فدادح الميسر . وقيل : المغاليق من ثوب فدادح الميسر التي يكون لها الفوز ؛ وليست
المغاليق من أمانتها ؛ وهي التي تنفق المظهر فترجيه لقاصر الفائز ؛ كما ينطق الزعم لمنسحقه . (عن اللسان)
(٦) كذا في الأصول . والعفاة : الأضياف وظلاب المعروف . والتي في اللسان وتاج العروس : « الديال » .
(٧) في الأصول : « درر » والنصوب عن ديوان الأخطل . والبيت من قصيدة يهجو بها جريرا مملها :

* كذبتك حينك أم رأيت يواسط *

راجع ديوانه من ٤١ طبع بيروت .

(٨) كذا في الأصول . والتي في كتاب « الميسر والقداح » لابن تيمية والمفضليات أنه الرقش الأكبر ؛ وهو
من قصيدة له ؛ مملها :

* ألا بان جبراني ولست بتأف *

راجع المفضليات ص ٤٧٤ طبع أدربا .

إِذَا يَسِرُوا لَمْ يُورِثَ الْيُسْرُ بَيْنَهُمْ * فَوَاحِشٌ يُنَبِّئُ ذِكْرُهَا بِالْمَصَائِفِ
فهذا كله نفع اليسر، إلا أنه أكل المال بالباطل .

الثامنة - قوله تعالى : (وَإِنَّمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) أعلم الله جل وعز أن الإثم أكبر من النفع وأعوذ بالضرر في الآخرة ؛ فالإثم الكبير يعد التحريم، والمنافع قبل التحريم .
وقرأ حمزة والكسائي « كثير » بالياء المثلثة ؛ وحجتهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الخمر ولعن معها عشرة : بآئنها ومبتاعها والمشتراة له وعاصرها والمحصورة له وساقها وشاربها وحاملها والحمولة له وأكل ثمنها . وأيضا جتمع المنافع يحسن معه جمع الآثام . و « كثير » بالياء المثلثة يعطى ذلك . وقرأ باقي القراء وجمهور الناس « كبير » بالياء الواحدة ، وحجتهم أن الذنب في الفهار وشرب الخمر من الكبائر ؛ فوصفه بالكبير أليق . وأيضا فأثما فاقهم على « أكبر » حجة ل « كبير » بالياء الواحدة . وأجمعوا على رفض « أكثر » بالياء المثلثة ، إلا في مصحف عبد الله ابن مسعود فإن فيه « قل فيهما إثم كثير وإثمهما أكثر » بالياء مثلثة في الحرفين .

التاسعة - قال قوم من أهل النظر : حُرِّمَتِ الخمر بهذه الآية ؛ لأن الله تعالى قد قال : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ » فأخبر في هذه الآية أن فيها إثما فهو حرام . قال ابن عطية : ليس هذا النظر بجيد ، لأن الإثم الذي فيها هو الحرام ، لا هي بعينها على ما يقتضيه هذا النظر .

قلت : وقال بعضهم : في هذه الآية ما دل على تحريم الخمر لأنه سماه إثما ، وقد حرم الإثم في آية أخرى وقوله عز وجل : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ » . وقال بعضهم : الإثم أراد به الخمر ؛ بدليل قول الشاعر :

شربتُ الإثمَ حتى ضلَّ عقلي * كذاكَ الإثمُ يذهب بالعقول

قلت : وهذا أيضا ليس بجيد ، لأن الله تعالى لم يسم الخمر إثما في هذه الآية ، وإنما قال : « قل فيهما إثم كبير » ولم يقل : قل هما إثم كبير . ولما آية « الأعراف » وبيت الشعر فأتى الكلام فيهما هناك مبيّنا ، إن شاء الله تعالى . وقد قال قتادة : إنما في هذه

الآية ثُمَّ انْخَر، فأما التحريم فَيُعْلَمُ بآية أخرى وهى آية « المائدة » وَعَلَى هَذَا كَثِيرُ
المفسرين .

قوله تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ أَمْقَوْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ
تَتَفَكَّرُونَ . فى الدنيا والآخرة) فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (قُلِ أَمْقَوْ) قراءة الجمهور بالنصب . وقرا أبو عمرو وحده
بالرفع . واختلف فيه عن ابن كثير . وبالرفع قراءة الحسين وقادة وابن أبى إسحاق . قال البناين
وغيره : إن جمعت « ذا » بمعنى الذى كان الاختيار الرفع ، على معنى : الذى ينفقون هو
المقو ؛ وجاز النصب . وإن جمعت « ما » و « ذا » شيئا واحدا كان الاختيار النصب .
على معنى : قل ينفقون المقو ؛ وجاز الرفع . وحكى النحويون : ماذا تملكت ؛ أنخوا أم شعرا ؟
بالنصب والرفع ، على أنهما جيدان حسان ؛ إلا أن التفسير فى الآية على النصب .

الثانية — قال العلماء : لما كان السؤال فى الآية المتقدمة فى قوله تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ
مَاذَا يُنْفِقُونَ) سؤالا عن النفقة إلى مَنْ تُصْرَف ؛ كما بيناه ودل عليه الجواب ، والجواب
خرج على وفق السؤال ؛ كآت السؤال الثانى فى هذه الآية عن قدر الانفاق ؛ وهو فى شأن
عمرو بن الجوح — كما تقدم — فإنه لما نزل « قُلْ مَا أَقْتَمُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ » قال : كم أنفق ؟
فترل « قل المقو » والمعو ؛ ما سئل ويسر وقُضِل ، ولم يسق على القلب إخراجا ؛ ومنه
قول الشاعر :

حَذَى المقو متى تستدبى مودى • ولا شيطنى فى سورتى حين أغضب

فالمعنى : أنفقوا ما قُضِل عن حوائجكم ، ولم تؤدوا فيه أنفسكم فتكونوا عالة ؛ هذا أول ما قبل
فى تأويل الآية ، وهو معنى قول الحسين وقادة وعطاء والسدى والقرطبى محمد بن كعب وأبى
أبى لى وغيرهم ، قالوا : المعو ما قُضِل عن العيال ؛ ونحوه عن ابن عباس . وقال مجاهد :
صدقة عن ظهر غنى ، وكذا قال عليه السلام : « خير الصدقة ما أُنْفَقَتْ عن غنى » وفى حديث

(١) وهو قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَيْرُ الْمَحْصَر... » آية ٩٠ . (٢) قال ابن الأثير

« والظاهر يزداد فى مثل هذا إنباء الكلام وتذكيرا ؛ كأن صدقة سئنة إلى ظهر قرى من المال » .

آخر: "خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى". وقال قيس بن سعد: هذه الزكاة المفروضة. وقال جمهور العلماء: بل هي "ثقات الطلوع". وقيل: هي منسوخة. وقال الكلبي: كان الرجل بعد نزول هذه الآية إذا كان له مال من ذهب أو فضة أو زرع أو ضرع نظر إلى ما يكفيه وعياله لنفقة سنة أمسكه وتصدق بساتره، وإن كان ممن يعمل بيده أمسك ما يكفيه وعياله يوما وتصدق بالباقي، حتى نزلت آية الزكاة المفروضة ففسخت هذه الآية وكل صدقة أسروا بها. وقال قوم: هي محكمة، وفي المال حق سوى الزكاة. والظاهر يدل على القول الأول.

الثالثة - قوله تعالى: (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ) قال المفضل بن سلمة: أى في أمر النعمة. (لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ. فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) فتعبدون من أموالكم ما يصلحكم في مآس الدنيا وتتفقدون الباقي فيما ينفعكم في العقبى. وقيل: في الكلام تهديد وتأخير، أى كذلك بين الله لكم الآيات في أمر الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون في الدنيا وزوالها وفنائها فترعدون فيها، وفي إقبال الآخرة وجائها تفرغون فيها.

قوله تعالى: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحُ هُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَانْخَوْنَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنْ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٢٧﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى - روى أبو داود والنسائي عن ابن عباس قال: لما أنزل الله تعالى: «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتَامَى إِلَّا بِآيَاتِهِ أَحْسَنَ» و«إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا» الآية، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشراؤه من شراؤه بفعل أفضل من طعامه فيحبس له، حتى يأكله أو يفسد؛ فأشد ذلك عليهم؛ فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحُ هُمْ خَيْرٌ» الآية، غفلوا طعامهم بطعامه وشراهم

بشرايه ، لفظ أبي داود . والآية متصلة بما قبل ، لأنه اقترن بذكر الأموال الأمر بحفظ أموال اليتامى . وقيل : إن السائل عبد الله بن رواحة . وقيل : كانت العرب تنشأ بملازمة أموال اليتامى في مؤاكلتهم ، فزلت هذه الآية .

الثانية — لما أذن الله جل وعز في غاطلة الأيتام مع قصد الإصلاح بالنظر إليهم وفيهم كان ذلك دليلا على جواز التصرف في مال اليتيم ، تصرف الوصي في البيع والشراء وغير ذلك ، على الإطلاق لهذه الآية . فإذا كفل الرجل اليتيم وحازه وكان في نظره جاز عليه فعله وإن لم يقدمه وإل عليه ، لأن الآية مطلقة والكفالة ولاية عامة ، لم يؤثر من أحد من الخلفاء أنه قدم أحدا على يتيم مع وجودهم في أزمتهم ، وإنما كانوا يقتضرون على كونهم عندهم .

الثالثة — تواترت الآثار في دفع مال اليتيم مضاربة والتجارة فيه ، وفي جواز خلط ماله بماله ؛ دلالة على جواز التصرف في ماله بالبيع والشراء إذا وافق الصلاح ، وجواز دفعه مضاربة ، إلى غير ذلك على ما ذكره مبيتا . واختلف في عمله هو قراضا ، فتعده أشبه بوعده على منعه من أن يبيع لم من نفسه أو يشتري لها . وقال غيره : إذا أخذه على جزء من الربح بنسبة قراض مثله فيه أمضى ؛ كشرائه شيئا لليتيم بتعقب^(١) فيكون أحسن لليتيم . قال محمد بن عبد الحكم : وله أن يبيع له بالدين إن رأى ذلك نظرا . قال ابن كثة : وله أن ينفق في عرس اليتيم ما يصلح من صنيع وطيب ؛ ومصلحته بقدر حاله وحال من يزوج إليه ، ويقدر كثرة ماله . قال : وكذلك في ختانه ؛ فإن خشي أن يئثم رفع ذلك إلى السلطان فيأمره بالقصد ؛ وكل ما فعله على وجه النظر فهو جائز ، وما فعله على وجه المحابة وسوء النظر فلا يجوز . وقد الظاهر على أن ولي اليتيم يعلمه أمر الدنيا والآخرة ، ويستأجر له ويؤاخره من يملكه الصناعات . وإذا وهب لليتيم شيء فالوصي أن يقبضه لما فيه من الإصلاح . وسيأتي لهذا مزيد بيان في النساء ، إن شاء الله تعالى .

(١) بتعقب : أى مع تعقب ، وهو أنه ينظر في أمر المشتري يدفعه إلى السوق لمرة فمرة .

الرابعة - وليا ينفقه الوصي والكفيل من مال اليتيم حالتان : حالة يمكنه الإشهاد عليه ؛ فلا يقبل قوله إلا بيّنة . وحالة لا يمكنه الإشهاد عليه فقولُه مقبول بغير بيّنة ؛ فهما اشترى من المقار وما جرت العادة بالتوثق فيه لم يقبل قوله بغير بيّنة . قال ابن خُوَيْرِزٍ متّدا : ولذلك فرق أصحابنا بين أن يكون اليتيم في دار الوصي يُنفق عليه فلا يكلف الإشهاد على نفقته وكسوته ؛ لأنه يتعذر عليه الإشهاد على ما يأكله ويلبسه في كل وقت ؛ ولكن إذا قال : أُنْفِقْت نفقة تسبه قيل منه ؛ وبين أن يكون عند أمّه أو حاضته فيذعي الوصي أنه كان يُنفق عليه ، أو كان يُعطى الأُمّ أو الحاضنة النفقة والكسوة فلا يقبل قوله على الأُمّ أو الحاضنة إلا بيّنة أنها كانت تقبض ذلك له مشاهرة أو مضافاً .

الخامسة - واختلف العلماء في الرجل يُنكح نفسه من يتيّمته ، وهل له أن يشتري نفسه من مال يتيّمه أو يتيّمته ؛ فقال مالك : ولاية النكاح بالكفالة والحضانة أقوى منها بالقرابة ؛ حتى قال في الأعراب الذين يُسلمون أولادهم في أيام المجاعة : إنهم ينكحونهم إنكاحهم ؛ فاما إنكاح الكافل والحاضن لنفسه فيأتي في «النساء» بيانه ، إن شاء الله تعالى . وأما الشراء منه فقال مالك : يشتري في مشهور الأقوال ؛ وكذلك قال أبو حنيفة : له أن يشتري مال الطفل اليتيم لنفسه بأكثر من ثمن المثل ؛ لأنه إصلاح دلّ عليه ظاهر القرآن . وقال الشافعي : لا يجوز ذلك في النكاح ولا في البيع ؛ لأنه لم يذكر في الآية التصرف ؛ بل قال : « إصلاح لم خير » من غير أن يذكر فيه الذي يجوز له النظر . وأبو حنيفة يقول : إذا كان الإصلاح خيراً فيجوز ترويجه ويجوز أن يزوجه منه . والشافعي لا يرى في الترويج إصلاحاً إلا من جهة دفع الحاجة ، ولا حاجة قبل البلوغ . وأحمد بن حنبل يُعَوِّز للوصي الترويج لأنه إصلاح . والشافعي يُعَوِّز للجدّ الترويج مع الوصي ، والأب في حق ولده الذي ماتت أمّه لا بحكم هذه الآية . وأبو حنيفة يُعَوِّز للقاضي ترويج اليتيم بظاهر القرآن . وهذه المذاهب نشأت من هذه الآية ؛ فإن ثبت كون الترويج إصلاحاً فظاهر الآية يقتضي جوازه . ويجوز أن يكون معنى قوله تعالى : « ويستولونك عن اليتامى » أي يسالك القوام على اليتامى الكافلون لهم ؛ وذلك مُجْتَمَل لا يعلم منه عين الكافل والقيم وما يشترط فيه من الأوصاف .

فان قيل : يلزم ترك مالك أصله في التهمة والذرائع إذ جوز له الشراء من يتيمة .
 فالجواب أن ذلك لا يلزم ، وإنما يكون ذلك ذريعة فيما يؤدى من الأفعال المحظورة إلى محظورة
 منصوب عليها ؛ وأما هاهنا فقد أذن الله سبحانه في صورة المخالطة ووكل الحاضرين في ذلك .
 إلى أمانتهم بقوله : «وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ» وكلُّ أمرٍ مخوف وكلُّ أمرٍ مباحاته
 المكلف إلى أمانته لا يقال فيه : إنه يتدرع إلى محظور به فيُمتنع منه ؛ كما جعل الله النساء
 مؤتمنات على فروجهن ، مع عظيم ما يترتب على قولهن في ذلك من الأحكام ، ويرتبط به من
 الحِلِّ والحُرْمَةِ والأَنساب ؛ وإن جاز أن يكذبن . وكان طاموس إذا سئل عن شيء من أمر
 اليتامى قرأ : «وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ» . وكان ابن سيرين أحب الأشياء إليه في مال
 اليتيم أن يجتمع نصحواؤه فينظرون الذي هو خير له ؛ ذكره البخاري . وفي هذا دلالة على جواز
 الشراء منه لنفسه ؛ كما ذكرنا . والقول الآخر أنه لا ينبغي للولي أن يشتري مما تحت يده شيئا ؛
 لما يلحقه في ذلك من التهمة إلا أن يكون البيع في ذلك بيع سلطان في ملأ من الناس .
 وقال محمد بن عبد الحكم : لا يشتري من التركة ، ولا بأس أن يَدُسَّ مَنْ يَشْتَرِي له منها إذا
 لم يعلم أنه من قبله .

السادسة - قوله تعالى : (وَإِنْ تَحَالَطَوُاْ فَاِخْوَانُكُمْ) هذه المخالطة تخطيط المثل
 بالمثل كالتبر بالتمر . وقال أبو عبيد : مخالطة اليتامى أن يكون لأحدهم المال ويشق على
 كافله أن يفرد طعامه عنه ، ولا يحسد بدأ من خطئه بعياله فيأخذ من مال اليتيم ما يرى أنه
 كافيه بالتجزى فيجعله مع نفقة أهله ؛ وهذا قد يقع فيه الزيادة والتقصان ؛ فجاءت هذه الآية
 الناصحة بالترخصة فيه . قال أبو عبيد : وهذا عندى أصل لما يفعله الرُقَّاء في الأسفار فإنهم
 يحتاجون التفقات بينهم بالسوية ، وقد يتفاوتون في قلة المطعم وكثرته ؛ وليس كل من قل
 مطعمه يطيب نفسه بالتفضل على رفيقه ؛ فلما كان هذا في أموال اليتامى واسما كان في غيرهم
 أوسع ، ولولا ذلك خلفت أن يضيق فيه الأمر على الناس .

البابسة - قوله تعالى : (فَأَخَوَانُكُم) خبر مبتدأ محذوف ، أى فهم إخوانكم ؛ والفاء جواب الشرط - وقوله تعالى : (وَأَنَّهُ يَلْمُ الْفَاسِدِينَ الْمُسْلِمِينَ) تحذير ، أى يعلم المفسد لأموال اليتامى من المصلح لها ؛ فيجازى كلّا على إصلاحه وإنساده .

الثامنة - قوله تعالى : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبَكُمْ) روى الحكم عن مِقْسَم عن ابن عباس « ولَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبَكُمْ » قال : لو شاء لجلس ما أصبهم من أموال اليتامى مَوْقِفًا . وقيل « لَأَعْتَبَكُمْ » : لأهلككم ؛ عن الزجاج وأبي عبيدة . وقال القَتَنِي : لضيق عليكم وشدة ، ولكنه لم يشأ إلا التيسيل عليكم . وقيل : أى لكلفكم ما يشتد عليكم أداؤه وأنتم في مخالطتهم ؛ كما فصل بين كان قبلكم ، ولكنه خفف عنكم . والعَتَت : المشقة ، وقد عَتَت وأعتته غيره . ويقال للعظم الجبور إذا أصابه شيء فهاضه : قد أعتته ، فهو عَتَت ومُعَتَت . وعَتَت الدابة تعَتَت عَتًا : إذا حدثت في قوائمها كسر بعد جبر لا يمكنها معه جرى . وأَكَّة عَتَوْتُ : شاقة المصعد . وقال ابن الأنباري : أصل العَتَت التشديد ؛ فإذا قالت العرب : فلان يتعَتَت فلانا ويُعَتَت فرادها يُشَدُّ عليه ويلزمه ما يصعب عليه أداؤه ؛ ثم قلت الى معنى الهلاك . والأصل ما وصفنا .

قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ) أى لا يتع على شيء (حَكِيمٌ) يتصرف فى ملكه بما يريد ، لا تجبر عليه جل وتعالى علواً كبيراً .

قوله تعالى : (وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَئِمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٣٦)) قوله تعالى : (وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَئِمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ) فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَلَا تَتَّبِعُوا) قراءة الجمهور بفتح التاء . وقُرئت في الشاذ بالضم ؛ كأن المعنى أن المترج لما أنكحها من نفسه . ونكح أصله الجماعة ، ويستعمل في التزوج تجوزاً وأتساعاً ، وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

الثانية - لما أذن الله سبحانه وتعالى في مخالطة الأيتام ومخالطة النكاح بين أمة مسلمة والمشركين لا تصح . وقال مقاتل : نزلت هذه الآية في أبي مرثد الغنوي . وقيل : في مرثد بن أبي مرثد ، واسمه تَاز بن حصين الغنوي ، بقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة سراً ليُخرج رجلاً من أصحابه ؛ وكانت له بمكة امرأة يحبها في الجاهلية يقال لها « عناق » فجاءه ؛ فقال لها : إن الإسلام حرم ما كان في الجاهلية ؛ قالت : فزوجني ؛ قال : حتى أستأذنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأستأذنه فنهاه عن التزوج بها ؛ لأنه كان مسلماً وهي مشركة . وسيأتي في « النور » بيانه إن شاء الله تعالى .

الثالثة - واختلف العلماء في تأويل هذه الآية ؛ فقالت طائفة : حرم الله نكاح المشركات في سورة « البقرة » ثم نسخ من هذه الجملة نساء أهل الكتاب ؛ فأحلن في سورة « المائدة » . وروى هذا القول عن ابن عباس ، وبه قال مالك بن أنس وسفيان بن سعيد الثوري ، وعبد الرحمن بن عمرو الأزواجي . وقال قتادة وسعيد بن جبير : لفظ الآية العموم في كل كافرة ، والمراد بها الخصوص في الكتابيات ؛ وبيّن الخصوص آية « المائدة » ولم يتناول العموم قط الكتابيات . وهذا أحد قولَي الشافعي ، وعلى القول الأول يتناولن العموم ؛ ثم نسخت آية « المائدة » بعض العموم . وهذا مذهب مالك رحمه الله ، ذكره ابن حبيب قال : ونكح اليهودية والنصرانية وإن كان قد أحله الله تعالى مستثلاً مذموم . وقال إسماعيل بن إبراهيم الحرابي : ذهب قوم لجعلوا الآية التي في « البقرة » هي النافذة ، والتي في « المائدة » هي المنسوخة ؛ فخرموا نكاح كل مشركة كتابية أو غير كتابية . قال النابلسي : ومن الجملة لقائل هذا مما صح منه ما حدثناه محمد بن ريان قال : حدثنا محمد بن رُح قال حدثنا

الآئيت عن نافع أن عبد الله بن عمر كان إذا سئل عن نكاح الرجل النصرانية أو اليهودية قال : حرم الله المشركين على المؤمنين ، ولا أعرف شيئا من الإشراف أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى ، أو عيّد من عباد الله ! . قال النحاس : وهذا قول خارج عن قول الجماعة الذين تقوم بهم الحجة ؛ لأنه قد قال بتحليل نكاح نساء أهل الكتاب من الصحابة والتابعين جماعة منهم حنّان وطلحة وابن عباس وجابر وحذيفة . ومن التابعين سعيد بن المسيّب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد وطاوس وعكرمة والشعبي والضحاك ؛ وقفها الأمصار عليه . وأيضا فيمتنع أن تكون هذه الآية من سورة «البقرة» ناسخة للآية التي في سورة «المائدة» لأن «البقرة» من أول ما نزل بالمدينة ، و«المائدة» من آخر ما نزل . وإنما الآخر ينسخ الأول ، وأما حديث ابن عمر فلا حجة فيه ؛ لأن ابن عمر رحمه الله كان رجلا متوقفا ، فلما سمع الآيتين ، في واحدة التحليل ، وفي أخرى التحريم ولم يلبثه النسخ توقف ؛ ولم يؤخذ عنه ذكر النسخ وإنما تؤخذ عليه ، وليس يؤخذ النسخ والمنسوخ بالتأويل . وذكر ابن عطية : «وقال ابن عباس في بعض ما روى عنه : إن الآية عامة في الوثنيات والمجوسيات والكتابيات ، وكل من على غير الإسلام حرام ؛ فعل هذا هي ناسخة للآية التي في «المائدة» وينظر إلى هذا قول ابن عمر في الموطأ : ولا أعلم إشرافا أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى» . وروى عن عمر أنه فرق بين طلحة وابن عبيد الله وحذيفة بن أيمان وبين كاتبتين وقال : تُطلق يا أمير المؤمنين ولا تنفّس ؛ فقال : لو جاز طلاهكما لجاز نكاحكما ! ولكن أفرق بينكما صفة قماء . قال ابن عطية : وهذا لا يستند جيدا وأسنده أنه عمر أراد التفريق بينهما فقال له حذيفة : أترم أنها حرام فأحل سبيلها يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لا أزمع أنها حرام ، ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن . وروى عن ابن عباس نحو هذا . وذكر ابن المنذر جواز نكاح الكتابيات عن عمر ابن الخطاب ، ومن ذكر من الصحابة والتابعين في قول النحاس . وقال في آخر كلامه : ولا يصح عن أحد من الأوائل أنه حرم ذلك . وقال بعض السلفاء : وأما الايتان فلا تصارض بينهما ؛ فإن ظاهر لفظ الشرك لا يتناول أهل الكتاب ؛ لقوله تعالى « ما يؤدّ

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُقَالَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ » ، وقال :
 « لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ » ففوق بينهم في اللفظ ؛ وظاهره المطف
 يقتضى مفارقة بين المعطوف والمعطوف عليه ، وأيضاً فاسم الشرك عموم وليس بنص ، وقوله
 تعالى : « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » بعد قوله : « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ »
 نص ؛ فلا تمارض بين المحتمل وبين مالا يحتمل : فان قيل : أراد بقوله : « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ
 الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ » أى أوتوا الكتاب من قبلكم وأسلموا ؛ كقوله : « وَإِنَّ
 مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ » الآية . وقوله : « مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ » الآية .
 قيل له : هذا خلاف نص الآية في قوله : « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ »
 وخلاف ما قاله الجمهور ؛ فإنه لا يُشْكِلُ على أحد جواز الترويج ممن أسلم وصار من أعيان
 المسلمين . فإن قالوا : فقد قال الله تعالى : « أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ » فجعل العلة في تحريم
 نكاحهم الدماء إلى النار . والجواب أن ذلك علة لقوله تعالى : « وَلَأَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ »
 لأن المشرك يدعو إلى النار ؛ وهذه العلة مطردة في جميع الكفار ؛ فاسلم خير من الكافر
 مطلقاً ؛ وهذا بين .

الرابعة - وأما نكاح أهل الكتاب إذا كانوا حرباً فلا يحل ؛ ومثل ابن عباس عن
 ذلك فقال : لا يحل ، وتلا قول الله تعالى : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ »
 إلى قوله : « صَاحِرُونَ » . قال المحدث : حدث بذلك إبراهيم النخعي فأعجبه . وكره مالك
 تزوج الحربيات ؛ لعلة ترك الولد في دار الحرب ، ولتصرفها في الخمر والخمرير .

الخامسة - قوله تعالى : « وَلَأَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ » إخبار بأن المومنة الملوكة
 خير من المشركة ، وإن كانت ذات الحسب والمال . (وَلَوْ أَتَجَبَّحَكُمْ) في الحسن وغير ذلك ؛ وهذا
 قول الطبري وغيره . ونزلت في غنسه وليلة سيوداء كانت لحذيفة بن اليمان ؛ فقال للحذيفة :
 يا غنسه ؛ قد ذكرت في الملاء الأعلى مع سوادك ودمايتك ، وأنزل الله تعالى ذكرك في كتابي
 فاعتقها حذيفة وتزوجها . وقال السدي : نزلت في عبد الله بن زواعة ، كانت له أمة خذواء

فطلمها في غضب ثم ندم ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ؛ فقال : " ما هي يا عبد الله " قال : تصوم وتصلّي وتحسن الوضوء وتشهد الشهادتين ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذه مؤمنة " . فقال ابن ربيعة : لأعتقنها ولأترجنهن ؛ ففعل ؛ فظعن عليه ناس من المسلمين وقالوا : نكح أمّة ؛ وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين ، وكانوا ينكحونهم رغبة في أحسابهم ؛ فزلت هذه الآية . والله أعلم .

السادسة - واختلف العلماء في نكاح إماء أهل الكتاب ؛ فقال مالك : لا يجوز نكاح الأمّة الكتابية . وقال أشهب في كتاب عمده ، فيمن أسلم ونحوه أمّة كتابية ؛ إنه لا يفرق بينهما . وقال أبو حنيفة وأصحابه : يجوز نكاح إماء أهل الكتاب . قال ابن العربي : درسنا الشيخ أبو بكر الشافعي بمدينة السلام قال : احتج أصحاب أبي حنيفة على جواز نكاح الأمّة [الكتابية] بقوله تعالى : « وَلَا أَمَّةٌ مِّمَّنْ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ » . ووجه الدليل من الآية أن الله سبحانه خير ابن نكاح الأمّة والمشركة ؛ فلولا أن نكاح الأمّة المشركة جائز لما خير الله تعالى بينهما ؛ لأنّ المخايمة إنما هي بين الجائزين لا بين جائز وممنوع ، ولا بين متضادين . والجواب أن المخايمة بين الضدين يجوز أمة وقرآنا ؛ لأن الله سبحانه قال : « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا » . وقال عمر في رسالته لأبي موسى : « الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل » . جواب آخر : قوله : « وَلَا أَمَّةٌ » لم يرد به الرّق المملوك وإنما أراد به الآدمية ؛ والآدميات والآدميون بأجمعهم عبيد الله وإماؤه ؛ قاله القاضي بالبصرة أبو العباس الجرجاني .

السابعة - واختلفوا في نكاح نساء المجوس ؛ فنفى مالك والشافعي وأبو حنيفة والإذراعني وإسحاق عن ذلك . وقال ابن حنبل : لا يعجنى . وروى أن حذيفة بن اليمان تروّج مجوسية ، وأن عمر قال له : طلقها . وقال ابن القصار : قال بعض أصحابنا : يجب على أحد القولين أن نكح كتابان يجوز نكاحهم . وروى ابن وهب عن مالك أن الأمّة المجوسية لا يجوز أن توطأ ؛ ملك الميم ، وكذلك الوثنيات وغيرهن من الكافرات بموصل هذا جماعة العلماء ،

(١) إجابة ابن العربي في «المستطاب للقرآن» له : «انخرج أبو حنيفة» (٢) زيادة عن ابن العربي .

إلا ما رواه يحيى بن أيوب عن أبي جريح عن عطية وعمرو بن دينار أنها سئلا عن نكاح
الإماء المجوسيات ؛ فقالا : لا بأس بذلك . وتأولا قول الله عز وجل : « وَلَا تَنْكِحُوا
الْمُشْرِكَاتِ » . فهذا عندهما على عقد النكاح لا على الأئمة المشتراة ؛ واحتجاً بسني أوطاس ؛
وأن الصحابة نكحوا الإماء ممن يملك اليمين . قال النحاس : وهذا قول شاذ ؛ أما سني
أوطاس فقد يجوز أن يكون الإماء أسلمن بفاز نكاحهن ، وأما الاحتجاج بقوله : « وَلَا تَنْكِحُوا
الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ » فغلط ؛ لأنهم حملوا النكاح على العقد ؛ والنكاح في اللغة يقع على العقد
وعلى الوطء ؛ فلما قال : « وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ » حرم كل نكاح يقع على المشركات من
نكاح ووطء . وقال أبو عمر بن عبد البر : وقال الأوزاعي : سألت الزهري عن الرجل يشتري
المجوسية أبطوها ؟ فقال : إذا شهدت أن لا إله إلا الله وطمها . وعن يونس عن ابن شهاب قال :
لا يخل له أن يطاها حتى تسلم . قال أبو عمر : قول ابن شهاب : لا يخل له أن يطاها حتى
تسلم ، هذا وهو أعلم الناس بالمغازي والسير دليل على فساد قول من زعم أن سني أوطاس
وطئن ولم يسلمن . روى ذلك عن طائفة منهم عطية وعمرو بن دينار قالوا : لا بأس بوطء
المجوسية ؛ وهذا لم يلتفت إليه أحد من الفقهاء بالأمصار . وقد جاء عن الحسن البصري —
وهو ممن لم يكن غزوه ولا غزرا ناحيته إلا القرس وما وراءهم من خراسان ، وليس
منهم أحد أهل كتاب — ما بين لك كيف كانت السيرة في نساءهم إذا سئين قال : أخبرنا
عبد الله بن محمد بن أسد قال حدثنا إبراهيم بن أحمد بن فراس قال حدثنا علي بن عبد العزيز
قال حدثنا أبو عبيد قال حدثنا هشام عن يونس عن الحسن قال : قال رجل له : يا أبا سعيد
كيف كنتم تصنعون إذا سبيتهم ؟ قال : كنا نوجهها إلى القبلة ونأمرها أن تسلم وتشهد
أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ ثم نأمرها أن تغسل . وإذا أراد صاحبها أن يصيها
لم يصيها حتى يستبرئها . وعلى هذا تأويل جماعة العلماء في قول الله تعالى : « وَلَا تَنْكِحُوا
الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ » أنهن الوثنيات والمجوسيات ؛ لأن الله تعالى قد أحل الكليات بقوله :
« وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ » يعني المنافق ، لا من شهرزادها من

المسلمات . ومنهم من كره نكاحها ووطأها يملك اليمين ما لم يكن ممن توبة ؛ لما في ذلك من إفساد النسب .

قوله تعالى : (وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ) فيه إحدى عشرة مسألة :

الأول - قوله تعالى : (وَلَا تُنْكِحُوا) أى تزوجوا المسلمة من المشرك . وأجمعت الأمة على أن المشرك لا يبطأ المؤمنة بوجه ؛ لما في ذلك من الفضاضة على الإسلام . والقراء على ضم التاء من « تنكحوا » .

الثانية - في هذه الآية دليل بالنص على أن لا نكاح إلا بولي . قال محمد بن علي بن الحسين : النكاح بولي في كتاب الله ؛ ثم قرأ « وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ » . قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ » . وقد اختلف أهل العلم في النكاح بغير ولي ؛ فقال كثير من أهل العلم : لا نكاح إلا بولي ؛ روى هذا الحديث عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وعلي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس وأبي هريرة رضى الله عنهم ، وبه قال سعيد بن المسيب والحسن البصري وعمر بن عبد العزيز وجابر بن زيد وسفيان الثوري وابن أبي ليلى وابن شبرمة وابن المبارك والشافعي وعبد الله بن الحسن وأحمد وإسحاق وأبو عبيد .

قلت : وهو قول مالك رضى الله عنهم أجمعين وأبي ثور والطبري . قال أبو عمر : حجة من قال : « لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ثبت عنه أنه قال : « لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ » . روى هذا الحديث شعبه والثوري عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن النبي صلى الله عليه وسلم مُرسلاً ؛ فن يقبل المراسيل يلزمه قبوله ، وأما من لا يقبل المراسيل فيلزمه أيضاً ؛ لأن الذين وصلوه من أهل الحفظ والثقة . ومن وصله لإسرائيل وأبو حنيفة كلامهما عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم . وإسرائيل ومن تابعه حفاظ ، والحافظ يُقبل زيادته ، وهذه الزيادة بعضها أصول ؛ قال الله عز وجل :

« فَلَا تَقْضُوا لَهُمْ أَنْ يَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُنَّ ». وهذه الآية نزلت في معقل بن يسار إذ عَصَلَ أخته عن مراجعة زوجها؛ قاله البخاري . ولولا أن له حقاً في الإنكاح ما نهي عن العَصَل .

قلت : وما يدل على هذا أيضاً من الكتاب قوله : « فَأَنْكِحُوا الَّذِينَ بِأَذْنِ آبَائِهِمْ » وقوله : « وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ » فلم يغاطب تعالى بالنكاح غير الرجال؛ ولو كان إلى النساء لذكرهن . وسأيت بيان هذا في « النور » . وقال تعالى حكاية عن شعيب في قصة موسى عليهما السلام : « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّكَ » على ما يأتي بيانه في سورة « القصص » . وقال تعالى : « الرَّجُلُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ » ؛ فقد تعاضد الكتاب والسنة على أن لا نكاح إلا بولي . قال الطبري : في حديث حفصة حين تآمت وعقد عمر عليها النكاح ولم تعقله هي إبطال قول من قال : إن للمرأة البالغة المالكة لنفسها تزوج نفسها وعقد النكاح دون وليها ؛ ولو كان ذلك لها لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدع خطبة حفصة لنفسها إن كانت أولى بنفسها من أيها ، وخطبها إلى من لا يملك أمرها ولا العقد عليها ؛ وفيه بيان قوله عليه السلام : « الْأَيُّمُ أَحَقُّ بِنَفْسِهِ مِنْ وَلِيِّهَا » أن معنى ذلك أنها أحق بنفسها في أنه لا يقيد عليها إلا برضاها ، لا أنها أحق بنفسها في أن تعقد عقد النكاح على نفسها دون وليها . وروى الدارقطني عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةَ الْمَرْأَةَ وَلَا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةَ نَفْسَهَا فَإِنَّ الزَّانِيَةَ هِيَ الَّتِي تُزَوِّجُ نَفْسَهَا » . قال : حديث صحيح . وروى أبو داود من حديث سفيان عن الزهري عن حُرَّة عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَيُّمَا أَمْرَأَةٍ نَكَحْتَ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهَا فَنَكَحَهَا بِاطِل — ثلاث مرات — فإن دخل بها فالمرء لها بما أصاب منها فإن تشاجروا فالسلطان ولي من لا ولي له » . وهذا الحديث صحيح . ولا اعتبار بقول ابن عُليّة عن ابن جريج أنه قال : سألت عنه الزهري فلم يعرفه ، ولم يقل هذا أحد عن ابن جريج غير ابن عُليّة ؛ وقد رواه جماعة عن الزهري لم يذكر ذلك ، ولو ثبت هذا عن الزهري لم يكن في ذلك حجة ؛ لأنه قد نقله عنه ثقات منهم سليمان بن موسى وهو ثقة إمام

وجعفر بن ربيعة ؛ فلو نسب الزهري لم يضره ذلك ؛ لأن النسيان لا يعضم منه ابن آدم ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " نَسِيَ آدمُ فَنَسِيت ذَرْيَتَهُ " . وكان صلى الله عليه وسلم ينسى ؛ فمن سواه أخرى أن ينسى ؛ ومن حفظ فهو حجة على من نسي ؛ فإذا روى الخبر ثقة فلا يضره نسيان من نسيه ؛ هذا لو صح ما حكى ابن طيبة عن ابن جريج ، فكيف وقد أنكر أهل العلم ذلك من حكايته ولم يمزجوا عليها .

قلت : وقد أخرج هذا الحديث أبو حاتم محمد بن حبان التميمي البستي في المسند الصحيح له - على التقاسيم والأشعار من غير وجود قطع في سندها ، ولا ثبوت جرح في ناقلها - عن حفص بن غياث عن ابن جريج عن سليمان بن موسى عن الزهري عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل وما كان من نكاح على غير ذلك فهو باطل فإن تشابروا فالسلطان ولي من لا ولي له " . قال أبو حاتم : لم يقل أحد في خبر ابن جريج عن سليمان بن موسى عن الزهري هذا : " وشاهدي عدل " إلا تلاوته أنفيس : سويد بن يحيى الأموي عن حفص بن غياث وعبد الله بن عبد الوهاب الجعفي عن خالد بن الحارث وعبد الرحمن بن بونس الزرق عن عيسى بن يونس ؛ ولا يصح في الشاهدين غير هذا الخبر ، وإن ثبت هذا الخبر فقد صرح الكتاب والسنة بأن لا نكاح إلا بولي ؛ فلا معنى لما خالفهما . وقد كان الزهري والشعبي يقولان : إذا زوجت المرأة نفسها كفوا بشاهدين فذلك نكاح جائز . وكذلك كان أبو حنيفة يقول : إذا زوجت المرأة نفسها كفوا بشاهدين فذلك نكاح جائز ؛ وهو قول زفر . وإن زوجت نفسها غير كف ؛ فالنكاح جائز ، ولأولياء أن يفوتوا بينهما . قال ابن المنذر : وأما ما قاله الثعلب لمخالف للسنة ، خارج عن قول أكثر أهل العلم . وبالنسبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . وقال أبو يوسف : لا يجوز النكاح إلا بولي ؛ وإن سلم الولي جاز ، وإن أبي أن يسلم والزوج كف ؛ أجزأه القاضي . وإنما يتم النكاح في قوله حين يحيزه القاضي ؛ وهو قول محمد بن الحسن ؛ وقد كان محمد بن الحسن يقول : يأمر القاضي الولي بإجازته ؛ فإن لم يفعل امتنع عقدا . ولا خلاف بين أبي حنيفة وأصحابه أنه إذا إذن لها

وليها فمقدت النكاح بنفسها جاز. وقال الأوزاعي: إنا ولت المرأة رجلا تزوجها كفوا فالتكاح جائز، وليس لولي أن يفرق بينهما ؛ إلا أن تكون حرة تزوجت مولى ؛ وهذا نحو مذهب مالك على ما يأتي . وحمل القائلون بمنع الزهرى وأبي حنيفة والشعبي قوله عليه السلام: "لا نكاح الا يولي" على الكال لاعل الوجوب ؛ كما قال عليه السلام: "لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد" و "لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة" . واستدلوا على هذا بقوله تعالى : «فَلَا تَمْشُلُوهُمْ أَنْ يَبَيِّحَ أَنْزِلَهُمْ» ، وقوله تعالى : «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا قَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ بِالْمَعْرُوفِ» ، وبما روى الدارقطني عن سمالك بن حريز قال : جاء رجل إلى علي رضي الله عنه فقال : امرأة أنا وليها تزوجت بغير إذني ؟ فقال علي : يُنظر فيما صنعت ، فإن كانت تزوجت كفوا أجزأتنا ذلك لها ، وإن كانت تزوجت من ليس لها بكفء جعلنا ذلك إليك . وفي الموطأ أن عائشة رضي الله عنها زوجت بنت أخيها عبد الرحمن وهو غائب ، الحديث . وقد رواه ابن جريح عن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنها أنكحت رجلا هو المنذر بن الزبير امرأة من بنى أخيها فضربت بينهم بستر ، ثم تكلمت حتى إذا لم يبق إلا العقد أمرت رجلا فأنكح ؛ ثم قالت : ليس على النساء إنكاح . فالوجه في حديث مالك أن عائشة قررت المهر وأحوال النكاح ، وتولى العقد أحد عصبتها ، ونسب العقد إلى عائشة لما كان تحريره إليها .

الثالثة - ذكر ابن خزيمة متداد : وأختلفت الرواية عن مالك في الأولياء ؛ من هم ؟ فقال مرة : كل من وضع المرأة في منصب حسن فهو وليها ، سواء كان من العصبية أو من ذوى الأرحام أو الأجانب أو الإمام أو الوصي . وقال مرة : الأولياء من العصبية ؛ فن وضعها منهم في منصب حسن فهو ولي . وقال أبو عمر : قال مالك فيما ذكر ابن القاسم عنه : إن المرأة إذا زوجها غير وليها بإذنها فإن كانت شريفة لها في الناس حال كان وليها بالحياء في فسح النكاح وإقراره ، وإن كانت ذليلة كالمتقة والسوداء والسعاية والسلمانية ، ومن

(١) قال مالك : هم قوم من القبط يلقبون من حمر اللمية . (٢) الطائفة : البنية .

(٣) في الأصول : «الاسلامية» والصواب من شرح المرقى وساحية العدوى .

لا حال لها جاز نكاحها ، ولا خيار لوليها لأن كل واحد كفء لها ؛ وقد روى عن مالك أن الشريفة والذينة لا يزوجها إلا وليها أو السلطان ؛ وهذا القول اختاره ابن المنذر ، قال : وأما تفريق مالك بين المسكينة والتي لها قدر فخير جائز ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد سوى بين أحكامهم في الدماء فقال : « المسلمون تتكافؤ دماؤهم » . وإذا كانوا في الدماء سواء فهم في غير ذلك شيء واحد . وقال إسماعيل بن إسحاق : لما أمر الله سبحانه بالنكاح جعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض فقال تعالى : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ » والمؤمنون في الجملة هكذا يرث بعضهم بعضا ؛ فلو أن رجلا مات ولا وارث له كان ميراثه لجماعة المسلمين ؛ ولو جئ جناية لمقل عنه المسلمون ، ثم تكون ولاية أقرب من ولاية ، وقرباه أقرب من قرابة . وإذا كانت المرأة بموضع لا سلطان فيه ولا ولي لها فإنها تصير أمرها إلى من يوثق به من جيرانها ؛ فيزوجها ويكون هو وليها في هذه الحال ؛ لأن الناس لا بد لهم من التزوج ، وإنما يعملون فيه بأحسن ما يمكن ؛ وعمل هذا قال مالك في المرأة الضعيفة الحال : إنه يزوجه من تُسند أمرها إليه ، لأنها ممن تضعف عن السلطان فأشبهت من لا سلطان بحضرتها ؛ فرجعت في الجملة إلى أن المسلمين أولياؤها ؛ فإذا صيرت أمرها إلى رجل وتركت أولياؤها فإنها أخذت الأمر من غير وجهه ، وفعلت ما ينكره الحاكم عليها والمسلمون ؛ فيفسخ ذلك النكاح من غير أن يعلم أن حقيقته حرام ؛ لما وصفنا من أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، ولما في ذلك من الاختلاف ؛ ولكن يفسخ لتناول الأمر من غير وجهه ، ولأنه أخوط للزوج ولتحصينها ؛ فإذا وقع الدخول وتناول الأمر وولدت الأولاد كان صوابا لم يحز الفسخ ؛ لأن الأمور إذا تفاوتت لم يرد منها إلا الحرام الذي لا يُشك فيه ، ويُشبه ما فات من ذلك بحكم الحاكم إذا حكم بحكم لم يفسخ إلا أن يكون خطأ لا شك فيه . وأما الشافعي وأصحابه فالنكاح عندهم بغير ولي مفسوخ أبدا قبل الدخول وبعده ، ولا يتوارثان إن مات أحدهما . والولي عندهم من فرائض النكاح ؛ لقيام الدليل عندهم من الكتاب والسنة : قال الله تعالى : « وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ » كما قال : « فَأَنْكِحُوهُمْ بِأَنْفُسِ أَهْلِهِمْ » ، وقال مخاطبا للأولياء :

« قَلَّا تَمُضُّوهُنَّ » . وقال عليه السلام : « لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ » . ولم يفرقوا بين ذَنبَةِ الحلال والشرقة ، لإجماع العلماء على أن لا فرق بينهما في الدماء ؛ لقوله عليه السلام : « الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَوْنَ دِمَائِهِمْ » . وسائر الأحكام كذلك . وليس في شيء من ذلك فرق بين الرِّفْعِ والوَضِيعِ في كتاب ولا سُنَّة .

الرابعة — واختلفوا في النكاح يقع على غير ولى ثم يُعَيِّزُهُ الولى قبل الدخول ؛ فقال مالك وأصحابه إلا بعد الملك : ذلك جائز ، إذا كانت إجازته لذلك بالتقرب ؛ وسواء دخل أو لم يدخل . هذا إذا عقد النكاح غير ولى ولم يَمُتِّدْهُ المرأة بنفسها ؛ فإن زَوَّجَتْ المرأة نفسها وعقدت عُدَّة النكاح من غير ولى قريب ولا بعيد من المسلمين فإن هذا النكاح لَا يُقَرَّزُ أَبَدًا على حال وإن تناولت وولدت الأولاد ؛ ولكنه يُلْحَقُ الولد إن دخل ، ويسقط الحد ؛ ولا بد من فسخ ذلك النكاح على كُلِّ حال . وقال ابن نافع عن مالك : الفسخ فيه بغير طلاق .

الخامسة — واختلف العلماء في منازل الأولياء وترتيبهم ؛ فكان مالك يقول : أولهم البنون وإن سَقَلُوا ، ثم الآباء ، ثم الإخوة للأب والأم ، ثم للأب ، ثم بنو الإخوة للأب والأم ، ثم بنو الإخوة للأب ، ثم الأجداد للأب وإن علُوا ، ثم العمومة على ترتيب الإخوة ، ثم بنوهم على ترتيب بنى الإخوة وإن سَقَلُوا ، ثم المولى ثم السلطان أو قاضيه . والوصى مُقَدَّمٌ في إنكاح الأيتام على الأولياء ، وهو خليفة الأب ووكيله ؛ فأشبهه حاله لو كان الأب حيًّا . وقال الشافعي : لا ولاية لأحد مع الأب ؛ فإن مات فالجد ، ثم أبُ أَيْ الجَدِّ ؛ لأنهم كلهم آباء . والولاية بعد الجد للإخوة ، ثم الأقرب . قال المَرْزُوقُ : قال في الجديدي : من انفرد بِأُمِّ كَانِ أَوْلى بالنكاح ؛ كالميراث . وقال في القديم : هما سواء .

قلت : وروى المدنيون عن مالكٍ مِثْلَ قولِ الشافعي ، وأنَّ الأبَّ أَوْلَى من الابن ؛ وهو أحد قولَي أبي حنيفة ؛ حكاه الباجي . وروى عن المغيرة أنه قال : الجدُّ أَوْلَى من الإخوة ؛ والمشهور من المذهب ما قدمناه . وقال أحمد : أحقهم بالمرأة أن يزوجه أبوها ؛ ثم الابن ، ثم الأخ ، ثم ابنه ، ثم العم . وقال إصحاق : الابن أَوْلَى من الأب ؛ كما قاله مالك ، واختاره ابن المنذر ؛ لأنَّ عمرَينَ أُمِّ سلمة زوجهَا بإذنهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : أخرجه النسائي عن أم سلمة وترجم له « إنكاح الابن أمه » .

قلت : وكثيرا ما يستدل بهذا علماؤنا وليس بشيء ، والدليل على ذلك ما ثبت في الصحاح أن عمر بن أبي سلمة قال : كنت غلاما في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت يدي تطيش في الصحفة ، فقال : « يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك » . وقال أبو عمر في كتاب الاستيعاب : عمر بن أبي سلمة يكنى أبا حفص ، ولد في السنة الثانية من الهجرة بأرض الحبشة . وقيل : إنه كان يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن تسع سنين . قلت : ومن كان سنه هذا لا يصلح أن يكون وليا ، ولكن ذكر أبو عمر أن لأبي سلمة من أم سلمة ابنا آخر اسمه سلمة ، وهو الذي عقد لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أمه أم سلمة ، وكانت سلمة أسن من أخيه عمر بن أبي سلمة ، ولا أحفظ له رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد روى عنه عمر أخوه .

السادسة - واختلفوا في الرجل يزوج المرأة الأبعد من الأولياء . كذا وقع ، والأقرب عبارة أن يقال : اختلف في المرأة يزوجها من أوليائها الأبعد والأقرب حاضر ، فقال الشافعي : النكاح باطل . وقال مالك : النكاح جائز . قال ابن عبد البر : إن لم ينكر الأقدم شيئا من ذلك ولا رده فقد ، وإن أنكره وهي ثيب أو يكر بالثيممة ولا وصى لها فقد اختلف قول مالك وأصحابه وجماعة من أهل المدينة في ذلك ، فقال منهم قائلون : لا يرد ذلك وينفذ ؛ لأنه نكاح انعقد بإذن ولي من الصيخذ والعشيرة . ومن قال هذا منهم لا يتخذ قال : إنما جاءت الرتبة في الأولياء على الأفضل والأولى ، وذلك مستحب وليس بواجب . وهذا تحصيل منذهب مالك عند أكثر أصحابه ، وإياه اختار إسماعيل بن إسحاق وأتباعه . وقيل : ينظر السلطان في ذلك ويسأل الولي الأقرب على ما ينكره ، ثم إن رأى إمضاء أمضاه ، وإن رأى أن يردّه رده . وقيل : بل للأقدم رده على كل حال ، لأنه حق له . وقيل : له رده وإجازته ما لم يطل مكثها وتلد الأولاد ، وهذه كلها أقاويل أهل المدينة .

(١) في بعض نسخ الأصل : « والأقدم » . يقال : فلان أقدم من فلان : أي أقرب منه إلى جده الأكبر

السابعة - فلو كان الولي الأقرب محبوساً أو مسجوناً فزوجه من يله من أوليائها،
ومع ذلك لم يثبت منهم، وكذلك إذا غاب الأقرب من أوليائها غيبة بيعة أو غيبة لا يرعى لها أوبة
مربية زوجها من يله من الأولياء . وقد قيل : إذا غاب الأقرب من أوليائها لم يكن للذي يليه
تزوجها، ويزوجها الحاكم، والأقول قول مالك .

(١) الثامنة - وإذا كان الوليان قد استويا في التعمد وقاب أحدهما فزوجت المرأة
عقد نكاحها إلى الحاضر لم يكن للغياب إن قدم نكحاً . وإن كانا حاضرين فزوجت أمرها إلى
أحدهما لم يزوجها إلا بإذن صاحبه، فإن اختلفا نظر الحاكم في ذلك، وأجاز عليها رأى أحسنهما
نظراً لها، ورواه ابن وهب عن مالك .

التاسعة - وأما الشهادة على النكاح فليست بركن عند مالك وأصحابه، ويمكن من
ذلك شهرته والإعلان به، وخرج عن أن يكون نكاح سر . قال ابن القاسم عن مالك :
لو زوج بيته، وأمرهم أن يكتموا ذلك لم يميز النكاح، لأنه نكاح سر . وإن تزوج بغير بيته
على غير استسرار جاز، وأشهدوا فيا يستقبلان . وروى ابن وهب عن مالك في الرجل يزوجه
المرأة بشهادة رجلين ويستكتمهما قال : يفرق بينهما بتطليقة ولا يجوز النكاح، ولما صدقها
إن كان أصابها، ولا يحلف الشاهدان . وقال أبو حنيفة والشافعي وأصحابهما : إذا تزوجها
بشاهدين وقال لها : آكتما جاز النكاح . قال أبو عمر : وهذا قول يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي
صاحبنا ، قال : كل نكاح شهيد عليه رجلان فقد خرج من حد السر، وأخذت حكمه عن الليث
ابن سعد . والسر عند الشافعي والكوفيين ومن تابعهم : كل نكاح لم يشهد عليه رجلان
فصاعداً ويفسخ على كل حال .

قلت : قول الشافعي أصح الحديث الذي ذكرناه، وروى عن ابن عباس أنه قال :
لا نكاح إلا بشاهدين عدلين، وروى مرسداً، ولا يخالف له من الصحابة فيما علمت من إخراج مالك

(١) التعمد (بضم التاء) وسكون العين ومعناه إتيان المرأة بالجماع (بضم الجيم) من الجناح (بضم الجيم) وهو ما لا يكبره غيره، وقيل
هو ما لا يقرب في النسب .

لمنجه إن اليسوع التي ذكرها الله تعالى فيها الإشهاد عند العقدة وقد قامت الدلالة بأن ذلك ليس من فرائض اليسوع . والنكاح الذي لم يذكر الله تعالى فيه الإشهاد آخرى ألا يكون الإشهاد فيه من شروطه وفرائضه ، وإنما الفرض الإعلان والظهور لحفظ الأنساب . والإشهاد يصلح بعد العقد للتداعي والاختلاف فيما يتعقد بين المتناكحين ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أعلنوا النكاح » . وقول مالك هذا قول ابن شهاب وأكثر أهل المدينة . الماشقة - قوله تعالى : (وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ) أى مملوك . (خَيْرٌ مِنْ مُّشْرِكٍ) أى حسيب . (وَلَوْ أَجَبَكُم) أى حسبته وماله ، حسب ما تقدم . وقيل المعنى : ولرجل مؤمن ، وكذا ولأمة مؤمنة ، أى ولا امرأة مؤمنة ، كما بيناه . قال صلى الله عليه وسلم : « كل رجالكم عبيد الله وكل نسايتكم إماء الله » . وقال : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » . وقال تعالى : « نِمِ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » . وهذا أحسن ما محل عليه القول في هذه الآية ، وبه يرتفع النزاع ويذول الاختلاف ، والله الموفق .

الحادية عشرة - قوله تعالى : (أُولَئِكَ) إشارة للشركين والمشركات . (يَتَّبِعُونَ إِلَى السَّارِ) أى إلى الأعمال الموجبة للتأرب ؛ فإن صحبتهم ومعاشرتهم توجب الانحطاط في كثير من هوامهم بزييتهم النسل . (وَأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ) أى إلى عمل أهل الجنة . (بِإِذْنِهِ) أى بإيمانه ، والله الرزاق .

قوله تعالى : . وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْرِضُوا أَلْسِنَاءَكُمْ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿١١١﴾
فيه أربع عشرة مسألة :

الأولى : قوله تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ) عن السدى - أنت السائل ثابت ابن الدحلح . وقيل : أسيد بن حضير وعبد بن بشر ، وهو قول الأكثرين . وسببه فيما قال

قادة وغيره : أن العرب في المدينة وما والاها كانوا قد آسنوا بسنة بني إسرائيل في تجنب
مؤاكلة الحائض ومساكنها؛ فزلت هذه الآية . وقال مجاهد : كانوا يجنبون النساء في الحيض .
ويأتوهن في أديارهن مدة زمن الحيض؛ فزلت . وفي صحيح مسلم عن أنس : أن اليهود كانوا
إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت؛ فقال أصحاب النبي صلى الله
عليه وسلم النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هِيَ أَدْنَى
فَاعْتَرَلُوا النَّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ » إلى آخر الآية؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اصنعوا كل شيء
إلا النكاح » فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا
فيه ؛ بغاء أسيد بن الحضير وعباد بن بشر فقالا : يا رسول الله إن اليهود يقولون كذا وكذا
أفلا نجامعون ؟ فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننا أنه وجد عليهما ؛ فخرجا فاستقبلهما
هديئة من لبن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل في آثارهما فسقاهما ؛ فمروا أنه لم يجد
عليهما . قال علماؤنا : كانت اليهود والنحوس تجنب الحائض ؛ وكانت النصارى يجامعون
الحائض ؛ فأمر الله بالقصد بين هذين .

الثانية — قوله تعالى : (عَنِ الْمَحِيضِ) المحيض : الحيض ؛ وهو مصدر ؛ يقال :
حاضت المرأة حيضاً وحاضاً ومحيضاً ، فهي حائض ، وحائضه أيضاً ؛ عن الفراء . وانتدب
• كحائضه يُرى بها غير طاهر .

ونساء حيض وحوايض . والحیضة : المرة الواحدة . والحیضة (بالكسر) الاسم ؛ [والجمع]
الحيض . والحیضة أيضاً : المسرفة التي تستغير بها المرأة . قالت عائشة رضي الله عنها :
ليتني كنت حيضة ملاءة . وكذلك الحيضة ، والجمع الحائض . وقيل : الحيض عبارة عن
الزمان والمكان ، وعن الحيض نفسه ؛ وأصله في الزمان والمكان مجاز في الحيض ؛ وقاله
الطبري : المحيض اسم الحيض ؛ ومثله قول رؤبة في العيش :

إليك أشكو شدة الميعش • ومرة أعوام تتقن ديني

(١) وجد عليها : غضب . وضارعه بضم الجيم وكسر ها . (٢) انتدب المرأة : فرسها بخرقة
مرصعة ، أو قلعة تكتسب بها وتزق طريفا في شيء تشده على وسطها فتسحق عجلان الدم .

وأصل الكلمة من السيلان والانتجار؛ يقال : حاض السيل وقاض، وحاضت الشجرة أي سالت وطوبتها، ومنه الحيض؛ أي الحوض؛ لأن الماء يجيئ إليه أي يسيل؛ والعرب تدخل الواو على الياء والياء على الواو؛ لأنهما من حيز واحد. قال ابن عرفة : الحيض والحيض اجتماع الدم إلى ذلك الموضع، وبه سُمي الحوض لاجتماع الماء فيه؛ يقال : حاضت المرأة وتحيضت ودرست وعركت وطيمت، تبيض حيضاً وتحاضاً وتحيضاً إذا سال الدم منها في أوقات معلومة، فإذا سال في غير أيام معلومة ومن غير عرق الحيض قلت : استحيضت، فهي مستحاضة، ابن العربي : ولها ثمانية أسماء : الأول - حائض - الثاني - فارك - الثالث - غارك - الرابع - طامس - الخامس - نارس - السادس - كابر - السابع - ضاحك - الثامن - طامث - قال مجاهد في قوله تعالى : «غَضِيحَت» يعني حاضت - وقيل في قوله تعالى : «فَلَمَّا رَأَتْهُ أُنْكِرَتْ» يعني حَضَنَ وسيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

الثالثة - أجمع العلماء على أن المرأة ثلاثة أحكام في رؤيتها: الدم الظاهر السائل من فرجها؛ فمن ذلك الحيض المعروف، ودمه أسود خائر تملوه حمرة؛ ترك له الصلاة والصوم؛ لا خلاف في ذلك - وقد يتصل ويتقطع؛ فإن اتصل فالحكم ثابت له، وإن انقطع فزات الدم يوماً والطهر يوماً، وأورات الدم يومين والطهر يومين أو يوماً فإنها تركت الصلاة في أيام الدم، وتغتسل عند انقطاعه وتصلّي؛ ثم تلقى أيام الدم وتلبي أيام الطهر المتخللة لها، ولا تحنث بها طهراني علة ولا استبراء. والحيض خلقة في النساء وطبع معناد معروف منهن - روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمّهم أو فطير إلى المصلّى فمر على النساء فقال : ^{٢٥} يا معشر النساء تصلّين فإني أرى بكن أكثر أهل النار - فقلن : وبم يا رسول الله؟ قال - تكثرون اللّمن وتكفرون العشير ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لب الرجل الخازن من إحدائكن - قلن : وما نقصان عقولنا وديننا يا رسول الله؟ قال - ليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل - قلن : بلى؛ قال : فذلك من نقصان

عقلها اليس إذا حاضت لم تُفصل ولم تُصم — قلن : بلى يا رسول الله ؛ قال — فذلك من نقصان دينها .

وأجمع العلماء على أن الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ؛ لحديث مُعَاذَةَ قَالَتْ : سألت عائشة فقلت : ما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ؟ فقالت : أحرورية أنت ؟ قلت : لستُ بحرورية ، ولكني أسأل . قالت : كان يصيبنا ذلك فؤمر بقضاء الصوم ولا تؤمر بقضاء الصلاة ؛ خرجته مسلم . فإذا انقطع عنها كان طهرها منه الفسل ؛ على ما يأتي .

الرابعة — واختلف العلماء في مقدار الحيض ؛ فقال فقهاء المدينة : إن الحيض لا يكون أكثر من خمسة عشر يوماً ؛ وجاز أن يكون خمسة عشر يوماً فما دون ، وما زاد على خمسة عشر يوماً لا يكون حيضاً وإنما هو استعاضة ؛ هذا منذهب مالك وأصحابه . وقد رُوي عن مالك أنه لا وقت لقليل الحيض ولا لكثيره إلا ما يوجد في النساء ؛ فكانه ترك قوله الأوّل ورجع إلى عادة النساء . وقال محمد بن مسلمة : أقل الطهر خمسة عشر يوماً ؛ وهو أكثر اختيار البغداديين من المالكيين . وهو قول الشافعي وأبي حنيفة وأصحابهما والثوري ؛ وهو الصحيح في الباب ؛ لأن الله تعالى قد جعل عِدَّة ذَوَاتِ الْأَفْرَاءِ ثَلَاثَ حَيَضٍ ، وجعل عِدَّة من لا تحيض من كِبَرٍ أَوْ صِغَرٍ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ؛ فكان كُلُّ قِسْمٍ عَوَضًا مِنْ شَهْرٍ ، والشهر يجمع الطَّهْرَ وَالْحَيْضَ . فإذا قلَّ الحيض كثر الطَّهْرُ ، وإذا كثر الحيض قلَّ الطَّهْرُ ، فلما كان أكثر الحيض خمسة عشر يوماً وجب أن يكون بإزائه أقل الطَّهْرِ خمسة عشر يوماً ليكمل في الشهر الواحد حيض وطهر ، وهو المُتَعَارَفُ فِي الْأَغْلَبِ مِنْ خِلْقَةِ النِّسَاءِ وَيَجْتَمِعُ مَعَ دَلَالَةِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ . وقال الشافعي : أقل الحيض يومٌ وليلته وأكثره خمسة عشر يوماً ، وقد رُوي عنه مثل قول مالك : إن ذلك مردود إلى عُرْفِ النِّسَاءِ . وقال أبو حنيفة وأصحابه : أقل الحيض ثلاثة أيام ، وأكثره عشرة . قال ابن عبد البر : ما نقص عند هؤلاء عن ثلاثة أيام فهو استعاضة ، لا ينح من الصلاة إلا عند أقل ظهوره ؛

(١) الحرورية : طائفة من التوابع نسبوا إلى «حروراء» وهو موضع قريب من الكوفة ، وهم الذين قاتلهم على رضى الله عنه ، وكان عددهم من التشديد في الدين ما هو معروف ؛ فطارت طائفة هذه المرأة تشدد في أمر الحيض شبهتها بالحرورية . وقيل : أرادت أنها خالفت السنة وتركت عن الجملة .

لأنه لا يُعلم مبلغ مَنته . ثم على المرأة قضاء صلاة تلك الأوقات ، وكذلك ما زاد على عشرة أيام عند الكوفيين . وعند المجازين ما زاد على خمسة عشر يوماً فهو استحاضة ، وما كان أقل من يوم وليلة عند الشافعي فهو استحاضة ؛ وهو قول الأوزاعي والطبري . ومن قال أقل الحيض يومٌ ولسلّةً وأكثره خمسة عشر يوماً عطاءُ بن أبي رباح وأبو ثور وأحمد بن حنبل . قال الأوزاعي : وعندنا امرأة تحيض غُدوةً وتطهرُ عشيةً . وقد أئنا على ما للعلماء في هذا الباب — من أكثر الحيض وأقلّه وأقل الطهر، وفي الاستظهار، والحجّة في ذلك — في «المقتبس» في شرح حوطاً مالك بن أنس . « فإن كانت يكرّاً مبتدأةً فإنها تجلس أوّل ما ترى الدّم في قول الشافعي خمسة عشر يوماً ، ثم تنفل وتعيد صلاة أربعة عشر يوماً . وقال مالك : لا تحيض الصلاة ويمسك عنها زوجها . علي بن زياد عنه : تجلس قدر ليلاتها ؛ وهذا قول عطاء والثوري وغيرهما . ابن حنبل : تجلس يوماً وليلة ، ثم تنفل وتصل ولا يأتيها زوجها . أبو حنيفة وأبو يوسف : تدع الصلاة عشراً ، ثم تنفل وتصل عشرين يوماً ، ثم ترك الصلاة بعد العشرين عشراً ؛ فيكون هذا حالها حتى ينقطع الدم عنها . أمّا التي لها أيام معلومة فإنها تستظهر على أيامها المعلومة بثلاثة أيام ؛ عن مالك : ما لم تتجاوز خمسة عشر يوماً . الشافعي : تنفل إذا انقضت أيامها بغير استظهار .

والثاني من النماء : دم النفاس عند الولادة ؛ وله أيضاً عند العلماء حدٌ محدود اختلفوا فيه ؛ فقبيل : شهران ؛ وهو قول مالك . وقيل : أربعون يوماً ؛ وهو قول الشافعي . وقيل غير ذلك ، وطهرهما عند آقطاعه . وللنفل منه كالنفل من الجنابة . قال القاضي أبو محمد عبد الوهاب : ودم الحيض والنفاس يمتنعان أحد عشر شيئاً ؛ وهي وجوب الصلاة وصحة فعلها وفعل الصوم دون وجوبه — وفائدة الفرق لزوم القضاء للصوم ونهيّه في الصلاة — والجماع في الفرج وما دونه والمدة والطلاق والطواف ومس المصحف ودخول المسجد والاعتكاف فيه ؛ وفي قراءة القرآن روايتان .

والثالث من الدماء: دم ليس بمادة ولا طبع منهن ولا خلفه، وإنما هو عرق اقتطع، سائله
دم أحر لا أقطاع له إلا عند البرء منه؛ فهذا حكمه أن تكون المرأة منه طاهرة لا يمنعا من
صلاة ولا صوم؛ بإجماع من العلماء وأفتى من الآثار المرفوعة إذا كان معلوما أنه دم عرق
لأدم حيض. روى مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:
قالت فاطمة بنت أبي حبيش: يا رسول الله، إني لا أظهر! أفادع الصلاة؟ فقال رسول الله
صل الله عليه وسلم: «إنا ذلك عرق وليس بالحیضة إذا أقبلت الحيضة فدعي الصلاة فإذا
ذهب قدرها فأغسل عك الدم وصل». وفي هذا الحديث مع محته وقلة ألفاظه ما يفسرك
أحكام الحائض والمستحاضة، وهو أصح ما روى في هذا الباب، وهو يرد ما روى عن عفة
ابن عامر ومكحول أن الحائض تنفل وتوضأ عند كل وقت صلاة، وتستقبل القبلة إذا كرهت
منز وجل جالسة. وفيه: أن الحائض لا تصلي، وهو إجماع من كافة العلماء إلا طوائف من
الخوارج يرون على الحائض الصلاة. وفيه ما يدل على أن المستحاضة لا يلزمها غير ذلك الفسل
الذي تنفل من حیضها، ولو لزمها غيره لأمرها به. وفيه رد لقول من رأى ذلك عليها لكل
صلاة. ولقول من رأى عليها أن تجمع بين صلاتي النهار بشل واحد، وصلاتي الليل بشل
واحد وتنفل للصبح. ولقول من قال: تنفل من طهر إلى طهر. ولقول سعيد بن المسيب
من طهر إلى طهر؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأمرها بشيء من ذلك. وفيه رد
لقول من قال بالاستظهار؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمرها إذا علمت أن حیضتها قد
أدبرت وذهبت أن تنفل وتصل، ولم يأمرها أن تترك الصلاة ثلاثة أيام لا تتظار حیض يحى.
أو لا يحى؛ والاحتياط إنما يكون في عمل الصلاة لا في تركها.

الخامسة - قوله تعالى: (قُلْ هُوَ أَذَى) أي هو نهي. تأذي به المرأة وغيرها،
أي براثة دم الحيض. والأذى كناية عن القدر على الجملة. ويطلق على القول المكروه
ومنه قوله تعالى: «لَا تُطِلُّوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى» أي بما تسعه من المكروه. ومنه قوله
تعالى: «وَدَعِ أَذَانَهُمْ» أي أذى المناقذين لا تجازم إلا أن تؤمر بهم. وفي الحديث:

« وَأَيُّوا عَنْ الْأَذَى » بَيِّنِي بِـ « الْأَذَى » الشَّعْرَ الَّذِي يَكُونُ عَلَى رَأْسِ الصَّبِيِّ حِينَ يُولَدُ ، يُحَقِّقُ عَنْهُ يَوْمَ أُسْبُوعِهِ ؛ وَهِيَ الْمَقِيقَةُ ، وَفِي حَبِثِ الْإِيمَانِ : « وَأَذَانَهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ » أَيْ تَحِيَّتِهِ ، بَيِّنِي الشُّوْكَ وَالْجُحْرَ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَأَذَى بِهِ الْمَارُّ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ » وَسَيَأْتِي .

السادسة - استدل من منع وطء المستحاضة : سِيلَانِ دَمِ الْإِسْتِحَاضَةِ ؛ فَقَالُوا : كُلُّ دَمٍ فَهُوَ أَذًى ؛ يَجِبُ غَسْلُهُ مِنَ التُّوبِ وَالْبَدَنِ ؛ فَلَا فَرْقَ فِي الْمُبَاشَرَةِ بَيْنَ دَمِ الْخِيضِ وَالْإِسْتِحَاضَةِ لِأَنَّهُ كُلُّهُ دَجَسٌ . وَأَمَّا الصَّلَاةُ فَرُخْصَةٌ وَرَدَّتْ بِهَا السَّنَةُ كَمَا يُصَلِّي بِسَلْسِ الْبَوْلِ ، هَذَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَسُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ وَالْحَكَمِ بْنِ عَيْنَةَ وَعَاصِمِ الشَّعْبِيِّ وَابْنِ سِيرِينَ وَالزَّمَرِيُّ . وَاخْتَلَفَ فِيهِ عَنِ الْحَسَنِ ، وَهُوَ قَوْلُ عَائِشَةَ : لَا يَأْتِيهَا زَوْجُهَا ؛ وَبِهِ قَالَ ابْنُ عُثَيْمٍ وَالْمَغْنَمِيُّ ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَكَانَ مِنْ أَعْلَى أَصْحَابِ مَالِكٍ ، وَأَبُو مَصْعُبٍ ، وَبِهِ كَانَ بَعْضُ . وَقَالَ بِجَهْوَ الْعِلْمَاءِ : الْمُسْتَحَاضَةُ تَصُومُ وَتُصَلِّي وَتَقْرَأُ ، وَيَأْتِيهَا زَوْجُهَا . قَالَ مَالِكٌ : جُلُّ أَهْلِ الْفَقْهِ وَالْعِلْمِ عَلَى هَذَا ، وَإِنْ كَانَ دَمُهَا كَثِيرًا ؛ رَوَاهُ عَنْهُ ابْنُ وَهْبٍ . وَكَانَ أَحْمَدُ يَقُولُ : أَحَبُّ إِلَيَّ الْآيَاتُهَا إِلَّا أَنْ يَطُولَ ذَلِكَ بِهَا . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْمُسْتَحَاضَةِ : لَا بَأْسَ أَنْ يَصِيْبَهَا زَوْجُهَا وَإِنْ كَانَ الدَّمُ يُسِيلُ عَلَى عَقِبَيْهَا . وَقَالَ مَالِكٌ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّمَا ذَلِكَ حِرْقٌ وَلَيْسَ بِالْخِيضَةِ » . فَإِذَا لَمْ تَكُنْ حَيْضَةً فَمَا يَمْنَعُ أَنْ يَصِيْبَهَا وَمَنْ تَصَلَّى ! قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : لِمَا حَكَّمَ اللَّهُ عَنْ وَجَلٍ فِي دَمِ الْمُسْتَحَاضَةِ بَأَنَّهُ لَا يَمْنَعُ الصَّلَاةَ وَتَعَبَّدَ فِيهِ بِعِبَادَةِ غَيْرِ عِبَادَةِ الْخَائِضِ وَجِبَ الْآيَةُ بِحُكْمِهِ لَهْ بَنِي مِنْ حُكْمِ الْخِيضِ إِلَّا فَيَا أَجْمُوا عَلَيْهِ مِنْ غَسْلِهِ كَسَارِ الْمَاءِ .

السابعة - قوله تعالى : (فَاصْبِرُوا لِقَاءِ الْيَوْمِ) أَيْ فِي زَمَنِ الْخِيضِ ، إِنْ حَمَلَتْ لِلْخِيضِ عَلَى الْمَصْدُورِ ، أَوْ فِي عَمَلِ الْخِيضِ إِنْ حَمَلَتْ عَلَى الْأَسَمِ . وَمَقْصُودُ هَذَا التَّهْنِئَةِ تَرْكُ الْجَمَاعَةِ . وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعِلْمَاءُ فِي مَبَاشَرَةِ الْخَائِضِ وَمَا يُسْتَبَاحُ مِنْهَا ؛ فَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمَعِيشَةَ الْقَلْبَانِيِّ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَتْرَكَ الرَّجُلُ فِرَاشَ زَوْجَتِهِ إِنْ خَاضَتْ . وَهَذَا قَوْلٌ شَاذٌّ خَارِجٌ عَنْ

قول العلماء، وإن كان عموم الآية يقتضيه فالسنة الثابتة بخلافه؛ وقد وقعت على ابن عباس خاتمه ميمونة وقالت له: أراغب أنت عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم! وقال مالك والشافعي والأوزاعي وأبو حنيفة وأبو يوسف وجماعة عظيمة من العلماء: له منها ما فوق الإزار؛ لقوله عليه السلام للسائل حين سألته -: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ فقال -: "تشد عليها إزارها ثم شئتُك باعلاها"، وقوله عليه السلام لمائسة حين حاضت: "تشدي على قبيك إزارك ثم عودي إلى مضجعتك". وقال الثوري ومحمد بن الحسن وبعض أصحاب الشافعي: يجنب موضع الدم؛ لقوله عليه السلام: "اصنعوا كل شيء إلا النكاح". وقد تقدم. وهو قول داود، وهو الصحيح من قول الشافعي. وروى أبو معشر عن إبراهيم عن مسروق قال: سألت عائشة: ما يحل لي من أمرأتي وهي حائض؟ فقالت: كل شيء إلا الفرج. قال العلماء: مباشرة الحائض وهي متبررة على الاحتياط والقطع للذرية، ولأنه لو أباح لغلغليها كان ذلك منه ذرية إلى موضع الدم المحرم بإجماع؛ فأمر بذلك احتياطاً، والمحرم نفسه موضع الدم؛ فتفق بذلك معاني الآثار، ولا تضاد، وبالله التوفيق.

الثامنة - واحتفظوا في الذي يأتي أمراته وهي حائض ماذا عليه؛ فقال مالك والشافعي وأبو حنيفة: يستنفر الله ولا شيء عليه؛ وهو قول ربيعة ويحيى بن سعيد، وبه قال داود. وروى عن محمد بن الحسن: يتصدق بنصف دينار. وقال أحمد: يتصدق بدينار أو نصف دينار. قال أحمد: ما أحسن حديث عبد الحميد عن مفسم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم: "يتصدق بدينار أو نصف دينار". أخرجه أبو داود وقال: هكذا الرواية الصحيحة قال: دينار أو نصف دينار؛ واستحبه الطبري. فإن لم يفعل فلا شيء عليه؛ وهو قول الشافعي ببغداد. وقالت فرقة من أهل الحديث: إن وطئ في اللثم فعليه دينار، وإن وطئ في انقطاعه فنصف دينار. وقال الأوزاعي: من وطئ امرأته وهي حائض تصدق بمسمى دينار والطرق لهذا كله في «سنن أبي داود والمارقطي» وغيرهما. وفي كتاب الترمذي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا كان دماً أحر فدينار وإن كان دماً

اصفر فنصف دينار . قال أبو عمر : حجة من لم يوجب عليه كفارة إلا الاستنفار والتوبة اضطراب هذا الحديث عن ابن عباس ، وأن مثله لا تقوم به حجة ، وأن النعمة على البراءة ، ولا يجب أن يثبت فيها شيء لمسكين ولا غيره إلا بدليل لا مدفع فيه ولا مطمئن عليه ؛ وذلك معدوم في هذه المسئلة .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ ﴾ قال ابن العربي : سمعت الشافعي في مجلس النظر يقول : إذا قيل لا تقرب (بفتح الراء) كان معناه : لا تلبس بالفعل ، وإن كان بضم الراء كان معناه : لا تدن منه . وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية حفص عنه « يَطْهَرْنَ » بسكون الطاء وضم الماء . وقرأ حزمة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر والمفضل « يَطْهَرْنَ » بتشديد الماء والطاء وفتحهما . وفي مصحف أبي وعبد الله « يَطْهَرْنَ » . وفي مصحف أنس بن مالك « ولا تقربوا النساء في محيضهن واعتزلوهن حتى يَطْهَرْنَ » . ورجح الطبري قراءة تشديد الطاء وقال : هي بمعنى يتنسلن ، لإجماع الجميع على أن حراماً على الرجل أن يقرب امرأته بعد انقطاع الدم حتى تطهر . قال : وإنما الخلاف في الطهر ما هو ؛ فقال قوم : هو الاعتسال بالماء . وقال قوم : هو وضوء كوضوء الصلاة . وقال قوم : هو غسل الفرج ؛ وذلك يحلها لزوجها وإن لم تنسل من الحيضة ، ورجح أبو علي القاسمي قراءة تخفيف الطاء ، إذ هو ثلاثي مضاد لطيمث وهو ثلاثي .

العاشرة - قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ يعني بالماء ؛ وإليه ذهب مالك وجمهور العلماء ، وأن الطهر الذي يحل به جماع الحائض التي يذهب عنها الدم هو تطهرها بالماء كطهور الجنث ، ولا يجوز من ذلك تيمم ولا غيره ؛ وبه قال مالك والشافعي والطبري ومحمد بن مسلمة وأهل المدينة وغيرهم . وقال يحيى بن بكير ومحمد بن كعب القرظي : إذا طهرت الحائض وتيممت حيث لاماء حلت لزوجها وإن لم تنسل . وقال مجاهد وعكرمة وطاوس : انقطاع الدم يحلها لزوجها ، ولكن بأن تنوضا . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد : إن انقطع دمها بعد مضي عشرة أيام جاز له أن يطأ قبل الغسل ، وإن كان انقطاعه قبل العشرة

لم يجر حتى تتنسل أو يدخل عليها وقت صلاة . وهذا تحكّم لا وجه له ؛ وقد حكموا للمأخض
بعد انقطاع دمها بحكم الحبس في العدة وقالوا : لزوجها عليها الرجعة ما لم تتنسل من الحيضة
الثالثة ؛ فعلى قياس قولهم هذا لا يجب أن تؤطا حتى تنسل ، مع موافقته أهل المدينة ؛
ودليلنا أن الله سبحانه علق الحكم فيها على شرطين : أحدهما - انقطاع الدم ، وهو قوله
تعالى « حتى يطهرن » . والثاني - الاغتسال بالماء ، وهو قوله تعالى : « حتى يطهرن »
أى يغسلن الغسل بالماء ؛ وهذا مثل قوله تعالى : « وَأَبْتَلُوا أَلْيَانِي حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ »
الآية ؛ فعلق الحكم وهو جواز دفع المسأل على شرطين : أحدهما - بلوغ المكلف النكاح .
والثاني - إيناس الرشد ، وكذلك قوله تعالى في المطلقة : « فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَدْحٍ حَتَّى تَنْكِحَ
زَوْجًا غَيْرَهُ » ثم جاءت السنة باشتراط المسئلة ؛ فوقف التحليل على الأمرين جميعا ، وهو انعقاد
النكاح ووجود الوطء . احتج أبو حنيفة فقال : إن معنى الآية النائية في الشرط هو المذكور
في الناية بلها ؛ فيكون قوله : « حتى يطهرن » مخففا هو بمعنى قوله « يطهرن » مشددا بينه ،
ولكنه جمع بين اللغتين في الآية ؛ كما قال تعالى : « فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ
الْمُطَهَّرِينَ » . قال الكُتَيْبُ :

وما كانت الأنصار فيها أدلة . ولا غيبا فيها إذ الناس غيب

وأياها فإن القراءتين كالآيتين فيجب أن يعمل بهما ؛ ونحن نعمل كل واحدة منهما على
معنى ، فنحمل المخففة على ما إذا انقطع دمها للأقل ، فإننا لا نجوز وطاها حتى تنسل ، لأنه
لا يؤمن عوده . ونحمل القراءة الأخرى على ما إذا انقطع دمها للأكثر ؛ فيجوز وطؤها وإن
لم تنسل . قال ابن السري : وهذا أقوى ما نهم ؛ فالجواب عن الأول : أن ذلك ليس من
كلام الفصحاء ولا ألسن البلغاء ؛ فإن ذلك يقتضى التكرار في التعداد ، وإذا أمكن حمل اللفظ
على فائقة مجتزئة لم يعمل على التكرار في كلام الناس ؛ فكيف في كلام العالم الحكيم ! وعن
الساني : أن كل واحد منهما محمول على معنى دون معنى الآخر ؛ فيلزمهم إذا انقطع الدم
ألا يحكم لها بحكم الحيض قبل أن تنسل في الرجعة ، وهم لا يقولون ذلك كما بيناه ؛ فهي إذا حائض

والحائض لا يجوز وطؤها اتفاقاً. وأيضاً فإن ما قالوه يقتضي إباحة الوطء عند انقطاع الدم للأكثر، وما قلناه يقتضي الحظر، وإذا تعارض ما يقتضي الحظر وما يقتضي الإباحة ويطلب باعتبارهما غلب باعث الحظر كما قال كلٌّ وعُتِنُ في الجمع بين الأختين ملك اليمين، أحلتها آية وحرمتها أنرى، والتحريم أولى . والله أعلم .

الحادية عشرة - اختلف علماءنا في الكفاية هل تجبر على الاغتسال أم لا ؛ فقال مالك في رواية ابن القاسم : نعم ؛ ليحلَّ للزوج وطؤها ؛ قال الله تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ » يقول بالماء، ولم يخص مسلمة من غيرها . وروى أشهب عن مالك أنها لا تجبر على الاغتسال من المبيض ؛ لأنها غير معتقة لذلك ؛ لقول الله تعالى : « وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكُنَّ مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » وهو الحيض والحمل ، وإنما خاطب الله عز وجل بذلك المؤمنات وقال : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » وبهذا كان يقول محمد بن عبد الحكم .

الثانية عشرة - وصفة غسل الحائض صفة غسلها من الجنابة ، وليس عليها قرض شريها في ذلك ؛ لما رواه مسلم عن أم سلمة قالت قلت : يا رسول الله إني أشدُّ ضغفراً رأسي أفأقضيه لغسل الجنابة ؟ قال : « لا إنما بكفيك أن تمشي على رأسك ثلاث حثيات ثم تفيضين عليك الماء فتطهرين » وفي رواية : أفأقضيه للحيضة والجنابة ؟ فقال : « لا » زاد أبو داود : « وأغمزي قمرتك عند كل حثية » .

الثالثة عشرة - قوله تعالى : (فَاتَّوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ) أي لجامعهن . وهو أمر إباحة ، وكفى بالإيمان عن الوطء ، وهذا الأمر يُقَوَّى ما قلناه من أن المراد بالطهر الغسل بالماء ؛ لأن صيغة الأمر من الله تعالى لا تقع إلا على الوجه الأكمل . والله أعلم . و« مِنْ » بمعنى في أي في حيث أَمَرَكُمُ اللَّهُ تعالى وهو القُبْلُ ، ونظيره قوله تعالى : « أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ » أي في الأرض ، وقوله : « إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ » أي في يوم الجمعة . وقبل المعنى أي من الوجه الذي أُنذِرَ لكم فيه ، أي من غير صوم وإحرام

واحتكاف؛ قاله الأصم . وقال ابن عباس وأو رزين : من قبل الظهر لا من قبل الجنب؛
وقاله الضحاك . وقال محمد بن الحنفية : المعنى من قبل الحلال لا من قبل الزنا .

الرابعة عشرة - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْتَوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ اختلف فيه ؛
ف قيل : التوابون من الذنوب والشرك . والمتطهرون أى بالماء من الجنابة والأحداث ؛ قاله
عطاء وغيره . وقال مجاهد : من الذنوب ؛ وعنه أيضا : من إتيان النساء في أديارهن .
ابن عطية : كأنه نظر إلى قوله تعالى حكاية عن قوم لوط : « أَنْزَلْنَاهُمْ مِنْ قَرْنِكُمْ لِأَنَّهُمْ
أَنَاسٌ يَسْتَطَهِّرُونَ » . وقيل : المتطهرون الذين لم يُذنبوا .

فإن قيل : كيف قدم بالذکر الذي أذنب على من لم يذنب ؛ قيل : قدمه لئلا يقتطع
الثابت من الرحمة ولا يسحب المتطهر بنفسه ؛ كما ذكر في آية أخرى : « فَيَنْهَمُ ظَلَامٌ لِنَفْسِهِ
وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ » على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَاتُوا حَرْنَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِمُوا
لِأَنفُسِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾
فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ ﴾ روى الأئمة واللفظ لمسلم عن جابر
ابن عبد الله قال : كانت اليهود تقول : إذا أتى الرجل امرأته من دُبُرِها في قُبُلِها كان الولد
أَحْمَلًا ؛ فزلت الآية : « نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَاتُوا حَرْنَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ » زاد في رواية عن الزهري :
إن شاء محبة وإن شاء غير محبة غير أن ذلك في صِغَامٍ واحد . وروى في صِغَامٍ واحد بالسین ، قاله
الترمذی . وروى البخاری عن نافع قال : كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه ؛
فاخذت عليه يوماً ^(١) فقرأ سورة « البقرة » حتى انتهى إلى مكان قال : أتدري فِيمَ أُنْزِلَتْ ؟

(١) محبة ؛ أى منكبة على وجهها ؛ تشبهاً ببيت السجود .

(٢) أخذت عليه ؛ أى أسكت المصحف وهو يقرأ عن ظهر قلب .

قلت : لا . قال : نزلت في كذا وكذا ، ثم مضى . وعن عبد الصمد قال : حدثني أبي قال حدثني
أبيوب عن نافع عن ابن عمر « فَأَتُوا حَرَّتَكُمْ أَيَّ شَيْئُمْ » قال : يأتيها في قبيلها . قال الحميدى :
يعنى الفرج . وروى أبو داود عن ابن عباس قال : إن ابن عمر والله يفرله أوهم ، إنما كان هذا
الحى من الأنصار ، وهم أهل وثي ، مع هذا الحى من يهود ، وهم أهل كلب ؛ وكانوا يرون لهم
فضلا عليهم في العلم ؛ فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم ، وكان من أمر أهل الكلب ألا يأتوا
النساء إلا على حرف ، وذلك استرما تكون المرأة ؛ فكان هذا الحى من الأنصار قد أخذوا بذلك
من فعلهم ، وكان هذا الحى من قريش يَسْرَحُونَ النساءَ سُرْحًا مُتَكَرِّرًا وَيَتَلَذَّذُونَ مِنْهُنَّ مُقْبِلَاتٍ
ومدبراتٍ ومستقبليات ؛ فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار ؛
فذهب يصنع بها ذلك فانكرته عليه ، وقالت : إنما كنا نؤتى على حرف ! فأصنع ذلك وإلا
فأجنتننى ؛ حتى يرى أمرهما ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فأنزل الله عز وجل :
« فَأَتُوا حَرَّتَكُمْ أَيَّ شَيْئُمْ » أى مقبلات ومدبرات ومستقبليات ، يعنى بذلك موضع الولد . وروى
الترمذى عن ابن عباس قال : جاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول
الله هلكت ! قال : « وما أهلك » قال : حوالت رجلى الليلة ؛ قال : فلم يرد عليه رسول الله
صلى الله عليه وسلم شيئا ؛ قال : فأوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية :
« نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرَّتَكُمْ أَيَّ شَيْئُمْ » أقبل وأدبر وأتق الدبر والحليضة . قال : هذا
حديث حسن صحيح . وروى النسائي عن أبي النضر أنه قال لنافع مولى ابن عمر : قد أكثر
عليك القول ! إنك تقول عن ابن عمر : أنه أتى بأن يؤتى النساء في أديارهن . قال نافع : لقد
كذبوا على ! ولكن سأخبرك كيف كانت الأسر : إن ابن عمر عرض على المصحف يوما
وأنا عنده حتى بلغ : « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ » ؛ قال نافع : هل تدري ما أمر هذه الآية ؟
إنما كنا معشر قريش نجبي النساء فلما دخلنا المدينة وكنا نساء الأنصار أردنا منهن ما كنا نريد

(١) شرح الرجل جاريته : إذا وطئها فاته على قداما .

(٢) شرى أمرهما (من باب رضى) : علم وتقام وجوها فيه : (٣) الذى فى صحيح الترمذى : « حسن عريب » .

(٤) تقدم معنى « الجنية » من هذا الجزء فأنظره .

من فسائنا؛ فإذاهنَّ قد كره من ذلك وأعظمته، وكان فساه الانتصار إنما يؤتى على جنوبيين؛
فأنزل الله سبحانه: « نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْ يَشْتِمُ » .

الثانية - هذه الأحاديث نص في إباحة الحلال والميثاق كلها إذا كان الوطء في موضع
الحَرْث ؛ أى كيف شتم من خليف ومن قدام وباركة ومستغفلة ومضطجعة ؛ فاما الإتيان
في غير المأثى فما كان مباحا، ولا يباح ؛ وذكر الحَرْث يدل على أن الإتيان في غير المأثى محرم .
و « حَرْث » تشبيه ؛ لأنهم مُزْدَرَج الثرية ؛ فلفظ « الحَرْث » يعطى أب الإباحة لم تقع
إلا في الفرج خاصة إذ هو المزدوج . وأنشد تلمب :

بأما الأزحام أرضون لنا محترثات • فطينا الزرع فيها ونعل الله النبات

ففرج المرأة كالأرض ، والنطفة كالبذر ، والولد كالنبات ؛ فالحَرْث بمعنى المحترث . ووحد
الحَرْث لأنه مصدر ؛ كما يقال : رجلٌ صومٌ ، وقومٌ صومٌ .

الثالثة - قوله تعالى : (أَنْ يَشْتِمُ) معناه عند الجمهور من الصحابة والتابعين
وأئمة الفتوى : من أى وجه شتم مقبلة ومذربة ؛ كما ذكرنا آنفا ، و« أَنْ » نجيء سؤالا وإخبارا
عن أمر له جهات ؛ فهو أعم في اللغة من « كيف » ومن « أين » ومن « متى » ؛ هذا هو
الاستعمال العربي في « أَنْ » . وقد فسر الناس « أَنْ » في هذه الآية بهذه الألفاظ . وفسرها
سيبويه بـ « كيف » و « من أين » باجتماعهما . ونهبت فرقة من فسر بها بـ « أين » إلى أن
الوطء في الدرمباح ؛ ومن نسب إليه هذا القول : سعيد بن المسيب ونافع وابن عمر ومحمد
ابن كعب القرظي . وعبد الملك بن الماجشون . وحكى ذلك عن مالك في كتاب له يسمى
« كتاب السر » . وسدأ أصحاب مالك ومشايخهم يتكبرون ذلك الكتاب ؛ ومالك أجل من
أن يكون له « كتاب سر » . ووقع هذا القول في التثنية . وذكر ابن العربي : أن ابن شعبان
أسند جواز هذا القول إلى زمرة كثيرة من الصحابة والتابعين ، وإلى مالك من روايات كثيرة
في كتاب « جامع النسوان وأحكام القرآن » . وقال الليث الطبري : وروى عن محمد بن كعب
القرظي أنه كان لا يرى بذلك بأسا ؛ ويتأذى فيه قول الله عز وجل : « أَتَأْتُونَ الذَّكَرَ أَنْ يَشْتِمَ »

الْعَالَمِينَ. وَيَقُولُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ، وَقَالَ: فَتَقْدِيرُهُ تَرْكُونُ مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ؛ وَلَوْ لَمْ يُبَيِّنْ مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ الْأَزْوَاجِ لِمَا سَمِعَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ الْمُبَاحُ مِنَ الْمَوْضِعِ الْآخَرِ مِثْلًا لَهُ؛ حَتَّى يُقَالَ: تَفْعَلُونَ ذَلِكَ وَتَرْكُونُ مِثْلَهُ مِنَ الْمُبَاحِ. قَالَ الْيَكَا: وَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ، إِذْ مَعْنَاهُ: وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ مِمَّا فِيهِ تَسْكِينٌ شَهْوَتِكُمْ؛ وَلِدَّةُ الْوَقَاعِ حَاصِلَةٌ بِهَمَا جَمِيعًا؛ فَيَجُوزُ التَّوْبِيخُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ» مَعَ قَوْلِهِ: «فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ» مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِي الْمَأْتَى اخْتِصَاصًا، وَأَنَّهُ مَقْصُورٌ عَلَى مَوْضِعِ الْوَلَدِ.

قُلْتُ: هَذَا هُوَ الْحَقُّ فِي الْمَسْأَلَةِ. وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ أَنَّ الْعُلَمَاءَ لَمْ يَخْتَفُوا فِي الرِّقَاءِ الَّتِي لَا يُوَصَّلُ إِلَى وَطْئِهَا أَنَّهُ عَيْبٌ تَرَدَّدَ بِهِ؛ إِلَّا شَيْطَانًا جَاءَ عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ مِنْ وَجْهِ لَيْسَ بِالتَّسْوِيءِ أَنَّهُ لَا تَرَدَّدُ الرِّقَاءُ وَلَا غَيْرُهَا؛ وَالْفَقْهَاءُ كُلُّهُمْ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمَ هُوَ الْمُبْتَنَى بِالنِّكَاحِ، وَفِي إِجْمَاعِهِمْ عَلَى هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الدَّبْرَ لَيْسَ بِمَوْضِعِ وَطْءٍ، وَلَوْ كَانَ مَوْضِعًا لَوُطِئَ مَا رُكِّنَتْ مِنْ لَا يُوَصَّلُ إِلَى وَطْئِهَا فِي الْفَرْجِ. وَفِي إِجْمَاعِهِمْ أَيْضًا عَلَى أَنَّ الْعَقِيمَ الَّتِي لَا تَلِدُ لَا تَزْدُ. وَالصَّحِيحُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مَا بَيَّنَّاهُ. وَمَا نُسِبَ إِلَى مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ مِنْ هَذَا بَاطِلٌ وَهُمْ مُبْهَوُونَ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ إِبَاحَةَ الْإِثْنَانِ مَخْتَصَةٌ بِمَوْضِعِ الْحُرِّ؛ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ»؛ وَلِأَنَّ الْحِكْمَةَ فِي خَلْقِ الْأَزْوَاجِ بَثُّ النِّسْلِ؛ فَغَيْرُ مَوْضِعِ النِّسْلِ لَا يَبَالُغُ فِيهِ نِكَاحُ، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ. وَقَدْ قَالَ أَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ: إِنَّهُ عِنْدَنَا وَلَا نَحْطُ الْمَذْكُورَ سِوَاهُ فِي الْحُكْمِ؛ وَلِأَنَّ التَّسْدِيرَ وَالْإِثْنَانِ فِي مَوْضِعِ النِّجْوَاءِ كَثُرَ مِنْ دِمِّ الْحَيْضِ، فَكَانَ أَشْنَعًا. وَأَمَّا صِحَامُ الْبُولِ فَغَيْرُ صِحَامِ الرَّجْمِ. قَالَ ابْنُ الصَّرْبِيِّ فِيهِ: قَالَ لَنَا الشَّيْخُ الْإِمَامُ غُرُّ الْإِسْلَامِ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ ابْنُ أَحْمَدَ بْنِ الْحُسَيْنِ فَقِيهَ الْوَقْتُ وَإِمَامُهُ: الْفَرْجُ أَشْبَهُ شَيْءًا بِخِمْسِيَّةٍ وَثَلَاثِينَ؛ وَأَخْرَجَ يَدَهُ عَاقِدًا بِهَا. وَقَالَ: مَسْلُكُ الْبُولِ مَا تَحْتَ الثَّلَاثِينَ، وَمَسْلُكُ الدَّبْرِ الْفَرْجُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْخِمْسَةُ؛ وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى الْفَرْجَ حَالًا الْحَيْضِ لِأَجْلِ النِّجَاسَةِ الْعَارِضَةِ، فَأَوَّلَى أَنْ يَحْرُمَ الدَّبْرُ لِأَجْلِ النِّجَاسَةِ لِلْإِثْمَانَةِ. وَقَالَ مَالِكُ بْنُ وَهَبٍ وَعَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ لَمَّا أَخْبَرَاهُ أَنَّ نَاسًا بِمِصْرَ

يَحْتَدُونَ عَنْهُ أَنَّهُ يَمِيزُ ذَلِكَ ؛ فَضَرَمَ ذَلِكَ ؛ وَبَادَرَ إِلَى تَكْذِيبِ النَّاسِ فَقَالَ : كَذَبُوا عَلِيًّا ، كَذَبُوا عَلِيًّا ، كَذَبُوا عَلِيًّا ! ثُمَّ قَالَ : أَلَسْتُمْ قَوْمًا عَرَبًا ؟ أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ تَعَالَى : « نِسَاؤُكُمْ حَرْثُكُمْ » ؟ وَهَلْ يَكُونُ الْحَرْثُ إِلَّا فِي مَوْضِعِ الْمَنِيِّ ! وَمَا اسْتَدَلَّ بِهِ الْخُلَافَ مِنْ أَنَّ قَوْلَهُ عَنْ وَجَل : « أَنِّي شَتَمْتُ » شَامِلٌ لِلنَّاسِ بِحُكْمِ عُمُومِهَا فَلَا تَجِبُ فِيهَا ، إِذْ هِيَ خَصْمَةٌ بِمَا ذَكَرْنَاهُ ، وَبِأَحَادِيثٍ صَحِيحَةٍ حَسَنَةٍ شَهِيرَةٍ رَوَاهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اثْنَا عَشَرَ صَحَابِيًا يَتَّبِعُونَ مَخْلَفَةً ؛ كُلُّهَا مُتَوَارِدَةٌ عَلَى تَحْرِيمِ إِيْتَانِ النِّسَاءِ فِي الْأَدْبَارِ ؛ ذَكَرَهَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي مُسْنَدِهِ ، وَأَبُو دَوَادٍ وَالنَّسَائِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمْ . وَقَدْ جَمَعَهَا أَبُو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوْزِيِّ بِطَرَفِهَا فِي جُزْءِ سَمَاءَ « تَحْرِيمِ الْمَحَلِّ الْمَكْرُوهِ » . وَلِشَيْخِنَا أَبِي الْعَبَّاسِ أَيْضًا فِي ذَلِكَ جُزْءٌ سَمَاءَ « إِظْهَارُ إِدْبَارِ ، مِنْ أَجَازِ الْوُطْءِ فِي الْأَدْبَارِ » .

قلت : وهذا هو الحق المتبع والصحيح في المسألة ، ولا ينبغي للمؤمن بالله واليوم الآخر أن يُعْرِجَ فِي هَذِهِ النَّازِلَةِ عَلَى زَلَّةٍ عَالِمٌ بَعْدَ أَنْ تَصَحَّ عَنْهُ . وَقَدْ حُدِّثْنَا مِنْ زَلَّةِ الْعَالِمِ . وَقَدْ رَوَى عَنْ ابْنِ عَمْرِو خُلَافٍ هَذَا ، وَتَكْفِيرُ مَنْ فَعَلَهُ ؛ وَهَذَا هُوَ الْإِتِّاقُ بِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَكَذَلِكَ كَذَبَ نَافِعٌ مَنْ أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ ؛ كَمَا ذَكَرَ النَّسَائِيُّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ . وَأَنْكَرَ ذَلِكَ مَالِكٌ وَاسْتَعْظَمَهُ ، وَكَذَّبَ مَنْ نَسَبَ ذَلِكَ إِلَيْهِ . وَرَوَى الثَّوْرِيُّ أَبُو مُحَمَّدٍ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ سَارٍ أَبِي الْحَبَابِ قَالَ : قُلْتُ لِابْنِ عَمْرٍو : مَا تَقُولُ فِي الْجَوَارِي حِينَ أُحْمَضُ لَهُنَّ ؟ قَالَ : وَمَا التَّجْمِيعُ ؟ فَذَكَرْتُ لَهُ الدُّبْرَ ؛ قَالَ : هَلْ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ! وَأَسَدٌ عَنْ نَزِيمَةَ بْنِ ثَابِتٍ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ لَا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أَعْبَازِهِنَّ » . وَمِثْلُهُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ طَلْحٍ . وَأَسَدٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « مَنْ أَتَى أَمْرًا فِي دُبْرِهَا لَمْ يَنْظُرَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « تِلْكَ أَلْوَطِيَّةُ الصُّغْرَى »

(١) التجميع : أن يأتي الرجل المرأة في غير ما تأمها الذي يكون موضع الولد .

يسنى إتيان المرأة في دبرها . وروى عن طاوس أنه قال : كان بدء عمل قوم لوط إتيان النساء في أديارهن . قال ابن المنذر : وإذا ثبت الشيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُنْتَفَى به عما سواه .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ أى قدموا ما ينفعكم غداً ، فحذف المفعول ، وقد صرح به في قوله تعالى : « وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ » فالمعنى قدموا لأنفسكم الطاعة والعمل الصالح . وقيل : ابتغاء الولد والنسل ؛ لأن الولد خير الدنيا والآخرة ، فقد يكون شغباً وجنة . وقيل : هو التزوج بالفانق ؛ ليكون الولد صالحاً طاهراً . وقيل : هو تقدم الأفرأ^(١) ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من قدم ثلاثة من الولد لم يلفوا الجنة لم تسم النار إلا تحلة القسم » الحديث . وسأى في « صريم » إن شاء الله تعالى . وقال ابن عباس وعطاء : أى قدموا ذكر الله عند الجماع ؛ كما قال عليه السلام : « لو أن أحدكم إذا أتى امرأته قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره شيطان أبداً » . أخرجه مسلم .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ تحذير (وَأَعْمَلُوا أَنْكُمْ مَلَأُوهُ) خبر يقتضى المباعدة في التحذير ، أى فهو مجازيكم على البر والإثم . وروى ابن عينة عن عمرو بن دينار قال : سمعت سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخاطب يقول : « إنكم ملائكة حفاة عراة مشاة غرلاً » - ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْمَلُوا أَنْكُمْ مَلَأُوهُ » أخرجه مسلم بحناه .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تأنيص لفاعل البر ومبتنى سنن الهدى . قوله تعالى : وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١١﴾

(١) الأفرأ (جمع فرط) : هم الأولاد الذين ماتوا قبل أن ينفوا الملم .

(٢) الدرل (يضم فكون جمع الأغزل) : وهو الألف الذي لم يقترن .

فيه أربع مسائل :

الأولى - قال العلماء : لما أمر الله تعالى بالإتيان وصحبة الأيتام والنساء بمجمل المعاشرة قال : لا تمتنعوا عن شيء من المكارم تعللاً بأننا حلفنا ألا نفعل كذا ؛ قال معناه ابن عباس والتَّحَيُّ ومجاهد والربيع وغيرهم . قال سعيد بن جبير : هو الرجل يحلف ألا يبر ولا يصل ولا يصليح بين الناس ؛ فيقال له : برّ ؛ فيقول : قد حلفت . وقال بعض المتأولين : المعنى ولا تحلفوا بالله كاذبين إذا أردتم البرّ والتقوى والإصلاح ؛ فلا يحتاج إلى تقدير « لا » بعد « أن » . وقيل : المعنى لا تستكثروا من الإيمان بالله فإنه أحب للقلوب ؛ ولهذا قال تعالى : « وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ » . وذم من كثّر الإيمان فقال تعالى : « وَلَا تَطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ » . والعرب تمدح بقلة الأيمان ؛ حتى قال قائلهم :

قليل الألياً حافظٌ يمينه • وإن صدرت منه الأيئةُ برّيت

وعلى هذا « أن تبروا » معناه : أقبلوا الأيمان لما فيه من البرّ والتقوى ؛ فإن الإلتزام يكون معه الحنث وقلة رعي الحق الله تعالى ؛ وهذا تأويل حسن . مالك بن أنس : بلغني أنه الحلف بالله في كل شيء . وقيل : المعنى لا تجعلوا الإيمان مبتذلة في كل حق وباطل . وقال الزجاج وغيره : معنى الآية أن يكون الرجل إذا طلب منه فعل خير اعتلّ بالله فقال : على يمين ؛ وهو لم يحلف . الفتي : المعنى إذا حلفت على ألا تصلوا أرحامكم ولا تصمتقوا ولا تصلحوا ؛ وعلى أشباه ذلك من أبواب البرّ فكفروا باليمين .

قلت : وهذا حسن لما بيناه ، وهو الذي يدلّ عليه سبب التزول ؛ على ما بينته في المسألة بعد هذا .

الثانية - قيل : نزلت بسبب الصديق إذ حلف ألا ينفق على مسطح حين تكلم في حائشة رضي الله عنها ؛ كما في حديث الإفك ؛ وسيأتي بيانه في « النور » ؛ عن ابن جريج . وقيل : نزلت في الصديق أيضاً حين حلف ألا يأكل مع الأضياف . وقيل : نزلت في عبد الله بن رولسة حين حلف ألا يكلم بشير بن النعمان وكان حخته على أخته ؛ والله أعلم .

الثالثة - قوله تعالى : (عُرْضَةٌ لِّأَيَّانَكُمْ) أى نصبا ؛ عن الجوهري . وفلان عُرْضَةٌ ذاك ، أى عُرْضَةٌ لذلك ، أى مَقْرُونٌ له قَوْيٌ عليه . والعُرْضَةُ : الهِمْة . قال :
 * هُمُ الْإِنصَارُ عُرْضَتُهُ الْقَلَاءُ ^(١) *

وفلان عُرْضَةٌ للناس : لا يزالون يقومون فيه . وجعلت فلانا عُرْضَةً لكننا أى نصبته له .
 وقيل : العُرْضَةُ من الشدة والقوة ؛ ومنه قولهم للراة : عُرْضَةٌ للنكاح ؛ إذا صلحت له وقويت
 عليه ؛ وفلان عُرْضَةٌ : أى قوة على السفر والحرب ؛ قال كعب بن زهير :
 من كل نَصَابَةِ الذِّفْرِى إِذَا عَرِقت * عُرْضَتُهَا طَامِسُ الْأَعْلَامِ مَجْهُولُ
 وقال عبد الله بن الزبير :

فهذى لأيام الحروب وهذه * لِلَّهِوى وهذى عُرْضَةٌ لَارْتِمَالِنَا
 أى عُدَّة . وقال آخر :
 * فلا تجعلنى عُرْضَةً لِقَوَائِمِ *

وقال أوس بن حجر :

وأدماه مثل الفعل يوما عرضتها * لرحلي وفيها حِزَّةٌ وتخافُفُ
 واتشى : لا تجعلوا اليمين بالله قوة لأهسكم وعُدَّةٌ فى الامتناع من البر .

الرابعة - قوله تعالى : (أَنْ تَبْرُوا وَتَسْتَوْا) مبتدأ وخبره محذوف ، أى البر والتقوى
 والإصلاح أولى وأمثل ، مثل « طاعة وقول معروف » ، عن الزجاج والنحاس . وقيل : عله
 النصب ، أى لا تتممك اليمين بالله عز وجل البر والتقوى والإصلاح ؛ عن الزجاج أيضا .
 وقيل : مفعول من أجله . وقيل : معناه أن لا تبروا ؛ لحذف « لا » ؛ كقوله تعالى :
 « بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ أَنْ تَقْلُوا » أى لئلا تقلوا ؛ قاله الطبري والنحاس . ووجه رابع من وجوه
 النصب : كراهة أن تبروا ؛ ثم حذف ؛ ذكره النحاس والمهدوي . وقيل : هو في موضع خفض

(١) مجزيت لسان بن ثابت رضي الله عنه ؛ ومصدره : * وقال الله قد أهدت جنبا *

على قول الخليل والكاسي؛ التقدير: في أن يهروا، فاضمرت «في» وتخفضت بها. و(تسبيح)
أى لأتوال العباد. (عَلِيمٌ) بياتهم.

قوله تعالى: لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا
كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٢٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى: (وَاللَّغْوُ) المصغر لما يلقو ويلقى، ولقى يلقي لنا إذا أتى
بما لا يحتاج إليه في الكلام، أو بما لا خير فيه، أو بما يلقي إثمه؛ وفي الحديث: «إذا قلت
لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت». ولغة أبي هريرة: «قد لغيت»
وقال الشاعر^(١):

وَرَبِّ أَسْرَابٍ حَمِيجٍ كُظْمٍ • عَنْ الْقَفَا وَرَقَّتِ الْكُظْمُ
وقال آخر^(٢):

رَسَتْ بِمَاخُذٍ بَلَقُو قَوْلَهُ • إِذَا لَمْ تَعْمَدْ مَا قَدَّاتِ الْعِزَّاجِ

الثانية — واختلف العلماء في اليمين التي هي لغو؛ فقال ابن عباس: هو قول
الرجل في كذب كلامه واستجباله في المحاورة: لا والله، ولى والله؛ دون قصيد اليمين.
قال المروزي: لغو اليمين التي اخفق العلماء على أنها لغو هو قول الرجل: لا والله، ولى والله؛
في حديثه وكلامه غير معتد اليمين ولا مريضها. وروى ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب
أن امرأة حدثه أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: أيمان اللغو ما كانت
في المرأة والمهزل والمزاجة والحديث الذي لا ينقد عليه القلب. وفي البخاري عن عائشة
رضي الله عنها قالت: نزل قوله تعالى: «لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ» في قول الرجل:
لا والله، ولى والله. وقيل: اللغو ما يخلف به على الظن؛ فيكون بخلافه؛ قاله مالك.

(١) هو السراج وكان معروفاً. (٢) هو الخزعة؛ كان القاضي من ٢٤٤ طبع أدريه.

حكاه ابن القاسم عنه ، وقال به جماعة من السلف . قال أبو هريرة : إذا حلف الرجل على الشيء لا يقضه إلا أنه إياه ، فإذا ليس هو ، فهو اللغو ، وليس فيه كفارة ، ونحوه عن ابن عباس . وروى أن قوما تراجعوا القول عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يرمون بحضرته ؛ فحلف أحدهم لقد أصبت وأخطأت يا فلان ؛ فإذا الأمر بخلاف ذلك ؛ فقال الرجل : حنث يا رسول الله ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إيمان الرءاة لنوا لحنث فيها ولا كفارة » . وفي الموطأ قال مالك : أحسن ما سمعت في هذا أن اللغو يحلف الإنسان على الشيء ، يستيقن أنه كذلك ثم يوجد الأمر بخلافه ؛ فلا كفارة فيه . والذي يحلف على الشيء وهو يعلم أنه فيه آثم كاذب ليرضى به أحدا أو يعتذر لمخلوق أو يقتطع به مالا فهذا أعظم من أن يكون فيه كفارة ؛ وإنما الكفارة على من حلف ألا يفعل الشيء المباح له فعله ثم يفعله ؛ أو أن يفعله ثم لا يفعله ؛ مثل إن حلف ألا يبيع هوبه بعشرة دراهم ثم يبيعه بمثل ذلك ، أو حلف ليضربن غلامه ثم لا يضربه . وروى عن ابن عباس — إن صح عنه — قال : لنوا اليمين أن تحلف وأنت غضبان ؛ وقاله طاووس . وروى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يمين في غضب » أخرجه مسلم . وقال سعيد بن جبير : هو تحريم الحلال ؛ فيقول : مالى على حرام إن فعلت كذا والحلال على حرام ؛ وقاله مكحول اللمشقي ؛ ومالك أيضا ؛ إلا في الزوجة فإنه أرم فيها التحريم إلا أن يفرجها الخالف بقلبه . وقيل : هو يمين المعصية ؛ قاله سعيد بن المسيب ، وأبو بكر بن عبد الرحمن وعروة وعبد الله ابن الزبير ؛ كالذي يقسم ليشربن الخمر أو ليقطعن الرحم فيه ترك ذلك الفعل ولا كفارة عليه ؛ وجمهم حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليتركها فإن تركها كفارتها » أخرجه ابن ماجه في سننه ، وسيأتي في « المسألة » أيضا . وقال زيد بن أسلم : لنوا اليمين دعاء الرجل على نفسه : أعنى الله بصره ، أذهب الله ماله ، هو يهودى ، هو مشرك ، هو لينة إن فعل كذا . مجاهد : هما الرجلان يتبايعان فيقول أحدهما : والله لا أبيعك بكذا ، ويقول الآخر : والله لا أشتريه بكذا . النجى ؛ هو الرجل يحلف ألا يفعل الشيء ثم ينسى فيفعله .

وقال ابن عباس أيضا والضاحك : لنواليمين هي المكفرة، أي إذا كُفرت اليمين سقطت وصارت لنفواء، ولا يؤاخذ الله بتكفيرها والرجوع إلى الذي هو خير . وحكى ابن عبد البر قولاً : أن اللغو أيمان المكروه . قال ابن العربي : أما اليمين مع النسيان فلا شك في إلغائها ؛ لأنها جلت على خلاف قصده ؛ فهي لنفو محض .

قلت : وبين المكروه ثنائيتها . وسأقي حكم من حلف مكرهاً في « النعل » إن شاء الله تعالى . قال ابن العربي : وأما من قال إنه يمين المعصية فباطل ؛ لأن الحالف على ترك المعصية تتعقد يمينه عادةً، والحالف على فعل المعصية تتعقد يمينه معصية ؛ ويقال له : لا تفعل وكفر ؛ فإن أئتم على الفعل أثم في إقدامه وبر في قسمه . وأما من قال : إنه دعاء الإنسان على نفسه إن لم يكن كذا فيبتل به كذا ؛ فهو قول لنفواء في طريق الكفارة ولكنه منعقد في القصد، مكروه، وربما يؤاخذ به ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدعون أحدكم على نفسه فرجاً صادقاً ساعة لا يسأل الله أحدٌ فيها شيئاً إلا أعطاه إياه " . وأما من قال إنه يمين الغضب فإنه يردّه حلف النبي صلى الله عليه وسلم غاضباً ألا يجعل الأشعرين وحملهم وكفر عن يمينه . وسأقي في « براءة » . قال ابن العربي : وأما من قال : إنه اليمين المكفرة فلا متعلق له بحكمي ؛ وضعفه ابن عطية أيضاً وقال : قد رفع الله عز وجل المؤاخذة بالإطلاق في اللغو، فحقيقته لا أثم فيه ولا كفارة؛ والمؤاخذة في الإيمان هي بحقوبة الآخرة في اليمين الفموس المصبورة، وفيما ترك تكفيره مما فيه كفارة، وبحقوبة الدنيا في الزام الكفارة فيضعف القول بأنها اليمين المكفرة؛ لأن المؤاخذة قد وقعت فيها، وتخصيص المؤاخذة بأنها في الآخرة فقط تحكّم .

الثالثة - قوله تعالى : (فِي آيَاتِكُمُ الْإِيمَانُ جَمْعُ يَمِينٍ ، وَالْيَمِينُ الْحَلْفُ ، وَأَصْلُهُ أَدَّ الْعَرَبُ كَانَتْ إِذَا تَحَالَفَتْ أَوْ تَعَاوَدَتْ أَخَذَ الرَّجُلُ يَمِينَ صَاحِبِهِ بِيَمِينِهِ ، ثُمَّ كُنْ ذَلِكَ حَتَّى سُمِّيَ

(١) في قوله تعالى : (ولا على الدين إذا ما أتوك لتعلمهم ... الآية ٩٢) .

(٢) اليمين المصورة هي التي أقر بها الحالف وجس عليها ، وكانت لازمة لصاحبها من جهة الحكم ، وقيل لها : « مصبورة » وإن كان صاحبها في الحقيقة هو المصور ؛ لأنها إنما صبر من أهلها ، أي حس ، عرصت بالصبر وأضيفت إلى اليمين مجازاً .

الحليف والمهد نفسه يمينا . وقيل : بين فعل من الإيمان ، وهو البركة ؛ سماها الله تعالى بذلك لأنها تحفظ الحقوق . وبين تذكرو توثت ، وتجمع إيمان وإيمن ؛ قال زهير :

* فَتُجْمَعُ إِيْمَنٌ مِّنَّا وَمِنْكُمْ *^(١)

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ مثل قوله : « وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ بِالْإِيمَانِ » . وهناك يأتي الكلام فيه مستوفى ، إن شاء الله تعالى . وقال زيد ابن أسلم : قوله تعالى : « وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ » هو في الرجل يقول : هو مشرك إن فعل ، أى هذا اللغو ، إلا أن يعقد الإشراف بقلبه وبكسبه . و ﴿ غُفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ صفتان لاقتان بما ذكر من طبع المؤاخذه ؛ إذ هو باب رفق وتوسعة .

قوله تعالى : لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نَاسِهِمْ تَرْبُصٌ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٦٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٧﴾

فيه أربع وعشرون مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ ﴾ « يؤولون » معناه يملفون ، والمصدر إيلاء وإيلاءة والولة وإلوة . وقرأ أبو وابن عباس « للذين يُقْسِمُونَ » . ومعلوم أن « يقسمون » تفسير « يؤولون » . وقرئ « للذين آلوا » يقال : آلى يؤلى إيلاء ، وآلى ثانياً ، وآلتى آتلاء ، أى حلف ؛ ومنه « ولا يَأْتِلُ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ » ؛ وقال الشاعر

فَالْيَبِ لَا أَتْلُكَ أَحَدُ قَصِيدَةٍ • تَكُونُ وَإِيَاهَا بِهَا مَثَلًا بَعْدِي

وقال آخر :

قِيلَ الْإِلَآيَا حَافِظٌ لِيَمِينِهِ • وَإِنْ سَبَقَتْ مِنْهُ الْإِلَآيَةُ بَرَّتْ

وقال ابن توحيد

إِلَآةٌ بِالْعَمَلَاتِ يَرْتَمِي • بِهَا النَّجَاهُ مِنْ أَجْوَارِ الْقَلَا

{١} هذا صدر بيت تمامه :

* عَقَسَةُ قُودَرِهَا الدَّمَاءَ •

قال عبد الله بن عباس: كان إيلاء الجاهلية سنةً والستين وأكثر من ذلك؛ يقصدون بذلك إيلاء المرأة عند المساء؛ فوقت لهم أربعة أشهر، فمن آل يأكل من ذلك فليس بإيلاء حكى.

قلت: وقد آلى النبي صلى الله عليه وسلم وطلق، وسبب إيلائه سؤال نسائه إياه من الثقة ما ليس عنده، كذا في صحيح مسلم. وقيل: لأن زينب ردت عليه هديته؛ فغضب صلى الله عليه وسلم قال منهم؛ ذكره ابن ماجه.

الثانية - ويلزم الإيلاء كل من يلزمه الطلاق؛ فالحر والعبد والسكران يلزمه الإيلاء. وكذلك السفیه والمؤتى عليه إذا كان بالغا غير مجنون، وكذلك الخصى إذا لم يكن مجبوا، والشيخ إذا كان فيه بقية رمق ونشاط. واختلف قول الشافعي في المحبوب إذا آلى؛ ففى قوله لا إيلاء له. وفى قول: يصح إيلاءه؛ والأول أصح وأقرب الى الكتاب والسنة، فإن الذى هو الذى يسقط اليمين، والذى بالقول لا يسقطها؛ فإذا بقيت اليمين المانعة من الحث يتبع حكم الإيلاء. وإيلاء الأخرس بما يفهم عنه من كتابة أو إشارة مفهومة لازم له؛ وكذلك الأعرجى إذا آلى من نسائه.

الثالثة - واختلف العلماء فيما يقع به الإيلاء من اليمين؛ فقال قوم: لا يقع الإيلاء إلا باليمين بالله تعالى وحده لقوله عليه السلام: "من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت". وبه قال الشافعي في الجديد. وقال ابن عباس: كل يمين تمت جماعا فهو إيلاء؛ وبه قال الشعبي والشافعي ومالك وأهل الحجاز وسفيان الثوري وأهل العراق، والشافعي في القول الآخر؛ وأبو ثور وأبو عبيد وابن المنذر والقاضي أبو بكر بن العربي. قال ابن عبد البر: وكل يمين لا يقدر صاحبها على جراح أمراته من أجلها إلا بأن يحث فهو بها مؤل، إذا كانت يمينه على أكثر من أربعة أشهر؛ فكل من حلف بالله أو بصفة من صفاته أو قال: أقسم بالله، أو أشهد بالله، أو على عهد الله وكفائته وميثاقه ونقضه فإنه يلزمه الإيلاء. فإن قال: أقسم أو أعزم ولم يذكر بعقله؛ فليل: لا يدخل عليه الإيلاء، إلا أن يكون أراد بـ«الله» وتوابعه.

ومن قال إنه يمين يدخل عليه ؛ وسيأتي بيانه في « المائة » إن شاء الله تعالى . فإن حلف بالصيام ألا يطأ امرأته فقال : إن وطئتك فعلى صيام شهر أو سنة فهو مؤل . وكذلك كل ما يلزمه من سج أو طلاق أو عتق أو صلاة أو صدقة . والأصل في هذه الجملة عموم قوله تعالى : « الَّذِينَ يُؤْلُونَ » ولم يفرق ؛ فإذا آلى بصدقة أو عتق عبد معين أو غير معين لزم الإيلاء .

الرابعة — فإن حلف بالله ألا يطأ واستثنى فقال : إن شاء الله فإنه يكون مؤل ؛ فإن طأها فلا كفارة عليه في رواية ابن القاسم عن مالك . وقال ابن الماجشون في المبسوط : ليس بمؤل ؛ وهو أصح لأن الاستثناء يحلّ اليمين ويجعل الحالف كأنه لم يحلف ؛ وهو مذهب فقهاء الأمصار ، لأنه بين بالاستثناء أنه غير عازم على الفعل . ووجه ما رواه ابن القاسم مبنى على أن الاستثناء لا يحلّ اليمين ، ولكنه يؤثر في إسقاط الكفارة ؛ على ما يأتي بيانه في « المائة » فلما كانت يمينه باقية منعقدة لزمه حكم الإيلاء وإن لم تحب عليه كفارة .

الخامسة — فإن حلف بالنبي أو الملائكة أو الكعبة ألا يطأها ؛ أو قال هو يهودي أو نصراني أو زاني إن وطئها ؛ فهذا ليس بمؤل ، قاله مالك وغيره . قال الباقى : ومعنى ذلك عنسدى أنه أوردته على غير وجه القسم ، وأما لو أوردته على أنه مؤل بما قاله من ذلك أو عبره ففي المبسوط أن ابن القاسم سئل عن الرجل يقول لامرأته : لا مرحباً ، يريد بذلك الإيلاء يكون مؤل . قال قال مالك : كل كلام نوى به الطلاق فهو طلاق ؛ وهذا والطلاق سواء .

السادسة — واختلف العلماء في الإيلاء المذكور في القرآن ؛ فقال ابن عباس : لا يكون مؤل ؛ حتى يحلف ألا يمسها أبداً . وقالت طائفة : إذا حلف ألا يفرّج أمرانه يوماً أو أقل أو أكثر لم يطأ أربعة أشهر بانت منه بالإيلاء ؛ روى هذا عن ابن مسعود والنخعي وابن أبي لى والحكم وحماد بن أبى سليمان وقنادة ، وبه قال إسماعيل . قال ابن المنذر : وأنكر هذا القول كثير من أهل العلم . وقال الجمهور : الإيلاء هو أن يحلف ألا يطأ أكثر من أربعة أشهر ، فإن حلف على أربعة فمادونها لا يكون مؤل ؛ وكانت عندهم يميناً محضاً لو وطئ في هذه

المدة لم يكن عليه شيء كسائر الأيمان؟ هذا قول مالك والشافعي وأحمد وأبي ثور. وقال الثوري والكوفيون: الإيلاء أن يحلف على أربعة أشهر فصاعداً؛ وهو قول عطاء. قال الكوفيون: جعل الله التبرع في الإيلاء أربعة أشهر كما جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً وفي العدة ثلاثة قروء؛ فلا تبرع بعد. قالوا: فيجب بعد المدة سقوط الإيلاء، ولا يسقط إلا بالقيء وهو الجماع في داخل المدة. والطلاق بعد انقضاء الأربعة أشهر. واحتج مالك والشافعي فقالا: جعل الله الولي أربعة أشهر؛ فهي له بكافها لا آمتراض لزوجه عليه فيها؛ كما أن الذين المؤجل لا يستحق صاحبه المطالبة به إلا بعد تمام الأجل. وبوجه قول إسماعيل - في قليل الأمد يكون صاحبه به مولياً إذا لم يطل - القياس على من حلف على أكثر من أربعة أشهر فإنه يكون مولياً؛ لأنه قصد الإضرار باليمين؛ وهذا المعنى موجود في المدة القصيرة.

السابعة - واختفوا أن من حلف ألا يطل امرأته أكثر من أربعة أشهر فأنقضت الأربعة الأشهر ولم تطالبه امرأته ولا رفته إلى السلطان ليوقفه لم يلزمه شيء عند مالك وأصحابه وأكثر أهل المدينة: ومن علمائنا من يقول: يلزمه باقضاء الأربعة الأشهر طلاقاً وجبة. ومنهم ومن غيرهم من يقول: يلزمه طلاقاً بائنة باقضاء الأربعة الأشهر. والصحيح ما ذهب إليه مالك وأصحابه؛ وذلك أن المولى لا يلزمه طلاق حتى يوقفه السلطان بمطالبة زوجته له ليفي بفراجه امرأته بالوطء ويكفر بينه أو يطلق، ولا يتركه حتى يفى أو يطلق. والقيء: الجماع فيمن يمكن بماعتها. قال سليمان بن يسار: كان تسعة رجال من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يوقفون في الإيلاء؛ قال مالك: وذلك الأمر عندنا؛ وبه قال الليث والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور، واختاره ابن المنذر.

الثامنة - وأجل المولى من يوم حلف لامن يوم تخاصمه امرأته وترفعه إلى الحاكم فإن تخاصمته ولم ترض باستناعه من الوطء ضرب له السلطان أجلاً أربعة أشهر من يوم حلف؛

فإن وطئ فقد فاء الى حق الزوجة وكفر عن بينه ، وإن لم يقن طلق عليه طلاقاً رجعية .
قال مالك : فإن راجع لا تصح رجعة حتى يطأ في العدة . قال الأبهري : وذلك أن الطلاق
إنما وقع بلفظ الضرر ، فتي لم يطأ فالضرر باق ، فلا معنى للرجعة إلا أن يكون له عذر يمنعه
من الوطء فتصح رجعته ؛ لأن الضرر قد زال ، وامتناعه من الوطء ليس من أجل الضرر وإنما
هو من أجل المنذر .

التاسعة - واختلف العلماء في الإيلاء في غير حال الغضب ؛ فقال ابن عباس
لا إيلاء إلا بغضب ، وروى عن علي بن أبي طالب في المشهور عنه ، وقاله الأبيث والشعبي
والحسن وعطاء ، كلهم يقولون : الإيلاء لا يكون إلا على وجه مفاضة ومشاورة ورجح
ومناكحة الآيها معها في فرجها إضراراً بها ؛ وسواء كان في ضمن ذلك إصلاح ولد أم لم يكن .
فإن لم يكن عن غضب فليس بإيلاء . وقال ابن سيرين : سواء كانت العينة في غضب
أو غير غضب هو إيلاء ؛ وقاله ابن مسعود والثوري ومالك وأهل العراق والشافعي وأصحابه
وأحمد ، إلا أن مالكا قال : ما لم يرد إصلاح ولد . قال ابن المنذر : وهذا أصح ؛ لأنهم
لم يجمعوا أن الظاهر والطلاق وسائر الأيمان سواء في حال الغضب والرضا كان الإيلاء كذلك .
قلت : ويدل عليه عموم القرآن ؛ وتخصيص حالة الغضب يحتاج الى دليل ولا يؤخذ
من وجه يُزيم . والله أعلم .

العاشرة - قال علماؤنا : ومن امتنع من وطء امرأته بغير بين حلفها إضراراً بها أمر
بوطئها ؛ فإن أبي وأقام على امتناعه مضراً بها فوق بينه وبينها من غير ضرب أجل . وقد قيل :
يُضرب أجل الإيلاء . وقيل : لا يدخل على الرجل الإيلاء في هجرته من زوجته وإن أقام
سنتين لا يشاها ، ولكنه يوعظ ويؤمر بتقوى الله تعالى في ألا يمسكها ضراراً .

الحادية عشرة - واختلفوا فيمن حلف ألا يطأ امرأته حتى تقبل ولها لئلا يخل
ولها ؛ ولم يرد إضرارها حتى يتقضى أمد التضاع لم يكن لزوجته عند ملك مطالبة للنفد

(١) المثل (بفتح الميم وسكون اللين وضعا) : أن ترضع المرأة وهي حامل .

إصلاح الولد . قال مالك : وقد بانى أن علي بن أبي طالب سئل عن ذلك فلم يره إيلاء ،
وبه قال الشافعي في أحد قولي ، والقول الآخر يكون مؤيلاً ، ولا اعتبار برضاع الولد ؛
وبه قال أبو حنيفة .

الثانية عشرة - وذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم والأوزاعي وأحمد
ابن حنبل إلى أنه لا يكون مؤيلاً من حلف ألا يبطأ زوجته في هذا البيت أو في هذه الدار
لأنه يحسد السيل إلى وطئها في غير ذلك المكان . قال ابن أبي تَيْلٍ وإسحاق : إن تركها
أربعة أشهر بانت بالإيلاء ؛ ألا ترى أنه يوقف عند الأشهر الأربعة ؛ فإن حلف ألا يبطأها
في مصره أو بلده فهو مول عند مالك ؛ وهذا إنما يكون في سفر يتكلف المشقة والكلفة دون
جته أو مزدعته القريبة .

الثالثة عشرة - قوله تعالى : (مِنْ نِسَائِهِمْ) يدخل فيه الحواضر والذميات والإماء
إذا تزوجن . والعبد يلزمه الإيلاء من زوجته . قال الشافعي وأحمد وأبو ثور : إيلاؤه مثل
إيلاء الحر ؛ وحجتهم ظاهر قوله تعالى : « الَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ » فكان ذلك لجميع الأزواج .
قال ابن المنذر : وبه أقول . وقال مالك والزهري وعطاء بن أبي رباح وإسحاق : أجله
شهران . وقال الحسن والنخعي : إيلاؤه من زوجته الأمة شهران ، ومن الحرة أربعة أشهر ؛
وبه قال أبو حنيفة . وقال الشعبي : إيلاء الأمة نصف إيلاء الحرة .

الرابعة عشرة - قال مالك وأصحابه وأبو حنيفة وأصحابه والأوزاعي والنخعي وغيرهم :
المدخول بها وغير المدخول بها سواء في لزوم الإيلاء فيهما . وقال الزهري وعطاء والثوري :
لا إيلاء إلا بعد الدخول . وقال مالك : ولا إيلاء من صغيرة لم تنلق ، فإن آتت منها قبلت
لزم الإيلاء من يوم بلوغها .

الخامسة عشرة - وأما الذي فلا يصح إيلاؤه ؛ كما لا يصح ظهاره ولا طلاقه ؛
وذلك أن نكاح أهل الشرك ليس عندنا بنكاح صحيح ، وإنما لم شبهة يد ، ولأنهم لا يكلّفون
الشرايع فيلزمهم كفارات الأيمان ، فلو توافوا البتة في حكم الإيلاء لم يفتيخ لما كنا أن يحكم

بينهم ، وينهون الى حكمهم ؛ فان جرى ذلك مجرى النظام بينهم حكم بحكم الإسلام ؛ كما لو ترك المسلم وطء زوجته ضرارا من غيريين .

السادسة عشرة - قوله تعالى : (**تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ**) التبرص : الثانى والتأخر ؛ مقلوب التصبر ؛ قال الشاعر :

تَرَبُّصُ بِهَا رَبِّبَ الْمُتَوَكِّلُ لَعَلَّهَا **نُ** تُطْلَقَ يَوْمًا أَوْ يَمُوتَ حَلِيلُهَا

وأما فائمة توقيت الأربعة الأشهر فيا ذكر ابن عباس عن أهل الجاهلية كما تقدم ففتح الله من ذلك وجعل للزوج مدة أربعة أشهر في تأديب المرأة بالمهرج ، لقوله تعالى : « **وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ** » وقد آلى النبي صلى الله عليه وسلم من أزواجه شهرا تأديبا لهن . وقد قيل : الأربعة الأشهر هى التى لا تستطيع ذاتُ الزوج أن تصبر عنه أكثرَ منها ؛ وقد روى أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه كان يطوف ليلةً بالمدينة فسمع امرأة تُنشد :

أَلَا طَالَ هَذَا اللَّيْلُ وَأَسَوَدَ جَانِبُهُ * وَأَزُقُنِي أَنْ لَا حَيِّبَ الْأَعْبَسَةِ

فَوَاهِي لَوْلَا اللَّهُ لَا شَيْءَ غَيْرُهُ * لَزُعْرَجَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِيهِ

خَافَةَ رَبِّي وَالْحَبِيَاءُ يَكْفِيْنِي * وَإِكْرَامَ بَعْلِي أَنْ تُثَالَ مَرَاكِبُهُ

فلما كنت من الغد استدعى عمرُ بنتك المرأة وقال لها : أين زوجك ؟ فقالت : بعثت به الى العراق ! فاستدعى نساءً فسالهن عن المرأة كم مقدار ما نصبر عن زوجها؟ فقلن : شهرين ، وقيل صبرها في ثلاثة أشهر ، ويتقد صبرها في أربعة أشهر ، فجعل عمر مدة غزو الرجل أربعة أشهر ؛ فلذا مضت أربعة أشهر استرذ النازين ووجهه يقوم آخرين ؛ وهذا والله أعلم يقوى اختصاص مدة الإيلاء بأربعة أشهر .

السابعة عشرة - قوله تعالى : (**فَإِنْ قَامُوا**) معناه رجصوا ؛ ومنه « **حَتَّى تَقِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ** » ومنه قيل للظلم بعد الزوال : **قِيءٌ** ؛ لانه رجع من جانب المشرق الى جانب المغرب ؛ يقال : **قَاءَ** بغيره فيئة وفيءوا . وإته لسريع القيئة ، يعنى الرجوع . قال :

ففسدت ولم تقض الذى أقبلت له * ومن حاجة الإنسان ما ليس قاضيا

الثامنة عشرة — قال ابن المنذر : أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن النفي الجماع لمن لا عذر له ؛ فإن كان له عذر مرض أو سجن أو شبه ذلك فإن ارتجابه صحيح وهي أمراته ؛ فإن زال العذر بقدمه من سفره أو إفاقته من مرضه ، أو انطلاقه من سجنه فأبى الوطء فزنى بينهما إن كانت المدة قد انقضت ؛ قاله مالك في المدونة والمبسوط . وقال عبدالمالك : وتكون بائنا منه يوم انقضت المدة ؛ فإن صدق عذره بالتيبة إذا أمكنه حكم بصدقه فيما مضى ؛ فإن أكذب ما أدعاه من الفيتة بالامتناع حين القدرة عليها حمل أمره على الكذب فيها والدُّد ، وأمضيت الأحكام على ما كانت تجب في ذلك الوقت . وقالت طائفة : إذا شهدت بيعة بفيته في حال العذر أجزأه ؛ قاله الحسن وعكرمة والنخعي ، وبه قال الأوزاعي . وقال النخعي أيضا : يصح النفي بالقول والإشهاد فقط ، ويسقط حكم الإيلاء ؛ أرايت إن لم ينتشر للوطء ؛ قال ابن عطية : ويرجع هذا القول إن لم يبطأ إلى باب الضرر . وقال أحمد ابن حنبل : إذا كان له عذر نفي بقلبه ؛ وبه قال أبو قلابة . وقال أبو حنيفة : إن لم يقدر على الجماع فيقول : قد فئتُ إليها . قال اليكيا الطبري : أبو حنيفة يقول فيمن آلى وهو مريض وبينه وبينها مدة أربعة أشهر ، وهو رقيق أو صغيرة أو هو محبوب : إنه إذا فاء إليها بلسانه ومضت المدة والمذرقائم فذلك في صحيح ؛ والشافعي يخالفه على أحد مذهبيه . وقالت طائفة : لا يكون النفي إلا بالجماع في حال العذر وغيره ؛ وكذلك قال سعيد بن جبير ، قال : وكذلك إن كان في سفر أو سجن .

التاسعة عشرة — أوجب مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم وجمهور العلماء الكفارة على المولى إذا فاء بجماع أمراته . وقال الحسن : لا كفارة عليه ؛ وبه قال النخعي ؛ قال للنخعي : كانوا يقولون إذا فاء لا كفارة عليه . وقال إسحاق : قال بعض أهل التأويل في قوله تعالى « فان قاموا » يعني لليمين التي حثوا فيها ؛ وهو مذهب في الإيمان لبعض السابيين فيمن حلف على رأ أو تقوى أو ياب من الخير ألا يفعله فإنه يفعله ولا كفارة عليه .

والجدة له قوله تعالى : «وَإِنْ قَالُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» ، ولم يذكر كفارة ؛ وأيضاً فإن هذا يتركب على أن لنواييين ما حلف على معصية ، وترك وطء الزوجة معصية .

قلت : وقد يستدل لهذا القول من السنة بمحدث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليتركها فإن تركها كفارتها» ترجمه ابن ماجه في سننه . وسيأتي لهذا مزيد بيان في آية الإيمان إن شاء الله تعالى . وحجة الجمهور قوله عليه السلام : «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليات الذي هو خير وليكفر عن يمينه» .

الموفية عشرين — إذا كفر عن يمينه سقط عنه الإيلاء ؛ قاله علماؤنا . وفي ذلك دليل على تقديم الكفارة على الحنث في المنصب ، وذلك إجماع في مسألة الإيلاء ، ودليل على أبي حنيفة في مسألة الإيمان ؛ إذ لا يرى جواز تقديم الكفارة على الحنث ؛ قاله ابن العربي .

الحادية والعشرون — قلت : بهذه الآية استدلل محمد بن الحسن على امتناع جواز الكفارة قبل الحنث فقال : لما حكم الله تعالى للولي بإحد الحاكمين من فء أو عزيمة الطلاق ؛ فلوجاز تقديم الكفارة على الحنث لبطل الإيلاء بنفي فء أو عزيمة طلاق ؛ لأنه إن حنث لا يلزمه بالحنث شيء ، ومتى لم يلزم الحانث بالحنث شيء لم يكن مؤيلاً . وفي جواز تقديم الكفارة إسقاط حكم الإيلاء بنفي ما ذكر الله ، وذلك خلاف الكتاب .

الثانية والعشرون — قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

العزيمة : تميم العقد على الشيء ؛ يقال : عزم عليه يحزم عزماء (بالضم) وعزيمة وعزيمة وعزماء ؛ واعزم اصتراماً ، وعزمت عليك لتفعلن ، أى أقسمت عليك . قال شخير : العزيمة والعزم ما عقدت عليه نفسك من أمر أنك فاعله . والطلاق من طلق المرأة تطلق (على وزن نصر ينصر) طلاقاً ؛ فهو طالق وطالقة أيضاً . قال الأعشى :

• أيا جارتنا جنى فأتاك طالقة •

ويجوز طُلُقَت (بضم اللام) مثل عظم يعظم ؛ وأنكره الأخفش . والطلاق حل عُقْدَةِ النكاح ؛ وأصله الانطلاق . والمطلقات الخُطَيَات . والطلاق : التغية ؛ يقال : نَجَّه طالق ، ونَاقَة طالق ؛ أى مهملة قد تركت في المرعى لا قيد عليها ولا راعى . وبغير طُلُق (بضم الطاء واللام) غير مقيد ؛ والجمع أطلاق . وحُبِسَ فلان في السجن طُلُقًا أى بغير قيد . والطلاق من الإبل : التى يتركها الراعى لنفسه لا يحتبها على المراء ؛ يقال : استطلق الراعى ناقه لنفسه . فُسِّمَت المرأة الخُلّ سبيلها بما سُمِّيت به النجاة أو الناقة المهمل أمرها . وقيل : إنه مأخوذ من طَلَّقَ الفرس ، وهو ذهابه شوطا لا يمتنع ؛ فُسِّمَت المرأة الخُلَّة طالقا لا تمتنع من نفسها بعد أن كانت ممنوعة .

الثالثة والعشرون — فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ ﴾ دليل على أنها لا تطلق بمضى مدة أربعة أشهر ؛ كما قال مالك ، ما لم يقع إنشاء تطليق بعد المدة ، وأيضاً فإنه قال : «سميع» وسميع يقتضى مسموماً بعد المضى . وقال أبو حنيفة : «سميع» لإيلائه ، «علم» بعزمه الذى دل عليه مضى أربعة أشهر . وروى سبيل بن أبى صالح عن أبيه قال : سألت أتنى عشر رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يؤلى من امرأته ؛ فكلهم يقول : ليس عليه شئ ، حتى تمضى أربعة أشهر فيؤقف ؛ فإن فاء وإلا طلق . قال القاضى ابن العربى : وتحقيق الأمر أن تقدير الآية عندنا : «للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاموا» بعد انقضائها «فإن الله غفور رحيم . وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع علم» . وتقديرها عندهم : « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاموا » فيها « فإن الله غفور رحيم . وإن عزموا الطلاق » بترك الفتية فيها ، يريد مدة التربص فيها « فإن الله سميع علم » . ابن العربى : وهذا احتمال متساوٍ ، ولأجل تساويه توقفت الصحابة فيه .

قلت : وإذا تساوى الاحتمال كان قول الكوفيين أقوى قياساً على المنتهة بالشهور ، والأقراء ، إذ كل ذلك أجل ضربه الله تعالى ؛ فبأنقضائه انقطعت العصمة وأبينت من غير خلاف ، ولم يكن زوجها سبيل عليها إلا بإذنها ؛ فكذلك الإيلاء ، حتى لو نسي التى وانقضت المدة لوقع الطلاق ، والله أعلم .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ دليل على أن الأمة ملك الدين لا يكون فيها إيلاء، إذ لا يقع عليها طلاق، والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِنْهُنَّ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٢٨)

قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ فيه خمس مسائل

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ﴾ لما ذكر الله تعالى الإيلاء، وأن الطلاق قد يقع فيه بين تعالى حكم المرأة بعد التطلق . وفي كتاب أبي داود والنسائي عن ابن عباس قال في قول الله تعالى: « وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » الآية، وذلك أن الرجل كان إذا طلق أمرأته فهو أحقُّ بها وإن طلقها ثلاثاً، فنسخ ذلك وقال: «الطَّلَاقُ مَرَّتَيْنِ» الآية . والمطلقات لفظ عموم، والمراد به الخصوص في المدخول بهن، ونرجعت المطلقة قبل البناء بآية «الأحزاب»: «فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا» على ما يأتي . وكذلك الحامل بقوله: «وَأُولَاتِ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» . والمقصود من الأقراء الاستبراء بخلاف عِدَّة الوفاة التي هي عبادة . وجعل الله عِدَّة الصغيرة التي لم تحيض والكبيرة التي قد نُسئت الشهر على ما يأتي . وقال قوم: إن العموم في المطلقات يتناول هؤلاء ثم تُسحق، وهو ضعيف؛ وإنما الآية فيمن تحيض خاصة . وهو عرف النساء وغلبه معظمهن .

الثانية — قوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ التربص الانتظار؛ على ما قدمناه . وهذا خبر والمراد الأمر؛ كقوله تعالى: «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ» وجمع رجل عليه ثيابه، وحسبك درهم، أي آكتف بدرهم، هذا قول أهل اللسان من غير خلاف بينهم فيما ذكر ابن السجري . ابن العربي: وهذا باطل، وإنما هو خبر عن حكم الشرع؛ فإن وجدت مطلقة

لا يتربص فليس من الشرع، ولا يلزم من ذلك وقوع خبر الله تعالى على خلاف محضه .
وقيل : معناه ليربصن، لحذف اللام .

الثالثة — قرأ جمهور الناس « قروء » على وزن فُعول ، اللام همزة ، ويروى عن
نافع « قُرُو » بكسر الواو وشذها من غير همز . وقرأ الحسن « قَرء » بفتح القاف، وسكون
الراء والتنوين . وقروء جمع أقرؤ وأقرأء ، والواحد قرء بضم القاف ؛ قاله الأصمعي . وقال
أبو زيد : « قرء » بفتح القاف ؛ وكلاهما قال : أقرأت المرأة إذا حاضت ؛ فهي مقرئ . وأقرأت
طهرت . وقال الأخفش : أقرأت المرأة إذا صارت صاحبة حيض ؛ فإذا حاضت قلت :
قرأت ، بلا ألف . يقال : أقرأت المرأة حيضة أو حيضتين . والقرء : أقطع الخيض .
وقال بعضهم : ما بين الحيضتين . وأقرأت حاجتك : دنت ، عن الجوهرى . وقال أبو عمرو
أبن العلاء : من العرب من يُسمي الحيض قرءا ، ومنهم من يُسمي الطهر قرءا ، ومنهم من
يجمعهما جميعا ؛ فيُسمي الطهر مع الحيض قرءا ؛ ذكره النحاس .

الرابعة .— واختلف العلماء في الأقراء ؛ فقال أهل الكوفة : هي الحيض ، وهو قول
عمر وعلي وابن مسعود وأبي موسى ومجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة والسدي . وقال أهل
الجاز : هي الأطهار ؛ وهو قول عائشة وابن عمرو زيد بن ثابت والزهرى وأبان بن عثمان
والشافعي . فمن جعل القرء اسما للحيض سمّاه بذلك ؛ لاجتماع الدم في الرحم ، ومن جعله
اسما للطهر فاجتماعه في البدن ؛ والذي يحقق لك هذا الأصل في القرء الوقت ؛ يقال : هيئت
الريح لقرئها وقارئها أى لوقتها ؛ قال الشاعر :
كَيْهْتُ الْعَقْرَ عَقْرِي شَيْلُ * اِنَّا هَبْتْ لِقَارِئِهَا الزَّيَاحُ^(١)

ف قيل للبيض : وقت ، وللطهر وقت ؛ لأنهما يرجعان لوقت معلوم ؛ وقال الأعشى في الأطهار :
اِنِّي كُلَّ عَامٍ أَنْتَ جَاشِمُ غَزْوَةٍ * تَشْدُ لَأَقْصَاهَا عَزِيمُ عَزَائِكَا
مَوَدَّةٍ عِزًّا وَفِي الْحَيِّ رَفْصَةً * لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرْوِهِ نَسَائِكَا

(١) هو ما بين الحارث المذلي (عن الحسن) .

(٢) القرء : اسم موضع . وشليل : جذبرين عبد الله الجبل .

وقال آخر في الحيض :

يَأْرِبُ ذِي ضَيْضٍ عَلَى قَارِضٍ * لَهُ قُرُوءٌ كَقُرُوءِ الْحَائِضِ

يعنى أنه طمئنه فكان له دم كدم الحائض . وقال قوم : هو مأخوذ من قرء الماء في الحوض ، وهو جمعه ؛ ومنه القرآن لا اجتماع المعاني . ويقال لا اجتماع حروفه ؛ ويقال : ما قرأت الناقة سَلَى قَطْعًا ، أى لم يجتمع في جوفها ؛ وقال عمرو بن كلثوم :

ذِرَاعِي غَيْطِلٍ أَدْمَاءَ يَكِي * هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جِنِينًا

فكانت الرحم يجمع الدم وقت الحيض ، والجسم يجمعه وقت الطهر . قال أبو عمرو بن عبد البر : قول من قال : إن القرء مأخوذ من قولهم : قرئت الماء في الحوض ليس بشيء ؛ لأن القرء مهموز وهذا غير مهموز .

قلت : هذا صحيح بنقل أهل اللغة : الجوهري وغيره . واسم ذلك الماء قَرَى (بكسر القاف مقصور) . وقيل : القرء ، الخروج إما من طهر إلى حيض أو من حيض إلى طهر ؛ وعلى هذا قال الشافعي في قول : القرء الانتقال من الطهر إلى الحيض ؛ ولا يرى الخروج من الحيض إلى الطهر قرءا . وكان يلزم بحكم الاشتقاق أن يكون قرءا ، ويكون معنى قوله تعالى : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قُرُوءٍ » . أى ثلاثة أدوار أو ثلاثة انتقالات ، والمطلقة متصقة بماتلين فقط ؛ فارة تنقل من طهر إلى حيض ، وارة من حيض إلى طهر فيستقيم معنى الكلام ؛ ودلالة على الطهر والحيض جميعا فيصير الاسم مشتركا . ويقال : إذا ثبت أن القرء الانتقال فخروجهما من طهر إلى حيض غير مراد بالآية أصلا ، ولذلك لم يكن الطلاق في الحيض طلاقا سُنًّا مأمورا به ، وهو الطلاق للمعدة ؛ فان الطلاق للمعدة ما كان للطهر ، وذلك يدل على كون القرء مأخوفا من الانتقال ؛ فإذا كان الطلاق في الطهر سُنًّا تقدير الكلام : فمتن ثلاثة انتقالات ؛ فأولها الانتقال من الطهر الذي وقع فيه الطلاق ، والذي هو الانتقال من حيض إلى طهر لم يجعل قرءا ؛ لأن اللغة لا تبدل عليه ، ولكن عرفنا بدليل آخر : أن الله تعالى لم يُرد الانتقال من حيض إلى طهر ؛ فانما خرج أحدهما عن أن يكون

مراداً بقى الآخر وهو الانتقال من الطهر الى الحيض مراداً ؛ فلى هنا معناها ثلاثة استتالات ،
أولها الطهر ، وعلى هذا يمكن استيفاء ثلاثة أقرأ كاملة اذا كان الطلاق في حالة الطهر ، ولا يكون
ذلك حملاً على المجاز بوجه ما . قال البيهقي الطبري : وهذا نظر دقيق في غاية الاتجاه لمذهب
الشافعي ، ويمكن أن يذكر في ذلك سر لا يبعد فهمه من دقائق حكم الشريعة ، وهو أن
الانتقال من الطهر الى الحيض إنما جعل قرناً لدلالته على براءة الزوج ، فإن الحامل لا تحيض
في الفالب فبحيضها علم براءة زوجها . والانتقال من حيض الى طهر بخلافه ؛ فإن الحائض
يجوز أن تحبل في أعقاب حيضها ، وإذا تمادى أمد الحامل وقوى الولد انقطع دمها ؛ ولذلك
تتدح العرب بحمل نسائها في حالة الطهر ، وقد مدحت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم
بقول الشاعر :
(١)

وَمَبْرَأٌ مِنْ كُلِّ غَيْرِ حَيْضَةٍ ۖ وَصَادٍ مُرْتَمَةٍ وَدَاءٍ مُبْعِلٍ

يعنى أنت أمة لم تحمل به في بقية حيضها . فهذا ما للعناء وأهل اللسان في تأويل القرء .
وقالوا : قرأت المرأة قرناً إذا حاضت أو طهرت . وقرأت أيضاً إذا حملت . وانضجوا على
أن القرء الوقت ، فإذا قلت : والمطلقات يترصن بأنفسهن ثلاثة أوقات ، صارت الآية
مفسرة في العدد محتملة في المدة . فوجب طلب البيان للمدود من غيرها ؛ فدلينا قول الله
تعالى : « فَطَلَّقُوهُنَّ لِمَدَّتِهِنَّ » ولا خلاف أنه يؤمر بالطلاق وقت الطهر فيجب أن يكون
هو المعتبر في المدة ؛ فانه قال : « فَطَلَّقُوهُنَّ » يعنى وقتاً تمتد به ، ثم قال تعالى : « وَأَحْصُوا
أَلْسِنَةً » . يريد ما تمتد به المطلقة وهو الطهر الذى تطلق فيه ؛ وقال صلى الله عليه وسلم
لنمر : « مَرَّةً فَمُرَّاجِعْهُمَا ثُمَّ تَمْسِكُهَا حَتَّى تَطْهَرَ ثُمَّ تَحِيضُ ثُمَّ تَطْهَرُ فَتَكُ الْمُدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ
تَطْلُقَ لَهَا النِّسَاءُ » . أخرجه مسلم وغيره . وهو نص في أن زمن الطهر هو الذى يُسمى عليه ،
وهو الذى تطلق فيه النساء . ولا خلاف أن من طلق في حال الحيض لم تمتد بذلك الحيض ،
ومن طلق في حال الطهر لم تمتد عند الجمهور بذلك الطهر ؛ فكان ذلك أولى . قال أبو بكر

ابن عبد الرحمن : ما أدركنا أحدا من قهاتنا إلا يقول بقول عائشة في أن الأقراء هي الأطهار .
 فإذا طلق الرجل في طهر لم يطأ فيه اعتدت بما بقي منه ولو ساعة ولو لحظة ، ثم استقبل
 طهرا ثانيا بعد حيضة ، ثم ثلثا بعد حيضة ثالثة ؛ فإذا رأت الدم من الحيضة الثالثة حلت
 للأزواج ونرجعت من العدة . فإن طلق مطلق في طهر قد مس فيه لزمه الطلاق وقد أساء ،
 واعتدت بما بقي من ذلك الطهر . وقال الزهري : في امرأة طُلِّقت في بعض طهرها ؛ إنها
 تعتد بثلاثة أطهار سوى بقية ذلك الطهر . قال أبو عمر : لا أعلم أحدا ممن قال : الأقراء
 الأطهار يقول هذا غير ابن شهاب الزهري ؛ فإنه قال : تلتي الطهر الذي طُلِّقت فيه ثم
 تعتد بثلاثة أطهار ؛ لأن الله عز وجل يقول : « ثلاثة قروء » .

قلت : فعل قوله لا تحمل المطلقة حتى تدخل في الحيضة الرابعة ؛ وقول ابن القاسم
 ومالك وجمهور أصحابه والشافعي وعلماء المدينة : إن المطلقة إذا رأت أول نقطة من الحيضة
 الثالثة خرجت من العصة ، وهو مذهب زيد بن ثابت وعائشة وابن عمر ، وبه قال أحمد
 وابن حنبل ، وأليه ذهب داود بن علي وأصحابه . والجمعة على الزهري أن النبي صلى الله عليه
 وسلم أذن في طلاق الطاهر من غير جماع ، ولم يقل أول الطهر ولا آخره . وقال أشهب :
 لا تنقطع العصة والميراث حتى يتحقق أنه دم حيض ؛ لئلا تكون دمية دم من غير الحيض .
 واحتج الكوفيون بقوله عليه السلام لفاطمة بنت أبي حيش حين شكت إليه الدم : « إنما
 ذلك عرق فانظري فإذا أتى قروئك فلا تصلي وإذا مر القراء تطهري ثم صلي من القراء إلى القراء » .
 وقال تعالى : « وَاللَّائِي يَنْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نَسَائِكُمْ إِنْ آرَبْتُمْ فَعِدَّتْنِ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ » . فجعل
 للمأبوس منه المحيض ؛ فدل على أنه هو العدة ، وجعل العوض منه هو الأشهر إذا كان معدوما
 وقال عمر بن حفص الصحابي : عدة الأمة حيطان ، نصف عدة الحرة ، ولو قدرت على أن
 تجعلها حيضة ونصفا لفعلت ؛ ولم ينكر عليه أحد . فدل على أنه إجماع منهم ؛ وهو قول
 حشرة من الصحابة منهم الخلفاء الأربعة ، وحسبك ما قالوا لا وقوله تعالى : « وَالْمُطَلَّقَاتُ
 يَرْجِعْنَ بِأَقْبَمِينَ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » يدل على ذلك ؛ لأن المعنى يترجعن ثلاثة أقراء ، يريد كرامل ،

وهذا لا يمكن أن يكون إلا على قولنا بأن الأقراء الحيض ؛ لأن من يقول : إنه الطهر يجوز أن تعتد بطهرين وبعض آخر ؛ لأنه إذا طلق حال الطهر اعتدت عنده ببقية ذلك الطهر قرأ . وعندنا استأنف من أول الحيض حتى يصدق الاسم ؛ فإذا طلق الرجل المرأة في طهر لم يطل فيه استقبلت حيضة ثم حيضة ثم حيضة ؛ فإذا اغتسلت من الثالثة نرجعت من العدة .

قمت : هذا يرده قوله تعالى : « تَخْرَجُ عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ » فأنيت الهاء في « ثمانية أيام » ، لأن اليوم مذكر وكذلك القرء ؛ فدل على أنه المراد . ووافقنا أبو حنيفة على أنها إذا طلقت حائضا أنها لا تعتد بالحیضة التي طلقت فيها ولا بالطهر الذي بعدها ، وإنما تعتد بالحيض الذي بعد الطهر . وعندنا تعتد بالطهر ، على ما بيناه . وقد استجاز أهل اللغة أن يعبروا عن البعض باسم الجميع ؛ كما قال تعالى : « أَلْحِجْ أَشْهُرَ مَعْلُومَاتٍ » والمراد به شهران وبعض الثالث ؛ فكذلك قوله : « ثلاثة قروء » . والله أعلم . وقال بعض من يقول بالحيض : إذا طهرت من الثالثة انقضت العدة بعد الفسل وبطلت الرجعة ؛ قاله سعيد بن جبير وطائوس وابن شبرمة والأوزاعي . وقال شريك : إذا فزلت المرأة في الفسل عشرين سنة فزوجها عليها الرجعة مالم تمتسل . وروى عن إسحاق بن راهوية أنه قال : إذا طمعت المرأة في الحيضة الثالثة ماتت وانقطعت رجعة الزوج ، إلا أنها لا يحمل لها أن تروج حتى تمتسل من حيضتها . وروى نحوه عن ابن عباس ؛ وهو قول ضعيف ، بدليل قول الله تعالى : « إِذَا بَلَغَتِ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ » على ما يأتي . وأما ما ذكره الشافعي من أن نفس الانتقال من الطهر إلى الحيضة يسمى قرأ فأنادته تقصير العدة على المرأة ، وذلك أنه إذا طلق المرأة في آخر ساعة من طهرها فدخلت في الحيضة عدته قرأ ، وبفس الانتقال من الطهر الثالث انقطعت العصة وحلت . والله أعلم .

الخامسة - والجمهور من العلماء على أن عدة الأمة التي تحيض من طلاق زوجها حيفتان . وروى عن ابن سيرين أنه قال : ما أرى عدة الأمة إلا كعدة الحرة ، إلا أن

تكون مضت في ذلك سنة؛ فان السنة أحق أن تتبع . وقال الأصم عبد الرحمن بن كيسان
وداود بن علي وجماعة أهل الظاهر: إن الآيات في عدة الطلاق والوفاة بالأشهر والأقراء عامة
في حق الأمة والحرة؛ فعدة الحرة والأمة سواء . واحتج الجمهور بقوله عليه السلام :
« طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان » . رواه ابن جريج عن عطاء عن مظاهر بن أسلم عن
أبيه عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طلاق الأمة
تطليقتان وقرؤها حيضتان » فأضاف إليها الطلاق والمدة جميعا ؛ إلا أن مظاهر بن أسلم انفرد
بهذا الحديث وهو ضعيف . وروى عن ابن عمر : أنهما رقي نقص طلاقه؛ وقالت به فرقة
من العلماء .

قوله تعالى : (وَلَا يَحِلُّ لِمَنْ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامَيْهِ) فيه سالتان :

الأولى - قوله تعالى : (وَلَا يَحِلُّ لِمَنْ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامَيْهِ) أى من
الحيض ؛ قاله عكرمة والزهرى والنخعي . وقيل : الحمل ؛ قاله عمر وأبو عباس . وقال
بجاهد : الحيض والحمل معا ؛ وهذا على أن الحمل تحيض . والمعنى المقصود من الآية
أنه لما دار أمر المرأة على الحيض والأطهار ولا اطلاع طبعها إلا من جهة النساء جعل
القول قولها إذا ادعت انقضاء العدة أو عدمها ، وجعلن مؤتمنات على ذلك ؛ وهو مقتضى
قوله تعالى : « وَلَا يَحِلُّ لِمَنْ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامَيْهِ » . وقال سليمان بن يسار :
ولم تؤمر أن تفتح النساء فتتظر إلى فروجهن ، ولكن وكل ذلك إليهن إذ كن مؤتمنات .
ومعنى التهي عن الكتمان التهي عن الإضرار بالزوج وإذهاب حقه ؛ فإذا قالت المطلقة :
حضت ؛ وهى لم تحض ، ذهبت بحقه من الاجتماع . وإذا قالت : لم أحض ؛ وهى قد
حاضت ، ألزمته من النفقة ما لم يلزمه فأضرت به ، أو قصدت بكتبتها في حق الحيض ألا ترجع
حتى تنقضي السنة ويقطع الشرع حقه . وكذلك الحامل تكتم الحمل ، لتقطع حقه من
الارتجاع . قال قتادة : كانت عاداتهن في الجاهلية أن يكتمن الحمل ليكتمن الولد بالزوج
الجديد ، ففى ذلك نزلت الآية . وحكى أن رجلا من أشجع أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم

قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي طَلَقْتُ أَمْرَأَتِي وَهِيَ حَبْلٌ ، وَلَسْتُ أَمْنُ أَنْ تَرْجِعَ فَيَصِيرُ وَلَدِي لغيري ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ ، وَرَدَّتْ أَمْرَأَةُ الْأَنْجَمِيِّ عَلَيْهِ .

الثانية - قال ابن المنذر : وقال كُلُّ مَنْ حَفِظَتْ عَنْهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : إِذَا قَالَتِ الْمَرْأَةُ فِي عَشْرَةِ أَيَّامٍ : قَدْ حَضَّتْ ثَلَاثَ حَيَضٍ وَاقْتَضَتْ عِدَّتِي إِنَّمَا لَا تَصَلُّقَ وَلَا يَقْبَلُ ذَلِكَ مِنْهَا ، إِلَّا أَنْ تَقُولَ : قَدْ اسْقَطْتُ سَقَطًا قَدْ أَتَيْنَا حَافَهُ . وَاخْتَلَفُوا فِي الْمُدَّةِ الَّتِي تَصَلُّقُ فِيهَا الْمَرْأَةُ ؟ قَالَ مَالِكٌ : إِذَا قَالَتْ اقْتَضَتْ مِدَّتِي فِي أَمِدٍ تَقْضِي فِي مِثْلِهِ الْعِدَّةَ قَبْلَ قَوْلِهَا ، فَإِنْ أَخْبَرَتْ بِاقْتِضَاءِ الْعِدَّةِ فِي مُدَّةٍ تَعَمُّ ثَلَاثًا فَيُؤَلَّانِ . قَالَ فِي الْمُدَّةِ : إِذَا قَالَتْ حَضَّتْ ثَلَاثَ حَيَضٍ فِي شَهْرٍ صَدَّقَتْ إِذَا صَدَّقَهَا النِّسَاءُ ، وَبِهِ قَالَ شُرَيْحٌ ، وَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ : قَالُونَ ؟ أَيْ أَصَبْتُ وَأَحْسَنْتُ . وَقَالَ فِي كِتَابِ عُمَرَ : لَا تَصَلُّقَ إِلَّا فِي شَهْرٍ وَنِصْفٍ . وَنَحْوَهُ قَوْلُهُ أَبِي ثَوْرٍ ، قَالَ أَبُو ثَوْرٍ : أَقَلُّ مَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي سَبْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَذَلِكَ أَنْ أَقَلَّ الطَّهَرُ خَمْسَةَ عَشْرَ يَوْمًا ، وَأَقَلُّ الْحَيْضِ يَوْمٌ . وَقَالَ الثَّعَالِيُّ : لَا تَصَلُّقَ فِي أَقَلِّ مِنْ سِتِينَ يَوْمًا ، وَقَالَ بِهِ الشَّافِعِيُّ .

قوله تعالى : (إِنْ كُنْ يَوْمُنَ بَاقِيَةً يَوْمَ الْآخِرِ) هذا وعيدٌ عظيمٌ شديدٌ لتأكيد تحريم الكتابان ، وإيجابُ لأداء الأمانة في الإخبار عن الرِّحْمِ بحقيقة ما فيه . أَيْ فَيَسِيلُ الْمُؤْمِنَاتُ أَلَا يَكْتُمْنَ الْحَقَّ ، وَلَيْسَ قَوْلُهُ : « إِنْ كُنْ يَوْمُنَ بَاقِيَةً » عَلَى أَنَّهُ أَسْبَحَ لِمَنْ لَا يُؤْمِنُ أَنْ يَكْتُمَ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَحِلُّ لِمَنْ لَا يُؤْمِنُ ، وَإِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِهِ : إِنْ كُنْتَ أَحَى فَلَا تَظْلِمْنِي ، أَيْ فَيَبْغِي أَنْ يَجْزِكَ الْإِيمَانُ عَنْهُ ؛ لِأَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ فِعْلِ أَهْلِ الْإِيمَانِ .

قوله تعالى : (وَبُوءْتُمُنَّ أَهْلَ بَيْتِكُنَّ) فِيهِ إِحْدَى عَشْرَةَ مَسْأَلَةً :

الأولى - قوله تعالى : (وَبُوءْتُمُنَّ) الْبُعُولَةُ جَمْعُ الْبُعُولَةِ ، وَهُوَ الزَّوْجُ ؛ ثُمَّ بَعْلًا لِمَوْلَاهُ عَلَى الزَّوْجَةِ بِمَا قَدْ مَلَكَ مِنْ زَوْجِيَّتِهَا ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « أَتَدْعُونَ بَعْلًا » أَيْ رَبًّا ؛ لِمَوْلَاهُ فِي الرِّبَوِيَّةِ ؛ يُقَالُ : بَعَلَ وَبَعُولَةً ؛ كَمَا يُقَالُ فِي جَمْعِ الذَّكَرِ : ذَكَرُوا ذُكُورًا ، وَفِي جَمْعِ الْفِعْلِ : غَلَّ وَغُلُولًا ، وَهَذِهِ أَلْهَاءُ زَائِكَةٌ مُؤَكَّدَةٌ لِتَأْيِثِ الْجَمَاعَةِ ، وَهُوَ شَادُّ لَا يَفَاسُ عَلَيْهِ ، وَحَسْبُ فِيهَا

السباع ؛ فلا يقال في لعب : لعوبة . وقيل : هي هاء تأنيث دخلت على فعول . والبعولة أيضا مصدر البعل . وبعل الرجل يبعل (مثل منع يمنع) بَعُولَةً ، أى صار بعلا . والمباعدة والبعال : الجماع ؛ ومنه قوله عليه السلام لأيام التشريق : "إنها أيام أكل وشرب وبعال" وقد تقدم . فالرجل يعل المرأة ، والمرأة يعلته . وباعل مباعدة إذا باشرها . وفلان بعل هذا ؛ أى مالكة وربة . وله حامل كثيرة تأتي إن شاء الله تعالى .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ أَحَقُّ رَدِّهِنَّ ﴾ أى بمراجعتن ؛ فللمراجعة على ضربين : تهرأجة في العدة على حديث ابن عمر . ومراجعة بعد العدة على حديث معقل ؛ وإذا كان هذا فيكون في الآية دليل على تخصيص ما شمله العموم في التسميات ؛ لأن قوله تعالى : «وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ» عام في المطلقات ثلاثا ؛ وفيها دونها لا خلاف فيه . ثم قوله : «وبعولتهن أحق» حكم خاص فيمن كان طلاقها دون الثلاث . وأجمع العلماء على أن الحرة إذا طلق زوجها الحرة وكانت مدخولا بها تطليقة أو تطليقتين أنه أحق برجعتهما ما لم تنقض عتتها وإن كرهت المرأة . فإن لم يراجعها المطلق حتى انقضت عتتها نهى أحق بنفسها بتصير أجنبية منه ؛ لا تحمل له إلا بخطة ونكاح مستأنف بولي وإشهاد ، ليس على سنة المراجعة . وهذا إجماع من العلماء . قال المنهب : وكل من راجع في العدة فإنه لا يلزمه شيء من أحكام النكاح غير الإشهاد على المراجعة فقط . وهذا إجماع من العلماء ؛ لقوله تعالى : «فَإِذَا بَلَغَ الْإِنْسَانُ أَمْسُكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ» فذكر الإشهاد في الرجعة ولم يذكره في النكاح ولا في الطلاق . قال ابن المنذر : وفيما ذكرناه من كتاب الله مع إجماع أهل العلم كفاية من ذكر ما روى عن الأوائل في هذا الباب ؛ والله تعالى أعلم .

الثالثة - واختلفوا فيما يكون به الرجل مراجعا في العدة ؛ فقال مالك : إذا وطئها في العدة وهو يريد الرجعة وجعل أن يشهد فهي رجعة . وينبغي للمرأة أن تمنعه الوطء حتى يشهد ؛ به قال إسماعيل ، لقوله عليه السلام : "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى" .

فإن وطئ في العدة لا ينوي الرجعة فقال مالك : يراجع في العدة ولا يطأ حتى يستبرأ من مائه الفاسد . قال ابن القاسم : فإن انقضت عقتها لم ينكحها هو ولا غيره في بقية مدة الاستبراء ؛ فإن فعل فسُخ نكاحه ، ولا يتأبد تحررها عليه لأن الماء ماؤه . وقالت طائفة : إذا جامعها فقد راجعها ؛ هكذا قال سعيد بن المسيب والحسن البصري وابن مسيرين والزهرى وعطاء وطاوس والثوري . قال : ويشهد ؛ وبه قال أصحاب الرأي والأوزاعي وابن أبي ليلى ، حكاه ابن المنذر . وقال أبو عمر : وقد قيل : وطؤه مراجعة على كل حال ، نواها أو لم ينوها ؛ ويروى ذلك عن طائفة من أصحاب مالك ، واليه ذهب الآيت . ولم يختلفوا فيمن باع جاريته بالخيار أن له وطأها في مدة الخيار ، وأنه قد ارتجعها بذلك إلى ملكه ، واختار نقض البيع بفعله ذلك . وللطقة الرجعية حكم من هذا . والله أعلم .

الرابعة - من قبل أو باشر ينوي بذلك الرجعة كانت رجعة ، وإن لم ينو بالقبلة والمباشرة الرجعة كان آثما ، وليس بمراجع . والثالثة أن يشهد قبل أن يطأ أو قبل أن يقبل أو يباشر . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن وطئها أو لمسها بشهوة أو نظر إلى فرجها بشهوة فهي رجعة ؛ وهو قول الثوري ، وينبغي أن يشهد . وفي قول مالك والشافعي وإسحاق وأبي عبيد وأبي ثور لا يكون رجعة ؛ قاله ابن المنذر . وفي « المتقى » قال : ولا خلاف في صحة الاجتماع بالقول ؛ فأما بالفعل نحو الجماع والقبلة فقال القاضي أبو محمد : يصح بها وبساتر الاستمتاع للذة . قال ابن المأز : ومثل الجمعة للذة ، أو أن ينظر إلى فرجها أو ما قارب ذلك من محاسنها إذا أراد بذلك الرجعة ؛ خلافا للشافعي في قوله : لا تصح الرجعة إلا بالقول ؛ وحكاه ابن المنذر عن أبي ثور وجابر بن زيد وأبي قلابة .

الخامسة - قال الشافعي : إن جامعها ينوي الرجعة أو لا ينوي فليس برجعة ، ولما طبع مهر مثلها . وقال مالك : لا شيء لها ؛ لأنه لو ارتجعها لم يكن عليه مهر ، فلا يكون الوطء دون الرجعة أقوى بالمهر من الرجعة . وقال أبو عمر : ولا أعلم أحدا أوجب عليه مهر المثل غير الشافعي ، وليس قوله بالقوى ؛ لأنها في حكم الزوجية وتره وربتها ، فكيف يجب

مهر المثل في وطء امرأة حكما في أكثر أحكامها حكم الزوجة ! إلا أن الشبهة في قول الشافعي قوية ؛ لأنها عليه محزمة إلا برجعة لها . وقد أجمعوا على أن الموطوءة بشبهة يجب لها المهر ، وحسبك بهذا !

السادسة - واختلفوا هل يسافر بها قبل أن يرتجىها ، فقال مالك والشافعي : لا يسافر بها حتى يراجعها . وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه إلا زُفر فإنه روى عنه الحسن ابن زياد أن له أن يسافر بها قبل الرجعة ، وروى عنه عمرو بن خالد : لا يسافر بها حتى يراجع .

السابعة - واختلفوا هل له أن يدخل عليها ويرى شيئا من عاسنها ، وهل تزين له وتُتَشَرَّفُ^(١) ، فقال مالك - لا يخلو معها ، ولا يدخل عليها إلا بإذن ، ولا ينظر إليها إلا عليها ثيابها ، ولا ينظر إلى شعرها ، ولا بأس أن يأكل معها إذا كان معها غيرها ، ولا بيت معها في بيت ويتقل عنها . وقال ابن القاسم : رجع مالك عن ذلك فقال : لا يدخل عليها ولا يرى شعرها ، ولم يختلف أبو حنيفة وأصحابه في أنها تزين له وتستطيب وتلبس الخلي وتُتَشَرَّفُ ، وعن سعيد بن المسيب قال : إذا طلق الرجل امرأته تطليقة فإنه يستأذن عليها ، وتلبس ما شئت من الثياب والخلي ؛ فإن لم يكن لها إلا بيت واحد فليجلا بينهما ستر ، ويسلم إذا دخل ؛ ونحوه عن قتادة ، ويُشعرها إذا دخل بالنعيم والتنجس . وقال الشافعي : المطلقة طلاقا نكح رجعتا محزمة على مطلقها تحريم المبتوتة حتى يراجع ، ولا يراجع إلا بالكلام ؛ حل ما تقدم .

الثامنة - أجمع العلماء على أن المطلق إذا قال بعد انقضاء العدة : إني كنت راجعتك في العدة وأنكرت أن القول قولاً مع يمينها ، ولا سبيل له إليها ؛ غير أن الثمان كان لا يرى يميناً في النكاح ولا في الرجعة ؛ وخالفه أصحابه فقالوا كقول سائر أهل العلم . وكذلك إذا كانت الزوجة أمة وأختلف المولى والحارية ، والزواج يدعى الرجعة في العدة بعد انقضاء العدة

(١) التشرّف : التطلع إلى الشيء والتفكر فيه .

وأنكرت فالقول قول الروجة الأئمة وإن كذبها مولاهم ؛ هذا قول الشافعي وأبي ثور والنعمان .
وقال يعقوب ومجد : القول قول المولى وهو أحق بها .

التاسعة — لفظ الرّد يقتضى زوال العصمة ؛ إلا أن علماءنا قالوا : إن الترجمة محزمة الوطء ؛ فيكون الرّد عائدا إلى الحل . وقال الليث بن سعد وأبو حنيفة ومن قال بقولهما — فى أن الترجمة محملة الوطء ، وإن الطلاق فأندته تنقيص العدد الذى جعل له خاصة ، وأن أحكام الزوجية باقية لم يخل منها شيء — قالوا : وأحكام الزوجية وإن كانت باقية فالمرأة ما دامت فى العدة سائرة فى سبيل الزوال باقضاء العدة ؛ فالرجعة ردة عن هذه السبيل التى أخذت المرأة فى سلوكها ، وهذا رّد مجازى ، والرّد الذى حكاه به رّد حقيقى ؛ فإن هناك زوال مستنجز وهو تحريم الوطء ؛ فوقع الرّد عنه حقيقة ، والله أعلم .

العاشرة — لفظ «أحق» يطلق عند تعارض حقين ، ويرجح أحدهما ؛ فالمعنى حق الزوج فى مدة الترتب أحق من حقها بنفسها ؛ فإنها إنما تملك نفسها بعد انقضاء العدة ؛ ومثل هذا قوله عليه السلام : «الائمه أحق بنفسها من وليها» . وقد تقدم .

الحادية عشرة — الرجل مندوب إلى المراجعة ، ولكن إذا قصد الإصلاح بإصلاح حاله معها ، وإزالة الوحشة بينهما ؛ فأما إذا قصد الإضرار وتطويل العدة والقطع بها عن الخلاص من ربة النكاح فعجزم ؛ بقوله تعالى : «وَلَا تُكْسِرُوهُنَّ ضَرَارًا لِّتَعْتَدُوا» ثم من فعل ذلك فالرجعة صحيحة ، وإن ارتكب النهى وظلم نفسه ؛ ولو علمنا نحن ذلك المقصد طلقنا عليه .
قوله تعالى : (وَلَمَنْ مِّثْلَ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَعْرُوفِ) فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَلَمَنْ) أى لمن من حقوق الزوجية على الرجال مثل ما للرجال عليهن ؛ ولهذا قال ابن عباس : إني لأثرين لأمرأتى كما تثرين لى ، وما أحب أن استنظف كل حق الذى لى عليها فمستوجب حقها الذى لها على ؛ لأن الله تعالى قال : «وَلَمَنْ مِّثْلَ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَعْرُوفِ» أى زينة من غير ما تم . وعنه أيضا : أى لمن من حسن الصحبة

والعشرة بالمعروف على أزواجهن مثل الذي عليهن من الطاعة فيما أوجبه عليهن لأزواجهن .
 وقيل : إن لمن على أزواجهن ترك مضامرتين كما كان ذلك عليهن لأزواجهن ؛ قال الطبري :
 وقال ابن زيد : تتقون الله فيهن كما عليهن أن يتقين الله عز وجل فيكم ؛ والمعنى متقارب .
 والآية تعم جميع ذلك من حقوق الزوجة .

الثانية - قول ابن عباس : « إني لأكثرين لأمرأتين ^(١) » قال العلماء : أما زينة الرجال
 فملي تفاوت أحوالهم ؛ فإنيهم يعملون ذلك على اللبى والوفاق ، فربما كانت زينة تليق في وقت
 ولا تليق في وقت ، وزينة تليق بالشباب ، وزينة تليق بالشيوخ ولا تليق بالشباب ؛ الا ترى
 أن الشيخ والكهل اذا حَفَّ شاربه يلق به ذلك وزانه ، والشاب اذا فصل ذلك شمع ومقت
 لأن الهبة لم تفر بعد ، فاذا حَفَّ شاربه في أول ما خرج وجهه شمع ، واذا وقرت لحينه
 وحَفَّ شاربه زانه ذلك . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أمرني ربي
 أن أعتيَ لطيفي وأحنيتي شاربى » . وكذلك في شأن الكسوة ؛ ففي هذا كله ابتغاء الحقوق ؛ فانما
 يعمل اللائق والوفاق ليكون عند امرأته في زينة تسرها ويعفها عن غيره من الرجال . وكذلك
 الكمل من الرجال منهم من يليق به ومنهم من لا يليق به . فاما الطيب والسواك والخلال والزمى
 بالفرن وفضول الشعر والتطهير وقلم الأظفار فهو بين موافق للجميع . والخضاب للشيوخ والنظام
 للجميع من الشباب والشيوخ زينة ؛ وهو حلى الرجال على ما يأتى بيانه في سورة « النحل » .
 ثم عليه أن يتوحي أوقات حاجتها الى الرجال فيعفها ويغنيها عن التطلع الى غيره . وإن رأى
 الرجل من نفسه عجزا عن إقامة حقها في مضجعتها أخذ من الأدوية التي تريد في باهه وتقوى
 شهوته حتى يعفها .

الثالثة - قوله تعالى : (وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهَا دَرَجَةٌ) أى منزلة . ومندرجة الطريق :
 قارعهه ؛ والأصل فيه الطى ؛ يقال : درجوا ، أى طَوَّأُوا عَمْرَهُمْ ، ومنها الدرجة التي يرتقى عليها .
 ويقال : رجلٌ بين التزلة ، أى القوة . وهو أرجل الرجلين ، أى أقوامها . وفرس رجيل ،

أى قَوِيٍّ؛ ومنه الرَّجُلُ، لقُوَّتُها على المشي. فزيادة درجة الرجل بمقله وقُوَّتُه على الإخاق وبالذِّية والميراث والجهاد. وقال حُمَيْدٌ: التَّرجَةُ الحَيَّةُ؛ وهذا إن صحَّ عنه فهو ضعيف لا يقتضيه لفظ الآية ولا معناها. قال ابن العربي: فَطَوَّبَى لِمَنْ أَمْسَكَ عَمَّا لَا يَعْلَمُ، وخصوصاً في كتاب الله تعالى! ولا يخفى على لبيب فضل الرجال على النساء؛ ولو لم يكن إلا أن المرأة خُلقت من الرجل فهو أصلها. وله أن يمنعها من التصرف إلا بإذنه؛ فلا تصوم إلا بإذنه ولا تنجح إلا معه. وقيل: التَّرجَةُ الصَّدَاقُ؛ قاله الشعبي. وقيل: جواز الأُذُنِ. وعلى الجملة فدرجة تقتضى التفضيل، وتُشعر بأن حقَّ الزوج عليها أوجبُّ من حقِّها عليه؛ ولهذا قال عليه السلام: "ولو أمرتُ أحداً بالسجود لغير الله لأمرتُ المرأةَ أن تسجد لزوجها". وقال ابن عباس: الدرجة إشارة إلى حصِّ الرجال على حسن العشرة، والتوسع للنساء في المال والخلق؛ أى أن الأفضل يبنى أن يتعامل على نفسه. قال ابن عطية: وهذا قول حسنٌ بارعٌ. قال المساوردي: يحتمل أنها في حقوق النكاح؛ له رفع العقد دونها؛ ويلزمها إجابته إلى الفراش، ولا يلزمه إجابتها.

قلت: ومن هذا قوله عليه السلام: "أَيُّأُ أَمْرَأَةٍ دَعَاها زَوْجُهَا إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ عَلَيْهِ لَمَتَهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ". (وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ) أى منيع السلطان لا معترض عليه. (حَكِيمٌ) أى عالم مصيب فيما يفعل.

قوله تعالى: أَلْطَلَّقْتُمُ مَرَّتَيْنِ فَمَا سَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِجٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقْبِيَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقْبِيَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى: (الطَّلَاقُ مَرَّتَيْنِ فَمَا سَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِجٍ بِإِحْسَانٍ) فيه سبع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ((الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ)) ثبت أن أهل الجاهلية لم يكن عندهم للطلاق عدد، وكانت عندهم العدة معلومة مقدرة؛ وكان هذا في أوّل الاسلام برهة، يطلق الرجل أمرأته ما شاء من الطلاق؛ فإذا كادت تحلّ من طلاقه راجعها ما شاء؛ فقال رجل لأمرأته على عهد النبي صلى الله عليه وسلم: لا آويك ولا أدعك تخلين؛ قالت: وكيف؟ قال: أطلقك فإذا دنا مضى عتقك راجعتك. فشكت المرأة ذلك إلى عائشة؛ فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية بيّناً لعدد الطلاق الذي لارء فيه أن يرجع دون تجديد مهر ووليّ ونسخ ما كانوا عليه. قال معناه عروة بن الزبير وقناة وابن زيد وغيرهم. وقال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم: المراد بالآية التبريف بسنة الطلاق؛ أى من طلق اثنتين فليتق الله في الثالثة، فإما تركها غير مظلومة شيئاً من حقها، وإما أسكها محسناً عشرتها؛ والآية تتضمن هذين المعنيين.

الثانية - الطلاق هو حلّ العصمة المنعقدة بين الأزواج بالفاظ مخصوصة. والطلاق مباح بهذه الآية وبغيرها، وبقوله عليه السلام في حديث ابن عمر: "فإن شاء أمسك وإن شاء طلق" وقد طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة ثم راجعها؛ فخرجه ابن ماجه. وأجمع العلماء على أن من طلق أمرأته طاهرًا في طهر لم يمسها فيه أنه مطلق للسنة وللعدة التي أمر الله تعالى بها، وأن له الرجعة إذا كانت مدخولاً بها قبل أن تنقضى عتبتها؛ فإذا انقضت فهو خاطب من الخطأب. فدلّ الكتاب والسنة وإجماع الأمة على أن الطلاق مباح غير محظور. قال ابن المنذر: وليس في المنع خبر يثبت.

الثالثة - روى الدارقطني: «حدثني أبو العباس محمد بن موسى بن عليّ التولايّ ويعقوب بن ابراهيم قالاً حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا إسماعيل بن عيَّاش عن حميد بن مالك القميّ عن مكحول عن معاذ بن جبل قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا معاذ ما خلق الله شيئاً على وجه الأرض أحبّ إليه من العتاق ولا خلق الله تعالى شيئاً على وجه الأرض أبغض إليه من الطلاق فإذا قال الرجل لمولوك أنت حرّ إن شاء الله فهو حرّ

ولا استثناء له وإذا قل الرجل لامرأته: أنت طالق إن شاء الله فله استثناءه ولا طلاق عليه .
 حدثنا محمد بن موسى بن عليّ حدثنا حميد بن الربيع حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا إسماعيل بن
 عياش بإسناده نحوه . قال حميد قال لي يزيد بن هارون : وأى حديث لو كان حميد بن مالك
 اللخميّ معروفاً ! قلت : هو جدّي ! قال يزيد : سرّرتي سرّرتي ، الآن صار حديثاً ! . قال
 ابن المنذر : ومن رأى الاستثناء في الطلاق طاوس وحاد والشافعي وأبو ثور وأصحاب الرأي .
 ولا يجوز الاستثناء في الطلاق في قول مالك والأوزاعي ، وهو قول الحسن وقادة في الطلاق
 خاصة . قال : وبالقول الأول أقول .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا سَأَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ ابتداء ، والخبر أمثل أو أحسن ؛
 ويصح أن يرتفع على ابتداء خبر محذوف ؛ أي فعليكم إمساك بمعروف . أو قالوا يجب عليكم
 إمساك بما يعرف أنه الحق . ويجوز في غير القرآن « فإمساكاً » على المصدر . ومعنى
 « بإحسان » أي لا يظلمها شيئاً من حقها ، ولا يتعدى في قول . والإمساك : خلاف الإطلاق .
 والتسريح : إرسال الشيء ؛ ومنه تسريح الشعر ؛ ليخلص البعض من البعض . وتسريح الماشية :
 أرسلها . والتسريح يحتمل لفظه معنيين : أحدهما — تركها حتى تتم السنة من الطلقة الثانية ،
 وتكون أملاكاً لنفسها ، وهذا قول السدي والضحاك . والمعنى الآخر أن يطلقها نائلة فيسرحها ؛
 هذا قول مجاهد وعطاء وغيرهما ، وهو أصح لوجوه ثلاثة :

أحدها — ما رواه البخاريّ عن أنس أن رجلاً قال : يا رسول الله ، قال الله تعالى :
 « الطلاق مرتان » فلم صار ثلاثاً ؟ قال : « إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان — في رواية —
 هي الثالثة » . ذكره ابن المنذر .

الثاني — أن التسريح من ألفاظ الطلاق ؛ لا ترى أنه قد قرئ « وإن عزموا السراح » .
 الثالث — أن قل فعلياً يعطى أنه أحدث فعلاً مكثراً على الطلقة الثانية ؛ وليس في الترك
 إحداث فعل يعبر عنه بالتفصيل . قال أبو عمر : « وأجمع العلماء على أن قوله تعالى : « أو تسريح
 بإحسان » هي الطلقة الثالثة بعد الطلقتين ؛ وإياها عني بقوله تعالى : « فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا
 تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَدِّ حَتَّىٰ تَسْبَحَ زَوْجًا غَيْرَهُ » . وأجمعوا على أن من طلق امرأته طليقة أو طليقتين فله

مراجعتها؛ فإن طلقها فلا تأمحل له حتى تنكح زوجا غيره . فكان هذا من حكم القرآن الذي لم يختلف في تأويله . وقد روى من أخبار العلول مثل ذلك أيضا : حدثنا سعيد بن نصر قال حدثنا قاسم بن أصبغ قال حدثنا محمد بن وضاح قال حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال حدثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن شمع عن أبي رزين قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، أ رأيت قول الله تعالى : « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » فإن الثالثة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » . ورواه الثوري وغيره عن إسماعيل بن شمع عن أبي رزين مثله .

قلت : وذكر اليعكبي الطبري هذا الخبر وقال : إنه غير ثابت من جهة النقل؛ ورجح قول الضحاك والسدي وأن الطلقة الثالثة إنما هي مذكورة في مساق الخطاب في قوله تعالى : « فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ » . فالثالثة مذكورة في صلة هذا الخطاب ، مفيدة للينونة الموجبة للتحريم إلا بعد زوج ؛ فوجب حمل قوله : « أو تسريح بإحسان » على فائدة مجمدة ، وهو وقوع الينونة بالثنتين عند انقضاء العدة ، وعلى أن المقصود من الآية بيان عدد الطلاق الموجب للتحريم ، ونسخ ما كان جائزا من إيقاع الطلاق بلا عدد محصور ؛ فلو كان قوله : « أو تسريح بإحسان » هو الثالثة لما أبان عن المقصد في إيقاع التحريم بالثلاث ؛ إذ لو اقتصر عليه لما دل على وقوع الينونة المحزمة بها إلا بعد زوج ؛ وإنما علم التحريم بقوله تعالى : « فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ » . فوجب ألا يكون معنى قوله : « أو تسريح بإحسان » الثالثة ، ولو كان قوله : « أو تسريح بإحسان » بمعنى الثالثة كان قوله عقيب ذلك : « فَإِنْ طَلَّقَهَا » الرابعة ؛ لأن الفاء للتعقيب ، وقد اقتضى طلاقا مستقبلا بعد ما تقدم ذكره ؛ فثبت بذلك أن قوله : « أو تسريح بإحسان » هو تركها حتى تنقضي عدتها .

الخامسة - ترجم البخاري على هذه الآية « باب من أجاز الطلاق الثلاث بقوله .

تعالى : الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » . وهنا إشارة منه إلى أن هذا

(١) في بعض الأصول : « القرمزي » والصواب عن كتاب « الاسطرلاب » لأبي عمر بن عبد البر .

التصديق إنما هو نسبة لم، فن حقيق على نفسه لزمه . قال علماءنا : وافق أئمة الفتوى على لزوم إيقاع الطلاق الثلاث في كلمة واحدة، وهو قول جمهور السلف . وشذ طائوس وبعض أهل الظاهر إلى أن طلاق الثلاث في كلمة واحدة يقع واحدة، ويروي هذا عن محمد بن إسحاق والجراح بن أرطاة . وقيل عنهما : لا يلزم منه شيء، وهو قول مقاتل . ويمحي عن داود أنه قال لا يقع . والمشهور عن الجراح بن أرطاة وجمهور السلف والأئمة أنه لازم واقع ثلاثا . ولا فرق بين أن يقع ثلاثا عتمة في كلمة أو متفرقة في كلمات، فأما من ذهب إلى أنه لا يلزم منه شيء، فاحتج بدليل قوله تعالى : « وَأَمْطَلْنَائُ بَرِّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَ قُرُوءٍ » . وهذا يعم كل مطلقة إلا ما خص منه، وقد تقدم . وقال : « الطلاق مرتان » والثالثة « فإسالك بمعروف أو تسريح بإحسان » . ومن طلق ثلاثا في كلمة فلا يلزم، إذ هو غير مذكور في القرآن . وأما من ذهب إلى أنه واقع واحدة فاستدل بأحاديث ثلاثة : أحدها — حديث ابن عباس من رواية طائوس وأبي الصهباء وعكرمة . وثانيها — حديث ابن عمر على رواية من روى أنه طلق امرأته ثلاثا ، وأنه عليه السلام أمره برجعتهما واحتسبت له واحدة . وثالثها — أن ركانة طلق امرأته ثلاثا فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم برجعتهما . والرجعة تقتضي وقوع واحدة . والجواب عن الأحاديث ما ذكره الطحاوي أن سعيد بن جبير وبجاءها وعطاء وعمر بن دينار ومالك بن الحويرث ومحمد بن إياس بن البكر والنعمان ابن أبي عياش رووا عن ابن عباس فيمن طلق امرأته ثلاثا أنه قد عصى ربه وبانت منه أمراته، ولا ينكحها إلا بعد زوج . وفيما رواه هؤلاء الأئمة عن ابن عباس مما يوافق الجماعة ما يدل على وجوب رواية طائوس وغيره، وما كان ابن عباس يخالف الصحابة إلى رأى نفسه . قال ابن عبد البر : ورواية طائوس وهم وظلت لم يترج عليها أحد من فقهاء الأئمة بالجراح والشام والعراق والمشرق والمغرب . وقد قيل : إن أبا الصهباء لا يعرف في موالى ابن عباس . قال القاضي أبو الوليد الباجي : « وعدنى أن الرواية عن ابن طائوس بذلك صحيحة، فقد رواه عنه الأئمة بسننهم وابن جرير وغيرهما، وابن طائوس إمام . والحديث الذي يشيرون إليه هو

ما رواه ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وصنتين من خلافة عمر بن الخطاب طلاقاً ثلاثاً واحدة ، فقال عمر رضي الله عنه : إن الناس قد استعملوا في أمر كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيها عليهم ! فأضاه عليهم . ومعنى الحديث أنهم كانوا يوقعون طلاقاً واحدة بدل إيقاع الناس الآن ثلاث تطلقات ، ويدل على صحة هذا التأويل أن عمر قال : إن الناس قد استعملوا في أمر كانت لهم فيه أناة ، فأنكر عليهم أن أحدثوا في الطلاق استعمالاً أمر كانت لهم فيه أناة ، فلو كان حالم ذلك في أول الإسلام فزمن النبي صلى الله عليه وسلم ما قاله ، ولا عاب عليهم أنهم استعملوا في أمر كانت لهم فيه أناة . ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عن ابن عباس من غير طريق أنه أتى بلزوم الطلاق الثلاث لمن أوقعها مجتمعة ، فإن كان هذا معنى حديث ابن طاوس فهو الذي قلناه ، وإن حل حديث ابن عباس على ما يتأول فيه من لا يبعأ بقوله فقد رجع ابن عباس إلى قول الجماعة واعتقد به الإجماع . ودليلنا من جهة القياس أن هذا طلاق أوقعه من يملكه فوجب أن يلزمه . أصل ذلك إذا أوقعه مفزقاً .

قلت : ما تأوله الباجي هو الذي ذكر معناه الشيخ الطبري من علماء الحديث ، أي أنهم كانوا يطلقون طلاقاً واحدة هذا الذي يطلقون ثلاثاً ، أي ما كانوا يطلقون في كل قرّة طلاقاً ، وإنما كانوا يطلقون في جميع العدة واحدة إلى أن تبين وتقصي العدة . وقال القاضي أبو محمد عبد الوهاب : معناه أنت الناس كانوا يقتصرون على طلاق واحدة ، ثم أكتروا أيام عمر من إيقاع الثلاث . قال القاضي : وهذا هو الأشبه بقول الراوي : إن الناس في أيام عمر استعملوا الثلاث فقبل عليهم ؛ معناه ألزمهم حكمها . وأما حديث ابن عمر فإن الدارقطني روى عن أحمد بن حنبل عن طريق بن نافع عن معاوية بن عمار الشعبي عن أبي الزبير قال : سألت ابن عمر عن رجل طلق امرأته ثلاثاً وهي حائض ، فقال لي : أعرف ابن عمر ؟ قلت : نعم ، قال : طلقت امرأتى ثلاثاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم [وهي حائض]

فردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السنة . فقال الدارقطني : كلهم من الشيعة ؛ والمحفوظ أن ابن عمر طلق امرأته واحدة في الحيض . قال عبد الله : وكان تطليقه إلهاء في الحيض واحدة غير أنه خالف السنة . وكذلك قال صالح بن كيسان وموسى بن عقبة وإسماعيل ابن أبيّة وليث بن سعد وابن أبي ذئب وابن جريج وجابر وإسماعيل بن إبراهيم بن عقبة عن نافع : أن ابن عمر طلق تطليقة واحدة . وكذا قال الزهري عن سالم عن أبيه ويونس ابن جبير والشعبي والحسن . وأما حديث رُكّانة فقيس : إنه حديث مضطرب منقطع ، لا يستند من وجه يمتنع به ، رواه أبو داود من حديث ابن جريج عن بعض بنى أبي رافع ، وليس قسم من يمتنع به عن عكرمة عن ابن عباس . وقال فيه : إن رُكّانة بن عبد يزيد طلق امرأته ثلاثاً ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوجعها » . وقد رواه أيضاً من طرق عن نافع بن عُجَير أن رُكّانة بن عبد يزيد طلق امرأته البتّة فاستحلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أراد بها ؟ خلف ما أراد إلا واحدة ؛ فردّها إليه . فهذا اضطراب في الاسم والفعل ؛ ولا يمتنع بشيء من مثل هذا .

قلت : قد أخرج هذا الحديث من طرق الدارقطني في سننه ؛ قال في بعضها « حدثنا محمد بن يحيى بن مرداس حدثنا أبو داود السجستاني حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح وأبو نود إبراهيم بن خالد الكلبي وآخرون قالوا : حدثنا محمد بن إندريس الشافعي حدثني عمي محمد بن علي بن شافع عن عبد الله بن علي بن السائب عن نافع بن عُجَير بن عبد يزيد : أن رُكّانة ابن عبد يزيد طلق امرأته سُمَيّة المزنية البتّة ؛ فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ؛ فقال : والله ما أردتُ إلا واحدة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله ما أردتُ إلا واحدة » ؟ فقال رُكّانة : والله ما أردتُ إلا واحدة ؛ فردّها إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فطلقها ثانياً في زمان عمر بن الخطاب ، والثالثة في زمان عثمان . قال أبو داود : هذا حديث صحيح . فالتى مع من حديث رُكّانة أنه طلق امرأته البتّة لا ثلاثاً ؛ وطلاق البتّة قد عُكِّل فيه على ما يأتي بيانه ففسط الاحتجاج بغيره . والله أعلم . قال أبو عمر :

رواية الشافعي لحديث رُكَّانة عن عمِّه أُمِّمَ، وقد زاد زيادة لا تردُّها الأصول؛ فوجب قبولها
لثقة ناقلها، والشافعي وعمِّه وحَدِّه أهل بيت رُكَّانة، كلُّهم من بني المطلب بن عبد مناف،
وهم أعلم بالقصة التي عرَّضت لهم.

فصل - ذكر أحمد بن محمد بن مُنيث الطَّلِيطِيّ هذه المسألة في وثاقه فقال :
الطلاق ينقسم على ضربين : طلاق سُنَّة ، وطلاق بَدْعَة . فطلاق السُّنَّة هو الواقع على الوجه
الذي نذب الشرع إليه . وطلاق البدعة نقيضه ، وهو أن يطلقها في حيض أو نفاس أو ثلاثا
في كلمة واحدة ؛ فإن فعل لزمه الطلاق . ثم اختلف أهل العلم بعد إجماعهم على أنه مطلق ،
كم يلزمه من الطلاق ؛ فقال علي بن أبي طالب وابن مسعود : يلزمه طلاق واحدة وقاله
ابن عباس وقال : قوله ثلاثا لا معنى له لأنه لم يطلق ثلاث مرَّات وإنما يجوز قوله
في ثلاث إذا كان غيبا عما مضى فيقول : طلقت ثلاثا فيكون خبرا عن ثلاثة أفعال
كانت منه في ثلاثة أوقات ، كرجل قال : قرأت أمس سورة كذا ثلاث مرَّات فنلك
يصبح ، ولو قرأها مرة واحدة فقال : قرأتها ثلاث مرَّات كان كاذبا . وكذلك لو حلف بالله
ثلاثا يردُّ الحلف كانت ثلاث إيمان ، وأما لو حلف فقال : أحلف بالله ثلاثا لم يكن حلف
إلا يميناً واحدة والطلاق منله . وقاله الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف . وروينا
ذلك كله عن ابن وضاح ؛ وبه قال من شيوخ قرطبة ابن زينباع شيخ هدي ومحمد بن تقي بن مخلد
ومحمد بن عبد السلام الحسني فريد وقته وقيسه عصره وأصبح بن الحباب وجماعة سواهم .
وكان من حجة ابن عباس أن الله تعالى فرق في كتابه لفظ الطلاق فقال عزَّ اسمه : « الطلاق
مرَّتَان » يريد أكثر الطلاق الذي يكون بسببه الإمساك بالمعروف وهو الرجعة في السنة .
ومعنى قوله : « أو تبرِّج بإحسان » يريد تركها بلا اجتماع حتى تنقضي عتقها ؛ وفي ذلك
إحسان إليها إن وقع تدم بينهما ؛ قال الله تعالى : « لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا » .
يريد التدم على الفرقة والرغبة في الرجعة ؛ وموقع الثلاث غير حسن ؛ لأن فيه ترك المنسودة
التي وسَّع الله بها وتبَّه عليها ؛ فذكر الله سبحانه الطلاق مفزقا يدل على أنه إذا جمع أنه لفظ

واحد . وقد يخرج قياس من غير ما مسألة من اللقظة ما يدل على ذلك ، من ذلك قول الإنسان : مالي صدقة في المساكين أنت الثلث يحزبه من ذلك . وفي الإشراف لأبن المنذر : وكان سعيد بن جبير وطاوس وأبو الشعثاء وعطاء وعمرو بن دينار يقولون : من طلق البكر ثلاثا فهي واحدة .

قلت : وربما اعتلوا فقالوا : غير المدخول بها لا عدة عليها ؛ فإذا قال : أنت طالق ثلاثا فقد بانت بنفس فراغه من قوله : أنت طالق ؛ فيرد «ثلاثا» عليها وهي بانت فلا يؤثر شيئا ؛ ولأن قوله : أنت طالق مستقل بنفسه ؛ فوجب ألا تقف البيونة في غير المدخول بها على ما يرد بعده ؛ أصله إذا قال : أنت طالق .

السادسة - استدل الشافعي بقوله تعالى : « أَوْ تَصْرِحْ بِإِحْسَانٍ » وقوله : « وَتَرْحُمُوهُنَّ » على أن هذا اللفظ من صريح الطلاق . وقد اختلف العلماء في هذا المعنى ؛ فذهب القاضي أبو محمد إلى أن الصريح ما تضمن لفظ الطلاق على أي وجه ؛ مثل أن يقول : أنت طالق ، أو أنت مطلقة ، أو قد طلقتك ، أو الطلاق له لازم . وما عدا ذلك من ألفاظ الطلاق مما يستعمل فيه فهو كناية ؛ وهذا قال أبو حنيفة . وقال القاضي أبو الحسن : صريح ألفاظ الطلاق كثيرة ، وبعضها أين من بعض : الطلاق والسراح والفراق والحرام والخالية والبرية . وقال الشافعي : الصريح ثلاثة ألفاظ ؛ وهو ما ورد به القرآن من لفظ الطلاق والسراح والفراق ؛ قال الله تعالى : « أَوْ يَرْفِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ » وقال : « أَوْ تَصْرِحْ بِإِحْسَانٍ » وقال : « فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَمْتِهِنَّ » .

قلت : وإذا تقرر هذا فالطلاق على ضربين : صريح وكناية ؛ فالصريح ما ذكرنا . والكناية ما عداه . والفرق بينهما أن الصريح لا يقتصر إلى نية ؛ بل بمجرد اللفظ يقع الطلاق . والكناية تقتصر إلى نية . والوجه لمن قال : إن الحرام والخالية والبرية من صريح الطلاق كثرة استعمالها في الطلاق حتى عرفت به ؛ فصارت بينة واضحة في إقاع الطلاق ؛ كالنائب الذي وضع يده على الأرض ، ثم استعمل على وجه المجاز في إثبات قضاء الحاجة ، فكان فيه أين .

وأظهر وأشهر منه فيها وضع له، وكذلك في مسائلنا مثله . ثم إن عمر بن عبد العزيز قد قال :
« لو كان الطلاق أنقما أبقت ألبنة منه شيئا ، فن قال : البنة ، فقد رمى النائية القصوى »
أخرجه مالك . وقد روى الدارقطني عن علي قال : الخلية والبرية والبنة والبائن والحرام
ثلاث ، لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره . وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم إن البنة
ثلاث ، من طريق فيه لين ، نكح الدارقطني . وسأقي عند قوله تعالى : « وَلَا تَحْنُوا
آيَاتَ اللَّهِ هُنَّ رِوَا » إن شاء الله تعالى .

السابعة - لم يختلف العلماء فيمن قال لأمرأته : قد طلقتك ، أنه من صريح الطلاق
في المدخول بها وغير المدخول بها ، فن قال لأمرأته : أنت طالق فهي واحدة إلا أن ينوى
أكثر من ذلك . فإن نوى اثنين أو ثلاثا زمه ما نواه ، فإن لم ينو شيئا فهي واحدة تملك
الرجعة . ولو قال : أنت طالق ، وقال : أردت من وثاق لم يقبل قوله وزمه ، إلا أن يكون هناك
ما يدل على صدقه . ومن قال : أنت طالق واحدة ، لا رجعة لي عليك فقوله : « لا رجعة لي
عليك » باطل ، وله الرجعة لقوله واحدة ؛ لأن الواحدة لا تكون ثلاثا ، فإت نوى بقوله :
« لا رجعة لي عليك » ثلاثا فهي ثلاث عند مالك .

واختلفوا فيمن قال لأمرأته : قد فارقتك ، أو سرحتك ، أو أنت خلية ، أو برية ،
أو بائن ، أو حبلك على غاربك ، أو أنت على حرام ، أو ألحقى بأهلك ، أو قد وهبتك لأهلك ،
أو قد خليت صبيك ، أو لا سبيل لي عليك ؛ فقال أبو حنيفة وأبو يوسف : هو طلاق بائن .
وروى عن ابن مسعود قال : إذا قال الرجل لأمرأته : أستغنى بأمرك ، أو أمرك لك ،
أو ألحقى بأهلك ففعلوها فواحدة بائنة . وروى عن مالك فيمن قال لأمرأته : قد فارقتك ،
أو سرحتك ، أنه من صريح الطلاق ؛ كقوله : أنت طالق . وروى عنه أنه تخاية يرجع
فيها إلى نية قائلها ، ويسأل ما أراد من العدد ، مدخولا بها كانت أو غير مدخول بها . قال
ابن المواز : وأصح قوليه في التي لم يدخل بها أنها واحدة ، إلا أن ينوى أكثر ، وقاله ابن القاسم
وابن عبد الحكم . وقال أبو يوسف : هي ثلاث ، ومثله خلعتك ، أو لا ملك لي عليك .

وأما سائر الكليات فهي ثلاث عند مالك في كل من دخل بها لا يَتَوَيَّ فيها قاتلها ، وَيَتَوَيَّ في غير المدخول بها . فإن حلف وقال أردت واحدة كان خاطبا من الخطأ ، لأنه لا يُحِلُّ المرأة التي قد دخل بها زوجها ولا بينها ولا يبرها إلا ثلاث تطليقات ، والتي لم يتدخل بها يُحِلُّها ويبرها وبينها الواحدة . وقد رُوِيَ عن مالك وطائفة من أصحابه وهو قول جماعة من أهل المدينة أنه يَتَوَيَّ في هذه الألفاظ كلها ويلزم من الطلاق ما نوى . وقد رُوِيَ عنه في آئنة خاصة من بين سائر الكليات أنه لا يَتَوَيَّ فيها لا في المدخول بها ولا في غير المدخول بها . وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه : له نيته في ذلك كله ، فإن نوى ثلاثا فهي ثلاث ، وإن نوى واحدة فهي واحدة بائنة وهي أحق بنقضها . وإن نوى اثنتين فهي واحدة . وقال زُفَر : إن نوى اثنتين فهي اثنان . وقال الشافعي : هو في ذلك كله غير مطلق حتى يقول : أردت بخرج الكلام مني طلاقا فيكون ما نوى . فإن نوى دون الثلاث كان رجما ، ولو طلقها واحدة بائنة كانت رجعية . وقال إسماعيل : كل كلام يُسَبِّحُ الطلاق فهو ما نوى من الطلاق . وقال أبو ثور : هي تطليقة رجعية ولا يُسأل عن نيته . ورُوِيَ عن ابن مسعود أنه كان لا يرى طلاقا بائنا إلا في خلع أو إيلاء وهو المحفوظ عنه ، قاله أبو عبيد . وقد ترجم البخاري « باب إذا قال فارقك أو سرتك أو البرية أو الخلية أو ما عني به الطلاق فهو على نيته » . وهذا منه إشارة إلى قول الكوفيين والشافعي وإسماعيل في قوله : « أو ما عني به من الطلاق » والوجه في ذلك أن كل كلمة تجتمل أن تكون طلاقا أو غير طلاق فلا يجوز أن يلزم بها الطلاق إلا أن يقول المتكلم : إنه أراد بها الطلاق فيلزمه ذلك بإقراره ، ولا يجوز إبطال النكاح لأنهم قد أجمعوا على صحته بيقين . قال أبو عمر : واختلف قول مالك في معنى قول الرجل لامرأته : اعتدى ، أو قد خلتك ، أو حبلك على غارك ، فقال مرة : لا يَتَوَيَّ فيها وهي ثلاث . وقال مرة : يَتَوَيَّ فيها كلها ، في المدخول بها وغير المدخول بها ، وبه أقول .

قلت : ما ذهب إليه الجمهور ، وما رُوِيَ عن مالك أنه يَتَوَيَّ في هذه الألفاظ ويحكم عليه بذلك هو الصحيح ، لما ذكرناه من الليل ، ولحديث الصحيح الذي نثره أبو داود

وأبن ماجه والدارقطني وغيرهم عن يزيد بن زكاة : أن زكاة بن عبد يزيد طلق امرأته سمية
أبنته فآخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال : " آفة ما أردت إلا واحدة " ؟ فقال زكاة :
والله ما أردت إلا واحدة ، فرددنا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ابن ماجه :
سمعت أبا الحسن الطائفي يقول : ما أشرف هذا الحديث ! وقال مالك في الرجل يقول
لامرأته : أنت علي كالتيه والدم ولحم الخنزير : أراها البتة وإن لم تكن له نية ، فلا تحل
إلا بعد زوج . وفي قول الشافعي : إن أراد طلاقا فهو طلاق وما أراد من عدد الطلاق ؛
وإن لم يرد طلاقا فليس بشيء . بعد أن يخلف . وقال أبو عمر : أصل هذا الباب في كل كناية
عن الطلاق ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال - لثي تزوجها حين قالت :
أعوذ بالله منك - : " قد عذبت بعماد الحق بأهلك " . فكان ذلك طلاقا . وقال كعب
أبن مالك لامرأته حين أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعتالها : الحق بأهلك فلم يكن
ذلك طلاقا ؛ فدل على أن هذه اللفظة مفتقرة إلى النية ، وأنها لا يقضى فيها إلا بما ينوي اللفظ
مها ، وكذلك سائر الكنايات المحتملات للفراق وغيره . والله أعلم . وأما الألفاظ التي ليست
من ألفاظ الطلاق ولا يكتفي بها عن التراق فأكثر العلماء لا يوقعون بشيء منها طلاقا وإن قصده
بالفعل . وقال مالك : كل من أراد الطلاق بأي لفظ كان لزمه الطلاق ، حتى بقوله : كُلي
وأشربي وقوي وأقمدي ؛ ولم يتابع مالك على ذلك إلا أصحابه .

قوله تعالى : (وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُغْنِيَا حُدُودَ
اللَّهِ فَإِنْ غَنِمَ أَلَّا يُغْنِيَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا
وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاطِلُونَ) .

فيه خمس عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : (وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا) : أن ،
في موضع رفع بـ « يحل » . والآية خطاب للأزواج ، فهو أن ياخذوا من أزواجهن شيئا على وجه
المضارة ؛ وهذا هو الخلع الذي لا يصح إلا بالانفراد الرجل بالضرر ؛ وخص بالله كرم ما أتى

الأزواج تسامح، لأن العرف من الناس أن يطلب الرجل عند الشقاق والفساد ما خرج من يده لما صدقا وجهازا، فذلك خص بالذكر . وقد قيل : إن قوله « ولا يحمل » فصل مقترض بين قوله تعالى : « الطلاق مرتان » وبين قوله : « فإن طلقها » .

الثانية - والجمهور على أن أخذ القدية على الطلاق جائز . وأجمعوا على تحريم أخذ مالها إلا أن يكون النشوز وفساد العشرة من قبلها . وحكى ابن المنذر عن الثماني أنه قال : إذا جاء الظلم والنشوز من قبله وخالفه فهو جائز ماض وهو آثم ، لا يحمل له ما صنع ، ولا يجبر على رد ما أخذه . قال ابن المنذر : وهذا من قوله خلاف ظاهر كتاب الله ، وخلاف الخبر الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وخلاف ما أجمع عليه أهل العلم من ذلك ، ولا أحسب أن لو قيل لأحد : أجهد نفسك في طلب الخطأ ما وجد أسرا أعظم من أن ينطق الكتاب بتحريم شيء ثم يقابله مُقابل بالخلاف نصا ، فيقول : بل يجوز ذلك ، ولا يجبر على رد ما أخذه . قال أبو الحسن بن بطلان : وروى ابن القاسم عن مالك مثله . وهذا القول خلاف ظاهر كتاب الله تعالى ، وخلاف حديث امرأة ثابت ، وسيأتي .

الثالثة - قوله تعالى : (إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ) حرم الله تعالى في هذه الآية ألا يأخذ إلا بسد الخوف ألا يقيم حدود الله . وأكد التحريم بالوعيد لمن تعدى الحد . والمعنى أن يظن كل واحد منهما بنفسه ألا يقيم حق النكاح لصاحبه حسب ما يحسن عليه فيه لكراهة يستقدها ، فلا حرج على المرأة أن تعتدي ، ولا حرج على الزوج أن يأخذ . والخطاب للزوجين . والضمير في « أن يخافا » لهما ، و « ألا يقيمَا » مفعول به . و « خفت » يتعدى إلى مفعول واحد . ثم قيل : هذا الخوف هو بمعنى العلم ، أي أن يعلما ألا يقيمَا حدود الله ، وهو من الخوف الحقيقي ، وهو الإسفاق من وقوع المكروه ، وهو قريب من معنى الظن . ثم قيل : « إلا أن يخافا » استثناء منقطع ، أي لكن إن كان منهن نشوز فلا جناح عليكم في أخذ القدية . وقرا حصة « إلا أن يخافا » بضم الياء على ما لم يسم فاعله . والفاعل مخذوف وهو الولاية والحكام ، واختاره أبو سعيد . قال : لقوله عز وجل « فإن ختم »

قال : فجعل الخلع لغير الزوجين ، ولو أراد الزوجين لقال : فإنت خافا ، وفي هذا حجة لمن جعل الخلع إلى السلطان .

قلت : وهو قول سعيد بن جبير والحسن وابن سيرين . وقال شعبة : قلت لقنادة : عن أخذ الحسن الخلع إلى السلطان ؟ قال : عن زياد ، وكان واليا لعمرو بن عبد الله . قال النحاس : وهذا معروف عن زياد ، ولا معنى لهذا القول لأن الرجل إذا خالع امرأته فانما هو على ما يراضيان ، ولا يجبره السلطان على ذلك ، ولا معنى لقول من قال : هذا إلى السلطان . وقد أنكر اختيار أبي عبيد وروى ، وما علمت في اختياره شيئا أبعد من هذا الخلع ، لأنه لا يوجب الإعراب ولا اللفظ ولا المعنى . أما الإعراب فإن عبد الله بن مسعود قرأ « إلا أن يخافا » تخافوا ؛ فهذا في العربية إذا رُدَّ إلى ما لم يسم فاعله قيل : إلا أن يخاف . وأما اللفظ فإن كان هل لفظ « يخافا » وجب أن يقال : فإن خيف . وإن كان على لفظ « فإن خفتم » وجب أن يقال : إلا أن تخافوا . وأما المعنى فإنه يبعد أن يقال : لا يحل لكم أن تأخذوا بما آتيتوهن شيئا ، إلا أن يخاف غيركم ولم يقل جل وعز : فلا جناح عليكم أن تأخذوا له منها فدية ؛ فيكون الخلع إلى السلطان . قال الطحاوي : وقد صح عن عمر وعثمان وابن عمر جواز دون السلطان ؛ وكما جاز الطلاق والنكاح دون السلطان فكذلك الخلع ؛ وهو قول الجمهور من العلماء .

الرابعة - قوله تعالى : (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَحْيَا) أى على أن لا يقيم . (حُدُودَ اللَّهِ) أى فيما يجب عليهما من حسن الصلوة وجبيل العشرة . والمحاطبة للحكام والمتوسطين مثل هذا الأمر وإن لم يكن حاكما . وترك إقامة حدود الله هو استخفاف المرأة بحق زوجها ، وسوء طاعتها إياه ؛ قاله ابن عباس ومالك بن أنس وجمهور الفقهاء . وقال الحسن بن أبي الحسن وقوم معه : إذا قالت المرأة لا أطيع لك أمرا ، ولا أقضيل لك من جنابة ، ولا أبر لك قميا ، حل الخلع . وقال الشعبي : « ألا يقيم حدود الله » ألا يطيع الله ؛ وذلك أن المناضبة تدعو إلى ترك الطاعة . وقال عطاء بن أبي رباح : يحل الخلع والأخذ أن تقول

المرأة (زوجها) : إني أكرهك ولا أحبك ، ونحو هذا (فلا جناح عليهما فيما اتحدت به) .
 روى البخاري من حديث أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت
 النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، ثابت بن قيس ما أصيب عليه في حلق
 ولا دين ولكن لا أطيقه ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتردين عليه
 حديثه ؟ " قالت : نعم . وأخرج ابن ماجه عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس أن
 جميلة بنت سلول أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : والله ما أصيب على ثابت في دين
 ولا حلق ولكني أكره الكفر في الإسلام ، لا أطيقه بقصا ! فقال لها النبي صلى الله عليه
 وسلم : " أتردين عليه حديثه ؟ " قالت : نعم . فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ
 منها حديثه ولا يزداد . فيقال : إنها كانت تبغضه أشد بغض ، وكان يحبها أشد الحب ؛
 ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما بطريق الخلع ؛ فكان أول خلع في الإسلام . روى
 عكرمة عن ابن عباس قال : أول من خلع في الإسلام أخت عبد الله بن أبي ، أخت النبي
 صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، لا يجتمع رأسي ورأسه أبدا ، إني نفعت جانب
 الجباء فرأيت ، أقبل في عدة إذ هو أشجع سوانا وأقصرهم قامة ، وأقبحهم وجها ! فقال :
 " أتردين عليه حديثه ؟ " قالت : نعم ، وإن شاء زدت ؛ ففرق بينهما . وهذا الحديث أصل
 في الخلع ، وعليه جمهور الفقهاء . قال مالك : لم أزل اسمع ذلك من أهل العلم ، وهو الأمر
 المجتمع عليه عندنا ، وهو أن الرجل إذا لم يضرب المرأة ولم يمس إليها ، ولم تؤت من قبله ،
 وأحب فراقه فإنه يحل له أن يأخذ منها كل ما اتحدت به ؛ كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم
 في امرأة ثابت . وإن كان النشوز من قبله بأن يضيق عليها ويضربها رد عليها ما أخذ منها .
 وقال عقبه بن أبي الصبيان : سألت بكر بن عبد الله المزني عن الرجل تريد أمر أنه أن تخالعه
 فقال : لا يحل له أن يأخذ منها شيئا . قلت : فأين قول الله عز وجل في كتابه « فإن حقت
 الأيقا حدود الله فلا جناح عليهما فيما اتحدت به » ؟ قال : نسخت . قلت : فأين جعلت ؟
 قال : في سورة « النساء » : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن

قَطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَنَا أَخَذُوهُ يُهَيِّئْنَا وَإِنَّمَا مِيتَا . قال النحاس : هذا قول شاذٌ ، خارج عن الإجماع لشذوذه ؛ وليست إحدى الآيتين دافعةً للأخرى فيقع النسخ ؛ لأن قوله « فَإِنْ خَفَمَ » الآية ؛ ليست بزيادة بترك الآية ؛ لأنها إذا خافا هذا لم يدخل الزوج في « وَإِنْ أُرِدْتُمْ ابْتِدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ » لأن هذا للرجال خاصة . وقال الطبري : الآية مُحْكَمَةٌ ، ولا معنى لقول بكر : إِنْ أَرَادَتْ هِيَ الْمَطَاءَ فَقَدْ جَوَزَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَنَائِبٍ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ زَوْجَتِهِ مَا سَاقَ إِلَيْهَا .

الخامسة - تمسك بهذه الآية من رأى اختصاص الخلع بحالة الشقاق والضرر ؛ وأنه شرط في الخلع ، وعضد هذا بما رواه أبو داود عن عائشة أن حبيبة بنت سهل كانت عند ثابت بن قيس بن قيس فتمس ففكر ففطنها ؛ فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الصبح فاشتكت إليه ؛ فدعا النبي صلى الله عليه وسلم ثابتا فقال : « خذ بعض مالها وفارقها » . قال : ويصلح ذلك يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . قال : فأتى أصدقها حديثين وهما بيدها ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « خذها وفارقها » فأخذها وفارقها . والذي عليه الجمهور من الفقهاء أنه يجوز الخلع من غير اشتكائه ضرر ؛ كادل عليه حديث البخاري وغيره . وأما الآية فلا جبهة فيها ؛ لأن الله عز وجل لم يذكرها على جهة الشرط ، وإنما ذكرها لأنه الغالب من أحوال الخلع ؛ فخرج القول على الغالب ؛ والذي يقطع المنذر ويوجب العلم قوله تعالى : « فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَأَسْكُتُوا هُنَا مَرِيئًا » .

السادسة - لما قال الله تعالى : « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ » دل على جواز الخلع بأكثر مما أعطاهما . وقد اختلف العلماء في هذا ؛ فقال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم وأبو ثور : يجوز أن يفتدي منه بما تراضيا عليه ، كان أقل مما أعطاهما أو أكثر منه . وروى

(١) في الأصول : « بعضها » . والتصويب عن سنن أبي داود . والنسخ (بضم النون) وضعها ويكون التين ؛
أصل الكتف ، وقيل : هو العلم الزين الذي على طرفه .
(٢) في الأصول : « مع ما بيدها » والتصويب من سنن أبي داود .

هذا عن عثمان بن عفان وابن عمر وقبيصة والنخعي . واحتج قبيصة بقوله : « قَلَّ جُنَاحُ عَلَيَّهَا فَمَا أَقْنَنْتُ بِهِ » . وقال مالك : ليس من مكافم الأخلاق ولم أر أحدا من أهل العلم يكره ذلك . وروى الثارقطاني عن أبي سعيد الخدري أنه قال : كانت أختي تحت رجل من الأنصار تزوجها على حديقة ، فكان بينهما كلام ، فارتفعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « تَرَدَيْنِ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ وَيَطْلُقُ ؟ » قالت : نعم ، وأزيد . قال : « رُدِّيْ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ وَزَيْدِيهِ » . وفي حديث ابن عباس « وإن شاء زدتَه ولم ينكره » . وقالت طائفة : لا يأخذ منها أكثر مما أعطاه ؛ كذلك قال طائوس وعطاء والأوزاعي ؛ قال الأوزاعي : كان القضاء لا يُعَيَّرُونَ أن يأخذ إلا ما ساق إليها ؛ وبه قال أحمد وإسحاق . واحتجوا بما رواه ابن جريح : أخبرني أبو الزبير أن ثابت بن قيس بن شماس كانت عنده زينب بنت عبد الله بن أبي ابن سلول ، وكان أصدقها حديقة فكرهته ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أما الزيادة فلا ولكن حديقتها » ، فقالت : نعم . فأخذها وحلَّ مبيلا . فلما بلغ ذلك ثابت بن قيس قال : قد قبلت قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ سمعه أبو الزبير من خير واحد ؛ أخرجه الثارقطاني . وروى عن عطاء مرسلا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يأخذ من المختلعة أكثر مما أعطاه » .

السابعة — انطلع عند مالك رضي الله عنه على ثمرة لم يبدُ صلاحها وعلى جميل شارب أو عبد أبي أو جين في بطن أمه أو نحو ذلك من وجوه الفرج جائر ؛ بخلاف البيوع والتكاح . وله المطالبة بذلك كله ؛ فإن سلم كان له ، وإن لم يسلم فلا شيء له . والطلاق نافذ على حكمه . وقال الشافعي : انطلع جائز وله مهر مثلها ؛ وحكاه ابن خزيمة مستنداً عن مالك قال : لأن عقود المعاوضات إذا تضمنت بدلا فاسدا وفاتت رجع فيما إلى الواجب في أمثلها من البدل . وقال أبو ثور : انطلع باطل . وقال أصحاب الرأي : انطلع جائز ؛ وله ما في بطن الأمة ، وإن لم يكن فيه ولد فلا شيء له . وقال في « المسوط » عن ابن القاسم : يجوز بما يخرجه نخله العام ، وما تلد عنه العام خلافا لأبي حنيفة والشافعي ؛ والجملة لما ذهب إليه مالك

وابن القاسم عموم قوله تعالى : «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ» . ومن جهة القياس أنه مما يملك بالهبة والوصية ؛ فجاز أن يكون عوضاً في الخلع كالمطلوع ؛ وأيضاً فإن الخلع طلاق ؛ والطلاق يصح بغير عوض أصلاً ؛ فإن صح على غير شيء ، فلأن يصح بفاسد العوض أولى ؛ لأن أسوأ أحوال المبدول أن يكون كالمسكوت عنه . ولما كان النكاح الذي هو عقد تحليل لا يفسد فاسد العوض فلأن لا يفسد الطلاق الذي هو إتلاف وحل عقد أولى .

الثامنة - ولو اختلفت منه بضاع أبنتها منه حولين جاز . وفي الخلع بنفقتها على الآلين بعد الحولين مدة معلومة قولان : أحدهما - يجوز ؛ وهو قول المخزومي ؛ واختاره محققون . والثاني - لا يجوز ؛ رواه ابن القاسم عن مالك ، وإن شرطه الزوج فهو باطل موضوع عن الزوجة . قال أبو عمر : من أجاز الخلع على الجبل الشارد والمسد الآبق ونحو ذلك من الفرار لزمه أن يجوز هذا . وقال غيره من القرويين : لم يمنع مالك الخلع بنفقة ما زاد على الحولين لأجل الفرار ، وإنما منعه لأنه حتى يختص بالأب على كل حال فليس له أن ينقله إلى غيره ؛ والفرق بين هذا وبين نفقة الحولين أن تلك النفقة وهي الرضاع قد تجب على الأم حال الزوجية وبعد الطلاق إذا أعسر الأب ؛ فجاز أن تنقل هذه النفقة إلى الأم ؛ لأنها عمل لها . وقد احتج مالك في «المبسوط» على هذا بقوله تعالى : «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِيَأْتِيَ بِهِنَّ أَرْوَاحُهُنَّ» .

التاسعة - فإن وقع الخلع على الوجه المباح بنفقة الأب فمات الصبي قبل انقضاء المدة فهل للزوج الرجوع عليها ببقية النفقة ؛ فروى ابن الموارث عن مالك : لا يتبعها بشيء . وروى عنه أبو الفرج : يتبعها ؛ لأنه حتى ثبت له في ذمة الزوجة بالخلع فلا يسقط بموت الصبي ؛ كما لو خالها بمال متعلق بذمتها . ووجه الأول أنه لم يشترط لنفسه مالا يتنوله ، وإنما اشترط كفاية مؤنة ولده ؛ فإذا مات الولد لم يكن له الرجوع عليها بشيء ؛ كما لو تطوع رجل بالإفلاق على صبي سنة فمات الصبي لم يرجع عليه بشيء ؛ لأنه إنما قصد بتطوعه تحمل مؤنته . والله أعلم . قال مالك : لم أر أحداً يتبع بخل هذا ؛ ولو أتبعه لكان له في ذلك قول .

وانفقوا على أنفُسهم إن ماتت نفقة الولد في مالها ؛ لأنه حق ثبت فيه قبل موتها فلا يسقط بموتها .

العاشرة - ومن اشترط على امرأته في الخلع نفقة حلها وهي لاشئ لها فعليه النفقة إذا لم يكن لها مال تُنفق منه ؛ وإن أيسرت بعد ذلك أتبعها بما أنفق وأخذ منها . قال مالك : ومن الحق أن يكلف الرجل نفقة ولده وإن اشترط على أمه نفقته إذا لم يكن لها ما تنفق عليه .

الحادية عشرة - واختلف العلماء في الخلع هل هو طلاق أو فسخ ؛ فروى عن عثمان وعلى وابن مسعود وجماعه من التابعين : هو طلاق ؛ وبه قال مالك والثوري والأوزاعي وأبو حنيفة وأصحابه والشافعي في أحد قوليه . من نوى بالخلع تطليقتين أو ثلاثا لزمه ذلك عند مالك . وقال أصحاب الرأي : إن نوى الزوج ثلاثا كانت ثلاثا ، وإن نوى اثنتين فهو واحدة بائنة . وقال الشافعي في أحد قوليه : إن نوى بالخلع طلاقا وماتت فهو طلاق ، وإن لم يمت طلاقا ولا تنى لم تقع فرقة ؛ قاله في القديم . وقوله الأول أحب إلى . المزي : وهو الأصح عندهم . وقال أبو ثور : إذا لم يسم الطلاق فأنخل فرقة وليس طلاقا ، وإن سمي تطليقة فهي تطليقة ؛ والزوج أمك برجعتها مادامت في العتة . ومن قال : إن الخلع فسخ وليس بطلاق إلا أن ينويه ابن عباس وطاوس وعكرمة وإسحاق وأحمد . واحتجوا بالحديث عن ابن عينة عن عمرو عن طاوس عن ابن عباس أن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص سأله : رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه أيتزوجها ؟ قال : سم لينكحها ، ليس الخلع بطلاق ؛ ذكر الله عز وجل الطلاق في أول الآية وأمرها ، والخلع فيما بين ذلك ؛ فليس الخلع بشئ . ثم قال : «الطلاق مرتان فإمساككم بمروءة أو ترميزا» . ثم قرأ «فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره» . قالوا . ولأنه لو كان طلاقا لكان بعد ذكر الطلقتين ثالثا ، وكان قوله : «فإن طلقها» بعد ذلك دالا على الطلاق الرابع ؛ فكان يكون التحريم متعلقا بأربع تطليقات . واحتجوا أيضا بما رواه الترمذي وأبو داود والدارقطني عن ابن عباس : أن امرأة ثابت بن قيس

اختلفت من زوجها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعتد بحيضة . قال الترمذى : حديث حسن غريب . وعن الربيع بنت معوذ بن عقراء أنها اختلفت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم أن تعتد بحيضة . قالوا : أن تعتد بحيضة . قال الترمذى : حديث الربيع الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحيضة . قالوا : فهذا يدل على أن الخلع فسخ لا طلاق ؛ وذلك أن الله تعالى قال : « وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » ولو كانت هذه مطلقة لم يقتصر بها على قرء واحد .

قلت : فمن طلق أمراًه تطليقتين ثم خالعهما ثم أراد أن يتزوجها فله ذلك — كما قال ابن عباس — وإن لم تنكح زوجاً غيره ؛ لأنه ليس له غير تطليقتين والخلع لقوء . ومن جعل الخلع طلاقاً قال : لم يميز أن يرتبها حتى تنكح زوجاً غيره ؛ لأنه بالخلع كَلَّتِ الثَّلاثُ ، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى . قال القاضي إسماعيل بن إسحاق : كيف يجوز القول في رجل قالت له أمراًه : طلقني على مال فطلقها إنه لا يكون طلاقاً ، وهو لو جعل أمراًه بيدها من غير شيء فطلقت نفسها كان طلاقاً ! . وأما قوله تعالى : « فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ » فهو معطوف على قوله تعالى : « الطلاق مرتان » ؛ لأن قوله : « أو نكح بإحسان » إنما يمتنى به أو تطلىق . فلو كان الخلع معطوفاً على التطليقتين لكان لا يجوز الخلع أصلاً إلا بعد تطليقتين وهذا لا يقوله أحد . وقال غيره : ما تأولوه في الآية غلط فإن قوله : « الطلاق مرتان » أفاد حكم الاثنين إذا أوقعهما على غير وجه الخلع ، وأثبت مهمما الرحمة بقوله : « فإسأك بمحروف » ثم ذكر حكمهما إذا كان على وجه الخلع فعاد الخلع إلى الاثنين المتقدم ذكرهما ؛ إذ المراد بذلك بيانُ الطلاق المطلق والطلاق بوض ، والطلاق الثالث بوض كان أو غير عوض فإنه يقطع الحل إلا بعد زوج .

قلت : هذا الجواب عن الآية ، وأما الحديث فقال أبو داود — لما ذكر حديث ابن عباس في الحيضة — : هذا الحديث رواه عبد الزاق عن معمر عن عمرو بن مسلم عن عكرمة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل . وحدثنا القسبي عن مالك عن نافع عن ابن عمر قال : عدة المختلعة عدة المطلقة . قال أبو داود : والعمل عندنا على هذا .

قلت : وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحاق والثوري وأهل الكوفة . قال الترمذي : وأكثر أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم .

قلت : وحديث ابن عباس في الحيضة مع غرائبه كما ذكره الترمذي ، وإرساله كما ذكر أبو داود فقد قيل فيه : إن النبي صلى الله عليه وسلم جعل عتتها حيضة ونصفاً ؛ أخرجه الثارقلبي من حديث معمر بن عمرو بن مسلم عن عكرمة عن ابن عباس : إن امرأة ثابت بن قيس اختلت من زوجها بفعل النبي صلى الله عليه وسلم عتتها حيضة ونصفاً . والرازي عن معمر هنا في الحيضة والنصف هو الرازي عنه في الحيضة الواحدة ، وهو هشام بن يوسف أبو عبد الرحمن الصنعاني البجلي ؛ خرج له البخاري وحده . فالحديث مضطرب من جهة الإسناد والمتن ، فسقط الاحتجاج به في أن الخلع فسخ ، وفي أن مدة المطلقة حيضة ؛ وفي قوله تعالى : « وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » نصاً في كل مطلقة مدخول بها كما هدم . قال الترمذي : « وقال بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : مدة المختلعة حيضة ، قال إسحاق : وإن ذهب ذهابه إلى هذا فهو مذهب قوي » . قال ابن المنذر : قال عثمان بن عفان وابن عمر : عتتها حيضة ؛ وبه قال أبان بن عثمان وإسحاق . وقال علي بن أبي طالب : عتتها مدة المطلقة . ويقول عثمان وابن عمر أقول ، ولا ينبت حديث علي .

قلت : قد ذكرنا عن ابن عمر أنه قال : مدة المختلعة مدة المطلقة ، وهو صحيح . الثانية عشرة — واختلف قول مالك فيمن قصد إيقاع الخلع على غير مريض ، فقال عبد الوهاب : هو خلع عند مالك ، وكان الطلاق بائناً . وقيل عنه : لا يكون بائناً إلا بوجود الموضع ؛ قاله أشهب والشافعي ؛ لأنه طلاق عري عن عريض واستيفاء عدد فكان رجعيًا كما لو كان يلفظ الطلاق . قال ابن عبد البر : وهذا أصح قوليه عندى وعند أهل العلم والنظر . ووجه الأكثر أن عدم حصول الموضع في الخلع لا يخرج منه مقتضاه ؛ أصل ذلك إذا خلع بغير أو خبره . الثالثة عشرة — المختلعة هي التي تخرج من كل الذي لها . والمقتضية أن تقتدى ببعضه وتأخذ بعضه . والمبارية هي التي بدأت زوجها من قبل أن يدخل بها فتقول : قد أبرأك

فبارئى بهذا قول مالك - وروى عيسى بن دينار عن مالك : المارية هي التي لا تأخذ شيئاً ولا تعطى - والمتخلة هي التي تعطى ما أعطها وتزید من مالها . والمفتدية هي التي تقتدى ببعض ما أعطها وتمسك بعضه ؛ وهذا كله يكون قبل الدخول وبعدة ؛ فإكان قبل الدخول فلا عدة فيه . والمصالحة مثل المارية . قال القاضي أبو محمد وغيره : هذه الألفاظ الأربعة تعود إلى معنى واحد وإن اختلفت صفاتها من جهة الإيقاع ، وهي طلبة بائنة سمّاها أو لم يسمّاها ؛ لا رجعة له في العدة ، وله نكاحها في العدة وبعدةا برضاها بولي وصداق قبل زوج وبعدة ؛ خلافاً لأبي ثور ؛ لأنها إنما أعطته العوض لتملك نفسها . ولو كان طلاق المخلع رجياً لم تملك نفسها ؛ فكان يمتنع للزوج العوض والمعوض عنه .

الرابعة عشرة - وهذا مع إطلاق المقد نافذ ؛ فلو بذلت له العوض وشرط الرجعة ؛ فيها روايتان رواهما ابن وهب عن مالك : إحداهما ثبوتها ؛ وبها قال سحنون . والأخرى فيها . قال سحنون : وجه الرواية الأولى أنهما قد اتفقا على أن يكون العوض في مقابلة ما يسقط من عدد الطلاق ، وهذا جائز . ووجه الرواية الثانية أنه شرط في العقد ما يقع المقصود منه فلم يثبت ذلك ؛ كما لو شرط في عقد النكاح أن لا أطا .

الخامسة عشرة - قوله تعالى : (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَمْتُدُّوهُا) لما بين تعالى أحكام النكاح والفرق قال : « تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ » التي أمرت باستئصالها ؛ كما بين تحريمات الصوم في آية أخرى فقال : « تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا » فقسم الحدود قسمين ؛ منها حدود الأمر بالاستئصال ، وحدود النهي بالاجتناب ؛ ثم أخبر تعالى فقال : « وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

قوله تعالى : فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَسْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٢٠)

قوله تعالى : (فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ) فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى - أخرج بعض مشايخ نرمان من الحنفية بهذه الآية على أن الخلعة بلحقها الطلاق ، قالوا : فشرع الله سبحانه صريح الطلاق بعد المفاداة بالطلاق ؛ لأن الفاء حرف تعقيب ، فيبعد أن يرجع إلى قوله : « الطلاق مرتان » لأن الذي تخلل من الكلام يمنع بناء قوله « فإن طلقها » على قوله « الطلاق مرتان » بل الأقرب عوده على ما يليه كما في الاستثناء ، ولا يعود إلى ما تقدمه إلا بدلالة ، كما أن قوله تعالى : « وَرَبَّائِكُمُ الَّذِينَ فِي مَجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الَّذِينَ دَخَلْتُمْ بَيْتَهُنَّ » فصار مقصورا على ما يليه غير عائد على ما تقدمه حتى لا يشترط الدخول في أفتات النساء .

وقد اختلف العلماء في الطلاق بعد الخلع في العدة ؛ فقالت طائفة : إذا خلع الرجل زوجته ثم طلقها وهي في العدة لحقها الطلاق ما دامت في العدة ؛ كذلك قال سعيد بن المسيب وشريح وطاوس والنخعي والزهرى والحكم وحماد والثوري وأصحاب الرأي . وفيه قوله ثان وهو أن الطلاق لا يلزمها ، وهو قول ابن عباس وابن الزبير وعكرمة والحسن وباربر بن زيد والشافعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور ؛ وهو قول مالك إلا أن مالكا قال : إن انفصلت منه على أن يطلقها ثلاثا متتابعات نسفا حين طلقها فذلك ثابت عليه ، وإن كان بين ذلك فترات فأتبعه بعد الصيات فليس بشيء ، وإنما كان ذلك لأن نسق الكلام بعضه على بعض متصلا يوجب له حكما واحدا ، وكذلك إذا انفصل الاستثناء باليمين بالله أثروبت له حكم الاستثناء ، وإذا انفصل عنه لم يكن له تعالى بما تقدم من الكلام .

الثانية - المراد بقوله تعالى : « فَإِنْ طَلَّقَهَا » الطلقة الثالثة فلا تحل له حتى تنكح زوجا غيره . وهذا يجمع عليه لا خلاف فيه .

واختلفوا فيما يكتفى من النكاح ، وما الذي يبيح التحليل ؛ فقال سعيد بن المسيب ومن وافقه : يجوز العقد كاف . وقال الحسن بن أبي الحسن : لا يكتفى بجود الوطء حتى

يكون إزالا . ونهب الجمهور من العلماء والكافة من الفقهاء إلى أن الوطء كاف في ذلك ، وهو الكفء الختانين الذي يوجب الحدة والنسل ، ويفسد الصوم والحج ويحصن الزوجين ويوجب كمال الصداق . قال ابن العربي : ما مرّت بي في الفقه مسألة أعسرُ منها ، وذلك أن من أصول الفقه أن الحكم هل يتعلق بأوائل الأسماء أو بأواخرها ؟ فإن قلنا : إن الحكم يتعلق بأوائل الأسماء لزمنا أن نقول بقول سعيد بن المسيّب . وإن قلنا : إن الحكم يتعلق بأواخر الأسماء لزمنا أن نشترط الإزالا مع منيب الحشفة في الإحلال ، لأنه أثر ذوق السُّيلة على ما قاله الحسن . قال ابن المنذر : ومعنى ذوق السُّيلة هو الوطء ؛ وعلى هذا جماعة العلماء إلا سعيد ابن المسيّب فقال : أما الناس فيقولون : لا تحمل للأول حتى يماسها الثاني ؛ وأنا أقول : إذا تزوّجها تزوّجا صحيحا لا يريد بذلك إحلالها فلا بأس أن يتزوّجها الأول . وهذا قول لا نعلم أحدا وافقه عليه إلا طائفة من الخوارج ؛ والسنة مستغنى بها عما سواها .

قلت : وقد قال بقول سعيد بن المسيّب سعيد بن جبّير ؛ ذكره النحاس في كتاب «معاني القرآن» له . قال : وأهل العلم على أن النكاح ها هنا الجماع ؛ لأنه قال : «زويجا غيره» فقد تقدّمت الزوجية فصار النكاح الجماع ؛ إلا سعيد بن جبّير فإنه قال : النكاح ها هنا التزويج الصحيح إذا لم يُرد إحلالها .

قلت : وأظنهما لم يلتفهما حديث السُّيلة أو لم يصح عندهما فأخذنا بظاهر القرآن ، وهو قوله تعالى : «حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ» واقه أعلم . روى الأئمة واللفظ للدَّارِ قُطَيْبٍ عن عائشة . قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا طلق الرجل امرأته ثلاثا لا تحمل له حتى تنكح زويجا غيره ويدق كلُّ منهما حُصيلة صاحبه» . قال بعض علماء الحنفية : من عقد على مذهب سعيد بن المسيّب فللقاضي أن يفسخه ؛ ولا يعتبر فيه خلافه لأنه خارج عن إجماع العلماء . قال علماؤنا : ويضم من قوله عليه السلام : «حتى يذوق كل منهما حُصيلة صاحبه» استواؤهما في إدراك لذة الجماع ؛ وهو حجة لأحد القولين عندنا في أنه لو وطئها نائمة أو مُضْمَى عليها لم تحل لطلقها ؛ لأنها لم تذق السُّيلة إذ لم تدركها .

الثالثة - روى التّسائي عن عبد الله قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الواثمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة وآكل الربا ومؤكّله والمحلّل والمحلّل له . وروى الترمذی عن عبد الله بن مسعود قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحلل والمحلّل له » . وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقد روى هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه . والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؛ منهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعبد الله بن عمرو وغيرهم ؛ وهو قول الفقهاء من التابعين ، وبه يقول سفيان الثوري وابن المبارك والشافعي ومالك وأحمد وإسحاق ، وصححت الجارود يذكر عن وكيع أنه قال بهذا ، وقال : ينبغي أن يرى بهذا الباب من قول أصحاب الرأي . وقال سفيان : إذا تزوّج الرجل المرأة ليحلّها ثم بدا له أن يمسخها فلا تحلّ له حتى يتزوّجها بنكاح جديد . -

قال أبو عمر بن عبد البر : اختلف العلماء في نكاح المحلل ؛ فقال مالك : المحلل لا يقيم على نكاحه حتى يستقبل نكاحا جديدا ؛ فإن أصابها فلها مهر مثلها ، ولا تحلّها إصابته لزواجه الأول ؛ وسواء علما أو لم يعلما إذا تزوّجها ليحلّها ، ولا يقتر على نكاحه ويُسَخ ؛ وبه قال الثوري والأوزاعي . وفيه قول ثان روى عن الثوري في نكاح الخیار والمحلّل أن النكاح جائز والشرط باطل ؛ وهو قول ابن أبي ليلى في ذلك وفي نكاح المتعة . وروى عن الأوزاعي في نكاح المحلل : بس ما صنع والنكاح جائز . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد : النكاح جائز إن دخل بها ، وله أن يمسخها إن شاء . وقال أبو حنيفة مرة هو وأصحابه : لا تحلّ للأول إن تزوّجها ليحلّها . ومرة قالوا : تحلّ له بهذا النكاح إذا جامعها وطلقها . ولم يختلفوا في أن نكاح هذا الزوج صحيح ، وأن له أن يقيم عليه . وفيه قول ثالث - قال الشافعي : إذا قال أتزوجك لأحلّك ثم لا نكاح بيننا بعد ذلك فهذا ضرب من نكاح المتعة ، وهو فاسد لا يقتر عليه ويُسَخ ؛ ولو وطئ على هذا لم يكن تحليلا . فان تزوّجها تزوّجا مطلقا لم يشترط ولا اشترط عليه التحليل فلشافعي في ذلك قولان في كتابه القديم : أحدهما

مثل قول مالك، والآثر مثل قول أبي حنيفة . ولم يختلف قوله في كتابه الجديد المصري أن النكاح صحيح إذا لم يشترط ؛ وهو قول داود .

قلت : وحكى الماوردي عن الشافعي أنه إن شرط التحليل قبل العقد صح النكاح وأحلها للأول، وإن شرطاه في العقد بطل النكاح ولم يحلها للأول، قال : وهو قول الشافعي . وقال الحسن وإبراهيم : إذا هم أحد الثلاثة بالتحليل ففسد النكاح ؛ وهذا تشديد . وقال سالم والقسام : لا بأس أن يتزوجها ليحلها إذا لم يعلم الزوجان وهو مأجور ؛ وبه قال ربيعة ومحيي بن سعيد، وقاله داود بن علي إذا لم يظهر ذلك في اشتراطه في حين العقد .

الرابعة - مدار جواز نكاح التحليل عند علمائنا على الزوج الناكح، ومساواة شرط ذلك أو نواه، ومتى كان شيء من ذلك ففسد نكاحه ولم يقتر عليه، ولم يحل وظوه المرأة لزوجها . وعلم الزوج المطلق وجهه في ذلك سواء . وقد قيل : إنه ينبغي له إذا علم أن الناكح لها ذلك تزوجها أن يتبرع عن مراجعتها، ولا يحلها عند مالك إلا نكاح رقية لحاجته إليها، ولا يقصد به التحليل، ويكون وظوه لها وظاً مباحاً، لا تكون صائفة ولا محرمة ولا في حيضتها، ويكون الزوج بالغاً مسلماً . وقال الشافعي : إذا أصابها بنكاح صحيح وغيب الحشفة في فرجها فقد ذاقا العسيلة ؛ وسواء في ذلك قوى النكاح وضعفه، وسواء أدخله بيده أم بيدها ؛ وكان من صبي أو مراهق أو محبوب بغي له ما يغيبه كما يغيب غير الحصى . وسواء أصابها الزوج محرمة أو صائفة ؛ وهنا كله - على ما وصف الشافعي - قول أبي حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي والحسين بن صالح، وقول بعض أصحاب مالك .

الخامسة - قال ابن حبيب : وإن تزوجها فإن أعجبته أسكنها، وإلا كان قد احتسب في تحليلها الأجر لم يجر ؛ لما خالط نكاحه من نية التحليل، ولا تحل بذلك للأول . السادسة - وطه السيد لأمته التي قد بت زوجها طلاقها لا يحلها، إذ ليس بزواج، روى عن علي بن أبي طالب ، وهو قول عبيدة ومسروق والشعبي وإبراهيم وجابر بن زيد وسليمان بن يسار وحماد بن أبي سليمان وأبي الزناد ؛ وعليه جماعة فقهاء الأمصار . وروى عن

عُثْمَانُ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَالزَّيْرُ خُلَافُ ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ يُحْلَاهَا إِذَا فُتِحَ سَيْدُهَا فُتِيحًا لَا يَرِيدُ بِذَلِكَ مُخَادَعَةً وَلَا إِحْلَالَ ، وَتَرْجِعُ إِلَى زَوْجِهَا بِخُطْبَةٍ وَصَدَاقٍ . وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَمَحٌ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : « حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ » وَالسَّيِّدُ إِنَّمَا تَسْلُطُ بِمَلَكَ الْيَمِينِ وَهَذَا وَاضِحٌ .

السابعة — في موطن مالك أنه بلغه أن سعيد بن المسيب وسليان بن يسار سلا عن رجل زوج عبدا له جارية له فطلقها المبد البتة ثم وهبا سيدهما له هل تحمل له بملك اليمين؟ فقالا : لا تحمل له حتى تنكح زوجا غيره .

الثامنة — روى عن مالك أنه سأل ابن شهاب عن رجل كانت تحته أمة مملوكة فاشترها وقد كان طلقها واحدة ؛ فقال : تحمل له بملك يمينه ما لم يبت طلاقها ؛ فإن بت طلاقها فلا تحمل له بملك يمينه حتى تنكح زوجا غيره . قال أبو عمر : وعلى هذا جماعة العلماء وأئمة الفتوى : مالك والثوري والأوزاعي والشافعي وأبو حنيفة وأحمد وإسحاق وأبو ثور . وكان ابن عباس وعطاء وطاوس والحسن يقولون : إذا اشتراها الذي بت طلاقها حلت له بملك اليمين ؛ على عموم قوله عز وجل : « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » . قال أبو عمر : وهذا خطأ من القول ؛ لأن قوله عز وجل : « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » لا يبيح الأمهات ولا الأخوات ؛ فكذلك سائر المحرمات .

التاسعة — إذا طلق المسلم زوجته الثمينة ثلاثا فنكحها ذمى ودخل بها ثم طلقها ؛ فقالت طائفة : الذمى زوج لها ، ولما أن ترجع إلى الأول ؛ هكذا قال الحسن وسفيان والثوري والشافعي وأبو عبيد وأصحاب الرأي . قال ابن المنذر : وكذا لك قول ؛ لأن الله تعالى قال : « حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ » والنصراني زوج . وقال مالك وربيعة : لا يحلها .

العاشرة — النكاح الفاسد لا يحل المطلقة ثلاثا في قول الجمهور : مالك والثوري والشافعي والأوزاعي وأصحاب الرأي وأحمد وإسحاق وأبو عبيد ؛ كلهم يقولون : لا تحمل للزوج الأول إلا بنكاح صحيح ؛ وكان الحكم يقول : هو زوج . قال ابن المنذر : ليس بزوج ،

لأن أحكام الأزواج في الظهار والإيلاء واللعان غير ثابتة بينهما . وأجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم أن المرأة إذا قالت للزوج الأول : قد تزوجت ودخل على زوجي وصدةها أنها تحل للأول . قال الشافعي : والورع ألا يفعل إذا وقع في نفسه أنها كذبت .

الحادية عشرة - جاء عن عمر بن الخطاب في هذا الباب تليظ شديد وهو قوله : لا أوتي بحلل ولا علل له إلا رجعتما . وقال أبو عمر : التليظ سفاح ، لا يزالان زانيين ولو أقاما عشرين سنة . قال أبو عمر : لا يحتمل قول عمر إلا التليظ ، لأنه قد صح عنه أنه وضع الحذ عن الواطن قربة حراما قد جهل محرمة وعلمه بالجهالة ، فالتأويل أولى بذلك ، ولا خلاف أنه لا رجوع طيه .

قوله تعالى : (فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَلَكُمْ حُدُودُ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُعَذِّبُ الْمُعْصِينَ) فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (فَإِنْ طَلَّقَهَا) يريد المترج الثاني . (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا) أي المرأة والزوج الأول ؛ قاله ابن عباس ، ولا خلاف فيه . قال ابن المنذر : أجمع أهل العلم على أن الحرة إذا طلق زوجها ثلاثاً ثم انفقت عتتها ونكحت زوجاً آخر ودخل بها ثم فارقتها وانقضت عتتها ثم نكحها الأول أنها تكون عنده على ثلاث تطلقات .

واختلفوا في الرجل يطلق امرأته تطلقاً أو تطلقين ثم تزوج غيره ثم ترجع إلى زوجها الأول ؛ فقالت طائفة : تكون على ما يقع من طلاقها ؛ وكذلك قال الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وآبى بن كعب وعمران بن حصين وأبو هريرة . وروى ذلك عن زيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وبه قال عبيدة السلماني ومعيذ بن المسيب والحسن البصري ومالك وسفيان الثوري وآبى بن ليلى والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو عبيد وأبو ثور ومحمد بن الحسين وابن نصر . وفيه قول ثان وهو أن النكاح جديد والطلاق جديد ؛ هذا قول ابن عمر وابن عباس ،

وبه قال عطاء والتخى وشرح والتمن ويسقوب . وذكر أبو بكر بن أبي شيبة قال : حدثنا أبو معاوية ووكيع عن الأعمش عن إبراهيم قال : كان أصحاب عبد الله يقولون : أيهم الزوج الثلاث ، ولا يهيم الواحدة والاثنين ! . قال : وحدنا حفص عن حجاج عن طلحة عن إبراهيم أن أصحاب عبد الله كانوا يقولون : يهيم الزوج الواحدة والاثنين كما يهيم الثلاث ؛ إلا عبيدة فإنه قال : هي على ما بقى من طلاقها ؛ ذكره أبو عمر . قال ابن المنذر : والقول الأول أقول . وفيه قول ثالث وهو : إن كان دخل بها الأخير فطلاق جديد ونكاحٌ جديد ، وإن لم يكن دخل بها فعل ما بقى ؛ هذا قول إبراهيم التخى .

الثانية - قوله تعالى : (إِنْ ظَنَّا أَنْ يَحْيَا حُدُودَ اللَّهِ) شرط . قال طائوس : إن ظننا أن كل واحد منهما يُحسن عشرة صاحبه . وقيل : حدود الله فرائضه ؛ أى إذا علم أنه يكون بينهما الصلاح بالنكاح الثانى . فتى علم الزوج أنه يسير عن حققة زوجته أو صداقتها أو شيء من حقوقها الواجبة عليه فلا يحل له أن يزوجها حتى يبين لها ، أو يعلم من نفسه القدرة على أداء حقوقها . وكذلك لو كانت به طلة تمنع من الاستمتاع كان عليه أن يبين ؛ كلا يفتر المرأة من نفسه . وكذلك لا يجوز أن يفترها بنسب يذعيه ولا مال ولا صناعة يذكرها وهو كاذب فيها . وكذلك يجب على المرأة إذا علمت من نفسها العجز عن قيامها بحقوق الزوج ، أو كان بها علة تمنع الاستمتاع من جنون أو جذام أو برص أو داء فى الفرج لم يميز لها أن تنزه ، وعليها أن تبين له ما بها من ذلك ؛ كما يجب على بائع السلمة أن يبين ما بسلته من العيوب . ومتى وجد أحد الزوجين بصاحبه عيا فله الرد ؛ فإن كان العيب بالرجل فلها الصداق إن كان دخل بها ، وإن لم يدخل بها فلها نصفه . وإن كان العيب بالمرأة ردها الزوج وأخذ ما كان أعطاه من الصداق . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج امرأة من بنى تيمية فوجد بكشها برصا فردها وقال : " دلستم حل " .

واختلفت الرواية عن مالك في امرأة الميّن إذا سالت نفسها ثم فُرق بينهما بالثمن؛ فقال مرة : لما جميع الصداق . وقال مرة : لما نصف الصداق ؛ وهذا يبنى على اختلاف قوله : **يَم تَمْتَحِقُ الصداق بالتسليم أو بالدخول ؟** قولان .

الثالثة - قال ابن خُوَزَمَنَاد : واختلف أصحابنا هل على الزوجة خدمة أو لا ؟ فقال بعض أصحابنا : ليس على الزوجة خدمة ؛ وذلك أن العقد يتناول الاستمتاع لا الخدمة ؛ ألا ترى أنه ليس بعقد إجارة ولا تملك رقبة وإنما هو عقد على الاستمتاع ، والمستحق بالعقد هو الاستمتاع دون غيره ؛ فلا تطالب بأكثر منه ؛ ألا ترى الى قوله تعالى : **« فَإِنْ أَمَسَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا »** . وقال بعض أصحابنا : عليها خدمة مثلها ؛ فإن كانت شريفة المحل ليسار أوبة أو ترقه فعلها التدبير للزلز وأمر الخادم . وإن كانت متوسطة الحال فعلها أن تخرش الفراش ونحو ذلك . وإن كانت دون ذلك فعلها أن تقيم البيت وتطبخ وتغسل . وإن كانت من نساء الكُرد والذليل والجبل في بلدن كلفت ما يكلفه نساؤهم ؛ وذلك أن الله تعالى قال : **« وَمَنْ مِثْلَ الَّذِي ظَنِّينَ بِالْمَعْرُوفِ »** . وقد جرى عُرف المسلمين في بلدانهم في قديم الأمر وحديثه بما ذكرناه ؛ ألا ترى أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يتكفون الطحين والخبز والطبخ وفرش الفراش وتقريب الطعام وأشباه ذلك ، ولا تعلم امرأة امتنت من ذلك ، ولا يسوغ لها الامتناع ، بل كانوا يضربون نساءهم إذا قصرن في ذلك ، ويأخذونهن بالخدمة ؛ فلولا أنها مستحقة لما طالوهن .

الرابعة - قوله تعالى : **(وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)** حدود الله : ما منع منه . وألحذ ما منع من الاجترار على الفواحش . وأحلّت المرأة : امتنت من الزينة . ورجل محلود : ممنوع من الخير . والبواب حذاد أى مانع . وقد تقدّم هذا مستوفى . وإنما قال : **« لقوم يعلمون »** لأن الجاهل إذا كثره أمره ونبيه فانه لا يحفظه ولا يتعاهده . والعالم يحفظ ويتعاهد ؛ فلهذا المعنى خاطب العلماء ولم يخاطب الجاهل .

قوله تعالى : وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبَسْنَ أَجُلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ
أَوْ سَرَحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ
فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا عَآيَتِ اللَّهِ هُزُوًا وَآذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (فَلَبَسْنَ أَجُلَهُنَّ) معنى « لبسن » قاربن ، بإجماع من العلماء .
ولأن المعنى يضطر إلى ذلك ؛ لأنه بعد بلوغ الأجل لا خيار له في الإمساك . وهو في الآية
التي بعدها بمعنى التامى ؛ لأن المعنى يقتضى ذلك ، فهو حقيقة في الثانية مجاز في الأولى .

الثانية — قوله تعالى : (فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ) الإمساك بالمعروف هو القيام بما يجب لها
من حق على زوجها ، ولذلك قال جماعة من العلماء : إن من الإمساك بالمعروف أن الزوج
إذا لم يجد ما ينفق على الزوجة أن يطلقها ؛ فإن لم يفعل خرج عن حد المعروف ، فيطلق عليه
الحاكم من أجل الضرر اللاحق لها من بقائها عند من لا يقدر على نفقتها ، والجوع لا صبر عليه ؛
وهذا قال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو نور وأبو عبيد ويحيى القطان وعبد الرحمن
ابن مهدي ، وقاله من الصحابة عمرو بن لُحَيٍّ وأبو هريرة ، ومن التابعين سعيد بن المسيب
وقال : إن في ذلك سنة . ورواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقالت طائفة :
لا يُغزق بينهما ، ويلزمها الصبر عليه ، وتتعلق الثقة بفتته بحكم الحاكم ، وهذا قول عطاء
والزهري ، وإليه ذهب الكوفيون والثوري ؛ واحتجوا بقوله تعالى : « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ
فَنِظْرَةٌ إِلَى مَبْرَةِ » وقال : « وَأَتَكُونُوا الْآيَاتِ مِنْكُمْ » الآية ؛ فندب تعالى إلى إتكاك الفقير ،
فلا يجوز أن يكون الفقر سببا للفرقة ، وهو مندوب معه إلى التكاح . وأيضا فإن التكاح بين
الزوجين قد انعقد بإجماع فلا يُغزق بينهما إلا بإجماع مثله ، أو بسنة عن الرسول صلى الله عليه وسلم

لامراض لها . والحجة للأول قوله صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري : " تقول المرأة إنما أن تطعنني وإنا أن نطلقني " فهذا نص في موضع الخلاف . والفرقة بالإعسار عندنا طلبة رجعية خلافا للشافعي في قوله إنها طلقة بائنة ؛ لأن هذه فرقة بعد البناء لم يستكمل بها عدد الطلاق ولا كانت إعرض ولا لضرر بالزوج فكانت رجعية ؛ أصله طلاق المؤلوي .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَرْحُومٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ يعني فطلقوهن ؛ وقد تقدم .
﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ﴾ روى مالك عن ثور بن زيد الدثلي أن الرجل كان يطلق امرأته ثم يرجعها ولا حاجة له بها ولا يريد إمساكها ؛ كيما يطول بذلك العدة عليها وليضارها ، فأنزل الله تعالى : « وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ » يعظهم الله به . وقال الزجاج : « فقد ظلم نفسه » يعني عرض نفسه للعذاب ، لأن إتيان ما نهى الله عنه تعرض لعذاب الله . وهذا الخبر موافق لغيره الذي نزل بترك ما كان عليه أهل الجاهلية من الطلاق والارتجاع حسب ما تقدم بيانه عند قوله تعالى : « الطلاق مرتان » . فأفادنا هذان الخبران أن تزول الآيتين المذكورتين كان في معنى واحد متقارب وذلك حبس الرجل المدة ومراجعتها لما قصد إلى الإضرار بها ؛ وهذا ظاهر .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْدُوا آيَاتِ اللَّهِ هُرُوءًا ﴾ معناه لا تأخذوا أحكام الله تعالى في طريق الهزء فانها جد كلها ؛ فمن هزأ فيها لزمته . قال أبو الدرداء : كان الرجل يطلق في الجاهلية ويقول : إنما طلقت وأنا لاعب ؛ وكان يعتق ويتكح ويقول : كنت لاعبا ؛ فترك هذه الآية ؛ فقال عليه السلام : " من طلق أو حرر أو نكح أو أنكح فزعم أنه لاعب فهو جائز " . رواه معمر قال : حدثنا عيسى بن يونس عن عمرو عن الحسن عن أبي الدرداء فذكره بمعناه . وفي موطأ مالك أنه بلغه أن رجلا قال لابن عباس : إني طلقت امرأتى مائة مرة فإذا ترى علي ؟ فقال ابن عباس : طلقت منك ثلاث ، وسبع وتسعون أتخذت بها آيات الله هزوا . وخرج الدارقطني من حديث إسماعيل بن أمية القرشي عن علي قال : سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا طلق البتة فغضب وقال : " تحفنون آيات الله هزوا أو دين الله هزوا "

ولما من طلق ألبنة الزمان ثلاثا لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره . إسماعيل بن أمية هذا كوفي ضعيف الحديث . وروى عن عائشة أن الرجل كان يطلق امرأته ثم يقول : والله لا أوزنك ولا أدعك . قالت : وكيف ذاك ؟ قال : إذا يكبت قضين مذكك واجمكت ؛ فترلت : « وَلَا تَقْبَلُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُورًا » . قال علماءنا : والأقوال كلها داخلة في معنى الآية ؛ لأنه يقال لمن يخبر من آيات الله : إتخذها هزوا . ويقال ذلك لمن كفر بها ، ويقال ذلك لمن طرحها ولم يأخذ بها وعمل غيرها ؛ فعلى هذا تدخل هذه الأقوال في الآية . وآيات الله : دلائله وأمره ونبيه .

الخامسة — ولا خلاف بين العلماء أن من طلق هازلا أن الطلاق يلزمه ، واختلفوا في غيره على ما يأتي بيانه في « برائة » إن شاء الله تعالى . وخرج أبو داود عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ثَلَاثٌ يَجْزِيَنَّ جِدَّ وَهَزْلًا جِدُّ النِّكَاحِ وَالطَّلَاقُ وَالزَّجْمَةُ » . وروى عن علي بن أبي طالب وأبن مسعود وأبي الترداء كلهم قالوا : ثلاث لا لعب فيهنّ ولا لعب فيهنّ جادٌ : النكاح والطلاق والعتاق . وقيل : المعنى لا تركوا أوامر الله فتكونوا مقصرين لا عيين . ويدخل في هذه الآية الاستغفار من الذنب قولاً مع الإصرار فعلا ؛ وكذا كل ما كان في هذا المعنى فأعلمه .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي بالإسلام وبيان الأحكام . (والحكمة) : هي السنة المينة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم مراد الله فيما لم يُنص عليه في الكتاب . ﴿ يَعْظُمُ بِهِ ﴾ أي يخوفكم . ﴿ وَأَقْوُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ هدم .

قوله تعالى : وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبَسْنَ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٦﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ)** روى أن معقل بن يسار كانت أخته تحت أبي البلّاح^(١) فطلقها وتركها حتى اتقضت عدتها ، ثم ندم فخطبها فرفضت وأبى أخوها أن يزوجها وقال : **وَيَجِيئُ مِنْ وَجْهِكَ حَرَامٌ إِنْ تَزَوَّجْتَهُ فَمَنْزِلَةُ الْآيَةِ** . قال مقاتل : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم معقلا فقال : **« إِنْ كُنْتَ مُؤْمِنًا فَلَا تَمْنَعُ أَخْكَ عَنْ أَبِي الْبَلَّاحِ »** فقال : آمنت بالله وزوجتها منه . وروى البخاري عن الحسن أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها حتى اتقضت عدتها فخطبها فابى معقل فقلت : **« فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ »** . وأخرجه أيضا الدارقطني عن الحسن قال : حدثني معقل بن يسار قال : كانت لي أخت فخطبت إلى فكننت اسمها الناس ، فأتى ابن عم لي فخطبها فأنكحها إياه ، فاصطحب ما شاء الله ثم طلقها طلاقا رجيا ثم تركها حتى اتقضت عدتها فخطبها مع الخطاب ، فقلت : منعنا الناس وزوجتك إياها ثم طلقها طلاقا له رجعة ثم تركتها حتى اتقضت عدتها فلما خطبت إلى أبيني فخطبها مع الخطاب ! لا أزورك أبدا ! فأتى الله أو قال أنزلت : **« وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ قَبْلَ أَنْ أُجْلِيَ عَنْهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ »** فكفرت عن يميني وأنكحها إياه . في رواية البخاري : **« غِيِي معقل من ذلك أنفا وقال خلا عنها وهو يقدر عليها ثم يخطبها ! فأتى الله الآية ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه الآية فترك الحية واتقاد لأمر الله تعالى . وقيل : هو معقل بن سنان (بالنون) . قال النحاس : رواه الشافعي في كتيبه عن معقل بن يسار أو سنان . وقال الطحاوي : هو معقل بن سنان .**

الثانية - إذا ثبت هذا في الآية دليل على أنه لا يجوز النكاح بنيرولي لأن أخت معقل كانت ثيبا ، ولو كان الأمر إليها دون وليها لزوجت نفسها ، ولم تنجح إلى وليها معقل . فالخطاب إذا في قوله تعالى : **« فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ »** للأولياء ، وأن الأمر إليهم في التزوج

(١) في الأصول : « أبي السداح » وهو عريف .

مع وضاهن . وقد قيل : إن الخطاب في ذلك للأزواج ، وذلك بأن يكون الارتجاع مضارة
عشلا عن نكاح الغير بتطويل العدة عليها . واحتج بها أصحاب أبي حنيفة على أن تزوج المرأة
نفسها قالوا : لأن الله تعالى أضاف ذلك إليها كما قال : « فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَبْتَاعَ
زَوْجًا غَيْرَهُ » ولم يذكر الولي . وقد تقدم القول في هذه المسألة مستوفى : والأول أصح
لما ذكرناه من سبب التزول . والله أعلم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلَ ﴾ بلوغ الأجل في هذا الموضع : تاهيه ،
لأن ابتداء النكاح إنما يتصور بعد انقضاء العدة . و « تعضلون » معناه تعبسوهن .
وحكى الخليل : دجاجة مُعْضِلٌ : قد احتبس بيضها . وقيل : العضل التضيق والمنع وهو
راجع إلى معنى الحبس ، يقال : أردتُ أمرا فعضلته عنه أى منعتنى عنه وضيقته على .
وأعضل الأمر : إذا ضاقت عليك فيه الحيل ، ومنه قولهم : إنه لمعضلةٌ من المعسل إذا كان
لا يُقدَّر على وجه الحيلة فيه . وقال الأزهري : أصل العضل من قولهم : عَضَلْتُ الناقة إذا
نُسِبَ ولدها فلم يسهل خروجه . وعَضَلْتُ الدجاجة : نُسِبَ بيضها . وفي حديث معاوية : —
« مُعْضِلَةٌ وَلَا أَبَا حَسَنِ » أى مسألة صعبة ضيقة الخارج . وقال طائوس : لقد وردت عُضْلُ
أفضية ما قام بها إلا ابن عباس . وكل مُشْكِل عند العرب مُعْضِلٌ ، ومنه قول
الشافعي :

إذا ألمعضلاتُ نَضَيْتَنِي * كَشَفَتْ حَقَائِقَهَا بِالنَظَرِ

ويقال : أعضل الأمر إذا اشتد . وداء عضال أى شديد غير البرء أعيا الأطباء .
وعَضَلُ فلانُ أيمه أى منعه ؛ يعضلها ويعضلها (بالضم والكسر) لقتان .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ ﴾ ولم يقل « ذلك » لأنه محمول
على معنى الجمع . ولو كان « ذلك » مجازا ، مثل : ﴿ ذَلِكَ أَرْزَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ أى مالكم
فيه من الصلاح . ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْعِمَ الرِّضَاعَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَيْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَاءً آتَيْتُمُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

فيه ثمان عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : (وَالْوَالِدَاتُ) ابتداء . (يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ) في موضع الخبر . (حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ) ظرف زمان . ولما ذكر الله سبحانه النكاح والطلاق ذكر الولد لأن الزوجين قد يفرقان وتم ولد ، فالآية إذا في المطلقات اللاتي لمن أولاد من أزواجهن ؛ قاله السدتي والضحاك وغيرهما ، أي من أحق برضاع أولادهن من الأجنبية لأنهن أحق وأرق ، واتضاع الولد الصغير إضراراً به وبها ، وهذا يدل على أن الولد وإن فطم فلازم أحق بحضانه فضل حثوا وشققها ، وإنما تكون أحق بالحضانه إذا لم تتزوج على ما يأتي . وعلى هذا يشكك قوله : « وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ » لأن المطلقة لا تستحق الكسوة إذا لم تكن رجعية بل تستحق الأجرة إلا أن يحمل على مكارم الأخلاق فيقال : الأولى ألا تنقص الأجرة عما يكفيها لقوتها وكسوتها . وقيل : الآية عامة في المطلقات اللواتي لمن أولاد وفي الزوجات . والأظهر أنها في الزوجات في حال بقاء النكاح ؛ لأنهن المستحقات للنفقة والكسوة ، والزوجة تستحق النفقة والكسوة أَرْضعت أو لم تُرضع ؛ والنفقة والكسوة مقابلة التمكين ، فإذا اشتغلت بالإرضاع لم يكمل التمكين ؛ فقد يتوهم أن النفقة تسقط فأزال ذلك الوهم بقوله تعالى : « وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ » أي الزوج رزقهن وكسوتهن في حال الرضاع لأنه اشتغل في مصالح الزوج ؛ فصارت كالوالد سافرت لحاجة الزوج فإذا كان النفقة لا تسقط .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ يَرْضَعْنَ ﴾ خبر معناه الأمر على الوجوب لبعض الوالدات .
وعلى جهة التنبه لبعضهن على ما يأتي . وقيل : هو خبر من المشروعية كما تقدم .

الثالثة - واختلف الناس في الرضاع هل هو حق للأُم أو هو حق عليها ؛ واللفظ محتمل لأنه لو أراد التصريح بكونه عليها لقال : وعلى الوالدات رضاع أولادهن .
كما قال تعالى : « وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِتَابَتُهُنَّ » ولكن هو عليها في حال الزوجية ، وهو عُرِفَ يلزم إذ قد صار كالشرط ، إلا أن تكون شريفة ذات تَرَفٍّ فَرُقَهَا الْآرِضِعَ وذلك كالشرط . وعليها إن لم يقبل الولد غيرها واجب ، وهو عليها إذا عدم اختصاصها به .
فإن مات الأب ولا مال للصبي فذهب مالك في « المدونة » أن الرضاع لازم للأُم بخلاف الشافعية . وفي كتاب ابن الجلاب : رضاعه في بيت المال . وقال عبد الوهاب : هو فقير من فقراء المسلمين . وأما المطلقة طلاق ببنوة فلا رضاع عليها ، والرضاع على الزوج إلا أن تنساه ؛ فهي أحق بأجرة المثل ؛ هذا مع يسر الزوج فإن كان مُعَصِّبًا لم يلزمها الرضاع إلا أن يكون المولود لا يقبل غيرها فنجبر حينئذ على الإرضاع . وكل من يلزمها الإرضاع فإن أصابها عذر يمنحها منه عاد الإرضاع على الأب . ورُوي عن مالك أن الأب إذا كان مُعَصِّبًا ولا مال للصبي أن الرضاع على الأم ؛ فإن لم يكن لها لبن وطأ مال فالإرضاع عليها في مالها . قال الشافعي : لا يلزم الرضاع إلا والدا أو جدًا وإن علًا ؛ وسبأني ما للعلماء في هذا عند قوله تعالى : « وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ » . يقال : رَضِعَ يَرْضَعُ رَضَاعًا وَرَضَاعًا ، وَرَضَعَ يَرْضَعُ رِضَاعًا وَرَضَاعَةً (يكسر الزاء في الأول وفتحها في الثاني) واسم الفاعل راضع فيهما . والرَضَاعَةُ : اللَّأُمُ (مفتوح الزاء لا غير) .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ حَوْلَيْنِ ﴾ أي ستين ، من حال النوى إذا انقلب فالحول منقلب من الوقت الأوَّل إلى الثاني . وقيل : سُمِّيَ العام حولا لاستحالة الأمور فيه في الأظلم . ﴿ كَامِلَيْنِ ﴾ قيد بالكامل لأن القائل قد يقول : أفت عند فلان حولين وهو يريد حولا وبعض حول آخر ؛ قال الله تعالى : « قَن تَسْبِلُ يَوْمَئِذٍ » وإنما يتسبَّل

في يوم وبعض الثاني . وقوله تعالى : « لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْرُزَ الرِّضَاعَةَ » دليل على أن إرضاع الحولين ليس حتماً فانه يجوز الفطام قبل الحولين ، ولكنه تحديد لقطع التنازع بين الزوجين في مدة الرضاع ، فلا يجب على الزوج إعطاء الأجرة لأكثر من حولين . وإن أراد الأب الفطم قبل هذه المدة ولم ترض الأم لم يكن له ذلك . والزيادة على الحولين أو نقصان إنما يكون عند عدم الإضرار بالمولود وعند رضا الوالدين . وقرأ مجاهد وابن عُيَيْنَةَ « لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْرُزَ الرِّضَاعَةَ » بفتح التاء ورفع « الرضاعة » على إسناد الفعل إليها . وقرأ أبو حنيفة وابن أبي عبيدة والجارود بن أبي سبرة بكسر الراء من « الرضاعة » وهي لغة كالحضارة والحضارة . وروى عن مجاهد أنه قرأ « الرضعة » على وزن الفعلة . وروى عن ابن عباس أنه قرأ « أن يكل الرضاعة » . النحاس : لا يعرف البصريون « الرضاعة » إلا بفتح الراء ، ولا « الرضاع » إلا بكسر الراء ، مثل القتال . وحكى الكوفيون كسر الراء مع الماء وفتحها بغيره .

الخامسة - اتزع مالك رحمه الله تعالى ومن تابعه وجماعة من العلماء من هذه الآية أن الرضاعة المحرمة الجارية مجرى النسب إنما هي ما كان في الحولين لأنه باتقضاء الحولين تمت الرضاعة ، ولا رضاعة بعد الحولين معتبرة . هذا قوله في موطنه ، وهي رواية محمد بن عبد الحكم عنه ، وهو قول عمر وابن عباس ، وروى عن ابن مسعود ، وبه قال الزهري وقادة والشافعي وسفيان الثوري والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو يوسف وعبد أبو نور . وروى ابن عبد الحكم عنه الحولين وزيادة أيام يسيرة . عبد الملك : كالتشهر ونحوه . وروى ابن القاسم عن مالك أنه قال : الرضاع الحولين والشهرين بعد الحولين . وحكى عنه الوليد بن مسلم أنه قال : ما كان بعد الحولين من رضاع شهر أو شهرين أو ثلاثة فهو من الحولين ، وما كان بعد ذلك فهو عبث . وحكى عن الثعلبي أنه قال : وما كان بعد الحولين إلى ستة أشهر فهو رضاع ، والصحيح الأول لقوله تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » وهذا يدل على أن لأحكام لما ارتضع المولود بعد الحولين . وروى سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا رضاع إلا ما كان في الحولين » . قال الدارقطني : لم يستند عن ابن عينة غير الميم بن جميل ، وهو ثقة حافظ .

قلت : وهذا الخبر مع الآية والمعنى ينفي رضاعة الكبير وأنه لا حرمة له . وقد روى عن عائشة القول به . وبه يقول الليث بن سعد من بين العلماء . وروى عن أبي موسى الأشعري أنه كان يرى رضاع الكبير . وروى عنه الرجوع عنه . وسيأتي في سورة « النساء » مبيّنا إن شاء الله تعالى .

السابعة — قال جمهور المفسرين : إن هذين الحولين لكل ولد . وروى عن ابن عباس أنه قال : هي في الولد يمكث في البطن ستة أشهر ، فإن مكث سبعة أشهر فرضاعه ثلاثة وعشرون شهرا ، فإن مكث ثمانية أشهر فرضاعه اثنان وعشرون شهرا ، فإن مكث تسعة أشهر فرضاعه أحد وعشرون شهرا لقوله تعالى : « وَحَلَهُ وَفَصَّالَهُ ثَلَاثُونَ شهراً » . وعلى هذا تتداخل مدة الحمل ومدة الرضاع ويأخذ الواحد من الآخر .

السابعة — قوله تعالى : (وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ) أى وعلى الأب . ويمرّ في العربية « وعلى المولود لهم » كقوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ » لأن المعنى وعلى الذى ولد له و « الذى » يُعبر به عن الواحد والجمع كما تقدم .

الثامنة — قوله تعالى : (وَرِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ) الرزق في هذا الحكم الطعام الكاف ، وفي هذا دليل على وجوب نفقة الولد على الوالد لضعفه وعجزه . وسماه الله سبحانه لائمه لأن الشفاء يصل إليه بواسطتها في الرضاع كما قال : « وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمِلٌ فَأَغِيقُوا عَلَيْهِنَّ » لأن الشفاء لا يصل إلا بسببها .

وأجمع العلماء على أن على المرأة نفقة ولده الأطفال الذين لا مال لهم . وقال صلى الله عليه وسلم لهند بنت ضبة وقد قالت له : إن أبا سفيان رجل شحيح وإنه لا يطعني من النفقة ما يكفيني ويكفي بتي إلا ما أخذت من ماله بغير علمه فهل على في ذلك جناح ؟ قال : — « خُذِي ما يكفيك ولذالك بالمعروف » . والكسوة : اللباس . وقوله : « بالمعروف » أى بالمعارف في عُرف الشرع من غير تضريط ولا إفراط . ثم بين تعالى أن الإحراق على قدر غنى الزوج ومقتضاها من غير تقدير مد ولا غيره بقوله تعالى : « لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا »

على ما يأتي بيانه في الطلاق إن شاء الله تعالى . وقيل المعنى أى لا تكف المرأة الصبر على
التغير في الأجرة ولا يكف الزوج ما هو إسراف بل يرعى القصد .

الثامنة - في هذه الآية دليل لما لك على أن الحضنة للأُم؛ فهي في الغلام إلى البلوغ،
وفي الجارية إلى النكاح؛ وذلك حق لها، وبه قال أبو حنيفة . وقال الشافعي : إذا بلغ
الولد ثمان سنين وهو من التميز خُبرين أبويه فإنه في تلك الحالة تتحرك عنه لتعلم القرآن
والأدب ووظائف العبادات ، وذلك يستوى فيه الغلام والجارية . وروى النسائي وغيره
عن أبي هريرة أن امرأة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت له : زوجي يريد أن
يذهب بأخي، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " هذا أبوك وهذه أهلك فخذ أيهما شئت " .
فاخذ بيد أمه . وفي كتاب أبي داود عن أبي هريرة قال : جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم وأنا قاعد عنده فقالت : يا رسول الله، إن زوجي يريد أن يذهب بأخي ، وقد
سفاني من برد أبي حنيفة، وقد فنعني، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " استهما عليه " فقال
زوجها : من يُمَاطني في ولدي ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " هذا أبوك وهذه أهلك
فخذ بيد أحدهما شئت " فاخذ بيد أمه فانطلقت به . ودليلا ما رواه أبو داود عن الأوزاعي
قال : حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو أن امرأة جاءت إلى النبي
صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله، إن أباي هنا كان بطني له وماء، وتدني له سقاء،
ويجري له حواء، وإن أباه طلقني وأراد أن يترعه مني؛ قال لما رسول الله صلى الله عليه وسلم :
" أنت أحق به ما لم تنكحي " . قال ابن المنذر : أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن
الزوجين إذا اترقا ولما ولد أن الأم أحق به ما لم تنكح . وكذا قال أبو عمر : لا أعلم خلافا
بين السلف من العلماء في المرأة المطلقة إذا لم تتزوج أنها أحق بولدها من أبيه مادام طفلا
صغيرا لا يميز شيئا إن كان عندها في حرز وكفاية ولم يثبت فيها فسق ولا تبرج .

ثم اختلفوا بعد ذلك في تقييده إذا مير ومقل بين أبيه وأمه وقيم هو أولى به ؛
قال ابن المنذر : وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى في أبنه حزة للحالة من غير تقييد .

روى أبو داود عن عليّ قال : خرج زيد بن حارثة الى مكة فقدم بابتة حمزة ، فقال جعفر :
 أنا أخذها أنا أحق بها ، ابنة عمي وخالتها عندي والحالة أم . قال عليّ : أنا أحق بها ،
 ابنة عمي وعندي ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي أحق بها . فقال زيد : أنا أحق بها ،
 أنا خرجت إليها وسافرت وقدمت بها . فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فذكر حديثا قال :
 ” وأما الجارية فأقضي بها لجعفر تكون مع خالتها وإنما الحالة أم “ .

العاشره — قال ابن المنذر : وقد أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن لا حق
 للأُم في الولد إذا تزوجت .

قلت : كما قال في كتاب الإشراف له . وذكر القاضي عبد الوهاب في شرح الرسالة له
 عن الحسن أنه لا يسقط حقها من الحضانة بالتزوج . وأجمع مالك والشافعي والنعمان وأبو نود
 على أن الحقة أم الأم أحق بحضانة الولد . واختلفوا إذا لم يكن لها أم وكان لها جنة هي أم
 الأب ؛ فقال مالك : أم الأب أحق إذا لم يكن للصبي خالة . وقال ابن القاسم قال مالك : وبلغني
 ذلك عنه أنه قال : الحالة أولى من الحقة أم الأب . وفي قول الشافعي والنعمان : أم الأب أحق
 من الحالة . وقد قيل : إن الأب أولى بابنه من الحقة أم الأب . قال أبو عمر : وهذا عندي
 إذا لم يكن له زوجة أجنبية . ثم الأخت بعد الأب ثم العمة . وهذا إذا كان كل واحد من
 هؤلاء مأمونا على الولد ، وكان عنده في حرز وكفاية ؛ فإذا لم يكن كذلك لم يكن له حق
 في الحضانة ، وإنما ينظر في ذلك الى من يحوط بالصبي ومن يحسن إليه في حفظه وتعلمه
 الخبر . وهذا على قول من قال إن الحضانة حق الولد ؛ وقد روى ذلك عن مالك وقال به
 طائفة من أصحابه ؛ وكذلك لا يرون حضانة لفاجرة ولا لضعيفة فاجرة عن القيام بحق الصبي
 لمرض أو زمانة . وذكر ابن حبيب عن مطرف وابن الماجشون عن مالك أن الحضانة
 للأم ثم الحقة للأم ثم الحالة ثم الحقة للأب ثم أخت الصبي ثم عمة الصبي ثم ابنة
 أخي الصبي ثم الأب . والحقة للأب أولى من الأخت والأخت أولى من العمة
 والعمة أولى من بعدها وأولى من جميع الرجال الأولياء . وليس لابنة الحالة ولا لابنة العمة
 ولا لبنت أخوات الصبي من حضانتهم شيء . فإذا كان الحاضن لا يخاف منه على الطفل

تضييع أو دخول فساد كلف حاضاً له أبداً حتى يبلغ الحلم . وقد قيل : حتى يشتره ، وحتى تخرج الجارية ؛ إلا أن يريد الأب قلة سفر وإبطان فيكون حينئذ أحق بولده من أمه وغيرها إن لم تُرد الانتفال . وإن أراد الخروج لتجارة لم يكن له ذلك . وكذا أولياء الصبي الذين يكون ماله إذا استقلوا للاستيطان . وليس للأب أن يتقل ولدها عن موضع سكنى الأب إلا فيما يقرب نحو المسافة التي لا تقصر فيها الصلاة . ولو شرط عليها في حين انتقاله عن بلدها أنه لا يترك ولده عندها إلا أن تلتزم نفقته ومشوخته سنين معلومة فإن التزمت ذلك لزمها ؛ فإن ماتت لم تتبع بذلك ورتبها في تركتها . وقد قيل : ذلك دين يؤخذ من تركتها ؛ والأول أصح إن شاء الله تعالى ؛ كما لو مات الولد أو كما لو صالحها على نفقة الحمل والرضاع فأُسقطت لم تتبع بشيء من ذلك .

الحادية عشرة - إذا تزوجت الأُم لم يتزع منها ولدها حتى يدخل بها زوجها عند مالك . وقال الشافعي : إذا نكحت فقد انقطع حقها . فإن طلقها لم يكن لها الرجوع فيه عند مالك في الأشهر عندنا من مذهبه . وقد ذكر القاضي إسماعيل وذكره ابن خزيمة متناد أيضاً عن مالك أنه اختلف قوله في ذلك ؛ فقال مرة : يرد إليها . وقال مرة : لا يرد . قال ابن المنذر : فإذا خرجت الأُم عن البلد الذي به ولدها ثم رجعت إليه فهي أحق بولدها في قول الشافعي وأبي ثور وأصحاب الرأي . وكذلك لو تزوجت ثم طُلق أو توفى عنها زوجها رجعت في حقها من الولد .

قلت : وكذلك قال القاضي أبو محمد عبد الوهاب ؛ فإن طلقها الزوج أو مات عنها كان لها أخذه لوال العذر الذي له جاز تركه .

الثانية عشرة - فإن تركت المرأة حضانه ولدها ولم تُرد أخذه وهي فارغة غير مشغولة بزواج ثم أرادت بعد ذلك أخذه نظر لها ؛ فإن كان تركها له من عذر كان لها أخذه ، وإن كانت تركته رفقاً له ومقتناً لم يكن لها بعد ذلك أخذه .

(١) الانتار : سقوط سن الصبي ونبتها . وفي بعض الأصول : حتى « يميز » .

(٢) كما في الأصول ، ولده ماله لهم .

الثالثة عشرة — واختفوا في الزوجين يفتقان بطلاق والزوجة ذمية ؛ فقالت طائفة :
لا فرق بين الفتية والمسلمة وهي أحق بولدها ؛ هذا قول أبي ثور وأصحاب الرأي وابن القاسم
صاحب مالك . قال ابن المنذر : وقد روينا حديثاً مرفوعاً موافقاً لهذا القول ؛ وفي إسناده
مقال . وفيه قول ثان أن الولد مع المسلم منها ؛ هذا قول مالك وسوار وعبد الله بن الحسن .
وحكى ذلك عن الشافعي . وكذلك اختفوا في الزوجين يفتقان ؛ أحدهما حر والآخر مملوك ؛
فقالت طائفة : الحُر أولى ؛ هذا قول عطاء والثوري والشافعي وأصحاب الرأي . وقال مالك :
في الأب إذا كان حراً وله ولد حر والأُم مملوكة : إن الأُم أحق به إلا أن تُباع فتقتل فيكون
الأب أحق به .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ لَا تُضَارُّ وَالِدَهُ بِوَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودُهُ بِوَلَدِهِ ﴾ المعنى :
لا تأبي الأم أن ترضعه إضراراً بآبائه أو تطلب أكثر من أجر مثلها ، ولا يحل للأب أن يبيع
الأم من ذلك مع رغبتها في الإرضاع ؛ هذا قول جمهور المفسرين . وقرأ نافع وعاصم وحمة
والكسائي « تُضَارُّ » بفتح الزاء المشددة وموضعه جزم على التهي ؛ وأصله تضارر على الأصل ،
فادغمت الزاء الأولى في الثانية وضعت الثانية لاتقاء الساكنين ؛ وهكنا يفعل في المضاعف
إذا كان قبله فتح أو ألف ؛ تقول : عَصَّ ياربجل ، وضَارَّ فلاناً ياربجل . أى لا يُترع الولد
منها إذا رضيت بالإرضاع وألفها الصبي . وقرأ أبو عمرو وابن كثير وأبان عن عاصم وجماعة
« تُضَارُّ » بالرفع عطفاً على قوله : « تكلف نفس » وهو خبر والمراد به الأمر . وروى يونس
عن الحسن قال يقول : لا تضار زوجها ، قول : لا أرضعه ؛ ولا يضارها فيترعه منها وهي
تقول : أنا أرضعه . ويحتمل أن يكون الأصل « تُضَارِر » بكسر الزاء الأولى ؛ ورواها
أبان عن عاصم ، وهي لغة أهل الحجاز . فـ « والدته » فاعله ؛ ويحتمل أن يكون « تضار »
فـ « والدته » مفعول ما لم يسم فاعله . وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ
« لا تضار » برأين الأولى مفتوحة . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع « تضار » بإسكان الزاء
وتخفيفها . وكذلك « لا يضار كاتب » وهذا بعيد لأن المثلين إذا اجتمعا وهما أصليان لم يجر

حنف احدهما للتخفيف ؛ فإما الإذعام وإما الإظهار . وروى عنه الإسكان والتشديد .
وروى عن ابن عباس والحسن « لا تُضارو » بكسر الراء الأولى .

الخامسة عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ هو معطوف على قوله : « وعلى المولود » واختلَفوا في تأويل قوله : « وعلى الوارث مثل ذلك » فقال قتادة والسدي والحسن وعمر بن الخطاب رضي الله عنه : هو وارث الصبي أن لومات . قال بعضهم : وارثه من الرجال خاصة يلزمه الإرضاع ؛ كما كان يلزم أبا الصبي لو كان حياً ؛ وقاله مجاهد وعطاء . وقال قتادة وغيره : هو وارث الصبي من كان من الرجال والنساء ، ويلزمهم إرضاعه على قدر موارثتهم منه ؛ وبه قال أحمد وإسحاق . وقال القاضي أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق في كتاب « معاني القرآن » له : فأما أبو حنيفة فانه قال : تجب نفقة الصغير ورضاعه على كل ذي رحم محرم ؛ مثل أن يكون رجل له ابن أخت صغير محتاج وابن عم صغير محتاج وهو وارثه ؛ فان النفقة تجب على انخال لابن أخته الذي لا يرثه ، وتسقط عن ابن العم لابن عمه الوارث . قال أبو إسحاق : فقالوا قولنا ليس في كتاب الله ولا نعلم أحدا قاله . وحكى الطبري عن أبي حنيفة وصاحبيه أنهم قالوا : الوارث الذي يلزمه الإرضاع هو وارثه إذا كان ذا رحم محرم منه ؛ فان كان ابن عم وغيره ليس بنذي رحم محرم فلا يلزمه شيء . وقيل : المراد عصبة الأب عليهم النفقة والكسوة . قال الضحاك : إن مات أبو الصبي وللصبي مال أخذ رضاعه من المال ، وإن لم يكن له مال أخذ من العصبة ، وإن لم يكن للعصبة مال أجبرت الأثم على رضاعه . وقال قيس بن ذؤيب والضحك وبشر بن نصر قاضي عمر بن عبد العزيز : الوارث هو الصبي نفسه ؛ وتأولوا قوله : « وعلى الوارث » المولود ، مثل ما على المولود له ، أي عليه في ماله إذا ورث أباه إرضاع نفسه . وقال سفيان : الوارث هنا هو الباقي من والدي المولود بعد وفاة الآخر منهما ؛ فإن مات الأب فعل الأثم كفاية الطفل إذا لم يكن له مال ، ويشاركها العاصب في إرضاع المولود على قدر حظه من الميراث . وقال ابن خزيمة متناد : ولو كان اليتيم فقيرا لا مال له وجب على الإمام القيام به من بيت المال ؛ فإن لم يفعل الإمام وجب ذلك على المسلمين ، الأخص به

فالأخص ؛ والأُم أخص به فيجب عليها إرضاعه والقيام به ، ولا ترجع عليه ولا على أحد .
والرضاع واجب والتفقة استحباب ؛ ووجه الاستحباب قوله تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ
أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » وواجب على الأزواج القيام بهن ؛ فإذا تعذر استيفاء الحق لمن
بموت الزوج أو إصابته لم يسقط الحق عنهن ؛ ألا ترى أن العدة واجبة عليهن والتفقة والسكنى
على أزواجهن ؛ وإذا تضررت التفقة لمن لم تسقط العدة عنهن . وروى عبد الرحمن بن القاسم
عن مالك في الأسدية أنه قال : لا يلزم الرجل نفقة أخ ولا ذى قرابة ولا ذى رحم منه . قال
وقول الله عز وجل « وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ » هو منسوخ . قال النحاس : هذا لفظ
مالك ، ولم يبين ما الناسخ لما ولا عبد الرحمن بن القاسم ، ولا علمت أن أحدا من أصحابهم
بين ذلك ؛ والذي يشبه أن يكون الناسخ لما عنده والله أعلم أنه لما أوجب الله تعالى للتوقف
عنها زوجها من مال المتوقف نفقة حول والسكنى ثم نسخ ذلك ورفعها ؛ نسخ ذلك أيضا
عن الوارث .

قلت : فعل هذا تكون التفقة على الصبي نفسه من ماله ، لا يكون على الوارث منها شيء
على ما يأتي . قال ابن العربي : قوله « وعلى الوارث مثل ذلك » قال ابن القاسم عن مالك
هى منسوخة ؛ وهذا كلام تشتمر منه قلوب الناظرين ، وتحار فيه ألباب الشاذين ، والأمر فيه
قريب ! وذلك أن العلماء المتقدمين من الفقهاء والمفسرين كانوا يسمون التخصيص نسخا
لأنه رفع بعض ما يتناول العموم ساعية ، وجرى ذلك فى الستهم حتى أشكل ذلك على
من بعدهم ؛ وتحقيق القول فيه أن قوله تعالى : « وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ » إشارة إلى ما تقدم ؛
فإن الناس من رده إلى جميعه من إيجاب التفقة وتحريم الإضرار ، منهم أبو حنيفة من الفقهاء ،
ومن السلف قتادة والحسن ويسند إلى عمر . وقالت طائفة من العلماء : إن معنى قوله
« وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ » لا يرجع إلى جميع ما تقدم ، وإنما يرجع إلى تحريم الإضرار ؛
والمعنى : وعلى الوارث من تحريم الإضرار بالأُم ما على الأب ؛ وهذا هو الأصل ، فمن ادعى
أنه يرجع المطلق فيه إلى جميع ما تقدم فليدفع الدليل .

قلت : قوله « وهذا هو الأصل » يريد في رجوع الضمير إلى أقرب مذكور، وهو صحيح؛ إذ لو أراد الجميع الذي هو الإرضاع والإحاق وعدم الضرر لقال وعلى الوارث مثل هؤلاء؛ فدل على أنه معطوف على المنع من المضاربة؛ وعلى ذلك تأوله كافة المفسرين فيها حكي القاضي جدد الوهاب، وهو أن المراد به أن الوالدة لا تضار ولها في أن الأب إذا بذل لها أجرة المثل ألا ترضعه، ولا مولود له بولده في أن الأم إذا بذلت أن ترضعه بأجرة المثل كان لها ذلك؛ لأن الأم أرفق وأحق عليه، ولها خير له من لبن الأجنبية . قال ابن عطية : وقال مالك رحمه الله وجميع أصحابه والشعبي أيضا والزهرى والضحاك وجماعة من العلماء : المراد بقوله « مثل ذلك » ألا تضار؛ وأما الرزق والكسوة فلا يجب شيء منه . وروى ابن القاسم من مالك أن الآية تضمنت أن الرزق والكسوة على الوارث، ثم نسخ ذلك بالإجماع من الأمة في ألا يضار الوارث؛ والخلاف هل عليه رزق وكسوة أم لا . وقرأ يحيى بن يعمر « وعلى الورثة » بالجمع، وذلك يقتضى العموم؛ فان استدلووا بقوله عليه السلام . « لا يقبل الله صدقةً ففرّج بها حاجاً » قيل لهم الرحم عموم في كل ذي رحم، محرماً كان أو غير محرّم، ولا خلاف أن صرف الصدقة إلى ذي الرحم أولى لقوله عليه السلام : « اجعلها في الأحرار » فحمل الحديث على هذا، ولا حجة فيه على ما راموه؛ والله اعلم . وقال النحاس : وأما قول من قال « وعلى الوارث مثل ذلك » ألا يضار فنقول حسن؛ لأن أموال الناس محظورة فلا يخرج شيء منها إلا بدليل قاطع . وأما قول من قال على ورثة الأب فالجدة أن النفقة كانت على الأب فورثته أولى من ورثة الأب . وأما حجة من قال على ورثة الأب فيقول كما يرثونه يقومون به . قال النحاس : وكان محمد بن جرير يفتي بقول من قال الوارث هنا الأب؛ وهو وإن كان قولاً غريباً فالاستدلال به صحيح والحجة به ظاهرة لأن ماله أولى به . وقد أجمع الفقهاء إلا من شذ منهم أن رجلاً لو كان له ولد طفل وللولد مال والأب موسر أنه لا يجب على الأب نفقة ولا رضاء، وأن ذلك من مال الصبي . فان قيل قد قال الله عز وجل « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن »؛ قيل : هذا الضمير للأزواج، ومع هذا فإن الإجماع

حَدَّثَ لَإِيَّةَ مَيْنَ لَهَا، لَا يَسَعُ مَسَامَا الْخُرُوجِ عَنْهُ . وَأَمَّا مَنْ قَالَ ذَلِكَ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنَ الْأَيَّامِ
 فَحُجَّتْهُ أَنَّهُ لَا يَحْزُزُ لِلْأَمِّ تَضْيِيعٌ وَلَهَا وَقَدْ مَاتَ مَنْ كَانَ يَنْفَقُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهَا . وَقَدْ تَرَجَّمَ الْبَخَّارِيُّ
 عَلَى رَدِّ هَذَا الْقَوْلِ « بَابٌ — وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ، وَهَلْ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنْ شَيْءٍ » وَسَاقَ حَدِيثَ
 أُمِّ سَلَمَةَ وَهَذَا . وَالْمَعْنَى فِيهِ : أَنَّهُ أُمُّ سَلَمَةَ كَانَتْ لَهَا أَبْنَاءٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مَالٌ،
 فَسَأَلَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهَا أَنَّ لَهَا فِي ذَلِكَ أَجْرًا . فَقَدَّرَ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ نَفَقَةَ
 بَنِيهَا لَا تَجِبُ عَلَيْهَا ، وَلَوْ وَجِبَتْ عَلَيْهَا لَمْ تَقُلْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَلَسْتُ بِتَارِكْتَهُمْ .
 وَأَمَّا حَدِيثُ هَذَا فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَطْلَقَهَا عَلَى أَخْذِ نَفَقَتِهَا وَنَفَقَةِ بَنِيهَا مِنْ مَالِ
 الْأَبِّ ، وَلَمْ يَوْجِبْهَا عَلَيْهَا كَمَا أَوْجَبَهَا عَلَى الْأَبِّ . فَاسْتَدَلَّ الْبَخَّارِيُّ مِنْ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَلْزَمْ
 الْأُمَمَاءُ نَفَقَاتِ الْأَبْنَاءِ فِي حَيَاةِ الْآبَاءِ فَكَذَلِكَ لَا يَلْزِمُهُنَّ بِمَوْتِ الْآبَاءِ . وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ
 إِنَّ النِّفَقَةَ وَالْكُسُوفَةَ عَلَى كُلِّ ذِي رِيحٍ مُحَرَّمٌ فَحُجَّتْهُ أَنَّ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَنْفَقَ عَلَى كُلِّ ذِي رِيحٍ
 مُحَرَّمٍ إِذَا كَانَ فَقِيرًا . قَالَ النَّصَّاسُ : وَقَدْ عُرِضَ هَذَا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ لَمْ يُؤْخَذْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى
 وَلَا مِنْ إجماعٍ وَلَا مِنْ سُنَّةٍ صَحِيحَةٍ ، بَلْ لَا يُعْرَفُ مِنْ قَوْلِ سَوِيٍّ مَا ذَكَرْنَاهُ . فَأَمَّا الْقُرْآنُ
 فَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : « وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ » فَإِنْ كَانَ عَلَى الْوَارِثِ النِّفَقَةُ وَالْكُسُوفَةُ
 فَقَدْ خَالَفُوا ذَلِكَ فَقَالُوا : إِذَا تَرَكَ خَالَهُ وَابْنُ عَمِّهِ فَالنِّفَقَةُ عَلَى خَالِهِ وَلَيْسَ عَلَى ابْنِ عَمِّهِ شَيْءٌ ؛
 فَهَذَا يَخَالِفُ نَصَّ الْقُرْآنِ لِأَنَّ الْخَالَ لَا يَرِثُ مَعَ ابْنِ الْعَمِّ فِي قَوْلِ أَحَدٍ ، وَلَا يَرِثُ وَحْدَهُ فِي قَوْلِ
 كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ . وَالَّذِي احْتَجَّوْا بِهِ مِنَ النِّفَقَةِ عَلَى كُلِّ ذِي رِيحٍ مُحَرَّمٍ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ
 عَلَى خِلَافِهِ .

السادسة عشرة — قوله تعالى : (فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا) الضمير في « أَرَادَا » للوالدين .
 و « فِصَالًا » معناه فطاما عن الرضاع ، أى عن الاغْتِنَاءِ بِلَبَنِ أُمِّهِ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَقْوَاتِ .
 وَالْفِصَالُ وَالْفَصْلُ : الْقَطَاعُ ؛ وَأَصْلُهُ التَّفْرِيقُ ، فَهُوَ تَفْرِيقُ بَيْنِ الصَّبِيِّ وَالتَّنَدِي ، وَمِنْهُ سُمِّيَ
 الْفِصِيلُ ، لِأَنَّهُ مَقْصُولٌ عَنْ أُمِّهِ . (عَنْ تَرَايُسَ مِنْهَا) أَيْ قَبْلَ الْحَوْلَيْنِ . (فَلَا جُنَاحَ
 عَلَيْهِمَا) أَيْ فِي فَصْلِهِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ لَمْ يَجْعَلْ مَدَّةَ الرِّضَاعِ حَوْلَيْنِ بَيْنَ أَنْ يَفْطَمَهُمَا

هو القطام ، وفصلهما هو الفصال ليس لأحد عنه مترع ؛ إلا أن يتفق الأيوان على أقل من ذلك العدد من غير مضادة بالولد ؛ فذلك جائزها البيان . وقال قتادة : كان الرضاع واجبا في الحولين وكان يحرم القطام قبله ؛ ثم خفف وأبيع الرضاع أقل من الحولين بقوله : « فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا » الآية . وفي هذا دليل على جواز الاجتهاد في الأحكام بإباحة الله تعالى للوالدين التشاور فيما يؤدي إلى صلاح الصغير ؛ وذلك موقوف على غالب ظنونهما لا على الحقيقة واليقين . والتشاور : استخراج الرأي ، وكذلك المشاورة . والمشورة كالمعونة . وشئت العسل : استخرجته . وشئت الدابة وشئرتها أى أخرجتها لاستخراج جريها . والتسوار : متاع البيت ؛ لأنه يظهر للنظر . والشارة : هيئة الرجل . والإشارة : إخراج ما في نفسك وإظهاره .

السابعة عشرة - قوله تعالى : (وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِضُوا أَوْلَادَكُمْ) أى لأولادكم غير الوالدة ؛ قاله الزجاج . قال النحاس : التقدير في العربية أن تسترضعوا أجنبية لأولادكم ؛ مثل « كَالْوَلَدِ أَوْ زَوْجِهِ » أى كالأولم أو وزنوا لم ؛ وحذفت اللام لأنه يستعدى إلى مفعولين أحدهما بحرف ؛ وأشد مبيوه :

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به . فقد تركتك ذا مال وذات نسب .

ولا يجوز : دعوت زيدا ، أى دعوت لزيد ؛ لأنه يؤدي إلى التليس ، فيعتبر في هذا النوع السماع .

قلت : وعلى هذا يكون في الآية دليل على جواز اتخاذ الظئر إذا أخفى الآباء والأمهات على ذلك . وقد قال عكرمة في قوله تعالى « لَا تُضَارُّ وَالِدَهُ » معناه الظئر ؛ حكاه ابن عطية . والأصل أنت كل أم يلزمها رضاع ولها كما أخبر الله عز وجل ؛ فأمر الزوجات بإرضاع أولادهن ، وأوجب لمن على الأزواج النفقة والكسوة والزوجة قائمة ؛ فلو كان الرضاع على الأب لذكره مع ما ذكره من رزقهن وكسوتهن ؛ إلا أن مالكا رحمه الله دون فقهاء الأمصار استثنى الحسية فقال : لا يلزمها رضاعة ؛ فأخرجها من الآية وخصمها بأصل من أصول الفقه وهو العمل بالمادة . وهذا أصل لم يتطعن له إلا مالك . والأصل البديع فيه أنت

هذا أمر كان في الجاهلية في ذوى النسب وجاء الإسلام فلم يغيره، وتصادى ذؤو الثروة والأحساب على تخريب الأمهات لئلا ينفذ الرضا للراضع إلى زمانه فقال به وإلى زماننا فتحققناه شره .

الثامنة عشرة - قوله تعالى : (إِنْ أَسْلَمْتُمْ) يعنى الآباء ، أى سلمت الأجرة إلى المرضعة الطهر؛ قاله سفيان . مجاهد : سلمت إلى الأمهات أبرهن بحساب ما أرضعن إلى وقت إرادة الاسترضاع . وقرأ السبعة « ما آتيتكم » يعنى ما أعطيتكم . وقرأ ابن كثير « آتيتكم » يعنى ما جئتم وعلتم؛ كما قال زهير :

وما كان من خير أتوه فأتوا • توارثه آباء آبائهم قبل

قال قتادة والزهرى : المعنى سلمت ما آتيتكم من إرادة الاسترضاع ، أى سلم كل واحد من الأبوين ورضى؛ وكان ذلك على اتفاق منهما وقصد خير وإرادة معروف من الأمر . وعلى هذا الاحتمال فيدخل في الخطاب سلمت الرجال والنساء . وعلى القولين المتقدمين الخطاب للرجال . قال أبو علي : المعنى إذا سلمت ما آتيتكم فقد أو إعطاه؛ حذف المضاف وأقيم الضمير مقامه، فكان التقدير : ما آتيتموه، ثم حذف الضمير من الصلة؛ وعلى هذا التأويل فالخطاب للرجال لأنهم الذين يعطون أبر الرضاع . قال أبو علي : ويحتمل أن تكون « ما » مصدرية ، أى إذا سلمت الإيمان ، والمعنى كالأول ، لكن يستغنى عن الصفة من حذف المضاف ثم حذف الضمير .

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنكُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَيَلْبِسُونَ بُرُوقًا يَتَّبِعُونَ بِأَنفُسِهِمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَا فِي أَنفُسِهِم بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ)

فيه خمس وعشرون مسألة :

الأولى - قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنكُمْ) لما ذكر عز وجل مدة الطلاق وأتمل بذلك ما ذكر الإرضاع ذكر مدة الوفاة أيضا ؛ وللا يتوهم أن مدة الوفاة مثل مدة الطلاق .

« والذين » أى والرجال الذين يموتون منكم . (وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا) أى يتركون أزواجاً ، أى ولم زوجات ؛ فإزواجاً يترصن ؛ قال معناه الزجاج وأختاره النحاس . وحذف المبتدأ فى الكلام كثير ؛ كقوله تعالى : « قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ النَّارِ » أى هو النار . وقال أبو على الفارسي : تقديره والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يترصن بهم ؛ وهو كقولك : السمن متوانٍ بدهم ، أى متوان منه بدهم . وقيل : التقدير وأزواج الذين يتوفون منكم يترصن ؛ بغات البسابة فى غاية الإيماز . وحكى المهدوى عن مسيويه أن المعنى : وفيما يئلى عليكم الذين يتوفون . وقال بعض نحاة الكوفة : الخبر عن «الذين» متروك ، والقصد الإخبار عن أزواجهم بأنهن يترصن ؛ وهذا اللفظ معناه الخبر عن المشروعية فى أحد الوجهين كما تقدم .

الثانية - هذه الآية فى مدة التوفى عنها زوجها ، وظاهرها العموم ومعناها الخصوص . وحكى المهدوى عن بعض العلماء أن الآية تناولت الحوامل ثم نسخ ذلك بقوله « وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » . وأكثر العلماء على أن هذه الآية ناسخة لقوله عز وجل : « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةٌ لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ » لأن الناس أقاموا برهة من الإسلام إذا توفى الرجل وخلف امرأته حاملاً أوصى لما زوجها بنفقة سنة وبالسكنى ما لم يخرج فتروج ؛ ثم نسخ ذلك بأربعة أشهر وعشر والميراث . وقال قوم : ليس فى هذا نسخ وإنما هو نقصان من الحول ؛ كصلاة المسافر لما نقصت من الأربع الى الاثنين لم يكن هذا نسخاً . وهذا غلط بين ؛ لأنه إذا كان حكماً أن تمتد سنة إذا لم تخرج فإن خرجت لم تمتع ، ثم أزيل هذا ولزمتها المدة أربعة أشهر وعشراً . وهذا هو النسخ ، وليست صلاة المسافر من هذا فى شيء . وقالت طائفة : فرضت الصلاة ركعتين ركعتين ، فزيد فى صلاة الحضر وأثرت صلاة السفر بحالها ؛ وسيأتى .

الثالثة - مدة الحامل التوفى عنها زوجها وضع حملها عند جمهور العلماء . وروى عن علي بن أبى طالب وابن عباس أن تمام عدتها أحرالأجلين ؛ واختاره محققون من علمائنا .

وقد روى عن ابن عباس أنه رجع عن هذا . والحجة لما روى عن علي وابن عباس روم الجمع بين قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنكُمْ يُدْرُونَ أَنَّ آلَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ بَعْضُهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » وبين قوله : « وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ » وذلك أنها إذا قعدت أقصى الأجلين فقد عملت بمقتضى الآيتين ، وإن اعتدت بوضع الحمل فقد تركت العمل بآية عدة الوفاة ، والجمع أولى من الترجيح باتفاق أهل الأصول . وهذا نظر حسن لولا ما يعرّكه عليه من حديث سبيعة الأسلمية أنها نفست بعد وفاة زوجها بلال ، وأنها ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرها أن تترجّح ، أخرجه الصحيح . في حديث الحديث أن قوله تعالى : « وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ » محمول على عمومته في المطلقات والمتسوّق عنهن أزواجهن ، وأن عدة الوفاة مختصة بالخال من الصنفين ؛ وينتضد هذا بقول ابن مسعود : ومن شاء باهله أن آية النساء القصوى زالت بعد آية عدة الوفاة . قال عليّونا : وظاهر كلامه أنها نائمة لها وليس ذلك مراده والله أعلم . وإنما يبي أنها مختصة لها ، فإنها أخرجت منها بعض متاولاتها . وكذلك حديث سبيعة متأخر عن عدة الوفاة ؛ لأن قصة سبيعة كانت بعد حجة الوداع ، وزوجها هوسعد بن خولة وهو من بني عامر بن لؤي وهو بمن شهد بدراء ، توفي بمكة حينئذ وهي حامل ، وهو الذي روى له رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن توفي بمكة ، وولدت بعده بنصف شهر . وقال البخاري : بأربعين ليلة . وروى مسلم من حديث عمر بن عبد الله بن الأرقم أن سبيعة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك قالت : فأفانني بأني قد حلت حين وضعت حملي ، وأمرني بالتزوج إن بدّالي . قال ابن شهاب : ولا أرى بأسا أن تترجّح حين وضعت وإن كانت في دمها ، غير أن زوجها لا يقربها حتى تطهر ، وعلى هذا جمهور العلماء وأئمة الفقهاء . وقال الحسن والشعبي والنخعي ومحمد : لا تنكح النساء ما دامت في دم نفاسها . فأشترطوا شرطين : وضع الحمل ، والطهر من دم النفاس . والحديث متجه عليهم ، ولا متجه لهم في قوله : « فلما تلت من نفاسها تجملت فخطاب » كما في صحيح مسلم وأبي داود ؛ لأن « تجملت » وإن كان أصله طهرت من دم نفاسها

— مل ما قاله الخليل — فيحتمل أن يكون المراد به ما هنا تَلَّتْ من الآلام فليساها ؛ أى استقلت من أوجاعها . ولو سَلَّمَ أن معناه ما قال الخليل فلا تُجِبْ فيه ؛ وإنما الجملة في قوله عليه السلام لسبيعة : ” قد سَلَّت حين وضعت “ فأوقع الحِلَّ في حين الوضع وعلقه عليه ، ولم يقل إذا انقطع دمك ولا إذا ظهرت ؛ فصح ما قاله الجمهور .

الرابعة — ولا خلاف بين العلماء على أن أجل كل حامل مطلقة يملك الزوج رجعتها أو لا يملك ، حرة كانت أو أمة أو مدبرة أو مكاتب أن تضع حملها .

واختلفوا في أجل الحامل المتوفى عنها كما تقدم ؛ وقد أجمع الجميع بلا خلاف بينهم أن رجلا لو توفى وترك امرأة حاملا فاقتضت أربعة أشهر وعشر أنها لا تحمل حتى تلد ؛ فسلم أن المقصود الولادة

الخامسة — قوله تعالى : (يَتَرَبَّصْنَ) التبرص : التأتى والتصبر عن النكاح ، وترك الخروج عن سكن النكاح وذلك بالآتمارقه ليلا . ولم يذكر الله تعالى السكنى المتوفى عنها في كتابه كما ذكرها المطلقة بقوله تعالى : « أَسْكُوهُنَّ » وليس في لفظ المدة في كتاب الله تعالى ما يدل على الإحداد ، وإنما قال : « يَتَرَبَّصْنَ » فينت السنة جميع ذلك . والأحاديت عن النبي صلى الله عليه وسلم متظاهرة بأن التبرص في الوفاة إنما هو بإحداد ، وهو الامتناع من الزينة ولئس المصبوغ الجميل والطيب ونحوه ، وهذا قول جمهور العلماء . وقال الحسن ابن أبي الحسن : ليس الإحداد بئىء ، إنما تبرص عن الزوج ، ولها أن تترين وتطيب ؛ وهذا ضعيف لأنه خلاف السنة على ما نبهته إن شاء الله تعالى . وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للقرينة بنت مالك بن سنان وكانت متوفى عنها : ” أمكنى في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله “ قالت : فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرا ؛ وهذا حديث ثابت أنبريه مالك عن مسعيد بن إسحاق بن كعب بن عجرة ، رواه عنه مالك والثوري وهيب بن خالد وحماد ابن زيد وصبي بن يونس وعدد كثير وابن حينة والقطان وشعبة ، وقد رواه مالك عن ابن شهاب

وَحَسْبُكَ ! قَالَ الْبَاحِي : لَمْ يَرَوْعَهُ غَيْرُهُ ، وَقَدْ أَخَذَ بِهِ عُمَانُ بْنُ عَفَّانَ . قَالَ أَبُو عَمْرِو : وَقَضَى بِهِ فِي اعْتِدَادِ الْمُتَوَقُّعِ عَنْهَا فِي بَيْتِهَا ، وَهُوَ حَدِيثٌ مَعْرُوفٌ مَشْهُورٌ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْإِجْمَاعِ وَالْعِرَاقِ أَنَّ الْمُتَوَقُّعَ عَنْهَا زَوْجَهَا طَلِيقًا أَنْ تَعْتَدَ فِي بَيْتِهَا وَلَا تَخْرُجَ عَنْهُ ؛ وَهُوَ قَوْلُ جَمَاعَةِ قَهْقَاهِ الْأَمْصَارِ بِالْإِجْمَاعِ وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِصْرَ . وَكَانَ دَاوُدُ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ الْمُتَوَقُّعَ عَنْهَا زَوْجَهَا لَيْسَ عَلَيْهَا أَنْ تَعْتَدَ فِي بَيْتِهَا وَتَعْتَدَ حَيْثُ شَاءَتْ ؛ لِأَنَّ السَّكْنَى إِنَّمَا وَرَدَتْ بِهَا الْقِرَانُ فِي الْمَطْلَقَاتِ ؛ وَمَنْ حُجَّتْ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ مَسْأَلَةٌ خِلَافٍ . قَالُوا : وَهَذَا الْحَدِيثُ إِنَّمَا تَرْوِيهِ امْرَأَةٌ غَيْرُ مَعْرُوفَةٍ بِجَمَلِ الْعِلْمِ ؛ وَإِنْ كَانَ السَّكْنَى لِيُحَابُّ حَكْمًا ، وَالْأَحْكَامُ لَا تَحِبُّ إِلَّا بِنَصِّ كِتَابِ اللَّهِ أَوْ إِجْمَاعٍ . قَالَ أَبُو عَمْرِو : أَمَّا السُّنَّةُ فَخَاتِمَةٌ بِحَمْدِ اللَّهِ ، وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ فَسُخْفِيٌّ عَنْهُ بِالسُّنَّةِ ؛ لِأَنَّ الْإِخْتِلَافَ إِذَا نَزَلَ فِي مَسْأَلَةٍ كَانَتْ الْجَمْعُ فِي قَوْلٍ مِنْ وَاقِفَةِ السُّنَّةِ ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ . وَرَوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَبَّاسٍ وَجَابِرٍ وَعَائِشَةَ مِثْلَ قَوْلِ دَاوُدَ ؛ وَبِهِ قَالَ جَابِرُ بْنُ زَيْدٍ وَعَطَاءُ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » وَلَمْ يَقُلْ يَتَرَبَّصْنَ فِي بَيْتِهِنَّ وَلِتَعْتَدَ حَيْثُ شَاءَتْ ؛ وَرَوَى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ . وَكَرِهَ صَدْرُ الرَّزَاقِ قَالَ : حَدَّثَنَا مَعْمَرُ بْنُ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ قَالَ : خَرَجَتْ عَائِشَةُ بِأَخْتِهَا أُمِّ كَلْبُومَ - حِينَ قُتِلَ عَنْهَا زَوْجُهَا طَلِيقَةً بِنِ عِيْدِ اللَّهِ - إِلَى مَكَّةَ فِي عُجْرَةٍ ، وَكَانَتْ تُخْفِي الْمُتَوَقُّعَ عَنْهَا بِالْخُرُوجِ فِي مَلْتَمَاسِهَا . قَالَ : وَحَدَّثَنَا الثَّوْرِيُّ عَنْ عِيْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍاهُ مِمَّنْ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ يَقُولُ : أَبِي النَّاسِ ذَلِكَ طَلِيقًا . قَالَ وَحَدَّثَنَا مَعْمَرُ بْنُ الزُّهْرِيِّ قَالَ : أَخَذَ الْمُتَرَبَّصُونَ فِي الْمُتَوَقُّعِ عَنْهَا زَوْجَهَا بِقَوْلِ عَائِشَةَ ، وَأَخَذَ أَهْلُ الْوَرَعِ وَالْعَزَمَ بِقَوْلِ ابْنِ عَمْرٍاهُ . وَفِي الْمَوْطَأِ أَنَّ عَمْرِيْنَ الْخَطَّابَ كَانَ يَرَى الْمُتَوَقُّعَ عَنْهُنَّ أَزْوَاجَهُنَّ مِنَ الْبَيْلَاءِ يَمْتَنِعْنَ الْحُجَّ . وَهَذَا مِنْ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْهُ اجْتِهَادٌ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَرَى اعْتِدَادَ الْمَرَأَةِ بِمِثْلِ زَوْجِهَا الْمُتَوَقُّعِ عَنْهَا لِأَنَّهُمَا لَهَا ؛ وَهُوَ مُتَقَضٍ الْقِرَانُ وَالسُّنَّةُ ، فَلَا يَجُوزُ لَهَا أَنْ تَخْرُجَ فِي حُجٍّ وَلَا عَمْرَةٍ حَتَّى تَقْضَى مَلْتَمَاسُهَا . وَقَالَ مَالِكٌ : تَرَدَّدَ مَا لَمْ يُحَرِّمْ .

السادسة - إذا كان الزوج يملك رقية المسكن فإن الزوجة السنة فيه ؛ وطيلة أكثر

الفقهاء : مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم لحديث البريرة . وهل يجوز بيع العاد

إذا كانت ملكا لتوق وأراد ذلك الورثة؛ فالذي عليه جمهور أصحابنا أن ذلك جائز، ويشترط فيه العدة المرأة. قال ابن القاسم: لأنها أحق بالسكنى من المرأة. وقال محمد بن عبد الحكم: البيع فاسد لأنها قد ترتب فتمنع عنها. وجه قول ابن القاسم: أن الغالب السلامة، والرأفة عادة، وذلك لا يؤثر في فساد المقود؛ فإن وقع البيع فيه بهذا الشرط فارتأيت قال مالك في كتاب محمد: هي أحق بالمقام حتى تنقضي الرتبة، وأحب إلينا أن يكون للشترى الخيار في فسخ البيع أو أمضائه ولا يرجع بشيء؛ لأنه دخل على العدة المعتادة، ولو وقع البيع بشرط إكمال الرتبة كان فاسدا. وقال ثعلب: لا حاجة للشترى. وإن تمدت الرتبة إلى خمس سنين؛ لأنه دخل على العدة والعدة قد تكون خمس سنين؛ ونحو هذا روى أبو زيد عن ابن القاسم.

السابعة - فإن كان للزوج السكنى دون الزينة ظاهرا السكنى في مدة العدة، خلافا للأبي حنيفة والشافعي؛ لقوله عليه السلام للمرأة: وقد علم أن زوجها لا يملك رقبة المسكن: **«السكنى في بيتك حتى يبلغ الكلب أجله»**. لا يقال إن المترل كان لها فذلك قال لما: **«السكنى في بيتك»**. فإن معمرًا روى عن الزهري أنها ذكرت للنبي صلى الله عليه وسلم أن زوجها قُتل، وأنه تركها في مسكن ليس لها وأستاذته؛ وذكر الحليث. ولنا من جهة المعنى أنه ترك دارا يملك سكنها ملكا لا تبعه عليه فيه؛ فلم أن تمتد الزوجة فيه؛ أصل ذلك إن لم ملك ربتها.

الثامنة - وهذا إذا كانت قد أدى الكراهة، وبما إذا كان لم يؤد الكراهة فالذي في المذونة أنه لا سكنى لها في مال الميت وإن كان موسرا؛ لأن حقها إنما يتعلق بما يملكه من السكنى ملكا تاما، ومالم يتقدم حوضه لم يملكه ملكا تاما. وإنما ملك العوض الذي بيده، ولا حتى في ذلك الزوجة إلا بالمرات دون السكنى؛ لأن ذلك مال وليس بسكنى. وروى محمد عن مالك أن الكراهة لازم لبيت في ماله.

الثامنة - قوله صلى الله عليه وسلم للمرأة: **«السكنى في بيتك حتى يبلغ الكلب أجله»** يحتمل أنه أمرها بذلك لما كان زوجها قد أدى كراهة المسكن، أو كان أسكن فيه

إلى وفاته، وأن أهل المتل أباحوا لها العنة فيه بركاء أو غير كراء، أو ما شاء الله تعالى من ذلك مما رأى به أن المقام لازم لما فيه حتى تنقضى عنتها .

المباشرة - وأختلفوا في المرأة بآتيها نكح زوجها وهي في بيت غير بيت زوجها، فأمرها بالرجوع إلى مسكنه وقراره مالك بن أنس، وروى ذلك عن عمر بن عبد العزيز . وقال سعيد بن المسيب والنخعي : تمتد حيث أتاها الخبر، لا يبرح منه حتى تنقضى العنة . قال ابن المنذر : قول مالك صحيح، إلا أن يكون قلبها الزوج إلى مكان قلزم ذلك المكان .

الحادية عشرة - ويجوز لها أن تخرج في حوائجها من وقت انتشار الناس بكرة إلى وقت هدوئهم بعد العنة، ولا تيت إلا في ذلك المتل . وفي البخاري ومسلم عن أم عطية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تحبذ امرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا ولا تلبس ثوبا مصبوا إلا ثوب عصب ولا تكتيل ولا تمس طيبا إلا إذا طهرت ^(١) نبذة من قسط أو أظفار " . وفي حديث أم حبيبة : " لا يمل لأمرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحب على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا " الحديث . الإحداد : ترك المرأة الزينة كلها من اللباس والطيب والحلي والكحل والحضاب بالحناء ما دامت في عنتها ، لأن الزينة داعية إلى الأزواج فنهت عن ذلك قطعا للذرائع وحماية لحرمات الله تعالى أن تنهك . وليس تكن المرأة رأسها بالزيت والشحرج من الطيب في شيء . يقال : أمرأة حاد ومحد . قال الأحمسي : ولم نعرف « حدت » . وفاعل « لا يمل » المصدر الذي يمكن صياغته من « تحبذ » مع « أن » المرادة ؛ فكأنه قال : الإحداد .

الثانية عشرة - وصفته عليه السلام المرأة بالإيمان يدل على صحة أحد القولين عندنا في الكتابة المتوفاة عنها زوجها أنها لا إحداد عليها ، وهو قول ابن كنانة وابن نافع، ورواه أشهب عن مالك، وبه قال أبو حنيفة وابن المنذر . وروى عنه ابن القاسم أن عليها الإحداد

(١) العصب (يفتح العين وسكون الصاد المهملين) : من يرد اليمن يصيب غزلا ، أي يربط ثم يصيح ثم ينجح مصعقا فيخرج موشيا لبقا ، ما يصيب منه أبيض ولم ينصح ، وإنما يصيب البسدي دون العنة .

(٢) البضة : الشيء البسر . القسط والأظفار : فوان من البخر .

كالسلمة ؛ وبه قال الليث والشافعي وأبو ثور وعامة أصحابنا ؛ لأنه حكم من أحكام العدة
فلزمت الكتابة للسلم كزوم المسكن والمنة .

الثالثة عشرة - وفي قوله عليه السلام : " فوق ثلاث إلا على زوج " دليل على تحريم
إحداد المسلمات على غير أزواجهن فوق ثلاث ، وإباحة الإحداد عليهم ثلاثا تبدأ بالعد من
الليلة التي تستقبلها إلى آخر نالتها ؛ فإن مات حميمها في بقية يوم أو ليلة ألقته وحسبته
من الليلة التالية .

الرابعة عشرة - هذا الحديث بحكم عمومته يتناول الزوجات كلهن المتوفى عنهن أزواجهن
فيمثل فيه الإمام والحرائر والجار والصغار ؛ وهو مذهب الجمهور من العلماء . وذهب
أبو حنيفة إلى أنه لا إحداد على أمة ولا على صغيرة ؛ حكاه عنه القاضي أبو الوليد الباجي .
قال ابن المنذر : أما الأمة الزوجة فهي داخلة في جملة الأزواج وفي عموم الأخبار ؛ وهو
قول مالك والشافعي وأبي ثور وأصحاب الرأي ؛ ولا أحفظ في ذلك عن أحد خلافا ،
ولا أعلمهم يختلفون في الإحداد على أم الولد إذا مات سيدها ؛ لأنها ليست بزوجة والأحاديث
إنما جاءت في الأزواج . قال الباجي : الصغيرة إذا كانت ممن يسقل الأمر والنهي وتلزم
ما حُد لها أمرت بذلك ، وإن كانت لا تدرك شيئا من ذلك لصغرها فروى ابن مزيّن عن
عيسى يُحِبُّهَا أهلها جميع ما تحتنه الكبيرة ، وذلك لازم لها . والدليل على وجوب الإحداد على
الصغيرة ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سأله امرأة عن بنت لها توفى عنها زوجها
فأنتكت عنها أتكلها ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا " مرتين أو ثلاثا ؛ كل
ذلك يقول " لا " ولم يسأل عن سنّها ؛ ولو كان الحكم يقتضي بالصغر والكبر لسأل عن سنّها
حتى يبين الحكم ، وتأخير البيان في مثل هذا لا يجوز ، وأيضا فإن كل من لزمتها العدة بالوفاة
لزمها الإحداد كالكثيرة .

- الخامسة عشرة - قال ابن المنذر : ولا أعلم خلافا أن الخضاب داخل في جملة الزينة
المنهي عنها . وأجمعوا على أنه لا يجوز لها لباس الثياب المصبوغة والمصفرة ، إلا ما صنع

بالسواد فإنه رخص فيه عروة بن الزبير ومالك والشافعي، وكراهه الزهري وقال : لا تلبس ثوب عصب وهو خلاف الحديث . وفي المدونة قال مالك : لا تلبس رقيق عصب العين ، ووسع في غليظه . قال ابن القاسم : لأن رقيقه يمتلئ الثياب المصبغة ، وتلبس رقيق الثياب وظيفه من الحرير والكتان والقطن . قال ابن المنذر : ورخص كل من أحفظ عنه في لباس البياض . قال القاضي عياض : ذهب الشافعي إلى أن كل صبيح كان زينة لا تمتسه الحادة رقيقا كان أو غليظا ، ونحوه للقاضي عبد الوهاب قال : كل ما كان من الألوان يترين به النساء لأزواجهن فتمتنع منه الحادة . ومتع بعض مشايخنا المتأخرين جيد البياض الذي يترين به ، وكذلك الرقيق من السواد . وروى ابن المظاز عن مالك : لا تلبس حليا وإن كان حديدا ، وفي الجملة أن كل ما تلبسه المرأة على وجه ما يستعمل عليه الحل من التجميل فلا تلبسه الحادة . ولم ينص أصحابنا على الجواهر والبراقيت والزمرد وهو داخل في معنى الحل . والله أعلم .

السابعة عشرة — وأجمع الناس على وجوب الإحداث على المتوفى عنها زوجها إلا الحسن فإنه قال : ليس بواجب ، واحتج بما رواه عبد الله بن شداد بن الحاد عن أسماء بنت عميس قالت : لما أصيب جعفر بن أبي طالب قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تسلي ثلاثا ^(١) ثم اصتنى ما شئت " . قال ابن المنذر : كان الحسن البصري من بين سائر أهل العلم لا يرى الإحداث ، وقال : المطلقة ثلاثا والمتوفى عنها زوجها يكتحلان ويغتضبان ويصنعان ما شاءا . وقد ثبتت الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم بالإحداث ، وليس لأحد بلفته إلا التسليم ، ولعل الحسن لم تبلغه ، أو بلفته فتأولها بحديث أسماء بنت عميس أنها استأذنت النبي صلى الله عليه وسلم أن تحب على جعفر وهي امرأته ، فأذن لها ثلاثة أيام ثم بعث إليها بعد ثلاثة أيام أن تطهرى واكتحل . قال ابن المنذر : وقد دفع أهل العلم هذا الحديث بوجوه ، وكان أحمد بن حنبل يقول : هذا الشاذ من الحديث لا يؤخذ به ، وقاله إمام .

(١) تسلي : التمس ثياب الإحداث العود ، وهي السلاب (كتاب) .

السابعة عشرة - ذهب مالك والشافعي إلى أن لا إحداد على مطلقة رجعية كانت أو بائنة واحدة أو أكثر؛ وهو قول ربيعة وعطاء . وذهب الكوفيون : أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن حي وأبو ثور وأبو عبيد إلى أن المطلقة ثلاثا عليها الإحداد ؛ وهو قول سعيد ابن المسيب وسليمان بن يسار وابن سيرين والحكم بن عيينة . قال الحكم : هو عليها أوكد وأشد منه على المتوفى عنها زوجها ؛ ومن جهة المعنى أنهما جميعا في عدة يحفظ بها النسب . وقال الشافعي وأحمد وإسحاق : الاحتياط أن تبقى المطلقة الزينة . قال ابن المنذر : وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يحل لأمرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا " دليل على أن المطلقة ثلاثا والمطلق حتى لا إحداد عليها .

الثامنة عشرة - أجمع العلماء على أن من طلق زوجته طلاقا يملك رجعتها ثم توفى قبل انقضاء العدة أن عليها عدة الوفاة وترته . واختلفوا في عدة المطلقة ثلاثا في المرض ؛ فقالت طائفة : تمتد عدة الطلاق ؛ هذا قول مالك والشافعي ويعقوب وأبي عبيد وأبي ثور . قال ابن المنذر : وبه يقول ؛ لأن الله تعالى جعل عدة المطلقات الأحرار ، وقد أجمعوا على المطلقة ثلاثا لو ماتت لم يرثها المطلق ، وذلك لأنها غير زوجة ؛ وإذا كانت غير زوجة فهو غير زوج لها . وقال الثوري : تمتد بأقصى المذنبين . وقال النعمان ومحمد : عليها أربعة أشهر وعشرون تستكمل في ذلك ثلاث حيض .

التاسعة عشرة - واختلفوا في المرأة يلقها وفاة زوجها أو طلاقه ؛ فقالت طائفة : العدة في الطلاق والوفاة من يوم يموت أو يطلق ؛ هذا قول ابن عمر وابن مسعود وابن عباس ؛ وبه قال مسروق وعطاء وجماعة من التابعين ، وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو عبيد والثوري وأبو ثور وأصحاب الرأي وابن المنذر . وفيه قول ثان وهو أن عدها من يوم يلقها الخبر ؛ روى هذا القول عن علي ؛ وبه قال الحسن البصري وقائدة وعطاء الخرماني وجلاس ابن عمرو . وقال سعيد بن المسيب وعمر بن عبد العزيز : إن قامت بينة فمقتها من يوم مات أو طلق ، وإن لم تهم بينة فن يوم يأتيها الخبر ؛ والصحيح الأول لأنه تعالى طلق العدة

بالوفاة أو الطلاق، ولأنها لو علمت بموته فتركت الإحداث انقضت العدة، فلذا تركته مع علم العلم فهو أهون؛ ألا ترى أن الصغيرة تنقض عنتها ولا إحداث عليها. وأيضاً قد أجمع العلماء على أنها لو كانت حاملاً لا تعلم طلاق الزوج أو وفاته ثم وضعت حملها أن عنتها منقضية. ولا فرق بين هذه المسألة وبين المسألة المختلف فيها، ووجه من قال بالعدة من يوم يلقنها الخبر أن العدة عبادة بترك الزينة وذلك لا يصح إلا بقصد نية، والقصد لا يكون إلا بعد العلم. واهه أعلم.

الموفية عشرين - عدة الوفاة تلزم الحرة والأمة والصغيرة والكبيرة والتي لم تبلغ المحيض والتي حاضت وبالأيسة من المحيض والكثائية دخل بها أو لم يدخلها إذا كانت غير حامل - [وعدة جميعهن إلا الأمة] أربعة أشهر وعشرة أيام؛ لعموم الآية في قوله تعالى: «يَتَرَبَّصْنَ بِأَن يَضْمَرَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا». وعدة الأمة المتوفى عنها زوجها شهران ونمس ليل.

قال ابن العربي: نصف عدة الحرة إجماعاً، إلا ما يحكى عن الأصم فإنه سوى فيها بين الحرة والأمة وقد سبقه الإجماع، لكن لصممه لم يسمع. قال الباجي: ولا نعلم في ذلك خلافاً إلا ما يروى عن ابن سيرين، وليس بالثابت عنه أنه قال: عنتها عدة الحرة.

قلت: قول الأصم صحيح من حيث النظر؛ فإن الآيات الواردة في عدة الوفاة والطلاق بالأشهر والأقراء عامة في حق الأمة والحرة؛ فعدة الحرة والأمة سواء على هذا النظر؛ فإن العمومات لا فصل فيها بين الحرة والأمة؛ وكما استوت الأمم والحرة في النكاح فكذلك تستوي معها في العدة. واهه أعلم. قال ابن العربي: ورؤى عن مالك أن الكثائية تعتد بثلاث حيض إذا بها يبرأ الزوج، وهذا منه فاسد جداً، لأنه أخرجهما من عموم آية الوفاة وهي منها وأدخلها في عموم آية الطلاق وليست منها.

قلت: وعليه بناء ما في المدونة لا عدة عليها إن كانت غير مدخول بها؛ لأنه قد علم براءة رَجَمَها، وهذا يقتضي أن تَرَجَّع مسلماً أو غيره إثر وفاته؛ لأنه إذا لم يكن عليها عدة للوفاة ولا استبراء للمدخول فقد حلت للأزواج.

(١) الزيادة من الباجي.

(٢) هذه عبارة ابن العربي كما وردت في أحكام القرآن. وقد وردت مضطربة في الأصول.

الحادية والعشرون — واختلقوا في مدة أم الولد إذا توفى عنها سيدها ، فقالت طائفة :
 مئتها أربعة أشهر وعشر ، قاله جماعة من التابعين منهم سعيد والزهرى والحسن البصرى
 وغيرهم ، وبه قال الأوزاعى وإسحاق . وروى أبو داود والبارقطنى عن قيس بن ذؤيب عن
 عمرو بن العاص قال : لا تلبسوا علينا سنة نيتنا صلى الله عليه وسلم ، مدة المتوفى عنها أربعة أشهر
 وعشر ، يعنى في أم الولد ، لفظ أبي داود . وقال البارقطنى : موقوف وهو الصواب ، وهو
 مرسل لأن قيس لم يسمع من عمرو . قال ابن المنذر : وضعف أحد وأبو عبيد هذا الحديث .
 وروى عن علي وابن مسعود أن مئتها ثلاث حيض ، وهو قول عطاء وإبراهيم النخعى
 وسفيان الثورى وأصحاب الرأى ، قالوا : لأنها عدة تحب في حال الحرية فوجب أن تكون
 عدة كاملة ، أصله عدة الحرية . وقال مالك والشافعى وأحمد وأبو ثور : عدتها حيضة ،
 وهو قول ابن عمر . وروى عن طلوس أن مئتها نصف مدة الحرية المتوفى عنها ، وبه قال
 قتادة . قال ابن المنذر : ويقول ابن عمر أقول ، لأنه الأقل مما قيل فيه وليس فيه سنة
 تتبع ولا إجماع يمتد عليه . وذكر اختلافهم في عدتها في المتى كهو في الوفاة سواء ، إلا أن
 الأوزاعى جعل مئتها في المتى ثلاث حيض .

قلت : أصح هذه الأقوال قول مالك ، لأن الله سبحانه قال : « والمطلقات يتربصن
 بأنفسهن ثلاثة قروء » فشرط في تربص الأقراء أن يكون عن طلاق ، فاستثنى بذلك أن يكون
 عن غيره . وقال : « وَاللَّيْنِ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ
 وَعَشْرًا » فلتق وجوب ذلك يكون المترتبة زوجة ، فدل على أن الأمة بخلانها . وأيضاً
 فإن هذه أمة موطوءة بملك اليمين فكان استبرأؤها بمحضة أصل ذلك الأمة .

الثانية والعشرون — إذا ثبت هنا فهل مدة أم الولد استبراء محض أو مدة ، فالذى
 ذكره أبو محمد في معونه أن الحيضة لاستبراء وليس بمدة . وفي المدونة أن أم الولد عليها
 المدة ، وأن عدتها حيضة كمدة الحرية ثلاث حيض . وثالثة الخلاف أنا إذا قلنا هي مدة قد

قال مالك لا أحب أن توامد أحدا ينكحها حتى تحيض حيضة . قال ابن القاسم : وبلغني عنه أنه قال : لا تنيت إلا في بيتها ؛ فأثبت للمدة استبرأتها حكم المدة .

الثالثة والعشرون — أجمع أهل العلم على أن نفقة المطلقة ثلاثا أو مطلقة للزوج طيبا رجعة وهي حامل وإجبة ؛ لقوله تعالى : « وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٌ فَأَنكِحُوا عَلَيْنَّ حَتَّى يَضْمَنَ حَمْلَهُنَّ » .

واختلفوا في وجوب نفقة الحامل المتوفى عنها زوجها ؛ فقالت طائفة : لا نفقة لها ؛ كذلك قال جابر بن عبد الله وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء والحسن وعكرمة وعبد الملك ابن يعل ويحيى الأنصاري وربيعة ومالك وأحمد وإسحاق ، وحكى أبو عبيد ذلك عن أصحاب الرأي . وفيه قول ثان وهو أن لها النفقة من جميع المال ؛ روى هذا القول عن علي وعبد الله ، وبه قال ابن عمرو وشريح وابن سيرين والشعبي وأبو العالقة والنخعي وجلاس بن عمرو وحماد بن أبي سليمان وأيوب السختياني وسفيان الثوري وأبو عبيد . قال ابن المنذر : وبالقول الأول أقول ؛ لأنهم أجمعوا على أن نفقة كل من كان يجبر على نفقته وهو حي مثل أولاده الأطفال وزوجته والديه تسقط عنه ؛ فكذلك تسقط عنه نفقة الحامل من أزواجه . وقال القاضي أبو محمد : لأن نفقة الحمل ليست بدَيْن ثابت فتعلق بماله بعد موته ، بدليل أنها تسقط عنه بالإحصار فإن تسقط بالموت أولى وأحرى .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : (أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا) اختلف العلماء في الأربعة الأشهر والعشر التي جعلها الله ميقاتا لِمَدَّةِ التَّوَفَّى عنها زوجها ، هل تحتاج فيها إلى حيضة أم لا ؛ فقال بعضهم : لا تعبأ إذا كانت ممن توطأ للإبحضة تأتي بها في الأربعة الأشهر والعشر ، وإلا فهي مُستترية . وقال آخرون : ليس عليها أكثر من أربعة أشهر وعشر ، إلا أن تستريب نفسها رية يئنه ؛ لأن هذه المدة لا بد فيها من الحيض في الأغلب من أمر النساء إلا أن تكون المرأة ممن لا تحيض أو ممن عرفت من نفسها أو عرفت منها أن حبستها لا يائنها ، إلا في أكثر من هذه المدة .

الخامسة والعشرون - قوله تعالى : ﴿ وَعَشْرًا ﴾ روى وكيع عن ابى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن ابى العالية أنه سئل : لم ضُمَّت العَشْرُ إلى الأربعة الأَشْهُر ؟ قال : لأن الروح تنفخ فيها ، وساقى في « الحج » بيان هذا إن شاء الله تعالى . وقال الأصمعي : ويقال إن ولد كل حامل يرتكض في نصف حملها فهي مُرْكُض . وقال غيره : أركضت فهي مُرْكُضَةٌ ، وأنشد :

وَمُرْكُضٌ صِرِيحٌ أَبُوهَا * تَهَانُ لَهَا التَّلَامَةُ وَالْغَلَامُ^(١)

وقال الخطابي : قوله « وعشرا » يريد - والله أعلم - الأيام لياليها . وقال المبرد : إنما أنت العشر لأن المراد به المدة . المعنى وعشر مُدَد ، كل مدة من يوم وإيلة ، فالليلة مع يومها مدة معلومة من الدهر . وقيل : لم يقل عشرة تغليبا لحكم الليالي إذ الليلة أسبق من اليوم والأيام في ضمها . « وعشرا » أخف في اللفظ ؛ فتُغَلَّب الليالي على الأيام إذا اجتمعت في التاريخ ، لأن ابتداء الشهور بالليل عند الاستهلال ، فلما كان أول الشهر الليلة غلب الليلة ، تقول : صمنا نحسا من الشهر ؛ فتغلب الليالي وإن كان الصوم بالنهار . وذهب مالك والشافعي والكوفيون إلى أن المراد بها الأيام والليالي . قال ابن المنذر : فلو عقد طاقدها النكاح على هذا القول وقد مضت أربعة أشهر وعشر ليال كان باطلا حتى يمضي اليوم العاشر . وذهب بعض الفقهاء إلى أنه إذا اقضى لها أربعة أشهر وعشر ليال حلت للأزواج ، وذلك لأنه رأى العدة مبهمة فتغلب التأنيث وتأولها على الليالي . وإلى هذا ذهب الأوزاعي عن الفقهاء وأبو بكر الأصم من المتكلمين . وروى عن ابن عباس أنه قرأ « أربعة أشهر وعشر ليال » .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى - أضاف تعالى الأجل إليهن إذ هو محدود مضروب في أمرهن ، وهو عبارة

عن انقضاء العدة .

(١) البيت لأوس بن عطاء المجبي صف فرما . والصريحى : نسبة إلى الصريح وهو لعل من خيل العرب حروف . (عن اللسان)

الثانية - قوله تعالى : (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ) خطاب لجميع الناس ، والتليس بهذا الحكم هو الحكم والأولياء . (فَيَا قَعْلَان) يريد به التزوج فما دونه من الترتين وأطراح الإحداد . (بِالْمَعْرُوفِ) أى بما أذن فيه الشرع من اختيار أعيان الأزواج وتقدير الصداق دون مباشرة العقد لأنه حق للأولياء كما تقدم .

الثالثة - في هذه الآية دليل على أن للأولياء متعنه من التبع والتشوف للزوج في زمان العدة . وفيها رد على إصحاق في قوله : إن المطلقة إذا طلعت في الحيضة الثالثة بانت وأقطعت رجعة الزوج الأول إلا أنه لا يعمل لما أنب تترجح حتى تقتسل . وعن شريك أن لزوجها الرجعة ما لم تقتسل ولو بعد عشرين سنة ؛ قال الله تعالى : « فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فَيَا قَعْلَانِ فِي أَنْفُسِهِنَّ » وبلوغ الأجل هنا اقضاء العدة بدخولها في الدم من الحيضة الثالثة ولم يذكر غسلا ؛ فإذا انقضت متنها حلت للأزواج ولا جناح عليها فيما فعلت من ذلك . والحديث عن ابن عباس لو صح يحتمل أن يكون منه على الاستعجاب ، وانه أعلم .

قوله تعالى : وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ أَنَّكُمْ سَتَذَكَّرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ، وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ، وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٣٥﴾

قوله تعالى : (وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ) الى قوله (معروفًا) فيه ثلث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَلَا جُنَاحَ) أى لا إثم . والجناح الإثم ، وهو أصح في الشرع . وقيل : بل هو الأمر الشاق ، وهو أصح في اللغة ؛ قال الشافعي :
إذا تملأوا براكبها خليبا • تذكر ما لديه من الجناح

وقوله : (عَلَيْكُمْ قِيَا مَرَضَتُمْ) مخاطبة لجميع الناس ، والمراد بمحكها هو الرجل الذي في نفسه تزوج ممتنة ، أى لا وزر طمك في التعريض بالخطبة في عدة الوفاة . والتعريض : ضد التصريح ، وهو إيهام المعنى بالثبوت المحتمل له ولغيره وهو من عرض الشيء ، وهو جانبه ، كأنه يحوم به على الشيء ولا يظهره . وقيل : هو من قولك عرضت الرجل ، أى أهديت إليه تحفة ، وفي الحديث : أن ربا من المسلمين عرضوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثيابا بيضا ، أى أهلبوا لها . فالعرض بالكلام يوصل إلى صاحبه كلاما يفهم معناه .

- الثانية - قال ابن عطية : أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو نص في تزوجها ونسبه عليه لا يجوز . وكذلك أجمعت الأمة على أن الكلام معها بما هو رقت وذکر جامع أو تعريض عليه لا يجوز وكذلك ما أشبهه . وجوز ما عدنا ذلك . ومن أعظمه قرينة إلى التصريح قول النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة بنت قيس : "كوني عند أم شريك ولا تسبقيني بنفسك" . ولا يجوز التعريض لخطبة الرجعية إجماعا لأنها كالزوجة . وأما من كانت في عدة اليئونة فالصحيح جواز التعريض لخطبتها والله أعلم . وروى في تفسير التعريض ألفاظ كثيرة إجماعا يرجع إلى قسمين : الأول - أن يذكرها لولها يقول له لا تسبقني بها . والثاني - أن يشير بذلك إليها دون واسطة ، فيقول لها : إني أريد التزوج ، أو إنك لبليلة ، إنك لصاحلة ، إن الله لساقي إليك خيرا ، إني فيك لأغيب ، ومن يرغب عنك لهُ إنك لنساقطة ، وإن حاجتي في النساء ، وإن يقدّر الله أمرا يكن . هذا هو غثيل مالك وابن شهاب . وقال ابن عباس : لا بأس أن يقول : لا تسبقيني بنفسك ، ولا بأس أن يهتدى إليها ، وأن يقوم بشغلها في العدة إذا كانت من شأنه ، قاله إبراهيم . وجاز أن يدح نفسه ويذكر ما تراه على وجه التعريض بالزواج ، وقد فعله أبو جعفر محمد بن علي بن حسين ، قالت سكينه بنت حفظة استأذن علي بن محمد بن علي ولم تنقض عدتي من مهلك زوجي فقال : قد عرفت قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابتي من علي وموضعي في العرب . قلت :

غفر الله لك يا أبا جعفر ! إنك رجل يؤخذ عنك ، تحطبي في صدق ! قال : إنما أخبرتك بقرابي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن علي . وقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم سلمة وهي متأمة من أبي سلمة فقال : "لقد علمت أني رسول الله وخبرته وموضي في قومي" كانت تلك خطبة ؛ أخرجه الذارقطني . والمهدية الى المعتنة جائرة ، وهي من التعريض ؛ قاله مثنون وكثير من العلماء وقاله إبراهيم . وكزه مجاهد أن يقول لها : لا تسقي نفسك ورآه من المواعدة سرًا . قال القاضي أبو محمد بن عطية : وهذا عندي على أن يتأول قول النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة أنه على جهة الرأي لها فيمن يزوجها لا أنه أرادها لنفسه وإلا فهو خلاف لقول النبي صلى الله عليه وسلم .

الثالثة - قوله تعالى : (مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ) الخِطْبَةُ (بكسر الخاء) : فعل الخاطب من كلام وقصد واستلطاف بفعل أو قول . يقال : خطبها يخطبها خطبًا وخطبة . ورجل خطاب كثير التصرف في الخطبة ؛ ومنه قول الشاعر :

برح بالعَيْنِ خطابُ الكُتُبِ • يقول إني خاطب وقد كَذَبُ
• وَإِنَّمَا يَخْطُبُ عَسًا مِنْ حُبِّ^(١) •

والخطيب : الخاطب . والخطيبي : الخطبة . قال عدي بن زيد يذكر قصيد جديمة الأبرش لخطبة الزباء :

لِخَطْبِي الَّتِي فَدَرْتُ وَخَانَتْ • وَهِيَ ذَوَاتُ غَائِلَةٍ لِحِينَا

والخطب : الرجل الذي يخاطب المرأة ؛ ويقال أيضا : هي خطبة وخطبة التي يخاطبها . والخطبة فعله بكسرة وقعدة . والخطبة (بضم الخاء) هي الكلام الذي يقال في النكاح وغيره . قال النحاس : والخطبة ما كان لها أول وآخر ؛ وكذا ما كان على فعله نحو الأكلة والشفطة .

الرابعة - قوله تعالى : (أَوْ أَكُنْتُمْ فِي أَفْئِسِكُمْ) مناه سترتم وأضمرتم من التزوج بها بعد انقضاء عتبتها . وإلّا كان : السر والإخفاء ؛ يقال : كُنْتَهُ وأكنته بمعنى واحد . وقيل :

(١) الكتب بضم فتح جمع كنية ، وهي كل قليل جمته من طعام أولين أو خير ذلك . والنس (بضم العين) : القدح الضخم . يريد أن الرجل يحس به الخطبة وهو يريد القربى . قال ابن الأعرابي يقال للرجل إذا جاء يطلب القربى بطة الخطبة : إنه يخطب كنية . (عن اللسان) .

كنته أى صته حتى لا تصيه آفة وإن لم يكن مستورا؛ ومنه يَبْضُ مَكُونٌ وَدُرٌ مَكُونٌ .
وأكنته أسرته وسترته . وقيل : كَنْتُ الشيء (من الأجرام) إذا سترته بثوب أو بيت
أو أرض ونحوه . وأكنت الأعرس في قسي . ولم يسمع من العرب « كنته في قسي » .
ويقال : أَكَّنَ الْبَيْتَ الْإِنْسَانَ؛ ونحو هذا . فرفع الله الجناح عن أراد تزوج المعتنة مع
التعريض ومع الإكآن، ونهى عن المواعدة التى هى تصرعج بالترويج وبناء عليه وانفاق على
وعد . ورخص لعلمه تعالى بقلبة النفوس وطعجها وضمف البشر عن ملكها .

الخامسة - استدلَّت الشافعية بهذه الآية على أن التعريض لا يجب فيه حد؛ وقالوا :
لما رفع الله تعالى الحرج في التعريض في النكاح دل على أن التعريض بالتلف لا يوجب
الحد؛ لأن الله سبحانه لم يجعل التعريض في النكاح مقام التصريح . قلنا : هذا ماقط
لأن الله سبحانه وتعالى لم يأذن في التصريح بالنكاح في الحطبة وأذن في التعريض الذى
يُفهم منه النكاح فهذا دليل على أن التعريض يُفهم منه التلف؛ والأعراض يجب صياتها،
وذلك يوجب حد المَرُوض لئلا يتطرق الفسقة إلى أخذ الأعراض بالتعريض الذى يُفهم
منه ما يُفهم بالتصريح .

- السادسة - قوله تعالى : ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ تَتَكَلَّمُونَ ﴾ أى إنا مراء وإنا إعلالا
في قومكم وبالسكك؛ فرخص في التعريض دون التصريح . الحسن معناه متخطبون .
- السابعة - قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُون مِيراً ﴾ أى على من غلف الحرف
لأنه مما يتعدى الى مفعولين أحدهما بحرف جر .

- واختلف العلماء في معنى قوله تعالى : « مِيراً » ف قيل : معناه نكاحا، أى لا يقل الرجل لهذه
المعتنة تزوجني؛ بل يمرض إن أراد، ولا يأخذ ميثاقها وعهدها الا تسكع غيره في استمرار
وخفية؛ هذا قول ابن عباس وابن جبير ومالك وأصحابه والشعبي ومجاهد وعكرمة والسدي
وجمهور أهل العلم . « ومِيراً » على هذا التأويل نصب على الحال، أى مستيرين . وقيل :
المِر الزنا، أى لا يكون منكم مواعدة على الزنا في السنة ثم التزوج بعدها . قال معاذ جابر بن

زيد وأبو مجز لاحق بن حميد والحسن بن أبي الحسن وقناة والنضى والضحاك وأن
المرء في هذه الآية الزنا، أى لا تواعدوهن زنا، واختاره الطبرى؛ ومنه قول الأعشى :
فلا تقرين جارة إن سرها • عليك حرام فانيكمن أو تابتا
وقال الحطيفة :

وتحرم سر جارهم عليهم • وبأكل جارهم آفب الفصاح
وقيل : السر الجماع، أى لا تصفوا أنفسكم لمن بكثرة الجماع رفيا لمن في النكاح فإن ذكر
الجماع مع غير الزوجة فحش، هذا قول الشافعى . وقال امرؤ القيس :
ألا زعمت بسبابة اليوم أنى • كبرت وألا يحسن السر أمثالى
وقال رؤبة :

• فكف عن إسرارها بعد العسق •

أى كف عن جماعها بعد ملازمتك لذلك . وقد يكون السر عقدة النكاح، سراً كان أو جهراً،
قال الأعشى :

فإن يطلبوا سرها للنسئ • وإن يسلموها لإزهادها

وأراد أن يطلبوا نكاحها لكثرة مالها وإن يسلموها لقلة مالها . وقال ابن زيد : معنى قوله
• ولكن لا تواعدوهن سراً • أى لا تنكحوهن وتكنعن ذلك؛ فإنا حلت أظهرهن ودخلم
هن؛ وهذا هو معنى القول الأول؛ فإبن زيد حل هذا قائل بالقول الأول، وإنما شذ في أن
سمى العقد مواعدة، وذلك قاتل . وحكى مكى والتلمي عنه أنه قال : الآية منسوخة بقوله
تعالى : • وَلَا تَزِمُوا عُقْدَةَ النَّكَاحِ • .

الثامنة — قال القاضي أبو محمد بن عطية : أجمعت الأمة على كراهة المواعدة في العدة
للرأة في نفسها وللأب في ابنته البكر وللسيد في أمته . قال ابن المواز : وأما الولي الذى
لا يملك الجبر فأكرهه وإن نزل لم أفسخه . وقال مالك رحمه الله فيمن يواعد في العدة ثم
يقترج بعدها : فراقها أحب إلى ، دخل بها أو لم يدخل ، وتكون طليقة واحدة ؛ فإذا

حلت خطبها مع الخطأ ؛ هذه رواية ابن وهب ، وروى أشهب عن مالك أنه يفرق بينهما إيجاباً ؛ وقاله ابن القاسم . وحكى ابن الخارث مثله عن ابن الماجشون ، وزاد ما يقتضى أن التحريم يتأبد . وقال الشافعى : إن صرح بالخطبة وصرحت له بالإجابة ولم يعقد النكاح حتى تنقضى العدة فالنكاح ثابت والتصريح لها مكروه ؛ لأن النكاح حادث بعد الخطبة ؛ قاله ابن المنذر .

للتاسعة - قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ تُحِبُّونَ الْفَلَاحَ فَقَدْ إِتَقَوْا يُغْتَرَبَ عَلَيْكُمْ أَمْثَلُ مِنْ ذَلِكَ وَمَنْ يَشَاءْ فَعَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . قوله لا تَعْلَمُونَ أى لكن خطأ . والقول المعروف هو ما أبيع من التمريض . وقد ذكر الضعاف أن من اتقوا المعروف أن يقول العتة : احبسى على نفسك فإن لى بك رغبة ؛ فتقول هى : وأنا مثل ذلك ؛ وهذا شبه المواعدة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ فيمنع مسائل : الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِمُوا ﴾ قد تقدم القول فى معنى العزم ؛ يقال : عزم الشيء وعزم عليه . والمعنى هنا : لا تزموا على عقد النكاح . ومن الأمر الين أن القرآن أفصح كلام ؛ لما ورد فيه فلا معترض عليه ، ولا يشك فى صحته وفصلحته ؛ وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ ﴾ وقال هنا : ﴿ وَلَا تَزِمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ ﴾ والمعنى : لا تزموا على عقد النكاح فى زمان العتة ثم حذف على ما تقدم . وحكى سيويه : ضرب فلان الظاهر والبطن ؛ أى على . قال سيويه : والحذف فى هذه الأشياء لا يقاس عليه . قال النحاس : ويجوز أن يكون « ولا تعقدوا عقد النكاح » ؛ لأن معنى « تزموا وتعقدوا » واحد . ويقال : « تزموا » بضم الزاى .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ يريد تمام العتة . والكتاب هنا هو الحد الذى جعل والقدر الذى رسم من المدة ؛ سماه كتاباً إذ قد حده وفرضه كتاب الله كما قال : ﴿ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ وكما قال : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ . فالكتاب . القرض ، أى حتى يبلغ القرض أجله ؛ كتب عليكم الصيام أى قرض . وقيل :

في الكلام حذف ، أى حتى يبلغ فرض الكتاب أجله ؛ فالكتاب على هذا التأويل بمعنى القرآن . وعلى الأول لا حذف فهو أولى ، والله أعلم .

الثالثة - حرم الله تعالى عقد النكاح في العدة بقوله تعالى : « وَلَا تَزِمُوا عَقْدَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ » وهذا من المحكم المجمع على تأويله أن بلوغ أجله انقضاء العدة . وأباح التعريض في العدة بقوله : « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ » الآية . ولم يختلف العلماء في إباحة ذلك ، واختلفوا في ألفاظ التعريض على ما تقدم . واختلفوا في الرجل يخاطب امرأة في عتبتها جاهلا ، أو يواعدها ويقدد بعد العدة ؛ وقد تقدم هذا في الآية التي قبلها . واختلفوا إن عزم المقتدة في العدة وعثر عليه ففسخ الحاكم نكاحه ؛ وذلك قبل الدخول وهي :

الرابعة - فقول عمر بن الخطاب وجماعة من العلماء أن ذلك لا يؤيد تحريما ، وأنه يكون خاطبا من الخطاب ؛ وقاله مالك وابن القاسم في المدونة في آخر الباب الذي يليه « ضرب أجل للمقتود » . وحكى ابن الجلاب عن مالك رواية أن التحريم يتأبد في العقد وإن فسخ قبل الدخول ؛ ووجهه أنه نكاح في العدة فوجب أن يتأبد به التحريم ؛ أصله إذا بنى بها . وأما إن عقد في العدة ودخل بعد انقضائها وهي :

الخامسة - فقال قوم من أهل العلم : ذلك كاللدخول في العدة ؛ يتأبد التحريم بينهما . وقال قوم من أهل العلم : لا يتأبد بذلك تحريم . وقال مالك : يتأبد التحريم . وقال حرة : وما التحريم بذلك بالبين ؛ والقولان له في المدونة في ملاقاة السنة . وأما إن دخل في العدة وهي :

السادسة - فقال مالك والليث والأوزاعي : يُفَرَّقُ بينهما ولا تحل له أبدا . قال مالك والليث : ولا يملك العيين مع أنهم جوزوا التزوج بالمزني بها . واحتجوا بأن عمر ابن الخطاب قال : لا يَحْتَمِلَانِ أبدا . قال سعيد : ولها مهرها بما استمل من فرجها ؛ أخرجه مالك في موطنه وسبأ . وقال الثوري والكوفيون والشافعي : يُفَرَّقُ بينهما ولا يتأبد

التحريم بل يفسخ بينهما ثم تعتد منه ، ثم يكون خاطبا من الخطاب . واحتجوا بإجماع العلماء على أنه لو زنى بها لم يحرم عليه تزويجها ؛ فكذلك وطؤه إياها في العدة . قالوا : وهو قول علي ؛ ذكره عبد الرزاق . وذكر عن ابن مسعود مثله ؛ وعن الحسن أيضا . وذكر عبد الرزاق عن الثوري عن أشعث عن الشعبي عن مسروق أن عمر رجع عن ذلك وجعلهما يمتحمان . وذكر القاضي أبو الوليد الباجي في المثنى فقال : لا يخلو النكاح في العدة إذا بنى بها أن يبنى بها في العدة أو بعدها ؛ فإن كان بنى بها في العدة فإن المشهور من المذهب أن التحريم يتأبد ، وبه قال أحمد بن حنبل . وروى الشيخ أبو القاسم في تفريره أن في التي يتزوجها الرجل في عدة من طلاق أو وفاة مالا بتحريم روايتين ؛ أحدهما — أن تحريره يتأبد على ما تقدمناه . والثانية — أنه زان وعليه الحد ، ولا يلحق به الولد ، وله أن يتزوجها إذا انقضت عتتها ، وبه قال الشافعي وأبو حنيفة . ووجه الرواية الأولى وهي المشهورة ما ثبت من قضاء عمر بذلك ، وقامه بذلك في الناس ، وكانت قضاياها تسير وتشتد وتقتل في الأمصار ولم يعلم له مخالف ؛ فثبت أنه إجماع . قال القاضي أبو محمد : وقد روى مثل ذلك عن علي بن أبي طالب ، ولا يخالف لما مع شهرة ذلك وانتشاره ؛ وهذا حكم الإجماع . ووجه الرواية الثانية أن هذا وطؤه ممنوع فلم يتأبد تحريره ؛ كالأزواج نفسها أو تزوجت متعة أو زنت . وقد قال القاضي أبو الحسن : إن مذهب مالك المشهور في ذلك ضعيف من جهة النظر . والله أعلم . وأسند أبو عمر : حنثا عبد الوارث بن سفيان حنثنا قاسم بن أصبغ عن محمد ابن إسماعيل عن نعم بن حماد عن ابن المبارك عن أشعث عن الشعبي عن مسروق قال : بلغ عمر بن الخطاب أن امرأة من قريش تزوجها رجل من ثقيف في عتتها فأرسل إليها ففزع بينهما وعاقبهما وقال : لا تسكحها أبدا وجعل صدقاتها في بيت المال ؛ وفشا ذلك في الناس فبلغ عليا فقال : يرحم الله أمير المؤمنين ! ما يأك الصدقات ويبت المال ! إنما جهلا فينبغي للإمام أن يردّها إلى السنة . قيل : فما تقول أنت فيها ؟ فقال : لما الصدقات بما استحل من فرجها ، ويفزع بينهما ولا جلد عليهما ، وتكمل عتتها من الأول ثم تعتد من

الناسى عتة كاملة ثلاثة أقراء ثم يخطبها إن شاء . فيبلغ ذلك عمر نخطب الناس فقال :
أيها الناس ، ردوا الجهالات الى السنة . قال اليك الطبرى : ولا خلاف بين الفقهاء أن من
عقد على امرأة نكاحها وهى فى عتة من غيره أن النكاح فاسد . وفى اتفاق عمر وعلى على تحى
الحدة عنها ما يدل على أن النكاح الفاسد لا يوجب الحدة ؛ إلا أنه مع الجهل بالتحريم
متفق عليه ومع العلم به يختلف فيه . واختلفوا هل تعتد منهما جميعا ، وهذه مسألة
المدتين وهى :

السابعة - فروى المدنيون عن مالك أنها تم بقية عتتها من الأول وتستأنف عتة
أخرى من الآخر ؛ وهو قول الليث والحسن بن حى والشافعى وأحمد وإسحاق . وروى عن
على كما ذكرنا ، وعن عمر على ما يأتى . وروى محمد بن القاسم وابن وهب عن مالك أن
عتتها من الثانى تكفيها من يوم فرق بينه وبينها ، سواء كانت بالحل أو بالأقراء أو بالشهور ؛
وهو قول الثورى والأوزاعى وأبى حنيفة . وحجتهم الإجماع على أن الأول لا ينكحها فى بقية
العتة منه ؛ فدل على أنها فى عتة من الثانى ولولا ذلك لنكحها فى عتتها منه . أجاب الأولون
فقالوا : هذا غير لازم لأن منع الأول من أن ينكحها فى بقية عتتها إنما وجب لما يتلوهما
من عتة الثانى ؛ وهما حقان قد وجبا عليها لزوجين كسائر حقوق الآدميين لا يدخل أحدهما
فى صاحبه . وخرج مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب وعن سليمان بن يسار أن طليعة
الأسدية كانت تحت رشيد الثقفى فطلقها فنكحت فى عتتها فضر بها عمر وضرب زوجها
بالمغفقة ضربات وفوق بينهما ؛ ثم قل عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أيما امرأة نكحت
فى عتتها فإن كان زوجها الذى تزوج بها لم يدخل بها فوق بينهما ثم اعتدت بقية عتتها من
الزوج الأول ، ثم كان الآخر خاطبا من الخطاب ؛ وإن كان دخل بها فوق بينهما ثم اعتدت
بقية عتتها من الأول ثم اعتدت من الآخر ثم لا يحتملان أبدا . قال [مالك] ^(١) : وقال سعيد بن
المسيب : ولما مهرها بما استحل من فرجها . قال أبو عمر : وأما طليعة هذه فهى طليعة

بنت عبيد الله أخت طلحة بن عبيد الله التيمي، وفي بعض نسخ الموطأ من رواية يحيى طليحة الأسيدي وذلك خطأ وجهل، ولا أعلم أحدا قاله.

الثامنة - قوله « فضرى بها عمر بالخفقة وضرب زوجها ضربات » يريد على وجه العقوبة لما ارتكبه من المحذور وهو النكاح في السنة. وقال الزهري: « فلا أدري كم بلغ ذلك الجلد. قال: وجلد عبد الملك في ذلك كل واحد منهما أربعين جلدة. قال: فستل عن ذلك قبيصة بن ذؤيب فقال: لو كنتم خفقم بجلدتم عشرين! وقال ابن حبيب في التي تروج في السنة فيمتها الرجل أو يُقْبَل أو يسائر أو يُغَيِّر أو ينظر على وجه اللذة أن على الزوجين العقوبة وعلى الولي وعلى اليهود ومن علم منهم أنها في سنة، ومن جهل منهم ذلك فلا عقوبة عليه. وقال ابن المَوَاز: يجلد الزوجان الحد إن كانا تعمدًا ذلك، فيحمل قول ابن حبيب من علم بالعدة، ولم يعمد أو ارتكب المحذور فذلك الذي يعاقب؛ وعلى ذلك كان ضرب عمر المرأة وزوجها بالخفقة ضربات. وتكون العقوبة والأدب في ذلك بحسب حال المعاقب. ويحمل قول ابن المَوَاز على أنهما علما التحريم واقترعا ارتكبا المحذور جرأة وإقداما. وقد قال الشيخ أبو القاسم: إنهما روايتان في السد؛ أحدهما يحده. والثانية يعاقب ولا يحده.

التاسعة - قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَلْمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَأَخَذْنَاهُ﴾ هذا نهاية التحذير من الوقوع فيما نهى عنه.

قوله تعالى: لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَرَّ مَسْوَاهُنَّ أَوْ تَفَرَّقُوا مِنْ فَرِيضَةٍ مَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِمِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٦﴾ فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى - قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ هذا أيضا من أحكام المطلقات؛ وهو ابتداء إخبار برفع الحرج عن المطلق قبل البناء والجماع، فرض مهر أو لم

يفرض؛ ولما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التزويج لمنى النوق وقضاء الشهوة وأمر بالتزويج لطلب العصمة والتمسك ثواب الله وقصد دوام الصلحة وقع في قوس المؤمنين أن من طلق قبل البناء قد واقع جزءا من هذا المكروه؛ فزلت الآية رافعة للجناح في ذلك إذا كانت أصل النكاح على المقصد الحسن. وقال قوم: «لا جناح عليكم» معناه لا طلب لجميع المهر بل عليكم نصف المفروض لمن فرض لها والمثمة لمن لم يفرض لها. وقيل: لما كان أمر المهر مؤكدا في الشرع فقد يتوهم أنه لا بد من مهر إما مسمى وإما مهر المثل؛ فرفع المخرج عن المطلق في وقت الطلاق وإن لم يكن في النكاح مهر. وقال قوم: «لا جناح عليكم» معناه في أن ترسلوا الطلاق في وقت الحبس، بخلاف المدخول بها إذ غير المدخول بها لا عنة عليها.

الثانية - المطلقات أربع: مطلقة مدخول بها مفروض لها وقد ذكر الله حكمها قبل هذه الآية، وأنه لا يسترد منها شيء من المهر، وإن عنتها ثلاثة قروء. ومطلقة غير مفروض لها ولا مدخول بها فهذه الآية في شأنها ولا مهر لها، بل أمر الرب تعالى بإمتناعها، وبين في سورة «الأحزاب» أن غير المدخول بها إذا طلقت فلا عنة عليها، وسبق في المطلقة مفروض لها غير مدخول بها ذكرها بعد هذه الآية إذ قال: «وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً»، ومطلقة مدخول بها غير مفروض لها ذكرها الله في قوله: «مَا اسْتَمْتَحْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَلَهُنَّ أَجُورُهُنَّ»؛ فذكر تعالى في هذه الآية والتي بعدها مطلقة قبل المسيس وقبل الفرض، ومطلقة قبل المسيس وبعد الفرض؛ فجعل للاولى الثمة، وجعل للثانية نصف الصداق لما حلح الزوجة من حصص المقد، ووضع الحل الحاصل للزوج بالمقد؛ وقابل المسيس بالمهر الواجب.

الثالثة - لما قسم الله تعالى حال المطلقة هنا قسمين: مطلقة مسمى لها المهر، ومطلقة لم يسلم لها دل على أن نكاح التفويض جائز، وهو كل نكاح عقد من غير ذكر الصداق، ولا خلاف فيه، ويفرض بعد ذلك الصداق، فإن فرض التحق بالمقد وبجاز، وإن لم يفرض لها وكان الطلاق لم يجب صداق إجماعا؛ قاله الفاضل أبو بكر بن العربي. وحكى

المهدي عن حماد بن أبي سليمان أنه إذا طلقها ولم يدخل بها ولم يكن فرض لها أجز على نصف صداق مثلها . وإن فرض بعد عقد النكاح وقبل وقوع الطلاق فقال أبو حنيفة : لا يتنصف بالطلاق لأنه لم يجب بالعقد ؛ وهذا خلاف الظاهر من قوله : « وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً » وخلاف القياس أيضا ؛ فإن الفرض بعد العقد يلحق بالعقد فوجب أن يتنصف بالطلاق ؛ أصله للفرض المقترن بالعقد .

الرابعة - إن وقع الموت قبل الفرض فذكر الترمذي عن ابن مسعود « أنه مثل عن رجل تزوج امرأة لم يفرض لها ولم يدخل بها حتى مات ؛ فقال ابن مسعود : لها مثل صداق نساها ، لا وكس ولا شطط ، وطبها المنة ولها الميراث ؛ فقام معقل بن سنان الأشجعي فقال : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بَرَّوَج بنت واشقي امرأة منا مثل الذي قضيت ؛ ففرح بها ابن مسعود . قال الترمذي : حديث ابن مسعود حديث حسن صحيح ، وقد روى عنه من غير وجه ، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم ، وبه يقول الثوري وأحمد وإسحاق ، وقال بعض أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم منهم علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وابن عباس وابن عمر : إذا تزوج الرجل امرأة ولم يدخل بها ولم يفرض لها صداقا حتى مات قالوا : لها الميراث ولا صداق لها وطبها المنة ، وهو قول الشافعي . قال : ولو ثبت حديث بَرَّوَج بنت واشقي لكانت الحجة فيما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم . وروى عن الشافعي أنه رجع بمصر بعد عن هذا القول ، وقال بحديث بَرَّوَج بنت واشقي » .

قلت - اختلف في ثبت حديث بَرَّوَج ؛ فقال القاضي أبو محمد عبد الوهاب في شرح رسالة ابن أبي زيد : وأما حديث بَرَّوَج بنت واشقي فقد رده حفاظ الحديث وأئمة أهل العلم . وقال الواقدي : وقع هذا الحديث بالمدينة فلم يقبله أحد من العلماء ؛ وصححه الترمذي كما ذكرنا عنه وابن المنذر . قال ابن المنذر : وقد ثبت مثل قول ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبه قول . وذكر أنه قول أبي ثور وأصحاب الرأي . وذكر عن الزهري والأوزاعي

ومالك والشافعي مثل قول عليّ وابن زيد وابن عباس وابن عمر . وفي المسألة قول ثالث وهو انه لا يكون ميراث حتى يكون مهر ، قاله مسروق .

قلت : ومن المجبة لما ذهب اليه مالك أنه فراق في نكاح قبل الفرض فلم يجب فيه صداق ؛ أصله الطلاق ؛ لكن إذا صح الحديث فالقياس في مقابلته فاسد . وقد حكى أبو محمد عبد الحميد عن المذهب ما يوافق الحديث ، والحمد لله . وقال أبو عمر : حديث برّوع رواه عبد الرزاق عن الثوري عن منصور عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود ، الحديث . وفيه : فقام معقل ابن سنان . وقال فيه ابن مهدي عن الثوري عن فراس عن الشعبي عن مسروق عن عبد الله فقال معقل بن يسار ، والصواب عندي قول من قال معقل بن سنان لا معقل بن يسار ؛ لأن معقل بن يسار رجل من مزيّنة ، وهذا الحديث إنما جاء في امرأة من أشجع لأم مزيّنة ؛ وكذلك رواه داود عن الشعبي عن علقمة ؛ وفيه : فقال ناس من أشجع ، ومعقل بن سنان قُتل يوم الحرة ؛ وفي يوم الحرة يقول الشاعر :

أَلَا تَلْكُمُ الْأَنْصَارُ تَبْكِي سَرَاتَهَا • وَأَشْجُعُ تَبْكِي مَعْقِلَ بَنِ سِنَانٍ

الخامسة - قوله تعالى : (مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ) « ما » بمعنى الذي ، أي إن طلقتم النساء اللاتي لم تمسوهن . و « تمسوهن » قرئ بفتح التاء من الثلاثي ، وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وعاصم وابن عامر . وقرأ حمزة والكسائي « تماسوهن » من المفاعلة ؛ لأن الوطء تم بهما ؛ وقد يرد في باب المفاعلة فاعل بمعنى فعل ؛ نحو طارت النمل ، وعاقبت النمس . والقراءة الأولى تقتضي معنى المفاعلة في هذا الباب بالمعنى المفهوم من النمس ، ورتبها أبو جيل لأن أفعال هذا المعنى جاءت ثلاثية على هذا الوزن ، جاء : نكح وسقط وقرع ودغط وضرب الفحل ، والقراءتان حستان . و « أو » في « أو تفرضوا » قيل هو بمعنى الواو ؛ أي ما لم تمسوهن ولم تفرضوا لهن ؛ كقوله تعالى : « وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا بِمَا عَمِلَتْ أَيْمَانُهَا وَأَنَّهُمْ قَاتِلُونَ » أي وهم قاتلون . وقوله : « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » أي ويزيدون .

(١) دغط (بالهالجمة والقائه . وقيل بإبدال الجيمية والقائه) وهي بمعنى سفد .

وقوله : « وَلَا يُطْعِمُهُمْ آيَمًا أَوْ كُفُورًا » أى وكفورا . وقوله : « وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ النَّائِطِ » معناه وجاء أحد منكم من النائط وأتم مرضى أو مسافرون . وقوله : « إِلَّا مَا حَلَّتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْخَوَابِ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ » وما كان مثله . ويحذف هذا بأنه تعالى عطف عليها بعد ذلك المفروض لما يقال : « وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمْسُوهُنَّ وَقَدْ قَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً » . فلو كان الأول ليان طلاق المفروض لها قبل المسيس لها كثره .

السادسة - قوله تعالى : (وَمَتَّوْنٌ) معناه أعطوهن شيئا يكون متافعا لمن . وحله ابن عمر وعلى بن أبى طالب والحسن بن أبى الحسن وسعيد بن جبير وأبو قلابة والزهرى وقادة والضحاك بن مزاحم على الوجوب . وحله أبو عبيد ومالك بن أنس وأصحابه والقاضى شريح وغيرهم على الندب . تمسك أهل القول الأئمة بمقتضى الأمر . وتمسك أهل القول الثانى بقوله تعالى : « حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ » و « عَلَى الْمُتَّقِينَ » ولو كانت واجبة لأطلقها على الخلق أجمعين . والقول الأول أولى لأن عموميات الأمر بالإمتاع فى قوله : « وَمَتَّوْنٌ » وإضافة الإمتاع إليهن بلام التملك فى قوله : « وَلِطَلَقَاتٍ مَّتَاعٌ » أظهر فى الوجوب منه فى الندب . وقوله : « عَلَى الْمُتَّقِينَ » تأكيد لإيجابها لأن كل واحد يجب عليه أن يتقى الله فى الإشراف به ومعاصيه وقد قال تعالى فى القرآن : « هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ » .

السابعة - واختلفوا فى الضمير المتصل بقوله « وَمَتَّوْنٌ » من المراد به من النساء فقال ابن عباس وابن عمر وجابر بن زيد والحسن والشافعى وأحمد وعطاء وإسحاق وأصحاب الراى : المنة واجبة للطهفة قبل البناء والقرض مندوبة فى حق غيرها . وقال مالك وأصحابه : المنة مندوبة إليها فى كل مطلقة وإن دخل بها ، إلا فى التى لم يدخل بها وقد فرض لها نفسيها ما فرض لها ولا منة لها . وقال أبو ثور : لها المنة ولكل مطلقة . وأجمع أهل العلم على أن التى لم يفرض لها ولم يدخل بها لا تنى . لها غير المنة . قال الزهرى : يقضى لها بها القاضى . وقال جمهور الناس : لا يقضى بها لها .

قلت : هذا الإجماع إنما هو في الحرة، فأما الأمة إذا طُلقَت قبل الفرض والميسر فالجمهور على أن لها المَتعة . وقال الأوزاعي والثوري : لا متعة لها لأنها تكون لسيدها وهو لا يستحق مالا في مقابلة تأدي مملوكته بالطلاق . وأما رِبَ مذهب مالك فقال ابن شعبان : المتعة بإزاء غَمِّ الطلاق، ولذلك ليس للختلعة والمباراة والملاعة متعة قبل البناء ولا بعده لأنها هي التي اختارت الطلاق . وقال الترمذي وعطاء والنخعي : للختلعة متعة . وقال أصحاب الرأي : للاعنة متعة . قال ابن القاسم : ولا متعة في نكاح مفسوخ . قال ابن المؤازر : ولا فيما يدخله الفسخ بعد صحة العقد؛ مثل ملك أحد الزوجين صاحبه . قال ابن القاسم : وأصل ذلك قوله تعالى : « وَلِلطَّلَاقِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ » فكان هذا الحكم مختصا بالطلاق دون الفسخ . وروى ابن وهب عن مالك أن الخيرة لها المتعة بخلاف الأمة تخير تحت العبد فتختار هي نفسها، فهذه لا متعة لها . وأما الحرة تُخَيَّرُ أو تُكَلَّمُ أو يَرْجَعُ عليها أمة فتختار هي نفسها في ذلك كله فلها المتعة ؛ لأن الزوج سبب للفراق .

الثامنة - قال مالك : ليس للثة عندنا حدٌ معروف في قليلها ولا كثيرها . وقد اختلف الناس في هذا ؛ فقال ابن عمر : أدنى ما يميز في اللثة ثلاثون درهما أو شهابا . وقال ابن عباس : أرض المتعة خادم ثم كسوة ثم نفقة . عطاء : أوسطها الدرع والجمار والمِغْصَة . أبو حنيفة : ذلك أدناها . وقال ابن عُمرير : على صاحب الديوان ثلاثة دنانير، وعلى العبد المتعة . وقال الحسن : يُنْتَجَ كُلُّ بَقْدَرَةٍ، هذا بخادم وهذا بأبواب وهذا بثوب وهذا بنفقة؛ وكذلك يقول مالك بن أنس ، وهو مفتضى القرآن فإن الله سبحانه لم يحددها ولا حدها وإنما قال : « عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ » . ومنع الحسن بن عليّ بشرين ألفا وزقاق من صل . ومنع شريح بمخماتة درهم . وقد قيل : إن حالة المرأة معتبرة أيضا ؛ قلله بعض الشافعية قالوا : لو اعتبرنا حال الرجل وحده لم منه أنه لو رَجَعَ أمرأتين أحدهما شريفة والأخرى ذنية ثم طلقهما قبل الميسر ولم يُسَمَّ لما أن يكونا متساويتين في المتعة فيجب للذنية ما يجب للشريفة وهذا خلاف ما قال الله تعالى : « مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ » ولم يَمْ منه أن

الموسم العظيم اليسار إذا تزوج امرأة دنية أن يكون مثلاً؛ لأنه إذا طلقها قبل الدخول والقرض لزمته المنة على قدر حاله ومهر مثلاً؛ فتكون المنة على هذا أضعاف مهر مثلاً؛ فتكون قد استحققت قبل الدخول أضعاف ما تستحقه بعد الدخول من مهر المثل الذي فيه غاية الاستبدال وهو الوطء . وقال أصحاب الرأي وضربهم : منعة التي تُطلق قبل الدخول والقرض نصف مهر مثلاً لا غير؛ لأن مهر المثل مستحق بالعقد والمنة هي بعض مهر المثل؛ فيجب لها كما يجب نصف المسمى إذا طلق قبل الدخول ، وهذا يردّه قوله تعالى : « عَلَى الْمُؤْسِرِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ » وهذا دليل على رفض التحديد؛ والله بجفائي الأمور طم . وقد ذكر الثعلبي حديثاً قال : نزلت « لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ » الآية ، في رجل من الأنصار تزوج امرأة من بني حنيفة ولم يسم لها مهراً ثم طلقها قبل أن يسمها فنزلت الآية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَتَّهَا وَلَوْ بَقْلَسُوَيْك » . وروى الدارقطني عن سويد بن غفلة قال : كانت طائفة الخنثيمة عند الحسن بن علي بن أبي طالب فلما أصيب علي وبُويج الحسن بالخلافة قالت : تَبَيْتُكَ الْخِلَافَةَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! فقال : يُقْتَلُ عَلِيٌّ وَتُظْهِرُ بَنِي الشَّامَةِ ! فَأَنْهَى فَأُتِيَ طَالِقٌ ثَلَاثًا . قَالَ : فَطَلَعْتُ بِسَاجِهَا وَقَعَدْتُ حَتَّى انْقَضَتْ عَثْمَتُهَا ؛ فَبَعَثْتُ إِلَيْهَا بِعَشْرَةِ أَلَافٍ مَنَعَةً ، وَبَقِيَّةَ مَا بَقِيَ لَهَا مِنْ صَدَاقِهَا . فَقَالَتْ :

• مَنَاعٌ قَلِيلٌ مِنْ حَبِيبٍ مُفَارِقٍ •

قلنا بلنه قولاً بكى وقال : لولا أني سمعت جدي - أو حدثني أبي أنه سمع جدي - يقول : أيما رجل طلق امرأته ثلاثاً متباعدة أو ثلاثاً متباعدة لم تحل له حتى تنكح زوجاً غيره لراجمتها . وفي رواية : أخبرني الرسول فبكي وقال : لولا أني أبنت الطلاق لها لراجمتها ، ولكنني سمعت الرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أيما رجل طلق امرأته ثلاثاً عند كل طهر تطليقة أو عند رأس كل شهر تطليقة أو طلقها ثلاثاً جميعاً لم تحل له حتى تنكح زوجاً غيره » .

• (١) في بعض الأسرود : « بجلباها » . والساج : اللسان الناعم اللين . وقيل هو اللسان المنقود .

• يتبع ذلك •

الثامنة - من جهل المنة حتى مضت أعوام فليدفع ذلك إليها وإن تزوجت، وإلى ورتها إن ماتت؛ رواه ابن المَوَاز من ابن القاسم . وقال أصبَح : لا شيء عليه إن ماتت لأنها تسلب للزوجة عن الطلاق وقد فات ذلك . ووجه الأول أنه حتى ثبت عليه وينقل منها إلى ورتها كسائر الحقوق، وهذا يشمر بوجوبها في المنهب، والله أعلم .

العاشرة - قوله تعالى : ﴿ عَلَى الْمُوسَى قَدَرُهُ وَعَلَى الْقُتَيْبِ قَدَرُهُ ﴾ دليل على وجوب المنة . وقرأ الجمهور «الموسى» بسكون الواو وكسر السين، وهو الذى اتسعت حاله؛ يقال: فلان ينق على قدره، أى على وسعه . وقرأ أبو حَيَّوة بفتح الواو وشد السين وقحها . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر «قدره» بسكون الدال في الموضعين . وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي وعاصم في رواية حفص بفتح الدال فيهما . قال أبو الحسن الأخفش وغيره : هما بمعنى، لتان فصيحتان؛ وكذلك حكى أبو زيد، يقول : خذ قدركنا وقدركنا، بمعنى . وقرأ في تكلم الله : « نَسَّأْتُ أُوْدِيَّةً بِقَدْرِهَا » وقدرها، وقال تعالى : « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ » ولو حركت الدال لكان جازماً . و « الْمُقْتَرِ » المِقْلُ القليل المسال . و « متاعا » نصب على المصدر، أى متعوهن متاعا بالمعروف، أى بما عرف في الشرع من الاقتصاد .

الحادية عشر - قوله تعالى : ﴿ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى يَحِقُّ ذلك طعيم حقا؛ يقال: حققت عليه القضاء وأحققت، أى أوجبت؛ وفى هذا دليل على وجوب المنة مع الأسرى؛ قوله : « حقا » تأكيد للوجوب . ومعنى « على المحسنين، وعلى المتقين » أى على المؤمنين، إذ ليس لأحد أن يقول : لست بمحسن ولا متقٍ، والناس مأمورون بأن يكونوا جميعا محسنين متقين، فيحسنون بأداء فرائض الله ويمتنعون مما صبه حتى لا يدخلوا النار؛ فواجب على اتقاق أجمعين أن يكونوا محسنين متقين . و « حقا » صفة لقوله « متاعا » أو نصب على المصدر، وذلك أدخل في التأكيد للأمر، والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٢٧﴾

فيه ثمان مسائل .

الأولى - اختلف الناس في هذه الآية ؛ فقالت فرقة منها مالك وغيره : إنها مخرجة المطلقة بعد الفرض من حكم التمتع إذ يتناولها قوله تعالى : «وَتَعْفُونَ» . وقال ابن المسيب : نسخت هذه الآية الآية التي في «الأحزاب» لأن تلك تضمنت تمتع كل من لم يدخل بها . وقال قتادة : نسخت هذه الآية الآية التي قبلها .

قلت : قول سعيد وقادة فيه نظر ، إذ شروط النسخ غير موجودة والجمع ممكن . وقال ابن القاسم في المدونة : كان التمتع لكل مطلقة بقوله تعالى : «وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَاعٌ بِالْبَعْرِوْفِ» ولغير المدخول بها بالآية التي في سورة «الأحزاب» فاستثنى الله تعالى المفروض لما قبل الدخول بها بهذه الآية ، وأثبت للفروض لها نصف ما فرض فقط . وقال فريق من العلماء منهم أبو ثور : المتعة لكل مطلقة عموماً ، وهذه الآية إنما بيئت أن المفروض لها تأخذ نصف ما فرض لها ، ولم يُسن بالآية إسقاط متعتها بل لها المتعة ونصف المفروض .

الثانية - قوله تعالى : «فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ» أي فالواجب نصف ما فرضتم ، أي من المهر فالنصف للزوج والنصف للمرأة بإجماع . والنصف الجزء من اثنين ؛ يقال : نصف الماء القُدْح أي بلغ نصفه . ونصف الإزار الساق ؛ وكل شيء بلغ نصف غيره فقد نصفه . وقرأ الجمهور «نصف» بالرفع . وقرأت فرقة «نصف» بنصب الفاء ؛ المعنى فادفعوا نصف . وقرأ علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت «نصف» بضم النون في جميع القرآن وهي لغة . وكذلك روى الأصمعي قراءة عن أبي عمرو بن العلاء يقال : نصف ونُصف ويُصيف ،

لثَلَاثَ ثَلَاثٍ فِي النِّصْفِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَتَى مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدًّا أَحَدُهُمْ وَلَا نَيْصِغَةً» أَيِ نَصْفِهِ. وَالنِّصْفُ أَيْضًا الْقِتَاعُ.

الثالثة - إِذَا أَصْدَقَهَا ثُمَّ طَلَّقَهَا قَبْلَ الدُّخُولِ وَتَمَّ الصَّدَاقُ فِي يَدِهَا فَقَالَ مَالِكٌ: كُلُّ عَرَّضٍ أَصْدَقَهَا أَوْ عِدَّ فَنَزَّهًا لَهَا جَمِيعًا وَنَقَصَانَهُ بَيْنَهُمَا، وَتَوَاهُ طَلِيقًا جَمِيعًا لَيْسَ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنْهُ شَيْءٌ. فَإِنْ أَصْدَقَهَا عَيْنًا ذَهَبًا أَوْ وَرَقًا فَاشْتَرَتْ بِهِ عِيدًا أَوْ دَارًا أَوْ اشْتَرَتْ بِهِ مِنْهُ أَوْ مِنْ غَيْرِ طَلِيقًا أَوْ شَوَارًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ تَمَّ لَهَا التَّصَرُّفُ فِيهِ بِلِجَازِهَا وَصَلَاحِ شَأْنِهَا فِي بَقَائِهَا مَعَهُ فَذَلِكَ كُلُّهُ بِمِثْلِهِ مَا لَوْ أَصْدَقَهَا إِيَّاهُ، وَتَوَاهُ وَنَقَصَانَهُ بَيْنَهُمَا. وَإِنْ طَلَّقَهَا قَبْلَ الدُّخُولِ لَمْ يَكُنْ لَهَا إِلَّا نِصْفُهُ، وَلَيْسَ عَلَيْهَا أَنْ تَقْرَمَ لَهُ نِصْفَ مَا قَبِضَتْ مِنْهُ، وَإِنْ اشْتَرَتْ بِهِ أَوْ مَنَّهُ شَيْئًا تَخَصَّصَ بِهِ فَلِهَا أَنْ تَقْرَمَ لَهُ نِصْفَ صَدَاقِهَا الَّذِي قَبِضَتْ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ لَوْ اشْتَرَتْ مِنْ غَيْرِهِ عِيدًا أَوْ دَارًا بِالْأَنْثِ الَّذِي أَصْدَقَهَا ثُمَّ طَلَّقَهَا قَبْلَ الدُّخُولِ رَجِعَ عَلَيْهَا بِنِصْفِ الْأَنْثِ.

الرابعة - لَا خِلَافَ أَنَّ مَنْ دَخَلَ بِزَوْجَتِهِ ثُمَّ مَاتَ عَنْهَا وَقَدْ سَمَّاهَا أَنَّ لَهَا ذَلِكَ الْمُسَمَّى كَامِلًا وَالْمِيرَاثَ وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ.

وَاخْتَلَفُوا فِي الرَّجُلِ يَحْتَلِبُ بِالْمَرْأَةِ وَلَمْ يَمْسُحْ بِهَا حَتَّى فَارَقَهَا؛ فَقَالَ الْكُوفِيُّونَ وَمَالِكٌ: عَلَيْهِ جَمِيعُ الْمَهْرِ وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ لَخَبْرِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَضَى الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ فِيمَنْ أَغْلَقَ بَابًا أَوْ أَرْمَى بَيْتًا أَنَّ لَهَا الْمِيرَاثَ وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ، وَرَوَى مَرْفُوعًا نَزَّهَهُ النَّازِقِيُّ وَبِأَيٍّ فِي «النِّسَاءِ». وَالشَّافِعِيُّ لَا يُوجِبُ مَهْرًا كَامِلًا، وَلَا عِدَّةً إِذَا لَمْ يَكُنْ دُخُولُ لَظَاهِرِ الْقُرْآنِ. قَالَ شُرَيْحٌ: لَمْ أَسْمَعْ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ بَابًا وَلَا مِثْرًا، إِذَا زَمَّ أَنَّهُ لَمْ يَمْسُحْ بِهَا نِصْفَ الصَّدَاقِ؛ وَهُوَ مَذْهَبُ ابْنِ حَبَّاسٍ. وَبِأَيٍّ مَا لَعَلَّانَا فِي هَذَا فِي سُورَةِ «النِّسَاءِ» إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَقَدْ أَتَيْنَا بِمَعْشَرِكُمْ إِلَى بَيْتٍ».

الخامسة - قَوْلُهُ تَعَالَى: «(إِلَّا أَنْ يَفْتُونَ أَوْ يَفْتُوَ الَّذِي بَيْنَهُمَا عَقْدَةُ النِّكَاحِ)» الْآيَةُ. «إِلَّا أَنْ يَفْتُونَ» اسْتِثْنَاءٌ مُتَقَلِّبٌ لِأَنَّهُ عَفْوٌ عَنْ النِّصْفِ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ أَخْفَنِ. وَ«يَفْتُونَ»

معناه يترك ويصفح، ووزنه يفعُل، والمعنى إلا أن يترك النصف الذي وجب لمن عند الزوج، ولم تسقط التون مع « أن » لأن جمع المؤنث في المضارع على حالة واحدة في الرفع والنصب والحزم، فهي ضمير ليست بلامة إعراب فلذلك لم تسقط، ولأنه لو سقطت التون لاشتبه بالمذكر. والعافيات في هذه الآية كل امرأة تملك أمر نفسها، فأذن الله تعالى لمن في إسقاطه بعد وجوبه إذ جملة خالص حقن فيتصرفن فيه بالإمضاء والإسقاط كيف شئن، إذا لم يكن امرأتهن وكئن بالنات عاقلات راشدات. وقال ابن عباس وجماعة من الفقهاء والتابعين: ويجوز عفو البكر التي لا ولي لها؛ وحكاة يحنون في المدونة عن غير ابن القاسم بعد أن ذكر لابن القاسم أن وضعها نصف الصداق لا يجوز. وأما التي في حجر أب أو وصي فلا يجوز وضعها نصف صداقها قولاً واحداً، ولا خلاف فيه فيما أعلم.

السادسة - قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَفْوَ الَّذِي يَدِيهِ ﴾ معطوف على الأول مبنى وهذا مصرب. وقرأ الحسن « أَوْ يَفْوَ » ساكنة الواو، كأنه استقل الفتحة في الواو. واختلف الناس في المراد بقوله تعالى: « أَوْ يَفْوَ الَّذِي يَدِيهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ » فروى الدارقطني عن جبير ابن مطعم أنه تزوج امرأة من بني نصر فطلقها قبل أن يدخل بها فأرسل إليها بالصداق كاملاً وقال: أنا أحق بالعفو منها، قال الله تعالى: « إِلَّا أَنْ يَقُولَ أَوْ يَفْوَ الَّذِي يَدِيهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ » وأنا أحق بالعفو منها. وتأول قوله تعالى: « أَوْ يَفْوَ الَّذِي يَدِيهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ » يعني نفسه في كل حال قبل الطلاق وبعده، أي عقدة نكاحه؛ فلما أدخل اللام حذف المياء كقوله: « فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى » أي مأواه. قال النابغة:

لَمْ شَيْبَةً لَمْ يَطْلُبْهَا اللَّهُ غَيْرَهُم • مِنَ الْجُودِ وَالْأَحْلَامِ عِرْ عَوَازِبِ

أي أحلامهم. وكذلك قوله: « عُقْدَةُ النِّكَاحِ » أي عقدة نكاحه. وروى الدارقطني: مر فروعاً من حديث قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لبيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « تَوَلَّى عُقْدَةَ النِّكَاحِ الزَّوْجُ ». وأسندهذا عن علي وآبن عباس وسعيد بن المسيب وشريح. قال: وكذلك قال تافع بن جبير وعجمد بن كعب وطائوس ومجاهد

والشعبي وسعيد بن جبير، زاد غيره وعجاءد والتوري؛ واختاره أبو حنيفة وهو الصحيح من قول الشافعي، كلهم لا يرى سبيلا للولي على شيء من صدقها للإجماع على أن الولي لو أبرأ الزوج من المهر قبل الطلاق لم يحز فكتك بعده. وأجمعوا على أن الولي لا يملك أن يسيب شيئا من مالها، والمهر مالها. وأجمعوا على أن من الأولياء من لا يجوز عفوهم وهم بنو الوالد وبنو الإخوة، فكتك الأب، والله أعلم. ومنهم من قال هو الولي، أسنده الدارقطني أيضا عن ابن عباس قال: وهو قول إبراهيم وعقمة والحسن، زاد غيره وعكرمة وطاوس وعطاء وأبو الزناد وزيد بن أسلم وربعة ومحمد بن كعب وابن شهاب والأسود بن يزيد والشعبي وقائدة ومالك والشافعي في القديم. فيجوز للأب العفو عن نصف صداق ابنته البكر إذا طلقت، بنت الحيف أم لم تبلغه. قال عيسى بن دينار: ولا ترجع بشئ منه على أبيها، والدليل على أن المراد الولي أن الله سبحانه وتعالى قال في أول الآية: «وَأِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمْسُوهُنَّ وَقَدْ قَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا قَرَضْتُمْ» فذكر الأزواج وخاطبهم بهذا الخطاب، ثم قال: «إِلَّا أَنْ يَمْسُوهُنَّ» فذكر للنسوان، «أَوْ يَمْسُوهُنَّ الَّذِي بَيْنَهُنَّ عَقْدَةُ النِّكَاحِ» فهو ثالث فلا يرد إلى الزوج المتقدم إلا لو لم يكن لغيره وجود وقد وجد وهو الولي فهو المراد. قال معناه مكى وذكره ابن العربي. وأيضا فإن الله تعالى قال: «إِلَّا أَنْ يَمْسُوهُنَّ» ومعلوم أنه ليس كل امرأة نفو، فإن الصغيرة والمحجور عليها لا عفو لها، فين الله القسمين فقال: «إِلَّا أَنْ يَمْسُوهُنَّ» أي إن كن لملك أهلا «أَوْ يَمْسُوهُنَّ الَّذِي بَيْنَهُنَّ عَقْدَةُ النِّكَاحِ» وهو الولي لأن الأمر فيه إليه. وكذلك روى ابن وهب وأشباه وابن عبد الحكم وابن القاسم عن مالك أنه الأب في ابنته البكر والسيد في أخته. وإنما يجوز عفو الولي إذا كان من أهل السداد، ولا يجوز عفوها إذا كان سفها. فإن قيل: لا نسلم أنه الولي بل هو الزوج، وهذا الاسم أولى به لأنه أملك للعقد من الولي على ما تقدم. فالجواب - أنا لا نسلم أن الزوج أملك بالعقد من الأب في ابنته البكر، بل أب البكر يملك خاصة دون الزوج؛ لأن المفقود عليه هو بضع البكر ولا يملك الزوج أن يفقد على ذلك بل الأب يملكه. وقد أجاز شريح عفو الأخ عن نصف المهر، وكذلك قال عكرمة: يجوز عفو القوي

معد عقدة النكاح بينهما ، كان عما أو أبا أو أمّا ، وإن كرهت . وقرأ أبو نبيك والشعبي
« أو يفوا » بإسكان الواو على التشبيه بالألف ، ومثله قول الشاعر :

فما سؤدتني عامرٌ عن ورائة = أبي الله أن اسموبأم ولا أب

السابعة - قوله تعالى : (وَأَنْ تَقْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) إبداء وخبر ، والأصل
تقفوا أسكنت الواو الأولى لتقل حركتها ثم حذف لالتقاء الساكنين ، وهو خطاب للرجال
والنساء في قول ابن عباس فقلب الذكور ، واللام بمعنى إلى ، أي أقرب إلى التقوى . وقرأ
الجمهور « تقفوا » بالياء بالتثنية من فوق . وقرأ أبو نبيك والشعبي « وأن يفوا » بالياء ،
وذلك راجع إلى الذي بيده عقدة النكاح .

قلت : ولم يقرأ « وأن تقفوا » بالياء فيكون للنساء . وقرأ الجمهور « ولا تنسوا الفضل »
بضم الواو ، وكسرهما يجي بن يصر . وقرأ علي ومجاهد وأبو حيوة وابن أبي عملة « ولا تناسوا
الفضل » وهي قراءة متمكنة المعنى ؛ لأنه موضع تناس لا نسيان إلا على التشبيه . قال مجاهد :
الفضل إتمام الرجل الصداق كله ، أو ترك المرأة النصف الذي لها .

الثامنة - قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ يَبْصُرُ) خبر في ضمنه الوعد للحسن
والحرمان لغير المحسن ، أي لا يخفى عليه حقكم واستغناؤكم .

قوله تعالى : حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ

قَتِينِينَ ﴿٣٣٥﴾

فيه ثمان مسائل

الأولى - قوله تعالى : (حَافِظُوا) خطاب لجميع الأمة ، والآية أمر بالمحافظة على
إقامة الصلوات في أوقاتها بجميع شروطها . والمحافظة هي المداومة على الشيء والمواظبة عليه .

(١) في الأصول : « على النسبة بالألف » . وبإشارة الكشاف : « وقرأ الحسن (أو يفوا) بكون الواو
واسكان الواو والياء في موضع نصب فتية لما بالألف لأنها اختارها » .

والوسطى ثابث الأوسط . ووسط الشيء غيره وأعله ، ومنه قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ وَسَطًا » وقد تقدم ^(١) . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « ما أحب أن أكون في الصلاة كالوسطى » .

يا أوسط الناس طرأ في مفاتيحهم . وأكرم الناس أماً برة وأياً

ووسط فلان القوم يسقطهم أى صار في وسطهم . وأفرد الصلاة الوسطى بالذكر وقد دخلت قبل في عموم الصلوات تشريفاً لها ، كقوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ » ، وقوله : « فِيهِمَا قَاكِهَةٌ وَنَحْلٌ وَرَمَّانٌ » . وقرأ أبو جعفر الواسطي « والصلاة الوسطى » بالنصب على الإغراء ، أى والزبوا الصلاة الوسطى ، وكذلك قرأ الخلوفاً . وقرأ قائلون عن نافع « الوسطى » بالصاد مجاورة الطاء لما لائهما من خير واحد ، وهما لفتان كالصراط ونحوه .

الثانية - واختلف الناس في تعيين الصلاة الوسطى على عشرة أقوال :

الأول - أنها الظهر لأنها وسط النهار على الصحيح من القولين أن النهار أوله من طلوع الفجر كما تقدم ، وانما بدأنا بالظهر لأنها أول صلاة صليت في الإسلام . ومن قال إنها الوسطى زيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري وعبد الله بن عمر وعائشة رضي الله عنهم . وما يدل على أنها وسطى ما قالته عائشة وحفصة حين أملت « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر » بالواو . وروى أنها كانت أشق على المسلمين لأنها كانت نجية في المجاعة وهم قد تهمتهم أعمالهم في أموالهم . وروى أبو داود عن زيد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الظهر بالمجاعة ولم تكن تصل صلاة أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ، فترت : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » وقال : إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين . وروى مالك في موطنه وأبو داود الطيالسي في مسنده عن زيد بن ثابت قال : الصلاة الوسطى صلاة الظهر ، زاد الطيالسي : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلها بالمحجير .

الثاني - أنها العصر لأن قبلها صلاتي نهار وبعدها صلاتي ليل . قال الناس : وأجود من هذا الاحتجاج أن يكون إنما قيل لها وسُئِلَ لأنها بين صلاتين إحداهما أول ما فُرض . والآخرة الثانية بما فُرض . ومن قال إنها وسُئِلَ على بن أبي طالب وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري ، وهو اختيار أبي حنيفة وأصحابه ، وقوله الشافعي : وأكثر أهل الأثر ، وإليه ذهب عبد الملك بن حبيب واختاره ابن العربي في قَبَسِه وابن عطية في تفسيره وقال : وعلى هذا القول الجمهور من الناس وبه أقول . واحتجوا بالأحاديث الواردة في هذا الباب خرجها مسلم وغيره ، وأنصبا حديث ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **" الصلاة الوسطى صلاة العصر "** خرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وقد أتينا قيادة على هذا في المقتبس في شرح موطن مالك بن أنس .

الثالث - أنها المغرب ؛ قاله قيسية بن أبي ذؤيب في جماعة . والجمعة لم أنها متوسطة في عدد الركعات ليست بأقلها ولا أكثرها ولا تُقصر في السفر ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُخرجها عن وقتها ولم يبطلها ، وبعدها صلاتا جهرا وقبلها صلاتا سيرا . وروى من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **" إن أفضل الصلوات عند الله صلاة المغرب لم يُعطها عن مسافر ولا مقيم فتح الله بها صلاة الليل وختم بها صلاة النهار فمن صلى المغرب وصلى بعدها ركعتين بَنَى الله له قصرا في الجنة ومن صلى بعدها أربع ركعات غفر الله له ذنب عشرين سنة - أو قال - أربعين سنة "** .

الرابع - صلاة العشاء الآخرة لأنها بين صلاتين لا تقصران ، ويجئ في وقت نوم ويستحب تأخيرها وذلك شاق فوقع التأكيد في المحافظة عليها .

الخامس - أنها الصبح لأن قبلها صلاتي ليل يحجر فيها وبعدها صلاتي نهار يسر فيها ، ولأن وقتها يدخل والناس نيام ، والقيام إليها شاق في زمن البرد لشدة البرد وفي زمن الصيف لقصير الليل . ومن قال إنها وسُئِلَ على بن أبي طالب وعبد الله بن عباس ، أنخرجه

الموطأ بلائا^(١)، وأخرجه الترمذى عن ابن عمر وابن عباس عليهما السلام^(٢)، وروى عن جابر بن عبد الله وهو قول مالك وأصحابه، وإليه مِيلُ الشافعى فيما ذكر عنه القشيري، والصحيح عن علي أنها العصر، وروى عنه ذلك من وجه معروف صحيح. وقد استدل من قال إنها الصبح بقوله تعالى: «وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ» ببنى فيها، ولا صلاة مكتوبة فيها قنوت إلا الصبح. قال أبو رجاء: صلى بنا ابن عباس صلاة النداء بالبصرة فقتت فيها قبل الركوع ورفع يديه، فلما فرغ قال: هذه الصلاة الوسطى التي أمرنا الله تعالى أن نقوم فيها قانتين. وقال أنس: قنت النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة الصبح بعد الركوع، وسأيت حكم القنوت وما للعلماء فيه في آل عمران عند قوله تعالى: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ»^(٣).

السادس - صلاة الجمعة لأنها خصت بالجمع لها والخطبة فيها وجعلت عبداً، ذكره ابن حبيب ومكي. وروى مسلم عن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لقوم يتخفون من الجمعة: «لقد هممت أن أمر رجلاً يصلي بالناس ثم أحرق على رجال يتخفون من الجمعة يومئذ».

السابع - أنها الصبح والعصر معاً، قاله الشيخ أبو بكر الأيوبي واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار» الحديث، ورواه أبو هريرة. وروى جرير بن عبد الله قال: كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم ألا تنلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها» ببنى العصر والفجر، ثم قرأ جرير «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا». وروى عمار بن رؤبة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لن يطلع النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» ببنى

(١) أى قال مالك في الموطأ إنه بفتح حبا - (٢) التلخيص: ورواية الحديث من غير سند -

(٣) آية ١٢٨ قال التورى: «تضامون» بتشديد الميم وتثنيةها، فن شذها فمع الله، ومن غفلها ضم اللام، ومعنى المتشدد أنكم لا تضامون وتطلقون في التوصل إلى رؤيته، ومعنى المتف أن لا يلصقكم ضم، وهو الملققة والجمع -

بِالْفَجْرِ وَالْعَصْرِ . وَعَنْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : "مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ"
 بِكَلِمَةٍ ثَابِتٍ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ . وَتَمَيَّنَا الْبَرْدَيْنِ لِأَنَّهُمَا يُفْعَلَانِ فِي وَقْتِ الْبَرْدِ .

الثَّامِنُ - أَنَّهَا التَّمَنَّةُ وَالصَّبِيحُ . قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ
 فِيهِ : اِسْمُوهَا وَلَقُّوهَا مَنْ خَلَفَكُمْ حَافِظُوا عَلَى هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ - يَعْنِي فِي جَمَاعَةٍ - الْعِشَاءَ وَالصَّبِيحَ ،
 وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَا يَتِمُّوهُمَا وَلَوْ حَبَوَّا عَلَى مِرَاقَتِكُمْ وَرُكْبِكُمْ ، وَقَالَ عُمَرُ وَعِيَانُ . وَرَوَى الْأَئِمَّةُ
 عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّمَنَّةِ وَالصَّبِيحِ لَأَتَوْهَا
 وَلَوْ حَبَوَّا - وَقَالَ - إِنَّهُمَا أَشَدُّ الصَّلَوَاتِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ " وَجَعَلَ لِصَلَاةِ الصَّبِيحِ فِي جَمَاعَةٍ
 قِيَامُ لَيْلَةٍ وَالتَّمَنَّةُ نِصْفُ لَيْلَةٍ ؛ ذَكَرَهُ مَالِكٌ مَوْفُوفًا عَلَى عَثَانَ وَرَفَعَهُ مُسْلِمٌ ، وَخَرَّجَهُ أَبُو دَاوُدَ
 وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ شَهِدَ الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ لَهُ
 قِيَامُ نِصْفِ لَيْلَةٍ وَمَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ لَهُ كَقِيَامِ لَيْلَةٍ " وَهَذَا خِلَافُ مَا رَوَاهُ
 مَالِكٌ وَمُسْلِمٌ .

التَّاسِعُ - أَنَّهَا الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ بِجَمْعِهَا ؛ قَالَهُ مَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى :
 « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ » يَمُومُ الْفَرَضَ وَالنَّفْلَ ، ثُمَّ خَصَّ الْفَرَضَ بِالذِّكْرِ .

الْعَاشِرُ - أَنَّهَا غَيْرُ مَعْنَةٍ ؛ قَالَهُ نَافِعٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ ، وَقَالَهُ الرِّبِيعُ بْنُ خَيْثَمٍ ؛ نَحْبَاهَا اللَّهُ تَعَالَى
 فِي الصَّلَوَاتِ كَمَا نَحْبَاهُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي رَمَضَانَ ، وَكَأَنَّهَا سَاعَةٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَسَاعَاتُ اللَّيْلِ الْمُسْتَجَابِ
 فِيهَا الدُّعَاءُ لَيَقُومُوا بِاللَّيْلِ فِي الظَّالِمَاتِ لِمُنَاجَاةِ عَالَمِ الْخَلْفِيَّاتِ . وَبِمَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ أَنَّهَا مَبْهَمَةٌ غَيْرُ
 مَعْنَةٍ مَارَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ فِي آخِرِ الْبَابِ عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ « حَافِظُوا
 عَلَى الصَّلَوَاتِ وَصَلَاةَ الْعَصْرِ » فَقَرَأْنَاهَا مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ نَسَخَهَا اللَّهُ فَتَرَلْتُ : « حَافِظُوا عَلَى
 الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الرَّؤُوسَى » فَقَالَ رَجُلٌ : هِيَ إِذَا صَلَاةُ الْعَصْرِ ؟ فَقَالَ الْبَرَاءُ : قَدْ أَخْبَرْتُكَ
 كَيْفَ نَزَلَتْ وَكَيْفَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، وَاللَّهِ أَعْلَمُ . فَلَزِمَ مِنْ هَذَا أَنَّهَا بَعْدَ أَنْ عُبِّتْ نُسَخَ
 تَمَيَّنِيهَا وَأَهْمَتْ فَارْتَفَعَ التَّمَيَّنُ ، وَاللَّهِ أَعْلَمُ . هَذَا اخْتِيَارُ مُسْلِمٍ لِأَنَّهُ أَتَى بِهِ فِي آخِرِ الْبَابِ ،

وقال به غير واحد من العلماء المتأخرين، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى لتعارض الأدلة وعدم الترتيب، فلم يبق إلا المحافظة على جميعها وأدائها في أوقاتها، والله أعلم .

الثالثة — وهذا الاختلاف في الصلاة الوسطى يدل على بطلان من أثبت « صلاة العصر » المذكور في حديث أبي يونس مولى عائشة حين أمرته أن يكتب لها مصحفا قرآنا . قال علماءنا : وإنما ذلك كالتفسير من النبي صلى الله عليه وسلم، يدل على ذلك حديث عمرو ابن رافع قال : أمرني حفصة أن أكتب لها مصحفا الحديث . وفيه : فأملت على « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهي العصر وقوموا لله قانتين » وقالت : هكذا سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها . فقولها « وهي العصر » دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر الصلاة الوسطى من كلام الله تعالى بقوله هو « وهي العصر » . وقد روى نافع عن حفصة « صلاة العصر » كما روى عن عائشة وعن حفصة أيضا « صلاة العصر » بنحوه . قال أبو بكر الأثرى : وهذا الخلاف في هذا اللفظ المزيّد يدل على بطلانه وصحة ما في الإمام مصحف جماعة المسلمين . وعليه حجة أخرى وهو أن من قال : والصلاة الوسطى صلاة العصر جعل الصلاة الوسطى غير العصر ؛ وفي هذا دفع لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه عبد الله قال : شغل المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب عن صلاة العصر حتى أصفرت الشمس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شغلونا عن الصلاة الوسطى ملائكة أجوافهم وقبورهم نارا » الحديث .

الرابعة — قوله تعالى : (وَالصَّلَاةُ الْوُسْطَى) دليل على أن الوتر ليس بواجب ؛ لأن المسلمين اتفقوا على أعداد الصلوات المفروضة أنها تنقص عن سبعة وتزيد على ثلاثة ؛ وليس الثلاثة والسبعة فرد إلا الخمسة ، والأزواج لا وسط لها ثبت أنها خمسة . وفي حديث الإسراء « هي خمس وهي خمسون لا يتبدل القول لدى »

الخامسة — قوله تعالى : (وَتَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ) معناه في صلاتكم . واختلف الناس في معنى قوله « قانتين » فقال الشعبي : طائعين ؛ وقاله جابر بن زيد وعطاء وسعيد بن جبير .

وقال الضحاك : كل قنوت في القرآن فإنما يعني به الطاعة . وقال أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم : " وإن أهل كل دين فهم اليوم يقومون عاصين قبيح لهذه الأمة تقوموا لله طامعين " . وقال مجاهد : معنى قانتين خاشعين . والقنوت طول الركوع والخشوع وغض البصر وخفض الجناح . وقال الربيع : القنوت طول القيام ؛ وقاله ابن عمر وقرا : " أَمِنْ هُوَ قَانِتٌ آتَاهُ اللَّيْلُ سَاجِدًا وَقَانِمًا " . وقال عليه السلام : " أفضل الصلاة طول القنوت " خرجه مسلم وغيره . وقال الشاعر :

قَانِتًا لله يدعُو رَبَّهُ • وعلى عَمْدٍ من الناس أَعْتَرَى

وقد تقدم . وروى ابن عباس « قانتين » أي دامين . وفي الحديث : قنت رسول الله صلى الله عليه وسلم شهرا يدعو على رِغْلٍ وَدَ كِرَانٍ ^(١) . قال قوم : معناه دعا ، وقال قوم : معناه طول قيامه . وقال السدي : قانتين ساكتين ؛ دليله أن الآية نزلت في المنع من الكلام في الصلاة وكان ذلك سببا في صدر الإسلام ؛ وهذا هو الصحيح لما رواه مسلم وغيره عن عبد الله ابن مسعود قال : كنا نُسَلِّمُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الصلاة فيرد علينا ، فلما رجعنا من عند التجاني سألنا عليه فلم يرد علينا فقلنا : يا رسول الله ، كنا نُسَلِّمُ عليك في الصلاة فيرد علينا ؟ فقال : " إن في الصلاة سُغْلًا " . وروى زيد بن أرقم قال : كنا نتكلم في الصلاة يكلم الرجل صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت : « وقوموا لله قانتين » فأمرنا بالسكوت ونُهِينا عن الكلام . وقيل : إن أصل القنوت في اللغة الدوام على الشيء . ومن حيث كان أصل القنوت في اللغة الدوام على الشيء جاز أن يُسَمَّى مديم الطاعة قانتا ، وكذلك من أطال القيام والقراءة والدعاء في الصلاة ، أو أطال الخشوع والسكوت ، كل هؤلاء فاعلون للقنوت .

السادسة — قال أبو عمر : أجمع المسلمون طُورا أن الكلام عامدا في الصلاة إذا كان المصلي يعلم أنه في صلاة ولم يكن ذلك في إصلاح صلاته أنه يفسد الصلاة إلا ما روى من

(١) راجع المسألة الخامسة ج ٢ ص ٨٦ طبع ثانية .

(٢) رغل ودكران : قيلان من طلع وإمعا دعا عليهم فقتلهم القزاء .

الأوزاعي أنه قال : من تكلم لإحياء نفس أو مثل ذلك من الأمور الجسام لم تحسد صلاته بذلك . وهو قول ضعيف في النظر؛ لقول الله عز وجل : « وَاقْرَأُوا لَهُ قَاتِنَيْنِ » وقال زيد بن أرقم : تكلمتكم في الصلاة حتى زلت : « وقوموا لله قاتنين » الحديث . وقال ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله أحدث من أمره ألا تكلموا في الصلاة » . وليس الحادث الجسيم الذي يجب له قطع الصلاة ومن أجله يمنع من الاستئذان . فمن قطع صلاته لمسا يراه من الفضل في إحياء نفس أو مال أو ما كان بسبيل ذلك استأنف صلاته ولم ين . هذا هو الصحيح في المسألة إن شاء الله تعالى .

السابعة — واختلفوا في الكلام ساهيا فيها ، فذهب مالك والثوري وأصحابهما إلى أن الكلام فيها ساهيا لا يفسدها ، غير أن مالكا قال : لا يفسد الصلاة تعدد الكلام فيها إذا كان في شأنها وإصلاحها ، وهو قول ويصفه ابن القاسم . وروى ثعلب عن ابن القاسم عن مالك قال : لو أن قوما صلى بهم الإمام ركعتين وسلم ساهيا فسبحوا به فلم يفقه فقال له رجل من خلفه ممن هو معه في الصلاة : إنك لم تتم قاتم صلاتك ، فالتفت إلى القوم فقال : أحق ما يقول هذا ؟ فقالوا ، نعم قال : يصلى بهم الإمام ما بقي من صلاتهم ويصلون معه بقية صلاتهم من تكلم منهم ومن لم يتكلم ، ولا شيء عليهم ، ويفعلون في ذلك ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم ذي البدين . هذا قول ابن القاسم في المدونة وروايته عن مالك ، وهو المشهور من مذهب مالك وإياه تقلد إسماعيل بن إسحاق واحتج له في كتاب رده على محمد بن الحسن . وذكر الحارث بن سكين قال : أصحاب مالك كلهم على خلاف قول مالك في مسألة ذي البدين إلا ابن القاسم وحده فإنه يقول فيها بقول مالك ، وغيرهم يأبون ويقولون : إنما كان هذا في صدر الإسلام ، أما الآن فقد عرف الناس صلاتهم فن تكلم فيها أعادها ، وهذا هو قول العراقيين : أبي حنيفة وأصحابه والثوري فإنهم ذهبوا إلى أن الكلام في الصلاة يفسدها على أي حال كان سهوا أو عمدا لصلاة كان أو لغير ذلك ، وهو قول إبراهيم النخعي .

(١) ذو البدين اسم لثريق ، وقد كان يصل خلف النبي صلى الله عليه وسلم قالصرفت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اثنين — وكانت رابعة — فقال له ذو البدين : أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟ ... الخ .

وعطاء والحسن وحساد بن أبي سليمان وقصادة . وزعم أصحاب أبي حنيفة أن حديث
أبي هريرة هذا في قصة ذي اليمين مفسوخ بحديث ابن مسعود وزيد بن أرقم ، قالوا : وإن
كان أبو هريرة متأخر الإسلام فإنه أرسل حديث ذي اليمين كما أرسل حديث من أدركه
الفجر جنباً فلا صوم له ، قالوا : وكان كثير الإرسال . وذكر علي بن زياد قال حدثنا أبو قرة
قال سمعت مالكا يقول : يستحب إذا تكلم الرجل في الصلاة أن يعود لما ولا يئني . قال :
وقال لنا مالك إنما تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكلم أصحابه معه يومئذ لأنهم ظنوا
أن الصلاة قصرت ولا يجوز ذلك لأحد اليوم . وقد روى شُحُون عن ابن القاسم في رجل صلى
وحده ففرغ عند نفسه من الأربع ، فقال له رجل إلى جنبه : إنك لم تصل إلا ثلاثاً ، فالتفت
إلى آخر فقال : أحق ما يقول هذا ؟ قال نعم ، قال : تصد صلاته ولم يكن ينبغي له أن
يكلمه ولا أن يلتفت إليه . قال أبو عمر : فكانوا يفرقون في هذه المسألة بين الإمام مع
الجماعة والمفرد فيجيزون من الكلام في شأن الصلاة للإمام ومن معه ما لا يجيزونه للفرد ؛
وكان غير هؤلاء يحملون جواب ابن القاسم في المفرد في هذه المسألة وفي الإمام ومن معه على
اختلاف قوله في استعمال حديث ذي اليمين كما اختلف قول مالك في ذلك . وقال الشافعي
وأصحابه : من تعدد الكلام وهو يعلم أنه لم يتم الصلاة وأنه فيها أفسد صلاته ، فإن تكلم ساهياً
أو تكلم وهو يظن أنه ليس في الصلاة لأنه قد أكملها عند نفسه فإنه يئني . واختلف قول
أحمد في هذه المسألة فذكر الأثرم عنه أنه قال : ما تكلم به الإنسان في صلاته لإصلاحها
لم تصد عليه صلاته ، فإن تكلم لغير ذلك فسدت ؛ وهذا قول مالك المشهور . وذكر الحرقي^(١)
عنه أن مذهبه فيمن تكلم عامداً أو ساهياً بطلت صلاته ، إلا الإمام خاصة فإنه إذا تكلم لمصلحة
صلاته لم تبطل صلاته . واستثنى شُحُون من أصحاب مالك أن من سلم من اثنتين في الرابعة
فوقع الكلام هناك لم تبطل الصلاة ، وإن وقع في غير ذلك بطلت الصلاة . والصحيح
ما ذهب إليه مالك في المشهور تمسكاً بالحديث وحملاً له على الأصل الكُلُّ من تعدى الأحكام

(١) الخرق (كسر الحاء) المصيبة وضع الراد : أبو القاسم عمر بن الحسين شيخ الحنابلة .

وعوم الشربة ودفعاً لما يتوهم من الخصوصية إذ لا دليل عليها . فإن قال قائل : فقد جرى الكلام في الصلاة والسمو أيضاً وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : « التسليم للرجال والتصفيق للنساء » فلم لم يُسبحوا ؟ فيقال : لعل في ذلك الوقت لم يكن أمرهم بذلك ، ولئن كان كما ذكرت فلم يسبحوا لأنهم توهموا أن الصلاة قصُرت ، وقد جاء ذلك في الحديث قال : وخرج سراعاً الناس فقالوا : أفصُرت الصلاة ؟ فلم يكن يد من الكلام لأجل ذلك ، والله أعلم .

- وقد قال بعض المخالفين : قول أبي هريرة « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم » يحتمل أن يكون مراده أنه صلى بالمسلمين وهو ليس منهم ؛ كما روى عن التزأل بن سبرة أنه قال قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا ولأياكم كما تُدعى بنى عبد مناف وأتم اليوم بنو عبد الله ونحن بنو عبد الله « وإنما عني به أنه قال ذلك لقومه وهذا بعيد ، فإنه لا يجوز أن يقول صلى بنا وهو إذ ذاك كافر ليس من أهل الصلاة ويكون ذلك كذباً ، وحديث البراء هو كان من جملة القوم وسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ماسع . وأما ما أدعته الحنفية من النسخ والإرسال فقد أجاب عن قولهم علماءنا وغيرهم وأبطالوه ، وخاصة الحافظ أبا عمر ابن عبد البر في كتابه المسمى بـ « التمهيد » وذكر أن أبا هريرة أسلم طام خير وقدم المدينة في ذلك العام وحسب النبي صلى الله عليه وسلم أربعة أحوام ، وشهد قصة ذى الدين وحضرها ، وإنما لم تكن قبل بدر كما زعموا ، وأن ذى الدين قُتل في بدر . قال : وحضور أبي هريرة يوم ذى الدين محفوظ من رواية الحفاظ الثقات ، وليس تقصير من قصر عن ذلك بحجة على من علم ذلك وحفظه وذكره .

الثامنة - القنوت : القيام ، وهو أحد أقسامه فيما ذكر أبو بكر بن الأباري . وأجمعت الأمة على أن القيام في صلاة الفرض واجب على كل صحيح قادر عليه ، منفرداً كان أو إماماً . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنا جعل الإمام ليؤتم به فإذا صلى قائماً فصلوا قياماً » الحديث .

(١) السران (فتح السين والزاء ويحذف السين الزاء) : إرائل الناس الذين يتابعون إلى الشهادة ويقولون عليه بمرية .

أخرجه الأئمة، وهو بيان لقوله تعالى : «وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ» . واختلفوا في المأموم الصحيح يُصَلِّي قاعدا خلف إمام مريض لا يستطيع القيام؛ فأجازت ذلك طائفة من أهل العلم بل جمهورهم لقوله صلى الله عليه وسلم في الإمام : «وإذا صلى جالسا فصلوا جلوسا أجمعون» وهذا هو الصحيح في المسألة على ما بينته آنفا إن شاء الله تعالى . وقد أجاز طائفة من العلماء صلاة القائم خلف الإمام المريض لأن كلا يؤدي فرضه على قدر طاقته تأسيًا برسول الله صلى الله عليه وسلم إذ صلى في مرضه الذي توفى فيه قاعدا وأبو بكر إلى جنبه قائما يصلي بصلاته والناس قيام خلفه، ولم يُشير إلى أبي بكر ولا إليهم بالجلوس، وأكل صلاتهم بهم جالسا وهم قيام، ومعلوم أن ذلك كان منه بعد سقوطه عن فرسه؛ فعلم أن الآخر من فعله ناسخ للأول . قال أبو عمر : ومن ذهب إلى هذا المذهب واحتج بهذه الحجة الشافعي وداود بن علي، وهي رواية الوليد بن مسلم عن مالك . قال : وأحب إلى أن يكون إلى جنبه من يعلم الناس بصلاته، وهذه الرواية غريبة عن مالك . وقال بهذا جماعة من أهل المدينة وغيرهم وهو الصحيح لأن شاء الله تعالى لأنها آخر صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم . والمشهور عن مالك أنه لا يؤتم القيام أحد جالسا، فإن أتمهم قاعدا بطلت صلاته وصلاتهم لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لا يؤتمن أحد بعدى قاعدا» . قال : فإن كان الإمام عليا تمت صلاة الإمام وقصدت صلاة من خلفه . قال : ومن صلى قاعدا من غير علة أعاد الصلاة؛ هذه رواية أبي مصعب في مختصره عن مالك، وعليها فيجب على من صلى قاعدا الإعادة في الوقت وبعده . وقد روى عن مالك في هذا أنهم يعيدون في الوقت خاصة، وقول محمد بن الحسن في هذا مثل قول مالك المشهور . واحتج لقوله ومذهبه بالحديث الذي ذكره أبو مصعب، أخرجه الدارقطني عن جابر عن الشعبي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يؤتمن أحد بعدى جالسا» . قال الدارقطني : لم يروه غير جابر الجعفي عن الشعبي وهو متروك الحديث مُرسَل لا تقوم به حجة . قال أبو عمر : جابر الجعفي لا يحتج بنبى يرويه مُستندا فكيف بما يرويه مُرسلا؟ قال محمد بن الحسن : إذا صلى الإمام المريض جالسا يقوم أمهئا ومريضى

جلوسا فصلاته وصلاة من خلقه من لا يستطيع القيام صحبة جائزة، وصلاة من صلى خلفه من حكمة القيام باطلية . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف : صلاته وصلاتهم جائزة . وقالوا : لو صلى وهو يؤم بقوم وهم يركعون ويسجدون لم تجزهم في قولهم جميعا وأجرات الإمام صلاته . وكان زفر يقول : تجزهم صلاتهم لأنهم صلوا على فرضهم وصلّى إمامهم على فرضه ، كما قال الشافعي .

قلت : أما ما ذكره أبو عمرو وغيره من العلماء قبله ويعدّه من أنها آخر صلاة صلاحا ورسول الله صلى الله عليه وسلم فقد رأيت لغيرهم خلاف ذلك عن جمع طرق الأحاديث في هذا الباب وتكلم عليها وذكر اختلاف الفقهاء في ذلك ، ونحن نذكر ما ذكره ملخصا حتى يتبين لك الصواب إن شاء الله تعالى . وصحة قول من قال إن صلاة المأموم الصحيح قاعدة خلف الإمام المريض جائزة ، فذكر أبو حاتم محمد بن حبان البستي في المسند الصحيح له عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في نفر من أصحابه فقال : "الستم تعلمون أني رسول الله اليكم" ؟ قالوا : بلى ، تشهد أنك رسول الله ! قال : "الستم تعلمون أنه من أطاعني فقد أطاع الله ومن طاعة الله طاعتي" ؟ قالوا : بلى ، تشهد أنه من أطاعك فقد أطاع الله ومن طاعة الله طاعتك . قال : "فإن من طاعة الله أن تطيعوني ومن طاعتي أن تطيعوا أمراءكم فإن صلّوا قعودا فصلّوا قعودا" . في طريقه عتبة بن أبي الصبيان وهو ثقة ، قاله يحيى بن معين . قال أبو حاتم : في هذا الخبر بيان واضح أن صلاة المأمومين قعودا إذا صلى إمامهم قاعدة من طاعة الله جلّ وعلا التي أمر الله بها عباده ، وهو عندي ضرب من الإجماع الذي أجمعوا على إجازته ، لأن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أفتوا به : جابر بن عبد الله وأبو هريرة وأسيد بن حضير وقيس بن قهده ، ولم يرو عن أحد من الصحابة الذين شهدوا هبوط الوحي والتزيل وأعيذوا من التحريف والتبديل خلاف هؤلاء الأربعة لا بإسناد متصل ولا منقطع ، فكانت الصحابة أجمعوا على أن الإمام إذا صلى قاعدة كان على المأمومين أن يصلوا قعودا . وبه قال جابر بن زيد والأوزاعي ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل وإسحاق (١) نه بإقاف وقته حال .

ابن ابراهيم وأبو أيوب سليمان بن داود الهاشمي وأبو خيثمة وابن أبي شيبة وعبد بن إسماعيل ومن تبعهم من أصحاب الحديث مثل محمد بن نصر ومحمد بن إسحاق بن خزيمة . وهذه السنة زواها عن المصطفى صلى الله عليه وسلم أنس بن مالك وعائشة وأبو هريرة وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأبو أمامة الباهلي . وأزل من أبطل في هذه الأمة صلاة المأموم قاعدا إذا صلى إمامه جالسا المغيرة بن مقسم صاحب النخعي ، وأخذ عنه حماد بن أبي سليمان ثم أخذ عن حماد أبو حنيفة وتبعه عليه من بعده من أصحابه . وأعلى شيء احتجوا به فيه شيء رواه جابر الجعفي عن الشعبي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يؤتمن أحد يعدي جالسا " وهذا لو صح إسناده لكان مرسلا والمرسل من الخبر وما لم يؤتمن في الحكم عندنا ، ثم إن أبا حنيفة يقول : ما رأيت فيمن لقيت أفضل من عطاء ولا فيمن لقيت أكذب من جابر الجعفي ، وما أتته بشيء قط من رأى إلا جأته فيه بحديث ، وزعم أن عنده كذا وكذا ألف حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينطق بها ، فهذا أبو حنيفة يخرج جابرا الجعفي ويكذبه ضد قول من اتهم من أصحابه مذهبه . قال أبو حاتم : وأما صلاة النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه بقلعت الأخبار فيها جملة وعنصرة ، وبعضها مفصلة مبينة ، وفي بعضها : بغاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنب أبي بكر فكان أبو بكر يأمم بالنبي صلى الله عليه وسلم والناس يأتون بأبي بكر . وفي بعضها : بغلس عن يسار أبي بكر وهذا مفسر . وفيه : فكان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي بالناس قاعدا وأبو بكر قائما . قال أبو حاتم : وأما إجمال هذا الخبر فإن عائشة حكّت هذه الصلاة إلى هذا الموضع ، وأثر القصة عند جابر ابن عبد الله : أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم بالقعود أيضا في هذه الصلاة كما أمرهم به عند سقوطه عن فرسه ، أنبأنا محمد بن الحسن بن قتيبة قال أنبأنا يزيد بن موهب قال حدثني الليث بن سعد عن أبي الزبير عن جابر قال : اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فصليتا وراءه وهو قاعد وأبو بكر يسمع الناس تكبيره ، قال : فالتفت إليا فرأنا قياما فأشار إليا فعدنا فصليتا بصلاته قودا ، فلما سلم قال : " كدتم أن تفعلوا فعل فارس والروم

يقومون على ملوكهم وهم قعود فلا تفلحوا إنتموا بأنتمكم إن صلى قائما فصلوا قياما وإن صلى قاعدا فصلوا قعودا". قال أبو حاتم : ففى هذا الخبر المفسر بيان واضح أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قعد عن يسار أبى بكر وتحول أبو بكر ماموما يقتدى بصلاته ويكبر بسمع الناس التكبير ليقعدوا بصلاته أمرهم صلى الله عليه وسلم حينئذ بالعود حين رآهم قياما ، ولما فرغ من صلاته أمرهم أيضا بالعود إذا صلى إمامهم قاعدا . وقد شهد جابر بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فى شهر ذى الحجة أربع سنين خمس من الهجرة ، وشهد هذه الصلاة فى عتته صلى الله عليه وسلم فى غير هذا التاريخ فأدعى كل خبر بفظه ؛ ألا تراه يذكر فى هذه الصلاة : رفع أبو بكر صوته بالتكبير ليقعد به الناس ، وتلك الصلاة التى صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته عند سقوطه عن فرسه لم يحتج إلى أن يرفع صوته بالتكبير ليعلم الناس تكبيره على صغر حجرة عائشة ، وإنما كان رفعه صوته بالتكبير فى المسجد الأعظم الذى صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عتته ، فلما سمع ما وصفنا لم يحز أن نجعل بعض هذه الأخبار ناسخا لبعض ؛ وهذه الصلاة كان نروجه إليها صلى الله عليه وسلم بين رجلين ، وكان فيها إماما وصلى بهم قاعدا وأمرهم بالعود . وأما الصلاة التى صلاها آخر عمره فكان نروجه إليها بين بريرة وثوبة وكان فيها ماموما وصلى قاعدا خلف أبى بكر فى ثوب واحد متوشحا به . رواه أنس ابن مالك قال : آخر صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع القوم فى ثوب واحد متوشحا به قاعدا خلف أبى بكر ؛ فصل على السلام صلاتين فى المسجد جماعة لا صلاة واحدة . وإن فى خبر عبيد الله عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم نرج بين رجلين يريد أحدهما العباس والآخر عليا . وفى خبر مسروق عن عائشة : ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم وجد من نفسه خفة فخرج بين بريرة وثوبة ، إلى لأظفر إلى نعليه تخطان فى الحصى وأنظر إلى بطون قدميه ؛ الحديث . فهذا يدل على أنهما كانتا صلاتين لا صلاة واحدة . قال أبو حاتم : أخبرنا محمد

أبي إسحاق بن خزيمة قال حدثنا محمد بن بشر قال حدثنا بديل بن الحبر قال حدثنا شعبة عن موسى بن أبي عائشة عن عبيد الله بن عبد الله عن عائشة أن أبا بكر صلى بالناس ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الصف خلفه . قال أبو حاتم : خالف شعبة بن الجراح زائدة بن قدامة في متن هذا الخبر عن موسى بن أبي عائشة بفعل شعبة النبي صلى الله عليه وسلم مأموما حيث صلى قاعدا والقوم قيام ، ويجعل زائدة النبي صلى الله عليه وسلم إماما حيث صلى قاعدا والقوم قيام ، وهما متفقان حافظان . فكيف يجوز أن يحمل إحدى الروايتين اللتين تضادتا في الظاهر في فعل واحد ناعضا لأمر مطلق متقدم ! فن جعل أحد الخبرين ناعضا لما تقدم من أمر النبي صلى الله عليه وسلم وترك الآخر من غير دليل ثبت له على صحته سوى نخصه أخذ ما ترك من الخبرين وترك ما أخذ منهما . ونظير هذا النوع من الشك خبر ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم نكح ميمونة وهو محرم ، وخبر أبي رافع أن النبي صلى الله عليه وسلم نكحها وهما سلالان تضاد الخبران في فصل واحد في الظاهر من غير أن يكون بينهما تضاد عندنا ، فجعل جماعة من أصحاب الحديث الخبرين اللذين رويَا في نكاح ميمونة متعارضين ، وذهبوا إلى خبر عثمان بن عفان عن النبي صلى الله عليه وسلم : " لا ينكح المحرم ولا ينكح " فأخذوا به ، إذ هو يوافق إحدى الروايتين اللتين رويتا في نكاح ميمونة ، وتركوا خبر ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم نكحها وهو محرم ، فمن قبل هذا لزمه أن يقول : تضاد الخبران في صلاة النبي صلى الله عليه وسلم في طهته على حسب ما ذكرناه قبل ، فيجب أن يحمى إلى الخبر الذي فيه الأمر بصلاة المأمومين قعودا إذا صلى إمامهم قاعدا يأخذ به ، إذ هو يوافق إحدى الروايتين اللتين رويتا في صلاة النبي صلى الله عليه وسلم في طهته ويترك الخبر المتضاد منهما كما فصل ذلك في نكاح ميمونة . قال أبو حاتم : زعم بعض المراقبين ممن كان يتبع مذهب الكوفيين أن قوله : " وإذا صلى قاعدا فصلوا قعودا " أراد به وإذا تشهد قاعدا تشبهوا قعودا أجمعون فحذف الخبر عن عموم ما ورد الخبر فيه بغير دليل ثبت له على تأويله .

قوله تعالى : فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عَمَّا
عَلَيْكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (فَإِنْ خِفْتُمْ) من الخوف الذى هو الفزع : (فَرِجَالًا) أى
فصلوا رجلا . (أَوْ رُكْبَانًا) معطوف عليه . والرجال جمع راجل أو رجل من قولهم : رجل
الإنسان رجل رجلا اذا عدم المركوب ومضى على قدميه ، فهو رجل ورجل ورجل -
(بنم الجيم) وهى لغة أهل الحجاز ، يقولون : متى فلان الى بيت الله حافيا رجلا ؛ حكاة
الطبرى وغيره - ورجلان ورجل ورجل ، ويجمع على رجال ورجل ورجال ورجالى
ورجلان ورجلة ورجلة (بنم الجيم) وأرجلة وأراجل وأراجل . والرجل الذى هو اسم المجلس
يجمع أيضا على رجال .

الثانية - لما أمر الله تعالى بالقيام له فى الصلاة بحال قنوت وهو الوقار والسكينة
وهذه الجوارح وهذا على الحالة الغالبة من الأمن والطمأنينة ذكر حالة الخوف الطارئة
أحيانا ، وبين أن هذه العبادة لا تسقط عن العبد فى حال ، ورخص لميده فى الصلاة رجلا
على الأقدام وركبانا على الخيل والإبل ونحوها ، إيماء وإشارة بالرأس حيثما توجه ؛ هذا قول
العلماء ، وهذه هى صلاة القعد الذى قد ضايقه الخوف على نفسه فى حال المسابقة أو من
سبح يطلبه أو من علق بقبه أو سئل بتملة ، وبالجملة فكل أمر يخاف منه على روحه فهو مبيح
ما تضمنته هذه الآية .

الثالثة - هذه الرخصة فى ضمنها إجماع العلماء أن يكون الإنسان حيثما توجه من
السموات ويتقلب ويتصرف بحسب نظره فى نجات نفسه .

الرابعة - واختلف فى الخوف الذى تجوز فيه الصلاة رجلا وركبانا ؛ فقال الشافعى :
هو إطلال العدو عليهم فيترامون مما والمسلمون فى غير حصن حتى ينالهم السلاح من الرى

أو أكثر من أن يقرب العدو فيه منهم من الطعن والضرب ، أو يأتي من يصدق خبره فيخبره بأن العدو قريب منه ومسيرهم جاذب إليه ؛ فإن لم يكن واحد من هذين المعنيين فلا يجوز له أن يصلي صلاة الخوف . فإن صلوا بالخبر صلاة الخوف ثم ذهب العدو لم يبدوا ، وقيل : يبدون ؛ وهو قول أبي حنيفة . قال أبو عمر : فالحال التي يجوز لخائف أن يصلي راجلا أو راكبا مستقبل القبلة أو غير مستقبلها هي حال شدة الخوف . والحال التي تردت الآثار فيها هي غير هذه وهي صلاة الخوف بالإمام وانقسام الناس وليس حكمها في هذه الآية ، وهذا يأتي بيانه في سورة « النساء » إن شاء الله تعالى . وفرق مالك بين خوف العدو المقاتل وبين خوف السبع ونحوه من جمل صائل أو سئل أو ما الأغلب من شأنه الهلاك فإنه استحب من غير خوف العدو الإعادة في الوقت إن وقع الأمن . وأكثر فقهاء الأمصار على أن الأمر سواء .

الخامسة - قال أبو حنيفة : إن القتال يفسد الصلاة ؛ وحديث ابن عمر يرد عليه ، وظاهر الآية أقوى دليل عليه ، وسأني هذا في « النساء » إن شاء الله تعالى . قال الشافعي : لما رخص تبارك وتعالى في جواز ترك بعض الشروط دل ذلك على أن القتال في الصلاة لا يفسدها ، والله أعلم .

السادسة - لا نقصان في عدد الركعات في الخوف من صلاة المسافر عند مالك والشافعي وجماعة من العلماء . وقال الحسن بن أبي الحسن وقتادة وغيرهما : يصلي ركعة إن شاء . روى مسلم عن بكير بن الأحنس عن مجاهد عن ابن عباس قال : فرض الله الصلاة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحضر أربعا وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعة . قال ابن عبد البر : انفرد به بكير بن الأحنس وليس بحجة فيما ينفرد به ، والصلاة أولى ما احتيط فيه ، ومن صلى ركعتين في خوفه وسفره خرج من الاختلاف إلى اليقين . وقال الضحاك ابن مزاحم : يصلي صاحب خوف الموت في المسافة وغيرها ركعة فإن لم يقدر فليكب تكبيرتين . وقال إسحاق بن راهويه : فإن لم يدر إلا على تكبيرة واحدة أجزأت عنه ؛ ذكره ابن المنذر .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ الَّتِي نُنَزِّلُ بِهَا الْقُرْآنَ عَلَى نَفْسٍ نَزِيلَةٍ ﴾ (البقرة : ١٠٣٣) . وقال مجاهد : « آيتهم » خرجتم من دار السفر الى دار الإقامة ؛ ورد الطبري على هذا القول . وقالت فرقة : « آيتهم » زال خوفكم الذي ابطاكم الى هذه الصلاة .

السابعة - واختلف العلماء من هذا الباب في بناء الخائف إذا أمن ؛ فقال مالك : إن صلى ركعة آمنا ثم خاف ركب وجيء ، وكذلك ان صلى ركعة رابعا وهو خائف ثم آمن ثم وجيء ، وهو أحد قول الشافعي ، وبه قال المزني . وقال أبو حنيفة : إذا افتتح الصلاة آمنا ثم خاف استقبال ولم يجيء ، فإن صلى خائفا ثم آمن بجيء . وقال الشافعي : بيني النازل ولا بيني الراكب . وقال أبو يوسف : لا بيني في شيء من هذا كله .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ الَّتِي نُنَزِّلُ بِهَا الْقُرْآنَ عَلَى نَفْسٍ نَزِيلَةٍ ﴾ (البقرة : ١٠٣٣) قيل : معناه اشكروه على هذه النعمة في تعليمكم هذه الصلاة التي وقع بها الإجزاء ، ولم تنته صلاة من الصلوات وهو الذي لم تكونوا تعلمونه . فالكاف في قوله « كما » بمعنى الشكر ؛ تقول : افصل بي كما فعلت بك كذا مكافاة وشكرا . و « ما » في قوله « ما لم » مفعولة بعلمكم .

التاسعة - قال علماؤنا : الصلاة أصلها الدعاء ، وحالة الخوف أولى بالدعاء فلهذا لم تسقط الصلاة بالخوف ، فإنما لم تسقط الصلاة بالخوف فأحرى ألا تسقط بغيره من مرض أو نحوه ، فأمر الله سبحانه وتعالى بالمحافظة على الصلوات في كل حال من صحة أو مرض وحضر أو سفر وقدر أو عجز وخوف أو أمن لا تسقط عن المكث بحال ، ولا يتطرق الى فرضيتها اختلال . وسبأني بيان حكم المريض في آخر « آل عمران » إن شاء الله تعالى . والمقصود من هذا أن تفعل الصلاة كيف أمكن ، ولا تسقط بحال حتى لو لم يتفق فعلها إلا بالإشارة بالعين لزم فعلها ، وبهذا تميزت عن سائر العبادات كلها ، تسقط بالأعذار ويترخص فيها بالترخص . قال ابن العربي : ولهذا قال علماؤنا : وهي مسألة عظيمة إن تارك الصلاة يقتل لأنها أشبهت الإيمان الذي لا يسقط بحال ، وقالوا فيها : إحدى دعائم الإسلام لا تجوز

النيابة عنها يبدن ولا مال ، فيقتل تاركها . أصله الشهادتان . وسأقي ما للعلماء في تارك الصلاة في « برائة » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعُوا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ تَرَاجَعَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (١)

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا)** ذهب جماعة من المفسرين في تأويل هذه الآية أن المتوفى عنها زوجها كانت تجلس في بيت المتوفى عنها حولا ويتفق عليها من ماله ما لم يخرج من المنزل ، فإن خرجت لم يكن حل الورثة جناح في قطع النفقة عنها ، ثم نسخ الحول بالأربعة الأشهر والعشر ، ونُسخت النفقة بالرُّبع والثمن في سورة « النساء » ، قاله ابن عباس وقادة والضحاك وابن زيد والزيبي . وفي السكتي خلاف للعلماء ، روى البخاري عن ابن الزبير قال : قلت لعثمان هذه الآية في « البقرة » : **« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا »** - إلى قوله - **« غَيْرِ إِخْرَاجٍ »** قد نسختها الآية الأخرى فلم تكنها أو تدعها ؟ قال : **« بَابُ أَنْ لَا تُغَيَّرَ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ »** وقال الطبري عن مجاهد : إن هذه الآية محكمة لا نسخ فيها ، والعمدة كانت قد ثبتت أربعة أشهر وعشرا ، ثم جعل الله لمن وصية منه سكتي سبعة أشهر وعشرين ليلة ، فإن شاعت المرأة سكنت في وصيتها وإن شاعت خرجت ، وهو قول الله عز وجل : **« غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ تَرَاجَعَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ »** . قال ابن عطية : وهذا كله قد زال حكمه بالنسخ المتفق عليه إلا ما قوله الطبري مجاهدا رحمهما الله تعالى ، وفي ذلك نظر على الطبري . وقال القاضي عياض : والإجماع منعقد على أن الحول منسوخ

(١) في قوله تعالى : « فَاذَا انْشَأَ الْأَشْهُرُ ... » آية .

(٢) كما في صحيح البخاري . والقي في الأصول : « ... فلم تكنها ؟ قال : معها بَابُ أَنْ لَا تُغَيَّرَ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ » . وقال ابن الزبير عن أنس بن مالك : « ... فلم تكنها ؟ قال : معها بَابُ أَنْ لَا تُغَيَّرَ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ » . وقال ابن الزبير عن أنس بن مالك : « ... فلم تكنها ؟ قال : معها بَابُ أَنْ لَا تُغَيَّرَ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ » .

وَأَنَّ عِدَّتَهَا أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٍ . قَالَ فِيهِ : مَعْنَى قَوْلِهِ « وَصِيَّةٌ » أَيْ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى تَجِبُ عَلَى
النِّسَاءِ بِمَدِّ وَقَاتِ الزَّوْجِ بِلُزُومِ الْبُيُوتِ سَنَةً ثُمَّ نَسَخَ .

قلت : ما ذكره الطبري عن مجاهد صحيح ثابت ، خرج البخاري قال : حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ
قَالَ حَدَّثَنَا رَوْحٌ قَالَ حَدَّثَنَا شَيْبٌ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ
أَزْوَاجًا » قَالَ : كَانَتْ هَذِهِ الْعِدَّةُ تَعْتَدُ عِنْدَ أَهْلِ زَوْجِهَا وَاجِبًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَالَّذِينَ
يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا » — إِلَى قَوْلِهِ — مِنْ مَعْرُوفٍ « قَالَ : جَعَلَ اللَّهُ لَهَا تَامِمَ السَّنَةِ
سَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرِينَ لَيْلَةً وَصِيَّةٌ ، إِنْ شَهِتَتْ سَكَنَتْ فِي وَصِيَّتِهَا وَإِنْ شَهِتَتْ خَرَجَتْ ، وَهُوَ قَوْلُ
اللَّهِ تَعَالَى : « غَيْرَ إِتْرَاجٍ فَإِنْ تَرَجَّيْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ » إِلَّا أَنْ يَقُولَ الْأَوَّلُ أَظْهَرَ لِقَوْلِهِ
عَلَيْهِ السَّلَامُ : « إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٍ وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الْمَاجِلِيَّةِ تَرِي بِالْبَعْرَةِ عِنْدَ
رَأْسِ الْحَوْلِ » الْحَدِيثُ . وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ حَالَةِ الْمُتَوَفَّى عَنْهُنَّ أَزْوَاجَهُنَّ
قَبْلَ وَرُودِ الشَّرْعِ ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ أَمَرَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى بِعِلَازِمَةِ الْبُيُوتِ حَوْلًا ثُمَّ نَسَخَ بِالْأَرْبَعَةِ
الْأَشْهُرِ وَالْعَشْرِ . هَذَا مَعَ وَضُوحِهِ فِي السَّنَةِ الثَّابِتَةِ الْمَقُولَةِ بِإِخْبَارِ الْإِحْمَاعِ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ
لَا خِلَافَ فِيهِ ؛ قَالَهُ أَبُو عَمْرٍو قَالَ : وَكَذَلِكَ سَازِرُ الْآيَةِ . فَقَوْلُهُ عَنْ وَجِلٍ : « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ
وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةٌ لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِتْرَاجٍ » مَنسُوخٌ كُلُّهُ عِنْدَ جُمْهُورِ
الْعُلَمَاءِ ثُمَّ نَسَخَ الْوَصِيَّةَ بِالسَّكَنِ لِلزَّوْجَاتِ فِي الْحَوْلِ ، إِلَّا رَوَايَةً شَاذَّةً مَهْجُورَةً جَاءَتْ عَنْ
ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ لَمْ يَتَّجِعْ عَلَيْهَا ، وَلَا قَالَ بِهَا زَادَ عَلَى الْأَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ وَالْعَشْرِ أَحَدٌ
مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ فَيَا عِلْمَتِ . وَقَدْ رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ
مُجَاهِدٍ مِثْلَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ ، فَانْقَضَ الْإِحْمَاعُ وَارْتَفَعَ الْخِلَافُ ، وَبَاقِيَ التَّوْفِيقُ .

الثَّانِيَّةُ — قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَصِيَّةٌ) قَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ وَالْكَسَائِيُّ وَعَاصِمٌ فِي رَوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ
« وَصِيَّةٌ » بِالرَّفْعِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ ، وَخَبَرَهُ « لِأَزْوَاجِهِمْ » . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى عَلَيْهِمْ وَصِيَّةٌ ،
وَيَكُونُ قَوْلُهُ « لِأَزْوَاجِهِمْ » صِفَةً . قَالَ الطَّبْرِيُّ قَالَ بَعْضُ النُّحَاةِ : الْمَعْنَى كَتَبَ عَلَيْهِمْ وَصِيَّةٌ ،

(١) أَيْ أَمْرًا وَاجِبًا . (٢) فِي الْأَصُولِ : « ... وَمِنْ بَعْدِهِمْ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ فَيَا عِلْمَتِ » .

«يكون قوله «لأزواجهم» صفة . قال : وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود . وقرا أبو عمرو وحزمة وابن مامر «وصية» بالنصب ، وذلك حمل على الفعل ، أى طيؤوصوا وصية . ثم الميت لا يوصى ولكنه أراد إذا قرؤوا من الوفاة . و «لأزواجهم» على هذه القراءة أيضا صفة . وقيل : المعنى أوصى الله وصية . (متاعا) أى متوهن متاعا ، أو جعل الله لمن ذلك ماعا لدلالة الكلام عليه . ويجوز أن يكون نصبا على الحال أو بالمصدر الذى هو الوصية ، كقوله «أو إعلماء في يوم ذي سفة . يثيا» . والمتاع ها هنا نفقة ستها .

الثالثة - قوله تعالى : (غير إخراج) معناه ليس لأولياء الميت ووارثي المنزل إخراجها . و «غير» نصب على المصدر عند الأخفش ، كأنه قال لا إخراجا . وقيل : نصب لأنه صفة المتاع . وقيل : نصب على الحال من الموصين ، أى متوهن غير محرجات . وقيل : بترع إخراج ، أى من غير إخراج .

الرابعة - قوله تعالى : (فَلَاحَاجَ عَلَيْكُمْ) أى لا حرج على أحد ، ولئى أو حاكم أوفيره ، لأنه لا يجب عليها المقام فى بيت زوجها حولا . وقيل : أى لا جناح فى قطع الثقة عنهن ، أولا جناح ملين فى التشرف إلى الأزواج إذ قد انقطعت عنهن مراقبتكم أيها الورثة ، ثم عليها ألا تزوج قبل إقضاء العدة بالحول ، أولا جناح فى ترويعهن بعد إقضاء العدة لأنه قال « من معروف » وهو ما يوافق الشرع . (وَأَنَّهُ عَزِيزٌ) صفة تفتى الوعد بالنسبة لمن خالف الحد فى هذه النازلة فانخرج المرأة وهى لا تريد الخروج . (حَكِيمٌ) أى مُحْكِمٌ لما يريد من أمور عباده .

قوله تعالى : وَلَمْ تُنَلِّقْتِ مَنَعُ بِالْمَعْرُوفِ حَقًا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١١١﴾
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكَ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٢﴾

اختلف الناس فى هذه الآية ، فقال أبو ثور : هى محبة والممة لكل مطلقة ، وكذلك قال الزهرى حتى للأمة يطلقها زوجها . وكذلك قال سعيد بن جبير : لكل مطلقة ممة ،

وهو أحد قول الشافعي لهذه الآية . وقال مالك : لكل مطلقة اثنين أو واحدة حتى بها أم لا ،
سمى لها صداقا أم لا المنة ، إلا المطلقة قبل البناء وقد سمي لها صداقا فحبها نصفه ، ولو لم
يكن سمي لها كان لها المنة كانت أقل من صداق المثل أو أكثر ، وليس لهذه المنة حد ؛
حكاه عنه ابن القاسم . وقال ابن القاسم في إرخاء الستور من المدونة : جعل الله تعالى المنة
لكل مطلقة بهذه الآية ثم استثنى في الآية الأخرى التي قد فرض لها ولم يدخل بها فأخرجها
من المنة ، وزعم ابن زيد أنها منسختها . قال ابن عطية : فقز ابن القاسم من لفظ النسخ
إلى لفظ الاستثناء والاستثناء لا يقع في هذا الموضع بل هو نسخ محض كما قال زيد بن أسلم ،
وإذا التزم ابن القاسم أن قوله : « وللطلقات » يعم كل مطلقة لزمه القول بالنسخ ولا بد .
وقال عطاء بن أبي رباح وغيره : هذه الآية في الثيات اللواتي قد جُوعن ، إذ تنقح في غير
هذه الآية ذكر المنة للواتي لم يدخل بهن ، فهذا قول بأن التي قد فرض لها قبل الميس لم
تدخل قط في العموم . فهذا يحمي على أن قوله تعالى : « وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ
تَمْسُوهُنَّ » خصصة لهذا الصنف من النساء ، ومتى قيل إن العموم تناوها فذلك نسخ
لا تخصيص . وقال الشافعي في القول الآخر : لا منة إلا التي طُلقت قبل الدخول وليس يتم
ميس ولا فرض ، لأن من استحققت شيئا من المهر لم يحتج في حقها إلى المنة . وقول الله
عز وجل في زوجات النبي صلى الله عليه وسلم : « قَتَالَيْنَ أَسَمَكُنَّ » محمول على أنه تطوع
من النبي صلى الله عليه وسلم لا وجوب له . وقوله : « قَسَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا
فَتَقَرَّبُوهُنَّ » محمول على غير المفروضة أيضا . قال الشافعي : والمفروض لها المهر إذا طُلقت
قبل الميس لا منة لها لأنها أخذت نصف المهر من غير جريان وطء ، والمداخل بها إذا
طُلقت فلها المنة ، لأن المهر يقع في مقابلة الوطء والمنة بسبب الابتذال بالعقد . وأوجب
الشافعي المنة للحنكمة والمبارئة . وقال أصحاب مالك : كيف يكون للفدية منة وهي تعطى ،
فكيف تأخذ متاعا ! لا منة لمختارة الفراق من غنيلة أو مفتدية أو مبارئة أو مصالحة أو ملاعبة
أو مصقة مختار الفراق ، دخل بها أم لا ، سمي لها صداقا أم لا ، وقد مضى هذا مبينا .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ
 الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٤١﴾

فيه ست مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هذه رؤية القلب بمعنى ألم تعلم ، والمعنى عند سيبويه
 تنسأ الى أمر الذين . ولا تحتاج هذه الرؤية الى مفعولين . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي
 « ألم تر » بجزم الراء ، وحذفت الهمزة حذفاً من غير إلقاء حركة لأن الأصل ألم تره . وقصة
 هؤلاء أنهم قوم من بني إسرائيل وقع فيهم الوباء وكانو بقرية يقال لها « دَاوْرَدَان » فخرجوا
 منها هارين فزلوا واديا فأماتهم الله تعالى . قال ابن عباس : كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارا
 من الطاعون وقالوا : نأتى أرضاً ليس بها موت ، فأماتهم الله تعالى ، فترجمهم نبي فدعا الله
 تعالى فأحياهم . وقيل : إنهم ماتوا ثمانمائة أيام . وقيل سبعة ، والله أعلم . قال الحسن :
 أماتهم الله قبل آجالهم عقوبة لهم ، ثم ينهم الى بقية آجالهم . وقيل : إنما فعل ذلك بهم
 معجزة لنبي من أنبيائهم ، قيل كان اسمه شمعون . وحكى النقاش أنهم فزوا من الحمى .
 وقيل : إنهم فزوا من الجهاد لما أمرهم الله به على لسان حزقيال النبي عليه السلام ، فخافوا
 الموت بالقتل في الجهاد فخرجوا من ديارهم فرارا من ذلك . فأماتهم الله ليعزفهم أنه
 لا يضيعهم من الموت نبي ، ثم أحياهم وأمرهم بالجهاد بقوله تعالى : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ؛
 قاله الضحاك . قال ابن عطية : وهذا القصص كله لين الأسانيد ، وإنما اللازم من الآية
 أن الله تعالى أخبر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم إخباراً في عبارة التنبيه والتوقيف عن قوم من
 البشر خرجوا من ديارهم فرارا من الموت فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم ليربوا هم وكل من خلف
 من بعدهم أن الإمامة إنما هي بيد الله تعالى لا بيد غيره ؛ فلا معنى لخوف خائف ولا لاعتذار

(١) داوردان (بفتح الراء وسكون الراء وآثره نون) : من نواحي شرق واسط بينهما فرح - (مجم ياقوت) .

مُفْتَرٍّ. وجعل الله تعالى هذه الآية مقدمة بين يدي أمر المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم
بِالْجِهَادِ؛ هذا قول الطبري وهو ظاهرُ وصف الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ أُلُوفٌ ﴾ قال الجمهور : هي جمع ألف . قال بعضهم : كانوا
سُمَاة ألف . وقيل : كانوا ثمانين ألفا . ابن عباس : أربعين ألفا . أبو مالك : ثلاثين ألفا .
السُّدِّي : سبعة وثلاثين ألفا . وقيل : سبعين ألفا ؛ قاله عطية بن أبي رَبَاح . وعن ابن
عباس أيضا أربعين ألفا وثمانية آلاف ؛ رواه عنه ابن جُرَيْج . وعنه أيضا ثمانية آلاف ؛
وعنه أيضا أربعة آلاف ، وقيل ثلاثة آلاف . والصحيح أنهم زادوا على عشرة آلاف
لقوله تعالى : « وَهُمْ أُلُوفٌ » وهو جمع الكثرة ، ولا يقال في عشرة فما دونها ألوف . وقال
ابن زيد في لفظة ألوف : إنما معناها وهم مؤتلفون ، أي لم تخرجهم قُرَّة قومهم ولا قَسَّة
بينهم إنما كانوا مؤتلفين ، فخالفت هذه الفرقة فخرجت فرارا من الموت وابتغاء الحياة برزهمهم
فأما تسم الله في مناجاهم برزهمهم . فالألف على هذا جمع ألف ؛ مثل جالس وجالوس . قال
ابن العربي : أما تسم الله تعالى [مدة ^(١)] عقوبة لهم ثم أحياهم ؛ وميتة العقوبة بعدها حياة
وميتة الأجل لا حياة بعدها . قال مجاهد : إنهم لما أُحْيُوا رجعوا إلى قومهم يَمْرُقُونَ ^(٢) [أنهم
كانوا موتى] تَحْتَ الموت على وجوههم ، ولا يَلِيسُ أحد منهم ثوبا إلا عاد كفنا دَيْبًا حتى
ماتوا لآجالهم التي كُتِبَتْ لهم . ابن جُرَيْج عن ابن عباس : وبقيت الرائحة على ذلك السَّبْطِ
من بني إسرائيل إلى اليوم . وروى أنهم كانوا بواسطة العراق . ويقال : إنهم أُحْيُوا بعد أن
أُتْنُوا ؛ فتلَّك الرائحة موجودة في نسلهم اليوم .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ أي لحذر الموت ؛ فهو نصب لأنه
مفعول له . و « مُوتُوا » أمر تَكْوِين ، ولا يبعد أن يقال : نودوا وقيل لهم موتوا . وقد حُكِيَ
أن ملكين صاحبا بهم : موتوا فماتوا ؛ فالمعنى قال لهم الله بواسطة الملكين موتوا ، والله أعلم .

(١) زيادة عن كتاب أحكام القرآن لابن العربي . (٢) زيادة عن الطبري .

(٣) المسم : النفس والرائحة .

الثالثة - أجمع هذه الأقوال وأشهرها أنهم خرجوا فرارا من الوباء؛ رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خرجوا فرارا من الطاعون فأتوا، فدعى الله نبي من الأنبياء أن يجيهم حتى يسلبوه فأحيامهم الله . وقال عمرو بن دينار في هذه الآية : وقع الطاعون في قريتهم فخرج أناس وبقى أناس ومن خرج أكثر من بقى ، قال : فتجا الذين خرجوا ومات الذين أقاموا ، فلما كان في الثانية خرجوا بإجمعهم إلا قليلا فأمانتهم الله ودوايتهم ، ثم أحيامهم فرجعوا إلى بلادهم وقد تواللت ذريتهم . وقال الحسن : خرجوا حذرا من الطاعون فأمانتهم الله ودوايتهم في ساعة واحدة وهم أربعون ألفا .

- قلت : وعلى هذا ترتيب الأحكام في هذه الآية ؛ فروى الأئمة واللفظ للبخاري من حديث طاهر بن سعد بن أبي وقاص أنه سمع أسامة بن زيد يحدث سعدا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الوبع فقال : " رَجَزٌ وَعَذَابٌ عُدْبٌ بِهِ بَعْضُ الْأَنْفِ ثُمَّ بَقِيَ مِنْهُ بَقِيَّةٌ فَيَنْهَبُ الْمُرَّةَ وَيَأْتِي الْأُخْرَى فَمَنْ سَمِعَ بِهِ بَارِضٌ فَلَا يَقْدَمَنَّ عَلَيْهِ وَمَنْ كَانَ بَارِضٌ وَقَعَ بِهَا فَلَا يَخْرُجْ فِرَارًا مِنْهُ " . وأخرجه أبو عيسى الترمذي فقال : حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ أَنْبَأَنَا حَمَادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ طَاهِرِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ الطَّاعُونَ فَقَالَ : " بَقِيَّةٌ رَجَزٌ أَوْ عَذَابٌ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَتَمَّ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَلَسَتْ بِهَا فَلَا تَهَيِّطُوا عَلَيْهَا " قال : حديث حسن صحيح . وبمقتضى هذه الأحاديث عمل عمرو والصحابه رضوان الله عليهم لما رجوا من سرخ حين أنعمهم عبد الرحمن بن عوف بالحديث ، على ما هو مشهور في الموطأ وغيره . وقد كره قوم التفرار من الوباء والأرض السقيمة . روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : التفرار من الوباء كالفرار من الزحف . وقصة عمر في خروجه إلى الشام مع أبي عبيدة معروفة ، وفيها : أنه رجع . وقال الطبري : في حديث سعد دلالة على أن كل المرة توفى المكروه قبل نزولها ، وتجنب الأشياء المخوفة قبل هجومها ، وأن عليه الصبر وترك الجزع بعد نزولها ؛ وذلك أنه عليه

(١) سرخ : موضع من الشام ، قيل انه وادي تيوك ، وقيل بقرب تيوك .

السلام نهي من لم يكن في أرض الوباء عن دخولها إذا وقع فيها ، ونهى من هو فيها عن الخروج منها بعد وقوعه فيها فرارا منه . فكل ذلك الواجب أن يكون حكم كل متق من الأمور غوايتها ، سبيله في ذلك سبيل الطاعون . وهذا المعنى نظير قوله عليه السلام : " لا تمتنعوا لقاء العدو وسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فأصبروا " .

قلت : وهذا هو الصحيح في الباب ، وهو مقتضى قول الرسول عليه السلام وعليه عمل أصحابه البرّة الكرام ، وقد قال عمر لأبي عبيدة عتبا عليه لما قال له : أنفرا من قَدَر الله ! فقال عمر : لو ضيّرك قالما يا أبا عبيدة ! نعم ، نَفَر من قَدَر الله إلى قَدَر الله . المعنى : أي لا يحصى للأمان عما قَدَره الله له وعليه ، لكن أمرنا الله تعالى بالتحزم من المخاوف والمهلكات ، واستفراغ الوسع في التوق من المكروهات . ثم قال له : أرايت لو كانت لك إبل فهبط وإديا له عتوتان إحداهما خضبة والأخرى جذبة ، اليس إن رعبت الخضبة رعبتها بقَدَر الله ، وإن رعبت الجذبة رعبتها بقَدَر الله . فرجع عمر من موضعه ذلك إلى المدينة . قال الكيّ الطبري : ولا نعلم خلافا أن الكفار أو قُطَاع الطريق إذا فصلوا بلدة ضعيفة لا طاقة لأهلها بالقاصدين فلهم أن يتنحوا من بين أيديهم ، وإن كانت الآجال المقتدرة لا تزيد ولا تنقص . وقد قيل : إنما نهي عن الفرار منه لأن الكائن بالموضع الذي الوباء فيه لعله قد أخذ بحظ منه لاشتراك أهل ذلك الموضع في سبب ذلك المرض العام ، فلا فائدة لفراره بل يضيف إلى ما أصابه من مبادئ الوباء مشقات السفر فتضاعف الآلام ويكثر الضرر فيكون بكل طريق ويُطرحون في كل بقوة ومضي ، ولذلك يقال : ما فر أحد من الوباء فسلم ، حكاه ابن المدايني . ويكنى في ذلك موعظة قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا » ولعله إن فروجنا يقول : إنما نجوت من أجل نروجى عنه فسوء اعتقاده . وبالجملة فالفرار منه ممنوع لما ذكرناه ولما فيه من تخليّة البلاد ، ولا تخلو من مستضعفين يصعب عليهم الخروج منها ، ولا يتأتى لهم ذلك ،

وَيَتَأَذَّنُ بِحُلُوِّ الْبِلَادِ مِنَ الْمَیَاسِرِ الَّتِي كَانُوا أَرْكَانًا لِلْبِلَادِ وَمَعُونَةً لِلْمُسْتَغْنَمِينَ . وَإِذَا كَانَ الْوَبَاءُ بِأَرْضٍ فَلَا يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ أَحَدٌ أَخَذًا بِالْحَزْمِ وَالْحَذَرِ وَالْتِحَازِ مِنْ مَوَاضِعِ الضَّرَرِ ، وَدَقَقًا لِلْأَوْهَامِ الْمُشَوِّشَةِ بِنَفْسِ الْإِنْسَانِ ؛ وَفِي الدُّخُولِ عَلَيْهِ الْمَلَكَ ، وَذَلِكَ لَا يَجُوزُ فِي حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنْ صِيَانَةُ النَّفْسِ عَنِ الْمَكْرُوهِ وَاجِبَةٌ ، وَقَدْ يَخَافُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الْإِعْتِقَادِ بَأَن يَقُولُ : لَوْلَا دُخُولِي فِي هَذَا الْمَكَانِ لَمَا نَزَلَ بِي مَكْرُوهٌ . فَهَذِهِ فَائِذَةُ النَّبِيِّ عَنْ دُخُولِ أَرْضِ بَنِي الطَّاعُونَ أَوِ الْخُرُوجِ مِنْهَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَدْ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : الطَّاعُونَ فِتْنَةٌ عَلَى الْمُقِيمِ وَالْفَارِّ ؛ أَمَّا الْفَارِّ فَيَقُولُ : يَفْرَارِي نَجْوَى ، وَأَمَّا الْمُقِيمُ فَيَقُولُ : أَقَمْتُ فِتْنَةً ؛ وَإِلَى نَحْوِ هَذَا أَشَارَ مَالِكٌ حِينَ سَمِعَ عَنْ كِرَاعَةِ النَّظَرِ إِلَى الْجَبْنِ فَقَالَ : مَا سَمِعْتُ فِيهِ بِكَرَاهَةٍ ، وَمَا أَرَى مَا جَاءَ مِنَ النَّبِيِّ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا خِيفَةً أَنْ يُزْعِمَهُ أَوْ يُخَيِّفَهُ شَيْءٌ يَقَعُ فِي نَفْسِهِ ؛ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْوَبَاءِ : ” إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ فِي أَرْضٍ فَلَا تَهَمُّوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ وَأَتَمَّ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ “ . وَسُئِلَ أَيْضًا عَنِ الْبَلَدَةِ يَقَعُ فِيهَا الْمَوْتُ وَأَمْرَاضٌ ، هَلْ يَكْرَهُ الْخُرُوجَ مِنْهَا ؟ فَقَالَ : مَا أَرَى بِأَسَا خَرَجَ أَوْ أَقَامَ .

الرابعة - فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ” إِذَا وَقَعَ الْوَبَاءُ بِأَرْضٍ وَأَتَمَّ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ “ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ الْخُرُوجُ مِنْ بَلَدَةِ الطَّاعُونَ عَلَى غَيْرِ سَبِيلِ الْفِرَارِ مِنْهُ ، إِذَا اعْتَقَدَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ ، وَكَذَلِكَ حُكْمُ الدَّخُولِ إِذَا أُيْقِنَ أَنَّ دُخُولَهُ لَا يَجْلِبُ إِلَيْهِ قَدَرًا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ قَدَرَهُ لَهُ ؛ فَبَاحَ لَهُ الدُّخُولُ إِلَيْهِ وَالْخُرُوجُ مِنْهُ عَلَى هَذَا الْحَذَرِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الخامسة - فِي فَضْلِ الصَّبْرِ عَلَى الطَّاعُونَ وَبَيَانِهِ . الطَّاعُونَ وَزَنَهُ فَاعُولٌ مِنَ الطَّعْنِ ، غَيْرُ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِهِ عَنْ أَصْلِهِ وَضَعٌ دَلَالًا عَلَى الْمَوْتِ الْعَامِ بِالْوَبَاءِ ؛ قَالَ الْجَوْهَرِيُّ . وَيُرْوَى مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ” فَنَاءُ أَتَمِّي الطَّعْنُ وَالطَّاعُونَ “ قَالَتْ : الطَّعْنُ قَدْ عَرَفْتَاهُ لَمَّا الطَّاعُونَ ؟ قَالَ : ” فَنَاءُ كَفَّاتِهِ الْبَعِيرُ تَخْرُجُ فِي الْمَرَاقِ ^(١) ”

(١) الفند : طاعون الإبل ، وقيل سلمه - . المراق : ماسفل من البطن فما تحته من المواضع التي ترقط جلدها ، واحدا مرق . وقال الجوهري : لا واحد لها - .

والإباط . قال العلماء : وهذا الرواء قد يرسله الله تمة وعقوبة على من يشاء من الصلابة من عباده وكفرتهم ، وقد يرسله شهادة ورحمة للصلابين ، كما قال معاذ في طاعون حمّاس :^(١) إنه شهادة ورحمة لكم ودعوة نبيكم ، اللهم أعط معانا وأهلنا نصيبهم من رحمتك . ففطن في كفه رضى الله عنه . قال أبو قلابة : قد عرفت الشهادة والرحمة ولم أعرف مادعوة نبيكم فسألت عنها فقيل : دعا عليه السلام أن يعمل فتاة أمته بالطعن والطاعون حين دعا ألا يعمل بأس أمته بينهم ففطنها فدعا بهذا . ويروى من حديث جابر وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الفتا من الطاعون كالفتا من الزحف والصابر فيه كالصابر في الزحف" . وفي البخاري عن يحيى بن يعمر عن عائشة أنها أخبرته أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطاعون فأخبرها نبي الله صلى الله عليه وسلم : " أنه كان عذابا يبعثه الله على من يشاء فجعله الله رحمة للمؤمنين فليس من صدق الطاعون فيمكث في بلده صابرا يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد" . وهذا تفسير لقوله عليه الصلاة والسلام : " الطاعون شهادة والمطعون شهيد" أى الصابر عليه المحاسب أجره على الله العالم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله عليه ، ولذلك تنبى معاذ أن يموت فيه لعله أن مات فهو شهيد . وأما من جزع من الطاعون وكرهه وفزعه فليس يداخل في معنى الحديث ، والله أعلم .

السادسة - قال أبو عمر : لم يلغنى أن أحدا من حملة العلم فزمن الطاعون إلا ما ذكره ابن المثنى أن علي بن زيد بن جندعان هرب من الطاعون إلى السبالة فكان يبيع كل جمعة ويرجع ، فكان إذا جمع أصحابه : فزمن الطاعون ! فأت بالسبالة . قال : وهرب عمرو بن عبيد ورباط بن محمد إلى الرابية فقال إبراهيم بن علي الثقفي في ذلك : ولما استغفر الموت كل مكذب • صبرت ولم يصبر ورباط ولا عمرو .

(١) حمّاس (روى بكسر الهمزة وسكون تانيه) ، وروى بفتح الهمزة وثانيه وآخره سين مهملة) : كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس ، ومنها كان ابتداء الطاعون في أيام عمر رضي الله عنه ثم فشا في أرض الشام فأت مع خلقه كثير لا يحصى من الصلابة رضى الله عنهم ومن فزع ، وذلك في سنة ١٨ هجرية .
(٢) السبالة (بفتح الهمزة وتخفيف تانيه) : موضع بقرب المدينة ، وهي أول مرحلة لأهل المدينة إذا أرادوا مكة .
فيل : حي بين طل والروسة في طرف مكة إلى المدينة . (عن شرح الحمّاس) .

وذكر أبو حاتم عن الأعمى قال : هَرَبَ بَعْضُ الْبَصَرِيِّينَ مِنَ الطَّاعُونَ فَرَكِبَ حِمَارًا لَهُ
وَمَضَى بِأَهْلِهِ نَحْوَ سَفَوَانَ ^(١) ، فَسَمِعَ حَايِدًا يَحْدُو خَلْفَهُ :

لَنْ يُسَبِّقَ إِلَهُ عَلَى حِمَارٍ • وَلَا عَلَى ذِي مَتْنَةٍ طَيَّارٍ
أَوْ يَأْتِيَ الْخَنْفَ عَلَى مَقْدَارٍ • قَدْ يُصْبِحُ إِلَهُ أَمَامَ السَّارِ

وذكر الماتني قال : وَقَعَ الطَّاعُونَ بِمَصْرَ فِي وِلَايَةِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ فَنَجَّاهُ هَارِبًا مِنْهُ
فَقَتَلَ قَرْيَةً مِنْ قُرَى الصَّعِيدِ يُقَالُ لَهَا « سَكْر » . فَقَدِمَ عَلَيْهِ حِينَ زِلْزَلَا رَسُولُ لَعِبَدِ الْمَلِكِ
ابْنِ مَرْوَانَ . فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَزِيْزِ : مَا أَسْمُكَ ؟ فَقَالَ لَهُ : طَالِبُ بْنُ مَدْرَكٍ . فَقَالَ : أَوَّه !
مَا أَرَانِي رَاجِعًا إِلَى الْفُسْطَاطِ ! فَجَاءَتْ فِي تِلْكَ الْقَرْيَةِ .

قوله تعالى : وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١١﴾

هَذَا خُطَابٌ لِأَمَةٍ عَدَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ . وَهُوَ
الَّذِي يَنْوِي بِهِ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا . وَسُبِّلَ اللَّهُ كَثِيرَةً فَهِيَ أَمَةٌ فِي كُلِّ سَبِيلٍ ؛ قَالَ
اللَّهُ تَعَالَى : « قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي » . قَالَ مَالِكٌ : سُبِّلَ اللَّهُ كَثِيرَةً ، وَمِنْ سَبِيلٍ إِلَّا يُجَاهَلُ عَلَيْهَا
أَوْ فِيهَا أَوْ لَهَا ، وَأَعْظَمُهَا دِينَ الْإِسْلَامِ ، لَا خِلَافَ فِي هَذَا . وَقِيلَ : الْخُطَابُ لِلَّذِينَ أَحْيَوْا
مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؛ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكِ . وَالْوَاوُ عَلَى هَذَا فِي قَوْلِهِ « وَقَاتَلُوا » طَافِقَةً
عَلَى الْأَمْرِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَفِي الْكَلَامِ مَتْرُوكٌ تَقْدِيرُهُ وَقَالَ لَمْ يَمُوتُوا . وَعَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ طَافِقَةً جَمْلَةً
كَلَامٌ عَلَى جَمْلَةٍ مَا تَقَدَّمَ ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى إِخْتِمَارِ فِي الْكَلَامِ . قَالَ النَّمَّاسُ : « وَقَاتَلُوا » أَمْرٌ

(١) سفوان (بالحريك) : ماء على قدر مرحلة من باب المريد بالبصرة - (معجم ياقوت) .

(٢) سكر (وزان زفر) : موضع بشرية الصعيد بينه وبين مصر ويومان ، كان عبد العزيز بن مروان يخرج إليه كثيرًا .
(عن ياقوت) . وقد ورد في الأصول : « سكن » بالثون وهو تحريف .

(٣) أوه : كلمة يقولها الرجل عند الشكوى والتوجع وهي ساكنة الواو مكسورة الهاء . وربما قلوا الواو أها
فقالوا : « آه من كذا » ، وربما شذها الواو وكسروها وسكنوا الهاء . فقالوا : « آه » ، وبعضهم يفتح الواو
مع التشديد فيقول : « آوه » - (عن النباهة) .

من الله تعالى للؤمنين ألا تهرؤوا كما هرب هؤلاء . (وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) أى يسبح
قولكم إن قلتم مثل ما قال هؤلاء وسلم مرادكم به . وقال الطبرى : لا وجه لقول من قاله
إن الأمر بالقتال للذين أحيوا . والله أعلم .

قوله تعالى : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ
أَضَاعًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْطِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾
فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا) لما أمر الله تعالى
بالمجاهدة والقتال على الحق ، إذ ليس شيء من الشريعة إلا ويجوز القتال عليه وعنه وأعظمها
دين الإسلام كما قال مالك ، حرض على الإنفاق في ذلك . فدخل في هذا الخبر المقاتل في سبيل
الله فإنه يُقْرِضُ به رجاء الثواب كما فعل عثمان رضي الله عنه في جيش البصرة . (ومن
رفع بالابتداء ، و«ذا» خبره ، و«الذي» نعت لذا ، وإن شئت بدل . ولما نزلت هذه الآية بانزعج
أبو الدُّحْدُوح إلى التصديق بالله ابتداء ثواب ربه . أخبرنا الشيخ الفقيه الإمام المحدث القاضي
أبو عامر يحيى بن طاهر بن أحمد بن منيع الأشعري نسا ومنعها بقرطبة أفاضها الله في ربيع
الآخر عام ثمانية وعشرين وسبعمائة قراءة منى عليه قال : أخبرنا أبي إجازة قال قرأت على أبي بكر
عبد العزيز بن خلف بن مدين الأزدي عن أبي عبد الله بن سعد بن سماع عليه قال حدثنا أبو الحسن
على بن مهران قال حدثنا أبو الحسن محمد بن عبد الله بن زكريا بن حيوة النيسابوري سنة
ست وستين وثلاثمائة قال أنبأنا عمي أبو زكريا يحيى بن زكريا قال حدثنا محمد بن معاوية
ابن صالح قال حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله

(١) جيش البصرة : جيش غزوة تبوك ، سمى باله لأنه كان في زمان عصره من الناس وثقة من الحر وجلبه
البلاد ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس بالمجاهزة وحضر أهل النبي على الثقة في سبيل الله ، فأخذ عثمان
رضي الله عنه في ذلك ثقة عظيمة . قال ابن هشام : حدثني من أثنى به أن عثمان ألقى دينار غير الإبل ماؤاد
وما يتلقى بذلك ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اللهم ارض من عثمان فاني معه راض " .

(٢) في معنى الأصول : «أبو عامر يحيى بن أحمد بن منيع الأشعري» .

ابن مسعود قال : لما نزلت « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا » قال أبو التّحداح : يا رسول الله : أَوإن الله تعالى يريد منا القرض ؟ قال : « نعم يا أبا التّحداح » ! قال : أَرأيت يذكّ فئاولة ؟ قال : فإني أقرضت الله حائطا فيه ستمائة نخلة . ثم جاء يمشي حتى أتى الحائط وأتم التّحداح فيه وعباله ؛ فناداها : يا أُمّ التّحداح ؛ قالت : ليّك ؛ قال : انرجي ؛ قد أقرضت ربّي عز وجل حائطا فيه ستمائة نخلة . وقال زيد بن أسلم : لما نزل « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا » قال أبو التّحداح : فذاك أبي وأُمّي يا رسول الله ! إن الله يستقرضنا وهو غني عن القرض ؟ قال : « نعم يريد أن يخلّكم الجنة به » . قال : فإنّ إن أقرضت ربّي قرضا يضمن لي به وليصيّبني التّحداحة معي الجنة ؟ قال : « نعم » قال : فلوئني يذكّ فئاولة رسول الله صلى الله عليه وسلم يده . فقال : إن لي حديقتين إحداهما بالساقلة والأخرى بالعالية ، والله لا أملك غيرهما قد جعلتهما قرضا لله تعالى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجعل إحداهما لله والأخرى دعّيا تعيشه لك ولعياك » . قال : فأشهدك يا رسول الله أنّي قد جعلت خيرهما لله تعالى وهو حائط فيه ستمائة نخلة . قال : « إذا يحزبك الله به الجنة » . فاطلق أبو التّحداح حتى جاء أُمّ التّحداح وهي مع صبياتها في الحديقة تدور تحت النخل فأنسا يقول :

هَذَاكَ رَبِّي سُبُلُ الرِّشَادِ • إِلَى سَبِيلِ الْخَيْرِ وَالسَّادِ

يَبْنِي مِنَ الْحَائِطِ بِالْيُودَادِ • فَقَدْ مَعَى قَرْضًا إِلَى التَّادِ

أَقْرَضَهُ اللَّهُ عَلَى اعْتَادِي • بِالطَّيْوُوعِ لَأَمْنٍ وَلَا أَرْتِيدِ

إِلَّا رَجَاءَ الضَّمَفِ فِي الْمَعَادِ • فَأَرْجِيهِ بِالنَّفْسِ وَالْأَوْلَادِ

وَالرَّيَّ لَا شَكَّ نَغْفِيرُ زَادِ • قَتَلْتَهُ الْمَرْءَ إِلَى الْمَعَادِ

قالت أُمّ التّحداح : ربح بيك ! بارك الله لك فيما أشرت ! وأجابته أُمّ التّحداح

وأناث تقول :

بَشْرَكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ وَفَرَحَ • يَتْلُكَ أَدَى مَا لَدَيْهِ وَنَصَحَ

قَدْ مَتَعَ اللَّهُ عِيَالِي وَمَتَعَ • بِالْحُجَّةِ السَّوْدَاءِ وَالزُّهْرِ الْبَلَّحِ

وَالْعَبْدُ يَسَى لَهُ مَا قَدْ كَدَحَ • طَوَّلَ الْيَالِي وَعَلَيْهِ مَا أَجْتَرَحَ

ثم أقبلت أم الدحداح على صبيانها تخرج ما في أفواههم وتغض ما في أكبادهم حتى أقضت إلى الحائط الآخر؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «كم من عذيق وداح ودار فباح لأبي الدحداح».

الثانية — قال ابن العربي: «انقسم الخلق بمحك الخلق وحكمته وقدرته ومشيبته وقضائه وقدره حين سمعوا هذه الآية أقساما ففزعوا فرقا ثلاثة: الفرقة الأولى ^(١) قالوا: إن ربَّ عِدِّ محتاج فقير اليانا ونحن أغنياء، فهذه جهالة لا تخفى على ذي لب، فرد الله عليهم بقوله: «لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ». الفرقة الثانية لما سمعت هذا القول آثرت الشُّع والبخل وقدمت الرِّغبة في المال، فما أغفت في سبيل الله ولا فكَّت أسيرا ولا أعانت أحدا، تكاسلا عن الطاعة ورؤونا إلى هذه الدار. الثالثة لما سمعت بادرت إلى استئثاره وآثر الحبيب منهم بسرمة بماله كأبي الدحداح وغيره».

الثالثة — قوله تعالى: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ القرض: اسم لكل ما يُتَمَسُّ عليه الجزاء. وأقرض فلان فلانا أى أعطاه ما يجازاه؛ قال الشاعر وهو ليلى:
وَإِذَا جُوزِيَ قَرْضًا فَأَجْزِهِ * إِنَّمَا يَجْزِي أَلْفَى لَيْسَ الْجَمَلُ

والقرض بالكسر لغة فيه حكاها الكسائي. واستقرضت من فلان أى طلبت منه القرض فأقرضني. وأقرضت منه أى أخذت القرض. وقال الزجاج: القرض في اللغة البلاء الحسن والبلاء السيئ؛ قال أمية:

كَلَّ أَمْرِي سَوْفَ يُجْزَى قَرْضَهُ حَسَنًا * أَوْ سَيِّئًا وَمَيْدَنًا مِثْلَ مَا دَانَا
وقال آخر:

يُجَازَى القُروضُ بِأَمثالِها * فَإِنْ لَعِبَ خِيَا وَبِالْشَّرِّ شَرَا

وقال الكسائي: القرض ما أسلفت من عمل صالح أو سيئ. وأصل الكلمة التقطع؛ ومنه القراض. وأقرضته أى قطعت له من مالى قطعة يُجَازَى عليها. وأقرض القوم: انقطع

(١) الملقب (فتح فسكون): النحلة. وبكسر فسكون: العريون بما فيه من الثمار. وداح حبة.

(٢) الباح (بالفتح والتخفيف): الواهب.

أثرهم وعلوكم، والقرض ههنا : اسم ، ولولاه لقال إقراضا . واستدعاء القرض في هذه الآية إنما هو تأنيص وتهريب للناس بما يفهمونه ، والله هو الغنيّ الجيد ؛ لكنه تعالى شبه عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو به ثوابه في الآخرة بالقرض كما شبه إعطاء النورس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء ، حسب ما يأتي بيانه في « برائة » . وقيل المراد بالآية الحث على الصدقة وإنفاق المال على الفقراء المحتاجين والتوسعة عليهم ، وفي سبيل الله بنصرة الدين . وكفى الله سبحانه عن التقيير بنفسه الطيبة المترفة عن الحاجات ترغيباً في الصدقة ، كما كفى من المريض والجائع والمطشان بنفسه المقدسة عن النقائص والآلام . ففي صحيح الحديث إخبارا من الله تعالى : « يا ابن آدم مَرِضْتُ فلم تُعِدْنِي وأَسْطَعَمْتُك فلم تُطْعِمْنِي واستسْقَيْتَكَ فلم تُسْقِنِي » قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : « استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي » . وكذا فيما قبل ؛ أخرجه مسلم والبخاري وهذا كله نخرج نخرج التشريف لمن كفى عنه ترغيبا لمن خوطب به .

الرابعة - يجب على المستقرض رد القرض ، لأن الله تعالى بين أن من أخفق في سبيل الله لا يضيع عند الله بل يرد الثواب قطعاً وأبهم الجزاء . وفي الخبر : « الصدقة في سبيل الله تُضَاعَف إلى سبعمائة ضعف وأكثر » على ما يأتي بيانه في هذه السورة عند قوله تعالى : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ » الآية . وقال هاهنا « فَيُضَاعَفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً » ، وهذا لا نهاية له ولا حد .

الخامسة - ثواب القرض عظيم لأن فيه توسعة على المسلم وتفرجاً عنه . نخرج ابن ماجه في سننه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأيت ليلة أُسري بي على باب الجنة مكتوباً الصدقةُ بشر أمثالها والقرضُ بمائة عشرين قلت لجبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة قال لأن السائل يسأل وعنده والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » . قال : حدثنا محمد بن خلف السعقلاني حدثنا يعلى حدثنا سليمان بن يسير

عن قيس بن رومي قال : كان سليمان بن أذنان ^(١) يُقرض طعنة ألف درهم إلى عطائه ، فلبس نرج عطائه تقاضاها منه واشتد عليه قضاءه ، فكان طعنة غضب فكت أشهراً ثم أتاه فقال : أقرضني ألف درهم إلى عطائي ، قال : نعم وكرامة ! يا أُم حُبة هل لي تلك الخريطة المختومة التي عندك ، قال : بغامت بها فقال : أما والله إنها لنراهمك التي قضيتي ما حركت منها درهما واحداً ، قال : قلله أبوك ؟ ما حملك على ما فعلت بي ؟ قال : ما سمعتُ منك ؛ قال : ما سمعتُ مني ؟ قال : سمعتك تذكر عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما من مُسلم يُقرض مُسلفاً قرضاً مرتين إلا كان كصديقها مرة " قال : كذلك أنبأني ابن مسعود .

السادسة - قرض الآدمي للواحد واحد ، أي يردّ عليه مثل ما أقرضه . وجميع أهل العلم على أن استقراض الدنانير والدرهم والحنطة والشعير والتمر والزبيب وكل ما له مثل من سائر الأطعمة جائز . وأجمع المسلمون قلا عن نبيهم صلى الله عليه وسلم أن اشتراط الزيادة في السلف رباً ولو كان قبضة من علف - كما قال ابن مسعود - أوحية واحدة . ويجوز أن يردّ أفضل مما يستلف إن لم يشترط ذلك عليه ، لأن ذلك من باب المعروف استدلالاً بحديث أبي هريرة في البكر : " إن خياركم أحسنكم قضاء " رواه الأئمة : البخاري ومسلم وغيرهما . فاتقوا صلى الله عليه وسلم على من أحسن القضاء ، واطلق ذلك ولم يقبله بصفة . وكذلك قضى هو صلى الله عليه وسلم في البكر وهو الفتي المختار من الإبل بجمال خياراً رباعياً والخيال المختار . والرابعي هو الذي دخل في السنة الرابعة لأنه يلقي فيها رباعيته وهي التي تلي الثنايا وهي أربع رباعيات ، مخففة الباء . وهذا الحديث دليل على جواز قرض الحيوان ، وهو مذهب الجمهور ، ومنع من ذلك أبو حنيفة وقد تقدم .

السابعة - ولا يجوز أن يُهدى من استقرض هدية للقروض ، ولا يجل للقرض قبولها إلا أن يكون عليهما ذلك ، بهذا جاءت السنة : نرج ابن ماجه حدثنا هشام بن عمار قال حدثنا إسماعيل بن عياش حدثنا عتبة بن حميد الضبي عن يحيى بن أبي إسحاق الهنائي قال :

(١) في الثامن عشر وشربه : سليمان بن أذنان (متر أذن) .

سألت أنس بن مالك عن الرجل مائة يُقرض أخاه المال فيُهدى إليه؟ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أقرض أحدكم أخاه قرضاً فأهدى له أو حله على دابته فلا يقبلها ولا يركبها إلا أن يكون جرى بينه وبينه قبل ذلك".

الثامنة - القرض يكون من المال - وقد يتأحكه - ويكون من العِرض؛ وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أيسر أحدكم أن يكون كأبي صَفْعَمَ كان إذا خرج من بيته قال اللهم إني قد تصدقت بعرضي على عبادك". وروى عن ابن عمر: أقرض من عِرْضِكَ لِيَوْمِ قِيَرِكَ؛ يعني من سَبِكَ فلا تأخذ منه حقاً ولا تُقيم عليه حداً حتى تأتى يوم القيامة مؤفر الأجر. وقال أبو حنيفة: لا يجوز التصدق بالعرض لأنه حق الله؛ وروى عن مالك، ابن العربي: وهذا قاسد، قال عليه السلام في الصحيح: "إن دِيْءَكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام". الحديث. وهذا يقتضي أن تكون هذه المحرمات الثلاث تجزئى تجزئى واحداً في كونها باحترامها حقاً للآدمي.

التاسعة - قوله تعالى: (حَسَنًا) قال الواقدي: محسناً طيبة به نفسه. وقال عمرو ابن عثمان الصَّدَقِي: لا يمين به ولا يؤذى. وقال سهل بن عبد الله: لا يعتقد في قرضه عَوْماً. العاشرة - قوله تعالى: (فِيضَاعُهُ لَهُ) قرأ عاصم وغيره «فيضاعفه» بالالف ونصب الفاء. وقرأ ابن عامر ويعقوب بالتشديد في العين مع سقوط الألف ونصب الفاء. وقرأ ابن كثير وأبو جعفر وشيبة بالتشديد ورفع الفاء. وقرأ الآخرون بالالف ورفع الفاء. فمن رفعه نسقه ملي قوله: «يقرض» وقيل: على تقدير هو يضاعفه. ومن نصب بخواب للاستفهام بالفاء. وقيل: بإضمار «أن» والتشديد والتخفيف لثان. دليل التشديد «أضاعفاً كثيرة» لأن التشديد للتكثير. قال الحسن والسدي: لا نعلم هذا التضعيف إلا لله وحده، لقوله تعالى: «وَيُؤْتِ مَنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا». قال أبو هريرة: هذا في نفقة الجهاد، وكذا تحسب والتي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا نفقة الرجل على نفسه ورفقائه وظهوره باقي ألف.

الحادية عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَفْقِضُ وَيَبْسُطُ ﴾ هذا عام في كل شيء فهو القابض الباسط، وقد آتينا عليهما في « شرح الاسماء الحسنی فی الكتاب الأسنى » .
 ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وعيد، فيجازى كلًا بعمله .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ أَهْبِثْ لَنَا مَلِكًا نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا قَالُوا قَلْبًا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١١١﴾

ذكر في التعريض على القتال قصة أخرى جرت في بني إسرائيل . والملا : الأشراف من الناس، كأنهم يمثلون شرفا . وقال الزجاج : سموا بذلك لأنهم يمثلون مما يحتاجون إليه منهم . والملا في هذه الآية القوم ؛ لأنّ المعنى يقتضيه . والملا : أسم لجميع كالقوم والرهط . والملا أيضا : حسن الخلق، ومنه الحديث " أحسنوا الملا فكلكم سيروى " أخرجه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ أى من بعد وفاته . ﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ أَهْبِثْ لَنَا مَلِكًا ﴾ قيل : هو شمويل بن بال بن طلحة ويعرف بأبن العجوز . ويقال فيه : شمعون ، قاله السدى : وإنما قيل : ابن العجوز لأنّ أمه كانت عجوزا فسألت الله الولد وقد كبرت وحققت فوجهه الله تعالى لها . ويقال له : شمعون لأنها دعت الله أن يرزقها الولد فيسمع دعائها فولدت غلاما فسمته « شمعون » ، تقول : سمع الله دعائي ، والسين تصريشا بلفظة العبرانية، وهو من ولد يعقوب . وقال مقاتل : هو من نسل هارون عليه السلام . وقال قتادة : هو يوشع بن نون . قال ابن عطية : وهذا ضعيف لأنّ مدّة داود هي من بعد موسى بقرون من

(١) كما في ج و ز ح . دى : ه . قال : دى : ا . يان . والى في الطبى وابن عطية : « بال » -

الناس ، ويوشع هو قتي موسى . وذكر الحاشي أن اسمه إسماعيل ، والله أعلم . وهذه الآية هي خبر عن قوم من بني إسرائيل ألتهم ذلة وعُلبَة عدو فطلبوا الإذن في الجهاد وأن يؤمروا به ، فلما أمروا كُتِبَ أكرمهم وصبر الأقل فتصرهم الله . وفي الخبر أن هؤلاء المذكورين هم الذين أميتوا ثم أحيوا ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ تَقَاتِلْ ﴾ بالنون والجزم وقراءة جمهور القراء على جواب الأمر . وقراء الضحاك وابن أبي عميلة بالياء ورفع الفعل ، فهو في موضع الصفة للآل .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ ﴾ و « عَسَيْتُمْ » بالفتح والكسر لفتان ، وباللانية قرأ نافع ، والباقون بالأولى وهي الأشهر . قال أبو حاتم : وليس للكسر وجه ، وبه قرأ الحسن وطلحة . قال مكي في اسم الفاعل : عيسى ، فهذا يدل على كسر السين في الماضي . والفتح في السين هي اللغة الفاشية . قال أبو علي : ووجه الكسر قول العرب : هو عيسى بذلك ، مثل حري ونجم ، وقد جاء قتل وقيل في نحو تميم ونميم ، وكذلك عَسَيْتَ وَعَسَيْتَ ، فإن أسند الفعل إلى ظاهر قتياس عسيت أن يقال : عيسى زيد ، مثل رضى زيد ، فإن قيل فهو القياس ، وإن لم يقل ، فسائق أن يؤخذ بالفتن فتستعمل إحداها موضع الأخرى . ومعنى هذه المقالة : هل أنتم قريب من التولي والفرار ؟ ﴿ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾ قال الزجاج : « أَلَّا تُقَاتِلُوا » في موضع نصب ، أى هل عسيت مقاتلة . ﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قال الأخفش : « أن » زائدة . وقال الفراء : هو محمول على المعنى ، أى وما منعنا ، كما يقول : مالك ألا تصلي ؟ أى ما منعك . وقيل : المعنى وأى شيء لنا في ألا مقاتل في سبيل الله ! قال الناس : وهذا أجودها . « وأن » في موضع نصب . ﴿ وَقَدْ أُخْرِجَتَا مِنْ دِيَارِنَا ﴾ تليل ، وكذلك ﴿ وَأَبْنَيْنَا ﴾ أى بسبب ذوارينا .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ﴾ أى فرض عليهم ﴿ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا ﴾ أخبر تعالى أنه لما فرض عليهم القتال ورأوا الحقيقة ورجعت أفكارهم إلى مباشرة الحرب وأن قومهم (١) يقال : دبل كح وكاع إذا جهن من القتال . وقيل : هو الذي لا يفتي في حرم ولا حرام وهو لما كس على منية .

ربما قد تذهب « تَوَلَّوْا » أى اضطربت نياتهم وقُتِرَ من أعينهم ، وهذا شأن الأمم المتنمعة
 المسائلة إلى الدعة نمتى الحرب أوقات الأثرة فلذا حَضَرَت الحرب كَمَتِ واقادمت ليطعها .
 وعن هذا المعنى نهى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « لَا تَمْتَنُوا لِقَاءَ الدُّعُوِّ وَسَلُّوْا اللَّهَ عَافِيَةً
 فَإِذَا لَقِيتَهُمْ فَأَنْتُمْ حُرٌّ » رواه الأئمة . ثم أخبر الله تعالى عن قليل منهم أنهم تَبَيَّنُوا على النية الأولى
 واستمرت منزعهم على القتال في سبيل الله تعالى .

قوله تعالى : وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا
 قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ
 سَعَةً مِنَ الْعَمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ آصَطَفَنِي عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ
 وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا) أى اجابكم إلى
 ما سألتم ، وكان طالوت سقاء . وقيل : دباغا . وقيل : مكاريبا ، وكان عالما فذلك رضى الله على
 ما يأتى : وكان من سبط بنيامين ولم يكن من سبط النبوّة ولا من سبط الملك ، وكانت النبوّة
 فى بنى لاوى ، والملك فى سبط يهوذا فذلك أنكروا . قال وهب بن منبه : لما قال الملائكة
 من بنى إسرائيل لشمويل بن يال ما قالوا ، سأل الله تعالى أن يبعث إليهم مليكا ويُدله عليه ؛
 فقال الله تعالى له : أنظر إلى القرن الذى فيه الدُّهْنُ فى بيتك فإذا دخل عليك رجل فنش الدُّهْنُ^(١)
 الذى فى القرن ، فهو ملك بنى إسرائيل فأدعنه رأسه منه وملكه عليهم . قال : وكان طالوت
 دباغا ففرج فى ابتداء دابة أضلها ، فقصده شمويل عسى أن يدعو له فى أمر الدابة أو يجد عنده
 قرصا ، فنش الدُّهْنُ^(٢) على ما زعموا ، قال : فقام إليه شمويل فأخذوه ودهن منه رأس طالوت ،
 وقال له : أنت ملك بنى إسرائيل الذى أمرنى الله تعالى بتقديمه ، ثم قال لبنى إسرائيل :
 « إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا » . وطالوت وجالوت أحمان أعجميان معزبان ؛ ولذلك

(١) القرن (بالصرك) : الحبة من جلود تكون مشقوة ثم تحفر . (٢) نش : موت .

(٣) فى دوج : فما يزعمون .

لم ينصرفا ، وكذلك داود ، والجمع طوالت وجوالت ودواويد ، ولو سميت رجلا بطاوس
ورافود بصرفت وإن كانا أعجميين . والفرق بين هذا والأوّل أنك تقول : الطاوس ،
تدخل الألف واللام فيمكّن في العربية ولا يمكّن هذا في ذلك ؛

قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ لَكَ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ أى كيف يعلّكنا ونحن أحق بالملك منه ؟
يروا على ستمهم في تعيّنهم الأنبياء وحيدهم عن أمر الله تعالى فقالوا : «أنى من أى جهة ،
فدعأنى» في موضع نصب على الظرف ، ونحن من سبط الملوك وهو ليس كذلك وهو فقير ، فتركوا
السبب الأقوى وهو قدر الله تعالى وقضائه السابق حتى أحتج عليهم نبيهم بقوله : ﴿ إِنْ لَمْ يَكُنْ
أَصْطَفَاهُ ﴾ أى اختاره وهو الحجة القاطعة ، وبين لهم مع ذلك تليل اصطفاه طالوت ، وهو
بسطته في العلم الذى هو ملاك الإنسان ، والجسم الذى هو مُعِينُهُ في الحرب وعذته عند اللقاء ؛
فتضمّنت بيان صفة الإمام وأحوال الإمامة ، وأنها مستحقة بالعلم والدين والقوّة لا بالنسب ،
فلاحظ للنسب فيها مع العلم فضائل النفس وأنها متقدّمة عليه ؛ لأن الله تعالى أخبر أنه اختاره
عليهم لعله وقوته ، وإن كانوا أشرف منسبا . وقد مضى في أوّل السورة من ذكر الإمامة
وشروطها ما يكتفى وينبئ ^(١) . وهذه الآية أصل فيها . قال ابن عباس : كان طالوت يومئذ
أعلم رجل في بني إسرائيل وأجله وأتمه ؛ وزيادة الجسم مما يسيب المدوّ . وقيل : سمى
طالوت لطلوه . وقيل : زيادة الجسم كانت بكثرة معاني الخير والشجاعة ، ولم يرد عظم
الجسم ؛ ألم تر إلى قول الشاعر ^(٢) :

ترى الرجلَ التَّجِيفَ فَرْدِيهِ • وفى أنوابه أَسَدٌ مَقْصُورٌ ^(٣)
ويُجَبِّكُ الطَّرِيرَ فَبَيْتِلِيهِ • فَيُخَلِّفُ ظَنكَ الرَّجُلَ الطَّرِيرَ ^(٤)
وقد عَظُمَ البَعِيرُ بِغَيْرِ لُبٍّ • فلم يَمْتَنِفِرْ بِالْعِظَمِ البَعِيرُ

(١) الزافود : الحد الكبير ، أو هودن طويل الأسفل ، والجمع الزافود مزرب .

(٢) تراجع المسألة الرابعة وما بعدها ص ٢٦٤ (٣) هو العباس بن مرداس ؛ كما في الحاشية وغيرها .

(٤) في اللسان في مادة مزرب : « مزرب » . والمزرب : الشدائد القوي النافذ ، والمقصود : الشدائد القوي

يقترن ويكسر . (٥) الطرير : ذر الزوايا والنظر . في : فا يبنى بجمه .

قلت : ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم لأزواجه : " أسرعكن لحاقاً بي ، أطولكن بقاءً " فكأن يتناولن ، فكانت زينب أولهن موتاً ، لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق ؛ نزعته مسلم . وقال بعض المتأولين : المراد بالعلم علم الحرب ، وهذا تخصيص العموم من غير دليل . وقد قيل : زيادة العلم بأن أوحى الله إليه ، وعلى هذا كان طالوت نبياً ، وسياق .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّنُ مَلَكُوتَهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ذهب بعض المتأولين إلى أن هذا من قول الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : هو من قول تنبؤيل وهو الأظهر . قال لم ذلك لما علم من تسنهم وجدالم في المجمع ، فأراد أن يتم كلامه بالقطعي الذي لا اعتراض عليه فقال الله تعالى : « وَاللَّهُ يُؤَيِّنُ مَلَكُوتَهُ مَنْ يَشَاءُ » . وإضافة ملك الدنيا إلى الله تعالى إضافة ملوك إلى ملك . ثم قال لم على جهة التضييق والتنبيه من غير سؤال منهم : « إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ » . ويحتمل أن يكونوا سألوه الدلالة على صدقه في قوله : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَدَأَ لَكُمْ طَائُوتَ مَلِكًا » . قال ابن عطية : والأول أظهر بمساق الآية ، والثاني أشبه بإخلاق بني إسرائيل القديمة ، وإليه ذهب الطبري .

قوله تعالى : وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آدَمُ لَدَىٰ نَوْحٍ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهَا أَلْمَلَكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ ﴾ أي إتيان التابوت ، والتابوت كان من شانه فيما ذكر أنه أنزله الله على آدم عليه السلام ، فكان عنده إلى أن وصل إلى يعقوب عليه السلام ، فكان في بني إسرائيل يظنون به من قاتلهم حتى عصوا فنبؤوا على التابوت عليهم عليه العاقبة : جالوت وأصحابه في قول السدي ، وسلبوا التابوت منهم .

قلت : وهذا أدل دليل من أن العميان سبب الخذلان ، وهذا بين . قال الثعالب : والآية في التابوت على ما روى أنه كان يسمح فيه اثنين ، فإذا سمعوا ذلك ساروا لحربهم ،

وإذا هدا الأئين لم يسيرا ولم يسرا التايوت . وقيل : كانوا يضعونه في مازق الحرب فلا تزال
تطلب حتى عصوا فغلبوا وأخذ منهم التايوت ونزل أمرهم ؛ فلما رأوا آية الاصطلام وذهاب
الذكر ، أئف بعضهم ويتكلموا في أمرهم حتى اجتمع ملؤهم أن قالوا لئبي الوقت : أبعث لنا
ملكا ؛ فلما قال لهم : ملككم طالوت راجعوه فيه كما أخبر الله عنهم ؛ فلما قطعهم بالبحر سألوه
الينة على ذلك ، في قول الطبري . فلما سألوا نبهم الينة على ما قال ، دعار به فنزل بالقوم الذين
أخذوا التايوت دأه بسببه ، على خلاف في ذلك . قيل : وضعوه في كنيسة لم فيها أصنام
فكانت الأصنام تصبح منكوسة . وقيل : وضعوه في بيت أصنامهم تحت الصنم الكبير
فأصبحوا وهو فوق الصنم ، فأخذوه وشذوه إلى رجله فأصبحوا وقد قُطعت يدا الصنم ورجلاه
والقيت تحت التايوت ؛ فأخذوه وجعلوه في قرية قوم فأصاب أولئك القوم أوجاع في أعناقهم .
وقيل : جعلوه في عمارة قوم فكانوا يصيبهم الباسور ؛ فلما عظم بلاؤهم كئيبا كان ، قالوا :
ما هذا إلا لهذا التايوت ! فلترده إلى بني إسرائيل فوضعه على عجلة بين ثورين وأرسلوها
في الأرض نحو بلاد بني إسرائيل ، وبعت الله ملائكة تسوق البقرتين حتى دخلتا على
بني إسرائيل ، وهم في أمر طالوت فأيقنوا بالنصر ؛ وهذا هو حل الملائكة للتايوت في هذه
الرواية . وروى أن الملائكة جاءت به بحمله وكان يوشع بن نون قد جعله في البرية ، فروى
أنهم رأوا التايوت في الهواء حتى نزل بينهم ؛ قاله الربيع بن خثيم . وقال وهب بن منبه :
كان قدر التايوت نحوا من ثلاثة أذرع في ذراعين . الكلبي : وكان من عود شمسار الذي
يقتذ منه الأمشاط . وقرأ زيد بن ثابت « التايوت » وهي لقتة ، والناس على قراءته بالناء
وقد تقدم . وروى عنه « التايوت » ذكره النحاس . وقرأ حميد بن قيس « بحله » بالياء .
قوله تعالى : (فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكَ وَبَقِيَّةٌ) اختلف الناس في السكينة والبقية ؛ فالسكينة
فيلة مأخوذة من السكون والوقار والعلمانية . فقوله « فِيهِ سَكِينَةٌ » أي هو سبب سكون

(١) - الاصطلام : الاستصصال والإبادة .
(٢) - كتاب الأصول ، وفي الطبري : الثورين .
(٣) - في حروا وجالسين المعجزة والميم والسين
المهمة . والتي في د والبحر المحبتين بينهما ميم وفي سيم أسماء النبات «شمساد» ص ٣٤

قلوبكم فيها آخضتم فيه من أمر طالوت؛ ونظيره « فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ » أي أنزل عليه ما سكن [١] قلبه . وقيل : أراد أن الثابت كان سبب سكن قلوبهم ، فأينما كانوا سكنوا إليه ولم يفزوا من الثابت إذا كان معهم في الحرب . وقال وهب بن منبه : السكينة روح من الله تسكنهم ، فكانوا إذا اختلفوا في أمر نطقت ببيان ما يريدون ، وإذا صاحت في الحرب كان الظفر لهم . وقال علي بن أبي طالب : هي ريح هفافة لها وجه كوجه الإنسان . وروى عنه أنه قال : هي ريح تنجوي لما رأسان . وقال مجاهد : حيوان كالخيل له جناحان وذنب ولبيته شعاع ، فإذا نظر إلى الجيش انهزم . وقال ابن عباس : طلست من ذهب من الجنة ، كان يسئل فيه قلوب الأنبياء ، وقاله السدي . وقال ابن عطية : والصحيح أن الثابت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم ، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتقوى .

قلت : وفي صحيح مسلم عن البراء قال : كان رجل يقرأ سورة « الكهف » وعنده فرس مربوط بشتطين فتشبه به فجعلت تدور وتدور وجعل فرسه ينفو منها ، فلما أصبح أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال : « تلك السكينة تنزلت للقرآن » . وفي حديث أبي سعيد الخدري : أن أسيد بن الحضير بينما هو ليلة يقرأ في مريمه الحديث . وفيه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تلك الملائكة كانت تسمع لك ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستر منهم » أخرجه البخاري ومسلم . فأخبر صلى الله عليه وسلم عن نزول السكينة مرة ، ومرة عن نزول الملائكة ، فدل على أن السكينة كانت في تلك الغلظة ، وأنها تنزل أبدا مع الملائكة . وفي هذا حجة لمن قال إن السكينة روح أو شيء له روح ؛ لأنه لا يصح استماع القرآن إلا لمن يعقل ، والله أعلم .

قوله تعالى : (وَبَقِيَّةٌ) اختلف في البقية على أقوال ، قيل : عصا موسى وعصا هارون ووضاؤا الألواح ؛ لأنها انكسرت حين ألقاها موسى ، قاله ابن عباس . زاد عكرمة :

(١) راجع ج ٨ ص ١٤٨ (٢) الزيادة من ز . (٣) هفافة : مربة المردوق هيوب .

(٤) ريح تنجوي : شهدة المردوق غير استواء .

(٥) الشطن : الحيل ، وجه أشطان .

(٦) المراد (كسر فسكون فتح) : الموضع الذي يبيت فيه النمر . (٧) وضاض القى : (ضم الزاي) : فاقة .

التوراة موثلاً أبو صالح : البقية : عصا موسى وثيابه وثياب هارون ولوحان من التوراة. وقال عطية بن سعد : هي عصا موسى [وعصا] هارون وثيابهما ورُضاض الألواح. وقال الثوري : من الناس من يقول البقية قفيزاً من في طست من ذهب وعصا موسى وعمامة هارون ورَضاض الألواح . ومنهم من يقول : العصا والتعلان . ومعنى هذا ما روى من أن موسى لما جاء قومه بالألواح فوجدهم قد عبدوا العجل ، ألقي الألواح غضبا فتكسرت ، فترج منها ما كان مصيحا . واخذ رَضاضاً ما تكسر بفعله في التابوت . وقال الضحاك : البقية : الجهاد وقتال الأعداء . قال ابن عطية : أي الأمر بذلك في التابوت ، إما أنه مكتوب فيه ، وإما أن نفس الإتيان به [هو] كالأمر بذلك ، وأسند الترك إلى [أل] موسى و [أل] هارون من حيث كان الأمر متبرجاً من قوم إلى قوم وكلام آل موسى وآل هارون . وآل الرجل قرابته . وقد تقدّم .

قوله تعالى : فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ ابْتَغَرَفَ خُرْفَةً يَجِيءُ فَمَشَرُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِطَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٨﴾

فيه إحدى عشرة مسألة

الأولى - قوله تعالى : (فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ) . فصل معناه خرج بهم . فصلت الشيء فأفصل ، أي قطعت فأقطع . قال وهب بن منبه : فلما فصل طالوت قالوا له إن المياه لا تحملنا فأدع الله أن يعبري لنا نهراً ، فقال لهم طالوت : إن الله مبتليكم بنهر . وكان عدد الجنود - في قول السدي - ثمانين ألفاً . [وقال وهب ^(١)] : لم يختلف عنه إلا ذو

(١) في ذرايين عطية : والذين . (٢) من ٥٠ و ٦٠ . (٣) كما في جوده وابن عطية وفي ٥ : قير ، وهو الضيل . (٤) الزيادة من ذرايين عطية . (٥) رابع المسألة الثانية والثالثة ص ٢٨١ (٦) من جوده .

عذر من صغر أو كبر أو مرض . والابتلاء الاختبار . والنهر والنهر لثتان . واشتقاقه من
السعة ، ومنه النهر وقد تقدم . قال قتادة : النهر الذي ابتلاه الله به هونهرين للأردن
وفلسطين . وقرأ الجمهور « نهر » بفتح الهاء . وقرأ مجاهد وحميد الأعرج « نهر » بإسكان
الهاء . ومعنى هذا الابتلاء أنه اختبار لهم ، فمن ظهرت طاعته في ترك الماء ، علم أنه مطيع
فيا هذا ذلك ، ومن غلبته شهوته [في الماء] وعصى الأمر فهو في المعيان في التصادد
أخرى ، فروي أنهم أتوا النهر وقد نالهم عطش وهو في غاية العذوبة والحسن ، فلذلك
رُخص للطعين في التفرقة ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الاكتفاح وليكسروا نزاع النفس
في هذه الحال . وبين أن التفرقة كافة ضرر العطش عند الحزمة الصابرين على شقّط العيش
الذين همّهم في غير الزفاهية ، كما قال عمرو :
• وأحسوا قراح الماء والماء بارد •

قلت : ومن هذا المعنى قوله عليه السلام : « حَسْبُ الْمَرْءِ ثَقِيَّاتُ يُعْمَنُ صِلَهُ » . وقال
بعض من يتعاطى غوامض المعاني : هذه الآية مثل ضربه الله للدنيا فشبها الله بالنهر والشارب
منه والمائل إليها والمستكثر منها ، والتارك لشربه بالمنحرف عنها والزاهد فيها ، والمنصرف
بيده غرفة بالأخذ منها قدر الحاجة ، وأحوال الثلاثة عند الله مخفية .

قلت : ما أحسن هذا لولا ما فيه من التحريف في التأويل والخروج عن الظاهر ،
لكن معناه صحيح من غير هذا

الثانية — استدل من قال إن طالوت كان نبيا بقوله : « إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ » وأنا
الله أوحى إليه بذلك وألمه ، وجعل الإلهام ابتلاء من الله لهم . ومن قال لم يكن نبيا قال :
أخبره نبيهم شمويل بالوحى حين أخبر طالوت قومه بهذا ، وإنما وقع هذا الابتلاء ليتميز المصدق
من الكاذب . وقد ذهب قوم إلى أن عبد الله بن حذافة السهمي صاحب رسول الله صلى
الله عليه وسلم إنما أمر أصحابه بإيقاد النار والدخول فيها تجربة لطاعتهم ، لكنه حمل مزاحه
على تخشين الأمر الذي كفهم ، وساقى بيانه في « النساء » إن شاء الله تعالى .

الثالثة - قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ شرب قيل معناه كَرَعَ . ومعنى «فَلَيْسَ مِنِّي» أي ليس من أصحابي في هذه الحرب ، ولم يخرجهم بذلك عن الإيمان . قال السدي : كانوا ثمانين ألفا ، ولا محالة أنه كان فيهم المؤمن والمنافق والمجذبة والكسلان ، وفي الحديث «من شربنا فليس منا» أي ليس من أصحابنا ولا على طريقنا وهذا . قال :
إذا حاولت في أسد بغورا ■ فإني لست منك ولست مِنِّي
وهذا مهج في كلام العرب ؛ يقول الرجل لأبيه إذا سلك غير أسلوبه : لست مِنِّي .

الرابعة - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ يقال : طعمت الشيء أي ذقته . وأطعمته الماء أي أذقته ، ولم يقل ومن لم يشربه لأن من عادة العرب إذا كروا شيئا أن يكرروه بلفظ آخر ، ولغة القرآن أفصح اللغات ، فلا عيرة بصدق من يقول : لا يقال طعمت الماء .

الخامسة - استدلل علماؤنا بهذا على القول بسد الزرائع ؛ لأن أدنى النوق يدخل في لفظ الطعم ، فإذا وقع النهي عن الطعم فلا سبيل إلى وقوع الشرب ممن يتجنب الطعم ؛ ولهذا المبالغة لم يأت الكلام «ومن لم يشرب منه» .

السادسة - لما قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾ دل على أن الماء طعام وإذا كان طعاما كان قوتا لباقائه واقتيات الأبدان به فوجب أن يجري فيه الربا ، قال ابن العربي : وهو الصحيح من المذهب . قال أبو عمر قال مالك : لا بأس ببيع الماء على الشط بالماء متفاضلا وإلى أجل ، وهو قول أبي حنيفة وأبي يوسف . وقال محمد بن الحسن : هو مما يكال وبوزن ، فعل هذا القول لا يجوز عنده التفاضل ، وذلك عنده فيه ربا ؛ لأن علته في الربا الكيل والوزن . وقال الشافعي : لا يجوز بيع الماء متفاضلا ولا يجوز فيه الأجل ، وعلمه في الربا أن يكون ما كولا جنسا .

(١) هو الثابتة الذياني ، يقول هذا لمية بن حصن الفزاري ، وكان قد دعاه وفوه إلى مقاطعة بني أسد ونقض حلفه فأبى عليه ، فزاده بهم ، وأراد بالهجوم نقض الحلف . (من شرح الشواهد) .

(٢) المهج : الطريق الواضح الواسع للجن .

السابعة - قال ابن العربي قال أبو حنيفة : من قال إن شرب عبدي فلان من الثمرات فهو حُرٌّ فلا يمتق إلا أن يكرع فيه ، والكرع أن يشرب الرجل فيه من الثمر ، فإن شرب بيده أو اعترف بالإثاء منه لم يمتق ؛ لأن الله سبحانه فوق بين الكرع في الثمر وبين الشرب باليد . قال : وهذا فاسد ؛ لأن شرب الماء يطلق على كل هيئة وصفة في لسان العرب من غَرَفَ باليد أو كَرَعَ بالقلم انطلاقا واحدا ، فإذا وُجِدَ الشرب المحلوف عليه لفظة وحقيقة حَتَّ ، فأعلمه .

قلت : قول أبي حنيفة أصح ، فإن أهل اللغة فوقوا بينهما كما فوق الكتاب والسنة . قال الجوهري وغيره : وكَرَعَ في الماء كُرُوعا إذا تناوله فيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا بإناء ، وفيه لغة أخرى « كَرَعَ » بكسر الراء [يكرع ^(١)] كَرَعًا . والكَرْع : ماء السماء يكرع فيه . وأما السنة فذكر ابن ماجه في سننه : حَدَّثَنَا وَاصِلُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى حَدَّثَنَا ابْنُ قُضَيْلٍ عَنْ لَيْثٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَامِرٍ عَنْ ابْنِ عَمْرِو قَالَ : مَرَرْنَا عَلَى بَرَكَةَ لَحَطْنَا نَكْرَعَ فِيهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا تَكْرَعُوا وَلَكِنْ اغْضُوا أَيْدِيَكُمْ ثُمَّ اشْرَبُوا فِيهَا فَإِنَّهُ لَيْسَ بِإِنَاءٍ أَطْيَبَ مِنَ الْيَدِ » وهذا نص . وليث بن أبي سليم خرج له مسلم وقد ضَعَّفَ .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أَغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ الاعتراف : الأخذ من الشيء باليد وبآلة ، ومنه المِغْرَفَةُ ، والغَرْفُ مثل الاعتراف . وقرئ « غُرْفَةٌ » بفتح الغين وهي مصدر ، ولم يقل اغتراف ؛ لأن معنى الغَرْفُ والاعتراف واحد . والغَرْفَةُ المرة الواحدة . وقرئ « غُرْفَةٌ » بضم الغين وهي الشيء المَغْتَرَفُ . وقال بعض المفسرين : الغَرْفَةُ بالكف الواحدة والغَرْفَةُ بالكفَّين . وقال بعضهم : كلاهما لغتان بمعنى واحد . وقال علي رضي الله عنه : الْأَكْفُ أَنْظَفُ الْأَتْيَةِ ، ومنه قول الحسن :

لَا يَدْفَعُونَ إِلَى مَاءٍ بَأْتِيَةٍ • إِلَّا اغْتَرَفًا مِنَ الْقُدْرَانِ بِالزَّلْحِ

الذليلف : المشي الرويد .

قلت : ومن أراد الحلال الصَّرف في هذه الأزمان دون شبهة ولا امتراء ولا ارتياب فليشرب بكفِّه الماء من العيون والأنهار المسخَّرة بالحرَّبان آناء الليل و [آناء^(١)] النهار، مُبْتَنِيَا بذلك من الله كسب الحسنات ووضع الأوزار والمقوق بالآئمة الأبرار، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من شرب بيده وهو يقدر على إئاء يريد به التواضع كتب الله له بعدد أصابعه حسنات وهو إئاء عيسى بن مريم عليهما السلام إذ طرح الفدح فقال آف هذا مع الدنيا " . ترجمه ابن ماجه من حديث ابن عمر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تشرب على بطوننا وهو الكرَّع، ونهانا أن نتترف باليد الواحدة، وقال : "لا يبلغ أحدكم كما يبلغ الكلب ولا يشرب باليد الواحدة كما يشرب القوم الذين يخط الله عليهم ولا يشرب بالليل في إئاء حتى يحركه إلا أن يكون إئاء مُخْتَرًا ومن شرب بيده وهو يقدر على إئاء ... " الحديث كما تقدم، وفي إسناده بَقِيَّةُ بن الوليد، قال أبو حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به . وقال أبو زرعة : إذا حدث بَقِيَّةٌ عن الثقات فهو ثقة .

التاسعة : قوله تعالى : ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ قال ابن عباس : شربوا على قدر يقينهم، فشرب الكفار شرب الميسم^(٢) وشرب العاصون دون ذلك، وانصرف من القوم ستة وسبعون ألفا وبقى بعض المؤمنين لم يشرب شيئاً وأخذ بعضهم الفُرقة، فأما من شرب فلم يرو، بل برَّح به العطش، وأما من ترك الماء فحسنت حاله وكان أجلة من أخذ الفُرقة . العاشرة — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ ﴾ الهاء تعود على النهر، و«هو» توكيد . (والذين) في موضع رفع عطفاً على المضمر في «جأوزه» يقال : جاوزت المكان مجاوزة وجوازا . والمجاز في الكلام ما جاز في الاستعمال ونفذ واستمر على وجهه . قال ابن عباس والسدي : جاز معه في النهر أربعة آلاف رجل فيهم من شرب، فلما نظروا إلى جالوت وجنوده وكافوا مائة ألف كلهم شاكون في السلاح رجع منهم ثلاثة آلاف وستمائة وبضعة وثمانون، فعلى هذا القول قال المؤمنون الموقنون بالبعث والرجوع إلى الله تعالى عند ذلك وهم مئة أهل

(١) كما في «ويعقوب» : أطراف .

(٢) الميم : الإبل التي يجيئها داء فلا تروى من الماء، واحداً أهم، والآخر هاء .

يدرو : « كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ » . وأكثر المفسرين : على أنه لما جاز معه النهر من لم يشرب جملة ، فقال بعضهم : كيف نطبق المدغم كثرتم ! فقال أولوا الزم منهم : « كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ » . قال البراء بن عازب : كما تحدث أن عدة أهل بدر كمدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا — وفي رواية : وثلاثة عشر رجلا — وما جاز معه إلا مؤمن .

الحادية عشرة — قوله تعالى : (قَالَ الَّذِينَ يَبْطُلُونَ) والظن هنا بمعنى اليقين ، ويجوز أن يكون شكاً لا علماً ، أى قال الذين يتوهمون أنهم يبتلون مع طالوت فيلقون الله شهداء ، فوقع الشك في القتل .

• قوله تعالى : (كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ) الفتنة : الجماعة من الناس والقطعة منهم ، من فاوت رأسه بالسيف وفأبته أى قطعه . وفي قولهم رضى الله عنهم : « كم من فتنة قليلة » الآية ، تحريض على القتال واستشعار للصبر واقتران بين صدق ربه .

• قلت : هكذا يجب علينا نحن أن فعل ؟ لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منمت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا فقام اليسير من المدغم كما شاهدناه غير مرة ، وذلك بما كسبت أيدينا ! وفي البخارى : وقال أبو الدرداء : إنما تقاتلون بأعمالكم . وفيه مستند أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « هل ترفعون وتنصرون إلا بضعفائكم » . فالأعمال فاسدة والضعفاء مهملون والصبر قليل والاعتماد ضعيف والتقوى زائلة ! . قال الله تعالى : « أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ » وقال : « وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا » وقال : « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » وقال : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » وقال : « إِذَا تَقِيَمْتَ فِتْنَةً فَأْتِيَهَا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » . فهذه أسباب النصر وشروطه وهى معلومة عندنا غير موجودة فينا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وصل بنا ! بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره ، ولما من الدين إلا أن نرى لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد حتى استولى المدغم شرقاً وغرباً براً وبحراً ، وتمت الفتنة وعظمت المحن ولا عاصم إلا من رحم ! .

(٢) راجع ج ١٠ ص ١٠٢

(٢) راجع ج ٦ ص ١٢٧

(١) راجع ج ٤ ص ٢٢٢

(٥) راجع ج ٨ ص ٢٢

(٤) راجع ج ١٢ ص ٧٢

قوله تعالى : وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾ .

« بَرَزُوا » صاروا في البراز وهو الأفح من الأرض المتسع . وكان جالوت أمير الهافة ومليكمهم ظله ميل . ويقال : إن البر من نسله ، وكان فيا روى في ثلاثمائة ألف فارس . وقال عكرمة : في تسعين ألفا ، ولما رأى المؤمنون كثرة عدوهم تضرعوا إلى ربهم ، وهذا كقوله : « وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ » إلى قوله : « وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ^(١) » الآية . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقي العدو يقول في القتال : « اللهم بك أصول وأجول » وكان صلى الله عليه وسلم يقول إذا لقي العدو : « اللهم إني أعوذ بك من شروهم وأجلك في غورهم » ودعا يوم بدر حتى سقط دأؤه عن منكبيه ^(٢) يستجير الله وعده على ما يأتي بيانه في « آل عمران » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾ .

قوله تعالى : (فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ) أي فأنزل الله عليهم النصر ، « فَهَزَمُوهُمْ » : فكسروهم . والمزم : الكسر ، ومنه يقاء مزم ، أي انتفى بعضه على بعض مع الجفاف ، ومنه ما قيل في زمزم : إنها هزيمة جبريل ، أي هزمها جبريل برجله فخرج الماء . والمزم : ما تكسر من يابس الخشب .

قوله تعالى : (وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ) وذلك أن طالوت لما اختاره من بين قومه لقتال جالوت ، وكان رجلا قصيرا يسفاما مصفارا أصفر أزرق ، وكان جالوت من أشد الناس وأقوامهم وكان يزم الجيوش وعده ، وكان قتل جالوت وهو رأس الهافة على يده . وهو داود .

(١) كما في « برزوا » في : الأنح . (٢) راجع ج ٤ ص ٢٤٨ فاجد رم ١٩٠ فاجد .

(٣) فجد : ويستجر . وفي « غر » يستجر . وما استجرت .

ابن إيشي^(١) — بكسر الهمزة، ويقال : داود بن زكريا بن رشوى، وكان من سبط يهوذا بن يعقوب بن إسماعيل بن إبراهيم عليهم السلام ، وكان من أهل بيت المقدس جمع له بين النبوة والملك بعد أن كان راعيا وكان أصغر إخوته وكان يرعى غناء، وكان له سبعة إخوة في أصحاب طالوت ؛ فلما حضرت الحرب قال في نفسه : لأذهبن إلى رؤية هذه الحرب ، فلما نهضن في طريقه مر بمجر فناداه : يا داود خذني فبني تقتل جالوت ، ثم ناداه بمجر آخر ثم آخر فأخذها وجعلها في غلته وسار ، فخرج جالوت يطلب مبارزا فكف الناس عنه حتى قال طالوت : من يبرأ إليّ ويقتله فأنا أزوجه ابني وأحكمه في مالي ؛ فجاء داود عليه السلام فقال : أنا أبرأ إليه وأقتله ، فأزدرأه طالوت حين رآه لصغير سنه وقصره فرقه ، وكان داود أنزرق قصيرا ؛ ثم نادى ثانية وثالثة فخرج داود ، فقال طالوت له : هل جرّبت نفسك بشيء ؟ قال نعم ؛ قال بماذا ؟ قال : وقع ذئب في غنى فضربته ثم أخذت رأسه قطعته من جسده . قال طالوت : الذئب ضعيف ، هل جرّبت نفسك في غيره ؟ قال : نعم ، دخل الأسد في غنى فضربته ثم أخذت بلحيه فشققتهما ، أفتى هذا أخذ من الأسد ؟ قال لا ؛ وكان عند طالوت دِرْعٌ لا تستوى إلا على من يقتل جالوت ، فأخبره بها وألقاها عليه فأستوت ؛ فقال طالوت : فأركب فرسي وخذ سلاحي ففعل ؛ فلما مشى قليلا رجع فقال الناس : جبن الفتي ؛ فقال داود : إن الله إن لم يقتله لي ويُنِيّ عليه لم ينفعني هذا الفرس ولا هذا السلاح ، ولكني أحب أن أقاتله على جادتي . قال : وكان داود من أرمى الناس بالمقلاع ، فزّل وأخذ يحمّله فتقلدها وأخذ مقلاعه ونرج إلى جالوت ، وهو شاك في صلاحه على رأسه بيضة فيها ثلاثمائة رطل ، فبأذكر الماوردي وغيره ؛ فقال له جالوت : أنت يا فتى تخرج إلى ! قال نعم ؛ قال : هكنا كما تخرج إلى الكلب ! قال نعم ، وأنت أهون . قال : لأطمعن لحسك اليوم لتطير والسباع ؛ ثم تمايأ وقصد جالوت أن يأخذ داود بيده استخفافا به ، فأدخل داود يده إلى المجارة ، فرؤى أنها التأمّت فصارت حجرا واحدا ، فأخذه فوضعه في المقلاع وسمى الله

(١) كما في الأصول، وراقى في البحر وغيره . إيشا . (٢) كعب : جبر وضمف .

وأراد بوجهه فأصاب به رأس جالوت فقتله ، وحز رأسه وجعله في غلته ، وأخطط الناس وحمل أصحاب طالوت فكانت الهزيمة . وقد قيل : إنما أصاب بالجر من البيضة موضع أنفه ؛ وقيل : عينه ونرج من قناه ، وأصاب جماعة من عسكره فقتلهم . وقيل : إن الحجر فتت حتى أصاب كل من في الصكر شيء منه ؛ وكان كالفبضة التي رمى بها النبي صلى الله عليه وسلم هوازن يوم حنين ، والله أعلم . وقد أكثر الناس في قصص هذه الآي ، وقد ذكرت لك منها المقصود والله المأمود .

قلت : وفي قول طالوت : « من يرزله ويغسله فاني أزوجه فاني أبقى وأحكه في مالي » معناه ثابت في شرعنا ، وهو أن يقول الإمام : من جاء برأس فله كذا ، أو سير فله كذا على ما يأتي بيانه في « الألقاب » إن شاء الله تعالى . وفيه دليل على أن المبارزة لا تكون إلا بإذن الإمام ، كما يقوله أحمد وإسحاق وغيرهما . واختلف فيه عن الأوزاعي فحكى عنه أنه قال : لا يعمل أحد إلا بإذن إمامه . وحكى عنه أنه قال : لا بأس به ، فإن نهى الإمام عن البراز فلا يبارز أحد إلا بإذنه . وبأبحث طائفة البراز ولم تذكر بإذن الإمام ولا بنير إذنه ؛ هذا قول مالك . سئل مالك عن الرجل يقول بين الصنيتين : من يبارز ؟ فقال : ذلك إلى نيته إن كان يريد بذلك الله فارجو ألا يكون به بأس ، قد كان يفعل ذلك فيما مضى . وقال الشافعي : لا بأس بالمبارزة . قال ابن المنذر : المبارزة بإذن الإمام حسن ، وليس على من بارز بنير إذنه الإمام حرج ، وليس ذلك بمكروه لأن لا أعلم خبرا يمنع منه .

(وَأَمَّا اللَّهُ الْمَلِكُ وَالْحَكِيمُ) قال السدي : أمناه الله ملك طالوت ونبوة شمعون . ولقدى عليه هو صفة الدروع ومنطق الطير وغير ذلك من أنواع ما علمه صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس : هو أن الله أعطاه سلسلة موصولة بالهجرة والفلك ورأسها عند صومعة داود ؛ فكان لا يحدث في الهواء حدث إلا صلصلت السلسلة فيعلم داود ما حدث ، ولا يحسها ذوماعة إلا يرى ؛ وكانت علامة دخول قومه في الدين أن يمسوها بأيديهم ثم يمسخون أكتفهم على صلودهم ، وكانوا يتحاكون إليها بعد داود عليه السلام إلى أن رقت .

وتواضع في غير مَنَّة ، فهم خلفاء الأنبياء قوم اصطفاهم الله لنفسه واستخلصهم بسلامه لنفسه ،
 وهم أربعمون صديقا منهم ثلاثون رجلا على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن ، يدفع الله بهم
 المكارة عن أهل الأرض والبلايا عن الناس ، وبهم يُطْرَقُونَ وَيُرْزَقُونَ ، لا يموت الرجل منهم
 حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه . وقال ابن عباس : ولولا دفع الله العدو يمخوذ المسلمين
 لنلب المشركون قفتلوا المؤمنين ونزحوا البلاد والمساجد . وقال سفيان الثوري : هم الشهود
 الذين تُستخرج بهم الحقوق . وحكى مكي أن أكثر المفسرين على أن المعنى : لولا أن الله
 يدفع بمن يصلي عن لا يصلي وعن يتقى عن لا يتقى لأهلك الناس بذنوبهم ؛ وكذا ذكر النحاس
 والتعليق أيضا . [قال التعليق^(١)] وقال سائر المفسرين : ولولا دفاع الله المؤمنين الأبرار عن الفجار
 والكفار لفستت الأرض ، أى هلكت . وذكر حديثنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
 "إن الله يدفع المذاب بمن يصلي من أمي عن لا يصلي وعن يزكي عن لا يزكي وعن يصوم
 عن لا يصوم وعن ينج عن لا ينج وعن يجاهد عن لا يجاهد ، ولو اجتمعوا على ترك هذه
 الأشياء ما أنظرهم الله طرفه عين - ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم - وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ
 النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ " . وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله
 ملائكة تنادي كل يوم لولا عباد رُكِعَ وأطفال رُضِعَ وبهائم رُتِعَ لصب عليكم العذاب صبا"
 نزعجه أبو بكر الخطيب بمعناه من حديث الفضيل بن عياض . حدثنا منصور عن إبراهيم عن
 علقمة عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لولا فيكم رجال خُشِعَ وبهائم
 رُتِعَ وصبيان رُضِعَ لصب العذاب على المؤمنين صبا" . أخذ بعضهم هذا المعنى فقال :
 لولا عبادُ لِلَّهِ رُكِعَ • وصبيّة من النباي رُضِعَ
 ومَهْمَلَاتٌ فِي الْقَلَاةِ رُتِعَ • صَبَّ عَلَيْكُمُ الْعَذَابُ الْأَوْجَعُ

وروى جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله ليصلح بصلاح الرجل ولده
 وولده ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم" . وقال قتادة :
 يبتلي الله المؤمن بالكافر ويساق الكافر بالمؤمن . وقال ابن عمر قال النبي صلى الله عليه وسلم :

«إِنَّ اللَّهَ لَيَدْفَعُ بِالْمُؤْمِنِ الصَّالِحِ عَنْ مِائَةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَجِبْرَانِهِ الْيَلَاءَ». ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عُمَرَ وَوَلَوْ لَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ » . وَقِيلَ : هَذَا الدَّفْعُ بِمَا شَرَعَ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ مِنَ الشَّرَائِعِ ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَسَالَبَ النَّاسَ وَتَنَاهَوْا وَهَلَكُوا ، وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ فَإِنَّهُ عَمُومٌ فِي الْكَفِّ وَالِدَّفْعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَنَأْمُلُهُ . (وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) . بَيْنَ سُبْحَانِهِ أَنْ دَفَعَهُ بِالْمُؤْمِنِينَ شَرَّ الْكَافِرِينَ فَضْلٌ مِنْهُ وَنِعْمَةٌ .

قوله تعالى : تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الْحَقُّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٦﴾

(تِلْكَ) (آيَاتُ اللَّهِ) خبره ، وإن شئتَ كان بدلًا والخبر (تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ) . (وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) ، خبر إن أي وإِنَّكَ لَمُرْسَلٌ . نَبِيُّ اللَّهِ تَعَالَى نَبِيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي تَقْدَمُ ذِكْرُهَا لَا يَلْمِهَا إِلَّا نَجِيَّةٌ مَرْسَلٌ .

قوله تعالى : تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتَ وَيَذْنُهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَتُ وَلَكِنْ ااخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : (تِلْكَ الرُّسُلُ) قال : « تلك » ولم يقل : ذلك مراعاةً لثابت لفظ الجماعة ، وهي رفع بالابتداء . و « الرُّسُلُ » نعت ، وخبر الابتداء الجملة . وقيل : الرسل عطف بيان ، و (فَضَّلْنَا) الخبر . وهذه آية مشككة والأحاديث ثابتة بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَا تَعْبَرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ » و « لَا تَفْضَلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ » رواها الأئمة الثقات ، أي لا تقولوا : فلان خير من فلان ، ولا فلان أفضل من فلان . يقال : خير فلان بين فلان وفلان ، وفضل فلان

(مشددا) إذا قال ذلك . وقد اختلف العلماء في تأويل هذا المعنى ، فقال قوم : إن هذا كان قبل أن يُوحى إليه بالتفضيل ، وقبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم ، وأن القرآن ناسخ للنع من التفضيل . وقال ابن تقيّة : إنما أراد بقوله : « أنا سيد ولد آدم » يوم القيامة ؛ لأنه الشافع يومئذ وله لواء الحمد والخوض ، وأراد بقوله : « لا تخيروني على موسى » على طريق التواضع ؛ كما قال أبو بكر : وليتكم ولست بخيركم . وكذلك معنى قوله : « لا يقل أحد أنا خير من يونس بن متى » على معنى التواضع . وفي قوله تعالى : « وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ »^(١) ما يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل منه ؛ لأن الله تعالى يقول : ولا تكن مثله ، فدلّ على أن قوله : « لا تفضلوني عليه » من طريق التواضع . ويجوز أن يريد لا تفضلوني عليه في العمل فله أفضل عملا مني ، ولا في البُلُوّ والامتحان فإنه أعظم عنة مني . وليس ما أعطاه الله لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم من السُّودد والفضل يوم القيامة على جميع الأنبياء والرسل بجملة بل بتفضيل الله إياه واختصاصه له ، وهذا التأويل اختاره المهلب . ومنهم من قال : إنما نهى عن الخوض في ذلك ، لأن الخوض في ذلك ذريعة إلى الجدل وذلك يؤدي إلى أن يذكر منهم ما لا ينبغي أن يذكر ويقل احترامهم عند المصاراة . قال شيخنا : فلا يقال : النبي أفضل من الأنبياء كلهم ولا من فلان ولا خير ، كما هو ظاهر النهي لما يتوهم من النقص في المقضول ؛ لأن النهي اقتضى منع إطلاق اللفظ لا منع اعتقاد ذلك المعنى ؛ فإن الله تعالى أخبر بأن الرُّسل متفاضلون ، فلا تقول : نبينا خير من الأنبياء ولا من فلان النبي اجتبا لما نُهي عنه وتأدبا به وعملا بأعقاد ما تضمنه القرآن من التفضيل ، والله بحقائق الأمور عليم .

قلت : وأحسن من هذا قول من قال : إن اللع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها ، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطفات والمعجزات المتباينات ، وأما النبوة في نفسها فلا تفاضل وإنما تفاضل بأمر آخر زائدة عليها ؛ ولذلك منهم رُسل وأولو عزم ، ومنهم من اتخذ خليلا ، ومنهم من كلم الله

ورفع بعضهم درجات، قال الله تعالى : « وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا ^(١) » وقال : « تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ » .

قلت : وهذا قول حسن ، فإنه جمع بين الآي والأحاديث من غير نسخ ، والقول بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما منحه من الفضائل وأعطى من الوسائل ، وقد أشار ابن عباس إلى هذا فقال : إن الله فضل عبدا على الأنبياء وعلى أهل السماء ، فقالوا : يا ابن عباس فضله على أهل السماء ؟ فقال : إن الله تعالى قال : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَيْسَ بِنَجِيِّهِ جَهَنَّمُ كَذَلِكَ تَجْزِي الظَّالِمِينَ ^(٢) » . وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم : « إِنَّا قَتَلْنَاكَ قَتْلًا مُبِينًا . لِيُفْقِرَ لَكَ اللَّهُ مَا قَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ^(٣) » . قالوا : فما فضله على الأنبياء ؟ قال قال الله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ يُبَيِّنُ لَهُمْ ^(٤) » وقال الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِنَاسٍ ^(٥) » فأرسله إلى الجن والإنس « ذكره أبو محمد النابغى » في مسنده . وقال أبو هريرة : خير بنى آدم نوح وإبراهيم وموسى وعبد صلى الله عليهم وسلم ، وهم أولو العزم من الرسل ، وهذا نص من ابن عباس وأبي هريرة في التبيين ، ومعلوم أن من أرسل أفضل ممن لم يرسل ، فإن من أرسل فضل على غيره بالرسالة واستبوا في النبوة إلى ما يلقاه الرسل من تكذيب أعمهم وقطعهم إمامهم ، وهذا مما لا يخاف فيه ، إلا أن ابن عطية أباح عبد الحق قال : إن القرآن يقتضي التفضيل ، وذلك في الجملة دون تعيين أحد مفضل ، وكذلك هي الأحاديث ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي » وقال : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ » ولم يبين ، وقال عليه السلام : « لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرُ مَنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى » وقال : « لَا تَفْضُلُونِي عَلَى مُوسَى » . وقال ابن عطية : وفي هذا نهى شديد عن تعيين المفضل ، لأن يونس عليه السلام كان شابا وتغنى تحت أعباء النبوة . فإذا كان التوقيف لمحمد صلى الله عليه وسلم فغيره أخرى .

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٧٨ (٢) راجع ج ٦ ص ٢٧٢ (٣) راجع ج ١٦ ص ٢١٠

(٤) راجع ج ٩ ص ٢٤٠ (٥) راجع ج ١٤ ص ٢٠٠

(٦) يقال : تغنى اليربوع تحت الحمل الثقيل إذا لم يقه .

قلت : ما احترناه أولى إن شاء الله تعالى ؛ فإن الله تعالى لما أخبر أنه فضل بعضهم على بعض جعل بين بعض المتفاضلين ويذكر الأحوال التي فضلوا بها فقال : « مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ » وقال « وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا » ^(١) وقال : « وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ » ، « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلتَّقِينَ » ^(٢) وقال تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا » ^(٣) وقال : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ » ^(٤) فمَنْ ثُمَّ خَصَّ وَبَدَأَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهذا ظاهر .

قلت : وضحكنا القول في الصعابة إن شاء الله تعالى ، اشتركوا في الصعوبة ثم تباينوا في الفضائل بما منحهم الله من المواهب والوسائل ، فهم مفاضلون بتلك مع أن الكل شلتهم الصعوبة والمدالة والثناء عليهم ، وحسبك بقوله الحق : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَرَاءِ » ^(٥) إلى آخر السورة . وقال : « وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا » ^(٦) ثم قال : « لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَتَى مِنَ الْقُبُورِ وَقَاتِلَ » ^(٧) وقال : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » ^(٨) فمَنْ وَخَصَّ ، وفى عنهم الشين والتقص ، رضى الله عنهم أجمعين ونفعنا بهم آمين .

قوله تعالى : (مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ) المكلم موسى عليه السلام ، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آدم أبي مرسل هو ؟ فقال : « نعم نبي . مكلم » . قال ابن عطية : وقد تأول بعض الناس أن تكلم آدم كان في الجنة ، فعل هذا تبق خاصية موسى . وحذفت الماء لطول الاسم ، والمعنى من كلمه الله .

قوله تعالى : (وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ) قال النحاس : بعضهم هنا على قول ابن عباس والشعبي وبجاهد محمد صلى الله عليه وسلم ، قال صلى الله عليه وسلم : « بعثت إلى الأحمر والأسود وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ونصرت بالربع مسيرة شهر وأحلت لي الفنائم وأعطيت

(١) راجع ج ٩ ص ١٧ (٢) راجع ج ١٧ ص ٢٦٢ و ٢٢٩ (٣) راجع ج ١١ ص ٢٩٥

(٤) راجع ج ١٣ ص ١٦٣ (٥) راجع ج ١٤ ص ١٢٦ (٦) راجع ج ١٦

ص ٢٩٢ و ص ٢٨٨ و ص ٢٧٤ (٧) الرطب : الخوف والفرح . كان أعداء النبي صلى الله عليه وسلم

قد أوقع الله تعالى في قلوبهم الخوف ، فإذا كان يبه ويهزم مسيرة شهر طوره وخرعوا له . (من الباقية) .

الشفاعة . ومن ذلك القرآن واشتقاق القمر وتكليمه الشجر وإعطائه الطعام خلقا عظيما من مُخْتَرَاتِ وَدُرُورِ شَاةٍ أَمَّ مَعْبِدٍ بَعْدَ جَعْفَرٍ . وقال ابن عطية معناه ، وزاد : وهو أعظم الناس أُمَّةً وَخَمَّ بِهِ النِّبْيُونَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْخُلُقِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ . ويحتمل اللفظ أن يراد به محمد صلى الله عليه وسلم وغيره ممن عظمت آياته ، ويكون الكلام تأكيدا . ويحتمل أن يريد به رفع أدريس المكان المثلّي ، ومراتب الأنبياء في السماء كما في حديث الإسراء ، وسيأتي . ويثبت ميسى هـى إحياء الموتى وإبراء الآكاه والأبرص وخلق الطير من الطين كما نص عليه في التزييل . (وَأَيْدَاهُ) قَوِيَّاهُ . (يَرْجُحُ الْقُدُسَيْنِ) جبريل عليه السلام ، وقد تقدّم .^(١)

قوله تعالى : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَيْنِهِمْ) أى من بعد الرسل . قيل : الضمير لموسى وعيسى ، والاكتمان جمع . وقيل : من بعد جميع الرسل ، وهو ظاهر اللفظ . وقيل : إن القتال إنما وقع من الذين جاءوا بفسادهم وليس كذلك المعنى ، بل المراد ما أقتل الناس بعد كل نبي ، وهذا كما تقول : اشتريت خيلا ثم بعته ، بفائرك هذه العبارة وأنت إنما اشتريت فرسا وبعته ثم آخر وبعته ثم آخر وبعته ، وكذلك هذه التوازل إنما اخطف الناس بعد كل نبي فمنهم من آمن ومنهم من كفر بغيا وحسدا وعلى حطام الدنيا ، وذلك كله بقضاء وقدر وإرادة من الله تعالى ، ولو شاء خلاف ذلك لكان ولكنه المستأثر بمر الحكمة في ذلك الفعل لما يريد . وكسرت اللون من هـ وَلَكِنْ اخْتَفَوْا لَأَكْتَفَاهُ السَّاكِنِينَ ، ويعوز حذفها في غير القرآن ، وأنشد سيويه :

فَلَسْتُ بِأَنِيهِ وَلَا أَسْتَطِيعُهُ • وَلَاكِ أَسْقَى إِنْ كَانَ مَاؤُكَ زَانِفُلًا^(٢)
(فَبَيْنَهُمْ مَنْ آمَنَ وَبَيْنَهُمْ مَنْ كَفَرَ) « مَنْ » في موضع رفع بالابتداء والصفة .

قوله تعالى : يَنَآيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ^(٣)

(١) ج ٢ ص ٢٤ (٢) البيت للتبائي ، وصف أنه اسطبح ذنبا في فلاة مفعلة لا ماء فيها ، وزعم أن القدر ردة عليه فقال : لست بأت ناد دعوتى إليه من الصحة ولا أستطيع لأنى وحشى وأنت إني ولكن أسقى إن كان ماؤك فاخلع من ذلك (عن شرح التواضع للشمسرى) .

قال الحسن : هي الزكاة المفروضة . وقال ابن جريج وسعيد بن جبير : هذه الآية تجمع الزكاة المفروضة والتطوع . قال ابن عطية . وهذا صحيح ، ولكن ما تقدم من الآيات في ذكر القتال وإن الله يدفع بالمؤمنين في صدور الكافرين يرجح منه أن هذا التنب إنما هو في حبيب الله ، ويقوى ذلك في آخر الآية قوله : « وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ » أى فكافوهم بالقتال بالأنفس وإتفاق الأموال .

قلت : وعلى هذا التأويل يكون إتفاق الأموال مرة واجبا ومرة ندبا بحسب تعيين الجهاد وعدم تعيينه . وأمر تعالى عباده بالإتفاق مما رزقهم الله وأنهم به طليم ، وحذرهم من الإمساك إلى أن يحيى يوم لا يمكن فيه بيع ولا شراء ولا استدراك نفقة ، كما قال : « يَقُولُ رَبِّ تَوَلَّأْتُكَ إِلَى آخِرَتِي إِلَى آخِرَتِي قَرِيبٌ فَأَصْدَقْ » . والخلة : خالص المودة ، مأخوذة من تخل الأسرار بين الصديقين . والخلالة والخلالة : الصداقة والمودة ، قال الشاعر :

وكيف تُواصلُ مَنْ أَصْبَحَتْهُ • خِلَاتُهُ صَكَابِي مَرْحَبِ

وأبو مرحب كنية الظَّل ، ويقال : هو كنية عرقوب الذى قيل فيه : مواعيد عرقوب . والخلة (بالضم أيضا) : ما خلا من التبت ، يقال : الخلة خبز الإبل والمخض فاكهتها . والخلة (بالفتح) : الحاجة والفقر . والخلة : ابن تحاض ، عن الأصمى . يقال : أنا هم بقُرض كأنه فَرَسٌ خلة . والأخى خلة أيضا . ويقال لبيت : اللهم أصلح خلقه ، أى التلمة التى ترك . والخلة : الخمرة الخامضة . والخلة (بالكسر) : واحدة خيل السيوف ، وهى بطائن كانت تغشى بها أجناف السيوف معقوشة بالذهب وغيره ، وهى أيضا سُرور تُلبس ظهر سبتي القوس . والخلة أيضا : ما يبقى بين الأستان . وسيأتى فى « النساء » اشتقاق الخليل ومعناه . فأخبر الله تعالى ألا خلة فى الآخرة ولا شفاعة إلا بإذن الله . وحقيقتها رحمة منه تعالى شرف بها الذى يأنزله فى من يشفع . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : لا يَبِيعُ فيه ولا خلة

(١) راجع إلى « من » ١٢٠ . (٢) هو الثانية الجملدى . كما فى « الحان » .

(٣) القوس (بكسر القاف والسين وسكون الزا) : عظم ظيل الحمار ، وهو نصف البعير ، كالحافر الدابة .

(٤) سبة القوس ، ما تصف من طرفها . (٥) راجع ج ٥ ص ٣٩٩ .

ولا شفاعة بالنصب من غير تنوين، وكذلك في سورة «إبراهيم» «لا يبيح فيه ولا خلال»^(١)
وفي «الطور» «لا تقو فيها ولا تأتم»^(٢) وأنشد حسان بن ثابت :

ألا طمان ولا قُوسان عادية • إلا تجشؤكم عند التنائير^(٣)

وآلف الاستفهام غير مغيرة عمل «لا» كقولك : ألا رجل عندك ، ويموز ألا رجل
ولا امرأة كما جاز في غير الاستفهام فأعلمه . وقرأ الباقون جميع ذلك بالرفع والتنوين
كما قال الراعي :

وما صرّيتك حتى قلت مُعلنة • لا نافقة لي في هذا ولا بمل

ويروي «وما هجرتك» فافتح على التني السام المستغرق لجميع الوجوه من ذلك الصنف
كأنه جواب لمن قال : هل فيه من بيع ؟ فسأل مؤالا عاما فأجيب جوابا عاما بالنفي . و«لا»
مع الأسم المنخى بمنزلة أسم واحد في موضع رفع بالابتداء، والخبر «فيه» . وإن شئت جعلته
صفة ليوم ، ومن رفع جعل «لا» بمنزلة ليس . وجعل الجواب غير تام ، وكأنه جواب
من قال : هل فيه بيع ؟ بإسقاط من ، فأتى الجواب غير مغير عن رفعه ، والمرفوع مبتدأ
أو اسم ليس و«فيه» الخبر . قال مكي : والاختيار الرفع ، لأن أكثر القراء عليه ، ويموز في غير
القرآن لا يبيح فيه ولا خلة ، وأنشد سيويه لرجل من مدحج :

هذا لعمركم الصغار بعينه • لا أم لي إن كان ذاك ولا أب

ويموز أن تبنى الأول وتنصب الثاني وتنوّنه فتقول : لا رجل فيه ولا امرأة ، وأنشد
سيويه :

لا تسب اليوم ولا خلة • ألتسع الحرق على الرّاقع

فلا زائدة في الموضعين ، الأول عطف على الموضع والثاني على اللفظ . ووجه خامس أن
ترفع الأول وتبنى الثاني كقولك : لا رجل فيها ولا امرأة ، قال أئمة :

فلا تنوّ ولا تأتم فيسا • وما فأهوا به أبدا مقسم

(١) وأبيح ٩ ص ٣٦٦ = (٢) وأبيح ١٧ ص ٦٦ (٣) يقول هذا في الحارث بن كعب
ومنهم النباشي وكان يماجه بخلهم أهل نهم وحرص على الطعام لأهل غارة وقال . والعادية : المستطلة . ويروي
نادية (التيين المعجمة) وهي التي تتدور لقارة ؟ ومادية أم لأنها تكون بالفتحة وبغيرها . (من شرح الشواهد للشحري) .

وهذه الخمسة الأوجه جازية في قولك : لا حول ولا قوة إلا بالله، وقد ختم هذا والحمد لله .
 (وَالْكَافِرُونَ) ابتداء . (مُم) ابتداء ثان ، (الظَّالِمُونَ) خبر الثاني، وإن شئت كانت
 « هم » زائدة للفصل « والظالمون » خبر « الكافرون » . قال عطاء بن دينار : والحمد لله
 الذي قال : « والكافرون هم الظالمون » ولم يقل والظالمون هم الكافرون .

قوله تعالى : اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ
 وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ
 إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ
 إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا
 وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

قوله تعالى : (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) هذه الآية الكرسي سيدة آي القرآن وأعظم آية،
 كما تقدم بيانه في الفاتحة، ونزلت ليلا ودعا النبي صلى الله عليه وسلم زيداً فكتبها، روى عن محمد
 ابن الحنفية أنه قال : لما نزلت آية الكرسي نزل كل صنم في الدنيا، وكذلك نزل كل ملك في الدنيا
 وسقطت التيجان عن رؤوسهم، وهربت الشياطين يضرب بعضهم على بعض إلى أن أتوا إبليس
 فآخبروه بذلك فأمرهم أن يحثوا عن ذلك، فجاءوا إلى المدينة فبلغهم أن آية الكرسي قد نزلت .
 وروى الأئمة عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا المنذر أتندري
 أي آية من كتاب الله ملك أعظم ؟ » قال قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « يا أبا المنذر
 أتندري أي آية من كتاب الله ملك أعظم ؟ » قال قلت : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم » ف ضرب
 في صدرى وقال : « ليهيك العلم يا أبا المنذر » . زاد الترمذي الحكيم أبو عبد الله : « فوالذي
 قضى بيده إن هذه الآية للساعة وشفتين تهدس الملك عند ساق العرش » . قال أبو عبد الله :
 فهذه آية أنزلها الله جل ذكره، وجعل ثوابها لغارتها عاجلا وآجلا، فأما في العاجل فهي حارسة
 لمن قرأها من الآفات ، وروى لنا عن نوف اليكالي أنه قال : آية الكرسي تدعي في التوراة

وَلَيْتَ اللهُ . يريد يدعى قارئها في ملكوت السموات والأرض عزّزاً، قال : فكان عبد الرحمن ابن عوف إذا دخل بيته قرأ آية الكرسي في زوايا بيته الأربع، معناه كأنه يتعمد بذلك أن تكون له حارساً من جوائنه الأربع، وأن تنفي عنه الشيطان من زوايا بيته . وروى عن عمر أنه صارع جنيّاً فصرعه عمر رضى الله عنه ، فقال له الجني : خَلْ عني حتى أعلمك ما تمنعون به منا، فخلّى عنه وسأله فقال : إنكم تمنعون منا بآية الكرسي .

قلت : هذا صحيح، وفي الخبر : من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة كان الذي يتولى قبض روحه ذو الجلال والإكرام، وكان كمن قاتل مع أنبياء الله حتى يستشهد . وعن عليّ رضى الله عنه قال : سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول وهو على أعواد المنبر : "من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابده ومن قرأها إذا أخذ مضجعه آمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله" . وفي البخاري عن أبي هريرة قال : وكنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم يحفظ زكاة رمضان، وذكر قصة فيها : فقلت يا رسول الله، زعم أنه صلّيت كلمات ينفعني الله بها خلّيت سبيله، قال : "ما هي؟" قلت قال لي : إذا أويت إلى فراشك فأقرأ آية الكرسي من أولها حتى تحتم "الله لا إله إلا هو الحي القيوم" . وقال لي : لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص شيء على الخير . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أما إنه قد صدّقك وهو كذّوب تعلم من تحاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟" قال : لا، قال : "ذاك شيطان" . وفي مسند الذاريي أبي محمد قال الشعبي قال عبد الله بن مسعود : لقي رجلاً من أصحاب عبد الله صلى الله عليه وسلم وجلاً من الجنّ فصاره فصرعه الإنسي، فقال له الإنسي : إني لأراك ضليلاً فحييتك كأن فؤيدك فؤيدنا كلب فكذلك أتم معشر الجن، أم أنت من بينهم كملك؟ قال : لا والله إني منهم لضليع ولكن ما ودّني الثانية فإن صرعتني علمتكم شيئاً ينفعكم، قال نعم، فصرعه، قال :

(١) الضمير في «كاتبنا» راجع إلى الصحابة . قال القسطلاني : «وكان الأصل أن يقول "كما" لكنه على طريق الالتفات، وقيل هو مودع من كلام بعض رواة» .

فقرأ آية الكرسي: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ؟ قال: نعم؛ قال: فإنك لا تقرأها في بيت إلا خرج منه الشيطان له خبج تخبج الحمار ثم لا يدخله حتى يصبح. أخرجه أبو نعيم عن أبي عاصم الثقفى عن الشعبي. وذكره أبو عبيدة في غريب حديث عمر حدثناه أبو معاوية عن أبي عاصم الثقفى عن الشعبي عن عبد الله قال: قيل لعبد الله: أهو عمر؟ فقال: ما عسى أن يكون إلا عمرا. قال أبو محمد الدرايمى: الضليل: الدقيق، والشحيت: المهزول، والفضيلج: جيد الأضلاع، والخبج: الرجز. وقال أبو عبيدة: الخبج: الضراط، وهو الخبج أيضا بالحاء. وفي الترمذى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ حم - المؤمن - إلى إليه المصير وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح" قال: حديث غريب. وقال أبو عبد الله الترمذى الحكيم: وروى أن المؤمنين قدبوا إلى المحافظة على قراءتها دبر كل صلاة. عن أنس رفع الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أرسل الله إلى موسى عليه السلام من داوم على قراءة آية الكرسي دبر كل صلاة أعطيته فوق ما أعطى الشاكركين وأجر النبيين وأعمال الصديقين وبسطت عليه يميني بالرحمة ولم يمنعه أن أدخله الجنة إلا أن يأتيه ملك الموت" قال موسى عليه السلام: يا رب من سمع بهذا لا يداوم عليه؟ قال: "إني لا أعطيه من عبادي إلا لنبي أو صديق أو رجل أحببه أو رجل أريد قتله في سبيل". ومن أبي بن كعب قال قال الله تعالى: "يا موسى من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة أعطيته ثواب الأنبياء" قال أبو عبد الله: معناه عندي أعطيته ثواب عمل الأنبياء، فأما ثواب النبوة فليس لأحد إلا للأنبياء. وهذه الآية تضمنت التوحيد والصفات العلوية وهي: محسون كلمة، وفي كل كلمة محسون بركة، وهي تعدل ثلث القرآن، وورد بذلك الحديث، ذكره ابن عطية. و«الله» مبتدأ، و«لا إله» مبتدأ ثان وخبره محذوف تقديره معبود أو موجود. و«إلا هو» بدل من موضع لا إله. وقيل: «الله لا إله إلا هو» ابتداء وخبر، وهو مرفوع محمول على المعنى، أى ما إله إلا هو، ويجوز في غير القرآن لا إله إلا إياه، نصب على (١) في الأصول: «... أعطيت ثواب الشاكركين» والتصويب من تخلف «والرأفة» في تفسير آية الكرسي. (٢) في ٥٥: أجه.

الاستثناء . قال أبو ذر في حديثه الطويل : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آية لقوله
الله عليك من القرآن أعظم ؟ فقال : « الله لا إله إلا هو لمضى للقيوم » . وقال ابن عباس :
أشرف آية في القرآن آية الكرسي . قال بعض العلماء : لأنه يكرر فيها اسم الله تعالى بين مضمرة
وتظاهر ثمان عشرة مرة .

(الحى القيوم) نعت لله عز وجل ، وإن شئت قلت بدلا من « هو » ، وإن
شئت كان خبرا بعد خبر ، وإن شئت على إضمار مبتدأ . ويجوز في غير القرآن التنبه على
الملاح . و « الحى » اسم من أسماء الحسنى يسمى به ، ويقال : إنه اسم الله تعالى للأعظم .
ويقال : إن عيسى ابن مريم عليه السلام كان إذا أراد أن يحيى الموتى يدعو بهذا المعنى :
يا حى يا قيوم . ويقال : إن أصف بن برخيا لما أراد أن يأتى برش بقيقس إلى سليمان دعا بقوله
يا حى يا قيوم . ويقال : إن بنى إسرائيل سألوا موسى عن اسم الله الأعظم فقال لهم : يا حيا
شرا حيا ، يعنى يا حى يا قيوم . ويقال : هو دعاء أهل البحر إذا خافوا الترق يدعون به . قال
الطبرى عن قوم : إنه يقال حى قيوم كما وصف نفسه ، ويسلم ذلك بدون أن ينظر فيه . وقيل :
سمى نفسه حيا لصفه الأمور مصاريها وتقديره الأشياء مقاديرها . وقال قتادة : الحى الذى
لا يموت . وقال السدى : المراد بالحى الباقي . قال لبيد :

فَإِنَّمَا تَرَى الْيَوْمَ أَصْبَحْتُ سَالِمًا • فَلَسْتُ بِأَحْيَا مِنْ كَلَابٍ وَجَفَرٍ

وقد قيل : إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم . (القيوم) من قام ، أى القائم بتدبير
ما خلق ، عن قتادة . معناه القائم على كل نفس بما كسبت حتى يحاسبها
بعملها ، من حيث هو عالم بها لا يخفى عليه شئ منها . وقال ابن عباس : معناه الذى لا يحول
ولا يول ، قال أمية بن أبى الصلت :

لَمْ تُخْلَقِ السَّمَاءُ وَالْجَوْمُ • وَالشَّمْسُ مَعَهَا قَرَّ قَوْمُ
قُدْرَةِ مَهْمِينَ قِيَوْمُ • وَالْمَشْرِ وَالْجَنَّةِ وَالْتِمِ
• إِلَّا لِأَمْرِ شَأْنِهِ عَظَمُ •

قال البيهقي : ورأيت في « عبود التفسير » لإسماعيل الضرير في تفسير القيوم قال : ويقال هو الذي لا ينام ؛ وكأنه أخذه من قوله عز وجل عفيه في آية الكرسي : « لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ » . وقال الكلبي : القيوم الذي لا يبدى له ؛ ذكره أبو بكر الأنباري . وأصل قيوم قيوم اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فادغمت الأولى في الثانية بعد قلب الواو ياء ؛ ولا يكون قيوم فعولا ؛ لأنه من الواو فكان يكون قووما . وقرا ابن مسعود وعلقمة والأعشى والنخعي « الحى القيام » بالألف ، وروى ذلك عن عمر . ولا خلاف بين أهل اللغة في أن القيوم أعرف عند العرب وإصح بناء وأثبت علة . والقيام مقول عن القوام إلى القيام ، صرف عن الفعل إلى الفاعل ، كما قيل للصواع الصياغ ؛ قال الشاعر :

إن ذا العرش للذي يرزقنا هـ س وحى عليهم قيوم^(١)

ثم تنى عز وجل أن تأخذه سنة ولا نوم . والسنة : النعاس في قول الجبيع . والنعاس ما كان من العين فإذا صار في القلب صار نوما ؛ قال عدي بن الرقاع يصف امرأة بختور النظر :

وسنان أفضده النعاس فرتقت هـ في عينه سنة وليس بنائم

وتفرق المفضل بينهما فقال : السنة من الرأس ، والنعاس في العين ، والنوم في القلب . وقال ابن زيد : الوسنان الذي يقوم من النوم وهو لا يعقل ، حتى ربما جرد السيف على أهله . قال ابن عطية : وهذا الذي قاله ابن زيد فيه نظر ، وليس ذلك بمفهوم من كلام العرب . وقال السدي : السنة : ربح النوم الذي يأخذ في الوجه فينص الإنسان .

قلت : وبالجمله فهو فتور يترى الإنسان ولا يفقد معه عقله . والمراد بهذه الآية أن الله تعالى لا يتركه خلل ولا يلحقه ملل بحال من الأحوال . والأصل في سنة وسنة حذفت الواو

(١) في الأصول : « لا يدل له » والتصويب من اللسان . (٢) في ج : الخلق .

(٣) هذا البيت في وصف ظي ، وقيل هذا البيت :

لولا الحياء وإن رأيت هـ فيه الشيب ثورت أم القاسم

وكانها وسط التبداء عارفا هـ عينه أحمر من جلد جاسم

(٤) روى النوم في منيه : خالها .

كما حذفت من بين . والنوم هو المستغل الذي يزول معه التقن في حق البشر . والواو للمطف و « لا » تؤكد .

قلت : والناس يذكرون في هذا الباب عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي عن موسى على المنبر قال : ^(١) وقع في قص موسى هل ينال الله جل ثناؤه فأرسل الله إليه ملكاً فأرآه ثلاثاً ثم أعطاه قارورين في كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما قال فجعل ينال وتكاد يداه يتقيان ثم يستيقظ فينقى أحدهما عن الأخرى حتى نام نومة فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان — قال — ضرب الله مثلاً أن لو كان ينال لم تمسك السماء والأرض ^(٢) ^(٣) ولا يصح هذا الحديث، ضعفه غير واحد منهم البيهقي .

قوله تعالى : (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) أى بالملك فهو مالك الجميع وربّه . وجاءت العبارة بـ«ما» وإن كان في الجملة من يعقل من حيث المراد الجملة والموجود . قال الطبري : نزلت هذه الآية لما قال الكفار : ما نعبد أوثاناً إلا ليقربونا إلى الله زلفى .

قوله تعالى : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) «مَنْ» رفع لا ابتداء و «ذا» خبره و «الذي» نعت لـ«ذا» ، وإن ثبت بدل ، ولا يجوز أن تكون «ذا» زائدة كما زيدت مع «ما» لأن «ما» مبهمة فزيدت «ذا» معها لشبهها بها . وتقرر في هذه الآية أن الله باذن لمن يشاء في الشفاعة ، وهم الأنبياء والعلماء والمجاهدون والملائكة وغيرهم ممن أكرمهم وشرفهم الله ، ثم لا يشفعون إلا لمن أرتضى ، كما قال : «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى» قال ابن عطية : والذي يظهر أن العلماء والصالحين يشفعون فيمن لم يصل إلى النار وهو بين المترئين ، أو وصل ولكن له أعمال صالحة . وفي البخاري في «باب بقية من أبواب الرؤية» : إن المؤمنين يقولون : ربنا إن إخواننا كانوا يصلّون معنا ويصومون معنا . وهذه شفاعة فيمن يقرب أمره ، وكما يشفع الطفل المحبّس على باب الجنة ^(٤) . وهذا إما هو في قربانهم ومعارفهم . وإن الأنبياء يشفعون فيمن

(١) الذي في كتب الله أن الفصل من باب «فرح» .

(٢) في ابن عطية : تمسك . وفي «ج» ز : تمسك . (٣) راجع ج ١١ ص ٢٨١

(٤) المهيكل . : الاذن بالأرض . وفي الحديث «إن السقط يظل عبيطاً على باب الجنة» قال ابن الأثير :

المهيكل . (بالمروركة) : الخشب المستطيل . الذي . وقيل : هو الخشب استطاع طلبة لا استطاع إمامه

حصل في النار من عصاة أهمهم بذنوب دون قُرْبى ولا معرفة إلا بنفس الإيمان ، ثم تبقى شفاعاة أرحم الراحمين في المستغرقين [في الخطايا و] الذنوب الذين لم تعمل فيهم شفاعاة الأنبياء . وأما شفاعاة محمد صلى الله عليه وسلم في تمجيد الحساب فخاصة له .

قلت : قد بين مسلم في صحيحه كيفية الشفاعاة بيانا شافيا ، وكأنه رحمه الله لم يقرأه وأن الشافعين يدخلون النار ويُخرجون منها أناسا استوجبوا العذاب ؛ فكل هذا لا يعد أن يكون لثنتين شفاعتان : شفاعاة فيمن لم يصل إلى النار ، وشفاعة فيمن وصل إليها ودخلها ؛ أجازنا الله منها . فذكر من حديث أبي سعيد الخدري : " ثم يُضرب الجسر على جهنم ويُحَل الشفاعاة ويقولون اللهم سلم سلم — قيل : يا رسول الله وما الجسر ؟ قال : دَحَض مَرَلَةٌ فيها خطاطيف وكتلاب وحسكة تكون تحتها شويكة يقال لها السعدان فيمز المؤمنون كطرف العين والبرق والكلاب والكلاب وكأجويد الخيل والركاب فتأجج مسلم ومخدوش ومرسل ومكدوس في نار جهنم حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشدّ مناشدة لله في استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار ، يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون ، فيقال لهم أخرجوا من عرقم ، فتعمر صوره على النار فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نصف سائيه وإلى ركبتيه ثم يقولون ربنا ما بقي فيها أحد من أمرتنا به ، فيقول عز وجل أريجوا فن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحدًا ممن أمرتنا به ، ثم يقول أريجوا

- (١) في ٥ - (٢) قال النووي : هو بشرى « دحض » ودال مفتوحة والهاء ساكنة ، و « مَرَلَةٌ » بفتح الميم وفي الزاوي لثان الفتح والكسر ، والحض والمرة بمعنى واحد وهو الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر .
(٣) الحسكة (بالفتح بك) : واحدة الحسك وهو يات له مرة حشة تعلق بأصواف السم يجعل من الحديد على مثاله ، وهو آلات المسكر يلقى حوله لتنتب في وصل من يدوشها من الخيل والناس العاذرين له . والسعدان منته مهول الأرض وهو من أغلب مرامى الإبل مادام رطبا .
(٤) الركاب : الإبل التي يبارطها ، ولا واحد لها من قطعا .
(٥) مخدوش مرسل أي مجروح مطلق من القيود .
(٦) مكدوس أي مدفوع في جهنم . قال ابن الأثير : وتكسر الإسمان إذا دفع من رواته فسقط . ويرى بالثين المعجمة من الكرش وهو السوق الشديد ، والفرود والجرح أيضا .

من وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأنجزوه، فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نفرقها أحدا من أمرنا به، ثم يقول أرجعوا فن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأنجزوه، فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرا — وكان أبو سعيد يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فافرقوا إن شئتم «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَبْصُغْهَا وَرُفِيتَ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا» — «يقول الله تعالى: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرجم الراحين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حُمًا» وذكر الحديث. وذكر من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم: «فاقول يا رب أئذن لي فimen قال لا إله إلا الله قال ليس ذلك لك — أو قال ليس ذلك إليك — وعزني وكبريائي وعظمتي [وجبريائي] لأخرجن من قال لا إله إلا الله». وذكر من حديث أبي هريرة عنه عليه الصلاة والسلام: «حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج رحمة من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله تعالى أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله فيعرفونهم في النار يعرفونهم بأثر السجود تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود» الحديث بطوله.

قلت: فدلّت هذه الأحاديث على أن شفاعة المؤمنين وغيرهم إنما هي لمن دخل النار وحصل فيها، أجارتها الله منها! وقول ابن عطية: «من لم يصل أو وصل» يحتمل أن يكون أخذه من أحاديث أخرى، والله أعلم. وقد نخرج ابن ماجه في سننه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُصَفُّ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُفُوفًا — وقال ابن نعيم أهل الجنة — فيمتر الرجل من أهل النار على الرجل فيقول يا فلان أما تذكر يوم استسقيت فسقيتك شربة؟ قال فيشفع له ويمر الرجل على الرجل فيقول أما تذكر يوم تأوذك طهورا؟ فيشفع له — قال ابن نعيم — ويقول يا فلان أما تذكر يوم بعتني لحاجة كذا وكذا فذهبت لك؟ فيشفع له».

(١) راجع ج ٥ ص ١٩٤ (٢) الم (بضم الحاء، وضع الميم الأول المخفضة): التميم، الواحدة حنة كطيلة. (٣) في «روبو».

وأما شفاعات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فاختلف فيها ؛ فقبل ثلاث ، وقيل اثنتان ،
وقيل : خمس ، يأتي بيانها في « سبحان » إبت شاء الله تعالى . وقد أثبتنا عليها في كتاب
« التذكرة » والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ الضميران عائدان على كل من يعقل ممن
تضمنته قوله : « لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » . وقال مجاهد : « مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ »
الدنيا وما خَلْفَهُمُ الآخرة . قال ابن عطية : وكل هذا صحيح في نفسه لا بأس به ؛ لأن ما بين
اليد هو كل ما تقدم الإنسان ، وما خلفه هو كل ما يأتي بعده ؛ ونحو قول مجاهد قال
السدي وغيره .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ العلم هنا بمعنى المعلوم ، أي
ولا يحيطون بشيء من معلوماته ؛ وهذا كقول الخضر لموسى عليه السلام حين قر العصفور
في البحر : ما قصص على وعلمك من علم الله إلا كما قصص هذا العصفور من هذا البحر .
فهذا وما شاكله راجع إلى المعلومات ؛ لأن علم الله سبحانه وتعالى الذي هو صفة ذاته
لا يتبعض . ومعنى الآية لا معلوم لأحد إلا ما شاء الله أن يعلمه .

قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ذكر ابن عساكر في تاريخه عن علي
رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الكرسي لؤلؤة والقلم لؤلؤة وطول
القلم مائة سنة وطول الكرسي حيث لا يعلمه إلا الله » . وروى حماد بن سلمة عن حاصم بن
بهثة - وهو حاصم بن أبي النجود - عن زبدر بن حبيش عن ابن مسعود قال : بين كل سمانين
مسيرة خمسمائة عام وبين السماء السابعة وبين الكرسي خمسمائة عام ، وبين الكرسي وبين العرش
مسيرة خمسمائة عام ، والعرش فوق السماء والعه فوق العرش يعلم ما أتم فيه وعليه . يقال ،
كُرسي وكُرسي والجمع الكراسي . وقال ابن عباس : كرسية علمه . ورجحه الطبري ، قال :
ومنه الكرامة التي تضم العلم ؛ ومنه قيل للعلماء : الكراسي ؛ لأنهم المتعمد عليهم ؛ كما
يقال : أولاد الأرض .

قال الشاعر :

يَخْفَ بهم بَيْضُ الْوُجُوهِ وَغَضَبُهُ * كَرَّاسِي بِالْأَحْدَاثِ حِينَ تُتَوَّبُ

أى علماء بمجوات الأمور . وقيل : كُرْسِيَّ قدرته التى يمسك بها السموات والأرض ، كما يقول : اجعل لهذا الحائط كرسيا ، أى ما يعمده . وهذا قريب من قول ابن عباس فى قوله « وَبَسَّحَ كُرْسِيَّهُ » قال البيهقى : وروينا عن ابن مسعود وصعيد بن جبير عن ابن عباس^(١) فى قوله « وَسَّعَ كُرْسِيَهُ » قال : علمه . وسائر الروايات عن ابن عباس وغيره تدل على أن المراد به الكرسي المشهور مع العرش . وروى إسرائيل عن السدى عن أبى مالك فى قوله « وَسَّعَ كُرْسِيَهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » قال : إن الصخرة التى عليها الأرض السابعة ومتبى الخلق على أرجائها ، عليها أربعة من الملائكة لكل واحد منهم أربعة وجوه : وجه إنسان ووجه أمد ووجه نور ووجه نسر ؛ فهم قيام عليها قد أحاطوا بالأرضين والسموات ، ورؤسهم تحت الكرسي والكرسي تحت العرش والله واضح كرسبه فوق العرش . قال البيهقى : فى هذا إشارة إلى كرسين : أحدهما تحت العرش ، والآخر موضوع على العرش . وفى رواية أسباط عن السدى عن أبى مالك ، وعن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة الحمدانى عن ابن عباس ، وعن مرة الممدانى عن ابن مسعود عن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله « وَسَّعَ كُرْسِيَهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » فإن السموات والأرض فى جوف الكرسي والكرسي بين يدى العرش . وأرباب الإلحاد يحملونها على عظم الملك وجلالة السلطان ، وينكرون وجود العرش والكرسي وليس بشئ . وأهل الحق يميزونهما ؛ إذ فى قدرة الله متسع فيجب الإيمان بذلك . قال أبو موسى الأشعرى : الكرسي موضع القدمين وله أطيط كأطيط الرجل^(٢) . قال البيهقى : قد رويانا أيضا فى هذا عن ابن عباس وذكرنا أن مناه فيا يرى أنه موضوع من العرش موضع القدمين من السرير ، وليس فيه إثبات المكان لله تعالى . وعن ابن جبريلة عن أبيه قال : لما قدم جعفر من الحبشة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أعجب شئ رأيت » ؟ قال : رأيت امرأة على رأسها منكل طعام فتر فارس فأخذوا فقتلت فجمع

(١) ليس فى جوابه عن ابن مسعود . (٢) كذا فى ب ر هاشم . وفى : هـ و إ وجود : الرجل . والأطيط الرجل لا الرجل كفى الله . (٣) كذا فى جوب ، وأخذاه : روى به وأطارة .

طعامها ، ثم التفت إليه فقالت له : ويل لك يوم يضع الملك كرسيه فيأخذ للظلمون من الظالم ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تصديقاً لقولها : « لا قُدْسُ أُمَّةٌ — أو كيف قدس أمة — لا يأخذ ضِعْفُهَا حَقَّهُ من شديدها » . قال ابن عطية : في قول أبي موسى « الكرسي موضع القدمين » يريد هو من عرش الرحمن كوضع القدمين من أسرة الملوك ، فهو مخلوق عظيم بين يدي العرش نسبتاً إليه كنسبة الكرسي إلى سرير الملك . وقال الحسن ابن أبي الحسن : الكرسي هو العرش نفسه ؛ وهذا ليس بمريض ، والذي تقتضيه الأحاديث أن الكرسي مخلوق بين يدي العرش والعرش أعظم منه . وروى أبو إدريس الخولاني عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله ، أي ما أنزل عليك أعظم ؟ قال : « آية الكرسي » — ثم قال — يا أبا ذر ما السموات السبع مع الكرسي إلا خلفة ملقاة في أرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الخلفة . أخرجه الأجرى وأبو حاتم البستي في صحيح مسنده والبيهقي وذكر أنه صحيح . وقال مجاهد : ما السموات والأرض في الكرسي إلا بمنزلة حلقة ملقاة في أرض فلاة . وهذه الآية منبئة عن عظيم مخلوقات الله تعالى ، ويستفاد من ذلك عظم قدرة الله عز وجل إذ لا يؤدُّه حفظ هذا الأمر العظيم .

و(يَتَوَدُّهُ) معناه يُثِقُّلُهُ ؛ يقال : آدنى الشيء ، بمعنى أثقلته وتحملت منه المشقة ، وبهنا فسر اللفظة ابن عباس والحسن وقسادة وغيرهم . قال الزجاج : يفائز أن تكون المائدة لله عز وجل ، وبما أن تكون للكرسي ؛ وإذا كانت للكرسي فهو من أمر الله تعالى . و(العلي) يراد به ملو القدير والمتبركة لا ملو المكان ؛ لأن الله منزّه عن التحيز . وحكى الطبري عن قوم أنهم قالوا : هو العلي من خلقه بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه . قال ابن عطية : وهذا قول جهل بمجسمين ، وكان الوجه ألا يُحْكِي . وعن عبد الرحمن بن قُرْطُ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به سمع تسبيحاً في السموات العلى : سبحان الله العلي الأعلى سبحانه وتعالى . والعلي والعالِي : الظاهر الغالب للأشياء ؛ وقول العرب : علا فلان أي غلبه وفهره ؛ قال الشاعر :

فَلَسَا قَلَوْنَا وَأَسْتَوَيْنَا عَلَيْهِمْ * تَرَكْنَاهُمْ صَرَخَى لِنَسِيرِ وَكَاسِيرِ

ومنه قوله تعالى : « إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ » . و (التَّعْظِيمُ) صفة بمعنى عظيم القدر والخطر والشرف ، لا على معنى عظم الأجرام . وحكى الطبري عن قوم أن العظيم معناه الممّعة ، كما يقال : المتيق بمعنى المتقى ، وأنشد بيت الأعشى :

فَكَانَ الْحَمْرَ الْعَيْقَى مِنَ الْإِمْرِ • غَيْطٌ تَمْزُجَةٌ بِمَاءٍ زَلَالٍ^(٢)

وحكى عن قوم أنهم أنكروا ذلك وقالوا : لو كان بمعنى مُعْظَم لوجب ألا يكون عظيما قبل أن يخلق الخلق وبعد فناءهم ؛ إذ لا معْظَم له حينئذ .

قوله تعالى : لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ قَمَّنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^(٢٤١)

قوله تعالى : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) . فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) الدين في هذه الآية المعتد والمُتَّخَذُ بقرينة قوله : (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) . والإكراه الذي في الأحكام من الإيمان والبيع والهبات وضربها ليس هذا موضعه ، وإنما يجيء في تفسير قوله : « إِلَّا مِنْ أَكْرَهٍ » . وقرأ أبو عبد الرحمن : « قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » وكذا روى عن الحسن والشعبي ؛ يقال : رَشَدَ يَرْشُدُ رُشْدًا ، وَرَشَدَ يَرْشُدُ رَشْدًا ؛ إذا بلغ ما يُحِبُّ . وغَوَى ضِدُّهُ ؛ عن النحاس . وحكى ابن عطية من أبي عبد الرحمن السلمي أنه قرأ « الرشاد » بالألف . وروى عن الحسن أيضا (الرُّشْدُ) بضم الراء والشين . (الْغَيِّ) مصدر من غَوَى يَقْوَى إذا ضَلَّ في معتقده أو رأى ؛ ولا يقال الغي في الضلال على الإطلاق .

(١) راجع ١٣ ص ٢٤٨ (٢) الإلفظ ضرب من الأشربة : فارسي حزيب .

(٣) راجع ١٠ ص ١٨٠

الثانية - اختلف العلماء في [معنى] هذه الآية على ستة أقوال :

(الأول) قيل إنها مفسوخة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أكره العرب على دين الإسلام وقاطعهم ولم يرض منهم إلا بالإسلام ؛ قاله سليمان بن موسى ، قال : فسختها « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ » . وروى هذا عن ابن مسعود وكثير من المفسرين .

(الثاني) ليست بمفسوخة وإنما نزلت في أهل الكتاب خاصة ، وأنهم لا يكرهون على الإسلام إذا أتوا الجزية ، والذين يكرهون أهل الأوثان فلا يقبل منهم إلا الإسلام فهم الذين نزل فيهم « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ » . هذا قول الشعبي وقسادة والحسن والضحاك . والحجة لهذا القول ما رواه زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية : اسلمي أيتها العجوز تسلمي ، إن الله بث عجا بالحق . قالت : أنا عجوز كبيرة والموت إلى قريب ! فقال عمر : اللهم أشهد ، وتلا « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » .

(الثالث) ما رواه أبو داود عن ابن عباس قال : نزلت هذه في الأنصار ، كانت تكون المرأة مقلاتاً فجعل على نفسها إن عاش لما ولد أن تهود ؛ فلما أبليت بنو النضير كان فيهم كثير من أبناء الأنصار فقالوا : لاندع أبناءنا ! فأنزل الله تعالى : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » . قال أبو داود : والفلات التي لا يبش لها ولد . في رواية : وإنما قلنا ما قلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن عليه ، وأما إذا جاء الله بالإسلام فنكرهم عليه فنزلت : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » من شاء التحق بهم ومن شاء دخل في الإسلام . وهذا قول سعيد ابن جبيرة والشعبي ومجاهد إلا أنه قال : كان سبب كونهم في بني النضير الاسترضاع . قال النحاس : قول ابن عباس في هذه الآية أولى الأقوال لصحة إسنادها ، وأن مثله لا يؤخذ بالرأى .

(الرابع) قال السدي : نزلت الآية في رجل من الأنصار يقال له أبو حصين كان له أبنان ، فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت ، فلما أرادوا الخروج أتاهم أبنا الحصين فدعواهم إلى النصرانية فتنصروا ومضوا معهم إلى الشام ، فأتى أبوهما رسول الله صلى الله عليه وسلم مشتكين أمرهما ، ورغب في أن يعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من ردهما فنزلت : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ »

ولم يؤمر يومئذ بقتال أهل الكتاب ، وقال : « أبعدهما الله هما أول من كفر » ! فوجد أبو الحصين في نفسه على النبي صلى الله عليه وسلم حين لم يبعث في طلبهما فأنزل الله جل ثناؤه « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِئَاثًا بِحُجَّتِهِمْ » ، الآية ثم إنه نسخ ^(١) « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » فأمر بقتال أهل الكتاب في سورة « براءة » . والصحيح في سبب قوله تعالى : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ » حديث الزبير مع جاره الأنصاري في السقي ، على ما يأتي في « النساء » بيانه إن شاء الله تعالى . وقيل : معناها لا تقولوا لمن أسلم تحت السيف مجبرا مكرها ، وهو القول الخاطئ . وقول سادس ، وهو أنها وردت في السبي متى كانوا من أهل الكتاب لم يعبروا إذا كانوا أكرارا ، وإن كانوا أجوسا صفارا أو أكرارا أو وثنيين فإنهم يعبرون على الإسلام ؛ لأن من سباهم لا يضع بهم مع كونهم وثنيين ؛ ألا ترى أنه لا تؤكل ذبائحهم ولا توطأ نسائهم ، ويدنون بأكل الميتة والتجاسات وغيرها ، ويستفدوهم المالك لم يستمر عليه الانتفاع بهم من جهة الملك بفازله الإيجاب . ونحو هذا روى ابن القاسم عن مالك . وأما أنهب فإنه قال : هم على دين من سباهم ، فإذا امتنعوا أجبروا على الإسلام ، والصغار لا دين لهم فلذلك أجبروا على الدخول في دين الإسلام لئلا يذهبوا إلى دين باطل . فأما سائر أنواع الكفر متى بذلوا الجزية لم نكرهم على الإسلام سواء كانوا عربا أم عجميا قريشا أو غيرهم . وسيأتي بيان هذا وما للعامة في الجزية ومن قبل منه في « براءة » ^(٢) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « لَقَدْ يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ » جزم بالشرط . والطاغوت مؤنثة من طغى يَطْغَى . — وحكى الطبري يَطْغُو — إذا جاوز الحد بزيادة عليه . ووزنه فُعُولت ، ومذهب سيويه أنه اسم مذكر مفرد كأنه اسم جنس يقع للقليل والكثير . ومذهب أبي علي أنه مصدر كَرِهَوْتُ وَجَبَرْتُ ، وهو يوصف به الواحد والجمع ، وقلت لانه إلى موضع العين وعيه موضع اللام بكسبه وجذب ، فقلت الواو ألفا لتحركها وتحرك ما قبلها فقلت طاغوت ، واختار هذا القول النحاس . وقيل : أصل طاغوت في اللغة مأخوذة من الطغيان يؤدى معناه من غير اشتقاق ، كما قيل : لأل من اللؤلؤ . وقال المبرد : هو جمع . وقال ابن عطية : وذلك (١) داجع به ص ٢٦٦ (٢) داجع به ص ١٠٩ (٣) في سببه رواه وإن كانوا أصنافا لم يعبروا

مرودود . قال الجوهرى : والطاغوت الكاهن والشيطان وكل رأس فى الضلال ، وقد يكون واحدا قال الله تعالى : « يُرِيدُونَ أَن يُتَّخَذُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ » .^(١)
وقد يكون جمعا قال الله تعالى : « أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ » والجمع الطواغيت . « وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ » عطف . « قَعِدَ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى » جواب الشرط ، وجمع الوثقى الوثقى مثل الفضلى والفضل ، فالوثقى فعل من الوثاقة ، وهذه الآية تشبيه . واختلفت عبارة المفسرين فى الشئ المشبه به ، فقال مجاهد : العروة الإيمان . وقال السدى : الإسلام . وقال ابن عباس وسعيد بن جبیر والضحاك : لا إله إلا الله ؛ وهذه عبارات ترجع إلى معنى واحد . ثم قال : « لَا أَنْفِصَامَ لَهَا » قال مجاهد : أى لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، أى لا يزيل عنهم آسم الإيمان حتى يكفروا . والانفصام : الانكسار من غير يتونة . والقسم : كسر بيتونة ؛ وفى صحيح الحديث « فَيُفْصِمُ عَنْهُ الْوَحْيُ وَإِنْ جِئْتَهُ لِيَتَفَصَّدَ عَرَقًا » أى يقطع . قال الجوهرى : نعم الشئ كسر من غير أن يبين ، تقول : فصمت فاقصم ؛ قال الله تعالى « لَا أَنْفِصَامَ لَهَا » ونقصم مثله ؛ قال ذو الرمة يذكر غزالا يشبهه بتملج فقة :

كَأَنَّهُ دُمْلَجٌ مِنْ فِقْصَةٍ تَبَهُ^(٢) . فى ملعب من جوارى الحى مفصوم

وإنما جعله مفصوما لثبته وأمنائه إذا نام . ولم يقل « مفصوم » بالثاقف فيكون باثنا بائين . وأقصم المطر : أقلع . وأقصمت عنه الحى . ولما كان الكفر بالطاغوت والإيمان بالله مما ينطق به اللسان ويعتقده القلب حسن فى الصفات (تبيح) من أجل النطق (طليم) من أجل المتعد .

قوله تعالى : اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ^(٣)
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ^(٤)
أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(٥)

(١) راجع ج ٢ ص ٢٦٣ - ٢٨٠ (٢) فى ج ٢ : الإسلام . . (٣) التبه (بفتح اللام والياء) كل شئ مسطوح من إنسان تشبه ولم يتدأ به . تبه التزال وهو قائم بطلع فقة قد طرح ونسي . وفى الله برهان : طبرى .

قوله تعالى : (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا) الْوَلِيُّ فَعِيلٌ بمعنى فاعل ، قال الخطاطبي : الولي الناصر ينصر عباده المؤمنين ؛ قال الله عز وجل : (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) ، وقال : « ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ مَوْتِي الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْتَ لَهُمْ » . قال قتادة : الظلمات الضلالة ، والنور الهدى ، وبمعناه قال الضحاك والزيج . وقال مجاهد وعبد بن أبي لُبابة : قوله « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا » نزلت في قوم آمنوا بيسى فلما جاء عهد صلى الله عليه وسلم كفروا به ، فذلك إخراجهم من النور إلى الظلمات . قال ابن عطية : فكان هذا المعتقد أحرز نورا في المعتقد خرج منه إلى الظلمات ، ولفظ الآية مستثنى عن هذا التخصيص ، بل هو مترتب في كل أمة كافرة آمن بعضها كالعرب ، وفلك أن من آمن منهم فاقه ولله إخرجه من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، ومن كفر بعد وجود النبي صلى الله عليه وسلم الباعى المرسل فشيطنه مغويه ، كأنه أخرجه من الإيمان إذ هو [معه] معه وأهل الدخول فيه ، وحكم عليهم بالدخول في النار لكفرهم ؛ عدلا منه ، لا يسأل عما يفعل . وقرا الحسن « أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » بمعنى الشياطين ، والله أعلم .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٢٥﴾

فيه مسائلان :

الأولى — قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ) هذه ألف التوقيف ، وفي الكلام معنى التسجب ، أى أعجبوا له . وقال الفراء : « أَلَمْ تَرَ » بمعنى هل رأيت ، أى هل رأيت الذي حاج إبراهيم ، وهل رأيت الذي مر على قرية ، وهو الثمود بن كوش بن كنان بن سام بن نوح ملك زمانه

(١) راجع ١٦٧ ص ٢٢٤ (٢) في «دوب و» ما بين عليه : فكان هذا القول .

(٣) الزيادة في جـ - (٤) أى الصحيح - (٥) غرود يضم التون ويقال المعجزة - غلاب .

وصاحب النار والبؤسة ! هذا قول ابن عباس ومجاهد وقَتادة والزبيد والسدي وابن خنقار وزيد بن أسلم وغيرهم . وكان إهلاكه لما قصد المحاربة مع الله تعالى بأن فتح الله تعالى عليه بابا من البؤس فستروا عين الشمس وأكلوا عسكره ولم يتركوا إلا العظام ، ودخلت واحدة منها في دماغه فاكلته حتى صارت مثل الفأرة ؛ فكان أعز الناس عنده بعد ذلك من يضرب دماغه بمطرقة عتيقة لذلك ، ففي في البلاء أربعين يوما . قال ابن جرير : هو أول ملك في الأرض . قال ابن عطية : وهذا مردود . وقال قتادة : هو أول من تجبر وهو صاحب الصرح بيابل . وقيل : إنه ملك الدنيا بأجمعها وهو أحد الكافرين ، والآخرة مختصر . وقيل : إن الذي حاج إبراهيم نمرود بن فاخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام ؛ حكى جيمه ابن عطية . وحكى السهيلي أنه النمرود بن كوش بن كتمان بن حام بن نوح وكان ملكا على السواد وكان ملكه الضحاك الذي يصرف بالازدهاق واسمه بيوراسب بن أندراست وكان ملك الأقاليمة كلها ، وهو الذي قتله أنريدون بن أنشان ؛ وفيه يقول حبيب :

وكانه الضحاك من فتكاته في العالمين وأنت أنريدون

وكان الضحاك طاغيا جبارا ودام ملكه ألف عام فإذ ذكروا . وهو أول من صلب وأول من قطع الأيدي والأرجل ، وللمنروذ ابن لصلبه يسمى « كوشا » أو نحو هذا الاسم ، وله ابن يسمى نمرود الأصغر . وكان ملك نمرود الأصغر عاما واحدا ، وكان ملك نمرود الأكبر أربعائة عام فإذ ذكروا . وفي قصص هذه الحاجة روايتان : إحداهما أنهم خرجوا إلى عبيد لهم فدخل إبراهيم على أصنامهم فكسرها ؛ فلما رجعوا قال لهم : أتعبدون ما تعبدون ؟ فقالوا : فن تعبد ؟ قال : أعبد [ربي] الذي يحيي ويميت . وقال بعضهم : إن نمرود كان يمتكر الطعام فكانوا إذا احتاجوا إلى الطعام يشترونه منه ، فإذا دخلوا عليه سجدوا له ؛ فدخل إبراهيم فلم يسجد له ، فقال : مالك لا تسجد لي ! قال : أنا لا أسجد إلا لربي . فقال له نمرود : من ربك ! قال إبراهيم : ربي الذي يحيي ويميت . وذو كزيد بن أسلم أن النمرود هذا قعد

(١) كما في الأصول جميعا ، والصحيح ما في الطبري : فيها الله طبع فأكلت لحومهم وشربت دماهم .

(٢) في البحر : « ملك الأرض مزمان سليمان وذو القرنين وكافران نمرود ويختصر » .

(٣) أي سواد العراق ، وفي : السودان . (٤) ابن أوصد أبو تمام . (٥) من « وجه » .

بأمر الناس بالبيعة^(١) ، فكلما جاء قوم يقول : من ربكم والحكم ؟ فيقولون أنت ؛ فيقول
 ميروهم . وجاء إبراهيم عليه السلام يبتار فقال له : من ربك وإليك ؟ قال إبراهيم : ربي الذي
 يحيي ويميت ؛ فلما سمعها عمروذ قال : أنا أحيي وأميت ؛ فأرضه إبراهيم بأمر الشمس فبهت
 الذي كفر ، وقال لا تميروهم ؛ فرجع إبراهيم إلى أهله دون شيء ، فز على كئيب ومل كالدينق
 فقال في نفسه : لو ملأت غرأرتي من هذا فلذا دخلت به فرج الصبيان حتى أنظر لهم ،
 فذهب بذلك فلما بلغ منزله فرح الصبيان وجعلوا يلعبون فوق الفراتين وثام هو من الإتياء ؛
 فقالت أمراؤه : لو صنعتُ له طعاما يحده حاضرا إذا انتبه ، فتحت إحدى التمراتين
 فوجدت أحسن ما يكون من الحواري^(٢) فخبزته ، فلما قام وضحته بين يديه فقال : من أين
 هذا ؟ قالت : من البقيق الذي سُقْتُ . فلم إبراهيم أن الله تعالى يسر له ذلك .

قلت : وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي صالح قال : انطلق إبراهيم النبي عليه السلام
 يبتار فلم يقدر على الطعام ، فز بهيمة^(٣) حراء فأخذ منها ثم رجع إلى أهله فقالوا : ما هذا ؟
 فقال : حنطة حراء ، ففتحوها فوجدوها حنطة حراء ، قال : وكان إذا زرع منها شيئا جاء منبله
 من أصلها إلى فرعها حيا متراكبا . وقال الزبيعي وغيره في هذا القصص : إن التمرود لما قال
 أنا أحيي وأميت أحضر رجلين قتل أحدهما وأرسل الآخر فقال : قد أحييت هذا وأميت
 هذا ؛ فلما ردت عليه بأمر الشمس بهت . وروى في الخبر : أن الله تعالى قال وعزق وجلال
 لا تقوم الساعة حتى آتي بالشمس من المغرب ليعلم أني أنا القادر على ذلك . ثم أمر عمروذ
 بإبراهيم فألقي في النار ، وهكذا عادة الجارية فإنهم إذا عورضوا بشيء وعجزوا عن الحجة اشتغلوا
 بالمقوبة ، فأنجاه الله من النار ، على ما يأتي . وقال السدي : إنه لما خرج إبراهيم من النار أدخلوه
 على الملك — ولم يكن قبل ذلك دخل عليه — فكله وقال له : من ربك ؟ فقال : ربي

(١) الحرة : جلب الطعام ، قاله ابن سيده .

(٢) الحواري (صم الحاء) وتشد يد الراوي (الرام) : البقيق الأبيض ، وهو لباب الدينق وأجوده وأخضره .

(٣) البهية (بكر السين) : دمل خشن ليس بالذائق الناعم . والبهية (بفتح السين) قبض الحرة ، وهو

(٤) راجع ١١٠ ص ٢٠٣

ما قلنا من الأرض .

الذي يحيى ويميت . قال القموزي : أنا أحيى وأميت ، وأنا آخذ أربعة نفر فأدخلهم بيتاً ولا يطعمون شيئاً ولا يسقون حتى إذا جاعوا أخرجتهم فأطعمتهم اشبعين فحيا وتركوا اثنين فماتا ، فعارضه إبراهيم بالشمس فنبئت . وذكر الأصوليون في هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام لما وصف ربه تعالى بما هو صفة له من الإحياء والإماتة لكنه أسره له حقيقة ومجاز ، قصد إبراهيم عليه السلام إلى الحقيقة ، وقزع تمرد إلى المجاز وموّه على قومه ؛ فسلم له إبراهيم تسليم الجدل وانتقل معه من المثال وجاءه بأمر لا مجاز فيه (فنبئت الذي كَفَرُ) أى انقطعت حجته ولم يمكنه أن يقول أنا الآتي بها من المشرق ؛ لأن قوى الأبواب يكتبونه .

الثانية - هذه الآية تدل على جواز تسمية الكافر ملكاً إذا آناه الله الملك والعز والرفعة في الدنيا ، وتدل على إثبات المناظرة والمجادلة وإقامة الحجّة . وفي القرآن والسنة من هذا كثير لمن تأمله ؛ قال الله تعالى : « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (١١) . « إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ » (١٢) أى من حجة . وقد وصف خصومة إبراهيم عليه السلام قومه وردّه عليهم في عبادة الأوثان كما في سورة « الأنبياء » وغيرها . وقال في قصة نوح عليه السلام : « قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَانَا » (١٣) الآيات إلى قوله : « وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ » . وكذلك مجادلة موسى مع فرعون إلى غير ذلك من الآي . فهو كله تعليم من الله عز وجل السؤال والجواب والمجادلة في الدين ؛ لأنه لا يظهر الفرق بين الحق والباطل إلا بظهور حجة الحق ودحض حجة الباطل . وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب وبأهلهم بعد الحجّة ، على ما يأتي بيانه في « آل عمران » . وتحتاج آدم وموسى فغلبه آدم بالحجة . وتجادل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم السقيفة وتدافعوا وتقرروا وتناظروا حتى صدر الحق في أهله ، وتناظروا بعد مبايعة أبي بكر في أهل الردّة ، إلى غير ذلك مما يكثر إيرادها . وفي قول الله عز وجل : « قُلْ تَحَابُّونَ فَيَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ » (١٤) دليل على أن الاحتجاج بالعلم مباح شائع لمن تدبر . قال المنزني صاحب الشافعي : ومن حق المناظرة أن يراد بها الله عز وجل وأن يقبل منها ما تبين . وقالوا :

- (١) راجع ج ٢ ص ٧٤ (٢) راجع ج ٨ ص ٣٦١ (٣) راجع ج ٩ ص ٢٧
(٤) المباحة اللامعة . ومعنى المباحة أن يجتمع القوم إذا اجتمعوا في شيء فيقولوا هذه لغة الله على العالم ما راجع ج ٤ ص ١٠٣ ، و ١٠٨ (٥) في ب : ظهر . (٦) في د : سأل .

لا تصح المناظرة ويظهر الحق بين المتناظرين حتى يكونوا متقاربين أو متساويين في مرتبة واحدة من الدين والعقل والفهم والإنصاف، وإلا فهو مرأى ومكارة .

قراءات — قرأ عل بن أبي طالب « ألم تر » بجزم الراء، والجهور بحريكها، وحذفت الياء للجزم . « أَنْ أَنَاهُ اللَّهُ الْمَلَكُ » في موضع نصب، أى لأن أَنَاهُ الله، أو من أجل أن أَنَاهُ الله . وقرأ جمهور القراء « أَنْ أُحْيِي » بطرح الألف التى بعد النون من « أَنَاهُ » فى الوصل، وأثبتها نافع وابن أبى أويس، إذا لقبتها همزة فى كل القرآن إلا فى قوله تعالى : « إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ ^(١) » فإنه بطرحها فى هذا الموضع مثل سائر القراء لقلة ذلك، فإنه لم يقع منه فى القرآن إلا ثلاثة مواضع أجراها مجرى ما ليس بعده همزة لقلة حذف الألف فى الوصل . قال النحويون : ضمير المتكلم الاسم فى الهمزة والنون، فإذا قلت : أنا أو أنه فالألف والماء لبيان الحركة فى الوقف، فإذا اتصلت الكلمة ببنى سقطتا؛ لأن الشيء الذى تتصل به الكلمة يقوم مقام الألف، فلا يقال : أنا فلت بآيات الألف إلا شاذاً فى الشعر كما قال الشاعر :

أنا سيف المشيرة فأعرفونى • محمداً قد تذرّيت السناما ^(٢)

قال النحاس : على أن نافعاً قد أثبت الألف فقرأ « أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ » ولا وجه له . قال مكى : والألف زائدة عند البصريين ، والاسم المضمر عندهم الهمزة والنون وزيدت الألف للتفوية . وقيل : زيدت للوقف لتظهر حركة النون : والاسم عند الكوفيين « أنا » بكالها ، فنافع فى إثبات الألف على قولهم على الأصل ، وإنما حذف الألف من حذفها تخفيفاً، ولأن الفتحة تدل عليها . قال الجوهري : وأما قولهم « أنا » فهو اسم مكنى وهو للتكلم وحده ، وإنما بُني على الفتح فرقا بينه وبين « أن » التى هى حرف ماصب للفتل، والألف الأخيرة إنما هى لبيان الحركة فى الوقف، فإن توسطت الكلام سقطت إلّا فى لغة رديئة كما قال : أنا سيف المشيرة فأعرفونى • محمداً قد تذرّيت السناما ^(٣)

(١) راجع ج ٧ ص ٣٣٦ (٢) كذا فى جواهر دق وب وجه : حمدا . مرة ، وجهما . أخرى . وفى الحاج : وجهما . (٣) فى السمين : إثبات الألف وحلا وبقا لنة نيم . (٤) فى ابن حلية : أنا شيخ . وجهد هو ابن مجلد

وَبَيَّتَ الرَّجُلَ وَبَيَّتَ إِذَا انْقَطَعَ وَسَكَتَ مُتَحَيِّراً عَنِ النَّعَاسِ وَغِيَرِهِ . وَقَالَ الطَّبْرِيُّ :
وَحَكَى عَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ فِي هَذَا الْمَعْنَى « بَيَّتَ » بَفَتْحِ الْبَاءِ وَالْمَاءِ . قَالَ ابْنُ جَنَى قَرَأَ
أَبُو حَيَّوَةَ : « فَبَيَّتَ الَّذِي كَفَرَ » بَفَتْحِ الْبَاءِ وَضَمِّ الْمَاءِ ، وَهِيَ لَفَةٌ فِي « بَيَّتَ » بِكَسْرِ الْمَاءِ .
قَالَ : وَقَرَأَ ابْنُ السَّمِيعِ « فَبَيَّتَ » بَفَتْحِ الْبَاءِ وَالْمَاءِ عَلَى مَعْنَى فَبَيَّتَ إِبْرَاهِيمُ الَّذِي كَفَرَ ؛
فَالَّذِي فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ . قَالَ : وَقَدْ يَمْوِزُ أَنْ يَكُونَ بَيَّتَ بَفَتْحِهَا لَفَةً فِي بَيَّتَ . قَالَ :
وَحَكَى أَبُو الْحَسَنِ الْأَخْفَشُ قِرَاءَةَ « فَبَيَّتَ » بِكَسْرِ الْمَاءِ كَقِرْقٍ وَدَشٍ . قَالَ : وَالْأَكْثَرُونَ
بِالضَّمِّ فِي الْمَاءِ . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ : وَقَدْ تَأَوَّلَ قَوْمٌ فِي قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ « فَبَيَّتَ » بَفَتْحِهَا أَنَّهُ
بِمَعْنَى سَبَّ وَقَذْفٍ ، وَأَنْ نَمْرُودَ هُوَ الَّذِي سَبَّ حِينَ انْقَطَعَ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ حِيلَةٌ .

قوله تعالى : أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ
أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَرِهْتَ لَيْتَ
قَالَ لَيْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَيْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى
طُعَمَانِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ
إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ
اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

قوله تعالى : (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) « أَوْ » للمطفح حلا
على المعنى والتقدير عند الكسائي والقزاع : هل رأيت كالذي حاج إبراهيم في ربه ، أو كالذي
مر على قرية . وقال المبرد : المعنى ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ، ألم تر من هو ! كالذي
مر على قرية . فاضرب في الكلام من هو . وقرأ أبو سفيان بن حسين « أَوْ كَالَّذِي مَرَّ » بَفَتْحِ
الْوَاوِ ، وَهِيَ وَالْوُطْفُ دَخَلَ عَلَيْهَا أَلْفُ الْاسْتِفْهَامِ الَّذِي مَعْنَاهُ التَّحْقِيرُ . وَتَبَيَّنَ الْقَرْيَةُ قَرْيَةُ
لَا جَبَاتِ النَّاسِ فَيُحْيِيهَا مِنْ قَوْلِهِمْ : قَرَيْتُ الْمَاءَ أَيَّ جَعَلْتُهُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ . قَالَ مِلْهَانُ بْنُ بَرْدَةَ
(١) فِي جَوْهَرِ حَقْرِقٍ : أَيَّ انْقَطَعَتْ خَازِنَتِي مِنْ عَصِيَّةٍ مَرَقَ فِي الرَّجُلِ . (٢) رَاجِعْ ١٠٩٦

وناجية بن كعب وقتادة وابن عباس والزبيع وعكرمة والضماك الذي مر على القرية هو عزير.
وقال وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد بن عمير وعبد الله بن بكر بن مضر: هو إرياء وكان نبيا.
وقال ابن إسحاق: إرياء هو الخضر، وحكاه النقاش عن وهب بن منبه. قال ابن عطية:
وهذا كما تراه، إلا أن يكون اسما وافق اسما لأن الخضر معاصر لموسى، وهذا الذي مر على
القرية هو بعده بزمان من سبط هارون فإيا رواه وهب بن منبه.

قلت: إن كان الخضر هو إرميا فلا يبعد أن يكون هو؛ لأن الخضر لم يزل حيا من
وقت موسى حتى الآن على الصحيح في ذلك، على ما يأتي بيانه في سورة الكهف^(١). وإن
كان مات قبل هذه القصة فقول ابن عطية صحيح، والله أعلم. وحكى النحاس ومكي عن مجاهد
أنه رجل من بني إسرائيل غير مسمى. قال النقاش: ويقال هو غلام لوط عليه السلام. وحكى
السبيل عن القتيبي هو شيئا في أحد قولي. والذي أحيها بعد خرابها كوشك الفارسي. والقرية
المذكورة هي بيت المقدس في قول وهب بن منبه وقتادة والزبيع بن أنس وغيرهم. قال: وكان مقبلا
من مصر وطماحه وشرابه المذكوران^(٢) [أخضر^(٣) وعنب^(٤) وركوة من نحر. وقيل من عصير. وقيل:
قلعة ماء هي شرابه. والذي أدخل بيت المقدس حيثئذ مختصر وكان واليا على العراق للهراسب
ثم لئسانس بن هراسب والد اسبندياد. وحكى النقاش: أن قوما قالوا: هي المؤفكة^(٥). وقال
ابن عباس في رواية أبي صالح: إن مختصر غزا بني إسرائيل فسبي منهم أناسا كثيرة فجاء بهم بهم
عزير بن شريحيا وكان من علماء بني إسرائيل فجاء بهم إلى بابل، ففرج ذات يوم في حاجة له
إلى ديرهم فقل على شاطئ القجلة، فقتل تحت ظل شجرة وهو على حمار له، فربط الحمار تحت
ظل الشجرة ثم طاف بالقرية فلم يرها ساكا وهي خاوية على عروشها فقال: أي يحيي هذه
الله بعد موتها. وقيل: إنها القرية التي خرج منها الألوف حذر الموت؛ قاله ابن زيد. وعن
أبي زيد أيضا أن القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم الألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا
مر رجل عليهم وهم عظام^(٦) [غرة^(٧) تلوح فوقهم ينظر فقال: أي يحيي هذه الله بعد موتها؟ فأما الله

(١) راجع ج ١١ ص ١٦ (٢) الزيادة من ب و ج و د و هـ. هـ (٣) الزكاة: إله صغير من جنه
يشرب فيه الماء، ودلو صغيرة. (٤) في ب: استدياد. (٥) من هـ. (٦) (٧)

مائة عام . قال : ابن عطية : وهذا القول من ابن زيد مناقض لألفاظ الآية ، إذ الآية إنما تضمنت قرية خاوية لا أنيس فيها ، والإشارة بهذه إنما هي إلى القرية . وإجاءها إنما هو بالهارة ووجود البناء والسكان . وقال وهب بن منبه وقادة والضحاك والربيع وعكرمة : القرية بيت المقدس لما نزل بها مختصر الباب . وفي الحديث الطويل حين أحدثت بنو إسرائيل الأحداث وقف إرمياؤه أو عزير على القسرية وهي كاتل العظم وسط بيت المقدس ، لأن مختصر أمر جنده بنقل التراب إليه حتى جعله كالجلجل ، ورأى إرمياؤه البيوت قد سقطت حيطانها على سقفها فقال : أتى يحيى هذه أمة بعد موتها .

والعرش : سقف البيت . وكل ما يتبأ ليطل أو يكنى فهو عرش ؛ ومنه عرش النابية ؛ ومنه قوله تعالى : « وَيَمَّا يَبْرِشُونَ ^(١) » قال السدي : يقول هي ساقطة على سقفها ، أي سقطت السقف ثم سقطت الحيطان عليها ؛ واختاره الطبري . وقال غير السدي : معناه خاوية من الناس والبيوت قائمة ؛ وخاوية معناها خالية ؛ وأصل الخواء الخلو ؛ يقال : خوت الدار وخوت تخوي خواء (ممدود) وخوياً : أقوت ، وكذلك إذا سقطت ؛ ومنه قوله تعالى : « فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ^(٢) » أي خالية ، ويقال ساقطة ؛ كما يقال : « فتهى خاوية على عروشها ^(٣) » أي ساقطة على سقفها . والخواء الجوع لخلو البطن من الغذاء . وخوت المرأة وخوت أيضا خوى أي خلا جوفها عند الولادة . وخوت لها تخوية إذا عملت لها خوية تأكلها وهي طعام . والتخوي البطن البهل من الأرض على فيل . وخوى البعير إذا جاف بطنه من الأرض في بركه ، وكذلك الرجل في مجوده .

قوله تعالى : (أَلَمْ يَحْيَ هَذِهِ أُمَّةً بَعْدَ مَوْتِهَا) معناه من أي طريق وبأي سبب ، وظاهر اللفظ السؤال عن إحياء القرية بهارة وسكان ، كما يقال الآن في المسكن الخربة التي يبعد أن تتمر وتسكن : ألى تتمر هذه بعد خرابها . فكان هذا تلفظ من الواقف المتبرع على مدينته التي عهد فيها أهله وأحبته . وضرب له المثل في نفسه بما هو أعظم مما سأل عنه ، والمثال الذي ضرب له في نفسه يتمثل أن يكون على أن سؤاله إنما كان على إحياء الموتى من بني آدم ،

(١) راجع ج ١٠ ص ١٢٣ (٢) راجع ج ١٢ ص ٢١٦ (٣) كذا في كل الأصول والصواب قال ، إذ هذه آية . راجع ج ١٢ ص ٧٣

أَيُّ أَتَى بِحَيِّ اللَّهِ مَوْتَاهَا . وقد حكى الطبري عن بعضهم أنه قال : كان هذا القول شكاً في قدرة الله تعالى على الإحياء؛ فلذلك ضرب له المثل في نفسه . قال ابن عطية : وليس يدخل شك في قدرة الله تعالى على إحياء قرية يجلب العمارة إليها وإنما يتصور الشك [من جاهل] في الوجه الآخر، والصواب ألا يتأول في الآية شك .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا اللَّهُ فَمِائَةٌ عَامٌ ﴾ « مائة » نصب على الظرف . والمعنى : السنة ؛ يقال : يسنون عوم وهو تأكيد للأول ؛ كما يقال : بينهم شغل شاغل . وقال السباج :

• من مرة أعوام السنين العوم •

وهو في التقدير جمع عام ، إلا أنه لا يفرد بالذکر؛ لأنه ليس باسم وإنما هو توصيد، قاله الجوهري . وقال النقاش : العام مصدر كالعوم؛ سُمِّيَ به هذا القدر من الزمان لأنها هومة من الشمس في الفلك . واليوم كالسبع ؛ وقال الله تعالى : ﴿ كُلُّ فِي فَلَكَ يَسْبِغُونَ ﴾^(١) . قال ابن عطية : هذا بمعنى قول النقاش ، والمعنى على هذا كالقول والقال، وظاهر هذه الإمامة أنها بإخراج الروح من الجسد . وروى في قصص هذه الآية أن الله تعالى بعث لها ملكاً من الملوك يعمرها ويحذ في ذلك حتى كان كمال عمارتها عند بعث القائل . وقد قيل : إنه لما مضى لموته سبعون سنة أرسل الله ملكاً من ملوك فارس عظيمًا يقال له « كوشك » فعمرها في ثلاثين سنة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ معناه أحياه ، وقد تقدم الكلام فيه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ﴾ اختلف في القائل له « كم لبثت » ؛ فقيل : الله جل وعز ؛ ولم يقل له إن كنت صادقاً كما قال للأنكحة على ما تقدم . وقيل : سمع هاتفا من السماء يقول له ذلك . وقيل : خاطبه جبريل . وقيل : نوح . وقيل : رجل مؤمن ممن شاهدته من قومه عند موته وعمر إلى حين إحيائه فقال له : كم لبثت .

قلت : والأظهر أن القائل هو الله تعالى ؛ لقوله « وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِئُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْشًا » والله أعلم . وقرأ أهل الكوفة « كَمْ لَبِثْتَ » بإدغام التاء في الهمزة لقربها منها .

(١) زيادة عن ابن عطية . (٢) راجع ١١٦ ص ٢٨٢ (٣) في ٥ ؛ ويصداً . (٤) في ٥ ؛ من اليد .

في المنهج . فإن خرجهما من طرف اللسان وأصول الثنايا وفي أنهما مهمومتان^(١) . قال الثعالب : والإظهار أحسن لتباين مخرج الخاء من مخرج التاء . ويقال : كان هذا السؤال بواسطة الملك على جهة التورية . و « كم » في موضع نصب على الظرف .

(قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) إِنَّمَا قَالَ هَذَا عَلَى مَا عِنْدَهُ وَفِي ظَنِّهِ، وَعَلَى هَذَا لَا يَكُونُ كَذَابًا فِيمَا أَخْبَرَهُ بِهِ؛ وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ « قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ » وَإِنَّمَا لَبِثُوا ثَلَاثًا سِتَّةَ سِنِينَ - عَلَى مَا بَيَّنَّا - وَلَمْ يَكُونُوا كَاذِبِينَ لِأَنَّهُمْ أَخْبَرُوا عَمَّا عِنْدَهُمْ، كَأَنَّهُمْ قَالُوا: الَّذِي عِنْدَنَا وَفِي ظَنُونَا إِنَّمَا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. وَنَظِيرُهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قِصَّةِ ذِي الْيَلْقَيْنِ: « لَمْ أَفْصُرْ وَلَمْ أَتَّسْ ». وَمَنِ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ كَذَبٌ عَلَى مَعْنَى وَجُودِ حَقِيقَةِ الْكَذِبِ فِيهِ وَلَكِنَّهُ لَا مُوَآخَذَةَ بِهِ، وَإِلَّا فَالْكَذِبُ الْإِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ وَذَلِكَ لَا يَخْتَلِفُ بِالْعِلْمِ وَالْجَهْلِ، وَهَذَا بَيِّنٌ فِي نَظَرِ الْأَصُولِ. فَعَلَى هَذَا يَجُوزُ أَنْ يَقَالَ: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يُعْصَمُونَ عَنِ الْإِخْبَارِ عَنِ الشَّيْءِ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْ قَصْدٍ، كَمَا لَا يُعْصَمُونَ عَنِ السُّهُوِّ وَالنِّسْيَانِ. فَهَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَالتَّوَلُّوا الْأَوَّلَ أَحْسَنَ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ وَتَقَادَرَهُ الرَّبِيعُ: أَمَاتَهُ اللَّهُ عُذُودَ يَوْمٍ ثُمَّ بُعِثَ قَبْلَ الْغُرُوبِ فَظَنَّ هَذَا الْيَوْمَ وَاحِدًا فَقَالَ: لَبِثْتُ يَوْمًا، ثُمَّ رَأَى بَقِيَّةَ مِنَ الشَّمْسِ نَفْثَى أَنْ يَكُونَ كَذَابًا فَقَالَ: أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. فَقِيلَ: بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ؛ وَرَأَى مِنْ عِمَارَةِ الْقَرْيَةِ وَاشْتَبَاهَا وَهِيَ مِثْلُهَا مَا دَلَّهُ عَلَى ذَلِكَ.

• قوله تعالى : ﴿ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ ﴾ وهو الثين الذي جمعه من أشجار القرية التي مر عليها . ﴿ وَشَرَابِكَ لَمْ يَصْنَعْ ﴾ وقرأ ابن مسعود « وهذا طعامك وشرباك لم يصنعه » . وقرأ طلحة بن مصرف وغيره « وانظر لطعامك وشرباك لمائة سنة » . وقرأ الجمهور « يا ثبات الماه في الرصل إلا الأخوان ^(٢) »

(١) الحروف المهموزة عشرة أحرف يجمعها قولك «حـه شخص فسكت» قال ابن جني : فأما حروف الخمس فإن الصوت الذي يخرج منها قس وليس من صوت الصدر وإنما يخرج من صلا وليس كغنى الزاى والطاء .

(۲) واجع ج ۱۰ ص ۲۷۴

(٢) عبارة البحر : ونقرأ حزة والكسائي بحذف الهمزة في الوصل على أنها هاء السكت ونقرأ باقي السبعة بابتداء الهمزة في الوصل والوقف - في ب و ه وج : الأخوان ، وصوابه الأخوين .

فإنهما يحدفانها، ولا خلاف أن الوقف عليها بالماء . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف أيضا «لم يَسَنَّ»
«وانظر» أدغم التاء في السين؛ فعمل قراءة الجمهور الماء أصلية، وحذفت الضمة للجزم، ويكون
«يَسَنَّة» من السَّنة أى لم تُتِمَّ السَّنُون . قال الجوهري : ويقال سُنُون، والسَّنة واحدة
السَّنين، وفي نقصانها قولان : أحدهما الواو، والآخر الهاء . وأصلها سَنَّة مثل الجَنَّة؛ لأنه
من سَنَّتِ النخلة وتَسَنَّتْ إذا أنت عليها السَّنُون . ونخلة سَنَاء أى تحمل سنة ولا تحمل
أخرى؛ وسَنَاء أيضا، قال بعض الأنصار :^(١)

فَلَيْسَتْ بِسَنَاءٍ وَلَا رُجِيَّةٍ • وَلَكِنْ عَرَّيَا فِي السَّيْنِ الْجَوَائِحِ^(٢)

وَأَسَنَّتْ عِنْدَ بَنِي فَلَانٍ أَقْتِ عِنْدَهُمْ ، وَتَسَنَّتْ أَيْضًا • وَاسْتَاجَرَتْ مَسَانَةً وَمُسَانَةً أَيْضًا •
وفي التصغير سُنِّيَّة وسُنِّيَّة . قال النحاس : من قرأ «لم يَسَنَّ» و«انظر» قال في التصغير :
سُنِّيَّة وحذفت الألف للجزم، ويقف على الماء فيقول : «لم يَسَنَّة» تكون الماء لبيان الحركة .
قال المهدوي : ويجوز أن يكون أصله من سَانَيْتَه مَسَانَةً، أى عاملته سَنَّة بعد سنة، أو من
سَانَتْ [بالماء]؛ فإن كان من سَانَيْت فأصله يَسَنَّى فسقطت الألف للجزم؛ وأصله من الواو
بدليل قولهم سَنَوَات والماء فيه للسكت، وإن كان من سَانَتْ فالماء لام الفعل؛ وأصل سنة
على هذا سَنَّة . وعلى القول الأول سَنَوَة . وقيل : هو من أَسَنَّ الماء إذا تَغَيَّرَ، وكان يجب
أن يكون على هذا يَتَسَنَّ . أبو عمرو الشيباني : هو من قوله «حَمَّاءُ مَسَنُون» فالعنى
لم يتَغَيَّر . الزجاج، ليس كذلك؛ لأن قوله «مَسَنُون» ليس معناه متَغَيَّر وإنما معناه مصبوب
على سَنَّة الأرض . قال المهدوي : وأصله على قول الشيباني «يَسَنَنَّ» فأبدلت إحدى

(١) هوسيد بن الصامت (عن الحسن) . (٢) نخلة رجمية (كهمزة وتشدة الجيم، وكلاما نسب
قادر) وتزججها أن تضم أعادها (عراجينا) إل صفاتها ثم سَنَّة بالخصوص فلا يقضها الرفع . وقيل : هو أن يوضع
للشوك حوالى الأضداد فلا يصل إليها أكل فلا تسرق، وذلك إذا كانت غريبة طريفة . (٣) الرايا (واحدتها
حرمة) : النخلة يرمي صاحبها رجلا محتاجا . (٤) في الأصول : «المواحل» والتصويب من كتب اللغة .
وقبل هذا البيت :

أَدْنَى وَمَا دُنَى طَلْحٍ بِمَنْسَرَمٍ • وَلَكِنْ عَلَى التَّمِ الْجِلَادِ الْقِرَارِ

والبوايح : السُّنُونُ الشَّدَادَاتُ تَجْعَلُ الْمَالَ • (٥) من هـ . (٦) راجع جـ ١ ص ٨١

التوئين ياء كراهة التضعيف فصار يتنى، ثم سقطت الألف للجزم ودخلت الهاء للسكت .
وقال مجاهد : « لم يقبته » لم يتن . قال النحاس : أجمع ما قيل فيه أنه من السنة، أى لم تغيره
السنة . ويحتمل أن يكون من السنة وهى الجذب ؛ ومنه قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَخَذْنَا
آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ^(١) » وقوله عليه السلام : « اللَّهُمَّ اجعلها عليهم سِنِينَ كَسَنِي يَوْسُفَ » .
يقال منه : أسنت القوم أى أجديوا ؛ فيكون المعنى لم يتغير طعامك الفحوط والجذوب ،
أو لم تغيره السنين والأعوام ، أى هو باق على طوارثه وغضارته .

قوله تعالى : (وَأَنْظُرْ إِلَى حَارِثِكَ) قال وهب بن منبه وغيره : وأنظر إلى اتصال عظامه
واحسانه جزا جزا . ويروى أنه أحيا الله كذلك حتى صار عظاما ملتزمة ، ثم كساه لحما
حتى بكل حمارا ، ثم جاءه ملك ففتح فيه الروح فقام الحمار يتنق ، على هذا أكثر المفسرين .
وروى عن الضحاك وهب بن منبه أيضا قالوا : بل قيل له : وأنظر إلى حمارك قائما في مرطبه
لم يصبه شيء مائة عام ؛ وإنما العظام التى نظر إليها عظام نفسه بعد أن أحيا الله منه عينه
ورأسه ، وسائر جسده ميت ، قالوا : وأعمى الله العيون عن إرباء وحماره طول هذه المدة .
قوله تعالى : (وَلِتَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ) قال الفراء : إنما أدخل الواو في قوله « وَلِتَجْعَلَ »
دلالة على أنها شرط لفعل بعده ، معناه « وَلِتَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ » ودلالة على البعث بعد الموت
جعلنا ذلك . وإن ثبت جعلت الواو متحمة زائدة . وقال الأعمش : موضع كونه آية هو
أنه جاء شابا على حاله يوم مات ، فوجد الأبناء والحفدة شيوخا . عكمة : وكان يوم مات ابن
أربعين سنة . وروى عن علي رضوان الله عليه أن عذيرا خرج من أهل وخلف أمراته حاملا ،
وله خمسون سنة فأما الله مائة عام ، ثم بعثه فرجع إلى أهل وهو ابن خمسين سنة وله ولد من
مائة سنة فكان ابنه أكبر منه بخمسين سنة . وروى عن ابن عباس قال : لما أحيا الله عذيرا
وكب حمارة فاتى عثته فأنكر الناس وأنكره ، فوجد في منزله عجوزا عمياء كانت أمة لهم ، خرج
عنهم عذير وهى بنت عشرين سنة ، فقال لها : أهذا منزل عذير ؟ فقالت نعم ! ثم بكى
وقالت : فارقا عذير منذ كذا وكذا سنة ! قال : فانا عذير ، قالت : إن عذيرا فقدناه منذ

مائة سنة . قال : فآله أمانى مائة سنة ثم بئى . قالت : فزير كان مستجاب الدعوة للريض
وماحب البلاء فيبقى ، فادع الله رد على بصرى ، فدعا الله ومسح على عينها بيده فصحت
مكاتها كأنها أنشطت من عقال . قالت : أشهد أنك عزير ! ثم انطلقت إلى ملائكة إسرائيل
وفهم ابن لعزير شيخ ابن مائة وعثمانية وعشرين سنة ، وبنو بنيه شيوخ ، قالت : يا قوم ،
هذا والله عزير ! فأقبل إليه ابنه مع الناس فقال ابنه : كانت لأبى شامة سوداء مثل الحلال
بين كتفيه ، فنظرها فإذا هو عزير . وقيل : جاء وقد هلك كل من عرف ، فكان آية لمن
كان حيا من قومه إذ كانوا موقنين بحاله سمعا . قال ابن عطية : وفي إمامته هذه المدة ثم إحيائه
بعضها أعظم آية ، وأمره كله آية غاب الدهر ، ولا يحتاج إلى تخصيص بعض ذلك دون بعض .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ﴾ قرأ الكوفيون وابن عامر بالزاي
والباقون بالراء ، وروى أبان عن عاصم « نُنْشَرُهَا » بفتح النون وضم الشين والراء ، وكذلك قرأ
ابن عباس والحسن وأبو حنيفة ، فقيل : هما لفتان في الإحياء بمعنى ، كما يقال : رَجَعَ وَرَجَعَتْهُ ،
وغاض الماء وِغَضَتْهُ ، وخيرت البابَ وخَيرَتها ؛ إلا أن المعروف في اللغة أنشأ الله الموتى
فَنَشَرُوا ، أى أحياهم الله فجاءوا ، قال الله تعالى : « ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَنْشُرَهُ » ويكون نشرها مثل نشر
الثوب . نشر الميت ينشرون أي عاش بعد الموت ، قال الأعشى :

حتى يقول الناس مما رأوا • يا عَجَبًا لَبَّتِ النَّاشِرِ

فكان الموت طلى للعظام والأعضاء ، وكان الإحياء وجمع الأعضاء بعضها إلى بعض نشر .
وأما قراءة « نُنْشِزُهَا » بالزاي فصاه نزعها . والنشز : المرتفع من الأرض ، قال :
ترى التعلب الحوتى فيها كأنه • إذا ما علا نشزا حصان مجل

قال مكي : المعنى : أنظر إلى العظام كيف نرفع بعضها على بعض في التركيب للإحياء ،
لأن النشر الارتفاع ، ومنه المرأة النشوز ، ومنه المرتفعة عن موافقة زوجها ، ومنه قوله تعالى :
« وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا »^(١) أى ارفعوا وانضموا . وأيضاً فإن القراءة بالراء بمعنى الإحياء ،
والعظام لا تحيا على الأفراد حتى ينضم بعضها إلى بعض ، والزاي أولى بذلك المعنى ، إذ هو

(١) راجع ١٩ ص ٢١٥

(٢) راجع ١٧ ص ٢٩٦

بمعنى الانضمام دون الإحياء . فالموصوف بالإحياء هو الرجل دون العظام على انفرادها ، ولا يقال : هذا عظم حي ، وإنما المعنى فانظر إلى العظام كيف نفضها من أماكنها من الأرض إلى جسم صاحبها للإحياء . وقرأ النخعي « نَشْرُهَا » بفتح النون وضم الشين والزاي ، وروى ذلك عن ابن عباس وقناة . وقرأ أبي بن كعب « تنشيبها » بالياء .

والكسوة : ما وارى من الثياب ، وثبته اللحم بها . وقد استماره ليد للإسلام فقال :

• حتى اكتسبت من الإسلام سربالا •

وقد تقدم أول السورة .^(٢١)

قوله تعالى : (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) بقطع الألف . وقد روى أن الله جل ذكره أحيا بعضه ثم أراه كيف أحيا باقي جسده . قال قناة : إنه جعل ينظر كيف يوصل بعض عظامه إلى بعض ؛ لأن أول ما خلق الله منه رأسه وقيل له : انظر ، فقال عند ذلك : « أعلم » بقطع الألف ، أى أعلم هذا . وقال الطبري : المعنى فى قوله « فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ » أى لما انضح له عيانا ما كان مستنكرا فى قدرة الله عنده قبل عيانه قال : أعلم . قال ابن عطية : وهذا خطأ ؛ لأنه ألزم ما لا يقتضيه اللفظ ، وفسر على القول الشاذ والاحتمال الضعيف ، وهذا عندى ليس بإقرار بما كان قبل ينكره كما زعم الطبري ، بل هو قول منه الاعتبار ؛ كما يقول الإنسان المؤمن إذا رأى شيئا غريبا من قدرة الله تعالى : لا إله إلا الله ونحو هذا . وقال أبو علي : معناه أعلم هذا الضرب من العلم الذى لم أكن عالمته .

قلت : وقد ذكرنا هذا المعنى عن قناة ، وكذلك قال مكّي رحمه الله ، قال مكّي ، إنه أخبر عن نفسه عند ما عين من قدرة الله تعالى فى إحيائه الموتى ، فتبين ذلك بالمشاهدة ، فآثر أنه يعلم أن الله على كل شيء قدير ، أى أعلم [أنا] هذا الضرب من العلم الذى لم أكن أعلمه على معاينة ؛ وهذا على قراءة من قرأ « أَعْلَمُ » بقطع الألف وهم الأكثر من القراءة . وقرأ حمزة والكسائي بوصل الألف ، ويحتمل وجهين : أحدهما قال له الملك : أعلم ، والآخرون أن

(١) فى الأصول وابن عطية : النابتة المعروفة المشهورة ما أثبتناه ومصدره : • الحديث إذ لم يأتى أبيل •

(٢) راجع ج ١ ص ١٥٣ (٣) فى ج ٤ ب ٤ •

يَتْلُ حَسَهُ مَثَلَةُ الْخَاطَبِ الْأَجْنَبِيِّ الْمُفْضَلِ ، فَالْمَعْنَى فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ لِنَفْسِهِ : أَعْلَى بَأْسِي
هَذَا الْعِلْمُ الْيَقِينُ الَّذِي لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ مَعَانِيَهُ ، وَأَنْشَدَ أَبُو عَلِيٍّ فِي مَثَلِ هَذَا الْمَعْنَى :

- وَدَعَ هَرِيرَةً إِنْ الزَّكْبُ مُرْتَبِلٌ^(١) .
- أَلَمْ تَتَمَيَّضْ عِنَّاكَ لِسَلَةِ أَرْمَدَا .

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ : وَنَاسٌ أَبُو عَلِيٍّ فِي هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

تَذَكَّرْ مِنْ أَيْ وَمَنْ أَيْنَ تُرْبِهِ • يُؤَاوِرُ نَفْسَهُ كَيْدِي الْمَجْمَعَةِ الْأَيْلِ^(٢)

قَالَ مَكِّيٌّ : وَيَعْدُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ أَمْرًا مِنْ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ ، بِالْعِلْمِ ، لِأَنَّهُ قَدْ أَظْهَرَ إِلَيْهِ قُدْرَتَهُ ،
وَأَرَاهُ أَمْرًا أَتَقَنَ صَحْنَهُ وَأَقْوَمَ بِالْقُدْرَةِ فَلَا مَعْنَى لِأَنَّهُ يَأْمُرُهُ اللَّهُ بِعِلْمِ ذَلِكَ ، بَلْ هُوَ يَأْمُرُ نَفْسَهُ
بِذَلِكَ وَهُوَ جَائِزٌ حَسَنٌ . وَفِي حَرْفِ عَبْدِ اللَّهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِالْعِلْمِ عَلَى
مَعْنَى الزَّمِّ هَذَا الْعِلْمُ لِمَا بَابَتْ وَتَيَقَّنَتْ ، وَذَلِكَ أَنَّ فِي حَرْفِهِ : قِيلَ أَعْلَمُ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ مُوَافِقٌ
لِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ « انْظُرْ إِلَى حَمَائِكَ » وَ « انْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ » وَ « وَانْظُرْ إِلَى
الْعِظَامِ » فَكَذَلِكَ وَ « وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ » وَقَدْ كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرُؤُهَا « قِيلَ أَعْلَمُ » وَيَقُولُ
أَوْ خَيْرًا مِنْ إِبْرَاهِيمَ ؟ إِذْ قِيلَ لَهُ : « وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَكِيمٌ » . فَهَذَا بَيِّنٌ أَنَّهُ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ
سُبْحَانَهُ لَهُ لِمَا عَايَنَ مِنَ الْإِحْيَاءِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُنْخِئُ الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ
تُؤْمِنُونَ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَعْلَمَنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ
إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا
وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَكِيمٌ ﴿١٦٠﴾

اختلف الناس في هذا السؤال هل صدر من إبراهيم عن شك أم لا ؟ فقال الجمهور : لم
يكن إبراهيم عليه السلام شاكًا في إحياء الله الموتى قط وإنما طلب المعجزة ، وذلك أن النفوس

(١) البَيَانُ لَا مَعْنَى ، وَجَزَّ الْأَوَّلُ : وَمَنْ تَلَقَّى وَدَاعًا أَيَّهَا الرِّجْلُ . وَالثَّانِي بَعْزُهُ : وَمَعَادُكَ مَا عَادَ السَّلَامُ الْمَسْبُودَ .

(٢) الْمَجْمَعَةُ (بفتح ميمون) : الْقِطْعَةُ الْخُصَّةُ مِنَ الْإِبِلِ ، وَقِيلَ : هِيَ مَا بَيْنَ الثَّلَاثَيْنِ وَالْمِائَةِ . وَدَعَلَ أَبِلٌ

(كَتَفَ) : حَقَّقَ صَلَافَةَ الْإِبِلِ .

مستشفة إلى رؤية ما أخبرت به ، ولهذا قال عليه السلام : "نيس الخبر كالمائة" رواه ابن عباس لم يروه غيره ، قاله أبو عمر . قال الأخفش : لم يرد رؤية القلب وإنما أراد رؤية العين . وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبيرة والربيع : سأل ليزداد يقيناً إلى يقينه . قال ابن عطية : وترجم الطبري في تفسيره فقال : وقال آخرون سأل ذلك ربه ، لأنه شك في قدرة الله تعالى . وأدخل تحت الترجمة عن ابن عباس قال : ما في القرآن آية أرجى عندي منها . وذكر عن عطاء بن أبي رباح أنه قال : دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس فقال : رب أرني كيف تحيي الموتى . وذكر حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "نحن أحق بالشك من إبراهيم" الحديث ، ثم رجع الطبري هذا القول .

قلت : حديث أبي هريرة ن ترجمه البخاري ومسلم عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "نحن أحق بالشك من إبراهيم" إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطعن قلبي ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت التاعى . قال ابن عطية : وما ترجم به الطبري عندي مردود ، وما أدخل تحت الترجمة متأول ، فاما قول ابن عباس : "هي أرجى آية" فمن حيث فيها الإدلال على الله تعالى وسؤال الإحياء في الدنيا وليست مظنة ذلك . ويموز أن يقول : هي أرجى آية لقوله «أو لم تؤمن» أي إن الإيمان كاف لا يحتاج معه إلى تنقيح ويحت . وأما قول عطاء : «دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس» فعناء من حيث المعاني على ما تقدم . وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم : "نحن أحق بالشك من إبراهيم" فعناء أنه لو كان شاكاً لكنا نحن أحق به ونحن لان شك إبراهيم عليه السلام أخرى ألا يشك ، فالحديث مبني على قى الشك عن إبراهيم ، والذي روى فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ذلك محض الإيمان" إنما هو في الخواطر التي لا تثبت ، وأما الشك فهو توقف بين أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر ، وذلك هو المنع عن الخليل عليه السلام . وإحياء الموتى إنما يثبت بالسمع وقد كان إبراهيم عليه السلام أعلم به ، بذلك على ذلك قوله «رَبِّ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ» فالشك يبعد على من

تثبت قدمه في الإيمان فقط فكيف برتبة النبوة والخلافة، والأنبياء معصومون من الكبر ومن الصغار التي فيها رذيلة إجماعاً. وإذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر ألفاظ الآية لم تعط شكاً، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسئول، نحو قولك: كيف علم زيد؟ وكيف تسج التوب؟ ونحو هذا. وبني قلت: كيف توبك؟ وكيف زيد؟ وإنما السؤال عن حال من أحواله. وقد تكون «كيف» خبراً عن شيء شأنه أن يستفهم عنه بكيف، نحو قولك: كيف شئت فكن، ونحو قول البخاري: كيف كان بدء الوحى. و«كيف» في هذه الآية إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء، والإحياء متقرر، ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شيء قد يعبرون عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشيء، يعلم أنها لا تصح، فيلزم من ذلك أن الشيء في نفسه لا يصح؛ مثال ذلك أن يقول مدع: أنا أرفع هذا الجبل، فيقول المكذب له: أرى كيف ترفعه! فهذه طريقة مجاز في العبارة، ومعناها تسليم جدلي، كأنه يقول: افرض أنك ترفعه، فأرى كيف ترفعه! فلما كانت عبارة الخليل عليه السلام بهذا الاشتراك المجازي، خلص الله له ذلك وحمله على أن بين له الحقيقة فقال له: «أولم تؤمن قال يلى» فكل الأمر وتخلص من كل شك، ثم طلق عليه السلام سؤاله بالطمأنينة.

قلت: هذا ما ذكره ابن عطية وهو بالغ، ولا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فإنه كفر، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث. وقد أخبر الله تعالى أن أنبياءه وأوليائه ليس للشيطان عليهم سبيل فقال: «إِنَّ عِبَادِي لَكَ عَالِمُونَ^(١)» وقال العيين: إلا عبادك منهم المخلصين، وإذا لم يكن له عليهم سلطة فكيف يشكهم، وإنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفرقها وإصبال الأعصاب والجلود بعد تمزقها؛ فأراد أن يترقى من علم اليقين إلى علم البقين؛ فنقله: «أرى كيف» طلب مشاهدة الكيفية. وقال بعض أهل الممانى: إنما أراد إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيى القلوب؛ وهذا فاسد.

مردود بما تحقه من البيان ، ذكره الماوردي . وليست الألف في قوله « أَوَلَمْ تُؤْمِن »
 ألف استفهام وإنما هي ألف إعجاب وتقرير كما قال جرير :
 « السَّمُّ خَيْرٌ مِنْ رَكَبِ الْمَطَايَا »
 والواو واو الحال . و « تُؤْمِن » معناه إيماناً مطلقاً ، دخل فيه فضل إحياء الموتى .

(قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي) أى سألتك ليطمئن قلبي بحصول الفرق بين المعلوم برهانا
 والمعلوم عياناً . والطمأنينة : اعتدال وسكون ، فطمأنينة الأعضاء معروفة ، كما قال عليه
 السلام : « ثم أركب حتى تطمئن راحتي » الحديث . وطمأنينة القلب هي أن يسكن فكره
 في الشيء المعتد . والفكر في صورة الإحياء غير محظور ، كما لنا نحن اليوم أن نفكر فيها إذ هي فكر
 فيها غير فأراد التحليل أن يبين فيذهب فكره في صورة الإحياء . وقال الطبري : معنى « ليطمئن
 قلبي » يوقن ، وحكى نحو ذلك عن سعيد بن جبير ، وحكى عنه يزيد بن يقينا ، وقاله إبراهيم
 وقتادة . وقال بعضهم : لأزداد إيماناً مع إيماني . قال ابن عطية : ولا زيادة في هذا المعنى
 تمكن إلا السكون عن الفكر وإلا فاليقين لا يتبعض . وقال السدي وابن جرير أيضاً : أولم
 تؤمن بأنك خليل ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي بالخلقة . وقيل : دعا أن يربه كيف يحبي
 الموتى ليعلم هل تستجاب دعوته ، فقال الله له : أولم تؤمن أني أجيب دعاءك ، قال : بلى
 ولكن ليطمئن قلبي أنك تجيب دعائي .

• واختلف في المحرك له على ذلك ، فقيل : إن الله وعده أن يتخذة خليلاً فأراد آية على
 ذلك ، قاله السائب بن يزيد . وقيل : قول التورود : أنا أحبي وأبيت . وقال الحسن : رأى
 جيفة نصفها في البر توزعها السباع ونصفها في البحر توزعها دواب البحر ، فلما رأى تفزعها
 أحب أن يرى انضمامها فسأل ليطمئن قلبه برؤية كيفية الجمع كما رأى كيفية التفريق ، فقيل له :
 (خُذْ أَرَبَةً مِنَ الطَّيْرِ) قيل : هي الديك والطاووس والحمام والفراب ، ذكر ذلك ابن إسحاق
 عن بعض أهل العلم ، وقاله مجاهد وابن جريج وعطاء بن يسار وابن زيد . وقال ابن عباس :
 مكان الغراب الكركي ، وعنه أيضاً مكان الحمام النسر . فأخذ هذه الطير حسب ما أمر وذكاهما

(١) في جودوب - (٢) في جودوب : فذهب فكرة - بنية الجمع . (٣) في ج : فتسبب .
 (٤) كذا في جودوب وجوزع الصواب كافي التنبؤ والاستنباط ، وفي جود : زيد . (٥) في ه : اغتار .

ثم قطعها قطعا صغارا ، وغلط لحوم البعوض إلى لحوم البعوض مع الدم والريش حتى يكون أعجب ، ثم جعل من ذلك المجموع المختلط جزءا على كل جبل ، ووقف هو من حيث يرى تلك الأجزاء وأمسك رموس الطير في يده ، ثم قال : تمالين بإذن الله ، فطارت تلك الأجزاء وطار الدم إلى الدم والريش إلى الريش حتى التامت مثل ما كانت أولا وبقيت بلا رموس ، ثم كرر النداء بغائه سعيًا ، أى عدّوا على أرجلهم . ولا يقال للطائر : «سعى» إذا طار إلا على التثنية ؛ قاله النحاس . وكان إبراهيم إذا أشار إلى واحد منها بنير رأسه تباعد الطائر ، وإذا أشار إليه برأسه قُرب حتى لقي كل طائر رأسه ، وطارت بإذن الله . وقال الزجاج : المعنى ثم أجعل على كل جبل من كل واحد جزءا . وقرأ أبو بكر عن عاصم وأبو جعفر «جُرْؤًا» على فُعْل . وعن أبي جعفر أيضا «جُرْأ» مشتدة الزاى . الباقون مهموز مخفّف ، وهى لغات ، ومعناه النصيب . (يَا بَيْتَكَ سَعِيًا) نصب على الحال . و (صُرْمُنْ) معناه قطعهم ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وأبو عبيدة وابن الأنبارى ؛ يقال : صار الشيء يصوره أى قطعه ، وقاله ابن إسحاق . وعن أبي الأسود الدؤلى : هو بالسريانية التقطيع ؛ قال توبة بن الحُسَير يصفه :

فلما جذبت الحبل أطلت نُسُوعُه • بأطراف عيدان شديد سيورها
فأدت لى الأسباب حتى يلتئُم • بنهض وقد كاد ارتقأ يصورها

أى يقطعها . والصُّور : القطع . وقال الضحاك وعكرمة وابن عباس فى بعض ما روى عنه : إنها لفظة بالنبطية معناه قَطْعُهم . وقيل : المعنى أَيْلَهُنْ إِلَيْكَ ، أى اضمهنّ وأجمهنّ إليك ؛ يقال : رجل أصور إذا كان مائل العنق . وتقول : إني إليك لأَصُور ، يعنى مشاقا مائلا . وأمرأة صُوراء ، واجمع صور مثل أسود وسُود ؛ قال الشاعر :

الله يسلّم أنّا فى تلقّينا • يوم الفراق إلى جيراننا صُور

فقوله «إِلَيْكَ» على تأويل التقطيع متعلق بـ«حُدْ» ولا حاجة إلى مضمر ، وعلى تأويل الإمالة والضم متعلق بـ«صُرْمُنْ» وفى الكلام متروك : فأَيْلَهُنْ إِلَيْكَ ثم قطعهم . وفيها خمس قراءات : ثتان فى السبع وهما ضم الصاد وكسرها وتخفيف الراء . وقرأ قوم «نصرْمُنْ» بضم الصاد

وشدّ الراء المفتوحة، كأنه يقول فشدهن؛ ومنه صُرّة الدناير . وقرأ قوم « فصرهن » بكسر الصاد وشدّ الراء المفتوحة، ومعناه صيجهن؛ من قولك : صرّ الباب والقلم إذا صوّت به حكاك النقاش . قال ابن جنيّ : هي قراءة غريبة، وذلك أن يفعل بكسر العين في المضاعف للمعدى قليل، وإنا بابا يفعل بضم العين؛ كشدّ يشد ونحوه، لكن قد جاء منه تمّ الحديث يُمسه ويُمّه، وهو الحرب يهرها ويهرها؛ ومنه بيت الأعمش :

ليَعْتَوِرَنَّكَ الْقَوْلُ حَتَّى يَهْرَهُ ^(١)

إلى غير ذلك في حروف قليلة . قال ابن جنيّ : وأما قراءة عكمة بضم الصاد فيحتمل في الراء الضم والفتح والكسر [كشدّ ^(٢)] والوجه ضم الراء من أجل ضخمة الهاء من بعد .

القراءة الخامسة « صرهن » بفتح الصاد وشدّ الراء مكسورة؛ حكاها المهدويّ وغيره عن عكمة، بمعنى فاحسبن؛ من قولهم : صرّ يصرّ إذا حيس؛ ومنه الشاة المَصْرَة . وهنا اعتراض ذكره المساورديّ [وهو ^(٣)] يقال : فكيف أجيب إبراهيم إلى آيات الآخرة دون موسى في قوله « رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ » ؟ فنه جوابان : أحدهما أن ما سألّه موسى لا يصح مع بقاء التكليف، وما سألّه إبراهيم خاص يصح معه غناء التكليف . الثاني أن الأحوال تختلف فيكون الأصح في بعض الأوقات الإجابة، وفي وقت آخر المنع فيما لم يتقدّم فيه إذن . وقال ابن عباس : أمر الله تعالى إبراهيم بهذا قبل أن يولده له وقبل أن يُرَلّ عليه الصحف، والله أعلم .

قوله تعالى : مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَفًا فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ^(٤)

فيه خمس مسائل :

الأولى — لما قص الله سبحانه ما فيه من البراهين، حث على الجهاد، وأعلم أن من جهاد بعد هذا البرهان الذي لا يأتي به إلا نجيّ فله في جهاده الثواب العظيم . روى البستيّ

(١) الذي في الهيوان : ليستبرجك القول حتى تهزه * وتعلم أني منك لست بهرم

(٢) الزيادة من «وب وروان عطية» (٣) من «وب ورو»

(٤) وأصح ٧٧ ص ٢٧٨ (٥) فب : فيه .

في صحيح مسنده عن ابن عمر قال : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 " رب زد أمتي " فنزلت : " مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُمْضَاهُ لَهُ أَجْزَاءُ كَثِيرَةً " ^(١)
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رب زد أمتي " فنزلت : " إِنَّمَا يَوْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِشَيْرِ
 حِسَابٍ " . وهذه الآية لفظها بيان مثال لشرف الثقة في ميل الله وحسنها ، ومنها التحريض
 على ذلك . وفي الكلام حذف مضاف تقديره مثل نفقة الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله
 كمثل حبة . وطريق آخر : مثل الذين ينفقون أموالهم كمثل زارع زرع في الأرض حبة
 فأبنت الحبة سبع سنابل ، يعني أخرجت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، فشبه المتصدق
 بالزارع وشبه الصدقة بالذرة فيعطيه الله بكل صدقة له سبعمائة حسنة ، ثم قال تعالى :
 ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ يعني على سبعمائة ، فيكون مثل المتصدق مثل الزارع ، إن كان
 حاذقاً في عمله ؛ ويكون البذر جيداً وتكون الأرض عامرة يكون الزرع أكثر ؛ فكذلك
 المتصدق إذا كان صالحاً والمال طيباً ويضمه موضعهم فيصير الثواب أكثر ؛ خلافاً لمن
 قال : ليس في الآية تضعيف على سبعمائة ، على ما نبهته إن شاء الله .

الثانية - روى أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف
 رضي الله عنهما ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حث الناس على الصدقة
 حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك جاءه عبد الرحمن بأربعة آلاف فقال : يا رسول الله ،
 كانت لي مائة آلاف فأمسكت لئلا يلى أربعة آلاف ، وأربعة آلاف أقرضتها لربي .
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت " . وقال
 عثمان : يا رسول الله على جهاز من لا جهاز له ؛ فنزلت هذه الآية فيها . وقيل : نزلت في نفقة
 الطلوع . وقيل : نزلت قبل آية الزكاة ثم نسخت بآية الزكاة ، ولا حاجة إلى دعوى النسخ ؛
 لأن الإقاضي في سبيل الله مندوب إليه في كل وقت . وسُئل الله كثيرة وأعظمها الجهاد
 تكون كلمة الله هي العليا .

الثالثة - قوله تعالى : (كَتَلَّ حَبَّةٌ) الحبة اسم جنس لكل ما يزرعه ابن آدم ويقتله ، وأشهر ذلك البرُّ فكثيراً ما يراد بالحَبُّ ؛ ومنه قول المتَّسِّس :
أَلَيْتُ حَبَّ الْعِرَاقِ الذَّهْرَ أَطْعَمَهُ • وَالْحَبُّ يَأْكُلُهُ فِي الْقَرْيَةِ السُّوسُ

وحبة القلب : سويداؤه ، ويقال ثمرته وهو ذاك • والحِبة (بكسر الحاء) : بنور البقول مما ليس بقوت ؛ وفي حديث الشفاعة : " فَيَنْتَوْنَ كَمَا تَنْتَبِ الحِبةُ فِي حِمْلِ السِّلِ " والجمع حِيب • والحِبة (بضم الحاء) ^(١) الحَبُّ ؛ يقال : تَمَّ حُجَّةٌ وَكَرَامَةٌ • وَالْحَبُّ الحِبةُ ، وكذلك الحِيب (بالكسر) • والحِيب أيضاً الحِيب ؛ مَثَلٌ خَذَنَ وَخَدِنَ • وَسَبْلَةٌ فُتْلَةٌ مِنْ أَسْبَلِ الزَّرْعِ إِذَا صَارَ فِيهِ السَّبْلُ ، أَيْ اسْتَرَسَلَ بِالسَّبْلِ كَمَا اسْتَرَسَلَ السَّتْرُ بِالإِسْبَالِ • وَقِيلَ : مَعْنَاهُ صَارَ فِيهِ حَبٌّ مُسْتَوٍ كَمَا اسْتَرَسَلَ بِإِسْبَالِ السَّتْرِ عَلَيْهِ • وَالْجَمْعُ سَبَائِلُ • ثُمَّ قِيلَ : الْمُرَادُ سَبْلُ الدُّخْنِ فَهُوَ الَّذِي يَكُونُ فِي السَّبْلَةِ مِنْ هَذَا الْعَدَدِ •

قلت : هذا ليس بشيء ، فَإِنْ سَبْلُ الدُّخْنِ يَحْيَى فِي السَّبْلَةِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا الْعَدَدِ بَعْضُهُمْ وَأَكْثَرُ ، عَلَى مَا شَاهَدْنَاهُ • قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ : وَقَدْ يَوْجَدُ فِي سَبْلِ الْقَمْحِ مَا فِيهِ مِائَةٌ حَبَّةً ، فَأَمَّا فِي سَائِرِ الْحُبُوبِ فَأَكْثَرُ وَلَكِنْ الْمَثَالُ وَفَعِ هَذَا الْقَدْرُ • وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : إِنْ قَوْلُهُ (فِي كُلِّ سَبْلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ) مَعْنَاهُ إِنْ وَجَدَ ذَلِكَ ، وَإِلَّا فَعَلِيَ أَنْ يَفْرَضَهُ ، ثُمَّ نَقَلَ عَنِ الضَّحَّاكِ أَنَّهُ قَالَ : « فِي كُلِّ سَبْلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ » مَعْنَاهُ كُلُّ سَبْلَةٍ أَنْبَتَتْ مِائَةَ حَبَّةٍ • قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ : بِفَعْلِ الطَّبْرِيِّ قَوْلُ الضَّحَّاكِ نَحْوُ مَا قَالَ ، وَذَلِكَ غَيْرُ لَازِمٍ مِنْ قَوْلِ الضَّحَّاكِ • وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِي : وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ « مِائَةٌ » بِالنَّصْبِ عَلَى تَقْدِيرِ أَنْبَتَتْ مِائَةَ حَبَّةٍ •

قلت : وَقَالَ يَعْقُوبُ الْحَضْرَمِيُّ : وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ « فِي كُلِّ سَبْلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ » عَلَى : أَنْبَتَتْ مِائَةَ حَبَّةٍ ؛ وَكَذَلِكَ قَرَأَ بَعْضُهُمْ « وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ » عَلَى « وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ » ^(٢) وَأَعْتَدْنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابَ جَهَنَّمَ • وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَحِمْزَةُ وَالْكَسَائِيُّ « أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَبَائِلَ » بِإِذْقَامِ التَّاءِ فِي السَّيْنِ ؛ لِأَنَّهُمَا مَهْمُوسَتَانِ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُمَا يَتِمَّاقِبَانِ • وَأَشَدُّ أَبُو عَمْرٍو :

(١) حِمْلُ السِّلِ : مَا يَحْمِلُ مِنَ التَّنَاقُطِ وَالطَّيْنِ • (٢) فِي هـ • (٣) رَاجِعٌ ١٨ ص ٢١١

يَا لَيْتَ إِلَهَ تَبَى السَّلَاةِ (١) • عمرو بن ميمون ثام الثالث

أراد الناس غول السين تاء . الباقون بالإظهار على الأصل لأشبهما كائنان •

الرابعة - ورد القرآن بأن الحسنة في جميع أعمال البر بمشرا أمثالها ، واقتضت هذه الآية أن تنفذ الجهاد حسنها بسبعائة ضعف . واختلف العلماء في معنى قوله (وَاللَّهُ بِضَاعَتِهِ لَمَنِ بَشَاءُ) فقالت طائفة : هي مينة مؤكدة لما تقدم من ذكر السبعائة ، وليس ثم تضعيف فوق السبعائة . وقالت طائفة من العلماء : بل هو إعلام بأن الله تعالى يضاعف لمن يشاء أكثر من سبعائة ضعف .

قلت : وهذا القول أصح لحديث ابن عمر المذكور أول الآية . وروى ابن ماجه حديثا هارون بن عبد الله الجمال حدثنا ابن أبي قُديك عن الخليل بن عبد الله عن الحسن [عن] علي ابن أبي طالب وأبي الدرداء وعبد الله بن عمرو وأبي أمامة الباهلي وعبد الله بن عمرو وجابر ابن عبد الله وعمران بن حصين كلهم يثبتون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من أرسل بنفقة في سبيل الله وأقام في بيته فله بكل درهم سبعائة درهم ومن غزا بنفسه في سبيل الله وأتق في وجهه فله بكل درهم سبعائة ألف درهم - ثم تلا [هذه الآية] (٢) - والله يضاعف لمن يشاء الله " . وقد روى عن ابن عباس أن التضعيف [ينتهي] (٣) لمن شاء الله إلى ألفي ألف . قال ابن عطية : وليس هذا بثبت الإسناد عنه .

الخامسة - في هذه الآية دليل على أن أخذ الزرع من أعلى الحرف التي يتخذها الناس والمكاسب التي يشتغل بها المال ؛ ولذلك ضرب الله به المثل فقال : «مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ» الآية . وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم : "ما من مسلم يزرع غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له صدقة" . وروى هشام بن عروة

(١) السلاة : أعيت الثيلان . فإذا كانت المرأة قيمة للوجه مية الخلق شئت بالسلواة .

(٢) اتقى في كتب الفقه (مادة نوت) : «عمرو بن ميمون» (٣) من جوب ، وابن ماجه ، وفيه

في السنن : وأبي هريرة . (٤) في ابن ماجه : «في وجه ذلك» . (٥) من جوب وهو جوب .

عن أبيه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اتمسروا الرزق في خبايا الأرض" يعني الزرع ، أخرجه الترمذى . وقال صلى الله عليه وسلم في النخل : "هى الراسخت في الوحل المطمئيات في الخمل" . وهذا خرج مخرج المدح . والزراعة من فروض الكفاية فيجب على الإمام أن يحبر الناس عليها وما كان في معناها من غرس الأشجار . ولبنى عبد الله بن عبد الملك ابن شهاب الزهري فقال : دلتى على مال أعابله ، فأنشأ ابن شهاب يقول :

أقول لعبد الله يوم لقينته * وقد شد أحلاس المطى مشرقا

تتبع خبايا الأرض وأدع مليكها * لملك يوما أن تجاب فترقا

فيؤتيك مالا واسعا ذا مثابة * إذا مامياه الأرض غارت تدقا

وحكى من المعتضد أنه قال : رأيت على بن أبى طالب رضى الله عنه في المنام يتناولني مسعاة وقال : خذها فإنها مفاتيح خزائن الأرض .

قوله تعالى : الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى هُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢١٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) قيل : إنما زلت في عثمان ابن عفان رضى الله عنه . قال عبد الرحمن بن سمرة : جاء عثمان بألف دينار في جيش العسرة فصحبها في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيت يده فيها ويقلبها ويقول : "ما ضرت ابن عفان ما عمل بعد اليوم اللهم لا تنس هذا اليوم لعثمان" . وقال أبو سعيد الخدري : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم رافعا يديه يدعو لعثمان يقول : "يا رب عثمان إني رضيت عن عثمان فأرض عنه" فزال يدعو حتى طلع الفجر فزلت : «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى» الآية .

الثانية - لما تقدم في الآية التي قبل ذكر الإنفاق في سبيل الله على العموم بين في هذه الآية أن ذلك الحكم والثواب إنما هو لمن لا يتبع إنفاقه متاً ولا أنثى^(١)؛ لأن الملتن والأذى ميطان لثواب الصدقة كما أخبر تعالى في الآية بعد هذا، وإنما على المرء أن يريد وجه الله تعالى وثوابه بإخافه على المتفق عليه، ولا يرجو منه شيئاً ولا ينظر من أحواله في حال سوى أن يراعى استحقاقه؛ قال الله تعالى: «لَا تَزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً» . ومعنى أتفق ليريد من المتفق عليه جزاء بوجه من الوجوه فهذا لم يرد وجه الله؛ فهذا إذا أخلف ظنه فيه من بإخافه وأذى . وكذلك من أتفق مضطراً دافع غريم إيماناً للفق عليه أو لقرينة أخرى من اعتناء معتن فهذا لم يرد وجه الله . وإنما يقبل ما كان عطاء الله وأكثر قصده ابتغاء ما عند الله؛ كالذي حكى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن أعرابياً أتاه فقال :

يا عمر الخير جُرِّت الجنة • أُنْكِسَ بَيْتَانِي وَأَهْنَتْهُ

وَكُنْ لَنَا مِنَ الزَّمانِ جُنَّةً • أَقْسَمَ بالله لَتَفْلُتَنَّهُ

قال عمر : إن لم أفضل يكون ماذا ؟ قال :

• إِذَا أَبَا حَفِصٍ لَأَذْبَعَنَّهُ •

قال : إذا ذبعت يكون ماذا ؟ قال :

تكون من حالي تَسْأَلُنِي • يوم تكون الأَطْيَابُ هَتَّةً

وَمَوْقِفُ الْمَسْئُولِ يَنْهَيْتُهُ • إِنَّمَا إِلَن نَارٍ وَإِنَّمَا جَنَّةُ

(١) عبارة ابن حلية كافٍ في تفسيره : «... وذلك أن المتفق في سبيل الله إنما يكون على أحد ثلاثة أوجه :

إما أن يريد وجه الله تعالى ويرجو ثوابه فهذا لا يرجو من المتفق عليه شيئاً . ولا ينظر من أحواله في حال سوى أن يراعى استحقاقه .

وإما أن يريد من المتفق عليه جزاء بوجه من الوجوه فهذا لم يرد وجه الله ، بل نظر إلى هذه الحال من المتفق عليه . وهذا هو الذي من أخلف ظنه من بإخافه وأذى .

وإما أن يتفق مضطراً دافع غريم إيماناً للفق عليه أو لقرينة أخرى من اعتناء معتن وبوجه . فهذا قد نظر في حال ليست لوجه الله ، وهذا هو الذي من توجع ويرجو بوجه من وجوه الأجر أذى . فالنظر والأذى يكشفان عن ظهريته أنه إنما كان على ما ذكرته من المقاصد ، وأنه لم يتفق لوجه الله تعالى . فهذا كان المتفق عليه والأذى ميطان للصدقة من حيث يتقن كل واحد منهما أنها لم تكن صدقة » .

(٢) راجع ج ١٩ ص ١٢٨

فبكى عمر حتى اخضلت لحيته، ثم قال : يا غلام، أعطه قبضى هذا لذلك اليوم لا يشغره !
 والله لا أملك غيره . قال الماوردي : وإذا كان العطاء على هذا الوجه خاليا من طلب جزاء
 وشكر وعُمرًا عن امتنان ونشر كان ذلك أشرف للبازل وأهنا للقابل . فاما المعطى إذا اتبس
 ببطائه الجزاء، وطلب به الشكر والثناء، كان صاحب سُمتة ورياء، وفي هذين من اللّثم ما ينافي
 السخاء . وإن طلب الجزاء كان تاجراً مُرِحاً لا يستحق حمدا ولا مدحا . وقد قال ابن عباس
 في قوله تعالى : « وَلَا تَمَنَّيَنَّ تَسْتَكْبِرُ » أى لا تُعْطِ عطية تفتنم بها أفضل منها . وذهب
 ابن زيد إلى أن هذه الآية إنما هي في الذين لا يخرجون في الجهاد بل ينفقون وهم قعود ،
 وأن الآية التي قبلها هي في الذين يخرجون بأنفسهم ، قال : ولذلك شرط على هؤلاء ولم يشترط
 على الأولين . قال ابن عطية : وفي هذا القول نظر؛ لأن التحكّم فيه بإد .

الثالثة - قوله تعالى : (مَتَّأ وَلَا أَدَى) المتن : ذكر النعمة على معنى التعدد لها والتفريع
 بها؛ مثل أن يقول : قد أحسنت إليك وتشتك وشبهه . وقال بعضهم : المتن : التحدث بما أعطى
 حتى يبلغ ذلك المعطى فيؤذيه . والمتن من الجائر، ثبت ذلك في صحيح مسلم وغيره، وأنه أحد
 الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم ولا يزكهم ولم يذهب إليهم ؛ وروى النسائي عن ابن عمر قال
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة العاق لوالديه والمرأة
 المترجلة فتشبه بالرجال والدُّيُوث، وثلاثة لا يدخلون الجنة العاق لوالديه والمدين النمر والمثان
 بما أعطى" . وفي بعض طرق مسلم : "المثان هو الذى لا يعطى شيئا إلا مئة" . والأذى : السب
 والتشكى ، وهو أعم من المتن ؛ لأن المتن جزء من الأذى لكنه نص عليه لكثرة وقويعه . وقال
 ابن زيد : لئن ظننت أن سلامك يتعل على من أنفقت عليه تريد وجه الله فلا تسلم عليه . وقالت
 له امرأة : يا أبا أسامة دلتى على رجل يخرج في سبيل الله حقا فإنهم إنما يخرجون يأكلون
 ما لقوا كذا فإن عدى أسهما وجعية . فقال : لا يبارك الله في أسهمك وجعيتك فقد آذيتهم قبل أن
 تعطيهم . قال عابدا ثنا رحمة الله عليهم : فمن أنفق في سبيل الله ولم يُقِعه مَتَّأ وَلَا أَدَى كقوله :
 ما أشد الحامك ! وخلصنا الله منك ! وأمثال هذا قد تضمن الله له بالأيبر، والأبر الجنة،

وقى عنه الخوف بعد موته لما يستقبل، والحزن على ما سلف من دنياه؛ لأنه يشتغل بآخره
 فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ . وكفى بهذا فضلا وشرفا
 للشفقة في سبيل الله تعالى . وفيها دلالة لمن فضلى التقي على الفقير حسب ما يأتي بيانه
 إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ
 غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢١٧﴾
 فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ) ابتداءً والتبر محذوف ، أى قول معروف أولى
 وأمثل ؛ ذكره النحاس والمهدوى . قال النحاس : ويعوز أن يكون « قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ » خبر
 ابتداء محذوف ، أى الذى أمرتم به قَوْلٌ معروف . والقول المعروف هو الدعاء والتأنيس
 والترجئة بما عند الله ، خير من صدقة هى فى ظاهرها صدقة وفى باطنها لا شيء ؛ لأن ذكر
 القول المعروف فيه أجر وهذه لا أبر فيها . قال صلى الله عليه وسلم : « الكلمة الطيبة صدقة
 وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق » أخرجه مسلم . فيتلقى السائل بالبشر والترحيب ،
 ويقابله بالطلاقة والتقريب ؛ ليكون مشكورا إن أعطى ومعذورا إن منع . وقد قال بعض
 الحكماء : ألقى صاحب الحاجة بالبشر فإن خدمت شكره لم تصدم عنده . وحكى ابن لنكك
 أن أبا بكر بن كريد قصد بعض الوزراء فى حاجة لم يقضها وظهر له منه خسر فقال :

لا تدخلك مخيلة من مائل * قلنير دهرك أن ترى مسئلا
 لا تجيبن بالرد وجه مؤسل * فبقاء عزك أن ترى مأولا
 تلقى الكريم قستل يشره * وترى العيوس على اللثم دليلا
 وأعلم بأنك من قليل صائر * خبا فكن خيرا يوق جملا

وروى من حديث عمر رضى الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسأله حتى يفرغ منها ثم ردوا عليه بوقار ولين أو بتدليل يسير أو رد جميل فقد يأتكم من ليس بإنس ولا جان ينظرون صنيعكم فيما خولكم الله تعالى " .

قلت : دليله حديث أبرص وأقرع وأعمى ، خرجه مسلم وغيره . وذلك أن ملكا تصور في صورة أبرص مرة وأقرع أخرى وأعمى أخرى امتحانا للسؤل . وقال بشر بن الحارث : رأيت عليا في المنام فقلت : يا أمير المؤمنين ! قل لي شيئا ينفعني الله به ؛ قال : ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء رغبة في ثواب الله تعالى ، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بموعد الله . فقلت : يا أمير المؤمنين زدني ؛ فوالى وهو يقول :

قد كنت ميتا فصرت حيا • وعن قليل تصير ميتا

فأترب بدار الفناء بيتا • وأبى بدار البقاء بيتا

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَمَنْفِرَةٌ ﴾ المنفرة هنا : السرقطة وسوء حالة المحتاج ؛ ومن هذا قول الأعرابي - وقد سأل قوما بكلام فصيح فقال له قائل : يمين الرجل ؟ فقال له : اللهم اغفر ! سوء الاكتساب يمنع من الاقتساب . وقيل : المعنى تجاوز عن السائل إذا ألح وأغلظ وجفى خير من التصدق عليه مع المن والأذى ؛ قال معناه النقاش . وقال النحاس : هذا مشكل بينه الإعراب . « منفرة » رفع بالابتداء والخبر (خير من صدقة) . والمعنى والله أعلم وفعل يؤدي إلى المنفرة خير من صدقة يتبعها أذى ، وتقديره في العربية وفعل منفرة . ويجوز أن يكون مثل قولك : تفضل الله عليك أكبر من الصدقة التي تمنى بها ، أى غفران الله خير من صدقتك هذه التي تمنى بها .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ أخبر تعالى عن غناه المطلق أنه غنى عن صدقة العباد ؛ وإنما أمر بها ليذهبهم ، وعن حمله بأنه لا يعاجل بالعقوبة من من وأذى بصدقته .

قوله تعالى : يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى
كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ
كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَ كُفْرًا صَلاً لَا يَقْدِرُونَ عَلَى
شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (بِالْمَنِّ وَالْأَذَى) قد تقدم معناه . وصبر تعالى عن عدم القبول
وحرمان الثواب بالإبطال ، والمراد الصدقة التي يَسْتُرُ بها ويُؤْذِي ، لا غيرها . والمعقبة أن
السيئات لا تبطل الحسنات ولا تحبطها ، فالحق والأذى في صدقة لا تبطل صدقة غيرها .
قال جمهور العلماء في هذه الآية : إن الصدقة التي يعلم الله من صاحبها أنه يمن أو يؤذي
بها فإنها لا تقبل . وقيل : بل قد جعل الله لذلك طعنا فهو لا يكتبها ؛ وهذا حسن .
والعرب تقول لما يَمُنُّ به : يَدُّ سوداء . ولما يَظْطَرُّ عن غير مسألة : يَدُّ بيضاء . ولما يَظْطَرُّ
عن مسألة : يَدُّ خضراء . وقال بعض البلغاء : مَنْ مَنَّ بمعروفه سقط شكره ، ومن أُعْجِبَ
بعمله حَبِطَ أجره . وقال بعض الشعراء :

وصاحب سلفك منه إلى يدٍ • أبطا عليه مكافاتي قنَادِي
لما تيقن أن الدهر حاربي • أبدى التدامة فيما كان أولاني

وقال آخر :

أصدت بالحق ما أسليت من حسنٍ • ليس الكريم إذا أسدى بمانٍ

وقال أبو بكر الوراق فأحسن :

أحسن من كل حسن • في كل وقت وزمن
صلبة مَرْسُوبَةٌ • خالية من المن

وسمع لمن سيرين رجلا يقول لرجل : فملت إليك وفلت ! فقال له : اسكت فلا خير في المزعزعة إذا أُنِصِي . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إياكم والآثان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويغني الأجر - ثم تلا - لَا تُبْطِلُوا صِدْقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى " .
الثانية - قال علمائنا رحمة الله عليهم : كره مالك لهذه الآية أن يبطل الرجل صدقته الواجبة أقاربه ثلاثاً يتناص منهم الحمد والثناء ، ويظهر منه عليهم ويكافئوه عليها فلا تخلص لوجه الله تعالى . واستحب أن يعطيا الأجنب ، واستحب أيضا أن يولى غيره نفعها إذا لم يكن الإمام عدلاً ؛ ثلاثاً تحبط بالمتن والأذى والشكر والثناء والمكافاة بالخدمة من المفضل . وهذا بخلاف صدقة التطوع السرى لأن ثوابها إذا حبط سلم من الوعيد وصار في حكم من لم يفعل ، والواجب إذا حبط ثوابه توجه الوعيد عليه لكونه في حكم من لم يفعل .

الثالثة - قوله تعالى : (كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ) الكاف في موضع نصب ، أي إبطال « كالذي » فهي نعت للصدر المحذوف . ويجوز أن تكون موضع الحال . مثل الله تعالى الذي يمن ويؤذي بصدقته بالذي ينفق ماله رثاء الناس لا لوجه الله تعالى ، وبالكافر الذي ينفق ليقال جواد وليفتي عليه بأنواع الثناء . ثم مثل هذا المتفق أيضا بصقوان عليه تراب فيظنه الظان أرضاً منبتة طيبة ، فإذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب وبقي صلباً ؛ فكذلك هذا المرائي . فالمتن والأذى والرياء تكشف عن النية في الآخرة فتبطل الصدقة كما يكشف الوابل عن الصقوان ، وهو الحجر الكبير الأملس . وقيل : المراد بالآية إبطال الفضل دون الثواب ، فالقاصد بنفقة الرياء غير مثاب كالكافر ؛ لأنه لم يقصد به وجه الله تعالى فيستحق الثواب . وخالف صاحب المتن والأذى القاصد وجه الله المستحق ثوابه وإن كرر عطاءه وأبطل فضله . وقد قيل : إنما يبطل من ثواب صدقته من وقت منته وإيذائه ، وما قبل ذلك يكتب له ويضاعف ؛ فإذا من وأدى أقطع التضعيف ؛ لأن الصدقة تُرَبَّى لصاحبها حتى تكون أعظم من الجليل ، فإذا خرجت من يد صاحبها خالصة على الوجه المشروع ضوعفت ، فإذا جاء المتن بها والأذى وقف بها هناك وانقطع زيادة التضعيف عنها ؛ والقول الأول أظهر والله أعلم .

والصَفْوَانُ جمعٌ واحدٌ صَفْوَانَةٌ؛ قاله الأخفش . قال وقال بعضهم : صفوان واحد ؛ مثل حجر . وقال الكسائي : صفوان واحد وجمعه صفوان وصُنِيَتْ وصُنِيَتْ ، وأنكره المبرد وقال : إنما صُنِيَتْ جمع صَفَا كَقَفَا وَفُتِيَتْ ، ومن هذا المعنى الصَّفْوَاءُ والصَّفَاءُ ، وقد تقدّم . وقرأ سعيد بن المسيب والزهرى « صَفْوَان » بحريك الفاء ، وهى لغة . وحكى قطرب صفوان . قال النحاس : صفوان وصفوان يجوز أن يكون جمعا ويجوز أن يكون واحدا ، إلا أن الأولى به أن يكون واحدا لقوله عز وجل (عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ) وإن كان يجوز تذكير الجمع إلا أن الشئ لا يخرج عن بابه إلا بدليل قاطع ، فاما ما حكاه الكسائي في الجمع فليس بصحيح على حقيقة النظر ، ولكن صفوان جمع صفَا ، وصفَا بمعنى صفوان ، ونظيره رزل ووزلان وأخ وإخوان وكرا وكروان ؛ كما قال الشاعر :

لنا يوم ولليكرّوان يومٌ • تطيرُ الباسات ولا تطيرُ

والضعيف في العربية كِرْوَانُ جمع كِرْوَانٌ وصُنِيَتْ وصُنِيَتْ جمع صفَا مثل جمعا : والوابل : المطر الشديد . وقد بَلَّت السماء تَبَلًا ، والأرض مَوْبُولَةٌ . قال الأخفش : ومنه قوله تعالى : « أَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَيْلًا » أى شديد . وضرب وَيْلٌ ، وعذاب وَيْلٌ أى شديد . والصَّلْدُ : الأملس من المجارة . قال الكسائي : صَلْدٌ بَصَلْدٌ صَلْدًا بحريك اللام فهو صَلْدٌ بالإسكان ، وهو كل ما لا ينبت شيئا ؛ ومنه جَبِينٌ أَصْلَدٌ ، وأشد الأصمى لرؤبة :

• بَرَأَى أَصْلَادَ الْجَبِينِ الْأَجَلِ •

قال النقاش : الأصل الأجرد بلفظة هَذِيل . ومعنى (لَا يَقْدِرُونَ) بنى المرائى والكافر والمات (عَلَى شَيْءٍ) أى على الاستفاعة شواب شئ من إنفاقهم وهو كسبهم عند حاجتهم إليه ؛ إذ كان لغير الله ، فبغير عن النفقة بالكسب ؛ لأنهم قصدوا بها الكسب . وقيل : ضرب هذا مثلا للمرائى في إبطال ثوابه ، ولصاحب المثل والأذى في إبطال فضله ؛ ذكره الماوردى .

(١) راجع المسألة الثانية ج ٢ ص ١٧٩ (٢) الرول (بالحريك) : دابة على خلفة الضب إلا أنها أعظم منه تكون في الرمال والصمارى ، والعرب تستنبت الرول وتستفقه فلا تأكله . (٣) راجع ج ١٩ ص ٤٧ (٤) الجله : أحد من الجمع وهو كتاب الثمر من طقم الجبين .

قوله تعالى : وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ رِبْوَةٍ أَصْلَابُهَا وَأَيْلٌ فَكَاتَتْ أَكْطُهَا ضَعْفَيْنِ فَإِنْ لَرَّ يُصْبِهَا وَأَيْلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٦٥﴾

قوله تعالى : (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) « ابْتِغَاءَ » مفعول من أجله . « وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » عطف عليه . وقال مكي في المشكل : كلامها مفعول من أجله . قال ابن عطية : وهو مردود ، ولا يصح في « تَثْبِيتًا » أنه مفعول من أجله ، لأن الإيفاق ليس من أجل التثبيت . و « ابْتِغَاءَ » نصب على المصدر في موضع الحال ، وكان يتوجه فيه النصب على المفعول من أجله ، لكن النصب على المصدر هو الصواب من جهة عطف المصدر الذي هو « تَثْبِيتًا » عليه . ولما ذكر الله تعالى صفة صدقات القوم الذين لا خلاق لصدقاتهم ، ونهى المؤمنين عن مواصلة ما يشبه ذلك بوجه ما ، عطف في هذه الآية بذكر صفات القوم الذين تركوا صدقاتهم إذ كانت على وفق الشرع ووجهه . و « ابْتِغَاءَ » معناه طلب . و « مَرْضَاتِ » مصدر من رَضِيَ رَضًى . « وَتَثْبِيتًا » معناه أنهم يتثبتون أين يضعون صدقاتهم ؛ قاله مجاهد والحسن . قال الحسن : كان الرجل إذا هم بصدقة تنبت ، فإن كان ذلك لله أمضاه وإن خالطه شك أمسك . وقيل : معناه تصديقا وقينا ؛ قاله ابن عباس . وقال ابن عباس أيضا وقادة : معناه واحتسابا من أنفسهم . وقال الشعبي والسدي وقادة أيضا وابن زيد وأبو صالح وغيرهم : « وَتَثْبِيتًا » معناه وثيقنا أي أن نفوسهم لها بصائر فهي تثبتهم على الإيفاق في طاعة الله تعالى تثبينا . وهذه الأقوال الثلاث أصوب من قول الحسن ومجاهد ؛ لأن المعنى الذي ذهبوا إليه إنما عبارته « وَتَثْبِيتًا » مصدر على غير المصدر . قال ابن عطية : وهذا لا يسوغ إلا مع ذكر المصدر والإنصاح بالفعل المتقدم ؛ كقوله تعالى : « وَاللَّهُ أَنْتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا » ، « وَتَبْتَلُ إِلَيْهِ تَبِيلًا ^(١) » . وأما إذا لم يقع إنصاح بفعل فليس لك أن تأتي بمصدر في غير معناه ثم تقول : أحمله على معنى كذا وكذا ، فعل لم يتقدم له ذكر . قال ابن عطية : هذا مهيح كلام العرب فيما علمته . وقال النحاس :

لو كان كما قال بجاهد لكان وثبتاً من تثبت ككثرت تكراً، وقول قتادة : احسباً، لا يعرف إلا أن يراد به أن أنفسهم تثبتهم عنسبة، وهذا بعيد . وقول الشعبي حسن ، أى تثبتاً من أنفسهم لم على اتفاق ذلك فى طاعة الله عز وجل ، يقال : ثبت فلان فى هذا الأمر ، أى صحى عزيمته ، وقويت فيه رأيه ، أثبت تثبتاً ، أى أنفسهم موقنة بوعده الله على تثبيتهم فى ذلك . وقيل : « وَثَبْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » أى يقرون بأن الله تعالى ثبت عليها ، أى وثبتها من أنفسهم لثوابها ، بخلاف المنافق الذى لا يحسب الثواب .

قوله تعالى : (كَتَلَىٰ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ) الجنة : البستان ، وهى قطعة أرض تثبت فيها الاشجار حتى تنطما ، فهى مأخوذة من لفظ الحن والحنين لاستارهم . وقد تقدم . والرَبْوَةُ : المكان المرتفع ارتفاعاً يسيراً ، معه فى الأغلب كثافة تراب ، وما كان كذلك فنباته أحسن ، ولذلك خص الزبوة بالذكر . قال ابن عطية : ورياض الحزن ليست من هذا كما زعم الطبرى ، بل تلك هى الرياض المنسوبة إلى تجدد لأنها خير من رياض تهامة ، ونبات نجد أخطر ، ونسيمه أبرد وأرق ، ويجدد يقال لما حزن . وقيل يصلح هواء تهامة إلا بالليل ، ولذلك قالت الأعرابية : « زوجى كليل تهامة » . وقال السدى : « ربوة » أى ربوة ، وهو ما انخفض من الأرض . قال ابن عطية : وهذه عبارة قلقة ، ولفظ الربوة هو مأخوذ من رَبَّاءٍ يَرْبُو إذا زاد . قلت : عبارة السدى ليست بشيء ، لأن بناء « رَبَّاءٍ » معناه الزيادة فى كلام العرب ، ومنه الرَبْوُ للنفس العالى . رَبَّاءٍ يَرْبُو إذا أخذ الزيو . وربا القرس إذا أخذ الريو من عدو أو فرع . وقال الفراء فى قوله تعالى : « أَخْلَصُّمُ أَخَذَةً رَابِيَةً » أى زائدة كقولك : أربيت إذا أخذت أكثر مما أعطيت . وَرَبَّوْتُ فى بنى فلان ورَبَّيت أى نشأت فيهم . وقال الخليل : الزبوة أرض مرتفعة طيبة وخص الله تعالى بالذكر التى لا يجرى فيها ماء من حيث المُنْزَلُ فى بلاد العرب ، فمثل لم ما يحسونه ويدركونه . وقال ابن عباس : الربوة المكان المرتفع الذى لا تجرى فيه الأنهار ؛ لأن قوله تعالى (أَصَابًا وَابِلٌ) إلى آخر الآية يدل على أنها ليس فيها ماء جار ، ولم يرد جنس التى تجرى فيها الأنهار ؛ لأن الله تعالى قد ذكر ربوة

فانت قرار ومعين . والمعروف من كلام العرب أن الربوة ما ارتفع عما جاوره سواء جرى فيها ماء أو لم يمر . وفيها خمس لغات « رُبُوَّةٌ » بضم الراء، وبها قرأ ابن كثير وحزمة والكسائي ونافع وأبو عمرو . و« رِبْوَةٌ » بفتح الراء، وبها قرأ عاصم وابن عامر والحسن . و« رِبْوَةٌ » بكسر الراء، وبها قرأ ابن عباس وأبو إسحاق السبيعي . و« رِبَاوَةٌ » بالفتح، وبها قرأ أبو جعفر وأبو عبد الرحمن؛ وقال الشاعر :

مَنْ مُتَرِّلٍ فِي رَوْضَةِ رَبَاوَةٍ • بَيْنَ التَّخِيلِ إِلَى بَقِيعِ الْفَرَقَدِ؟

و« رِبَاوَةٌ » بالكسر، وبها قرأ الأشهب العقيلي . قال الفراء : ويقال رِبَاوَةٌ وربَاوَةٌ، وكَلَّةٌ من الرابية، وفعله وَبَاً يَرْبُو .

قوله تعالى : (أَصْلَبًا) بمعنى الربوة . (وَأَيْلٌ) أى مطر شديد؛ قال الشاعر

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحَزَنِ مُعْشِبَةٌ • خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا وَأَيْلٌ هَاطِلٌ

(فَأَنْتَ) أى أعطت . (أَكْلَهَا) بضم الهمة : الثمر الذى يؤكل، ومنه قوله تعالى : « تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ » . والشئ المأْكول من كل شئ يقال له أَكُلٌ . والأُكْلَةُ : اللقمة ؛ ومنه الحديث : « فَإِنْ كَانَ الطَّعَامُ مَشْفُوعًا قَلِيلًا فَلْيَضَعْ فِي يَدِهِ مِنْهُ أَكْلَةً أَوْ أُكْلَتَيْنِ »،^(١)^(٢)^(٣)^(٤)^(٥)^(٦)^(٧)^(٨)^(٩)^(١٠)^(١١)^(١٢)^(١٣)^(١٤)^(١٥)^(١٦)^(١٧)^(١٨)^(١٩)^(٢٠)^(٢١)^(٢٢)^(٢٣)^(٢٤)^(٢٥)^(٢٦)^(٢٧)^(٢٨)^(٢٩)^(٣٠)^(٣١)^(٣٢)^(٣٣)^(٣٤)^(٣٥)^(٣٦)^(٣٧)^(٣٨)^(٣٩)^(٤٠)^(٤١)^(٤٢)^(٤٣)^(٤٤)^(٤٥)^(٤٦)^(٤٧)^(٤٨)^(٤٩)^(٥٠)^(٥١)^(٥٢)^(٥٣)^(٥٤)^(٥٥)^(٥٦)^(٥٧)^(٥٨)^(٥٩)^(٦٠)^(٦١)^(٦٢)^(٦٣)^(٦٤)^(٦٥)^(٦٦)^(٦٧)^(٦٨)^(٦٩)^(٧٠)^(٧١)^(٧٢)^(٧٣)^(٧٤)^(٧٥)^(٧٦)^(٧٧)^(٧٨)^(٧٩)^(٨٠)^(٨١)^(٨٢)^(٨٣)^(٨٤)^(٨٥)^(٨٦)^(٨٧)^(٨٨)^(٨٩)^(٩٠)^(٩١)^(٩٢)^(٩٣)^(٩٤)^(٩٥)^(٩٦)^(٩٧)^(٩٨)^(٩٩)^(١٠٠)^(١٠١)^(١٠٢)^(١٠٣)^(١٠٤)^(١٠٥)^(١٠٦)^(١٠٧)^(١٠٨)^(١٠٩)^(١١٠)^(١١١)^(١١٢)^(١١٣)^(١١٤)^(١١٥)^(١١٦)^(١١٧)^(١١٨)^(١١٩)^(١٢٠)^(١٢١)^(١٢٢)^(١٢٣)^(١٢٤)^(١٢٥)^(١٢٦)^(١٢٧)^(١٢٨)^(١٢٩)^(١٣٠)^(١٣١)^(١٣٢)^(١٣٣)^(١٣٤)^(١٣٥)^(١٣٦)^(١٣٧)^(١٣٨)^(١٣٩)^(١٤٠)^(١٤١)^(١٤٢)^(١٤٣)^(١٤٤)^(١٤٥)^(١٤٦)^(١٤٧)^(١٤٨)^(١٤٩)^(١٥٠)^(١٥١)^(١٥٢)^(١٥٣)^(١٥٤)^(١٥٥)^(١٥٦)^(١٥٧)^(١٥٨)^(١٥٩)^(١٦٠)^(١٦١)^(١٦٢)^(١٦٣)^(١٦٤)^(١٦٥)^(١٦٦)^(١٦٧)^(١٦٨)^(١٦٩)^(١٧٠)^(١٧١)^(١٧٢)^(١٧٣)^(١٧٤)^(١٧٥)^(١٧٦)^(١٧٧)^(١٧٨)^(١٧٩)^(١٨٠)^(١٨١)^(١٨٢)^(١٨٣)^(١٨٤)^(١٨٥)^(١٨٦)^(١٨٧)^(١٨٨)^(١٨٩)^(١٩٠)^(١٩١)^(١٩٢)^(١٩٣)^(١٩٤)^(١٩٥)^(١٩٦)^(١٩٧)^(١٩٨)^(١٩٩)^(٢٠٠)^(٢٠١)^(٢٠٢)^(٢٠٣)^(٢٠٤)^(٢٠٥)^(٢٠٦)^(٢٠٧)^(٢٠٨)^(٢٠٩)^(٢١٠)^(٢١١)^(٢١٢)^(٢١٣)^(٢١٤)^(٢١٥)^(٢١٦)^(٢١٧)^(٢١٨)^(٢١٩)^(٢٢٠)^(٢٢١)^(٢٢٢)^(٢٢٣)^(٢٢٤)^(٢٢٥)^(٢٢٦)^(٢٢٧)^(٢٢٨)^(٢٢٩)^(٢٣٠)^(٢٣١)^(٢٣٢)^(٢٣٣)^(٢٣٤)^(٢٣٥)^(٢٣٦)^(٢٣٧)^(٢٣٨)^(٢٣٩)^(٢٤٠)^(٢٤١)^(٢٤٢)^(٢٤٣)^(٢٤٤)^(٢٤٥)^(٢٤٦)^(٢٤٧)^(٢٤٨)^(٢٤٩)^(٢٥٠)^(٢٥١)^(٢٥٢)^(٢٥٣)^(٢٥٤)^(٢٥٥)^(٢٥٦)^(٢٥٧)^(٢٥٨)^(٢٥٩)^(٢٦٠)^(٢٦١)^(٢٦٢)^(٢٦٣)^(٢٦٤)^(٢٦٥)^(٢٦٦)^(٢٦٧)^(٢٦٨)^(٢٦٩)^(٢٧٠)^(٢٧١)^(٢٧٢)^(٢٧٣)^(٢٧٤)^(٢٧٥)^(٢٧٦)^(٢٧٧)^(٢٧٨)^(٢٧٩)^(٢٨٠)^(٢٨١)^(٢٨٢)^(٢٨٣)^(٢٨٤)^(٢٨٥)^(٢٨٦)^(٢٨٧)^(٢٨٨)^(٢٨٩)^(٢٩٠)^(٢٩١)^(٢٩٢)^(٢٩٣)^(٢٩٤)^(٢٩٥)^(٢٩٦)^(٢٩٧)^(٢٩٨)^(٢٩٩)^(٣٠٠)^(٣٠١)^(٣٠٢)^(٣٠٣)^(٣٠٤)^(٣٠٥)^(٣٠٦)^(٣٠٧)^(٣٠٨)^(٣٠٩)^(٣١٠)^(٣١١)^(٣١٢)^(٣١٣)^(٣١٤)^(٣١٥)^(٣١٦)^(٣١٧)^(٣١٨)^(٣١٩)^(٣٢٠)^(٣٢١)^(٣٢٢)^(٣٢٣)^(٣٢٤)^(٣٢٥)^(٣٢٦)^(٣٢٧)^(٣٢٨)^(٣٢٩)^(٣٣٠)^(٣٣١)^(٣٣٢)^(٣٣٣)^(٣٣٤)^(٣٣٥)^(٣٣٦)^(٣٣٧)^(٣٣٨)^(٣٣٩)^(٣٤٠)^(٣٤١)^(٣٤٢)^(٣٤٣)^(٣٤٤)^(٣٤٥)^(٣٤٦)^(٣٤٧)^(٣٤٨)^(٣٤٩)^(٣٥٠)^(٣٥١)^(٣٥٢)^(٣٥٣)^(٣٥٤)^(٣٥٥)^(٣٥٦)^(٣٥٧)^(٣٥٨)^(٣٥٩)^(٣٦٠)^(٣٦١)^(٣٦٢)^(٣٦٣)^(٣٦٤)^(٣٦٥)^(٣٦٦)^(٣٦٧)^(٣٦٨)^(٣٦٩)^(٣٧٠)

(١) هراعى مبرن : واقى في دياره والبرى والسان والتاج في (حزن) : سبل حلال .

(٢) راجع ج ٩ ص ٣٥٨ (٣) المشفوه : القليل؛ وأصله الماء الذى كثرت عليه الشفاء حتى قل . وقيل :

أراد أن كان مكتوباً عليه ، أى كثرت أكلته . النهاية . (٤) في الأصول : « قطعته منه ... » والتصويب

من صحيح مسلم . (٥) الزيادة من ابن حلية لازمة . (٦) راجع ج ١٤ ص ٢٨٥ .

وَأَبْنِ عَامِرَ وَحَمْزَةَ وَالْكَسَائِيَّ فِي جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ بِالتَّخْفِيلِ . وَيُقَالُ : أَكَلْتُ وَأَكُلُ كُلُّ مَعْنَى .
 (ضَعِيفَيْنِ) أَيِ اعْطَيْتُ ضَعِيفَيْنِ ثُمَّ غَيْرَهُمَا مِنَ الْإَرْضَيْنِ . وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : حَلَّتْ صَرِيحَتُهُ
 فِي السَّنَةِ وَالْأَوَّلُ أَكْثَرُ ، أَيِ أَخْرَجْتَ مِنَ الزَّرْعِ مَا يَخْرُجُ غَيْرَهَا فِي سَنَتَيْنِ .
 قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَإِنْ لَمْ يُمْسِكْهَا وَأَبِلَ فَطَلٌّ) تَأْكِيدٌ مِنْهُ تَعَالَى لِمَدْحِ هَذِهِ الزَّرِيَةِ بِأَنَّهَا إِنْ لَمْ يُمْسِكْهَا
 وَأَبِلَ فَإِنَّ الطَّلَّ يَكْفِيهَا وَيَنْوِبُ عَنْهَا الْوَابِلُ فِي إِخْرَاجِ الثَّمَرَةِ ضَعِيفَيْنِ ، وَذَلِكَ لِكَرَمِ الْأَرْضِ
 وَلَيْسَ بِهَا . قَالَ الْمُبَرِّدُ وَغَيْرُهُ : تَقْدِيرُهُ فَطَلٌّ يَكْفِيهَا . وَقَالَ الزَّجَاجُ : فَالَّذِي يُمْسِكُهَا طَلٌّ .
 وَالطَّلُّ : الْمَطَرُ الضَّعِيفُ الْمُسْتَدِقُّ مِنَ الْقَطَرِ الْخَفِيفِ ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ ، وَهُوَ مَشْهُورُ اللَّفْظَةِ .
 وَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ بِمَجَاهِدٍ : الطَّلُّ : النَّدَى . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ : وَهُوَ تَجَمُّؤُ وَتَشْبِيهِ . قَالَ النَّعَّاسُ :
 وَحَكَى أَهْلُ اللَّفْظَةِ وَبَلَّتْ وَأَوْبَلَتْ ، وَطَلَّتْ وَأَطَلَّتْ . وَفِي الصَّحَاحِ : الطَّلُّ أَضْعَفُ لِلْمَطَرِ وَالْمَجْعُ
 الطَّلَالُ ؛ يَقُولُ مِنْهُ : طَلَّتِ الْأَرْضُ وَأَطَلَهَا النَّدَى فَهِيَ مَطْلُولَةٌ . قَالَ الْمَاوَرِدِيُّ : وَزَرْعُ
 الطَّلِّ أَضْعَفُ مِنْ زَرْعِ الْمَطَرِ وَأَقْلَرِيعًا ، وَفِيهِ — وَإِنْ قُلْ — تَحَاكُ وَنَقَعَ . قَالَ بَعْضُهُمْ :
 فِي الْآيَةِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ ، وَمَعْنَاهُ كَثَلُ جَنَةِ بَرِيَّةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَإِنْ لَمْ يُمْسِكْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ فَآتَتْ
 أَكْلَهَا ضَعِيفَيْنِ . يَسْنِي أَخْضَرَتْ أَوْ رَأَقَ الْبُسْتَانَ وَخَرَجَتْ ثَمَرَتُهَا ضَعِيفَيْنِ .

قُلْتُ : التَّأْوِيلُ الْأَوَّلُ أَصَوِّبُ وَلَا حَاجَةَ إِلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ . فَشَبَّهَ تَعَالَى نَعْمَ نَفَقَاتِ
 هَؤُلَاءِ الْمُظْلَمِينَ الَّذِينَ يُرْبِي اللَّهُ صَدَقَاتِهِمْ كَثِيرَةً ^(١) الْفَلَوُ وَالْفَيْصِيلُ نَعْمَ نَبَاتِ الْجَنَّةِ بِالزَّرِيَةِ
 الْمَوْصُوفَةِ ؛ بِخِلَافِ الصَّقَوَانِ الَّذِي انْكَشَفَ عَنْهُ تَرَابُهُ فَبَقِيَ صُلْبُهُ . وَخَرَجَ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ عَنْ
 أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَا يَتَصَدَّقُ أَحَدٌ بِثَمَرَةٍ مِنْ كَسْبٍ
 طَيِّبٍ إِلَّا أَخَذَهَا اللَّهُ بِجَنَّةٍ فَيَرِيهَا كَمَا يَرِي أَحَدُكُمْ قُلُوزَهُ أَوْ فَيْصِيلَهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ
 أَوْ اعْظَمُ " تَرْجَمَهُ الْمَوْطَأُ أَيْضًا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَاللَّهُ يَسِّرُ لَكُمْ أَسَانًا) وَعَدَ وَوَعَدَ . وَقَرَأَ الزُّهْرِيُّ : «يَسْمَلُونَ» بِأَلَاءِ
 كَأَنَّهُ يَرِيدُ بِهِ النَّاسَ أَجْمَعُ ، أَوْ يَرِيدُ الْمُتَّقِينَ نَقَطُ ؛ فَهُوَ وَعْدٌ عَصَى .

(١) الْفَلَوُ : بَعْضُ اللَّفَاءِ وَضَعُهَا مَعَ ضَمِّ اللَّامِ ، وَيَكْسُرُهَا مَعَ سكونِ اللَّامِ ؛ الْمُهْرُ الصَّغِيرُ ، وَفِيلٌ : هُوَ الْعَظِيمُ
 مِنْ أَوْلَادِ فُلَاتِ الْخَافِرِ .

قوله تعالى : أَيُودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ
ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : (أَيُودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ) الآية . حكى الطبري
عن السدي أن هذه الآية مثل آخر لفظة الرياء ، ورجح هو هذا القول .

قلت وروى عن ابن عباس أيضا قال : هذا مثل ضربه الله للرائين بالأعمال يبتليها
يوم القيامة أحوج ما كان إليها ، كتل رجل كانت له جنة وله أطفال لا ينفعونه فكبر وأصاب
الجنة إعصار أى ريح عاصف فيه نار فاحترقت ففقدوا أحوج ما كان إليها . وحكى عن
أبن زيد أنه قرأ قول الله تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى» الآية ،
قال : ثم ضرب في ذلك مثلا فقال : «أَيُودُ أَحَدُكُمْ» الآية . قال ابن عطية : وهذا آيين
من الذى رتج الطبري ، وليست هذه الآية بمثل آخر لفظة الرياء ، هذا هو مقتضى سياق
الكلام . وأما بالمعنى في غير هذا السياق فتشبه حال كل منافق أو كافر عمل عملا وهو يحسب
أنه يحسن صنعا فلما جاء إلى وقت الحاجة لم يجد شيئا .

قالت : قد روى عن ابن عباس أنها مثل لمن عمل لغير الله من منافق وكافر على ما يأتى ،
إلا أن الذى ثبت في البخارى عنه خلاف هذا . خرج البخارى عن عبيد بن عمير قال قال
عمر بن الخطاب يوما لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : فيم ترون هذه الآية نزلت «أَيُودُ
أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ» ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ فغضب عمر وقال :
قولوا : نعم أولا نعلم ! فقال ابن عباس : في نفسى منها شيء يا أمير المؤمنين ؛ قال : يأبن أخى
قل ولا تحقر نفسك ؛ قال ابن عباس : ضربت مثلا لعمل . قال عمر : أى عمل ؟ قال
ابن عباس : لعمل رجل غنى بعمل بطاعة الله ثم بعث الله عز وجل له الشيطان فعمل

في المعاصي حتى أحرق عمله . في رواية : فإذا بقي عمره وأقرب أجله ختم ذلك بعمل من أعمال الشقاء ؛ فرضى ذلك عمر . وروى ابن أبي مليكة أن عمر تلا هذه الآية . وقال : هذا من عمل ضُرب للإنسان يعمل عملا صالحا حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه عمل عمل السوء . قال ابن عطية : فهذا نظري على الآية على كل ما يدخل تحت ألفاظها ؛ ويخو ذلك قال بجماهد وقتادة والربيع وغيرهم . وخَصَّ التَّخِيلَ والأَعْنَابَ بالذكر لشرفهما وتفضلهما على سائر الشجر . وقرأ الحسن « جَنَّاتٌ » بالجمع . (تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) تقدم ذكره . (لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) يريد ليس شيء من الثمار إلا وهو فيها ثابت .

- قوله تعالى : (وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ) عطف ماضيا على مستقبل وهو « تَكُونُ » وقيل : « يَبُذُّ » فقيل : التقدير وقد أصابه الكبر . وقيل إنه محمول على المعنى ؛ لأن المعنى أيؤد أحدكم أن لو كانت له جنة . وقيل : الواو وإو الحال ، وكذا في قوله تعالى « وَلَهُ » .

قوله تعالى : (فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ) قال الحسن : « إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ » ريح فيها برد شديد . الزجاج : الإعصار في اللغة الريح الشديدة التي تهب من الأرض إلى السماء كالعمود ، وهي التي يقال لها : الزوينة . قال الجوهري : الزوينة رئيس من رؤساء الجن ، ومنه سُمِّيَ الإعصار زوينة . ويقال : أم زوينة ، وهي ريح تثير الغبار وترتفع إلى السماء كأنها عمود . وقيل : الإعصار ريح تثير سحابا ذا رعد وبرق . المهدوي : قيل لها إعصار لأنها تلتف كالنوب إذا عُصر . ابن عطية : وهذا ضعيف .

- قلت : بل هو صحيح ؛ لأنه المشاهد المحسوس ، فإنه يصعد عمودا ملتفا . وقيل : إنما قيل للريح إعصار ؛ لأنه بعصر السحاب ، والسحاب مُعْصِرَاتٌ إنما لأنها حوامل فهي كالعمود من النساء . وإنما لأنها تنعصر بالرياح . وحكى ابن سيده : أن المعصرات فسرهما قوم بالرياح لا بالسحاب . ابن زيد : الإعصار ريح عاصف وسموم شديدة ؛ وكذلك قال السدي : الإعصار الريح والثار السموم . ابن عباس : ريح فيها سموم شديدة . قال ابن عطية : هو يكون

ذلك في شدة الحر ويكون في شدة البرد ، وكل ذلك من فيج جهنم ونفيسها ، كما تضمن قول النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة فإن شدة الحر من فيج جهنم " و" إن النار اشتكت إلى ربها " الحديث . وروى عن ابن عباس وغيره : أن هذا مثل ضربته الله تعالى للكافرين والمنافقين ، كهشة رجل غرس بستانا فأكثر فيه من الثمر فأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء - يريد صبيانا بنات وغلانا - فكانت معيشة ومعيشة ذريته من ذلك البستان ، فأرسل الله على بستانه ريحا فيها نار فأحرقت ، ولم يكن عنده قوة فيغرسه ثانية ، ولم يكن عند بنه خير فيعودون على أيهم . وكذلك الكافر والمنافق إذا ورد إلى الله تعالى بهم للقيامة ليست له كوة يبعث فيرد ثانية ، كما ليست عند هذا قوة فيغرس بستانه ثانية ، ولم يكن عند من افتقر إليه عند كبر سنه وضعف ذريته غنى عنه .

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) يريد كي ترجعوا إلى عظمي ورؤبوني ولا تتحننوا من دوني أولياء . وقال ابن عباس أيضا : ستفكرون في زوال الدنيا وفنائها وإقبال الآخرة وبقاتها .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا مِن طَبِئَتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أُنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَحْبِرَ مِنْهُ تُفَقُّوْنَ وَلَسْتُمْ بِأَخِيذِهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٧﴾
فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا) هذا خطاب لجميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم . واختلف العلماء في المعنى المراد بالإفقاء هنا ، فقال علي بن أبي طالب وعبيدة السلماني وابن سيرين : هي الزكاة المفروضة ، نهى الناس عن إفقاء الزدىء فيها بدل الجبد . قال ابن عطية : والقاهر من قول البراء بن عازب والحسن وقتادة أن الآية في التطوع ، ندبوا إلى

أَلَا يَتَطَوَّعُوا إِلَّا بَخْتَارٍ جَبَدٌ . والآية تم الوجهين ، لكن صاحب الزكاة تعلق بأنها مأمور بها والأمر على الوجوب ، وأنه نهى عن الردى ، وذلك مخصوص بالفرض ، وأما التطوع فكالبراء أن يتطوع بالقليل فكذلك له أن يتطوع بنازل في القدر ، ودرهم خير من تمرة . تمسك أصحاب النذب بأن لفظة أَفْضَلُ صالح للتدب صلاحته للفرض ، والرذى منهى عنه في النفل كما هو منهى عنه في الفرض ، والله أحق من أخبر له . وروى البراء أن رجلاً علق ^(١) قَتَوُ حَشِيفٌ ، قرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " بشما علق " فنزلت الآية ، خرجه الترمذى وسيأتى بكلامه . والأمر على هذا القول على النذب ، ندبوا إلى ألا يتطوعوا إلا بجيد مختار . وجهور المتأولين قالوا : معنى « مِنْ طَيِّبَاتٍ » من جيد ومختار « مَا كَسَبْتُمْ » . وقال ابن زيد : من حلال « مَا كَسَبْتُمْ » .

الثانية - الكسب يكون بشعب بدن وهى الإجارة وسيأتى حكمها ، أو مقابلة في تجارة وهو البيع وسيأتى بيانه . والميراث داخل في هذا ؛ لأن غير الوارث قد كسبه . قال سهل بن عبد الله : وسئل ابن المبارك عن الرجل يريد أن يكتسب وينوى باكتسابه أن يصل به الزحم وأن يجاهد ويعمل الخيرات ويدخل في آفات الكسب لهذا الشأن . قال : إن كان معه قوام من العيش بمقدار ما يكف نفسه عن الناس فترك هذا أفضل ؛ لأنه إذا طلب حلالاً وأضق في حلال سئل عنه وعن كسبه وعن إنفاقه ؛ وترك ذلك زهد فإن الزهد في ترك الحلال .

الثالثة - قال ابن خزيمة : وهذه الآية جاز للوالد أن يأكل من كسب ولده ؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أولادكم من طيب أكسابكم فكلوا من أموال أولادكم هنيئاً " .

الرابعة - قوله تعالى : (وَمِمَّا أَتَجَرَّعْتُمْ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ) يعنى النبات والمعادن والركاز ، وهذه أبواب ثلاثة تضمنتها هذه الآية . أما النبات فروى الدارقطني عن عائشة رضى الله عنها قالت : جرت السنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليس فيما دون خمسة

(١) القنو : المذق وهو عقود الثنلة : الشاربغ مثرة . والحشف : الترييف قبل الضج فيكون ردياً وليس له لم . (٢) في وجوب : يكفى .

أَوْسُقُ زَكَاةً“ . وَالْوَسْقُ سِتُونَ صَاعًا ، فَذَلِكَ ثَلَاثَانِ صَاعٌ مِنَ الْخُطَةِ وَالشَّعِيرِ وَالْتَمْرِ وَالزَّيْتِ .
وَلَيْسَ فِيمَا أَنْبَتَتِ الْأَرْضُ مِنَ الْخَضِرِ زَكَاةٌ . وَقَدْ أَحْتَجُّ قَوْمٌ لِأَبِي حَنِيفَةَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى :
« وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » وَإِنَّ ذَلِكَ عَمُومٌ فِي قَلِيلٍ مَا تُخْرِجُهُ الْأَرْضُ وَكَثِيرِهِ وَفِي سَائِرِ
الْأَصْنَافِ ، وَرَأَوْا ظَاهِرَ الْأَمْرِ الْوَجُوبِ . وَسَيَأْتِي بَيَانُ هَذَا فِي « الْأَنْعَامِ » ^(١) . وَأَمَّا الْمَعْدِنُ
فَرَوَى الْأَثَمَةُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « الْعِجَاءُ جَرَحُهَا جَبَّارٌ ^(٢)
وَالْبَثَرُ جَبَّارٌ وَالْمَعْدِنُ جَبَّارٌ فِي الزُّكَاذِ الْخَمْسِ » . قَالَ عَلَمَاؤُنَا : لَمَّا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« وَفِي الزُّكَاذِ الْخَمْسِ » دَلَّ عَلَى أَنَّ الْحَكَمَ فِي الْمَعْدِنِ غَيْرُ الْحَكَمِ فِي الزُّكَاذِ ، لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
قَدْ فَصَلَ بَيْنَ الْمَعْدِنِ وَالزُّكَاذِ بِالْوَاوِ الْفَاصِلَةِ ، وَلَوْ كَانَ الْحَكَمُ فِيهِمَا سَوَاءً لَقَالَ وَالْمَعْدِنُ جَبَّارٌ
وَفِيهِ الْخَمْسُ ، فَلَمَّا قَالَ « وَفِي الزُّكَاذِ الْخَمْسِ » عَلَّمَ أَنَّ حَكَمَ الزُّكَاذِ غَيْرُ حَكَمِ الْمَعْدِنِ فِيمَا يُؤْخَذُ مِنْهُ ،
وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَالزُّكَاذُ أَصْلُهُ فِي اللَّفْظِ مَا أَرْتَكَرَ بِالْأَرْضِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْجَوَاهِرِ ، وَهُوَ عِنْدَ سَائِرِ
الْفُقَهَاءِ كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي النَّدَرَةِ ^(٣) الَّتِي تَوْجَدُ فِي الْمَعْدِنِ مَرْتَكِبَةٌ بِالْأَرْضِ لَا تُنَالُ بِعَمَلٍ
وَلَا بِسَيْفٍ وَلَا تَنْسَبُ ، فِيهَا الْخَمْسُ ؛ لِأَنَّهُ زَكَاةٌ . وَقَدْ رَوَى عَنْ مَالِكٍ أَنَّ النَّدَرَةَ فِي الْمَعْدِنِ حَكَمُهَا حَكَمُ
مَا يُتَكَلَّفُ فِيهِ الْعَمَلُ مِمَّا يُسْتَخْرَجُ مِنَ الْمَعْدِنِ فِي الزُّكَاذِ ؛ وَالْأَوَّلُ تَحْصِيلُ مَذْهَبِهِ وَعَلَيْهِ قَتَوَى
بِجُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ . وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبَرِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنْ
أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الزُّكَاذِ قَالَ : « الذَّهَبُ الَّذِي
خَلَقَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » . عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ هَذَا مَتْرُوكُ الْحَدِيثِ ،
ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ . وَقَدْ رَوَى مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَلَا يَصِحُّ ، ذَكَرَهُ
أَلْبَارِقُطِيُّ . وَدَقَّنَ الْجَاهِلِيَّةُ لِأَمْوَالِهِمْ عِنْدَ جَمَاعَةِ الْعُلَمَاءِ زَكَاةً أَيْضًا لَا يَخْتَفُونَ فِيهِ إِذَا كَانَ

(١) راجع ج ٧ ص ٤٧ (٢) البهاء : البهية . وجبار : حدر . والمعدن : المكان من الأرض يخرج منه
شيء من الجواهر والأجساد كالذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والكبريت وغيرها ؛ من معدن المكان
إذا أُنَامَ به . ومعنى الحديث أَنَّ تَحْتَ الْبَهِيَّةِ فَصِيْبٌ مِنْ أَثْلَانِهَا إِنْسَانًا أَوْ شَيْئًا بِجَرَحِهَا حَدْرٌ ، وَكَذَلِكَ الْبَثَرُ الْعَادِيَّةُ
يَقْطَعُ فِيهَا إِنْسَانٌ قَدْ حَدَرَ ، وَالْمَعْدِنُ إِذَا أَتَاهُ عَلَى مَنْ يَحْفَرُهُ فَتَقَطَّ قَدَمُهُ حَدْرٌ . راجع سماج اللغة ركتب السه .
(٣) النَّدَرَةُ (يَخْتَفِئُ نَكَوْنُ) : الْقِطْعَةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ تَوْجَدُ فِي الْمَعْدِنِ . (٤) في هـ : دفين .

دفعه قبل الإسلام من الأموال المادية ، وأما ما كان من ضرب الإسلام فحكه عنهم
حكم القسطة .

الخامسة — واختلفوا في حكم الركا ز إذا وُجد؛ فقال مالك : ما وُجد من دُفن الجاهلية
في أرض العرب أو في قِيافي الأرض التي ملكها المسلمون بغير حرب فهو لواجد وفيه الخمس ؛
وأما ما كان في أرض الإسلام فهو كالقسطة . قال : وما وُجد من ذلك في أرض العتوة
فهو للجماعة الذين انتصروها دون واجده ، وما وُجد من ذلك في أرض الصلح فإنه لأهل تلك
البلاد دون الناس ، ولا شيء للواجد فيه إلا أن يكون من أهل الدار فهو له دونهم . وقيل :
بل هو لجملة أهل الصلح . قال إسماعيل : وإنما حكم للركا ز بحكم الغنيمة لأنه مأل كافر وجدته
مسلم فأزله منزلة من قاتله وأخذ ماله ؛ فكان له أربعة أخماسه . وقال ابن القاسم : كان مالك
يقول في الثرؤوس والخواهر والحديد والرصاص ونحوه يُوجد ركازا ؛ إن فيه الخمس ثم رجع
فقال : لا أرى فيه شيئا ، ثم آخر ما فارقه أن قال : فيه الخمس . وهو الصحيح لعموم الحديث
وعليه جمهور الفقهاء . وقال أبو حنيفة ومحمد في الركا ز يوجد في الدار : إنه لصاحب الدار
دون الواجد وفيه الخمس . وخالفه أبو يوسف فقال : إنه للواجد دون صاحب الدار ؛ وهو
قول الثوري . وإن وجد في القلعة فهو للواجد في قولهم جميعا وفيه الخمس . ولا فرق عندهم بين
أرض الصلح وأرض العتوة ، وسواء عندهم أرض العرب وغيرها ، ومجاز عندهم لواجد أنه
يحتسب الخمس لنفسه إذا كان محتاجا وله أن يعطيه لساكنين . ومن أهل المدينة وأصحاب
مالك من لا يفرق بين شيء من ذلك وقالوا : سواء وجد الركا ز في أرض العتوة أو في أرض
الصلح أو أرض العرب أو أرض الحرب إن لم يكن ملكا لأحد ولم يتدعه أحد فهو لواجد
وفيه الخمس على عموم ظاهر الحديث ، وهو قول الليث وعبد الله بن نافع والشافعي وأكثر
أهل المسلم .

السادسة — وأما ما يوجد من المعادن ويخرج منها فاختلف فيه ؛ قال مالك وأصحابه :
لا شيء فيما يخرج من المعادن من ذهب أو فضة حتى يكون عشرين مثقالا ذبعا أو خمس

أوراق فضة ، فإننا بئنا هذا المقدار وجبت فيهما الزكاة ، وما زاد فيحساب ذلك ما دام في المدين نيل ، فإن أقطع ثم جاء بعد ذلك نيل آخر فإنه يتجدد فيه الزكاة مكانه . والركاز عندهم بمنزلة الزرع تؤخذ منه الزكاة في حينه ولا يُنظر به حولا . قال سُحنون في رجل له معدن ، إنه لا يضم ما في واحد منها إلى غيرها ولا يزكي إلا عن مائتي درهم أو عشرين ديناراً في كل واحد . وقال محمد بن مسلمة : يضم بعضها إلى بعض ويترك الجميع كالزروع . وقال أبو حنيفة وأصحابه : المعدن كالركاز ، فما وجد في المدين من ذهب أو فضة بعد إخراج الخمس اعتبر كل واحد منهما ، فمن حصل بيده ما يجب فيه الزكاة زكاه تمام الحول إن أتى عليه حول وهو نصاب عنده ، هذا إذا لم يكن عنده ذهب أو فضة وجبت فيه الزكاة . فإن كان عنده من ذلك ما يجب فيه الزكاة ضمه إلى ذلك وزكاه . وكذلك عندهم كل فائدة تضم في الحول إلى النصاب من جنسها وتركى لحول الأصل ، وهو قول الثوري . وذكر المُرزقي عن الشافعي قال : وأما الذي أنا واقف فيه فما يخرج من المعدن . قال المُرزقي : الأول به على أصله أن يكون ما يخرج من المعدن فائدة يُركى بحوله بعد إخراجها . وقال الليث بن سعد : ما يخرج من المعدن من الذهب والفضة فهو بمنزلة الفائدة يستأنف به حولا ، وهو قول الشافعي فيما حصله المُرزقي من مذهبه ، وقال به داود وأصحابه إذا حال عليها الحول عند مالك صحيح الملك ، لقوله صلى الله عليه وسلم : " من استفاد مالاً فلا زكاة عليه حتى يحول عليه الحول " أخرجه الترمذي والدارقطني . واحتجوا أيضاً بما رواه عبد الرحمن بن أنس عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى قوماً من المؤلفة قلوبهم ذهنية في تربتها ، بها على رضى الله عنه من اليمن . قال الشافعي : والمؤلفة قلوبهم حقهم في الزكاة ، فتبين بذلك أن المعدن سئتها سنة الزكاة . وحجة مالك حديث عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن أن النبي صلى الله عليه وسلم أقطع بلال بن الحارث المعدن القليلة وهي من ناحية الفرع ، تلك المعدن لا يؤخذ منها إلى اليوم إلا الزكاة . وهذا

(١) هي تصغير ذهب ، وأدخل الماء فيها لأن الذهب يذوب ، والثوبت الثلاث إذا سفل الخ في تصغير الماء نحو شمية . وقيل : هو تصغير على نية القسمة منها فصرفها على قنطريا . (٢) القليلة (بالفتح) : منسوبة إلى قبل موضع من ساحل البحر على خمسة أيام من المدينة . والفرع (بضم فك) : قرية من نواحي الريدة من بلاد السبأ بينها وبين المدينة ثمانية يرد على طريق مكة ، وقيل أربع لآل ، بها منير ونخل وبلاد كثيرة .

حديث مقطوع الإسناد لا يخرج بمثله أهل الحديث، ولكنه عمل يعمل به عندهم في المدينة .
ورواه الترمذى عن ربيعة عن الحارث بن بلال المزنى عن أبيه . ذكره البزار، ورواه
كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أقطع
بلال بن الحارث المادان القبيلة جليتها وغوريها . وحيث يصلح للزراعة من قدس ولم يقطعه
حق مسلم ، ذكره البزار أيضا ، وكثير يجمع على ضعفه . هذا حكم ما أخرجه الأرض ،
وسياق في سورة « النحل » حكم ما أخرجه البحر إذ هو قسم الأرض . وباقى في « الأنبياء »
معنى قوله عليه السلام : « العجباء يترحها جبار » كل في موضعه إن شاء الله تعالى .

السابعة — قوله تعالى : (وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْهَاتَ مِنْهُ تَتَفَقَّوْنَ)^(١) يعموا معناه قصدوا ،
وسنأتي الشواهد من أشعار العرب في أن التميم القصد في « النساء » إن شاء الله تعالى .
وذلت الآية على أن المكاسب فيها طيب وخيث . وروى النسائي عن أبي أمامة بن سهل
ابن حنيفة في الآية التي قال الله تعالى فيها : « وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْهَاتَ مِنْهُ تَتَفَقَّوْنَ » قال :
هو الجعور وتكون حقيق ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤخرا في الصدقة .
وروى الدارقطني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال : أمر رسول الله صلى الله
عليه وسلم بصدقة فجاء رجل من هذا السهل بكأنس — قال سفيان : يعني الشيص —
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جاء بهذا ؟ » وكان لا يحى أحد بشيء إلا أنسب
إلى الذي جاء به . فزلت : « وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْهَاتَ مِنْهُ تَتَفَقَّوْنَ » . قال : ونهى النبي صلى الله
عليه وسلم عن الجعور وتكون الحقيق أن يؤخرا في الصدقة — قال الزهري : لوين من

(١) المجلس (فتح فسكون) : كل مرتفع من الأرض . والنور : ما انخفض منها .

(٢) القدس (بضم القاف وسكون الدال) : جبل معروف . وقيل : هو الموضع المرتفع الذي يصلح للزراعة .

(٣) راجع ج ١٠ ص ٨٥ (٤) راجع ج ١٢ ص ٣١٥ (٥) راجع ج ٥ ص ٢٣١

(٦) الجعور (بضم الجيم وسكون السين وراء مكسرة) : ضرب ردى من التريميل وربما صار لا خير فيه .

وحقيق (بضم الحاء المهملة وفتح اللام) : نوع ردى من الترمسب إلى ابن حقيق وهو اسم رجل .

(٧) السهل (بضم السين وفتح الحاء مشددة) : الرطب الذي لم يتم إدراكه وقوته .

تمر المدينة - وأخرجه الترمذي من حديث البراء ومحمه ، وسأى . وحكى الطبري والنحاس أن في قراءة عبدا لله « وَلَا تَأْمُوا » وهما لغتان . وقرأ مسلم بن جندب « وَلَا تُيْمُوا » يضم التاء وكسر الميم . وقرأ ابن كثير « يَتِمُّوا » بتشديد التاء . وفي اللفظة لغات ، منها « أَمِئْتُ الشَّيْءَ » خففت الميم الأولى و « أَمِنْتُ » بشتها ، و « يَمِنْتُهُ وَيَمِنْتُهُ » . وحكى أبو عمرو أن ابن مسعود قرأ « وَلَا تَوْمُوا » بهمزة بعد التاء المضمومة .

الثامنة - قوله تعالى : (مِنْهُ تُنْفِقُونَ) قال الجرجاني في كتاب « نظم القرآن » : قال فريق من الناس : إن الكلام تم في قوله تعالى « الْحَقِيتَ » ثم ابتدأ خبرا آخر في وصف الخبيث فقال : « مِنْهُ تُنْفِقُونَ » وأتم لا تأخذونه إلا إذا انحضم أي تساهلتم ، كان هذا المعنى حجاب للناس وتقرير ، والضمير في « مِنْهُ » عائد على الخبيث وهو الدون والردى . قال الجرجاني : وقال فريق آخر : الكلام متصل إلى قوله « مِنْهُ » ؛ فالضمير في « مِنْهُ » عائد على « مَا كَسَبْتُمْ » ويحى « تُنْفِقُونَ » كأنه في موضع نصب على الحال ؛ وهو كقولك : أنا أخرج أجاهد في سبيل الله .

التاسعة - قوله تعالى : (وَلَسْتُمْ بِأَخِيذِهِ إِلَّا أَنْ تُقِيمُوا فِيهِ) أى لستم بأخذيته في ديونكم وحقوقكم من الناس إلا أن تساهلوا في ذلك وتركوا من حقوقكم ، وتكروهونه ولا ترضونه . أى فلا تفعلوا مع الله ما لا ترضونه لأنفسكم ، قال معناه البراء بن عازب وابن عباس والضحاك . وقال الحسن : معنى الآية : ولستم بأخذيته ولو وجدتموه في السوق يساع إلا أن يهضم لكم من ثمنه . وروى نحوه عن علي رضي الله عنه . قال ابن عطية : وهذان القولان يشبهان كون الآية في الزكاة الواجبة . قال ابن العربي : لو كانت في القرض لما قال « وَلَسْتُمْ بِأَخِيذِهِ » لأن الرديء والمعييب لا يجوز أخذه في القرض بحال ، لا مع تقدير الإغماض ولا مع صدمه ، وإنما يؤخذ مع عدم إغماض في النقل . وقال البراء بن عازب أيضا معناه : « وَلَسْتُمْ بِأَخِيذِهِ » لو أهدى لكم « إِلَّا أَنْ تُقِيمُوا فِيهِ » أى تسجي من المهدى فتقبل منه ما لا حاجة لك به ولا قتلره في نفسه . قال ابن عطية : وهذا يشبه كون الآية في التطوع . وقال ابن زيد : ولستم بأخذي الحرام إلا أن تقيموا في مكروهه .

العاشرة - قوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ تَمِضُوا فِيهِ﴾ كما قراءة الجمهور ، من أغمض الرجل في أمر كما إذا تساهل فيه ورضي بيمض حقه وتجاوز ؛ ومن ذلك قول الطرماح :
لَمْ يَمِضْنَا بِالْوَرَقِ قَوْمٌ وَلِلدُّ • لَ أَنْسَ يَرْضُونَ بِالْإِغْمَاضِ
وقد يحتمل أن يكون مترعا إما من تميمض العين ؛ لأن الذي يريد الصبر على مكروه يغمض عينه - قال :

إِلَى كَمْ وَكَمْ أَشْيَاءَ مِنْكَ تُرِيْبُنِي • أَغْمَضُ عَنْهَا لَسْتُ عَنْهَا بِذِي عَمَى

وهذا كالإغمضاء عند المكروه . وقد ذكر النقاش هذا المعنى في هذه الآية وأشار إليه مكّي -
وإما من قول العرب : أغمض الرجل إذا أتى غامضا من الأمر ؛ كما تقول : أتمنى أى أتى عثمان ، وأعرق أى أتى البراق ، وأنجد وأغور أى أتى نجدا والنور الذي هو تهامة ، أى فهو يطلب التأويل على أخذه . وقرا الزهرى بفتح التاء وكسر الميم غفقا ، وعنه أيضا « تَمِضُوا » بضم التاء وفتح النون وكسر الميم وشذها . فالأولى على معنى تهمضوا سوماها من البائع منك فيحطكم . والثانية ، وهي قراءة قتادة فيما ذكر النحاس ، أى تأخذوا بتقصان . وقال أبو عمرو الثاني : معنى قراءة الزهرى حتى تأخذوا بتقصان . وحكى مكّي عن الحسن « إِلَّا أَنْ تَمِضُوا » مشددة الميم مفتوحة . وقرا قتادة أيضا « تَمِضُوا » بضم التاء وسكون النون وفتح الميم غفقا . قال أبو عمرو الثاني : معناه إلا أن يغمض لكم ؛ وحكاها النحاس من قتادة نفسه . وقال ابن جني : معناها تَوَجَّدُوا قد غمضتم في الأمر بتأولكم أو بتساهلكم وجريتم على غير السابق إلى النفوس . وهذا كما تقول : أحمدت الرجل وجدته محمودا ، إلى غير ذلك من الأمثلة . قال ابن عطية : وقراءة الجمهور تخرج على التجاوز وعلى تميمض العين ؛ لأن أغمض بمنزلة غمض . وعلى أنها بمعنى حتى تأتوا غامضا من التأويل والنظر في أخذ ذلك ؛ إما لكونه حراما على قول ابن زيد ، وإما لكونه مهتدى أو ماخوفا في دين على قول غيره .

وقال المَهْدِيُّ: ومن قرأ «تُمِصُوا» فالله يَنْفِصُونُ أَعْيَنَ بِهَائِكُمْ عَنْ أَخْذِهِ . قال الجوهرى: وَتَحَضَّتْ عَنْ فُلَانٍ إِذَا تَسَاهَلَتْ عَلَيْهِ فِي بَيْعِ أَوْ شِرَاءٍ وَاتَّحَضَتْ ، وقال تعالى : « وَلَسْتُمْ بِأَخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغِصُّوا فِيهِ » . يقال : أَغْصِضْتُ لِي فَيَا بَعْنِي ؛ كَأَنَّكَ تَرِيدُ الزِّيَادَةَ مِنْهُ لِرَدَائِهِ وَالْحُطَّ مِنْ ثَمَنِهِ . و« أَنْ » فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ ، وَالتَّقْدِيرُ إِلَّا بَانَ .

الحادية عشرة - قوله تعالى : (وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) نَبَهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى صِفَةِ الْغِنَى ، أَيْ لَا حَاجَةَ بِهِ إِلَى صِدْقَاتِكُمْ ؛ فَن تَقَرَّبْ وَطَلِبْ مَثُوبَةً فَلْيَفْعَلْ ذَلِكَ بِمَا لَهُ قَدْرٌ وَبِأَلِّ ، فَإِنَّمَا يَقْدَمُ لِنَفْسِهِ . و« حَمِيدٌ » مَعْنَاهُ مَجْهُودٌ فِي كُلِّ حَالٍ . وقد أَتَيْنَا عَلَى مَعَانِي هَذَيْنِ الْاسْمَيْنِ فِي « الْكَتَابِ الْأَسْنَى » وَالْحَمْدُ لِلَّهِ . قال الزَّمَاجُ فِي قَوْلِهِ « وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ » : أَيْ لَمْ يَأْمُرْكُمْ أَنْ تَصَدَّقُوا مِنْ عَوَزٍ وَلَكِنَّهُ بَلَا أَخْبَارَكُمْ فَهُوَ حَمِيدٌ عَلَى ذَلِكَ عَلَى جَمِيعِ نِعَمِهِ . قوله تعالى : « الشَّيْطَانُ يَعِدُّكُمْ بِالْفَقْرِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِْدُّكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (١٧٨) فِيهِ ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الأولى - قوله تعالى : (الشَّيْطَانُ) تَقْدَمُ مَعْنَى الشَّيْطَانِ وَاشْتِعَاقُهُ فَلَا مَعْنَى لِإِعَادَتِهِ . و« يَعِْدُّكُمْ » مَعْنَاهُ يَخَوِّفُكُمْ « الْفَقْرَ » أَيْ بِالْفَقْرِ لئَلَّا تُنْفِقُوا . فَهَذِهِ الْآيَةُ مُتَّصِلَةٌ بِمَا قَبْلُ ، وَأَنَّ الشَّيْطَانَ لَهُ مَدْخَلٌ فِي التَّشْبِيطِ لِلْإِنْسَانِ عَنِ الْإِثْقَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَهُوَ الْمَعَاصِي وَالْإِثْقَاقُ فِيهَا . وَقِيلَ : أَيْ بَأَن لَّا تَصَدَّقُوا فَتَعَصُوا وَتَقَطَّعُوا . وَقُرِئَ « الْفَقْرَ » بِضَمِّ الْفَاءِ وَهُوَ لَنَّهُ . قال الجوهرى : وَالْفَقْرُ لَنَةٌ فِي الْفَقْرِ ؛ مِثْلُ الضَّمْفِ وَالضَّمْفِ .

الثانية - قوله تعالى : (وَاللَّهُ يَعِْدُّكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا) الْوَعْدُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ إِذَا أُطْلِقَ فَهُوَ فِي الْخَيْرِ ، وَإِنَّمَا قِيدَ بِالْمَوْعِدِ مَا هُوَ فَقْدٌ يَقْتَضِي الْخَيْرَ وَالْشَّرَّ كَالْيَشَارَةِ . فَهَذِهِ الْآيَةُ مِمَّا يَقِيدُ فِيهَا الْوَعْدُ بِالْمَعْنَيْنِ جَمِيعًا . قال ابن عباس : فِي هَذِهِ الْآيَةِ اثْنَانِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَاثْنَانِ مِنَ الشَّيْطَانِ . وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عليه وسلم : « إن للشيطان لمةً ^(١) وابن آدم لمةً ^(٢) وللك لمةً ^(٣) فاما لمة الشيطان فيأيد بالشر وتكذب بالحق واما لمة الملك فيأيد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ومن وجد الأخرى فليعوذ بالله من الشيطان — ثم قرأ — الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمُ بِالْفَحْشَاءِ » .
قال : هذا حديث حسن صحيح ^(٤) . ويعوز في غير القرآن « ويأمركم بالفحشاء » بمخلف الباء ؛ وأنشد سيويه :

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به • فقد تركت ذاملي وكذا تنسب

والمغفرة هي الستر على عباده في الدنيا والآخرة . والفضل هو الرزق في الدنيا والتوسعة والتيسر في الآخرة ؛ وبكل قد وعد الله تعالى •

الثالثة — ذكر النقاش أن بعض الناس تأمس بهذه الآية في أن الفقر أفضل من الثنى ؛ لأن الشيطان إنما يُبعد العبد من الخير ، وهو يتقوى به الفقر يُبعد منه • قال ابن عطية : وليس في الآية حجة فاطمة بل المارضة بها قوية • وروى أن في التوراة « عبيد أتفق من رزقي أبسط عليك فضلي فإن يدي مبسوطة على كل يد مبسوطة » • وفي القرآن « صدقته وهو قوله : « وَمَا أَنتَقِمُ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » ^(٥) . ذكره ابن عباس • (والله واسعٌ عليم) تقدم معناه • والمراد هنا أنه سبحانه وتعالى يُعطي من سعة ويعلم حيث يضع ذلك ، ويعلم الغيب والشهادة • وهما اسمان من أسمائه ذكرناهما في جملة الأسماء في « الكتاب الأمي » والحمد لله •

قوله تعالى : يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ^(٦)

(١) (فتح اللام) : الحمة والخطرة تقع في القلب • أراد إلهام الملك أو الشيطان به والقرب منه ، فإكان من خطرات الخير فهو من الملك ، وما كان من خطرات الشر فهو من الشيطان • (من نهاية ابن الأثير) .

(٢) كذا في الأصول . والذي في سنن الترمذي : « ... حسن غريب » •

(٣) راجع ج ١ ص ٣٠٧ • (٤) راجع المسألة الخامسة ج ٢ ص ٨٤ •

قوله تعالى : ﴿يُؤْتِ الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ أى يعطيها لمن يشاء من عباده . وأختلف العلماء فى الحكمة هنا ؛ فقال السدى : هى النبوة . ابن عباس : هى المعرفة بالقرآن فقهه وسننه وحكمه ومتشابهه وغريبه ومقدمه ومؤخره . وقال قتادة ومجاهد : الحكمة هى الفقه فى القرآن . وقال مجاهد : الإجابة فى القول والفعل . وقال ابن زيد : الحكمة العقل فى الدين . وقال مالك بن أنس : الحكمة المعرفة بدين الله والفقه فيه والاتباع له . وروى عنه ابن القاسم أنه قال : الحكمة التفكير فى أمر الله والاتباع له . وقال أيضا : الحكمة طاعة الله والفقه فى الدين والعمل به . وقال الربيع بن أنس : الحكمة الخشية . وقال إبراهيم النخعي : الحكمة الفهم فى القرآن ؛ وقاله زيد بن أسلم . وقال الحسن : الحكمة الورع . قلت : وهذه الأقوال كلها ماعدا قول السدى والربيع والحسن قريب بعضها من بعض ؛ لأن الحكمة مصدر من الإحكام وهو الإتيان فى قول أو فعل ؛ فكل ما ذكر فهو نوع من الحكمة التى هى الجس ، فكلب الله حكمة ، وسنة نبيه حكمة ، وكل ما ذكر من التفضيل فهو حكمة . وأصل الحكمة ما ينتج به من السفة ؛ فقليل العلم حكمة ؛ لأنه يُنتج به ، وبه يعلم الإمتناع من السفة وهو كل فعل فيح ، وكذا القرآن والعقل والفهم . وفى البخارى : "من يريد الله به خيرا يفقهه فى الدين" وقال هنا : « وَمَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » وذكر ذكر الحكمة ولم يضمها اعتناء بها ، وتنبها على شرفها وفضلها حسب ما تقدم بيانه عند قوله تعالى : « فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا » . وذكر الداريمى أبو محمد فى مسنده : حدثنا مروان بن محمد حدثنا رفة السافى قال أخبرنا ثابت بن عجلان الأنصارى قال : كان يقال : إن الله يريد العذاب بأهل الأرض فإذا سمع تعليم المعلم الصبيان الحكمة صرف ذلك عنهم . قال مروان : يعنى بالحكمة القرآن .

قوله تعالى : ﴿يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَوَّلُ الْأَنْبِيَاءِ﴾
يقال : إن من أعطى الحكمة والقرآن فقد أعطى أفضل ما أعطى من جمع علم كتب الأولين

من الصحف وغيرها؛ لأنه قال لأولئك : « وَمَا أَوْيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ^(١) » . وسمى هذا خيرا كثيرا ؛ لأن هذا هو جوامع الكلم . وقال بعض الحكماء : من أعطى العلم والقرآن يبنى أنذ يعرف نفسه ، ولا يتواضع لأهل الدنيا لأجل دنياهم ؛ فإنما أعطى أفضل ما أعطى أصحاب الدنيا ؛ لأن الله تعالى سَمَّى الدنيا متاعا قليلا فقال : « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ^(٢) » . وسمى العلم والقرآن « خيرا كثيرا » . وقرأ الجمهور « وَمَنْ يُؤْتَ » على بناء الفعل للمفعول . وقرأ الزهري ويعقوب « ومن يؤت » بكسر التاء على معنى ومن يؤت الله الحكمة ، فالفاعل اسم الله عز وجل . و « مَنْ » مفعول أول مقدم ، والحكمة مفعول ثان . والألباب : العقول ، واحتملها وقد تقدم ^(٣) .

قوله تعالى : وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ^(٤)

شرط وجوابه ، وكانت النذور من سيرة العرب تكثر منها ؛ فذكر الله تعالى النوعين ، ما يفعله المرء متبرعا ، وما يفعله بعد إزمائه لنفسه . وفي الآية معنى الوعد والوعيد ، أى من كان خالص النية فهو مثاب ، ومن أنفق رياء أو لمعنى آثرما يكسبه الحق والأذى ونحو ذلك فهو ظالم ، ينهب فعله باطلا ولا يمد له ناصرا فيه . ومعنى « يَعْلَمُهَا » يُحْصِيهَا ؛ قاله مجاهد . ووحد الضمير وقد ذكر شيئين ، فقال النحاس : التقدير (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ) فإن الله يعلمها ، (أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ) فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا ثم حذف . ويجوز أن يكون التقدير : وما أنفقتُم فإن الله يعلمه وتعود الملاء على « ما » كما أنشد سيويه [لأمرئ القيس] ^(٥) :

فَتُوجِّعُ فَاَلْمِقْرَاءَ لَمْ يَغْفُ رَسْمُهَا - لِمَا تَسْجَتُنَا مِنْ جَنُوبٍ وَتَمَّالٍ ^(٥)

ويكون « أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ » معطوفا عليه . قال ابن عطية : ووحد الضمير في « يعلمه » . وقد ذكر شيئين من حيث أراد ما ذكر أو نُصِّى .

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٢٣ (٢) راجع ج ٥ ص ٢٨١ (٣) راجع المسألة الزايدة ص ٢٤ ج ١ ص ١٢

(٤) الزايدة في ب . (٥) وتوضع والمقراءة : موشان ، وما حطفت على « حويل » في البيت قبله .

قلت : وهذا حسن : فإن الضمير قد يراد به جميع المذكور وإن كثُر . والنذر حقيقة العبارة عنه أن تقول : هو ما أوجبه المكلف على نفسه من العبادات مما لو لم يوجبه لم يلزمه ؛ تقول : نذر الرجل كذا إذا التزم فعله ، ينذر (بضم النال) وينذر (بكسرهما) . وله أحكام يأتي بيانها في غير هذا الوضع إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : **إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهُا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** (٢٧١)

ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية في صدقة التطوع ؛ لأن الإخفاء فيها أفضل من الإظهار ، وكذلك سائر العبادات الإخفاء أفضل في تطوعها لاستفاء الرياء عنها ، وليس كذلك الواجبات . قال الحسن : إظهار الزكاة أحسن ، وإخفاء التطوع أفضل ؛ لأنه أدل على أنه يراد الله عز وجل به وحده . قال ابن عباس : جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها يقال بسبعين ضعفا ، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يقال بخمسة وعشرين ضعفا . قال : وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها .

قلت : مثل هذا لا يقال من جهة الرأي وإنما هو توقيف ؛ وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة " (١) وذلك أن الفرائض لا يدخلها رياء والنوافل حُرصة لذلك . وروى النسائي عن عتبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الذي يجهر بالقرآن كالذي يجهر بالصدقة والذي يُسر بالقرآن كالذي يُسر بالصدقة " . وفي الحديث : " صدقة السر تُطفئ غضب الرب " .

قال ابن العربي : « وليس في تفضيل صدقة العلانية على السر ، ولا تفضيل صدقة السر على العلانية حديث صحيح ولكنه الإجماع الثابت ؛ فأما صدقة النفل فالقرآن ورد مصرحا (١) راجع - ١٩ - ١٢٥ (٢) جارة سلم كما في صحيحه » ... فإن خير صلاة المرء في بيته إلا الصلاة المكتوبة » .

بأنها في السر أفضل منها في الجهر؛ بيد أن علماءنا قالوا : إن هذا على الغالب مخرجه ،
والتحقيق فيه أن الحال [في الصدقة ^(١)] تختلف بحال المعطي ^(٢) [لها] والمعطى إياها والناس
الشاهدين [لها] . أما المعطى فله فيها فائدة إظهار السنة وثواب القدوة .

قلت : هذا لمن قويت حاله وحسنت نيته وأمن على نفسه الرياء ، وأما من ضعف عن
هذه المرتبة فالسر له أفضل .

وأما المعطى إياها فإن السر له أسلم من احتقار الناس به ، أو نسبته إلى أنه أخذها مع
الغنى عنها وترك التعفف ، وأما حال الناس فالسر عنهم أفضل من العلانية لهم ، من جهة أنهم
ربما طعنوا على المعطى لها بالرياء وعلى الآخذ لها بالاستغناء ، ولم فيها تحريك القلوب
إلى الصدقة ؛ لكن هذا اليوم قليل .

وقال يزيد بن أبي حبيب : إنما نزلت هذه الآية في الصدقة على اليهود والنصارى ،
فكلفت بأمر بقسم الزكاة في السر . قال ابن عطية : وهذا مردود ، لا سيما عند السلف
الصالح ؛ فقد قال الطبري : أجمع الناس على أن إظهار الواجب أفضل .

قلت : ذكر اليعاكبة الطبري أن في هذه الآية دلالة على قول إخفاء الصدقات مطلقا
أولى ، وأنها حق الفقير وأنه يجوز لرب المال تفريقها بنفسه ، على ما هو أحد قول الشافعي .
وعلى القول الآخر ذكروا أن المراد بالصدقات ما هنا التطوع دون الفرض الذي إظهاره أولى
لأنه يلحقه ثمة ؛ ولأجل ذلك قيل : صلاة المثل فرأى أفضل ، والجماعة في الفرض أبعد عن
الثمة . وقال المتهدي : المراد بالآية فرض الزكاة وما تطلق به ، فكان الإخفاء أفضل
في مدة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ساعد ظنون الناس بعد ذلك ، فاستحسن العلماء إظهار
الفرائض لئلا يظن بأحد المنع . قال ابن عطية : وهذا القول مخالف للآثار ، ويشبه في زماننا
أن يحسن التستر بصدقة الفرض ، فقد كثرت المنع لها وصار إنراجها عرضة للرياء . وقال
ابن خزيمة متناد : وقد يجوز أن يراد بالآية الواجبات من الزكاة والتطوع ؛ لأنه ذكر الإخفاء

(١) الزيادة من ابن العربي . (٢) في : الناس .

ومدحه والإظهار ومدحه ، فيجوز أن يتوجه إليهما جميعا . وقال النقاش : إن هذه الآية نسخها قوله تعالى : « الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً » الآية .

قوله تعالى : « فَنِعْمًا هِيَ » إنشاء على إبداء الصدقة ، ثم حكم على أن الإخفاء خير من ذلك . ولذلك قال بعض الحكماء : إذا اصطنعت المعروف فأستره ، وإذا اصطنعت إليك فأشهره . قال دجيل الخزاعي :

إذا انتقموا أعلنوا أمرهم * وإن أنعموا أنعموا باكتئام
وقال سهل بن هارون :

خل إذا جتته يوما لتسأله * أعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا
يخفي صنائمه والله يظهرها * إن الجليل إذا أخفيتها ظهرها

وقال العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه : لا يتم المعروف إلا بثلاث خصال : تعجله وتصغيره وستره ، فإذا أعجلته هينته ، وإذا صغره عظمته ، وإذا سترته أتممته . وقال بعض الشعراء فأحسن :

زاد معروفك عندي عظما * أنه عندك مستورٌ حقير
تنبأ ساء كلُّ من نَمَّ نأته * وهو عند الناس مشهورٌ خيبر

واختلف القراء في قوله « فَنِعْمًا هِيَ » قرأ أبو عمرو ونافع في رواية ورش وعاصم في رواية حفص وابن كثير « فَنِعْمًا هِيَ » بكسر النون والعين . وقرأ أبو عمرو أيضا ونافع في غير رواية ورش وعاصم في رواية أبي بكر والمفضل « فَنِعْمًا » بكسر النون وسكون العين . وقرأ الأعمش وابن عامر وحمزة والكسائي « فَنِعْمًا » بفتح النون وكسر العين ، وكلهم سكن الميم . ويجوز في غير القرآن فَنِعْمَ ما هـ . قال النحاس : ولكنه في السواد متصل فَنِم الإدغام . وحكى النحويون في « نِم » أربع لغات : نِم الرجل زيد ، هذا الأصل . ونِعم الرجل ، بكسر النون لكسر العين . ونِم الرجل ، بفتح النون وسكون العين ، والأصل نِعم حذفت الكسرة لأنها ثقيلة . ونِعم الرجل ، وهذا أفصح اللغات ، والأصل فيها نِعم . وهى تقع في كل مدح ، تخففت وقلبت كسرة العين على النون وأسكنت العين ، ففى قرأ « فَنِعْمًا هِيَ » فله تقديران : أحدهما أن يكون جاء به على لغة من يقول نِعم . والتقدير الآخر أن يكون على

اللفة الجيدة، فيكون الأصل نيم، ثم كسرت العين لالتقاء الساكنين . قال النحاس : فأتا الذي حكي عن أبي عمرو واقع من إسكان العين فعال . حكي عن محمد بن يزيد أنه قال : أما إسكان العين والميم مشددة فلا يقدر أحد أن ينطق به ، وإنما يوم الجمع بين ساكنين ويحرك ولا ياءه . وقال أبو علي : من قرأ بسكون العين لم يستقم قوله ؛ لأنه جمع بين ساكنين الأول منهما ليس بحرف مد ولين وإنما يجوز ذلك عند النحويين إذا كان الأول حرف مد ، إذ المد يصير عوضاً من الحركة ، وهذا نحو دابة وضوال ونحوه . ولعل أبا عمرو أخفى الحركة واختلسها كأخذه بالإخفاء في « باريئكم » - « يَأْسُرُكُمْ » فظن السامع الإخفاء إسكاناً للطف ذلك في السمع وخفائه . قال أبو علي : وأما من قرأ « نَيْمًا » بفتح النون وكسر العين فلأنما جاء بالكلمة على أصلها ومنه قول الشاعر :

ما أقلت قسماً أي إنيهم * نيم الساعون في الأمر المير

قال أبو علي : و « ما » من قوله تعالى : « نَيْمًا » في موضع نصب ، وقوله « هي » تفسير للفاعل المضمر قبل الذكر ، والتقدير نعم شيئاً إذاؤها ، والإبداء هو المخصوص بالمدح إلا أن المضاف حذف وأقيم المضاف إليه مقامه . ويدل على هذا قوله « فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ » أي الإخفاء خير . فكأن الضمير هنا للإخفاء لا للصدقات فكذلك ، أولاً الفاعل هو الإبداء وهو الذي اتصل به الضمير ، لحذف الإبداء وأقيم ضمير الصدقات مثله . « وَإِنْ تُخَفُّوْهَا » شرط ، فلذلك حذفت النون . « وَتُؤْتَوْهَا » عطف عليه . والجواب « فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ » . « وَيُكْفَرُ » اختلف القراء في قراءته ؛ قرأ أبو عمرو وابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر وقادة وابن أبي إسحاق « وَتُكْفَرُ » بالنون ورفع الزاء . وقرأ [نافع] ^(١) وحمة والكسائي بالنون والجزم في الزاء ؛ وروى مثل ذلك أيضاً عن عاصم . وروى الحسين بن علي الجعفي عن الأعمش « يُكْفَرُ » بنصب الزاء . وقرأ ابن عاصم بالياء ورفع الزاء ؛ ورواه جفص عن عاصم ، وكذلك روى عن الحسن ، وروى عنه بالياء والجزم . وقرأ ابن عباس « وَتُكْفَرُ » بالياء وكسر الفاء وجزم الزاء . وقرأ

(١) كما في النحاس ، والذي في نسخ الأصل : ولا ياءه . (٢) وروى : قدى . بالافراد راجع به ؛ خزانه ص ١٠١ (٣) في الأصول : الأعمش ، والصواب ما أثبتناه من البحر وابن عليه وغيرهما .

عكرمة « وَتُكْفِّرُ » بالباء وفتح الفاء وجزم الراء . وحكى المهدوي عن ابن هُرْمُزٍ أنه قرأ « وَتُكْفِّرُ » بالباء ورفع الراء . وحكى عن عكرمة وشهر بن حوشب أنها قرأوا ببناء ونصب الراء . فهذه تسع قراءات آتَيْنَا « وَتُكْفِّرُ » بالنون ورفع . هذا قول الخليل وسيبويه . قال النحاس قال سيبويه : ورفعها هنا الوجه وهو الجهل ؛ لأن الكلام الذي بعد الفاء يجري مجراه في غير الجزاء . وأجاز الجزم بحمله على المعنى ؛ لأن المعنى وإن تحقوها وتؤتوها الفقراء يكن خيراً لكم وتكفرو عنكم . وقال أبو حاتم : قرأ الأعمش « يُكْفِّرُ » بالياء دون واو قبلها . قال النحاس : والذي حكاه أبو حاتم عن الأعمش بنسب واو جزماً يكون على البدل كأنه في موضع الفاء . والذي روى عن عامر « وَيُكْفِّرُ » بالياء ورفع يكون معناه وَيُكْفِّرُ اللَّهُ ؛ هذا قول أبي عبيد . وقال أبو حاتم : معناه يَكْفِرُ الإِيعَاءُ . وقرأ ابن عباس « وَتُكْفِّرُ » يكون معناه وتكفِّرُ الصدقات . وبالجملة فما كان من هذه القراءات بالنون فهي نون العظمة ، وما كان منها بالباء فهي الصدقة فاعلمه ؛ إلا ما روى عن عكرمة من فتح الفاء فإن البناء في تلك القراءة إنما هي للسبب ، وما كانت منها بالياء فالله تعالى هو المكفِّر ، والإيعاء في خفاء مكفِّر أيضاً كما ذكرنا ، وحكاه مكي . وأما رفع الراء فهو على وجهين : أحدهما أن يكون الفعل خبر ابتداء تقديره ونحن نكفِّر أو وهي تكفِّر ، أعني الصدقة ، أو والله يكفِّر . والثاني القطع والاستئناف لا تكون الواو الماطفة للاشتراك لكن تعطف جملة كلام على جملة . وقد ذكرنا معنى قراءة الجزم . فأما نصب « وَتُكْفِّرُ » فضعيف وهو على إضمار أن وجاز على بُد . قال المهدوي : وهو مشبه بالنصب في جواب الاستفهام ، إذ الجزاء يجب به الشيء . لوجب غيره كالاستفهام . والجزم في الراء أنصح هذه القراءات ، لأنها تؤذن بدخول التكفير في الجزاء وكونه مشروطاً إن وقع الإخفاء . وأما الرفع فليس فيه هذا المعنى .

قلت : هذا خلاف ما اختاره الخليل وسيبويه . و « مِنْ » في قوله « مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ » للتبعض المحض . وحكى الطبري عن فرقة أنها زائدة . قال ابن عطية : وذلك منهم خطأ . (وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) وعد ووعيد .

قوله تعالى : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفَسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا
مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧١﴾

قوله تعالى : (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ) هذا الكلام متصل بذكر الصدقات ، فكأنه بين فيه جواز الصدقة على المشركين . روى سعيد بن جبير مرسلاً عن النبي صلى الله عليه وسلم في سبب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا يتصدقون على قراء أهل الذمة ، فلما كثر قراء المسلمين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم " . فزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام . وذكر القاسم أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بصدقات بقاء يهودى فقال : أعطى . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ليس لك من صدقة المسلمين شيء " . فذهب اليهودى غير بعيد فزلت : (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ) فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعطاه ، ثم نسخ الله ذلك بآية الصدقات . وروى ابن عباس أنه قال : كان ناس من الأنصار لم قرأت من بنى قريظة والنضير ، وكانوا لا يتصدقون عليهم وغبه منهم في أن يسلموا إذا احتاجوا ، فزلت الآية بسبب أولئك . وحكى بعض المفسرين أن أسماء ابنة أبي بكر الصديق أرادت أن تصل جدها أبا حنيفة ثم امتنعت من ذلك لكونه كافراً فزلت الآية في ذلك . وحكى الطبري أن مقصد النبي صلى الله عليه وسلم بمنع الصدقة إنما كان ليُسلموا ويدخلوا في الدين ، فقال الله تعالى : (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ) . وقيل : (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ) [ليس متصلاً] بما قبل ، فيكون ظاهراً في الصدقات وصرفها إلى الكفار ، بل يحتمل أن يكون معناه ابتداء كلام .

الثانية — قال علماؤنا : هذه الصدقة التي أجيبت لهم حسب ما تضمنته هذه الآثار هي صدقة التطوع ، وأما المفروضة فلا يُجزئ دفعها لكافر ، لقوله عليه السلام : « أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأرقيها في قرائكم » . قال ابن المنذر : أجمع [كل] من أحفظ عنه (١) في ٥ : دما . (٢) في ٥ : وب وى : متصلاً . دليل على سقوط : ليس ، أو غير متصل بكالى النسخ . (٣) في ٥ : .

من أهل السلم أن الذي لا يُعطي من زكاة الأموال شيئا ؛ ثم ذكر جماعة ممن نص على ذلك ولم يذكر خلافا . وقال المَهْدِيُّ : رُخص للمسلمين أن يُسطوا المشركين من قراياتهم من صدقة الفريضة لهذه الآية . قال ابن عطية : وهذا مردود بالإجماع . والله أعلم . وقال أبو حنيفة : تصرف إليهم زكاة الفطر . ابن العربي : وهذا ضيف لا أصل له . ودليلنا أنها صدقة طهرة واجبة فلا تصرف إلى الكافر كصدقة المشاية والعين ؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أغنهم عن سؤال هذا اليوم " يعني يوم الفطر .

قلت : وذلك لتشاغلهم بالعيد وصلاة العيد وهذا لا يتحقق في المشركين ، وقد يجوز صرفها إلى غير المسلم في قول من جعلها سنة ، وهو أحد القولين عندنا ، وهو قول أبي حنيفة على ما ذكرنا ، نظرنا إلى عموم الآية في البر وإطعام الطعام وإطلاق الصدقات . قال ابن عطية : وهذا الحكم متصور للمسلمين مع أهل ذمتهم ومع المسترقين من الحربين .

قلت : وفي التبريل « وَيُطْعِمُونَ الطَّامَ عَلَى حَبِّ مَسْكِينًا وَنَبِيًّا وَأَسِيرًا » والأسير في دار الإسلام لا يكون إلا مشركا . وقال تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ » . فظواهر هذه الآيات تقتضي جواز صرف الصدقات إليهم بحسب ، إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم خص منها الزكاة المقروضة ؛ لقوله عليه السلام لمعاذ : " خذ الصدقة من أغنيائهم وردّها على فقرائهم " وافق العلماء على ذلك على ما تقدم . فيدفع إليهم من صدقة التطوع إذا احتاجوا ، والله أعلم . قال ابن العربي : فاما المسلم المعاصي فلا خلاف أن صدقة الفطر تصرف إليه إلا إذا كان يترك أركان الإسلام من الصلاة والصيام فلا تدفع إليه الصدقة حتى يتوب . وسائر أهل المعاصي تصرف الصدقة إلى مرتكبها لدخولهم في اسم المسلمين . وفي صحيح مسلم أن رجلا تصدّق على غنيّ وسارق وزانية وقبّلت صدقته ، على ما يأتي بيانه في آية الصدقات .

الثالثة - قوله تعالى : « وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ » أي يرشد من يشاء . وفي هذا ردّ على القدرية وطوائف من المعتزلة ، كما تقدم .

(١) في ابن حنيفة : متصور للمسلمين اليوم مع الخ . (٢) راجع ج ١٩ ص ١٢٥

(٣) راجع ج ١٨ ص ٥٨ (٤) راجع ج ٨ ص ١٦٧

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ شرط وجوابه . والخير في هذه الآية المال ؛ لأنه قد اقترن بذكر الإِثاق ؛ فهذه القرينة تدل على أنه المال ، ومتى لم يقرن بما يدل على أنه المال فلا يلزم أن يكون بمعنى المال ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا ۖ وَقَوْلُهُ : ﴿ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۚ ﴾ (١) إلى غير ذلك . وهذا يحوز من قول عكرمة : كل خير في كتاب الله تعالى فهو المال . وحكى أن بعض العلماء كان يصنع كثيرا من المعروف ثم يخلف أنه ما فعل مع أحد خيرا ، قليل له في ذلك فيقول : إنما فعلت مع نفسي ؛ ويتلو ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ ۚ ﴾ . ثم بين تعالى أن النفقة الممتدة بقبولها إنما هي ما كان ابتغاء وجهه . و « ابتغاء » هو على المفعول له . وقيل : إنه شهادة من الله تعالى للصحابه رضى الله عنهم أنهم إنما ينفقون ابتغاء وجهه ؛ فهذا خرج مخرج التفضيل والثناء عليهم . وعلى التأويل الأول هو اشتراط عليهم ، ويتناول الاشتراط غيرهم من الأمة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص : « إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله تعالى إلا أجزأت بها حتى ما تجعل في في أمرائك » (٢) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ ﴿ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ ﴾ تأكيد وبيان لقوله : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ ۚ ﴾ وأن ثواب الإِثاق يُوَفَّى إلى المنفقين ولا يبخسون منه شيئا فيكون ذلك البخس ظلما لهم .

قوله تعالى : لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَصْرِفُهُمْ بِسْمِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٣٧﴾
فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ اللام متعلقة بقوله ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ ﴾ وقيل : بمحذوف تقديره الإِثاق أو المتصلة للفقراء . قال السُّدِّي وعياض وغيرهما : المراد يسؤلوا (١) راجع ١٢ ص ٢١ (٢) راجع ٢٠ ص ١٥٠ (٣) كاف السين والبحر . وفي الأصول كلها : غنول به . وليس بخير . (٤) رواية البخاري : في في أمرائك .

الفقراء فقراء المهاجرين من قريش وغيرهم ، ثم تناول الآية كل من دخل تحت صفة الفقراء
 غايَ الدهر . وإنما خصَّ فقراء المهاجرين بالذكور لأنه لم يكن هناك سواهم وهم أهل الصفة
 وكانوا نحو من أربعمائة رجل ، وذلك أنهم كانوا يقدّمون فقراء على رسول الله صلى الله عليه
 وسلم ، وما لهم أهل ولا مال فبُيت لهم صفة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبل
 لهم : أهل الصفة . قال أبو ذر : كنت من أهل الصفة وكنا إذا أمسينا حضرنّا باب
 رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأمر كل رجل فينصرف برجل ويبقى من بقي من أهل الصفة
 عشرة أو أقل فيؤتى النبي صلى الله عليه وسلم بعشائه وتتعتّى معه . فإذا فرغنا قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم : " ناموا في المسجد " . وخرج الترمذى عن البراء بن عازب « وَلَا
 تَيْمَمُوا الْحَيْثُ مِنْهُ تُنْفِقُونَ » قال : نزلت فينا مشر الأنصار كما أصحاب نخل ، قال :
 فكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقته ، وكان الرجل يأتي بالقتن والتنوين فيعلقه
 في المسجد ، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام ، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنّ فيضربه
 بعصاه فيسقط من البسر والتمر فأكل ، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي بالقتن فيه
 الشيص والحشف ، والقتن قد انكسر فعلقه في المسجد ، فأزل الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَنْعَمْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيْمَمُوا الْحَيْثُ مِنْهُ
 تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِأَخَذِهِ إِلَّا أَنْ تُنْفِقُوا فِيهِ » . قال : ولو أن أحداً أُهدي إليه مثل
 ما أعطاه لم يأخذه إلا على إغماض وحياء . قال : فكان بعد ذلك يأتي الرجل بصالح ما عنده
 قال : هذا حديث حسن غريب صحيح . قال عليّ بن أبي حمزة : وكانوا رضى الله عنهم في المسجد
 ضرورة ، وأكلوا من الصدقة ضرورة ، فلما فتح الله على المسلمين استغنوا عن تلك الحال
 ونزعواهم ملكوا وأمرؤا . ثم بين الله سبحانه من أحوال أولئك الفقراء المهاجرين ما يوجب
 الحثّ عليهم بقوله تعالى : « الَّذِينَ أَحْبَبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » والمعنى حبسوا ومُتَمَمُوا . قال قتادة
 وابن زيد : معنى « أَحْبَبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » حبسوا أنفُسهم عن التصرف في معاشهم خوف
 العدو ، ولهذا قال تعالى : « لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ » لكون البلاد كلها كفراً مُطليقاً .

وهذا في صدر الإسلام، فلتهم^(١) تمنع من الاكتساب بالجهاد، وإنكار الكفار عليهم إسلامهم يمنع من التصرف في التجارة فبقوا فقراء . وقيل : معنى « لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ » أي لا قد أزموا أنفسهم من الجهاد . والأول أظهر . والله أعلم .

الثانية — قوله تعالى : (يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ) أي أنهم من الاتعاض وترك المسألة والتوكل على الله بحيث يظنهم الجاهل بهم أغنياء . وفيه دليل على أن اسم الفقير يجوز أن يطلق على من له كسوة ذات قيمة ولا يمنع ذلك من إعطاء الزكاة إليه . وقد أمر الله تعالى بإعطاء هؤلاء القوم، وكانوا من المهاجرين الذين يقاتلون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرضى ولا عُمَيَّان . والتَّعَفُّفُ تَعَفَّلَ ، وهو بناء مبالغة من عَفَّ من الشيء إذا أمسك عنه وتَزَهَّ عن طلبه ؛ وبهذا المعنى فسر قتادة وغيره . وفتح السين وكسرهما في « يَحْسِبُهُمُ » لغتان . قال أبو علي : والتمسح أقيس ؛ لأن العين من الماضي مكسورة فإبها أن تأتي في المضارع مفتوحة . والقرائة بالكسر حسنة ، لحجى السمع به وإن كان شاذاً عن القياس . و « مِنْ » في قوله « مِنَ التَّعَفُّفِ » لا ابتداء للغاية . وقيل لبيان الجنس .

الثالثة — قوله تعالى : (تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ) فيه دليل على أن السِّمَاءَ أثراً في اعتبار من يظهر عليه ذلك، حتى إذا رأينا ميماً في دار الإسلام وعليه زُئَار وهو غير غثون لا يلفظ في مقابر المسلمين؛ ويقدم ذلك على حكم الدار في قول أكثر العلماء؛ ومنه قوله تعالى : « وَتَعْرِفُهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ »^(٢) . فدلَّت الآية على جواز صرف الصدقة إلى من له ثياب وكسوة وزِيء^(٣) في التجمل . وأتفق العلماء على ذلك، وإن اختلفوا بعده في مقدار ما يأخذه إذا احتاج . فأبو حنيفة اعتبر مقدار ما تجب فيه الزكاة، والشافعي اعتبر قوت سنة، ومالك اعتبر أربعين درهماً، والشافعي لا يصرف الزكاة إلى المكتسب .

والسِّمَاءُ (مقصورة) : العلامة، وقد تمَّه فيقال السِّمَاءُ . وقد اختلف العلماء في تعيينها هنا؛ فقال مجاهد : هي الخشوع والتواضع . السُّدَى : أثر القنافة والحاجة في وجوههم وقلة

(١) كما في ج . راجع الطبري . وبقا الأصول : قلهم . (٢) الزناد (بضم الزاي وتشديد النون) : ما يشبه الله على وجهه . (٣) راجع ج ١٦ ص ٥١ : (٤) في ج : ذين .

النعمة ، ابن زيد : وثلاثة ثيابهم . وقال قوم وحكاه مكّي : أثر السجود . ابن عطية : وهذا حسن ، وذلك لأنهم كانوا متفرّعين متوكّنين لا شغل لهم في الأغلب إلا الصلاة ، فكان أثر السجود عليهم .

• قلت : وهذه السّيا التي هي أثر السجود اشترك فيها جميع الصحابة رضوان الله عليهم بإخبار الله تعالى في آخر « الفتح » بقوله : « سَيَأْتِيهِمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ » ^(١) فلا فرق بينهم وبين غيرهم ، فلم يبق إلا أن تكون السّيا أثر الخصاصة والحاجة ، أو يكون أثر السجود أكثر ، فكانوا يبرقون بصفرة الوجوه من قيام الليل وصوم النهار . والله أعلم . وأما الحشوع فذلك عمله القلب ويشترك فيه الغني والفقير ، فلم يبق إلا ما آخترناه ، والموفق الإله .

الرابعة - قوله تعالى : (لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْقَاقًا) مصدر في موضع الحال ، أي ملحقين ، يقال : ألحق وألحقني وألحق في المسألة سواء ، ويقال :

• وليس لِلْخُفِّ مِثْلُ الْوَدِّ ^(٢)

وأشتقاق الإلحاق من الحفاف ، سُمّي بذلك لاشتماله على وجوه الطلب في المسألة كاشتمال الحفاف

من التغطية ، أي هذا السائل يعم الناس بسؤاله فليحفظهم ذلك ؛ ومنه قول ابن جرير :

فَقَلَّ يَحْفَهُنَّ بِحَفَقَتِهِ ^(٣) • وَيَلْحَفُهُنَّ حَفَاهَا تَحِيْنًا

يصف ذكر التمام يحضن بيضا بجناحه ويعمل جناحه لها كالحفاف وهو رقيق مع نفسه .

وروى النسائي ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرثان واللقمة واللقمثان إنما المسكين المتعفف أقروا إن شتمت » ^(٤) « لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْقَاقًا » .

الخامسة - وأختلف العلماء في معنى قوله « لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْقَاقًا » على قولين ؛

فقال قوم مهم الطبري والزجاج : إن المني لا يسألون البتة ، وهذا على أنهم متعففون عن

(١) راجع ج ١٦ ص ٢٩٢ (٢) هذا مجزيت لشار بن برد وصدده كافي ديوانه والسان :

• الخزيل والسا المبد •

(٣) حقا القاتر : جناحه •

المسألة عِقَّة ثالثة؛ وعلى هذا جمهور المفسرين؛ ويكون التعفف صفة ثابتة لهم، أى لا يسألون الناس إلحاحاً ولا غير إلحاح. وقال قوم: إن المراد تقي الإلحاف، أى إنهم يسألون بغير إلحاف، وهذا هو السابق لفهم، أى يسألون بغير ملحقين. وفي هذا تنبيه على سوء حالة من يسأل الناس إلحافاً. روى الأئمة واللفظ لمسلم عن معاوية بن أبى سفيان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا تُلْحِفُوا فِي الْمَسْأَلَةِ فَوَاللَّهِ لَا يَسْأَلُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئاً فَتُخْرِجَ لَهُ مَسْأَلَتُهُ مَتَى شِئْنَا وَأَنَا لَهُ كَارِهٌ فَيُأْرَكَ لَهُ فِيمَا أُعْطِيَتْهُ». وفي الموطأ «عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن رجل من بني أسد أنه قال: تزلت أنا وأهل بيقيع^(١) الترقند فقال لى أهل: أذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسأله لنا شيئاً نأكله؛ وجعلوا يذكرون من حاجتهم؛ فذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدت عنده رجلاً يسأله ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لَا أَجِدُ مَا أُعْطِيكَ» فتولى الرجل عنه وهو مُقَضَّبٌ وهو يقول: لَمَعْرَى إِنَّكَ تُنْطِئِي مِنْ شَيْءٍ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّهُ يَنْضَبُ عَلَيَّ أَلَّا أَجِدَ مَا أُعْطِيهِ مِنْ مَالٍ مِنْكُمْ وَلَهُ أُوقِيَّةٌ أَوْ عَلِمْنَا فَقَدْ سَأَلَ الْإِلْحَافُ^(٢)». قال الأسدي: فقلت لِلْقَعَةِ^(٣) لنا خير من أُوقِيَّةٍ — قال مالك: والأُوقِيَّةُ أُوَيْعُونَ دَوْحاً — قال: فرجعت ولم أسأله، فَعُدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَدِّ ذَلِكَ بِشَعِيرٍ وَزَيْبٍ فَقَسَمَ لَنَا مِنْهُ حَتَّى أَغْنَانَا اللَّهُ». قال ابن عبد البر: هكذا رواه مالك وتابعه هشام بن سعيد وغيره، وهو حديث صحيح، وليس حكم الصحابي إذا لم يُسَمَّ تحكُّم من دونه إذا لم يُسَمَّ عند العلماء؛ لأرتفاع الجرعة عن جميعهم وثبوت العدالة لهم. وهذا الحديث يدل على أن السؤال مكروه لمن له أوقية من فضة؛ فمن سأل وله هذا الحد والعدد والقدر من الفضة أو ما يقوم مقامها ويكون عدلاً منها فهو ملحق، وما علمت أحداً من أهل العلم إلا وهو يكره السؤال لمن له هذا المقدار من الفضة أو عدلها من الذهب على ظاهر هذا الحديث. وما جاءه من غير مسألة بغائره أن يأكله

(١) بفتح الترقند: مقبرة مشهورة بالمدينة. (٢) الحديث كما في الطبعة الحديثة. وفي الأصول: فقد ألحف.

(٣) القنعة (بفتح القاف وكسر الحاء): الناقة ذات لبن القرية المهد بالناج.

(٤) في ج: وزيت. (٥) في الأصول: «العاصب».

إن كان من غير الزكاة ، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً ، فإن كان من الزكاة ففيه خلاف يأتي بيانه في آية الصدقات ^(١) إن شاء الله تعالى .

السادسة — قال ابن عبد البر : من أحسن ما روى من أجوبة الفقهاء في معاني السؤال وكراهيته ومذهب أهل الورع فيه ما حكاه الأثرم عن أحمد بن حنبل وقد سئل عن المسألة متى يحل قال : إذا لم يكن عنده ما يُعْذِيهِ وَيُغْنِيهِ على حديث سهل بن الحنظلية . قيل لأبي عبد الله : فإن أضطر إلى المسألة ؟ قال : هي مباحة له إذا أضطر . قيل له : فإن تعفف ؟ قال : ذلك خير له . ثم قال : ما أظن أحدا يموت من الجوع ! الله يأتيه برزقه . ثم ذكر حديث أبي سعيد الخدري ^(٢) ”مَنْ أَسْتَعْفَ أَعَفَهُ اللَّهُ“ . وحديث أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : ”تعفف“ . قال أبو بكر : وسمعت يسأل عن الرجل لا يجد شيئاً يسأل الناس أم يأكل الميتة ؟ فقال : أيا كل الميتة وهو يبعد من يسأله ، هذا شنيع . قال : وسمعت يسأله هل يسأل الرجل لغيره ؟ قال لا ، ولكن يُعْرِضُ ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم حين جاءه قوم حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَنِبِي الثَّمَارِ فقال : ”تَصَدَّقُوا“ ولم يقل أعطوهم . قال أبو عمر : قد قال النبي صلى الله عليه وسلم ”أَشْفَعُوا تُؤَجَّرُوا“ . وفيه إطلاق السؤال لغيره . والله أعلم . وقال : ”أَلَا رَجُلٌ يَتَصَدَّقُ عَلَى هَذَا“ ؟ قال أبو بكر : قيل له — يعني أحمد بن حنبل — فالرجل يذكر الرجل فيقول : إنه محتاج ؟ فقال : هذا تعرض وليس به بأس ، إنما المسألة أن يقول أعطه . ثم قال : لا يعجبنى أن يسأل المرء لنفسه فكيف لغيره ؟ والتعرض هنا أحب إلى .

قلت : قد روى أبو داود والنسائي وغيرهما أن أنقراسي ^(٣) قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أسأل يا رسول الله ؟ قال : ”لا وإن كنت ساعلاً لأبذ فأسأل الصالحين“ . فأباح صلى الله عليه وسلم سؤال أهل الفضل والصلاح عند الحاجة إلى ذلك ، وإن أوقع حاجته

(١) راجع ج ٨ ص ١٦٧ (٢) أجنب فلان ثوباً إذا أسه . وانشار (تكرار) جمع مرة وهي كل شملة مخططة من مآزر الأعراب ؛ كأنها أخذت من لون الثمر لما فيها من السواد والبياض . أراد أنه جاءه قوم لا يلبسون مآزر مخططة من صوف (ع: نهاية ابن الأثير) .

(٣) هو من بني مراح بن مالك بن ثمة (عن الاستيعاب) .

بأنه فهو أعلى . قال إبراهيم بن آدم : سؤال الحاجات من الناس هي الحجاب بينك وبين الله تعالى ، فأزّل حاجتك بين يلك الضرّ والتّع ، ولكن مفرّقت إلى الله تعالى بكفيك الله ما سواه وتعيش مسرورا .

السابعة - فإن جاءه شيء من غير سؤال فله أن يقبله ولا يردّه ، إذ هو رزق ورزقه الله . وروى مالك عن زيد بن أسلم عن عطية بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل إلى عمر بن الخطاب بعهده فردّه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لم ردّده ؟ " فقال : يا رسول الله ، أليس أخبرتنا أن أحدا خبره إلا يأخذ شيئا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما ذلك عن المسألة فأما ما كان من غير مسألة فأما هو رزق رزقه الله " . فقال عمر بن الخطاب : والذي نفسي بيده لا أسأل أحدا شيئا ولا يأتيني شيء من غير مسألة إلا أخذته . وهذا نص . وخرج مسلم في صحيحه والنسائي في سننه وغيرهما عن ابن عمر قال سمعت عمر يقول : كان النبي صلى الله عليه وسلم يطعني العطاء فأقول : أعطه أفقر إليه يني ، حتى أعطاني مرة مالا فقلت : أعطه أفقر إليه مني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خذْه وما جاءك من هذا المال وأنت غير مُتَّخِرٍ ولا سائلٍ خذْه ومالا فلا يُتَّخِجَ نفسك " . زاد النسائي - بعد قوله " خذْه - فتخوّله أو تصدّق به " . وروى مسلم من حديث عبد الله ابن السعديّ - المالكيّ - عن عمر فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أعطيت شيئا من غير أن تسأل فكلّ وتصدّق " . وهذا يصحّ لك حديث مالك المُرْسَل . قال الأثرم : سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يسأل عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : " ما أتاك من غير مسألة ولا إشراف " أي الإشراف أراد ؟ فقال : أن تستشره وتقول : لله يبعث إلى بقلبك . قيل له : وإن لم يتعزّض ، قال نعم إنما هو بالقلب . قيل له : هذا شديد ! قال : وإن كان شديدا فهو هكذا . قيل له : فإن كان الرجل لم يزودني أن يرسل لي شيئا إلا أنه قد عرض بقلبي فقلت : عسى أن يبعث إلى . قال : هذا إشراف ، فأما إذا جاءك من غير أن تحتسبه ولا خطر على قلبك فهذا الآن ليس به إشراف . قال أبو عمر : الإشراف في اللغة رفع الرأس إلى المطموع

عنده والمطروح فيه، وأن يمش الإنسان ويتعرض . وما قاله أحد في تأويل الإشراف مضيق وتشديد وهو عدى بعيد ؛ لأن الله عز وجل تجاوز لهذه الأمة عما حدثت به أنفسهم ما لم ينطق به لسان أو عمله جارحة . وأما ما اعتقده القلب من المصاعى ما خلا الكفر فليس بشئ حتى يعمل به ؛ وخطرات النفس متجاوز عنها بإجماع .

الثامنة - الإلحاح في المسألة والإلحاف فيها مع الفنى عنها حرام لا يحل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سأل الناس أموالهم تكثر فأما يسأل تجراً فليس يقبل أو ليستكثر " رواه أبو هريرة نرجسه مسلم . وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه ^(١) مزرعة طم " رواه مسلم أيضا .

التاسعة - السائل إذا كان محتاجا فلا بأس أن يكرر المسألة ثلاثا إغذارا وإظهارا والأفضل تركه . فإن كان المستول يعلم بذلك وهو قادر على ما سأله وجب عليه الإعطاء ، وإن كان جاهلا به فيعطيه غفانة أن يكون صادقا في سؤاله فلا يفلح في رده .

الاشرة - فإن كان محتاجا إلى ما يُقيم به سنة كالتمل بشوب يلبس في العبد والجمعة فذكر ابن العربي : " سمعت يمام الخليفة ببغداد رجلا يقول : هذا أخوكم يحضر الجمعة معكم وليس عنده ثياب يُقيم بها سنة الجمعة . فلما كان في الجمعة الأخرى رأيت عليه ثيابا آخر ، فقبل لي : كساه إياها أبو الطاهر البرسي أخذ الثناء " .

قوله تعالى : الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِيلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧﴾
فيه مسألة واحدة :

روى عن ابن عباس وأبي ذر وأبي أمامة وأبي الرداء وعبد الله بن بشر النافقي والأوزاعي أنها نزلت في طلف الخليل المربوطة في سبيل الله . وذكر ابن سعد في الطبقات قال : أخبرني عن عبد بن شبيب بن شاوير قال أنبأنا سعيد بن سنان عن يزيد بن عبد الله بن حبيب عن (١) الحرة (بضم الميم وإسكان الواو) القسطة . قال القاضي عياض : قيل سمناه بأبي يوم القيامة ذليلا سائلا لوجهه عند الله . وقيل : هو رجل ظاهره ، فيشر وجهه عظم لا لحم عليه ، ضربة له علامة له يدينه حين طلب وسأل بوجهه . (٢) في أحكام ابن العربي : رأيت عليه ثيابا جديدا فقبل لي كساه إياها فلان لأخذ الثناء بها .

أبيه عن جده عريب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عن قوله تعالى: «الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» قال: «هم أصحاب الخيل». وبهذا الإسناد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المنفق على الخيل كباسط يده بالصدقة لا يقبضها وأبوالها وأروائها [عند الله] يوم القيامة كذكي المسك». وروى عن ابن عباس أنه قال: نزلت في علي بن أبي طالب رضى الله عنه، كانت معه أربعة دراهم فتصبقت بدرهم ليلا وبدرهم نهارا وبدرهم سرا وبدرهم جهرا؛ ذكره عبد الرزاق قال: أخبرنا عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس. ابن جريح: نزلت في رجل فعل ذلك، ولم يسم ملبا ولا غيره. وقال قتادة: هذه الآية نزلت في المنفقين من غير تبذير ولا تقير. ومعنى «بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» في الليل والنهار، ودخلت الناء في قوله تعالى: «فَلَهُمْ» لأن في الكلام معنى الجزاء. وقد تقدم. ولا يجوز زيد فنطلق.

قوله تعالى: «الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْتَقُوا اللَّهَ وَذَرُّوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾

الآيات الثلاث^(١) تضمنت أحكام الربا وجواز عقود المبيعات ، والوصيد لمن استعمل الربا وأصر على فعله . وفي ذلك ثمان وثلاثون مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا ﴾ يأكولون يأخذون ، فعبّر عن الأخذ بالأكل ، لأن الأخذ إنما يراد للأكل . والربا في اللغة الزيادة مطلقا ، يقال : ربا الشيء يرو إذا زاد ، ومنه الحديث : " فلا والله ما أخذنا من لقمة إلّا ربّا من تحتها " يعني الطعام الذي دما فيه النبي صلى الله عليه وسلم بالبركة ؛ نخرج الحديث مسلم رحمه الله . وقياس كتابته بالياء للكسرة في أوله ، وقد كتبه في القرآن بالواو . ثم إن الشرع قد تصرف في هذا الإطلاق فقصره على بعض موارد ، فزاع أطلقه على كسب الحرام ؛ كما قال الله تعالى في اليهود : " وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ " . ولم يرد به الربا الشرعي الذي حكم بحريمه علينا وإنما أراد المال الحرام ؛ كما قال تعالى : " سَمَاعُونَ لِلْكَذِيبِ أَكْأَلُونَ " ^(٢) " يعني به المال الحرام من الرشا ، وما استحلوه من أموال المؤمنين حيث قالوا : " لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمْنِ مِثْلُ " . ^(٣) وعلى هذا فيدخل فيه النبي عن كل مال حرام بأي وجه اكتسب . والربا الذي عليه عُرِفَ الشرع شيئا ؛ تحريم النساء ، والتفاضل في العقود وفي المعلومات على ما نيت . وقاله ما كانت العرب تفعله ، من قولها للغريم : أنقض أم تربي ؟ فكان الغريم يزيد في عدد المال ويصير الطالب عليه . وهذا كله محرم باتفاق الأمة .

الثانية - أكثر البيوع الممنوعة إنما تجرد منها معنى زيادة إما في صنف مال ، وإما في منفعة لأحدهما من تأخير ونحوه . ومن البيوع ما ليس فيه معنى الزيادة ؛ كبيع الثمرة قبل بدو صلاحها ، وكالبيع ساعة النداء يوم الجمعة ؛ فإن قيل لفاطها ؛ أكل الربا فتجوز وتنبه .

الثالثة - روى الأئمة واللفظ لمسلم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعر بالشعر والتمر بالتمر والماء بالماء مثلا يمثل يدا بيد فمن زاد أو استزاد فقد أربى الآخذ والمعطى فيه سواء " .

(١) كذا في كل الأصول ، وقوله : ثمان وثلاثون مسألة ، تضمن الآيات الخمس . (٢) يريد الإالة .

(٣) راجع ج ٦ ص ١٨٤٤ - ٢٤٦٦ . (٤) راجع ج ٤ ص ١١٥ . (٥) في قوله وجه مخطوطة .

وفي حديث عبادة بن الصامت : " فإذا اخلفت هذه الأصناف فيعوا كيف شتم إذا كان يدا بيد " . وروى أبو داود عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
 " الذهب بالذهب يبرها وعينها والفضة بالفضة يبرها وعينها والبر بالبر مدي بمدي والشعير بالشعير مدي بمدي والتمر بالتمر مدي بمدي والملح بالملح مدي بمدي فمن زاد أو أزداد فقد أربى ولا بأس ببيع الذهب بالفضة والفضة أكثرهما يدا بيد وأما نسيئة فلا ولا بأس ببيع البر بالشعير والشعير أكثرهما يدا بيد وأما نسيئة فلا " . وأجمع العلماء على القول بمقتضى هذه السنة وعليها جماعة فقهاء المسلمين إلا في البر والشعير فإن مالكا جعلهما صفا واحدا ، فلا يجوز منهما اثنان بواحد ، وهو قول الليث والأوزاعي ومعظم علماء المدينة والشام ، وأضاف مالك إليهما السلت^(١) . وقال الليث : السلت والنخن والذرة صنف واحد ؛ وقاله ابن وهب .

قلت : وإذا ثبتت السنة فلا قول معها . وقال عليه السلام : " فإذا اخلفت هذه الأصناف فيعوا كيف شتم إذا كان يدا بيد " . وقوله : " البر بالبر والشعير بالشعير " دليل على أنهما نوعان مختلفان كخالفه البر للتمر ؛ ولأن صفاتهما مختلفة وأسمائهما مختلفة ، ولا اعتبار بالميت والمحصد إذا لم يحتره الشرع ، بل فصل وبين ؛ وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة والثوري وأصحاب الحديث .

الرابعة — كان معاوية بن أبي سفيان يذهب إلى أن النهي والتعريم إنما ورد من النبي صلى الله عليه وسلم في الدينار المضروب والدرهم المضروب لا في البر من الذهب والفضة بالمضروب ، ولا في المصوغ بالمضروب . وقد قيل إن ذلك إنما كان منه في المصوغ خاصة ، حتى وقع له مع عبادة ما خرجه مسلم وغيره ، قال : غَرَرْنَا وعلى الناس معاوية فنحنما غنائم كثيرة ، فكان مما غنمنا آتية من فضة فأمر معاوية رجلا بيدها في أعطيات الناس

(١) أي مكال بمكال . والمدي (بضم الميم وسكون الهاء والياء) قال ابن الأعرابي : هو مكال ضم لأهل الشام وأهل مصر ، والجمع أمدا . وقال ابن جرير : المدي مكال لأهل الشام يقال له الجربيع يجمع خمسة وأربعين ومثلا . وهو غير الله (بالميم المضمومة والياء المشددة) . قال الجوهري : الله مكال وهو مثل وثقت منه أهل الجواز والثقاتي ، ورواه عن أهل العراق وأبي حنيفة . (٢) السلت : ضرب من الشعير ليس له قشر .

عليه السلام : "الدينار بالدينار والدرهم بالدرهم لا فضل بينهما" إشارة إلى جليص الأصل المضروب؛ بدليل قوله : "الفضة بالفضة والذهب بالذهب" الحديث . والفضة البيضاء والسوداء والذهب الأحمر والأصفر كل ذلك لا يجوز بيع بفضة ببعض إلا مثلاً بمثل مثله سواء على كل حال ؛ على هذا جماعة أهل العلم على ما بينا . واختلفت الرواية من مالك في الفلوس فألفها بالدرهم من حيث كانت ثمناً للأشياء ، ومنع من إلحاقها مرة من حيث إنها ليست ثمناً في كل بلد وإنما يختص بها بلد دون بلد .

السادسة - لا اختيار بما قد روي عن كثير من أصحاب مالك وبعضهم يرويه عن مالك في التاجر يحوزه الخروج وبه حاجة إلى دراهم مضروبة أو دنانير مضروبة ، فيأتي دار الضرب بفضته أو ذهبه فيقول للضرباء خذ فضتي هذه أو ذهبي وخذ قدر عمل يلك وادفع إلي دنانير مضروبة في ذهبي أو دراهم مضروبة في فضتي هذه لأنني محذور الخروج وأخاف أن يفوتني من أخرج معه ، أن ذلك جائز للضرورة ، وأنه قد عمل به بعض الناس . وحكاة ابن العربي في نفسه عن مالك في غير التاجر ، وأن مالكا خفف في ذلك ؛ فيكون في الصورة قد باع فضته التي زتها مائة ونمسة دراهم أجره بمائة وهذا محض الرأيا . والذي أوجب جواز ذلك أنه لو قال له : اضرب لي هذه وقاطعه على ذلك بأجرة ، فلبس ضرباً قبضها منه وأعطاه أجرتها ؛ فالذي قبل مالك أولاً هو الذي يكون آخراً ، ومالك إنما نظراً إلى المسألة فتركب عليه حكم الحال ، وأباه سائر الفقهاء . قال ابن العربي : والجمعة فيه لما لك بينة . قال أبو عمر رحمه الله : وهذا هو عين الرأيا الذي حرّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : "من زاد أو زاد فقد أنزني" . وقد ردّ ابن وهب هذه المسألة على مالك وأنكرها . وزعم الأبهري أن ذلك من باب الرق لطلب التجارة ولتلاقي السوق ، وليس الرأيا إلا على من أراد أن يرى من يقصد إلى ذلك ويخفيه . ونسب الأبهري أصله في قطع الترائع ، وقوله

والصواب عدّها وضعا ، لأن أصلها مال ، أي خففت الكلف وعرضت منها الفكاك والمرة ؛ قال القرافي وأما ولائتين هاتين ولجميع هاتين . وغير الخاطئ يميز فيها السكون على حذف العرض وتزله مرة « ما » التي فضيه . وفيها لغات أخرى .

فيمن باع ثوبا ببينة وهو لا نية له في شرائه ثم يبعده في السوق يباع : إنه لا يجوز له ابتاعه منه بدون ما يباع به وإن لم يقصد إلى ذلك ولم يفتنه ؛ ومثله كثير ؛ ولو لم يكن الربا إلا على من قصده ما حرم إلا على الفقهاء . وقد قال عمر : لا يتجر في سوقنا إلا من فقهه وإلا أكل الربا . وهذا بين لمن رزق الإنصاف وألهم رشده .

قلت : وقد بالغ مالك رحمه الله في منع الزيادة حتى جعل المتوهم كالتحقق ، فنع ديناراً ودرهما بدينار ودرهم سداً للذريعة وحسباً للتوهمات ؛ إذ لولا توهم الزيادة لما تبادلا . وقد علل منع ذلك بتعدد المعاملة عند التوزيع ؛ فإنه يلزم منه ذهب وفضة بنهب . وأوضح من هذا منه التفاضل المعنوي ؛ وذلك أنه منع ديناراً من الذهب العالي وديناراً من الذهب اللين في مقابلة العالي وألغى اللين ، وهذا من دقيق نظره رحمه الله ؛ فدل أن تلك الرواية منه منكرة ولا تصح . والله أعلم .

السابعة - قال الخطابي : التبر قطع الذهب والفضة قبل أن تُضرب وتطبع دراهم أو دنانير ، واحتلتا نيرة . والسعين : المضروب من الدراهم أو الدنانير . وقد حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يباع متقال ذهب عيين بمتقال وشيء من غير مضروب . وكذلك حرم التفاوت بين المضروب من الفضة وغير المضروب منها ، وذلك معنى قوله : " يبرها وعينها سواء " .

الثامنة - أجمع العلماء على أن التمر بالتمر ولا يجوز إلا مثلاً بمثل . واختلفوا في بيع التمرة الواحدة بالتمرين ، والحبة الواحدة من القمح بحبين ؛ فمنه الشافعي وأحمد وإسحاق والثوري ، وهو قياس قول مالك وهو الصحيح ؛ لأن ما جرى الربا فيه بالتفاضل في كثيره دخل عليه في ذلك قياساً ونظراً . احتج من أجاز ذلك بأن مستهلك التمرة والتمرين لا يحب عليه النسيئة ، قال : لأنه لا مكيل ولا موزون يجاز فيه التفاضل .

التاسعة - أعلم رحمك الله أن مسائل هذا الباب كثيرة وفروعه منتشرة ، والذي ربط لك ذلك أن تنظر إلى ما اعتبره كل واحد من العلماء في عملة الربا ؛ فقال أبو حنيفة :

علة ذلك كونه ميكلا أو موزونا جنسا، فكل ما يدخله الكيل أو الوزن عنده من جنس واحد، فإن بيع بعضه ببعض متافضلا أو نسيئا لا يجوز؛ فنع يتبع التراب بعضه ببعض متافضلا؛ لأنه يدخله الكيل، وأجاز الخبز قُرصا بقرصين؛ لأنه لم يدخل عنده في الكيل الذي هو أصله، فخرج من الجنس الذي يدخله الربا إلى ما عداه. وقال الشافعي: العلة كونه مطعوما جنسا. هذا قوله في الجديد؛ فلا يجوز عنده بيع الدقيق بالخبز ولا بيع الخبز بالخبز متافضلا ولا نسيئا، وسواء أكان الخبز نحيما أو فطيرا. ولا يجوز عنده بيعة بيضتين، ولا رقاقة برمانتين، ولا بطيخة ببطيختين لا يدا يبد ولا نسيئة؛ لأن ذلك كله طعام ما كُول. وقال في القديم: كونه ميكلا أو موزونا. واختلفت عبارات أصحابنا المالكية في ذلك؛ وأحسن ما في ذلك كونه مقتانا مدخرا للعيش غالبا جنسا؛ كالحنطة والشعير والتمر والملح المنصوص عليها، وما في معناها كالأرز والذرة والدخن والسَّمِسم، والقَطَا في كالفول والقمح واللوبيا والمحصر، وكذلك الفصوم والألبان والخلول والزيت، والثمار كالعنب والزبيب والزيتون، واختلف في التين، ويلحق بها العسل والسكر. فهذا كله يدخله الربا من جهة النساء. وجائز فيه التفاضل لقوله عليه السلام: "إذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد". ولا ربا في رطب القواكه التي لا تبقى كالتماح والبطيخ والزمان والكثير، والقضاء والخيار والباذنجان وغير ذلك من الخضروات. قال مالك: لا يجوز بيع البيض بالبيض متافضلا؛ لأنه مما يذخر، ويجوز عنده مثلا بمثل. وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: جائز بيع بيضتين وأكثر؛ لأنه مما لا يذخر، وهو قول الأوزاعي.

الماشرة — اختلف النحاة في لفظ «الربا» فقال البصريون: هو من ذوات الواو؛ لأنك تقول في تثنية: ربوان؛ قاله سيويه. وقال الكوفيون: يكتب بالياء، وتثنيته بالياء؛ لأجل الكسرة التي في أوله. قال الزجاج: ما رأيت خطأ أقيح من هذا ولا أشنع؛ لا يكفهم الخطأ في الخط حتى يخطئوا في التثنية وهم يقرءون «وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لَيْرِي فِي أُمُوالِ النَّاسِ» قال محمد بن يزيد: كُتب «الربا» في المصحف بالواو فرقا بينه وبين الزنا، وكان الربا أولى منه بالواو؛ لأنه من ربا يرو.

الحادية عشرة - قوله تعالى : ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾^(١) الجملة خبر الابتداء وهو « الَّذِينَ » . والمعنى من قبورهم ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وابن جبير وقادة والربيع والضحاك والسدي وابن زيد . وقال بعضهم : يجعل معه شيطان يخنقه . وقالوا كلهم : يُعْتَكَبُ كالمجنون عقوبة له وتقييماً عند جميع أهل المَحْشَرِ . وَيُقَوَّى هذا التأويل المَجْتَمِعُ عليه أن في قراءة ابن مسعود « لا يقومون يوم القيامة إلا كما يقوم » ، قال ابن عطية : وأما ألفاظ الآية فكانت تحتل تشبيه حال القائم بِمَرَضٍ وَجَّعَ إِلَى تَجَارَةِ الدُّنْيَا بِقِيَامِ الْمَجْنُونِ ، لأن الطمع والرغبة تستفزه حتى تضطرب أعضاؤه ؛ وهذا كما تقول لمسرع في مشيه يخلط في هيئة حركاته إما من فزع أو غيره قد جُنَّ هذا ؛ وقد شبه الأَعَنَى ناقته في نشاطها بالمجنون في قوله : وَتُصْبِحُ عَنْ غِيبِ السَّرَى وَكَانَتْ « أَلَمْ يَهَيَّأْ مِنْ طَائِفِ الْجَنِّ أَوْلَسَى^(٢) » وقال آخر :

لَعَمْرُكَ بِي مِنْ حُبِّ أَسْمَاءَ أَوْلَى .

لكن ما جاءت به قراءة ابن مسعود وتظاهرت به أقوال المفسرين يضعف هذا التأويل . و« يَخْبِطُهُ » يَتَغَلَّبُ مِنْ خَبَطٍ يَخْبِطُ ؛ كما نقول : تَمَلَّكَ وَتَغَيَّرَ . فجعل الله هذه العلامة لَأَكْثَةِ الرِّبَا ؛ وذلك أنه أرباه في بطونهم فانتقلهم ، فهم إذا خرجوا من قبورهم يقومون ويسقطون . ويقال : إنهم يبعثون يوم القيامة قد انتفخت بطونهم كالحبائلي ، وكلما قاموا سقطوا والناس يمشون عليهم . وقال بعض العلماء : إنما ذلك شعائر لهم يُعرفون به يوم القيامة ثم المذاب من وراء ذلك ؛ كما أن الغَالَّ يَجِيءُ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِشَهْرٍ يَشْهَرُ بِهَامِ الْعَذَابِ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ . وقال تعالى : « يَا كُفُّونَ » والمراد يكسبون الربا ويفعلونه . وإنما خص الأكل بالذكر لأنه أقوى مقاصد الإنسان في المال ؛ ولأنه دالٌّ على الجشع وهو أشدُّ الحرص ؛ يقال : رجل جَشَعَ بَيْنَ الْجَشَعِ وَقَوْمٌ جَشَعُونَ ؛ قاله في المَجْمَلِ . فأقيم هذا البعض من توابع الكسب مقام الكسب كله ؛ فاللباس والسكنى والادخار والإنفاق على العيال داخل في قوله : « الَّذِينَ يَا كُفُّونَ » .

(١) في ابن علي : مجارة الربا . الأتقى : شبه المجنون .

الثانية عشرة - في هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصرع من جهة الجن^(١) وزعم أنه من فعل الطابع، وأن الشيطان لا يسلك في الإنسان ولا يكون منه مس^(٢)، وقد مضى الرد عليهم فيما تقدم من هذا الكتاب - وقد روى النسائي^(٣) عن أبي اليسر قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من التردى والهلمم والفرق والحرق وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت» وأعوذ بك أن أموت بك من التردى والهلمم والفرق والحرق أن أموت أبداً». وروى من حديث محمد بن المثنى حدثنا أبو داود حدثنا همام عن قتادة عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الجنون والجذام والبرص وسبي الأسماع» - والمس: الجنون؛ يقال: مس الرجل، وأمس؛ فهو ممسوس ومألوس إذا كان مجنوناً، وذلك علامة الربا في الآخرة - وروى في حديث الإماء: «فأطلقني جبريل فررت رجال كثير كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم متصددين على سابلة آل فرعون وآل فرعون يعرضون على النار بكرة وعيشاً فيقولون مثل الإبل المبهومة يتخبطون الجحارة والشجر لا يسمعون ولا يقولون فإذا أحس بهم أصحاب تلك البطون قاموا فتميل بهم بطونهم فيصرعون ثم يقوم أحدهم فيميل به بطنه فيصرع فلا يستطيعون برأحاً حتى ينشاهم آل فرعون فيطونهم مقبلين ومدبرين فذلك عذابهم في البرزخ بين الدنيا والآخرة وآل فرعون يقولون اللهم لا تقم الساعة أبداً فإن الله تعالى يقول: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ» - قلت - يا جبريل من هؤلاء؟ قال: «هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس» - والمس الجنون وكذلك الأولون والألس والزود^(٤).

الثالثة عشرة - قوله تعالى: ((ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا)) معناه عند جميع المتأولين في الكفار، ولم قيل: «فَلَهُ مَاسَلَفٌ» ولا يقال ذلك لمؤمن ماص بل يقتضيه (١) المهور: المصائب بداء المصائب، وهو داء يصيب الإبل من عاصفها يستقطا قديم في الأرض لا ترمى - وقيل: هو داء يضيقها ضيقاً فلا ترى: وقيل: داء من شدة العطش. (٢) رابع جزء ص ٣٦٨ (٣) (٤) كما في الأصول وابن علية ولم يسد لوجه اللهم إلا ما روى: إن الشيطان يريه ابن آدم بكل هيئة أي بكل طلب ومراءاة، والرياء اسم من الإرادة - الباقية.

ويرد فله وإن كان جاهلاً؛ فلذلك قال صلى الله عليه وسلم : " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌ " . لكن قد يأخذ العصاة في الربا بطرف من وعيد هذه الآية .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ أي إنما الزيادة عند حلول الأجل آخر كمثل أصل الثمن في أول العقد، وذلك أن العرب كانت لا تعرف ربا إلا ذلك؛ فكانت إذا حل دينها قالت للغيريم : إما أن تقضى وإما أن تُرْبى، أي تزيد في الدين . فحرم الله سبحانه ذلك ورد عليهم قولهم بقوله الحق : « وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا » وأوضح أن الأجل إذا حل ولم يكن عنده ما يؤدي أنظر إلى الميسرة . وهذا الربا هو الذي نسخه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله يوم عرفة لما قال : " ألا إن كل ربا موضوع وإن أول ربا أضعه ربانا ربا عباس بن عبدالمطلب فإنه موضوع كله " . فبدأ صلى الله عليه وسلم بعنه وأخص الناس به . وهذا من سنن العدل للإمام أن يفيض العدل على نفسه وخاصته فيستفيض حيثنذ في الناس .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ هذا من عموم القرآن ، والآلف واللام للجنس لا للعهد إذ لم يتقدم بيع مذكور يرجع إليه؛ كما قال تعالى : « وَالْعَصِيرُ إِنْ الْإِنْسَانُ لَفِيْ خُسْرٍ » ثم استثنى « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » . وإذا ثبت أن البيع عام فهو مخصص بما ذكرناه من الربا وغير ذلك مما تنهى عنه ومنع المقد عليه ؛ كالنهر والميتة وحبل الحبلة^(١) وغير ذلك مما هو ثابت في السنة وإجماع الأمة انتهى عنه . ونظيره « أَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ » وسائر الظواهر التي تقتضي العمومات ويدخلها التخصيص ، وهذا مذهب أكثر الفقهاء . وقال بعضهم : هو من مجمل القرآن الذي فسر بالمحتمل من البيع والمحرّم فلا يمكن أن يستعمل في إحلال البيع ونحره إلا أن يقرن به بيان من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن دل على إباحة البيوع في الجملة دون التفصيل . وهذا فرق ما بين العموم والمجمل .

(١) راجع ج ٢٠ ص ١٧٨ (٢) الحبل (بالضرب) مصدره به المحلول كما سمي بالحبل ، وإنما دخلت عليه الاء للاشعار بمعنى الأثرة فيه ، قاله الأثرل يراد به ما في بطون النوق من الحبل ، والثاني حبل ما في بطون النوق . وإنما تنهى عنه اثنين : أحدهما أنه غرر ، ويحتمل أن لم يخلق بعد ، وهو أن يبيع ما سوف يملكه الجاني الذي في بطون النوق على تقدير أن تكون آتى ، فهو بيع نتاج النتاج . وقيل أراد بمجمل الحيلة أن يبيع إلى أجل يبيع فيه الحبل الذي في بطون النوق ؛ فهو أجل مجهول ولا يصح (من نهاية ابن الأثير) . (٢) راجع ج ٨ ص ٧١

فالمعوم يدل على إباحة البيوع في الجملة والتفصيل ما لم يخص بدليل . والمعمل لا يدل على إباحتها في التفصيل حتى يقتصر به بيان . والأول أصح . والله أعلم .

السادسة عشرة — البيع في اللغة مصدر باع كذا بكذا ، أى دفع عوضا وأخذ عوضا . وهو يقتضى بائعا وهو المالك أو من يُمَثِّل منزله ، ومُبتاعا وهو الذى يبذل الثمن ، ومبيعا وهو المضمون وهو الذى يُسَدَّل في مقابلته الثمن . وعلى هذا فأركان البيع أربعة : البائع والمبتاع والثمن والمُتَمَّن . ثم المعاوضة عند العرب تختلف بحسب اختلاف ما يضاف إليه ؛ فإن كان أحد المعوضين في مقابلة الرقبة سُمِّي بيبعا ، وإن كان في مقابلة متعة رقبة فإن كانت متعة بضع سُمِّي نكاحا ، وإن كانت متعة غيرها سُمِّي إجارة . وإن كان عتقا بين فبيع فهو بيع الثغد وهو الصرف ، وإن كان بدين مؤجل فهو السلم ، وسيأتى بيانه في آية الدين . وقد مضى حكم الصرف ، ويأتى حكم الإجارة في « القصص » وحكم المهر في التكايف في « النساء » كل في موضعه إن شاء الله تعالى .

السابعة عشرة — البيع قبول وإيجاب يقع باللفظ المستقبل والماضى ؛ فالماضى فيه حقيقة والمستقبل كتابية ، ويقع بالصريح والكتابة المفهوم منها قتل الملك . فسواء قال يبتك هذه السلعة بمشرة فقال : اشتريتها ، أو قال المشتري : اشتريتها وقال البائع : بتمكها ، أو قال البائع : أنا أبيعك بمشرة فقال المشتري : أنا أشتري أو قد اشتريت ، وكذلك لو قال : خلدها بمشرة أو أعطيتها أو دونكها أو بورك لك فيها بمشرة أو سلمتها إليك — وهما يريدان البيع — فذلك كله بيع لازم . ولو قال البائع : بتمك بمشرة ثم رجع قبل أن يقبل المشتري فقد قال : ليس له أن يرجع حتى يسمع قبول المشتري أو رده ؛ لأنه قد بذل ذلك من نفسه وأوجبه عليها ، وقد قال ذلك له ؛ لأن العقد لم يتم عليه . ولو قال البائع : كنت لاعبا ، فقد اختلفت الرواية عنه ؛ فقال مرة : يلزمه البيع ولا يلتفت إلى قوله . وقال مرة : ينظر إلى قيمة السلعة .

(١) راجع من ٣٧٦ من هذا الجزء . (٢) راجع ج ١٣ ص ٧٢ فاجد . (٣) راجع ج ٥

ص ٢٣ و ٩٩ . (٤) قوله قد قال ؛ يعنى مالكا كما أتى قوله : قد انقضت الرواية به الخ .

فإن كان اليمن يشبه قيمتها فالبيع لازم ، وإن كان متفاوتا كعبد يدرهم ودار بدينار ، علم أنه لم يُرد به البيع ، وإنما كان هازلا فلم يلزمه .

الثامنة عشرة - قوله تعالى : (وَحَرَّمَ الرِّبَا) الألف واللام هنا للعهد ، وهو ما كانت العرب تفعله كما بيناه ، ثم تناول ما حرره رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عنه من البيع الذي يدخله الربا وما في معناه من البيوع المنهية عنها .

التاسعة عشرة - عقد الربا مقصوخ لا يجوز بحال ، لما رواه الأئمة واللفظ لمسلم عن أبي سعيد الخدري قال : جاء بلال بن رباح^(١) فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أين هذا ؟ " فقال بلال : من تمر كان عندنا ردئ ، فبعت منه صاعين بصاع لمطعم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : " أوه عين الربا لا تفعل ولكن إذا أردت أن تستري التمر فبعه ببيع آخر ثم اشتريه " وفي رواية " هذا الربا فردوه ثم بيعوا تمرنا واشتروا لنا من هذا " . قال علماؤنا : بقوله : " أوه عين الربا " أي هو الربا المحترم نفسه لا ما يشبهه . وقوله : " فردوه " يدل على وجوب فسخ صفقة الربا وأنها لا تصح بوجه ، وهو قول الجمهور ، خلافا لأبي حنيفة حيث يقول : إن بيع الربا جائز بأصله من حيث هو بيع ، ممنوع بوصفه من حيث هو ربا ، فيسقط الربا ويصح البيع . ولو كان على ما ذكرنا ففسخ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الصفقة ، ولأمره برد الزيادة على الصاع ولصحت الصفقة في مقابلة الصاع .

الحادية عشر - كل ما كان من حرام بين ففسخ فعل المتاع رد السلعة بعينها . فإن تلفت بيده رد القيمة فيما له القيمة ، وذلك كالعقار والمروض والحيوان ، والمثل فيما له مثل من موزون أو مكيل من طعام أو عرض . قال مالك : رد الحوام البين فلت أولم يفت ، وما كان مما كره الناس رد إلا أن يفوت فيترك .

(١) ثبني (فتح المرحمة وسكون الراء) آخره ياء مشددة : ضرب من التمر أحمر صغير كشمس الهام (ومر ما كما التواتر) عذب الخلاوة .

(٢) تراجم حاشية ٣٤٦ من هذا الجزء .

الحادية والعشرون - قرله تعالى : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ قال جعفر بن محمد الصادق رحمه الله : حرم الله الربا ليتقارض الناس . وعن ابن نسمود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " قَرْضٌ مَرَّتَيْنِ يَسْدِلُ صَدَقَةً مَرَّةً " أخرجه البزار ، وقد تقدم هذا المعنى مستوفى . وقال بعض الناس : حرم الله لأنه متلف للأموال مهلكة للناس . وسقطت علامة التانيث في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ ﴾ لأن تانيث « الموعظة » غير حقيقى وهو بمعنى وعظ . وقرأ الحسن « فمن جاءه » بإثبات العلامة .

هذه الآية تلها عائشة لما أخبرت بفعل زيد بن أرقم . روى الدارقطني عن العالية بنت أنفع قالت : خرجت أنا وأم حجة إلى مكة فدخلنا على عائشة رضى الله عنها فسلمنا عليها فقالت لنا : من أنتن ؟ قلنا من أهل الكوفة ، قالت : فكأنها أعرضت عنا ، فقالت لها أم حجة : يا أم المؤمنين ! كانت لي جارية وإني بعتها من زيد بن أرقم الأنصارى بمائة درهم إلى عطائه وإنه أراد بيعها فابتعتها منه بمائة درهم . قالت : فأقبلت علينا فقالت : بشما شريت وما اشتريت ! فأبى زيد أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يتوب . فقالت لها : أرايت إن لم آخذ منه إلا رأس مالى ؟ قالت : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَأَتَتْهُ قُلَّةٌ مَا سَلَفَ ﴾ . العالية هي زوجة أبي إسحاق الهمدانى الكوفى السبىي . أم يونس بن أبى إسحاق . وهذا الحديث أخرجه مالك من رواية ابن وهب عنه في بيوع الآجال ، فإن كان منها ما يؤدى إلى الوقوع في المحذور منع منه وإن كان ظاهره فيما جائزا . وخالف مالك في هذا الأصل بجمهور الفقهاء وقالوا : الأحكام مبينة على الظاهر لا على الظنون . ودلينا القول بسد النرائع ، فإن سلم وإلا استدلتنا على صحتها . وقد تقدم . وهذا الحديث نص ، ولا نقول عائشة « أبى زيد أنه قد أبطل جهاده إلا أن يتوب » إلا بتوقيف ، إذ مثله لا يقال بارأى فإن إبطال الأعمال لا يتوصل إلى معرفتها إلا بالوحى كما تقدم . وفي صحيح مسلم عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن أتى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعى يرى

حول المحي يوشك أن يوقع فيه ألا وإن لكل ملك حيّ ألا وإن حيّ الله محارمه . وجه دلالة أنه منع من الإقدام على التشابهات بخافة الوقوع في المحرمات وذلك مد للذريعة . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن من الكائس شتم الرجل والديه " قالوا : وكيف يشتم الرجل والديه ؟ قال : " يسبّ أباه الرجل فيسبّ أباه ويسبّ أمه فيسبّ أمه " . فجعل التعريض لسب الآباء كسب الآباء . ولما صلى الله عليه وسلم اليهود إذ أكلوا ممن ما نأوا عن أكله . وقال أبو بكر في كتابه : لا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة . ونهى ابن عباس عن درهم بدرهم بينهما جريرة ^(١) . وأحق العلاء على منع الجمع بين بيع وسلف ، وعلى تحريم قليل النحر وإن كان لا يُسبّر ، وعلى تحريم الخلوّة بالأجنبية وإن كان عينا ، وعلى تحريم النظر إلى وجه المرأة الشابة إلى غير ذلك مما يكثر ويُسلم على القطع والثبت أن الشرع حكم فيها بالمنع ؛ لأنها ذرائع المحرمات . وإلّا با أحق ما حُتّ مراثته وسُدّت طرائقه ، ومن أباح هذه الأسباب فليح حفر البئر ونصب الجبال لهلاك المسلمين والمسلمات ، وذلك لا يتوله أحد . وأيضا فقد اتفقت على منع من باع بالينة إذا عُرِف بذلك وكانت عادته ، وهي في معنى هذا الباب . والله الموفق للصواب .

الطائفة والعشرون - روى أبو داود عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا تبايعتم بالينة وأخذتم أذناب البقر ورضعتم بالزور وتركتم الجهاد سخط الله عليكم ذلّا لا يرفعكم عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم " . في إسناده أبو عبد الرحمن الأنطراساني . ليس بمشهور . وفسر أبو عبيد المروري ^(٢) الينة فقال : هي أن يبيع من رجل سلعة يئن معلوم إلى أجل مسمى ، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به . قال : فإن اشتري بمحضرة طالب الينة سلعة من آخر يئن معلوم وقبضها ثم باعها من طالب الينة يئن أكثر مما اشتراها إلى أجل مسمى ، ثم باعها المشتري من البائع الأول بالنقد بأقل من الثمن

- (١) الحديث أثبتناه كما في صحيح مسلم طبع الإسكندرية سنة ١٢٥٠ هـ . وفي ب و د و هـ : يوشك أن يرافقه .
- (٢) كما في هـ و أ وفي ب و د و هـ : حريره ، والذي يبدو أن المعنى : درهم بدرهم معها شيء قد يكون فيه تخاضل ، ولعل الأصل : بينهما جريرة . أي بينهما فاضل لما بين الجدي والقديم منها من الفرق .
- (٣) في أ على المساس . في إسناده أبو عبد الرحمن الأنطراساني اسمه إسحاق بن أمية تزيل معر لا ينجح به ، وفيه أيضا خطأ أنطراساني ، وفيه : قال لم يذكره الشيخ رضي الله عنه ليس مشهور .

فهذه أيضا ميتة، وهي أحون من الأولى، وهو جائز عند بعضهم. وتثبت ميتة لحضور النقد لمصاحب الميتة، وذلك أن الميت هو المال الحاضر والمشتري إنما يشتريها لبيعها بين حاضر يصل إليه من فوره.

الثالثة والعشرون — قال علماؤنا: فمن باع سلعة بمن إلى أجل ثم ابتاعها بمن من جنس الثمن الذي باعها به، فلا يخلو أن يشتريها منه بنقد، أو إلى أجل دون الأجل الذي باعها إليه، أو إلى أبعد منه، بمثل الثمن أو بأقل منه أو بأكثر؛ فهذه ثلاث مسائل: وأما الأولى والثانية فإن كان بمثل الثمن أو أكثر جاز، ولا يجوز بأقل على مقتضى حديث عائشة، لأنه أعطى ستمائة ليأخذ ثمانمائة والسلعة لنحو، وهذا هو الرأى بينه. وأما الثالثة إلى أبعد من الأجل، فإن كان اشتراها وحدها أو زيادة فيجوز بمثل الثمن أو أقل منه، ولا يجوز بأكثر. فإن اشترى بعضها فلا يجوز على كل حال لا بمثل الثمن ولا بأقل ولا بأكثر. ومسائل هذا الباب حصرها علماؤنا في سبع وعشرين مسألة، ومدارها على ما ذكرناه، فاعلم.

الرابعة والعشرون — قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَلَفَ﴾ أي من أمر الرأى لا تباعه عليه منه في الدنيا ولا في الآخرة؛ قاله السدي وغيره. وهذا حكم من الله تعالى لمن أسلم من كفار قريش وتيقف ومن كان يتجر هناك. وسلف: ممتنع تقدم في الزمن واقضى.

الخامسة والعشرون — قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ فيه أربع تأويلات: أحدها أن الضمير عائد إلى الرأى، بمعنى وأمر الرأى إلى الله في إصرار تحريمه أو غير ذلك. والآخر أن يكون الضمير عائدا على «ما سلف» أي أمره إلى الله تعالى في الغو عنه وإسقاط النجاسة فيه. والثالث أن يكون الضمير عائدا على ذي الرأى، بمعنى أمره إلى الله في أن يشته على الانتهاء أو يبيعه إلى المصيبة في الرأى. واختار هذا القول النحاس، قال: وهذا قول حسن بين، أي وأمره إلى الله في المستقبل إن شاء تبتة على التحريم وإن شاء أباحه. والرابع أن يعود الضمير على المنتهى؛ ولكن بمعنى التأنيس له وبسط أملة في التلخيص كما تقول: وأمره إلى طاعة وغير، وكما تقول: وأمره في نمو وإقبال إلى الله تعالى وإلى طاعته.

(١) في «وب» : لحصول. (٢) كما في ابن علية وهو بوب، وفي «و» : أمره إلى الله في أن يبيعه... أو يملكه على المصيبة في الرأى.

السادسة والعشرون — قوله تعالى : (وَمَنْ عَادَ) يعني إلى فعل الرأيا حتى يموت ؛ قاله صفيان . وقال غيره : مَنْ عاد فقال إنما البيع مثل الرأيا فقد كفر . قال ابن عطية : إن قدرنا الآية في كافر فالخلود خلود تأييد حقيق ، وإن لحظناها في مسلم عاص فهنا خلود مستمر على معنى المبالغة ، كما تقول العرب : مُلِّكُ خالد ، عبارة عن دوام ما لا يبقى على التأييد الحقيقي : السابعة والعشرون — قوله تعالى : (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا) يعني في الدنيا أى يذهب بركته وإن كان كثيرا . روى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الرِّبَا وإن كثر فمحقه إلى قُلْ " . وقيل : « يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا » يعني في الآخرة . وعن ابن عباس في قوله تعالى : « يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا » قال : لا يقبل منه صدقة ولا حجاً ولا جهاداً ولا صلة . والمحق : الغصص والذهب ، ومنه عُاقِ القمصر وهو انتفاصه . (وَيُرِي الصَّدَقَاتِ) أى يُبَيِّنُهَا في الدنيا بالبركة ويكثر نوايها بالضعيف في الآخرة . وفي صحيح مسلم : " إن صدقة أحدكم لتقع في يد الله فَيَرِيهَا له كما يَرِي أحدكم قُلُوبَهُ أو فصيلة حتى يحى ، يوم القيامة وإن اللقمة لعل قدر أحد " . وقرأ ابن الزبير « يَمْحَقُ » بضم الياء وكسر الحاء مشددة « يَرِي » بفتح الزاء وتشديد الباء ، ودُوبِت من النبي صلى الله عليه وسلم كذلك .

الثامنة والعشرون — قوله تعالى : (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) ووصف كفار بانهم مبالغة ، من حيث اختلاف اللفظان . وقيل : لإزالة الاشتراك في كفار ، إذ قد يقع على الزارع الذي يسترحب في الأرض : قاله ابن قُورُك .

وقد ختم القول في قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ) . وخص الصلاة والزكاة بالذكر وقد تضمنها عمل الصالحات تنزيها لها وتنبيها على قدرهما إذ هما رأس الأعمال ، الصلاة في أعمال البدن ، والزكاة في أعمال المال . التاسعة والعشرون — قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ الرِّبَا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ مَوْمِنِينَ) ظاهره أنه أجل من الرأيا ما لم يكن مقبوضا وإن كان معفوفا قبل

(د) كما في جء ، وفي سائر الأصول : في صحيح الحديث .

تُزِيلُ آيَةَ التَّحْرِيمِ ، وَلَا يَتَعَقَّبُ بِالْفَسْخِ مَا كَانَ مَقْبُوضًا . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ الْآيَةَ تَزِلُّ بِسَبَبِ تَقْيِيفٍ ، وَكَانُوا عَاهَدُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَنْ مَالَهُمْ مِنَ الرِّبَا عَلَى النَّاسِ فَهُوَ لَهُمْ ، وَمَا لِلنَّاسِ طَهُيمٌ فَهُوَ مَوْضُوعٌ عَنْهُمْ ، فَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ أَجَالُ رِبَاهُمْ بَشَوُا إِلَى مَكَّةَ لِلانْقِضَاءِ ، وَكَانَتْ الدِّيُونُ لِبَنِي عَبْدِةَ وَهُمْ بَنُو عَمْرِو بْنِ عِمْرٍ مِنْ تَقْيِيفٍ ، وَكَانَتْ عَلَى بَنِي الْمُغْيَةِ الْخَزَرَمِيِّينَ . فَقَالَ بَنُو الْمُغْيَةِ : لَا نَعْطِي شَيْئًا فَإِنَّ الرِّبَا قَدْ رُفِعَ . وَرَضُوا أَمْرَهُمْ إِلَى عَتَّابِ بْنِ أَبِيدٍ ، فَكَتَبَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَزَلَّتْ الْآيَةُ فَكَتَبَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عَتَّابٍ ، فَعَامَلَتْ بِهَا تَقْيِيفٌ فَكَفَّتْ . هَذَا سَبَبُ الْآيَةِ عَلَى اخْتِصَارِ جَمْعٍ مَا رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ وَابْنُ جَرِيرٍ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ . وَالْمَعْنَى أَجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَذَابِ اللَّهِ وَقَايَةً بِتَرْكِكُمْ مَا بَقِيَ لَكُمْ مِنَ الرِّبَا وَصَفَحَكُمْ عَنْهُ .

المُؤَيِّدَةُ ثَلَاثِينَ — قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ شَرْطٌ مُعْضٍ فِي تَقْيِيفٍ عَلَى بَابِهِ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي أَوَّلِ دُخُولِهِ فِي الْإِسْلَامِ . وَإِذَا قَدَرْنَا الْآيَةَ فَيَعْنِي قَدْ تَخَرَّجَ إِعْجَانُهُ فَهُوَ شَرْطٌ بِمَجَازٍ عَلَى جِهَةِ الْمُبَالَغَةِ ؛ كَمَا يَقُولُ مَنْ تَرِيدُ إِقَامَةَ نَفْسِهِ : إِنْ كُنْتُ رَجُلًا فَافْعَلْ كَذَا . وَهَكَذَا الْقَاسِ مِنْ مُقَاتِلِ بْنِ سُلَيْمَانَ أَنَّهُ قَالَ : إِنْ « إِنْ » فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِمَعْنَى « إِذْ » . قَالَ ابْنُ حَطَّابٍ : وَهَذَا مَرْدُودٌ لَا يَجُوزُ فِي الْفِعْلِ . وَقَالَ ابْنُ قُورَيْبٍ : يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » مِنْ قَبْلِ عَمْدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ « قَدُّوْا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » بِحَمْدِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! إِذْ لَا يَنْفَعُ الْأَوَّلُ إِلَّا بَعْدَهُ . وَهَذَا مَرْدُودٌ بِمَا رَوَى فِي سَبَبِ الْآيَةِ .

الحادية والثلاثون — قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِمَحْرَبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ هَذَا وَعِيدٌ إِنْ لَمْ يَتَذَرُوا الرِّبَا ، وَالْحَرْبُ دَاعِيَةُ الْقَتْلِ . وَرَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّهُ يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا كُلُّ الرِّبَا : خُذْ سِلَاحَكَ لِلْحَرْبِ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا : مَنْ كَانَ مَقْبِيًا عَلَى الرِّبَا لَا يَتَرَعَّعُ عَنْهُ فَقِيٌّ عَلَى إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْتَنْبِيهَ ، فَإِنْ نَزَعَ وَلَا ضَرْبَ عِقَابِهِ . وَقَالَ قَسَادَةُ : أَوَمَدَّ اللَّهُ أَهْلَ الرِّبَا بِالْقَتْلِ بِغُلَّامِهِمْ يَهْرَجًا أَيْخَانًا يُفْقَوُا^(١) . وَقِيلَ : الْمَعْنَى إِنْ لَمْ تَتَّهَرُوا فَاتَمَّ حَرْبُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، أَيْ

(١) أَيْ إِتَارَةً قِيَمَهُ . (٢) الْهَرَجُ : التَّهْمُ الْمُبْلَغُ . (٣) عَقَبَهُ : أَخْلَصَ مَقَرَّهُ أَوْ جَدَّاهُ .

أعداه . وقال ابن خُوَزَيْمَةَ : ولو أن أهل بلد اصطلموا على الربا استحللوا كانوا مرتدين ،
والحكم فيهم كالحكم في أهل الردة ، وإن لم يكن ذلك منهم استحللوا جاز للإمام عاربتهم ،
ألا ترى أن الله تعالى قد أذن في ذلك فقال : « فَأَذِنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » . وقرأ
أبو بكر عن عاصم « فَأَذِنُوا ، على معنى فأعلموا غيركم أنكم على حربهم » .

الثانية والثلاثون - ذكر ابن بكير قال : جاء رجل إلى مالك بن أنس فقال :
يا أبا عبد الله ، إني رأيت رجلاً سكراناً يتعاقر يريد أن يأخذ الفجر ، قلت : امرأتى طالق
إن كان يدخل جوف ابن آدم أنثراً من الخمر . فقال : أرجع حتى أنظر في مسألتك . فأتاه
من الفسد فقال له : أرجع حتى أنظر في مسألتك فأتاه من الفسد فقال له : امرأتك طالق ،
إني تصفحت كتاب الله وسنة نبيه فلم أَرُ شيئاً أنثراً من الربا ،^(١) لأن الله أذن فيه بالحرب .

الثالثة والثلاثون - دلت هذه الآية على أن أكل الربا والعمل به من الكبائر ، ولا خلاف
في ذلك على ما نبهته . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يأتي على الناس زمان
لا يبقى أحد إلا أكل الربا ومن لم يأكل الربا أصابه غيابه » وروى الدارقطني عن عبد الله
ابن حنظلة غسيل الملائكة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لدرهم ربا أشد عند الله تعالى
من ست وثلاثين زانية في الخلطة » وروى عنه عليه السلام أنه قال : « الربا تسعة وتسعون
باباً أدناها كإتيان الرجل بأمه » يعني الزنا بأمه . وقال ابن مسعود أكل الربا وموكله وكتابه
وشاهده ملعون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم . وروى البخاري عن أبي جُمَيْعَةَ قال : نهى
رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثمن النمل وثن الكلب وكسب البني ولعن أكل الربا وموكله
والواشمة والمستوشمة والمصور . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) في جوده وب : أشد . (٢) في الاستياب أن حنظلة الفيل قتل يوم أحد شيئا فله أبو سفيان .
كان قد ألم بأمه في حين خروجه إلى أحد ثم هجم عليه من الخروج في الغير ما أساء الفيل وأجعله معه ، فلما قتل شيئا
أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الملائكة فسده . (٣) أي أجرة الجاهة ، وأطلق عليه ابن جرير .
(٤) أحدها الحديث كما في صحيح البخاري راجع المسقوفين ج ١٠ ص ٤٣٠

قال : « اجتنبوا السبع الموبقات ... ج - وفيها - وأكل الربا » . وفي مصنف أبي داود عن ابن مسعود قال : لمن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل الربا وموكله وكتابه وشاهدته .

الرابعة والثلاثون - قوله تعالى : « وَإِنْ تَبَيَّنَ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ » الآية . روى أبو داود عن سليمان بن عمرو عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في حجة الوداع : « ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » وذكر الحديث . فقدم تعالى مع التوبة إلى رؤوس أموالهم وقال لم : « لَا تَظْلِمُونَ » في أخذ الربا « وَلَا تَظْلَمُونَ » أن يمسك بنىء من رؤوس أموالكم فتذهب أموالكم . ويحتمل أن يكون « لَا تَظْلَمُونَ » في مطلق ؛ لأن مطلق النفي ظلم ؛ فالمنى أنه يكون القضاء مع وضع الربا ، وهكذا سنة الصلح ، وهذا أشبه شئ بالصلح . ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أشار إلى كعب بن مالك في دين آبن أبي حذرد بوضع الشطر فقال كعب : نعم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للآخر : « قُمْ فَأَقِضْهُ » . فتلقى العلماء أمره بالقضاء سنة في المعاملات . وسبق في « النساء » بيان الصلح وما يجوز منه وما لا يجوز ، إن شاء الله تعالى .

الخامسة والثلاثون - قوله تعالى : « وَإِنْ تَبَيَّنَ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ » تأكيد لإبطال ما لم يقبض منه وأخذ رأس المال الذي لا ربا فيه . فاستدل بعض العلماء بذلك على أنه كل ما طرأ على البيع قبل القبض مما يوجب تحريم العقد بطل العقد ؛ كما إذا اشترى مسلم صيدا ثم أحرم المشتري أو البائع قبل القبض بطل البيع ؛ لأنه طرأ عليه قبل القبض ما أوجب تحريم العقد ؛ كما بطل الله تعالى ما لم يقبض ؛ لأنه طرأ عليه ما أوجب تحريمه قبل القبض ، ولو كان مقبوضا لم يؤثر . هذا مذهب أبي حنيفة ، وهو قول لأصحاب الشافعي . ويستدل به على أن هلاك المبيع قبل القبض في يد البائع وسقوط القبض فيه يوجب بطلان العقد خلافا لبعض السلف ؛ ويروى هذا الخلاف عن أحمد . وهذا إنما يخفى على قول من يقول : إن العقد في الربا كان في الأصل منقدا ، وإنما بطل بالإسلام الطاري قبل

القبض . وأما من منع اعتقاد الربا في الأصل لم يكن هذا الكلام صحيحا ؛ وذلك أن الربا كان محرما في الأديان ، والذي فعلوه في الجاهلية كان عادة المشركين ، وأن ما قبضوه منه كان بمثابة أموال وصلت إليهم بالنصب والسلب فلا يتعرض له . فعلى هذا لا يصح الاستنباد على ما ذكره من المسائل . واشتمل شرائع الأنبياء قبلنا على تحريم الربا مشهور مذكور في كتاب الله تعالى ؛ كما حكي عن اليهود في قوله تعالى : « وَأَخَذْنَاهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ » . وذكر في قصة شعيب أن قومه أنكروا عليه وقالوا : « أَتَنَاهَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ » فعلى هذا لا يستقيم الاستدلال به . نعم ، يفهم من هذا أن العقود الواقعة في دار الحرب إذا ظهر عليها الإمام لا يتعرض عليها بالفسخ إن كانت معقودة على فساد .

السادسة والثلاثون — ذهب بعض الفلاة من أرباب الورع إلى أن المال الحلال إذا خالطه حرام حتى لم يتميز ثم أخرج منه مقدار الحرام المختلط به لم يحل ولم يطب ؛ لأنه يمكن أن يكون الذي أخرج هو الحلال والذي بقي هو الحرام . قال ابن العربي : وهذا غلو في الدين ؛ فإن كل ما لم يتميز فمقصود منه ما يئنه لا عينه ، ولو تلف لتمام المثل مقامه والاختلاط إتلاف لتمييزه ؛ كما أن الإهلاك إتلاف لئنه ، والمثل قائم مقام الذاهب ، وهذا بين حسا بين معنى . والله أعلم .

قلت : قال طحاوينا إن سبيل التوبة مما بيده من الأموال الحرام إن كانت من ربا فليردها على من أربى عليه ، ويطليه إن لم يكن حاضرا ، فإن أيس من وجوده فليصدق بذلك عنه . وإن أخذه بظلم فليعمل كذلك في أمر من ظلمه . فإن التمس عليه الأمر ولم يدر كم الحرام من الحلال مما بيده ، فإنه يحوز قدر ما بيده مما يجب عليه رده ، حتى لا يشك أن ما بقي قد خلص له فيرده من ذلك الذي أزال عن يده إلى من عُرف بمن ظلمه أو أربى عليه . فإن أيس من وجوده تصدق به عنه . فإن أحاطت المظالم ببقته وعلم أنه وجب عليه من ذلك ما لا يطيق إداؤه أبداً لكثرة قروبه أن يُزيل ما بيده أجمع إما إلى المساكين وإما إلى ما فيه

(١) في أ : هامة فلا يتعرض له ، فلا حيلة ، وإنما لا يتعرض له لأن الإسلام يجب ما فيه . وفي ج : بالتب .

(٢) راجع ج ٦ ص ٨٢ - (٣) راجع ج ٦ ص ٨٦ و ٨٧

صلاح المسلمين، حتى لا يبقى في يده إلا أقل ما يجزئه في الصلاة من اللباس وهو ما يستقر العورة وهو من سُرته إلى ركبته، وقوت يومه؛ لأنه الذي يجب له أن يأخذ من مال غيره إذا اضطر إليه؛ وإن كره ذلك من يأخذه منه. وفارق هاهنا المفلس في قول أكثر العلماء، لأن المفلس لم يصر إليه أموال الناس باعتدائه بل هم الذين صيروها إليه فترك له ما يؤاويه وما هو هيئة لباسه. وأبو عبيد وغيره يرى ألا يترك للمفلس من اللباس إلا أقل ما يجزئه في الصلاة وهو ما يؤاويه من سُرته إلى ركبته، ثم كلما وقع بيد هذا شيء أخرجه عن يده ولم يمسك منه إلا ما ذكرنا، حتى يعلم هو ومن يعلم حاله أنه أدى ما عليه.

السابعة والثلاثون — هذا الوعيد الذي وعد الله به في الربا من المخاربة، قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله في المخاربة. وروى أبو داود قال: أخبرنا يحيى بن معين قال: أخبرنا ابن رجاء قال ابن خيثم حدثني عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَنْ لَمْ يَدْرِ المخاربة فَلْيُؤْذِنْ بحرب من الله ورسوله". وهذا دليل على منع المخاربة وهي أخذ الأرض بنصف أو ثلث أو ربع، ويسمى المزارعة. وأجمع أصحاب مالك كلهم والشافعي وأبو حنيفة وأتباعهم وداود، على أنه لا يجوز دفع الأرض على الثلث والربع، ولا على جزء مما تُخرج؛ لأنه مجبول، إلا أن الشافعي وأصحابه وأبا حنيفة قالوا يجوز كراء الأرض بالطعام إذا كان معلوماً لقوله عليه السلام: "فأما شيء معلوم مضمون فلا بأس به" أخرجه مسلم. وإليه ذهب محمد بن عبد الله بن عبد الحكم. ومنه مالك وأصحابه؛ لما رواه مسلم أيضاً عن رافع بن خديج قال: كنا نحاقل بالأرض على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنُكِرَها بالثلث والربع والطعام المستى، بغداة ذات يوم رجل من عموقي فقال: نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر كان لنا فافعلنا وطواغية الله ورسوله أضع لنا، نهانا أن نحاقل بالأرض فنُكِرَها على الثلث والربع والطعام المستى، وأمر رب الأرض أن يزرعها أو يزارعها. وكبره كرامها وما سوى ذلك. قالوا:

(١) كذا في ب، هـ. وهو الصواب كما في سنن أبي داود، وفي أ، ب، ج: أبو رباح.

(٢) كذا في أ: وهو ما نهى عنه، والذي في ب، ج، د، هـ: يزرعها أو يزارعها. أي أمكن فيه من زرعها وهذا في معنى الحديث "من كانت له ظيوعها أو يمتصها أخاه".

فلا يجوز كراه الأرض بشيء من الطعام ما كولا كان أو مشروبا على حال، لأن ذلك في معنى بيع الطعام بالطعام نميتا . وكذلك لا يجوز عندهم كراه الأرض بشيء مما يخرج منها وإن لم يكن طعاما ما كولا ولا مشروبا، سوى الخشب والقصب والحطب ؛ لأنه عندهم في معنى المُرَابَّة^(١) . هذا هو الموقوف عن مالك وأصحابه . وقد ذكر ابن مثنون عن المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي المدني أنه قال : لا بأس باكره الأرض بطعام لا يخرج منها . وروى يحيى بن عمر عن المغيرة أن ذلك لا يجوز ؛ كقول سائر أصحاب مالك . وذكر ابن حبيب أن ابن كنانة كان يقول : لا تترك الأرض بشيء إذا أعيد فيها نبت ، ولا بأس أن تترك بما سوى ذلك من جميع الأشياء مما يؤكل وما لا يؤكل يخرج منها أو لم يخرج منها ؛ وبه قال يحيى بن يحيى ، وقال : إنه من قول مالك . قال : وكان ابن نافع يقول : لا بأس أن تُترك الأرض بكل شيء من طعام وغيره خرج منها أو لم يخرج ، ماعدا الحنطة وأخواتها فإنها المحاطة بالمنهى عنها . وقال مالك في الموطأ : فاما الذي يعطى أرضه البيضاء بالثلث والرابع مما يخرج منها فذلك مما يدخله القدر ؛ لأن الزرع يقل قسرة ويكثر أخرى ، وربما هلك وأسا فيكون صاحب الأرض قد ترك كراه معلوما ، وإنما مثل ذلك مثل رجل استأجر أجيرا لسفر بشيء معلوم ، ثم قال الذي استأجره لأجير : هل لك أن أعطيك عشرة ما أريج في سفري هذا إجازة لك . فهذا لا يحل ولا يبنى . قال مالك : ولا يبنى لرجل أن يؤجر نفسه ولا أرضه ولا سفينة ولا دابته إلا بشيء معلوم لا يزول . وبه يقول الشافعي وأبو حنيفة وأصحابهما . وقال أحمد بن حنبل والليث والثوري والأوزاعي والحسن بن حية وأبو يوسف وعبد : لا بأس أن يعطى الرجل أرضه على جزء

(١) المُرَابَّة : كل شيء من الخراف التي لا يمسك به ولا وزنه ولا عدده يقع بشيء مسمى من الكل أو الوزن أو العدد . وذلك أن قول الرجل للرجل يكون له الطعام المسمى الذي لا يمسك به من الحنطة أو القمح أو ما أشبه ذلك من الأطعمة . أو يكون الرجل للرجل من الخنيط أو القوي أو القصب أو الصفر أو الكرف أو التكان أو ما أشبه ذلك من السلع لا يمسك به شيء من ذلك ولا وزنه ولا عدده ؛ فيقول الرجل لرجل تلك السلعة ؛ كل سلعة هذه أو من ينكحها أو وزن من ذلك بوزن أو أعدد منها ما كان يده فاقص من كل كذا وكذا صاعا ، لتسمية بسيا . أو وزن كذا وكذا رطلا أو عدد كذا وكذا فاقص من ذلك قبل غرضه حتى أدفك تلك التسمية ، وما زاد على تلك التسمية فهو له آمن ما قص من ذلك ، هل أن يكون في ما زاد . وليس ذلك بما ولكه المظاهرة ، والبر والقرار يدخل هذا . وقيل : المُرَابَّة اسم لبيع القربا بالبر كالا ، وطب كل جنس بياضه ، ومجهول من معلوم (من الموطأ) .

(٢) المحاطة : بيع الزرع قبل بدو صلاحه . وقيل : بيع الزرع في سنه بالحنطة . وقيل : المُرَابَّة على صليب معلوم بالثلث أو الربع أو أقل من ذلك أو أكثر . وقيل أكثره الأرض بالحنطة . (٣) في ج : مفرك .

فما تخرجه نحو الثالث والرابع، وهو قول ابن عمر وطاوس . واحتجوا بقصة خير وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عامل أهلها على شطري ما تخرجه أرضهم وثمارهم . قال أحمد : حديث رافع بن خديج في النهي عن كراء المزارع مضطرب الألفاظ ولا يصح، والقول بقصة خير أولى وهو حديث صحيح . وقد أجاز طائفة من التابعين ومن بعدهم أن يعطى الرجل سفينة ودابته، كما يعطى أرضه بجزء مما يرزقه الله في العلاج بها . وجعلوا أصلهم في ذلك القراض المجمع عليه على ما يأتي بيانه في « المزمّل » إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى : « وَأَنْتُمْ لَا يَصْرِفُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَنَوَّنَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ » وقال الشافعي في قول ابن عمر : « كَأَنْتُمْ لَا تَحْجَرُونَ » ولا نرى بذلك بأساً حتى أخبرنا رافع بن خديج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها، أي كما نكرى الأرض ببعض ما يخرج منها . قال : وفي ذلك نسخ لسنة خير .

قلت : وما يصحح قول الشافعي في النسخ ما رواه الأئمة واللفظ للذاريطني عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن المحاقلة والمزبانة والمخاربة وعن الثنيا^(١) إلا أن تعلم . صحيح . وروى أبو داود عن زيد بن ثابت قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المخاربة . قلت : وما المخاربة ؟ قال : أن تأخذ الأرض بنصف أو ثلث أو رُج .

• الثامنة والثلاثون — في القراءات . قرأ الجمهور « مَا بَقِيَ » بتحريك الياء ، وسكنها الحسن ، ومثله قول جرير :

هو الخليفة فأرضوا ما رضى لكم • ما ضى العزيمة ما في حكمة جنت

وقال عمر بن أبي ربيعة :

كم قد ذكرك لو أجزى بدركم • يا أنسبه الناس كل الناس بالقمير
إني لأجذل أن أنسى مقايله • حبا لرؤية من أشتيت في الصور

(١) القراض (بكر القاف) حدة المالكية هو ما يسي بالمخاربة حدة الحنفية؛ وهو إعطاء القارض (بكر الزاء) وهو رب المال) القارض (ضخ الزاء وهو المامل) مالا ليتجر به هل أن يكون له جزء معلوم من الربح .
(٢) راجع ج ١٩ ص ٥٤ (٣) الثنيا : هي أن يستنى في عقد البيع شيء مجهول نفسه . وقيل : هو أن يباع شيء جزاء ، فلا يجوز أن يستنى منه شيء قل أو كثر . وتكون « الثنيا » في المزارعة أن يستنى بعد النصف أو الثلث كيل معلوم . (من النهاية) .

أصله «مارضى» و «أن أمي» فاسكنها وهو في الشعر كثير . ووجهه أنه شبه الياء بالآلف
فكما لا تصل الحركة إلى الآلف فكذلك لا تصل هنا إلى الياء . ومن هذه اللغة أُحِبَّ أَنْ
أُدْعُوكَ ، وأنتهى أَنْ أَفْضَيْكَ^(١) ، بِأَسْكَانِ الْوَاوِ وَالْيَاءِ . وقرأ الحسن « ما بَيَّ » بالآلف ،
وهي لغة طلي ، يقولون للجارية : جَارَاةً ، وللناصية : نَاصَاةً ؛ وقال الشاعر :

لعمرك لا أَخْشَى التَّصَلُّكَ مَا بَيَّ • على الأرض قَبِيضِي يسوق الأباعرا

وقرأ أبو التّعال من بين جميع القراء «مِنَ الرَّبِّ» بكسر الراء المشددة وضم الباء وسكون الواو .
وقال أبو الفتح عثمان بن جني : شذ هذا الحرف من أحمرين ، أحدهما الخروج من الكسر إلى
الضم ، والآخر وقوع الواو بعد الضم في آخر الأسم . وقال المهدوي . وجهها أنه نَقَمَ الآلف
فَاتَّقَى بها نحو الواو التي الآلف منها ؛ ولا ينبغي أَنْ يعمل على غير هذا الوجه ؛ إذ ليس في الكلام
اسم آخره واو ساكنة قبلها ضمة . وَأَمَّا الْيَسَائِي وَحِزَّة « الربا » لمكان الكسرة في الراء .
الباقون بالتضخيم لفتحة الباء . وقرأ أبو بكر عن عاصم وحزمة «قَادُتُوا» على معنى قَادُوا غيركم ،
فحذف المفعول . وقرأ الباقر « قَادُتُوا » أى كونوا على إذن ؛ من قولك : إني على علم ؛
سكاه أبو حنيفة عن الأصمعي^(٢) . وحكى أهل اللغة أنه يقال : أَذِنْتُ بِهِ إِذْنًا ، أى علمت به .
وقال ابن عباس وغيره من المفسرين : معنى «قَادُتُوا» فاستيقنوا الحرب من الله تعالى ، وهو
يعنى الإذن . ورجح أبو علي وغيره قراءة المدّ قال : لأنهم إذا أَمَرُوا بإعلام غيرهم ممن لم ينه
عن ذلك علمواهم لا محالة . قال : ففى إعلامهم علمهم وليس في علمهم إعلامهم . ورجح
الطبري قراءة الفصح ؛ لأنها تختص بهم . وإنا أَمَرُوا على قراءة المدّ بإعلام غيرهم ، وقرأ جميع
القراء « لَا تَظْلِمُونَ » بفتح التاء « وَلَا تَظْلِمُونَ » بضمها . وروى المفضل عن عاصم
« لَا تَظْلِمُونَ » « وَلَا تَظْلِمُونَ » بضم التاء في الأولى وفتحها في الثانية على المكس . وقال
أبو علي : ترجح قراءة الجماعة بأنها تناسب قوله : «وَأِنْ تُبَيِّنْ» في إستاد الفعلين إلى الفاعل ؛
فيجى . « تَظْلِمُونَ » بفتح التاء أشكل بما قبله .

(١) في ج : أرميك - (٢) في جوب : جلاء ، ناصا - (٣) في ب : أبومل .

قوله تعالى : وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا
 خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾
 فيه تسع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ) لما حكم جل وعز لأرباب الربا
 برعوس أموالهم عند الراجدين للآل، حكم في ذى العسرة بالنظرة إلى حال الميسرة ، وذلك
 أن قريبا لما طلبوا أموالهم التي لهم على بنى الميخرة شكوا العسرة - يعنى بنى الميخرة - وقالوا :
 ليس لنا شيء ، وطلبوا الأجل إلى وقت تمارهم ، فنزلت هذه الآية « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ » .
 الثانية - قوله تعالى : « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ » مع قوله « وَإِنْ تَبَيَّنَ فَلَكُمْ رُءُوسُ
 أَمْوَالِكُمْ » يدل على ثبوت المطالبة لصاحب الدين على المدين وجواز أخذ ماله بشير وضاه .
 ويدل على أن الغريم متى امتنع من أداء الدين مع الإمكان كان طالما ، فإن الله تعالى يقول :
 « فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ » فجعل له المطالبة برأس ماله . فإذا كان له حق المطالبة فعل من عليه
 الدين لا محالة وجوب قضائه .

- الثالثة - قال المهدوي وقال بعض العلماء : هذه الآية ناهية لما كان في الجاهلية
 من بيع من أعتق . وحكى مكي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر به في صدر الإسلام . قال
 ابن عطية : فإن ثبت فعل النبي صلى الله عليه وسلم فهو نسخ وإلا فليس بفسخ . قال الطحاوى :
 كان الحريباع في الدين أول الإسلام إذا لم يكن له مال يقضيه عن نفسه حتى نسخ الله ذلك
 فقال جل وعز : « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ » . واحتجوا بحديث رواه الدارقطني
 من حديث مسلم بن خالد الزنجي : أخبرنا زيد بن أسلم عن ابن أبي ليلى^(١) عن سُرْق قال :
 كانت لرجل على مأل - أو قال دين - فذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
 فلم يصب لي مالا فيأضي منه ، أو باعني له . أخرجه البزار بهذا الإسناد أطول منه . ومسلم
 ابن خالد الزنجي وعبد الرحمن بن أبي ليلى لا يحتج بهما . وقال جماعة من أهل العلم :

(١) في الأصول إلا نسة : بب : « من ابن السنان » وهو تحريف - راجع تهذيب التهذيب .

قوله تعالى : «نَظَرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ» عامة في جميع الناس، فكل من أعسر أنظر ؛ وهذا قول أبي هريرة والحسن وعامة الفقهاء . قال الثمالي : وأحسن ما قيل في هذه الآية قول عطاء والضحاك والربيع بن خيثم . قال : هي لكل مُفسِر يُنظر في الربا والدين كله . فهذا قول يجمع الأقوال ؛ لأنه يجوز أن تكون ناسخة عامة نزلت في الربا ثم صار حكم غيره حكمه ؛ ولأن القراءة بالرفع بمعنى وإن وقع ذو عسرة من الناس أجمعين . ولو كان في الربا خاصة لكان النصب الوجه ، بمعنى وإن كان الذي عليه الربا ذا عسرة . وقال ابن عباس وشريح : ذلك في الربا خاصة ؛ فأما الديون وسائر المعاملات فليس فيها نظرة بل يؤدي إلى أهلها أو يحبس فيه حتى يوفيه ؛ وهو قول إبراهيم . واحتجوا بقول الله تعالى : « إِنْ أَقَرُّكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا » الآية . قال ابن عطية : فكان هذا القول يترتب إذا لم يكن قَرَرٌ مُدْقِعٌ ، وأما مع العدم والفقير الصريح فالحكم هو النظرة ضرورة .

• الرابعة - من كثرت ديونه وطلب غرماؤه ما لم يخلعه عن كل ماله ويترك له ما كان من ضرورته . روى ابن نافع عن مالك أنه لا يترك له إلا ما يواريه . والمشهور أنه يترك له كسوته المتتامة ما لم يكن فيها فضل ، ولا يُتَرَخ منه رداؤه إن كان ذلك مُزريا به . وفي ترك كسوة زوجته وفي بيع كتبه إن كان طالبا خلاف . ولا يترك له مسكن ولا خادم ولا ثوب جمعة ما لم تزل قيمتها ؛ وعند هذا يحرم حبسه . والأصل في هذا قوله تعالى : «وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ» . روى الأئمة واللفظ لمسلم عن أبي سعيد الخدري قال : أصيب رجل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثمار أبتاعها فكثرت دينه ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تصدقوا عليه » فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفراته : « خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك » . وفي مصنف أبي داود : فلم يزد رسول الله صلى الله عليه وسلم غرماؤه على أن خلق لم ماله . وهذا نص ؛ فلم يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحبس الرجل ، وهو معاذ بن جبل كما قال شريح ، ولا بملازمته ، خلافا لأبي حنيفة فإنه قال : يلزم لإمكان أن يظهر له مال ، ولا يكلف أن يكتسب لما ذكرنا . والله توفيقنا .

الخامسة - ويجبس المفلس في قول مالك والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم حتى يتبين عُدْمُهُ . ولا يجبس عند مالك إن لم يُتَّهِم أَنَّهُ غَيَّبَ مَالَهُ ولم يتبين لَدُنَّهُ . وكذلك لا يجبس إن صحَّ عُثْرُهُ على ما ذكرنا .

السادسة - فإن جُمِعَ مال المفلس ثم تلف قبل وصوله إلى أربابه وقبل البيع ، فعلم المفلس ضمانه ، ودين الغرماء ثابت في ذمته . فإن باع الحاكم ماله وقبض ثمنه ثم تلف الثمن قبل قبض الغرماء له ، كان عليهم ضمانه وقد برئ المفلس منه . وقال محمد بن عبد الحكيم : ضمانه من المفلس أبدا حتى يصل إلى الغرماء .

السابعة - العُسْرَةُ ضيق الحال من جهة عدم المال ؛ ومنه جيش العسرة . والنظرة التأخير . والميسرة مصدر بمعنى اليسر . وارتفع « ذو » بكان التامة التي بمعنى وجد وحدث ؛ هذا قول سيويه وأبي علي وغيرهما . وأنشد سيويه :

فَدَى لِنِي ذُهْلِي بْنِ شَيْبَانَ نَاقِي . إِذَا كَانَ يَوْمٌ ذُكِرَ أَكْبَأُ أَثْمَبِ

ويجوز النصب . وفي مصحف أبي بن كعب « وَإِنْ كَانَ ذَا عُسْرَةٍ » على معنى وإن كان المطلوب ذا عسرة . وقرأ الأعمش « وَإِنْ كَانَ مُعْسِرًا فَنَظْرَةً » . قال أبو عمرو الفأني عن أحمد بن موسى : وكذلك في مصحف أبي بن كعب . قال النحاس ومكي والقفاس : وعلى هذا يختص لفظ الآية بأهل الرِّبَا ، وعلى من قرأ « ذو » فهي عامة في جميع من عليه دين ، وقد تقدم . وحكي المهدوي أن في مصحف عثمان « فَإِنْ كَانَ - - - بِالْفَاءِ - - - ذُو عُسْرَةٍ » . وروى المعتمر عن حجاج الوزاني قال : في مصحف عثمان « وَإِنْ كَانَ ذَا عُسْرَةٍ » ذكره النحاس . وقرأة الجماعة « نَظْرَةً » بكسر الظاء . وقرأ مجاهد وأبو رزاء والحسن « فَنَظْرَةً » بسكون الظاء ، وهي لغة تميمية وهم الذين يقولون : [في] كَرَمٌ زَيْدٌ بمعنى كَرَمٌ زَيْدٌ ، ويقولون كَبْدٌ في كَيْدٍ . وقرأ نافع

(١) البيت لقاس الناقض ، واسمه مبر بن النيان - أراد : وقع يوم أو حضر يوم ونحو ذلك مما يقتصر فيه على القائل . وأراد باليوم يوما من أيام الحرب ، وصفه بالشدَّة بفعله كالليل يندويه الكواكب ، ونسب إلى الشدة إما لكثرة السلاح الصقل فيه ، وإما لكثرة النجوم . وفعل بن شيان من بن بكر بن وائل ، وكان مقاس نازلا فيهم وأصله من قريش من مائدة وهم من منهم . (عن شرح الشواهد للشنخري) - (٢) عن ب .

وحده « مبصرة » بضم السين، والجهور بفتحها . وحكى النحاس عن مجاهد وعطاء « فأنظره »
 - على الأمر - إلى مبصرى بضم السين وكسر الراء وإثبات الياء في الإدراج . وقرئ
 « فأنظره » قال أبو حاتم لا يجوز فأنظره، إنما ذلك في « النمل » لأنها امرأة تكلمت بهذا
 لنفسها، من نظرت تنظر فهي فأنظره وما في « البقرة » فن التأخير، من قولك : أنظرتك
 بالدين، أى أنظرتك به . ومنه قوله : « فأنظرنى إلى يوم يبعثون » . وأجاز ذلك أبو إسحاق
 الزجاج وقال : هى من أسماء المصادر كقوله تعالى : « ليس لوقعتها كاذبة » . وكقوله
 تعالى : « تظن أن يفعل بها فأنظره » وكذا « حاشية الأعين » وغيره .

الآثمسة - قوله تعالى : « وَأَنْ تَصَدَّقُوا » ابتداء وخبره « خير » . ندب الله تعالى بهذه
 الألفاظ إلى الصدقة على الميعر وجعل ذلك خيرا من إظهاره ، قاله السدى وابن زيد
 والضحاك . وقال الطبري : وقال آخرون : معنى الآية وأن تصدقوا على النبي والفقيه خير لكم .
 والصحيح الأول ، وليس في الآية مدخل للنبي .

الآثمسة - روى أبو جعفر الطحاوى عن بريدة بن الحبيب قال قال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم : « من أنظر معسرا كان له بكل يوم صدقة » ثم قلت : بكل يوم مثله صدقة ؟
 قال فقال : « بكل يوم صدقة ما لم يمل الدين فإذا أنظره بعد الحيل فله بكل يوم مثله صدقة » .
 وروى مسلم عن أبي مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حوسب رجل من
 كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسرا فكان يأمر
 قلمانه أن يجاوزوا عن المعسر قال قال الله عز وجل نحن أحق بذلك منه تجاوزوا عنه » .
 وروى عن أبي قتادة أنه طلب غيريما له فتوارى عنه ثم وجده فقال : إني معسر . فقال : أه ؟
 قال : أه . قال : فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سره أن يخيه الله
 من كرب يوم القيامة فليخس عن معسر أو يرضع عنه » ، وفي حديث أبي اليسر الطويل - واسمه

(١) راجع ١٣ ص ٨٩٦ (٢) ج ١ ص ٢٧ (٣) ج ١٧ ص ١٩٤ (٤) ج ١٩ ص ١٠٨
 (٥) ج ١ ص ٣٠٣ (٦) قراءة تقع الإدغام . (٧) قوله : « قال الله قال الله »
 قال السورى : « الأول يميزه بمسودة على الاستفهام ، والثاني تلاوة ، والثالث فيها مسودة . قال القاضي :
 « يروى بهما معناه كثر أهل العربية لا يميزون الكسر » . (٨) الطويل : حقه الحديث .

كعب بن عمرو - أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من أنظر مصيراً أو وضع عنه أظله الله في ظله " . ففى هذه الأحاديث من الترغيب ما هو منصوب فيها ، وحديث أبي قتادة يدل على أن رب الدين إذا علم حسنة [غريمه] ^(١) أو ظنها حسنة عليه مطالبته ، وإن لم تثبت حسنة عند الحاكم . وإظهار المعسر تأخيرها إلى أن يؤسر ، والوضع عنه إسقاط الدين عن ذمته . وقد جمع المنين أبو اليسر لغريمه حيث عا عنه الصحيفة وقال له : إن وجدت قضاء فأقض وإلا فانت في سبيل ^(٢) .

قوله تعالى : **وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ^(٣)

قيل : إن هذه الآية نزلت قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم بسبع ليال ثم لم يزل يعقلها شيء ، قاله ابن جريج . وقال ابن جبر ومقاتل : بسبع ليال . وروى ثلاث ليال . وروى أنها نزلت قبل موته بثلاث ساعات ، وأنه عليه السلام قال : " أجعلوها بين آية الرب وآية الدين " . وحكى مكى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " جاءني جبريل فقال أجعلها على رأس مائتين ومائتين آية " .

قلت : وحكى عن أبي بن كعب وابن عباس وقادة أن آخر ما نزل : **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ** ^(٤) إلى آخر الآية . والقول الأول أعرف وأكثر وأصح وأشهر . ورواه أبو صالح عن ابن عباس قال : آخر ما نزل من القرآن (**وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**) فقال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم : " يا محمد ضعها على رأس مائتين ومائتين من البقرة " . ذكره أبو بكر الأنباري في كتاب الرد ، له ؛ وهو قول ابن عمر رضى الله عنه أنها آخر ما نزل ، وأنه عليه السلام عاش بعدها أحدًا وعشرين يوماً ، على ما يأتى بيانه في آخر سورة . وإذا جاء نصر الله والفتح ^(٥) ، إن شاء الله تعالى . والآية وعظ الجميع

(١) زيادة في دو ج وب وط (٢) راجع صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٩٤ طيبة بولاق .

(٣) راجع ج ٨ ص ٤٠١ (٤) راجع ج ٢٠ ص ٢٢٩

الناس وأمر يخلص كل إنسان . و « يَوْمًا » منصوب على المفعول لا على الظرف . « تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » من نعمة . وقرأ أبو عمرو بفتح التاء وكسر الجيم ؛ مثل « إِنْ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ » واعتبارا بقرأة أبي « يَوْمًا تصيرون فيه إلى الله » . والباقون بضم التاء وفتح الجيم ؛ مثل « ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ » . « وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي » واعتبارا بقرأة عبد الله « يَوْمًا تردون فيه إلى الله » وقرأ الحسن « يرجعون » بالياء ، على معنى يرجع جميع الناس . قال ابن جني : كأن الله تعالى رفق بالمؤمنين على أن يواجههم بذكر الرجعة ، إذ هي مما ينفطر لها القلوب فقال لهم : « وَأَتَقُوا يَوْمًا » ثم رجع في ذكر الرجعة إلى الغيبة وفقًا بهم . وجهور العلماء على أن هذا اليوم المحذّر منه هو يوم القيامة والحساب والثوبة . وقال قوم : هو يوم الموت . قال ابن عطية : والأوّل أصحّ بحكم الألفاظ في الآية . وفي قوله « إِلَى اللَّهِ » مضاف محذوف ، تقديره إلى حكم الله وفصل قضائه . « وَهُمْ » ردّ على معنى « كُلُّ » لا على اللفظ ، إلا على قرأة الحسن « يرجعون » فقوله « وهم » ردّ على ضمير الجماعة في « يرجعون » . وفي هذه الآية نص على أن الثواب والعقاب متعلق بكسب الأعمال ، وهو رد على الجبريّة ، وقد تقدّم .

قوله تعالى : يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِذُنُوبِكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَيْهِ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَخْشَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ

اللَّهِ وَأَقْرَبُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَحْرَةً خَاسِئَةً
تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۚ وَأَشْهَدُوا ۚ إِذَا تَبَايَعْتُمْ
وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

فيه اثنتان وخمسون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ بَيْنَكُمْ ﴾ الآية . قال سعيد بن
المنسب : بلغني أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين . وقال ابن عباس : هذه الآية نزلت
في السلم خاصة . معناه أن سلم أهل المدينة كان سبب الآية ، ثم هي تناول جميع المداينات
إجماعاً . وقال ابن خزيمة : إنها تضمنت ثلاثين حكماً . وقد استدلل بها بعض علمائنا
على جواز التأجيل في القروض ، على ما قال مالك ، إذ لم يفصل بين القرض وسائر العقود
في المداينات . وخالف في ذلك الشافعية وقالوا : الآية ليس فيها جواز التأجيل في سائر
الديون ، وإنما فيها الأمر بالإشهاد إذا كان ديناً مؤجلاً ، ثم يعلم بدلالة أخرى جواز التأجيل
في الدين وامتناعه .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ تأكيد ، مثل قوله « وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ » .
« فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ » . وحقيقة الدين عبارة عن كل معاملة كان أحد الموضعين
فيها نقداً والآخر في النقطة نسيئة ، فإن البين عند العرب ما كان حاضراً ، والدين ما كان غائباً ،
قال الشاعر :

وَعَدْتُنَا بِدُرْهَمَيْنَا طِلَافَةً • وَشِوَاءَ مَعْجَلٍ غَيْرِ دَيْنٍ

وقال آخر :

لَقَرِمَ بِيَ الْمَنَآيَا حَيْثُ شَأْنُ • إِذَا لَمْ تَرَمِ بِي فِي الْحُفْرِ تَيْنِ

إِذَا مَا أَوْقَدُوا حَطْبًا وَنَارًا • فَذَلِكَ الْمَوْتُ هَذَا غَيْرُ دَيْنٍ .

وقد بين الله تعالى هذا المعنى بقوله الحق « إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » .

« الثالثة - قوله تعالى : (إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) قال ابن المنذر: دل قول الله «إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى» على أن السَّلم إلى الأجل المجهول غير جائز، ودلَّت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على مثل معنى كتاب الله تعالى. ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وهم يستلقون في الثمار الستين والثلاث؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من أسلف في تمر فلا يسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم» رواه ابن عباس. أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما. وقال ابن عمر : كان أهل الجاهلية يتبايعون لحَمِ الجَزْور إلى حَبَلِ الحَبْلَةِ . وحبل الحبلَة : أن تتجع الثافة ثم تحمل التي تَحْتِ . فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك . وأجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن السَّلم الجائز أن يُسَلِّمَ الرجل إلى صاحبه في طعام معلوم موصوف، من طعام أرض عامة لا يخطئ مثلها، بكل معلوم، إلى أجل معلوم بدنانير أو دراهم معلومة، يدفع بمن ما أسلم فيه قبل أن يفرقا من مقامهما الذي تبايعا فيه، وتبعا المكان الذي يُقبض فيه الطعام . فإذا فعلا ذلك وكان جائز الأمر كان سَلَمًا صحيحًا لا أعلم أحدا من أهل العلم يبطله .

قلت : وقال علماءنا : إن السَّلم إلى الحَصَادِ والجَذَاذِ والتَّبَرُوزِ والمِهْرَجَانِ جائز؛ إذ ذاك يختص بوقت وزمن معلوم .

الرابعة - حد علماءنا رحمة الله عليهم السَّلم فقالوا : هو بيع معلوم في الذمة محصور بالصفة بعين حاضرة أو ما هو في حكمها إلى أجل معلوم . فتقيده بمعلوم في الذمة يُفيد التحرز من المجهول، ومن السَّلم في الأعيان المعنية، مثل الذي كانوا يستلقون في المدينة حين قدم عليهم النبي عليه السلام فإنهم كانوا يستلقون في ثمار نخيل بأعيانها؛ فنهاهم عن ذلك لما فيه من الغرر؛ إذ قد تُخْلِفُ تلك الأشجار فلا تُثمر شيئا .

وقولهم «محصور بالصفة» تحرز عن المعلوم على الجملة دون التفصيل؛ كما لو أسلم في تمر أو ثياب أو حitan ولم يبين نوعها ولا صفتها المعنية .

وقولهم «بعين حاضرة» تحرز من الدين بالدين. وقولهم «أو ما هو في حكمها» تحرز من ألبومين والثلاثة التي يجوز تأخير رأس مال السَّلم إتيه، فإنه يجوز تأخير عنه ذلك القدر، بشرط

وبغير شرط لقرب ذلك ، ولا يجوز اشتراطه عليها . ولم يُجْزِ الشافعي - ولا الكوفي - تأخير رأس مال السلم عن العقد والاقتراق ، ورواها أنه كالصرف . ودليلا أن البايين مختلفان بأخص أوصافهما ؛ فإن الصرف بأبه صَبَقْ كَثُرَتْ فيه الشروط بخلاف السلم فإن شوائب المعاملات عليه أكثر . والله أعلم .

وقولهم « إلى أجل معلوم » تحوز من السلم الحال فإنه لا يجوز على المشهور وصيأتي . ووصف الأجل بالمعلوم تحوز من الأجل المجهول الذي كانوا في الجاهلية يسمون إليه .

الخامسة - السلم والسلف بيارتان عن معنى واحد وقتد جاما في الحديث ؛ غير أن الاسم الخاص بهذا الباب « السلم » لأنة السلف يقال على القرض . والسلم بيع من البيع المجازة بالاتفاق ، سئل من نبيه عليه السلام عن بيع ما ليس عندك . وأرخص في السلم ؛ لأن السلم لما كان بيع معلوم في الذمة كان بيع غائب تدعو إليه ضرورة كل واحد من المتبايعين ؛ فإن صاحب رأس المال محتاج إلى أن يشتري الثمرة ، وصاحب الثمرة محتاج إلى ثمنها قبل إبانها ليُتَقَفَّ عليها ، فظهر أن بيع السلم من المصالح الحاجية ، وقد سماه الفقهاء بيع الماويج ، فإن جاز حالا بطلت هذه الحكمة وارتفعت هذه المصلحة ، ولم يكن لاستثنائه من بيع ما ليس عندك فائدة . والله أعلم .

السادسة - في شروط السلم المتفق عليها والمختلف فيها وهي تسعة : ستة في المسلم فيه ، وثلاثة في رأس مال السلم . أما الستة التي في المسلم فيه فإن يكون في الذمة ، وأن يكون موصوفا ، وأن يكون مقدرا ، وأن يكون مؤجلا ، وأن يكون الأجل معلوما ، وأن يكون موجودا عند محل الأجل . وأما الثلاثة التي في رأس مال السلم فإن يكون معلوم الجنس ، مقدرا ، نقدا . وهذه الشروط الثلاثة التي في رأس المال متفق عليها إلا التقيد بحسب ما تقدم . قال ابن العربي : وأما الشرط الأول وهو أن يكون في الذمة فلا إشكال في أن المقصود منه كونه في الذمة ؛ لأنه مُدَايَنَةٌ ، ولولا ذلك لم يُسْرِعْ ديناً ولا قصد الناس إليه وبما ورثها . وعلى ذلك القول اتفق الناس . بيد أن مالكاً قال ؛ لا يجوز السلم في المعين إلا بشرطين :

(١) كذا في « وج » ، والذي في « و » : البين .

أحدهما أن يكون قزية مأمونة، والثاني أن يشرع في أخذه كلابين من الشاة والرطب من النخلة، ولم يقل ذلك أحد سواه . وهاتان المسألتان محييتان في الدليل؛ لأن التمين امتنع في السلم غنافة المؤابنة والقرر؛ لئلا يتعدّر عند المحل . وإذا كان الموضع مأمونا لا يتعدّر وجود ما فيه في الغالب جاز ذلك؛ إذ لا يتيقن ضمان المواقب على القطع في مسائل الفقه؛ ولا بد من احتمال القرر اليسير، وذلك كثير في مسائل الفروع، تعددها في كتب المسائل . وأما السلم في اللبن والرطب مع الشروع في أخذه فهي مسألة مدنية اجتمع عليها أهل المدينة، وهي مبنيّة على قاعدة المصلحة؛ لأن المرء يحتاج إلى أخذ اللبن والرطب مأمونة ويشق أن يأخذ كل يوم ابتداء؛ لأن النقد قد لا يحضره ولأن السعر قد يختلف عليه، وصاحب النخل واللبن يحتاج إلى النقد؛ لأن الذي عنده عروض لا يتصرف له . فلما اشتركا في الحاجة رخص لهما في هذه المعاملة قياسا على العرايا وغيرها من أصول الحاجات والمصالح . وأما الشرط الثاني وهو أن يكون موصوفاً فتفق عليه، وكذلك الشرط الثالث . والتقدير يكون من ثلاثة أوجه : للكيل، والوزن، والعدد، وذلك يتيقن على العرف؛ وهو إما عرف الناس وإما عرف الشرع . وأما الشرط الرابع وهو أن يكون مؤجلاً فاختلف فيه؛ فقال الشافعي : يجوز السلم الحال، ومنعه إلا أكثر من العلماء . قال ابن العربي : واضطربت المالكية في تقدير الأجل حتى ردت إلى يوم؛ حتى قال بعض علمائنا: السلم الحال جائز . والصحيح أنه لا بد من الأجل فيه؛ لأن المبيع على ضربين : معجل وهو العين، ومؤجل . فإن كان حالاً ولم يكن عند المسلم إليه فهو من باب : بيع ما ليس عندك، فلا بد من الأجل حتى يخلص كل عقد على صفته وعلى شروطه، وتستزل الأحكام الشرعية منازلها . وتعدده عند علمائنا مدة تختلف الأسواق في مثلها . وقول الله تعالى : «إلى أجل مسمى» وقوله عليه السلام : «إلى أجل معلوم» يعني عن قول بكل قائل .

قلت - الذي أجازوه علمائنا من السلم الحال ما يختلف فيه البلدان من الأسعار، فيجوز السلم فيما كان بينه وبينه يوم أو يومان أو ثلاثة . فأما في البلد الواحد فلا؛ لأن سعره واحد،

واقه أعلم . وأما الشرط الخامس وهو أن يكون الأجل معلوما فلا خلاف فيه بين الأمة ،
لوصف الله تعالى ونبيه الأجل بذلك . وانفرد مالك دون الفقهاء بالأمصار يجوز البيع
إلى الجَدَّاذ والحَصَاد ؛ لأنه رآه معلوما . وقد مضى القول في هذا عند قوله تعالى : «يَسْأَلُونَكَ
عَنِ الْأَهْلِ^(١)» . وأما الشرط السادس وهو أن يكون موجودا عند المحل فلا خلاف فيه
بين الأمة أيضا ؛ فإن انقطع المبيع عند محل الأجل بأمر من الله تعالى انفسخ العقد عند
كافة العلماء .

السابعة - ليس من شرط للسلم أن يكون المسلم إليه مالكا للسلم فيه خلافا لبعض
الشافعية ، لما رواه البخاري عن محمد بن الحَبَّاذ قال : بعني عبد الله بن شداد وأبو بردة إلى
عبد الله بن أبي أوفى قالوا : سله هل كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في عهد النبي
صلى الله عليه وسلم يُسْلِفُونَ في الحنطة ؟ فقال عبد الله : كَأَنْ تُسْلِفَ^(٢) أَهْلَ الشَّامِ في الحنطة
والشعر والزيت في بكل معلوم إلى أجل معلوم . قلت : إلى من كان أصله عنده ؟ قال :
ما كنا نسأله عن ذلك . ثم بعثاني إلى عبد الرحمن بن أبيزى فسألته فقال : كان أصحاب النبي
صلى الله عليه وسلم يُسْلِفُونَ على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم نسألهم ألم حرت أم لا ؟ .
وشرط أبو حنيفة وجود المسلم فيه من حين العقد إلى حين الأجل ، مخافة أن يُطْلَبَ المسلم
فيه فلا يوجد فيكون ذلك غررا ؛ وخالفه سائر الفقهاء وقالوا : المرأى وجوده عند الأجل .
وشرط الكوفيون والثوري أن يذكر موضع القبض فيما له حمل ومؤنة وقالوا : السلم فاسد
إذا لم يذكر موضع القبض . وقال الأوزاعي : هو مكروه . وعندنا لو سكتوا عنه لم يفسد
العقد ، ويتميز موضع القبض ؛ وبه قال أحمد وإسحاق وطائفة من أهل الحديث ؛ لحديث
ابن عباس فإنه ليس فيه ذكر المكان الذي يقبض فيه السلم ، ولو كان من شروطه لبينه النبي
صلى الله عليه وسلم كما بين الكيل والوزن والأجل ؛ ومثله حديث ابن أبي أوفى .

(١) راجع ج ٢ ص ٣٤١ (٢) التيط (فتح الثون وكسر الموحدة وآخه طاء مهلة) أهل الزراعة .
وقيل : قوم يزلون البطائح ؛ وصحوا به لاعتدائهم إلى استخراج المياه من الياض لكثرة ما يجلبهم القلحة . وقيل :
ضادى الشام الذين عمروها . (من القسطلاني) .

الثامنة - روى أبو داود عن سعد (يعني الطائي) عن عطية بن سعد عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ أَسْلَفَ فِي شَيْءٍ فَلَا يَصْرِفُهُ إِلَى غَيْرِهِ" . قال أبو محمد عبد الحق بن عطية : هو التَّوَقُّفُ ولا يجتأ أحد بمحدثه ، وإن كان الأجل قد رَوَّاهُ عنه . قال مالك : الأمر عندنا فيمن أسلف في طعام بسر معلوم إلى أجل مسمى خَلَّ الأجل فلم يجد المتاع عند البائع وفاء مما ابتاعه منه فأقاله ، أنه لا ينبغي له أن يأخذ منه إلا ورقه أو تحبه أو الثمن الذي دفع إليه بعينه ، وأنه لا يشتري منه بذلك الثمن شيئا حتى يقبضه منه ؛ وذلك أنه إذا أخذ غير الثمن الذي دفع إليه أو صرفه في سلعة غير الطعام الذي ابتاع منه فهو بيع الطعام قبل أن يستوفى . قال مالك : وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع الطعام قبل أن يستوفى .

التاسعة - قوله تعالى : ﴿ فَأَكْتُبُوهُ ﴾ يعني الذين والأجل . ويقال : أمر بالكتابة ولكن المراد بالكتابة والإشهاد ؛ لأن الكتابة بنسب شهود لا تكون حجة . ويقال : أمرنا بالكتابة لكيلا ننسى . وروى أبو داود الطيالسي في مسنده عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل « إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ » إلى آخر الآية : "إن أول من محمد آدم عليه السلام إن الله أراه ذريته فرأى رجلا أزهر منظرًا نورًا فقال يارب من هذا قال هذا ابنك داود قال يارب فما عمره قال ستون سنة قال يارب زده في عمره فقال لا إلا أن تريده من عمرك قال ولم أعمرى قال ألف سنة قال آدم فقد وهبت له أربعين سنة قال فكتب الله عليه كتابا وأشهد عليه ملائكته فلما حضرته الوفاة جاءت الملائكة قال إنه بقي من عمري أربعون سنة قالوا إنك قد وهبتها لابنك داود قال ما وهبت لأحد شيئا قال فأخرج الله تعالى الكتاب وشهد عليه ملائكته - في رواية : وأتم لداود مائة سنة ولآدم عمره ألف سنة . نرجه الترمذي أيضا . وفي قوله « فَأَكْتُبُوهُ » إشارة ظاهرة إلى أنه يكتبه بجميع صفته المبنية له

المُحَرِّبَةُ مِنْهُ ؛ لِاخْتِلَافِ الْمُتَوَحِّمِينَ الْمُتَمَامِلِينَ ، الْمُرَوِّفَةِ لِلْحَاكِمِ مَا يَحْكُمُ بِهِ عِنْدَ ارْتِفَاعِهَا إِلَيْهِ .
وَأَمَّا أَعْلَمُ .

المباشرة - ذهب بعض الناس إلى أن كُتِبَ الديون واجبٌ على أربابها، نرض بهذه الآية، سيما كان أو قرضاً، لئلا يقع فيه نسيان أو جُحود، وهو اختيار الطبري . وقال ابن جُرَيْج : مَنْ أَذَانَ قَلِيكَتْ ، وَمَنْ بَاعَ فَلْيُشْهِدْ . وقال الشعبي : كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ «قَوْلَهُ فَإِنْ أَمِنَ» نَاسِخٌ لِأَمْرِهِ بِالْكَتْبِ . وحكى نحوه ابن جُرَيْج ، وقاله ابن زيد ، وروى عن أبي سعيد الخدري .
وذهب الرِّبِيعُ إلى أن ذلك واجب بهذه الألفاظ ، ثم حَقَّقَهُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : «فَإِنْ أَمِنَ بَيْنُكُمْ وَبَيْنَهُمْ» . وقال الجمهور : الأمر بالكُتْبِ نَدْبٌ إِلَى حِفْظِ الْأَمْوَالِ وَإِزَالَةِ الزَّيْبِ ، وَإِذَا كَانَ التَّوَحُّمُ تَقِيًّا فَمَا يَضُرُّهُ الْكَتْبُ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَالْكَتَابُ تَقَافٌ فِي دِينِهِ وَحَاجَةٌ صَاحِبُ الْحَقِّ . قال بعضهم : إِنْ أَشْهَدْتَ فَخَزَمٌ ، وَإِنْ اتَّعَمْتَ فِي حِلٍّ وَسَعَةٍ . ابن عطية : وهذا هو القول الصحيح . ولا يترتب نسخٌ في هذا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَدَبَ إِلَى الْكَتَابِ فِيمَا لَرَّهُ أَنَّ يَهْبَهُ وَيَتْرَكَ لِإِجْمَاعٍ ، فَتَنْدُبُهُ إِنَّمَا هُوَ عَلَى جِهَةِ الْحَيْطَةِ لِلنَّاسِ .

الحادية عشرة - قوله تعالى : ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كِتَابٌ بِالْعَدْلِ﴾ قال عطاء وغيره : واجب على الكاتب أن يكتب ؛ وقاله الشعبي ، وذلك إذا لم يوجد كاتب سواء فواجب عليه أن يكتب . السدي : واجب مع القَرائِغ . وحُذِفَتِ اللَّامُ مِنَ الْأَوَّلِ وَاتَّيَسَّرَتْ فِي النَّاسِ ؛ لِأَنَّ الثَّانِي غَائِبٌ وَالْأَوَّلُ لِلْمُخَاطَبِ . وقد ثبتت في المخاطب ؛ ومنه قوله تعالى : «فَقَضَوْا» ^(١) بِالْأَنَاءِ . وتحنف في الغائب ؛ ومنه :

عَمْدُ هَيْدِ نَفْسِكَ كُلُّ نَفْسٍ • إِذَا مَا خَفَتْ مِنْ شَيْءٍ تَبَايَا

الثانية عشرة - قوله تعالى : «بِالْعَدْلِ» أي بالحق والمعدلة ، أي لا يُكْتَبُ لصاحب الحق أكثر مما قاله ولا أقل . وإنما قال «بَيْنَكُمْ» ولم يقل أحدكم ؛ لِأَنَّهُ لِمَا كَانَ الَّذِي لَهُ الدِّينُ يَتَّبِعُ فِي الْكَاتِبَةِ الَّذِي عَلَيْهِ الدِّينُ وَكَذَلِكَ بِالْعَكْسِ شَرَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ كَاتِبًا غَيْرَهُمَا يَكْتُبُ بِالْعَدْلِ لَا يَكُونُ فِي قَلْبِهِ وَلَا قَلَمِهِ مَوَازِينٌ لِأَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ . وقيل : إن الناس لما كانوا يتعاملون ^(٢) .

(١) تخاف : خلة وذكا . (٢) راجع ج ٨ ص ٢٥٤ (٣) في «درج وادع» : «مراودة» .

حتى لا يشد أحدهم من المعاملة، وكان منهم من يكتب ومن لا يكتب، أمر الله سبحانه أن يكتب بينهم كاتب بالعدل .

الثالثة عشرة - الباء في قوله تعالى «وَالْعَدْلُ» متعلقة بقوله : «وَلْيَكُتِبْ» وليست متعلقة بـ «كَاتِبٌ» لأنه كان يلزم ألا يكتب وثيقة إلا بالعدل في نفسه، وقد يكتبها الصبي والعبد والمتحوص إذا أقاموا قهها . أما المتصبون لكتبتها فلا يجوز للولاء أن يتركهم إلا عدولا مرضيين . قال مالك رحمه الله تعالى : لا يكتب الوثائق بين الناس إلا عارف بها عدل في نفسه مأمون ؛ لقوله تعالى : «وَلْيَكُتِبْ بِكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ» .

قلت : قالبا على هذا متعلقة بـ «كاتب» أي يكتب بكم كاتب عدل ؛ فـ «بالعدل» في موضع الصفة .

الرابعة عشرة - قوله تعالى : «وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكُتِبَ» نهى الله الكاتب عن الإباء . واختلف الناس في وجوب الكتابة على الكاتب والشهادة على الشاهد ؛ فقال الطبري والربيع : واجب على الكاتب إذا أمر أن يكتب . وقال الحسن : ذلك واجب عليه في الموضع الذي لا يقدر على كاتب غيره ، فيضر صاحب الدين إن امتنع ؛ فإن كان كذلك فهو فريضة ، وإن قُدر على كاتب غيره فهو في معة إذا قام به غيره . السدي : واجب عليه في حال فراغه ، وقد تقدم . وحكي المهدوي عن الربيع والضحاك أن قوله «وَلَا يَأْبَ» منسوخ بقوله «وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ» .

قلت : هذا يقتضي على قول من رأى أو ظن أنه قد كان وجب في الأول على كل من اختاره المتبايعان أن يكتب ، وكان لا يجوز له أن يمتنع حتى نسخه قوله تعالى : «وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ» وهذا بعيد ، فإنه لم يثبت وجوب ذلك على كل من أراده المتبايعان كائنا من

١ (اضطربت الأصول في رسم هذه الكلمة ، فنسب : «والمحطوط» وقى د ، ه ، ج : «والمسحوط» وقى أ ، «والمحطوط» وقى ط : المسحود . وأيضا اضطرب رسمها في تفسير ابن عطية ؛ فنسب : «والمسحوط» وقى ز : «والمسحولة» ولعل صوابها : «والمحطوط» . (٢) روت هذه الجملة في الأصول وتفسير ابن عطية والبرهان أي حيان هكذا : «أما أن المتصين لكتبتها لا يجوز... الخ» وهي بهذه الصورة غير واضحة .

كان . ولو كانت الكتابة واجبة مباح الاستحجار بها ؛ لأن الإجارة على فعل الفروض باطلة ، ولم يختلف العلماء في جواز أخذ الأجرة على كتب الوثيقة . ابن العربي : والصحيح أنه أمر إرشاد فلا يكتب حتى يأخذ حقه . وأبي يابى شاذ ، ولم يحن إلا قلى يقلى وأبى يابى وعسى يقسى وجبى الخراج يقبى ، وقد تقدم .

الخامسة عشرة - قوله تعالى : ﴿ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ ﴾ الكاف في « كما » متعلقة بقوله « أَنْ يَكْتُبَ » المعنى كتابا كما علمه الله . ويحمل أن تكون متعلقة بما في قوله « وَلَا يَأْبَ » من المعنى ، أى كما أنعم الله عليه بعلم الكتابة فلا يأب هو ويُفَضِّل كما أفاضل الله عليه . ويحمل أن يكون الكلام على هذا المعنى تاما عند قوله « أَنْ يَكْتُبَ » ثم يكون « كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ » ابتداء كلام ، وتكون الكاف متعلقة بقوله « فَلْيَكْتُبْ » .

السادسة عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَلِيُحِلَّ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ﴾ وهو المديون المطلوب يُقَرَّر على نفسه بلسانه ليُعلم ما عليه . والإملاء والإملال لثنتان ، أتى وأتلى ؛ فأمل لثمة أهل الحجاز وبني أسد ، وتميم تقول : أملت . وجاء القرآن بالفتن ؛ قال عز وجل : « قَبِيْهُ تَمَلَّى عَلَيْهِ بَكْرَةً وَأَصِيْلًا » . والأصل أملت ، أبذل من اللام بـ ، لأنه أخف . فأمر الله تعالى الذى عليه الحق بالإملاء ؛ لأن الشهادة إنما تكون بسبب إقراره . وأمره تعالى بالتقوى فيما يُمَلِّ ، ونهى عن أن يتخس شيئا من الحق . والبخس النقص . ومن هذا المعنى قوله تعالى : « وَلَا يَحِلُّ لِمَنْ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ » .

السابعة عشرة - قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيْهًا أَوْ ضَعِيْفًا ﴾ قال بعض الناس : أى صغيرا . وهو خطأ فإن السفيه قد يكون كبيرا على ما أتى بهانه . « أَوْ ضَعِيْفًا » أى كبيرا لا عقل له . ﴿ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ ﴾ جعل الله الذى عليه الحق أربعة أصناف : مستقل بنفسه يُمِلُّ ، وثلاثة أصناف لا يُمِلُّون ويضع نوازلهم في كل زمن ، وكون الحق يرتب لهم في جهات سوى المعاملات كالمواريث إذا قُسمت وغير ذلك ، وهم السفيه والضعيف والذى لا يستطيع أن يُمِلَّ . فالسفيه المهمل الراى في المال الذى لا يُحسن الأخذ لنفسه ولا لإعطاء

(١) صلى الليل أظلم . في جوده : عسى يقسى ، وفى أوجه : عسى يقسى . والتصويب من اللسان .

(٢) رابع ج ١٣ ص ٤ . (٣) رابع ص ١١٨ من هذا الجزء .

منها، مثبته بالتوب السفيه وهو الخفيف النسخ . والذى السان يسمى سفيهاً ؛ لأنه لا تكاد تنفي البذاة إلا في جهال الناس وأصحاب العقول الخفيفة . والعرب تطلق الصفة على ضعف النقل تارة وعلى ضعف البدن أخرى ؛ قال الشاعر :

تَخَافُ أَنْ تَسْفَهَ أَحْلَامُنَا • وَيَجْهَلُ الدَّهْرُ مَعَ الْحَالِمِ

وقال ذو الرمة :

مَشَيْتُ كَمَا اهْتَرَّتْ رِمَاحٌ فَسَفَهَتْ • أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيحِ النَّبَاسِمِ

أى استضعفها واستلها فخرتها . وقد قالوا : الضعف بضم الضاد في البدن وبفتحها في الرأي ، وقيل : هما لغتان . والأول أصح ، لما روى أبو داود عن أنس بن مالك أن رجلاً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعاطى وفي عقله ضعف فأتى أهله نبي الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا نبي الله، أئتمر على فلان فإنه يتعاطى وفي عقله ضعف . فدماه النبي صلى الله عليه وسلم فنهاه عن البيع ؛ فقال : يا رسول الله، إني لا أصبر عن البيع ساعة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن كنت غير تارك البيع فقل هاوها ولا خيابة " . وأخرجه أبو عيسى محمد بن عيسى السلمي الترمذي من حديث أنس وقال : هو صحيح ، وقال : إن رجلاً كان في عقله ضعف ؛ وذكر الحديث . وذكره البخاري في التاريخ وقال فيه : " إذا بايعت فقل لا خيابة وأنت في كل سلعة ابنتها بالخيار ثلاث ليل " . وهذا الرجل هو حبان بن منقذ بن عمرو الأنصاري والد يحيى وواسع ابن حبان . وقيل : هو منقذ جد يحيى وواسع شيخى مالك ووالده حبان ، أتى عليه مائة وثلاثون سنة ، وكان شجاً في بعض مخازيه مع النبي صلى الله عليه وسلم مأمومة خيل منها عقله ولسانه ؛ وروى الذارقطني قال : كان حبان بن منقذ رجلاً ضعيفاً ضريراً البصر وكان قد سقح في رأسه مأمومة ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم له الخيار فيما يشتري ثلاثة أيام . وكان قد قتل لسانه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بيع وقُل لا خيابة " فكنت

(١) الخيابة : الخابرة - وقوله عليه السلام : " حارماً " بختم الكلام عليه في ص ٣٥٠ من هذا الجزء .

(٢) حَبَانُ بالقح . (٣) حجة آمة ومأمومة : بنت أم الراس . (٤) سقح فلان قلاء : طعمه وضره .

أسمعه يقول : لَا خِثَابَةَ لَا خِثَابَةَ . أخرجه من حديث ابن عمرو . الخليفة : الحديث ، ومنه : قولهم : « إِذَا لَمْ تَلْبَسْ قَاطِلِي » .

الثامنة عشرة — اختلف العلماء فيمن يُجَدِّع في البيوع لقلّة خبره وضمف عقله فهل يحجر عليه أولا ؟ فقال بالجحر عليه أحد وإسحاق . وقال آخرون : لا يحجر عليه . والقولان في المذهب ، والصحيح الأول ؛ لهذه الآية ، وأقوله في الحديث : « يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَجْعِرْ عَلَى فُلَانٍ » . وإنما ترك الجحر عليه لقوله : « يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنْ لَا أَصْبِرُ عَلَى الْبَيْعِ » : فأباح له البيع وجعله خاصا به ؛ لأن من يُجَدِّع في البيوع ينبغي أن يُحَجَّرَ عليه لاسيما إذا كان ذلك لخبيل عقله . ومما يدل على الخصوصية ما رواه محمد بن إسحاق قال : حدثني محمد بن يحيى بن حبان قال : هو جدي منقذ بن عمرو وكان رجلا قد أصابته أفة في رأسه فكسرت لسانه وفازعته عقله ، وكان لا يدع التجارة ولا يزال يفتن ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ؛ فقال : « إِذَا بَيْتَ فَعَلْ لَا خِلَابَةَ ثُمَّ أَتِ فِي كُلِّ سَلْعَةٍ تَبَاعُهَا بِالْخِيَارِ ثَلَاثَ لَيَالٍ فَإِنْ رَضِيتَ فَأَمْسِكْ وَإِنْ خِطَبْتَ فَأَرِدْنَاهَا عَلَى صَاحِبِهَا » . وقد كان عمر عمرًا طويلا ، عاش ثلاثين ومائة سنة . وكان في زمن عثمان بن عفان رضى الله عنه حين فشا الناس وكثروا ، يتاع البيع في السوق ويرجع به إلى أهله وقد فُتِنَ غَبْنًا قبيحا ، فيلومونه ويقولون له يتاع ؟ فيقول : أَنَا بِالْخِيَارِ ، إِنْ رَضِيتُ أَخَذْتُ وَإِنْ خِطَبْتُ رَدَدْتُ ، قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلني بالخيار ثلاثا . فبَرَدَ السَّلْعَةَ عَلَى صَاحِبِهَا مِنَ الْفَدَى وَجَدَ الْفَدَى ؛ فيقول : وَاللَّهِ لَا أَقْبَلُهَا ، قد أخذت سِلْعَتِي وَأَعْطَيْتِي دِرَاهِمَ ، قال فيقول : إِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ جَعَلَنِي بِالْخِيَارِ ثَلَاثًا . فكان يميز الرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول للتاجر : ويحك ! إنه قد صدق ؛ إِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ كَانَ جَعَلَهُ بِالْخِيَارِ ثَلَاثًا . أخرجه البارقيطي . وذكره أبو عمر في الاستيعاب وقال : ذكره البخاري في التاريخ عن عِيَّاشِ بْنِ الْوَلِيدِ عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ .

(١) في لسان العرب : « مَنْ قَالَ بِالْقِسْمِ فَمَنَاءُ قَاتِلُهُ . وَمَنْ قَالَ بِالْكَسْرِ فَمَنَاءُ قَاتِلُهُ نِيَابَةً بَعْدَ جَمْعٍ » .
كانه أخذ من غلب المجاعة . قال ابن الأثير : مناء إذا أعياك الأمر مغالبة قاطبة مخادعة » .

التاسعة عشرة - قوله تعالى : (**أَوْ ضِعْفًا**) الضعيف هو المدخول العقل الناقص الفطرة الماجز عن الإملاء ، إما **لَيْسَ** أو **لَحْرَسَ** أو جهله بأداء الكلام ، وهذا أيضا قد يكون وليه **أَبَا** أو **وَصِيَا** . والذي لا يستطيع أن **يُمِلَّ** هو الصغير ، ووليّه وصيه أو أبوه والغائب عن موضع الإنشاد ، إما لمرض أو لغير ذلك من العذر . ووليّه ويكلّه . وأما الأخرس فيسوغ أن يكون من الضعفاء ، والأولى أنه من لا يستطيع . فهذه أصناف تميز ، وسيأتي في « النساء » بيانها والكلام عليها إن شاء الله تعالى .

الخامسة عشرين - قوله تعالى : (**فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّ بِالْمَدَلِّ**) ذهب الطبري إلى أن الضمير في « **وَلِيُّهُ** » عائد على « **الْحَقُّ** » وأسند في ذلك عن الربيع ، وعن ابن عباس . وقيل : هو عائد على « **الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ** » وهو الصحيح . وما روى عن ابن عباس لا يصح . وكيف تشهد الأبيّة على شيء ، وتدخل مالا في ذمة السفيه بإملاء الذي له الدين ! هذا شيء ليس في الشريعة . إلا أن يريد قائله : إن الذي لا يستطيع أن **يُمِلَّ** لمرض أو كبر سنّ ثقل لسانه عن الإملاء أو لحرس ، وإذا كان كذلك فليس على المريض ومن ثقل لسانه عن الإملاء لحرس وليّ عند أحد العلماء ، مثل ما ثبت على الصبيّ والسفيه عند من يحجر عليه . فإذا كان كذلك فليمل صاحب الحق بالعدل ويستمع الذي يحجز ، فإذا كمل الإملاء أقر به . وهذا معنى لم تبيّن الآية إليه : ولا يصح هذا إلا فيمن لا يستطيع أن **يُمِلَّ** لمرض ومن ذكر معه .

السادسة والعشرون - لما قال الله تعالى : (**فَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ**) دل ذلك على أنه « **وَمَنْ قِيَا يُورِدُهُ وَيُصَدِّقُهُ** » فيقتضى ذلك قبول قول الزاهن مع يمينه إذا اختلف هو والمرتهن في مقدار الدين والزاهن قائم ، فيقول الزاهن رحت بنحسين والمرتهن يدعى مائة ، فالقول قول الزاهن والزاهن قائم ، وهو مذهب أكثر الفقهاء : سفيان الثوريّ والثافسيّ وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي ؛ واختاره ابن المنذر قال : لأن المرتهن مدّج للفضل ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « **البينة على المدّعي واليمين على المدّعى عليه** » . وقال مالك : القول قول المرتهن قيا بينه وبين قيمة الرهن ولا يصحّ على أكثر من ذلك . فكانه يرى أن الرهن وبيّنه شاهد

(١) كذا في هـ و ج ، والقطرة : الطليعة والجلبة . وفي ج و ا : القطعة .

(٢) كذا في هـ و ج ، في ج و ا : لفته . (٣) راجع ج هـ ص ٥٨

المرتبة؛ وقوله تعالى « قَلِيلٌ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ » رد عليه . فإن الذي عليه الحق هو الزمان .
 وسنأتي هذه المسألة . وإن قال قائل : إن الله تعالى جعل الرهن بدلاً عن الشهادة والكاتب ،
 والشهادة دالة على صدق المشهود له فيما بينه وبين قيمة الرهن ، فإذا بلغ قيمته فلا وثيقة
 في الزيادة . قيل له : الرهن لا يدل على أن قيمته يجب أن تكون مقدار الدين ؛ فإنه ربما رهن
 الشيء بالقليل والكثير . ثم لا ينقص الرهن غالباً عن مقدار الدين ، فأما أن يطابقه فلا .
 وهذا القائل يقول : يصدق المرتبة مع اليقين في مقدار الدين إلى أن يساوى قيمة الرهن .
 وليس العرف على ذلك فرماً يخص الدين عن الرهن وهو الغالب ، فلا حاصل لتولم هذا .
 الثانية والعشرون - وإذا ثبت أن المراد الولي قبه دليل على أن إقراره جائز على نفعه ؛
 لأنه إذا أملاه فقد نفذ قوله عليه فيما أملاه »

الثالثة والعشرون - وتصرف السفية المحجور عليه دون إذن وليه فاسد إجماعاً مقسوخ
 أبداً لا يوجب حكماً ولا يؤثر شيئاً . فإن تصرف سفية ولا حجر عليه ففيه خلاف يأتي بيانه
 في « النساء »^(١) إن شاء الله تعالى .

الرابعة والعشرون - قوله تعالى : (وَأَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ) الاستنباد
 طلب الشهادة . واختلف الناس هل هي فرض أو نذب ، والصحيح أنه نذب على ما يأتي
 بيانه إن شاء الله تعالى .

الخامسة والعشرون - قوله تعالى : (شَهِدَيْنِ) رتب الله سبحانه الشهادة بحسب
 في الحقوق المالية والبدنية والحدود وجعل في كل فن شهادتين إلا في الزنا ، على ما يأتي بيانه
 في سورة « النساء »^(٢) . وشهد بناءً مبالغة ؛ وفي ذلك دلالة على من قد شهد وتكرر ذلك منه ،
 فكانه إشارة إلى العدالة . والله أعلم .

السادسة والعشرون - قوله تعالى : (مِنْ رِجَالِكُمْ) نص في رفض الكفار والصبيان
 والنساء ، وأما العبد فاللفظ يناولهم . وقال مجاهد : المراد الأحرار ، واختاره القاضي أبو إسحاق
 وأطعن فيه . وقد اختلف العلماء في شهادة العبد ؛ فقال شريح وعثمان البتي وأحمد وإسحاق

(١) في ١ : الصبي . والصواب ما أئتمناه من ٥ و ٦ . (٢) راجع ٥ ص ٣٩٩ وص ٤٢٣

وأبو ثور : شهادة العبد جائزة إذا كان عدلاً ، وغلبوا لفظ الآية . وقال مالك وأبو حنيفة والشافعي وجهاً للمساء : لا تجوز شهادة العبد ، وغلبوا نقض الرق ، وأجازها الشعبي والنخعي في الشيء البير . والصحيح قول الجمهور : لأن الله تعالى قال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَعْتُمْ بَيْنَيْنَا » وساق الخطاب إلى قوله « مِنْ رِجَالِكُمْ » فظاهر الخطاب يتناول الذين يتدافعون ، والعبيد لا يملكون ذلك دون إذن السادة . فإن قالوا : إن خصوص أول الآية لا يمنع التعلق بعموم آخرها . قيل لهم : هذا يخصه قوله تعالى : « وَلَا يَأْتِ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا » على ما يأتي بيانه . وقوله « مِنْ رِجَالِكُمْ » دليل على أن الأعمى من أهل الشهادة ، لكن إذا علم بقيتنا ، مثل ما روى عن ابن عباس قال : مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشهادة فقال : « ترى هذه الشمس فاشهد على مثلها أودع » . وهذا يدل على اشتراط معاينة الشاهد لما يشهد به ، لا من يشهد بالاستدلال الذي يجوز أن يخطئ . نعم يجوز له وطئه امرأته إذا عرف صوتها ، لأن الإقدام على الوطء جائز بظلمة الظن ، فلوزنت إليه امرأة وقيل : هذه امرأتك وهو لا يسرفها جاز له وطؤها ، ويحل له قبول هدية جاءت به بقول الرسول . ولو أخبره مخبر عن زيد بإقرار أو بيع أو قذف أو غصب لما جاز له إقامة الشهادة على المخبر عنه ، لأن سبيل الشهادة اليقين ، وفي غيرها يجوز استعمال غالب الظن ، ولذلك قال الشافعي وابن أبي ليلى وأبو يوسف : إذا علمه قبل العمى جازت الشهادة بعد العمى ، ويكون العمى الحائل بينه وبين المشهود عليه كالغيبية والموت في المشهود عليه . فهذا مذهب هؤلاء . والذي يمنع أداء الأعمى فيما يحمل بصيراً لا وجه له ، وتصح شهادته بالنسب الذي يثبت بالخبر المستفيض ، كما يخبر عما توارث حكمه من الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن العلماء من قيل شهادة الأعمى فيما طريقته الصوت ، لأنه رأى الاستدلال بذلك يترق إلى حد اليقين ، ورأى أن اشتباه الأصوات كاشتباه الصور والألوان ، وهذا ضعيف يلزم منه جواز الاعتماد على الصوت للبصير . قلت : مذهب مالك في شهادة الأعمى على الصوت جائزة في الطلاق وغيره إذا عرف الصوت . قال ابن قاسم : قلت لما لك : فالرجل يسمع جاره من وراء الحائط ولا يراه ،

يسمعه يطلق أمراته فيشهد عليه وقد عرف الصوت؟ قال قال مالك : شهادته جائزة . وقال ذلك علي بن أبي طالب والقاسم بن محمد وشريح الكندي والشعي وعطاء بن أبي رباح ويحيى ابن سعيد وربيعة وإبراهيم النخعي ومالك والليث .

السابعة والعشرون — قوله تعالى : (فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ) المعنى إن لم يأت الطالب برجلين فبأت رجل وامرأتين ، هذا قول الجمهور . « فَرَجُلٌ » رفع بالابتداء ، « وَامْرَأَتَانِ » عطف عليه والخبر محذوف . أى فرجل وامرأتان يقومان مقامهما . ويجوز النصب في غير القرآن ، أى فاستشهدوا رجلا وامرأتين . وحكى سيويه : إن خنجرنا فخنجرنا . وقال قوم : بل المعنى فإن لم يكن رجلان ، أى لم يوجدنا فلا يجوز استشهد المرأتين إلا مع صدم الرجال . قال ابن عطية : وهذا ضعيف ، فلفظ الآية لا يسطيه ، بل الظاهر منه قول الجمهور ، أى إن لم يكن المستشهد رجلين ، أى إن أغفل ذلك صاحب الحق أو قصده لمنزلة فليستشهد رجلا وامرأتين . فجعل تعالى شهادة المرأتين مع الرجل جائزة مع وجود الرجلين في هذه الآية ، ولم يذكرها في غيرها ، فأجيزت في الأموال خاصة في قول الجمهور ، بشرط أن يكون معها رجل . وإنما كان ذلك في الأموال دون غيرها ، لأن الأموال كثر الله أسباب توثيقها لكثرة جهات تحصيلها وعموم البلوى بها وتكررها ، فجعل فيها التوثيق ثارة بالكتابة وثارة بالإشهاد وثارة بالزمن وثارة بالضمان ، وأدخل في جميع ذلك شهادة النساء مع الرجال . ولا يتوهم عاقل أن قوله تعالى « إِنْ تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ » يشتمل على دين المهر مع البضع ، وعلى الصلح على دم العمد ، فإن تلك الشهادة ليست شهادة على الدين ، بل هي شهادة على النكاح . وأجاز العلماء شهادتهم منفردات فيما لا يطلع عليه غيرهن للضرورة . وعلى مثل ذلك أجيزت شهادة الصبيان في الجراح فيما بينهم للضرورة .

وقد اختلف العلماء في شهادة الصبيان في الجراح وهى :

الثامنة والعشرون — فأجازها مالك ما لم يختلفوا ولم يفرقوا . ولا يجوز أقل من شهادة اثنين منهم على صغير لكبير ولكبير على صغير . وعن كان بقضى بشهادة الصبيان فيما بينهم من الجراح بعد الله بن الزبير . وقال مالك : وهو الأمر عندنا المجتمع عليه . ولم يميز الشافعي .

وأبو حنيفة وأصحابه شهادتهم؛ لقوله تعالى « مِنْ رِجَالِكُمْ » وقوله « يَمُنُّ تَرْسُونَ » وقوله « ذَرَيْتُمْ مَدْلِلَ مَنكُمُ » وهذه الصفات ليست في الصبي .

الثامنة والعشرون - لما جعل الله سبحانه شهادة امرأتين بدل شهادة رجل وجب أن يكون حكمهما حكمه؛ فكأنه أن يحلف مع الشاهد عدنا، وعند الشافعي كذلك، يجب أن يحلف مع شهادة امرأتين بمطلق هذه البيضة . وخالف في هذا أبو حنيفة وأصحابه فلم يروا اليقين مع الشاهد وقالوا : إن الله سبحانه قسم الشهادة وعددها، ولم يذكر الشاهد واليمين، فلا يجوز القضاء به؛ لأنه يكون قسما زائداً على ما قسمه الله، وهذه زيادة على النص، وذلك نسخ . ومن قال بهذا القول الثوري والأوزاعي وعطاء والحكم بن عتيبة وطائفة . قال بعضهم : الحكم باليمين مع الشاهد منسوخ بالقرآن . وزعم عطاء أن أقل من قضى به عبد الملك بن مروان، وقال : الحكم : القضاء باليمين والشاهد بدعة، وأول من حكم به معاوية . وهذا كله غلط وظن لا يفتي من الحق شيئاً، وليس من قبي وجاهل كن أثبت وعلم ! وليس في قول الله تعالى : « وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ » الآية، ما يراد به قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في اليمين مع الشاهد؛ ولا أنه لا يتوصل إلى الحقوق ولا تستحق إلا بما ذكر فيها لا غير، فإن ذلك يبطل بنكول المطلوب وبين الطالب، فإن ذلك يستحق به المال إجماعاً وليس في كتاب الله تعالى، وهذا قاطع في الرد عليهم . قال مالك : فمن ألججه على من قال ذلك أقول أن يقال له : أرايت لو أن رجلاً أذعن على رجل مالا لأليس يحلف المطلوب ما ذاك الحق عليه ؟ فإن حلف يبطل ذلك الحق عنه، وإن نكل عن اليمين حلف صاحب الحق، أن حقه لحق، وثبت حقه على صاحبه . فهذا مما لا اختلاف فيه عند أحد من الناس ولا يبلد من البلدان، فبأي شيء أخذ هذا وفي أي شيء تجلب الله فوجده ؟ فمن أقر بهذا فليقر باليمين مع الشاهد . قال عطاءنا : ثم العجب مع شهرة الأحاديث ومحتها بدعوا من عمل بها حتى تقضوا حكمه واستقصروا رأيه، مع أنه قد عمل بذلك الخلفاء الأربعة وأبى بن كعب ومعاوية وشريح وعمر بن عبد العزيز - وكتب به إلى عماله -

(١) في ٥ : أصحابهم . (٢) راجع ١٨ ص ١٥٧ (٣) في ط : اليمين .

(٤) في ح و د و ج : قسما . (٥) في ط و ج و د : طه .

وإياس بن معاوية وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو الزناد وربيعة؛ ولذلك قال مالك: وإنه
 ليكني من ذلك ما مضى من عمل السنة، أترى هؤلاء تنقض أحكامهم، ويحكم بيدهم؟
 هذا إغفال شديد، ونظر غير شديد. روى الأئمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم
 أنه قضى باليمين مع الشاهد. قال عمرو بن دينار: في الأموال خاصة؛ رواه سيف بن سليمان
 عن قيس بن سعد عن عمرو بن دينار عن ابن عباس. قال أبو عمر: هذا أصح إسناد لهذا
 الحديث، وهو حديث لا مطمئن لأحد في إسناده، ولا خلاف بين أهل المعرفة بالحديث
 في أن رجاله ثقات. قال يحيى القطان: سيف بن سليمان ثبت، ما رأيت أحفظ منه.
 وقال النسائي: هذا إسناد جيد، سيف ثقة، وقيس ثقة. وقد خرج مسلم حديث
 ابن عباس هذا. قال أبو بكر البزار: سيف بن سليمان وقيس بن سعد ثقات، ومن بعدهما
 يُستغنى عن ذكرهما لشهرتهما في الثقة والمدالة. ولم يأت عن أحد من الصحابة أنه أنكر
 اليمين مع الشاهد، بل جاء عنهم القول به، وعليه جمهور أهل العلم بالمدينة. واختلف فيه
 عن عمرو بن الزبير وابن شهاب؛ فقال مَعمر: سألت الزهري عن اليمين مع الشاهد
 فقال: هذا شيء أحدثه الناس، لا بد من شاهدين. وقد روى عنه أنه أول ما ولي القضاء
 حكم بشاهد ويمين؛ وبه قال مالك وأصحابه والشافعي وأتباعه وأحمد وإسحاق وأبو عبيد
 وأبو ثور ودาวود بن علي وبرجاسة أهل الأثر، وهو الذي لا يجوز عندي خلافه، لتواتر الآثار به
 عن النبي صلى الله عليه وسلم وعمل أهل المدينة قرناً بعد قرن. وقال مالك: يقضى باليمين مع
 الشاهد في كل البلدان، ولم يحتج في موطنه لمسألة غيرها. ولم يختلف عنه في القضاء باليمين
 مع الشاهد ولا عن أحد من أصحابه بالمدينة ومصر وغيرها، ولا يعرف المسالك في كل
 بلد غير ذلك من مذهبه إلا عندنا بالأندلس؛ فإن يحيى [بن يحيى] زعم أنه لم ير أليث يفتي
 به ولا يذهب إليه. وخالف يحيى مالكا في ذلك مع مخالفته السنة والعمل بدار الهجرة.
 ثم أئيين مع الشاهد زيادة حكم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كتنبيهه عن نكاح
 المرأة على عمتها وعلى خالتها مع قول الله تعالى: «وَأَحَلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكَ» وكنيته عن

أكل لحوم الحمر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع مع قوله : « قُلْ لَا أُبَدِّعُ » . وكالمسح على الخفين ، والقرآن إنما ورد بفعل الرجلين أو مسحهما ؛ ومثل هذا كثير . ولو جاز أن يقال : إن القرآن نسخ حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم باليمين مع الشاهد ، لجاز أن يقال : إن القرآن في قوله عز وجل : « وَأَحْلَ أَهْلُ الْبَيْتِ وَحَرَّمَ الرِّبَا » وفي قوله : « إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ »^(١) ناسخ لنبهه عن المزابنة وبيع الغرور وبيع المالم يخلق ، إلى سائر ما نبهه عنه في البيوع ، وهذا لا يسوغ لأحد ؛ لأن السنة مبنية للكتاب . فإن قيل : إن ما ورد من الحديث قضية في مَن فلا عموم . قلنا : بل ذلك عبارة عن تقعيد هذه القاعدة ؛ فكانه قال : أوجب رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم باليمين مع الشاهد . وما يشهد لهذا التأويل ما رواه أبو داود في حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بشاهد ويمين في الحقوق ، ومن جهة القياس والنظر أنا وجدنا اليمين أقوى من المراتين ؛ لأنهما لا مدخل لهما في اللعان واليمين تدخل في اللعان . وإذا حثت السنة بالقول بها يجب ، ولا تحتاج السنة إلى ما يتبعها ؛ لأن من خالفها عجوج بها . وبالله التوفيق .

المؤنية ثلاثين - وإذا تقرر وثبت الحكم باليمين مع الشاهد ، فقال القاضي أبو محمد عبد الوهاب : ذلك في الأموال وما يتعلق بها دون حقوق الأبدان ؛ للإجماع على ذلك من كل قائل باليمين مع الشاهد . قال : لأن حقوق الأموال أخفض من حقوق الأبدان ؛ بدليل قبول شهادة النساء فيها . وقد اختلف قول مالك في جراح العمى ، هل يجب القود فيها بالشاهد واليمين ؟ فيه روايتان : إحداها أنه يجب به التخير بين القود والدية . والأخرى أنه لا يجب به شيء ؛ لأنه من حقوق الأبدان . قال : وهو الصحيح . قال مالك في الموطأ : وإنما يكون ذلك في الأموال خاصة ؛ وقاله عمرو بن دينار . وقال المازني^(٢) : يقبل في المال الخفض من غير خلاف ، ولا يقبل في النكاح والطلاق المحضين من غير خلاف . وإن كان مضمون الشهادة

(١) راجع ج ٧ ص ١١٥ (٢) راجع ج ٥ ص ١٥١ (٣) في ط ٥ : من يتابعها .
(٤) في ط ٥ : بدلالة . (٥) المازني : أوجب الله محمد بن علي بن عمر بن محمد القيس الفقيه المالكي ؛ توفي سنة ست وثلاثين وخمسة المازني بفتح الميم ووسطها ألف ثم زاي مفتوحة وقد كثر أيضا ثم راء ، هذه النسبة إلى « مازره » وهي بلدة بجزيرة صقلية . (من ابن خلكان) .

ما ليس بمال، ولكنه يؤدى إلى المال، كالشهادة بالوصية والنكاح بعد الموت، حتى لا يطلب من ثبوتها إلا المال إلى غير ذلك، ففى قبوله اختلاف؛ فمن رأى المال قبله كما يقبله فى المال، ومن رأى الحال لم يقبله. وقال المهديون: شهادة النساء فى الحدود غير جائزة فى قول عامة الفقهاء، وكذلك فى النكاح والطلاق فى قول أكثر العلماء، وهو مذهب مالك والشافعى وغيرهما؛ وإنما يشهدن فى الأموال. وكل ما لا يشهدن فيه فلا يشهدن على شهادة غيره^(١) فيه، كان معهن رجل أو لم يكن، ولا ينقلن شهادة إلا مع رجل قلن عن رجل وامرأة. ويقضى باثنين منهن فى كل ما لا يحضرن غيره^(٢) كالإلادة والاستئصال ونحو ذلك. هذا كله مذهب مالك، وفى بعضه اختلاف.

الحادية والثلاثون — قوله تعالى: ﴿يَمُنُّ تَرْضُونَ مِنَ الشَّهَادَةِ﴾ فى موضع رفع على الضمة لرجل وامرأتين. قال ابن بكير وغيره: هذه مخاطبة للحكام. ابن عطية: وهذا غير نيل، وإنما الخطاب لجميع الناس، لكن المختلّس بهذه القضية إنما هم الحكام، وهذا كثير فى كتاب الله يعم الخطاب فيما يتلوس به البعض.

الثانية والثلاثون — لما قال الله تعالى: «يَمُنُّ تَرْضُونَ مِنَ الشَّهَادَةِ» دل على أن فى الشهود من لا يرضى، فيجىء من ذلك أن الناس ليسوا بمجولين على الدلالة حتى تثبت لهم، وذلك معنى زائد على الإسلام؛ وهذا قول الجمهور. وقال أبو حنيفة: كل مسلم ظاهر الإسلام مع السلامة من فسق ظاهر فهو عدل وإن كان مجهول الحال. وقال شريح وعثمان البتي وأبو ثور: هم عدول المسلمين وإن كانوا عبيدا.

قلت — فمّموا الحكم؛ ويلزم منه قبول شهادة البدوى على القروى إذا كان عدلاً مرضياً وبه قال الشافعى ومن وافقه، وهو من رجالنا وأهل ديننا. وكونه بدوياً ككونه من بلد آخر والعمومات فى القرآن الدالة على قبول شهادة المدول تسوى بين البدوى والقروى؛ قال الله تعالى: «يَمُنُّ تَرْضُونَ مِنَ الشَّهَادَةِ» وقال تعالى: «وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ» ذ «مِنْكُمْ» خطاب للمسلمين. وهذا يقتضى قطعاً أن يكون معنى الدلالة زائداً على الإسلام ضرورة؛ لأن الصفة زائدة

على الموصوف، وكذلك «يَمْنُ تَرْصُون» مثله، خلاف ما قال أبو حنيفة، ثم لا يعلم كونه مرضياً حتى يُختبر حاله، فيلزمه ألا يكفى بظاهر الإسلام. وذهب أحمد بن حنبل ومالك في رواية ابن وهب عنه إلى رد شهادة البَدَوِيِّ على القُرَوِيِّ لحديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية». والصحيح جواز شهادته إذا كان عدلاً مرضياً، على ما يأتي بيانه في «النساء» و«براءة»^(١) إن شاء الله تعالى. وليس في حديث أبي هريرة فرق بين القُرَوِيِّ في الحضر أو السفر، ومتى كان في السفر فلا خلاف في [قبوله]^(٢).

قال علمائنا: العدالة هي الاعتدال في الأحوال الدينية، وذلك يتم بأن يكون مجتنباً للكبائر عانظاً على سروده وعلى ترك الصغائر، ظاهر الأمانة غير مغفل. وقيل: صفاء السيرة واستقامة السيرة في ظن المعدل، والمعنى متقارب.

الثالثة والثلاثون - لما كانت الشهادة ولاية عظيمة ومرتبة منيعة، وهي قبول قول الغير على الغير، شرط تعالى فيها الرضا والعدالة. فمن حكم الشاهد أن تكون له شمائل ينفرد بها وفضائل يَحْتَلُّ بها حتى تكون له منزلة على غيره، توجب له تلك المزية رتبة الاختصاص بقبول قوله، ويحكم بسفل ذمة المطلوب بشهادته. وهذا أدل دليل على جواز الاجتهاد والاستدلال بالأمارات والعلامات عند علمائنا على ما خفي من المعاني والأحكام. وسيأتي لهذا في سورة «يوسف» زيادة بيان إن شاء الله تعالى. وفيه ما يدل على تفويض الأمر إلى اجتهاد الحكماء، فربما تفوّس في الشاهد غفلة أو ريبة فبرّد شهادته لذلك.

الرابعة والثلاثون - قال أبو حنيفة: يكفى بظاهر الإسلام في الأموال دون الحدود. وهذه مناقضة تُسقط كلامه وتُفسد عليه سرامه؛ لأننا نقول: حق من الحقوق. فلا يكفى في الشهادة عليه بظاهر الدين كالحودود؛ قاله ابن العربي.

الخامسة والثلاثون - وإذا قد شرط الله تعالى الرضا والعدالة في المداينة كما بينا فاشتراطها في النكاح أدنى، خلافاً لأبي حنيفة حيث قال: إن النكاح ينقذ بشهادة فاسقين. فنفى
(١) راجع ج ٥ ص ٤١٢ (٢) راجع ج ٨ ص ٢٢٢ (٣) كما في ط. وفي باقي الأصول: فلا خلاف في قوله. (٤) راجع ج ٩ ص ١٧٢ فما بعده ص ٢٤٥

الاحتياط المأمور به في الأموال عن النكاح ، وهو أولى لما يتعلق به من الخلل والحسرة والخلل والنسب .

قلت : قول أبي حنيفة في هذا الباب ضعيف جداً ؛ لشرط الله تعالى الرضا والمطابقة ، وليس يعلم كونه مرضياً بمجرد الإسلام ، وإنما يعلم بالنظر في أحواله حسب ما تهمم . ولا يثبت بظاهر قوله : أنا مسلم . فربما انطوى على ما يوجب رد شهادته ؛ مثل قوله تعالى : « وَمَنْ النَّاسَ مِنْ يُضِيقُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَيْهِ مَا فِي قَلْبِهِ » إلى قوله « وَاللَّهُ لَا يُهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » . وقال : « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ » الآية .

السادسة والثلاثون — قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا قَالَ أَبُو عَيدٍ : معنى تَضِلَّ تسمى . والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها وذكر جزء ، ويبقى المرء حيران بين ذلك ضاللاً . ومن نسي الشهادة جملة فليس يقال : ضل فيها . وقرأ حمزة « إن » بكسر الهمزة على معنى الجزء ، والفاء في قوله « فَتَذَكَّرْ » جوابه ، وموضع الشرط وجوابه رفع على الصفة للرايين والرجل . وارتفع « تَذَكَّرْ » على الاستئناف ؛ كما ارتفع قوله « وَمَنْ عَادَ قَبِلَتْهُمُ اللَّهُ مِنْهُ » هذا قول سيويه . ومن فتح « أن » فهي مفعول له والفاعل [فيها] محذوف . وانتصب « فَتَذَكَّرْ » على قراءة الجماعة عطفاً على الفعل المنصوب بأن . قال النحاس : ويجوز « تَضَلَّ » بفتح التاء والضاد ، ويجوز تَضَلَّ بكسر التاء وفتح الضاد . فن قال : « تَضَلَّ » جاء به على لغة من قال : ضَلَّتْ تَضَلَّ . وعلى هذا تقول تَضَلَّ فتكسر التاء لتدل على أن الماضي فَعَلْتُ . وقرأ الجحدري وعيسى ابن عمر « أَنْ تَضَلَّ » بضم التاء وفتح الضاد بمعنى نَسِيَ ، وهكذا حكى عنهما أبو عمرو الباقين . وحكى النقاش عن الجحدري ضم التاء وكسر الضاد بمعنى أن تَضَلَّ الشهادة . تقول : اضلَّتُ الفرس والبعير إذا تفلكا لك وذهبا فلم يجدهما .

السابعة والثلاثون — قوله تعالى : ﴿ فَتَذَكَّرْ ﴾ خفف الدال والكاف ابن كثير وأبو عمرو ؛ وعليه فيكون المعنى أن تَرُدَّهَا ذِكْرًا في الشهادة ؛ لأن شهادة المرأة نصف شهادة ؛ فإذا شهدتا صار مجموعهما كشهادة ذكر ؛ قاله سفيان بن عيينة وأبو عمرو بن العلاء . وفيه

(١) راجع ص ١٤ من هذا الجزء . (٢) راجع ص ١٨ ص ١٢٤ (٣) راجع ص ٦ ص ٢٠٢

(٤) كما في طرد . (٥) في : يضل .

بعد، إذ لا يحصل في مقابلة الضلال الذي معناه النسيان إلا الذكر، وهو معنى قراءة الجماعة «تَذَكَّرَ» بالتشديد، أى تَنَبَّهًا إِذَا غَفَلْتَ وَنَسِيتَ .

قلت : وإليها ترجع قراءة أبي عمرو، أى إن تَنَسَّ إحداهما تَذَكَّرَ الأخرى ؛ يقال : تَذَكَّرْتُ الشئ، وأَذَكَّرْتُهُ غَيْرِي وَتَذَكَّرْتُه بِمَعْنَى ؛ قاله في الصحاح .

الثامنة والثلاثون - قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ قال الحسن : جمعت هذه الآية أمرين، وهما ألا تَأْبَى إِذَا دُعِيتَ إلى تحصيل الشهادة، ولا إِذَا دُعِيتَ إلى أدائها؛ وقاله ابن عباس . وقال قتادة والربيع وابن عباس : أى لِحَمْلِهَا وإثباتها في الكتاب .

وقال مجاهد : معنى الآية إِذَا دُعِيتَ إلى أداء شهادة وقد حَصَلَتْ عندك . وأسند النقاش إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه فسر الآية بهذا ؛ قال مجاهد : فأما إِذَا دُعِيتَ لتشهد أولا فإن شئت فاذهب وإن شئت فلا ؛ وقاله أبو مجلز وعطاء وإبراهيم وابن جبير والسدي وابن زيد وغيرهم . وعليه فلا يجب على الشهود الحضور عند المتماقدين، وإنما على المتدائنين أن يحضروا عند الشهود ؛ فإذا حضروا وسألاهم إثبات شهادتهم في الكتاب فهذه الحالة التي يجوز أن تراد بقوله تعالى : « وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا » لإثبات الشهادة فإذا ثبتت شهادتهم

ثم دعوا لإقامتها عند الحاكم فهذا الدعاء هو بحضورهما عند الحاكم، على ما يأتي . وقال ابن عطية : والآية كما قال الحسن جمعت أمرين على جهة التنبه ؛ فالمسلمون مندوبون إلى معونة إخوانهم ؛ فإذا كانت الفسحة لكثرة الشهود والأمن من تعطيل الحق فالدعوى مندوبة، وله أن يتخلف لأدنى مَدر، وإن تخلف لغير عذر فلا إثم عليه ولا ثواب له . وإذا كانت

الضرورة وخيف تعطيل الحق أدنى خوف قوى التنبه وقرب من الوجوب، وإذا علم أن الحق يذهب ويتلف بتأخر الشاهد عن الشهادة فواجب عليه القيام بها، لا سيما إن كانت مُحَصَّلَةً وكان الدعاء إلى أدائها، فإن هذا الظرف أكد ؛ لأنها قِلادة في النقي وأمانة تقتضى الأداء .

قلت : وقد يستلوح من هذه الآية دليل على أن جائزا للإمام أن يُقيم للناس شهودا ويعمل لهم من بيت المال كفايتهم، فلا يكون لهم شغل إلا بحمل حقوق الناس حفظا لها، وإن لم

قلت : وقد يستلوح من هذه الآية دليل على أن جائزا للإمام أن يُقيم للناس شهودا ويعمل لهم من بيت المال كفايتهم، فلا يكون لهم شغل إلا بحمل حقوق الناس حفظا لها، وإن لم

(١) ذب : وعليه فلا يجب إلح . (٢) ذب : الحكام . (٣) في طوب : قاله ابن عطية . (٤) في ه : الحقوقي . (٥) في ط : لغزو .

يكن ذلك ضاعت الحقوق وبطلت . فيكون المعنى ولا يَأْب الشهادة إذا لم نخذوا حقوقهم أن يقيموا . والله أعلم . فإن قيل : هذه شهادة بالأجرة ؛ قلنا : إنما هي شهادة خالصة من قوم استوفوا حقوقهم من بيت المال ، وذلك كأرزاق القضاة والولاة وجميع المصالح التي تَمُنُّ^(١) للمسلمين وهذا من جملتها . والله أعلم . وقد قال تعالى : « وَالْعَامِلِينَ فِيهَا » ففرض لهم . التاسعة والثلاثون — لما قال تعالى : « وَلَا يَأْبُ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا » دلَّ على أن الشاهد هو الذي يمشى إلى الحاكم ، وهذا أمر يُبَيِّنُ عليه الشرع ويُعَمِّلُ به في كل زمان وفهمته كل أمة ، ومن أمثالهم : « فِي بَيْتِهِ يُؤْتَى الْحَكْمُ » .

الموفية أربعين — وإذا ثبت هذا فالبعد خارج عن جملة الشهداء ، وهو يخص عموم قوله : « مِنْ رِجَالِكُمْ » لأنه لا يمكنه أن يجيب ، ولا يصح له أن يأتي ؛ لأنه لا استقلال له بنفسه ، وإنما يَتَصَرَّفُ بإذن غيره ، فانحط عن منصب الشهادة كما انحط عن مترك الولاية . نعم ! وكما انحط عن فرض الجمعة والجهاد والنج ، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

الحادية والأربعون — قال علماؤنا : هذا في حال الدعاء إلى الشهادة . فاما من كانت تحته شهادة لرجل لم يعلمها مستحقها الذي ينتفع بها ، فقال قوم : أداؤها نذبة لقوله تعالى : « وَلَا يَأْبُ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا » ففرض الله الأداء عند الدعاء ، فإنما لم يُدْعَ كان نذبة ؛ لقوله عليه السلام : « خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها »^(٢) . والصحيح أن إداؤها فرض وإن لم يسألها إذا خاف على الحق ضياعه أو فوته ، أو بطلاق أو عتق على من أقام على تصرفه على الاستمتاع بالزوجة واستخدام العبد إلى غير ذلك ، فيجب على من حمل شيئا من ذلك أداء تلك الشهادة ، ولا يَقِفُ أداؤها على أن تسأل منه فيضيع الحق ؛ وقد قال تعالى : « وَاقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ »^(٣) وقال : « إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ »^(٤) . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » . فقد تبين عليه نصره بأداء الشهادة التي له عنده إحياء لحقه الذي أماته الإنكار .

(١) في ج : تبين المسلمين . (٢) راجع ج ٨ ص ١٧٨ . (٣) راجع ج ١٨ ص ١٥٩ .

(٤) راجع ج ١٦ ص ١٢٢ .

الثانية والأربعون - لا إشكال في أن من وجبت عليه شهادة على أحد الأوجه التي ذكرناها فلم يؤدها أنها جُرعة في الشاهد والشهادة؛ ولا فرق في هذا بين حقوق الله تعالى وحقوق الآدميين؛ هذا قول ابن القاسم وغيره . وزعم بعضهم إلى أن تلك الشهادة إن كانت بحق من حقوق الآدميين كان ذلك جُرعة في تلك الشهادة نفسها خاصة؛ فلا يصلح له أدائها بعد ذلك . والصحيح الأول؛ لأن الذي يوجب جرخته إنما هو فسقه بامتناعه من القيام بما وجب عليه من غير عذر، والفسق يسلب أهلية الشهادة مطلقاً، وهذا واضح .

الثالثة والأربعون - لا تناقض بين قوله عليه السلام: "خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها" وبين قوله عليه السلام في حديث عمران بن حصين: "إن خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" - ثم قال عمران: فلا أدري أقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً - ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون ويتخذون ولا يؤفون ويظهر فيهم السمن" ^(١) أخرجهما الصحيحان . وهذا الحديث محمول على ثلاثة أوجه: أحدها أن يراد به شاهد الزور؛ فإنه يشهد بما لم يستشهد، أي بما لم يعمل به ولا يحمله، وذكر أبو بكر بن أبي شيبة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خطب بباب الجابية فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فينا كفاً فيكم ثم قال: "يا أيها الناس اتقوا الله في أصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يغشوا الكذب وشهادة الزور" . الوجه الثاني أن يراد به الذي يعمل الشره على تنفيذ ما يشهد به، فيبادر بالشهادة قبل أن يسألها؛ فهذه شهادة مردودة؛ فإن ذلك يدل على هوى غالب على الشاهد . الثالث ما قاله إبراهيم النخعي ^(٢) راوى طرق بعض هذا الحديث: كانوا يَنْهَوْنَا ونحن غلمان عن العهد والشهادات .

الرابعة والأربعون - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ آبَائِهِ﴾ "تَسْمُوا" معناه تملأوا . قال الأخفش: يقال سَمِيتُ اسْمًا سَامًا وَسَامَةً وَسَامًا [وَسَامَةً] وَسَامًا؛ كما قال الشاعر:

سَمِيتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَشِشْ • ثَمَانِينَ حَوْلًا - لَا أَبَالِكَ - يَسَامُ

(١) هذه رواية مسلم . (٢) في بوجهه وط: بإثر طرق . (٣) في بوجهه وط: بإثر طرق .

« أَنْ تَكْتُبُوهُ » في موضع نصب بالفعل . « صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا » حالان من الضمير في « تَكْتُبُوهُ »
وقدم الصغير اهتماما به . وهذا النهي عن السأمة إنما جاء لتردد المدانية عندهم تخيف عليهم
أَنْ يَمْلَأُوا الْكُتُبَ ، ويقول أحدهم : هذا قليل لا احتاج إلى كَتْبِهِ ؛ فأكد تعالى التحضيض^(١)
في القليل والكثير . قال علماءنا : إلا ما كان من قيراط ونحوه لثزارته وعدم تشوف النفس
إليه إقرارًا وإنكارًا .

الخامسة والأربعون — قوله تعالى : (ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ) معناه أعدل ، يعني
أَنْ يُكْتَبَ القليل والكثير ، ويُشْهَدَ عليه . (وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ) أي أصح وأحفظ . (وَأَدْنَى)
معناه أقرب . و (تَرْتَابُوا) تَشْكُرُوا .

السادسة والأربعون — قوله تعالى : « وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ » دليل على أن الشاهد إذا رأى
الكتاب ولم يذكر الشهادة لا يؤديها لما دخل عليه من الرية فيها ، ولا يؤدي إلا ما يعلم ،
لكنه يقول : هذا خطي ولا أذكر الآن ما كتبت فيه . قال ابن المنذر : أكثر من يُحْفَظُ
عنه من أهل العلم يمنع أن يشهد الشاهد على خطه إذا لم يذكر الشهادة . واحتج مالك على
جواز ذلك بقوله تعالى : « وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا » . وقال بعض العلماء : لما نسب^(٢)
الله تعالى الكتابة إلى العدالة وسمع أن يشهد على خطه وإن لم يتذكر . ذكر ابن المبارك عن
معمر عن ابن طاووس عن أبيه في الرجل يشهد على شهادة فيساها قال : لا بأس أن يشهد
إن وجد علامته في الصلح أو خط يده . قال ابن المبارك : استحسنت هذا جدًا ، وفيما جاءت
به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه حكم في أشياء غير واحدة بالدلائل والشواهد
وعن الرسل من قبله ما يدل على صحة هذا المنهج . والله أعلم . وسياقنا لهذا مزيد بيان
في « الأحقاف »^(٣) إن شاء الله تعالى .

السابعة والأربعون — قوله تعالى : (إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ)
« أَنْ » في موضع نصب استثناء ليس من الأول . قال الأخفش [أبو سعيد] : أي إلا أن تقع
تجارة ، فكان بمعنى وقع وحدث . وقال غيره : « تُدِيرُونَهَا » الخبر . وقرأ عاصم وحده « تِجَارَةً »

(١) كما في جوه ، وفي ب وأر ح وط : الحصين . (٢) راجع في ٩ ص ٤٤٤

(٣) راجع في ١٦ ص ١٨١ فاجده . (٤) قراءة تافع . (٥) من ب .

على خبر كان واسمها مضمرة فيها . - حَاضِرَةٌ - نعت لتجارة ، والتقدير إلا أن تكون التجارة تجارة ، أو إلا أن تكون المايعة تجارة ؛ هكذا قدره مكّي وأبو علي الفارسي ؛ وقد تقدّم نظايره والاستمهاد عليه ، ولما علم الله تعالى مشقة الكتاب عليهم نصّ على ترك ذلك ورفع الجناح فيه في كل مبايعة بنقد ، وذلك في الأغلب إنما هو في قليل كالمطعم ونحوه لاني كثير كالأملاك ونحوها . وقال السدّي والضحاك : هذا فيما كان يدنا بيد .

الثامنة والأربعون - قوله تعالى : ﴿ تَدِيرُونَهَا بِيْنَكُمْ ﴾ يقتضى التقابض والبيعون بالمقبوض . ولما كانت الرّباع والأرض وكثير من الحيوان لا يقبل البيئونة ولا يقاب عليه ، حسن الكتّاب فيها ولحقّت في ذلك مبايعة المّين ؛ فكان الكتّاب توثّقاً لما عسى أن بطراً من اختلاف الأحوال وتغير القلوب . فأما إذا تفاصلا في المعاملة وتقابضا وبأن كل واحد منهما بما ابتاعه من صاحبه ، فيقلّ في المادة خوف التنازع إلا بأسباب غامضة . ونبه الشرع على هذه المصالح في حالي النسبة والقدر وما يقاب عليه وما لا يقاب ، بالكتاب والشهادة والرهن . قال الشافعي : البيوع ثلاثة : بيع بكتاب وشهود ، وبيع برهان ، وبيع بأمانة ؛ وفرا هذه الآية . وكان ابن عمر إذا باع بنقد أشهد ، وإذا باع بنسيئة كتب .

التاسعة والأربعون - قوله تعالى : ﴿ وَأَشْهَدُوا ﴾ قال الطبري : معناه وأشهدوا على صفيير ذلك وكبيره . واختلف الناس هل ذلك على الوجوب أو الندب ؛ فقال أبو موسى الأشعري وابن عمر والضحاك وسعيد بن المسيّب وجابر بن زيد ومجاهد وداود بن علي وابنه أبو بكر : هو على الوجوب ؛ ومن أشدّهم في ذلك عطاء قال : أشهد إذا بعت وإذا اشتريت بدرهم أو نصف درهم أو ثلث درهم أو أقلّ من ذلك ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿ وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ . وعن إبراهيم قال : أشهد إذا بعت وإذا اشتريت ولو دَسْتَجَةً بَقْل . ومن كان يذهب إلى هذا ويرتجحه الطبري ، وقال : لا يحلّ لمسلم إذا باع وإذا اشترى إلا أن يشهد ، وإلا كان مخالفاً لكتاب الله عز وجل ، وكذا إن كان إلى أجل فعليه أن يكتب ويشهد إن

وجد كتابا . وذهب الشعبي والحسن إلى أن ذلك على التنبؤ والإرشاد لا على الحتم .
ويحكى أن هذا قول مالك والشافعي وأصحاب الرأي ، وزعم ابن العربي أن هذا قول الكفاة ،
قال : وهو الصحيح . ولم يحك عن أحد ممن قال بالوجوب إلا الضحاك . قال وقد باع
النبي صلى الله عليه وسلم وكتب . قال : ونسخت كتابه : " بسم الله الرحمن الرحيم . هذا
ما اشترى العلاء بن خالد بن هوزة من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واشترى منه عبدا
— أو أمة — لا داء ولا غائلة ولا خبثة بيع المسلم المسلم " . وقد باع ولم يشهد ، واشترى
ورهن دهره عند يهودي ولم يشهد . ولو كان الإشهاد أمرا واجبا لوجب مع الرهن
نحوق المنازعة .

قلت : قد ذكرنا الوجوب عن غير الضحاك . وحديث العلاء هذا أخرجه الثارقلني
وأبو داود . وكان إسلامه بعد الفتح وخين ، وهو القاتل : قاتلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
يوم خيبر فلم يظهرنا الله ولم ينصرنا ، ثم أسلم لحسن إسلامه . ذكره أبو عمر ، وذكر حديثه
هذا ، وقال في آخره : قال الأصمعي : سألت سعيد بن أبي عروبة عن الغائلة فقال :
الإباق والسرقه والزنا ، وسأته عن الخبثة فقال : بيع أهل عهد المسلمين . وقال الإمام
أبو محمد بن عطية : والوجوب في ذلك قليق ، أنا في الدقائق فصعب شاق ، وأما ما كثر
فربما يقصد التاجر الاستئلاف بترك الإشهاد ، وقد يكون عادة في بعض البلاد ، وقد يستحي
من العالم والرجل الكبير الموقر فلا يشهد عليه ؛ فيدخل ذلك كله في الائتمان ويسبق الأمر
بالإشهاد ندبا ؛ لما فيه من المصلحة في الأغلب ما لم يقع مذرئع منه كما ذكرنا . وحكى
المهلدي والنحاس ومكي عن قوم أنهم قالوا : « وَأَشْهَدُوا إِذَا بَيَّعْتُمْ » منسوخ بقوله :
« فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » . وأسند النحاس عن أبي سعيد الخدري ، وأنه تلا « يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ » إلى قوله « فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ
فَلْيُؤَدِّ الَّذِي آتَىٰهُ أَمَانَتَهُ » ، قال : نسخت هذه الآية ما قبلها . قال النحاس : وهذا قول
الحسن والحكم وعبد الرحمن بن زيد . قال الطبري : وهذا لا معنى له ؛ لأن هذا حكم غير
(١) الفاء : ما دلل فيه من عيب يخفى أو علة بالغة لا ترى . ولذلك من الزاوي كما في الاستنباط . وفيه :
" بيع المسلم المسلم " ، كما في حديث رواه في " بيع المسلم المسلم " . (٢) كما في حديثه وهو حديث
وإن عطية . ولما رواه الثوري .

الأول، وإنما هذا حكم من لم يجد كتابا قال الله عز وجل : « وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كِتَابًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوسَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا - أَى فَم يطلابه برهن - فَيُؤَدِّهِ الَّذِي أَمِنَ أَمَانَتَهُ » . قال : ولو جاز أن يكون هذا ناسخا للأول لجاز أن يكون قوله عز وجل : « وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِنَ الْغَائِطِ ^(١) » الآية ناسخا لقوله عز وجل : « هَرَبًا بِهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جِئْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ » الآية ولجاز أن يكون قوله عز وجل : « قُلْ لِمَ تَتَّخِذُ قِسْيَامًا لِلَّذِينَ آمَنُوا » ناسخا لقوله عز وجل : « فَتَحْرِيرُ رَقِيَّةٍ مُؤْمِنَةٍ » وقال بعض العلماء : إن قوله تعالى « فَإِنَّمَا يَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا » لم يبين تأخر نزوله عن صدر الآية المشتملة على الأمر بالإشهاد، بل وردا معا . ولا يجوز أن يرد النسخ والمنسوخ معا جميعا في حالة واحدة . قال : وقد روی عن ابن عباس أنه قال لما قيل له : إن آية الدين منسوخة قال : لا والله إن آية الدين محكمة ليس فيها نسخ قال : والإشهاد إنما جعل للطمأنينة، وذلك أن الله تعالى جعل لتوثيق الدين طرقا، منها الكتاب، ومنها الزن، ومنها الإشهاد. ولا خلاف بين علماء الأصهار أن الزن مشروغ بطريق التنب لا بطريق الوجوب . فيعلم من ذلك مثله في الإشهاد . وما زال الناس يتابعون حضرا وصغرا وبراً وبجراً وسهلاً وجبلاً من غير إشهاد مع علم الناس بذلك من غير تكبر، ولو وجب الإشهاد ما تركوا التكبر على تاركه .

قلت : هذا كله استدلال حسن، وأحسن منه ما جاء من صريح السنة في ترك الإشهاد . وهو ما أخرجه الدارقطني عن طارق بن عبد الله المخاربي قال : « أقبلنا في ركب من الربدة وجنوب الربدة حتى زرنا قريبا من المدينة ومعا طلعت لنا . فبينما نحن قعود إذ أتانا رجل عليه ثوبان أبيضان فسلم فرددنا عليه ، فقال : من أين [أقبل] القوم ؟ فقلنا : من الربدة وجنوب الربدة . قال : ومعا جل أحمر ؟ فقال : تيموني حملكم هذا ؟ قلنا نعم . قال بك ؟ قلنا : بكنا وكنا صاعا من تمر . قال : فما استوضعا شيئا وقال : قد أخذته ، ثم أخذ برأس الجمل حتى

(١) راجع ج ٥ ص ١٠٤ و ٨٠ و ٣١٤ و ٣٢٧ (٢) الربدة (بالسريك) : من فرى المدينة على ثلاثة أميال قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا وصلت من فيه تريد مكة ؛ وبهذا الموضع قبر أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ، وكان قد نزع إليها مناجيا لئلا ين خان رضي الله عنه فأقام بها إلى أن مات سنة ٣٢ هـ (عن سميم البلدان لأقوت) . (٣) من الدارقطني .

دخل المدينة فتوارى عنا، فلأولنا بيننا وقتنا : أعطيتم جلحكم من لا تعرفونه ! فقالت الطمينة : لا تلاموا فقد رأيت وجه رجل ما كان ليخفيكم ، ما رأيت وجه رجل أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه . فلما كان المشاء^(١) أنانا رجل فقال : السلام عليكم ، أنا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكم ، وإنه أمركم أن تأكلوا من هذا حتى تشبعوا ، وتكأوا حتى تستوفوا . قال : فآكلنا حتى شبعنا ، وآكلنا حتى استوفينا . وذكر الحديث الزهري : من عمارة بن نزيمة أن عمه حدثه وهو من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم ابتاع فرسًا من أعرابي ، الحديث . وفيه : فطَفِقَ الأعرابي يقول : هَلُمَّ شاهدًا يشهد أني بكتك — قاله نزيمة بن ثابت : أنا أشهد أنك قد بعته . فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم على نزيمة فقال : « بم تشهد ؟ » فقال : بتصدقك يا رسول الله . قال : بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادة نزيمة بشهادة رجلين . أخرجه النسائي وغيره .

الموفية خمسين — قوله تسالي : (وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ) فيه ثلاثة أقوال :
الأول — لا يكتب الكاتب ما لم يُعَلَّ عليه ، ولا يزيد الشاهد في شهادته ولا ينقص منها^(٢) .
قاله الحسن وقتادة وطاوس وابن زيد وغيرهم .

وروى عن ابن عباس ومجاهد وعطاء أن المعنى لا يمنع الكاتب أن يكتب ولا الشاهد أن يشهد . « وَلَا يُضَارَّ » على هذين القولين أصله يُضَارُّ بِكسر الراء ، ثم وقع الإدغام . وفصحت الراء في الجزم لخلق الفتحة . قال النحاس : ورأيت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول . قال : لأن بعده « إِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ » فالأولى أن تكون ، من شهد بشير الحق أو حرقه في الكعبة أن يقال له : فاسق ، فهو أولى بهذا من سال شاهدًا أن يشهد وهو مشغول .
وقرأ عمر بن الخطاب وابن عباس وابن أبي إسحاق يُضَارُّ بِكسر الراء الأولى .

وقال مجاهد والضحاك وطاوس والسدي وزوي عن ابن عباس : معنى الآية « وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ » بأن يدعى الشاهد إلى الشهادة والكاتب إلى الكتبة وهما مشغولان ، فإذا اعتذرا بمشغورهما أخرجهما^(٣) وأذاهما ، وقال : خالفنا أمر الله ، ونعو هذا من القول

(١) كما في الدارقطني ، وفي الأصول جيبا : للمنى . (٢) الثاني قول ابن عباس والثالث قوله مجاهد والضحاك . (٣) فيجرب ويوط : تخرج .

فيمضيهما : وأصل « يضار » مل هذا يضارّ بفتح الراء، وكذا قرأ ابن مسعود « يضار » بفتح الراء الأولى؛ فنهى الله سبحانه عن هذا؛ لأنه لو أطلقه لكان فيه شغل لما عن أمر دينهما ومعاشهما . ولفظ المضارة؛ إذ هو من اثنين، يقتضى هذه المعاني . والكاتب والشهيد على القولين الأولين رفع بفعلهما، وعلى القول الثالث رفع على المفعول الذى لم يسم فاعله .

الحادية والخمسون - قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعْلَمُوا ﴾ بنى المضارة، ﴿ فَإِنَّهُ فَسَوْفَ يَكُم ﴾ أى معصية؛ عن سفيان الثوري . فالكاتب والشاهد بمصيان بالزيادة أو النقصان، وذلك من الكتب المؤدى فى الأموال والأبدان، وفيه إبطال الحق، وكذلك إذا بينهما إذا كانا مشغولين بمعصية ونروج عن الصواب من حيث المخالفة لأمر الله . وقوله « يَكُم » تقديره فسوف حال بكم .

الثانية والخمسون - قوله تعالى : ﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا لَكُمْ قُلُوبَ الْغَيْبِ ﴾ وقد يعمل الله من الله تعالى بأن من آفاه علمه، أى يعمل فى قلبه نورا يفهم به ما يلحق إليه؛ وقد يعمل الله فى قلبه ابتداء فرقا، أى فضلا يفصل به بين الحق والباطل؛ ومنعوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا » . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ صَفٍّ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمْنَتَهُ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكُنُوا اْلأَشْهَادَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ فِي النَّارِ ﴾ أى كتم قلبه والله بما تعملون عليم ﴿ ١٢٧ ﴾

فيه أربع وعشرون مسألة :

الأولى - لما ذكر الله تعالى التنب إلى الإتهاد والكتب لمصلحة حفظ الأموال والأبدان، عقب ذلك بذكر حال الأعذار المانعة من الكتب، وجعل لها الرهن، ونص من

(١) راجع ج ٧ ص ٣٩٦ (٢) اعتدنا أربع لما فى « وأرجع عند تمام الحادية والعشرين قوله : تموضعت هنا ثلاث مسائل : أربع وعشرين . (٣) كذا فى الأصول وابن حطية . والأدب : فى الطامات، وعدم ادا الحقوق فسوق من أمر الله . والله : الأبدان، راجع تفسير قوله تعالى : « فسوق بكم » .

أحوال السفر الذي هو غالب الأعداء، لا سيما في ذلك الوقت لكثرة الغزو، ويدخل في ذلك بالمعنى كل عذر. فُرب وقت يتعدّ فيه الكاتب في الحضر كأوقات انشغال الناس وبالليل، وأيضاً فالخوف على خراب ذمة الغريم مذكّرٌ يوجب طلب الرهن. وقد رهن النبي صلى الله عليه وسلم دِرْعَه عند يهودى طلب منه سلف الشعر فقال: إنما يريد عهداً أنه يذهب بمالى. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "كذب إننى لأمين فى الأرض أمين فى السماء ولو اتخنى لأتيت آذنيها إليه بدرعى" فسأت ودِرْعَه مرهونة صلى الله عليه وسلم، على ما يأتى بيانه آنفاً.

الثانية — قال جمهور من العلماء: الرهن فى السفر بنص التبريل، وفى الحضر ثابت بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا صحيح. وقد بينا جوازَه فى الحضر من الآية بالمعنى، إذ قد ترتب الأعداء فى الحضر، ولم يرو عن أحد منه فى الحضر سوى مجاهد والضحاك وداود، متمسكين بالآية، ولا حجة فيها؛ لأن هذا الكلام وإن كان خرج مخرج الشرط فالمراد به غالب الأحوال. وليس كون الرهن فى الآية فى السفر مما يحظر فى غيره. وفى الصحيحين وغيرهما عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترى من يهودى طعاماً إلى أجل ودعته دِرْعَةً له من حديد. وأخرجه النسائى من حديث ابن عباس قال: توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودِرْعَه مرهونة عند يهودى ثلاثين صاعاً من شعر لأهلِه.

الثالثة — قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا كَاتِبًا﴾ قرأ الجمهور «كاتباً» بمعنى رجل يكتبه، وقرأ ابن عباس وأبى وجاهد والضحاك وعكرمة وأبو العالية «لم يجدوا كاتباً». قال أبو بكر الأنبارى: فسره مجاهد فقال: معناه فإن لم يجدوا مبدداً يبنى فى الإسفار. وروى عن ابن عباس «كُتَّاباً». قال الناس: هذه القراءة شاذة والمائة على خلافها، وقدما يخرج شئ عن قراءة السامة إلا وفيه مطمئن، ونسق الكلام على كاتب؛ قال الله عز وجل قبل هذا: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْقَلَمِ﴾ وكُتِّبَ يقتضى جماعة. قال ابن عطية: كُتَّابٌ يحسن من حيث

لكل نازلة كاتب، قيل للبيعة : ولم تجدوا كتابا . وحكى المهدوي عن أبي العباس أنه قرأ « كُتُبًا » وهذا جمع كتاب من حيث النوازل مختلفة . وأما قراءة أبي وابن عباس « كُتَابًا » فقال النحاس ومكي : هو جمع كتاب كقائم وقيام . مكي : المعنى وإن عِدِمَتِ الدواة والقلم والصحيفة . ونفى وجود الكاتب يكون بعدم أى آلة آتَقَق، ونفى الكاتب أيضا يقتضى نفي الكاتب ؛ فالقراءتان حسنتان إلا من جهة خط المصحف .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ فَرَّهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ وقرأ أبو عمرو وابن كثير « فَرُّهْنٌ » بضم الراء والماء، وروى عنهما تخفيف الماء . وقال الطبري : تأول قوم أن « رُهْنًا » بضم الراء والماء جمع رهان، فهو جمع جمع، وحكاة الزجاج عن الفراء . وقال المهدوي : « فرهان » ابتداء والخبر محذوف، والمعنى فرهان مقبوضة يكفى من ذلك . قال النحاس : وقرأ عاصم بن أبي النجود « فَرُّهْنٌ » بإسكان الماء، ويروى عن أهل مكة . والياب في هذا « رِهَانٌ » ؛ كما يقال : بَنَل وِيْثَال، وكَبَش وكَبَش، ورُهْنٌ سِبْلَه أن يكون جمع رهان ؛ مثل كِتَاب وكُتُب . وقيل : هو جمع رَهْن ؛ مثل سَقْف وسُقُف، وْحَاقٍ وُحُق، وفَرَش وفُرُش، ونَشَر ونُشَر، وشبهه . « ورُهْنٌ » بإسكان الماء سِبْلَه أن تكون الضمة حذفت لثقلها . وقيل : هو جمع رهن ؛ مثل سَهْم حَشْرٌ، أى دقيق، وسهام حَشْرٌ . والأول أولى ؛ لأن الأول ليس بنعت وهذا نعت . وقال أبو على الفارسي : وتكثير « رَهْنٌ » على أقل العدد لم أعلمه جاء ، فلو جاء كان قياسه أَفْعَال ككَلَب وأَكْلَب ؛ وكأنهم استغنوا بالقليل عن الكثير، كما استغنى ببناء الكثير عن بناء القليل في قولهم : ثلاثة شُوع ، وقد استغنى ببناء القليل عن الكثير في رَسَن وأرْسَان ؛ فَرُهْنٌ يجمع على بنائين وهما فُعْل وفِعَال . الأَخْفَش : فُعْل على فُعْل قبيح وهو قليل شاذ ، قال : وقد يكون « رُهْنٌ » جمعا للرهان، كأنه يجمع رَهْن على رِهَان ، ثم يجمع رِهَان على رُهْن ؛ مثل فِرَاش وفُرُش .

(١) في : - نمر ونمر به فراء نافع « شُرَايِب يدي رحه » أو بشر وبشر : لأن السين فيه منقوطة .
ون : أ : نمر بالثين ومهله ، ون : ه : بهرا بإيلاء . والله أعلم .

الخامسة - معنى الرهن : احتباس العين وثيقة بالحق ليستوثق الحق من غش أو من
 ثمن منافها عند تغذر أخذها من الغريم ؛ هكذا حقه العلماء ، وهو في كلام العرب بمعنى النوام
 والاستمرار . وقال ابن سيده : ورهنته أى أدانته ؛ ومن رهن بمعنى دام قول الشاعر :
 الخبز والنقم لم رهن * وقهوة رأو وقتها ما كب

قال الجوهري : ورهن الشيء رهنا أى دام . وأرهنت لهم الطعام والشراب أدنته لهم ،
 وهو طعام رهن . والزمان : النابت ، والزمان : المهزول من الإبل والناس ؛ قال :
 إنا ترى جسمي خلا قد رهن * هزلا وما تجد الرجال في السمن

قال ابن عطية : ويقال في معنى الرهن الذى هو الوثيقة من الرهن : أرهنت إرهانا ؛
 حكاه بعضهم . وقال أبو علي : أرهنت في المخلالة ، وأما في القرض والبيع فرهنت . وقال
 أبو زيد : أرهنت في السلمة إرهانا ؛ غاليت بها ؛ وهو في الفلاء خاصة . قال :
 غيلية أرهنت فيها الدنانير *

يصف ناقة . والبيد بطن من مهرة وإبل مهرة موصوفة بالنجابة . وقال الزجاج : يقال
 في الرهن : رهنت وأرهنت ؛ وقاله ابن الأعرابي والأخفش . قال عبد الله بن همام السلولي :
 فلما خيبت أظافيرهم * نجوت وأرهنتهم مالكا

قال ثعلب : الرواة كلهم على أرهنتهم ، على أنه يجوز رهنته وأرهنته ، إلا الأصمعي فإنه رواه
 وأرهنتهم ، على أنه عطف بفعل مستقبل على فعل ماض ، وشبهه بقولهم : قت وأصك وجهه ،
 وهو مذهب حسن ؛ لأن الواو واو الحال ؛ فجعل أصك حالا للفعل الأول على معنى قت صاكا
 وجهه ، أى تركته مقيا عندهم ؛ لأنه لا يقال : أرهنت الشيء ، وإنما يقال : رهنته . ونقول :
 رهنت لسانى بكنا ، ولا يقال فيه : أرهنت . وقال ابن السكيت : أرهنت فيها بمعنى أسلفت .
 والمرتب : الذى يأخذ الزمن . والشيء مرهون ورهين ، والأشئ رهينة . وأرهنت فلانا على
 كذا رهانة : خاطرته . وأرهنت به ولدى إرهانا : أخطرتهم به خطرا . والرهينة واحدة

(١) مرهونة بن حيدان أبو قيلة وم بن عليم . وعذرايت : * يعزى ابن سبي بن مالك بها . *

الراهن؛ كله من الجوهري. إن عطية: ويقال بلا خلاف في البيع والقرض: رهنٌ ورهناً، ثم سمي بهذا المصدر الثاني المدفوع تقول: رهنته رهناً؛ كما تقول رهنته نوباً.

السادسة - قال أبو علي: ولما كان الرهن بمعنى الثبوت، والدوام فمن ثم بطل الرهن عند الفقهاء إذا خرج من يد المرتين إلى الراهن بوجه من الوجوه؛ لأنه فارق ما جعل [باختيار المرتين^(١)] له.

قلت - هذا هو المعتمد عندنا في أن الرهن متى رجع إلى الراهن باختيار المرتين بطل الرهن؛ وقاله أبو حنيفة، غير أنه قال: إن رجع بمارية أو ودعية لم يبطل. وقال الشافعي: إن رجوعه إلى يد الراهن مطلقاً لا يبطل حكم القبض المتقدم؛ ودليلنا «قِرْهَانٌ مَقْبُوضَةٌ»، فإذا خرج عن يد القابض لم يصدق ذلك اللفظ عليه لغةً، فلا يصدق عليه حكماً، وهذا واضح. السابعة - إذا رهنه قولاً ولم يقبضه فعلاً لم يوجب ذلك حكماً؛ لقوله تعالى: «قِرْهَانٌ مَقْبُوضَةٌ». قال الشافعي: لم يجعل الله الحكم إلا برهن موصوف بالقبض، فإذا عُدست الصفة وجب أن يعدم الحكم، وهذا ظاهر جيد. وقالت المالكية: يلزم الرهن بالعقد ويجب الرهن على دفع الرهن ليحوزه المرتين؛ لقوله تعالى: «أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» وهذا عقد، وقوله «بِالْعَهْدِ» وهذا عهد. وقوله عليه السلام: «المؤمنون عند شروطهم» وهذا شرط، فالقبض عند شرط في كمال فائدته. وعندهما شرط في لزومه ومجتهه.

الثامنة - قوله تعالى: «مَقْبُوضَةٌ» يقتضي بينونة المرتين بالرهن. وأجمع الناس على صحة قبض المرتين، وكذلك على قبض وكيله. واختلفوا في قبض عدل يوضع الرهن على يديه؛ فقال مالك وجميع أصحابه وجمهور العلماء: قبض العدل قبض. وقال ابن أبي ليلى وقنادة والحكم وعطاء: ليس قبض، ولا يكون مقبوضاً إلا إذا كان عند المرتين، وراوا ذلك تعدياً. وقول الجمهور أصح من جهة المعنى؛ لأنه إذا صار عند العدل صار مقبوضاً لغةً وحقيقةً؛ لأن العدل نائب عن صاحب الحق وبمثلة الوكيل؛ وهذا ظاهر.

التاسعة - ولو وضع الرهن على يدي عدل فضاء لم يضمن المرتين ولا الموضوع على يده؛ لأن المرتين لم يكن في يده شيء يضمنه. والموضوع على يده أمين والأمين غير ضامن؛ (١) الزيادة في ج. (٢) راجع ج ١ ص ٢١٠ (٣) راجع ج ١ ص ٢٩٦ (٤) كان في يد غير ط؛ يده.

العاشرة — لما قال تعالى : «مقبوضة» قال علمائنا : فيه ما يقتضى بظاهره ومطلقه جواز رهن المشاع ^(١) . خلافا لأبي حنيفة وأصحابه ، لا يجوز عندهم أن يرهنه ثلث دار ولا نصفها من عبء ولا سيف ، ثم قالوا : إذا كانت لرجلين على رجل مال هما فيه شريكان فلهما بذلك أرضا فهو جائز إذا قبضها . قال ابن المنذر : وهذا إجازة رهن المشاع ؛ لأنه كل واحد منهما مرتهن نصف دار . قال ابن المنذر : رهن المشاع جائز كما يجوز بيعه .

الحادية عشرة — ورهن مافي الثقة جائز عند علمائنا ؛ لأنه مقبوض خلافا لمن منع ذلك ؛ ومثاله رجلان تاملأ لأحدهما على الآخر دين فرهنه دينه الذي عليه . قال ابن خزيمة : مندك : وكل عرض جاز بيعه جاز رهنه ، ولهذا الملة جوزنا رهن ما في الثقة ؛ لأن بيعه جائز ، ولأنه مال تقع الوثيقة به بخلاف أن يكون رهنا ، قياسا على سلع مشروعة . وقال من منع ذلك : لأنه لا يتحقق إقباضه والقبض شرط في لزوم الرهن ؛ لأنه لا بد أن يستوفى الحق منه عند المحل ؛ ويكون الاستيفاء من ماله لا من عينه ولا يتصور ذلك في الدين .

الثانية عشرة — روى البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : “ الظهري ركب بنفقته إذا كان مرهونا وابن التمر يشرب بنفقته إذا كان مرهونا ” . قال ابن المنذر : “ يشرب ” في الموضعين : “ يحلب ” . قال الخطابي : هذا كلام مبهم ليس في نفس اللفظ بيان من يركب ويحلب ، هل الزاهن أو المرتين أو العدل الموضوع على يده الرهن ؟ .

قلت : قد جاء ذلك مبينا مقسرا في حديثين ، وبسببهما اختلف العلماء في ذلك ؛ فروى الدارقطني عن حديث أبي هريرة ذكر النبي صلى الله عليه وسلم قال : “ إذا كانت القاذية مرهونة فعلى المرتين علقها وابن التمر يشرب وعلى الذي يشرب نفقته ” . أخرجه عن أحمد ابن علي بن العلام حدثنا زياد بن أيوب حدثنا هشام حدثنا زكريا عن الشعبي عن أبي هريرة . وهو قول أحمد وإسحاق : أن المرتين يتنفع من الرهن بالحلب والركوب بقدر النفقة . وقال أبو ثور : إذا كان الزاهن يتنفع عليه لم يتنفع به المرتين . وإن كان الزاهن لا يتنفع عليه وتركه

(١) في ٥ : الخاف . (٢) كذا في الأصول ، ينبغي : نصف أرض .

قيد المرتين فاتفق عليه فله ركوبه واستندام العبد . وقاله الأوزاعي والليث . الحديث الثاني ترجمه الدارقطني أيضا ، وفي إسناده مقال ويأتي بيانه - من حديث إسماعيل بن عياش عن ابن أبي ذئب عن الزهري عن المقبري^(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يفتق الرهن^(٢) لصاحبه غنمه وعليه غرمه " . وهو قول الشافعي والشافعي وابن سيرين ، وهو قول مالك وأصحابه . قال الشافعي : منفعة الرهن للراهن ، ونفعته عليه ، والمرتين لا ينفع بشيء من الرهن خلا الإحفاظ للوثيقة . قال الخطابي : وهو أولى الأقوال وأصحها ، بدليل قوله عليه السلام : " لا يفتق الرهن من صاحبه الذي رهنته [له غنمه وعليه غرمه] " ^(٣) . [قال الخطابي : وقوله : " من صاحبه أي لصاحبه " ^(٤)] . والعرب تضع « من » موضع اللام ، كقولهم :

• إِنْ أُمُّ لَوْقٍ دَسَتْ لَمْ تُكَلِّمْ •

قلت : قد جاء صريحاً " لصاحبه " فلا حاجة للتأويل . وقال الطحاوي : كان ذلك وقت كون الربا مباحاً ، ولم ينه عن قرض جر منفعة ، ولا عن أخذ الشيء بالشيء وإن كانا غير متساويين ، ثم حرم الربا بعد ذلك . وقد أجمعت الأمة على أن الأمة المرهونة لا يجوز للراهن أن يطلها ، فكذلك لا يجوز له خدمتها . وقد قال الشعبي : لا ينفع من الرهن شيء . فهذا الشعبي روى الحديث وأتى بخلافه ، ولا يجوز عنده ذلك إلا وهو منسوخ . وقال ابن عبد البر وقد أجمعوا أن ابن الرهن وظهروه للراهن . ولا يغفلون أن يكون احتلاب المرتين له بإذن الراهن أو بغير إذنه ، فإن كان بغير إذنه فحق حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يجتنب أحد ماشية أحد إلا بإذنه " ما يردّه ويقضى بنسخه . وإن كان بإذنه ففي الأصول المجتمع عليها في تحريم المجهول والفرق وبيع ما ليس عندك وبيع ما لم يخلق ، ما يردّه أيضا ، فإن ذلك كان قبل نزول تحريم الربا . والله أعلم .

- (١) كذا في كل الأصول ، والصواب كما في الدارقطني : عن الزهري عن سعيد بن المسيب . وسأني قريباً .
(٢) غنى الرهن : من فعل الخاطبة أن الزمان إذا لم يؤد ما عليه في الوقت معين ملك المرتين الرهن فأبطله الإسلام . (عن التباة) . (٣) الزيادة من بدو حووط . هذه رواية غير المتقدمة الدارقطني .
(٤) في بدو حووط : الرهن .

وقال ابن خوزيمنداد : ولو شرط المرتين الانتفاع بالرهن فلذلك حالتان : إن كان من قرض لم يجوز ، وإن كان من بيع أو إجارة جاز ؛ لأنه يصير بائعا للسلعة بائنين المذكور ومنافع الرهن مدة معلومة فكأنه بيع وإجارة ، وأما في القرض فلا يصير قرضا جزئيا متفعلا ؛ ولأن موضوع القرض أن يكون قربة ، فإذا دخله نفع صار زيادة في الجنس وذلك ربا .

الثالثة عشرة — لا يجوز خلق الرهن ، وهو أن يشترط المرتين أنه له بمقه إن لم يأت به عند أجله . وكان هذا من فعل الجاهلية فأبطله النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : " لا يخلق الرهن " هكذا قيده برفع القاف على الجهر ، أى ليس يخلق الرهن . تقول : أغلقت الباب فهو مغلق . وخلق الرهن في يد مرتبه إذا لم يملك ؛ قال الشاعر :

أجارتنا من يجمع يتفرق • ومن يك رهنا للوالت يفتق

وقال زهير :

وفارقتك برهن لا فكك له • يوم الوداع فأسمى الرهن قد فلقا

الرابعة عشرة — روى الدارقطني من حديث سفيان بن عيينة عن زياد بن سعد عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يخلق الرهن له غنمه وعليه غرمه " . زياد بن سعد أحد الحفاظ الثقات ، وهذا إسناد حسن . وأخرجه مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب مرسل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يخلق الرهن " . قال أبو عمر : وهكذا رواه كل من روى للموطأ عن مالك فيما علمت ؛ إلا معن بن عيسى فإنه وصله ، ومعن ثقة ؛ إلا أني أخشى أن يكون الخطأ فيه من علي بن عبد الحميد الفضايري عن مجاهد بن موسى عن معن بن عيسى . وزاد فيه أبو عبد الله عمرو بن عثمان عن الأزهري بإسناده : " له غنمه وعليه غرمه " . وهذه اللفظة قد اختلف الرواة في ردها ؛ فرحمها ابن أبي ذئب ومعمر وغيرهما . ورواه ابن وهب وقال : قال يونس قال ابن شهاب : وكان سعيد بن المسيب يقول : الرهن ممن رهنه ، له غنمه وعليه غرمه ؛ فأخبر ابن شهاب أن هذا من قول سعيد لا عن النبي صلى الله عليه وسلم . إلا أن معمر ذكره عن

(١) في ٥ : تأيا . (٢) في ٦ : « ومنافع المرحون مطروحة » . (٣) في ٧ : يملك .

(٤) في ٨ : ابن عمرو والصحيح سي التمهيد .

ابن شهاب مرفوعاً، ومَعَّرُ أُمِّتِ النَّاسِ فِي ابْنِ شَهَابٍ . وَتَابِعَهُ عَلَى رَفْعِهِ يَحْيَى بْنُ أَبِي أَنَسٍ
وَيَحْيَى لَيْسَ بِالْقَوِيِّ . وَأَصْلُ هَذَا الْحَدِيثِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالنَّقْلِ مُرْسَلٌ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ وَصَلَ
مِنْ جِهَاتٍ كَثِيرَةٍ فَلَمْ يَسْمَعْ يَلْوُئُهَا . وَهُوَ مَعَ هَذَا حَدِيثٌ لَا يَرْفَعُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَإِنْ اخْتَلَفُوا
فِي تَأْوِيلِهِ وَمَعْنَاهُ . وَرَوَاهُ الدَّارِقُطِيُّ أَيْضاً عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عِيَّاشٍ عَنْ ابْنِ أَبِي ذُئْبٍ عَنْ
الزَّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعاً ، قَالَ أَبُو عَمْرٍو : لَمْ يَسْمَعْهُ إِسْمَاعِيلُ مِنْ ابْنِ أَبِي ذُئْبٍ
وَإِنَّمَا سَمِعَهُ مِنْ عَبَّادِ بْنِ كَثِيرٍ عَنْ ابْنِ أَبِي ذُئْبٍ ، وَعَبَّادٌ عَنْهُمْ ضَعِيفٌ لَا يُتَّبَعُ بِهِ . وَإِسْمَاعِيلُ
عَنْهُمْ أَيْضاً غَيْرُ مَقْبُولٍ الْحَدِيثُ إِذَا حَدَّثَ عَنْ غَيْرِ أَهْلِ بَلَدِهِ ؛ فَإِذَا حَدَّثَ عَنِ الشَّامِيِّينَ فَخْدِيثُهُ
مُسْتَقِيمٌ ، وَإِذَا حَدَّثَ عَنِ الْمَدَنِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ فَفِي حَدِيثِهِ خَطَأٌ كَثِيرٌ وَاضْطِرَابٌ .

الخامسة عشرة — ثَمَاءُ الرِّهْنِ دَاخِلٌ مَعَهُ إِنْ كَانَ لَا يَتِمُّزُ كَالسَّعْنِ ، أَوْ كَانَ نَسْلاً كَالْوَلَادَةِ
وَالنَّاجِ ؛ وَفِي مَعْنَاهُ قَسِيلُ النَّخْلِ ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ غَلَّةٍ وَثَمَرَةٍ وَلَبَنٍ وَصُوفٍ فَلَا يَدْخُلُ فِيهِ
إِلَّا أَنْ يَشْتَرِطَ . وَالتَّفَرُّقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْأَوْلَادَ تَبِعَ فِي الزَّكَاةِ لِلْأُمَهَاتِ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْأَصْوَافُ
وَالْأَنْبَاءُ وَثَمَرُ الْأَشْجَارِ ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ تَبْعاً لِلْأُمَهَاتِ فِي الزَّكَاةِ وَلَا هِيَ فِي صُورِهَا وَلَا فِي مَعْنَاهَا
وَلَا تَقُومُ مَعَهَا ، فَلَهَا حُكْمُ نَفْسِهَا لِاحْتِكَامِ الْأَصْلِ خِلَافَ الْوَلَدِ وَالنَّاجِ . وَاقَّةٌ أَعْلَمُ بِصَوَابِ ذَلِكَ .
السادسة عشرة — وَرَهْنٌ مَنْ أَحَاطَ الدِّينَ بِمَالِهِ جَائِزٌ لَمْ يُفْلَسْ ، وَيَكُونُ الْمَرْتَيْنِ أَحَقُّ
بِالرَّهْنِ مِنَ الْفِرَاءِ ؛ قَالَهُ مَالِكٌ وَجَمَاعَةٌ مِنَ النَّاسِ . وَرَوَى عَنْ مَالِكٍ خِلَافَ هَذَا — وَقَالَهُ
عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ — أَنَّ الْفِرَاءَ يَدْخُلُونَ مَعَهُ فِي ذَلِكَ وَلَيْسَ بِشَيْءٍ ؛ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يُجْبَرْ
عَلَيْهِ فَتَصْرِفَاتُهُ صَحِيحَةٌ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ مِنْ بَيْعٍ وَشُرَاءٍ ، وَالْفِرَاءُ عَامِلُوهُ عَلَى أَنَّهُ يَبِيعُ وَيَشْتَرِي
وَيَقِضِي ، لَمْ يَخْتَلَفْ قَوْلُ مَالِكٍ فِي هَذَا الْبَابِ ، فَكَذَلِكَ الرِّهْنُ . وَاقَّةٌ أَعْلَمُ .

السابعة عشرة — قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ الْآيَةُ . شَرَطُ رُبُّهُ بِهِ وَصِيَّةَ
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ بِالْأَدَاءِ وَتَرْكِ الْمَطْلِ . يَعْنِي إِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ أَمِينًا عِنْدَ صَاحِبِ الْحَقِّ
وَنِعْمَةً فَلْيُؤَدِّ لَهُ مَا عَلَيْهِ أَوْ تَمَنَّى . وَقَوْلُهُ ﴿ فَلْيُؤَدِّ ﴾ مِنَ الْأَدَاءِ مَهْمُوزٌ ، [وَهُوَ جَوَابُ الشَّرْطِ] وَيَجُوزُ
تَخْفِيفُ هَمْزِهِ فَتَقْلِبُ الْمَهْمُوزَ وَآوَا وَلَا تَقْلِبُ الْقَا وَلَا تَجْعَلُ بَيْنَ يَتَيْنِ ؛ لِأَنَّ الْأَنْفُسَ لَا يَكُونُ

ما قبلها إلا مفتوحا . وهو أمر معناه الوجوب ، بقرينة الإجماع على وجوب أداء المذبحين ، وثبوت حكم الحاكم به وجبه الغرماء عليه ، وقرينة الأحاديث الصّحاح في تحريم مال الغير .
الثامنة عشرة — قوله تعالى : (**أَمَّا نَسَتْ**) الأمانة مصدر سمى به الشيء الذي في الذاكرة ، وأضافها إلى الذي عليه الدين من حيث لها إليه نسبة ، كما قال تعالى : **وَلَا تَقْرَأُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ** .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : (**وَلَيَقْبِ ظَهْرُ اللَّهِ رَبَّهُ**) أى في ألا يكتم من الحق شيئا . وقوله : (**وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ**) تفسير لقوله : **وَلَا يُضَارِرُ** بكسر العين . نهى الشاهد عن أن يضر بكتابه الشهادة ، وهو نهى على الوجوب بعدة قرائن منها الوعيد . وموضع النهى هو حيث يخاف الشاهد ضياع حق . وقال ابن عباس : على الشاهد أن يشهد حيثما استشهد ، ويخبر حيثما استخبر ، قال : ولا تقل أخبر بها عند الأمير بل أخبر بها لعله يرجع ويرعى . وقرأ أبو عبد الرحمن **وَلَا يَكْتُمُوا** بالياء ، جعله نيا للغائب .

المؤوية عشرين — إذا كان على الحق شهود تمين عليهم أدائها على الكفاية ، فإن أذاها اثنان وأجتر الحاكم بهما سقط الفرض عن الباقيين ، وإن لم يمترا بها تمين المثنى إليه حتى يقع الإثبات . وهذا يعلم بدعاء صاحبها ، فإذا قال له : أحسنى حتى ياداه ما عندك لى من الشهادة تمين ذلك عليه .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : (**وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتَمٌ قَلْبُهُ**) خص القلب بالذكر إذ الكتم من أفعاله ، وإذ هو المضغطة التي يصلحها يصلح الجسد كله كما قال عليه السلام : **فُضِرَ بِالْبَعْضِ مِنَ الْجُمْلَةِ** ، وقد تقدم . [في أول السورة ^(١٢)] وقال النجاشي : لما هزم على ألا يؤدبها وترك أدامها باللسان رجع المأثم إلى الوجهين جميعا . فقوله : **وَأَتَمُّ قَلْبُهُ** مجاز ، وهو أكد من الحقيقة في الدلالة على الوعيد ، وهو من بدع البيان ولطيف الإعراب عن المعاني . يقال : **آَتَمَّ** القلب سبب مسخه ، والله تعالى إذا مسخ قلبا جعله منافقا وطبع عليه ، **نَوَدَّ بِاللَّهِ مِنْهُ** [وقد تقدم في أول السورة ^(١٣)] . **وَقَلْبُهُ** رفع بـ **وَأَتَمَّ** و **وَأَتَمَّ** خبر .
(١) راجع ج ٥ ص ٤٧ (٢) الزيادة بن يوط . راجع ج ١ ص ٩٨٨ (٣) من ٥

« إِنَّهُ » ، وإن شئت رفعت آئماً بالابتداء ، و « قلبه » فاعل يستد مسد الخبر والجملة خبر إن .
 وإن شئت رفعت آئماً على أنه خبر الابتداء تنوي به التأخير . وإن شئت كان « قلبه » بدلا
 من « آئمه » بدل البعض من الكل . وإن شئت كان بدلا من المضمير الذي في « آئمه » .
 وتعرضت هنا ثلاث مسائل تيممة أربع وعشرين *

الاولى - أعلم أن الذي أمر الله تعالى به من الشهادة والكتابة لمراعاة صلاح ذات البين
 وتوقي التنازع المؤدى إلى فساد ذات البين ؛ لتلايسول له الشيطان بجمود الحق وتجاوز ماحدله
 للشرع ، أو ترك الاختصار على المقدار المستحق ؛ ولأجله حرم الشرع البياعات المجهولة التي
 امتناعها يؤدي إلى الاختلاف وفساد ذات البين وإفراق التضامن والتباين . فمن ذلك ما حرمه
 الله من الخمر والغير وشرب الخمر بقوله تعالى : « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ
 وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ » الآية . فمن تأذّب بأدب الله في أوامره وزواجره حاز صلاح
 الدنيا والدين ؛ قال الله تعالى : « وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ لَكُنَّا خَيْرًا لَّهُمْ » الآية .

الثانية - روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من
 أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله » . وروى
 النسائي عن ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها استدانت ، فقيل : يا أم المؤمنين ،
 تستدتين وليس عندك وفاء ؟ قالت : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
 « من أخذ ديناً وهو يريد أن يؤديه أعانه الله عليه » . وروى الطحاوي وأبو جعفر الطبري
 والحاثر بن أبي أسامة في مسنده عن عتبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
 « لا تخيفوا أنفسكم بعد أمئتها » قالوا : يا رسول الله ، وما ذاك ؟ قال : « الذين » .
 وروى البخاري عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء ذكره : « اللهم أني أعوذ بك
 من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وغلّة الزمان » . قال العلماء :
 صلّى الدين هو الذي لا يجد دأبته من حيث يؤديه . وهو مأخوذ من قول العرب : حمل مضطجع
 أي تقيل ، وبداية مضطجع لا تقوى على الحمل ؛ قاله صاحب العين . وقال صلى الله عليه وسلم :

«الَّذِينَ شَرِبُوا الدِّينَ» . وروى عنه أنه قال : «الَّذِينَ هُم بِاللَّيْلِ وَمِثْلَهُ بِالنَّهَارِ» . قَالَ
 مَالِئُونًا : وَإِنَّمَا كَانَ شَيْئًا وَمِثْلَهُ لِمَا فِيهِ مِنْ شغلِ الْقَلْبِ وَالْبَالِ وَالْهَمِّ وَاللَّامِ فِي قَضَائِهِ ، وَالتَّنْزِلِ
 لِلْغَرَمِ عِنْدَ لِقَائِهِ ، وَتَحْمِلِ مِثْلِهِ بِالتَّأْخِيرِ إِلَى حِينَ إِرَائِهِ . وَرَبَّمَا يَعِدُ مِنْ خَسِّهِ الْفَضْلُ فَيُخْلِفُ ،
 أَوْ يَحْدِثُ الْغَرَمَ بِسَبَبِهِ فَيَكْذِبُ ، أَوْ يَحْلِفُ لَهُ فَيَحْنُثُ ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَوْلِدًا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
 يَتَعَوَّذُ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَقْرَمِ ، وَهُوَ الدِّينُ . فَقِيلَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا لَكَ أَكْثَرَ مَا تَعَوَّذُ مِنَ الْغَرَمِ ؟
 فَقَالَ : «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَقَّتْ فَيَكْذِبُ وَوَعْدُهُ فَاخْلَفُ» . وَأَيْضًا فَرَبَّمَا قَدَمَاتٍ وَلَمْ
 يَقْضِ الدِّينَ فَيَرْتَهِنَ بِهِ ؛ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «قَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ مَرْتَهِنَةٌ فِي قَبْرِهِ يَدِينُهُ حَتَّى يُقْضَى
 عَنْهُ» . وَكُلُّ هَذِهِ الْأَسْبَابِ مَشَائِخُ فِي الدِّينِ تَنْهَبُ بِحِمَالِهِ وَتَقْصُصُ كَيْلَهُ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الثالثة — لما أمر الله تعالى بالكتب والإشهاد وأخذ الزمان كان ذلك نصًّا فاطمًا
 على مراعاة حفظ الأموال وتبتيها ، وردا على الجملته المتصوفة وروماها الذين لا يرون ذلك ،
 فيخرجون من جميع أموالهم ولا يتركون كفاية لأنفسهم وعيالهم ؛ ثم إذا احتاج وانقرع عياله
 فهو إما أن يتعرض لثمن الإخوان أو لصداقاتهم ، أو أن يأخذ من أرباب الدنيا وظلمتهم ،
 وهذا الفعل مذموم منبئ عنه . قَالَ أَبُو الْفَرَجِ الْجَوْزِيُّ : وَلَيْسَتْ أُعْجِبُ مِنْ الْمُتَرَدِّينَ
 الَّذِينَ فَعَلُوا هَذَا مَعَ قِلَّةِ عَالِمِهِمْ ، إِنَّمَا أُعْجِبُ مِنْ أَقْوَامٍ لَمْ يَلِمُوا وَعَقَلُوا كَيْفَ حَقُّوا عَلَى هَذَا
 وَأَسْرَوْا بِهِ مَعَ مُضَادَّتِهِ لِلشَّرْعِ وَالْعَقْلِ . فَذَكَرَ الْحَاسِبِيُّ فِي هَذَا كَلَامًا كَثِيرًا ، وَشَيْدَهُ أَبُو حَامِدٍ
 الطُّوسِيُّ وَنَصَرَهُ . وَالْحَارِثُ عِنْدِي أَمْلَزُ مِنْ أَبِي حَامِدٍ ؛ لِأَنَّهُ أَبَا حَامِدٍ كَانَ أَقْنَعَهُ ، غَيْرَ أَنَّ دَخُولَهُ
 فِي التَّصَوُّفِ أَوْجَبَ عَلَيْهِ نَصْرَةَ مَا دَخَلَ فِيهِ . قَالَ الْحَاسِبِيُّ فِي كَلَامٍ طَوِيلٍ لَهُ : وَلَقَدْ بَلَغَنِي
 أَنَّهُ لَمَّا تَوَفَّى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ قَالَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
 إِنَّمَا نَخَافُ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَيَا تَرَكْ . فَقَالَ كَتَبْتُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! وَمَا تَخَافُونَ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ ؟
 كَسَبَ طَيِّبًا وَاتَّقَى طَيِّبًا وَتَرَكَ طَيِّبًا . فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا ذَرٍّ فَخَرَجَ مُغَضَّبًا يَرِيدُ كَيْبًا ، فَزِلَّ بِطَعْنِ بَعْضِ
 فَأَخَذَهُ بِيَدِهِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ يَطْلُبُ كَيْبًا ؛ فَقِيلَ لَكَيْبُ : إِنْ أَبَا ذَرٍّ يَطْلُبُكَ . فَخَرَجَ هَارِبًا حَتَّى

(١) هو أبو ميمونة الخزاز بن أسد الأزد الحاسبي ، وسمى الحاسبي لكثرة محابته لفرقه . (من أنساب السامانيين) .
 (٢) أراد كَيْبَ الْأَسْبَارِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ لَهُ : يَا بَنِي الْيَهُودِ ، وَهَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ عَلَى مَا يَأْتِي فِي ص ١٥٨ ؛ وَمِمَّا تَحْكُمُ
 بِهِ بِشَرِّهِ الْمَلَاةُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ . > (٣) الْحَيُّ : هُوَ الْحَكْمُ وَهُوَ الْقَوِيُّ عَلَيْهِ الْأَشْيَاءُ .

دخل على عثمان يستثني به وأخبره الخبر . فأقبل أبو ذر يقص الأثر في طلب كتب حتى أتته
إلى دار عثمان ، فلما دخل قام كعب بن جالس خلف عثمان هارياً من أبي ذر ، فقال له أبو ذر :
يا ابن اليهودية ، ترمي أبا س بما تركه عبد الرحمن ! لقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم
يوماً فقال : " ألا كثرون هم الأفلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا " ^(١) . قال الحارثي : فهذا
عبد الرحمن مع فضله يوقف في عرصة [يوم] القيامة بسبب ما كسبه من حلال ؛ للتعفف وصنائع
المعروف فيمنع السعي إلى الجنة مع الفقراء وصار يحبو في آثامهم حبواً ، إلى غير ذلك من
كلامه . ذكره أبو حامد وشيخه وقواه بحديث ثعلبة ، وأنه أعطى المال فنع الزكاة . قال
أبو حامد : فمن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم لم يشك في أن فقد المال أفضل
من وجوده ، وإن صرف إلى الخيرات ؛ إذ أقل ما فيه اشتغال الميتة بإصلاحه عن ذكر الله .
فيلبثي الوليد أن يخرج عن ماله حتى لا يبقى له إلا قدر ضرورته ، فما بقي له درهم يلتفت إليه
قلبه فهو محبوب عن الله تعالى . قال الجوزي : وهذا كله خلاف الشرع والعقل ، وسوء فهم
المراء بالمال ، وقد شرفه الله وعظم قدره وأمر بحفظه ، إذ جعله قواماً للآدمي وما جعل قواماً
للآدمي الشريف فهو شريف ؛ فقال تعالى : « وَلَا تَوْنُوا السَّعْيَاءُ أَمْوَالِكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ
قِيَاماً » ^(٢) . ونهى جل وعز أن يسلم المال إلى غير رشيد فقال : « فَإِنْ آتَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَأَدْعُوا
أَلْيَهُمُ أَمْوَالَهُمْ » . ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال ، قال لسعد : " إنك أن تذر
ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس " . وقال : " ما تعنى مال كمال أبي بكر " .
وقال لعمرو بن العاص : " نعيم المال الصالح للرجل الصالح " . ودعا لانس ، وكان في آخر
دعائه : " اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه " . وقال كعب ^(٣) : يا رسول الله ، إن من
توبخ أن أنخل من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله . فقال : " أميك عليك بعض مالك
فهو خير لك " . قال الجوزي : هذه الأحاديث مخزجة في الصحاح ، وهي على خلاف

(١) أى إلا من صرف المال على الناس في وجوه البر والصدقة . قال ابن الأثير : « العرب يجعل القول عبارة
من جميع الأفعال وتلقاه على الكلام والجسان ؛ فنقول : قال بيده أى أخذ ، وقال برأيه أى مشى ، وقال بنحوه
أى رفضه . وكل فذك على المجاز والانشاع » . (٢) من به - (٣) فى به : كلامهم - (٤) راجع به : ص ٢٧
(٥) هو ابن مالك أحد الثلاثة الذين خفلوا راجع به ٨ ص ٢٨٦ . فيه : إن من توبة الله على الخ .

ما اعتقده للتصوفة من أن إكثار المال حجاب ومقوبة، وأن حبه ينافي التوكل، ولا ينكر أنه يخاف من فقته، وأن خلقاً كثيراً اجتنبوه لخوف ذلك، وأن جمعه من وجهه ليز^(١)، وأن سلامة القلب من الافتان به تكل، واشتغال القلب مع وجوده بذكر الآخرة يسخر؛ فلهاذا خيف فقته. فاما كسب المال فإن من اقتصر على كسب البُلغة من حلها فذلك أمر لا بد منه، وأما من قصد جمعه والاستكثار منه من الحلال فيظر في مقصوده؛ فإن قصد نفس المفارقة والمباهاة فيفس المفسود، وإن قصد إعفاف نفسه وعائلته، وأخر لحوائث زمانه وزمانهم، وقصد التوسعة على الإخوان وإغناء الفقراء وفعل المصالح أتيب حل قصده، وكان جمعه بهذه النية أفضل من كثير من الطاعات. وقد كانت نيات خلق كثير من الصحابة في جمع المال سليمة لحسن مقاصدهم بجمعه؛ فحرصوا عليه وسألوا زيادته. ولما أقطع النبي صلى الله عليه وسلم الزبير حضر فرسه أجرى الفرس حتى قام ثم رى سوطه، فقال: "أعطوه حيث بلغ سوطه". وكان سعد بن عباد يقول في دعائه: اللهم وسع علي. وقال إخوة يوسف: «وَرَدَّادُ كُلِّ بَعِيرٍ». وقال شعيب لموسى: «فَإِنْ أَعْمَحْتَ عَشْرًا فَمِنْ عَيْنِكَ». وإن أيوب لما عوفي نُزِّلَ عليه وجل من جراد من ذهب؛ فأخذ يتخي في ثوبه ويستكر منه؛ فقيل له: أما سبعت؟ فقال: يا رب فقير يشبع من فضلك؟ وهذا أمر مَرَكُوزُ الطباع. وأما كلام المحاسبي نطقاً يدل على الجهل بالعلم، وما ذكره من حديث كُتِبَ وأبي ذر فعال، من وضع الجهال وخفيت عدم محنته عنه لثبوته بالقوم. وقد روى بعض هذا وإن كان طريقه لا يثبت؛ لأن في سنده ابن لميعة وهو مطعون فيه. قال يحيى: لا يحتج بحديثه. والصحيح في التاريخ أن أبا ذر توفي سنة خمس وعشرين، وعبد الرحمن بن عوف توفي سنة اثنين وثلاثين، فقد عاش بعد أبي ذر سبع سنين. ثم لفظ ما ذكره من حديثهم يدل على أن حديثهم موضوع؛ ثم كيف تقول الصحابة: إنا نخاف على عبد الرحمن! أوليس الإجماع منعقدا على إباحة [جمع] المال من جهله، فما وجه انخوف مع الإباحة؟ أو يأذن الشرع في شيء ثم يعاقب^(٢)

(١) كذا في رواية، وفي رواية: ينز - (٢) المفسر (بضم فكون) والإخبار: ارتفاع الفرس في طوره. (٣) راجع: ٩٦ ص ٢٢٤ (٤) راجع: ١٢ ص ٢٦٧ (٥) الريل (بضم فكون): القطعة المظلمة من الجراد. (٦) من ب و ج و هـ.

عليه ؟ هذا قلة فهم وقلة . ثم إنكر أبو ذر على عبد الرحمن ، وعبد الرحمن خير من أبي ذر بما لا يتقارب ؟ ثم تلقه بعبد الرحمن وحده دليل على أنه لم [يسر^(١)] سير الصحابة ؛ فإنه قد خلف طلبة ثلاثمائة يمارق كل يمار ثلاثة قناطير . والبهار الحبل . وكان مال الزبير خمسين ألفاً ومائتي ألف . وخلف ابن مسعود تسعين ألفاً . وأكثر الصحابة كسبوا الأموال وخلفوها ولم ينكر أحد منهم على أحد . وأما قوله : « إن عبد الرحمن يحب حياً يوم القيامة » فهذا دليل على أنه ما عرف الحديث ، وأعوذ بالله أن يحب عبد الرحمن في القيامة ؛ أفتري من سبق وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ومن أهل بدر والشورى يحبو ؟ ثم الحديث يرويه حمارة ابن زاذان ؛ وقال البخاري : زعموا اضطرب حديثه . وقال أحمد : يروى عن أنس أحاديث متناكير ، وقال أبو حاتم الرازي : لا يحتج به . وقال الدارقطني : ضعيف . وقوله : « ترك المال الحلال أفضل من جمعه » ليس كذلك ، ومتى صح القصد بجمعه أفضل بلا خلاف عند العلماء . وكان سعيد بن المسيب يقول : لا خير فيمن لا يطلب المال ، يقضى به دينه ويصون به عرضه ؛ فإن مات تركه ميراثاً لمن بعده . وخلف ابن المسيب أربع مائة دينار ، وخلف سفيان الثوري مائتين ، وكان يقول : المال في هذا الزمان سلاح . وما زال السلف يمدحون المال ويمعونه للنواب وإعانة الفقراء ؛ وإنما تحاماه قوم منهم إثارة للتشاكل بالعبادات ، وجمع المم ففنعوا باليسير . فلو قال هذا القائل : إن التقليل منه أولى قرب الأمر ولكنه زاحم به مرتبة الإثم .

قلت : وما يدل على حفظ الأموال ورعايتها إباحة القتال دونها وعليها ؛ قال صل الله عليه وسلم : « من قتل دون ماله فهو شهيد » . وسيأتي بيانه في « المسألة »^(٢) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : **لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدِّلُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ**
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ تَكَلَّمَ مَعَهُ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَيْدِيكُمْ أَوْ تُخْفَوُكُمْ يُجَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى - اختلف الناس في معنى قوله تعالى : « وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَيْدِيكُمْ أَوْ تُخْفَوُكُمْ يُجَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ » على أقوال خمسة :

الأول - أنها منسوخة ؛ قاله ابن عباس وابن مسعود وعائشة وأبو هريرة والشعبي وعطاء وعبد بن سيرين ومحمد بن كعب وموسى بن عبيدة وجساعة من الصحابة والتابعين ، وأنه بقى هذا التكليف حولا حتى أنزل الله الفرج بقوله : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » . [وهو قول ابن مسعود وعائشة وعطاء وعبد بن سيرين ومحمد بن كعب وغيرهم ^(١)] وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال : لما نزلت « وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَيْدِيكُمْ أَوْ تُخْفَوُكُمْ يُجَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ » قال : دخل قلوبهم منها شيء ، لم يدخل قلوبهم من شيء ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا » قال : فأتى الله الإيمان في قلوبهم فانزل الله تعالى : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لِمَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ بَيْنَا وَأَوْحَاطْنَا » [قال : « قد فعلت »] رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا [قال : « قد فعلت »] رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا [فَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ] [قال : « قد فعلت »] في رواية فلما فعلوا ذلك نسخها الله ثم أنزل تعالى : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » وسياق .

الثاني - قال ابن عباس وعكرمة والشعبي ومجاهد : إنها مُحْكَمَةٌ مخصوصة ، وهي في معنى الشهادة التي نهى عن كتمانها ، ثم أعلم في هذه الآية أن الكاتم لما الخفي ما في نفسه محاسب .

الثالث - أن الآية فيها بطرا على النفوس من الشك واليقين ، وقاله مجاهد أيضا .

الرابع - أنها حكمة عامة غير منسوخة ، والله حاسب خلقه على ما عملوا من عمل وعلى ما لم يعملوا مما ثبت في نفوسهم واضمروه ونوره وأرادوه ؛ فيغفر للؤمنين وبآذنه أهل الكفر والضلال ؛ ذكره الطبري عن قوم ، وأدخل عن ابن عباس ما يشبه هذا . روى عن علي

(١) الزيادة عن جوب وط .

(٢) الزيادة من الآية يعود في الأصول دون صحيح مسلم .

ابن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: لم تنسخ، ولكن إذا جع الله خلايق يقول: «إني أخبركم بما أكنتم في أنفسكم» فاما المؤمنون فيخبرهم ثم ينقر لهم، وأما أهل الشرك والريب فيخبرهم بما أخفوه من التكذيب، فذلك قوله: «يُخَاسِبُكُم بِهِ اللَّهُ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ» وهو قوله عز وجل: «وَلَكِن يَأْخُذُكُمْ بِمَا كُنتُمْ قُلُوبُكُمْ» من الشرك والتفاني. وقال الضحاك: يسلط الله يوم القيامة بما كان يسره ليعلم أنه لم يغف عليه. وفي الخبر: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة بهذا يوم تُبْلَى فيه السرائر وتخرج الضمائر وأن كُتِبَ لي ما ظهر من أفعالكم وأنا المطلع على ما لم يطلعوا عليه ولم يُعْبَرُوه ولا كُتِبَوه فانا أخبركم بذلك وأحاسيبكم عليه فأغفر لمن أشاء وأعذب من أشاء» فيغفر للؤمنين ويعذب الكافرين، وهذا أصح ما في الباب، يدل عليه حديث النجوى على ما يأتي بيانه، [لا يقال: فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم «إن الله تجاوز لاختي عما حدثت به أنفسا ما لم يتكلموا أو يعملوا به»]، فإنا نقول: ذلك محمول على أحكام الدنيا، مثل الطلاق والنفاق والبيع التي لا يلزمه حكمها ما لم يتكلم به، والذي ذكر في الآية فيما يؤخذ العبد به بينه وبين الله تعالى في الآخرة. وقال الحسن: الآية محكمة ليست بمسوخة. قال الطبري: وقال آخرون نحو هذا المعنى الذي ذكر عن ابن عباس؛ إلا أنهم قالوا: إن العذاب الذي يكون جزاء لما خطر في النفوس وصحبه الفكر إنما هو بمصائب الدنيا وآلامها وسائر مكارهاها. ثم أسند عن عائشة نحو هذا المعنى؛ وهو (القول الخامس): «ورجح الطبري أن الآية محكمة غير مسوخة» قال ابن عطية: وهذا هو الصواب، وذلك أن قوله تعالى: «وإن تبدلوا ما في أنفسكم أو تخفوه» معناه مما هو في وسعكم وتحت كسبكم، وذلك استصحاب المعتقد والفكر؛ فلما كان اللفظ مما يمكن أن تدخل فيه الخواطر أشق الصعابة والتي صلى الله عليه وسلم، فبين الله لهم ما أراد بالآية الأخرى، وخصصها ونص على حكمه أنه لا يكلف نفسا إلا وسعها، والخواطر ليست هي ولا دفعها في الوسع، بل هي أمر غالب وليست بما يكتسب؛ فكان في هذا البيان فرجهم وكشف كُرْهِهم، وبقى الآية محكمة لا تنسخ فيها: وما يدفع أمر النسخ أن الآية خبر والأخبار لا يدخلها النسخ؛ فإن ذهب ذاهب إلى تحقير النسخ فإتضا يرتب له في الحكم الذي لحق الصعابة حين فزعوا من الآية، وذلك أن قول النبي صلى الله

(١) قراءة نافع كما يأتي (٢) راجع ص ٩٩ من هذا الجزء (٣) هذه الزيادة من جرود واد.

(٤) في ب و د و ج و ط وابن حلية: «وأن الآية» - وهو وجه.

عليه وسلم لم : « قولوا سمعنا وأطعنا » يعنى . منه الأمر بأن يتبعوا على هذا ويتبعوا ويقتضوا
 لطف الله في القرآن . فإذا قرأ هذا الحكم فصحيح وقوع النسخ فيه ، وتنبه الآية حيث
 قوله تعالى : « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَأْتِيَنَّكُمْ » فهذا لفظه الخبر ولكن معناه
 التزموا هذا وأثبتوا عليه وأصبروا بحسبه ، ثم نسخ بعد ذلك . واجمع الناس فيما علمت على
 أن هذه الآية في الجهاد منسوخة بصبر المائة للآخرين . قال ابن عطية : وهذه الآية
 في « البقرة » أشبه شئ . بها . وقيل : في الكلام إضمار وتقييد ، تقديره يحاسبكم به إضمار شاء ،
 وعلى هذا فلا نسخ . وقال النحاس : ومن أحسن ما قيل في الآية وأشبه بالظاهر قول
 ابن عباس : إنها عامة ، ثم أدخل حديث ابن عمر في التَّجْوِي ، أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما ،
 واللفظ لحمل قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يُدْنِي الْمُؤْمِنُ [يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ^(١)
 مِنْ رَبِّهِ جُلًّا وَعِزًّا حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَتْفَهُ فَيَقْرُوهُ بِذُنُوبِهِ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُ فَيَقُولُ [أَيْ] رَبِّ
 أَعْرِفُ قَالَ فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ فَيُعْطَى صَحِيفَةً حَسَنَاتِهِ
 وَأَمَّا الْكَفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ » . وقد
 قيل : إنها نزلت في الذين يتولون الكافرين من المؤمنين ، أى وإن تملنوا ما في أنفسكم
 أيها المؤمنون من ولاية الكفار أو تسروها يحاسبكم به الله ، قاله الواقدي ومقاتل . واستدلوا
 بقوله تعالى في (آل عمران) « قُلْ إِنْ تُحِبُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوْا مِنْ وَلَايَةِ الْكُفَّارِ -
 يَعْلَمُهُ اللَّهُ » يدل عليه ما قبله من قوله : « لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » ^(٢)
 قلت : وهذا فيه بعد ، لأن سياق الآية لا يقتضيه ، وإنما ذلك بين في « آل عمران »
 والله أعلم . وقد قال سفيان بن عيينة : بلغني أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يأتون قومهم بهذه
 الآية « اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُكُمْ بِحَسْبِكُمْ يَهْدِي اللَّهُ » .
 قوله تعالى : (يَتَغَيَّرُ لَيْلَتُنَّاءُ وَيَذْهَبُ مَنْ يَشَاءُ) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحزرة
 والكسائي « يَتَغَيَّرُ - وَيَذْهَبُ » بالجزم عطف على الجواب . وقرأ ابن عامر وعاصم بالرفع

(١) في بوط : ويقرأ في عطية : يسأوا . (٢) ارجع ج ٨ ص ٤٤

(٣) كذا في ابن عطية ، وفي بوط جوده : وابتنوا . (٤) الزيادة من صحيح مسلم . (٥) راجع ج ٤ ص ٥٧

فيماء على القطع، أي فهو يغفر ويعذب. وروى عن ابن عباس والأعرج وأبي المالية وماهم
 الجحدري بالنصب فيما على إضمار « أن » . وحقيقته أنه عطف على المعنى ؛ كما في قوله
 تعالى : « فَيُضَاعَفْ لَهُ » وقد تقدم . والمطف على اللفظ أجود للشاكلة ؛ كما قال الشاعر :
 ومضى ما ج منك كلاماً • يتكلم فيجيك بعقل

قال النحاس : وروى عن طلحة بن مصرف « يحاسبكم به الله بغفر » بغرفاء على البدل .
 ابن عطية : وبها قرأ الجعفي وخلاص . وروى أنها كذلك في مصحف ابن مسعود . قال :
 ابن جني : هي على البدل من « يحاسبكم » وهي تفسير المحاسبة ؛ وهذا كقول الشاعر :

رؤيتنا بني شيان بعض وعيدكم • تلاقوا غدا خيل على سقوان
 تلاقوا جيادا لا تحيد عن الوعى • إذا ما غدت في المازق المتداني

فهذا على البدل . وكرر الشاعر الفعل ؛ لأن الفائدة فيما يليه من القول . قال النحاس : وأجود
 من الجزم لو كان بلا فاء الرفع ؛ يكون في موضع الحال ؛ كما قال الشاعر :
 متى تأتته تشو إلى ضوئه ناره • تجمد خير نار عندما خير مؤيد

قوله تعالى : « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ
 كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَيْكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ
 وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ
 نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا
 إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا
 وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » (٢٨٦)

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴾ . [روى عن الحسن وعجاذه والضحاك : أن هذه الآية كانت في قصة المعراج ، وهكذا روى في بعض الروايات عن ابن عباس ، وقال بعضهم : جميع القرآن نزل به جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم إلا هذه الآية فإن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي سمع ليلة المعراج ، وقال بعضهم : لم يكن ذلك في قصة المعراج ، لأن ليلة المعراج كانت بمكة وهذه السورة كلها مدنية ، فاما من قال : إنها كانت ليلة المعراج قال : لما صعد النبي صلى الله عليه وسلم وبلغ في السموات في مكان مرتفع ومعه جبريل حتى جاوز سدرة المنتهى فقال له جبريل : اني لم أجاوز هذا الموضع ولم يؤمر بالمجاورة أحد هذا الموضع غيرك فجاوز النبي صلى الله عليه وسلم حتى بلغ الموضع الذي شاء الله ، فأشار إليه جبريل بأن سلم على ربك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : التَّجَاتُ اللَّهُ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ . قال الله تعالى : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون لأمنته حَظٌّ في السلام فقال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » فقال جبريل وأهل السموات كلهم : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » قال الله تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ ﴾ على معنى الشكر أي صدق الرسول ﴿ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴾ فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يشارك أمته في الكرامة والفضيلة فقال : « وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ دِينَهُمْ لَأَفْرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ » يعني يقولون آمنا بجميع الرسل ولا نكفر بأحد منهم ولا نفرق بينهم كما فرقت اليهود والنصارى ، فقال له ربه كيف قبولهم بأى الذى أنزلنا؟ وهو قوله : « وَإِنْ تَبَدَّلُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » . قال الله تعالى عند ذلك « لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْمَهَا » يعني طاعتها ويقال : إِلَّا دُونَ طَاعَتِهَا . « لَهَا مَا كَسَبَتْ » من الخير « وَطَاعَتَهَا مَا أَكْتَسَبَتْ » من الشر ، فقال جبريل عند ذلك : سَلِّمْ عَلَيْهِ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِي قُلُوبِنَا إِذَا جَاءَنَا مِنْكَ آيَاتٌ أَوْ أَوْحَاءٌ أَوْ أَرْسَلْنَا مِنْ رَحْمَتِكَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » يعني إن تعذبنا ، ويقال : إذ علمنا بالنبيان

والتخلف فقال له جبريل : قد أعطيت ذلك قد وقع عن أمك الخطأ والسيان . فسل شيئا
 آخر فقال : « رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا » يعني قلنا « كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا » وهو
 أنه حرم عليهم الطيبات بظلمهم ، وكانوا إذا أذنبوا بالليل وجدوا ذلك مكتوبا على بابهم ،
 وكانت الصلوات عليهم خمسين ، تخفف الله عن هذه الأمة وحط عنهم بعد ما فرض خمسين
 صلاة . ثم قال : « رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ » يقول : لا تنقلنا من العمل ما لا نطبق
 قسطيناه ويقال : ما تشق علينا ؛ لأنهم لو أصرروا بخمسين صلاة لكانوا يطبقون ذلك ولكنه
 يشق عليهم ولا يطبقون الإدلاء عليه « وَأَعْفُ عَنَّا » من ذلك كله « وَاعْفِرْ لَنَا » ويجاوز عنا ،
 ويقال : « واعف عنا » من المسخ « واعرلنا » من الحسف « وارحنا » من القذف ؛ لأن
 الأمم الماضية بعضهم أصابهم المسخ وبعضهم أصابهم الحسف وبعضهم القذف ثم قال :
 « أَنْتَ مَوْلَانَا » يعني ولينا وحافظنا « فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » فاستجبت دعوته .
 وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نصرت بالرب سيرة شهر » ويقال إن النزلة :
 إذا خرجوا من ديارهم بالنية الخالصة وضربوا بالليل وقع الرعب والهبة في قلوب الكفار
 سيرة شهر في شهر ، علموا بخروجهم أو لم يعلموا ، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع
 أوحى الله هذه الآيات ؛ ليعلم أمته بذلك . ولهذا الآية تفسير آخر ؛ قال الزجاج : لما ذكر
 الله تعالى في هذه السورة فرض الصلاة والزكاة وبين أحكام الحج وحكم الحيض والطلاق والإيلاء
 وأقاصيص الأنبياء وبين حكم الربا ، ذكر تعظيمه سبحانه بقوله سبحانه وتعالى : « إِلَهٌ مَا فِي
 السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » ثم ذكر تصديق نبيه صلى الله عليه وسلم ثم ذكر تصديق المؤمنين
 بجميع ذلك فقال : « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ » أي صدق الرسول بجميع هذه
 الأشياء التي جرى ذكرها وكذلك المؤمنون كلهم صدقوا بالله وملائكته وكتبه ورسله [.

(١) هذه الزيادة لا توجد في الأصول إلا في نسخة ب يوجد جزء منها ، وفي نسخ ط توجد لها وعليها اختلافها
 وهي كما يرى شاذة في مضونها أول الكلام إذا أجمع عليه سلفا وخلفا أن القرآن نزل به الروح الأمين جمعا على نبينا
 محمد صلى الله عليه وسلم « نزل به الروح الأمين على قلبك » وهذا هو المتواتر وكون هذه الآية نقفاها نبينا صلوات الله
 عليه ليلة المراج بجانب ماواتر ، ويكون أشد مجاعة إذا علمت أن الإبراء كان في الخامسة بعد اليث ، وقيل :
 بسة قبل الهجرة والبقرة مدنية بالإجماع . وقد روت أحاديث في صحيح مسلم ، وسنن أحمد وابن مردويه قروية
 ما ذكره القرطبي ييد أن المتواتر يحمل تلك الروايات على ضرب من التأويل مني صحت سندنا ومنا . مصححه .

وقيل سبب نزولها الآية التي قبلها وهي «يَهْدِيَنَا رَبَّنَا إِلَى الْقُرْآنِ الْمُسْتَقِيمِ» وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدِّلُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخْفَئُ مِنْكُمْ بِهِ اللَّهُ يُفَصِّرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فإنه لما أنزل هذا على النبي صلى الله عليه وسلم اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم برأوا على الركب فقالوا: أي رسول الله، كلّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد [والصدقة]، وقد أنزل الله عليك هذه الآية ولا نطيعها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكافرين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما أقرأها القوم ذلت بها أسنتهم فأنزل الله في إثرها: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَعْرِفُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ». فلما نزلوا ذلك نسخها الله، فأنزل الله عز وجل: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ»^(١) «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا» قال: «نعم» «رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا» قال: «نعم» «رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ» قال: «نعم» «وَاغْفِرْ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» قال: «نعم». أخرجه مسلم عن أبي هريرة.

قال علماؤنا: قوله في الرواية الأولى^(٢) «قد فعلت» وهذا قال: «نعم» دليل على نقل الحديث بالمعنى، وقد تقدم. ولما تقرر الأمر على أن قالوا: سمعنا وأطعنا، مدحهم الله وأثنى عليهم في هذه الآية، ورفع المشقة في أمر الخواطر عنهم؛ وهذه عمرة الطاعة والاقطاع إلى الله تعالى؛ كما جرى لبني إسرائيل ضد ذلك من ذمهم وتحليلهم المشقات من الفلّة والمسكنة والانبلاء إذ قالوا: سمعنا وعصينا؛ وهذه عمرة البصيان والتمرد على الله تعالى، فأعذنا الله من نسيه بمتة وكرمه. وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له: إن بيت ثابت بن قيس بن شماس

(١) من صحيح مسلم. (٢) في الأصول بدو قوله: «ما اكتسبت» قال: نعم. وليست في صحيح مسلم.

(٣) ص ٤٢١.

يُزَمَّرُ كُلُّ بَلَّةٍ بِصَاحِبِهَا . قَالَ : « لَعَلَّهُ يَفْرَأُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ » فَنُيْلَ ثَابِتٌ قَالَ : قَرَأْتُ مِنْ
سُورَةِ الْبَقَرَةِ « آمَنَ الرَّسُولُ » نَزَلَتْ حِينَ شَقِيَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا تَوَعَّدُهُمْ
اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ عَاقِبَتِهِمْ عَلَى مَا اخْفَتَهُ قَوْمُهُمْ ، فَشَكَرُوا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فَقَالَ : « فَلَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا بِمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ » قَالُوا : بَلْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ؛
فَأَنزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَنَاهٍ عَلَيْهِمْ « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ » فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« وَحَقِّ لَمْ أَنْ يُولَمُوا » .

الكتابية - قوله تعالى : (آمَنَ) أى صُلِّقَ ؛ وقد تقدم . والذي أنزل هو القرآن .
وقرأ ابن مسعود « وآمن المؤمنون كل آمن بالله » على اللفظ ، ويموزق في غير القرآن « آمنوا »
على المعنى . وقرأ نافع ولهن كثير وعاصم في رواية أبي بكر وابن عاصم (وَكُنِيْه) على الجمع .
وقرأوا في « التحريم » كتابه ، على التوحيد . وقرأ أبو عمرو وحنا وفي « التحريم » « وَكُنِيْه »
على الجمع . وقرأ حمزة والكسائي « وكتاباه » على التوحيد فهما . فمن جمع أراد جمع كتاب ، ومن
أفرد أراد المصدر الذي يجمع كل مكتوب كان نزوله من عند الله . ويموزق في قراءة من وحده
أن يراد به الجمع ، يكون الكتاب إسماً للجنس قسمين القراءتان ؛ قال الله تعالى : « فَبَيَّنَّا
اللَّهُ الْبَيِّنَاتِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ » . قرأت الجماعة « وَرَسُولُهُ » بضم السين ،
وكذلك « رُسُلَنَا وَرُسُلُكُمْ وَرُسُلًا » ؛ إلا أبا عمرو فروى عنه تخفيف « رُسُلَنَا وَرُسُلُكُمْ » ،
وروى عنه في « رُسُلًا » « التثنية والتخفيف » . قال أبو علي : من قرأ « رُسُلًا » بالتثنية
فذلك أصل الكلمة ، ومن خفف فكما يخفف في الآحاد ؛ مثل ضُقْ وطُنْب . وإذا خفف
في الآحاد فذلك آخرى في الجمع الذي هو أنضل ؛ وقال معناه مكي . وقرأ جمهور الناس
« لَا تَقْرُؤْ » بالنون ، والمعنى يقولون لا تفرق ؛ فحُفِّفَ القول ، وحُذِفَ القول كثير ؛ قال الله
تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » ؛ أى يقولون سلام عليكم .
وقال : « وَيَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا » أى يقولون

وَبَشَاءٍ، وما كان مثله . وقرأ سعيد بن جبير ويحيى بن يعمر وأبو ذؤنة بن عمرو بن جهمر
ويطريق « لا يفرق » بإيالة ، وهذا كل لفظ كل . قال هارون : وحى في حرف ابن مسعود
« لا يفرقون » . وقال « بين أحد » على الأفراد ولم يقل أحد ؛ لأن الأحد يتناول الواحد
والجمع ؛ كما قال تعالى : « قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ ظُلُمٍ إِلَى نُورٍ »^{٢١٠} فـ « حليز بن » صفة لأحد ؛ لأن
معناه الجمع . وقال صلى الله عليه وسلم : « ما أحلت القنائم لأحد سود الرءوس غيركم » وقال رؤبة :
إِذَا أُمُورُ النَّاسِ دِينَتْ دِينَكَ • لَا يَرْبِعُونَ أَحَدًا مِنْ دُونِكَ
ومعنى هذه الآية : أن المؤمنين ليسوا كاليهود والنصارى في أنهم يؤمنون ببعض
ويكفرون ببعض .

الثالثة - قوله تعالى : (وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) فيه حذف ، أى سمعنا سماع قائلين .
وقيل : سمع بمعنى قيل ؛ كما يقال : سمع الله لمن حمده ، فلا يكون فيه حذف . وعلى الجملة فهنا
القول يقتضى المدح لقائله . والطاعة قبول الأمر . وقوله (غُفْرَاتِكَ) مصدر كالغفران
والخمران ، والعامل فيه فعل مقدر ، تقديره : اغفر غفراتك ؛ قاله الزجاج . وغيره : طلب
أو أسأل غفراتك . (وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) إقرار بالبعث والوقوف بين يدي الله تعالى . وروى
أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت عليه هذه الآية قال له جبريل : « إن الله قد أحل الثناء
ليك وعلى أمتك قبل ثقله » فقال إلى آخر السورة .

الرابعة - قوله تعالى : (لَا يَكْفِيكَ اللَّهُ قِسًا إِلَّا وُسْعًا) التكليف هو الأمر بما يشق
عليه . وتكلفت الأمر تجشمته ؛ حكاة الجوهري . والوسع : الطاقة والجدة . وهذا
خبر بجزء . نص الله تعالى على أنه لا يكلف العباد من وقت نزول الآية عبادة من أعمال القلب
أو الجوارح إلا وحى في وسع المكلف وفى مقتضى إدراكه وبينته ؛ وبهذا انكشفت الكربة عن
المسلمين في تأويل أمر الخواطر . وفى معنى هذه الآية ما حكاه أبو هريرة رضى الله عنه قال :
ما وجدت إن أحدا ولدتى أنه إلا جعفر بن أبي طالب ، فإن تبعته يوما وأنا جائع فلما بلغ

(٢) ق ط : لا تين .

(١) وأصح : ١٨ ص ٢٧٦

(٢) كذا ابن عطية وحى عبارة . وفى الأصول : تم .

متره لم يجد فيه سوى نحي ستم قد بق فيه آثاره فشقه بين أيدينا، فجعلنا نلق ما فيه من
السنن والأرب وهو يقول :

ما كلف الله قساً فرق طاعتها • ولا تجسود يد إلا بما يجد

الخامسة - اختلف الناس في جواز تكليف ما لا يطلق في الأحكام التي هي في الدنيا،
بعد انقائهم على أنه ليس واقعاً في الشرع ، وأن هذه الآية أدنت بدمه ، قال أبو الحسن
الأشعري وجماعة من المتكلمين : تكليف ما لا يطلق جائز عقلاً ، ولا يجرم ذلك شيئاً من
مفائد الشرع ، ويكون ذلك أمانة على تعذيب المكلف وقطعاً به ، وينظر إلى هذا تكليف
المصور أن يعقد شعيرة . واختلف الفاتلون بموازاه هل وقع في رسالة عبد صلى الله عليه وسلم
أولاً ؟ فقالت فرقة : وقع في نازلة أبي لهب ، لأنه كلفه بالإيمان ببجلة الشريعة ، ومن
بعتها أنه لا يؤمن ، لأنه حكم عليه بنبّ الدين وصلي النار ، وذلك مؤذن بأنه لا يؤمن ، فقد
كلفه بأن يؤمن بأنه لا يؤمن . وقالت فرقة : لم يقع قط . وقد حكى الإجماع على ذلك .
وقوله تعالى : « سَيُصَلِّي نَاراً » معناه إن وافي ، حكاه ابن عطية . « وَيُكَلِّفُ » يتعدى إلى
مفعولين أحدهما محذوف ، تقديره عبادة أو شيئاً . فافقه سبحانه بلطفه وإنعامه علينا وإن
كان قد كلفنا بما يشق ويثقل كثيرون الواحد للعشرة ، وهجرة الإنسان ونعروجه من وطنه
ومفارقة أهله ووطنه وعادته ، لكنه لم يكلفنا بالمشقات المثقلة ولا بالأمور المؤلمة ، كما كلف
من قبلنا بقتل أنفسهم وقرض موضع البول من ثيابهم وجلودهم ، بل سهل ودرق ووضع
حنا الإصر والأغلال التي وضعها على من كان قبلنا . فله الحمد والمنة ، والفضل والتعمة .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ لَمَّا مَا كَسِبْتُ وَعَلَيْهَا مَا أَكْتَسَبْتُ ﴾ يريد من الحسنات
والسيئات . قاله السدي . وجماعة المفسرين لا خلاف بينهم في ذلك ، قاله ابن عطية . وهو
مثل قوله : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » « وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا » . والخواطر
ومحوها ليست من كسب الإنسان . وجاءت العبارة في الحسنات بـ « لَمَّا » من حيث هي مما

يُفْرَحُ الْمَرْءُ بِكِبَرِهِ وَبِسِرِّهَا، فُضِّفَ إِلَى مَلِكِهِ . وَجَاءَتْ فِي الْبَيِّنَاتِ بِ«حَلِيَّاهُ» مِنْ حَيْثُ هِيَ أَتَقَالُ وَأُزْزَارُ وَتَحْمِلَاتُ صَبِيحَةٍ ؛ وَهَذَا كَمَا يَقُولُ : لِي مَالٌ وَعَلَى دِينٍ . وَكَرَّرَ قَوْلَ الْكَسْبِ مُخَالَفَ بَيْنِ التَّصْرِيفِ حَسْبًا لِمَقْدَرِ الْكَلَامِ ؛ كَمَا قَالَ : « قَهْلِي الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا » . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ : وَيُظْهَرُ فِي هَذَا أَنَّ الْحَسَنَاتِ هِيَ مِمَّا تَكْتَسِبُ دُونَ تَكْلِيفٍ ، إِذْ كَسَبَهَا عَلَى بَازَةِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَمَّ شَرْعُهُ ؛ وَالْبَيِّنَاتُ تَكْتَسِبُ بِنَاءَ الْمُبَالَغَةِ ، إِذْ كَسَبَهَا بِتَكْلِيفٍ فِي أَمْرِهَا نَحْوُ حِجَابِ نَبِيِّ اللَّهِ تَعَالَى وَتَقَطُّعِهَا إِلَيْهَا ؛ فَيُحْسَنُ فِي الْآيَةِ مَعْنَى التَّصْرِيفِ إِحْرَازًا ؛ لِهَذَا الْمَعْنَى .

السابعة - فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى حَيْثُ إِطْلَاقِ أَثْمَنَانَا عَلَى أَفْصَالِ الْعِبَادِ كُتِبَ وَأُكْتُبَ ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يُطْلَقُوا عَلَى ذَلِكَ لَا خَلْقٌ وَلَا خَلْقٌ ؛ خِلَافًا لِمَنْ أَطْلَقَ ذَلِكَ مِنْ مُتَجَرِّئَةِ الْمُبْتَدَعَةِ . وَمَنْ أَطْلَقَ مِنْ أَثْمَنَانَا ذَلِكَ عَلَى الْعَبْدِ ، وَأَنَّهُ فَاعِلٌ فِي الْمَجَازِ الْمُخِصِّ . وَقَالَ الْمُهَذَّبِيُّ وَغَيْرُهُ : وَقِيلَ مَعْنَى الْآيَةِ لَا يُؤْخَذُ أَحَدٌ بِذَنْبِ أَحَدٍ . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ : وَهَذَا مُحْجَجٌ فِي نَفْسِهِ وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الْآيَةِ .

الثامنة - قَالَ الْكَلْبُ الطَّبْرِيُّ : قَوْلُهُ تَعَالَى : « لَمَّا مَا كُتِبَتْ وَعَلَيْهَا مَا أُكْتُبَتْ » . يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى أَنَّ مَنْ قَتَلَ غَيْرَهُ بِمَثَلٍ أَوْ بَحْتٍ أَوْ تَقْرِيقٍ فَعَلِيهِ صَمَانُهُ قِصَاصًا أَوْ دِيَّةً ؛ خِلَافًا لِمَنْ جَعَلَ دِيَّتَهُ عَلَى الْعَاقِلَةِ^(١) ، وَذَلِكَ بِمُخَالَفَةِ الظَّاهِرِ ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ سَقُوطَ الْقِصَاصِ عَنِ الْأَدَبِ لَا يَقْتَضِي سَقُوطَهُ عَنْ شَرِيكِهِ . وَيَدُلُّ عَلَى وَجُوبِ الْحَذَرِ عَلَى الْعَاقِلَةِ إِذَا مَكَتَتْ^(٢) مَجْنُونًا مِنْ نَفْسِهَا . وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْمَرْبُوعِيُّ : « ذَكَرْنَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ فِي أَنَّ الْقَوْدَ وَاجِبٌ عَلَى شَرِيكِ الْأَدَبِ خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ ، وَعَلَى شَرِيكِ الْخُلَاطِيِّ خِلَافًا لِلشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَدْ أَكْتَسَبَ الْقَتْلَ . وَقَالُوا : إِنْ اشْتَرَاكَ مِنْ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ الْقِصَاصُ مَعَ مَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ الْقِصَاصُ لَا يَكُونُ شُبْهَةً فِي دَرَجَةٍ مَا يَدْرَأُ بِالشُّبْهِةِ » .

التاسعة - قَوْلُهُ تَعَالَى : (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) الْمَعْنَى : أَعَفْ عَنْ إِيْتِمَامِ مَا يَقَعُ مِنَّا عَلَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ أَوْ أَحَدِهِمَا ؛ كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَا وَالنِّسْيَانُ » .

وما استكرهوا عليه أي إم ذلك . وهذا لم يختلف فيه أن الإجم مرفوع ، وإنما اختلف فيما يتعلق على ذلك من الأحكام ، هل ذلك مرفوع لا يلزم منه شيء أو يلزم أحكام ذلك كله ؟ اختلف فيه . والصحيح أن ذلك يختلف بحسب الوقائع ، فبعض لا يسقط باتفاق كالفرامات والديات والصلوات المفروضات . وبعض يسقط باتفاق كالقصاص والتطيق بكلمة الكفر . وبعض ثالث يختلف فيه كمن أكل ناسيا في رمضان أو حيث ساهيا ، وما كان مثله مما يقع خطأ ونسيانا ، ويعرف ذلك في الفروع .

المباشرة - قوله تعالى : (رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا) أي ثقلا . قال مالك والربيع : الإصر الأمر الغليظ الصعب . وقال سعيد بن جبیر : الإصر شدة الحمل ، وما غلظ على بني إسرائيل من البول ونحوه . قال الضحاك : كانوا يحملون أمورا شديدا ، وهذا نحو قول مالك والربيع : ومنه قول النابغة :

يا مانع الضم أن يمشى سرائهم • والحامل الإصر عنهم بعدما عرفوا^(١)

صلاه : الإصر المسخ قسرة وخازير ، وقاله ابن زيد أيضا . وعنه أيضا أنه الذنب الذي ليس فيه توبة ولا كفارة . والإصر في اللغة العهد ، ومنه قوله تعالى : « وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ^(٢) إِصْرِي » . والإصر : الضيق والذنب والثقل . والإصار : الحبل الذي تربط به الأحمال ونحوها ، يقال : أصر بأصر أصرا حبسه . والإصر (بكسر الهمزة) من ذلك قال الجوهري : والموضع مأصر ومأصر والجمع مآصر ، والعامية تقول معاصر . قال ابن خزيمة : ويمكن أن يستدل بهذا الظاهر في كل عبادة أدعى الخضم تنقيها ، فهو نحو قوله تعالى : « وَمَا جَلَّ عِلْمُكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرْجٍ » ، وكقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الَّذِينَ يَسْرِ قِيَمُوا وَلَا تُعْصِرُوا » . اللهم شق على من شق على أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : ونحوه قال البيهقي الطبري قال : يمتنع به في نفي الحرج والضيق المتناقض ظاهره الخفيفة السخمة ، وهذا بين .

(١) كما في جميع الأصول ، إلا طكا في شعراء الصراية : عرفوا .

(٢) راجع ج ١٢ ص ٩٩

(٣) راجع ج ٤ ص ١٢٤

الحادية عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْمِلُوا مَا لَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ ﴾ قال قتادة : معناه لا تشدد علينا كما شددت على من كان قبلنا . الضحاك : لا تحملوا من الأعمال ما لا تطيق ؛ وقال نحوه ابن زيد . ابن جرير : لا تمسحوا قردة ولا خنازير . وقال مسلم بن محبوب : الذي لا طاقة لنا به : الغلظة ؛ وحكاها النقاش عن مجاهد وعطاء . وروى أن أبا الدرداء كان يقول في دعائه : وأعوذ بك من غلبة ليس لها عدة . وقال السدي : هو التلظيز والإغلال التي كانت على بني إسرائيل .

قوله تعالى : ﴿ وَأَعْفُ عَنَّا ﴾ أى عن ذنوبنا . عفوت عن ذنبه إذا تركته ولم تعاقبه . ﴿ وَأَغْفِرْ لَنَا ﴾ أى استر على ذنوبنا . والنفر : السر . ﴿ وَأَرْحَمْنَا ﴾ أى تفضل برحمة مبدئة منك علينا . ﴿ أَنْتَ مَوْلَانَا ﴾ أى ولينا وناصرنا . وخرج هذا عرج التلميح لخلق كيف يدعون . روى عن معاذ بن جبل أنه كان إذا فرغ من قراءة هذه السورة قال : آمين . قال ابن عطية : هذا يُظَنُّ به أنه رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن كان ذلك فكذلك ، وإن كان بقياس على سورة الحمد من حيث هنالك دعاء وهما دعاء حسن . وقال علي بن أبي طالب : ما أظن أن أحدا عقل وأدرك الإسلام يتام حتى يقرأهما .

قلت : قد روى مسلم في هذا المعنى عن أبي مسعود الأنصاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كَفَتْهُ " . قيل : من قيام الليل ؛ كما روى عن ابن عمر قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " أنزل الله على آيتين من كنوز الجنة ختم بهما سورة البقرة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألف عام من قرأهما بعد المشاء مرتين أجزأته من قيام الليل « آمن الرسول » إلى آخر البقرة " . وقيل : كَفَتْهُ من شر الشيطان فلا يكون له عليه سلطان . وأسند أبو عمرو الداني عن حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله جل وعز كتب كتابا قبل أن يخلق السموات والأرض بالقي عام فأنزل منه هذه الثلاث آيات

(١) القلة : (يضم النون المعجمة) : هيجان شهوة الكناح ونظم من باب تعب اشتد شهوة .

التي ختم بين البقرة من قراهن في بيته لم يقرب الشيطان بيته ثلاث ليل . وروى أن النبي
صلى الله عليه وسلم قال : « أُوتِيَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَثَرَتِ تَحْتَ الْعَرْشِ
لَمْ يُوْتَيْنِ نَبِيٌّ قَبْلِي » . وهذا صحيح . وقد تقدم في الفاتحة نزول الملك بها مع الفاتحة .
والحمد لله

موضحه

أبو إسحاق إبراهيم أطفيش

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : **الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴿١﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله : **(الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)** هذه السورة مبدئية بإجماع . وحكى النقاش أن اسمها في التوزاة طيبة . وقرأ الحسن وعمر بن عبد وعاصم بن أبي النجود وأبو جعفر الرضائي ^(١) « **الْحَمْدُ لِلَّهِ** » بقطع ألف الوصل ، على تقدير الوقف على « **الْحَمْدُ** » كما يقدرُونَ الوقف على أسماء الأعداد في نحو واحد ، إثنان ، ثلاثة ، أربعة ، وهم واصلون . قال الأخفش سميد : ويجوز « **أَلِمْ** الله » بكسر الميم لالتقاء الساكنين . قال الزجاج : هذا خطأ ، ولا تقول العرب لتفعله . قال النحاس : « **الْقِرَاءَةُ [الأولى قرأة]** السابعة ، وقد حكمت فيها النحويون القدماء ، فذهب مبيويه أن الميم فُتحت لالتقاء الساكنين ، واختاروا لما افتتح لثلاثاً يجمعون بين كسرة وياه وكسرة قبلها . وقال الكسائي : حروف التهجى إذا لحقت ألف وصل لحذفت ألف الوصل حرّكتها بحركة الألف فقلت : **الْحَمْدُ لِلَّهِ** ، و**الْحَمْدُ أَذْكَرُ** ، والم اقترنت . وقال الفراء : الأصل « **الْحَمْدُ لِلَّهِ** » كما قرأ الرضائي فالتفت حركة الهمزة على الميم وقرأ عمر بن الخطاب « **الْحَيُّ الْقَيُّومُ** » ، وقال خازن : في مصحف عبد الله « **الْحَيُّ الْقَيُّومُ** » . وقد هدم ما للعلماء [من آراء] في الحروف التي في أوائل السور في أول « **البقرة** » ^(٢) . [و] من حيث جاء في هذه السورة « **لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** » جملة قائمة بنفسها فتصور تلك الأقوال كلها .

(١) في القاموس وشرحه (مادة رأس) : « **وَبُنُوْدُ رَأْسٍ (بالضم)** : حى من عامر بن صعصعة . قال الأزهري : وكان أبو عمر الواحد يقول في أبي جعفر الرضائي أحد القراء والمحدثين أنه الرضائي ، يفتح الراء ويأولون في غير هذه منسوب إلى رؤاس قبيلة من سليم ، وكان يتركان يقول الرضائي بالهمزة كما يقوله المحدثون ويترجم . قلت : ويبنى بأبي جعفر هذا محمد بن سادة الرضائي . ذكر ثعلب أنه أول من وضع نحو الكوفيين ، وله تصانيف .

(٢) الكلمة من إعراب القرآن للنحاس . (٣) زيادة يقتضيا السياق . (٤) راجع جملة ص ١٥٤
لمجلة تاتية أو تاتية

الثانية - روى اليكافي أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه صلى المشاء فاستفتح
«آل عمران» فقرأ «آتم . الله لا إله إلا هو الخ القيّام» فقرأ في الركعة الأولى بمائة آية ،
وفي الثانية بالمائة الباقية . قال علماؤنا : ولا يقرأ سورة في ركعتين ، فإن فعل أجزاءه . وقال
مالك في المجموعة : لا بأس به ، وما هو بالشأن .

قلت : الصحيح جواز ذلك . وقد قرأ النبي صلى الله عليه وسلم بالأعراف في المغرب
فزهرا في ركعتين . ترجمه النسائي أيضا ، وصححه أبو محمد عبد الحق ، وسأى .

الثالثة - هذه السورة ورد في فضلها آثار وأخبار؛ فمن ذلك ما جاء أنها أمان من
الحيات ، وكثرة الصلوك ، وأنها تحتاج عن قارئها في الآخرة ، وكتب لمن قرأ آخرها في ليلة كقيام
ليلة ، إلى غير ذلك . ذكر النابختي أبو محمد في مسنده حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام قال
حدثني عبيد الله الأنصبي قال : حدثني يسعرق قال حدثني جابر ، قبل أن يقع فيها وقع فيه ، عن
الشعبي قال قال عبد الله : نيم كثر الصلوك سورة «آل عمران» يقرأ بها في آخر الليل . حدثنا
محمد بن سعيد حدثنا عبد السلام عن الجريزي عن أبي السليل قال : أصاب رجل دما قال :
فأوى إلى وادي جنة : واد لا يمشى فيه أحد إلا أصابته جنة ، وعلى شفير الوادي راهبان ؛
فلما أمسى قال أحدهما لصاحبه : هلك والله الرجل ! قال : فافتح سورة «آل عمران»
قالا : فقرأ سورة طيبة لعله ينجو . قال : فأصبح سليما . وأسند عن مكحول قال : من قرأ
سورة «آل عمران» يوم الجمعة صلت عليه الملائكة إلى الليل . وأسند عن عثمان بن عفان
قال : من قرأ آخر سورة «آل عمران» في ليلة كتب له قيام ليلة . في طريقه ابن طهفة .
ونخرج مسلم عن الثوري بن سفيان الكلابي قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : «يؤتى

(١) هو جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي . توفي سنة ١٢٨ هـ . قال ابن سعد : كان بدليسا وكان ضعيفا جدا في رأيه
ورأيه . وقال السليل : كان ضعيفا يظوف التثنية . وقال أبو بدر : كان جابريجا به مرة في السنة مرة في
ويظوف في الكلام . قل ما حكمه كان في ذلك الوقت . وقال الأنصبي مينا ما وقع فيه بأنه ما كان من فقره .
(من تهذيب التهذيب) . (٢) الجريزي : يضم اليهم وضع الزاء الأول وكسر الثانية وسكون ياء بينها ، وهو
سعيد بن إياس . يضرب إلى جريزيين مباد . (من تهذيب التهذيب) . (٣) أبو السليل (بفتح الهمزة)
وكسر اللام) هو ضريب (بالضمة) بن قهر ، ويقال قهر ، ويقال قهيل . (من تهذيب التهذيب) .

بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَسْلُطُونَ بِهِ تَقْدُمُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ — وَضُرِبَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَةُ أَمْثَالٍ مَا نَسِيْنُ بَعْدُ ، قَالَ : — كَانَهُمَا تَحْمَلَتَانِ أَوْ غُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ ^(١) ، أَوْ كَانَهُمَا حِرْقَانِ مِنْ طَيْرِ صَوَافٍ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبَيْهِمَا . وَخَرَجَ أَيْضًا عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : «عَلِمَ قَوْمُ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِمُصْحَابِهِ أَقْرَبُوا الزُّهْرَ أَوْ مِنَ الْبَقَرَةِ وَسُورَةُ آلِ عِمْرَانَ فَانْهَمَا يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَانَهُمَا تَحْمَلَتَانِ أَوْ كَانَهُمَا غَيَّاتَانِ أَوْ كَانَهُمَا قِرْقَانِ مِنْ طَيْرِ صَوَافٍ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبَيْهِمَا أَقْرَبُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخَذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرَكَهَا حَسْرَةٌ وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطْلَةُ » . قَالَ مَالُوِيَّةٌ : بَلَنِي أَنْ الْبَطْلَةَ السَّحَرَةُ .

الرابعة — للعامة في تسمية « البقرة وآل عمران » بِالزُّهْرَ أَوْ مِنَ ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ :

الأول — أَنَّهُمَا التَّيْرَتَانِ ، مَأْخُذٌ مِنَ الزُّهْرِ وَالزُّهْرَةِ ؛ فَإِنَّمَا لِهَذَا يَتَّبَعُهُمَا قَارِئُهُمَا بِمَا يَزُهَرُ لَهُ مِنْ أُنْوَالِهِمَا أَوْ مِنْ مَعَانِيهِمَا .

وإِنَّمَا يَلِيَا يَتَرَبَّ عَلَى قِرَاءَتِهِمَا مِنَ النُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهُوَ الْقَوْلُ الثَّانِي .

الثالث — سَمِيَّتَا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمَا اشْتَرَكْتَا فِيهَا تَضَمُّنَهُ أَسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمِ ؛ كَمَا ذَكَرَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ زَيْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «إِسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ وَالْحُكْمُ لِلَّهِ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ وَالَّتِي فِي آلِ عِمْرَانَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ أَيْضًا . وَالنَّهْجُ : السَّحَابُ الْمُتَنَفِّ ، وَهُوَ الْغَيَاةُ إِذَا كَانَتْ قَرِيبًا مِنَ الرَّأْسِ ، وَهِيَ الظُّلَّةُ أَيْضًا . وَالْمَعْنَى : أَنَّ قَارِئَهُمَا فِي ظِلِّ تَوَاهِيهِمَا ؛ كَمَا جَاءَ «إِنَّ الْمُؤْمِنَ فِي ظِلِّ صِدْقَتِهِ» . وَقَوْلُهُ «تَحَاجَّانِ» أَيْ يَخْلُقُ اللَّهُ مِنْ يَحْدِلُ عَنْهُ بِشَوَاهِيهِمَا مَلَائِكَةً كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْحَدِيثِ : «إِنْ مَنْ قَرَأَ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْآيَةُ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعِينَ مَلَكًا يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» . وَقَوْلُهُ «بَيْنَهُمَا شَرْقٌ» قَيْدٌ يَسْكُونُ الرِّاءَ وَفَتْحُهَا ،

(١) الشرق : الضوء . وسكون الراء فيه أشهر من ضمها . (٢) في الأصول : « قِرْقَانِ » بِقَاءِ .

والتصويب عن صحيح مسلم . والفرق : القطة . والحرق والحرقفة : الجسامة من كل شيء .

(٣) هو مَالُوِيَّةُ بِنْتُ سَلَامَةَ أَحَدِ رِجَالِ سَهْلِ هَذَا الْحَدِيثِ .

وهو عليه السلام الضياء؛ لأنه لما قال : "سَوْدَاوَان" قد يُتَوَمَّ أنهما مُظْلَمَتَان، ففى ذلك بقوله "بينهما شرق"، ويعنى بكونهما سوداوان أى من كُثُمَتَا التى من سببها حالنا بين من تحتها وبين حرارة الشمس وشدة الالهب . والله أعلم .

الخامسة — صدرت هذه السورة نزل بسبب وقد تجرأ ن فى ذكر محمد بن إصحاق عن محمد ابن جعفر بن الزبير، وكانوا نصارى وقلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فى ستين راجا، فهم من أشرافهم أربعة عشر رجلا، فى الأربعة عشر ثلاثة نفر الهم يرجع أمرهم : العاقب^(١) أمير القوم وذو أرائهم وأسمه عبد المسيح، والسيد^(٢) تَمَالُهم وصاحب مجتمهم وأسمه الأئهم، وأبو حارثة بن علقمة أحد بكرين وائل أسقفهم وعلمهم؛ فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أثر صلاة العصر، عليهم ثياب الحبرات جَبَّ وأردية . فقال أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : ما رأينا وقد مثلهم بحالاً وجلالة . وحانت صلاتهم ققاموا فصلوا فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم إلى المشرق . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "دَعُوم" . ثم أقاموا بها أياما يناظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عيسى ويزعمون أنه ابن الله، إلى غير ذلك من أقوال شعبة مضطربة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يدع عليهم باليهيين الساطعة وهم لا يصرون . ونزل فىهم صدرت هذه السورة إلى نيف وثمانين آية، إلى أن آل أمرهم إلى أن دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المباحلة^(٣)، حسب ما هو مذكور فى سيرة ابن إسحاق وغيره .

قوله تعالى : نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٥﴾ مِنْ قَبْلِ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٦﴾

(١) السيد والعاقب هما من رؤسائهم وأصحاب مرأيتهم، والعاقب يتوالى السيد . (٢) التمال (بالكسر) : الدنيا والنيات والمعلم فى الشدة . (٣) الحبرات (بكسر الحاء، وفتح الباء، جمع حبرة) : شرب من الثياب الإنيانية . (٤) باهل القوم بعضهم وضعت يداها وأقبلوا : تلاعوا . ومعنى المباحلة أن يجمع القوم هذه الحقة فى فسخ وغشوة . والله على الغالب مثله . (٥) طبع سيرة ابن هشام ص ٥٠٤ طبع أوربا

قوله تعالى : (نَزَلَ مَلَكُ الْكِتَابِ) ببنى القرآن (بِالْحَقِّ) أى بالصدق ، وقيل : بالجملة الغالبة . والقرآن نزل نوحوا : شيئا بعد شيئا ؛ فلذلك قال « نَزَلَ » والتزيل مرة بعد مرة .
والنوراة والإنجيل نزلا دفعة واحدة ؛ فلذلك قال « أُنْزِلَ » . والباء في قوله « بِالْحَقِّ » في موضع الحال من الكتاب ، والباء متعلقة بمحذوف ، التقدير آتيا بالحق . ولا تعلق بَنَزَلَ ، لأنه قد تعدى الى مفعولين أحدهما بحرف جر ، ولا يتعدى الى ثالث . و « مُصَدِّقًا » حال مؤكدة غير متصلة ؛ لأنه لا يمكن أن يكون غير مصدق ، أى غير موافق ؛ هذا قول الجمهور . وقدر فيه بعضهم الاستتال ، على معنى أنه مصدق لنفسه ومصدق لغيره .

قوله تعالى : (لِمَا يَنْبَغِي) ببنى من الكتب المثقلة . والنوراة معناتها الضياء والنور ؛ مشتقة من وَرَى الرَّيْدُ وَوَرَى لَتَنَانٌ إِذَا خَرَجْتَ نَارَهُ . وأصلها تَوَرَّى عَلَى وَزْنِ تَفَعَّلَ ، نَاهِ زَائِدَةٌ ، وتحركت الياء وقبلها فحة فقلبت ألفا . ويموز أن تكون تَفَعَّلَ فتقل الزاء من الكسر الى الفتح ، كما قالوا في جارية : جَارَاءُ ، وفي ناصية ناصلة ؛ كلاهما عن الفزاه . وقال الخليل : أصلها قَوَّلَةٌ ؛ فالأصل وَوَرَّى ، قُلْتُ الواو الأولى نَاهِ كَمَا قُلْتُ فِي تَوَجَّحَ ، وَالْأَصْلُ وَوَجَّحَ قَوَّلٌ مِنْ وَجَّحْتُ ، وَقُلْتُ الياء ألفا لحركتها وانفتاح ما قبلها . وبناء قَوْلَةٌ أكثر من تَفَعَّلَ .
وقيل : النوراة مأخوذة من التَّوَرَّى ، وهى التعريض بالشئ . والكتان لغيره ؛ فكان أكثر النوراة معاريض وتلويحات من غير تصريح وإيضاح ؛ هذا قول المؤرِّج . والجمهور على القول الأقل لقوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذَكَرَى لِلنَّبِيِّينَ » ببنى النوراة والإنجيل إفْعِلٌ مِنَ النَّجْلِ وهو الأصل ، ويجمع على أَتَاجِيلَ ، ونوراة على تَوَارٍ ؛ فالإنجيل أصل لعلوم وحكم . ويقال : لمن الله تَاجِلُهُ ، ببنى والديه ، إِذْ كَانَا أَصْلَهُ . وقيل : هو من تَجَلَّتْ الشئ إِذَا اسْتَخْرَجْتَهُ ؛ فالإنجيل مستخرج به علوم وحكم ؛ ومنه سُمِّيَ الولد والنسل تَجَلًّا لمزوجه ؛ كما قال :

إلى معتبر لم يُورث اللؤم جدُّهم . إصاغهم وكل خلل لهم نجل

(١) حى طيبة طائفة ، يقرنون في مثل جارية جارية ذميمة ناصية ناصية وكاسية كاسية .

(٢) التوج : تكاس التهي أو الرعش الذى يبلع فيه .

والنَّبْلُ الماء الذي يخرج من التَّو. واستنبت الأرض، وبها يُجَالُ إذا خرج منها الماء، فسمي الإنجيل به؛ لأن الله تعالى أخرج به دَارِسًا من الحق قَائِمًا. وقيل: هو من النَّبَل في العين (بالتحريك) وهو سَمَتُهَا؛ وطعنة نَجْلَاء، أى واسعة؛ قال:

رُبَّمَا ضَرَبَ بِسَيْفِ صَبِيل • مِنْ بَصَرِي وَطَعْنَةِ نَجْلَاء

فسمي الإنجيل بذلك؛ لأنه أصلُ أُنْجَرِه لم يوسعه عليهم نورًا وضياءً. وقيل: التَّاجِلُ التَّازِعُ؛ وسمي إنجيلًا لتأضع الناس فيه. وحكى ثَمَرٌ عن بعضهم: الإنجيلُ كلُّ كتاب مكتوب وافر السطور. وقيل: نَجْلٌ عمل وصنع؛ قال:

• وَأَنْجَلُ فِي ذَاكَ الصَّنِيعِ كَمَا نَجَلُ •

أى أَتَمَّلُ وَأَصْنَعُ. وقيل: التوراة والإنجيل من اللغة السريانية. وقيل: الإنجيل بالشرىانية انكيون؛ حكاه التلميذ. قال الجوهرى: الإنجيل كتاب ميسى عليه السلام يذكر ويؤتى؛ فمن أنت أراد الصحيفة، ومن ذكر أراد الكتاب. قال غيره: وقد يسمى القرآن إنجيلًا أيضًا؛ كما روى في قصة مُنَاجَاةِ موسى عليه السلام أنه قال: "يَا رَبِّ أَرَى فِي الْأَوَالِحِ أَقْوَامًا أَنَا جِئْتُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ فَاجْتَلَمَهُمْ أَتَمُّ". فقال الله تعالى له: "تلك أمة أحد صلى الله عليه وسلم" وإنما أراد بالإنجيل القرآن. وقرأ الحسن «وَالْإِنْجِيلَ» بفتح الهمزة، والباقيون بالكسر مثل الإكليل، لثلاثين - ويحتمل أن يكون مما عرسته العرب من الأسماء الأعجمية؛ ولا مثال له في كلامها.

قوله تعالى: (مِنْ قَبْلِ) يعنى القرآن (هُدًى لِلنَّاسِ) قال ابن قُورَك: التقدير هُدى للناس المتقين. دليله في البقرة «هُدًى لِلْمُتَّقِينَ» فَرَدَّ هَذَا الْعَامُّ إِلَى ذَلِكَ الْخَاصِّ. و«هُدًى» في موضع نصب على الحال. (وَالْقُرْآنَ) للقرآن. وقد تقدم.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٠﴾

١٠ ابن قُورَك (بضم القاف وسكون الدال وفتح الراء) هو أبو بكر بن محمد بن الحسن بن قُورَك، الحنك الأُمَوِي. الأديب الحنكى، الفاضل الأصبهانى، توفى سنة ست وأربعمائة. (عن ابن حنك) .

هذا خبر عن علمه تعالى بالأشياء على التصيل؛ ومثله في القرآن كثير . فهو العالم بما كان وما يكون وما لا يكون؛ فكيف يكون عيسى إلهًا أو ابن إله وهو تخفى عليه الأشياء ! .

قوله تعالى : **هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكَ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ①

فيه مسائل :

الأول — قوله تعالى : **(هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ)** أخبر تعالى عن تصويره للبشر في أرحام الأمهات . وأصل الرحم من الرحمة، لأنها مما يتراحم به . واشتقاق الصورة من صَارَه إلى كُنَّا إذا أمَّه ، فالصورة ماثلة إلى شَيْءٍ وهيئة . وهذه الآية تعظيم لله تعالى ، وفي ضمنها الردُّ على نصارى نَجْرَانَ ، وأن عيسى من المصوِّرين ، وذلك مما لا ينكره عاقل . وأشار تعالى إلى شرح التصوير في سورة « الحج » و « المؤمنين » . وكذلك شرحه النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن مسعود ، على ما يأتي هناك إن شاء الله تعالى . وفيها الردُّ على الطبايعين أيضا إذ يصلونها فاعلة مستبذة . وقد مضى الرد عليهم في آية التوحيد . وفي مُسْنَد ابن مسعود — واسمه محمد بن مسعود — حديث « إن الله تعالى يخلق عظام الجنين وغضائره من مَنَى الرجل وشمِّه ولحمه من مَنَى المرأة » . وفي هذا أدل دليل على أن الولد يكون من ماء الرجل والمرأة ، وهو صريح قوله تعالى : **« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى »** . وفي صحيح مسلم من حديث ثوبان وفيه : أن اليهودي قال للنبي صلى الله عليه وسلم : وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبيُّ أورشليم . قال : **« ينفك إن حدثك » ؟** .

(١) في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْتِ ... » آية .

(٢) في قوله تعالى : « وَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ ... » الآيات ١٢ ١٤ ١٥ ١٦ .

(٣) في قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ جِيعًا » ج ١ ص ٢٥١ طبعة ثانية وثالثة .

(٤) التضاريف : جميع ضروريات (بضم اللين) وهو كل علم يخص بكل ، وهو ما ران الأنف ، وقض الكف (العلم الرقيق على طرفها) ، وروس الأضلاع ، وذوابة الصد (علم في الصد مشرف على البطن) ، وداخل قوف الأذن .

قال : اجمع بأذن ، جئت أسألك عن الولد . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكر كما يأذن الله تعالى وإذا علا مني المرأة مني الرجل أنا يأذن الله " الحديث . وسأني بيانه آخر " الشورى " إن شاء الله تعالى .

الثانية - قوله تعالى : (كَيْفَ يَتَأْتَى) يعنى من حُسن وتُجِيع وسواد وبياض ومكول وقصر وبسالة وطاعة ، إلى غير ذلك من الشفاء والسعادة . وذكر عن إبراهيم بن آدم أن القسراء اجتمعوا إليه ليسمعوا ما عنده من الأحاديث ، فقال لهم : إني مشغول بكم بأربعة أشياء ، فلا أغترغ لرواية الحديث . فقيل له : وما ذلك الشغل ؟ قال : أحدها أنى ألتقى يوم الميثاق حيث قال : " هؤلاء فى الجنة ولا أبالي " وهؤلاء فى النار ولا أبالي " . فإلى أدرى من أى هؤلاء كنت فى ذلك الوقت . والثانى حيث صوّرت فى الرّحم فقال الملك الذى هو موكّل على الأرحام : " يا ربّ شقيّ هو أم سعيد " فلا أدرى كيف كان الجواب فى ذلك الوقت . والثالث حين يقبض ملك الموت رُوحى فيقول : " يا ربّ مع الكفر أم مع الإيمان " فلا أدرى كيف يخرج الجواب . والرابع حيث يقول : " وأما زوا اليوم أيها الغرّمون " فلا أدرى فى أى الفريقين أكون . ثم قال تعالى : (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) أى لا خالق ولا معبود ، وذلك دليل على وحدانيته ، فكيف يكون عيسى إلها معبودا وهو معبود . (العزيز) الذى لا يتألب . (الحكيم) ذو الحكمة أو الحكيم ، وهذا اختص بما ذكر من التصوير .

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ تَفْهِيمٍ وَإِيقَاعٍ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالْكَافِرُونَ فِي أَعْيُنِنَا يَقُولُونَ ءَأَمَانُهُمْ كُلٌّ عِنْدَ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا

أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ ﴿٥﴾

فيه تنج مسائل :

الأولى — خرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم
 «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ
 فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ
 فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ » قالت : قال رسول
 الله صلى الله عليه وسلم : « إِنْذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَقْبَعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَسْمَاكُمْ اللَّهُ
 فَاحْذَرُوهُمْ » . وعن أبي غالب قال : كنت أسمى مع أبي أُمَامَةَ وهو على حمالة ، حتى إنا
 اتهمى إلى درج مسجد دمشق فاذا رموس منصوبة ، فقال : ما هذه الرموس ؟ قيل : هذه
 رموس خوارج يهائم بهم من العراق . فقال أبو أُمَامَةَ : كَلَابُ النَّارِ كَلَابُ النَّارِ كَلَابُ النَّارِ !
 ثم قَتَلِي تحت ظلِّ السماء ، طَوَّبِي لِمَنْ قَتَلَهُمْ وَقَتْلُوهُ — يقولها ثلاثا — ثم بكى . فقلت :
 ما يُبْكِيكَ يَا أبا أُمَامَةَ ؟ قال : رحمة لهم ، إنهم كانوا من أهل الإسلام فخرجوا منه ، ثم قرأ
 «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ » إلى آخر الآيات . ثم قرأ « وَلَا تُحْشَرُوا
 كَالَّذِينَ ظَلَمُوا وَاسْتَفْتَوْا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ » . فقلت : يا أبا أُمَامَةَ ، ثم هولاء ؟
 قال نعم . قلت : أثنى قوله برأيك أم شئ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال :
 إني إِنْذَا لَجَرِي ، إني إِنْذَا لَجَرِي ! بل سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ولا مرتين
 ولا ثلاث ولا أربع ولا خمس ولا ست ولا سبع ، ووضعه أصبعه في أذنيه ، قال : وَإِلَّا فَصُفْنَا
 — قالها ثلاثا — ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تفرقت بنو إسرائيل
 على إحدى وسبعين فرقة واحدة في الجنة وسائرهم في النار وتزبدت عليهم هذه الأمة واحدة
 واحدة في الجنة وسائرهم في النار .

الثانية — اختلف العلماء في المحكمات والمتشابهات على أقوال عديدة ؛ فقال جابر بن
 عبد الله ، وهو مقتضى قول الشعبي وسفيان الثوري وغيرهما : المحكمات في آي القرآن ما عُرِفَ
 تأويله وتُفهم معناه وتفسره . والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل لما استأثر الله تعالى بعلمه

دون خلقه . قال بعضهم : وذلك مثل وقت قيام الساعة ، وخروج يأجوج ومأجوج والدجال وعيسى ، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور .

قلت : هذا أحسن ما قيل في التشابه . وقد قدمنا في أوائل سورة البقرة عن الربيع ابن خيم أن الله تعالى أنزل هذا القرآن فأسأثرته بعلم ما شاء ، الحديث . وقال أبو عثمان : المحكم فاتحة الكتاب التي لا تجزئ الصلاة إلا بها . وقال محمد بن الفضل : سورة الإخلاص ، لأنه ليس فيها إلا التوحيد فقط . وقيل : القرآن كله محكم ، لقوله تعالى : « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » . وقيل : كله متشابه ، لقوله : « كِتَابًا مُتَشَابِهًا » .

قلت : وليس هذا من معنى الآية في شيء ، فإن قوله تعالى : « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » أى فى النظم والرصف وأنه حق من عند الله . ومعنى « كِتَابًا مُتَشَابِهًا » أى يشبه بعضه بعضا ويصدق بعضه بعضا . وليس المراد بقوله « آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ » وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ » هذا المعنى ؛ وإنما التشابه في هذه الآية من باب الاحتمال والاشتباه ، من قوله « إِنَّ الْبَقْرَةَ تَشَابَهَ عَلِيًّا » أى التيس طينا ، أى يَحْتَمِلُ أنواعا كثيرة من البقر . والمراد بالمحكم ما فى مقابلة هذا ، وهو مالا التباس فيه ولا يحتمل إلا وجهها واحدا . وقيل : إن التشابه ما يحتمل وجوها ، ثم إذا رُدَّتْ الوجوه إلى وجه واحد وأُبْطِلَ الباقي صار التشابه محكما . فالمحكم أبدا أصل رُزِّد إليه القروع ، والمتشابه هو الفرع . وقال ابن عباس : المحكمات هو قوله في سورة الأنعام « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ مِنْكُمْ عَلَيْهِمْ » إلى ثلاث آيات ، وقوله في بني إسرائيل : « وَقَضَىٰ رَبِّيَ أَلَّا تُعْبَدُوا إِلَّا إِلَهُهُ وَإِلَٰهَ الْوَالِدِينَ إِحْسَانًا » . قال ابن عطية : وهذا عندي مثال أعطاه فى المحكمات . وقال ابن عباس أيضا : المحكمات ناسخه وحرامه وفرائضه وما يؤمن به ويعمل به ، والمتشابهات المنسوخات ومقاسمه ومؤثره وأمثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به . وقال ابن مسعود وغيره : المحكمات النسخات ، والمتشابهات المنسوخات ؛ وقاله قتادة الربيع والضحاك . وقال محمد بن جعفر بن الزبير : المحكمات هى التى فيها نَجْمَةُ الرَّبِّ

وحصصة العباد ودفع المصوم والباطل ، ليس لها تعريف ولا تحريف عما ضمن عليه .
 والمتشابهات لمن تعريف وتحريف وتأويل ، ابتلى الله فيهن العباد ، وقاله جامد وابن إسحاق .
 قال ابن عطية : وهذا أحسن الأقوال في هذه الآية . قال النحاس : أحسن ما قيل
 في المحكمات والمتشابهات أن المحكمات ما كان قائما بنفسه لا يحتاج أن يرجع فيه إلى غيره ؛
 نحو « لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » « وَإِنِّي لَنَفَارُ لِيَن تَابَ » . والمتشابهات نحو « إِنَّ اللَّهَ يَتَقَرُّ الذُّنُوبَ
 بِجَمِيعًا » يرجع فيه إلى قوله جل وعلا : « وَإِنِّي لَنَفَارُ لِيَن تَابَ » . وإلى قوله عز وجل :
 « إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ أَنْ تُبْرَكَ بِهِ » .

قلت : ما قاله النحاس يبين ما أخاره ابن عطية ، وهو الجارى على وضع اللسان ؛
 وذلك أن المحكم اسم مفعول من أحكم ، والإحكام الإحسان ، ولا شك في أن ما كان واضح
 المعنى لا إشكال فيه ولا تردد ، إنما يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته وإتقان تركيبها ؛
 وبقي اختل أحد الأمرين جاء التشابه والإشكال . والله أعلم . وقال ابن خزيمة متناد : التشابه
 وجوه ، والذي يتعلق به الحكم ما اختلف فيه العلماء أئمة الآيتين نسخت الأخرى ؛ كقول
 علي بن عباس في الحامل المتوفى عنها زوجها تمتد أقصى الأجلين . فكان عمر وزيد بن ثابت
 وابن مسعود وغيرهم يقولون وضع الحمل ، ويقولون : سورة النساء القصصى نسخت أربعة أشهر
 وعشرا . وكان علي بن عباس يقولان لم تنسخ . وكاختلفهم في الوصية للوارث هل
 يُسخت أم لم تنسخ . وكعارض الآيتين أيهما أولى أن تقدم إذا لم يترف النسخ ولم توجد
 شرائطه ؛ كقوله تعالى : « وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ بِمَقَرِّ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَقْرَابِ مِنْ مِلْكِ الْيَمِينِ » ،
 وقوله تعالى : « وَأَنْ تَجْبُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » يمنع ذلك . ومنه أيضا عارض
 الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم وتعارض الأئمة ، فذلك التشابه . وليس من التشابه
 أن تقرأ الآية بقرائتين ويكون الاسم محتملا أو مجملا يحتاج إلى تفسير ؛ لأن الواجب منه فدر
 ما يتناول الاسم أو جمعه . والقراءتان كالآيتين يجب العمل بوجبهما جميعا ؛ كما قرئ :
 (١) سورة النساء القصصى من سورة الفلاح . ومراده منها « وأولات الأمان أبعلن أن ضمن حلفن آية »

«وَأَمْسَحُوا رُؤُوسَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ» بالفتح والكسر، على ما يأتي بيانه «في المسألة» ^(١) إن شاء الله تعالى .

الثالثة - روى البخاري ^(٢) عن سعيد بن جبيرة قال قال رجل لابن عباس : إني أجد في القرآن أشياء تختلف على . قال : ما هو ؟ قال : «فَلَا أُنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ» وقال : «وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ» وقال : «وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَدِيثًا» وقال : «وَأَنَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» فقد كتموا في هذه الآية . وفي النازعات «أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ...» إلى قوله : «دَحَاهَا» فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثم قال «أَنُكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ...» إلى : طائمين «فذكر في هذا خلق الأرض قبل خلق السماء . وقال : «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» . «وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا» . «وَكَانَ اللَّهُ شَهِيدًا بَصِيرًا» فكانه كان ثم مضى . فقال ابن عباس : «فَلَا أُنْسَابَ بَيْنَهُمْ» في النسخة الأولى، ثم يفتخ في الصور فصينق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون؛ ثم في النسخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون . وأما قوله : «وَأَنَّهُ مُشْرِكِينَ» «وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَدِيثًا» فإن الله ينفرد لأهل الإخلاص ذنوبهم، وقال المشركون : تعالوا نقول : لم تكن مشركين؛ فغم الله على أفواههم فتنتطق جوارحهم بأعمالهم؛ فعند ذلك عرفت أن الله لا يكتم حديثا، وعنده يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . وخلق الله الأرض في يومين، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات في يومين، ثم دحا الأرض أي بسطها فاتخرج منها الماء والرعي ، وخلق فيها الجبال والأنهار والآكام وما بينهما في يومين آخرين؛ فذلك قوله : «وَالْأَرْضُ بَدَا ذَلِكَ دَحَاهَا» . خلقت الأرض وما فيها في أربعة أيام، وخلقت السماء في يومين . وقوله : «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» حتى نفسه ^(٣)

(١) في قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة ...» آية ٦

(٢) ورد هذا الحديث في صحيح البخاري في كتاب التفسير (سورة السجدة) . وبين رواية صحيح البخاري وما ورد في الأصول اختلاف في بعض الكلمات .

(٣) هو تابع بن الأوزق الذي صار بعد ذلك رأس الأزارقة من التراجيع . (عن شرح القسطلاني) .

(٤) هذه عبارة صحيح البخاري . وفي الأصول : «بني قسه ذلك ...» .

ذلك، أى لم يزل ولا يزال كذلك ؛ فإن الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذى أراد . ويحك ! فلا يَحْتَفِ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ ؛ فَإِنْ كَلَّمَكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

الرابعة - قوله تعالى : (وَأَنْتُمْ مُنْشَلِهَاتٌ) لم تعرف « أَنْتُمْ » لأنها مُنْشَلِتٌ من الألف واللام ، لأن أصلها أَنْ تَكُونُ صَفَةً بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ كَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ ؛ فَلَمَّا مُنْشَلِتٌ مِنْ جَرَى الْأَلْفِ وَاللَّامِ مُنِيتِ الصَّرْفِ . أَبُو عُبَيْدٍ : لَمْ يَصِرْ فَوْهَا لَأَنَّ وَاحِدَهَا لَا يَنْصَرِفُ فِي مَعْرِقَةٍ وَلَا نَكْرَةٍ . وَأَنْكَرَ ذَلِكَ الْمُبَرِّدُ وَقَالَ : يَجِبُ عَلَى هَذَا أَنْ يَنْصَرِفَ غَضَابٌ وَغَطَّاسٌ . لَكِنَّا نَقُولُ : لَمْ تَنْصَرَفْ لِأَنَّهَا صَفَةٌ . وَأَنْكَرَ الْمُبَرِّدُ أَيْضًا وَقَالَ : إِنْ لَبَدًا وَحَطْمًا صَفَتَانِ وَهِيَ أَنْصَرَفَانِ . سَبِيحِيَّةٌ : لَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ أَنْتُمْ مَعْدُولَةٌ عَنِ الْأَلْفِ وَاللَّامِ ؛ لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ مَعْدُولَةٌ عَنِ الْأَلْفِ وَاللَّامِ لَكَانَ مَعْرِقَةٌ ، أَلَا تَرَى أَنَّ تَحَرَّرَ مَعْرِقَةٌ فِي جَمِيعِ الْأَقَاوِيلِ لِمَا كَانَتْ مَعْدُولَةٌ [عَنِ الْفَسْحِ] ، وَأَمْسَ فِي قَوْلٍ مِنْ قَالٍ : ذَهَبَ أَمْسٌ مَعْدُولًا عَنِ الْأَمْسِ ؛ فَلَوْ كَانَتْ أَنْتُمْ مَعْدُولًا أَيْضًا عَنْ الْأَلْفِ وَاللَّامِ لَكَانَ مَعْرِقَةٌ ، وَقَدْ وَصَفَهُ اللَّهُ بِالنَّكَرَةِ .

الخامسة - قوله تعالى : (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ) الَّذِينَ رَفَعُوا بِالْإِبْتِلَاءِ ، وَاتَّخَذُوا « فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ » . وَالزَّيْغُ الْمِيلُ ؛ وَمِنْهُ زَاغَتِ الشَّمْسُ ، وَزَاغَتِ الْأَبْصَارُ . وَيُقَالُ : زَاغَ زَيْغٌ زَيْغًا إِذَا تَرَكَ الْقَصْدَ ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ » . وَهَذِهِ الْآيَةُ تَمُّ كُلَّ طَائِفَةٍ مِنْ كَافِرٍ وَزَيْدِيٍّ وَجَاهِلٍ وَصَاحِبِ بِدْعَةٍ ، وَإِنْ كَانَتْ الْإِشَارَةُ بِهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إِلَى نَصَارَى تَجْرَانِ . وَقَالَ قَتَادَةُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : « فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ » : إِنْ لَمْ يَكُونُوا الْجَاهِلِيَّةَ وَأَنْوَاعَ الْخَوَارِجِ فَلَا أَدْرَى مَنْ هُمْ . قُلْتُ : قَدْ مَرَّ هَذَا التَّضْيِيرُ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ مَرْفُوعًا ، وَحَسْبُكَ .

السادسة - قوله تعالى : (فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ) قَالَ شَيْخُنَا أَبُو الْبَيَّاسِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ : مُتَّبِعُوا الْمُتَشَابِهَ لَا يَخْلُو أَنْ يَقْبَلُوهُ وَيَجْمَعُوهُ طَلِبًا لِلتَّشْكِيكِ

(١) أى إذا أردت به محمل لك . فان نكرة مره .

(٢) راجع الماشة ٢٠٢ ص ٢٥١ طبعه ثانية .

في القرآن وإضلال العوام، كما فعلته الزنادقة والقرامطة الطاعنون في القرآن، أو طلباً لاعتقاد
ظواهر التشابه، كما فعلته المجسمة الذين جمعوا ما في الكتاب والسنة مما ظاهره المحسنة
حتى اعتقدوا أن البازي تالى جسم مجسم وصورة مصورة ذات وجه وعين ويد وجنب ورجل
وأصبع، تالى الله عن ذلك؛ أو يتبعوه على جهة ابتداء تأويلاتها وإيضاح معانيها، أو كما
فعل صبيح حين أكثر على عمر فيه السؤال. فهذه أربعة أقسام:

الأول - لاشك في كفرهم، وأن حكم الله فيهم القتل من غير استنابة.
الثاني - القول بتكفيرهم، إذ لا فرق بينهم وبين عبادة الأصنام والصُور، ويُستأبون
لأن تابوا وإلا قُتلوا كما يفعل بن ارتد.

الثالث - اختلقوا في جواز ذلك بناء على الخلاف في جواز تأويلها. وقد عُرف أن مذهب
السلف ترك التعرض لتأويلها مع قطعهم باستحالة ظواهرها، فيقولون أمرؤها كما جاءت.
ونهب بعضهم إلى ابتداء تأويلها وحملها على ما يصبغ حمله في اللسان عليها من غير قطع بتعين
يُجمل منها.

الرابع - الحكم فيه الأدب البالغ، كما فعله عمر بصبيح. وقال أبو بكر الأنباري:
وقد كان الأئمة من السلف يماقبون من يسأل عن تفسير الحروف المشكلات في القرآن،
لأن السائل إن كان يبنى بسؤاله تخليد البدعة وإثارة الفتنة فهو حقيق بالكفر وأعظم التعزير،
وإن لم يكن ذلك مقصده فقد استحق العتاب بما أجترم من الذنب، إذ أوجب للنافقين الملعدين
في ذلك الوقت سبيلاً إلى أن يقصدوا صفّة السامعين بالتشكيك والتضليل في تحريف القرآن
عن مناهج التنزيل وحقائق التأويل. فن ذلك ما حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي أنباء
سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن يزيد بن حازم عن سليمان بن يسار أن صبيح بن عسل

(١) القرامطة: فرقة من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يتصدقون نبوة زرادشت ومزدهله
وكانوا يجرئون المخزومات. (راجع هذا الجمان للنفى في حوادث سنة ٢٧٨).
(٢) صبيح (وزان أمير) بن شريك بن المنذر بن حنبل بن ثعلب بن عسل (بكسر العين) بن عمرو بن يريم
الهملي، وقد نسب إلى جده الأمل فيقال: صبيح بن أمل. راجع القاموس وقرره مادة «صبح وصل».

قديم المدينة فجعل يسأل عن مثابه القرآن وعن أشياء ؛ فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فيمت اليه عمر فاحضره وقد أعد له عراجين من عراجين النخل . فلما حضر قال له عمر : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله صبيح . قال عمر رضي الله عنه : ولنا عبد الله عمر ؛ ثم قام اليه فضرب رأسه بمزجون فشبهه ، ثم تابع ضربه حتى سال دمه على وجهه ، قال : حسبك يا أمير المؤمنين ! فقد والله ذهب ما كنت أجد في رأسي . وقد اختلفت الروايات في أدبه ، وسبأى ذكرها في « الفاريات » . ثم إن الله تعالى ألهمه التوبة وقذفها في قلبه فتاب وحسنت توبته . ومعنى « ابتغاء الفتنة » طلب الشبهات واللبس على المؤمنين حتى يغسلوا ذات بينهم ، ويردوا الناس إلى دينهم . وقال أبو إسحاق الزجاج : معنى « ابتداء تأويله » أنهم طلبوا تأويل بعثهم وإحيائهم ، فأعلم الله جلّ وعزّ أن تأويل ذلك ووقته لا يعلمه إلا الله . قال : والدليل على ذلك قوله تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ - أَيْ يَوْمَ يَوْمَ مَا يَوْمُئِذٍ مِنَ الْبَيْتِ وَالنَّشُورِ وَالْمَنْزَابِ - يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ - أَيْ تَرْكُوهُ - قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ » أَيْ قَدْ رَأَيْنَا تَأْوِيلَ مَا أَنْبَأْتَنَا بِهِ الرُّسُلُ . قال : فالوقف على قوله : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » أَيْ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَتَى الْبَيْتُ إِلَّا اللَّهُ .

السابعة - قوله تعالى : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ) يقال : إن جماعة من اليهود منهم حمي بن أخطب دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : بلغنا أنه نزل عليك « آلم » ، فإن كنت صادقاً في مقالنا فإن ملك أمتك يكون إحدى وسبعين سنة ؛ لأن الألف في حساب الجمل واحد ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، فقل « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » . والتأويل يكون بمعنى التفسير ، كتولك : تأويل هذه الكلمة على كذا . ويكون بمعنى ما يؤول الأمر اليه . واشتقاقه من آل الأمر إلى كذا يؤول اليه ، أى صار . وأولته تأويلاً أى صيرته . وقد حذره بعض الفقهاء فقالوا : هو إبداء احتمال في اللفظ مقصود بدليل خارج عنه . فالتفسير بيان اللفظ ؛ كقوله « لَا رَبَّ فِيهِ » أى لا شك . وأصله من القسر وهو البيان ؛ يقال : قسرتُ

الشيء (عقفا) أَفْسَرَهُ (بالكسر) غَسَرًا . والتأويل يسان المعنى ؛ كقوله لا شك فيه عند المؤمنين . أولاته حق في نفسه فلا تقبل ذاته الشك ؛ وإنما الشك وصف الشاك . وكقول ابن عباس في الجلد أبا ؛ لأنه تأول قول الله عز وجل : « يَا بَنِي آدَمَ » .

الثامنة - قوله تعالى : (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) اختلف العلماء في « وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ » هل هو ابتداء كلام مقطوع بما قبله ، أو هو معطوف على ما قبله فتكون الواو للجمع . فالقيد عليه الأكثر أنه مقطوع بما قبله ، وأن الكلام تم عند قوله « إِلَّا اللَّهُ » هذا قول ابن عمر وابن عباس وطائفة مشهورون بن الزبير وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ، وهو مذهب الكسائي والأخفش والقلاء وأبي عبيد . قال أبو نبيك الأسدي : إنكم تصلون هذه الآية وإنها مقطوعة . وسالني علم الراسخين إلا إلى قولهم « آمنا به كل من عند ربنا » . وقال مثل هذا عمر بن عبد العزيز ، وحكى الطبري نحوه عن يونس عن أشهب عن مالك بن أنس . و« يَقُولُونَ » على هذا خبر الراسخين . قال الخطابي : وقد جعل الله تعالى آيات كتابه الذي أمرنا بالإيمان به والتصديق بما فيه قسمين : مُحْكَمًا وَمُنْتَهَبًا ؛ فقال عز من قائل : « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُنْتَهَبَاتٌ ... إلى قوله : كل من عند ربنا » فأعلم أن المنتهبة من الكتاب قد استأثر الله بعلمه ، فلا يعلم تأويله أحد غيره ، ثم أثنى الله عز وجل على الراسخين في العلم بأنهم يقولون آمنا به . ولولا صحة الإيمان منهم لم يستحقوا الثناء عليه . ومنهذب أكثر العلماء أن الوقف التام في هذه الآية إنما هو عند قوله تعالى : « وَمَا يَسْمُرُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » وأن ما بعده استئناف كلام آخر ، وهو قوله « وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمنا به » . وروى ذلك عن ابن مسعود وأبي بن كعب وابن عباس وعائشة . وإنما روى عن مجاهد أنه فسق « الراسخين » على ما قبله وزعم أنهم يعلمونه . واحتج له بعض أهل اللغة فقال : معناه والراسخون في العلم يعلمونه قائلين آمنا ، وزعم أن موضع « يَقُولُونَ » نصب على الحال موصومة أهل اللغة ينكرونه ويستبعدونه ؛ لأن العرب لا تضمير الفعل والمفعول معاً ، ولا تذكر حالاً إلا مع ظهور الفعل ؛ فإذا لم يظهر فعل فلا يكون حال ؛ ولو جاز ذلك لجاز

أَنْ يُقَالَ : عبد الله رابكاً، بمعنى أقبل عبد الله رابكاً، وإنما يجوز ذلك مع ذكر الفعل كقوله :
عبد الله يتكلم يصلح بين الناس ؛ فكان « يصلح » حالا له ؛ كقول الشاعر — أنشدني
أبو عمر قال أنشدنا أبو العباس ثعلب — :

أرسلتُ فيها قِطْعاً لُكَّالِكَا • يَقْصُرُ بَيْنِي وَيَطُولُ بَارِكَا

أى يقصر ماشياً . فكان قول عامة العلماء مع مساعدة مذاهب النحويين له أولى من قوله
بجاهد وحده . وأيضاً فإنه لا يجوز أن ينفى الله سبحانه شيئاً عن الخلق وربته لنفسه ثم يكون
له في ذلك شريك . ألا ترى قوله عز وجل : « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ
إِلَّا اللَّهُ » وقوله : « لَا يَحِيطُ بِرُحْمَتَيْهِ إِلَّا هُوَ » وقوله : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » ، فكان هذا
كله مما استأنى الله سبحانه بصلوه لا يشركه فيه غيره . وكذلك قوله تبارك وتعالى : « وَمَا يَعْلَمُ
تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » . ولو كانت الواو في قوله : « وَالرَّازِحُونَ »^(١) للنسب لم يكن لقوله : « كُلُّ
مَنْ عِنْدَ رَبِّتَا » فائدة . والله أعلم .

قلت : ما حكاها الخطابي من أنه لم يقل يقول مجاهد غيره فقد روى عن ابن عباس
أن الرّازحين معطوف على أسم الله عز وجل ، وأنهم داخلون في علم المتشابه ، وأنهم مع ملهم به
يقولون آمناً به ؛ وقوله الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد وغيرهم . و« يقولون »
على هذا التأويل نصب على الحال من الرّازحين ؛ كما قال :

الريح تبكي عجبوها • والبرق يلمع في الفلهم

وهذا البيت يحتمل المنيين ؛ فيجوز أن يكون « والبرق » مبتدأ ، والخبر « يلمع » على التأويل
الأول ، فيكون مقطوعاً مما قبله . ويجوز أن يكون معطوفاً على الريح ، و« يلمع » في موضع
الحال على التأويل الثاني أى لا يما . وأصحّ قائلوه هذه المقالة أيضاً بأن الله سبحانه مدحهم

(١) في الأصول : « أرسلت فيها رجلاً » والتصويب من اللسان وشرح القاموس . والقلم : النضاب ؛ وغل
قلم وقلم وقلم ؛ مؤول . والقلم أيضاً : المتشبه لهم وغيره . والكالك (يضم اللام الأول وكسر الثانية) : أجل القسم
الموسى بهم . ومعنى الشطر الثاني كما قال أبو علي القاسم ، يقصر إذا مشى لانخفاض بطنه وضعفه وتقاربه من الأرض ؛
فاذا بك رأيه طويلاً لارتفاع سنامه ؛ فهو يبارك أطول منه قائماً . (عن لسان العرب مادة لكك) .

(٢) في الأصول : « والرّازحون لما تسقى » بزيادة كلمة « بما » .

بالرسوخ في العلم، فكيف يملحهم وهم جهال! وقد قال ابن عباس: أنا من يعلم تأويله .
وقرأ مجاهد هذه الآية وقال: أنا من يعلم تأويله، حكاه عنه إمام الحرمين أبو المعالي .

قلت - وقد ردّ بعض العلماء هذا القول إلى القول الأول فقال: وتقدير تمام الكلام
وعند الله أن معناه وما يعلم تأويله إلا الله يعني تأويل المتشابهات، والرايخون في العلم يعلمون
بعضه قائلين آتاه به كل من عند ربنا بما نصب من الدلائل في الحكم ومكن من رده إليه .
فإذا علموا تأويل بعضه ولم يعلموا البعض قالوا آتانا بالجميع كل من عند ربنا، وما لم يحيط به
علمنا من الخفاء بما في شرعه الصالح فعلمه عند ربنا . فإن قال قائل: قد أشكل على الرايخين
بعض تفسيره حتى قال ابن عباس: لا أدرى ما الأتاه ولا ما غلبين، قيل له: هذا لا يترجم؛
لأن ابن عباس قد علم بعد ذلك ففسر ما وقف عليه . وجواب قطع من هذا وهو أنه سبحانه
لم يقل وكل رايخ فيجب هذا، فإنما لم يعلمه أحد علمه الآخر . ورجح ابن فورك أن الرايخين
يعلمون التأويل وأطلب في ذلك؛ وفي قوله عليه السلام لابن عباس: "اللهم قهقهة في الدين
وعلمه التأويل" ما بين لك ذلك، أي علمه معاني كتابك . والوقف على هذا يكون عند قوله
والرايخون في العلم . قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر: وهو الصحيح؛ فإن تسميتهم
رايخين يقتضي أنهم يعلمون أكثر من الحكم الذي يستوى في علمه جميع من يفهم كلام العرب .
وفي أي شيء هو رسوخهم إنما لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع! لكن المتشابه يتنوع، فمنه ما لا يعلم
البتة كاسم الروح والساعة مما استأثر الله به، وهذا لا يتعاطى علمه أحد إلا ابن عباس
ولا غيره . فمن قال من العلماء الخدائق بأن الرايخين لا يعلمون علم المتشابه فإنما أراد هذا النوع؛
وأما ما يمكن حمله على وجوه في اللغة ويتاج في كلام العرب فيتأول ويؤلم تأويله المستقيم،
ويزال ما فيه مما عسى أن يتناق من تأويل غير مستقيم؛ كقوله في عيسى: "وَرُوحٌ مِنْهُ"
إلى غير ذلك . فلا يسمى أحد رايخ إلا بأن يعلم من هذا النوع كثيرا بحسب ما قدر له .
وأما من يقول: إن المتشابه هو المنسوخ فيستقيم على قوله إدخال الرايخين في علم التأويل؛
لكن تخصيصه المتشابهات بهذا النوع غير صحيح .

والرسوخ : الثبوت في الشيء ، وكل ثابت راسخ . وأصله في الأجرام أن يرسخ الجبل
والشجر في الأرض . وقال الشاعر :

لقد رنحت في الصدر مئى مودة • لئلى أبت آياتها أن تتغيرا

ورسّخ الإيمان في قلب فلان يرسّخ رسوخا . وحكى بعضهم : رشح القدير : غضب مأوّه ؛ حكاه
ابن فارس فهو من الأضداد . ورسّخ ورسّخ ورسّخ ورسّخ كله ثبت فيه . وسئل النبي صلى
الله عليه وسلم عن الراغبين في العلم فقال : « هو من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه » .
فإن قيل : كيف كان في القرآن منشاؤه والله يقول : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ
إِلَيْهِمْ » فكيف لم يُعَلَّ كلّه واضحاً ؟ قيل له : الحكمة في ذلك — والله أعلم — أن يظهر
فضل العلماء ؛ لأنه لو كان كله واضحاً لم يظهر فضل بعضهم على بعض . وهكذا يفعل من
يصنف تصنيفاً يعمل بعضه واضحاً وبعضه مشكلاً ، ويترك الجُودة موضحة ؛ لأن ما هان
وجوده قلّ بهائوه . والله أعلم .

التاسعة — قوله تعالى : (كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) فيه ضمير مائد على كتاب الله تعالى محكيه
ومتشابهة ؛ والتقدير كُله من عند ربنا . وحذف الضمير لدلالة « كُلٌّ » عليه ؛ إذ هي لفظة
تتضمن الإضافة . ثم قال : (وَمَا يَذْكُرُوا إِلَّا أُولَ الْأَلْبَابِ) أى ما يقول هذا ويؤمن ويقف
حيث وقف ويدع اتباع المتشابه إلا ذؤُوب ، وهو العقل . وُوب كل شئ ؛ خالصة ؛ فلذلك
قيل للعقل لب . و « أولو » جمع ذو .

قوله تعالى : رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ
رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٥٨﴾
فيه ثلاث :

الأولى — قوله تعالى : (رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا) في الكلام حذف تقديره يقولون .
وهذا حكاية عن الراغبين . ويجوز أن يكون المعنى قل يا محمد . ويقال : إزاعة القلب فساد

(١) كما وردت هذه الكلمة في أكثر الأصول ، وفي بعض الأصول وردت بهذا الرسم من غير إجماع .

وميل عن الدين، أفكثوا يخافون وقد هدوا أن ينقلهم الله إلى الفساد؟ فالحواب أن يكونوا
 سالوا إذ هداهم الله ألا يتلهم بما يتل عليهم من الأعمال فيعجزوا عنه؛ نحو «وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا
 عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ». قال ابن كيسان: سالوا ألا يرضوا فيرض الله
 قلوبهم؛ نحو «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» أي شتتا على هدايتك إذ هديتنا وألا ترغ فستحق
 أن ترغ قلوبنا. وقيل: هو منقطع مما قبل، وذلك أنه تعالى لما ذكر أهل الزنج عقب ذلك
 بأن علم عباده البطاه إليه في ألا يكونوا من الطائفة الذميمة التي ذكرت وهي أهل الزنج.
 وفي الموطأ عن أبي عبد الله الصائبي أنه قال: قِيمْتُ للمدينة في خلافة أبي بكر الصديق
 فصليت وراءه المغرب، فقرأ في الركعتين الأوليين بآم القرآن وسورة من قصار المفصل،
 ثم قام في الثالثة، فنوت منه حتى إن ثيابه لتكاد تمس ثيابه، فسمعته يقرأ بآم القرآن وهذه الآية
 «رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا» الآية. قال العلماء: قراءته بهذه الآية ضرب من القنوت والدعاء
 لما كان فيه من أمر أهل الرقة. والقنوت جائز في المغرب عند جماعة من أهل العلم، وفي كل
 صلاة أيضا إذا دعى المسلمين أمر عظيم فيزعهم ويخافون منه على أنفسهم. وروى الترمذي
 من حديث شهر بن حوشب قال قلت لأُمّ سلمة: يا أُمّ المؤمنين، ما كان أكثر دعاء رسول الله
 صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي
 عَلَى دِينِكَ». فقلت: يا رسول الله، ما أكثر دعائك يا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟
 قال: «يَا أُمّ سلمة إنه ليس آدمي إلا وقبْهُ بين أصبعين من أصابع الله فن شاء أقام ومن شاء
 أزاغ». فلا معاذ «رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا». قال: حديث حسن. وهذه الآية
 حجة على المعتزلة في قولهم: إن الله لا يضل العباد. ولو لم تكن الإزاغة من قبْله لما جاز
 أن يدعى في دفع ما لا يجوز عليه فعله. وقرأ أبو واقد المزاح «لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بِإِسْنَادِ الْقَمَلِ إِلَى
 الْقُلُوبِ» وهذه رغبة إلى الله تعالى. ومعنى الآية على الفراءة: ألا يكون منك خلق الزنج
 فيها قرع.

الثانية - قوله تعالى : (وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً) أى من عندك ومن قبلك تفضلاً
لا عن سبب منا ولا عمل . وفى هذا اتصال وتطرح . وفى «لكن» أربع لغات : لَدُنْ بفتح
اللام وضم الدال وجرم النون ، وهى أفصحها ؛ وفتح اللام وضم الدال وحذف النون ؛ وضم
اللام وجرم الدال وفتح النون ؛ وفتح اللام وسكون الدال وفتح النون . ولعل جهل المتصوفة
وزنادقة الباطنية يشبهون بهذه الآية وأمثالها فيقولون : العلم ما وهبه الله ابتداءً من غير كسب ،
والنظر فى الكتب والأوراق سحاب . وهذا مردود على ما يأتى بيانه فى هذا الموضع .

ومعنى الآية : هب لنا نعماً صادراً عن الرحمة ؛ لأن الرحمة واجبة الى صفة القات فلا يتصور
فيها الهبة . يقال : وهب يهب ، والأصل يوهب بـ كسر الهاء . ومن قال : الأصل يوهب
بفتح الهاء فقد أخطأ ؛ لأنه لو كان كما قال لم تحذف الواو ، كما لم تحذف فى يوتج . وإتسا
حذفت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة ؛ ثم فتح بعد حذفها لأن فيه حرفاً من حروف الحلق .

قوله تعالى : رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ
لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ①

أى بإعدهم ومعيهم بعد تفرقهم . وفى هذا إقرار بالبعث ليوم القيامة . قال الزجاج :
هذا هو التأويل الذى عليه الرافضون وأقروا به ، وخالف الذين اتبعوا ما تشابه عليهم من أمر
البعث حتى أنكروه . والرب الشك ، وقد تخدمت عمله فى البقرة ② . والميعاد مفعول من الوعد

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنُغْفِرَنَّ عَنْهُمْ أَسْوَأَ مَا كَانُوا عَمَلِينَ وَلَا أُولَئِكَ
مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ③ وَأُولَئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ ④

معناه يَن . أى لن نغفر عنهم أسوأ ما عملوا ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً . وقرأ السلي
«لَن يَغْفِرَ» بالياء لتقدم الفعل ودخول الحائل بين الاسم والفعل . وقرأ الحسن «يَغْفِرُ» بالياء
وسكون الياء الآخرة للتخفيف ؛ كقول الشاعر :

(١) راجع ١٧٦ ص ١٥٩ طبع ثانية أرفأه . (٢) السلي (بضم السين) مرأب من الرحمن محمد
ابن الحسين العمري الأزدي . (من تذكرة الحفاظ وأساب السلي) .

كَتَبَ بِالْيَاسِ مِنْ أَسْمَاءِ كَافٍ • وَلَيْسَ لَيْسُ بِهَا إِذْ طَالَ شَافٍ
وَكَانَ حَقُّهُ أَنْ يَقُولَ كَافِيًا، فَارْسَلِ الْيَاءَ • وَأَتَشَدُّ الْفَرَاءُ فِي مِثْلِهِ :

كَانَ أَيْدِيَهُنَّ بِالْفَاعِ الْفَرَقِ • أَيْدَى جَوَارِيَتَيْنِ الْوَرَقِ

الْفَرَقُ وَالْفَرَقَةُ لَفَتَانِ فِي الْفَاعِ • وَ «مَنْ» فِي قَوْلِهِ «مَنْ اللَّهُ» بِمَعْنَى عِنْدَ؛ قَالَهُ أَبُو عِيْنَةَ .
(أَوَّلُكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ) وَالْوُقُودُ اسْمٌ لِلطَّلَبِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي «الْبَقَرَةِ» • وَقَرَأَ الْحَسَنُ وَمَجَاهِدٌ
وَطَلْحَةُ بْنُ مُصَرِّفٍ «وَقُودُ» بِضَمِّ الْوَاوِ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ تَقْدِيرُهُ حَطَبٌ وَقُودُ النَّارِ •
وَيُجُوزُ فِي الْمَرْبِئَةِ إِذَا ضَمَّ الْوَاوُ أَنْ تَقُولَ أَقُودُ مِثْلَ أَقَتُّ • وَالْوُقُودُ بِضَمِّ الْوَاوِ الْمَصْدَرُ ؛
وَقَدَّتِ النَّارُ تَقْدُ إِذَا اشْتَعَلَتْ • وَتَرَجَّ ابْنُ الْمُبَارَكِ مِنْ حَدِيثِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ قَالَ
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «يُظْهِرُ هَذَا الدِّينَ حَتَّى يُجَاوِزَ الْبَحَارَ وَحَتَّى تُخَاضَ الْبَحَارُ
بِالْخَلِيلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ثُمَّ يَأْتِي أَقْوَامٌ يَقْرِءُونَ الْقُرْآنَ فَإِذَا قَرِئُوا قَالُوا مَنْ أَقْرَأَ مِنَّا
مَنْ أَعْلَمَ مِنَّا • ثُمَّ التَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ : هَلْ تَرَوْنَ فِي أَوَّلِكُمْ مِنْ خَيْرٍ؟» قَالُوا لَا • قَالَ :
«أَوَّلُكَ مِنْكُمْ وَأَوَّلُكَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَوَّلُكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ» •

قَوْلُهُ تَعَالَى : كَذَّابٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝

الذَّابُّ الْعَادَةُ وَالشَّانُ • وَذَابَ الرَّجُلُ فِي عَمَلِهِ يَذَابُ ذَابًا وَدُعُوبًا إِذَا جَدَّ وَاجْتَهَدَ ،
وَأَذَابَتْهُ أَنَا • وَأَذَابٌ بَعِيرُهُ إِذَا جَهَدَهُ فِي السَّيْرِ • وَالْمَائِيَانِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ • قَالَ أَبُو حَاتِمٍ :
وَسَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ كَثِيرٍ يَذْكُرُ «كَذَّابٌ» بِفَتْحِ الْمِيمِ ، وَقَالَ لِي وَأَنَا عُلِيمٌ : هَلْ أَيْ شَيْءٌ يَمْحُوزُ
«كَذَّابٌ» ؟ فَقُلْتُ لَهُ : أَظُنُّهُ مِنْ ذَنْبٍ يَذَابُ ذَابًا • فَقِيلَ ذَلِكَ مِنِّي وَتَعَجَّبَ مِنْ جَوْدَةِ
تَقْدِيرِي عَلَى صِغَرِي ؛ وَلَا أَدْرِي أَيْقَالَ أَمْ لَا • قَالَ النُّحَاسُ : « وَهَذَا الْقَوْلُ خَطَأٌ ، لَا يَقَالُ

(١) كَذَا فِي الْأَمْثَلِ - وَالَّذِي فِي لِسَانِ الْمُسَرِّبِ وَغَيْرِهِ مِنْ مَعْبُوتَاتِ الْقُرْآنِ الْفَرَقُ (بِفَتْحِ الْقَافِ وَكسر الْهَاءِ)
«الْفَرَقُ» (بِفَتْحِ الْقَافِ وَالزَّاءِ) وَالْفَرَقُ (بِكسر الْقَافِ وَسكون الزَّاءِ) • وَالْفَاعُ الْفَرَقُ : الْغَلَبُ الَّذِي لَا جَارَةَ لَهُ •

(٢) رَابِعٌ جَدُّ ص ٢٤٥ طَبْعَةٌ ثَانِيَةٌ أَوْ ثَلَاثَةٌ •

الْبَيْتِ ذِيْبٍ: وإِنَّمَا يُقَالُ: ذَابَ يَذُوبُ ذُوبًا [وَتَابًا] ^(١)، هَكَذَا حَكَى الصَّوْرِيُّ، مِنْهُمْ الْقُرْءَانُ
حَكَاهُ فِي كِتَابِ الْمَصَادِرِ؛ كَمَا قَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ:

كَذَآئِكَ مِنْ أُمِّ الْحَوْرِيْثِ قَبْلَهَا • وَجَانِبَهَا أُمُّ الرَّيَّابِ بِمَا تُسَلِّ

فَإِنَّمَا الذَّابُّ فَانُهُ يَجُوزُ؛ كَمَا يُقَالُ: شَعْرٌ وَشَعْرٌ وَشَعْرٌ؛ لِأَنَّهُ قِيَهُ حَرْفًا مِنْ حُرُوفِ الْحَقِّ • •
وَإِخْتَلَفُوا فِي الْكَافِ؛ فَقِيلَ: هِيَ فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ تَهْدِيْرُهُ نَاهِيَهُمْ كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ، أَيْ صَنِيعُ
الْكُفَّارِ مَعَكُمْ كَصَنِيعِ آلِ فِرْعَوْنَ مَعَ هُوسَى • وَزَعِمَ الْقُرْءَانُ أَنَّ الْمَعْنَى: كَفَرَتْ الْعَرَبُ كَكُفْرِ
آلِ فِرْعَوْنَ • قَالَ النَّحَّاسُ: لَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْكَافُ مُتَمَلِّقَةً بِكَفَرُوا، لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا دَاخِلَةً
فِي الصَّلَاةِ • وَقِيلَ: هِيَ مُتَمَلِّقَةٌ بِأَخْذِهِمْ اللَّهَ، أَيْ أَخْذَهُمْ أَخْذًا كَمَا أَخَذَ آلُ فِرْعَوْنَ • وَقِيلَ:
هِيَ مُتَمَلِّقَةٌ بِقَوْلِهِ «أَنْ تَقْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ» أَيْ لَمْ تُقْنِي عَنْهُمْ غَنَاءً كَمَا لَمْ تُقْنِ الْأَمْوَالُ
وَالْأَوْلَادُ عَنْ آلِ فِرْعَوْنَ. وَهَذَا جَوَابُ مَنْ تَخَلَّفَ عَنِ الْجِهَادِ وَقَالَ: شَتَّانَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا •
وَيَصِحُّ أَنْ يَعْمَلَ فِيهِ فِعْلٌ مُقَدَّرٌ مِنْ لَفْظِ الْوُقُودِ، وَيَكُونُ التَّشْبِيْهُ فِي نَفْسِ الْإِسْتِرْقَاقِ • وَيُقَرَّدُ
هَذَا الْمَعْنَى «... وَتَقْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ» أَيْ لَمْ تُقْنِي عَنْهُمْ غَنَاءً وَبِزَمٍّ قَوْمٌ
لِلسَّاعَةِ أَنْ يَدْخُلُوا آلُ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ • وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَرْجَحُ، وَإِخْتَارُهُ ضَرِيعٌ وَاحِدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ •
قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ: «كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ» أَيْ كَمَا دَاخِلُ فِرْعَوْنَ • يَقُولُ: اعْتَادَ هَؤُلَاءِ الْكُفْرَةَ
الْإِلْحَادَ وَالْإِعْنَاتَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا اعْتَادَ آلُ فِرْعَوْنَ مِنْ إِعْنَاتِ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَقَالَ مَعْنَاهُ
الْأُزْهَرِيَّ • فَإِنَّمَا قَوْلُهُ فِي سُورَةِ (الْأَنْعَالِ) «كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ» فَالْمَعْنَى جُوزِي هَؤُلَاءِ بِالْقَتْلِ
وَالْأَسْرِ كَمَا جُوزِيَ آلُ فِرْعَوْنَ بِالْفِرْقِ وَالْهَلَاكِ •

قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ الْإِبْرَاهِيمَ الْمُتَّقَةَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ الْآيَاتِ
الْمُنْصَوْبَةَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْوَحْدَانِيَّةِ • (فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) •

(١) زِيَادَةٌ مِنْ أَعْرَابِ الْقُرْءَانِ النَّحَّاسُ • (٢) أُمُّ الْحَوْرِيْثِ: هِيَ «مَرْ» أُمُّ الْحَوْرِيْثِ بْنِ حَمِيْدٍ
أَيْنَ مِنْهُمْ الْكَلَابِ؛ وَكَانَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ يَنْبَغِيْهَا فِي أَشْغَارِهِ • وَأُمُّ الرَّيَّابِ مِنْ كَلْبٍ أَيْضًا • وَمَأْسَلُ: مَوْضِعٌ
بِقَوْلِهِ: قَاتِلْتُمْ مَنْ وَفَّقْتُمْ عَلَى هَذِهِ الْبَارِئَةِ فَكَرَّكَ أَهْلَهَا كَمَا قَاتِلْتُمْ مَنْ أُمُّ الْحَوْرِيْثِ وَيَجُوزُهَا • (مِنْ مَوْضِعِ الْمَقَاتِلِ) •

قوله تعالى : قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتُونَ وَيُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ
وَيُسْأَلُونَ الْمَهَادُ ﴿١٣﴾

يعني اليهود . قال محمد بن إسحاق : لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا
يئذ وقدِم المدينة جمع اليهود فقال : « يَأْمَعُشَرُ الْيَهُودَ أَحَذَرُوا مِنْ اللَّهِ مِثْلَ مَا نَزَلَ بِقُرَيْشٍ
يَوْمَ بَدْرٍ قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ بِكُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ فَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّ نَبِيَّ مَرْسَلٍ تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ
وَعَهْدَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ » فقالوا : يا محمد ، لَا يَفْرُكُ أَنْكَ قَتَلْتَ أَقْوَامًا أَغْمَارًا لَا يَعْلَمُ لَهُمْ بِالْحَرْبِ فَاصْبَتْ
فِيهِمْ فُرْصَةٌ ! وَاللَّهِ لَوْ قَاتَلْنَا لَعَرَفْتَ أَنَّ نَحْنُ النَّاسُ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
سَعْتُونَ » بَالَاءُ يَعْنِي الْيَهُودَ ، أَيْ تُهْزَمُونَ « وَيُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ » فِي الْآخِرَةِ . فَهَذِهِ رَوَايَةُ عِكْرَمَةَ
وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَفِي رَوَايَةِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَنَّ الْيَهُودَ لَمَّا فَرَّحُوا بِمَا أَصَابَ
الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ نَزَلَتْ : فَالْمَعْنَى عَلَىٰ هَذَا « سَيُغْلِبُونَ » بِالْبَاءِ ، يَعْنِي قُرَيْشًا ، « وَيُحْشَرُونَ » بِالْيَاءِ
فِيهِمَا ، وَهِيَ قِرَاءَةٌ نَافِعٌ .

قوله تعالى : ﴿ وَيُسْأَلُونَ الْمَهَادُ ﴾ يعني جهنم ، وهذا ظاهر الآية . وقال مجاهد : المعنى
يُسْأَلُونَ مَا مَهَدُوا لِأَنْفُسِهِمْ ، فَكَانَ الْمَعْنَى : يُسْأَلُونَ فَعَلُهُمُ الَّذِي أَقَامُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ .

قوله تعالى : قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا فِتْنَةً لِّقَتْلِ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ
يَسَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ أي علامة . وقال « كان » ولم يقل « كانت » لأن
« آية » تانيثها غير حقيق . وقيل : رَدَّهَا إِلَى الْيَانِ ، أَيْ قَدْ كَانَ لَكُمْ بَيَانٌ ؛ فَذَهَبَ إِلَى الْمَعْنَى
وَتَرَكَ اللَّفْظَ ؛ كَقَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

(١) الْأَغْمَارُ : جَمْعُ غَمْرٍ (الضَّمُّ) وَهُوَ الْجَاهِلُ الْفَرَّاقِي لَمْ يَجْرِبِ الْأُمُودَ .

بِهِمْ هَـ رُؤْدَةً رَّحْمَةً • تَخْرُوجُ الْبَايَةَ لِلْمَغْطَرِ^(١)

ولم يقل المغطرة؛ لأنه ذهب إلى الضبيب . وقال الفراء : ذكره لأنه فرق بينهما بالصفة .
فلمس حالت الصفة بين الاسم والفعل ذكر الفعل . وقد مضى هذا المعنى في البقرة في قوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ » .

(فِي فَيْتِنِ النَّفْتَا) يعني المسلمين والمشركين يوم بدر (فِتْنَةً) قرأ الجمهور «فتة» بالفتح، بمعنى إحداها فتة . وقرأ الحسن ومجاهد « فِتْنَةً » بالخفض « وَأُخْرَى كَافِرَةٌ » على البدل . وقرأ ابن أبي عبيدة بالنصب فيها . قال أحمد بن يحيى : ويموز النصب على الحال ، أى الفتنة غنقطين مؤمنة وكافرة . قال الزجاج : النصب بمعنى أعمى . وسميت الجماعة من الناس فتنة لأنها يُفْتَاهُ إليها ، أى يرجع إليها في وقت الشدة . وقال الزجاج : الفتنة الفرقة ، مأخوذة من فَاتَوْتُ رأسه بالسيف — ويقال : فآيته — إذا فلقته . ولا خلاف أن الإشارة بهاتين الفيتين هي إلى يوم بدر . واختلف من الخطاب بها ؛ فقليل : يحتمل أن يُخَاطَبَ بها المؤمنون ، ويحتمل أن يُخَاطَبَ بها جميع الكفار ، ويحتمل أن يُخَاطَبَ بها يهود المدينة ؛ وبكل احتمال منها قد قال قوم . وفائدة الخطاب للمؤمنين تثبيتُ النفوس وتشجيعُها حتى يُقِيمُوا على مثلهم وأمثالهم كما قد وقع . قوله تعالى : (يُرَوِّهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ) قال أبو علي : الرؤية في هذه الآية رؤية عين ، ولذلك تعدت إلى مفعول واحد . قال مكِّي والمهدوي : يدل عليه « رَأَى الْعَيْنِ » . وقرأ نافع «رَوَّوْهُمْ» بالياء والياقون بالياء^(٢) . (مِثْلِهِمْ) نصب على الحال من الهاء والميم في «رَوَّوْهُمْ» . والجمهور من الناس على أن الفاعل يتروونهم المؤمنون ، والضمير المتصل هو للكفار . وأنكر أبو عمرو أن يُقرأ

(١) البرهمة : الرقعة الجلد ، أو هي المساء العرجية . والرؤدة والرجدة : الثابتة الحسة السريعة الشباب مع حسن فداء . والرحمة : البينة الخلق . والتخروعة : الضبيب الفس الدن . والباية : واحد شجر البان . والمغطر : المشتق . يقال : قد اغطر المرء إذا اشتى وأخرج دمه . (عن شرح الحيوان) . (٢) راجع آية ١٨٠ ج ٢ ص ٢٥٧ ، وآية ١٨١ ص ٢٦٨ طبع ثانية . (٣) الذي في تفسير غرائب القرآن لسليمان بن دبر : «رَوَّوْهُمْ بَيَاءً الخطاب أبو جعفر ونافع وميل ويقرب الياقون بالياء» .

« تَرَوْنَهُمْ » بالنساء؛ قال : ولو كان كذلك لكان مثليكم . قال النحاس : وما لا يلزم ، ولكن يجوز أن يكون مثلي أصحابكم . قال مكي : « تَرَوْنَهُمْ » بالنساء جرى على الخطاب في « لكم » فيحسن أن يكون الخطاب للمسلمين ، والماء والميم للمشركون . وقد كان يلزم من قرأ بالناء أن يقرأ مثليكم بالكاف ، وذلك لا يجوز لخالفه الخط ؛ ولكن جرى الكلام على الخروج من الخطاب إلى الغيبة ؛ كقوله تعالى : « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي أَفْئُكٍ وَبَحْرَيْنَ يَوْمَ » ، وقوله تعالى : « وَمَا أَتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ » فطالب ثم قال : « فَأُولَئِكَ هُمُ الضَّعِيفُونَ » فرجع إلى الغيبة . فالهاء والميم في « مِثْلِيهِمْ » يحتمل أن يكون للمشركون ، أى ترون أيها المسلمون المشركين مثل ما هم عليه من العُدَّة ، وهو بعيد في المعنى ؛ لأن الله تعالى لم يُكثر المشركين في عين المسلمين بل أصلنا أنه قلَّهم في عين المؤمنين ، فيكون المعنى ترون أيها المؤمنون المشركين مثليكم في العدد وقد كانوا ثلاثة أمثالهم ، فقلَّ الله المشركين في عين المسلمين فأراهم إياهم مثلي عتقتهم لتقوى أنفسهم ويقع التجاسر ، وقد كانوا أعلموا أن المائة منهم تغلب المائتين من الكفار ، وقلَّ المسلمين في عين المشركين ليجترأوا عليهم فيُعذَّ حكم الله فيهم . ويحتمل أن يكون الضمير في « مِثْلِيهِمْ » للمسلمين ، أى ترون أيها المسلمون المسلمين مثلي ما أتم عليه من العدد ، أى ترون أنفسكم مثلي عتدكم ؛ فلما الله ذلك بهم لتقوى أنفسهم على لقاء المشركين . والتأويل الأول أولى ؛ ينك عليه قوله تعالى : « إِذْ يُرِيكُهُمْ رَبُّهُمْ فِي مَنَازِلَ قَلِيلًا » وقوله : « وَإِذْ يُرِيكُوهُمْ إِتْلَافَاتٍ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا » . وروى عن ابن مسعود أنه قال : قلت لرجل إلى جنتي : أترام سبعين ؟ قال : أنظمت مائة . فلما أخذنا الأسارى أخبرونا أنهم كانوا ألفا . وحكى الطبري عن قوم أنهم قالوا : بل كثر الله عدد المؤمنين في عيون الكافرين حتى كانوا عندهم ضعفيهم . وخصف الطبري هذا القول . قال ابن عطية : وكذلك هو مردود من جهات . بل قلَّ الله للمشركين في عين المؤمنين كما تقدم . وعلى هذا التأويل كان يكون « ترون » للكافرين ، أى ترون أيها الكافرون المؤمنين مثليهم ، ويحتمل مثليكم ، على ما تقدم . وزعم الفراء أن المعنى ترونهم مثليهم ثلاثة أمثالهم . وهو بعيد غير معروف في اللغة . قال الزجاج : وهذا باب الغلط ،

فيه خلطٌ في جميع المقاييس؛ لأننا إنما نقول مثل الشيء مساوياً له ، ونقول مثله ما يساويه مرتين . قال ابن كيسان : وقد بين الفراء قوله بأن قال : كما تقول وعندك عبد : أحتاج إلى مثله ، فانت محتاج إليه وإلى مثله . وتقول : أحتاج إلى مثله ، فانت محتاج إلى ثلاثة . والمعنى على خلاف ما قال واللفظ . والذي أوقع الفراء في هذا أن المشركين كانوا ثلاثة أمثال المؤمنين يوم بدر؛ فتوهم أنه لا يجوز أن يكونوا يرونهم إلا على منتهى . وهذا بعيد وليس المعنى عليه . وإنما أراهم الله على غير عينتهم بلهتين : أحدهما أنه رأى الصلاح في ذلك ؛ لأن المؤمنين تقوى قلوبهم بذلك . والآخرى أنه آية للنبي صلى الله عليه وسلم . وسأيت ذكر وقعة بدر إن شاء الله تعالى . وأما قراءة الياء فقال ابن كيسان : الهاء والميم في « يرونهم » مائدة على « وأخرى كآخرة » والهاء والميم في مثليهم عائدة على « فَمَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » وهذا من الاختصار الذي يدل عليه سياق الكلام ، وهو قوله : « يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ » . فدل ذلك على أن الكافرين كانوا مثلي المسلمين في رأى العين وثلاثة أمثالهم في العدد . قال : والرؤية هنا لليهود . وقال مكي : الرؤية للفتنة المقاتلة في سبيل الله ، والمرئية الفتنة الكافرة ؛ أى ترى الفتنة المقاتلة في سبيل الله الفتنة الكافرة مثلى الفتنة المؤمنة ، وقد كانت الفتنة الكافرة ثلاثة أمثال المؤمنة ، فقللهم الله في أعينهم على ما تقدم . وانحطاط في « لكم » لليهود . وقرأ ابن عباس وطلحة « ترونهم » يضم التاء ، والسلمى بالتاء مضمومة على ما لم يسم فاعله .

(والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لآية لأولى الأبصار) تقدم معناه والمجده .

قوله تعالى : زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَحْرَبِ ذَلِكَ مَتْنَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ ١١

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : (زَيْنَ النَّاسِ) زَيْنٌ من الترين . واختلف الناس مَنِ الْمُزَيْنُ ؛ فقالت فرقة : الله زَيْن ذلك ؛ وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ذكره البخارى . وفي التزويل : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا » ؛ ولما قال عمر : الآن يارب حين زينتنا لنا نزلت « قُلْ أُوتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ » . وقالت فرقة : المزِين هو الشيطان ؛ وهو ظاهر قول الحسن ، فإنه قال : مَنْ زَيْنَتَهَا ؟ ما أخذ أشد لها ذمًا من خالقها . فتزيين الله تعالى إنما هو بالإيجاد والتهيئة للانتفاع وإنشاء الحيلة على الميل إلى هذه الأشياء . وتزيين الشيطان إنما هو بالوسوسة والخديعة وتحسين أخذها من غير وجوهها . والآية على كلا الوجهين ابتداء وعطف لجميع الناس ، وفي ضمن ذلك توبيخ لمعاصري عهد صلى الله عليه وسلم من اليهود وغيرهم . وقرأ الجمهور «زَيْنَ» على بناء الفعل للمفعول ، ورفع «حُب» . وقرأ الضحاك ومجاهد «زَيْنَ» على بناء الفعل للفاعل ، ونصب «حُب» . وحركت الهاء من «الشَهَوَاتِ» فوق ما بين الاسم والتمت . والشهوات جمع شهوة ، وهى معروفة . ورجل شهوان للشئ ، وشئ شهيء أى مُشْتَهَى . واتباع الشهوات مُرِيد وطاعتها مهلكة . وفي صحيح مسلم : « حُقَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُقَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم . وفائدة هذا التمثيل أن الجنة لا تُنال إلا بقطع مغاورة المكارهِ وبالصبر عليها ، وأن النار لا يُتَجَنَّب منها إلا بترك الشهوات وقطاع النفس عنها . وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «طريق الجنة حَزَنٌ بِرُيُوءٍ وطريق النار سهل بِسَهْوَةٍ» وهو معنى قوله : «حُقَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُقَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» . أى طريق الجنة صعب المسلك فيه أعلى ما يكون من الزواجر ، وطريق النار سهل لا يُلْغِظ فيه ولا وعورة ، وهو معنى قوله «سهل بِسَهْوَةٍ» وهو بالسين المهملة .

(١) هذه عبارة الصحاح التى يعضد عليها المؤلف كثيرا . وفي الأصول : « الشهوان للشئ » .

(٢) الحزن (فتح فسكون) : المكان الغليظ الخشن . والريوة (بالضم والفتح) : ما ارتفع من الأرض .
والسهوة : الأرض الخالية التربة .

الثانية - قوله تعالى: (مَنْ الشَّاءَ) بدأ بين لكثرة تشوف النفوس اليهن؛ لأنهن حبايل الشيطان وفتنة الرجال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما تركتُ بدي فتنة أشدَّ على الرجال من النساء " أخرجه البخاريّ . وسلم . ففتنة النساء أشدَّ من جميع الأشياء . وقال : في النساء فتنتان ، وفي الأولاد فتنة واحدة . فأما اللتان في النساء فأحدهما أن تؤدي إلى قطع الرحم ؛ لأن المرأة تأمر زوجها بقطعه عن الأمتوات والأخوات . والثانية يُتَبَلَّجُ بجمع المال من الحلال والحرام . وأما البنون فإن الفتنة فيهم واحدة ، وهو ما أُبْتُلِيَ بجمع المال لأجلهم . وروى عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تُسْكِنُوا نساءكم الْغُرَفَ ولا تَعْلَمُوهُنَّ الْكُتُبَ " . حذرهم صلى الله عليه وسلم ؛ لأن في إساكنهن الغرف تطلعا إلى الرجال ، وليس في ذلك تحصين لمن ولا ستر؛ لأنهن قد يُشْرِفْنَ على الرجال فتحدث الفتنة والبلاء ، ولأنهن قد يُخْلِفْنَ من الرجل في رجليه ؛ فيهنما في الرجل خُلِّيَ فيه الشهوة وُجِعَتْ سَكَنًا له ؛ فغير ما مَوْن كل واحد منهما على صاحبه . وفي تعلُّمهن الكتاب هذا المعنى من الفتنة وأشد . وفي كتاب الشَّهاب عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أَعْمَرُوا النِّسَاءَ بِزَمَنِ الْجَمَالِ " . فعل الإنسان إذا لم يصبر في هذه الأزمان أن يبحث على ذات الدين ليسلم له الدين . قال صلى الله عليه وسلم : " عَلَيْكَ بِذَاتِ الدِّينِ تَرَبُّتٌ يَدَاكَ " . أخرجه مسلم عن أبي هريرة . وفي سنن ابن ماجه عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تَزَوَّجُوا النِّسَاءَ لِحُسْنِ فَعْسِ حُسْنِ أَنْ يَزِيدِيْنَ وَلَا تَزَوَّجُوهُنَّ لِأَمْوَالِنَ فَعَسَى أَمْوَالُنَ أَنْ تُطْلِقِيْنَ وَلَكِنْ تَزَوَّجُوهُنَّ عَلَى الدِّينِ وَلِلَّامَةِ سَوْدَاءُ خَرَمَاءُ ذَاتُ دِينٍ أَفْضَلُ " .

الثالثة - قوله تعالى : (وَالَّذِينَ) عطف على ما قبله . وواحد البين أين . قال الله تعالى مخبرا عن نوح : " إِنَّا آتَيْنَا مِنْ أَهْلِ . وتقول في التصغير : بَيْتٌ " كما قال لهُمَان . وفي الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأشعث بن قيس : " هَلْ لَكَ مِنْ ابْنَةِ حَمْرَةَ مِنْ

(١) ترب الرجل : افتر ، أى لعن بالراب ؛ وأترب إذا استغنى . وهذه الكلمة جارية على لغة العرب ، لا يردن بها النساء على الخطاب ولا يرفع الأمر به ؛ كما يقولون : فاعله الله في مقام التداء والملاح .

(٢) خرماء : مقطوعة بعض الأضف ومقطوعة الأذن .

وله "قال؟ نعم، على منها غلام ولَوِدِدْتُ أَتَى بِهِ جَفَنَةً مِنْ طَعَامِ أُمِّهِمَا مَنْ بَنَى جَبَلَهُ .
فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَنْ قَلَّتْ ذَلِكَ إِنْهُمْ لَثَمَةُ الْقُلُوبِ وَثِقَةُ الْأَعْيُنِ وَإِنْهُمْ مَعَ ذَلِكَ
لِيُحِبُّنَهُ بِمَنْجَلِهِ عَزِيزُهُ ."

الرابعة - قوله تعالى : (وَالْفَنَاطِيرُ) الفَنَاطِيرُ جمع فَنَطَارٍ ، كما قال تعالى : «وَأَنْتُمْ
إِحْدَاهُنَّ فَنَطَارًا» وهو القُدَّةُ الكُبْرَى من المال ، وقيل : هو اسم للبيار الذي يوزن به ؛
كما هو الرطل والرَّابِعُ . ويقال لِمَا يَلْغُ ذَلِكَ الْوِزْنَ : هَذَا فَنَطَارٌ ، أَيْ يَسْدِلُ الْفَنَطَارُ . والعرب
تَقُولُ : قَنَطِيرُ الرَّجُلِ إِذَا بَلَغَ مَالَهُ [أَب] يُوزَنُ بِالْفَنَطَارِ . وقال الزجاج : الْفَنَطَارُ مَا خُوِذَ
مِنْ عَقْدِ الشَّيْءِ وَاحْكَاهَا ؛ تقول العرب : قَنَطَرْتُ الشَّيْءَ إِذَا أَحْكَمْتَهُ ؛ ومنه سُمِّيَتْ الْفَنَطَرَةُ
لِإِحْكَامِهَا ، قَالَ طَرُوقَةُ :

كَفَنَطَرَةُ الرَّومِيِّ أَسْمَ رَبِّهَا * لَتَكْتَفَنَنَّ حَتَّى تُسَادَّ بِقَرْمِدٍ

وَالْفَنَطَرَةُ الْمُعْقُودَةُ ؛ فَكَانَ الْفَنَطَارُ عَقْدَ مَالٍ . واختلف العلماء في تحريره حَتَّى كَمْ هُوَ عَلَى أَقْوَالٍ
كَثِيرَةٍ ؛ فَرَوَى أَبِي بَنْ كَسْبٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : "الْفَنَطَارُ أَلْفُ أَوْقِيَّةٍ
وَمِائَتَا أَوْقِيَّةٍ" ؛ وَقَالَ بَنَّاكَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَعِدَّ اللَّهُ بْنُ عَمْرِو أَبِي هُرَيْرَةَ وَبِجَاعَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ .
قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ : «وهو أجمع الأقوال . لكن الفَنَطَارُ عَلَى هَذَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْبِلَادِ فِي قَدْرِ
الْأَوْقِيَّةِ» . وقيل : اثنا عشر ألف أَوْقِيَّةٍ ؛ أَسْنَدُهُ الْبُسْتِيُّ فِي مُسْنَدِهِ الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ
أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : "الْفَنَطَارُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَوْقِيَّةٍ الْأَوْقِيَّةُ خَيْرٌ مِمَّا بَيْنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» . وقال بهذا القول أبو هريرة أيضا . وفي مُسْنَدِ أَبِي مُحَمَّدٍ الدَّارِمِيِّ عَنْ
أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : «من قرأ في ليلة عشر آيات كتب من القاكين ، ومن قرأ بمائة آية
كُتِبَ مِنَ الْقَاتِلِينَ ، ومن قرأ بمِائَةِ آية إلى الألف أصبح وله قَنَطَارٌ مِنَ الْأَجْرِ» . قيل :
وَمَا الْقَنَطَارُ ؟ قَالَ : مِائَةُ مَسَكٍ تَوَرَّدَ جَاءَ . مَوْقُوفٌ ؛ وَقَالَ بِهِ أَبُو قَضْرَةَ الْقَبْدِيُّ . وذكر

(١٤) إِيْمَانُ الْأَبْنَاءِ بِعِلْمِ آبَائِهِمْ عِيَّتُونَ خَوْفًا مِنَ الْمَوْتِ فَيَصِيبُ آبَاءَهُمُ الْبُتْمُ وَالْأَلَمُ ، وَيَحْلُظُونَ بِمَحَلِّهِمْ يَحْلُظُونَ
وَيَلْبِثُونَ أَنْ يَخْفَوْا فِي الْبُتْمِ لَمْ يَمْلِكُوا ، وَيَحْلُظُونَ بِمَحَلِّهِمْ يَحْلُظُونَ عَلَيْهِمْ إِذَا أَحَاطَ بِهِمْ مَرَضٌ وَغَيْرُهُ .
(١٥) هَرَمُهُ وَالْأَجْرُ وَالْجَارَةُ .

ابن سبته أنه هكنا بالسرانية . وقال القشاش عن ابن الكلبي أنه هكنا بلنسة الروم . وقال ابن عباس والضحاك والحسن : ألف ومائتا مثقال من الفضة ؛ ورفضه الحسن . وعن ابن عباس : اثنا عشر ألف درهم من الفضة ، ومن الذهب ألف دينار دية الرجل المسلم ؛ وروى عن الحسن والضحاك . وقال سعيد بن المسيب : ثمانون ألفا . قتادة : مائة رطل من الذهب أو ثمانون ألف درهم من الفضة . وقال أبو حمزة الثمالي^(١) : القنطار بأفريقية والأندلس ثمانية آلاف مثقال من ذهب أو فضة . السدي : أربعة آلاف مثقال . مجاهد : سبعون ألف مثقال ؛ وروى عن ابن عمر . وحكى مكى قولاً أن القنطار أرويون أوقية من ذهب أو فضة ؛ وقاله ابن سبته في المحكم ، وقال : القنطار بلنسة بربرا ألف مثقال . وقال الزبيح ابن أنس : القنطار المال الكثير بعضه على بعض ؛ وهذا هو المعروف عند العرب ، ومنه قوله : « وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا » أى مالا كثيرا . ومنه الحديث : « إِنَّ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ قَنْطَرٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَقَنْطَرٌ أَبُوهُ » أى صار له قنطار من المال . وعن الحكم : القنطار هو ما بين السماء والأرض . واختلفوا في معنى « الْمُقَنْطَرَةُ » فقال الطبري وغيره : معناها المضمضة ، وكانت القناطير ثلاثة والمقنطرة تسع . وروى عن الفراء أنه قال : القناطير جمع القنطار ، والمقنطرة جمع الجمع ، فيكون تسع قناطير . السدي : المقنطرة المضروبة حتى صارت دنانير أو دواهم . مكى : المقنطرة المكة ؛ وحكاها الهروي ؛ كما يقال : يَدْرِبْدَرَةٌ ، والآف مؤلفة . وقال بعضهم . ولهذا سمي البناء القنطرة لتكاثف البناء بعضه على بعض . ابن كيسان والفراء : لا تكون المقنطرة أقل من تسعة قناطير . وقيل : المقنطرة إشارة إلى حضور المال وكونه عتيدا . وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَائِمِينَ وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقِطِرِينَ » .

(١) قال (ضم المثنة وتحتف بالميم ولايم) : فنية ال ثلاثة على من الأزد :

الطامسة - بقوله تعالى : (مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ) الذهب مؤنثة ؛ يقال : هي الذهب الحسن ، جمعها ذهب وذُغُوب . ويجوز أن يكون جمع فعبة ، ويجمع على الأذئاب .
 وذُغِب فلان مذغبا حسنا . والذهب : مكال لأهل اليمن . ورجلٌ ذهب إذا رأى مدينا
 الذهب قد هُش . والفضة معروفة ، وجمعها فضض . فالذهب مأخوذة من الذهب ،
 والفضة مأخوذة من انفض الشيء فَنُفِضَ ، ومنه فَضِضْتُ القوم فانفضوا ، أى تفرقوا ففزعوا .
 وهذا الاشتقاق يُشعر بزرالهما وعدم ثبوتهما كما هو مشاهد في الوجود . ومن أحسن ما قيل
 في هذا المعنى قول بعضهم :

النار أتريدني أن نطق به • والمم أتريد هذا الدرهم الجماري
 والمم بينهما إن كان ذا ورع • مُعْتَبَر القلب بين المم والنار

السادسة - قوله تعالى : (وَالنَّحْلُ) النحل مؤنثة . قال ابن كيسان : حدثت عن
 أبي سبيدة أنه قال : واحد النحل خائل ، مثل طائر وطير ، وضأن وضين ؛ ونمى القرس بذلك
 لأنه يخال في مشيه . وقال غيره : هو اسم جمع لا واحد له من لفظه ، واحده قرس ، كالقوس
 والرهط والنساء والإبل ونحوهما . وفي الخبر من حديث علي عن النبي صلى الله عليه وسلم :
 " إن الله خلق القرس من الريح ولذلك جعلها تطير بلا جناح " . وهب بن مُتَبِّة : خلقها من
 ريح الجنوب . قال وهب : فليس نسيحة ولا تكيرة ولا تهليلة يكبرها صاحبها إلا وهو يسميها
 فيحبيه بمنزلها " . وسبق لي ذكر النحل ووصفها في سورة «الأففال» ما فيه كفاية إن شاء الله
 تعالى . وفي الخبر : " إن الله تعالى عرض على آدم جميع الدواب ، فقيل له : اختر منها واحدا
 فاختر القرس ؛ فقيل له : اخترت ميزك ؛ فصار اسمه الخير من هذا الوجه . وسميت خيلا
 لأنها موصومة بالميز فمن ركبها اعتز بخيلة الله له ويخال به على أعداء الله تعالى . ونمى فرما

(١) هذا رأى المؤلف ، وقد ذكره شارح التاموس (في مادة ذهب) . والمبهر أن الذهب يذكر ويؤنث كما
 هو مفصل في سميات الله .

(٢) هذا ما ورد في الأصول : وأتى في سميات الله أن الذهب يجمع على أذئاب وذغوب وذعبان (بكرامه)
 كثير في حيزان وذعبان (بشم أمه) كسل رحلان . قال «فخا» التي وردت في الأصول مرة من «فخا» .

لأنه يفترس مسافات الجوّ اقتراس الأسد وثباتاً ، ويقطعها كاللّهام يسديه على ثني خبطلاً
وتأولاً . وسُمّي عربياً لأنه جىء به من بعد آدم لإسماعيل جزاء عن رفع قواعد البيت •
وإسماعيل عربيٌّ، فصارت نخلة من الله فسعى عربياً . وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه
وسلم : " لا يدخل الشيطان داراً فيها فرس عتيق " . وإنما سمي حقيقاً لأنه قد تخلّص من المعبانة^(١) .
وقد قال صلى الله عليه وسلم : " خير الخيل الأدهم الأفرح الأرقم^(٢) [ثم الأفرح المصل] طلق^(٣)
اليمن فإن لم يكن أدهم فكُتبت على هذه الشّية " . أخرجه الترمذي عن أبي قتادة . وفي مسند
الباري عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إنّي أريد أن أشتري فرساً [فأبى] اشتري ؟ قال :
" اشتري أدهم أرقم محبلاً طلق^(٤) اليمنى أو من الكُتبت على هذه الشّية فتمّ وتسلم " . وروى
النسائي عن أنس قال : لم يكن أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد النساء من
الخيول . وروى الأئمة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الخيل ثلاثة
لرجل أبرو ولرجل ستر ولرجل وزر " الحديث بطوله ، شهرته أغنت عن ذكره . وسيأتي ذكر
أحكام الخيل في «الأفقال» و «النحل» بما فيه كفاية إن شاء الله تعالى .

السابعة — قوله تعالى : (المَسْؤِمَةُ) يعني الراعية في المروج والمسارح ؛ قاله سعيد
أبن جبير . يقال : سامت الباب والشاة إذا سرحت تسومُ تسوماً فهي سائمة وأسمتها إذا تركتها
لذلك فهي مسامة . وسومتها تسوماً فهي مسومة . وفي سنن ابن ماجه عن عليّ قال : نعى

(١) اليمين التي ولده برذوة من حصان عربي .

(٢) الأفرح : ما في جبهه فرسه ، وهي بياض يبرق وجه الفرس دون الفرة . والأرقم : أبيض الأنف والشفة
لعلياً . والمحبّل : أن تكون قوائم الأرجع بيضا يبلغ منها ثلث الرّيف (مستحق القراع والساق أو ما فوق الرسغ
إلى الساق) أرصفه أو تلبه بعد أن يجاوز الأرساغ ولا يبلغ الركبتين والفرقوين . وطلق اليمين : لا تحبيل فبها •
والكيت : ما لونه بين السواد والحمر . والشية : كل لون يتألف من لون الفرس وغيره .

(٣) زيادة عن سنن الترمذي .

(٤) زيادة عن سنن الترمذي .

(٥) في مسند الباري والأمول : « محبّل »

رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصوم قبل طلوع الشمس ، وعن ذبح ذوات النثر . الصوم
هنا في معنى الرقي . وقال الله عز وجل : « فِيهِ تُبَيَّنُونَ » . قال الأختل :
مثل ابن بركة أو كاتر مثله . أولئك ابن ميسمة الأجبال^(١)

أراد ابن رابعة الإبل . والصوام : كل بيعة ترمى ، وقيل : المعلقة للجهاد ؛ قاله
ابن زيد . مجاهد : الصوم المظلمة الحسان . وقال عكرمة : صومها الحسن ؛ واختاره
النحاس ، من قولهم : رجلٌ ويسم . وروى عن ابن عباس أنه قال : الصوم المعلقة
بشيأت الخيل في وجوهها ، من السيا وهي العلامة . وهذا مذهب الكسائي وأبي عبيدة .

قلت : كل ما ذكر محمله اللفظ ، فتكون رابعة معلقة حسناً معلقة تتعرف من غيرها .
قال أبو زيد : أصل ذلك أن تجعل عليها صوفة أو علامة تخالف ما تجسدها لتبين من غيرها
في المرمى . وحكى ابن فارس اللغوي في تجمعه : الصوم المرسلة وطها وكنها . وقال المروج^(٢) :
الصوم المخرجة . المبرد : المعروفة في البلدان . ابن كيسان : البلق . وكلها متقارب من
السيا . قال الناجية :

يُضْمَرُ كَالْقِدَاحِ صُومَاتٍ * عَلَيْهَا مِثْمَرُ أَشْبَاهِ بَيْتٍ

الثامنة - قوله تعالى : (وَالْأَنْعَامُ) قال ابن كيسان : إذا قلت نعم لم تكن إلا للإبل ،
فإذا قلت أنعام وقت للإبل وكل ما يرمى . قال الفراء : هو مذكر ولا يؤنث ؛ يقولون :

(١) في حاشية السخري على متن ابن ماجه والسان (مادة سوم) هذا الكلام عن هذا الحديث : « الصوم ،
أن يصاد بلسه ، يرمى عن ذلك في ذلك الوقت لأنه وقت يذكر الله فيه فلا يشتغل بغيره . ويجعل أن المراد بالصوم
الرمي ؛ لأنها إذا رمت الرمي قبل شروق الشمس عليه وهو نكح أحابها منه داء قحط ؛ وذلك صرف عنه أهل المال
من العرب » . (٢) كذا في ديوانه - ورواية الأغانى (ج ٨ ص ٣١٩ طبع دار الكتب المصرية) :
« كبن الزينة ... » والقي في الأصول : « مثل ابن بركة » - وبنى ابن بركة : شهاد بن المطراخا حين
القتل . وقوله « ككرومك » بنى حوشب بن زعيم - (٣) أولئك : وبل لك ، فهي كلمة تعال في مقام
التهديد والوعيد . وقال الأنصبي : حينها قاربه ما يهلكه ، أي يؤكله .
(٤) المروج (كسفت) : أبو زيد عمرو بن الحارث السخري البصري أحد أئمة اللغة والأدب .

هَذَا تَمُّ وَارِدٌ ، وَيَجْعُ أَنْعَامًا . قَالَ الْمَرْوِيُّ : وَالنَّعْمُ يَذْكُرُ وَيُؤْتَى ، وَالْأَنْعَامُ الْمَوَاتَى مِنْ
الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالنَّعَمِ ؛ وَإِذَا قِيلَ : النِّعَمُ فَهُوَ الْإِبِلُ خَاصَّةٌ . وَقَالَ حَسَنٌ :
وَكُنْتُ لَا يَزَالُ بِهَا أَنْيْسٌ . خِلَالُ مَرْوَجِهَا تَمُّ وَثَاءٌ

وَفِي سَنَنِ ابْنِ مَاجَهٍ عَنْ عُرْوَةَ الْبَارِقِيِّ يَرْفَعُهُ قَالَ : « الْإِبِلُ عِزٌّ لِأَهْلِهَا وَالنِّعَمُ بَرَكَةٌ وَالْخَيْرُ مَعْقُودٌ
فِي نَوَاصِي الْخَيْلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » . وَفِيهِ عَنْ ابْنِ عَمْرٍو قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« الشَّاةُ مِنْ دَوَابِّ الْحَيَّةِ » . وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
الْأَغْنِيَاءَ بِاتِّخَاذِ النِّعَمِ ، وَالْفُقَرَاءَ بِاتِّخَاذِ الدُّبَاغِ ، وَقَالَ : عِنْدَ اتِّخَاذِ الْأَغْنِيَاءِ الدُّبَاغِ يَأْذَنُ اللَّهُ بِهَلَاكِ
الْقُرَى . وَفِيهِ عَنْ أُمِّ هَانِيٍّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهَا : « لَتُخْذِي غَنَاءً فَإِنَّ فِيهَا بَرَكَةً » .
بَأَخْرَجِهِ عَنْ أَبِي بَكْرٍ عَنْ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ وَكِيعٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أُمِّ هَانِيٍّ ، إِسْنَادٌ
صَحِيحٌ .

التاسعة - قوله تعالى : (وَالْحَرْثُ) الْحَرْثُ هُنَا اسْمٌ لِكُلِّ مَا يُحْرَثُ ، وَهُوَ مُصَدَّرٌ
سَمِّيَ بِهِ ؛ فَتَقُولُ : حَرَّثَ الرَّجُلُ حَرْثًا إِذَا أُنَارَ الْأَرْضَ بِمَعْنَى الْفَيْلَاحَةِ ؛ فَيَقَعُ اسْمُ الْحَرْثَةِ عَلَى
زَرْعِ الْحَبُوبِ وَعَلَى الْخَنَاطِثِ وَعَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ نَوْعِ الْفَيْلَاحَةِ . وَفِي الْحَدِيثِ : « أُحْرِثُ لَدُنْيَاكَ
كَأَنَّكَ تَمِيشُ أَبَدًا » . يُقَالُ حَرَّثْتُ وَاحْتَرْتُ . وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ « أُحْرِثُوا هَذَا الْقَرْيَةَ »
أَيَّ قَشَرُوهَا . قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : الْحَرْثُ التَّقْنِيشُ . وَفِي الْحَدِيثِ : « أَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ الْحَارِثُ »
لِأَنَّ الْحَارِثَ هُوَ الْكَاسِبُ . وَاحْتَرَاتِ الْمَالُ كَسْبُهُ . وَالْحَرَاتُ مُسْعَرُ النَّارِ . وَالْحَرَاتُ
بِجَمْعِ الْوَرْتِ تَرْفِي الْفُوسِ ، الْجَمْعُ أَحْرِمَةٌ . وَأَحْرَثَ الرَّجُلُ نَاقَتَهُ حَزَنًا لَهَا . وَفِي حَدِيثِ عَمَّارِ بْنِ
مَافِعٍ نَوَاصِيكُمْ ؟ قَالُوا : حَرَّتْهَا يَوْمَ بَدْرٍ . قَالَ أَبُو عَمِيرَةَ : يَعْنُونَ هَزَنَ لَهَا ؛ يُقَالُ :
حَرَّثْتُ الْمَاءَ وَاحْتَرَّتْهَا ، لَتَنْتَانِ . وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي أَسَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ وَقَدْ رَأَيْتُ سِكَّةً^(١)

(١) التَّوَارِخُ مِنَ الْإِبِلِ الَّتِي يَسْتَقِي عَلَيْهَا وَوَاحِدُهَا نَاصِخٌ . وَالنَّصَابُ لِلْأَنْسَارِ ، وَقَدْ قَدَّرُوا عَنْ تَقْلِيدِ النَّاسِ ؛ وَأَرَادَ
مِثْلَ ذَلِكَ نَوَاصِيكُمْ تَقَرُّبًا لَمْ يَتَعَرَّضُوا ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ دَوْعٍ وَحَرَّتْ وَسَقَ ، فَأَجَابُوهُ بِمَا أَسْكَنَهُ ، فَهِيَ بِرَدِّهَا
يَقُولُ « غَزَلْنَا يَوْمَ بَدْرٍ » الْفَرَسُ يَمُتِلُ أَشْيَاخَهُ يَوْمَ بَدْرٍ . (عَنْ نَهْائَةِ ابْنِ الْأَثِيرِ) .

(٢) السِّكَّةُ (بِكَسْرِ الِیْنِ وَتَشْدِيدِ الْكَافِ الْمَقْرُوعَةِ) : الْحَدِيدَةُ الَّتِي تُحْرَثُ بِهَا الْأَرْضُ .

وشيثاً من آله الحارث فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يدخل هذا بيت قوم إلا دخله النذل " . إن النذل هنا ما يلزم أهل الشغل بالحارث من حقوق الأرض التي يطالبهم بها الأئمة والسلاطين . وقال المهلب : معنى قوله في هذا الحديث والله أعلم المحض على معالي الأحوال وطلب الرزق من أشرف الصناعات ؛ وذلك لما خشى النبي صلى الله عليه وسلم على أئمنه من الاشتغال بالحارث وتضييع ركوب الخيل في سبيل الله ؛ لأنهم إن اشتغلوا بالحارث غلبتهم الأثم الراكبة لتجمل المتعيشة من مكاسبها ؛ فغضهم على التعيش من الجهاد لا من الخلود إلى عمارة الأرض ولزوم المهنة . ألا ترى أنه عمر قال : تمجدوا واخشوشنوا^(١) وأقطعوا الركب وثبوا على الخيل وثباً لا تغلبنكم عليها رعاة الإبل . فأمرهم بملازمة الخيل ، ورياضة أبدانهم بالوثوب عليها . وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما من مسلم غرس غرساً أو زرع زرعاً فبا كل منه طيراً أو إنساناً أو بهيمة إلا كان له به صدقة " .

قال العلماء : ذكر الله تعالى أربعة أصناف من المال كل نوع من المال يتمثل به صنف من الناس . أما الذهب والفضة فيتمول بها التجار . وأما الخيل المستومة فيتمول بها الملوك . وأما الأنعام فيتمول بها أهل البوادي . وأما الحارث فيتمول به أهل الرساتيق . فتكون فئة كل صنف في النوع الذي يتمول به . فاما النساء والبون ففئة للجميع .

العاشر - قوله تعالى : (ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أي ما يمتنع فيها ثم يذهب ولا يبقى . وهذا منه ترهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة . وروى ابن ماجه وغيره عن عبد الله بن عمر أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما الدنيا متاع وليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة " . وفي الحديث : " إزهد في الدنيا يُحِبَّك الله " أي في متاعها من الجاه والمال الزائد على الضروري . قال صلى الله عليه وسلم : " ليس لابن آدم حق في سوى هذه

(١) الفة القصص من الإخلاص - (٢) يقال : تمجد الغلام إذا شب وظل . وقيل : أراد تشبهاً بيش منه بن عدنان وكانوا أهل غلظ وقش ؟ أي كونوا منهم ودعوا التمجيد والسم . (٣) في نسخة الإمام أحمد بن حنبل : « وأقوا الركب » . ولم يوفق لمراده . (٤) الرساتيق : البوادي والقرى راسطاً وساقاً .

الْحَصَالُ يَتَّيَسَّرُ بِكَوْنِهِ وَيُؤَيِّدُ حُجَّتَهُ وَيُخَلِّصُ الْغَلْبَةَ وَالْمَنَاجِيَةَ (١١) خَرَجَهُ الْغَلْبَةُ مِنْ حَلَّتِ
الْمَقَامَ بِنَحْوِ كَرْبٍ - وَسُئِلَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : يَمْ يَهْلُ عَلَى الْمَدِّ تَرَكَ الدُّنْيَا وَجَعَلَ
الشُّهُوتَ ؟ قَالَ : يَتَشَاغَلُ بِمَا أُسْرِ بِهِ .

الحادية عشرة - قوله تعالى : (وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَالِ) إِبْتِلَاءٌ وَخَبْرٌ . وَالْمَالُ
الْمَرْجِعُ ، أَبِ يَرْوِبُ إِيَابًا إِنْ رَجِعَ . قَالَ تَأْمُرُ الْقَيْسَ :

وَقَدْ طَوَّفْتُ فِي الْإِلَاقِ حَتَّى . وَصِيتُ مِنَ النِّعَمَةِ بِالْإِيَابِ

وَقَالَ آتَم :

تَوَكَّلْ ذِي غِيَةِ يَرْوِبُ . وَغَائِبُ الْمَوْتِ لَا يَرْوِبُ

وَأَصْلُ مَالٍ مَأْوَبٌ ، قُلْتُ حَرَكَةُ الْوَاوِ إِلَى الْمُعْزَةِ وَأَبْدَلُ مِنَ الْوَاوِ الْفَ ، مِثْلُ مَقَالٍ . وَمَعْنَى
الآيَةِ تَقْلِيلُ الدُّنْيَا وَتَحْقِيرُهَا وَالتَّوْبُّ فِي حَسَنِ الْمَرْجِعِ إِلَى اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ .

قوله تعالى : قُلْ أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ بِحَبْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ آتَقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ
جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ
مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ (١٢)

منهى الاستفهام عند قوله : « مِنْ ذَلِكَ » . « لِلَّذِينَ آتَقَوْا » خبر مقدم ، « وَجَنَّتْ »
رفع بالابتداء . وقيل : منتهى « عِنْدَ رَبِّهِمْ » ، و « جَنَّتْ » على هذا رفع بإضمار مضمير تقديره
ذلك جَنَّتْ . ويعوز على هذا التأويل « جَنَّتْ » بالخفض بدلاً من « خَيْرٌ » ولا يعوز ذلك
على الأول . قال ابن عطية : وهذه الآية وإحدى نظير قوله عليه السلام : « تَتَكَلَّحُ الْمَرْأَةُ
لَأَرْجِي بِسَالِمًا وَحَسْبًا وَجَاهًا وَدِينًا فَاطْفَرُ بِذَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ بِذَلِكَ » خَرَجَهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ .
فقوله « فَاطْفَرُ بِذَاتِ الدِّينِ » مِثَالٌ لِهَذِهِ الْآيَةِ . وما قيلُ مِثَالٌ لِلأُولَى . فذكر تعالى هذه
تسلياً عن الدنيا وتوثيقاً لنفوس تاركها . وقد تَهَمَّسَ فِي الْبَقَرَةِ مَعَانِي الْقَاطِظِ هَذِهِ الْآيَةِ .

(١) ابليت (بكر فكون) : الخبز وحده لا آدم معه ، وقيل : هو التمر القليل القليل .

(٢) رابع جلد ١ ص ٣٩ من هذا الجزء .

وَالرَّضْوَانُ مُصَدَّرٌ مِنَ الرِّضَا، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ "تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟" فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا وَآيُ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ: "رَضَى قَلْبُكَ أَفْضَلُ مِنْ بَدَنِكَ" نَزَّجَهُ مُسْلِمٌ. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَاللَّهُ يَصِيرُ بِالْغَيَاةِ» وَعَدُّ وَوَعْدٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّالِحِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

(الذين) بدل من قوله «الَّذِينَ آمَنُوا» وإن شئت كان رُفِعَ أَيُّ هُمُ الَّذِينَ، أَوْ نَصَبًا عَلَى الْمَحَلِّ. (رَبَّنَا) أَيُّ يَا رَبَّنَا. (إِنَّا أَمَّا) أَيُّ صَدَقْنَا. (فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا) دَعَا بِالْمَغْفِرَةِ. (وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) تَقَدَّمَ فِي الْبَقَرَةِ. (الصَّابِرِينَ) يَعْنِي عَنِ الْمَعَاصِي وَالشُّبُهَاتِ، وَقِيلَ: عَلَى الطَّاعَاتِ. (وَالصَّالِحِينَ) أَيُّ فِي الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ. (وَالْقَانِتِينَ) الطَّائِعِينَ. (وَالْمُنْفِقِينَ) يَعْنِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْبَقَرَةِ هَذِهِ الْمَعْنَى عَلَى الْكُلِّ. فَيُفَسِّرُ تَعَالَى فِي هَذِهِ آيَةِ أَحْوَالِ الْمُتَّقِينَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّاتِ.

وَاخْتَلَفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ) فَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: هُمُ السَّائِلُونَ الْمَغْفِرَةَ. فَتَأَدَّى: الْمَصْلُوكُونَ.

قُلْتُ: وَلَا تَنَاقُضَ، فَلَهُمْ يَصَلُّونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ. وَخُصَّ السَّحَرُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ مَقَاتِلُ الْقَبُولِ وَوَقْتُ إِبْجَابَةِ الدُّعَاءِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى خُبْرًا عَنْ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ السَّامِيُّ: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» : «إِنَّهُ أَنْزَلَ ذَلِكَ إِلَى السَّحَرِ» نَزَّجَهُ الرَّبْدِيُّ وَسَيَاتِي. وَسَأَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَبْرِيلَ «أَيُّ اللَّيْلِ أَشْمَعُ؟» فَقَالَ: «لَا أَدْرِي غَيْرَ أَنَّ الْعَرَشَ يَهْتَزُّ عِنْدَ السَّحَرِ». يَقَالُ سَحَرٌ وَسَحَرٌ، بَفَتْحِ الْحَاءِ وَسُكُونِهَا. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: السَّحَرُ مِنْ حِينَ يُدْبِرُ اللَّيْلُ إِلَى أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ الثَّانِي. وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ: السَّحَرُ هُوَ سُدُسُ اللَّيْلِ الْآخِرِ.

(١) راجع المسألة الثانية ج ٢ ص ٤٢٤ طبع ثانية

(٢) راجع ج ١ ص ١٤٨، ١٤٧، ٢٢٢، ٣٧٦ وراجع المسألة الخامسة ج ٣ ص ١١٣

قلت : أجمع من هذا ما رَوَى الأئمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
 « يُنَزَّلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا كُلِّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثَلَاثُ اللَّيْلِ الْأُولَى يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ
 أَنَا الْمَلِكُ مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَاسْتَجِيبُ لَهُ مِنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي
 فَأَغْفِرُ لَهُ . فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَطْلُعَ النَّجْمُ » فِي رِوَايَةٍ « حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ » لَفْظُ مُسْلِمَ .
 وَهَذَا اخْتَلَفَ فِي تَأْوِيلِهِ ؛ وَأَوَّلَى مَا قِيلَ فِيهِ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ النَّسَائِيِّ مَقْسُومًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ
 وَأَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنْ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ
 يَهْمِلُ حَتَّى يَمْضِيَ شَطْرُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ ثُمَّ يَأْمُرُ مُنَادِيًا يَقُولُ هَلْ مِنْ دَاعٍ يَسْتَجِيبُ لَهُ هَلْ مِنْ
 مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى » . فَحُصِّصَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْحَقِّ ، وَهُوَ رِوَيْعُ الْإِسْكَانِ
 وَيُوضَعُ كُلُّ أَحْتِمَالٍ ، وَأَنَّ الْأَوَّلَ مِنْ بَابِ حَذْفِ الْمُضَافِ ، أَيْ يَنْزِلُ مَلَكٌ رَبَّنَا يَقُولُ . وَهَذَا
 رَوَى « يُنَزَّلُ » بضم الباء ، وهو يبين ما ذكرنا ، وبالله توفيقنا . وَهَذَا أَتَيْنَا عَلَى ذِكْرِهِ « لِلْكَتَابِ
 الْأَوَّلِيِّ فِي شَرْحِ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى » .

مسألة - الاستغفار مندوب إليه ، وقد أثنى الله تعالى على المستغفرين في هذه الآية
 وَغَيْرِهَا قَالَ : « وَبِالْأَمْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » . وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ : أَمْرًا أَنْ نَسْتَغْفِرَ بِالسَّحَرِ
 سَبْعِينَ اسْتِغْفَارَةً . وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : بَلَّغْنِي أَنَّهُ إِذَا كَانَ أَوَّلُ اللَّيْلِ نَادَى مُنَادٍ يُقِيمُ الْقَائِمُونَ
 فَيَقُومُونَ كَذَلِكَ يَصَلُّونَ إِلَى السَّحَرِ . فَإِذَا كَانَ عِنْدَ السَّحَرِ نَادَى مُنَادٍ أَيْنَ الْمُسْتَغْفِرِينَ فَيَسْتَغْفِرُ
 أُولَئِكَ وَيَقُومُونَ أَتَرُونَ فَيَصَلُّونَ فَيَلْحَقُونَ بِهِمْ . فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ نَادَى مُنَادٍ : أَلَا يُقِيمُ الْغَائِلُونَ فَيَقُومُونَ
 مِنْ قُرُشِهِمْ كَالْمَوْقِ تُشِيرُوا مِنْ قُبُورِهِمْ . وَرَوَى عَنْ أَنَسٍ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :
 « إِنْ اللهُ يَقُولُ إِنِّي لَأَكْثَرُ مُذَابٍ أَهْلَ الْأَرْضِ فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ مَرْثَدَةَ وَإِلَى الْمُتَحَايِينَ فِي
 وَإِلَى الْمُتَهَبِّدِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَمْحَارِ صَفَرْتُ عَنْهُمْ الْمَذَابَ بِهِمْ » . قَالَ مَكْهُولٌ : إِذَا كَانَ فِي
 أُمَّةٍ خَمْسَةٌ عَشَرَ رَجُلًا يَسْتَغْفِرُونَ اللهُ كُلَّ يَوْمٍ نَحْمًا وَعَشْرِينَ مَرَّةً لَمْ يُؤَاخِذْ اللهُ تِلْكَ الْأُمَّةَ
 بِمَذَابِ الْعَامَةِ . ذَكَرَهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي كِتَابِ الْحَلِيقَةِ لَهُ . وَقَالَ نَافِعٌ : كَانَ ابْنُ عَمْرِو بْنِ الْقَيْسِ فِي

يقول : يا نافع أختبرنا ؟ فأقول لا . فيعاود الصلاة ثم يسأل ، فإذا قلت نعم فقد يستغفر .
وروى إبراهيم بن حاطب عن أبيه قال : سمعت رجلا في السحر في ناحية المسجد يقول :
يا رب ، امرئى فاطمك ، وهذا سحر فأغفر لي ، فنظرت فإذا ابن مسعود .

قلت : فهذا كله يدل على أنه استغفار باللسان مع حضور القلب ، لا ما قال ابن زيد
أن المراد بالاستغفرين الذين يصلون صلاة الصبح في جماعة . والله أعلم . وقال لقمان لابنه :
"يا بني لا يكن الدُّبُّ لك كبس منك ، يُنادى بالأصباح وأنت نائم" . والمختار من لفظ الاستغفار
ما رواه البخاري عن شذاد بن أوس ، وليس له في الجامع غيره عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال : "سُبِّدِ الاستغفار أن تقول اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على
مهدك ووعيك ما استطعت أعود بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي
فغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت" قال سونن قالها من التمار مؤقنا بها فأت من يومه قبل
أن يمسي فهو من أهل الجنة ومن قالها من الليل وهو مؤقن بها فأت من ليله قبل أن يصبح
فهو من أهل الجنة" . وروى أبو محمد عبد الله بن سعيد من حديث ابن أبي عمير
عن أبي معاوية عن سعيد بن جبيرة عن أبي الصبيان البكري عن علي بن أبي طالب رضي الله
عنه أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثم قال :
"إِلَّا أَتَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ يَقُولُنَّ لَوْ كَانَتْ ذُنُوبُكَ كَذُنُوبِ النَّمْلِ - أَوْ كَذُنُوبِ الذَّرِّ - لَنَفَرَهَا اللَّهُ لَكَ هَلِ
أَنَّهُ مَغْفُورٌ لَكَ : اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبِّحَانَكَ عَمِلْتُ سُوءًا وَظَلَمْتُ نَفْسِي فَاعْفُرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ
لِلذُنُوبِ إِلَّا أَنْتَ" .

قوله تعالى : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ
قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قال سعيد بن جبيرة : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنعة فلما نزلت هذه
الآية تَمَرَّتْ مِنَّا . وقال الكلبي : لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة قدم عليه

جَبْرَانِ من أحبار أهل الشام؛ فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان! . فلما دخلا على النبي صلى الله عليه وسلم عرفاه بالصفة والتمت، فقالا له: أنت محمد؟ قال "نعم". قالوا: وأنت أحد؟ قال "نعم". قالوا: نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصديقناك. فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سَلَانِي". فقالا: أخبرنا عن الأعظم شهادة في كتاب الله. فانزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِنَقِصِطٍ» فأسلم الرجلان وصتفا برسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد قيل: إن المراد بأولي العلم الأنبياء عليهم السلام. وقال ابن كيسان: المهاجرون والأنصار. مُقَاتِل: مؤمنو أهل الكتاب. السُدَى والكلبي: المؤمنون كلهم؛ وهو الأظهر لأنه عام.

الثانية - في هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء؛ فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه وأسم ملائكته كما قرن اسم العلماء. وقال في شرف العلم لنبيه صلى الله عليه وسلم: «وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا». فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستريده من العلم. وقال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ». وقال: «الْعُلَمَاءُ أُمَّتَاءُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ». وهذا شرف للعلماء عظيم، ومحل لهم في الدين خطير. ونرج أبو محمد عبد الغني الحافظ من حديث بركة ابن نَسِيط - وهو عنك بن حكارك ونفسه بركة بن نَسِيط - وكان حافظا، حدثنا عمر بن المؤمل حدثنا محمد بن أبي الخَصِيب حدثنا عنك حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا شريك عن أبي إسماعيل عن البراء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ يَحِبُّهُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ وَيَسْتَغْفِرُ لَهُمُ الْحَيَاتَانِ فِي الْبَحْرِ إِذَا مَاتُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». وفي هذا الباب [حديث] عن أبي الدرداء نرجه أبو داود.

الثالثة - روى غالب القَطَّان قال: أتيت الكوفة في تجارة فترلت قريبا من الأعمش فكنت أختلف إليه. فلما كان ليلة أردت أن أنحدر إلى البصرة قام فتهجد من الليل فقرأ بهذه الآية: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِنَقِصِطٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

العزيز الحكيم . إنا الدين عند الله الإسلام » قال الأعمش : وأنا أشهد بما شهد الله به ،
 واستودع الله هذه الشهادة وهي لي وديعة ، وأن الدين عند الله الإسلام - قالها مراراً -
 فحدثت إليه وودعته ثم قلت : إني سمعتك تقرأ هذه الآية فما بلغك فيها ؟ أنا عندك منذ سنة
 لم تحدثني به . قال : والله لاحديثك به سنة . قال : فاقمت وكتبت على بابك ذلك اليوم ،
 فلما مضت السنة قلت : يا أبا محمد قد مضت السنة . قال : حدثني أبو وائل عن عبد الله
 ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَمُوءُ بِصَاحِبِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ اللَّهُ
 تَعَالَى عَبْدِي عَيْدٍ إِلَى وَأَنَا أَحَقُّ مَنْ وَقَى أَذْخَلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ » . قال أبو الفرج الجوزي :
 غالب القائلان هو غالب بن خُطَّاف ^(١) يروى عن الأعمش حديث « شهد الله » ، وهو حديث
 مُعْفَل ^(٢) . قال ابن عدي الضعيف على حديثه . وقال أحمد بن حنبل : غالب بن خُطَّاف
 الثَّقَلَانِ يَمُوءُ هَذِهِ . وقال ابن معين : يَمُوءُ . وقال أبو نعيم : صدوق صالح .

قلت : يكفيك من عدائته وصلفه وقتله أن نخرج له البخاري ومسلم في كتابيهما ،
 وحديثك . وروى من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ قَرَأَ شَهِدَ اللَّهُ
 أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ عِنْدَ مَنَامِهِ
 خَلَقَ اللَّهُ لَهُ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » . وبهال : مَنْ أَقْبَرَهُ هَذِهِ الشَّهَادَةُ
 حِينَ عَقْدِ مَنْ قَلْبُهُ فَقَدْ قَامَ بِالْعَدْلِ . وروى عن سعيد بن جبيرة أنه قال : كان حول الكعبة
 ثلاثمائة وستون صنماً لكل حيٍّ من أحياء العرب صنمٌ أو صنآن ، فلما نزلت هذه الآية أصبحت
 الأصنام قد تحوت ساجدة لله .

الرابسة - قوله تعالى : (شَهِدَ اللَّهُ) أي بين وأعلم ، كما يقال : شهد فلان عند القاضي
 إذا بين وأعلم لمن الحق أو علم من هو . قال الزجاج : الشاهد هو الذي يعلم الشيء وبهينه ، فقد
 دللنا الله تعالى على وحدانيته بما خلق وبين . وقال أبو حنيفة : « شهد الله » بمعنى قضى الله
 أي أعلم . قال ابن عطية : وهذا مردود من جهات . وقرأ اليكساني بفتح « أ » في قوله

(١) بنسب الخلاء ، وقيل بنسبها . (٢) المخل من الحديث ، مأخوذ من إسناده إمامان ضعفاء .

« أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » وقوله « أَتَى النَّبِيُّ » . قال المبرد : التقدير : أَنَّ الدين عند الله الإسلام بأنه لا إله إلا هو ، ثم حذفت الباء كما قال : أمرتك الخير أي بالخير . قال الكسائي : أتيتها جميعا ، بمعنى شهد الله أنه كذا ، وأَنَّ الدين عند الله . قال ابن كثير : « أَتَى » الثانية بدل من الأولى ؛ لأنَّ الإسلام تفسير المعنى الذي هو التوحيد . وقرأ ابن عباس فيما حكى الكسائي « شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ » بالكسر « أَتَى الدين » بالفتح . والتقدير : شهد الله أَنَّ الدين الإسلام ، ثم ابتداء فقال : إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . وقرأ أبو المطلب وكان قارئاً — شَهِدَ اللَّهُ بِالنَّصْبِ عَلَى الْحَالِ ، وعنه « شَهِدَ اللَّهُ » . وروى شعبة عن عاصم عن زُرْعَةَ عَنْ أَبِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ « أَنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْحَنِيفَةُ لَا يَهُودِيَّةَ وَلَا نَصْرَانِيَّةَ وَلَا مَجُوسِيَّةَ » . قال أبو بكر الأثاري : ولا يخفى على ذي تمييز أنَّ هذا كلام من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جهة التفسير ، أدخله بعض من نقل الحديث في القرآن . و (قَائِمًا) نصب على الحال المؤكدة من اسمه تعالى في قوله « شَهِدَ اللَّهُ » أو من قوله « إِلَّا هُوَ » . وقال الفراء : هو نصب على القطع ، كان أصله القائم ، فلما قطعت الألف واللام نُصِبَ كقوله : « وَلَهُ الدِّينُ وَأَصَابَا » . وفي قراءة عبيد الله « الْقَائِمُ بِالْقِسْطِ » على النعت . والقِسْطُ العدل . (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) كثر لأن الأولى حَلَّتْ محل الدعوى ، والشهادة الثانية حَلَّتْ محل الحكم . وقال جعفر الصادق : الأولى وصفٌ وتوحيد ، والثانية رسمٌ وتعليم ؛ يعني قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ العزیز الحکیم .

قوله تعالى : إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِمَا نَبَتْ اللَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) الدِّينُ في هذه الآية الطاعة والملة ، والإسلام بمعنى الإيمان والطاعات ؛ قاله أبو العالية وطليه جمهور المتكلمين . والأصل في معنى الإيمان

والإسلام، التنازع، الحديث جبريل . وقد يكون بمعنى المرافقة، فيسمى كل واحد منهما باسم الآخر، كما في حديث وفد عبد القيس^{١٢٢} وأنه أمرهم بالإيمان^{١٢١} وعده وقال : " هل تدرون ما الإيمان ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : " شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تؤدوا خمساً من الخمس " الحديث . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " الإيمان يضع وسببون باباً فادناها إمالة الأذى وأرضها قول لا إله إلا الله " أخرجه الترمذي . وزاد مسلم " والحياة شعبة من الإيمان " . ويكون أيضاً بمعنى التداخل ، وهو أن يعلقت أحدهما ويراد به مسماه في الأصل ومسمى الآخر، كما في هذه الآية إذ قد دخل فيها التصديق والأعمال ؛ ومنه قوله عليه السلام : " الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان " . أخرجه ابن ماجه ، وقد تقدم . والحقيقة هو الأول وضماً وشرطاً ، وما عدها من باب التوسع . والله أعلم .

قوله تعالى : (وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ) الآية . أخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب أنه كان على علم منهم بالحقائق ، وأنه كان نبياً وطلباً للدنيا ؛ قاله ابن جرير وغيره . وفي الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : وما اختلف الذين أوتوا الكتاب نبياً بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم ؛ قاله الأخفش . قال محمد بن جعفر بن الزبير : المراد بهذه الآية النصارى ، وهو توبيخ لنصارى نجران . وقال الربيع بن أنس : المراد بها اليهود . ولفظ الذين أوتوا الكتاب يعم اليهود والنصارى ؛ أي « وما اختلف الذين أوتوا الكتاب » يعني في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . إلا من بعد ما جاءهم العلم » يعني ببيان صفة ونبوته في كتبهم . وقيل : أي وما اختلف الذين أوتوا الكتاب في أمر عيسى وقرئوا فيه القول إلا من بعد ما جاءهم العلم بأن الله إله واحد وأن عيسى عبد الله ورسوله . و « نبياً » نصب على المفعول من أجله ، أو على الحال من « الذين » . والله تعالى أعلم .

(١) راجع هذا الحديث في صحيح البخاري ومسلم في كتاب الإيمان الجزء الأول .

(٢) هو عبد القيس بن ابي ذر ، أيرحمه الله ، كانوا يلقون البحرين وكان تقدمهم ما لم يفتح على رأسهم عبد الله بن حوف الأنجي . (راجع كتاب الطبقات الكبير . ج ١ ، قسم ثان ص ٤٠ طبع أدباً ، وفتح القسطلاني ص ١٩٢ طبع طبع) .

قوله تعالى : فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةِ أَسْلَمْتُ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ احْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى : ((فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ)) أى جلدك بالانحياز للزورة والمغالطات ، فاستند أمرك الى ما كتبت من الإيمان والتبليغ وعلى الله نصرتك . وقوله « وَجْهِي » بمعنى ذاتي ومنه الحديث «تَجِدْ وَجْهِي الَّذِي خَلَقَهُ وَصُورَهُ» . وقيل : الوجه هنا بمعنى القصد ؛ كما تقول : نرجع فلان في وجه كذا . وقد تقدم هذا المعنى في البقرة مستوفى ؛^(١) والأول أولى . وعبر بالوجه عن سائر الذات إذ هو أشرف أعضائه للشخص وأجمعها للمراس . وقال :

أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ • لَهُ الْمَزْنُ تَحْمِلُ عَذَابًا زَلَالًا

وقد قال حُذَّاقُ المتكلمين في قوله تعالى «وَيَتَّبِعْ وَجْهَ رَبِّكَ» : إنها عبارة عن الذات ، وقيل : الفعل الذي يقصد به وجهه . وقوله : « وَمَنِ اتَّبَعَنِ » « مَنْ » في عمل رفع حطفا على التاء في قوله « أَسْلَمْتُ » أى وَمَنِ اتَّبَعَنِ أَسْلَمَ أيضا . وجاز العطف على الضمير المرفوع من غير تأكيد للفصل بينهما . وأثبت نافع وأبو عمرو ويعقوب ياء « اتَّبَعَنِ » على الأصل ، وحذف الآخرون اتباعا للصحف إذ وقعت فيه بغير ياء . وقال الشاعر :

ليس تخفى بسارتي قدر يوم • ولقد تُخِيفُ شَيْئِي إِصْصَارِي

قوله تعالى : ((وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةِ أَسْلَمْتُ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ احْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)) معنى اليهود والنصارى والأُمِّيَّة الذين لا كتاب لهم وهو مشركو العرب . « أَسْلَمْتُ » استفهام معناه التثنية في ضمة الأمر ، أى أسلموا ؛ كما قال الطبري وغيره . وقال الزجاج : « أَسْلَمْتُ » تهديد . وهذا حسن ، لأن المعنى أسلمتم أم لا . وجعلت العبارة في قوله « فَقَدِ احْتَدَوْا » بالماضي مبالغة في الإخبار بوقوع الهدى لهم

(١) راجع : ص ٤٤ طبع ثانية •

وتحمله . و « البلاغ » مصدر بلغ تخفيف عين الفعل ، أى إنما عليك أن تبلغ . وقيل : إنه مما تُسَخَّ بالجهاد . قال ابن عطية : « وهذا يحتاج إلى معرفة تاريخ نزولها ؛ وأما على ظاهر نزول هذه الآيات في وفد تجران فإِنما المعنى فإِنما عليك أن تبلغ ما أُنزل إليك بما فيه من قتال وغيره » .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بْنَ مَرْيَمَ حَقَّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ٢٢** فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بْنَ مَرْيَمَ)** قال أبو العباس المبرد : كان ناس من بني إسرائيل جامعهم النبتون يدعونهم إلى الله عز وجل فقتلوه ؛ فقام أناس من بعدهم من المؤمنين فأمرهم بالإسلام فقتلوه ؛ فبشّرهم نزلت الآية . وكذلك قال معقل بن أبي مسكين : كانت الأنبياء صلوات الله عليهم تهيء إلى بني إسرائيل بغير كتاب فيقتلونهم ، فيقوم قوم ممن أتبعهم فيأمرهم بالقسط ، أى بالعدل ، فيقتلون ، وقد روى عن ابن مسعود قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : **« بئس القوم قوم يقتلون الذين يأمرهم الناس بالقسط من الناس بئس القوم قوم لا يأمرهم بالمعروف ولا يَنْهَوْنَ عن المنكر بئس القوم قوم يمشى المؤمن بينهم بالتيّة »** ، وروى أبو عبيدة بن الجراح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **« قتل بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة فقام مائة رجل واثنا عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر فقتلوا جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم وهم الذين ذكرهم الله في هذه الآية »** . ذكره المهدوي وغيره . وروى شعبة عن أبي إسحاق عن أبي صيدة عن عبد الله قال : كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم سبعين نبياً ثم تقوم سوقاً بقلهم من آخر

النهار . فإن قال قال : الَّذِينَ وَغَطُوا يَهَنَّا لَمْ يَمُوتُوا قِيًّا . فالجواب عن هذا أنهم رَضُوا نَفْلَ
من قَتَلَ فكَانُوا بِمِزْلَةٍ ، وأيضاً فإنهم قَاتَلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ وَمُتُوا بِجِلْمِهِمْ ،
قال الله عز وجل : « وَإِذْ يَتَكَبَّرُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِتُثْبِتُوا كُفْرَهُمْ أَوْ يَقْتُلُوكَ » .

الثانية - دلت هذه الآية على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجباً في الأمر
المتقدمة ، وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوة . قال الحسن قال النبي صلى الله عليه وسلم :
« مَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَهُوَ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَخَلِيفَةُ رَسُولِهِ وَخَلِيفَةُ كَلِمَةِ اللَّهِ » .
وعن دُرَّة بنت أبي طَيْبٍ قالت : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو مل للمبر قال :
« مَنْ خَيْرُ النَّاسِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ » قال : « أَمَرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَعْلَمَهُمْ شُؤْلَهُمْ وَأَصْلَهُمْ » .
وفي التزويل : « وَالْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ » .
ثم قال : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » .
بفعل تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقاً بين المؤمنين والمتقين ، فقد مل أن أحسن
أوصاف المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليه .
ثم إن الأمر بالمعروف لا يليق بكل أحد ، وإنما يقوم به السلطان إذا كانت إقامة الحدود
إليه والتعزير إلى رأيه والحبس والإطلاق له والنهي والتغريب ، فينصب في كل بلدة رجلاً
صالحاً قوياً عالماً أميناً يأمره بذلك ، ويمضي الحدود على وجهها من غير زيادة . قال الله تعالى :
« الَّذِينَ إِنْ مَكَامُ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ » .

الثالثة - وليس من شرط التأهي أن يكون عدلاً عند أهل السنة خلافاً للبدعة حيث
تقول : لا يغيره إلا عدل . وهذا ساقط ، فإن العدالة محصورة في القليل من الخلق ، والأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر عام في جميع الناس . فإن تشبهوا بقوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ
بِالْبِرِّ وَتَنْهَوْنَ عَنْكَ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » ونحوه ، قيل
لهم : إنما وقع الذم ما هنا على ارتكاب ما نهى عنه لا على النهي عن المنكر . ولا شك في أن

النهي عنه ممن يأتيه أفبح ممن لا يأتيه، ولذلك يدور في جهنم كما يدور الجمار بالزحى، كما بيناه في البقرة عند قوله تعالى «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ» .

الرابعة - أجمع المسلمون فيما ذكر ابن عبد البر أن المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه، وأنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا الألوام الذي لا يتعدى إلى الأذى فإن ذلك لا ينبغي أن يمتنع من تغييره؛ فإن لم يقدر فبلسانه، فإن لم يقدر فقبله ليس عليه أكثر من ذلك . وإذا أنكر قبله فقد أدى ما عليه إذا لم يستطع سوى ذلك . قال : والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في تأكيد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جدًا ولكنها مقيّدة بالاستطاعة . قال الحسن : إنما يكلم مؤمن يرضى أو جاهل يعلم؛ فأتا من وضع سيفه أو سوطه فقال : انتهى انتهى فما لك وله . وقال ابن مسعود : يحسب المرء إذا رأى منكراً لا يستطيع تغييره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره . وروى ابن أبي عمير عن الأعرس عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يحسن المؤمن أن يذلل نفسه» . قالوا : يارسول الله وما إذلاله نفسه ؟ قال : «يتعرض من البلاء ليسا يقوم له» .

قلت : ونرجه ابن ماجه عن علي بن زيد بن جُدعان عن الحسن بن جُنْدُب عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلاهما قد تكلم فيه . وروى عن بعض الصحابة أنه قال : إن الرجل إذا رأى منكراً لا يستطيع التكبر عليه فليقل ثلاث مرات «اللهم إن هذا منكرك» فإذا قال ذلك فقد فصل ما عليه، وزعم ابن العربي أن من رجا زواله وخاف على نفسه من تغييره الضرب أو القتل جاز له عند أكثر العلماء الاقتحام عند هذا الضر، وإن لم يرج زواله فأى فائدة عنده . قال : والذي عندي أن النية إذا خلصت فليقتحم كيف ما كان ولا يتأيل . قلت : وهذا خلاف ما ذكره أبو عمر من الإجماع . وهذه الآية تدل على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع خوف القتل . وقال تعالى : «وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ» . وهذا إشارة إلى الإذابة .

الخامسة - روى الأئمة عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ يَدُهُ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِلْسَانُهُ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِقْلُهُ وَذَلِكَ أَوْضَعُ الْإِيمَانِ". قال العلماء: الأمر بالمعروف باليد على الأمراء، وباللسان على العلماء، وبالقلب على الضمفاء. يعني عوام الناس. فالمنكر إذا أمكنت إزالته باللسان للناهي فليفعله، وإن لم يمكنه إلا بالمعقوبة أو القتل فليعمل، فإن زال بدون القتل لم يحز القتل. وهذا تلقى من قول الله تعالى: «فَتَاتِلُوا آلِي نَيْفٍ حَتَّى تَغِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ». وعليه بنى العلماء أنه إذا دفع الصائل على النفس أو على المال عن نفسه أو عن ماله أو نفس غيره فله ذلك ولا شيء عليه. ولو رأى زيد عمرا وقد قصد مال بكر فيجب عليه أن يدفعه عنه إذا لم يكن صاحب المال قادرا عليه ولا راضيا به، حتى لقد قال العلماء: لو فرضنا... وقيل: كل بلدة يكون فيها أربعة فأهلها معصومون من البلاء: إمام عادل لا يظلم، وعالم على سبيل الهدى، ومشايخ أمورهم بالمعروف وينهون عن المنكر ويحرمون على طلب العلم والقرآن، ونساؤهم مستورات لا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى.

السادسة - روى أنس بن مالك قال قيل: يا رسول الله، متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: «إِذَا ظَهَرَ فِيكُمْ مَا ظَهَرَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ». قلنا: يا رسول الله وما ظهر في الأمم قبلا؟ قال: «الْمُلْكُ فِي صِغَارِكُمْ وَالْفَاحِشَةُ فِي كِبَارِكُمْ وَالْعِلْمُ فِي رُدَائِكُمْ». قال زيد: تفسير معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم «والعلم في رُدَائِكُمْ» إذا كان العلم في الفساق. نخرجه ابن ماجه. وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في «المائدة» وغيرها إن شاء الله تعالى. وتقدم معنى «فَبَشِّرْهُمْ» و«وَحِطَّتْ» في البقرة فلا معنى للإعادة.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنْ آلِ كَتِيبٍ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٥﴾

(١) باض في أكثر الأصول - وفي نسخة: «لو فرضنا فردا» - ولم نوق الصواب فيه.

(٢) راجع ج ١ ص ٢٣٨ طبع ثانية أو ثالثة - وج ٣ ص ٤٨ طبع أول أو ثانية.

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال ابن عباس : هذه الآية نزلت بسبب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل بيت الميراث على جماعة من يهود فدعاهم الى الله . فقال له قُصِّم بن عمرو والحارث بن زيد : على أى دين أنت يا محمد ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إني على ملة إبراهيم » . فقالا : فإن إبراهيم كان يهودياً . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « فتهلوا الى التوراة فهي بيننا وبينكم » . فأبى عليه فترت الآية . وذكر النقاش أنها نزلت لأن جماعة من اليهود أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « هلأنا الى التوراة ففيها صفى فابوا . وقرأ الجمهور « لِيَحْكَمْ » وقرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع « لِيُحْكَمْ » بضم الياء . والقراءة الأولى أحسن ، لقوله تعالى : « هَذَا كِتَابُنَا يَنْطَلِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ » .

الثانية — في هذه الآية دليل على وجوب ارتضاع المدعى الى الحاكم لأنه دُعِيَ الى كتاب الله ؛ فإن لم يفعل كان مخالفاً يتعين عليه الزجر بالأدب على قدر المخالف والمخالف . وهذا الحكم جار عندنا بالأندلس وبلاد المغرب وليس بالديار المصرية . وهذا الحكم الذى ذكرناه مبين في التزيل في سورة « النور » في قوله تعالى : « وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ » — الى قوله — بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ^(١) . وأسد الزهرى عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ دُعَاهُ خَصْمُهُ إِلَى حَاكِمٍ مِنْ حُكَّامِ الْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يُجِبْ فَهُوَ ظَالِمٌ وَلَا حَقَّ لَهُ » . قال ابن العربي : وهذا حديث باطل . أما قوله « فهو ظالم » فكلام صحيح . وأما قوله « فلا حق له » فلا يصح ، ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق . قال ابن خزيمة متناً المالكي : وأجب على كل من دُعِيَ الى مجلس الحاكم أن يجيب ما لم يعلم أن الحاكم فاسق أو يعلم عدواة بين المدعى والمدعى عليه .

الثالثة — وفيها دليل على أن شرائع من قبلنا شرعية لنا إلا ما علينا نسخه ، وأنه يجب علينا الحكم بشرائع الأنبياء قبلنا ، على ما يأتى بيانه . وإنما لا تقرأ التوراة ولا تعمل (١) الآيات ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ (٢) تنهى عبادة بن خزيمة متناً في تفسيره الجرائد حيان عند قوله : « ما لم يعلم أن الحاكم فاسق » فصار في الأصول بعد هذه الكلمة غير واضح .

بما فيها لأن من هي في يده غير أمين عليها وقد غيرها وبتلها، ولو علمنا أن شيئاً منها لم يتغير ولم يتبدل جاز لنا قراءته . ونحو ذلك روى عن عمر حيث قال لكعب : إن كنت تعلم أنها السورة التي أنزلها الله على موسى بن عمران فأقرأها . وكان عليه السلام عالماً بما لم يغير منها فلذلك دعاهم إليها وإلى الحكم بها . وسأى بيان هذا في « المائدة » والأخبار الواردة في ذلك إن شاء الله تعالى . وقد قيل : إن هذه الآية نزلت في ذلك . والله أعلم .

قوله تعالى : **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن نَّمْسَنَ النَّارَ أَيْامًا مَّعِيْدُوْدَاتٍ**^ط
وَعَرَّهْمُ فِي دِيْنِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُوْنَ ﴿٢١﴾

إشارة إلى التولي والإعراض . واعتراض منهم في قولهم : « نحن أبناء الله وأحباؤه » إلى غير ذلك من أقوالهم . وقد مضى الكلام في معنى قولهم : « لن تمسنا النار » في البقرة .

قوله تعالى : **فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وُوقِيَتْ كُلُّ**
نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُوْنَ ﴿٢٥﴾

خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأمنه على جهة التوقيف والتعجب ، أى فكيف يكون حالهم أو كيف يصنعون إذا حشروا يوم القيامة وأصمحت عنهم تلك الزخارف التي آذعوها في الدنيا، وجوزوا بما اكتسبوه من كفرهم وأجترائهم وبيع أعمالهم . واللام في قوله « ليوم » بمعنى « في » ؛ قاله الكسائي . وقال البصريون : المعنى لحساب يوم . الطبري : لما يحدث في يوم .

قوله تعالى : **قُلِ اَللّٰهُمَّ مَنَّاكَ اَلْمَلِكُ تُوْنِيْ اَلْمَلِكُ مَن نَّسَاۗءُ وَتَنَزِعُ**
اَلْمَلِكُ مِمَّنْ نَّسَاۗءُ وَنُعَزُّ مَن نَّسَاۗءُ وَنُذِلُّ مَن نَّسَاۗءُ بِبَيْدِكَ اَلْخَيْرُ اِنَّكَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ ﴿٢٦﴾

قال علي رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لما أراد الله تعالى أن يزل
فاتحة الكتاب وآية الكرسي وشهد الله وقل اللهم مالك الملك إلى قوله بغير حساب تعلق
بالعرش وليس بينهم وبين الله حجاب وقلن يا رب تهبط بنا دار الذنوب وإلى من يعصيك
فقال الله تعالى وعزني وجلالي لا يقرأ كن عبد حبيب كل صلاة مكتوبة إلا أسكتته حظيرة
القدس على ما كان منه وإلا نظرت إليه بجني المكنونة في كل يوم سبعين نظرة وإلا قضيت له
في كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة وإلا أعذته من كل عذر ونصرته عليه ولا يمنعه من
دخول الجنة إلا أن يموت " . وقال معاذ بن جبل : احتبست عن النبي صلى الله عليه وسلم
يوما فلم أصل معه الجمعة فقال : " يا معاذ ما منعك من صلاة الجمعة ؟ قلت : يا رسول الله،
كان ليوحنا بن ياريا اليهودي على أوقية من تير وكان على بابي يرصدني فاشفقت أن يعبسي
دونك . قال : " أحب يا معاذ أن يقضى الله دينك ؟ قلت نعم . قال : " قل كل يوم
قل اللهم مالك الملك إلى قوله بغير حساب رَحِمَنَ الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطى منهما من
تشاء وتمنع منهما من تشاء أفيض مني ديني فلو كان عليك ملء الأرض ذهباً لأتاه الله عنك " .
نرحمه أبو نعيم الحافظ . أيضا عن عطاء الخراساني أن معاذ بن جبل قال : هلني رسول الله
صلى الله عليه وسلم آيات من القرآن أو كلمات ما في الأرض مُسَلَّمٌ يدعوهم وهو مكروب
أو غارم أو ذودين إلا قضى الله عنه وفزع همه ، احتبست عن النبي صلى الله عليه وسلم ،
فذكره . غريب من حديث عطاء أرسله عن معاذ . وقال ابن عباس وأنس بن مالك :
لما أفتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وواعد أخته ملك فارس والروم قال المناقشون
واليهود : هيات هيات ! من أين لمحمد ملك فارس والروم ! هم أعز وأمتع من ذلك ،
ألم يكف محمدا مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم ؟ فأئذ الله تعالى هذه الآية .
وقيل : تزلت دامة لباطل نصارى أهل تيمران في قولهم : إن عيسى هو الله ؛ وذلك أن هذه
الأوصاف تين لكل صحيح القطرة أن عيسى ليس في شيء منها . قال ابن إسحاق : أعلم الله
عن وجل في هذه الآية بتمامهم وكفرهم . وأن عيسى صلى الله عليه وسلم وإن كان الله تعالى

أعطاه آيات تدل على نبوته من إحياء الموتى وغير ذلك فإن الله عز وجل هو المفرد بهذه الأشياء ؛ من قوله : « توفى الملك من تشاء ويتزعج الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء » . وقوله : « تولى الليل في النهار وتولى النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب » فلو كان عيسى إلهاً كان هذا إليه ؛ فكان في ذلك اعتبارٌ وآيةٌ بينة .

قوله تعالى : (قُلِ اللَّهُمَّ) اختلف النحويون في تركيب لفظة « اللهم » بعد إجماعهم أنها مضمومة الهاء مشددة الميم المفتوحة ، وأنها منادى ؛ وقد جاءت مخففة الميم في قول الأعشى :
كدعوة من أبي رباح • يسمعها لآهم الكجُر

قال الخليل وسيبويه وجميع البصريين : إن أصل اللهم يا الله ، فلما استعملت الكلمة دون حرف النداء الذي هو « يا » جعلوا بدل هذه الميم المشددة بفاءً وبجرّفين وهما الميان عوضاً من حرفين وهما الياء والألف ، والضمّة في الهاء هي ضمة الأسم المتأدى المفرد . وذهب الفراء والكوفيون إلى أن الأصل في اللهم يا الله أمناً بخبر ؛ فحذف وخطت الكلتين ، وأن الضمة التي في الهاء هي الضمة التي كانت في أمناً لما حذفت الهزمة انتقلت الحركة . قال النحاس : هذا عند البصريين من الخطأ العظيم ، والقول في هذا ما قاله الخليل وسيبويه . قال الزجاج : محال أن يترك الضم الذي هو دليل على النداء المفرد ، وأن يجعل في أسم الله ضمة أم ، هذا إلحاد في أسم الله تعالى . قال ابن عطية : وهذا غلو من الزجاج ، وزعم أنه ما سُمع قط يا الله أم ، ولا تقول العرب يا اللهم . وقال الكوفيون : إنه قد يدخل حرف النداء على « اللهم » وأنشدوا على ذلك قول الرازي :

• غفرت أو عذبت يا اللهمّا •

آخر :

وما عليك أن تقول كُما • سبّحت أو هلّلت يا اللهمّا
أردد طينتنا شيخنا مُسَلّا • فإنا من خير أن تصدّا

(١) ورد هذا الرفع في لسان العرب (مادة آله) وليس فيه الشطر الأخير .

أَخْصِرْ :

فَإِنَّا مَا حَسَنَتُ الْمَاءُ أَ أَقُولُ يَا اللَّهُمَّ يَا اللَّهُمَّ

قالوا : فلو كان الميم عوضاً من حرف النداء لما اجتمعنا . قال الزجاج : وهذا شاذ ولا يعرف قائله ، ولا يترك له ما كان في كتاب الله وفي جميع ديوان العرب ؛ وقد ورد مثله في قوله ^(١) :

مَا تَقَنَّا فِي فِيٍّ مِنْ قَمَوْنِمَا * عَلَى النَّاجِ الْعَاوِي أَشَدَّ رِجَامِ

قال الكوفيون : وإنما تزداد الميم مخففة في قِيمٍ وَأَيْمٍ ، وأما مِمٌّ مُشَدَّةٌ فلا تزداد . وقال بعض النحويين : ما قاله الكوفيون خطأ ؛ لأنه لو كان كما قالوا كان يجب أن يقال : « اللهم » وتقتصر عليه لأنه معه دعاء . وأيضاً فقد تقول : أنت اللهم الرزاق ، فلو كان كما ادَّعوا لكنت قد فصلت بجلتين بين الابتداء والخبر . قال النضر بن شميل : من قال اللهم فقد دعا الله تعالى بجميع أسمائه كلها . وقال الحسن : اللهم تجمع الدعاء .

قوله تعالى : ﴿ مَا لِكَ الْمَلِكِ ﴾ قال قتادة : بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل الله عز وجل أن يعطى أئمة ملك فارس فأذن الله هذه الآية . وقال مقاتل : سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل الله له ملك فارس والروم في أمته ؛ فعلمه الله تعالى بأن يدعو بهذا الدعاء . وقد تقدم مناه . « وما لِكَ » منصوب عند سيويه على أنه نداء ثان ؛ ومثله قوله تعالى : « قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » ولا يجوز عنده أن يوصف اللهم ؛ لأنه قد حُتِمَ إليه الميم . وخالفه محمد بن يزيد وإبراهيم بن السريّ الزجاج فقالا : « مَا لِكَ » في الإعراب صفة لأسم الله تعالى ، وكذلك « فاطر السموات والأرض » . قال أبو علي ؛ وهو مذهب

(١) القائل هو الفرزدق . وصف شاعرين من قومه نزع في الشعر إليهما . وأراد بالناج العاوي من جهاد ، وجعل ألهما . كالمراجة بلغة المهاجرات كالكلب الناج ، والرجام المراجعة . (عن شرح التواهد لشمس بن) .
 (٢) في الأصول : « ... وإبراهيم بن السريّ والزجاج فقالوا » . ولا معنى لذكر الواو ؛ لأن الزجاج هو إبراهيم ابن السريّ بن سبل أبو إسحاق الزجاج .

أبى العباس المبرد؛ وما قاله سيويه أصوب وأبين؛ وذلك أنه ليس في الأصل ما للوصوفى على حدّ «اللهم» لأنه اسم مفرد ضم إليه صيوت، والأصوات لا توصف؛ نحو غاق وما أشبهه. وكان حكم الاسم المفرد ألا يوصف وإن كانوا قد وصفوه في مواضع. فلما ضم هنا ما لا يوصف إلى ما كان قياسه ألا يوصف صار بمثابة صوت ضم إلى صوت؛ نحو حبل فلم يوصف. و«الملك» هنا النبوة؛ عن مجاهد. وقيل: الغلبة. وقيل: المال والعبد. الزجاج: المعنى مالك العباد وما ملكوا. وقيل: المعنى مالك الدنيا والآخرة. ومعنى «تَوَنَّى الْمَلِكُ» أى الإيمان والإسلام. «مَنْ تَنَاءَ» أى من تَنَاءَ أن تؤثبه إذه، وكذلك ما بعده، لا بدّ فيه من تقدير الحذف، أى وتترع الملك من تَنَاءَ أن تترعه منه، ثم حذف هذا، وأفسد سيويه.

(١١)

ألا هل لهذا الأمر من متعلّ على الناس مهما شاء الناس يفعل
قال الزجاج: مهما شاء أن يفعل بالناس يفعل. وقوله: «تُعْزَمَنْ تَنَاءَ» يقال: عزّ إذا علا وقهر وطلب؛ ومنه «وعزّنى في الخطاب». «وَيَذَلُّ مَنْ تَنَاءَ» ذلّ يذلّ ذلاً. قال طرفة:

بلى عن الجلى صريح إلى الخنا • ذليل باجماع الرجال مُلهَدٌ

«يَبْدُكُ الْخَيْرِ» أى بيدك الخير والشر لحذف؛ كما قال: «سَرَايِلُ تَحِيكُمُ الْخَيْرِ». وقيل: خص الخير لأنه موضع دعاء ورغبة في فضله. قال النقاش: بيدك الخير، أى النصر والغنيمة. وقال أهل الإشارات: كان أبو جهل يملك المال الكثير، ووقع في الرّس يوم بدر، والفقراء صُيِّبَ ويلاّل وخبّاب لم يكن لهم مال، وكان ملكهم الإيمان «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء» تقيم الرسول يقيم أبى طالب على رأس الرّس حتى يُبَادِيَ أبدأنا قد اقبلت

(١) البيت لا سود بن يفرّ التّشيل. يقول إن هذا الدهر يذهب ببسمة الإنسان وشبابه، ويتعلّق فيه ذلك تملّ الخجل على غيره. (من شرح التّواهد). (٢) الجلى: الأمر العظيم الذى يدعى له ذور الرأى. وانما: الفساد والقبح في المنطق. والقليل: المقهور، وهو حدّ العزّ. وأجامع: جمع جمع، وهو ظهر الكف إذا جمت أياها وضمتها. والمهّد: المضروب، وهو المدح. (من شرح المقفّات). (٣) الرّس: البئر الحفرة بالجماعة.

إلى القلب : يا ضيئة ، يا ضيئة تميز من قشاه وتذل من قشاه . أى صبيب ، أى يلال ، لا تعتقدوا أنا منعناكم من الدنيا بيفضكم . بيدك الخير ما منعكم من عجز . إنك على كل شئ قدير ، إنعام الحق عام يتولى من يشاء .

قوله تعالى : **تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴿٢٧﴾

قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقادة والسدي في معنى قوله « **تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ** » الآية ، أى تدخل ما نقص من أحدهما في الآخر ، حتى يصير النهار خمس عشرة ساعة وهو أطول ما يكون ، والليل تسع ساعات وهو أقصر ما يكون ، وكذا توج النهار في الليل ، وهو قبل الكلي ، وروى عن ابن مسعود . وتحتل ألفاظ الآية أن يدخل فيها تعاقب الليل والنهار كأن زوال أحدهما ولوج في الآخر . واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى : ﴿ **وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ** ﴾ فقال الحسن : معناه تخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، وروى نحوه عن سلمان الفارسي . وروى معمر عن الزهري أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على نسائه فإذا بأمرأة حسنة الهيئة قال : « من هذه » ؟ قلن : إحدى خالاتك . قال : « ومن هي » ؟ قلن : هي خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « سبحانه الذي يخرج الحي من الميت » . وكانت امرأة سالحة وكان أبوها كافرا . فالمراد على هذا القول موت قلب الكافر وحياة قلب المؤمن ، فالموت والحياة مستعاران . وذهب كثير من العلماء إلى أن الحياة والموت في الآية حقيقة ، فقال عكرمة : هي إخراج الدجاجة وهي حية من البيضه وهي ميتة ، وإخراج البيضة وهي ميتة من الدجاجة وهي حية . وقال ابن مسعود : هي النطفة تخرج من الرجل وهي ميتة وهو حي ، ويخرج الرجل منها حيا وهي ميتة . وقال عكرمة والسدي : هي الحبة تخرج من السنبلة والسنبلة تخرج من الحبة ، والنواة من النخلة والنخلة

تخرج من النواة؛ والحياة في النحلة والسبيلة تشبهه ثم قال: ﴿وَرَزَقْنَا مِنْ تَحْتِهِ نَهْرًا حَسْبًا﴾^(١)
أى بغير تضيق ولا تقير؛ كما تقول: فلان يعطى بنهر حساب؛ كأنه لا يحسب ما يعطى.

قوله تعالى: لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا
وَيَحْذَرُكَ اللَّهُ تَنْفَسُهُ^(٢) وَلِلَّهِ اللَّهُ الْمَصِيرُ^(٣)

فيه مسائلتان:

الأولى — قال ابن عباس: نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار فيغنمهم أولياء؛
ومثله «لَا تَتَّخِذُوا يَتَرَاتِبَ^(١) مِنْ دُونِكُمْ» وهناك يأتي بيان هذا المعنى. ومعنى ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ
فِي شَيْءٍ﴾ أى طمس من حزب الله ولا من أوليائه فى شئ؛ مثل «وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ». وحكى
سيبويه «هو بنى فرجحين» أى من أصحابى ومعى. ثم أمتنى وهى:

الثانية — فقال: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا﴾ قال معاذ بن جبل ومجاهد: كانت التيقية
في حجة الإسلام قبل قوة المسلمين؛ فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام أن يتقوا من عدوهم.
قال ابن عباس: هو أن يتكلم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا يقتل ولا يأتى مأثما. وقال
الحسن: التيقية جائزة للإنسان إلى يوم القيامة، ولا تيقية في القتل. وقرأ جابر بن زيد ومجاهد
والصالح: «إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا» وقيل: إن المؤمن إذا كان قائما بين الكفار فله أن
يدارهم باللسان إذا كان خائفا على نفسه وقلبه مطمئن بالإيمان. والتيقية لا تيمل إلا مع خوف
القتل أو القطع أو الإيذاء العظيم. ومن أكرهه على الكفر فالصحيح له أن يتصلب ولا يجيب
إلى التلفظ بكلمة الكفر؛ بل يجوز له ذلك على ما يأتى بيانه في «النحل»^(٢) إن شاء الله تعالى.
وأما حزة والكسائي «تقاة»؛ ونعم الباقون؛ وأصل «تقاة» وقية على وزن قولة؛ مثل

(١) آية ١١٨ من هذه السورة.

(٢) عند قوله تعالى: «من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكرهه وقلبه مطمئن بالإيمان...» آية ١٠٣.

تُؤَدَّةً وَتُهْمَةً، قَلِبْتَ الْوَاوَ تَاءً وَالْيَاءَ أَلِفًا . وَرَوَى الضَّحَّاكُ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ زَلَّتْ فِي عِبَادَةِ بْنِ الصَّامِتِ الْأَنْصَارِيِّ وَكَانَ يَتَدْرِيًّا تَقِيًّا وَكَانَ لَهُ حِلْفٌ مِنَ الْيَهُودِ ؛ فَلَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ قَالَ عِبَادَةُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، إِنْ مَعِيَ خَمْسَمِائَةِ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ ، وَقَدْ رَأَيْتَ أَنَّ يَخْرُجُوا مَعِيَ فَاسْتَظْهَرَهُمْ عَلَى الْمَدِينَةِ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : « لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » الْآيَةَ . وَقِيلَ : لَهَا زَلَّتْ فِي عُمَارِ بْنِ يَاسِرٍ حِينَ تَكَلَّمَ بِبَعْضِ مَا أَرَادَ مِنْهُ الْمَشْرُكُونَ ، عَلَى مَا بَاتَى بَيَانُهُ فِي « النَّمْلِ »

قوله تعالى : ﴿ وَيَحْذَرُكَ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ قَالَ الرَّجَّازُ : أَيْ وَيَحْذَرُكَ اللَّهُ إِيَّاهُ . ثُمَّ اسْتَفْتَوْا عَنْ ذَلِكَ بَذَا وَصَارَ الْمُسْتَعْمَلُ ؛ قَالَ تَمَامِي : « تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ » فَعَنَاهُ تَعْلَمُ مَا عِنْدِي وَمَا فِي حَقِيقَتِي وَلَا أَعْلَمُ مَا عِنْدَكَ وَلَا مَا فِي حَقِيقَتِكَ . وَقَالَ غَيْرُهُ : الْمَعْنَى وَيَحْذَرُكَ اللَّهُ عِقَابَهُ ؛ مِثْلُ « وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ » . وَقَالَ : « تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي » أَيْ مُنْجِيًّا ؛ فَجَلَّتْ النَّفْسُ فِي مَوْضِعِ الْإِضْهَارِ لِأَنَّهُ فِيهَا يَكُونُ . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أَيْ وَإِلَى اللَّهِ جِزَاءُ الْمَصِيرِ . وَفِيهِ إِقْرَارٌ بِالْبَعَثِ .

قوله تعالى : قُلْ إِنْ تُحِبُّوا مَا فِي صُورِكُمْ أَوْ تَبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

فَهُوَ الْعَالِمُ بِخَفِيَّاتِ الصُّوَرِ وَمَا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ، وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا اجْتَوَتْ عَلَيْهِ . عَلَامُ الْغُيُوبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ وَلَا يَنْسِبُ عَنْهُ شَيْءٌ ، سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .

قوله تعالى : يَوْمَ يَحْجِذُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَلًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكَ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

يوم منصوب متصل بقوله : « وَيَحْمِلُكُمْ اللَّهُ تَسَهُلًا يَوْمَ تَجِدُ » . وقيل : هو متصل بقوله : « وإلى الله المصير . يوم تجد » . وقيل : هو متصل بقوله : « والله على كل شيء قدير . يوم تجد » . ويجوز أن يكون منقطعا على إضمار اذكروا ومثله قوله : « إن الله عزيز ذو انتقام . يَوْمَ تُبْلَى الْأَرْضُ » . و « مُحَضَّرًا » حال من الضمير المحذوف من صلة « ما » تقديره تجد كل نفس ما عملته من خير محضرا . هذا على أن يكون « تجد » من وَجَدَانِ الضَّالَّة . و « ما » من قوله « وما عملت من سوء » عطف على « ما » الأولى . و « تود » في موضع الحال من « ما » الثانية . وإن جعلت « تجد » بمعنى تعلم كان « مُحَضَّرًا » المفعول الثاني ، وكذلك تكون « تود » في موضع المفعول الثاني ؛ تقديره يوم تجد كل نفس جزاء ما عملت محضرا . ويجوز أن تكون « ما » الثانية رفعا بالابتداء ، و « تود » في موضع رفع على أنه خبر الابتداء ، ولا يصح أن تكون « ما » بمعنى الجزاء ؛ لأن « تود » مرفوع ، ولو كان ماضيا لحاز أن يكون جزاء ، وكان يكون معنى الكلام : وما عملت من سوء وذت لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ، أى كما بين المشرق والمغرب . ولا يكون المستعمل إذا جعلت « ما » للشرط إلا مجزوما ؛ إلا أن تحمله على تقدير حذف الفاء على تقدير : وما عملت من سوء فهي تود . أبو علي : هو قياس قول الفراء عندى ؛ لأنه قال في قوله تعالى : « وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ » : إنه على حذف الفاء . والأمد : الغاية ، وجمعه آماد . ويقال : استولى على الأمد ، أى غلب سابقا . قال النابغة :

إِلَّا إِلَيْكَ أَوْ مَنِ أَنْتَ سَاقِيهِ ۖ سَبَقَ الْجَوَادُ إِذَا أَسْتَوَى عَلَى الْأَمْدِ

والأمد : الغضب . يقال : أمد أمتدا ، إذا غضب .

قوله تعالى : قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾

الحُب : المحبة ، وكذلك الحُب بالكسر . والحُب أيضا الحبيب ؛ مثل الخَلْق والحَدِيد ؛ يقال أحبه فهو حبيب ، وحبه يحبه (بالكسر) فهو محبوب . قال الجوهري : وهذا شاذ ؛ لأنه

لَا يَأْتِي فِي الْمَضَاعِفِ فِعْلٌ (بِالْكَسْرِ) . قَالَ أَبُو الْفَتْحِ : وَالْأَصْلُ فِيهِ حَبَبٌ كَطَرُفٌ ، فَاسْكَنْتُ الْبَاءَ وَأَدْغَمْتُ فِي الثَّانِيَةِ . قَالَ آيْنُ التَّحَنُّانِ سَعِيدٌ : فِي حَبِّ لَتَانٍ : حَبٌّ وَاحِبٌ ، وَأَصْلُ « حَبِّ » فِي هَذَا الْبِنَاءِ حَبَبٌ كَطَرُفٌ ؛ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُمْ : حَبَبْتُ ، وَكَثُرَ مَا وَرَدَ فِعْلٌ مِنْ قُلٍّ . قَالَ أَبُو الْفَتْحِ : وَالِدَلَالَةُ عَلَى أَحَبِّ قَوْلُهُ تَعَالَى : « يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » بَضْمُ الْيَاءِ . وَ« أَتُحِبُّونِي يُحِبُّكُمْ اللَّهُ » وَ« حَبِّ » يَرُدُّ عَلَى قُلٍّ لِقَوْلِهِمْ حَبِيبٌ . وَعَلَى قُلٍّ كَقَوْلِهِمْ مُحِبُّوبٌ : وَلَمْ يَرِدْ اسْمُ الْفَاعِلِ مِنْ حَبِّ الْمَتَعَدِي ، فَلَا يُقَالُ : أَنَا حَابٌّ . وَلَمْ يَرِدْ اسْمُ الْمَفْعُولِ مِنْ أَفْعَلٍ إِلَّا قَلِيلًا ؛ كَقَوْلِهِ :

• مَنِّي بِمِثْلَةِ الْحَبِّ الْمَكْرَمِ •

وَحَكَى أَبُو زَيْدٍ حَبَبَتَهُ أَحِبَّهُ . وَأَنْشَدَ :

فَوَاللهِ لَوْلَا تَمَسُّرُهُ مَا حَبَبْتُهُ • وَلَا كَانَ أَذَنِي مِنْ عُوفٍ وَهَائِمِ

وَأَنْشَدَ :

لَقَمَرُكُ إِنِّي وَطَلَّابٌ بِغَيْرِ • لَكَلْزَادٍ مِمَّا حَبَّ بَسَدًا

وَحَكَى الْأَصْمَعِيُّ فَتَحَ حَرْفَ الْمُضَارَعَةِ مَعَ الْبَاءِ وَحْدَهَا . وَالْحَبُّ الْخَالِيسَةُ ، فَارْمِ مُمْتَزِبٌ . وَاجْلِعْ حَبَابَ وَجِبَةٍ ؛ حَكَاهُ الْجَوْهَرِيُّ . وَالْآيَةُ نَزَلَتْ فِي وَفْدِ تَجْرَانَ إِذْ زَعَمُوا أَنْ مَا أَدْعُوهُ لِمَيْسَى حَبٌّ لَمْ يَزَلْ ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الزَّيْبَرِ . وَقَالَ الْحَسَنُ وَأَبْنُ جُرَيْجٍ : نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكَلْبِ قَالُوا : نَحْنُ الَّذِينَ يُحِبُّ رَبَّنَا . وَرُوي أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَإِنَّهُ إِنَّا لَنُحِبُّ رَبَّنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَنْ وَجَلٍ : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي » . قَالَ أَبُو عَرَفَةَ : الْحُبَّةُ عِنْدَ الْعَرَبِ إِرَادَةُ الشَّيْءِ ، عَلَى قَصْدِهِ . وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ : عِبَّةُ الْعَبْدِ لِلَّهِ وَرَسُولُهُ طَاعَتُهُ لَهَا وَاتِّبَاعُهُ أَمْرُهَا ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي » . وَعِبَّةُ اللَّهِ لِلْعِبَادِ إِنْصَافُهُ عَلَيْهِمْ بِالْفُتُورَانِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ » أَيْ لَا يَنْفَرُ لَهُمْ . وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : عَلَامَةُ حَبِّ اللَّهِ حُبُّ الْقُرْآنِ . وَعَلَامَةُ حَبِّ

القرآن حب النبي صلى الله عليه وسلم . وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة .
 وعلامة حب الله وحب القرآن وحب النبي وحب السنة حب الآخرة . وعلامة حب الآخرة
 أن يُحب نفسه . وعلامة حب قيسه أن يُنفض الدنيا . وعلامة بنفص الدنيا ألا يأخذ منها
 إلا الزاد والبقة . وروى أبو الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى :
 « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » قال : « على البر والتقوى والتواضع وذلك
 النفس » أخرجه أبو عبد الله الترمذي . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من
 أراد أن يُحبه الله فعليه بصدق الحديث وأداء الأمانة والآ يؤذي جاره » . وفي صحيح مسلم
 عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريلا
 فقال إني أحب فلانا فأحببه قال فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول إن الله يحب فلانا
 فأحبوه فيحبه أهل السماء قال ثم يوضع له القبول في الأرض . وإذا أبغض عبدا دعا جبريلا
 فيقول إني أبغض فلانا فأبغضه قال فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض
 فلانا فأبغضوه قال فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض » . وسأيت لهذا مزيد بيان في آخر
 سورة « مريم » إن شاء الله تعالى . وقرأ أبو رجاء العطاردي « فاتبعوني » بفتح الباء
 « و ينفرو لكم » عطف على يحببكم . وروى محبوب عن أبي عمرو بن العلاء أنه أدغم الراء من
 « ينفرو » في اللام من « لكم » . قال النحاس : لا يُحيز الخليل وسبويه إدغام الراء في اللام ،
 وأبو عمرو أجل من أن يغلط في مثل هذا ، ولعله كان يُعني الحركة كما يفعل في أشياء كثيرة .
 قوله تعالى : **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ**
الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ**) يأتي بيانه في « النساء » .

(**فَإِنْ تَوَلَّوْا**) شرط ، إلا أنه ماض لا يُعرب . والتقدير فإن تولوا على كفرهم وأعرضوا عن
 طاعة الله ورسوله (**فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**) أي لا يرضى فعلهم ولا ينفو لهم كما هدم .

(١) حد ثقه قال : « يا أيها الذين آمنوا اطعوا الله » آة ٥٩

وقال : « فَإِنَّ اللَّهَ » ولم يقل « فَإِنَّهُ » لأن العرب إذا عظمت الشيء أمادت ذكره ؛ وأنشد
سيبويه :

لَا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْئًا • تَقْصُ الْمَوْتَ ذَا الْيَسَنِ وَالْفَقِيرَا ^(١)

قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ » ^(٢)

قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا » أصطفى اختار، وقد تقدم في البقرة . وتقدم فيها اشتقاق آدم وكنيته . والتقدير إن الله أصطفى دينهم وهو دين الإسلام ؛ فحذف المضاف . وقال الزجاج : اختارهم للنبوة على عالمي زمانهم . « ونوحا » قيل إنه مشتق من ناح ينوح ، وهو آسم أعجمي إلا أنه انصرف لأنه على ثلاثة أحرف ، وهو شيخ المرسلين ، وأقل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام ببحریم النبات والأخوات والعمات والحالات وسائر القرويات . ومن قال إن إدریس كان قبله من المؤرخين فقد وجه على ما يأتي بيانه في « الأعراف » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ » تقدم في البقرة معنى الآل وعلى ما يطلق ^(٣) مستوفى . وفي البخاري عن ابن عباس قال : آل إبراهيم وآل عمران المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد ؛ يقول الله تعالى : « إِنَّ أَوَّلَى الْبَرِّ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ » وقيل : آل إبراهيم لإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وأن عمدا صلى الله عليه وسلم من آل إبراهيم . وقيل : آل إبراهيم نفسه ، وكذا آل عمران ؛ ومنه قوله تعالى : « وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ » . وفي الحديث : « لقد أعطىٰ مِزمارا من مزمار آل داود » ؛ وقال الشاعر :

(١) البيت لسراة بن عدى . وقيل : لأمية بن أبي الصلت . (عن شرح الشواهد) .

(٢) راجع ج ٢ ص ١٢٢ طبة ثانية . (٣) راجع ج ١ ص ٢٧٩ طبة ثانية أو ثالثة .

(٤) عند قوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه » آية ٥٩ .

(٥) راجع ج ١ ص ٢٨١ طبة ثانية أو ثالثة .

وَلَا تَبْكِي مَيِّتًا بَعْدَ مَيِّتٍ أَحِبُّهُ • عَلٌّ وَعَبَّاسٌ وَأَبُو بَكْرٍ

وقال آخر •

يُتْلَقُ مِنْ تَذَكُّرِ آلِ لَيْلَى • كَمَا يُتْلَقُ مِنَ الْإِسْدَادِ ١٢٧

أراد من تذكرك ليلي نفسها . وقيل : آل عمران آل إبراهيم ؛ كما قال : « ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » . وقيل : المراد عيسى ، لأن أمه أبنه عمران . وقيل : نفسه كاذرة • قال مقاتل • هو عمران أبو موسى وهارون ، وهو عمران بن يصر بن فاهات بن لاوى بن يعقوب • وقال الكلبي • وهو عمران أبو مريم ، وهو من ولد سليمان عليه السلام . وحكى السهيلي : عمران ابن ماثان ، وأمر أنه حنة (بالنون) . وخص هؤلاء بالذكر من بين الأنبياء لأن الأنبياء والرسل بعضهم وقضيضهم من نسلهم . ولم ينصرف عمران لأن في آخره ألفا ونونا زائدين . ومعنى قوله : (على العالمين) أى على عالمي زمانهم ، في قول أهل التفسير . وقال الترمذي : الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي • جميع الخلق كلهم . وقيل « على العالمين » : على جميع الخلق كلهم إلى يوم الصور ، وذلك أن هؤلاء رسل وأنبياء فهم صفوة الخلق ؛ فأما محمد صلى الله عليه وسلم فقد جازت مرتبته الإصطفاء لأنه حبيب ورحمة . قال الله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » . فالرسل خلقوا للرحمة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم خلق بنفسه رحمة ، فذلك صار أمانا لخلق . لما بعث الله أمرا الخلق المذاب إلى نقضة الصور . وسائر الأنبياء لم يحلوا هذا الحلق ؛ ولذلك قال عليه السلام : « أنا رحمة مهداة » يخبر أنه بنفسه رحمة للخلق من الله . وقوله « مهداة » أى هدية من الله للخلق . ويقال : اختار آدم بخمسة أشياء : أولها أنه خلقه بيده في أحسن صورة بقدرته . والثاني أنه علمه الأسماء كلها . والثالث أمر الملائكة بأن يسجدوا له . والرابع أسكنه الجنة . والخامس جعله إيا البشر . واختار نوحا بخمسة

(١) في الأصول : « ولا تس » والتصويب من تفسير ابن علي . واليه لأراكة ابن عبد الله التقي في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم . أى أحبة على وعباس وأبو بكر ، ويريد جميع المؤمنين (راجع تفسير ابن علي) •

(٢) العدد : احتياج روح الله ، وذلك إذا تمت له سنة من يوم فزع حاجه إلى الأبد . وقيل : عناد الشجر أن فقد له سجة أيام فان مضى روحا له البر ، وما لم تضيق قبل هو في عناده •

أشياء : أولا أنه جعله أبا البشر، لأن الناس كلهم غير قوا وصاد ذريته هم الباقون . والثاني أنه أطال عمره؛ ويقال : كُوي لمن طال عمره وحسن عمله . والثالث أنه استجاب دعاءه على الكافرين والمؤمنين . والرابع أنه حمله على السفينة . والخامس أنه كان أول من نسخ الشرائع ؛ وكان قبل ذلك لم يحرم تزويج الخالات والعلات . واختار إبراهيم بحسبة أشياء : أولا أنه جعله أبا الأنبياء؛ لأنه روى أنه خرج من صلبه ألف نبي من زمانه إلى زمن النبي صلى الله عليه وسلم . والثاني أنه اتخذ خليلا . والثالث أنه أنجاه من النار . والرابع أنه جعله إماما للناس . والخامس أنه ابتلاه بالكلمات فوقه حتى آمن . ثم قال : « وآل عمران » فإن كان عمران أبا موسى وهارون فإنما اختارهما على العالمين حيث بعث على قومه المن والسلوى وذلك لم يكن لأحد من الأنبياء في العالم . وإن كان أبا مريم فإنه أصطفى له مريم بولادة عيسى بغير أب ولم يكن ذلك لأحد في العالم . والله أعلم .

قوله تعالى : ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤﴾

تتم في البقرة معنى الذرية واستنفاها . وهي نصب على الحال ؛ قاله الأخفش . أى في حال كون بعضهم من بعض ، أى ذرية بعضها من ولد بعض . الكوفيون : على القطع . الزجاج : بدل ، أى أصطفى ذرية بعضها من بعض ، ومعنى بعضها من بعض ، يعنى في التناصر في الدين ؛ كما قال : « الْمُتَافِقُونَ وَالْمُتَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ » يعنى في الضلالة ؛ قاله الحسن وقادة . وقيل : في الاجتهاد والأصطفاء والتبوة . وقيل : المراد به التناسل ، وهذا أضعفها .

قوله تعالى : إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٢٦﴾

(١) راجع ٢ ص ١٠٧ طبة ثانية

فيه ثمان مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ ﴾ قال أبو عبيد : « إِذْ » زائدة . وقال محمد بن يزيد : التقدير أذكر إذ . وقال الزجاج : للمعنى وأصطفى آل عمران إذ قالت امرأة عمران . وهي حنة (بالهاء المهملة والتون) بنت فاقود بن قحيل أمي حريم جنة عيسى عليه السلام ، وليس بأبي عري ولا يعرف في العربية حنة اسم امرأة . وفي العربية أبو حنة البذري ، ويقال فيه : أبو حنة (الباء بواحدة) وهو أعمى ، وأسمه عامر . وبدر حنة بالتمام .^(١) ودير آخر أيضا يقال له كذلك ، قال أبو نواس :

يَا دِيرَ حَنَةَ مَنْ ذَاتَ الْأَكْبَاجِ * مَنْ يَصْبَحُ حَيْكَ لَأَنِّي لَسْتُ بِالصَّالِحِ

وحنة في العرب كثيرة ، منهم أبو حنة الأنصاري . وأبو السائب بن يمحك المذكور في حديث سبيعة حنة . ولا يعرف حنة بالهاء المعجمة [ونون]^(٢) إلا بنت يحيى بن أكرم القاتق ، وهي أم محمد بن نصر . ولا يعرف حنة (بالميم) إلا أبو حنة ، وهو خال ذي الرمة الشاعر . كل هذا من كتاب ابن مأكولا .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ تختم معنى النداء وأنه لا يلزم الغد إلا بأن يلزم نفسه . يقال : إنها لما حملت قالت : لن نجاني الله ووضعت

- (١) هو « در حنة » بالحيرة من بناء فوح (راجع مسالك الأبصار ج ١ ص ٣١٢ طبع دار الكتب المصرية) .
 (٢) الأكبراج (بالهمزة ثم فتح وياء ساكنة وراءه واو) : مواضع تخرج إليها النصارى في أعيادهم (عن الفناوس) . وفي مسالك الأبصار : « أنها غياض متناوكة بها رهبان يقال لرواحلها الكرح » .
 (٣) هي سبيعة بنت الحارث الأسلمية ، كانت زوجة لسعد بن خولة فات عنها يمحك فقال لها أبو السائب حنة : إن أهلك أرملة أشهر وعشر ، وقد كانت وضعت بدوفاة زوجها بلال ، قيل خمس وعشرون ليلة ، وقيل أقل من ذلك . فلما قال لها أبو السائب ذلك أتت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال لها : « قد حملت فانكحي من شئت » .
 روى عنها فقهاه أهل المدينة وقهاه أهل الكوفة من التابعين حديثها هذا . وذكر ابن سعد أن أبا السائب بن يمحك قد كان فيمن خطبا . وذكر ابن البرقي أنه تزوجها وأولها ابنه سائل . (راجع كتاب الاستيعاب وتبويب التبيين ومطبقات ابن سعد) .
 (٤) زيادة عن كتاب المتنبي للهي - (٥) التي في المتن : « زوجة محمد » .
 (٦) راجع ج ٣ ص ٢٤٠ طبع أول مرة ثانية .

بما في بطني لجلسته محرراً . وسنى « لك » أى لمبادتك . « محرراً » نصب على الحال . وقيل :
 نيت ليعول محذوف ، أى إني نذرت لك ما في بطني غلاماً محرراً . والأول أولى من جهة
 التفسير وسياق الكلام والإعراب . أما الإعراب فإن إقامة التثنية مقام المنعوت لا يجوز
 في مواضع ويجوز على المجاز في أخرى . وأما التفسير فقليل إن سبب قول امرأة عمران هذا
 أنها كانت كبيرة لا تلد ، وكانوا أهل بيت من الله بمكان ، وأنها كانت تحت شجرة قبضت بطائر
 يزقن فرحاً فتعركت نفسها لذلك ، ودعت ربها أن يهب لها ولداً ، ونذرت إن ولدت أن
 تجعل ولدها محرراً ، أى عتيقاً خالصاً لله تعالى ، خادماً للكنيسة حبساً عليها ، مقررّاً لعبادة الله
 تعالى . وكان ذلك جائزاً في شريعتهم ، وكان على أولادهم أن يطعموه . فلما وضعت مريم
 قالت : « رب إني وضعتها أنثى » معنى أن الأنثى لا تصلح لخدمة الكنيسة . قيل : لما يصيبها
 من الحيض والأذى . وقيل : لا تصلح لمخالطة الرجال . وكانت ترجو أن يكون ذكرًا
 فلذلك حررت .

الثالثة - قال ابن العربي : « لا خلاف أن امرأة عمران لا يتطرق إلى حملها نذر
 لكونها حرة ، فلو كانت أمراًته أمة فلا خلاف أن المراء لا يصح له نذر في ولده كيفما تصرفت
 حاله ؛ فإنه إن كان الناذر عبداً فلم يتقرر له قول في ذلك ؛ وإن كان حراً فلا يصح أن يكون
 مملوكاً له ، وكذلك المرأة مثله ؛ فأى وجه للنذر فيه . وإنما معناه - والله أعلم - أن المراء إنما
 يريد ولده للأئس به والاستئجار والتسلي ، فطلبت هذه المرأة الولد أنثى به وسكوتاً إليه ؛
 فلما من الله تعالى عليها به نذرت أن حفظها من الأئس به متروك فيه ، وهو على خدمة الله تعالى
 موقوف . وهذا نذر الأحرار من الأبرار . وأرادت به محرراً من جهتي ، محرراً من ريق الدنيا
 واشغالها ، وقد قال رجل من الصوفية لأتمه : يا أتمه : دبرني لله أتبدل به وأتعلم العلم .
 فقالت نعم . فسار حتى تبصر ثم عاد إليها فدفق الباب ، فقالت من ؟ فقال لها : أبنتك فلان .
 قالت : قد تركك لله ولا تعود فيك .

الرابعة - قوله تعالى : (محرراً) مأخوذ من الحرمة التي هي ضد العبودية ؛ من هذا
 تحرير الكتاب ، وهو تخليصه من الاضطراب والفساد . وروى خفيف عن عكرمة ومجاهد :

أن الحزب انخلاص لله عز وجل لا ينسوبة شيء من أمر الدنيا . وهذا معروف في اللغة أن يقال لكل ما خلص : حُرٌّ، وعزير بمعناه ؛ قال ذو الرمة :

والفرط في حُرَّةِ الدفري مقلَّصٌ • تباعد الحبل منه فهو يضطرب

وطين حُرًّا رمل فيه . وبانت فلاة بليَّة حُرَّة إذا لم يصل إليها زوجها أوَّل ليلة ؛ فإن تمكن منها فهي بليَّة شتاء .

الخامسة — قوله تعالى : (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ) قال ابن عباس : إنما قالت هذا لأنه لم يكن يُقبل في النثر إلا الذكور ، فقيل الله مریم • « وأنثى » حال • وإن شئت بدل . بقيل : إنها ربُّها حتى زعمت وحینئذ أرسلتها ؛ رواه أنسب عن مالك . وقيل : لقتها في يرقها وأرسلت بها إلى المسجد ، فوقت بنذرهما وتبرأت منها . ولعل الجواب لم يكن عندهم كما كان في صدر الإسلام ؛ ففى البخارى ومسلم أن امرأة سوداء كانت تقيم المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فماتت . الحديث .

السادسة — قوله تعالى : (وَأَلَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ) هو على قراءة من قرأ « وضعت » بضم التاء من جملة كلامها ؛ فالكلام متصل . وعلى قراءة أبى بكر وابن عمر ، وفيها معنى التسليم لله والخضوع والتزیه له . ولم نقله على طريق الإخبار لأن علم الله في كل شيء قد تقرّر في نفس المؤمن ، وإنما قاله على طريق التعظيم والتزیه لله . وعلى قراءة الجمهور هو من كلام الله عز وجل فُقدّم ، وتقديره أن يكون مؤثرا بعد « وإني أعينها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » وإله أعلم بما وضعت ؛ قاله المهدوى . وقال مكى : هو إعلام من الله تعالى لنا على طريق التثيت فقال : والله أعلم بما وضعت أم مریم قائمه أولم نقله . ويقوى ذلك أنه لو كان من كلام أم مریم لكان وجه الكلام : وأنت أعلم بما وضعت ؛ لأنها ناذته في أوَّل الكلام في قولها : ربِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى . وروى عن ابن عباس « بما وضعت » بكسر التاء ، أى قيل لها هذا .

(١) القربان : ما بين العين ويساره . وتباعد الحبل منه : أى تباعد حبل النسي من القرب لأنها طويجة النسي ليست بوضاء . وسقاه ، أى مكان تليقه .

البابينة - قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الذِّكْرُ كَالْأُنْثَى ﴾ استدل به بعض الشافعية على أن المطاوعة في شهر رمضان زوجها على الوطء لا كشاويه في وجوب الكفارة عليها . إن العربي : وهذه منه غفلة ، فإن هذا خبر عن شرع من قبلنا وهم لا يقولون به . وهذه الصالحة إنما قصدت بكلامها ما تشبه له به بيئة حالمها ومقطع كلامها ، فإنها نذرت خدمة المسجد في ولدها ، فلما رأت أنه لا تصلح وأنها عورة اعتذرت إلى ربها من وجودها لها على خلاف ما قصده فيها . ولم ينصرف «مريم» لأنه مؤثث معرفة ، وهو أيضا أعجبي ، قاله النحاس : والله تعالى أعلم .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي مُمَيَّنَةٌ مَرِيَمَ ﴾ يعني خادم الرب بلعنتهم . ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ ﴾ يعني مريم . ﴿ وَذَرَيْتَهَا ﴾ يعني عيسى . وهذا يدل على أن النذرية قد تقع على الولد خاصة . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسة [الشيطان] ^(١) إلا ابن مريم وأمه » ثم قال أبو هريرة : إقرءوا إن شئتم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . قال علماؤنا : فأقاد هذا الحديث أن الله تعالى استجاب دعاء أم مريم ، فإن الشيطان ينخس جميع ولد آدم حتى الأنبياء والأولياء إلا مريم وأبنا . قال قتادة : كل مولود يلعن الشيطان في جنبه حين يولد غير عيسى وآمه فجعل بينهما حجاب فأصابته الطعنة الحجاب ولم ينفذ لها منه شيء . قال علماؤنا : وإن لم يكن كذلك بطلت الخصوصية بهما . ولا يلزم من هذا أن ينخس الشيطان يلزم منه إضلال المسوس وإغواؤه فإن ذلك طلق فاسد ، فكيف تعرض الشيطان للأثنياء والأولياء بأبواب الإفساد والإغواء ومع ذلك عصمهم الله عما يؤرمه الشيطان ، كما قال : « إِنَّ عِيَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » . هذا مع أن كل واحد من بني آدم قد وكل به قريته من الشياطين ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قَرِيبٌ وَأَبْنَاهُ وَإِنْ عَصَا مِنْ نَخْسِهِ قَلَمٌ يُعْصِي مِنْ مَلَازِمَتِهِ لَهَا وَمَقَارِنَتِهِ » . والله أعلم .

قوله تعالى : فَاقْبَلْهَا رَبُّهَا يَقْبُولُ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاقْبَلْهَا رَبُّهَا يَقْبُولُ حَسَنٍ ﴾ المعنى : سلك بها طريق السعداء ؛ عن ابن عباس . وقال قوم : معنى التقبل التفضل في التربية والقيام بإنسانها . وقال الحسن : معنى التقبل أنه ما عذبها ساعة قط من ليل ولا نهار . ﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ يعنى مسوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان ، فكانت تنبت في اليوم ما ينبت المولود في عام واحد . والقبول والنيات مصدران على غير المصدر ، والأصل تَقَبَّلًا وإنباتا . قال الشاعر :

أَكْفُرًا بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي * وَبَعْدَ عَطَاكَ الْمَائَةَ الرَّثَاعَا

أراد بعد إعطائك ، لكن لما قال « انبتا » دل على تنبت ؛ كما قال امرؤ القيس .

فَصَرْنَا إِلَى الْحَسَنِ وَرَقَّ كَلَامُنَا * وَرُضْتُ فَذَلْتُ صَعْبَةً أَيْ إِذْلَالٍ .

وإنما مصدر ذَلْتُ ذُلٌّ ، ولكنه رده على معنى أذَلْتُ ؛ وكذلك كل ما يرد عليك في هذا الباب . فعنى تقبل وقيل واحد . فالمعنى قَبَّلَهَا رَبُّهَا يَقْبُولُ حَسَنٍ . ونظيره قول رُؤَبَةَ :

وَقَدْ تَقَوَّيْتُ أَطْوَاءَ الْحَضْبِ *

لأن معنى تَقَوَّيْتُ وَأَطْوَيْتُ واحد ؛ ومثله قول القُطَيْمِي :

وَحَيْرَ الْأَمْرِ مَا اسْتَقْبَلَتْ مِنْهُ * وَلَيْسَ بَأْسَ تَتَّبِعْهُ أَتْبَاعَا

لأن تَتَّبِعَتْ وَاتَّبَعَتْ واحد . وفي قراءة ابن مسعود « وَأَنْزَلَ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِيلًا » لأن معنى نَزَلَ وَأَنْزَلَ واحد . وقال المفضل : معناه وَأَنْبَتَا فَنَبَتْ نَبَاتًا حَسَنًا . ومرعاة المعنى أول

كما ذكرنا . والأصل في القبول الضم ؛ لأنه مصدر مثل الدخول والخروج ، والفتح جاء في حروف قليلة ؛ مثل الولوج والوزوع ؛ هذه الثلاثة لا غير . قاله أبو عمرو والكسائي والأئمة . وأجاز الزجاج « بقبول » بضم القاف على الأصل .

قوله تعالى : « وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا » (أى صمها إليه . أبو عبيدة : ضمن القيام بها . وقرأ الكوفيون « وكفلها » بالتشديد ، فهو يتعدى إلى مفعولين ؛ والتقدير وكفلها ربها زكريا ، أى أزمه كفالتها وقدر ذلك عليه ويسره له . وفي مصحف أبي : « وأكفلها » والمهزة كالتشديد في التعدى ؛ وأيضاً فإن قبله « فتقبلها » وأبنتها « فأخبر تعالى عن نفسه بما فعل بها » بجاء « كفلها » بالتشديد على ذلك . وخففه الباقون على إسناد الفعل إلى زكريا . فأخبر الله تعالى أنه هو الذى تولى كفالتها والقيام بها ؛ بدلالة قوله : « أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » . قال مكّي : وهو الاختيار ؛ لأن التشديد يرجع إلى التخفيف ، لأن الله تعالى إذا كفلها زكريا كفلها بأمر الله ، ولأن زكريا إذا كفلها فمن مشيئة الله وقدرته ؛ فعل ذلك فالقراءتان متداخلتان . وروى عمرو بن موسى عن عبد الله بن كثير وأبي عبد الله المزي « وكفلها » بكسر الفاء . قال الأخفش : يقال كَفَلَ يَكْفُلُ وَكَيْفَلُ يَكْفُلُ وَلَمْ أَسْمَعْ كَفَلْ ، وقد ذُكِرَتْ . وقرأ مجاهد « فتقبلها » بإسكان اللام على المسألة والطلب . « ربها » بالنصب نداء مضاف . « وأبنتها » بإسكان التاء « وكفلها » بإسكان اللام « زكريا » بالمد والنصب . وقرأ حفص وحمة والكسائي « زكريا » بغير مد ولا همز ، وهذه الباقون وهمزوه . وقال الفراء : أهل الحجاز يمدون « زكريا » ويقصرونه ، وأهل نجد يحذفون منه الألف ويصرفونه فيقولون : زكري . قال الأخفش : فيه أربع لغات : المد والقصر ، وزكري بتشديد الياء والصرف ، وزكر ورأيت زكريا . قال أبو حاتم : زكري بلا صرف لأنه أعجمي وهذا غلط ؛ لأن ما كان فيه « يا » مثل هذا انصرف مثل كريبى ويحيى ، ولم ينصرف زكريا في المد والقصر لأن فيه الف تأنيت والعجمة والتعريف .

قوله تعالى : ﴿ كُنَّا دَخَلْنَا عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ .

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ كُنَّا دَخَلْنَا عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ﴾ المِحْرَابُ في اللغة أكرم موضع في المجلس . وسيأتي له مزيد بيان في سورة « مريم » . وجاء في الخبر : إنها كانت في غرفة كان زكريا يصعد إليها يسلم . قال وضاح اللين :^(١)

رَبَّةٌ مِحْرَابٍ إِذَا جِئْتُهَا • لَمْ أَقْهَاجُهَا حَتَّى أَرْتَقِي سُلَامًا

أى ربة غرفة . روى أبو صالح عن ابن عباس قال : حملت امرأة عمران بعد ما أسنت فنزلت ما في بطنها محررا فقال لها عمران : ويحك ! ما صنعت ؟ أرايت إن كانت أنثى . فأخبرها بذلك جميعا . فهلك عمران وحنّة حامل فولدت أنثى فقبلها الله بقبول حسن ، وكان لا يحزر إلا الغلمان فسامهم عليها الاحياز بالأفلام التي يكتبون بها الوحى ، على ما أتى . فكفلها زكريا وأخذ لها موضعا فلما أسنت جعل لها محرابا لا يرتقى إليه إلا بسلم ، واستأجر لها ظنرا وكان يعلق عليها بابا ، وكان لا يدخل عليها إلا زكريا حتى كبرت ، فكانت إذا حاضت أخرجهما إلى منزله فتكون عند خالتها وكانت خالتها امرأة زكريا في قول الكوفي . وقال مقاتل : كانت أختها امرأة زكريا ، وكانت إذا طهرت من حيضتها وأغتسلت ردها إلى المحراب . وقال بعضهم : كانت لا تحيض وكانت مطهرة من الحيض . وكان زكريا إذا دخل عليها يجد عندها فاكهة الشتاء في القبط وفاكهة القيط في الشتاء فقال : يا مريم أتى لك هذا ؟ فقالت : هو من عند الله . فعند ذلك طمع زكريا في الولد وقال : إن الذى يأتيها بهذا قادر أن يرزقني ولدا . ومعنى « أتى » من أين ؛ قاله أبو عبيدة . قال النحاس : وهذا

(١) عند قوله تعالى : « تفرج على قومه من المحراب » آية ١١

(٢) في الأصول : « قال عدى بن زيد » والتصويب عن الأغانى ولسان العرب وشرح القاموس . وهذا البيت من

قصيدة لوضاح اللين أولها : يا بنة الواحد جودى قسا • إن تمرى قبا أو قسا •

• راجع ترجمته في الأغانى ج ٦ ص ٢٠٩ - ٢٤٠ طبع دار الكتب المصرية •

فيه تساهل؛ لأن « أين » سؤال عن المواضع و « أتى » سؤال عن المذاهب والجهات ،
والمنع من أى المذاهب ومن أى الجهات لك هذا . وقد فرق التَّجَنَّبَ بينهما فقال :

أتى ومن أين إليك الطَّرب ، من حيث لا صَبْوة ولا رَيْب

و « كلُّنا » منصوب بوجود ، أى كلَّ دَخَلَةٍ . (إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) قبل :
هو من قول صريم ، ويموز أن يكون مستأنفاً ؛ فكان ذلك سبب دعاء زكريا وسؤاله الولد .

الثانية - قوله تعالى : (هُنَالِكَ دَعَا زَكْرِيَا رَبَّهُ) هنالك فى موضع نصب ؛ لأنه
ظرف يستعمل للزمان والمكان وأصله للكان . وقال الْمُفَضَّلُ بْنُ سَلَمَةَ : « هنالك »

فى الزمان و « هناك » فى المكان ، وقد يحمل هذا مكان هذا . و (هَبْ لِي) أعطنى .
(مِنْ لَدُنْكَ) مِنْ عِنْدِكَ . (ذُرِّيَّةٌ طَيِّبَةٌ) أى نَسْلًا صَالِحًا . والذُّرِّيَّةُ تكون واحدة وتكون
جمعاً ذكرًا وأنثى ، وهو هنا واحد . يدل عليه قوله « فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا » ولم يقل
أولياءه وإنما أنت « طَيِّبَةٌ » ثابِت لفظ الذرية ؛ كقوله :

أبوك خليفة ولده أخرى * وأنت خليفة ذاك الكمال

فأنت ولده ثابِت لفظ الخليفة . وروى من حديث أنس قال قال النبي صلى الله عليه
وسلم : « أى رجل مات وترك ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً أجرى الله له مثل أجر عملهم ولم ينقص من
أجورهم شيئاً » . وقد مضى فى « البقرة » اشتقاق الذرية . و (طَيِّبَةٌ) أى صالحة مباركة .
(إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) أى قابله ؛ ومنه سمع الله لمن حمده .

الثالثة - دلَّت هذه الآية على طلب الولد وهى سُنَّةُ المرسلين والصديقين ، قال الله
تعالى . « وَاقْعُدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » . وفى صحيح مسلم عن
سعد بن أبى وقاص قال : أراد عثمان أن يتبتل فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو أجاز
له ذلك لاختصمنا . وخرج ابن ماجه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« النَّكاحُ مِنْ سُنَّتِي فَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بَسُتْنِي فَلَيْسَ مِنِّي وَتَزَوَّجُوا فَإِنِّي مُكَاتِبٌ بِكُمْ الْإِثْمَ وَمَنْ كَانَ

ذَا طَوَّلَ قَلْبِي نَحْيُحْ وَمَنْ لَمْ يَحْدِ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ رِجَاءٌ^(١) . وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى بَعْضِ جُحَالِ الْمُتَصَوِّفَةِ حَيْثُ قَالَ : الَّذِي يَطْلُبُ الْوَلَدَ أَحَقُّ ، وَمَا عَرَفَ أَنَّهُ النَّفْسُ الْإِثْرَقُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عِزًّا عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ : « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » . وَقَالَ : « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَفُزِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ » . وَقَدْ تَرَجَّمَ الْبُخَارِيُّ عَلَى هَذَا « بَابُ طَلَبِ الْوَلَدِ » . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي طَلْحَةَ حِينَ مَاتَ ابْنُهُ : « أَعْرَسْتُمُ اللَّيْلَةَ ؟ » قَالَ نَعَمْ . قَالَ : « بَارَكَ اللَّهُ لَكُمْ فِي غَائِرِ لَيْلَتِكُمْ » . قَالَ فَحَمَلْتُ . فِي الْبُخَارِيِّ : قَالَ سَفِيَّانُ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ : فَرَأَيْتُ تِسْعَةَ أَوْلَادٍ كُلَّهُمْ قَدْ قَرَأُوا الْقُرْآنَ . وَتَرَجَّمَ أَيْضًا « بَابُ الدُّعَاءِ بِكَثْرَةِ الْوَلَدِ مَعَ الْبَرَكَةِ » . وَسَاقَ حَدِيثَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، خَادِمُكَ أَنَسٌ أَدْعَى اللَّهَ لَهُ . فَقَالَ : « اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ » . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأَبِي سَلَمَةَ وَأَرْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ وَآخِلَفِهِ فِي عَقِيهِ فِي الْغَابِرِينَ » . نَحْرَجُهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « تَزَوَّجُوا الْوُلُودَ الْوُدُودَ فَإِنِّي مَكْتُوبٌ بِكُمْ الْأَنْثَمُ » . أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ . وَالْأَخْبَارُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ نَحْتُ عَلَى طَلَبِ الْوَلَدِ وَتَنْدُبُ إِلَيْهِ ، لِمَا يَرْجُوهُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْعِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَوْتِهِ . قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ أُنْقَطِعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ » فَذَكَرَ « أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » . وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا هَذَا الْحَدِيثُ لَكَانَ فِيهِ كِفَايَةٌ .

الرابعة — فَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَالْوَجَابُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَضَرَّعَ إِلَى خَالِقِهِ فِي هِدَايَةِ وَلَدِهِ وَزَوْجِهِ بِالتَّوْقِيقِ لَهَا وَلِلْهِدَايَةِ وَالصَّلَاحِ وَالْمَغَافِ وَالرَّعَايَةِ ، وَأَنْ يَكُونَ مُبِينًا لَهُ عَلَى دِينِهِ وَدُنْيَاهُ حَتَّى تَنْظُمَ نَفْعَتَهُ بِهِمَا فِي أَوْلَادِهِ وَأَنْتَرَاهُ ؛ أَلَا تَرَى قَوْلَ زَكَرِيَّا « وَاجْعَلْهُ رَبِّي رِضِيًّا » . وَقَالَ : « ثَرِيًّا طَيِّبَةً » . وَقَالَ : « هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَفُزِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ » . وَدُعَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَسٍ فَقَالَ : « اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيهِ » . نَحْرَجُهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ ، وَحُسْبُكُ .

(١) الرِّجَاءُ : أَنْ تَرْضَى أَنْتَ أَمَّا الْعَمَلُ رِضًا شَدِيدًا يَذْهَبُ بِشَيْءٍ مِنَ الْكَفَاحِ . أَرَادَ أَنْ الْعَمَلُ يَقْطَعُ النِّكَاحَ كَمَا يَقْطَعُهُ الرِّجَاءُ .

قوله تعالى : قَادَهُ الْمَلِيْكُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ
يُشْرِكُ بِحَبِّهِ مُصَدِّقًا لِّكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ
الصَّالِحِينَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : (قَادَهُ الْمَلِيْكُ) قرأ حمزة واليكافى « فناداه » بالألف على التذكير ،
نويلا لأنها لأن أصلها الياء ، ولأنها راسية . وبالألف قراءة ابن عباس وابن مسعود ،
وهو اختيار أبي عبيد . وروى عن جرير عن مغيرة عن إبراهيم قال : كان عبد الله يذكر
الملائكة في [كل] القرآن . قال أبو عبيد : زناه اختار ذلك خلافا على المشركين لأنهم قالوا :
الملائكة بنات الله . قال النحاس : هذا احتجاج لا يحصل منه شيء ، لأن العرب تقول :
قالت الرجال ، وقال الرجال ، وكذا النساء . وكيف يحتج عليهم بالقرآن ، ولو جاز أن يحتج
عليهم بالقرآن بهذا لجاز أن يحتجوا بقوله تعالى : « وإذ قالت الملائكة » ولكن الحجة عليهم
في قوله عز وجل : « أشهدوا خلقهم » أى فلم يشاهدوا ؛ فكيف يقولون إنهم إناث فقد
علم أن هذا خلق وهوى . وأما « فناداه » فهو جائز على تذكير الجمع ، « ونادته » على تأنيث
الجماعة . قال مكى : والملائكة ممن يعقل في التكسير يجرى في التأنيث مجرى ما لا يعقل ،
تقول : هى الرجال ، وهى الجنوع ، وهى الجمال ، وقالت الأعزاب . ويقضى ذلك قوله :
« وإذ قالت الملائكة » وقد ذكر في موضع آخر فقال : « وَالْمَلَائِكَةُ بِأَسْطُورَا أَيْدِيهِمْ » وهذا
إجماع . وقال تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ » فتأنيث هذا الجمع وتذكيره
حسن . وقال السدى : ناداه جبريل وحده ، وكذا في قراءة ابن مسعود . وفي التنزيل
« يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ » يعنى جبريل . والروح الوحى . وجائز في العريسة أن
يجبر عن الواحد بلفظ الجمع . وجاء في التنزيل « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ » يعنى نعيم بن مسعود ؛
على ما يأتى . وقيل : ناداه جميع الملائكة ، وهو الأظهر . أى جاء النداء من قبلهم .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحَارِبِ أَنَّ اللَّهَ يَشْرُكَ ﴾ « وهو قائم » ابتداء وخبره .
 « يصلي » في موضع رفع ، وإن شئت كانت نصبا على الحال من المضمرة . « أن الله » أي
 بأن الله . وقرأ حمزة والكسائي ^(١) « إن » أي قالت إن الله ؛ فالتداء بمعنى القول . « يشرك »
 بالشديد قراءة أهل المدينة . وقرأ حمزة « يَشْرُكَ » غففاً ؛ وكذلك حميد بن قيس المكي
 إلا أنه كسر الشين وضم الياء وخفف الباء . قال الأخفش : هي ثلاث لثات بمعنى واحد .
 دليل الأولى وهي قراءة الجساعة أن ما في القرآن من هذا من فعل ماضٍ أو أمر فهو
 بالتثنية ؛ كقوله تعالى : « فَبَشِّرْ عِبَادِي » « فَبَشِّرْهُمْ بِمَغْفِرَةٍ » « فَبَشِّرْهُمْ بِإِعْتِقَاقٍ » « قَالُوا بَشِّرْنَاكَ
 بِالْحَقِّ » . وأما الثانية وهي قراءة عبد الله بن مسعود فهي من بَشَّرَ وهو لغة تامة
 ومنه قول الشاعر ^(٢) :

بَشَّرْتَ عِيَالِي إِذْ رَأَيْتُ مَحْبَبَةً • أُنْتُكَ مِنَ انْجِحَاجِ بَيْلِ كُتَيْبَةٍ
 وقال آخر :

وَإِذَا رَأَيْتَ الْبَاهِثِينَ إِلَى التَّنْدِي • عُبْرًا أَكْفُهُمْ بِحَاجِ مُنْمِلٍ
 فَأَنْتُهُمْ وَأَبَشَّرُ بِمَا يَشْرَوْنَ بِهِ • وَإِنَّا هُمْ زَلُّوا بِفَنِّكَ فَأَنْزِلْ
 وأما الثالثة فهي من أبشَرَ يشتر إشاراً قال :

يَا أُمِّ عَمْرٍو أَبْشِرِي بِالْأَبْشَرِي • مَوْتُ ذُرْبِيعٍ وَجَرَادٌ عَظْلِي ^(٣)

قوله تعالى : ﴿ يَحْيَى ﴾ كان اسمه في الكتاب الأول حيا ، وكان اسم سارة زوجة إبراهيم
 عليه السلام سارة ، وتفسيره بالعربية لا تله ، فلما بُشِّرَتْ بإسحاق قيل لها : سارة ، تسمائها

(١) كذا في الأصل واء مراب القرآن لتمام . والذي في البحر لأبي حيان وعراب القرآن لفيما يجرى وتفسير
 ابن عطية : « وقرأ ابن عامر وحمة « إن الله » بكسر الهزة ، وقرأ الباقون بفتح الهزة » .

(٢) كذا في الأصول ومعنا التزيل للغير . والذي في تفسير البحر وابن عطية : « وفي قراءة عبد الله بن مسعود
 يشرك بضم الياء وتخفيف الشين المكسورة من أبشر ، وهكذا قرأ في كل القرآن » .

(٣) هو عطية بن زيد ، وقال ابن جرير هو عبد النيس بن خفاف اليربوعي . (من اللسان) .

(٤) قال أبو عبيد : يقال للإنسان إذا نظر إلى شيء فأعجب واشتهاء فتأمله وأسرع نحوه وفرح به . يش إلى .

(٥) جراد عاتلة وعظلي ، لا تبرح . في اللسان : « أراد أن يقول : يا أم عامر ظم يستغمل البيت فقال يا أم عمرو »
 وأم عامر كنية الضبع . ومن كلامهم الفصح : أبشري بجراد عظل ، وكم رجال قتل » .

بذلك جبريل عليه السلام . فقالت : يا ابراهيم لم تقص من اسمي حرف ؟ فقال ذاك ابراهيم لجبريل عليهما السلام . فقال : " إن ذاك الحرف زيد في اسم ابن لما من أفضل الأنبياء اسمه حيي وُسِّي يحيى " . ذكره النقاش . وقال قتادة : سُمِّي يحيى لأن الله تعالى أحياه بالإيمان والنبوة . وقال بعضهم : سُمِّي بذلك لأن الله تعالى أحياه للناس بالهدى . وقال مُقَاتِل : أشق اسمه من اسم الله تعالى حي فسَمِّي يحيى . وقيل : لأنه أحياه به رحم أمه .

(مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ) يعني عيسى في قول أكثر المفسرين . وسُمِّي عيسى كلمة لأنه كان بكلمة الله تعالى التي هي « كن » فكان من غير أب . وقرأ أبو السَّامِل المدَوِّي « بِكَلِمَةٍ » مكسورة الكاف ساكنة اللام في جميع القرآن ، وهي لغة فصيحة مثل كنف ونخذ . وقيل : سُمِّي كلمة لأن الناس يهتدون به كما يهتدون بكلام الله تعالى . وقال أبو عبيد : معنى « بكلمة من الله » بكاتب من الله . قال : والسرب يقول أنشدني كلمة أي قصيدة ؛ كما روى أن الحُوَيْدَةَ^(١) ذُكِرَ لِحَسَانِ فقال : لعن الله كلمته ، يعني قصيدته . وقيل غير هذا من الأقوال . والقول الأول أشهر وعليه من العلماء الأكثر . و « يحيى » أول من آمن ببيسى عليهما السلام وصَدِّقَهُ ، وكان يحيى أكبر من عيسى بثلاث سنين . ويقال بستة أشهر . وكان ابن خالته ، فلما سمع زكريا شهادته قام إلى عيسى فضمّه إليه وهو في نحره . وذكر الطبري أن مريم لما حملت ببيسى حملت أيضا أختها يحيى ؛ فجاءت أختها زائرة فقالت : يا مريم ، أشعرت أنى حملت ؟ فقالت لما مريم : أشعرت أنت أنى حملت ؟ فقالت لها : وإنى لأجد ما في بطنى يسجد لما في بطنك . وذلك أنه رُوي أنها أحست جنينها يخرُ برأسه إلى ناحية بطن مريم . قال السدي : فذلك قوله « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ » . « ومصدق » نصب على الحال . (وسيدا) السيد : الذي يسود قوه ويُنْتَهَى إلى قوله . وأصله سَيِّد يُقَالُ : فلان أسود من

(١) الحويدرة تصغير الحادرة وهو لقب غلب عليه ، واسمه قطبة بن محسن بن جردل . وبنى حسان بن ثابت رضي الله عنه قصيدته التي مطلعها :

بكرت مُحِبَّةً غُدوة خضى • وغسلت نَعْرَ خَلْقٍ لم يرج

(راجع المفضلات ص ٤٨ طبع أوروبا وكاتب الأغاني ج ٣ ص ٢٧٠ طبع دار الكتب المصرية) .

فلان، أفضل من السيادة؛ ففيه دلالة على جواز تسمية الإنسان سيّدا كما يجوز أن يسمى عزيزا أو كريما . وكذلك روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لبيّ قُرَيْظَة : " قوموا إلى سيّدكم " . وفي البخارىّ: " وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الحسن : " إن أبى هذا سيّدٌ ولعلّ الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " . وكذلك كان، فإنه لما قُتل على رضى الله عنه بايعه أكثر من أربعين ألفا وكثير من تخلف عن أبيه ومن نكث بيعته ، بقي نحو سبعة أشهر خليفة بالعراق وما وراءها من نُرسان ، ثم سار إلى معاوية في أهل الحجاز والعراق وسار إليه معاوية في أهل الشام ؛ فلما تراءى الجمعان بموضع يقال له « مَسْكَن » من أرض السّواد بناحية الأنبار كره الحسن القتال لعله أن إحدى الطائفتين لا تغلب حتى تهلك أكثر الأخرى فهلك المسلمون ؛ فسلم الأمر إلى معاوية على شروط شرطها عليه ، منها أن يكون الأمر له من بعد معاوية ؛ فالترم كل ذلك معاوية فصَدَقَ قوله عليه السلام : " إن أبى هذا سيّدٌ " ولا أسود ممن سَوّاه الله تعالى ورسوله . قال قتادة في قوله تعالى « وسيدا » قال : في العلم والعبادة . ابن جبير والضحاك : في العلم والثّقى . مجاهد : السيّد الكريم . ابن زيد : الذى لا يغلبه الغضب . وقال الزجاج : السيّد الذى يفوق أقرانه في كل شيء من الخير . وهذا جامع . وقال الكسائى : السيّد من المميّز الميسّر . وفي الحديث " تيّ من الضّان خير من السيّد من المعز " . قال :

سواءٌ عليه شاةٌ عامٍ دنت له * ليذبحها للضّيْفِ أم شاء سيّدٌ

(وَحَصُورًا) أصله من الحصر وهو الحبس . حَصَرَنى الشيء وأحصرنى إذا حبسنى . قال ابن مَيّادة :

وما هجر ليّ أن تكون تباعدت * عليك ولا أن أحصرتك شغولٌ

وناقة حصور : ضيقة الإحليل . والحَصُور : الذى لا يأتى النساء كأنه مُحْبَمٌ عنهن ؛ كما يقال : دبل حصور وحصير إذا حبس وفده ولم يخرج ما يخرجهُ النَّدائى . يقال : شرب القوم لحصير عليهم فلان، أى يئيل ؛ عن أبى عمرو . قال الأخطل :

وشارِب مُرْنَج بالكس نادمني • لا بالحُصُور ولا فيها يَسْتَوِرُ^(١)

وفى التبريل « وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا » أى محبسًا • والحِصِيرُ المَلِكُ لأنه محبوب • قال لبيد :

وَقَامِمْ غَلَبَ الرِّقَابِ كَانَهُمْ • جُنَّ لَدَى بَابِ الْحَصِيرِ قِيَامُ

فيحيى عليه السلام حُصُور ، فقول بمعنى مفعول لا يأتى النساء ؛ كأنه ممنوع مما يكون فى الرجال ؛ عن ابن مسعود وغيره • وقول بمعنى مفعول كثير فى اللغة ، من ذلك حلوب بمعنى مخلوبة ؛ قال الشاعر :

فِيهَا آتَنَاتٌ وَأَرْبَعُونَ حَلُوبَةً • سُوْدًا تَخَافِيهِ الْغَرَابُ الْأَخْمَرُ^(٢)

وقال ابن مسعود أيضا وابن عباس وابن جُبَيْر وَقَتَادَةَ وَعَطَاءُ وَأَبُو الشَّعْنَاءُ وَالْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ وابن زَيْد : هو الذى يَكُفُّ عن النساء ولا يقربهن مع القدرة • وهذا أجمع لوجهين : أحدهما أنه مَدْحٌ وثناءٌ عليه ، والثناء إنما يكون عن الفعل المكتسب دون الحِلَّةِ فى الغالب • الثانى أن قولاً فى اللغة من صيغِ الفاعلين ؛ كما قال :

ضُرُوبٌ يَنْصُلُ السَّيْفُ سَوَاقِيهَا • إِذَا عَدِمُوا زَادَا فَإِنَّكَ عَاقِرُ

فالمتى أنه يمحصر نفسه عن الشهوات • ولعل هذا كان شرعه ؛ فاما شرعنا فالنكاح كما تقدم • وقيل : الحُصُورُ العَيْنُ الذى لا ذَكَرَ له يَتَأَقَلُّ به النكاح ولا يُتَزَلُّ ؛ عن ابن عباس أيضا وسعيد ابن المسيب والضحاك • وروى أبو صالح عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَلْقَى اللَّهَ بِذَنْبٍ قَدْ أَذْنَبَهُ يَعْذِبُهُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَّا يَحْيَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول : « كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَلْقَى اللَّهَ بِذَنْبٍ قَدْ أَذْنَبَهُ يَعْذِبُهُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَّا يَحْيَى »

(١) سوار : مرادوناب • وقد روى « سَارَ » بوزن سَارَ ، أى أنه لا يستر فى الإناث سوارا بل يشفه كله •

(٢) القوام من الرجال : السيد الكثير الغير الواسع الفضل • والقوام العدد الكثير •

(٣) البيت لمرة العيسى فى مقلته • والخرافى : أوخر ديش الجناح مما على الظهر •

(٤) البيت لأبى طالب بن عبد المطلب • مدح رجلا بالكرم فيقول : يضرب بسيفه سوق البنان من الإبل • لأنضاف اذا عدوا الزاد ولم يظفروا بجراد لشدة الزمان وكَلَبَهُ ، وكانوا اذا أرادوا تحرق الناقة ضربوا ساقها بالسيف فحرقوا ثم يحرقوها • (عن شرح التواهد) •

ابن زكريا فإنه كان ميذا وحصورا ونيا من الصالحين" - ثم أوحى النبي صلى الله عليه وسلم بيده إلى قذاة من الأرض فأخذها وقال : "كان ذكركم مثل هذه القذاة" . وقيل : معناه الحابس نفسه عن معاصي الله جل وعز . «وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ» قال الزجاج : الصالح الذي يؤذى الله ما أقترض عليه، وإلى الناس حقوقهم .

قوله تعالى : قَالَ رَبِّ اِنَّى يَكُونُ لِىْ غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنى الْكِبَرَ وَامْرَاَتِىْ عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ اللّٰهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٠٠﴾

قيل : الرب هنا جبريل ، أى قال لجبريل : ربّ - أى يا سيدى - أئى يكون لى غلام ؟
يعنى ولداً ؛ وهذا قول الكلبي . وقال بعضهم : قوله «رب» يعنى الله تعالى . «أئى» يعنى كيف ، وهو فى موضع نصب على الظرف . وفى معنى هذا الاستفهام وجهان : أحدهما أنه سأل هل يكون له الولد وهو وأمراؤه على حالهما أو يُرَدَّانِ إلى حال من يَدِّ ؟ . الثانى سأل هل يُرْزَقُ الولد من أمراؤه العاقر أو من غيرها . وقيل : المعنى بائى متلبة استوجب هذا وأنا وأمراأتى على هذه الحال ؛ على وجه التواضع . ويروى أنه كان بين دعائه والوقت الذى بُشِّرَ فيه أربعين سنة ، وكان يوم بشر ابن تسعين سنة وأمراؤه قروية السن منه . وقال ابن عباس والضحاك : كان يوم بشر ابن عشرين ومائة سنة وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة ؛ فذلك قوله «وأمراأتى عاقر» أى عقيم لا تلد . يقال : رجل عاقر وامرأة عاقرة بينة المقر . وقد عُقِّرَتْ وعُقِّرَ (بضم القاف فيهما) تمعَّرقوا صاروا عاقرًا ؛ مثل حسنت تحسن حسناً ؛ عن أبى زيد . وعُقَّارة أيضا . وأسماء الفاعلين من فعل فُعِّلَ ؛ يقال : عظمت فهى عظيمة ؛ وعُقِّرَتْ فهى ظريفة . وإنما قيل عاقر لأنه يراد به ذات عُقْرٍ على النسب . ولو كان على الفعل لقال : عقرت فهى عقيمة كأن بها عقرا ، أى كبرا من السن يمنعها من الولد . والعاقر : العظيم من الرمل لا ينبت شيئا . والمُعْقَرُ أيضا مهر المرأة اذا وطئت على شبهة . وبيضة المُعْقَرِ : زعموا هى بيضة الديك ؛ لأنه يبيض فى عمره بيضة واحدة إلى الطول . وعُقَّرَ النار أيضا (١) القذاة : ما يقع فى البين والماء والشراب من تراب أو تبن أو روث أو غير ذلك .

وسطها ومعظمها . وعُقر الحوض : مؤخره حيث تحف الإبل إذا وردت ؛ يقال : عُقر وعُقر مثل عُمر وعُسر ، والجمع الأعقار فهو لفظ مشترك . والكاف في قوله « كذلك » في موضع نصب ، أى يفعل الله ما يشاء مثل ذلك . والعلام مشتق من العُلْمَة وهو شدة طلب النكاح . واغتم الفحل عُلمة حاج من شهوة الضراب . وقالت لَيْلى الأَخيلية :

شفأها من الداء المضال الذى بها • غلامٌ إذا هزَّ الفناء سفاها

والعلام الطائر الشارب . وهو بين النُّلومة والقُلومية ، والجمع النُّلومة والغِلْمان . ويقال : إن التيلم الشاب والجارية أيضا . والغيلم : ذكر السلحفاة . والغيلم موضع . واغتم البحر حاج وتلاطمت أمواجه .

قوله تعالى : **قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا** وأذكر رَبَّكَ كَثِيرًا وَسِحِّ بِالْعَشِيِّ وَالْإِنْكِارِ ﴿١١﴾
فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً)** «جعل» هنا بمعنى صير لتعديه إلى مفعولين . و « لى » في موضع المفعول الثانى . ولما بُشِّر بالولد ولم يبعد عنده هذا في قدرة الله تعالى طلب آية — أى علامة — يعرف بها صحة هذا الأمر وكونه من عند الله تعالى ؛ فعاقبه الله تعالى بأن أصابه السكوت عن كلام الناس لسؤاله الآية بعد مُشافهة الملائكة إياه ؛ قاله أكثر المفسرين . قالوا : وكذلك إن لم يكن من مرض نخرس أو نحوه ففيه على كل حال عقاب . قال ابن زيد : إن زكريا عليه السلام لما حملت زوجته منه يحيى أصبح لا يستطيع أن يكلم أحدا ، وهو مع ذلك يقرأ التوراة ويذكر الله ؛ فإذا أراد مقابلة أحد لم يطقه .

الثانية — قوله تعالى : **(إِلَّا رَمْرًا)** الرمز في اللغة الإيحاء بالشتين ، وقد يستعمل في الإيحاء بالحاجين والعينين واليدين ، وأصله الجرعة . وقيل : طلب تلك الآية زيادة طمأنينة . للمعنى : تتم النعمة بأن تجعل لى آية ، وتكون تلك الآية زيادة نعمة وكرامة . فقيل له : آيتك

أَلَا تَكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ؛ أَيْ قَتَعَ مِنَ الْكَلَامِ ثَلَاثَ لَيَالٍ. دَلِيلُ هَذَا الْقَوْلِ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ بُشْرَى الْمَلَائِكَةِ لَهُ . « وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا » أَيْ أَوْجَدْتُكَ بِقُدْرَتِي فَكَذَلِكَ أَوْجَدْتُكَ الْوَلَدَ . وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ النَّحَاسُ وَقَالَ : قَوْلُ قَتَادَةَ إِنْ زَكَرِيَّا عَوَّقَ بِتَرْكِ الْكَلَامِ قَوْلَ مَرْغُوبٍ عَنْهُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُخَبِّرْنَا أَنَّهُ أَذْنَبَ وَلَا أَنَّهُ نَهَى عَنْ هَذَا . وَالْقَوْلُ فِيهِ أَنْ الْمَعْنَى إِبْجَالٌ لِي عَلَامَةٍ تَدُلُّ عَلَى كَوْنِ الْوَلَدِ ؛ إِذْ كَانَ ذَلِكَ مُغَيَّبًا عَنِّي . « وَرَمَزًا » نَصَبَ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ الْمَقْطُوعِ ؛ قَالَهُ الْأَخْفَشُ . وَقَالَ الْكِسَائِيُّ : وَهَنْ يَرْمُزُ وَيَرْمِزُ . وَفَرَى « إِلَّا رَمَزًا » بِقَتَعَ الْمِيمِ وَ « رُمَزًا » بَضَمِهَا وَضَمِّ الرَّاءِ ؛ الْوَاحِدَةُ رَمْزَةٌ .

الثالثة - في هذه الآية دليل على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام وذلك موجود في كثير من السنة . وأكد الإشارات ما حكى به النبي صلى الله عليه وسلم من أمر السوءاء حين قال لها : « أَيْنَ اللَّهُ ؟ » فَأشارت برأسها إلى السماء فقال : « أَهْمَهَا فَاثْنَا مَوْمَةً » . فَجَازَ الْإِسْلَامَ بِالْإِشَارَةِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الدِّيَانَةِ الَّذِي يُحْرِزُ الدِّمَ وَالْمَالَ وَتُسْتَحَقُّ بِهِ الْجَنَّةُ وَيُجَبَّى بِهِ مِنَ النَّارِ . وَحَكَمَ بِإِيمَانِهَا كَمَا يَحْكُمُ بِنُطْقٍ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ ؛ فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْإِشَارَةُ حَامِلَةً فِي سَائِرِ الدِّيَانَةِ ، وَهُوَ قَوْلُ عَامَةِ الْفُقَهَاءِ . وَرَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ أَنَّ الْأَخْرَسَ إِذَا أَشَارَ بِالطَّلَاقِ أَنَّهُ يَلْزِمُهُ . وَقَالَ الشَّافِعِيُّ فِي الرَّجُلِ يَمْرُضُ فَيَحْتَثُّ لِسَانَهُ فَهُوَ كَالْأَخْرَسِ فِي الرَّجْعَةِ وَالطَّلَاقِ . وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : ذَلِكَ جَائِزٌ إِذَا كَانَتْ إِشَارَتُهُ تَعْرِفُ ، وَإِنْ شُكَّ فِيهَا فَهَذَا بَاطِلٌ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِقِيَاسٍ وَإِنَّمَا هُوَ اسْتِحْسَانٌ . وَالْقِيَاسُ فِي هَذَا كُلِّهِ أَنَّهُ بَاطِلٌ لِأَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا تَعْمَلُ إِشَارَتُهُ . قَالَ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ بَقَّالٍ : وَإِنَّمَا حُلُّ أَبَا حَنِيفَةَ عَلَى قَوْلِهِ هَذَا أَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ السَّنَنَ الَّتِي جَاءَتْ بِمِثَالِ الْإِشَارَاتِ فِي أَحْكَامِ مُخْتَلَفَةِ الدِّيَانَةِ . وَلَمَّا لَمَسَ الْبُخَارِيُّ حَافِلَ بَرَجَتِهِ « بَابُ الْإِشَارَةِ فِي الطَّلَاقِ وَالْأَمُورِ » الرَّدِّ عَلَيْهِ . وَقَالَ عَطَاءٌ : أَرَادَ بِقَوْلِهِ « أَلَا تَكَلِّمُ النَّاسَ » صَوْمَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ . وَكَانُوا إِذَا صَامُوا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا رَمَزًا . وَهَذَا فِيهِ بُعْدٌ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الرابعة - قال بعض من يميز نسخ القرآن بالسنة : إِنْ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنَعَ الْكَلَامَ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ ، وَإِنَّهُ مَنُوحٌ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَا تُكَلِّمُ يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ » . وَكَأَنَّ

العلماء على أنه ليس بمسوخ، وأن ذكرها إنما منع الكلام بأقّة دخلت عليه منعه إياه، وتلك الآفة عدم القدرة على الكلام مع الصعّة؛ كذلك قال المفسرون. وذهب كثير من العلماء إلى أنه «لا تحُتُّ يوما إلى الليل» إنما معناه عن ذكر الله. وأما عن المَندَر وما لا فائدة فيه، فالصمت عن ذلك حسن.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّعِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (١) أمره بالآتيك الذكر في نفسه مع احتفال لسانه؛ على القول الأول. وقد مضى في البقرة معنى الذكر. قال محمد بن كعب القرطبي: لو رُخِّص لأحد في ترك الذكر لُرخِّص لذكرى بقول الله عز وجل «ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا وأذكر ربك كثيرا» ولُرخِّص للرجل يكون في الحرب بقول الله عز وجل: «إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا». ذكره الطبري. «وسبِّح» أي صل؛ تُميت الصلاة سُبُحة لما فيها من تزيه الله تعالى عن السوء. و«النعي» جمع عَيْتَةٍ. وقيل: هو واحد. وذلك من حين تزول الشمس إلى أن تغيب؛ عن مجاهد. وفي الموطأ عن القاسم بن محمد قال: ما أدركتُ الناس إلا وهم يصلّون الظهر بعنّى. «والإبكار» من طلوع الفجر إلى وقت الضحى.

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكُوتُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٢)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي اختارك، وقد تقدّم. ﴿وطهرك﴾ أي من الكفر؛ عن مجاهد والحسن. الزجاج: عن سائر الأنداس من الحيض والغاس وغيرهما. واصطفاك لولادة عيسى. ﴿على نساء العالمين﴾ يعني عالمي زمانها؛ عن الحسن وابن جرير وغيرهما. وقيل: على نساء العالمين أجمع إلى يوم الصور؛ وهو الصحيح على ما بينته، وهو قول الزجاج وغيره. وكرر الاصطفاء لأن معنى الأول الاصطفاء لعبادته، ومعنى الثاني

لولادة عيسى . وروى مسلم عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كُلُّ
 من الرجال كثير ولم يُكَلِّم من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وإن فضل
 عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : الكمال هو
 التناهي والتمام . ويقال في ماضيه «كُلُّ» بفتح الميم وضمتها ، ويكمل في مضارعه بالضم . وكال
 كل شيء بحسبه . والكمال المطلق إنما هو لله تعالى خاصة . ولا شك أن أكمل نوع الإنسان
 الأنبياء ثم يليهم الأولياء من الصديقين والشهداء والصالحين . وإذا تقرر هذا فقد قيل :
 إن الكمال المذكور في الحديث يعني به النبوّة فيلزم طيه أن تكون مريم عليها السلام وآسية
 نبيتين ، وقد قيل بذلك . والصحيح أن مريم نبيّة ؛ لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك
 كما أوحى إلى سائر النبيين حسب ما تقدم ويأتى بيانه أيضا في «مريم» . وأما آسية فلم يرد
 ما يدل على نبوتها دلالة واضحة بل على صدقيتها وفضلها ، على ما يأتى بيانه في «التحريم» .
 وروى من طرق صحيحة أنه عليه السلام قال فيما رواه عنه أبو هريرة : «خير نساء العالمين
 أربع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة
 بنت عبد» . ومن حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : «أفضل نساء أهل
 الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت عبد مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة
 فرعون» ثم وفي طريق آخر عنه : «سيّدة نساء أهل الجنة بسد مريم فاطمة وخديجة» .
 فظاهر القرآن والأحاديث يقتضى أن مريم أفضل من جميع نساء العالم من حواء إلى آخر
 امرأة تقوم عليها الساعة ؛ فإن الملائكة قد بلغتها الوحي عن الله عز وجل بالتكليف والإخبار
 والشارة كما بلغت سائر الأنبياء ؛ فهي إذًا نبيّة والنبي أفضل من الولي فهي أفضل من كل
 النساء : الأولين والآخرين مطلقا . ثم بعدها في التفضيلة فاطمة ثم خديجة ثم آسية . وكذلك
 رواه موسى بن عتبة عن كريب عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 «سيّدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية» . وهذا حديث حسن يرفع
 الإشكال . وقد خصّ الله مريم بما لم يؤت أحدًا من النساء ؛ وذلك أن روح القدس كلمها
 وظهر لها ونطق في دبرها ودعا منها للشفعة ؛ فليس هذا لأحد من النساء . وصنفت بكلمات

رَبِّهَا وَلَمْ تَسْأَلْ آيَةً عِنْدَ مَا بُشِّرَتْ كَمَا سَأَلَ زَكَرِيَّا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْآيَةِ ؛ وَلِذَلِكَ سَمَّاهَا اللَّهُ فِي تَنْزِيلِهِ صِدْقَةً فَقَالَ : « وَأَنَّهُ صِدْقَةٌ » . وَقَالَ : « وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنَاتَيْنِ » فَشَهِدَهَا بِالصَّدْقَةِ وَشَهِدَهَا بِالتَّصَدِيقِ لِكَلِمَاتِ الْبَشَرَى وَشَهِدَهَا بِالتَّقْوَى . وَإِنَّمَا بُشِّرَ زَكَرِيَّا بِغُلَامٍ فَلَحَظَ إِلَى كِبَرِ سِنِّهِ وَعَقَامَةِ رَجَمِ أَمْرَانِهِ فَقَالَ : أَيْ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ ؛ فَسَأَلَ آيَةً . وَبُشِّرَتْ مَرْيَمُ بِالْغُلَامِ فَلَحَظَتْ أَنَّهَا يَتَرَكُ وَلَمْ يَمْسَسْهَا بَشَرٌ قَطُّ لَهَا : « كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ » فَانْقَصَرَتْ عَلَى ذَلِكَ ، وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَلَمْ تَسْأَلْ آيَةً مِمَّنْ يَعْلَمُ كُنْهَ هَذَا الْأَمْرِ ، وَمِنْ لَأْمَرَأَةٍ فِي جَمِيعِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مِنْ نِسَاءِ بَنَاتِ آدَمَ مَا لَهَا مِنْ هَذِهِ الْمُنَاقَبِ ! . وَلِذَلِكَ رُويَ أَنَّهَا سَبَقَتْ السَّابِقِينَ مَعَ الرُّسُلِ إِلَى الْجَنَّةِ ؛ جَاءَ فِي الْخَبَرِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَوْ أَقْسَمْتُ لَبُرْتُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَبْلَ سَابِقِ أُمِّي إِلَّا بَضْعَةٌ عَشْرٍ وَجِلَاءُ مِنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ وَالْأَسْبَاطُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ » . وَقَدْ كَانَ يَحْيَى عَلَى مَنْ اتَّخَذَ عِلْمَ الظَّاهِرِ وَاسْتَدَلَ بِالشَّيْءِ الظَّاهِرِ عَلَى الْأَشْيَاءِ الْبَاطِنَةِ أَنْ يَعْرِفَ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا خَيْرَ » وَقَوْلُهُ حَيْثُ يَقُولُ : « لِيَوْمِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيَدِي وَمِفْتَاحُ الْكَرَمِ بِيَدِي وَأَنَا أَوَّلُ خَطِيبٍ وَأَوَّلُ شَفِيعٍ وَأَوَّلُ مُبَشِّرٍ وَأَوَّلُ » . فَلَمْ يَنْبَلْ هَذَا السُّؤْدُدُ فِي الدُّنْيَا عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا لِأَمْرِ عَظِيمٍ فِي الْبَاطِنِ . وَكَذَلِكَ شَأْنُ مَرْيَمَ لَمْ تَنْتَلِ شَهَادَةَ اللَّهِ فِي التَّزْيِيلِ بِالصَّدْقَةِ وَالتَّصَدِيقِ بِالكَلِمَاتِ إِلَّا لِمُرْتَبَةٍ قَرِيبَةٍ دَانِيَةٍ . وَمَنْ قَالَ لَمْ تَكُنْ نَبِيَّةً قَالَ : إِنْ رَوَيْتَهَا لَلَّكَ كَمَا رَوَى جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صِفَةِ دِحْيَةِ الْكُتُبِيِّ حِينَ سُؤَالِهِ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَلَمْ تَكُنِ الصَّحَابَةُ بِذَلِكَ أَنْبِيَاءَ . وَالْأَوَّلُ أَظْهَرَ وَعَلَيْهِ الْأَكْثَرُ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : يَعْرِمُ أَفْتَى لِرَبِّكَ وَأَجْمِدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّكْعَيْنِ (١٧)

أَيِ أَطْلَعَ الْقِيَامَ فِي الصَّلَاةِ ؛ مِنْ مَجَاهِدٍ . قَنَادَةٍ : أَدْبَى الطَّاعَةِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي الْقَنُوتِ . قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : لَمَّا قَالَتْ لَهَا الْمَلَائِكَةُ ذَلِكَ فَاسْتَفْتَتْ فِي الصَّلَاةِ حَتَّى وَرِثَتْ

(١) راجع ج ٢ ص ٨٦ طبع ثانية و ج ٣ ص ٢١٣ طبع أولى وثانية .

قدماها وسالت دما وقبها عليها السلام : ﴿ وَأَعْبُدِي وَآرْتَبِي ﴾ قدم السجود ها هنا على الركوع لأن الواو لا توجب الترتيب ؛ وقد تقدم الخلاف في هذا في البقرة عند قوله تعالى : « إِنَّ الصَّافِيَ وَالْمُرَّةَ مِنْ شَجَائِرِ اللَّهِ » . فإذا قلت : قام زيد وعمرو جاز أن يكون عمرو قام قبل زيد ، فعلى هذا يكون المعنى واركني واصبدي . وقيل : كان شرعهم السجود قبل الركوع . ﴿ مَعَ الرَّائِيَيْنِ ﴾ قيل : معناه أفضل كفضلهم وإن لم تصلّ معهم . وقيل : المراد به صلاة الجماعة . وقد تقدم في البقرة ^(١) .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَتَمْلَهُمْ أَنَّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيماً وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿١١﴾
فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ أى الذى ذكرنا من حديث زكريا ويحيى ومريم عليهم السلام من أخبار الغيب . ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ فيه دلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر عن قصة زكريا ومريم ولم يكن قرأ الكتب ؛ وأخبر عن ذلك وصدقه أهل الكتاب بذلك ؛ فذلك قوله تعالى : « نوحيه اليك » فردّ الكفاية الى ذلك فلذلك ذكر . والإيماء هنا الإرسال إلى النبي صلى الله عليه وسلم . والوحي يكون إلهاماً وإيماءً وغير ذلك . وأصله في اللغة إعلام في خفاء ؛ ولذلك صار الإلهام يُسمى وحياً ومنه « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ » وقوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ » وقيل : معنى « أَوْحيت الى الحواريين » أمرتهم ؛ يقال : وحي وأوحى ، وروى وأرته بمعناه . قال العجاج :

« أَوْحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ »

أى أمر الأرض بالقرار . وفي الحديث : « الْوَحْيُ الْوَحْيُ » وهو السرعة ؛ والفعل منه تَوَحَّيْتُ تَوَحَّيًّا . قال ابن فارس :- الوحي الإشارة والكتابة والرسالة ، وكل ما ألقينته إلى غيره

(١) راجع المسألة الخامسة وما بعدها ج ٤ ص ٣٤٤ طبع ثانية أو ثالثة .

حتى يعلمه ونحى كيف كان . والوحي السريع . والوحي الصوت ؛ يقال : استوحيتهم
أى استمخرتهم . قال :

« أوجبت ميمونا لها والأزرق »

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ لَتَيْهِمْ ﴾ أى وما كنت يا محمد لسيهم ، أى بحضرتهم
وعندهم . ﴿ إِذْ يَقُولُ أَفْلَآمَهُمْ ﴾ جمع قلم ، من قلمه إذا قطعه . قيل : قلداهم وسهامهم .
وقيل : أفلآهم التى كانوا يكتبون بها التوراة ، وهو أجود ؛ لأن الأزلام قد نهى الله عنها
فقال « ذَلِكَ فَسَقٌ » . إلا أنه يجوز أن يكونوا فعلوا ذلك على غير الجهة التى كانت عليها الجاهلية
تفعلها . ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ أى يحضنها ، فقال زكريا : انا أحق بها ، خالقتها عندى .
وكانت عنده أشباع بنت فاقود أخت حنة بنت فاقود أم مريم . وقال بنو اسرائيل : نحن
أحق بها ، بنت عالما . فأتقروا عليها وجاء كل واحد بقلمه ، واتفقوا أن يحملوا الأفلآم فى الماء
الجارى فن وقف قلمه ولم يجره الماء هو لحضنها . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « بقرت
الأفلآم وعال قلم زكريا » . وكانت آية له لأنه نبي تجرى الآيات على يديه . وقيل غير هذا .
و « أيهم يكفل مريم » ابتداء وخبر فى موضع نصب بالفعل المضمر الذى دل عليه الكلام ،
التقدير : ينظرون أيهم يكفل مريم . ولا يعمل الفعل فى لفظ « أى » لأنها استفهام .

الثالثة - استدل بعض علمائنا بهذه الآية على إثبات القرعة ، وهى اصل فى شرعنا
لكل من أراد العدل فى القسمة ، وهى سنة عند جمهور الفقهاء فى المستوين فى المحجة ليعدل
بينهم وتطمئن قلوبهم وترفع الظنة عن يتولى قسمتهم ، ولا يفضل أحد منهم على صاحبه
إذا كان المقسوم من جنس واحد أتباعا للكتاب والسنة : ورد العمل بالقرعة أبو حنيفة
وأصحابه ، وردوا الأحاديث الواردة فيها ، وزعموا أنها لا معنى لها وأنها تشبه الأزلام التى نهى
الله عنها . وحكى ابن المنذر عن أبى حنيفة أنه جوزها وقال : القرعة فى القياس لا تستقيم ،
ولكن تركا القياس فى ذلك وأخذنا بالآثار والسنة . قال أبو عبيد : وقد عمل بالقرعة ثلاثة
من الأنبياء : يونس وزكريا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم . قال ابن المنذر . واستعمال القرعة

كالإجماع من أهل العلم فيما يُقسم بين الشركاء، فلا معنى لقول من ردّعه. وقد ترجم البيهقي في آخر كتاب الشهادات (باب القسرة في المشتكلات وقول الله عز وجل «إذ يقول أقلامهم») وساق حديث الثمان بن بشير: «مثل القائم على حدود الله والذين فيها مثل قوم آسثموا على سفينة...» الحديث. وسأني في «الأفعال» إن شاء الله تعالى، وفي سورة «الزحرف» أيضا بحول الله سبحانه. وحديث أمّ العلاء وأن عثمان بن مظعون طار لهم سهم في السكك حين اقترعت الأنصار سككتي المهاجرين، الحديث. وحديث عائشة قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأتين خرج سهمها خرج بها» وفي الحديث.

وقد اختلقت الرواية عن مالك في ذلك؛ فقال مرة: يُقرع للحديث، وقال مرة: يسافر بأوفقهن له في السفر. وحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا» والأحاديث في هذا المعنى كثيرة. وكيفية القرعة مذكورة في كتب الفقه والخلاف. واحتج أبو حنيفة بأن قال: إن القرعة في شأن زكريا وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم كانت مما لو تراضوا عليه دون قرعة بلّاز. قال ابن العربي: «وهذا ضعيف، لأن القرعة إنما فائدتها استخراج الحكم الخفي عند التشاح؛ فأما ما يخرج به التراضي [فيه] فباب آخر، ولا يصح لأحد أن يقول: إن القرعة تجري مع موضع التراضي، فإنها لا تكون أبدا مع التراضي» وإنما تكون فيما يتشاح الناس فيه ويضنّ به. وصفة القرعة عند الشافعي ومن قال بها: أن تقطع وقاع صغار مستوية فيكتب في كل رقعة اسم ذى السهم ثم تجعل في بنادق طين مستوية لا تخلو فيها ثم تجفف قليلا ثم تلقى في توب رجل لم يحضر ذلك وينطى عليها توبه ثم يدخل يده ويخرج فإذا خرج اسم رجل أعطى الجزء الذي أقرع عليه.

- (١) كذا في نسخ الأصل، وهو لفظ البخاري عن الثمان في «كتاب الطالم». وروايته. في «كتاب الشهادات»: «... مثل المدن في حدود الله والواقع فيها مثل...». والحق: التي يراني.
- (٢) تشاح الخصمان: أراد كل أن يكون هو الغالب. (٣) زيادة عن أحكام القرآن لابن العربي.

الرابعة - ودلت الآية أيضا على أن الخلالة أحق بالحضانة من سائر القرابات ما عدا الجدة ؛ وقد قضى النبي صلى الله عليه وسلم في ابنة حمزة - واسمها أمة الله - لجعفر وكانت عنده خالتها، وقال : « إنما الخلالة بمنزلة الأم » وقد تقدمت في البقرة هذه المسألة . وخرج أبو داود عن علي قال : خرج زيد بن حارثة إلى مكة فقدم بأبنة حمزة فقال جعفر : أنا أخذتها أنا أحق بها ابنة عمي وخالتها عندي ، وإنما الخلالة أم . فقال علي : أنا أحق بها ابنة عمي وعندي أبنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي أحق بها . وقال زيد : أنا أحق بها ، أنا خرجت إليها وسافرت وقدمت بها . ففرج النبي صلى الله عليه وسلم فذكر حديثا قال : « وأما الجارية فأقضى بها لجعفر تكون مع خالتها وإنما الخلالة أم » . وذكر ابن أبي خيثمة أن زيد بن حارثة كان وصي حمزة فتكون الخلالة على هذا أحق من الوصي ويكون ابن العم إذا كان زوجا غير قاطع بالخلالة في الحضانة وإن لم يكن محرما لها .

قوله تعالى : إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٦٦﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٦٧﴾

دليل على نبوتها كما تقدم . و « إذ » متعلقة بـيخضعون . ويموز أن تكون متعلقة بقوله : « وما كنت لديهم » . « بكلمة منه » قرأ أبو السَّيَّال بكلمة منه ، وقد تقدم . « اسمه المسيح » ولم يقل اسمها لأن معنى كلمة معنى ولد . والمسيح لقب لعيسى ومعناه الصديق ؛ قاله إبراهيم النخعي . وهو فيما يقال معزب وأصله الشين وهو مشترك . قال ابن فارس : المسيح العرق ، والمسيح الصديق ، والمسيح الدرهم الأطلس لا نقش فيه . والمسيح الجماع ؛ يقال مسحها . والأُمسح : المكان الأملس . والمسحاء المرأة الرخماء التي لا آسَتْ لها . وبقلان مسحة من جمال . والمسائح قسي جياد ، واحدها مسيعة . قال :

لها مسائح زور في مرايضها * لين وليس بها وعن ولا رفق^{١١٢}

واختلف في المسيح ابن مريم مما إذا أخذه قتل : لأنه مسح الأرض ، أى ذهب فيها فلم
يتكبر يكره . وروى عن ابن عباس أنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برىء ؛ فكانه سعى
مسيحا لذلك ، فهو على هذا فيل بمعنى فاعل . وقيل : لأنه مسح يذهب البركة ، كانت
الأنبياء تمسح به طبيب الزاغة ؛ فإذا مسح به علم أنه نبي . وقيل : لأنه كان مسح
الأخصمين . وقيل : لأن الجبال مسحه ، أى أصابه وظهر عليه . وقيل : إنما سمي بذلك
لأنه مسح بالطهر من الذنوب . وقال أبو الهيثم : المسيح ضد المسخ ؛ يقال : مسحه الله
أى خلقه خلقا حسنا مباركا . ومسحه أى خلقه خلقا ملعونا قبيحا . وقال ابن الأعرابي ؛
المسيح الصديق ، والمسيح الأعور ، وبه سمي التبتال . وقال أبو عبيد : المسيح أصله
بالعبرانية ميثيا بالشين فثوب كما عرّب موسى بموسى . وأما التبتال فسعى مسيحا لأنه مسح
العينين . وقد قيل في التبتال مسيح بكسر الميم وشد السين . وبعضهم يقول كذلك بالهاء
المثبوتة . وبعضهم يقول مسيح بفتح الميم بالهاء والتخفيف ؛ والأول أشهر وعليه الأكثر .
سمي به لأنه يسبح في الأرض أى يطوفها ويدخل جميع بلدانها إلا مكة والمدينة وبيت
القدس ؛ فهو فيل بمعنى فاعل . فالتبتال يمسح الأرض بحنة ، وابن مريم مسحها منحة ،
وعلى أنه مسح العين فيل بمعنى مفعول . وقال الشاعر :

إِنَّ الْمَسِيحَ يَقْتُلُ الْمَسِيحَا *

وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس من
بلد إلا سيطلوه التبتال إلا مكة والمدينة " الحديث . ووقع في حديث عبد الله بن عمرو
" إلا الكعبة وبيت المقدس " ذكره أبو جعفر الطبري . وزاد أبو جعفر الطحاوي " ومسجد
الطور " ؛ ورواه من حديث جنادة بن أبي أمية عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم
عن النبي صلى الله عليه وسلم . وفى حديث أبي بكر بن أبي شيبة عن سمرة بن جندب عن النبي

(١١٢) زور : جمع زور وهو الكاذب . والبرى : البرىء . والخصم : الخصم .

صلى الله عليه وسلم " وأنه سيظهر على الأرض كلها إلا الحرم وبیت المقدس وأنه يحصر المؤمنين في بیت المقدس " وذكر الحديث . وفي صحيح مسلم : " بينا هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فيقول عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودين وإضعا كفيه على أجنعة ملكين إذا طألا رأسه قطر وإذا وضعه تحتر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يحذر ريح نفسه إلا مات وقسه يتي حيث يتي طرفه فيطلبه حتى يدركه بواب له فيقتله " الحديث بطوله .^(١)

وقد قيل : إن المسيح اسم لعيسى غير مشتق سماه الله به . فلي هذا يكون عيسى بدلا من المسيح من البذل الذي هو هو . وعيسى اسم أعجمي فلذلك لم يتصرف . وإن جعلناه عربيا لم يتصرف في معرفة ولا نكرة ؛ لأن فيه ألف تانيث . ويكون مشتقا من عاسه يؤمسه إذ في سانه وقام عليه . (وجب) أي شريفا إذا جاء وقدر ، وانتصب على الحال ؛ قاله الأخفش . (ومن المقرين) عند الله تعالى وهو معطوف على « وجب » أي ومقربا ؛ قاله الأخفش . وجمع وجه وجباء ووجاه . (ويكلم الناس) عطف على « وجب » ؛ قاله الأخفش أيضا . و « المهدي » مضجع العبي في رضاعه . ومهدت الأمر هياته ووطائه . وفي التنزيل « فَلَا تَنفِسُ لَهُمُ الْمَهْدُونَ » . وامهد الشيء ارتفع كما يمتد سنام البعير . (وكهلا) الكهل بين حال الغلومة وحال الشيخوخة . وامرأة كهلة . واكتهلت الروضة إذا عمها النور . يقول : يكلم الناس في المهدي آية ويكلمهم كهلا بالوحي والرسالة . وقال أبو العباس : كلمهم في المهدي حين برأ أنه فقال : « إني عبد الله » الآية . وأما كلامه وهو كهل فاذا أنزله الله تعالى [من السماء] أنزله على صورة ابن ثلاث وثلاثين سنة وهو الكهل فيقول لهم « إني عبد الله » كما قال في المهدي . فهانئ آيتان ومجتان . قال المهدوي : وفائدة الآية أنه أعلمهم أن عيسى عليه السلام يكلمهم في المهدي ويعيش إلى أن يكلمهم كهلا ، إذ كنت العادة أن من تكلم في المهدي لم يعيش .

(١) قوله : مهرودين ، أي في شفتين أو سكتين . وقيل : الثوب المهرد الذي يصنع بالورس ثم بالزعفران .

(٢) الجمان (بضم الجيم وتخفيف الميم) : حبات من اللقعة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار .

(٣) له (بضم اللام وتشديد الهمزة) : قرية بيت المقدس من نواحي فلسطين .

(٤) راجع صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٧٦ تلخيصا . (٥) الزيادة عن البحر لأبي حيان .

قال الزجاج : « وكهلا » بمعنى ويكلم الناس كهلا . وقال الفراء والأخفش : هو مطوف على « ويجها » . وقيل : المعنى ويكلم الناس صغيرا وكهلا . وروى ابن جرير عن مجاهد قال : الكهل الحليم . النحاس : هذا لا يُعرف في اللغة ، وإنما الكهل عند أهل اللغة من ناهز الأربعين . وقال بعضهم : يقال له حَتَتْ إلى ست عشرة سنة . ثم شَابَ إلى اثنين وثلاثين . ثم يَكْتَهِل في ثلاث وثلاثين ؛ قاله الأخفش . « ومن الصالحين » عطف على « ويجها » أى وهو من العباد الصالحين . ذكر أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الله بن إدريس عن حصين عن هلال بن يساف . قال : لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : ميسى وصاحب يوسف وصاحب جُريح ، كذا قال : « وصاحب يوسف » . وهو في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم وصاحب جُريح ... وبينما صبي يرضع من أمه » وذكر الحديث بطوله . وقد جاء من حديث صبيب في قصة الأخدود « أن أمراة جيء بها لتلقى في النار على إيمانها ومعها صبي » . في غير كتاب مسلم « يرضع فتعاضت أن تقع فيها فقال الغلام يا أمه أصبرى فإني على الحق » . وقال الضحاك : تكلم في المهد ستة : شاهد يوسف وصبي ماشطة امرأة فرعون وميسى ويحيى وصاحب جُريح وصاحب الجبار . ولم يذكر الأخدود ؛ فأسقط صاحب الأخدود وبه يكون المتكلمون سبعة . ولا معارضة بين هذا وبين قوله عليه السلام : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة » بالحصر فإنه أخبر بما كان في علمه مما أودى إليه في تلك الحال . ثم بعد هذا أعلمه الله تعالى بما شاء من ذلك فأخبر به .

قلت : أما صاحب يوسف فيأتى الكلام فيه ، وأما صاحب جُريح وصاحب الجبار وصاحب الأخدود في صحيح مسلم . وستأتى قصة الأخدود في سورة « البروج » إن شاء الله تعالى . وأما صبي ماشطة [امرأة] فرعون ، فذكر البيهقي عن ابن عباس قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لما أُسْرِى بي سررت في راحة طيبة فقلت ما هذه الزاعة قالوا ماشطة »

ابنة فرعون وأولادها سقط مشطها من يدها فقالت بسم الله فقالت ابنة فرعون أبى قالت ربي وربك ورب أبك قالت أولك رب غير أبى قالت نعم ربي وربك ورب أبك الله - قال - فعداها فرعون فقال لك رب غيرى قالت نعم ربي وربك الله - قال - فأمر بنفورة من نخاس فأحيت ثم أمر بها لتلقى فيها قالت إن لي إليك حاجة قال ما هي قالت تجمع عظامي وعظام ولدي في موضع واحد قال ذاك لك لما لك علينا من الحق فأمر بهم فألقوا واحدا واحدا حتى بلغ رضيعا فيهم فقال قبي يا أمته ولا تخافيني فانا على الحق - قال - وتكلم أربعة وهم صغار هذا وشاهد يوسف وصاحب جريح ونيسى ابن مريم .

قوله تعالى : قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١٧﴾

أى يا سيدي . مخاطب جبريل عليه السلام ؛ لأنه لما تمثل لها قال لها : إنما أنا رسول ربك ليحب لك غلاما زكيا . فلما سمعت ذلك من قوله استفهمت عن طريق الولد فقالت : أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟ أى بنكاح . « وَلَمْ أَكُ بِنِيًّا » ذكرت هذا تأكيدا ؛ لأن قولها « لم يمسسنى بشر » يشمل الحرام والحلال . تقول : العادة الجارية التى أجزأها الله في خلقه أن الولد لا يكون إلا عن نكاح أو سيفاح . وقيل : ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئا ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد : أومن قبل زوج في المستقبل أم يخلق الله ابتداء ؟ . فروي أن جبريل عليه السلام حين قال لها : « كذلك الله يخلق ما يشاء » قال كذلك قال ربك هو على هين ^(١) . نفخ في جيب درعها وكفها ؛ قاله ابن جريج ، قال ابن عباس : أخذ جبريل رذئ قيصبا بأصبعه فنفخ فيه فخلت من ساعتها ببيسى . وقيل غير ذلك على ما يأتى بيانه في سورتها إن شاء الله تعالى . وقال بعضهم : وقع نفخ جبريل في رحمها فخلت

(١) الرذن (بالضم) : أصل الكم .

بذلك . وقال بعضهم : لا يجوز أن يكون الخلق من نفع جبريل لأنه يصير الولد بعضه من الملائكة وبعضه من الإنس ، ولكن سبب ذلك أن الله تعالى لما خلق آدم وأخذ الميثاق من ذنوبه فجعل بعض الماء في أصلاب الآباء وبعضه في أرحام الأنثى فإذا اجتمع الماءان صاروا ولداً ، وأن الله تعالى جعل الماءين جميعاً في مريم بعضه في رحمها وبعضه في صلبها فنفع فيه جبريل لتحيي شويتها ، لأن المرأة ما لم تهيئ شويتها لا تحبل ، فلما هاجت شويتها بنفع جبريل وقع الماء الذي كان في صلبها في رحمها فاخطط الماءان فمليقت بذلك ، فذلك قوله تعالى : « إذا قضى أمرا » يعني إذا أراد أن يخلق خلقاً فأنما يقول له كن فيكون . وقد تقدم في « البقرة » القول فيه مستوفى .^(١)

قوله تعالى : وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢٨﴾ وَرَسُولًا إِنْ يَنْزِلَ إِسْرَءِيلَ أَتَىٰ قَدْ جِئْتُمْ بِغَايَةِ مِنْ رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَابْرَأُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْرِى الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ كَمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْرِيُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : (وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ) قال ابن جريج : الكتاب الكتابة والخط . وقيل : هو كتاب غير التوراة والإنجيل عليه الله عيسى عليه السلام . (وَرَسُولًا) أى ونجعله رسولا . أو يكلمهم رسولا . وقيل : هو معطوف على قوله « وجها » . وقال الأخفش : وإن شئت جعلت الواو في قوله « ورسولا » مقحضة والرسول حالا للهاء ، تقديره ويصامه الكتاب رسولا . وفي حديث أبي ذر الطويل « وأول أنبياء بنى إسرائيل موسى وآخرهم عيسى عليهم السلام » . (أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ) أى أصور وأفكر لكم . (مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ) قرأ الأعرج وأبو جعفر « كهيئة » بالتشديد . الباقون بالهمز .

والطير يذكرو يؤنث . (فَأَنْفَخُ فِيهِ) أى فى الواحد منه أو منها أو فى الطين فيكون طائرا .
وطائر وطير مثل تاجر وتجر . قال وهب : كان بطير ما دام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن
أعينهم سقط ميتا ليعتبر فعل الخلق من فعل الله تعالى . وقيل : لم يخلق غير الخفّاش لأنه أكل
الطير خلقا ليكون أبلغ فى القدرة ، لأن لها نديا وأسنانا وأذنا ، وهى تحيض وتطهر وتلد .
ويقال : إنما طلبوا خلق خفّاش لأنه أعجب من سائر الخلق ؛ ومن عجائبه أنه لحم ودم بطير
غير ريش وولد كما ولد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور ، فيكون له الضرع يخرج منه
اللبن ولا يبصر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل وإنما يرى فى ساعتين : بعد غروب الشمس
ساعة وبعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يسفر جدا ، ويضحك كما يضحك الإنسان ويحيض
كما تحيض المرأة . ويقال : إن سؤالهم كان له على وجه الثعنت فقالوا : أخلق لنا خفّاشا
أولجعل فيه روحا إن كنت صادقا فى مقاتك ؛ فأخذ طينا وجعل منه خفّاشا ثم نفخ فيه
فاذا هو بطير بين السماء والأرض وكان تسوية الطين والنفخ من عيسى والخلق من الله ، كما أن
النفخ من جبريل والخلق من الله .

قوله تعالى : (وَأَبْرَأُ الْآكَمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأَحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ) الآكمة : الذى يولد
أعمى ؛ عن ابن عباس . وكذا قال أبو عبيدة قال : هو الذى يولد أعمى ؛ وأنشد لزيّدة :
فَأَرْتَدُّ أَرْتِدَادَ الْآكَمَةِ •

وقال ابن فارس : الكمة العمى يولد به الإنسان وقد يعرض . قال سويد :
كَمَّهَتْ عَيْنَاهُ حَتَّى ابْيَضَّتَا •

جماد : هو الذى يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل . عكمة : هو الأعمش ، ولكنه فى اللغة
العمى ؛ يقال كَمَّهَ يَكْمُهُ كَمًّا وَكَمَّهْتُهَا أَنَا إِذَا أَعْمَيْتُهَا . والبرص معروف وهو بياض يعتري الجلد .
والأبرص القمر . وسام أبرص معروف ، ويجمع على الأبرص . وخَصَّ هَذَانِ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمَا
عيان . وكان الثالب على زمن عيسى عليه السلام الطب فأراه الله المعجزة من جنس ذلك .
(وَأَحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ) قيل : أحيا أربعة أنفس : الماذر وكان صديقا له ، وأبن السجوز

وابنة العاشر وسام بن نوح ؛ فآله أعلم . فاما العاذر فانه كان تُوفِّي قبل ذلك بأيام ففدا الله
فقام بإذن الله ووَدَّ كَهْ يَقَطِرَ فَعَاشَ وُلَدَ لَهُ . وأما ابن العجوز فإنه مرَّ به يُجَمَلُ عَلَى مَرِيرِهِ
ففدا الله فقام وإيس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله . وأما بنت العاشر فكان
أتى عليها ليلة ففدا الله فعاشت بعد ذلك وُلَدَ لَهَا ؛ فلما رأوا ذلك قالوا : إنك تحيي من كان
موتة قريبا فلعلهم لم يموتوا فأصابتهم سكتة فأحيى لنا سام بن نوح . فقال لهم : دُلُّونِي عَلَى
قَبْرِ نَفْرَجْ ونفْرَجُ القوم معه حتى انتهى إلى قبره ففدا الله فخرج من قبره وقد شاب رأسه .
فقال له عيسى : كيف شاب رأسك ولم يكن في زمانك شيب ؟ فقال : يا رُوحَ الله ، إنك
دعوتني فسمعت صوتا يقول : أجب روح الله . فظننت أن القيامة قد قامت ، فمن هول
ذلك شاب رأسي . فسأله عن الترع فقال : يا روح الله ، إن مرارة الترع لم تذهب عن
حنجرتي ؛ وقد كان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنة . فقال للقوم : صلتقوه
فإنه نبي ؛ آمن به بعضهم وكذبه بعضهم وقالوا : هذا صحر . وروى من حديث إسماعيل
ابن عِيَّاش قال : حدثني محمد بن طلحة عن رجل أن عيسى ابن مريم كان إذا أراد أن يحيي
الموتى صلى ركعتين يقرأ في الأولى « تبارك الذي بيده الملك » . وفي الثانية « تنزيل » السجدة ؛
فإذا فرغ حمد الله وأثنى عليه ثم دعا بسبعة أسماء : يا قديم يا خفي يا دائم يا فرد يا وتر يا أحد
يا محمد ؛ ذكره البيهقي وقال : ليس إسناده بالقوي^(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْنُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي بالذي تأكلونه وما تدنرون . وذلك أنه لما أحيا لهم الموتى طلبوا منه آية أخرى
وقالوا : أخبرنا بما نأكل في بيوتنا وما تدنر للقد ؛ فأخبرهم فقال : يا فلان أنت أكلت كذا
وكذا ، وانت أكلت كذا وكذا وأدحرت كذا وكذا ؛ فذلك قوله « أُنبئكم » الآية . وقرأ مجاهد
والزهري والسَّخَّيَّانِي « وما تدنرون » بالنال المصجمة غفقا . وقال سعيد بن جبير وغيره :
كان يجر الصبيان في الكتاب بما يدنرون حتى منهم آباؤهم من الجلوس معه . فتادة : أخبرهم
بما أكلوه من المائدة وما أذنروه منها خفية .

(١) ما كان لقرطبي رحمه الله أن يذكره .

قوله تعالى : وَمَصَدَقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضُ
الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

(وَمَصَدَقًا) عطف على قوله : « ورسولا » . وقيل : المعنى وجئكم مصدقا .
(لما بين يدي) لما قبل . (وَلَا حِلَّ لَكُمْ) فيه حذف ، أى ولا حل لكم جئكم . (بَعْضُ
الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) يعنى من الأكلعة . قيل : إنما أحل لهم عيسى عليه السلام ما حرم عليهم
بذنوبهم ولم يكن في التوراة نحو أكل الشعوب وكل ذى ظفر . وقيل : إنما أحل لهم أشياء
حرمها عليهم الأحرار ولم تكن في التوراة عزيمة عليهم . قال أبو عبيدة : يجوز أن يكون
« بعض » بمعنى كل ، وأنشد لبيد :

تَرَكَ أَمَكْنِيَةَ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا * أَوْ يَرْتَبُطَ بَعْضُ النَّفَوسِ بِجَاهِهَا

وهذا القول غلط عند أهل النظر من أهل اللغة ؛ لأن البعض والجزء لا يكونان بمعنى الكل
في هذا الموضع ، لأن عيسى صلى الله عليه وسلم إنما أحل لهم أشياء مما حرمها عليهم موسى
من أكل الشعوب وغيرها ولم يحل لهم القتل ولا السرقة ولا فاحشة . والدليل على هذا أنه
رُوي عن قتادة أنه قال : جاءهم عيسى بالين مما جاء به موسى صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا ؛
لأن موسى جاءهم بتحريم الإبل وأشياء من الشعوب فجاءهم عيسى بتحليل بعضها ، وقرأ النخعي :
« بعض الذي حُرِّم » مثل كرم ، أى صار حراما ، وقد يوضع البعض بمعنى الكل إذا انضمت
إليه قرينة تدل عليه ؛ كما قال الشاعر (١) :

أَبَا مَسْدُودٍ أَفْنَيْتَ فَأَسْتَبِقَ بَعْضَنَا * حَتَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَوْهُونَ مِنْ بَعْضِ
يريد بعض الشر أَوْهُونَ من كله . (وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) إنما وحدها آيات لأنها جنس
واحد في الدلالة على وسائطه .

(١) موطأ ابن أبي عمير في عمدة المالك وكيفية أبو مرقس في أمره .

قوله تعالى : فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ) أى من بنى إسرائيل . وأحس معناه علم ووجد ؛ قاله الزجاج . وقال أبو عبيدة : معنى « أحس » عرف ، وأصل ذلك وجود الشيء بالحاسة . والإحساس : العلم بالشيء ؛ قال الله تعالى : « هَلْ يُحِيسُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٌ » والحس القتل ؛ قال الله تعالى : « إِذْ تَحْشُرُهُمْ يَأْذَنُهُ » . ومنه الحديث فى الجراد « إِذَا حَسَّ البرد » . (مِنْهُمْ الْكُفْرَ) أى الكفر بالله . وقيل : سمع منهم كلمة الكفر . وقال الفراء : أرادوا قتله . (قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ) استنصر عليهم . قال السدى والثورى وغيرهما : المعنى مع الله ، فى معنى مع ؛ كقوله تعالى : « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ » أى مع . والله أعلم . وقال الحسن : المعنى من أنصارى فى السبيل إلى الله ؛ لأنه دعاهم إلى الله عز وجل . وقيل : المعنى من يَضُمُّ نصرته إلى نصرته الله عز وجل . فى على هذين القولين على بابها ، وهو الجيد . وطلب النصرة ليحتسب بها من قومه ويظهر الدعوة ؛ عن الحسن ومجاهد . وهذه سنة الله فى أنبيائه وأوليائه . وقد قال لوط : « لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آتَى إِلَى رُكْنِي شِدِيدٌ » أى عشيرة وأصحاب ينصروننى . (قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ) أى أنصار نبيه ودينه . والحواريون أصحاب عيسى عليه السلام ، وكانوا اثنى عشر رجلا ؛ قاله الكلبي وأبو رزق .

واختلف فى تسميتهم بذلك ؛ فقال ابن عباس : سُمُّوا بذلك لياض ثيابهم ، وكانوا صبايين . ابن أبى نجيم وابن أوطاة : كانوا قصارين فسمُّوا بذلك لتبيضهم الثياب . قال عطاء : أسلمت مريم عيسى إلى أعمال شقي ، وآخر ما دفعته إلى الحواريين وكانوا قصارين وصباغين ، فأراد معلم عيسى السفر فقال لعيسى : عندى ثياب كثيرة مختلفة الألوان وقد حملتك الصبغة فاصبها ، فطبخ عيسى جبًّا واحداً وأدخل جميع الثياب وقال : كوني بإذن الله على ما أريد منك . فقيد الحواري والثياب كلها فى الحب فلما رأها قال : قد أفسدتها ؛ فأنحرج عيسى ثوبا أحمر وأصفر وأخضر إلى غير ذلك مما كان كل توب مكتوب عليه صبه .

فحجب الحوارى ، وعلم أن ذلك من الله ودعا الناس إليه فآمنوا به ، فهم الحواريون . قتادة والضحاك : شتموا بذلك لأنهم كانوا خاصة الأنبياء . يريدان لقاء قلوبهم . وقيل : كانوا ملوكا ، وذلك أن الملك صنع طعاما فدعا الناس إليه فكان عيسى على قصعة فكانت لا تنقص ، فقال الملك له : من أنت ؟ قال : عيسى ابن مريم . قال : إني أترك ملكي هذا وأنتك . فانطلق بمن آتبعه معه ، فهم الحواريون ، قاله ابن عون . وأصل الحوار فى اللغة الياض . وحُور الثياب بيضتها . والحوارى من الطعام ما حُور ، أى بيض . وأحور أبيض . والجفنة المحورة : المبيضة بالسنام . والحوارى أيضا الناصر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لكل نبي حوارى وحوارى الزير " . والحواريات : النساء لياضهن ، وقال : فقل للحواريات يبيكين غينا * ولا تبكنا إلا الكلاب النواج

قوله تعالى : رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ ﴾ أى يقولون ربنا آمتنا . ﴿ بِمَا أُنزِلَتْ ﴾ يعنى فى كتابك وما أظهرته من حكك . ﴿ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ يعنى عيسى . ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ يعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، عن ابن عباس . والمعنى أثبت أئمتنا مع أئمتهم وأجعلنا من جمعتهم . وقيل : المعنى فاكبتنا مع الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق .

قوله تعالى : وَمَكُرُواْ وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَكُرُواْ ﴾ يعنى كفار بنى إسرائيل الذى أحس منهم الكفر ، أى قتله . وذلك أن عيسى عليه السلام لما أخرجه قومه وأمه من بين أظهرهم ماد اليهم مع الحوارين وصاح فيهم بالدعوة فهموا بقتله وتواطشوا على الفتك به ، فذلك مكرم . ومكر الله : استدراجه لعباده من حيث لا يعلمون ، عن الفراء وغيره . قال ابن عباس : كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة . وقال الزجاج : مكر الله مجازاتهم على مكرم ، فسمى الجزاء باسم الابتداء ، كقوله :

«اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ»، «وَهُوَ خَادِعُهُمْ». وقد تقدم في البقرة . وأصل المكرفى اللغة الاحتيال والخداع . والمكرف : خدالة الساق . وامرأته بمكورة الساقين . والمكرف ضرب من الثياب . ويقال : بل هو المنفرة ؛ كخاءه ابن فارس . وقيل : « مكراه » إلقاء شبه عيسى على غيره ورفق عيسى إليه . وذلك أن اليهود لما اجتمعوا على قتل عيسى دخل البيت هارباً منهم فرمته جبريل من الكوة إلى السماء ، فقال مَلِكُهُمْ لرجل منهم خيِّبْ يَقال له يُونَا : ادخل عليه فأقتله ، فدخل الخوخة فلم يجد هناك عيسى وألقى الله عليه شبه عيسى ، فلما خرج رآوه على شبه عيسى فأخذوه وقتلوه وصلبوه . ثم قالوا : وجهه يشبه وجه عيسى وبدنه يشبه بدن صاحبه ؛ فإن كان هذا صاحبه فأين عيسى ! وإن كان هذا عيسى فأين صاحبه ! فوقع بينهم قتال فقتل بعضهم بعضاً ؛ فذلك قوله تعالى : « وَمَكْرُوهَا وَمَكَرَ اللَّهُ » . وقيل غير هذا على ما يأتي .

(وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) اسم فاعل من مَكَرَ مَكَراً . وقد عدّه بعض العلماء في أسماء الله تعالى فيقول إذا دعا به : يا خير الماكرين أمكروا . وكان عليه السلام يقول في دعائه : « اللَّهُمَّ امكروا ولا تمكروا عليّ » . وقد ذكرناه في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى . والله أعلم .

قوله تعالى : إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْفَعْكَ وَإِنِّي مُمَاطِرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْفَعْكَ) العامل في « إذ » مَكْرُوا ، أو فعل مضمر . وقال جماعة من أهل المعاني منهم الضحاك والفراء في قوله تعالى : « إلى مَرْيَمَ » ورافعك إلى « على التقديم والتأخير ؛ لأن الواو لا توجب الرفع . والمعنى : إلى رافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء ؛ كقوله : « وَأَوَّلَ كَلِمَةٍ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى » . والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما . قال الشاعر :

أَلَا يَا نَحْلَةَ مِنْ فَاتِ عَرَقٍ • عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ السَّلَامِ

أَيُّ عَلَيْكَ السَّلَامِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ • وَقَالَ الْحَسَنُ وَابْنُ جُرَيْجٍ : مَعْنَى مَتَوَفَّيكَ قَابِضُكَ وَرَافِعُكَ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ غَيْرِ مَوْتٍ ؛ مِثْلُ تَوَفَّيْتُ مَالِي مِنْ فُلَانٍ أَيْ قَبَضْتَهُ • وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنْبِهٍ : تَوَفَّى اللَّهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ مِنْ نَهَارٍ ثُمَّ رَفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ • وَهَذَا قَبْلَهُ ؛ فَإِنَّهُ صَحَّ فِي الْأَخْبَارِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَوْلُهُ وَقَتْلُهُ التَّجَالُ عَلَى مَا بَيْنَهُ فِي كِتَابِ التَّنْذِيرَةِ وَفِي هَذَا الْكِتَابِ حَسَبَ مَا تَقَدَّمَ ، وَيَأْتِي • وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : مَتَوَفَّيكَ قَابِضُكَ ، وَمَتَوَفَّيكَ وَرَافِعُكَ وَاحِدٌ وَلَمْ يَمُتْ بَعْدُ • وَرَوَى ابْنُ طَالِعَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَى مَتَوَفَّيكَ مِثْلُكَ • الرَّبِيعُ أَبْنُ أَنَسٍ : وَهِيَ وَفَاةُ نَوْمٍ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ » أَيْ يَنْعِمُكُمْ لَانَ النَّوْمِ أَخُو الْمَوْتِ ؛ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا سَأَلَ : أُنْفِ الْجَنَّةَ نَوْمٌ قَالَ : « لَا ، النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ وَالْجَنَّةُ لَا مَوْتَ فِيهَا » • أَخْرَجَهُ النَّبَارُقُطْنِيُّ • وَالصَّحِيحُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ غَيْرِ وَفَاةٍ وَلَا نَوْمٍ كَمَا قَالَ الْحَسَنُ وَابْنُ زَيْدٍ ، وَهُوَ اخْتِيَارُ الطَّبْرِيِّ وَهُوَ الصَّحِيحُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ • كَانَتْ الْقِصَّةُ لَمَّا أَرَادُوا قَتْلَ عِيسَى أَجْتَمَعَ الْحَوَارِيُّونَ فِي غُرْفَةٍ وَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا فَدَخَلَ عَلَيْهِمُ الْمَسِيحُ مِنْ مَشْكَاةِ الْغُرْفَةِ ، فَأَخْبَرَ إِبْلِيسَ جَمْعَ الْيَهُودِ فَرَكِبَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةَ آلَافِ رَجُلٍ فَأَخَذُوا بَابَ الْغُرْفَةِ ، فَقَالَ الْمَسِيحُ لِلْحَوَارِيِّينَ : أَيُّكُمْ يَخْرُجُ وَيُقَاتِلُ وَيَكُونُ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ ؟ فَقَالَ رَجُلٌ : أَنَا يَا بَنِي اللَّهِ ؛ فَأُلْقِيَ إِلَيْهِ مِدْرَعَةٌ مِنْ صُوفٍ وَعِمَامَةٌ مِنْ صُوفٍ وَنَازِلَةٌ مَكُونَةٌ وَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شَبَّةٌ عِيسَى ، فَخَرَجَ عَلَى الْيَهُودِ فَقَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ • وَأَمَّا الْمَسِيحُ فَكَسَاهُ اللَّهُ الثَّوْبَ وَأَلْبَسَهُ النَّوْرَ وَقَطَعَ عَنْهُ لُتْفَةَ الْعَلَمِ وَالْمَشْرَبِ فَطَارَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ • وَذَكَرَ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا أَبُو مَعَاوِيَةَ حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ عَنْ الزُّهَالِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَرْفَعَ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ خَرَجَ عَلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنْ عَيْنٍ فِي الْبَيْتِ وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً فَقَالَ لَهُمْ : أَمَّا إِنَّكُمْ مَنْ سَيَكُونُ فِي لُتْفَتِي حَشْرَةً مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِي ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّكُمْ يُقَاتِلُ عَلَيَّ عَلَيْهِ شَيْءٌ يُقَاتِلُ مَكَانِي وَيَكُونُ مَعِيَ

(١) لِلْمَلَكَةِ (الْمَلَكَةِ) : الْغُرْفَةُ وَهِيَ تَوْبَتُهُ مِنْ كَانَ •

في درجتي؟ فقام شاب من أحدهم فقال أنا . فقال عيسى : اجلس ، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا . فقال عيسى : اجلس . ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا . فقال نعم أنت ذلك . فأتى الله عليه شبه عيسى عليه السلام . قال : ورفع الله تعالى عيسى من روضة^(١) كانت في البيت إلى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه ، وكفربه بعضهم اثني عشرة مرة بعد أن آمن به ، ففارقوا ثلاث فرق : قالت فرقة : كان فينا الله ما شاء ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء الباقية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النسطورية . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه ، وهؤلاء المسلمون . فظاهرت الكافران على المسامة فقتلوا ، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فقتلوا ، فأزل الله تعالى « فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا » أي آمن أبائهم في زمن عيسى على عهدهم بإظهار دينهم على دين الكفار « فأصبحوا ظاهرين » . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله ليُزِلَنَّ ابنُ مريمَ حَكَمًا عادلا فليَكْسِرَنَّ الصليبَ وَلَيَقْتُلَنَّ الخَترَ وَيَضَعَنَّ الحِزْبَ وَلَيُتْرَكَنَّ القِلاصُ فلا يُسَمَّى عليها وَلَتَنْهَبَنَّ الشَّعْثَةَ وَالتَّبَاغُضَ وَالتَّحَاسُدَ وَلَيَدْعُوَنَّ إِلَى المَالِ فلا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ » . وعنه أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والذي نفسي بيده ليهلكن ابن مريم بَقْعَ الرُّوحَاءِ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا أَوْ لَيْثِنِيَّهْمَا وَلَا يَقُولُ بِشَرِّهِ مَبْدَأُ فَيَنْسَخَ بِهِ شَرِيْعَتَا بِلْ يَزِلَ مَجْدُهَا لِمَا دَرَسَ مِنْهَا مَتَبِعُهَا » . كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كيف أتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم ؟ » وفي رواية : « فافكم منكم » . قال ابن أبي ذئب . تدرى ما أنتم منكم ؟ . قلت : تحيرني . قال : فأتمكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وستة نبيكم صلى الله عليه وسلم . وقد زدنا هذا الباب بياناً في كتاب (التذكرة) والحمد لله . و « متوفيك » أصله متوفيك حذف الضمة استقلا لا

(١) الروضة : الكوة . (٢) القلاص (بالكسر) : جمع قلاص وهي الناقة .

(٣) غ الروحاء : طريق بين مكة والمدينة ، كان طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يبرود مكة عام الفتح وعام الحج . (عن معجم ياقوت) .

وهو خبر إنا . « وَرَأَيْتُكَ » عطف عليه ، وكذا « مُطَهَّرُكَ » ، وكذا « وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ » .
 ويعجز « وجاعل الذين » وهو الأصل . وقيل : إن الوقف التام عند قوله : « وَمُطَهَّرُكَ
 مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » . قال النحاس : وهو قول حسن . « وجاعل الذين اتبعوك » يا عجد
 « فوق الذين كفروا » أى بالهجرة وإقامة البرهان . وقيل بالعرض والقلبة . وقال الضحاك ومحمد
 ابن أبان : المراد الحواريون . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ
 الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : (فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) يعنى بالقتل
 والصلب والسبي والحزبة ، وفى الآخرة بالنار . (ذَلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْكَ) « ذلك » فى موضع
 دفع بالابتداء ونهيه « تتلوه » . ويعجز : الأمر ذلك ، على إضمار المبتدأ .

قوله تعالى : إِنْ مَثَلٌ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ
 ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾
 قوله تعالى : (إِنْ مَثَلٌ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) دليل على صحة القياس .
 والتشبيه واقع على أن عيسى خلق من غير آية كآدم ، لا على أنه خلق من تراب . والشئ قد
 يُشبه بالثئ . وإن كان بينهما فرق كبير بعد أن يمتحما فى وصف واحد ؛ فإن آدم خلق من
 تراب ولم يُخلق عيسى من تراب فكان بينهما فرق من هذه الجهة ، ولكن شبه ما بينهما أنها
 خلقا من غير آية ؛ ولأن أصل خلقتهما كان من تراب لأن آدم لم يُخلق من نفس التراب ،

(١) كذا فى بعض الأصول وكتاب إمام أبي القرآن النحاس : « وفى بعض النسخ : « وحمل ... »

ولكنه جعل التراب طينا ثم جعله صلصالا ثم خلقه منه، فكذلك عيسى حوله من حال إلى حال، ثم جعله بشرا من غير أب . وزلت هذه الآية بسبب وفد تجران حين أنكروا على النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « إِنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ » قالوا : أَرَأَيْتَ عِدْنَا خُلُقَ مَنْ غَيْرِ أَبِي؟ فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « آدَمَ مَنْ كَانَ أَبُوهَ أُعْجِبْتُمْ مِنْ عِيسَى لَيْسَ لَهُ أَبٌ قَدْ أَمَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ لَهُ أَبٌ وَلَا أُمٌّ » . فذلك قوله تعالى : « وَلَا يَأْتُوكَ بِمِثْلِ » أى فى عيسى « إِلَّا بِمِثْلِكَ بِالْحَقِّ » فى آدم « وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » . وروى أنه عليه السلام لما دعاهم إلى الإسلام قالوا : قد كنا مسلمين قبلك . فقال : « كَذِبْتُمْ يَنْعَمُ مِنَ الْإِسْلَامِ ثَلَاثُ قَوْلِكُمْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَأَكَلَكُمْ الْخَتِيرَ وَبَجِدَكُمْ لِلصَّلِيبِ » . فقالوا : مَنْ أَبُو عِيسَى ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ » إلى قوله : « فَجَعَلَ لَنَا اللَّهَ عَلَى الْكَافِرِينَ » . فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم لبعض : إن فعلتم اضطرم الوادى عليكم نارا . فقالوا : أما تمرض طينا سوى هذا ؟ فقال : « الْإِسْلَامُ أَوْ الْجُزْءُ أَوْ الْحَرْبُ » فافترؤا بالجزية على ما يأتى . وتم الكلام عند قوله « آدَمَ » . ثم قال : « خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ تَسْمُنُ فَيَكُونُ » أى فكان . والمستقبل يكون فى موضع الماضى إذا عُرف المعنى . قال الفراء : « الحلق من ربك » مرفوع بإضمار هو . أبو عبيدة : هو استئناف كلام وخبره فى قوله « من ربك » . وقيل : هو تامل ، أى جاك الحق . (فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن شاكاً فى أمر عيسى عليه السلام .

قوله تعالى : قَمَنْ حَاجَبَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْغَلَمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ قَرْنَ حَاجَّكَ فِيهِ ﴾ أى جادك وخاصك يا محمد فيه ، أى فى عيسى ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ بأنه عبد الله ورسوله . ﴿ فَقُلْ تَقَالُوا ﴾ أى أقبلوا . وُضع لمن له جلالة ورفعة ثم صار فى الاستعمال لكل داع إلى الإقبال ، وسأنى له مزيد بيان فى « الأنعام » . ﴿ نَدْعُ ﴾ فى موضع جزم . ﴿ أَبْنَاءَنَا ﴾ دليل على أن أبناء البنات يُسمون أبناء ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء بالحسن والحسين وفاطمة تمنى خلفه وعلى خلفها وهو يقول لهم : « إنا أنا دعوت فأمثوا » وهو معنى قوله ﴿ ثُمَّ نَقْبَلُ ﴾ أى نتضرع فى الدعاء ، عن ابن عباس . أبو عبيدة والكسائى : ثنين . وأصل الاتبال الاجتهاد فى الدماء بالثمن وغيره . قال ليلى :

فى كهول سادة من قومه * نظر الدهر إليهم فاتبل

أى اجتهد فى إهلاكهم ، يقال : بهله الله أى لعنه . والبهل اللبن . والبهل الماء القليل . وأبهله إذا خلىته وإرادته . وبهله أيضا . وحكى أبو عبيدة : بهله الله يبهله بهلة أى لعنه . قال ابن عباس : هم أهل نجران : السيد والعاقب وابن الحارث رؤسائهم . ﴿ فَتَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ .

الثانية - هذه الآية من أعلام نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه دعاهم إلى المباحلة فأبوا منها ورضوا بالجزية بعد أن أعلمهم كثيرهم العاقب أنهم إن باهلوه اضطرم عليهم الوادى نارا فإن جدا نبى مرسل ، ولقد تعلمون أنه جاءكم بالفصل فى أمر عيسى ، فتركوا المباحلة وانصرفوا إلى بلادهم على أن يؤدوا فى كل عام ألف حلة فى صفر وألف حلة فى رجب فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك بدلا من الإسلام .

الثالثة - قال كثير من العلماء : إن قوله عليه السلام فى الحسن والحسين لما باهل « ندع أبناءنا وأبنائكم » وقوله فى الحسن : « إن أبى هذا سيد » مخصوص بالحسن والحسين أن يسميا أبى النبي صلى الله عليه وسلم دون غيرهما ؛ لقوله عليه السلام : « كل سبب وتسب

ينقطع يوم القيامة إلا نسي وسبي . ولهذا قال بعض أصحاب الشافعي فيمن أوصى لولد فلان ولم يكن له ولد لصليه وله ولد أبي وولد أبنه إن الوصية لولد الأبن دون ولد الأبنه ؛ وهو قول الشافعي . وسيأتي لهذا مزيد بيان في « الأعمام والزخرف » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : **إِنَّ هَذَا لَهُوَ أَقْصَصُ الْحَقِّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴿١٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿١٧﴾ قوله تعالى : (**إِنَّ هَذَا لَهُوَ أَقْصَصُ الْحَقِّ**) الإشارة في قوله « إن هذا » إلى القرآن وما فيه من الأفاصيص ، سميت قصصا لأن المعاني نتائج فيها ؛ فهو من قولهم : فلان يقص أثر فلان ، أى يتبعه . (**وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ**) « من » زائدة للتوكيد ، والمعنى وما إله إلا الله (**الْعَزِيزُ**) أى الذى لا يغلب . (**الْحَكِيمُ**) ذو الحكمة . وقد تقدم مثله والحمد لله .

قوله تعالى : **قُلْ يَتَأَمَّلِ الْكِتَابَ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّاهُمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴿١٨﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ**) الخطاب في قول الحسن وابن زيد والسدى لأهل تيجران . وفي قول قتادة وابن جرير وغيرهما لليهود المدينة ، خطبوا بذلك لأنهم جعلوا أحبارهم في الطاعة لهم كالآرباب . وقيل : هو لليهود والنصارى جميعا . وفي كتاب التنبى صلى الله عليه وسلم إلى هرقل « بسم الله الرحمن الرحيم — من عيذ رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من أتبع الهدى [أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام] أسلم تسلم »

[وَأَسْمِ] ^(١١) بِعُتِكَ اللَّهُ إِجْرَكَ مَرَّتَيْنِ وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ ^(١٢) بِقَمِ الْأَرِيسِيِّينَ ، وَإِذَا أَهْلُ الْكُتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سِوَاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ - إِلَى قَوْلِهِ : فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .
 لَفْظُ مُسْلِمٍ . وَالسَّوَاءُ الْعَدْلُ وَالنَّصِفَةُ ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ . وَقَالَ زُهَيْرٌ :
 أَرُونِي خُطَّةَ لَا ضَمِّمَ فِيهَا * يُسَوِّى بَيْنَنَا فِيهَا السَّوَاءُ

الضراء : وَيُقَالُ فِي مَعْنَى الْعَدْلِ يَسَوِّى وَيُسَوِّى ، فَإِذَا فَتَحْتَ السَّيْنَ مَدَدْتَ وَإِذَا كَسَرْتَ أَوْ ضَمَمْتَ قَصَرْتَ ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « مَكَانًا سَوًى » . قَالَ : وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ « إِلَى كَلِمَةٍ صَدَل بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » . وَقَرَأَ قَتْنَبُ ^(١٣) « يَكْمَةً » بِإِسْكَانِ اللَّامِ ، أَلْفِي حَرَكَةَ اللَّامِ عَلَى الْكَافِ ؛ كَمَا يُقَالُ كَبِدٌ . فَالْمَعْنَى أَجْبِئُوا إِلَى مَا دُخِيتُمْ إِلَيْهِ ، وَهُوَ الْكَلِمَةُ الْعَادِلَةُ الْمُسْتَقْبِطَةُ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا مَيْلٌ عَنْ الْحَقِّ ؛ وَقَدْ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : « أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ » فَوَضَعَ « أَنْ » خَفِضَ عَلَى الْبَدَلِ مِنْ « كَلِمَةٍ » ، أَوْ رَفَعَ عَلَى إِضْمَارٍ مُبْتَدَأٍ ، التَّقْدِيرُ هِيَ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ . أَوْ تَكُونُ مَفْسُورَةً لَا مَوْضِعَ لَهَا ، وَيَجُوزُ مَعَ ذَلِكَ فِي « نَعْبُدُ » وَمَا عَطَفَ عَلَيْهِ الرِّفْعُ وَالْجَزْمُ : فَالْجَزْمُ عَلَى أَنْ تَكُونَ « أَنْ » مَفْسُورَةً بِمَعْنَى أَيْ ؛ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : « أَنْ آمَنُوا » وَتَكُونَ « لَا » جَائِزَةً . هَذَا مَذْهَبُ سَيَوِيهِ . وَيَجُوزُ عَلَى هَذَا أَنْ تَرَفَعَ « نَعْبُدُ » وَمَا بَعْدَهُ يَكُونُ خَبَرًا . وَيَجُوزُ الرِّفْعُ بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا نَعْبُدُ ؛ وَمِثْلُهُ « أَنْفٌ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَمْ ضَرْأً وَلَا نَفْعًا » . وَقَالَ الْكِسَائِيُّ وَالْفَرَاءُ : « وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَلَا تَتَّخِذْ » بِالْجَزْمِ عَلَى التَّوَهُّمِ أَنَّهُ لَيْسَ فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ أَنْ .

الثَّانِيَّةُ - قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا آيَاتًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) أَيْ لَا نَنْتَفِعُ فِي تَحْلِيلِ شَيْءٍ أَوْ تَحْرِيمِهِ إِلَّا بِمَا حَلَّلَهُ اللَّهُ تَعَالَى . وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : « اتَّخِذُوا آيَاتِهِمْ قُرْءَانَهُمْ آيَاتًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » مِمَّا أَنزَلَهُمْ مِثْلَهُ رَبِّهِمْ فِي قَبُولِ تَحْرِيمِهِمْ وَتَحْلِيلِهِمْ لِمَا لَمْ يَحْرِمْهُ اللَّهُ وَلَمْ يَحْلَلْهُ اللَّهُ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى بَطْلَانِ الْقَوْلِ بِالِاسْتِحْصَانِ الْمَجْرَدِ الَّذِي لَا يَسْتَدِنُّ إِلَى دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ . قَالَ الْبَيْهَقِيُّ الطَّبْرِيُّ : مِثْلُ اسْتِحْصَانَاتِ أَبِي حَنِيفَةَ فِي التَّقْدِيرَاتِ الَّتِي قَتَرَهَا دُونَ مُسْتَنْدَاتِ بَيِّنَةٍ . وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الرَّاغِضِ الْقَائِمِ يَقُولُونَ : يَجِبُ قَبُولُ [قَوْلِ] الْإِمَامِ دُونَ إِيَّانَةِ

(١١) وَبِإِسْكَانِ مَحْصِيٍّ . (١٢) الْأَرِيسِيُّ : الْأَكَاذِبِيُّ وَالْمُفْلَجُ . (١٣) هُوَ أَبُو الْيَمَانِ الْعَدَنِيُّ .

مستند شرعي، وأنه يحل ما حرمه الله من غير أن يبين مستندا من الشريعة. وأرباب جمع رب .
و «دُون» هنا بمعنى غير .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أى أعرضوا عما دُعوَا إليه . ﴿تَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أى متصفون بدين الإسلام متقادون لأحكامه معترفون بما لله علينا في ذلك من المِن والإنعام ، غير متخذين أحدا ربا لا عيسى ولا عُزرا ولا الملائكة ؛ لأنهم بشر مثلنا عُدَّتْ كدُوننا ، ولا تقبل من الزهيان شيئا يتعربهم علينا ما لم يحزمه الله علينا ، فنكون قد اتخذناهم أربابا . وقال عكرمة : معنى « يتخذ » يسجد . وقد تقدم أن السجود كان إلى زمن النبي صلى الله عليه وسلم ثم نهى النبي صلى الله عليه وسلم مُعَاذًا لِمَا أراد أن يسجد ، كما مضى في البقرة ^(١) بيانه . وروى أنس بن مالك قال : قلنا يا رسول الله ، أَيْضَى بعضنا لبعض ؟ قال «لا» قلنا : أَيْبَاقُ بعضنا بعضا ؟ قال «لا» ولكن تصاغوا^(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه . وسيأتى لهذا المعنى زيادة بيان في سورة «يوسف» ، وفي «الواقعة»^(٣) مس القرآن أو بعضه على غير طهارة إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتْ
التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ الأصل «لِمَا» خذفت الالف فرقا بين الاستفهام والخبر . وهذه الآية نزلت بسبب دعوى كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان على دينه ، فأكذبهم الله تعالى بأن اليهودية والنصرانية إنما كانتا من بعده ؛ فذلك قوله : «وَمَا أُنزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ» . قال الزجاج : هذه الآية آيين حجة على اليهود والنصارى ؛ إذ التوراة والإنجيل أنزلا من بعده وليس فيها اسم لواحد من الأديان ، واسم الإسلام في كل كتاب . ويقال : كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة ومئتين موسى وعيسى أيضا ألف سنة . ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ دحوص حجتكم وبطلان قولكم . والله أعلم .
(١) راجع ج ١ ص ٢٩٢ طبع ثانية أمانة .
(٢) أراد هذه الجملة هنا غير واضح المناسبة .

قوله تعالى : هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ
فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾
فيه مسائلتان :

الأولى - قوله تعالى : (هَآ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ) يعني في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ؛
لأنهم كانوا يعلمونه فيما يمدون من نفعه في تكلمهم فاجأوا فيه بالباطل . (فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ
لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ) يعني دهوام في إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا . والأصل في « هَآ أَنْتُمْ » آتتم
فأبدل من الحزمة الأولى هاء لأنها اختبأ عن أبي عمرو بن العلاء والأخفش . قال النحاس :
وهذا قول حسن . وقراءتُ قبل عن ابن كثير « هَآ أَنْتُمْ » مثل هعتم . والأحسن منه أن يكون
الهاء بدلا من همزة فيكون أصله آتتم . ويجوز أن تكون هاء للتنبيه دخلت على « أَنْتُمْ »
وعذفت الألف لكثرة الاستعمال . وفي « هَؤُلَاءِ » لفتان المد والقصير ومن العرب من
يقصرها . وأشد أبو حاتم :

لعمر ك إنا والأحاليق هَؤُلَاءِ . لقي بحنة أظفأرها لم تقلم

وهؤلاء هاهنا في موضع النداء يعني يهؤلاء . ويجوز هَؤُلَاءِ خبر أَنْتُمْ ، على أن يكون أولاء بمعنى
الذين وما بعده صلة له . ويجوز أن يكون خبر « أَنْتُمْ » حاججتم . وقد تقدم هذا في « البقرة »
والحمد لله .

الثانية - في الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له ، والحظر على من لا تحقيق
عنده فقال عز وجل : « هَآ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ » .
وقد ورد الأمر بالجدال لمن عليم وأقرن فقال تعالى : « وَجَادِلْهُمْ بَالِغِي أَصْنُ » . وروى
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أنه رجل أنكر ولده فقال : يا رسول الله ، إن أمرأتى ولدت
غلاما أسود . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل لك من إبل ؟ » قال نعم . قال :

(١) راجع إلى من عليم بالجدال فإنه لا يجوز له من جدلية ثانية .

« ما ألوانها ؟ » قال حمز : قال . « هل فيها من أَوْرَقٍ » ؟ قال نعم . قال : « فمن أين ذلك ؟ » قال : لعل عِرْقًا نزع . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وهذا الغلام لعل عِرْقًا نزع » . وهذا حقيقة الجدال ونهاية في تبيين الاستدلال من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : مَا كَانَتْ إِِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾

نزعه تعالى من دُورِهم الكاذبة ، وبين أنه كان على الحنيفية الإسلامية ولم يكن مشركاً . والحنيف : الذي يوحد ويوح ويضحي ويغتنن ويستقبل القبلة . وقد مضى في « البقرة » اشتقاقه . والمسلم في اللغة : المتذلل لأمر الله تعالى المنطاع له . وقد تقدم في « البقرة » معنى الإسلام مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

قال ابن عباس : قال رؤساء اليهود : والله يا محمد لقد علمت أنا أَوَّلَى النَّاسِ بدين إبراهيم منك ومن غيرك ، فإنه كان يهودياً وما بك إلا الحسد ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . (أَوَّلَى) معناه أحق ، قيل : بالعبوة والنصرة . وقيل بالحجة . (الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ) على ملة وسنته . (وَهَذَا النَّبِيُّ) أفرد ذكره تعظيماً له ، كما قال « فِيهِمَا فَآكِهَةٌ وَنَحْلٌ وَرِثَانٌ » وقد تقدم في « البقرة » هذا المعنى مستوفى . و « هذا » في موضع رفع عطف على الذين ، و « النبي » نعت لهذا أو عطف بيان ، ولو نصب لكان جائزاً في الكلام عطفاً على الماء في « اتبعوه » . (وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ) أى ناصرهم . وعن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(١) الأورق : الذي لونه بين السواد والبُرة . (٢) راجع ج ٢ ص ١٢٩ طبة ثانية .

(٣) راجع ج ٢ ص ١٢٤ طبة ثانية .

«إِنْ لِكُلِّ نَبِيٍّ وَلَدَةٌ مِنَ التَّيِّبِينَ وَإِنْ وَلِيٌّ مِنْهُمْ أَيْ وَخَلِيلٌ رُبِّي - ثُمَّ قَرَأَ - إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ» .

قوله تعالى : وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾

ترت في معاذ بن جبل وحذيفة بن اتيان وعمار بن ياسر حين دعاهم اليهود من بني النضير وقريظة ونحو قتيقاع إلى دينهم . وهذه الآية نظير قوله تعالى : « وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَيْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا » . و « من » على هذا القول للتبعض . وقيل : جميع أهل الكتاب ، فكأن « من » لبيان الجنس . ومعنى « لو يضلونكم » أى يكسبونكم المصيبة بالرجوع عن دين الإسلام والمخالفة له . وقال ابن جرير : « يضلونكم » أى يهلكونكم ؛ ومنه قول الأخطل :

كَتَبْتُ الْقَدَى فِي مَوْجِ أَكْثَرِ مَزِيدٍ • فَذَنَّفَ الْإِنِّي بِهِ فَضَّلَ ضَلَالًا
أَي هَلَكَ هَلَاكًا . (وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ) تَقَى وَإِعْجَاب . (وَمَا يَشْعُرُونَ) أَي يَقْطُنُونَ
أَنَّهُمْ لَا يُضِلُّونَ إِلَى ضَلَالِ الْمُؤْمِنِينَ . وقيل : « وما يشعرون » أى لا يعلمون بصحة الإسلام
وواجب عليهم أن يعلموا ؛ لأن البراهين ظاهرة والنجح باهرة ، والله أعلم .

قوله تعالى : يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ مُشْهَدُونَ ﴿٦٧﴾

أى بصحة الآيات التى عندكم فى كتبكم ؛ عن قتادة والسدى . وقيل : المعنى وأنت
تشهدون بمثها من آيات الأنبياء التى أنتم مقرنون بها .

قوله تعالى : يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونَهُ لِحَقِّهِ بِإِبْطَالٍ وَتَكْتُمُونَ
الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

(١) الآية : كل سبل باقى من حيث لا تعلم .

اللبس الخلط، وقد تقدم في البقرة . ومعنى هذه الآية والتي قبلها معنى ذلك . ﴿ وَتَكْفُرُونَ الْحَقَّ ﴾ ويجوز « تكتموا » على جواب الاستفهام . ﴿ وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ ﴾ جملة في موضع الحال . قوله تعالى : وَقَالَتْ طَافِئَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُتِرَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَآكُفِّرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٦﴾

نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن الصَّيف وغيرهما قالوا للسَّفلة من قومهم : آمنوا بالذي أُتِرَ على الذين آمنوا وجه النهار، بنى أوله . وَتَمَّى وَبِهَا لَأَنَّهُ أَحْسَنُ ، وأقول ما يواجه منه قوله . قال الشاعر :

وَتَمَّى فِي وَجْهِ النَّهَارِ مَنْسِيرَةٌ * بِكَمَانَةِ الْبَحْرِى سُلَّ نَظَامُهَا
وقال آخر :

من كان مسرورا بمقتل مالك * فليات نسوتا بوجه نهاري
وهو منصوب على الظرف ، وكذلك « آخره » . ومنهبت قتادة أنهم فعلوا ذلك يُسَكِّكُوا المسلمين . والطائفة الجماعة ، من طاف يطوف ، وقد يستعمل للواحد على معنى قس طائفة . ومعنى الآية أن اليهود قال بعضهم لبعض : أظهروا الإيمان بمحمد في أول النهار ثم آكفروا به آخره ؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك ظهر لمن يتبعه ارتياب في دينه . فيرجعون عن دينه إلى دينكم ويقولون إن أهل الكتاب أعلم به منا . وقيل : المعنى آمنوا بصلاته في أول النهار إلى بيت المقدس فإنه الحق ، وآكفروا بصلاته آخر النهار إلى الكعبة لعلهم يرجعون إلى قبلكم ؛ عن ابن عباس وغيره . وقال مقاتل : معناه أنهم جامعوا محمدا صلى الله عليه وسلم أول النهار ورجعوا من عنده فقالوا للسَّفلة هو حق فاتبعوه ، ثم قالوا : حتى ننظر في التوراة ثم رجعوا في آخر النهار فقالوا : قد نظرنا في التوراة فليس هو به . يقولون إنه ليس بحق ، وإنما أرادوا أن يُلبسوا على السَّفلة وأن يُسَكِّكوا فيه .

(١) راجع ١ ص ٣٤٠ طبة ثانية أو ثالثة .

(٢) البيت لبيد . والجماعة : حبة تصل من النضة كالقرفة .

قوله تعالى : وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ أَلْهَىٰ هُدَىٰ
 اللَّهُ أَنْ يُؤَيِّنَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ أَلْفَضَلُ
 يَبْدَأُ اللَّهُ يَوْمَئِذٍ مَنِ يَسَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : (وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ) هذا نبى ، وهو من كلام اليهود بعضهم
 لبعض ، أى قال ذلك الرؤساء للسفلة . وقال السدى : من قوله يهود خير ليهود المدينة . وهذه
 الآية أشكل ما فى السورة . فروى عن الحسن ومجاهد أن معنى الآية ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ،
 ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لأنهم لا حجة لهم فإنكم أصح منهم ديناً . و « أن » و « يحاجوكم »
 فى موضع خفض ، أى بأن يحاجوكم أى باحتجاجهم ، أى لا تصتقوهم فى ذلك فإنهم لا حجة لهم .
 (أَنْ يُؤَيِّنَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ) من التوراة والمآل والسلاوى وقرئ البحر وغيرها من الآيات
 والفضائل . فيكون « أن يؤيى » مؤنرا بعد « أو يحاجوكم » ، وقوله « إِنْ أَلْهَىٰ هُدَىٰ اللَّهُ »
 اعتراض بين كلامين . وقال الأخفش : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن
 يؤيى أحد مثلاً ما أوتيت ولا تصتقوا أن يحاجوكم ؛ يذهب الى معطوف . وقيل : المعنى
 ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤيى أحد مثل ما أوتيت ؛ فالد على الاستفهام أيضاً تأكيد
 للإنكار الذى قالوه إنه لا يؤيى أحد مثل ما أوتوه ؛ لأن علماء اليهود قالت لهم : لا تؤمنوا
 إلا لمن تبع دينكم أَنْ يُؤَيِّنَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ، أى لا يؤيى أحد مثل ما أوتيت ؛ فالكلام على
 نفسه . و « أن » فى موضع رفع على قول من رفع فى قولك أزيد ضربته ، والخبر محذوف تقديره
 أَنْ يُؤَيِّنَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ تصتقون أو ترون أى إنشاء موجود مصدق أو مقزبه ،
 أى لا تصتقون بذلك . ويجوز أن تكون « أن » فى موضع نصب على إسماعيل فضل ؛ كما جاز
 فى قولك أزيد ضربته ، وهذا أقوى فى العربية لأن الاستفهام بالفعل أولى ، والتقدير أقرؤن
 أن يؤيى أو أتبعون ذلك أو أئذ كرون ذلك ونحوه . و بالمد قرأ ابن كثير وابن محيصن وحيد .
 وقال أبو حاتم : « أن » معناه « لأن » ، لحذف لام الجر استغناء وأبدلت مئة ؛ كقرامة من

قرأ «أَنْ كَانَ قَدًا مَالٍ» أى لأن . وقوله «أو يحاجوكم» على هذه القراءة رجوع إلى خطاب المؤمنين؛ أو تكون «أو» بمعنى «أن» لأنهما حرفا شك وجزاء فوضع إحداهما موضع الأخرى .
وتقدير الآية : وأن يحاجوكم عند ربكم يا معشر المؤمنين . وقيل : يا محمد إن الهدى هدى الله ونحن عليه . ومن قرأ بترك المذقال : إن النفي الأول دل على إنكارهم في قولهم ولا تؤمنوا .
فالمنى أن علماء اليهود قالت لهم : لا تصدقوا بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، أى لا إيمان لهم ولا حجة ، فنعطف على المنى من العلم والحكمة والكتاب والحجة والمثل والسوى . وقلق البحر وغيرها من الفضائل والكرامات ، أى أنها لا تكون إلا فيكم فلا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا من تبع دينكم . فالكلام فيه تقديم وتأخير على هذه القراءة واللام زائدة . ومن استثنى ليس من الأول ، وإلا لم يميز الكلام ، ودخلت «أحد» لأن أول الكلام نفي قد دخلت في صلة «أن» لأنه مفعول الفعل المنى؛ فإن في موضع نصب لعدم الخافض . وقال الخليل : أن في موضع خفض بالخافض المحذوف . وقيل : إن اللام ليست بزائدة ، و «تؤمنوا» محمول على تقروا . وقال ابن جرير : المنى لا تؤمنوا إلا من تبع دينكم كراهية أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم . وقيل : المنى لا تحبوا بما في كتابكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم إلا من تبع دينكم لئلا يكون طريقا إلى عبادة الأوثان إلى تصديقه . وقال الفراء : يجوز أن يكون قد انقطع كلام اليهود عند قوله عز وجل «إلا من تبع دينكم» ثم قال لمحمد صلى الله عليه وسلم «قل إن الهدى هدى الله» . أى إن البيان الحق هو بيان الله عز وجل «أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم» بين ألا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، و «لا» مقدرة بعد «أن» أى لئلا يؤتى؛ كقوله «يُبين الله لكم أَنْ تَقُولُوا» أى لئلا تضلوا ، فلذلك صلح دخول «أحد» في الكلام . و «أو» بمعنى «حتى» و «إلا أن» ؛ كما قال أمرؤ القيس :

فقلت له لا تبك عيني إنيما • نحاول ملكاً أو نموت فنعزوا

وقال آخر :

وكنْتُ إذا عَزَزْتُ فَنَسَا قوم • كسرتُ كموبيأ أو تستغنيا

ومثله قولهم : لا تثنى أو تقوم الساعة، بمعنى «حتى» أو «إلا أن» ؛ وكذلك مذهب الكسائي .
وهي عند الأخفش عاطفة على «وَلَا تُؤْمِنُوا» وقد تقدم . أى لا إيمان لهم ولا حجة ؛ فعطف
على المعنى . ويحتمل أن تكون الآية خطاباً للمؤمنين من الله تعالى على جهة التثيت لقلوبهم
والتشجيد لبصائرهم ؛ لئلا يشكوا عند تليس اليهود ووزورهم في دينهم . والمعنى لا تصدقوا
يا معشر المؤمنين إلا من تبع دينكم ، ولا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الفضل
والدين ، ولا تصدقوا أن يحاجكم في دينكم عند ربكم من خالفكم أو يقدر على ذلك ، فإن
المُدَى هدى الله وإن الفضل بيد الله . قال الضحاك : إن اليهود قالوا إنا نحاج عند ربنا من
خالقنا في ديننا ؛ فبين الله تعالى أنهم هم المَحْضُونُ للمعذِّبون وأن المؤمنين هم الغالبون ، ومحاجتهم
مخصوصتهم يوم القيامة . ففى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن اليهود والنصارى
يحاجوننا عند ربنا فيقولون أعطيتنا أجراً واحداً وأعطيتم أجراً من قول هل ظلمكم من
حقوقكم شيئاً قالوا لا قال فإن ذلك فضلي أوتيته من إ شاء . " قال علماؤنا : فلو علموا أن ذلك
من فضل الله لم يحاجونا عند ربنا ؛ فأعلم الله نبيه صلى الله عليه وسلم أنهم يحاجوكم يوم القيامة
عند ربكم ثم قال قل لهم « إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » . وقرأ ابن
كثير « أَنْ يُؤْتَى » بالمد على الاستفهام ؛ كما قال الأعشى :

أَنْ رَأَتْ رَجُلًا أَعْتَى أَضْرَبَهُ • رَبُّبُ الْمَتُونِ وَدَهْرُهُ مِثْلُ خَيْلٍ^(١)

وقرأ الباقون بغير مد على الخبر . وقرأ سعيد بن جبير « إِنْ يُؤْتَى » بكسر الهمزة ، على معنى
التنبي ؛ ويكون من كلام الله تعالى كما قال الفراء . والمعنى : قل يا محمد إن المُدَى هدى الله إن
يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم — معنى اليهود — بالباطل فيقولون نحن أفضل
منكم . ونصب «أو يحاجوكم» بمعنى بإحتمار «أن» و «أو» تضرع بعدها «أن» إنا كانت
بمعنى «حتى» و «إلا أن» . وقرأ الحسن « أَنْ يُؤْتَى بكسر التاء وياء مفتوحة ، على معنى أن
يؤتى أحد أحداً مثل ما أوتيتم ، لحذف المفعول .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ الْمُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن المدى إلى الخير والهداية إلى الله عز وجل بيد الله جل شأؤه يؤتیه أنبياءه ، فلا تنكروا أن يؤتى أحد سواكم مثل ما أوتيتم ، فإن أنكروا ذلك قتل لهم « إن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء » . والقول الآخر : قل إن المدى هدى الله الذى آتاه المؤمنين من التصديق بحمد صلى الله عليه وسلم لا غيره . وقال بعض أهل الإشارات فى هذه الآية : لا تعاشرُوا إلا من يوافقكم على أحوالكم وطريقكم فإن من لا يوافقكم لا يرافقكم . والله أعلم .

قوله تعالى : يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

أى بذوته وهديته عن الحسن ومجاهد وغيرهما . ابن جرير : بالإسلام والقرآن من يشاء . قال أبو عبيد : أجل القول ليقى معه رجاء الرأى وخوف الخائف ، والله ذو الفضل العظيم .

قوله تعالى : وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنَ إِنْ تَأْمَنُوا بِنِيطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكُم مِّنْهُمْ مَّنَ إِنْ تَأْمَنُوا بِنِيطَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكُم إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّةِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنَ إِنْ تَأْمَنُوا بِنِيطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكُم ﴾ مثل عبد الله بن سلام . ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنَ إِنْ تَأْمَنُوا بِنِيطَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكُم ﴾ وهو فتاح بن عازرواء اليهودى ، أودعه رجل دينارا فخافه . وقيل : كعب بن الأشرف وأصحابه . وقرأ ابن وثاب والأشهب العقيلي « مَنَ إِنْ تَحْتَهُ » على لغة من قرأ نيسين وهى لغة بكر وتميم . وفى حرف عبد الله « مالك لا تَحْتَهُ على يوسف » . والباقيون بالآلف . وقرأ نافع والكسائى « يؤدِّيه » بياء فى الإدراج . قال أبو عبيد : وافق أبو عمرو والأعمش وعاصم وحزرة فى رواية ابنى بكر

على وقف الماء، فقرأوا « يؤدُّه إليك ». قال النحاس : بإمكان الماء لا يجوز إلا في الشرع عند بعض الصحويين، وبعضهم لا يميزه ألبتة ويرى أنه غلط ممن قرأ به، وأنه توهم أن الجزم يقع على الماء، وأبو عمرو أجل من أن يجوز عليه مثل هذا. والصحيح عنه أنه كان يكسر الماء، وهي قراءة يزيد بن القعقاع. وقال الفراء : منذهب بعض العرب يجزمون المباء إذا تحرك ما قبلها، يقولون : ضربته ضربا شديدا، كما يسكنون ميم أتم وقتم وأصلها الرفع؛ كما قال الشاعر :

لما رأى الآفة ولا شيع • مال إلى أرطاة حفيف فأضطجع

وقيل : إنما جاز إسكان الماء في هذا الموضع لأنها وقعت في موضع الجزم وهي الياء الناهية. وقرأ أبو المنثر سلام والزهرى « يؤدُّه » بضم الماء بغير واو. وقرأ قتادة ومحمد ومجاهد « يؤدُّه » بواو في الإدراج، اختير لها الواو لأن الواو من الشمة والماء بيعة المخرج. قال سيويه : الواو في المذكر بمنزلة الألف في المؤنث ويسدل منها ياء لأن الياء أخف إذا كان قبلها كسرة أو ياء، وتحذف الياء وتبقى الكسرة لأن الياء قد كانت تحذف والفعل مرفوع فالتبت بحالها .

الثانية — أخبر تعالى أن في أهل الكتاب الخائن والأمين والمؤمنون لا يميزون ذلك، فينبغي اجتناب جميعهم . وخص أهل الكتاب بالذكر وإن كان المؤمنون كذلك لأن الخيانة فيهم أكثر، فخرج الكلام على الغالب . والله أعلم . وقد مضى تفسير القنطار . وأما الديتار فأربعة وعشرون قيراطا والقديراط ثلاث حبات من وسط الشعير، فجموعه اثنتان وسبعون حبة، وهو يُجمع عليه . ومن حفظ الكثير وأداه فالقليل أولى، ومن خان في السير أو منعته فذلك في الكثير أكثر . وهذا أدل دليل على القول بفهوم الخطاب . وفيه بين العلماء خلاف مذكور في أصول الفقه . وذكر تعالى قسمين : من يؤدى ومن لا يؤدى إلا باللازمة عليه ؛ وقد يكون من الناس من لا يؤدى وإن دُمت عليه قاعا . فذكر تعالى القسمين لأنه الغالب

(١) الأرطاة : واحدة الأرطى، وهو غير من شجر الزبل . والحفف (الكسر) : ما أخرج من الزبل .

والمعاد والثالث نادر؛ فخرج الكلام على الغالب . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وأبو عبد الرحمن السلمي وغيرهما « دِمَت » بكسر الدال وهما لغتان ، والكسرة لغة أزد السراة ؛ من « دِمَت تدام » مثل خفت تحاف . وحكى الأخفش دِمَت تدوم ، شاذًا .

الثالثة — استدَلَّ أبو حنيفة على مذهبه في ملازمة الغريم بقوله تعالى : « إِنْ مَادَمْتُ عَلَيْهِ قَانِمًا » وأباه سائر العلماء ، وقد تقدَّم في البقرة . وقد استدَلَّ بعض الْيَقْدَادِيِّينَ على حبس المديان بقوله تعالى : « وَيَسْتَمِعُونَ مِنْ إِنْ تَأْمَنَهُ يَدَيَّارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتُ عَلَيْهِ قَانِمًا » فإذا كان له ملازمته ومنعه من التصرف جاز حبسه . وقيل : إن معنى « ما دمت عليه قَانِمًا » أى بوجهك فيأبأك ويستحي منك ، فإن الحياء في العيين ؛ ألا ترى إلى قول ابن عباس رضى الله عنه : لا تطلبوا من الأعمى حاجة فإن الحياء في العيين . وإذا طلبت من أخيك حاجة فانظر إليه بوجهك حتى يستحي فيقضيها . ويقال : « قَانِمًا » أى ملازمًا له ؛ فإن أنظرته أنكره . وقيل : أراد بالقيام إدامة المطالبة لا عين القيام . والدينار أصله دِنَارٌ فَوَضَتْ من إحدى النونين ياء طلبًا للحفظة لكثرة استعماله . يدل عليه أنه يجمع دنانير ويصغر دُنَيْتِير .

الرابعة — الأمانة عظيمة القَدْرِ في الدين ، ومن عَظَم قدرها أنها تقوم هى والرحم على جَنَّتِي الصراط ؛ كما في صحيح مسلم . فلا يُمْكِن من الجواز إلا من حفظهما . وروى مسلم عن حذيفة قال حدثنا النبي صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة ، قال : « ينام الرجل للنومة فتقبض الأمانة من قلبه » الحديث . وقد تقدم بكلمة أول البقرة . وروى ابن ماجه حدثنا محمد ابن المصنف حدثنا محمد بن حرب عن سعيد بن سنان عن أبي الزاهرية عن أبي شجرة كثير ابن مرة عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنْ أَرَادَ أَنْ يَهْلِكَ عَبْدًا نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ فَإِذَا نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا مَقِيَّتًا مُمَقَّتًا فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا مَقِيَّتًا مُمَقَّتًا تَزَعَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةُ فَإِذَا تَزَعَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةُ لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا خَائِنًا مُخَوَّنًا فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا خَائِنًا مُخَوَّنًا تَزَعَتْ مِنْهُ »

(١) في قوله تعالى : « وَإِنْ كَانَ ذُو عَصَا فَنظَرَ ... » ٣٧١ طبعه أول أر ثمانية .

(٢) جنبة الروادى (فتح النون) : جانب ، وأحسبه . والجنبة (يسكون النون) : بالناحية ؛ يقال : نزل غلان جنبة

أى ناحية . (٣) راجع ج ١ ص ١٨٨ طبعه ثانية أر ثالثة ، وصحيح مسلم ج ١ ص ٥١ طبعه بلدى .

الرحمة فإذا نُزعت منه الرحمة لم تلقه إلا رجياً مُلغاً فإذا لم تلقه إلا رجماً مُلغاً نُزعت منه رِبْقَةُ الإسلام . وقد مضى في البقرة معنى قوله عليه السلام : " أَدْ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ أُتْمِنَ وَلَا تَخْنِ مِنْ خَائِكَ " . والله أعلم .

الخامسة - ليس في هذه الآية تعديل لأهل الكتاب ولا لبعضهم خلافاً لمن ذهب إلى ذلك ؛ لأن فُسَاقَ المسلمين يوجد فيهم من يؤدّي الأمانة ويؤمن على المال الكثير ولا يكونون بذلك عدولاً . فطريق العدالة والشهادة ليس يجرئ فيه أداء الأمانة في المال من جهة المعاملة والودعة ؛ ألا ترى قولهم : « ليس علينا في الْأَمِينِ سَبِيلٌ » فكيف يعدل من يستفد استباحة أموالنا وسرّيمنا بغير حرج عليه ؛ ولو كان ذلك كافياً في تعديلهم لسمعت شهادتهم على المسلمين .

السادسة - قوله تعالى : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا) يعني اليهود (لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ) قيل : إن اليهود كانوا إذا بايعوا المسلمين يقولون : ليس علينا في الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ - أي حرج في ظلمهم - لخالفهم إيانا . وأدعوا أن ذلك في كتابهم ؛ فأكذبهم الله عز وجل ورد عليهم فقال : « بَلَى » أي بلى عليهم سبيل العذاب بكذبهم واستغلالهم أموال العرب . قال أبو إسحاق الزجاج : وتم الكلام . ثم قال « مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى » . ويقال : إن اليهود كانوا قد استدانوا من الأعراب أموالاً فلما أسلم أرباب الحفوق قالت اليهود : ليس لكم علينا شيء ، لأنكم تركتم دينكم فسقط عنا دينكم . وأدعوا أنه حكم التوراة فقال الله تعالى : « بَلَى » رداً لقولهم « ليس علينا في الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ » . أي ليس كما تقولون ، ثم استأنف فقال : « مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى » الشرك فليس من الكاذبين بل يحبه الله ورسوله .

السابعة - قال رجل لأبْنِ عَبَّاسٍ : إنا نُصِيبُ في الْعَمْدِ من أموال أهل الذمة الذباجة والشاة ونقول : ليس علينا في ذلك بأس . فقال له : هذا كما قال أهل الكتاب « ليس علينا في الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ » إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا عن طيب

أنفسهم ؛ ذكره عبد الزاق عن معمر عن أبي إسحاق الهمداني عن صَئِصَةَ أَنَّ رجلاً قال
لأبْنِ عَبَّاسٍ ، فذكره .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يدل على أن
الكافر لا يجعل أهلاً لقبول شهادته لأن الله تعالى وصفه بأنه كذاب . وفيه رد على الكفرة
الذين يحرمون ويحلبون غير تحريم الله وتحليله ويعملون ذلك من الشرع . قال ابن العربي :
ومن هذا يخرج الرد على من يحكم بالاستحسان من غير دليل ، ولست أعلم أحداً من أهل
القبلة قاله . وفي الخبر : لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما شيء كان
في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر " .

قوله تعالى : يَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾
« من » رفع بالابتداء وهو شرط . و « أوفى » في موضع جزم . و « اتقى » معطوف عليه ،
أى واتقى الله ولم يكذب ولم يستحل ما حرم عليه . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى يحب أولئك .
وقد تقدم معنى حب الله لأوليائه . والماء في قوله « بعهد » راجعة إلى الله عز وجل . وقد
جرى ذكره في قوله « وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » ويجوز أن تعود على الموقى ومتقى
الكفر والحيانة وتقض العهد . والمهد مصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَسْتُرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَيَأْمِنُنَّ بِمَنَّا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ
لَا خَلَقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾
فيه مسائلان :

الأولى - روى الأئمة عن الأشعث بن قيس قال : كان بيني وبين رجل من اليهود أرض
بجحدني فقدمته إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل

لَكَ بَيِّنَةٌ ؟ قُلْتُ لَا ، قَالَ لليهودي : " اِحْلِفْ " قُلْتُ : إِذَا يَحْلِفُ فَيَذْهَبُ بَعَالِي فَأَتُرِلُ
 اللَّهُ تَعَالَى « إِنَّ الَّذِينَ يَسْتُرُونَ بِرُءُوسِهِمُ اللَّهَ وَآيَاتِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا » إِلَى آخِرِ الْآيَةِ . وَرَوَى الْأَئِمَّةُ أَيْضًا
 عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " مَنْ اقْطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِمِثْنَةٍ فَقَدْ
 أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ " . فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : وَإِنْ كَانَ شَيْئًا سِوَايَا رَسُولِ اللَّهِ ؟
 قَالَ : " وَإِنْ كَانَ قِضْيَا مِنْ أَرَاكَ " ^(١) . وَقَدْ مَضَى فِي الْبَقَرَةِ بِمَعْنَى « لَا يَكْفُرُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْقُضُ
 إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَزْكِيهِمْ » ^(٢) .

الثانية - وَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَالْأَحَادِيثُ أَنَّ حَكْمَ الْحَاكِمِ لَا يُحِلُّ الْمَسَالِفَ فِي الْبَاطِنِ بِقَضَاءِ
 الظَّاهِرِ إِذَا عُلِمَ الْمَحْكُومُ لَهُ بَطْلَانُهُ . وَقَدْ رَوَى الْأَئِمَّةُ عَنْ أُمِّ سَامَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْخُبَى بِحِجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ
 وَإِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْكُمْ فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا
 أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ يَأْتِي بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ " . وَهَذَا لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْأَئِمَّةِ ، وَإِنَّمَا نَاقِضُ
 أَبُو حَنِيفَةَ وَغَلَا فَقَالَ : إِنَّ حَكْمَ الْحَاكِمِ الْمُنِيِّ عَلَى الشَّهَادَةِ الْبَاطِلَةِ يُحِلُّ الْفَرْجَ لِمَنْ كَانَ مُحْزَمًا
 عَلَيْهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْبَقَرَةِ ^(٣) . وَزَعَمَ أَنَّهُ لَوْ شَهِدَ شَاهِدًا زَوَرَ عَلَى رَجُلٍ بِطُلُقِ زَوْجَتِهِ وَحَكَمَ الْحَاكِمُ
 بِشَهَادَتِهِمَا فَإِنْ فَرَجَهَا يَحِلُّ لِمَتَزَوَّجَهَا مِنْ يَظُنُّ أَنَّ الْقَضِيَّةَ بَاطِلَةٌ . وَقَدْ شُئِعَ عَلَيْهِ بِإِعْرَاضِهِ عَنْ
 هَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الصَّرِيحِ ، وَبَأنَّهُ صَانُ الْأَمْوَالِ وَلَمْ يَرِ اسْتِبَاحَتَهَا بِالْأَحْكَامِ الْفَاسِدَةِ وَلَمْ
 يَصْنِ الْفُرُوجَ عَنْ ذَلِكَ ، وَالْفُرُوجُ أَحَقُّ أَنْ يَحْتَاطَ لَهَا وَتُصَانَ . وَسَيَأْتِي بَطْلَانُ قَوْلِهِ فِي آيَةِ
 اللَّعَانِ ^(٤) إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ السِّنَّ وَالْيَدِينَ بِالْكِذْبِ لِنُحْضِبَهُ
 مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ
 مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

(١) الْأَرَاكُ : نَجْرٌ مِنَ الْخَضِرِ يَتَكَثَّرُ بِقَضَائِهِ ، الْوَاحِدَةُ أَرَاكَةٌ . (٢) آيَةُ ١٧٤ ج ٢ ص ٢٢٤
 طَبْعَةٌ ثَانِيَةٌ . (٣) دَاجِعُ الْمَسْأَلَةِ الثَّلَاثَةِ ج ٢ ص ٣٣٨ طَبْعَةٌ ثَانِيَةٌ . (٤) آيَةُ ٦ سُورَةُ النُّورِ .

يعنى طائفة من اليهود . وقرأ أبو جعفر وشيبة « يَلُؤْنَ » على الكثير . والمعنى يحرفون الكلم ويدلون به عن القصد . وأصل اللَّيِّ الميل . لَوَى بيده ، وَلَوَى برأسه إذا أماله ؛ ومنه قوله تعالى : « لَبَّأً بِالسَّتَمِ » أى عتادا عن الحق وميلًا عنه إلى غيره . ومعنى « ولا تلون على أحد » أى لا ترجعون عليه ؛ يقال لَوَى عليه إذا عرج وأقام . واللى المَطل . لواه بدينه يَلُوْهِه لِيًا وَلِيَانًا مَطلَه . قال :

قد كنت ذابنت بها حسنًا • عفاة الإفلاس والليان

• يعمن ببع الأصل والبيان •

وقال ذو الرمة :

تريدن لباني وأنت مَلِيَّةٌ • وأحسن يا ذات الوشاح التفاضيا^(١)

وفى الحديث "لَى الواجد يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُوبَتَهُ" . وَالسَّنة جمع لسان فى لغة من ذكره ، ومن أنت قال السن .

قوله تعالى : مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ نِيًّا بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَلَيْسَ لَكُمْ تُدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾

(ما كان) معناه ما ينبغي ؛ كما قال : و « مَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً » و « مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يُخَيِّدَ مِنْ وَلَدٍ » . و « مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا » يعنى ما ينبغي . والبشر يقع للواحد والجمع لأنه بمثابة المصدر ؛ والمراد به هنا عيسى فى قول الضحاك والسدى . والكاتب : القرآن . والحكم : العلم والفهم . وقيل أيضا الأحكام . أى أن الله لا يصطفى لنبوته الكذبة ولو فصل ذلك بشر لسلبه آيات النبوة وعلاماتها . ونصب « ثم يقول » على الاشتراك بين « أن يؤتيه » وبين « يقول » أى لا يجمع لنى إتيان النبوة وقوله : « كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ » . (وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ نِيًّا) أى ولكن جائز أن يكون النبى يقول لهم

(١) فى دبراه : « تليين » .

كونوا ربانيين . وهذه الآية قبل إنها نزلت في نصارى نجران . وكذلك روى أن السورة كلها إلى قوله : « وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ » كان سبب نزولها نصارى نجران ولكن مُرَّج معهم اليهود ؛ لأنهم فعلوا من اتخذوا المتاد فملهم .

والربانيون واحدهم رباني منسوب إلى الرب . والرباني الذي يربّي الناس بصغار العلم قبل كباره ، وكأنه يقتدى بالرب سبحانه في تيسير الأمور ؛ روى معناه عن ابن عباس . قال بعضهم : كان في الأصل ربّي فأدخلت الألف والنون للبالغة ؛ كما يقال للمظيم الخبية : ليخاني ولعظيم الجنة يحماني ولغليظ الرقة رقباني . وقال المبرد : الربانيون أرباب العلم ، واحدهم ربان ، من قولهم : ربه ربه فهو ربان إذا دبره وأصلحه . فعناه على هذا يدبرون أمور الناس ويصلحونها . والألف والنون للبالغة كما قالوا ربان وعطشان ، ثم ضمت إليها ياء النسبة كما قيل : ليخاني وربقاني ويحماني . قال الشاعر :

لو كنتُ مُرَبِّيًا لى الحق أنزلنى • منه الحديث ورباني أحباري

فمعنى الرباني العالم بدين الرب الذي يعمل بعلمه ؛ لأنه إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم . وقد تقدم هذا المعنى في البقرة : وقال أبو وزي : الرباني هو العالم الحكيم . وروى شعبة عن قتاصم عن زرع بن عبد الله بن مسعود « ولكن كونوا ربانيين » قال : حكام علماء . ابن جبير : حكام أتقياء . وقال الضحاك : لا ينبغي لأحد أن يدع حفظ القرآن جهده فإن الله تعالى يقول : « ولكن كونوا ربانيين » . وقال ابن زيد : الربانيون الولاء ، والأحبار العلماء . وقال مجاهد : الربانيون فوق الأحبار . قال النحاس : وهو قول حسن ؛ لأن الأحبار هم العلماء . والرباني الذي يجمع إلى العلم البصر بالسياسة ؛ مأخوذ من قول العرب : رب أمر الناس بربه إذا أصلحه وقام به ، فهو راب ورباني على التكثير . قال أبو عبيدة : سمعت عالما يقول : الرباني العالم بالحلال والحرام والأمر والنهي ، العارف بأبناء الأئمة وما كان وما يكون . وقال محمد بن الحنفية يوم مات ابن عباس : اليوم مات رباني هذه الأمة . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من مؤمن ذكر ولا أنثى من ولا يملك إلا وقته عن ويل

عليه حتى أن يتعلم من القرآن ويتفقه في دينه — ثم تلا هذه الآية — ولكن كونوا ربانيين“
الآية . رواه ابن عباس .

قوله تعالى : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَتْلُوا كِتَابَ اللَّهِ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**) قرأه أبو عمرو وأهل المدينة بالتخفيف من العلم . واختار هذه القراءة أبو حاتم . قال أبو عمرو : وتصدقها « تترسون » ولم يقل « تترسون » بالتشديد من التدریس . وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة « تملون » بالتشديد من التعلیم ، واختارها أبو عبيد . قال : لأنها تجمع المعنيين « تملون » ، وتدرسون . قال مكي : التشديد أبلغ ، لأن كل معلم عالم بمعنى يعلم وليس كل من علم شيئاً معلماً . فالتشديد يدل على العلم والتعلیم ، والتخفيف إنما يدل على العلم فقط ، فالتعلیم أبلغ وأمدح وغيره أبلغ في الذم . احتج من رجع قراءة التخفيف بقول ابن مسعود « كونوا ربانيين » قال : حكاه علماء ، فيبعد أن يقال كونوا فقهاء حكاه علماء بتعليمكم . قال الحسن : كونوا حكام علماء بعلمكم . وقرأ أبو حيوة « تدرسون » من أدرس يدرس . وقرأ مجاهد « تملون » بفتح التاء وتشديد اللام ، أى تملون .

قوله تعالى : **وَلَا يَأْمُرُكَ أَنْ تَتَّخِذَ أَلْمِلَكَ وَالنَّيِّسَ أَرْبَابًا أَيَاْمُرُكَ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتَ مُسْلِمُونَ** ﴿٥٠﴾ -

قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة بالنصب عطفاً على « أَنْ يُؤْتِيَهُ » . ويقول به أن اليهود قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : أتريد أن تتخذك يا محمد رباً ؟ فقال الله تعالى : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة — إلى قوله : ولا يأمركم » . وفيه ضمير البشر ، أى ولا يأمركم البشر بمعنى عيسى وعزيراً . وقرأ الباقر بالرفع على الاستئناف والقطع من الكلام الأول ، وفيه ضمير اسم الله عز وجل ، أى ولا يأمركم الله أن تتخذوا . ويقولى هذه القراءة أن في مصحف عبد الله « ولن يأمركم » فهذا يدل على الاستئناف ، والضمير أيضاً لله عز وجل ، ذكره مكي ، وقاله سيويه والزجاج . وقال ابن جريج وجماعة : ولا يأمركم محمد عليه

السلام . وهذه قراءة أبي عمرو والكسائي وأهل الحرمين . (أَنْ تَتَّخِذُوا) أى إِنْ تَتَّخِذُوا
الملائكة والنبين أَرْبَابًا . وهذا موجود فى النصارى يَمَقِّمُونَ الأَنْبِيَاءَ والملائكة حتى يجعلوهم
لهم أَرْبَابًا . (أَيْبَسُكُمْ بِالْكَثْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) على طريق الإنكار والتعجب ؛ فحزم الله
تعالى على الأَنْبِيَاءِ أَنْ يَتَّخِذُوا النَّاسَ عِبَادًا يَتَأَلَّهُونَ لَهُمْ وَلَكِنْ أُلْزِمَ اخْتِلَافُ حُرْمَتِهِمْ . وقد ثبت
من النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : " لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عِبْدِي وَأَتْبَعِي وَلِيقُلَّ قَتَايَ وَقَتَايَ
وَلَا يَقُلَّ أَحَدُكُمْ رَبِّي وَلِيقُلَّ سَيِّدِي " . وفى التزويل « أَذْكَرَنِي عِنْدَ رَبِّكَ » . وهناك ^(١) بَاقِي
بيان هذا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ . قَالَ
أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ
مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٤١﴾

قيل : أَخَذَ اللَّهُ تَعَالَى ميثاق الأَنْبِيَاءِ أَنْ يَصَدِّقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَأْمُرَ بَعْضُهُم بِالْإِيمَانِ
بَعْضًا ؛ فَذَلِكَ مَعْنَى النَّصْرَةِ بِالتَّصَدِيقِ . وهذا قول سعيد بن جبْرِ وَقَتَادَةَ وَطَاوُسَ وَالسُّدِّيَّ
وَالْحَسَنَ ، وَهُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ . قال طَاوُسٌ : أَخَذَ اللَّهُ ميثاقَ الْأَوَّلِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يُؤْمِنَ
بِمَا جَاءَ بِهِ الْآخِرُ . وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ ميثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » . قال
الْكَسَائِيُّ : يجوز أَنْ يَكُونَ « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ ميثاقَ النَّبِيِّينَ » بمعنى وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ ميثاقَ الَّذِينَ مَعَ
النَّبِيِّينَ . وقال البصريون : إِذَا أَخَذَ اللَّهُ ميثاقَ النَّبِيِّينَ فَقَدْ أَخَذَ ميثاقَ الَّذِينَ مَعَهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ
قَدْ أَتَبَعُوهُ وَصَدَّقُوهُ . و « مَا » فى قوله « لَمَّا » بمعنى الَّذِى . قال سيبويه : سألت الخليل
ابن أحمد عن قوله عز وجل : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ ميثاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ »
فقال : لَمَّا بمعنى الَّذِى . قال النحاس : التقدير على قول الخليل للَّذِى آتَيْتُكُمْ بِهِ ، ثُمَّ حَذَفَ

الماء لطول الاسم . و « الذى » رفع بالابتداء وخبره « من كتاب وحكمة » . و « من » لبيان الجنس . وهذا كقول الفاتل : لزيد أفضل منك ؛ وهو قول الأخفش أنها لام الابتداء . قال المهدوى : وقوله « ثم جاءكم » وما بعده جملة معطوفة على الصلة ، والمائد منها على الموصول محذوف ؛ التقدير ثم جاءكم رسول مصدق به .

قوله تعالى : (ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ) الرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم فى قول على وابن عباس رضى الله عنهما . واللفظ وإن كان نكرة فالإشارة إلى معين ؛ كقوله تعالى : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً - الى قوله : وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ » . فأخذ الله ميثاق النبيين أجمعين أن يؤمنوا بمحمد عليه السلام وينصروه إن أدركوه ، وأمرهم أن يأخذوا بذلك الميثاق على أئمتهم . واللام من قوله « لتؤمنن به » جواب القسم الذى هو أخذ الميثاق ، إذ هو بمنزلة الاستحلاف . وهو كما تقول فى الكلام : أخذت ميثاقل لتفعلن كذا ، كأنك قلت استطقتك ، وفصل بين القسم وجوابه بحرف الجر الذى هو « لما » فى قراءة ابن كثير على ما يأتى . ومن فتحها جعلها متعلقة للقسم الذى هو أخذ الميثاق . واللام فى « لتؤمنن به » جواب قسم محذوف ، أى والله لتؤمنن به . وقال المبرد والكسائى والزجاج : « ما » شرط دخلت عليها لام التحقيق كما تدخل على إن ، ومعناه لما آتيتكم ؛ فوضع « ما » نصب ، وموضع « آتيتكم » جزم ، و « ثم جاءكم » معطوف عليه . (لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ) اللام فى قوله « لتؤمنن به » جواب الجزاء ؛ كقوله تعالى : « وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَسْفَعَنَّهُمْ » ونحوه . وقال الكسائى : لتؤمنن به معتمد القسم فهو متصل بالكلام الأول ، وجواب الجزاء قوله « فَنَنْوِيَّ بَعْدَ ذَلِكَ » . ولا يحتاج على هذا الوجه إلى تقدير عائد . وقرأ أهل الكوفة « لِمَا آتَيْتَكُمْ » بكسر اللام ، وهى أيضا معنى الذى وهى متعلقة بأخذ ، أى أخذ الله ميثاقهم لأجل الذى آتاهم من كتاب وحكمة ثم إن جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به من بعد الميثاق ؛ لأن أخذ الميثاق فى معنى الاستحلاف كما تقدم . قال النحاس : ولأبى عبيدة فى هذا قول حسن . قال : المعنى وإذا أخذ الله ميثاق الذين أنووا الكتاب

لنؤمنن به لِمَا آتَيْتَكُمْ من ذكر التوراة . وقيل : في الكلام حنف ، والمعنى وإذا أخذ الله ميثاق
التيين لَنُصَلِّينَ الناس لِمَا جاءكم من كتاب وحكمة ، ولناخذت على الناس أن يؤمنوا . ودل على
هذا الحذف « وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي » . وقيل : إن اللام في قوله « لِمَا » في قراءة من
كسرهما بمعنى بعد ، يعني بعد ما آتَيْتَكُمْ من كتاب وحكمة ؛ كما قال النابغة :

تَوَقَّعْتُ آيَاتَ مَا فَرَقْتَهَا • لَسْتَ أَعْوَامَ وَذَا الْعَامُ سَابِعُ

أي بعد ستة أعوام . وقرأ سعيد بن جبير « لِمَا » بالتشديد ، ومعناه حين آتَيْتَكُمْ . واحتمل
أن يكون أصلها التخفيف فزبدت « من » على مذهب من يرى زيادتها في الواجب فصارت
لمن ما ، وقلبت النون ميما للإدغام فأجتمع ثلاث ميما فخذفت الأولى منهن استخفا . وقرأ
أهل المدينة « آتَيْنَاكُمْ » على التعظيم . والباقون « آتَيْتَكُمْ » على لفظ الواحد . ثم كل الأنبياء
لم يؤتوا الكتاب وإنما أوتى البعض ؛ ولكن الغلبة للذين أوتوا الكتاب . والمراد أخذ ميثاق
جميع الأنبياء فمن لم يؤت الكتاب فهو في حكم من أوتى الكتاب لأنه أوتى الحكم والنبوة .
وأبضا من لم يؤت الكتاب أمر بأن يأخذ بكتاب من قبله فدخل تحت صفة من أوتى الكتاب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا اقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ
الشَّاهِدِينَ ﴾ « اقروا » من الإقرار ، والإصر والأصر لفتان ، وهو العهد . والإصر في اللغة
الثقل ؛ فسعى العهد إصرأ لأنه متعب وتشديد . ﴿ قَالَ فَاشْهَدُوا ﴾ أي اعملوا ؛ عن ابن عباس .
الزجاج : يبتوا لأن الشاهد هو الذي يصحح دعوى المدعى . وقيل : المعنى اشهدوا أتم على
أنفسكم وعلى أتباعكم . ﴿ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ عليكم وعليهم . وقال سعيد بن المسيب :
قال الله عز وجل للأنبياء فاشهدوا عليهم ، فتكون كناية عن غير مذكور .

قوله تعالى : قُلْ قَوْلِي بَعْدَ ذَلِكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٧﴾
« من » شرط . فمن قولى من أمة الأنبياء عن الإيمان بعد أخذ الميثاق ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾
أي الخارجون عن الإيمان . والفاسق الخارج . وقد هُتِمَ ^(١) .

قوله تعالى : أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ
عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا
أُوْتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ
لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ) قال الكلبي : ابن كعب بن الأشرف وأصحابه
اختصموا مع النصارى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : أينا أحق بين إبراهيم ؟ فقال
النبي صلى الله عليه وسلم : « كلا الفريقين يرى من دينه » . فقالوا : ما نرضى بقضائك
ولا نأخذ بدينك ؟ فقل : « أفغير دين الله يبعون » يعني يطلبون . ونصبت « غير » يبعون ، أى
يبعون غير دين الله . وقرأ أبو عمرو وحده « يبعون » بالياء على الخبر « وإليه ترجعون » بالياء
على المخاطبة . قال : لأن الأول خاص والثاني عام ففرق بينهما لافتراقهما في المعنى .
وقرأ حفص وغيره « يبعون » ويرجعون « بالياء فيهما » لقوله : « فأولئك هم القاسقون » .
وقرأ الباقون بالياء فيهما على الخطاب ؛ لقوله « لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ » . والله أعلم .

قوله تعالى : (وَلَهُ أَسْلَمَ) أى استسلم واتقاد وانخضع وذلل ، وكل مخلوق فهو متقاد
مستسلم ؛ لأنه مجبول على ما لا يقدر أن يخرج عنه . قال قتادة : أسلم المؤمن طوعاً والكافر عند
موته كرهاً ولا ينفعه ذلك ؛ لقوله : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا » . قال مجاهد :
إسلام الكافر كرهاً بسجوده لغير الله ومجوده ظله الله ، « أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ
يَتَّبِعُهُ ظِلُّهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّيْءِ لَيْسَ بِجِدَّتِهِ وَهَمَّ دَابِرُونَ » . « وَفِيهِ يُسْجَدُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
طَوْعًا أَوْ كَرْهًا وَظِلَّلَهُمْ بِالْأَشِدَّاءِ وَالْأَصَالِ » . وقيل : المعنى أن الله خلق الخلق على ما أراد منهم ؛
فهم الحسن والقبيح والطويل والقصير والصحيح والمريض وكلهم متقادون اضطراً ، فالصحيح
متقاد طائع عجب لذلك ، والمريض متقاد خاضع وإن كان كرهاً . والطوع الاتقياد والاتباع

بنهولة . والكواكب كان بمشقة وإياه عن النفس . و (طَوْعًا وَكَرْهًا) مصدران في موضع الحال ، أى طائعين ومكرهين . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل : « وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا » قال : « الملائكة أطاعوه في السماء والأنصار وعبد القيس في الأرض » . وقال عليه السلام : « لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ أَهْلًا مِنْ خَوْفِ اللَّهِ وَأَسْلَمَ النَّاسُ مِنْ خَوْفِ السَّيْفِ » . وقال عكرمة : « طوعا » من أسلم من غير حاجة « وكرها » من اضطرتته الحاجة إلى التوحيد . يدل عليه قوله عز وجل : « وَاتَيْنَا سَالَتِهِمْ مِنْ خَلْقِهِمْ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ » « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَلَقَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ » . قال الحسن : هو عموم معناه الخصوص . وعنه : « أسلم من في السموات » وتم الكلام . ثم قال : « والأرض طوعا وكرها » . قال : والكاره المنافق لا ينفعه عمله . و « طوعا وكرها » مصدران في موضع الحال . عن مجاهد عن ابن عباس قال : إذا استصعبت دابة أحدكم أو كانت تَمْشُو سَاءَ فَلْيَقْرَأْ فِي أذْنِهَا هَذِهِ الْآيَةَ : « أَفْبِيرِدِينِ اللَّهُ يَبْقُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا » إلى آخر الآية .

قوله تعالى : وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾

« غير » مفعول يتبع ، « دينا » منصوب على التفسير ، ويجوز أن ينتصب دينا يتبع ، وينصب « غير » على أنه حال من الدين . قال مجاهد والسدي : نزلت هذه الآية في الحارث بن سويد أخو الجلاس بن سويد ، وكان من الأنصار ، ارتد عن الإسلام هو وأبنا عشر معه ولحقوا بمكة كفارا ، فنزلت هذه الآية ، ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبة . وروى ذلك عن ابن عباس وغيره . قال ابن عباس : وأسلم بعد نزول الآيات . (وهو في الانحراف من الخائرين)

قال هشام : أى وهو خاسر فى الآخرة من الخاسرين ؛ ولولا هذا فترقت بين الصلاة والموصول .
وقال المازنى : الألف واللام مظهر فى الرجل . وقد تقدم هنا فى البقرة عند قوله : « وإياه
فى الآخرة بين الصالحين » .

قوله تعالى : كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ
أَرْسُولَ حَقٍّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾

قال ابن عباس : إن رجلا من الأنصار أسلم ثم ارتد فالتحق بالشرك ثم ندم ؛ فأرسل إلى
قومه : سلوا لى رسول الله صلى الله عليه وسلم هل فى من توبة ؟ فجاء قومه إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقالوا : هل له من توبة ؟ فتركت « كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ »
إلى قوله : « غَفُورٌ رَحِيمٌ » فأرسل إليه فأسلم . أخرجه النسائى . وفى رواية : أن رجلا
من الأنصار ارتد فالتحق بالمشركون ، فأرسل الله « كيف يهدي الله قوما كفروا » إلى قوله :
« إلا الذين تابوا » فبحث بها قومه إليه ، فلما قرئت عليه قال : والله ما كذبى قومى على رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أ كذبت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله ، والله عز وجل
أصدق الثلاثة ؛ فرجع تابيا ، فقيل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركه . وقال الحسن : نزلت
فى اليهود لأنهم كانوا يشركون بالنبي صلى الله عليه وسلم ويستفتحون على الذين كفروا ؛
فلما بُعث عاندوا وكفروا ، فأرسل الله عز وجل « أُولَئِكَ جَزَاءُهمُ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » . ثم قيل : « كيف » لفظة استفهام ومعناه الجحد ، أى لا يهدي الله .
ونظيره قوله : « كَيْفَ يَكُونُ لِلشَّارِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ » أى لا يكون لهم عهد ؛
وقال الشاعر :

كيف نوى على الفساش ولما • يشمل القوم غارة شعواء

أى لا نوى لى . (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) يقال : ظاهر الآية أن من كفر بعد
إسلامه لا يهديه الله ، ومن كان ظالما لا يهديه الله ؛ وقد رأينا كثيرا من المرتدين قد أسلموا

وهذا هم الله ، وكثيرا من الظالمين تابوا عن الظلم . قيل له : معناه لا يهديهم الله ما داموا مقسمين على كفرهم وظلمهم ولا يقبلون على الإسلام ؛ فاما إذا أسلموا وتابوا فقد وقفهم الله لذلك . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : **أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٧٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٩﴾**

أى إن داموا على كفرهم . وقد قلتم معنى لعنة الله والناس في «البقرة» فلا معنى لإعادته . (وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ) أى لا يؤخرون ولا يؤجلون ، ثم استثنى التائبين فقال : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » هو الحارث بن سويد كما قلتم . ويدخل في الآية بالمعنى كل من راجع الإسلام وأخلص .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٨٠﴾**

قال قتادة وعطاء الخراساني والحسن : نزلت في اليهود كفروا بعبسى والإنجيل ، ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن . وقال أبو العالية : نزلت في اليهود والنصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم بنعمته وصفته ، ثم ازدادوا كفرا بإقامتهم على كفرهم . وقيل : « ازدادوا كفرا » بالذنوب التى اكتسبوها . وهذا اختيار الطبرى ، وهى عنده في اليهود : (لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ) مشكل لقوله : « وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ مِبَادِهِ وَيَسْفُحُ عَنِ السَّيِّئَاتِ » فقيل : المعنى لن تقبل توبتهم عند الموت . قال النحاس : وهذا قول حسن ؛ كما قال عز وجل : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ » . ورؤى عن الحسن وقتادة وعطاء . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله

يقبل توبة العبد ما لم يغرغر^(١) . وسيأتى فى «النساء» بيان هذا المعنى . وقيل : « لن تقبل توبتهم »
التي كانوا عليها قبل أن يكفروا ؛ لأن الكفر قد أجبها . وقيل : « لن تقبل توبتهم » إذا
تابوا من كفرهم إلى كفر آخر ، وإنما تقبل توبتهم إذا تابوا إلى الإسلام . وقال قطرب .
هذه الآية نزلت فى قوم من أهل مكة قالوا : تبرص بمحمد ريب المؤمنين ، فإن بدا لنا الرجعة
وجئنا إلى قومنا . فأنزل الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَّنْ نَّقَبِلَ
تَوْبَهُمْ » أى لن تقبل توبتهم وهم مقيمون على الكفر ؛ فمماها توبة غير مقبولة لأنه لم يصح
من القوم عزيم ، والله عز وجل يقبل التوبة كلها إذا صح العزم .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ
مِثْلُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ اقْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ
نَاصِرِينَ ﴿٥١﴾

المثل (بالكسر) مقدار ما يملأ الشيء ، والمثل (بالفتح) مصدر ملأت الشيء ؛ ويقال :
أعطى مِلاءً ومِلاءيه وثلاثة أملايه . والواو فى « ولو اقتدى به » قيل : هى مقحمة زائدة ؛
المعنى : فلن يقبل من أحدهم مِلاء الأرض ذهباً لو اقتدى به . وقال أهل النظر من
النحويين : لا يجوز أن تكون الواو مقحمة لأنها تدل على معنى . ومعنى الآية : فلن يقبل
من أحدهم مِلاء الأرض ذهباً تبرأ ولو اقتدى به . و « ذهباً » نصب على التفسير فى قول القراء .
قال المفضل : شرط التفسير أن يكون الكلام تاماً وهو مبهم ؛ كقولك عندى عشرون ؛
فالعدد معلوم والمعدود مبهم ؛ فإذا قلت درهما فسمت . وإنما نصب التمييز لأنه ليس له ما ينخفضه
ولا ما يرفعه ، وكان النصب أخف الحركات لجعل لكل ما لا تأمل فيه . وقال الكشافى :
نصب على إحصاء من ، أى من ذهب ؛ كقوله : « أَوْعَدُ ذَلِكَ صِيَامًا » أى من صيام .
وفى البخارى ومسلم عن قتادة عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يُبَيِّمُ بِالكَافِرِ »

(١) أى ما لم تبلغ روحه حلقوه ؛ فيكون يغرغر الشيء الذى يترقر به المريض .

يوم القيامة فيقال له أرايت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت فتنتى به فيقول نعم فيقال له قد كنت سُئِلْتَ ما هو أيسر من ذلك . لفظ البخاري وقال مسلم يدل "قد كنت ، كذبت ، قد سُئِلْتَ" .

قوله تعالى : **لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُحِبُّوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** ﴿١٧﴾
فيه مسائل :

الأولى — روى الأئمة واللفظ للناسي عن أنس قال : لما نزلت هذه الآية « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » قال أبو طلحة : إن ربنا يسألنا من أموالنا فأشهدك يا رسول الله أني جملت أرضي لله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجعلها في قرابتك في حسان ابن ثابت وأبي بن كعب » . وفي الموطأ « وكانت أحب أمواله إليه يُرثها » وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها وشرب من ماء فيها طيب . وذكر الحديث . ففي هذه الآية دليل على استعمال ظاهر الخطاب وعمومه ؛ فإن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لم يفهموا من غوى الخطاب حين نزلت الآية غير ذلك . ألا ترى أبا طلحة حين سمع « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا » الآية ، لم يخرج أن يقف حتى يرد البيان الذي يريد الله أن ينفق منه عباده بآية أخرى أو مئة مئة لذلك فانهم يحبون أشياء كثيرة . وكذلك فعل زيد بن حارثة ، أحمد مما يحب إلى فارس يقال له « سبل » وقال : اللهم إني تعلم أنه ليس لي مال أحب إلي من فرسي هذه ؛ فجاء بها النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هذا في سبل الله . فقال لأسماء بن زيد « اقضه » . فكان زيداً وجده من ذلك في نفسه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قد قبلها منك » . ذكره أسد بن موسى . وأحق ابن عمر نافعاً مولاه ، وكان أعطاه فيه عبد الله بن جعفر ألف دينار . قالت صفية بنت أبي عبيد : أظنه تأول قول الله عز وجل : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » . وروى شبل عن أبي نجيح (١) برهانه .

(١) برهانه : موضع كان لأبي طلحة بالهجرة .

عن مجاهد قال : كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أن يتنازع له جارية من صبي جلولة يوم فتح مدائن كسرى ؛ فقال سعد بن أبي وقاص : فدعها عمر فأعجبته ، فقال إن الله عز وجل يقول : «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» فأعقها عمر رضى الله عنه . وروى عن الثوري أنه بلغه أن أم ولد الربيع بن خثيم قالت : كان إذا جاءه السائل يقول لى : يا فلانة أعطى السائل سكرا ، فإن الربيع يحب السكر . قال سفيان : يتأول قوله جل وعز : «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» . وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يشتري أعدالا من سكر ويتصدق بها . فقيل له : هلا تصدقت بقيمتها ؟ فقال : لأن السكر أحب إلى فأردت أن أنفق مما أحب . وقال الحسن : إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون ، ولا تدركون ما تؤملون إلا بالصبر على ما تكرهون .

الثانية - واختلفوا في تأويل « البر » فقيل الجنة ؛ من ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد وعمر بن ميمون والسدي . والتقدير لن تنالوا ثواب البر حتى تنفقوا مما تحبون . والنوال العطاء ، من قولك تولته تو بلا عطية . ونالني من فلان معروف ينالني ، أى وصل إلى . فالمعنى : لن تصلوا إلى الجنة وتعطوها حتى تنفقوا مما تحبون . وقيل : البر العمل الصالح . وفي الحديث الصحيح : ^(١) «عليكم بالصدق فإنه يدعو إلى البر وإن البر يدعو إلى الجنة» . وقد مضى في البقرة . قال عطية العوفي : يعنى الطاعة . عطاء : لن تنالوا شرف الدين والقوى حتى تصدقوا وأنتم أصحاء أشحاء تأملون العيش وتخشون الفقر . وعن الحسن : «حتى تنفقوا» هى الزكاة المفروضة . مجاهد والكأبي : هى منسوخة ، نسختها آية الزكاة . وقيل : المعنى حتى تنفقوا مما تحبون فى سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات ، وهذا جامع . وروى النسائي عن صعصعة بن معاوية قال : لقيت أبا ذر قال : قلت حدثني قال نعم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من عبد مسلم ينفق من كل ماله زوجين فى سبيل الله إلا استقبلته حجة الجنة كلهم يدعو له إلى ما عنده » . قلت : وكيف ذلك ؟ قال : إن

(١) فى قوله تعالى : « أولئك الذين صدقوا ... » ج ٢ ص ٢٤٣ طبة ثانية .

كانت إيلافييرين وإن كانت بقرا فيقريين . وقال أبو بكر الوراق : حلم بهذه الآية على التثنية . أى لن تالوا يرى بكم إلا يرىكم بإخوانكم والاتفاق عليهم من أموالكم وبجاهكم ؛ فإذا فعلتم ذلك فإلهم يرى وعطى . قال مجاهد : وهو مثل قوله : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا » . « وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » أى وإذا علم جازى عليه .

قوله تعالى : كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأْتُولُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣٧﴾ فَمِنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (حَلَالًا) أى حلالا ، ثم استثنى فقال : (إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ) وهو يعقوب عليه السلام . في الترمذي عن ابن عباس أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : « كان يسكن البدو فاشتكى عرق النساء فلم يجد شيئا يلائمه إلا لحوم الإبل والابلأنا فذلك حرمها » . قالوا : صدقت . وذكر الحديث . ويقال : نذر إن برأته ليركن أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام والشراب إليه لحوم الإبل والابلأنا . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي : أقبل يعقوب عليه السلام من حران يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه يعصو ، وكان رجلا بطشا قويا ، فلقى ملك فظن يعقوب أنه لص فماله أن يصصره ، فغصم الملك فغذ يعقوب عليه السلام ، ثم صعد الملك إلى السماء ويعقوب ينظر إليه فهاج عليه عرق النساء ، ولقي من

(١) التنا (بالفتح مقصور) : عرق يخرج من الورك فيسقطن النضجين ثم يمر بالرقوب حتى يبلغ الحافر ، فإذا سمعت الدابة أعلق غذاها يلعسن عظيمين وجرى التنا بينهما واستبان ، وإذا هزلت الدابة اضطربت النضجات وماجت الرجان (الرية الحمة البليظة) وعنى التنا (عن الصلاح) .

(٢) برأ من المرض (بالفتح) لغة أهل الحجاز . وماز العرب يقولون : برئت (بالكسر) .

ذلك بلاء شديد ، فكان لا ينام الليل من الوجع وبیت وله رُغَاءُ أى صباح ، خلف يعقوب عليه السلام إن شغاه الله جل وعزراً ألا يأكل عرثاً ، ولا يأكل طعاماً فيه عِرْقُ خمرها على نفسه ، بفعل بنوه يتبعون بعد ذلك المروق يخرجونها من اللحم . وكان سبب غز الملك نغذه أنه كان نذر إن وهب الله له اثني عشر ولداً وأتى بيت المقدس محمياً أن يذبح آخرهم فكان ذلك للخروج من نذره ، عن الضحاك .

الثانية — واختلف هل كان التحريم من يعقوب بآجتهاد منه أو باذن من الله تعالى؟ والصحيح الأول ، لأن الله تعالى أضاف التحريم إليه بقوله تعالى : « إِلَّا مَا حَرَّمَ » وإن النبي إذا أذاه اجتهد إلى شيء كان ديناً يلزمنا اتباعاً لتقرير الله سبحانه إياه على ذلك . وكما يوحى إليه ويلزم اتباعه ، كذلك يؤذن له ويعتد ، ويتعين موجب اجتهد إذا قُدر عليه ، ولولا تقدم الإذن له في تحريم ذلك ما تسوّى على التحليل والتحريم . وقد حرم نبينا صلى الله عليه وسلم المسلم على الرواية الصحيحة : « أو خادمه مارية فلم يُقرأه تحريمه ونزل » لم تحرم ما أحل الله لك على ما أتى بيانه في « التحريم » . قال اليك الطبري : فيمكن أن يقال : مطلق قوله تعالى : « لم تحرم ما أحل الله لك » يقتضى ألا يخص مارية . وقد رأى الشافعي أن وجوب الكفارة في ذلك غير معقول المعنى ، بفعلها مخصوصاً بموضع النص . وأبو حنيفة رأى ذلك أصلاً في تحريم كل مباح وأجراه مجرى اليمين .

الثالثة — قوله تعالى : (قُلْ قَاتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاَتْلَوْهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) قال ابن عباس : لما أصاب يعقوب عليه السلام عرق النسا وصف الأطباء له أن يمتنع لحوم الإبل فخرمها على نفسه . فقالت اليهود : إنما نحرم على أنفسنا لحوم الإبل لأن يعقوب حرمها وأنزل الله تحريمها في التوراة ، فأتى الله هذه الآية . قال الضحاك : نكثهم الله ورد عليهم فقال يا محمد : « قُلْ قَاتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاَتْلَوْهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » فلم يأتوا . فقال عز وجل : (فَمَنْ أَكْثَرُ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا مِنْ بَدِّ ذَلِكَ قَوْلُكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) قال الزجاج : في هذه الآية

أعظم دلالة لنبوة محمد نبيًا صلى الله عليه وسلم ، أخبرهم أنه ليس في كتابهم ، وأمرهم أن يأتوا بالثورة فأبوا ؛ يعني عرفوا أنه قال ذلك بالوحي . وقال عطية العوفي : إنما كان ذلك حراما عليهم بحجرهم يعقوب ذلك عليهم . وذلك أن إسرائيل قال حين أصابه عرق النسا : والله لئن عافاني الله منه لا يأكله لي ولد ؛ ولم يكن ذلك محزما عليهم . وقال الكلبي : لم يحزمه الله عز وجل في التوراة عليهم وإنما حرمه بعد التوراة بظلمهم وكفرهم ، وكانت بنو إسرائيل إذا أصابوا ذنبا عظميا حرم الله تعالى عليهم طعاما طيبا ، أو صب عليهم رجزا وهو الموت ؛ فذلك قوله تعالى : « فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَايِثٌ أُحْلَتْ لَهُمْ » الآية . وقوله : « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرِ » الآية - إلى قوله : « ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِبَيْعِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » .

الرابعة - ترجم ابن ماجه في سننه « دواء عرق النسا » حدثنا هشام بن عمار وراشد ابن سعيد الرمي قالوا حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا هشام بن حسان حدثنا أنس بن سيرين أنه سمع أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « شفاء عرق النسا آية شاة [أعرابية] تذاب ثم تُجَزَّأ ثلاثة أجزاء ثم يشرب على الريق في كل يوم جزء » . وأخرجه الثعلبي في تفسيره أيضا من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في عرق النسا : « تؤخذ آية كبش عربي لا صغير ولا كبير فتقطع صفارا فتخرج إهالته فتقسم ثلاثة أقسام في كل يوم حل ريق النفس ثلثا » قال أنس : فوصفته لأكثر من مائة قبرا بإذن الله تعالى . شعبة : حدثني الشيخ في زمن الحجاج بن يوسف في عرق النسا أقسم لك بالله الأعلى لئن لم تنه لأكون بك بنار ولا حلقك بموسى . قال شعبة : قد جربته بقوله ، ويسمح على ذلك الموضع .

قوله تعالى : قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٩﴾

(١) زيادة من سنن ابن ماجه . (٢) الإالة (بالكسر) : السهم المقاب ، أو كل ما يؤتم به من الأعداء .

أَيُّ قُلٍّ يَأْمُرُ بِإِجْدَادِ اللَّهِ؛ إِنْهُ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فِي التَّوْرَةِ عَظِيمًا . (فَاتَّبِعُوا إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ حَقِيقًا)
أَمْرًا بِاتِّبَاعِ دِينِهِ . (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) رَدَّ عَلَيْهِمْ فِي دَعْوَاهُمْ الْبَاطِلَ كَمَا خَدَمُوا .

قوله تعالى : **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢٥﴾** فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾

فيه خمس مسائل :

الأول - ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذرٍّ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع في الأرض قال : " المسجد الحرام " . قلت : ثم أي ؟ قال : " المسجد الأقصى " . قلت : كم بينهما ؟ قال : " أربعون عاما ثم الأرض لك مسجد فخيرا أدركتك الصلاة فصل " . قال مجاهد وقادة : لم يوضع قبله بيت . قال علي رضي الله عنه : كان قبل البيت بيوت كثيرة ، والمعنى أنه أول بيت وضع للعبادة . وعن مجاهد قال : فأنشأ المسلمون واليهود فقالت اليهود : بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة ؛ لأنه مهاجر الأنبياء وفي الأرض المقدسة . وقال المسلمون : بل الكعبة أفضل ؛ فأنزل الله هذه الآية . وقد مضى في البقرة بيان البيت وأول من بناه . قال مجاهد : خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئا من الأرض باقي سنة ، وأن قواعد تلي الأرض السابعة السفلى . وأما المسجد الأقصى فبناه سليمان عليه السلام ؛ كما ترجمه النسائي بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمر . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " أن سليمان بن داود عليه السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل ثلاثا [حجتا يصادق حكمه فأوتيته وسأل الله عز وجل ملكا

(١) المهاجر (موضع الخيم) : موضع المعجزة . (٢) رابع ج ٢ ص ١٢٠ طبع ثانية .

(٣) زيادة من سنن النسائي .

لا يبنى لأحد من بعده فأوتيه وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد ألا يأتيه أحد
لا يهزه إلا الصلاة^(١) فيه أن يخرج من خطبته كيوم ولدته أمه فأوتيه . « بقاء إشكال بين
الحديثين ؛ لأن بين إبراهيم وسليمان أمادا طويلة . قال أهل التواريخ : أكثر من ألف سنة .
فقيل : إن إبراهيم وسليمان عليهما السلام إنما جئدا ما كان أسسه غيرهما . وقد روى أن
أول من بنى البيت آدم عليه السلام كما تقدم . فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت
المقدس من بعده بأربعين عاما ، ويجوز أن تكون الملائكة أيضا بنته بعد بنائها البيت بإذن الله ؛
وكل محتمل . والله أعلم . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أمر الله تعالى الملائكة ببناء
بيت في الأرض وأنت يطوفوا به ؛ وكان هذا قبل خلق آدم ، ثم إن آدم بنى منه ما بنى
وطاف به ، ثم الأنبياء بعده ، ثم آسّم ببناء إبراهيم عليه السلام .

الثانية - قوله تعالى : (لَدَيْ رِبِّكَ) خبر « إن » واللام تركيد . و « بكة » موضع
البيت ، ومكة مائر البلد ؛ عن مالك بن أنس . وقال محمد بن شهاب : بكة المسجد ، ومكة
الحرم كله ، تدخل فيه البيوت . قال مجاهد : بكة هي مكة . فاليم على هذا مبدلة من الباء ؛
كما قالوا : طين لازب ولازم . وقاله الضحاك والمؤرج . ثم قيل : بكة مشتقة من البك
وهو الأزدحام . تباك القوم ازدحموا . وتُميت بكة لازدحام الناس في موضع طوافهم . والبك
دق العنق . وقيل : تُميت بذلك لأنها كانت تدق رقاب الجارية إذا ألدوا فيها بظلم . قال
عبدالله بن الزبير : لم يقصدها جبار قط بسوء إلا وقصه الله عز وجل . وأما مكة فقيل :
لأنها تُميت بذلك لأنها تُمك المخ من العظم مما ينال فاصدها من المشقة ؛ من قولهم : مكّئت
العظم إذا أخرجت ما فيه . ومكّ الفصيل صرع أمه وامته إذا امتص كل ما فيه من اللبن
وشربه . قال الشاعر :

• مكّت فلم تبق في أجوافها دورا •

وقيل : تُميت بذلك لأنها تُمك من ظلم فيها ، أي تهلكه وتنقصه . وقيل : تُميت بذلك
لأن الناس كانوا يُمكون ويضحكون فيها ؛ من قوله : « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَامَةً

(١) الهز : الدفع . (٢) الرقص : الكسر والدق .

وَتَصْدِيقَةً أَى تَصْدِيقًا وَتَصْفِيحًا. وهذا لا يوجب التصريف؛ لأن «مَكَّة» ثَنَاءٌ مُضَاعَفٌ، و«مَكَّة» ثَلَاثَى مَعْل.

الثالثة — قوله تعالى: ﴿مُبَارَكًا﴾ جملة مُبَارَكًا لِمُضَاعَفِ الْعَمَلِ فِيهِ؛ فَالْبَرَكَةُ كَثْرَةُ الْخَيْرِ. وَنُصِبَ عَلَى الْحَالِ مِنَ الْمَضْمَرِ فِي «وُضِعَ» أَوْ بِالظَّرْفِ مِنْ «بَكَّة» . الْمَعْنَى: الَّذِي اسْتَقْبَلَتْهُ بَرَكَاتُ اللَّهِ. وَيُجُوزُ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ «مُبَارَكٌ»؛ عَلَى أَنْ يَكُونَ خَبْرًا ثَانِيًا، أَوْ عَلَى الْبَدَلِ مِنَ الَّذِي، أَوْ عَلَى إِحْتِمَارِ مُبْتَدَأٍ ﴿وَهْدَى لِلْعَالَمِينَ﴾ عَطَفَ عَلَيْهِ، وَيَكُونُ بِمَعْنَى وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ. وَيُجُوزُ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ «مُبَارَكٌ» بِالْخَفْضِ يَكُونُ تَعْنًا لِلْبَيْتِ.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ رَفَعَ بِالْإِبْتِدَاءِ أَوْ بِالصَّفَةِ. وَقَرَأَ أَهْلُ مَكَّةَ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَبِجَاهِدٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ «آيَةً بَيِّنَةً» عَلَى التَّوْحِيدِ، بِمَعْنَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ وَحْدَهُ. قَالُوا: أَثَرُ قَدِيمِهِ فِي الْمَقَامِ آيَةُ بَيِّنَةٌ. وَفَسَّرَ بِجَاهِدٍ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ بِالْحَرَمِ كُلِّهِ؛ فَهَضَبَ إِلَى أَنْ مِنْ آيَاتِهِ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ وَالرُّكْنَ وَالْمَقَامَ. وَالْبَابُ الْقَوْنُ بِالْجَمْعِ. أَرَادُوا مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَالْجَمْعَ الْأَسْوَدَ وَالْحَطِيمَ وَزَمَنَ وَالْمَشَاعِرَ كُلَّهَا. قَالَ: أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ: مَنْ قَرَأَ «آيَاتِ بَيِّنَاتٍ» قَرَأَهُنَّ أَيْنَ؛ لِأَنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنَ الْآيَاتِ. وَمِنْهَا أَنْ الطَّائِرَ لَا يَلْوِي الْبَيْتَ صَحِيحًا. وَمِنْهَا أَنْ الْحَاجَّ يَطْلُبُ الصَّيْدَ فَإِذَا دَخَلَ الْحَرَمَ تَرَكَهُ. وَمِنْهَا أَنْ الْفَيْثَ إِذَا كَانَ نَاحِيَةَ الرُّكْنِ الْإِمَامِيِّ كَانَ الْخُصْبَ بِالْإِيمَنِ، وَإِذَا كَانَ بِنَاحِيَةِ الشَّامِ كَانَ الْخُصْبَ بِالشَّامِ، وَإِذَا عَمَّ الْبَيْتَ كَانَ الْخُصْبَ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ. وَمِنْهَا أَنْ الْجَمَارَ عَلَى مَا يُزَادُ عَلَيْهَا تُرَى عَلَى قَدَرٍ وَاحِدٍ. وَالْمَقَامُ مِنْ قَوْلِهِمْ: قُتِّ مَقَامًا، وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُقَامُ فِيهِ. وَالْمَقَامُ مِنْ قَوْلِكَ: أَقُتُّ مَقَامًا. وَقَدْ مَضَى هَذَا فِي الْبَقَرَةِ، وَمَضَى الْخِلَافُ أَيْضًا فِي الْمَقَامِ وَالصَّحِيحِ مِنْهُ. وَارْتَضَعَ الْمَقَامَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَالْخَبَرِ مَحْذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ مِنْهَا مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ؛ قَالَهُ الْأَخْفَشُ. وَحَكَى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ أَنَّهُ قَالَ: «مَقَامٌ» بَدَلٌ مِنْ «آيَاتٍ». وَفِيهِ قَوْلُ ثَالِثٍ بِمَعْنَى هِيَ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ. وَقَوْلُ الْأَخْفَشِ مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ. كَمَا قَالَ زُهَيْرٌ:

لَهَا مَنَاعٌ وَأَعْوَانٌ غَدَوَاتٌ بِهِ * قَتَبَ وَغَرَّبَ إِنَّمَا أَثَرُغَ أَنْسَحَقَا
 أى مضى وبعد سيلانه . وقول أبي العباس : إن مقاما بمعنى مقامات ؛ لأنه مصدر . قال الله تعالى : « خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ » . وقال الشاعر :
 * إن العيون التي في طرئها مرض *
 أى في أطرافها . ويقوى هذا الحديث المروى " الجعجعة مقام إبراهيم " .

الخامسة - قوله تعالى : (وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا) قال قتادة : ذلك أيضا من آيات الحرم . قال النحاس : وهو قول حسن ؛ لأن الناس كانوا يُحفظون من حواله ، ولا يصل إليه جبار ، وقد وصل إلى بيت المقدس ونُترب ، ولم يوصل إلى الحرم . قال الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَعَلْ رَبُّكَ يَأْتِي الْجِبَالِ الْقِيلِ » . وقال بعض أهل المعاني : صورة الآية خبر ومعناها أمر ، تقديرها ومن دخله فأمّنه ؛ كقوله : « فَلَا رَقَّتْ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحُجَّ » أى لا ترفؤوا ولا تسفؤوا ولا تجادلوا . ولهذا المعنى قال الإمام السابق الثمان بن ثابت : من اقترف ذنبًا واستوجب به حذاء ثم لجأ إلى الحرم عصمه ، [لقوله تعالى :] « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » ؛ فأوجب الله سبحانه الأمن لمن دخله . وروى ذلك عن جماعة من السلف منهم ابن عباس وغيره من الناس . قال ابن العربي : « وكل من قال هذا فقد وهم من جهتين : إحداهما أنه لم يفهم من الآية أنها خبر عما مضى ، ولم يقصد بها إثبات حكم مستقبل . الثاني أنه لم يعلم أن ذلك الأمر قد ذهب وأن القتل والقتال قد وقع بعد ذلك فيها ، وخبر الله لا يقع بخلاف محبته ؛ فدل ذلك على أنه كان في الماضي هذا . وقد ناقض أبو حنيفة قال : إذا لجأ إلى الحرم لا يُطعم ولا يُسقى ولا يُعامل ولا يُكلم حتى يخرج فاضطروه إلى الخروج وليس يصح معه أمن . وروى عنه أنه قال : يقع القصاص في الأطراف في الحرم ولا أئمن أيضا مع هذا » .

(١) قوله : لها مناع ، أى لهذه الناقة التي يسبق عليها . والتعب (بالكسر) : جميع أداة السائية من أعلامها وجالها . والسائية : ما يسبق عليه الزرع والحيوان من بعر وغيره . والفرب : الدلو العظيمة .

(٢) حجة ابن العربي في أحكام القرآن له : « ... فاضطراره إلى الخروج ليس يصح مع أمن »

والجمهور من العلماء على أن الحدود تُقام في الحرم ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل ابن خَطْلٍ^(١) وهو متعلق بأستار الكعبة .

قلت : وروى الثوري عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس : من أصاب حداً أقیم عليه فيه ، وإن أصاب في الحِلِّ ولجا إلى الحرم لم يُكَلِّمْ ولم يبايع حتى يخرج من الحرم فيقام عليه الحد ؛ وهو قول الشعبي . فهذه حجة الكوفيين ، وقد فهم ابن عباس ذلك من معنى الآية ، وهو خبر الأئمة وعالمها . والصحيح أنه قصد بذلك تعديد النعم على كل من كان بها جاهلاً ولما منكر من العرب ؛ كما قال تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » ؛ فكانوا في الجاهلية من دخله ولجا إليه آمين من الفارة والقتل ؛ على ما يأتي بيانه في «المائدة» إن شاء تعالى . قال قتادة : ومن دخله في الجاهلية كان آمناً . وهذا حسن . وروى أن بعض المحدثين قال لبعض العلماء : أليس في القرآن « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » فقد دخلناه وقملنا كذا وكذا فلم يأمن من كان فيه ؟ قال له : ألسنت من العرب ! ما الذي يريد القائل من دخل دارى كان آمناً ؟ أليس أن يقول لمن أطاعه : كُفِّ عنه فقد أتمته وكففت عنه ؟ قال بلى . قال : فكذلك قوله « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » . وقال يحيى بن جعدة : معنى « ومن دخله كان آمناً » يعني من النار .

قلت : وهذا ليس على عمومته ؛ لأن في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري حديث الشفاعة الطويل «تَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشِدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِقْضَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ يَقُولُونَ رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَتَحِبُّونَ فَيُقَالُ لِمَ أَخْرَجُوا مِنْ عِرْقَتِمْ » الحديث . وإنما يكون آمناً من النار من دخله لقضاء النُكْ مُعْظِماً له عارفاً بحقه متقرباً إلى الله تعالى . قال جعفر الصادق : من دخله على الصفاء

(١) ابن خطل (بالتحريك) هو عبد الله بن خطل . وجل من بنى بن غالب ، وإنما أمر بقتله لأنه كان مسلماً قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم صغافاً وبست معه رجلاً من الأنصار وكان معه مولى يجنده وكان مسلماً فزله فزلا وأمر المولى أن يذبح له نسيماً فيصنع له طعاماً ففام ؛ فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً ففدا عليه قتله ثم ارتد مشركاً . راجع تاريخ الطبري وسيرة ابن هشام .

كما دخله الأنبياء والأولياء كان آتانا من صفاته . وهذا معنى قوله عليه السلام : " مَنْ جَحَ قَلَمٌ يَرْثُ وَلَمْ يَفْسُقْ نَجَحَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ وَالْجِ الْمَبْرُورِ لَيْسَ لَهُ جَزَاءُ إِلَّا الْجَنَّةُ " . قال الحسن : الجح المبرور هو أن يرجع زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة . وأنشد :

يَا صُكْبَةَ اللَّهِ دَعْوَةُ الْأَلْمَى • دَعْوَةُ مُسْتَشْعِرٍ وَمُحْتَاجٍ
وَدَعِ أَحِبَّاءَهُ وَمُسْكِنَهُ • بَقَاءَ مَا يَنْبَغُ خَائِفٍ رَاجٍ
إِنْ يَقْبَلِ اللَّهُ صَعْبَهُ كَرَمًا • نَجَاءَ وَالْأَفْلِسِ بِالْجَانِحِ
وَأَنْتَ مَنْ تُرَجَى شَفَاعَتُهُ • فَأَعْطِفْ عَلَى وَافِدِ بْنِ حِمَاجٍ

وقيل : المعنى ومن دخله عام عمرة القضاء مع محمد صلى الله عليه وسلم كان آمنا . دليله قوله تعالى : « لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ » . وقد قيل : إن « مَنْ » هاهنا لمن لا يسقل ، والآية في أمان الصبيد ؛ وهو شاذ . وفي التزويل : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُوتُ عَلَى بَطْنِهِ » الآية . قوله تعالى : (وَرَبِّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) فيه تسع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَرَبِّهِ) اللام في قوله « وَرَبِّهِ » لام الإيجاب والإلزام ، ثم أكد بقوله تعالى : (عَلَى) التي هي من أؤكد ألفاظ الوجوب عند العرب ؛ فإذا قال العربي : لفلان على كذا ؛ فقد وكده وأوجبه . فذكر الله تعالى الجح بأؤكد ألفاظ الوجوب تأكيداً لحقه وتنظيلاً لحرمته . ولا خلاف في فريضته ، وهو أحد قواعد الإسلام ، وليس يجب إلا مرة في العمر . وقال بعض الناس : يجب في كل خمسة أعوام ؛ وروى في ذلك حديثاً أسنده إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والحديث باطل لا يصح ، والإجماع صاذ في وجوبهم .

قلت : وذكر عبد الرزاق حدثنا سفيان عن العلاء بن المسهب عن أبيه عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يَقُولُ الرَّبُّ جَلَّ وَعَزَّ إِنْ عَبْدًا أَوْسَعْتُ عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ فَلَمْ يَدِّ إِلَى كُلِّ أَرْبَعَةِ أَعْوَامٍ مَقْرُومٌ " مشهور من حديث العلاء بن المسهب بن رافع الكامل الكوفي من أولاد المحدثين ، روى عنه غير واحد ، منهم من قال : في خمسة أعوام ،

ومنه من قال : عن الملاء عن يونس بن حيّان عن أبي سعيد في غير ذلك من الاختلاف .
 وأنكرت المُلَمِّدَةُ الخُفَّالَت : إن فيه تجريدَ الثَّيَابِ وذلك يخالف الحياة ، والسَّيِّئُ وهو يناقض
 الوَقَارَ ، وروى الجار لغير مَرَمِيٍّ وذلك بضادّ المعن ، فصاروا إلى أن هذه الأفعال كلّها باطلةٌ
 إذ لم يعرفوا لها حِكْمَةً ولا عِلَّةً ، وجعلوا أنه ليس من شرط الموتى منع العبد أن يفهم المقصود
 بجميع ما يأمره به ولا أن يطلع على فائدة تكليفه ، وإنما يتعين عليه الامتثال ، ويلزمه الاتقياد .
 من غير طلب فائدة ولا سؤال عن مقصود . ولهذا المعنى كان عليه السلام يقول في تليته :
 «لَيْكَ حَقًّا حَقًّا تَعْبُدًا وَرِقًّا لَيْكَ إِلَهَ الْحَقِّ» . وروى الأئمة عن أبي هريرة قال : خطبنا
 رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «أيها الناس قد فرض الله عليكم الخُجُوجَ» . فقال رجل :
 كل عام يا رسول الله ؟ فسكت ، حتى قالها ثلاثا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لوقلتُ
 نعم لوجبت ولكم استطعمت» ثم قال : «تذرون ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم
 واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»
 لفظ مسلم . فبين هذا الحديث أن الخطاب إذا توجه على المكلفين بفرض أن يبكي منه فعل مرة
 ولا يقتضي التكرار ، خلافا للاستاذ أبي إسحاق الأسفراييني وغيره . وثبت أن النبي صلى الله
 عليه وسلم قال له أصحابه : يا رسول الله ، أجبنا لما هنا أم للأبد ؟ فقال : «لا بل للأبد» .
 وهذا نص في الرد على من قال : يجب في كل خمس سنين مرة . وقد كان الخُجُجُ معلوما عند
 العرب مشهورا لديهم ، وكان ما يُرْعَبُ فيه لأسواقها وتبريرها ونعيمها ، فلما جاء الإسلام
 خُوطِبُوا بما علموا وأُمرُوا بما عَرَفُوا . وقد حجَّ النبي صلى الله عليه وسلم قبل حج الفرض ، وقد
 وقف بمرقة ولم يغير من شَرع إبراهيم ما غيروا ، حتى كانت قریش تحف بالمشتر الحرام
 ويقولون : نحن أهل الحرم فلا نخرج منه ، ونحن الخمس . حسب ما تقدم بيانه في «البقرة» .

قلت : من أغرب ما رأيته أن النبي صلى الله عليه وسلم حج قبل المعجزة مرتين وأن
 الفرض سقط عنه بذلك ؛ لأنه قد أجاب نداء إبراهيم حين قيل له : «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ

(١) التبر : العالة . (٢) الخمس جمع الأحس ، وهم قریش ومن دلت قریش وكلمة وجدة نوس ؛
 سيرا حسا لأنهم نسوا في ذنبهم ، أي تشددوا . (٣) راجع ج ٢ ص ٣٤٥ طبة ثانية .

بالج . قال النبي صلى الله عليه وآله : « هذا يومنا » فإنه إذا ورد في شره : « والله على الناس حج البيت » فلا بد من وجوبه عليه بحكم الخطاب في شره . وثان قيل : إنما خاطب من لم يحج ، كان تحكما وتخصيصا لا دليل عليه ، ويلزم عليه ألا يجب بهذا الخطاب على من حج على دين إبراهيم ، وهذا في غاية البعد .

الثانية - ودل الكتاب والسنة على أن الحج على التراخي لا على الفور ، وهو تحصيل منعب مالك فيها ذكر ابن خزيمة متناد ، وهو قول الشافعي ومحمد بن الحسن وأبي يوسف في رواية عنه . وذهب بعض البغداديين من المتأخرين من المالكيين إلى أنه على الفور ، ولا يجوز تأخيره مع القدوة عليه ، وهو قول داود . والصحيح الأول ، لأن الله تعالى قال في سورة الحج : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا » وسورة الحج مكية . وقال تعالى : « والله على الناس حج البيت » الآية . وهذه الآية نزلت عام أحد بالمدينة سنة ثلاث من الهجرة ولم يحج رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وسلم إلى سنة عشر . أما السنة فغلبت حشام بن عتبة السعدي من بني سعد بن بكر فقيم على النبي صلى الله عليه وآله عليه وسلم فسأله عن الإسلام فذكر الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج . رواه ابن عباس وأبو هريرة وأنس ، وفيها كلها ذكر الحج ، وأنه كان مفروضا ، وحديث أنس أحسنها سياقا وأتمها . واختلف في وقت فرضيته ؛ فقيل : سنة خمس . وقيل : سنة سبع . وقيل : سنة تسع ؛ ذكره ابن هشام عن أبي عبيدة الواقدي عام الخندق بعد أنصراف الأحزاب . قال ابن عبد البر : ومن الدليل على أن الحج على التراخي لإجماع العلماء على ترك تقييد القادر على الحج إذا أخره العام والأمين ونحوهما ، وأنه إذا حج من بعد أعوام من حين استطاعته فقد أدى الحج الواجب عليه في وقته . وليس هو عند الجميع كمن فاتته الصلاة حتى خرج وقتها ففوضها بعد خروج وقتها ، ولا كمن فاتته صيام رمضان لمرض أو سفر ففوضه ، ولا كمن أفسد حجه ففوضه . فلما أجمعوا على أنه لا يقبل لمن حج بعد أعوام من وقت استطاعته : أنت فاض لنا واجب عليك ؛ فلما أن وقت الحج موع في وقتنا وأنه على التراخي لا على الفور . قال أبو عمر : كل من قال بالتراخي لا يحد في ذلك حدا ؛ إلا ما روى عن محمد بن سعد عن رجل عن الرجل

يحد ما يمتح به فيؤخر ذلك إلى سبعين كثيرة مع قدرته على ذلك هل يُنصق بتأخير الحج وتزده شهادته ؟ قال : لا وإن مضى من عمره ستون سنة ، فإذا زاد على السنين مُنق وتزدت شهادته . وهذا توقيف وحّد ، والحدود في الشرع لا تؤخذ إلا عن له أن يُشرع .

قلت : وحكاية ابن خزيمة من أبن القاسم . قال ابن القاسم وغيره : إن آخره ستين سنة لم يخرج ، وإن آخره بعد الستين خرج ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين » وقال من يجاوزها « فكانه في هذا المشرق قد يتضابق عليه الخطاب . قال أبو عمر : وقد يخرج بعض الناس بقوله صلى الله عليه وسلم : « معترك أمتي من الستين إلى السبعين » وقال من يجاوز ذلك . « ولا حجة فيه ؛ لأنه كلام خرج على الأغلب من أعمار أئمة لو صح الحديث . وفيه دليل على التوسعة إلى السبعين لأنه من الأغلب أيضا ، ولا ينبغي أن يقطع بتفسيق من تحت عدلته وأمانته بمثل هذا من التأويل الضعيف . وبالله التوفيق .

الثالثة — أجمع العلماء على أن الخطاب بقوله تعالى : (وَفِيهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ) عام في جميعهم مُستمر على جملتهم . قال ابن العربي : « وإن كان الناس قد اختلفوا في مطلق العمومات ، بيد أنهم اتفقوا على حل هذه الآية على جميع الناس ذكرهم وأنتاهم ، خلا الصغير فإنه خارج بالإجماع عن أصول التكليف ، وكذلك العبد لم يدخل فيه ؛ لأنه أخرجه عن مطلق العموم قوله تعالى : « مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » والعبد غير مستطيع ؛ لأن السيد يمنعه لحقوقه عن هذه العبادة . وقد قدم الله سبحانه حق السيد على حقه رِقًا بالعباد ومصلحة لهم . ولا خلاف فيه بين الأمة ولا بين الأئمة ، فلا تُعرف بما لا تُعرف ، ولا دليل عليه إلا الإجماع . قال ابن المنذر : أجمع عامة أهل العلم إلا من شذ منهم ممن لا يعد خلافا على أن الصبي إذا حج في حال صغره والعبد إذا حج في حال رقه ثم بلغ الصبي وعق العبد كان عليهما حجة الإسلام إذا وجدا إليها سبيلا . وقال أبو عمرو : خالف أبو داود جماعة فقهاء الأمصار وأئمة الأثر في الملوك وأنه عندنا مخاطب بالبحر ، وهو عند جمهور العلماء خارج من الخطاب العام في قوله تعالى : (وَفِيهِ عَلَى

النَّاسِ حِجَّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» بدليل عدم التصرف، وأنه ليس له أن يحج بغير إذن سيده؛ كما خرج من خطاب الجمعة وهو قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ» الآية - عند عامة العلماء إلا من شذ. وكذا من خطاب إيجاب الشهادة، قال الله تعالى: «وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا» فلم يدخل في ذلك العبد. وكما جاز خروج الصبي من قوله: «وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ رَءِىْسُ الْبَيْتِ» وهو من الناس بدليل رفع القلم عنه. وخرجت المرأة من قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ» وهى ممن شمله اسم الإيمان، وكذلك خروج العبد من الخطاب المذكور. وهو قول فقهاء الحجاز والعراق والشام والمغرب، ومثلهم لا يجوز عليهم تحريف تأويل الكتاب، فإن قيل: إذا كان حاضر المسجد الحرام وأذن له سيده فلم يلبزه الحج؟ قيل له: هذا سؤال على الإجماع وربما لا يُعَلَّل ذلك، ولكن إذا ثبت هذا الحكم على الإجماع استدلتنا به على أنه لا يُعْتَدُ بحجته في حال الرق عن حجة الإسلام؛ وقد روى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أَيُّمَا صَبِيٍّ حَجَّ ثُمَّ أَدْرَكَ فَعَلِيهِ أَنْ يَحِجَّ حِجَّةً أُخْرَى وَأَيُّمَا أَعْرَابِيٍّ حَجَّ ثُمَّ هَابَرَ فَعَلِيهِ أَنْ يَحِجَّ حِجَّةً أُخْرَى وَأَيُّمَا عَبْدٍ حَجَّ ثُمَّ اعْتَقَ فَعَلِيهِ أَنْ يَحِجَّ حِجَّةً أُخْرَى». قال ابن العربي: «وقد تساهل بعض علمائنا فقال: إنما لم يثبت الحج على العبد وإن أذن له السيد لأنه كان كافرا في الأصل ولم يكن حُجَّ الكافر معتداً به، فلما ضُرب عليه الرق ضربة مؤبداً لم يُخاطَب بالحج؛ وهذا فاسد من ثلاثة أوجه فاعلموه. أحدها - أن الكفار عندنا مخاطَبون بفروع الشريعة، ولا خلاف فيه في قول مالك. الثانى - أن سائر العبادات تلزمه من صلاة وصوم مع كونه رقيقاً، ولو فعلها في حال كفره لم يُعْتَدَ بها، فوجب أن يكون الحج مثلها. الثالث - أن الكُفْر قد ارتفع بالإسلام فوجب ارتفاع حكمه. فتبين أن للمعتد ما ذكرناه من تقدم حقوق السيد». والله الموفق.

الرابعة - قوله تعالى: «مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» «مَنْ» في موضع خفض على بدل البعض من الكل؛ هذا قول أكثر الصَّوِّين. وأجاز الكسائى أن يكون «مَنْ» في موضع رفع يحج، التقدير أن يحج البيت مَنْ. وقبله هو شرط. و«استطاع» في موضع جزم، والجواب

مخزوف، أى من استطاع إليه سبيلا فيه الحج . روى الدارقطني عن ابن عباس قال : قيل
يا رسول الله " الحج كل عام، قال : " لا بل حجة "؟ قيل : فما السبيل، قال : " الزاد والراحلة " .
وزياده عن أنس وابن مسعود وابن عمر وجابر وعائشة وعمر بن شعيب عن أبيه عن جده، وعن
علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « والله على الناس حج البيت من
أستطاع إليه سبيلا » قال فيمثل عن ذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أن تحمد ظنهم
بعبير " . وأخرج حديث ابن عمر أيضا ابن ماجه في سننه ، وأبو عيسى الترمذي في جامعه
وقال : « حديث حسن ، والعمل عليه عند أهل العلم أن الرجل إذا ملك رادا وراحلة وجب
عليه الحج . وإبراهيم بن يزيد هو الخوزي المكي ، وقد تكلم فيه بعض أهل الحديث من قبل
يخفذه » . وأخرجه عن وكيع والدارقطني عن سفيان بن سعيد قالوا : حدثنا إبراهيم بن يزيد
عن محمد بن عباد عن ابن عمر قال : قام رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله،
ما يوجب الحج؟ قال : " الزاد والراحلة " قال : يا رسول الله، فما الحاج؟ قال : " الشئ الثقيل " .
وقام آخر فقال : يا رسول الله وما الحج؟ قال : " المَجِّ والتَّجُّ " . قال وكيع : يعني بالمج العجيج
بالتلية والتج نحر البدن؛ لفظ ابن ماجه . وعمن قال إن الزاد والراحلة شرط في وجوب الحج :
عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وعبد الله بن عباس والحسن البصري وسعيد بن جبير وعطاء
ومجاهد . وإليه ذهب الشافعي والثوري وأبو حنيفة وأصحابه وأحمد وإسحاق وعبد العزيز بن
أبي سلمة وابن حبيب ، وذكر عديس مثله عن مَحْنُون . قال الشافعي : الاستطاعة وجهان :
أحدهما أن يكون مستطيعا يسدنه واجدا من ماله ما يسلته الحج . والثاني أن يكون معضوبا^(١)
في بدنه لا يثبت على حركته وهو قادر على من يطعمه إذا أمره أن يبيع عنه بأجرة وبغير أجرة ،
على ما يأتي بيانه . أما المستطيع يسدنه فإنه يلزمه فرض الحج بالكتاب بقوله عز وجل :
« من استطاع إليه سبيلا » . وأما المستطيع بالمبال قبيل لزمه فرض الحج بالنسبة بحديث
لتحميمية على ما يأتي . وأما المستطيع بنفسه وهو القوي الذي لا تلحقه مشقة غير محتملة

(١) هو أحد رجال مذهب حديث ابن عمر . (٢) الثمت : حديد الشعر . والثقل : الذي قد ترك استعمال الطيب .

(٣) في بعض الأصول : « ابن حيدوس » . (٤) - المضروب : الضعيف .

في الركوب على الراحلة؛ فإن هذا إنما ملك الزاد والراحلة لزمه فرض الحج بنفسه، وإن عدم الزاد والراحلة أو أحدهما سقط عنه فرض الحج؛ فإن كان قادراً على المشي مطيقاً له ووجد الزاد أو قدر على كسب الزاد في طريقه بصنعة مثل الخرز والحجارة أو نحوهما فالاستحباب له أن يمشي ماشياً رجلاً كان أو امرأة. قال الشافعي: والرجل أقل عُذراً من المرأة لأنه أقوى. وهذا عنهم على طريق الاستحباب لا على طريق الإيجاب. فأما إن قدر على الزاد بمسألة الناس في الطريق عجزت له أن يمشي لأنه يصير كلاً على الناس. وقال مالك بن أنس رحمه الله: إذا قدر على المشي ووجد الزاد فعليه فرض الحج، وإن لم يجد الراحلة وقدر على المشي ففطر؛ فإن كان مالكا للزاد وجب عليه فرض الحج، وإن لم يكن مالكا للزاد ولكنه يقدر على كسب حاجته منه في الطريق ففطر أيضاً؛ فإن كان من أهل المروءات ممن لا يكتسب بنفسه لا يجب عليه، وإن كان ممن يكتسب كفايته بتجارة أو صناعة لزمه فرض الحج، وهكذا إن كانت عادته مسألة الناس لزمه فرض الحج. وكذلك أوجب مالك على المطبق المشي الحج، وإن لم يكن معه زاد وراحلة. وهو قول عبد الله بن الزبير والشعبي وعكرمة. وقال الضحاك: إن كان شاباً قوياً صحيحاً ليس له مال فعليه أن يجر نفسه بأكله أو عقبه حتى يقضي حجه، فقال له قائل: كَفَّ الله الناس أن يمشوا إلى البيت؟ قال: لو أن لأحدهم ميراً بمكة أكلن ثاركة؟! بل ينطلق إليه ولو حبواً، كذلك يجب عليه الحج. واحتج هؤلاء بقوله عن رجل: «وَأَنْتَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا» أي مشاة. قالوا: ولأن الحج من عبادات الأبدان من فرائض الأعين، فوجب ألا يكون الزاد من شروط وجوبها ولا الراحلة كالصلاة والصيام. قالوا: ولو صح حديث الخواري الزاد والراحلة لجنأه على عموم الناس والغالب منهم في الأقطار البعيدة. ونخرج مطلق الكلام على غالب الأحوال كثيراً في الشريعة وفي كلام العرب وأشعارها. وقد روى ابن وهب وابن القاسم وأشهب عن مالك أنه سئل عن هذه الآية فقال: الناس في ذلك

(١) كذا في جميع نسخ الأصل. والقي في تفسير الطبري: «بأكله وعقه حتى...» وفي تفسير القصر الرازي والبر لأبي حنبل: «... بأكله حتى...»

على قدر طاعتهم وبُسرهم وجَلَّاهم . قال أنسب لمالك : أهو الزاد والراحلة ؟ . قال : لا والله ، ما ذلك إلا على قدر طاقة الناس ، وقد يجد الزاد والراحلة ولا يقدر على السير ، وأجر يقدر أن يمشي على رجله .

الخامسة - إنا وجدت الاستطاعة وتوجه فرض الحج فرض بائع كالنحر بمعية عن الخروج حتى يؤدى الدين ؛ ولا خلاف في ذلك . أو يكون له عيال يحب عليه نفقتهم فلا يلزمه الحج حتى يكون لهم نفقتهم مدة غيبته لذهابه ورجوعه ، لأن هذا الإنفاق فرض على الفور والحج فرض على التراخي فكان تقديم العيال أولى . وقيل قال النبي صلى الله عليه وسلم : " كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت " . وكذلك الأبوان يخاف الضيعة عليهما وعدم العرض في التلطف بهما ، فلا سبيل له إلى الحج ؛ فإن متناه لأجل الشوق والوحشة فلا يلتفت إليه . والمرأة يمنعا زوجها ، وقيل لا يمنعا ، والصحيح المنع ؛ لا سيما إذا قلنا إن الحج لا يلزم على الفور والبحر لا يمنع الوجوب إذا كان غايه السلامة - كما تقدم بيانه في البقرة - ويعلم من نفسه أنه لا يمتد . فإن كان الغالب عليه القطب أو المبد حتى يبطل الصلاة فلا . وإن كان لا يجد موضعا لسجوده لكثرة الراكب وضيق المكان فقد قال مالك : إذا لم يستطع الركوع والسجود إلا على ظهر أخيه فلا يركبه . ثم قال : أركب حيث لا يصل ! وبلى لمن ترك الصلاة ! . ويسقط الحج إذا كان في الطريق عدو يطلب الأقمس أو يطلب من الأهل مال لم يتحدد بمقدار مخصوص أو يتحدد بقدر تحجف . وفي سقوطه بذر التحجف خلاف . وقال الشافعي : لا يهوى جبة ويسقط فرض الحج . ويجب على المسئول إذا كانت تلك عادته وغلب على ظنه أنه يجد من يعطيه . وقيل لا يجب ، على ما تقدم من مراعاة الاستطاعة .

السادسة - إذا زالت الموانع ولم يكن عنده من الباقى ما يحتاج به وعنده عروض فيلزمه أن يبيع من عروضه للبيع ما يباع عليه في الدين . وسئل ابن القاسم عن الرجل تكون له القرية

(١) وأبوع ٢ ص ١٩٥ طبة ثانية .

(٢) المائد : الذي يركب البحر حتى يسه من بين ما .

(٣) الناضح في الغرام والدنانير .

البحر حتى يداويه ويكاد يفتنه طيه .

ليس له غيرها أيدها في حجة الإسلام ويترك ولده ولا شيء لم يعيشون به . قال : نعم ، ذلك عليه
ويترك ولده في الصدقة . والصحيح القول الأول ؛ لقوله عليه السلام : " كفى بالمرء إثماً أن
يُضَيِّعَ مَنْ يَمُوتُ " وهو قول الشافعي . والظاهر من مذهبه أنه لا يلزم الحج إلا من له ما يكفيه
من النفقة ذاهباً وراجعاً - قاله في الإملاء - وإن لم يكن له أهل وعيال . وقال بعضهم : لا يستبر
الرجوع لأنه ليس عليه كبير مشقة في تركه القيام ببلده ؛ لأنه لا أهل له فيه ولا عيال وكل البلاد
له وطن . والأول أصوب ؛ لأن الإنسان يستوحش لفراق وطنه كما يستوحش لفراق سكنه .
ألا ترى أن الإكر إذاً ثابلاً وعُرباً عن بلده سواء كان له أهل أو لم يكن . قال الشافعي في الأم :
إذا كان له مسكن وخدام وله نفقة أهله بقدر غيخته يلزمه الحج . وظاهر هذا أنه اعتبر أن يكون
مال الحج فاضلاً عن الخادم والمسكن ؛ لأنه قدّمه على نفقة أهله ، فكانه قال : بعد هذا كله .
وقال أصحابه : يلزمه أن يبيع المسكن والخدام ويشتري مسكناً وخداماً لأهله . فإن كان له
بضاعة يتجزئها ويربحها قدر كفايته وكفاية عياله على الدوام ، ومتى أنفق من أصل البضاعة
أختل عليه وربحها ولم يكن فيه قدر كفايته ، فهل يلزمه الحج من أصل البضاعة أم لا ؟ قولان :
الأول للجمهور وهو الصحيح المشهور ؛ لأنه لا خلاف في أنه لو كان له عقار تكفيه غلته لزمه أن
يبيع أصل العقار في الحج ، فكذلك البضاعة . وقال ابن شريح : لا يلزمه ذلك ويبقى البضاعة
ولا يبيع من أصلها ؛ لأن الحج إنما يجب عليه في الفاضل من كفايته . فهذا الكلام في الاستطاعة
بالبدين والمال .

السابعة - المريض والمعصوب ، والمعصوب القطع ومنه سُمي السيف عَصْباً ، وكان من
انتهى إلى ألا يقدر أن يستمسك على الزاحلة ولا يثبت عليها بمنزلة من قُطعت أعضاؤه إذ لا يقدر
على شيء . وقد اختلف العلماء في حكمهما بعد إجماعهم أنه لا يلزمهما المسير إلى الحج ؛ لأن الحج
إنما فرضه الله على المستطيع إجماعاً ، والمريض والمعصوب لا استطاعة لهما . فقال مالك : إذا
كان معصوباً سقط عنه فرض الحج أصلاً ، سواء كان قادراً على من يحج عنه بالمال أو بشيء
المال لا يلزمه فرض الحج . ولو وجب عليه الحج ثم عُصِبَ ورَّين سقط عنه فرض الحج ؛

ولا يجوز أن يُحج عنه في حال حياته بحال ، بل إن أوصى أن يُحج عنه بعد موته حُج عنه من الثالث ، وكان تطوعاً واحتج بقوله تعالى : « وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » فأخبر أنه ليس له إلا ما سعى . فمن قال : إن له سعى غيره فقد خالف ظاهر الآية . وبقوله تعالى : « وَفَلْيَعَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ » وهذا غير مستطیع ؛ لأن الحج هو قصد المكلف البيت بنفسه ، ولأنها عبادة لا تدخلها النيابة مع المعجز عنها كالصلاة . وروى محمد بن المنكدر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل ليُدخل بالْحُجَّةِ الْوَاحِدَةِ ثَلَاثَةَ الْجَنَّةِ الْبَيْتِ وَالْحَاجِّ عَنْهُ وَالْمُنْفَذِ ذَلِكَ » . أخرجه الطبرانی أبو القاسم سليمان بن أحمد قال حدثنا عمرو بن حصين السدوسي قال حدثنا أبو معشر عن محمد بن المنكدر ؛ فذكره .

قلت : أبو معشر اسمه تميم وهو ضعيف عندهم . وقال الشافعي : في المريض الزَّيْنِ والمعسوب والشيخ الكبير يكون قادراً على من يعطيه إذا أمره بالحج عنه فهو مستطیع استطاعةً تاماً . وهو على وجهين : أحدهما أن يكون قادراً على ما يستجربه من يحج عنه فإنه يلزمه فرض الحج ، وهذا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، روى عنه أنه قال لشيخ كبير لم يحج : جهز رجلاً يحج عنك . وإلى هذا ذهب الثوري وأبو حنيفة وأصحابه وابن المبارك وأحمد وإسحاق . والثاني أن يكون قادراً على من يبذل له الطاعة والنيابة فيحج عنه ، وهذا أيضاً يلزمه الحج عند الشافعي وأحمد وابن راهويه ، وقال أبو حنيفة : لا يلزم الحج يبذل الطاعة بحال . استدلل الشافعي بما رواه ابن عباس أن امرأة من خَنُئِمِ سَأَلَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنْ فَرِضَ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْحَجِّ أَدْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَثْبُتَ عَلَى الرَّاحِلَةِ ، أَفَأَحْجُّ عَنْهُ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » . وذلك في حجة الوداع . في رواية : لا يستطيع أن يستوى على ظهر بعيره . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « حُجِّي عَنْهُ أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أَبِيكَ دِينَ أَكْنَيْتَ قَاضِيَتَهُ » ؟ قَالَتْ نَعَمْ . قَالَ : « فَدَيْنُ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُقْضَى » . فأوجب النبي صلى الله عليه وسلم الحج بطاعة ابنته إياه وبذلها من نفسها له بأن تحج عنه ؛ فإذا وجب ذلك

بطاعة البنت له كان بأن يجب عليه بقدرته على المال الذي يستأجره أولى . فاما إن بذل له المال دون الطاعة فالصحيح أنه لا يلزمه قبوله والنج به عن نفسه ولا يصير يبدل المال له مستطيما . وقال مالمنا : حديث الخثعمية ليس مقصوده الإيجاب وإنما مقصوده الحث على بر الوالدين والنظر في مصالحهما دنيا ودينا وجلب المنفعة إليهما جيلة وشرعا ؛ فلما رأى من المرأة انفعالا وطواعية ظاهرة ورغبة صادقة في برها بأبيها وحرصا على إصالح الخير والثواب إليه ، وتأسفت أن تفوته بركة النج أجابها إلى ذلك . كما قال للأنثرى التي قالت : إن أمي نذرت أن تمنح فلم تمنح حتى ماتت أفأمنح عنها ؟ قال : "مُنحني عنها أرايت لو كانت على أمك دين أكنيت فأصيته" ؟ قالت نعم . ففى هذا ما يدل على أنه من باب التطوعات وإصالح البر والخيرات للاموات . ألا ترى أنه قد شبه فعل النج بالدين . وبالإجماع لو مات ميت وعليه دين لم يجب على وليه قضاؤه من ماله ، فإن تطوع بذلك تأدى الدين عنه . ومن الدليل على أن النج فى هذا الحديث ليس بفرض على أبيها ما صرحت به هذه المرأة بقولها لا يستطيع ، ومن لا يستطيع لا يجب عليه . وهذا تصريح بنفى الوجوب ومع الغريضة ؛ فلا يجوز ما انتفى فى أول الحديث قطعا أن يثبت فى آخره خطأ . يحققه قوله : "فدين الله أحق أن يقضى" فإنه ليس على ظاهره إجماع ؛ فإن دين البعد أولى بالقضاء ، وبه يبدأ إجماعا لتقرر الآدمي واستثناء الله تعالى ؛ قاله ابن العربي . وذكر أبو عمرو بن عبد البر أن حديث الخثعمية عند مالك وأصحابه مخصوص بها . وقال آخرون : فيه اضطراب . وقال ابن وهب وأبو مصعب : هو حق فى الولد خاصة . وقال ابن حبيب : جاءت الرخصة فى النج عن الكبير الذى لا تمهض له . ولم يمنح وعن مات ولم يمنح أن يمنح عنه ولده وإن لم يوص به ويجزئه إن شاء الله تعالى . فهذا الكلام على المضروب وشبهه ، وحديث الخثعمية أخرجه الأئمة ؛ وهو يرد على الحسن قوله : إنه لا يجوز حج المرأة عن الرجل .

الثامنة - وأجمع العلماء على أنه إذا لم يكن للكلف قوت يقرؤه فى الطريق لم يلزمه النج . وإن وهب له أجنبي مالا يمنح به لم يلزمه قبوله إجماعا ؛ لما يلحقه من الميتة فى ذلك . فلو كان رجل وهب لأبيه مالا فقد قال الشافعي : يلزمه قبوله ؛ لأن ابن الرجل من كسبه ولا ميتة عليه

في ذلك . وقال مالك وأبو حنيفة : لا يلزمه قوله ؛ لأن فيه سقوط حرمة الآية ؛ إذ يقال : قد جازاه وقد وفاه . والله أعلم .

الثامنة - قوله تعالى : (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) قال ابن عباس وغيره : المعنى ومن كفر بفرض الحج ولم يره واجبا . وقال الحسن البصري وغيره : إن من ترك الحج وهو قادر عليه فهو كافر . وروى الترمذي عن الحلوث عن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ملك زادا وراحلة يُبلّغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانياً وذلك أن الله يقول في كتابه وَفِيَّ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا " . قال أبو عيسى : " هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وفي إسناده مقال ، وهلال بن عبد الله مجهول ، والحارث بضعف " . وروى نحوه عن أبي أمامة وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما . وعن عبد الله بن جبير عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته : " يا أيها الناس إن الله فرض الحج على من استطاع إليه سبيلا ومن لم يفعل فليمت على أي حال شاء إن شاء يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا إلا أن يكون به عذر من مرض أو سلطان جائرا نصيب له في شفاعتي ولا ورود جوهري " . وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كان عنده مال يبلغه الحج فلم يحج أو عنده مال تحمل فيه الزكاة فلم يركه سأل عند الموت الرجعة " . فقيل يا ابن عباس إنا كنا نرى هذا للكافرين . فقال : أنا أفرا عليكم به قرأنا " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَالِسُونَ . وَاتَّقُوا يَوْمَ تُرْفَعُونَ " . قال الحسن بن صالح في تفسيره : فاركبوا الحج . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا سأله عن الآية فقال : " من حج لا يرجع ثوبا أو جلس لا يخاف عقابا فقد كفر به " . وروى عن قتادة عن الحسن قال قال عمر رضي الله عنه : لقد همت أن أبحث رجلا إلى الأمصار فينظرون إلى من كان له مال ولم يحج فيضربون عليه الجزية ؛ فذلك قوله تعالى : (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) .

قلت : هذا خرج غرض النفيظ ؛ ولهذا قال علماءنا : تضمنت الآية أن من مات ولم يحج وهو قادر فالوعد يتوجه عليه ، ولا يميز أن يحج عنه غيره ؛ لأن حج الغير لو أسقط عنه الفرض لسقط عنه الوعد . وانه أعلم . وقال سعيد بن جبير : لو مات جازى له ميتة ولم يحج لم أصل عليه .

قوله تعالى : **قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ** ﴿١١٠﴾ **قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن عَآمَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴿١١١﴾ قوله تعالى : **(قُلْ يَاهَلَّ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ)** أى تصرفون عن دين الله من آمن . وقرأ الحسن يصدون « ضم التاء وكسر الصاد » وهما لغتان : صد وأصد ؛ مثل صد الغنم وأصد إذا أتت . وسم وأتم أيضا إذا تغير . **(تَبِعُونَهَا عِوَجًا)** تطبلون لها ، تخفف اللام ؛ مثل « وإذا كآلوهن » . يقال : بقيت له كذا أى طلبته . وأبيت له كذا أى أعتته . والعوج : الميل والزيج (بكسر العين) فى الدين والقول والعمل وما خرج عن طريق الاستواء . و **(بالفتح)** فى الحائط والحداد وكل شخص قائم ؛ عن أبى عبيدة وغيره . ومعنى قوله تعالى : « **يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ** » أى لا يقدرون بالآل يسوجوا عن مكان . وعالج بالمكان وعوج إقام ووقف . والعائج الواقف ؛ قال الشاعر :

هل أتم عانجون بنا لئنا • نرى العرصات أو اثر الخيام

والرجل الأعوج : السىء الخلق ، وهو بين العوج . والعوج من الخيل التى فى أرجلها تحنيب . والأعرجية من الخيل تنسب إلى فرس كان فى الجاهلية سابقا . ويقال : فرس محب إذا كان بعيد ما بين الرجلين بغير فتح ؛ وهو مدح . ويقال : الحنّب أعوجاج فى السائقين . قال الخليل التحنّب يوصف فى الشدة ، وليس ذلك بأعوجاج .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ﴾ أى عقلاء . وقيل : شهداء أن في التوراة مكتوباً أن دين الله الذي لا يقبل غيره الإسلام ، إذ فيه نعتٌ محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١١٣﴾

نزلت في يهودى أراد تجديد الفتنه بين الأوس والخزرج بعد انقطاعها بالنبي صلى الله عليه وسلم ، جلس بينهم وأنشدهم شعراً قاله أحد الحيين في حريمهم . فقال الحى الآخر : قد قال شاعرنا في يوم كذا وكذا ، فكانهم دخلهم من ذلك شيء ، فقالوا : تعالوا نرد الحرب خدعاً كما كانت . فنادى هؤلاء : يا آل أوس . ونادى هؤلاء . يا آل خزرج ، فاجتمعوا وأخذوا السلاح واصطفوا للقتال فنزلت هذه الآية ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى وقف بين الصفيين فقرأها ورفع صوته ، فلما سمعوا صوته ألتصتوا له وجعلوا يستمعون ، فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضاً وجعلوا يبكون ، عن عكرمة وابن زيد وابن عباس . والذي فعل ذلك شام بن قيس اليهودى ، دس على الأوس والخزرج من يذبحهم ما كان بينهم من الحروب ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أتاهم وذبحهم ، فعرف القوم أنها زعمه من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فالتقوا السلاح من أيديهم وبكروا وعانق بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع النبي صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، فأنزل الله عز وجل ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ يعنى الأوس والخزرج . ﴿ إِنَّ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ يعنى شاماً وأصحابه . ﴿ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ قال جابر بن عبد الله : ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأومأ إلينا بيده فكففتنا وأصلح الله تعالى ما بيننا ، فما كان شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما رأيت يوماً أفصح ولا أوحش أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم .

قوله تعالى : وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنْكِلُ عَلَيْهِ ءَايَتُ اللَّهِ وَفِكْرُ رَسُولِهِ ۖ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١١٤﴾

فاله نعال على جهة التعجب ، أى وكيف تكفرون . ﴿ وَأَنْتُمْ تُكْفِرُونَ ﴾ . (وَيْكُمُ رَسُولٌ) عد صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : كان بين الأوس والخزرج قتال وشرف الجاهلية ، فذكروا ما كان بينهم فثار بعضهم على بعض بالسيف ؛ فأبى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فذهب إليهم ؛ فنزلت هذه الآية « وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُكْفِرُونَ لَكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ » - إلى قوله تعالى : فَأَعْتَذَرُوا مِنْهَا « ويدخل في هذه الآية من لم ير النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن ما فهم من سنته يقوم مقام رؤيته . قال الزجاج : يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمد خاصة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيهم وهم يشاهدونه . ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة ؛ لأن آثاره وعلاماته والقرآن الذى أوتى فيها مكان النبي صلى الله عليه وسلم فيها وإن لم يشاهدوه . وقال قتادة : في هذه الآية علمان يتنان : كتاب الله ونبي الله ؛ فإما نبي الله فقد مضى ، وأما كتاب الله فقد أباه الله بين أظهرهم رحمة منه ونعمة ؛ فيه حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته . (وَكَيْفَ) في موضع نصب ، وفتحت الفاء عند الخليل وسيبويه لالتقاء الساكنين ، واختير لها الفتح لأن ما قبل الفاء ياء فتقل أن يجمعوا بين ياء وكسرة . قوله : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهَ ﴾ أى يتبع ويتمسك بدنبه وطاعته . (فَقَدْ هَدَى) وفق وأرشد (إلى صراط مستقيم) . ابن جريج « يتصم بالله » يؤمن به . وقيل : المعنى ومن يتصم بالله أى يتمسك بحبل الله ، وهو القرآن . يقال : أعصم به واعتصم ، وتمسك واستمسك إذا امتنع به من غيره . واعتصمت فلانا حيات له ما يتصم به . وكل متمسك ببنى ، مُعِصِمٌ ومُعْتَمِدٌ . وكل مانع شيئا فهو عاصم ؛ قال الفرزدق :

أنا ابن العاصمِ بَنِي تَيْمٍ • إذا ما أعظمَ الحَدَثَانِ نَابَاً

قال النابغة :

يَظَلُّ مِنْ خَوْفِهِ الْمَلَّاحُ مَعْتَمِئًا • بِالْخَيْرِ زَانَةً بَعْدَ الْإِيْنِ وَالنَّجْدِ

(١) الخيزارة : السكّان ، وهو ذنب السفينة . والنبد (بالضرب) : الفرق من عمل أو كركب أو غيره .

وقال آخر :

فأشترط فيها نفسه وهو مُعِمْ • وألقى بأسلِيب له وثوقلا
وعصمه الطعام : منع الجوع منه ؛ تقول العرب : عصمه الطعام أى منعه من الجوع ؛ فكثروا
السويق بأبي عاصم لذلك . قال أحمد بن يحيى : العرب تسمى الخبز صامحا وجايرا ؛ وأشد ؛
فلا تلومنى ولؤمى جايرا • بغير كلفنى المواجرا
ويُسَوِّنه صامرا . وأشد :

أبو مالك يتادنى بالظهار • يحيى فليق رحله عند ماير

أبو مالك كنية الجوع .

قوله تعالى : يَذَّابُنَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ
إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٦﴾
فيه مسألة واحدة :

روى النحاس عن مرة عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حَقُّ
تُقاته » أن يطاع فلا يعصى وأن يُدَّكَر فلا يُنسى وأن يُسَكَّر فلا يُكفر . وقال ابن عباس :
هو ألا يعصى طرفة عين . وذكر المفسرون أنه لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله ؛
من يقوى على هذا ؛ وشق عليهم فأزل الله عز وجل « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » ونسخت هذه
الآية ؛ عن قادة والزبيع وابن زيد . قال مقاتل : وليس في آل عمران من المنسوخ شيء
إلا هذه الآية . وقيل : إن قوله « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » بيان لهذه الآية . والمعنى :
فاتقوا الله حق تُقاته ما استطعتم ، وهذا أصوب ؛ لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع
والجمع ممكن فهو أولى . وقد روى علي بن أبي طلعة عن ابن عباس قال : قول الله « يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ » لم تُنسخ ، ولكن « حَقُّ تُقاته » أن يُجاهد في الله حق

جهاد ، ولا تأخذكم في الله لومة لائم ، وتقوموا بالقسط ولو على أنفسكم وأنفسكم . فإن الناس : وكلما ذكر في الآية واجب على المسلمين أن يستعملوه ولا يقع فيه نسخ . وقد مضى في البقرة معنى قوله تعالى : (وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ^(١)) .

قوله تعالى : (وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ^(٢))

فيه مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَأَعْتَصِمُوا) العِصْمَةُ المنعة ؛ ومنه يقال للبرزقة : عِصْمَةٌ . والبرزقة : الخفارة للفايلة ، وذلك بأن يرسل معها من يحبها من يؤذيها . قال ابن أبي خالويه : البرزقة لست بحربية وإنما هي كلمة فارسية عربتها العرب ؛ يقال : بعث السلطان برزقه مع القافلة .

والحبل لفظ مشترك ، وأصله في اللغة السبب الذي يوصل به إلى البغية والحاجة . والحبل : حبل العائق . والحبل : مستطيل من الرمل ؛ ومنه الحديث : والله ما تركت من حبل إلا وقعت عليه ، فهل لي من حج ؛ والحبل الرَسْنُ . والحبل المهد . قال الأعشى :
وإننا نَجْمِرُهَا جِبَالُ قَيْسِلَةَ • أَحَلَّتْ مِنَ الْأُخْرَى إِلَيْكَ حِبَالَهَا
يريد الأمان . والحبل الناهية ؛ قال كثير ^(٣) :

فلا تعجل بأمر أن تنفهي • بَصَحَ أَيْ الْوَأَشُونَ أَمْ يُجْبَلُونَ

(١) راجع ٢ ص ١٣٤ طبع ثانية • (٢) حبل العائق : عصبة بين العش والكنب .

(٣) في الأصول : « ليد » . والتصويب من اللسان وشرح القاموس مادة « حبل » .

والجبال : جبال الصائد . وكلها ليس مرادا في الآية إلا الذي يعنى العهد ؛ عن ابن عباس .
وقال ابن مسعود : جبل الله القرآن . ورواه علي وأبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله
عليه وسلم ، وعن مجاهد وقادة مثل ذلك . وأبو معاوية عن المجبري عن أبي الأحرص عن
عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن هذا القرآن هو جبل الله » . وروى
تقي بن مخلد حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا هشيم عن القوام بن حوشب عن الشعبي عن
عبد الله بن مسعود « واعتصموا بجبل الله جميعا ولا تفرقوا » قال : الجماعة ؛ وروى عنه
من وجوه ، والمعنى كله متقارب متداخل ؛ فإن الله تعالى يأمر بالائتلاف وينهى عن الفرقة فإن
الفرقة هلكة والجماعة نجاة . ورحم الله ابن المبارك حيث قال :

إن الجماعة جبل الله فاعتصموا . منه سروده الوثني لمن داف

الثانية — قوله تعالى : (وَلَا تَفَرَّقُوا) كما افرقت اليهود والنصارى في أديانهم ؛
عن ابن مسعود وغيره . ويحوز أن يكون معناه ولا تفرقوا متابعين للهوى والأهراض المختلفة ،
وكونوا في دين الله إخوانا ؛ فيكون ذلك منبأ لم عن التقاطع والتدابير . ودل عليه ما بعده وهو
قوله تعالى : « وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ
إِخْوَانًا » . وليس فيه دليل على تحريم الاختلاف في الفروع ؛ فإن ذلك ليس اختلافا إذا الاختلاف
ما يتعذر معه الائتلاف والجمع وأما حكم مسائل الاجتهاد فإن الاختلاف فيها بسبب استخراج
الفرائض ودقائق معاني الشرع ؛ وما زالت الصحابة يختلفون في أحكام الحوادث ، وهم مع
ذلك متكفون . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اختلاف أمتي رحمة » وإنما منع الله
اختلافه هو سبب الفساد . وروى الترمذي عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال : « فترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة والنصارى
مثل ذلك وفترقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » . قال الترمذي : هذا حديث صحيح .
وأخرجه أيضا عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يأتين على أمتي ما أتى

(١) المجبري : جابر بن سمير ، نسبة إلى جهر . وهو إبراهيم بن سلم البدي . (عن تهذيب التهذيب) .

على بني إسرائيل حَذْوُ النَّسْلِ بِالنَّسْلِ حَتَّى لَوْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَأْتِي أُمَّةً عَلَانِيَةً لَكَانَ مِنْ أُمَّتِي مِنْ
بَصْنَعِ ذَلِكَ وَإِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِائَةً وَتَفَرَّقَتْ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِائَةً
كَلِمَةٍ فِي النَّارِ إِلَّا مِائَةً وَاحِدَةً " قَالُوا : مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : " مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي " .
أَخْرَجَهُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ الْأَفْرَيقِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ ، وَقَالَ :
هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ . قَالَ أَبُو عُمَرَ : وَعَبْدُ اللَّهِ الْأَفْرَيقِيُّ ثِقَةٌ
وَتَقَهُ قَوْمُهُ وَأَثَنُوا عَلَيْهِ ، وَضَعْفَةُ آخِرُونَ . وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سَنَنِهِ مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ
أَبِي سَفْيَانَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " قَالَ أَلَا إِنَّ مِنْ قَوْلِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكَلْبِ أَتَفَرَّقُوا
عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِائَةً وَإِنْ هَذِهِ الْمِلَّةُ سَتَفَرَّقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِائَةً وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ
وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ وَإِنَّهُ سَيُخْرِجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامَ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى
الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ لَا يَتَّبِعِي مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا يَفْصِلُ إِلَّا دَخَلَهُ " . وَفِي سَنَنِ ابْنِ مَاجَةَ « عَنْ أَنَسٍ
ابْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَى الْإِخْلَاصِ فَهُوَ وَحْدَهُ
وَعِبَادَتُهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ مَاتَ وَاللَّهُ عَنْهُ رَاضٍ " . قَالَ أَنَسٌ : وَهُوَ
دِينُ اللَّهِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرِّسَالُ وَبَلَّغُوهُ عَنْ رَبِّهِمْ قَبْلَ هَرَجِ الْأَحَادِيثِ وَاسْتِخْلَافِ الْأَهْوَاءِ ،
وَتَصَدَّقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فِي آخِرِ مَا نَزَلَ ، يَقُولُ اللَّهُ : « فَإِنْ تَابُوا » قَالَ : خَلَمُوا الْأَوْتَانَ
وَعِبَادَتَهَا « وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتَوْا الزَّكَاةَ » ، وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ فَلَاخُؤَانُكُمْ فِي الدِّينِ » . أَخْرَجَهُ عَنْ نَصْرِ بْنِ عَلِيٍّ الْجَهْضَمِيِّ عَنْ أَبِي أَحْمَدَ عَنْ
أَبِي جَعْفَرٍ الرَّازِيِّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَنَسٍ . قَالَ أَبُو الْفَرَجِ الْجَوْزِيُّ : فَإِنْ قِيلَ هَذِهِ
الْفِرَقُ مَعْرُوفَةٌ ؛ فَالْجَوَابُ أَنَا نَعْرِفُ الْإِتِّفَاقَ وَأَصُولَ الْفِرَقِ وَإِنْ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنَ الْفِرَقِ انْقَسَمَتْ
إِلَى فِرَقٍ وَإِنْ لَمْ نَحْطُ بِأَسْمَاءِ تِلْكَ الْفِرَقِ وَمَذَاهِبِهَا ، فَقَدْ ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَصُولِ الْفِرَقِ الْحُرُورِيَّةِ
وَالْقَدِيرِيَّةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَالْمُرْجِيَّةِ وَالرَّافِضِيَّةِ وَالْجَبَرِيَّةِ . وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : أَصْلُ الْفِرَقِ الضَّلَالَةُ
هَذِهِ الْفِرَقُ السَّتْ ، وَقَدْ انْقَسَمَتْ كُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهَا اثْنَتَيْ عَشْرَةَ فِرْقَةً فَصَارَتْ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً .

(١) الْكَلْبُ (بِالتَّحْرِيكِ) : دَاءٌ يَمْرُضُ لِلنَّاسِ مِنْ عَضِّ الْكَلْبِ الْكَلْبَ فِيصِيبُهُ نَيْبُ الْجَنُونِ ، فَلَا يُمْسِكُ أَحَدَهُ
إِلَّا يَكَلِّبُ ، وَتَعْرِضُ لَهُ أَغْرَاضُ رَدِيحَةٍ ، وَيَمْتَنِعُ مِنْ شَرِّبِ الْمَاءِ حَتَّى يَمُوتَ عَطْشًا .

اتقسمت الحُرورية اثنتى عشرة فرقة؛ فأتولم الأزرقية^(١) - قالوا: لا نعلم أحدا مؤمنا، وكفرنا
أهل القبلة إلا من دان بقولهم، والأباضية - قالوا: من أخذ بقولنا فهو مؤمن، ومن أمرض
عنه فهو منافق، والنطيلية - قالوا: إن الله عز وجل لم يقض ولم يقدر، والغلازمية - قالوا:
لا تدرى ما الإيمان، والخلق كلهم معذرون، والغلغلية - زعموا أن من ترك الجهاد من
ذكر وأبى كفر، والكوزية^(٢) - قالوا: ليس لأحد أن يحس أحدا لأنه لا يعرف الطاهر من النجس
ولا أن يؤاكله حتى يتوب ويستل، والكترية - قالوا: لا يصح أحدا أن يسلي ماله أحدا،
لأنه ربما لم يكن مستحقا بل يكثره في الأرض حتى يظهر أهل الحق، والشمرانية - قالوا:
لا بأس بمس النساء الأجانب لأنهم رياحين، والأخندية - قالوا: لا يلحق الميت بعد موته
خير ولا شر، والحكيمة - قالوا: من حاكم إلى مخلوق فهو كافر، والمعتزلة - قالوا: أشبه
علينا أمر علي ومعاوية فنحن تنبأ من الفريقين، والميمونية - قالوا: لا إمام إلا برضا
أهل محبتنا.

وأقسمت الفقيرية اثنتى عشرة فرقة: الاحورية - وهى التى زعمت أن في شرط العدل
من الله أن يملك عباده أمورهم، ويحول بينهم وبين معاصيهم، والتنوية - وهى التى زعمت
أن الخير من الله والشر من الشيطان، والمعتزلة - وهم الذين قالوا بخلق القرآن ومجدوا
الزبونية، والكيسانية - الذين قالوا: لا تدرى هذه الأعمال من الله أو من العباد، ولا نعلم
أيتاب الناس بعد أو يعاقبون، والشيطانية - قالوا: إن الله تعالى لم يخلق الشيطان،
والشريكية - قالوا: إن السبائات كلها مقدرة إلا الكفر، والوهمية - قالوا: ليس لأعمال
الخلق وكلامهم ذات، ولا لحسنة والسبئة ذات، واليزيرية - قالوا: كل تكلم نزل من
عند الله فالعمل به حق، ناسخا كان أو منسوخا، والمسعدية - زعموا أن من عصى ثم تاب

(١) لم نجد بعض أسماء هذه الفرق التى سذكرها المؤلف في كتب الكلام التى بين أيدينا؛ ولذلك لم نوفق لتحرير
هذا البض. (٢) اضطربت الأصول في رسم هذه الكلمة ففى بعض «الكردية» براوردوا، وفى بعض:
«الكردية» برا، وولوا.

لم قبل توبته . والثالثة - زعموا أن من نكث ببيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا إثم عليه . والرابعة - تبعوا إبراهيم بن النّظام في قوله : من زعم أن الله شيء فهو ليس بكافر . وأقسمت الجهمية اثنتي عشرة فرقة : المعطلة - زعموا أن كل ما يقع عليه وهم الإنسان فهو مخلوق ، وأن من أذّعى أن الله يرى فهو كافر . والمريضة - قالوا : أكثر صفات الله تعالى مخلوقة . والمتفرقة - جملوا الباري سبحانه في كل مكان . والواردية - قالوا لا يدخل النار من صرف ربه ، ومن دخلها لم يخرج منها أبدا . والزنادقة - قالوا : ليس لأحد أن يثبت لنفسه ربا ؛ لأن الإثبات لا يكون إلا بعد إدراك الحواس ، وما لا يدرك لا يثبت . والحرقية - زعموا أن الكافر تحرقه النار مرة ثم يبقى عتقا أبدا لا يحذر النار . والمخلوقية - زعموا أن القرآن مخلوق . والفانية - زعموا أن الجنة والنار يفنيان ، ومنهم من قال لم يُخلق . والعبيدية - جحدوا الرسل وقالوا إنما هم حكماء . والواقعية - قالوا : لا نقول إن القرآن مخلوق ولا غير مخلوق . والقبرية - ينكرون عذاب القبر والشفاعة . واللفظية - قالوا : لفظنا بالقرآن مخلوق .

واقسمت المرجئة اثنتي عشرة فرقة : التاركية - قالوا : ليس لله عز وجل على خلقه فريضة سوى الإيمان به ، فمن آمن فليفعل ما شاء . والسائية - قالوا : إن الله سبب خلقه ليفعل ما شاءوا . والزاجية - قالوا : لا يُسمى الطائع طائعا ولا العاصي عاصيا ، لأننا لا ندرى حاله عند الله تعالى . والسالية - قالوا : الطاعة ليست من الإيمان . والبهشية - قالوا : الإيمان علم ومن لا يعلم الحق من الباطل والحلال من الحرام فهو كافر . والعملية - قالوا : الإيمان بعمل . والمقوصية - قالوا : الإيمان لا يزيد ولا ينقص . والمستنية - قالوا : الاستثناء من الإيمان . والمثبته - قالوا : بصرك كبير ويدكيد . والحشوية - قالوا : حكم الأحاديث كلها واحد ؛ فنندم أن نترك الثقل نترك كذاك الغرض . والظاهرية - الذين نقوا القياس . والبدعية - أول من ابتدع الأحداث في هذه الأمة .

(١) اضطربت الأصول في رسم هذه الكلمة ؛ فمن بضها « المرية » وفي بعضها الآخر « السرية » .

وانقسمت الرافضة اثنتي عشرة فرقة : المأوية - قالوا : إن الرسالة كانت إلى علي وإن جبريل أخطأ . والأمرية - قالوا : إن طياً شريك محمد في أمره . والشيعية - قالوا : إن علياً رضى الله عنه وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثته من بعده ، وإن الأمة كفرت بما يباعه غيره . والإسحاقية - قالوا : إن النبوة متصلة إلى يوم القيامة ، وكل من يعلم علم أهل البيت فهو نبي . والناووسية - قالوا : علي أفضل الأئمة ، فمن فضل غيره عليه فقد كفر . والإمامية - قالوا : لا يمكن أن تكون الدنيا بغير إمام من ولد الحسين ، وإن الإمام يعلمه جبريل عليه السلام ، فإذا مات بطل غيره مكانه . والزيدية - قالوا : ولد الحسين كلهم أئمة في الصلوات ، فتي وجد منهم أحد لم تجز الصلاة خلف غيرهم ، برهم وفاجرهم . والعيامية - زعموا أن العباس كان أولى بالخلافة من غيره . والتناخية - قالوا : الأرواح تتنازع ، فمن كان أحسنها خرجت روحه فدخلت في خلق يسعد بعيشه ، والرجعية - زعموا أن علياً وأصحابه يرجعون إلى الدنيا ، وينقمون من أعدائهم . واللاعنة - يلعنون عثمان وطلحة والزبير ومعاوية وأبا موسى وعائشة وغيرهم . والمترتبة - تشبهوا بزى النشاك ونصبوا في كل عصر رجلاً ينسبون إليه الأمر ، يزعمون أنه مهدي هذه الأمة ، فإذا مات نصبوا آخر .

ثم انقسمت الجبرية اثنتي عشرة فرقة : فمنهم المضطربة - قالوا : لا فعل للآدمي ، بل الله يفعل الكل . والأفعالية - قالوا : لنا أفعال ولكن لا استطاعة لنا فيها ، وإنما نحن كالبهاائم تقاد بالجلل . والمفروغية - قالوا : كل الأشياء قد خلقت ، والآن لا يُخلق شيء . والتجارية - زعمت أن الله تعالى يمدب الناس على فعله لا على فعلهم . والمنانية - قالوا : عليك بما يخطر بقلبك ، فافعل ما توسمت منه الخير . والكسية - قالوا : لا يكتب العبد ثواباً ولا عقاباً . والسابقة - قالوا : من شاء فليفعل ومن شاء لم يفعل ، فإن السعيد لا تضره ذنوبه والشقي لا ينفعه برّه . وألحجية - قالوا : من شرب كأس محبة الله تعالى سقطت عنه عبادة الأركان . والخلوئية - قالوا : من أحب الله تعالى لم يسمع أن يخافه لأن الحبيب لا يخاف حبيبه . والفكرية^(١) - قالوا : من ازداد علماً سقط عنه بقدر ذلك من العبادة .

(١) انطرت الأمور في رسم هذه الكلمة ، ففى بعض : « النكرة » بالنون ، وفى بعض « الفكرة » .

والخشية^(١) - قالوا : الدنيا بين البعاد سواء ، لا تفاضل بينهم فيها وزنه أبوهم آدم . والمنية^(٢) - قالوا : ميتا الفعل ولنا الاستطاعة .

وصياتي بيان الفقرة التي زادت في هذه الأمة في آخر مصورة « الأنعام »
 إن شاء الله تعالى . وقال ابن عباس لما تكلم الخنفي : يا حنفي ، الجماعة الجماعة !
 فإنما هلكت الأمم الخالية لتفرقها ، أما سمعت الله عز وجل يقول : « وَأَعْيَصُوا عَمَلِ اللَّهِ
 جَمِيعًا وَلَا تَفْرَقُوا » . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « إن الله يرضي لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا يرضي لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تقيموا
 عيالاتكم جميعا ولا تفرقوا ويكره لكم ثلاثا قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال » .
 فأوجب تعالى علينا التمسك بكتابه وسنة نبيه والرجوع إليهما عند الاختلاف ، وأمرنا بالاجتماع
 على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقادا وعملا ، وذلك سبب اتفاق الكلمة وانتظام الشئآت
 التي يتم به مصالح الدنيا والدن ، والسلامة من الاختلاف ، وأمر بالاجتماع ونهى عن الافتراق
 الذي حصل لأهل الكافرين . هذا معنى الآية على التمام ، وفيها دليل على صحة الإجماع حسبا
 هو المذكور في موضعه من أصول الفقه والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ
 إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ أمر تعالى بتذكركم نعمته وأعظمها الإسلام
 وأتباعه عهد عليه السلام ؛ فإن به زالت العداوة والفرقة وكانت المحبة والألفة . والمراد الأوس
 والخزرج ؛ والآية تم . ومعنى « فأصبحتم بنعمته إخوانا » أى صرتم بنعمة الإسلام إخوانا
 فى الدين . وكما فى القرآن « أصبحتم » مناصرتهم ؛ كقوله تعالى : « إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا »
 أى صار غائرا . والإخوان جمع أخ ؛ وتسمى أخا لأخيه يتوحن مذهب أخيه ، أى يقصده . وشفا
 كل شئ ، حرفه ، وكذلك شفيوه ؛ ومنه قوله تعالى : « وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ خَائِفِينَ » . قال الرازي
 نحن حفرة للحجج بحججه^(٣) . ناسبة فوق شفاها بقله

(١) فى بعض الأصول : « الخشية » بالخاء المعجمة ، وفى بعض « الخشية » بالخاء المعجمة ، وفى بعض « الخشية » بالخاء المعجمة .
 (٢) فى بعض الأصول : « المنية » بالميم . (٣) السبعة : العلو الضخمة الملوثة ماء . والمراد هنا البئر .

وَأَشْفَى عَلَى الشَّيْءِ أَشْرَفَ عَلَيْهِ ؛ وَمَنْ أَشْفَى الْمَرِيضَ عَلَى الْمَوْتِ . وَمَا بَقِيَ مِنْهُ إِلَّا شَيْئًا أَيْ قَلِيلٌ . قَالَ ابْنُ السَّكَيْتِ : يُقَالُ لِلرَّجُلِ عِنْدَ مَوْتِهِ وَالْقَمَرُ عِنْدَ آخِرَتِهِ وَالشَّمْسُ عِنْدَ غُرُوبِهَا : مَا بَقِيَ مِنْهُ إِلَّا شَيْئًا ، أَيْ قَلِيلٌ . قَالَ السَّجَّاجُ :
وَمَرَّبًا عَلَى مَنْ تَشَرَّفًا * أَشْرَفَهُ بِمَا شِئَى أَوْ يَشِئَى

قوله « بلا شئ » أى غابت الشمس . « أو بشئ » وقد بقيت منها بقية . وهو من ذوات الياء ، وفيه لغة أنه من الواو . وقال النحاس : الأصل في شفا شَفَوُ ، ولهذا يكتب بالآلف ولا يال . وقال الأخفش : لما لم تجز فيه الإمالة عُرف أنه من الواو ، ولأن الإمالة بين الياء ، وتنتبه شفوان . قال المهدوي : وهذا تمثيل يراد به خروجهم من الكفر إلى الإيمان .
قوله تعالى : وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١٠﴾

قد مضى القول في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه السورة . و « من » في قوله « منكم » للتبويض . ومعناه أن الأمرين يجب أن يكونوا علماء وليس كل الناس علماء . وقيل : ليان الجنس . والمعنى لتكونوا كلكم كذلك .

قلت : القول الأول أصح ؛ فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية ، وقد عيّنهم الله تعالى بقوله : « الَّذِينَ إِنْ مَكَانُكُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ » الآية . وليس كل الناس مكّنوا . وقرأ ابن الزبير : « وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْمِعُونَ اللَّهَ عَلَى مَا أُصَابِهِمْ » . قال أبو بكر الأنباري : وهذه الزيادة تفسر من ابن الزبير ، وكلام من كلامه غلط فيه بعض الناقطين فألحقه بالفاظ القرآن ؛ يدل على صحة ما أصف الحديث الذي حدثني أبي حدثنا ابن عرفة حدثنا وكيع عن أبي عاصم عن ابن حنّون عن صبيح قال : سمعت عثمان بن عفان يقرأ « وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْمِعُونَ اللَّهَ عَلَى مَا أُصَابِهِمْ » فما يشك حافل في أن عثمان لا يستقد هذه الزيادة من

القرآن ؛ إذ لم يكتبها في مصحفه الذي هو إمام المسلمين ، وإنما ذكرها واعظاً بها ومؤكداً ما تقدمها من كلام رب العالمين جل وعلا .

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٥٥﴾

يعني اليهود والنصارى في قول جمهور المفسرين . وقال بعضهم : هم المبتدعة من هذه الأمة . وقال أبو أمامة : هم الحرورية ؛ ونلا الآية . وقال جابر بن عبد الله : « الَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ » اليهود والنصارى . « جَاءَهُم » مذكور على الجمع ، وجاءتهم على الجماعة .

قوله تعالى : يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٧﴾

فيه ثلاث مسائل .

الأولى - قوله تعالى : (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) يعني يوم القيامة . حين يبعثون من قبورهم تكون وجوه المؤمنين مبيضة ووجوه الكافرين مسودة . ويقال : إن ذلك عند قراءة الكتاب ، إذا قرأ المؤمن كتابه فرأى في كتابه حسنة استبشر وأبيض وجهه ، وإذا قرأ الكافر والمنافق كتابه فرأى فيه سيئاته أسود وجهه . ويقال : إن ذلك عند الميزان إذا رجحت حسنة أبيض وجهه ، وإذا رجحت سيئاته أسود وجهه . ويقال : ذلك عند قوله : « وَاتَّارُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ » . ويقال : إذا كان يوم القيامة يؤم كل فريق بأن يجتمع إلى معبوده فإذا اتهموا إليه حزنوا وأسودت وجوههم ، فبقى المؤمنون وأهل الكتاب والمنافقون ؛ فيقول الله تعالى للمؤمنين : « مَنْ رَبِّكُمْ ؟ » فيقولون : ربنا الله عز وجل . فيقول

لهم . " أنصرفوا إذا رأيتموه " . فيقولون : سبحانه ! إذا اعتقبت عرفناه . فبرونه كما شاء الله .
 فيحزن المؤمنون مُجِدِّدًا لله ، فخصير وجوههم مثل الثلج بياضا ، ويبقى المناقون وأهل الكتاب
 لا يقدرّون على السجود فيحزنوا وتسود وجوههم ؛ وذلك قوله تعالى : « **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ
 وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ** » . ويمحوز « تبيض وتسود » بكسر التائين ؛ لأنك تقول : ابيضت ، فكسر
 التاء كما تكسر الألف . وهي لغة تميم وبها قرأ يحيى بن وثاب . وقرأ الزهري « يوم تبيض
 وتسود » ويمحوز كسر التاء أيضا . ويمحوز « يوم يبيض وجوه » بالياء على تذكير الجمع .
 ويمحوز « أجوه » مثل أقتت . وأبيضاض الوجوه إشرافها بالنسيم . وأسودادها هو ما يرفعها
 من العذاب الأليم .

الثانية - واختلفوا في التبيين ؛ فقال ابن عباس : تبيض وجوه أهل السنة وتسود
 وجوه أهل البدعة .

قلت : وقول ابن عباس هذا رواه مالك بن سليمان الحرّوي أخو غسان عن مالك بن أنس
 عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى « يوم تبيض وجوه
 وتسود وجوه » قال : " يعني تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة " ذكره محمد
 ابن علي بن ثابت الخطيب . وقال فيه : مُتَكَّرٌ من حديث مالك . قال عطاء : تبيض وجوه
 المهاجرين والأنصار ، وتسود وجوه بني قُرَيْظَةَ والنضير . وقال أبي بن كعب : الذين اسودت
 وجوههم الكفار ، وقيل لهم : أكفرتهم بعد إيمانكم لإقراركم حين أخرجتم من ظهر آدم كالنّز .
 هذا اختيار الطبري . الحسن : الآية في المناقين . قتادة : في المرتدين . عكرمة : هم قوم من
 أهل الكتاب كانوا مصدّقين بأنبيائهم مصدّقين بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يُبعث فلما
 بعث عليه السلام كفروا به ؛ فذلك قوله : « أكفرتهم بعد إيمانكم » . وهو اختيار الزجاج .
 مالك بن أنس : هي في أهل الأهواء . أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم : هي
 في الحرورية . وفي خبر آخر أنه عليه السلام قال : " هي في القدرية " . وروى الترمذي عن
 (١) هذه جارة ابن الأثير ، أي إذا وصف نفسه بصفة تحققت بها عرفناه . وفي الأصول : إذا « عرفناه » .

أبي غالب قال : رأى أبو أمامة رموساً منصوباً على باب دمشق ، فقال أبو أمامة : « كلاب النار شرٌ قتل تحت أديم السماء ، خيرٌ قتل من قتلوه » ثم قرأ - « يوم تبيض وجوهٌ وتسود وجوهٌ » إلى آخر الآية . قلت لأبي أمامة : أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لو لم أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مرةً أو مرتين أو ثلاثاً حتى عدت سبباً ما حدثتكموه . قال : هذا حديث حسن . وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني قرطكم على الحوض من مرة على شرب ومن شرب لم يظم أبداً ليردني على أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم » . قال أبو حازم : فسمعني الثمان بن أبي عياش فقال : هكذا سمعت من سهل بن سعد ؟ قلت نعم . قال : أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعه وهو يزيد فيها : « فأقول إنهم يني فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول محققاً محققاً لمن غيري بعدى » . وعن أبي هريرة أنه كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يرد على الحوض يوم القيامة رقطٌ من أصحابي فيجولون عن الحوض فأقول يا رب أصحابي فيقول إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم الفهقرى » . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة . فمن بدل أو غير أو ابتدع في دين الله ما لا يرضاه الله ولم يأنز به الله فهو من المطرودين عن الحوض البعدين منه المسودى الوجوه ، واشتقم طرداً وإبعاداً من خالف جماعة المسلمين وفارق سبلهم ؛ كالخوارج على اختلاف فرقها والروافض على تباين ضلالها والمعتزلة على أصناف أهوائها ؛ فهؤلاء كلهم مبدئون ومبتدعون . وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وطمس الحق وقتل أهله وإذلالهم ، والمطنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي ، وجماعة أهل الزين والأهواء والبدع ؛ كل يخاف عليهم أن يكونوا عنواً بالآية ، والخبر كما بيناه ولا يخلد في النار إلا كافرٌ جاحدٌ ليس في قلبه متقال حياةٌ تحرق في إيمان . وقد قال ابن القاسم : وقد يكون من غير أهل الأهواء من هو شرٌ من أهل الأهواء . وكان يقول : تمام الإخلاص تجنب المعاصي .

(١) في صحيح الترمذي : « على درج مسجد دمشق » . . . (٢) الترمذي (بفتحين) : الذي يتلهم انوار دين ليصلهم الحياض . (٣) أبو حازم هو صلة بن دينار ، أحد رجال سنة هذا الحديث .

الثالثة - قوله تعالى : (وَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ) في الكلام حذف «أى»
 فيقال لهم اكفرتم بعد إيمانكم، يعنى يوم الميثاق وسين قالوا بلى . ويقال : هذا لليهود وكانوا
 مؤمنين بحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث فلما بعث كفروا به . وقال أبو العالية : هذا
 للمنافقين، يقال اكفرتم في السر بعد إقراركم في العلانية . وأجمع أهل العربية على أنه لا بد
 من النفاء في جواب «أما» لأن المعنى في قولك : «أما زيد فنطلق» مهما يكن من شيء
 فزيد منطلق . وقوله تعالى : (وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ) هؤلاء أهل طاعة الله
 عز وجل والوفاء بعهده . (فَنَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أى في جنة ودار كرامته خالدون
 باقون . جعلنا الله منهم وجنبا طريق البدع والضلالات، ووقفنا لطريق الذين آمنوا وعملوا
 الصالحات . آمين .

قوله تعالى : تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا
 لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ
 الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى : (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ) ابتداء وخبر، يعنى القرآن . (تَتْلُوهَا عَلَيْكَ) يعنى تُرَدِّ
 عليك جبريل فيقرؤها عليك . (وَالْحَقُّ) أى بالصدق . وقال الزجاج : «تلك آيات الله»
 المذكورة مُجْمَعٌ الله ودلائله . وقيل : «تلك» يعنى هذه ولكنها لما انفصلت صارت كأنها
 بعدت فقل «تلك» . ويجوز أن تكون «آيات الله» بدلا من «تلك» ولا تكون نمنا لأن المجهم
 لا يثبت بالضاف . (وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ) يعنى أنهم لا يعذبهم بنسب ذنب .
 (وَرَفَعَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) قال المهدوي : وجه اتصال هذا بما قبله أنه لما ذكر
 أحوال المؤمنين والكافرين وأنه لا يريد ظُلْمًا للعالمين وصله بذكر اتساع قدرته وغناه عن
 الظلم يكون ما في السموات وما في الأرض له حتى يسأله ويعبدوه ولا يببدوا غيره .

قوله تعالى : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) فيه ثلاث مسائل .

الأولى - روى الترمذى عن يهزبن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في قوله « كنتم خير أمة أخرجت للناس » قال : « أنتم تُنْتَوْنَ سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله » . وقال : هنا حديث حسن . وقال أبو هريرة : نحن خير الناس للناس نسوقهم بالسلاسل إلى الإسلام . وقال ابن عباس : هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وشهدوا بدرًا والخديبية . وقال عمر بن الخطاب : من فصل فعلهم كان مثلهم . وقيل : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، يعنى الصالحين منهم وأهل الفضل ؛ وهم الشهداء على الناس يوم القيامة ؛ كما تقدم في البقرة . وقال مجاهد : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » على الشروط المذكورة في الآية . وقيل : معناه في اللوح المحفوظ . وقيل : كنتم مذكورين عند خير أمة . وقيل : جاء ذلك لتقدم البشارة بالنبي صلى الله عليه وسلم وأتبعه . فالمنى كنتم عند من تقدمكم من أهل الكتاب خير أمة . وقال الأخفش : يريد أهل أمة ، أى خير أهل دين ؛ وأنشد :

حلفت فلم أترك لنفسك ريةً • وهى يائس ذو أمة وهو طالع^(١)

وقيل : هى كان الثامة ، والمعنى خلقتم ووجدتم خير أمة . « خير أمة » حال . وقيل : كان زائدة ، والمعنى أنتم خير أمة . وأنشد سيويه :

• وسيران لنا كانوا كرام^(٢) •

(٢) البيت ثالثة الديالى .

(١) راجع ج ٢ ص ١٥٤ طبة ثانية .

• تكيف إذا وأيت ديار نوم •

(٢) هذا مجزيت لقرزى . ومدره •

ومثله قوله تعالى : « كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا » . وقوله : « وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ » . وقال في موضع آخر : « وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ » . وروى سفيان بن عيينة عن الأئمة عن أبي حازم عن أبي هريرة « كنتم خير أمة أخرجت للناس » قال : يَبْزُونُ النَّاسَ بِالسَّلَاسِلِ إِلَى الْإِسْلَامِ . قال النحاس : والتقدير على هذا كنتم للناس خير أمة . وعلى قول مجاهد : كنتم خير أمة إذ كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . وقيل : إنما صارت أمة عهد صلى الله عليه وسلم خير أمة لأن المسلمين منهم أكثر ، والأئمة بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم أنثى . فقيل : هذا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « خير الناس قرني » أي الذين بُعث فيهم .

الثانية - وإذا ثبت بنص التنزيل أن هذه الأمة خير الأمم فقد روى الأئمة من حديث عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم » . وهذا يدل على أن أول هذه الأمة أفضل ممن بعدهم ، وإلى هذا ذهب معظم العلماء . وأن من صحب النبي صلى الله عليه وسلم وراه ولو مرة في عمره أفضل ممن يأتي بعده ، وإن فضيلة الصحبة لا يعلوها عمل . وذهب أبو عمر بن عبد البر إلى أنه قد يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جملة الصحابة ، وأن قوله عليه السلام : « خير الناس قرني » ليس على عمومته بدليل ما يجمع القرن من الفاضل والمفضول . وقد جمع قرنه جماعة من المنافقين المظهرين للإيمان وأهل الكبر الذين أقام عليهم أو على بعضهم الحدود ، وقال لهم : ما تقولون في السارق والثارب والزاني . وقال مواجهة لمن هو في قرنه « لَا تَسُبُّوا إِسْحَابِي » . وقال لخالد بن الوليد في عمار : « لَا تَسُبَّ مَنْ هُوَ خَيْرُكَ مِنْكَ » . وروى أبو أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « طُوبَى لِمَنْ رَأَى وَأَمَنَ بِي وَطُوبَى سَبْعَ مَرَّاتٍ لِمَنْ لَمْ يَرِنِ وَأَمَنَ بِي » . وفي مسند أبي داود الطيالسي عن محمد بن أبي حميد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أَتَدْرُونَ أَيُّ أُمَّةٍ أَنْطَلَقَ أَفْضَلُ إِيْمَانًا » قلنا الملائكة . قال : « وَحَقَّ لِمَنْ بَلَ غَيْرُهُمْ » قلنا الأنبياء . قال : « وَحَقَّ

لم بل فيهم" ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أفضل الخلق إيماناً قوم في أصلاب الرجال يؤمنون بي ولم يروني يحيدون ورقاً فيعملون بما فيها وهم أفضل الخلق إيماناً" . وروى صالح بن جبير عن أبي جهمعة قال : قلنا يا رسول الله ، هل أحد خير منا ؟ قال : "نعم قوم يحيثون من بعدكم فيجدون كتاباً بين لوحين يؤمنون بما فيه ويؤمنون بي ولم يروني" . وقال أبو عمر : وأبو جهمعة له محبة واسمه حبيب بن سباع ، وصالح بن جبير من ثقات التابعين . وروى أبو ثعلبة الحنفي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن أمامكم أياماً الصابرين فيها على دينه كالقائض على الجمر للعامل فيها أجر خمسين رجلاً يعمل مثل عمله" قيل : يا رسول الله ، من هم ؟ قال : "بل منكم" . قال أبو عمر : وهذه اللفظة « بل منكم » قد سكت عنها بعض المحدثين فلم يذكرها . وقال عمر بن الخطاب في تأويل قوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » قال : من فعل مثل فعلكم كان مثلكم . ولا تمارض بين الأحاديث لأن الأول على الخصوص ، والله الموفق .

وقد قيل في توجيه أحاديث هذا الباب : إن قرئنه إنما فُضِّل لأنهم كانوا غرباء في إيمانهم لكثرة الكفار وصبرهم على أذاهم وتمسكهم بدينهم ، وإن أواخر هذه الأمة إذ أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على طاعة ربهم في حين ظهور الشر والفسق والمهرج والمعاصي والباطل كانوا عند ذلك أيضاً غرباء ، وزكَّت أعمالهم في ذلك الوقت كما زكَّت أعمال أولائهم . ويشهد له قوله عليه السلام "بدأ الإسلام غربياً وسيعود كما بدأ فطوياً للغرباء" . ويشهد له أيضاً حديث أبي ثعلبة ويشهد له أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم : "أنتي كالطير لا يدرى أوله خير أم آخره" ذكره أبو داود الطيالسي وأبو عيسى الترمذي ، ورواه هشام بن عبيد الله الزاذلي عن مالك عن الزهري عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنتي مثل الطير لا يدرى أوله خير أم آخره" . ذكره الدارقطني في مسند حديث مالك . قال أبو عمر : هشام بن عبيد الله ثقة لا يختلفون في ذلك . وروى أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة كتب إلى سالم بن عبد الله أن أكتب إلى سيرة عمر بن الخطاب لأعمل بها ، فكتب إليه سالم : إن عملت بسيرة عمر فأت أفضل من عمر ، لأن زمانك ليس

كرمان عمر، ولا رجالك كرجال عمر . قال : وكتب إلى فقهاء زمانه فكتبهم كسبه إليه يمثل قول سالم . وقد عارض بعض الجلبة من العلماء قوله صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي » بقوله صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُ النَّاسِ مَنْ طَالَ عَمْرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ طَالَ عَمْرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ » . قال أبو عمر : فهذه الأحاديث تقتضي مع تواتر طرقها وحسنها التسوية بين أول هذه الأمة وآخرها . والمعنى في ذلك ما تقدم ذكره من الإيمان والعمل الصالح في الزمان الفاسد الذي يُرفع فيه من أهل العلم والدين ، ويكثر فيه النفاق والمهرج ، ويُبدل المؤمنُ ويُسَرَّ الفاجر ويعود الدينُ غريباً كما بدا ، ويكون القائمُ فيه كالقابض على البحر . فيستوى حينئذ أول هذه الأمة بآخرها في فضل العمل إلا أهل بدر والحديبية . ومن تدبر آثار هذا الباب بان له الصواب ، والله يؤتي فضله من يشاء .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك وأتصفوا به ؛ فإذا تركوا التغير وتواطئوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم ، وكان ذلك سبباً لحلاكهم . وقد تقدم الكلام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أول السورة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ أخبر أن إيمان أهل الكتاب بالنبي صلى الله عليه وسلم خير لهم ، وأخبر أن منهم مؤمناً وفاسقاً ، وأن الفاسق أكثر .

قوله تعالى : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتُلُوكُمْ فَبِئْسَ الْاَدْبَارُ لَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ١١١ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾ يعني كذبهم وتحريفهم وبهتهم ؛ لا أنه تكون لهم الغلبة ؛ عن الحسن وقادة . فالاستثناء متصل ، والمعنى لن يضرركم إلا ضرراً يسيراً ؛ فوقع الأذى موقع المصدر . فالآية وعد من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم . وللزمين . وأن أهل الكتاب لا ينظرونهم وأنهم منصورون عليهم لا ينالهم منهم اصطلام إلا لئلاء باليه

والصريف، وأما العاقبة فتكون للؤمنين . وقيل : هو منقطع ، والمعنى لن يضروكم ألبتة ، لكن يؤذونكم بما يُسمعونكم . قال مقاتل : إن رموس اليهود : كعب وعدى والتمان وأبو رافع وأبو ياسر وكانوا وابن صوريا عمدوا إلى مؤمنهم : عبدالله بن سلام وأصحابه فأذوهم لإسلامهم ، فأنزل الله تعالى : « لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى » يعنى باللسان، وتم الكلام . ثم قال : (وَإِنْ يَغَالُتْكُمْ يَوْلَاكُمْ أَذًى) يعنى منهزمين ، وتم الكلام . (ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ) مسانف ؛ فذلك ثبت فيه التوثيق . وفي هذه الآية معجزة للنبي عليه السلام ؛ لأن من قاتله من اليهود والتصارى ولآه دبره .

قوله تعالى : ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ آلِةٌ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءَ وَبَغَضِبِ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٦﴾ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَاتِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٧﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ آلِةٌ) يعنى اليهود . (أَيْنَمَا تَقِفُوا) أى وجدوا ولقوا ، وتم الكلام . وقد مضى في البقرة معنى ضرب آللة عليهم . (إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ) استثناء منقطع ليس من الأول . أى لكنهم يتصمون بحبل من الله . (وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ) يعنى الائمة التى لهم . والناس : محمد والمؤمنون يؤذونهم الخراج فيؤمنونهم . وفي الكلام

اختصار، والمعنى : إلا أن يتصموا بجل من الله ، خفف ؛ قاله الفراء . (وَيَأْمُرُوا بِغَضَبٍ
 مِنْ اللَّهِ) أى رجسوا . وقيل احتملوا . وأصله فى اللغة أنه لزمهم ؛ وقد مضى فى البقرة .
 ثم أخبر لم فعل ذلك بهم ؛ فقال ، (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْبَرَائَةَ
 وَيُغَيِّرُونَ حَتَّى ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) وقد مضى فى البقرة مستوفى . ثم أخبر فقال ،
 (لَيْسُوا سَوَاءً) وتم الكلام . والمعنى : ليس أهل الكتاب وأمة محمد صلى الله عليه وسلم سواء ؛
 عن ابن مسعود . وقيل : المعنى ليس المؤمنون والكافرون من أهل الكتاب سواء . وذكر
 أبو خزيمة زهير بن حرب حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا شيان عن عاصم عن زر عن ابن مسعود
 قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة المشاء ثم خرج إلى الناس فأناب الناس فيظنرون
 الصلاة فقال : " إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله تعالى فى هذه الساعة غيركم "
 قال : وأزلت هذه الآية « ليسوا سواء » من أهل الكتاب أمة قائمة — إلى قوله : والله عليم بالمتقين .
 وروى ابن وهب مثله . وقال ابن عباس : قول الله عز وجل « من أهل الكتاب أمة قائمة
 يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » من آمن مع النبي صلى الله عليه وسلم . وقال ابن إسحاق
 عن ابن عباس : لما أسلم عبد الله بن سلام ، وطلحة بن سعية ، وأسيد بن سعية ، وأسيد بن عبيد ،
 ومن أسلم من يهود ، فأمنوا وصدقوا ورضوا فى الإسلام ورضخوا فيه قالت أبا حبار يهود وأهل
 الكفر منهم : ما آمن بحمد ولا نعيم إلا شرارنا ، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم
 وذهبوا إلى غيره ؛ فأزل الله عز وجل فى ذلك من قوله « لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
 أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . إِلَى قَوْلِهِ : وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ » .
 وقال الأخفش : التقدير من أهل الكتاب ذواتهم ، أى ذو طريقة حسنة . وأنشد :

• وهل يأتين ذواتهم وهو طائع •

(١) سعية : بالسين والعين المهملين وياء بالثين

(٢) فى الاستيعاب فى ترجمة أسيد هذا : «رواه يونس بن بكير عن ابن إسحاق (أسيد) ضحك الهزلة وكسر السين ، وكذلك قال الواضى . وفى رواية إبراهيم بن سعد عن ابن إسحاق (أسيد) بالنهم . والله عديم أمح » .

وقيل : في الكلام حذف ، والتقدير من أهل الكتاب أمة قائمة وأخرى غير قائمة ، فترك
الآخرى أكشفه بالأولى ؛ كقول أبي ذؤيب :

حصاني إليها القلب إلى لأمره • مطيع لما أديري أرشد ملائيا

أراد : أرشد أم غي ، حذف . قال القزواء : « أمة » رفع بسواء ، والتقدير : ليس يستوى
أمة من أهل الكتاب قائمة يتلون آيات الله وأمة كافرة . قال النحاس : هذا قول خطأ من
جهات : أحدها أنه رفع « أمة » بسواء فلا يعود على اسم ليس شيء ، ويرفع بما ليس جاريا
على الفعل ويضمير مالا يحتاج إليه ؛ لأنه قد تقدم ذكر للكافرة فليس لإستمرار هذا وجه .
وقال أبو عبيدة : هذا مثل قولهم : أكلوني البراغيث ، وذهبوا أصحابك . قال النحاس :
وهذا غلط لأنه قد تقدم ذكرهم ، وأكلوني البراغيث لم يتقدم لم ذكر . و (آتاه الليل)
سماعته . واحدها إلى وإلى وإلى ، وهو منصوب على الظرف . و (يَسْجُدُونَ)
يُسَلِّونَ ، عن القراء والزجاج ؛ لأن التلاوة لا تكون في الركوع والسجود . نظيره قوله :
« وَهَـؤُلَاءِ يَسْجُدُونَ » أي يُسَلِّونَ . وفي الفرقان : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ » وفي النجم :
« فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا » . وقيل : يراد به السجود المعروف خاصة . وسبب التزول رده ،
وأن المراد صلاة النعمة كما ذكرنا عن ابن سعد ؛ فبعدة الأوثان قاموا حيث جئ عليهم الليل ،
والموحدون قيام بين يدي الله تعالى في صلاة المشاء يتلون آيات الله ؛ ألا ترى لنا ذكر قيامهم
قال « وهم يسجدون » أي مع القيام أيضا . التورى : هي الصلاة بين المشامين . وقيل :
هي في قيام الليل . ومن رجل من بني شيبه كان يدرس الكتب قال : إذا نحمد كلاما من
كلام الرب من وجل : أُنْسِبَ راعي إلى أرقم إذا جئت الليل أنزل كن هو قائم وساجد آتاه
الليل . (يَرْمُونَ بِاللَّيْلِ) يعني يترجون بالله ويحمد صلى الله عليه وسلم . (وَيَسْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ)
قيل هو عوم . وقيل : يراد به الأمر باتباع النبي صلى الله عليه وسلم . (وَيَهْوُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ)
والنهي عن المنكر انتهى عن خلفته . (وَيَسَارِعُونَ فِي الْفَعَالِ) التي يعملونها بمأذرين غير

(١) في الأصول : • صبت إليها القلب إلى لأمرها • وتصوب من ديوان أبي ذؤيب . يقول : معاني
القلب وذهب إليها فأتى ما أمرني به . (٢) أنزل : أقدم .

مُتَشَلِّينَ لِمَعْرِثِهِمْ يَقْدِرُ نَوَاجِهُمُ . وَقِيلَ : يَأْدُرُونَ بِالْعَمَلِ قَبْلَ الْقَوْتِ . ﴿ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾
 أي مع الصالحين ، وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الجنة . ﴿ وَمَا يَتَعَلَّوْنَ مِنْ خَيْرٍ قُلٌّ
 يُكْفَرُونَ ﴾ قرأ الأعمش وآبن وثاب وحزمة والكسائي وحفص وحلف بإبائه فيهما ؛ إخباراً
 عن الأمة الفاتمة . وهي قراءة آبن عباس وأختار آبن عُبيد . وقرأ الباقون بالناء فيهما على
 الخطأ ؛ لقوله تعالى : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » . وهي اختيار آبن حاتم ، وكان
 أبو عمرو يرى للقراءتين جميعاً الباء والناء . ومعنى الآية : وما تفعلوا من خير قلن تُجَسَّدُوا
 نوابه بل يُشْكَلْكُمْ وَيُجَازُونَ عليه .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
 مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ اسم إن ، والخبر « لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من
 الله شيئاً » . قال مقاتل : لما ذكر تعالى مؤمنى أهل الكتاب ذكر كفارهم وهو قوله « إن
 الذين كفروا » . وقال الكوفي : جعل هذا ابتداء فقال : إن الذين كفروا لن تغني عنهم كثرة
 أموالهم ولا كثرة أولادهم من عذاب الله شيئاً . وخص الأولاد لأنهم أقرب أنسابهم إليهم .
 ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ ابتداء وخبر ، وكذا و ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . وقد تقدم جميع هذا .

قوله تعالى : مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا
 صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ
 أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ « ماء تصلح أن
 تكون مصدرية ، وتصلح أن تكون بمعنى الذي والمائد محذوف ، أي مثل ما ينفقونه . ومعنى
 « كَمَثَلِ رِيحٍ » كمثل مهب ريح . قال ابن عباس : والصِرُّ البرد الشديد . قيل : أصله من الصرير

الذى هو الصوت ، فهو صوت الريح الشديدة . الزجاج : هو صوت لهب النار الى كانت في تلك الريح . وقد تقدم هذا المعنى في البقرة . وفي الحديث : إنه نهي عن الجراد الذي قتله الصر . ومعنى الآية : مثل نفقة الكافرين في بطلانها وذهابها وعدم منفعتها كمثل زرع أصابه وريح باردة أو نار فاحرقته فأهلكته ، فلم ينفع أصحابه بشيء بعد ما كانوا يرجون فائدته ونفعه . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفر والمعصية ومنع حق الله تعالى . وقيل : ظلموا أنفسهم بأن زرعوا في غير وقت الزراعة أو في غير موضعها فأذهبهم تعالى لوضعهم الشيء في غير موضعه ؛ بحكمة المهدوي .

قوله تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - أتد الله تعالى الزجر عن الركون إلى الكفار . وهو متصل بما سبق من قوله : «إِنْ يُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» . والبطانة مصدر ، يُسمى به الواحد والجمع . وبطانة الرجل خاصته الذين يستبطنون أمره ، وأصله من البطن الذي هو خلاف الظهر . ووطن فلان بفلان يوطن بوطنا وبطانة إذا كان خاصاً به . قال الشاعر :

أوشك خُلصاني تَمَّ وِطَاطِي * وهم عَيَني من دون كلِّ قَرِيب

الثانية - نهي الله عز وجل المؤمنين بهذه الآية أن يتخذوا من الكفار واليهود وأهل الأمواء دُخلاءً ووَجَلَاءَ ، يفاوضونهم في الآراء ، ويسندون إليهم أمورهم . ويقال : كلٌّ من كان على خلاف مذهبك ودينك لا ينبغي لك أن تحادته . قال الشاعر :

عن المرء لا تسأل وسلَّ عن قريشه * فكل قرين بالمقارن يقتدى

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل " . وروى عن ابن مسعود أنه قال : اعتبروا الناس بإخوانهم . ثم بين تعالى المعنى الذى لأجله نهى عن المواصلة فقال : « لَا يَأْلُوَنكُمْ خِيَالًا » يقول فسادا . يعنى لا يتركوا الجهد فى فسادكم ، يعنى أنهم وإن لم يقاتلوكم فى الظاهر فإنهم لا يتركوا الجهد فى المكر والخديعة ، على ما يأتى بيانه . وروى عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُوَنكُمْ خِيَالًا » قال : " هم الخوارج " . وروى أن أبا موسى الأشعرى استكتب ذيقيا فكتب إليه عمر يعقظه وتلا عليه هذه الآية . وقدم أبو موسى الأشعرى على عمر رضى الله عنه بحساب فرضه إلى عمر فأعجبه . وجاء عمر كتاب فقال لأبي موسى : أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب على الناس ؟ فقال : إنه لا يدخل المسجد . فقال : لم ! أجنب هو ؟ قال : إنه نصراني ؛ فانتهره وقال : لا تنهم وقد أقصاهم الله ، ولا تكرمهم وقد آهانهم الله ، ولا تأمنهم وقد خونهم الله . وعن عمر رضى الله عنه قال : لا تستعملوا أهل الكتاب فإنهم يستحلون الرشا ، واستعينوا على أموركم وعلى رعيتمكم بالذين يخشون الله تعالى ، وقيل لعمر رضى الله عنه : إن ههنا رجلا من نصارى الحيرة لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم أفلا يكتب عنك ؟ قال : لا آخذ بطانة من دون المؤمنين . فلا يجوز استكتاب أهل الذمة ، ولا غير ذلك من تصرفاتهم فى البيع والشراء والامتنابة إليهم .

قلت : وقد اقلبت الأحوال فى هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء وقسودوا بذلك عند الجبهة الأغنياء من الولاة والأمراء . روى البخارى عن أبي سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحثه عليه والمعصوم من بطانتين باتت طاعتا " . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تستضيفوا بنابر المشركين ولا تنقشوا فى خواتمكم غريبا " . فسر الحسن بن أبى الحسن فقال : أراد عليه

السلام لا تستشروا المشركين في شيء من أموركم، ولا تنفثوا في خواصكم محمداً، قال الحسن :
وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا يَهُودَ وَلَا نَصَارَةَ آلِيكُمْ دُونَكُمْ » الآية .
الثالثة - قوله تعالى : (مِنْ دُونِكُمْ) أى من سواكم . قال الفراء : « وَيَتَمَلَّوْنَ عَلَيَّ
دُونَ ذَلِكَ » أى يسوى ذلك . وقيل : « مِنْ دُونِكُمْ » يعنى فى السير وحسن المذهب . ومعنى
« لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالًا » لا يقصرون فيما فيه الفساد عليكم . وهو فى موضع الصفة ليهطانة .
دونكم . يقال : لا ألو جهداً أى لا أقصر . وألوت ألواً قصرت ، قال امرؤ القيس :
وما المرء ما نامت حُشاشة نفسه • بمذكر أطراف المخطوب ولآل

والخبال الخبل . والخبل الفساد ، وقد يكون ذلك فى الأفعال والأبدان والعقول .
وفى الحديث : « من أصيب بدم أو خبل أى بجرح يفسد العضو . والخبل فساد الأعضاء ،
ورجلٌ خبلٌ ومخبلٌ ، وخبله الحب أى أفسده . قال أوس :
أبني لئبى لستم ببيد • إلا بنا محبولة المضد

أى فاسدة المضد . وأنشد الفراء :

تظلم ابن سعد نظرة وبّت بها • كانت لصحبك والمطى خبالاً

أى فساداً . وانتصب « خبالاً » بالمفعول الثانى ؛ لأن الألو يتعدى إلى مفعولين ، وإن شئت
على المصدر ، أى يخبلونكم خبالاً ، وإن شئت بترع الخافض ، أى بالخبال ، كما قالوا : أوجعته
ضرباً : « وما » فى قوله : « ودّوا ما عتيم » مصدرية ، أى ودّوا عتيمكم . أى ما يشق عليكم .
والعت المشقة ، وقد مضى فى « البقرة » معناه .

الرابعة - قوله تعالى : (قَدْ بَيَّتَ الْبَيْضَاءُ مِنْ أَقْوَاهِمُ) يعنى ظهرت العداوة
والتكذيب لكم من أقواهم . والبيضاء : البيض ، وهو ضد الحب . والبيضاء مصدر مؤنث .
وحصّ تعالى الأقواهم بالذكور دون الألسنة إشارة إلى تشققهم وازترتهم فى الأقوالهم هذه ، فهم

(١) الذى فى دياره : • إلا بدا لست لما عند • (٢) قرب : التفرقة فى الحرب .

(٣) راجع ج ٣ ص ٦٦ طبة إلى أدوية .

فوق المتستر الذي تبدو البغضاء في عينه . ومن هذا المعنى نبي عليه السلام أن يستحي الرجل فاه في عرض أخيه، معناه أن يفتح؛ يقال : تحي الحار فاه بالتيق، ويحي النهم نفسه . ونحي الجأف فم القوس تحيا، ويحمت الخيل شواحي : فاحمت أوافها . ولا يفهم من هذا الحديث دليل خطاب على الجواز فيأخذ أحد في عرض أخيه هتاء؛ فإن ذلك يحرم بانفاق من العلماء . وفي التزيل « وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » الآية . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام " . فذكر الشحوا إنما هو إشارة إلى التشديق والانبساط . فأعلم .

الخامسة - وفي هذه الآية دليل على أن شهادة العدو على عدوه لا تجوز، وبذلك قال أهل المدينة وأهل المجاز؛ وروى عن أبي حنيفة جواز ذلك . وحكى ابن بطال عن ابن شعبان أنه قال : أجمع العلماء على أنه لا تجوز شهادة العدو على عدوه في شيء . وإن كان عدلا، والعداوة تزيد العدالة فكيف بعداوة كافر .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُحْيِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ إخبار وإعلام بأنهم يطنون من البغضاء أكثر مما يظهرون بأفواههم . وقرأ عبد الله بن مسعود : « قد بدا البغضاء » بتذكير الفعل؛ لما كانت البغضاء بمعنى البغض .

قوله تعالى : هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿ هَآ أَنْتُمْ أَوْلَاءُ يُحِبُّونَهُمْ ﴾ يعني المنافقين . دليله قوله تعالى : « وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا »؛ قاله أبو العالية ومقاتل . والمحبة هنا بمعنى المصافاة، أي أتم أيها المسلمون تصافونهم ولا يصفونكم لتوافقهم . وقيل : المعنى تريدون لهم الإسلام وهم يريدون لكم الكفر . وقيل : المراد اليهود؛ قاله الأكثر . والكاتب اسم جنس؛ قاله ابن عباس . يعني

بالكتب، واليهود يؤمنون ببعض، كما قال تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَقُومُنَا بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ » . (وَإِذَا قُلُوبُكُمْ قَالُوا آمَنَّا) أى بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإذا خلوا فيما بينهم عضوا عليكم الأنامل، يعنى أطراف الأصابع من النيط والحق عليكم، فيقول بعضهم لبعض : ألا ترون إلى هؤلاء ظهوروا وكفروا . والعص عبارة عن شدة النيط مع عدم القدرة على إنقاذه؛ ومنه قول أبي طالب :
 • بعضون غيظًا خلقتنا بالأنامل •

وقال آخر :

إذا رَأَوْنِي أُمَالَ اللَّهِ غَيَّظَهُمْ • عَصُوا مِنَ النِّيطِ أَطْرَافَ الْأَيْهَمِ
 يقال : عَصَّ بَعْضُ عَصَا وَعَصِيضًا، والعَص (بضم العين) : علف دواب أهل الأمصار مثل الكُسْب والنَّوَى المرضوخ؛ يقال منه : عَصَّ القوم، إذا أكلت إبلهم العَصَّ . وبعبارة أخرى، أى سمين كأنه منسوب إليه . والعَص (بالكسر) : التَّاهِي من الرجال والبلغ المنكر . وعَصَّ الأنامل من فعل الْمُغْصَب الذى فاتته مالا يقدر عليه، أو نَزَلَ به مالا يقدر على تنبيهه . وهذا العَص هو بالإنسان كعَص اليد على فائت قريب الفوات . وكقصر السِّن النادمة، إلى غير ذلك من عقد الحصى والخط في الأرض لهموم . ويكتب هذا العَص بالضاد الساقطة، وعَصَّ الزمان بالظاء المشالة؛ كما قال :

وعَصَّ زَمَانٍ يَابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدْعُ • مِنْ الْمَالِ إِلَّا مُسْعَةً أَوْ مَجْلَفًا^١

وواحد الأنامل أَمْلَةٌ (بضم الميم) ويقال بفتحها، والضم أشهر . وكان أبو الجوزاء إذا تلا هذه الآية قال : هم الأَبْصِيَّة . قال ابن عطية : وهذه الصفة قد ترتب في كثير من أهل البدع إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : (قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) إن قيل : كيف لم يموتوا والله تعالى إذا قال لشيء : كن فيكون . قيل عنه جوابان : أحدهما - قال فيه الطبري وكثير

(١) البيت للقرظق . والزيادة المعروفة كما في اللسان والنفائض : «وعصَّ زمان» بالضاد بدل الظاء، وهذه الكلمة في هذا المعنى قال بالضاد بالفاء كما في القاموس . والمسحت : المستأمل . والمجلف : الذى جئت منه بجنة .

من المفسرين : هو دعاء عليهم . أى قل يا محمد آدم الله عَظَمَكم إلى أن تموتوا . فعل هذا سبحانه أن يدعو عليهم بهذا مواجهة وغير مواجهة بخلاف الآمنة .

الثانى - أن المعنى أخبرهم أنهم لا يدركون ما يؤمنون ، فإن الموت دون ذلك . فمعنى هذا المعنى زال معنى الدعاء وبقي معنى التفرغ والإغالة . ويجرى هذا المعنى مع قول مسافر ابن أبى عمرو :

وَنَجَى فِي أَرْوَمَتَا . وَفَقَأَ عَيْنَ مِنْ حَسَدًا

وينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى : « مَنْ كَانَ يُلْمُنْ أَنْ كَانَ يَنْصُرُهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْنُدْ بِسَبِّهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ » .

قوله تعالى : إِنْ تَمَسَّكْمْ حَسَنَةٌ نُسُوءِهِمْ وَإِنْ تَنَاصَرَكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَابَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٦﴾

قوله تعالى : « إِنْ تَمَسَّكْكُمْ حَسَنَةٌ نُسُوءِهِمْ » قرأ السلى بإياء والباقون بالياء . واللفظ عام في كل ما يحسن ويسوء . وما ذكره المفسرون من الخصب والجانب واجتماع المؤمنين ودخول الفرقة بينهم إلى غير ذلك من الأقوال أمثلة وليس باختلاف . والمعنى في الآية : أن من كانت هذه صفته من شدة العداوة والحقد والفرح بتزول الشدائد على المؤمنين لم يكن أهلاً لأن يتخذ بطانة ، لا سيما في هذا الأمر الجسيم من الجهاد الذى هو ملاك الدنيا والآخرة . ولقد أحسن القائل في قوله :

كَلَّ الْعَدَاوَةُ قَدْ تُرْجَى إِفَاقَتُهَا • إِلَّا عَدَاوَةُ مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدٍ

(وَإِنْ تَصَابَرُوا) أى على أذاهم وعلى الطاعة وموالاة المؤمنين . (وَتَتَّقُوا) لَا يَضْرُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا) يقال : ضاربه يضوره ويضيره ضيراً وضوراً ؛ فشرط تعالى تقى ضررهم بالصبر والتقوى ، فكان ذلك تسلياً للمؤمنين وتخوية لخصومهم .

قراءات - قرأ الحَرَمِيُّان وأبو عمرو « لا يَصْرُكُم » من ضار يضرك كما ذكرنا ؛ ومنه قوله « لَا ضَرَّ » ، وحذفت الياء لا لتقاء الساكنين ؛ لأنك لما حذفت الضمة من الراء بقيت الراء ساكنة والياء ساكنة لحذف الياء ، وكانت أولى بالحذف لأن قبلها ما يبدل عليها . وحكى اليكسابي أنه سمع « ضاره يَصُورُه » وأجاز « لَا يَصْرُكُم » وزعم أن في قراءة أبي بن كعب « لَا يَصْرُكُم » . ويجوز أن يكون مرغوعا على تقدير إضمار الفاء ؛ والمعنى : فلا يضركم . ومنه قول الشاعر :
 • مَنْ فَعَلَ الْحَسَنَاتِ اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ •

هذا قول اليكسابي والقراء . أو يكون مرغوعا على نية التقديم ؛ وأنشد سيويه :
 • إِنَّكَ إِنْ بَصَرَ أَخُوكَ تُصْرَعُ •^(١)

أي لا يضركم أن تصبروا وتثقوا . ويجوز أن يكون مجزوما ، وضمت الراء لا لتقاء الساكنين على إنباع الضم . وكذلك قراءة من فتح الراء على أن الفعل مجزوم ، وفتح « يَصْرُكُم » لا لتقاء الساكنين خلفه الفتح ؛ رواه أبو زيد عن الفضل عن عاصم ، حكاه المهدوي . وحكى النحاس : وزعم الفضل الضبي عن عاصم « لَا يَصْرُكُم » بكسر الراء لا لتقاء الساكنين .

قوله تعالى : وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ لِلْقِتَالِ
 وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ) العامل في « إذ » فعل مضمر تقديره : واذكر إذ غدت ، يعني خرجت بالصباح . (مِنْ أَهْلِكَ) من متراك من عند عائشة . (تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ) وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ هذه غزوة أحد وفيها نزلت هذه الآية كلها . وقال مجاهد والحسن ومقاتل والكلبي : هي غزوة الخندق . وعن الحسن أيضا : يوم بدر . والجمهور على أنها غزوة أحد ؛ يدل عليه قوله تعالى : « إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ فُتِنَا » وهذا إنما كان يوم أحد ، وكان المشركون قصدوا المدينة في ثلاثة آلاف رجل ليأخذوا ثأرهم

(١) موحسان بن ثابت رضي الله عنه . وقامه : • والشر بالشرع الله سيان •

(٢) هذا بحريث بن جبر بن عبد الله . ومعه : • يا أفرع بن حابس يا أفرع •

في يوم بدر، فزلوا عند أحد على شفير الوادي بقايا مقابل المدينة يوم الأربعاء الثاني عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة على رأس أحد وعشرين شهرا من الهجرة، فأتوا هناك يوم الخميس والتي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه أن في سيفه ثلثة وأن بقره له ثديج وأنه أدخل يده في درج حصينة، فأولما أن قرأ من أصحابه يقتلون وأن رجلا من أهل بيته يُصاب وأن القدر الحصينة المنيئة. أخرجه مسلم. فكان كل ذلك على ما هو معروف مشهور من تلك الغزاة. وأصل النبوة اتخاذ المنزل. يؤامه متزلا إذا أسكته إياه، ومنه قوله عليه السلام: "من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار". أي ليأخذ فيها منزلا. فمعنى تبوأ المؤمنين يُتخذ لهم مصاف. وذكر البيهقي من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "رايت فيما يرى النائم كأنى مُردف كيشا وكان ضبة سبي انكسرت فأولت أنى أقتل كبش القوم وأولت كسر ضبة سبي قتل رجل من يثري". فقتل حمزة وقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم طلعة، وكان صاحب اللواء. وذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب: وكان حامل لواء المهاجرين رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنا عاصم إن شاء الله لما معي؛ فقال له طلعة بن عثان أخو سعيد ابن عثان النخعي: هل لك يا عاصم في المبارزة؟ قال نعم؛ فبدره ذلك الرجل ف ضرب بالسيف على رأس طلعة حتى وقع السيف في لحية فقتله؛ فكان قتل صاحب لواء المشركين تصديقا لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم "كأنى مردف كيشا".

قوله نال: إذا همت طائفتان منكرا أن تقتلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿١٢٦﴾

العامل في «إذ، تبوي» أو «سميع علم». والطائفتان: بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس وكانا جناحى المسكر يوم أحد. ومعنى (أَنْ تَقْتُلَا) ان تَجَبَّأ. وفي البخارى عن جابر قال: فينا زلت «إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَقْتُلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا» قال نعم الطائفتان: بنو حارثة وبنو سلمة، وما يُحِبُّ أنها لم تقل لقول الله عز وجل: «والله وليهما». وقيل:

هم بنو الحارث وبنو الخزرج وبنو النضير ، والنضير هو عمرو بن مالك من بني الأوس .
والقتل عبارة عن الجوع ؛ وكذا هو في اللغة . ولهم من الطائفتين كان معه أتخروج لما
رجع عبد الله بن أبي بن معمر من المنافقين لحفظ الله قلوبهم فلم يرجعوا ؛ فذلك قوله تعالى :
«وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا» يعني حافظ قلوبهما عن تحقيق هذا المم . وقيل : أرادوا التقاعد عن الخروج
وكان ذلك صغيرة منهم . وقيل : كان ذلك حديث نفس منهم خطر ببالهم وأطلع الله نية عليه
السلام عليه فازدادوا بصيرة ؛ ولم يكن ذلك الجور مكتسباً لم فعصمهم الله ، وذنم بعضهم
بعضاً ، ومنهضوا مع النبي صلى الله عليه وسلم فضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أطل
على المشركين ، وكان خروجه من المدينة في ألف ، فرجع عبد الله بن أبي بن سلول بثلاثمائة
وجل غاضباً ؛ إذ خولف رأيه حين أشار بالعودة والقتال في المدينة إن نهض إليهم المدعو ؛
وكان رأيه وافق رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى ذلك أكثر الأنصار ، وسيأتي .
ونعوض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين فأستشهد منهم من أكرمه الله بالشهادة .
قال مالك رحمه الله : قُتل من المهاجرين يوم أحد أربعة ، ومن الأنصار سبعون رضي الله عنهم .
والتقاعد : جمع مقعد وهو مكان القعود ، بمنزلة مواقف ، ولكن لفظ القعود دال على الثبوت ؛
ولا سيما أن الزمارة كانوا قعوداً . هذا معنى حديث غزاة أحد على الاختصار ، وسيأتي من
تفصيلها ما فيه شفاء . وكان مع المشركين يومئذ مائة فرس عليها خالد بن الوليد ولم يكن مع
المسلمين يومئذ فرس . وفيها جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه وكسرت رابطة
اليمنى السفلى بحجر وهشمت الأضفة من على رأسه صلى الله عليه وسلم ، وجزاء عن أنفه ودينه
بأفضل ما جرى به نيا من أنبيائه على صبره . وكان الذي تولى ذلك من النبي صلى الله عليه
وسلم عمرو بن قبيصة اللبي ، وعبيد بن أبي وقاص . وقد قيل : إن عبد الله بن شهاب جد
الفيقي محمد بن مسلم بن شهاب هو الذي شج رسول الله صلى الله عليه وسلم في جبهته . قال
الواقدي : والثابت عندنا أن الذي رمى في وجه النبي صلى الله عليه وسلم ابن قبيصة ، والذي

(١) مكاناً في الأصول . (٢) البيضة : البلوفة ، وهي زود يسج على لدار الرأس يلبس تحت القفصة .

أدعى شفته وأصاب رجايته حبة بن أبي وقاص . قال الواقدي بإسناده عن نافع بن جبير قال : سمعت رجلا من المهاجرين يقول : شهدت أسلما فنظرت إلى النبل تأتي من كل ناحية ورسول الله صلى الله عليه وسلم وسطها كل ذلك [بصرف عنه . ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهري يقول يومئذ : دُلُونِي عَلَى مُحَمَّدٍ دُلُونِي عَلَى مُحَمَّدٍ ، فَلَا تَجُوتُ إِلَّا نَجَا . (١)] رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه ما معه أحد ثم جاوزه ؛ فعاتبه في ذلك صفوان فقال : والله ما رأيته ، أحلف بالله إنه ميت ممنوع ! خرجنا أربعة تعاهدنا وتعاهدنا على قتله [فلم تخلص إلى ذلك] . وأكبت الهجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سقط في حفرة كان أبو عامر الزاهد قد حفرها بمكة للمسلمين ، فخرط عليه السلام على جنبه واحتضنه طلحة حتى قام ، ومضى مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم للدم . وتثبت حلقان من درع المفقر في وجهه صلى الله عليه وسلم فآثرعهما أبو عبيدة بن الجراح وعض عليهما بنيتي فسقطا ، فكان أتم يزيتة منه رضى الله عنه . وفي هذه الفترة قُتل حمزة رضى الله عنه ، قتل وحشي ، وكان وحشي مملوكا لبجير بن مطعم . وقد كان جبير قال له : إن قُلتَ معنا جعلنا لك أمة لخليل ، وإن أنت قُلتَ على بن أبي طالب جعلنا لك مائة ناقة كلها سود الحديق ، وإن أنت قُلتَ حمزة فانت حر . فقال وحشي : أنا عبد فليس حافط من الله لا يخلص إليه أحد . وأنا على ما برز إليه أحد إلا قتله . وأنا حمزة فربما شجاع ، وعسى أن أصادفه فأقتله . وكانت هند كلما تبا وحشي أو مرت به قالت : إياها إيا دثمة آثيف واستشف ، فكأن له خلف محبرة وكان حمزة حمل على القوم من المشركين ؛ فلما وجع من حملته ومرو بوحشي زرقه بالزرق فاصابه فسقط منها ، رحمه الله ورضي عنه . قال ابن إسحاق : فبقرت هند عن كبد حمزة فلا كتها ولم تستطيع أن تسبقها فللقطها ثم ملت على محبرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها فقالت :

نحن جزيناكم بيوم بدر . والحرب بعد الحرب ذات سمر
ما كان عن عتبة لي من صبر . ولا نبي وعمه وبكري

شَفِيتُ نَفْسِي وَقَضَيْتُ نَفْسِي • شَفِيتُ وَخَشِيتُ غَلِيلَ صَدْرِي
فَنُصِّرُكَ وَخَشِيتُ عَلَى عَجْبِي • حَتَّى تَرَى أَعْلَى فِي قَسْبِي
فَأَجَابَهَا هَنْدُ بِنْتُ عَادٍ بِنَ الْمُطَّلَبِ فَقَالَتْ :

تَحْرِيتٌ فِي بَدْرِ وَبَعْدَ بَدْرِ • يَا بِنْتَ وَقَاجٍ عَظِيمِ الْكُفْرِ
صَبَحَكَ اللَّهُ غَدَاةَ النَّجْرِ • يَلْهَاهُمُ الْطُغُولُ الزُّمْرِ
بِكُلِّ قَطَاعٍ حُسَامٍ يَفْرَى • حِمْرَةٌ لَتِي وَعَلَى صَفْرِي
إِذَا رَامَ شَيْبَ وَأَبْرُوكَ عَنْدِي • لَغَضَبًا مِنْهُ ضَوَائِي النَّحْرِ
• وَتَذَكُّرُكَ السُّوءِ فَتَرْتَدِّي •

وَقَالَ عِمْدَةُ اللَّهِ بِنُ رَوَاحَةَ بِنْتُ حِمْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

بَكَتُ عَنِّي وَحَقٌّ لَهَا بَكَاهَا • وَمَا بَغْنِي الْبَكَاءُ أَوْ التَّوْبِيلُ
مَلَى أَسَدِ الْإِلَهِ غَدَاةَ قَالُوا • أَحْمَرَةٌ ذَاكُمُ الرَّجُلُ الْفَتِيلُ
أَصِيبُ الْمُسْلِمِينَ بِهِ جَمِيعًا • هُنَاكَ، وَقَدْ أَصِيبُ بِهِ الرُّسُولُ
أَبَا بَقْلٍ لَكَ الْأَرْكَانُ هُنْتُ • وَأَنْتِ الْمُسْلِمَةُ الْقَبْرُ الْوُصُولُ
عَلَيْكَ سَلَامُ رَبِّكَ فِي جَنَّاتٍ • مَخَالِطُهَا نَفْسٌ لَا يَزُولُ
أَلَا يَا هَانِمَ الْأَخْيَارِ صَبْرًا • فَكُلِّ ضَالِكٍ حَسَنُ جَمِيلُ
رَسُولُ اللَّهِ مُصْطَفَى كَرِيمٌ • بِأَمْرِ اللَّهِ يَنْطَلِقُ إِذَا يَفْزُولُ
إِلَّا تَمَنُّ تَبْلُغُ عَنِّي قَوْلًا • فَبَعْدَ الْيَوْمِ دَائِلَةٌ تَدُولُ
وَقَبْلَ الْيَوْمِ مَا عَرَفْنَا وَذَاقُوا • وَقَاتِمًا بِهَا يُشْفَى الْفَتِيلُ
نُسَيْمُ ضَرْبَتَا قَلْبِي بِدَرٍ • غَدَاةَ إِذَا كُمُ الْمَوْتُ السَّجِيلُ
غَدَاةَ تَوَى أَبُو جَهْلٍ صَرِيحًا • عَلَيْهِ الطَّبَرُ حَامِيَةُ تَجْمُولُ
وَعُجْبَةٌ وَأَبْنَسُهُ تَرَا جَمِيعًا • وَشَيْئُهُ عَضَهُ السِّيفُ الصَّفِيلُ

(١) أَرَادَتْ شَيْئَةً بَيْنَ رَجِيَّةٍ أَمَّا شَيْئَةٌ بَيْنَ رَجِيَّةٍ أَمَا هَذِهِ • وَقَدْ دَخَلَ فِيهَا فِي غَيْرِ الشَّاءِ • لِمَعْرُودَةِ الشَّعْرِ •

(٢) الْقَلْبُ (فَتَحَّاهُ وَكَرَّمَ تَابَهُ) : الْبَرِّ الْعَادِيَةِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي لَا يَهْلِكُهَا رَيْبٌ وَلَا حَافِرٌ تَكُونُ فِي الْوَارِي • يَذْكُرُ وَرَثَتَهُ •

وَمَرَّتْكَ أُمَيَّةٌ بَجَلِيًّا^(١) . وَفِي حَزَنِهِ لَدُنْ نَوِيلٍ^(٢)
 وَهَامَ بَنِي رَيْمَةَ سَائِلُوهَا . قَتَى أَسَافِنَا مِنْهَا فُلُولُ
 آلَا يَاهُ نَد لَا تُبْدِي قَتْمَانًا . بِحِزَّةِ ابْنِ عِرْزَمٍ ذَلِيلُ
 آلَا يَاهُ نَد فَابْكِي لَا تَمَلِّي . فَلَنْتِ لِلْوَالِدَةِ الْمَبْرُورِ الْمَبُولِ^(٣)

وَرَتَّتَهُ أَيْضًا أُخْتُهُ صَفِيَّةٌ، وَذَلِكَ مَذْكُورٌ فِي السِّيرَةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَلْبُتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه مسألة واحدة، وهي بيان التَّوَكَّلِ . والتَّوَكَّلِ في اللغة إظهار العجز والاعتماد على الغير . ووَأَكَلٌ مَلَانٌ إِذَا ضَجَّ أَمْرُهُ مَتَكَلًّا عَلَى غَيْرِهِ .

واختلف العلماء في حقيقة التَّوَكَّلِ؛ فاستل عنه سهل بن عبد الله فقال : قالت فرقة الرِّضَا بِالضَّيَّانِ، وَقَطْعُ الطَّمَعِ مِنَ الْخُلُقَيْنِ . وقال قوم : التَّوَكَّلُ تَرْكُ الْأَسْبَابِ وَالرُّكُونُ إِلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ؛ فَإِذَا شَغَلَهُ السَّبَبُ عَنِ الْمُسَبَّبِ زَالَ عَنْهُ اسْمُ التَّوَكَّلِ . قال سهل : من قال التَّوَكَّلُ يَكُونُ يَرْكُ السَّبَبِ فَقَدْ طَمَنَ فِي سُنَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : ﴿فَتَكَلَّوْا مِمَّا غَنِيْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ ، فَالْتِمِذَةُ اكْتِسَابُ . وقال تعالى : ﴿فَاصْبِرُوا قَوَّةً الْأَعْيَانِ وَأَخْبِرُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَيِّنَةٍ﴾ فهذا عمل . وقال النبي صلى الله عليه وسلم " إِنْ اللَّهُ يَحِبُّ الْعَبْدَ الْمُحْتَرِفَ " . وَكَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقْرَضُونَ عَلَى السَّيْرِ^(٤) . قال غيره : وهذا قول طائفة الفقهاء . وَأَنَّ التَّوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ هُوَ التَّقَرُّبُ بِاللَّهِ وَالْإِيْقَانُ بِأَنَّ قَضَاءَهُ مَاضٍ، وَأَنِّيَاعُ سُنَةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السَّيِّئِ قِيَامًا لَا يَدُّ مِنْهُ مِنَ الْأَسْبَابِ مِنْ مَطْعَمٍ وَمَشْرَبٍ وَتَحْرِيزٍ مِنْ عَدُوٍّ وَإِعْدَادِ الْأَسْلِحَةِ وَاسْتِعْمَالِ مَا تَقْضِيهِ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى الْمُعَادَةِ . وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ مُحَقِّقُو الصُّوفِيَّةِ، لَكِنَّهُ لَا يُسْتَحَقُّ اسْمُ التَّوَكَّلِ عَنْهُمْ مَعَ الْعَمَائِيَّةِ إِلَى تِلْكَ الْأَسْبَابِ وَالْاِكْتِفَاءِ إِلَيْهَا بِالْقُلُوبِ؛ فَإِنَّمَا لَا تَجْمَلُ نَفْعًا وَلَا تَدْفَعُ ضَرًّا بَلِ السَّبَبُ وَالْمُسَبَّبُ فَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى، وَالْكُلُّ مِنْهُ وَبِمَشِيئَتِهِ، وَمَتَى وَقَعَ مِنَ التَّوَكَّلِ رُكُونٌ إِلَى تِلْكَ الْأَسْبَابِ فَقَدْ انْصَلَخَ عَنْ ذَلِكَ الْأَسْمِ . ثُمَّ التَّوَكَّلُونَ عَلَى

(١) الجلب : المصروع إما ميتا وإما صريحا شديدا . (٢) الحيزوم : وسط الصدور بما عليه عليه الحزام .
 والذنن : الرمح . (٣) المبول من النساء : التبول . (٤) السيرة : طائفة من الجيش يبلغ أعضاها أربابا؛ سموا بذلك لأنهم يكونون خلاصة المعسكر وخيارهم، من الشيء السري القبيح .

حالين : الأول - حال المتمكن في التوكل فلا يلتفت إلى شيء من تلك الأسباب بقلبه ، ولا يتعاطاه إلا بحكم الأمر . الثاني - حال غير المتمكن وهو الذي يقع إليه الالتفات إلى تلك الأسباب أحيانا فيراه يدفعها عن نفسه بالطرق العلية ، والبراهين القطعية ، والأنواق الحالية ، فلا يزال كذلك إلى أن يرقسه الله بجموده إلى مقام المتوكلين استمكنين ، ويلحقه بدرجات المارين .

قوله تعالى : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُسْكِرُونَ ﴿١١٦﴾ إِذْ يَقُولُ لِ الْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُتَرَلِّينَ ﴿١١٧﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١١٨﴾
فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ) كانت بدر يوم سبعة عشر من رمضان يوم الجمعة لثمانية عشر شهرا من الهجرة ، وبدر ماء هناك وبه سُمي الموضع . وقال الشعبي : كان ذلك الماء لرجل من جبهة يسمى بدرا ، وبه سُمي الموضع . والأول أكثر . قال الواقدى وغيره : بدر أسم لموضع غير منقول . وساقى في قصة بدر في « الأنفال » إن شاء الله تعالى . و (أَذِلَّةٌ) معناها قليلون ؛ وذلك أنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلا . وكان مدوهم ما بين التسعمائة إلى الألف . وه أذلة جمع ذليل . واسم الذل في هذا الموضع مستعار ، ولم يكونوا في أنفسهم إلا أعمرة ، ولكن نسبتهم إلى مدوهم وإلى جميع الكفار في أقطار الأرض تقتضى عند المتأمل ذلتهم وأنهم يُنلبون . والنصر العون ؛ فنصرهم الله يوم بدر وقتل فيه صناديد المشركين ، وعلى ذلك اليوم أبُني الإسلام ، وكان أول قتال قاتله النبي صلى الله عليه وسلم . وفي صحيح مسلم عن بريدة قال : غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع عشرة غزوة قاتل في ثمان منهن . وفيه عن ابن إسحاق قال : لقيت

زيد بن أرقم قتل له : كم غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : تسع عشرة غزوة .
فقلت : فكم غزوت أنت معه ؟ فقال : سبع عشرة غزوة . قال قتل : فما أول غزوة
غزاها ؟ قال : ذات النضير أو العشير . وهذا كله مخالف لما عليه أهل التواريخ والسير . قال
محمد بن سعد في كتاب الطبقات له : إن غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع وعشرون
غزوة ، وسراياه ست وخمسون ، وفي رواية ست وأربعون^(١) ، والتي قاتل فيها رسول الله صلى الله
عليه وسلم بدر وأحد والمريسيع والحنديق وخيبر وقريظة والفتح وحنين والطائف . قال ابن
سعد : هذا الذي أجمع لنا عليه . وفي بعض الروايات : أنه قاتل في بني النضير وفي وادي
القرى منصرفه من خيبر وفي الغابة^(٢) . وإذا تفوز هذا فتقول : زيد وبريدة إنما أخبر كل
واحد منهما بما في علمه أو شاهده . وتقول زيد « إن أول غزوة غزا ذات العشير » مخالف
أيضا لما قال أهل التواريخ والسير . قال محمد بن سعد : كان قبل غزوة الشيرة ثلاث
غزوات ، يعني غزاها بنفسه . وقال ابن عبد البر في كتاب الدرر في المغازي والسير ، أول غزاة
غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة ودان غزاها بنفسه في صفر ، وذلك أنه وصل
إلى المدينة لاثني عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ، أقام بها بقية ربيع الأول وباقي العام كله
إلى صفر من سنة اثنين من الهجرة ، ثم خرج في صفر المذكور واستعمل على المدينة سعد بن
جُبادة حتى بلغ ودان فوداع بني صُهمرة ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حربا ، وهي المممة بغزوة
الأبواء . ثم أقام بالمدينة إلى [شهر] ربيع الآخر من السنة المذكورة ، ثم خرج فيها واستعمل
على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون حتى بلغ بواط من ناحية رَضوى ، ثم رجع إلى المدينة^(٣)

(١) انتهى في كتاب الطبقات لابن سعد : « وكانت سراياه التي يثبت بها سبعا وأربعين مرة » .

(٢) لقابة : موضع قرب المدينة من ناحية الشام . (٣) ودان (فتح الواو وشد الميملة) : قرية بامتصن .

أسماء القرى من عمل القرع . وتقول : واد في الطريق يقطع المصعدون من حجاج المدينة . (عن شرح المواهب) .

(٤) المرادة : المصالح . (٥) بواط (فتح الموحدة وقد ضم وتحقيف الواو وأكبره طاء ميملة) :

جبل من جبال جهينة يقرب ينبع على أربعة برد من المدينة . (٦) رضى (فتح الراء وسكون المعجمة

مقصود) : جبل بالمدينة ، وهو على مسيرة يوم من ينبع وعلى سبع مراحل من المدينة .

ولم يلق حرباً ، ثم أقام بها بقية ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى ، ثم خرج غازياً واستخلف
على المدينة أبا مسلمة بن عبد الأسد ، وأخذ على طريق ملك إلى المدينة .

قلت : ذكر ابن إسحاق عن عمار بن ياسر قال : كنت أنا وعلى بن أبي طالب رفيقين
في غزوة المشيرة من بطن يَبْعُ فلما زلما رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بها شهراً فصالح بها
بني مُدَلج وحلفهم من بني ضَمْرَةَ فوادعهم ؛ فقال لي علي بن أبي طالب : هل لك أبا اليقظان
أن تأتي هؤلاء ؟ نفروا من بني مُدَلج يعملون في عَيْنٍ لم تنظر كيف يعملون . فأتيناهم فنظرونا
إليهم ساعة ثم غشيتنا التوم فعمدنا إلى صور بين النخل في دُقْعَاء من الأرض فبنينا فيه ؛ فوافت
ما أهبت إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدمه ؛ بغلسنا وقد تربطنا من تلك الدعاء فيؤمئذ
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي : " مالِك يا أبا تراب " ؛ فأخبرناه بما كان من أمرنا فقال :
" ألا أخبركم بأشقى الناس رجلين " فلنا : بل يارسول الله ؛ فقال : " أحيمرُ مَعْدٍ الذي عقر الناقة
والذي يضربك على رأسه " ووضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على رأسه - حتى
يَبْلُ منها هذه " ووضع يده على لحيته . فقال أبو عمر : فأقام بها بقية جمادى الأولى وليل من
جمادى الآخرة ، ووادع فيها بني مُدَلج ثم رجع ولم يلق حرباً . ثم كانت بعد ذلك غزوة بدر
الأولى بأيام قلائل ، هذا الذي لا يشك فيه أهل التواريخ والسير ، وزيد بن أرقم إنما أخبر
عما عنده . والله أعلم . ويقال : ذات السمر بالسين والشين ، ويزاد عليها هاء فيقال : المشيرة .
ثم غزوة بدر الكبرى وهي أعظم المشاهد فضلاً لمن شهدها ، وفيها أمد الله بملكته نبيه
والمؤمنين في قول جماعة العلماء ، وعليه يدل ظاهر الآية ؛ لا في يوم أحد . ومن قال : إن
ذلك كانت يوم أحد جعل قوله تعالى : « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ » إلى قوله : « فَتَشْكُرُونَ »
اعتراضاً بين الكلامين . وهذا قول عامر الشعبي ، وخالفه الناس . وتظاهرت الروايات
بأن الملائكة حضرت يوم بدر وقالت ؛ ومن ذلك قول أبي أسيد مالك بن ربيعة وكان شهيداً

(١) ملك (الكسرة المكون والكاف) : واد بكة .

(٢) المبرور : جماعة النخل الصغار ؛ لا واحد له من فقهه .

بدر : لو كنتُ معكم الآنَ يَدْرُ ومَيَّ بصرى لأريتكم الشَّعبَ الذي خرجت منه الملائكةُ ،
لا أشك ولا أمتري . رواه عقيل عن الزُّهري عن أبي حازم سلمة بن دينار . قال ابن أبي حاتم :
لا يُعرف للزُّهري عن أبي حازم غيرُ هذا الحديث الواحد ، وأبو أُسيد يُقال إنه آخر من مات
من أهل بدر ؛ ذكره أبو عمر في الاستيعاب وغيره . وفي صحيح مسلم من حديث عمر بن
الخطَّاب قال : « لما كان يومُ بدرَ نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف
وأصحابُهُ ثلثمائة وتسعة عشر رجلاً ، فاستقبل نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مَدَّ يديه
بفعل يهتف بربه : « اللَّهُمَّ انجِزْ لي ما وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ لَيْتَ ما وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكَ هذه
العصابةُ من أهل الإسلام لا تُعَيِّدْ في الأرض » فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة
حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأنه أبو بكر فاخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه
وقال : يا نبيَّ الله ، كفَّاكَ مُشَادَنُكَ رَيْكَ ، فَإِنَّهُ سَيَجِزُ لَكَ ما وَعَدَكَ ، فَأَتَى الله تعالى :
« إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْسِدِينَ » فأمدَّ الله تعالى
بالملائكة . قال أبو زَيْد : فحدثني ابن عباس قال : بينا رجل من المسلمين يومئذ يستد في أثر
رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول : أَقْدِمَ حَيَّوْمُ ؟
فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستقيماً فنظر إليه فإذا هو قد خُيِّمَ اللهُ وشُقَّ وجهه [كضربة السوط] ^(١)
فاخضرت ذلك أجمع . فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :
« صدقت ذلك من مَدَد السماء الثالثة » فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين . وذكر الحديث .
وسياقُ تمامه في آخر « الأنفال » إن شاء الله تعالى . فظاهرت السنة والقرآن على ما قاله
الجمهور ، والحدِّث . وعن خارجة بن إبراهيم عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لجبريل : « بين القاتل يوم بدر من الملائكة أَقْدِمَ حَيَّوْمُ ؟ » فقال جبريل : « يا محمد ما كل سماء
أعرف » . وعن علي رضي الله عنه أنه خطب الناس فقال : بينا أنا أفتح من قلب بدر جاءت
ريح شديدة لم أر مثلها قط ، ثم ذهبت ، ثم جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط إلا التي كانت
(١) الشعب (بالكسر) : الطريق في الجبل . (٢) أبو زيد (بالفتح) هو مالك بن الوليد . (تأنيب التنبؤ) .
(٣) حَيَّوْمُ : اسم فارس من خيل الملائكة . (٤) زيادة عن صحيح مسلم .

قلها . قال : وأظنه ذكر : ثم جاءت ريح شديدة ، فكانت الريح الأولى جبريل نزل في ألف من الملائكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت الريح الثانية ميكائيل نزل في ألف من الملائكة عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو بكر عن يمينه ، وكانت الريح الثالثة إسرائيل نزل في ألف من الملائكة عن يسرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في المبصرة . وعن سهل بن حنيف رضى الله عنه قال : لقد رأيتنا يوم بدر وأت أحدنا يشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه . وعن الزبير بن أنس قال : كان الناس يوم بدر يعرفون قتل الملائكة بمن قتلهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به ؛ ذكر جميعه النبي رحمه الله . وقال بعضهم : إن الملائكة كانوا يقاتلون وكانت علامة ضربهم في الكفار ظاهرة ؛ لأن كل موضع أصابت ضربتهم اشتعلت النار في ذلك الموضع ، حتى أن أبا جهل قال لابن مسعود : أنت قتلتني ؟ ! إنما قتلتني الذي لم يصل يدي إلى سبك فروسه وإن أجتهدت . وإنما كانت الفائدة في كثرة الملائكة لتسكين قلوب المؤمنين ، ولأن الله تعالى جعل أولئك الملائكة مجاهدين إلى يوم القيامة ؛ فكل عسكر صبر واحتسب تأنيهم الملائكة وقاتلون معهم . وقال ابن عباس ومجاهد : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر ، وفيما سوى ذلك يشهدون ولا يقاتلون إنما يكونون عددا أو مددا . وقال بعضهم : إنما كانت الفائدة في كثرة الملائكة أنهم كانوا يدعون ويسبحون ، ويكثرون الذين يقاتلون يومئذ . فعلى هذا لم تقاتل الملائكة يوم بدر وإنما حضروا للدعاء بالثبوت ، والأول أكثر . قال قتادة : كان هذا يوم بدر ، أممهم الله بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف ؛ فذلك قوله تعالى : « إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبَّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ » وقوله : « أَلَّا يَكْفِيَكُمْ أَنَّا مُدِّدُكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ » وقوله : « بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ » فصرير المؤمنين يوم بدر واتقوا الله فأممهم الله بخمسة آلاف من الملائكة على ما وعدمهم ؛ فهذا كله يوم بدر . قال الحسن : فهؤلاء الخمسة آلاف رده المؤمنين إلى يوم القيامة . قال الشعبي : بلغ النبي

صلى الله عليه وسلم وأصحابه يوم بدر أن كُرْز بن جابر المخاريبي يريد أن يمدّ المشركين فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين ؛ فانزل الله تعالى ﴿ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ - إلى قوله : مُسَوِّينَ ﴾ فبلغ كُرْزاً الهزيمة فلم يمتدح ورجع ، فامتدح الله أيضا بالخمسة آلاف ، وكانوا قد مدّوا بألف . وقيل : إنما وعد الله المؤمنين يوم بدر إن صبروا على طاعته ، وأنقوا محارمه أن يمتدح أيضا في حروبهم كلها ، فلم يصبروا ولم ينقوا محارمه إلا في يوم الأحزاب ، فامتدح حين حاصروا قريظة . وقيل : إنما كان هذا يوم أحد ، وعدمه الله الممدد إن صبروا ، فما صبروا فلم يمددوا بملك واحد ، ولو أمددوا لما هزموا ؛ قاله عكرمة والضحاك . فإن قيل : فقد ثبت عن سعد ابن أبي وقاص أنه قال : رأيت عن عيين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن يساره يوم بدر وجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عليه أشد قتال ، ما رأيتما قبل ولا بعد . قيل له : لعل هذا غصص بالنبي صلى الله عليه وسلم ، خصه بملكين يقاتلان عنه ولا يكون هذا إمدادا للصحابه . والله أعلم .

الثانية - نزول الملائكة سبب من أسباب النصر لا يحتاج إليه الرب تعالى ، وإنما يحتاج إليه المخلوق فليعلق القلب بالله وليتق به ، فهو الناصر بسبب وبغير سبب ؛ « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » . لكن أخبر بذلك ليمتثل الخلق ما أمرهم به من الأسباب التي قد خلت من قبل ، « ولئن تجد لسنة الله تبديلا » ، ولا يقدم ذلك في التوكل . وهو يرد على من قال : إن الأسباب إنما سُنّت في حق الضمفاء لا للأقوياء ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا الأقوياء وغيرهم هم الضمفاء ، وهذا واضح . و« مد » في الشر و« أمد » في الخير . وقد تقدم في البقرة . وقرأ أبو حيوة ^(١) « مترلين » بكسر الزاي مخففا ، يعني مترلين النصر . وقرأ ابن عامر مشددة الزاي مفتوحة على التثنية . ثم قال : (إلى) وتم الكلام . (إن تصبروا) شرط ، أي على لقاء العدو . (وتيقوا) عطف عليه ، أي مصيبتيه . والجواب (يمددكم) . ومعنى (من قورهم) من وجههم . هذا عن عكرمة وقادة والحسن

والزبيح والسدي وابن زيد . وقيل : بن غضبهم ، عن مجاهد والضحاك . كانوا قد غضبوا يوم أُجِدَّ ليوم يترى لهم . وأصل القور القصد إلى الشيء والأخذ فيه يحد ، وهو من قولهم : فارت القدر غمور قورا وقورانا إذا غلت . والقور التليان . وقار غضبه إذا جاش . وقمله من قوره أى قبل أن يسكن . والقوارة ما غور من القدر . وفي التثنية « وقار التنور » . قال الشاعر :

• غور علينا قد رم فديهما •

الثالثة - قوله تعالى : (مُسَوِّينَ) بفتح الواو اسم مفعول ، وهى قراءة ابن عامر وحزمة والكسائي ونافع . أى مُعَلِّمِينَ بِعلامات . و« مُسَوِّينَ » بكسر الواو اسم فاعل ، وهى قراءة أبى عمرو وابن كثير وعاصم ، فيحتمل من المعنى ما تقدم ، أى قد أعلموا أنفسهم بعلامه ، وأعلموا خيلهم . ورجح الطبري وغيره هذه القراءة . وقال كثير من المفسرين : مسوِّين أى مرسلين خيلهم فى الفارة . وذكر المهدوي هذا المعنى فى « مسوِّين » بفتح الواو ، أى أرسلهم الله تعالى على الكفار . وقاله ابن فورك أيضا . وعلى القراءة الأولى اختلفوا فى سيما الملائكة ؛ فروى عن على بن أبى طالب وابن عباس وغيرهما أن الملائكة أعتت بهم ثم أرسلوها بين أكافهم ؛ ذكره البيهقي عن ابن عباس ، وحكاه المهدوي عن الزجاج . إلا جبريل فإنه كان بهامة صفراء على مثال الزير بن العوام ، وقاله ابن إسحاق . وقال الربيع : كانت سيماهم أنهم على خيل بلقي . قلت : ذكر البيهقي عن سهيل بن عمرو رضى الله عنه قال : لقد رأيت يوم بدر رجالا يمضا على خيل بلقي بين السماء والأرض معلّمين يقتلون ويأمرون . فقوله « معلّمين » دل على أن أنجيل بلقي ليست السبا . وانه أعلم . وقال مجاهد : كانت خيلهم محزوزة الأذنان والأعراف معلّمة النواصي والأذنان بالصوف واليمن . وروى عن ابن عباس : تسومت الملائكة يوم بدر بالصوف الأبيض فى خواص الخيل وأذنانها . وقال جابر بن عبد الله بن الزبير وعشام بن عروة الكوفي : تزلت الملائكة فى سيما الزير ملهيم مما تم صفر مرخاة على أكافهم . وقال ذلك عبد الله وعروة ابنا الزبير . وقال عبد الله : كانت ملاء صفراء أعتت بها الزير رضى الله عنه . (١) الذين : العرب المصيرغ الرواة •

قلت : ودلت الآية — وهي الرابعة — على اتخاذ العلامة للقبائل والكُتُوب يحملها السلطان لم يتميز كل قبيلة وكُتُوب من غيرها عند الحرب ، وعلى فضل الخليل الباقى لقوله للملائكة عليها .

قلت : — ولعلها نزلت عليها موافقة لقرص القناد ، فإنه كان باقى ولم يكن لم قرص غيره ، فزلت الملائكة على الخليل الباقى لإكرام القناد ، كما نزل جبرئيل معجراً بهمة صفراء على يثايل الزبير . والله أعلم .

ودلت الآية أيضاً — وهي الخامسة — على لباس الصوف وقد لبسه الأنبياء والعالمون وروى أبو داود وابن ماجه واللفظ عن أبى بردة عن أبيه قال قال لى أبى : لو شيدتاً ونسج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصابنا السماء لحسبت أنى ريحاً رجع الضان لولس صلى الله عليه وسلم حبة رومية من صوف ضيقة الكتين ؛ ورواه الأئمة . ولبسها يونس عليه السلام ؛ ورواه مسلم . وسأيت لهذا المعنى مزيد بيان فى « النحل » إن شاء الله تعالى .

السادسة — قلت : وما ذكره مجاهد من أن خيلهم كانت محزونة للأذنب والأعراف فبعد ؛ فإن لى مُصَنَّف أبى داود من حبة بن عبد السلى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تَقْصُصُوا تِوَامِى الخليل ولا ماعزها ولا أذنبها فإن أذنبها مذابها ومارعها دفاؤها ونواصيها معقود فيها الخير » . فقول مجاهد يحتاج إلى توقيف من أن خيل الملائكة كانت على تلك الصفة موافقاً له .

ودلت الآية على حسن الأبيض والأصفر من الألوان لتزول الملائكة بذلك ، وقد قال ابن عباس : من لبس ثياباً أصفر قُضيت حاجته . وقال عليه السلام : « البُسُوا من ثيابكم البياض فإنه من خير ثيابكم وكَفُّوا فيه موتاكم وأما الثمام فيجان العرب ولباسها » . وروى رُكَّانُه وكان صارع النبي صلى الله عليه وسلم قصره النبي صلى الله عليه وسلم ، قال رُكَّانُه : وسمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « تَرَقُّ ما بيننا وبين المشركين الثمام على القلاني » أخرجه أبو داود . قال النحاس : إسناد مجهول لا يُعرف سماع بعضه من بعض .

قوله تعالى : وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ .
وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْغَزِيرَ الْحَكِيمَ ﴿١٦٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَقًا مِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَوْ يَسْتَبِيحُوا فَيَقْلَبُوا خَائِبِينَ ﴿١٦٧﴾

قوله تعالى : (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ) الماء للند، وهو الملائكة . أو الوعد
أو الإمداد، ويدل عليه « بمدكم » أو للتسويم أو للإتزال أو المدد على المعنى ؛ لأن خمسة
آلاف عدد . (وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ) الام لا م كي، أى وتطمئن قلوبكم به جعله ؛ كقوله :
« وَزَيَّنَّا الْمَاءَ الدَّثِيمَ صَبِيحًا وَحِفْظًا » أى حفظا لما جبل ذلك . (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)
يعنى نصر المؤمنين، ولا يدخل فى ذلك نصر الكافرين ؛ لأن ما وقع لهم من غلبة إنما هو إملاء
محفوظ بخذلان وسوء عاقبة وخسران . (لِيَقْطَعَ طَرَقًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى بالقتل . ونظم
الآية : ولقد نصركم الله بغير لقطع . وقيل : المعنى وما النصر إلا من عند الله لقطع .
ويحوز أن يكون متعلقا بمدكم، أى بمدكم لقطع . والمعنى : من قتل من المشركين يوم بدر؛
عن الحسن وضره . السدى : يعنى به من قتل من المشركين يوم أُحُد وكانوا ثمانية عشر رجلا .
ومعنى (يَكْفِيهِمْ) يحوزهم ؛ والمكبوت المحزون . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء إلى
لبي طلحة فرأى ابنه مكبوتا فقال : « ما شأنه ؟ » . فقيل : مات يميده . وأصله فيما ذكر
بعض أهل اللغة « يكيدهم » أى يصيبهم بالحزن والنيظ فى أبادهم ، فأبدلت الدال تاء ،
كما قلبت فى سبت وأسه وسبده أى حلقه . كتبت الله المدوكتا إذا صرفه وأذله ، وكبدته
أصابه فى كبده ؛ يقال : أحرق الحزن كبده ، وأحرقت المداوة كبده . وتقول العرب للمدو :
أسود الكبد ؛ قال الأصمى :

فما أجشمت من إتيان قوم • هسم الأعداء فالأباد سود

كان الأباد لما احترقت بشدة المداوة أسودت . وقرأ أبو مجاز « أويكيدهم » بالdal . والخائب :
المتقطع الأمل . خائب يجب إذا لم ينل ما طلب . والخائب : الفتح لا يؤرى .

قوله تعالى : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - ثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كُتِرَتْ رُبَاعِيَّتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَخُجَّ فِي رَأْسِهِ ، فَبَغِلَ يَسْلُتُ الدِّمَ عَنْهُ وَيَقُولُ : « كَيْفَ يُلْحَقُ قَوْمٌ قَتَلُوا رَأْسَ نَبِيِّهِمْ وَكَسَرُوا رُبَاعِيَّتَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى » . فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » . الضَّحَّاكُ : هُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » . وَقِيلَ : اسْتَأْذَنَ فِي أَنْ يَدْعُوَ فِي اسْتِئْصَالِهِمْ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلِمَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ سَيُحِلُّ وَقَدْ آمَنَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَعُمَرُ بْنُ الْعَاصِ وَعِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَغَيْرُهُمْ . وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي عَمْرٍو قَالَ : وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْرَبَائِهِ اللَّهُ عَنْهُمْ وَجَلَّ « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » فَهَدَاهُمُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ . وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ قِيلَ : هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى « لَيَقْلَعَنَّ طَرَفَاهُ » وَلِلْمَنَى : لَيُقْتَلَنَّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَوْ يَمُزَّجُ مِنْهُمْ بِالْغَزِيمَةِ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يَمُذَّبُ . وَقَدْ تَكُونُ « أَوْ » هَاهُنَا بِمَعْنَى « حَتَّى » وَ « إِلَّا أَنْ » . قَالَ أَمْرٌو الْقَيْسِيُّ :

« ... أَوْ نَمُوتَ فَتَصَدَّرَا »

قَالَ عَلَاءُ زَنَا : قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « كَيْفَ يُلْحَقُ قَوْمٌ قَتَلُوا رَأْسَ نَبِيِّهِمْ » اسْتِبْعَادٌ لِتَوْقِيعِ مَنْ قَتَلَ ذَلِكَ بِهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » تَقْرِيبٌ لِمَا اسْتَبْعَدَهُ وَالطَّلَاعُ فِي إِسْلَامِهِمْ ، وَلَمَّا أَطْلَعَ فِي ذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : كَانَتْ لَأَنْطَرَالٍ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْكِي نَبَأًا عَنْ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ : « رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ

لا يعلمون". قال حمادنا : فالحاكي في حديث ابن مسعود هو الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو الحكيم منه ؛ بدليل ما قد جاء صريحاً بيننا أنه عليه الصلاة والسلام لما كسرت رباعيته ونُجَّ وجهه يوم أُحد بقي ذلك على أصحابه شقاً شديداً وقالوا : لو دعوت عليهم ! فقال : " إني لم أبت لَمَأَةً ولكن بَشَتْ دَائِعِيَا وَرَحْمَةُ اللَّهِمْ أَغْفِرْ لِقَوْمِي فَانْهَمَ لَا يَعْلَمُونَ " . فكانه عليه السلام أوحى إليه بذلك قبل وقوع قِصَّةِ أُحُدٍ ، ولم يُعَيِّنْ له ذلك الشيء ؛ فلما وقع له ذلك تبيّن أنه المُنْبِيُّ بِذلك بدليل ما ذكرنا . وبينته أيضاً ما قاله عمر له في بعض كلامه : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لقد دعا نوح على قومه فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْنِي فِي الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذُبَابًا » الآية . ولو دعوت علينا مثلها لملكنا من عند آخرنا ؛ فقد وطئ ظهرك وأذى وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيراً ، فقلت : « رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَانْهَمَ لَا يَعْلَمُونَ » . وقوله : « اشتد غضب الله على قوم كسروا رباعية نبيهم » يعني بذلك المباشر لئلك ، وقد ذكرنا اسمه على اختلاف في ذلك ، وإنما قلنا إنه خصوص في المباشر لأنه قد أسلم جماعة ممن شهد أُحُدًا وحسن إسلامهم .

الثانية - زعم بعض الكوفيين أن هذه الآية ناعمة للفقوت الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعله بعد الركوع في الركة الأخيرة من الصبح ، واحتج بحديث ابن عمر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول في صلاة الفجر بعد رفع رأسه من الركوع فقال : « اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ » - ثم قال - « اللَّهُمَّ أَلَمْنِ فَلَانًا وَفَلَانًا » فآثر الله عز وجل « ليس لك من الأمر شيء » أو يتوب عليهم « الآية » . أخرجه البخاري ، وأخرجه مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة أنهم سمعوه . وليس هذا موضع نسخ وإنما تباه الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على أن الأمر ليس إليه ، وأنه لا يعلم من الغيب شيئاً إلا ما أعلمه ، وأن الأمر كله لله يتوب على من يشاء ويسجل العقوبة لمن يشاء ، والتقدير : ليس لك من الأمر شيء . والله مولى السموات وما في الأرض . وذلك ودعوتهم بنصر لمن يشاء ويتوب على من يشاء . فلا نسخ ، والله أعلم . ومن بقوله : « ليس لك من الأمر شيء » أن الأمر بقضاء الله وقدره رَدًّا على القدرية وغيرهم .

الثالثة - واختلف العلماء في القنوت في صلاة النحر، ففتح الكوفيون منه في الفجر وغيرها. وهو مذهب الليث ويحيى بن يحيى الليثي الأندلسي صاحب مالك، وأتركه الشعبي.
وفي الموطأ عن ابن عمر: أنه كان لا يقنّت في شيء من الصلاة. وروى النسائي أنبأنا قتبية عن خلف عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه قال: صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقنّت، وصليت خلف أبي بكر فلم يقنّت، وصليت خلف عمر فلم يقنّت، وصليت خلف عثمان فلم يقنّت، وصليت خلف علي فلم يقنّت؛ ثم قال: يا بني إنما بدعة. وقيل: يقنّت في الفجر دائما وفي سائر الصلوات إذا نزل بالمسلمين نازلة؛ قاله الشافعي والطبري. وقيل: هو مستحب في صلاة الفجر، وروى عن الشافعي. وقال الحسن وميخون: إنه سنة. وهو مقتضى رواية علي بن زياد عن مالك بإعادة تاركه للصلاة عمدا. وحكى الطبري الإجماع على أن تركه غير مفسد للصلاة، وعن الحسن: في تركه سجود السهو؛ وهو أحد قولي الشافعي. وذكر الدارقطني عن سعيد ابن عبد العزيز نسي القنوت في صلاة الصبح قال: يسجد بسجدة السهو. واختار مالك قبل الركوع؛ وهو قول إسحاق. وروى أيضا عن مالك بعد الركوع، وروى عن الخلقاء الأربعة، وهو قول الشافعي وإسحاق أيضا. وروى عن جماعة من الصحابة التخيّر في ذلك. وروى الدارقطني بإسناد صحيح عن أنس أنه قال: ما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقنّت في صلاة الغداة حتى فارق الدنيا. وذكر أبو داود في المراسيل عن خالد بن أبي عمران قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على مضّر إذ جاءه جبريل فأومأ إليه أن أَسْكُتَ فسكت؛ فقال: «يا محمد إن الله لم يعنك سبّابا ولا تَمَانًا وإنما بعثك رحمة ولم يعنك صلابا، ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون» قال: ثم علمته هذا القنوت فقال: «اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونؤمن بك ونخضع لك ونخلع^(١) ونترك من يكفرك اللهم إياك نعبد ولك نصل ونسجد وإليك نسعى ونحفد نرجو رحمتك ونخاف عذابك أَلْجُدُ إِلَى عَذَابِكَ بِالْكَافِرِينَ مُلْحِقِينَ»^(٢).

(١) التضرع؛ المنزوع والقل. (٢) الملق (فتح فكون)؛ الإسراع في السجدة والسجدة.

(٣) الرواية بغير الماء، أي منحه تله به طابك الله بالكفار. وقيل: هو بمعنى لاحق، لغة في ملحق.

وورد في فتح الخلاء على المشعر، أي إن عذابك يلحق بالكفار ويصاوبهم به. (عن ابن الأثير).

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ مَضْغَعَةً
وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٦﴾ وَأَتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣٧﴾
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٨﴾

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ مَضْغَعَةً) هذا التي عن أكل
الربا اعتراض بين إنشاء قصة أحد . قال ابن عطية : ولا أحفظ في ذلك شيئا حروياً .

قلت : قال مجاهد : كانوا يبيعون البيع إلى أجل ، فإذا حل الأجل زادوا في الثمن على أن
يؤخروا ؛ فأنزل الله عز وجل « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ مَضْغَعَةً » . وإنما خص
الربا من بين سائر المعاصي لأنه الذي أذن فيه بالحرب في قوله : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ
مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » والحرب يؤذن بالقتل ؛ فكانه يقول : إن لم تتقوا الربا هزمتم وقتلتم . فامرهم
بترك الربا لأنه كان معمولاً به عندهم . والله أعلم . و (أَمْوَالًا) نصب على الحال و (مَضْغَعَةً)
نعتة . وقرئ « مضغعة » ومعناه : الربا الذي كانت العرب تضع فيه الدين ، فكان الطالب
يقول : أَتَقِضِي أَمْ تُرَبِّي ؟ كما تقدم في « البقرة » . و (مَضْغَعَةً) إشارة إلى تكرار التضعيف عاماً
بعد عام كما كانوا يصنعون ؛ فدلّت هذه العبارة المؤكدة على شناعة فعلهم وقبحه ولذلك ذكرت
حالة التضعيف خاصة

قوله تعالى : (وَأَتَّقُوا اللَّهَ) أى في أموال الربا فلا تأكلوها . ثم خوفهم فقال : (وَأَتَّقُوا النَّارَ
الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) قال كثير من المفسرين : وهذا الوعيد لمن استحل الربا ، ومن استحل
الربا فإنه يكفر . وقيل : معناه اتقوا العمل الذي يترع منكم الإيمان فتستوجبون النار ؛ لأن من
الذنوب ما يستوجب به صاحبه ترع الإيمان ويخاف عليه ؛ من ذلك عقوق الوالدين . وقد جاء
في ذلك أثر : أن رجلاً كان عاقلاً والديه يقال له علقمة ؛ فقبل له عند الموت : قل لا إله إلا الله ،
فلم يقدر على ذلك حتى جاءته أمه فرفضت عنه . ومن ذلك قطيعة الرحم وأكل الربا وإخلائته

في الأمانة . وذكر أبو بكر الوراق عن أبي حنيفة أنه قال : أكثر ما يتزعج الإيمان من البعد عند الموت . ثم قال أبو بكر : فنظرنا في القنوب التي يتزعج الإيمان فلم نجد شيئاً أسرع نزماً للإيمان من ظلم العباد . وفي هذه الآية دليل على أن النار مخلوقة رداً على الجهمية لأن المعلوم لا يكون مُعْذراً . ثم قال : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ في الفرائض ﴿ وَالرَّسُولَ ﴾ في السنن . وقيل : « أَطِيعُوا اللَّهَ » في تحريم الربا « وَالرَّسُولَ » فيما بلغكم من التحريم . ﴿ لَكُمْ تَرْجَحُونَ ﴾ أي كي يرحمكم الله . وقد تقدم .

قوله تعالى : **وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴿١٣٦﴾

فيه مسائلتان :

الاولى — قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا ﴾ قرأ نافع وابن عامر « سَارِعُوا » بغير واو؛ وكذلك في مصاحف أهل المدينة وأهل الشام . وقرأ باقي السبعة « وسارِعُوا » بالواو . وقال أبو علي : يَكَلِّ الأُمُورَ شائع مستقيم ؛ فمن قرأ بالواو فلائه عطف الجملة على الجملة ، ومن ترك الواو فلائن الجملة الثانية ملتبسةً بالأولى مستغنيةً بذلك عن المطف بالواو . والمساواة المبادرة ، وهي المخلطة . وفي الآية حذف ، أي سارعوا إلى ما يوجب المغفرة وهي الطاعة . قال أنس ابن مالك ومُحَمَّدُ بْنُ أَبِي سَارِعٍ في تفسير « سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ » : معناه إلى تكملة الإحرام . وقال علي بن أبي طالب : إلى أداء الفرائض . عثمان بن عفان : إلى الإخلاص . الكلبي : إلى التوبة من الربا . وقيل : إلى الثبات في القتال . وقيل في هذا . والآية جامعة في الجميع ، ومعناها معنى « فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ » وقد تقدم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ تقديره كعرض الخندق المضاف ؛ كقوله : « مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِشْرَكُمْ إِلَّا كَفْهٍ وَاحِدَةٍ » أي إلا تخلى نفس واحدة وبشها . قال الشاعر :

(١) رابع ٢٤ ص ١٦٥ طبة ثانية .

(١) حَبِيبَتُ بَنَامَ رَاحِلَتِي عَنَّا قًا * وَمَا هِيَ وَبَيْتُ غَيْرِكَ بِالْعَتَايِ

يريد صوت عتاق . نظيره في سورة الحديد « وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » .

واختلف العلماء في تأويله ؛ فقال ابن عباس : تُقَرَّنُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ كَمَا تَبْسُطُ الثِّيَابَ وَيُوصَلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ؛ فَذَلِكَ عَرْضُ الْجَنَّةِ ، وَلَا يَعْلَمُ طُولَهَا إِلَّا اللَّهُ . وَهَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ ، وَذَلِكَ لَا يُنْكَرُ ؛ فَإِنَّ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ فِي الْكَرْبِيِّ إِلَّا كَدِرَاهِمٍ أَلْقِيَتْ فِي فَلَائٍ مِنَ الْأَرْضِ وَمَا الْكَرْبِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا حُلْفَةُ أَلْقِيَتْ فِي فَلَائٍ مِنَ الْأَرْضِ » . فَهَذِهِ مَخْلُوقَاتُ أَعْظَمَ بِكثِيرٍ جَدًّا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَقُدْرَةُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ . وَقَالَ الْكَلْبِيُّ : الْجَنَانُ أَرْبَعَةٌ : جَنَّةٌ عُدُنٌ وَجَنَّةُ الْمَأْمُورِ وَجَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ وَجَنَّةُ النَّعِيمِ ، وَكُلُّ جَنَّةٍ مِنْهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَوْ وُصِّلَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ . وَقَالَ إِسْمَاعِيلُ السُّدِّيُّ : لَوْ كُثِّرَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَصُرْنَ تَحْدَلَاءَ ، فَيَكُنُّ تَحْدَلَةً جَنَّةٌ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . وَفِي الصَّحِيحِ : « إِنْ أَدْنَى أَهْلُ الْجَنَّةِ مِثْلَةَ مَنْ يَمْنَى وَيَمْنَى حَتَّى إِذَا انْقَطَعَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : لَكَ ذَلِكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ » . وَرَوَاهُ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ ، نَحْوَهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي مَرْوَةَ : لَقِيتُ التَّوْنُجِيَّ رَسُولَ هِرَ قُلَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَحْصٍ شَيْخًا كَبِيرًا قَالَ : قَنِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكُتَابِ هِرَ قُلَ ، فَنَاقِلُ الصَّخِيفَةِ رَجُلًا مِنْ يَسَارِهِ ؛ قَالَ : قُلْتُ مَنْ صَاحِبُكَ الَّذِي يَقْرَأُ ؟ قَالُوا : مَعَاوِيَةُ ؛ فَإِذَا كَتَبَ صَاحِبِي : إِنَّكَ كَتَبْتَ تَدْعُونِي إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فَأَيْنَ النَّارُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « سُبْحَانَ اللَّهِ فَأَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ » . وَبِمِثْلِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ اسْتَدَلَّ الْفَارُوقُ عَلَى الْيَهُودِ حِينَ قَالُوا لَهُ : أَرَأَيْتَ قَوْلَكُمْ « وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ » فَأَيْنَ النَّارُ ؟ فَقَالُوا لَهُ : قَدْ نَزَعَتْ بِنَا فِي التَّوْرَةِ . وَنَبَتْ تَعَالَى بِالْعَرْضِ عَلَى الطُّولِ لِأَنَّ النَّالِيَّ أَنْ الطُّولُ يَكُونُ أَكْثَرَ مِنَ الْعَرْضِ ، وَالطُّولُ إِذَا ذَكَرَ لَا يَدُلُّ عَلَى قَدَرٍ

(١) بَنَامُ الْفَاعِلُ : حَتَّى لَا يَخْصُجَ بِهِ . وَالنَّالِيَّ (بِالْفَتْحِ) : الْآتِي مِنَ الْمَرْبُوعِ ، بِمَعْنَى وَجِبَ . وَبَنَتْ وَبَنَى : وَابْتَدَأَتْ . وَتَدْعُو : تَدْعُو . (بَنَ السَّانِ) . (٢) نَزَعَتْ بِمَعْنَى فِي التَّوْرَةِ : جَعَلَتْ بِمَا شِئْنَا .

العرض . قال الزهرى : إنما وصف عَرْضَهَا ، فأما طُولُهَا فلا يمانه إلا الله ؛ وهذا كقولهِ تعالى : « مُتَكَبِّرِينَ عَلَى قُرُوشٍ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ » فوصف البطانة بأحسن ما يُعلم من الزينة ، إذ معلوم أن الظواهر تكون أحسن وأتقن من البطائن . وقول العرب : بلادٌ عريضة ، وفلاة عريضة ، أى واسعة ؛ قال الشاعر :

كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ هِيَ عَرِيضَةٌ • عَلَى الْخِلاَافِ الْمَطْلُوبِ كِفَّةٌ حَابِلٌ

وقال قوم : الكلام جارٍ على مَقْطَعِ الْعَرَبِ مِنَ الْإِسْتِمَارَةِ ؛ فلما كانت الجنة من الْأَنْسَاعِ وَالْإِنْفَسَاحِ فِي غَايَةِ قُصْوَى حُسْنِ الْعِبَارَةِ عنها بعرض السموات والأرض ؛ كما قول للرجل : هذا بحر ، ولشخص كبير من الحيوان : هذا جبل . ولم يقصد الآية تحديد العرض ، ولكن أراد بذلك أنها أوسع شئ رأيتوه . وعامة العلماء على أن الجنة مخلوقة موجودة ؛ لقوله « أَعَدَّتْ لِلَّتَيْنِ » وهو نص لحديث الإسراء وغيره في الصحيحين وغيرهما . وقالت المعتزلة : إنهما غير مخلوقين في وقتنا ، وإن الله تعالى إذا طَوَّى السموات والأرضَ أَيْبَأَ خَلَقَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ حيث شاء ؛ لأنهما دارُ جزاء بالثواب والعقاب ، نخلقتا بعد التكليف في وقت الجزاء ؛ لتلا تجمع دار التكليف ودار الجزاء في الدنيا ، كما لم يجمع في الآخرة . وقال ابن قُودَك : الجنة يَزَادُ فيها يوم القيامة . قال ابن عطية : وفي هذا متعلق لمنذر بن سعيد وغيره ممن قال : إن الجنة لم تخلق بعد . قال ابن عطية وابن قُودَك : « يَزَادُ فيها » إشارة إلى موجود ، لكنه يخلج إلى سند يقطع الْمُنْذَرُ فِي الزِّيَادَةِ .

قلت : صدق ابن عطية رضي الله عنه فيما قال . وإذا كانت السموات السبع والأرضون السبع بالنسبة إلى الكرسي كدراهم أُلْقِيَتْ فِي فَلَائِهِ مِنَ الْأَرْضِ ، والكرسي بالنسبة إلى العرش كحقة ملقاة بأرض فلاة ؛ فالجَنَّةُ الْآنَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ عَرْضُهَا كعرض السموات والأرض ؛ إذ العرش سَقْفُهَا ، حسب ما ورد في صحيح مسلم ، ومعلوم أن السقف يحيط على ماتحته ويزيد . وإذا كانت المخلوقات كلها بالنسبة إليه كالحلقة من ذاك الذي يقدِّره ويعلِّم طوره وعرضه إلا الله خالقه الذي لا نهاية لقدرته ، ولا غاية لسمه مملكته ، سبحانه وتعالى .

قوله تعالى : **الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴿١١١﴾
فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(الَّذِينَ يَنْفِقُونَ)** هنا من صفة المتقين الذين أُعِدَّتْ لهم الجنة . وظاهر الآية أنها ملحق بفعل المندوب إليه . و**(السراء)** اليسر **(والضراء)** العسر ، قاله ابن عباس والكلبي ومقاتل . وقال عبيد بن عمير والضحاك : السراء **والضراء** الرخاء والشدة . ويقال في حال الصحة والمرض . وقيل : في السراء في الحياة ، وفي الضراء يعني يوصى بفسد الموت . وقيل : في السراء في العرس والولائم . وفي الضراء في النواصب والمآثم . وقيل : في السراء النفقة التي تسركم ، مثل النفقة على الأولاد والقرابات . والضراء على الأعداء . ويقال في السراء ما يضيف به القبيح ويهدي إليه . والضراء ما ينقعه على أهل الضر ويتصلق به عليهم . قلت : - والآية تم . ثم قال تعالى : **(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ)** وهي المسألة :

الثانية - **وَكَاظَمَ الْغَيْظَ** رَدَّهُ في الخوف ؛ يقال : **كَظَمَ غَيْظَهُ** أى سكت عليه ولم يظهره مع قدرته على إيقاعه بغيره . **وَكَاظَمْتُ السَّقَاءَ** أى ملأته وسددت عليه . **وَالْكَاظِمَةُ** ما يُسَدُّ به مجرى الماء ؛ ومنه الكظام للسير الذي يُسَدُّ به فم الزرق والقرية . **وَكَاظَمَ الْبَيْرَ** حَزَمَهُ ^(١) إذا رَدَّهَا في جوفه ؛ وقد يقال لحبسه الحزرة قبل أن يرسلها إلى فيه ؛ كظم ؛ حكاه الزجاج . يقال : **كَظَمَ الْبَيْرَ** والناقة إذا لم يَمْتَرَأَ ؛ ومنه قول الراعي :

فَأَفْضَنَ بَسْدَ كُظُولِيهِمْ يَمْتَرِئُ • من ذى الأبارق إذا رَدَّ بَيْنَ حَقِيلَا

الحقيل : موضع . والحقيل تَبْتُ . وقد قيل : إنها تعمل ذلك عند الفزع والجهد فلا تَجْتَرُ .

قال أَعْنَى بِأَهْلَةٍ يَصِفُ رَجُلًا تَحَارًا لِلْإِبِلِ فَهِيَ تَفْزَعُ مِنْهُ :

قد تَكْظِمُ الْبَرْقَ مِنْ حِينَ تُبْصِرُهُ • حتى تَقْطَعُ في أجوافها الجُرْ

(١) الجرة (بالكسر) : ما يجره البعير من بطنه ليمضه ثم يبعه .

(٢) البرق (بضم فسكون) : جمع بازله ، وهو البعير الذى استكمل الناقة وطبق في الناقة حظرة به .

ومضه : رجل كظيم ومكظوم إذا كان غمًا وحزنًا . وفي التزيل : « وَابْتَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ » . « ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ » . « إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ » . والتهبط أصل الغضب ، وكثيرا ما يتلازمان لأن قرآن ما بينهما أن الغيظ لا يظهر على الجوارح ، بخلاف الغضب فإنه يظهر في الجوارح مع فعل ما ولا بد؛ ولهذا جاء إسناد الغضب إلى الله تعالى إذ هو عبارة عن أفعاله في المفضوب عليهم . وقد فسر بعض الناس الغيظ بالغضب وليس بجيد . والله أعلم .

الثالثة -- قوله تعالى : (وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ) المَفْو عن الناس أجل ضروب فعل الخير ، حيث يجوز للإنسان أن يَفُو حيث يتجه حقه . وكل من استحق عقوبة فَعَرَكَ له فقد عُفِيَ عنه . واختلف في معنى « عَنِ النَّاسِ » ؛ فقال أبو العالية والكأبي والزجاج : « والمافين عَنِ النَّاسِ » يريد عن الممالك . قال ابن عطية : وهذا حسن على جهة المثال ؛ إذ هم الخمسة فهم يذنبون كثيرا والتدرة عليهم متيسرة ، وإنفاذ العقوبة سهل ، فلهذا مثل هذا المفسر به . وروى عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات يوم بصحيفة فيها مَرَقَة حارة ، وعنده أضياف فَعَثَرَتْ فصَبَّت المرققة عليه ، فأراد ميمون أن يضربها ، فقالت الجارية : يا مولاي ، استعمل قول الله تعالى : « وَالكَافِرِينَ الْغَيْظُ » . قال لها : قد فعلت . فقالت : اعمل بما بعده « وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ » . فقال : قد عفوت عنك . فقالت الجارية : « والله يجب المحسين » . قال ميمون : قد أحسنت إليك ، فانت حرّة لوجه الله تعالى . وروى عن الأحنف مثله . وقال زيد بن أسلم : « والمافين عَنِ النَّاسِ » من ظلمهم وإساءتهم . وهذا عام ، وهو ظاهر الآية . وقال مقاتل بن حيان في هذه الآية : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عند ذلك : « إنا هؤلاء من أتى قليل إلا من عصاه الله وقد كانوا كثيرا في الأمم التي مضت » . فمدح الله تعالى الذين يغفرون عند الغضب واتى عليهم فقال : « وَإِنَّا مَا غَضِبُوا فَمَنْ يَغْفِرُونَ » ، واتى على الكاظمين الغيظ بقوله : « وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ » ، وأخبر أنه يحجبهم بإحسانهم في ذلك . ووردت في كظم الغيظ والمفو عن الناس وملك النفس عند الغضب أحاديث ، وذلك من

أَعْظَمُ الْعِبَادَةِ وَجِهَادِ النَّفْسِ ؛ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالْعَصْرَةِ ^(١) وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ " . وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : " مَا مِنْ جُرْعَةٍ يَجِيزُهَا الْعَبْدُ خَيْرٌ لَهُ وَأَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ جُرْعَةٍ غَرِظَ فِي اللَّهِ " . وَرَوَى أَنَسُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا أَشَدُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؟ قَالَ : " غَضَبُ اللَّهِ " . قَالَ لَمَّا يُجِئُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ ؟ قَالَ : " لَا تَغْضَبْ " . قَالَ الْمَرْجِيُّ :

وَإِذَا غَضِبْتَ فَكُنْ وَقُورًا كَاطِلًا * لِلْبَيْظِ تَبْصُرُ مَا تَقُولُ وَتَسْمَعُ
فَكَفَى بِهِ شَرَفًا تَصْبِرُ سَاعَةً * يَرْضَى بِهَا عَنْكَ الْإِلَهِ وَتَرْفَعُ

وَقَالَ هَرُودَةُ بْنُ الزَّيْرِ فِي الْعَفْوِ :

لَنْ يَبْلُغَ الْمَجْدَ أَقْوَامٌ وَإِنْ شَرُّوْا * حَتَّى يُدْلَوْا وَإِنْ عَزَّوْا لِأَقْوَامٍ
وَيُسْتَمَوْا قَتَى الْأَكْوَانُ مُشْرِفَةً * لَا عَفْوٌ ذَلٌّ وَلَكِنْ عَفْوٌ إِكْرَامٌ

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ وَأَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ سَهْلِ بْنِ مَعَاذٍ أَنَّ أَنَسَ الْجَنَابِيَّ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " مَنْ كَفَّظَ غَيْظًا وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغْفِّهَ دَعَاةَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُغُوسٍ انْخِلَاقٍ حَتَّى يُخَيَّرَهُ فِي أَى الْحَوَرِ شَاءَ " قَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ . وَرَوَى أَنَسُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " إِنَّا كَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ مَنْ كَانَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ فَيَقَالَ مَنْ ذَا الَّذِي أَجَرَهُ عَلَى اللَّهِ فَيَقُومُ الْمَأْفُونُ مِنَ النَّاسِ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ بِخَيْرِ حَسَابٍ " . ذَكَرَهُ السَّائِرُونَ . وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ : كُنْتُ عِنْدَ الْمَنْصُورِ جَالِسًا فَأَمَرَ بِقَتْلِ رَجُلٍ ؛ فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّا كَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ يَنْدِي اللَّهُ مِنْ وَجِلٍ مَنْ كَانَتْ لَهُ يَدٌ عِنْدَ اللَّهِ فَلْيَتَقَدَّمْ فَلَا يَتَقَدَّمُ إِلَّا مَنْ عَفَا عَنْ ذَنْبٍ " ؛ فَأَمَرَ بِإِطْلَاقِهِ .

الرَّابِعَةُ - قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَأَلْفَ حُبِّ الْمُتَحِبِّينَ) أَى يُشِيهِمُ عَلَى إِحْسَانِهِمْ . قَالَ تَبَرَّى السَّكَيْطِيُّ ، الْإِحْسَانُ أَنْ تُحْسِنَ وَقْتُ الْإِمْكَانِ ، فَلَيْسَ كُلُّ وَقْتٍ يَمْلِكُكَ الْإِحْسَانُ ؛ قَالَ الشَّاعِرُ :

(٢) هَبْرَةٌ (بِمَنْ هَبْرَافِعَ الرَّبِّ) ؛ لِتَبْلُغَ فِي الْفِرَاحِ الَّذِي لَا يُطْبَقُ ؛ فَقَطَّعَ إِلَى الَّذِي يُطْبَقُ مِنْهُ عَنِ الْقَضْبِ

مُحَمَّدٌ

بِأَيْدِيهِمْ إِنْ مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا • فَلَيْسَ فِي كُلِّ وَفِيهِ أَنْتَ مُقْتَدِرٌ
وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْبُخَّارِيُّ فَاحْسَنَ :

لَيْسَ فِي كُلِّ صَاعِيَةٍ وَأَوَانٍ • تَنْتَبِهُ صَانِعُ الْإِحْسَانِ
وَإِذَا أَمُكُنْتَ فَبَايِرْ إِلَيْهَا • حَقَرًا مِنْ تَصَدُّرِ الْإِمَّاكَةِ
وَقَدْ مَضَى فِي «الْبَقَرَةِ» الْقَوْلُ فِي الْحَسَنِ وَالْإِحْسَانِ فَلَا مَعْنَى لِلْإِمَّاكَةِ •

قَوْلُهُ تَسَالَى : وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ
فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٢٥﴾

فِيهِ سَبْعُ مَسَائِلَ :

الأولى — قَوْلُهُ تَسَالَى : (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى
فِي هَذِهِ آيَةٍ سَيُفَا دُونَ الصَّفِّ الْأَوَّلِ فَالْمَعْنَى بِهِ بَرَحَتُهُ وَمَنْعُهُ فَهَؤُلَاءِ هُمُ الزَّالِمُونَ • قَالَ
ابْنُ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةِ عَطَاءَ : نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةٌ فِي تَبَاهِنِ الْبَارِ — وَكَيْفِيَّةِ أَبِي مَعْقِلٍ — أَيْ تَعْلَمُ أَنَّ
حَسَنًا بَاعَ مِنْهَا تَمْرًا ، فَضَمَّهَا إِلَى نَفْسِهِ وَقَبَّلَهَا فَتَدَمَّ عَلَى ذَلِكَ ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ آيَةٌ • وَذَكَرَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ — وَصَدَّقَ أَبُو بَكْرٍ — أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
قَالَ : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَكْتَسِبُ ذَنْبًا ثُمَّ يَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّيُ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ » • ثُمَّ نَزَلَتْ
هَذِهِ آيَةٌ — وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ سَالِيَةً
وَالْآيَةُ الْآخَرَى — وَنَنْ يَسْتَلِ سَوْمًا أَوْ يَطْلُمُ قَسَمَةً • وَتَرْجَاهُ الْقُرْمَنِيُّ وَقَالَ : حَلِثْتُ حَسَنًا
وَهَذَا هَامٌ • وَقَدْ تَمَثَّلَ الْآيَةُ بِسَبَبِ خَاصٍّ ثُمَّ تَنَاوَلَ جَمِيعَ مَنْ قَبَّلَ ذَلِكَ وَأَكْثَرَهُمْ وَقَدْ قِيلَ
إِنْ سَبَبَ تَزَوُّجَهَا أَنْ تَقِيًّا نَرَجَّحَ فِي غَرَاهُ وَخَلَّفَ صَاحِبًا لَهُ مُتَعَارِفًا عَلَى أَعْلَاهُ تَخْلَفَهُ فِيهَا بِأَنْ

أَتَحْتَمِ عَلَيْهَا فَنَدَفَعْتَ عَنْ نَفْسِهَا فَقَبِلَ يَدَهَا ، فَنَدِمَ عَلَى ذَلِكَ فَخَرَجَ يَسِيرُ فِي الْأَرْضِ نَادِمًا نَادِمًا ؛
 بِغَاةِ التَّقْيِ فَأَخْبَرَتْهُ زَوْجَتُهُ بِفِعْلِ صَاحِبِهِ ، فَخَرَجَ فِي طَلَبِهِ فَأَتَى بِهِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَجُلَاهُ أَنَّ
 يَحْسُدُ عَنْدهُمَا فَرَسًا ؛ فَوَيْحَاهُ فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ بِفِعْلِهِ ؛ فَتَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ -
 وَالْعَمُومُ أَوَّلَى لِحَدِيثٍ - وَرُويَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ الصَّحَابَةَ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَانَتْ
 بَنُو إِسْرَائِيلَ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مَنًا ، حَيْثُ كَانَ الْمَذْنِبُ مِنْهُمْ تُصْبِحُ عَقوبَتُهُ عَلَى بَابِ دَارِهِ .
 وَفِي رِوَايَةٍ : كَهَازَةِ ذَنْبِهِ مَكْتُوبَةٌ عَلَى حُتْبَةِ دَارِهِ : إِبْدَحَ أَنْفُكَ ، إِنْ قَطَعَ أَنْفُكَ ، الْفُلُ كَذًا ، فَاتَزَلَّ
 اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ تَوْسِعَةً وَرَحْمَةً وَعِوَضًا مِنْ ذَلِكَ الْفِعْلِ بَنُو إِسْرَائِيلَ . وَرِوَيْ أَنَّ إِبْلِيسَ
 بَكَى حِينَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . وَالْفَاحِشَةُ تَطْلُقُ عَلَى كُلِّ مَعْصِيَةٍ ، وَقَدْ كَثُرَ اخْتِصَاصُهَا بِالزَّانَا حَتَّى
 فَسَّرَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَالسُّدِّيُّ هَذِهِ الْآيَةَ بِالزَّانَا . وَ« أَوْ » فِي قَوْلِهِ « أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » قِيلَ
 هِيَ بِمَعْنَى الْوَاوِ ؛ وَالْمُرَادُ مَا دُونَ الْبَكَاءِ : ﴿ ذَكِّرُوا اللَّهَ ﴾ مَعْنَاهُ بِالْخَوْفِ مِنْ عِقَابِهِ وَالْحَيَاءِ مِنْهُ .
 الضَّمَالُ : ذَكِّرُوا الْقَرَضَ الْأَكْبَرَ عَلَى اللَّهِ . وَقِيلَ : تَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَنْهُ ؛
 قَالَهُ الْكَلْبِيُّ وَمَقَاتِلٌ . وَعَنْ مَقَاتِلٍ أَيْضًا : ذَكِّرُوا اللَّهَ بِاللِّسَانِ عِنْدَ الذَّنُوبِ : ﴿ فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾
 طَلِبُوا الْغُفْرَانَ لِأَجْلِ ذُنُوبِهِمْ . وَكُلُّ دَعَاءٍ فِيهِ هَذَا الْمَعْنَى أَوْ لَفْظُهُ فَهُوَ اسْتِغْفَارٌ . وَقَدْ تَقَدَّمَ
 فِي صَبْرِ هَذِهِ السُّورَةِ سَيِّدُ الْاسْتِغْفَارِ ، وَأَنَّ وَقْتَهُ الْأَسْحَارُ . فَالْاسْتِغْفَارُ عَظِيمٌ وَثَوَابُهُ جَسِيمٌ ،
 حَتَّى لَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ قَالَ اسْتَغْفِرَ اللَّهُ الَّذِي
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ فُزَ مِنَ الرَّحْفِ » . وَرِوَيْ مُكْهُولٌ
 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : مَا رَأَيْتُ أَكْثَرَ اسْتِغْفَارًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقَالَ مُكْهُولٌ :
 مَا رَأَيْتُ أَكْثَرَ اسْتِغْفَارًا مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . وَكَانَ مُكْهُولٌ كَثِيرَ الْاسْتِغْفَارِ . قَالَ عَلَمَاؤُنَا :
 الْاسْتِغْفَارُ الْمَطْلُوبُ هُوَ الَّذِي يَحْتَمِلُ عَقْدَ الْإِرْصَارِ وَيَثْبِتُ مَعْنَاهُ فِي الْجَنَانِ ، لَا التَّلَفُظَ بِاللِّسَانِ .
 فَلَمَّا مِنْ قَالَ بِلسَانِهِ : اسْتَغْفِرَ اللَّهُ ، وَقَلْبُهُ مُصِرٌّ عَلَى مَعْصِيَتِهِ فَاسْتَغْفَرَهُ ذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِغْفَارٍ
 وَصَعْبَةٍ لِأَحَدٍ بِالْكَثَرِ . وَرِوَيْ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : اسْتَغْفَرْنَا يَحْتَاجُ إِلَى
 اسْتِغْفَارٍ .

قلت : هذا يقوله في زمانه ، فكيف في زماننا هذا الذي يرى فيه الإنسان ميكا على الظلم ! حرصا عليه لا يُمْلِع ، والسببة في يده زاعما أنه يستغفر الله من ذنبه وذلك استنزاه منه واستخفاف . وفي التنزيل « وَلَا تَحْمِلُوا آيَاتِ اللَّهِ هُرُوءًا » . وقد تهتم .

الثانية - قوله تعالى : (وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) أي ليس أحد يغفر للعصية ولا يُزِيل عقوبتها إلا الله . (وَلَمْ يَصْرُوا) أي ولم يشتهوا وجزموا على ما فعلوا . وقال مجاهد : أي ولم يمضوا . وقال معبد بن صبيح : صليت خلف عثمان وعلّ إلى جاني ، فأقبل عليا فقال : صليت بغير وضوء ثم ذهب فتوضأ وصلى . « وَلَمْ يَصْرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » . الإصرار هو الزم بالقلب على ترك الأمر والإقلاع عنه . ومنه صر الدنانير أي التزبط عليها ثم قال الخطيب يصف الخليل :

عوايس بالشعث الكثة إذا أبتقوا * ملأتها بالمحصنات أصرت

أي ثبتت على مذهبها . وقال قتادة : الإصرار الثبوت على المعاصي ، قال الشاعر :

يُصِرُّ بِاللَّيْلِ مَا تَخْنِي شَوَاكِلُهُ * يَا وَجَّحَ كُلِّ مُعْرِ الْقَلْبِ خَتَارُ^(١)

قال سهل بن عبد الله : الجاهل ميت ، والثامي نائم ، والمعاصي سكران ، والمُصِرُّ هالك . والإصرار هو التسويف ، والتسويف أن يقول أتوب غدا ؛ وهذا دعوى النفس ، كيف يتوب غدا وغدا لا يملكه ! . وقال غير سهل : الإصرار هو أن ينوي ألا يتوب فإن نوى التوبة خرج عن الإصرار . وقول سهل أحسن . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا توبة مع الإصرار » .

الثالثة - قال مسأونا : الباعث على التوبة وحل الإصرار إدامة التفكير في كتاب الله العزيز القفار . وما ذكره الله سبحانه من تفاصيل الجنة وعنده المطيعين ، وما وصفه من

(١) راجع ج ١ ص ٤٤٦ طبة ثانية أرواثة ، ج ٢ ص ١٥٦ طبة أول أرواثة .

(٢) العلة (النم) : بقية جري القوس . والمحصنات : السياط المقنونة . (٣) الشواكل : الخروق المتشعبة من الطريق الأضلم . (٤) الخمر : شبه بالنقد والندمية . وقيل : هو أسوأ القندرية . و « ختار » الباقية .

مذاب النار وتهتد به العصاة ، ودام على ذلك حتى قَوِيَ خَوْفُهُ ورجاؤه فدعا الله رَجَاءً وَرَهْبًا ،
وَالرَّغْبَةَ وَالرَّهْبَةَ ثَمَرَةُ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، يخاف من العقاب ويرجو الثواب ، والله الموفق
للصواب . وقد قيل : إن الباعث على ذلك تنبيهٌ إِلَى بَيْتِهِ به من أراد سعادته ، لِفُتُوحِ
الذنوب وضررها إذ هي سموم مهلكة .

قلت : وهذا خلاف في اللفظ لا في المعنى ، فإن الإنسان لا يَتَفَكَّرُ في وعد الله ويعيده
إِلَّا بِتَنبِيهِهِ ، فإذا نظر العبد بتوفيق الله تعالى إلى نفسه فوجدها مشحونة بذنوب اكتسبها
وسيئات اقترعها ، وأثبت منه التَّدَمُّعُ على ما نُزِطُ ، وترك مثل ما سبق عِقَابُهُ عِقَابُهُ الله تعالى
صَدَقَ عليه أنه تائب . فإن لم يكن كذلك كان مُصِرًّا على المعصية ومُلازِمًا لأسباب المهلكة .
قال سهل بن عبد الله : علامة التائب أن يشغله الذنب على الطعام والشراب ؛ كالثلاثة الذين
سُئِلُوا .^(١)

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ فيه أقوال . فقيل : أى يذكرون ذنوبهم
فيتوبون منها . قال النحاس : وهذا قول حسن . وقيل : « وهم يعلمون » أى أعاقب على
الإصرار . وقال عبد الله بن عبيد بن عمير : « وهم يعلمون » أنهم إن تابوا تاب الله عليهم .
وقيل : « يعلمون » أنهم إن استغفروا غُفِرَ لهم . وقيل : « يعلمون » بما حرمت عليهم ؛ قاله
ابن إسحاق . وقال ابن عباس والحسن ومقاتل والكلبي : « وهم يعلمون » أن الإصرار ضار ،
وإن تركه خير من التَّأْيِي . وقال الحسن بن الفضل : « وهم يعلمون » أن لهم رَبًّا يغفر الذنوب .

قلت : وهذا أخذه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما
يُحْكِي عن ربه عز وجل قال : « أَذْنِبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ اللَّهُمَّ أَغْفِرْ لِي ذَنْبِي فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
أَذْنِبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَلَمْ يَنْزِلْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ أَيْ رَبِّ أَغْفِرْ لِي
ذَنْبِي — فذكر مثله مرتين ، وفي آخره : — اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غُفِرَتْ لَكَ » أخرجه مسلم .

(١) لم يكتب بن مالك ، وهلال بن أبيّة ، ومراة بن الزبيح . تنقلوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ؛ فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه لا تتكلموا بعدا من هؤلاء الثلاثة ؛ إلى أن نزل
تتم قوله تعالى : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا ... » آية ١٨ : سورة التوبة ، وراجع سورة ابن هشام في الكلام على
غزوة تبوك (ص ٨٩٤ طبع أدبي) .

وفيه دليل على صحة التوبة بعد نقضها بمعاودة الذنب؛ لأن التوبة الأولى طاعة وقد انقضت وصحت، وهو محتاج بعد موقعة الذنب الثاني إلى توبة أخرى مستأنفة، والعود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه؛ لأنه أضاف إلى الذنب نقض التوبة، فالعود إلى التوبة أحسن من ابتدائها؛ لأنه أضاف إليها ملازمة الإلحاح بباب الكرم وأنه لا غفر للذنوب مواء. وقوله في آخر الحديث "اعمل ما شئت" أمرٌ بمعنى الإكرام في أحد الأقوال؛ فيكون من باب قوله: "ادخلوها بسلام". وآخر الكلام أخبر عن حال مخاطب بأنه مغفور له ما سلف من ذنبه، ومحفوظ أن شاء الله تعالى فيما يستقبل من شأنه. ودلت الآية والحديث على عظم فائدة الاعتراف بالذنب والاستغفار منه؛ قال صلى الله عليه وسلم: "إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه" أخرجه في الصحيحين. وقال: يستوجب العبدُ للمغفرة إذا اعترف بما جنى من الذنوب وأقرّف. وقال آخر:

أقرّر بذنبك ثم أطلب تجاوزَه . إن الجود جودَ الذنب ذنبان

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفس بيده لو لم تُدبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيُغفر لهم". وهذه فائدة اسم الله تعالى الغفار والثراب، على ما بيناه في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى.

الخامسة - الذنوب التي يُتاب منها إما كفر أو غيره؛ فتوبة الكافر إيمانه مع تدمية على ما سلف من كفره، وليس يجزئ الإيمان نفس توبة. وضرب الكفر إثمًا حقًّا لله تعالى، وإما حقًّا لغيره؛ لحقّ الله تعالى يكفى في التوبة منه الترك؛ غير أن منها ما لم يكن الشريعة فيها يجزئ الترك بل أضاف إلى ذلك في بعضها قضاء كالصلاة والصوم، ومنها ما أضاف إليها كفارة كالحيث في الإيمان والظهار وغير ذلك. وأما حقوق الآدميين فلا بد من إيصالها إلى مستحقها، فإن لم يوجدوا تُصَدَّق عنهم، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإسار مغفوره ما مول، وفضله مبدول؛ فكيف تمين من التيمات وبتل من السيئات بالحسنات. وستأتي زيادة بيان لهذا المعنى.

السادسة - ليس على الإنسان إذا لم يذكر ذنبه ويعلمه أن يتوب منه بعينه، ولكن يلزمه إذا ذكر ذنباً تاب منه . وقد تأول كثير من الناس فيما ذكر شيخنا أبو محمد عبد المعطى الأسكندراني رضي الله عنه أن الإمام الحاشي رحمه الله يرى أن التوبة من أجناس المعاصي لا تنصح، وأن الندم على جملتها لا يكفي، بل لا بد أن يتوب من كل فعلٍ يجارحته وكل عقْدٍ قلبه على التبعين . ظنوا ذلك من قوله، وليس هذا مراده، ولا يقتضيه كلامه، بل حكم المكلف إذا عرف حكم أفعاله، وعرف المعصية من غيرها صححت منه التوبة من جملة ما عرف، فإنه إن لم يعرف كون فعله الماضي معصية لا يمكنه أن يتوب منه لا على الجملة ولا على التفصيل . ومثاله رجل كان يتعاطى باباً من أبواب الربا ولا يعرف أنه رباً فإذا سمع كلام الله عز وجل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّكُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِمَحْذُومٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » عظم عليه هذا التهديد، وظن أنه سالم من الربا . فإذا علم حقيقة الربا الآن، ثم تفكر فيما مضى من أيامه وعلم أنه لا بأس منه شيئاً كثيراً في أوقات متقدمة، صح أن يندم عليه الآن جملة، ولا يلزمه تعيين أوقاته . وهكذا كل ما واقع من الذنوب والسيئات كالنسيئة والغشمة وغير ذلك من المحرمات التي لم يعرف كونها محزمة . فإذا فقه العبد وتفقد ما مضى من كلامه تاب من ذلك جملة، وندم على ما قوط فيه من حق الله تعالى . وإذا استحل من كان ظلمه غفاله على الجملة وطابت نفسه بترك حقه جاز، لأنه من باب هبة المجهول . هذا مع فتح العبد وحرصه على طلب حقه، فكيف بأكرم الأكرمين المتفضل بالطاعات وأسبابها والمفوع عن المعاصي صفارها وبكارها . قال شيخنا رحمه الله تعالى : هذا مراد الإمام، والذي يدل عليه كلامه لمن تغفله وما ظنّه به الطائن من أنه لا يصح الندم إلا على فعلٍ بفعله وحركة حركة وسكنة سكنة على التبعين هو من باب تكليف ما لا يطاق، الذي لم يقع شرطاً وإن جاز عقلاً، ويلزم عنه أنه يعرف كم جرمة جرعه في شرب الخمر، وكم حركة تحركها في الزنا، وكم خطوة مشاها إلى محرم، وهذا ما لا يطيقه أحد، ولا يتأتى منه توبة على التفصيل . وسبباً لهذا الباب مزيد بيان من أحكام التوبة وشروطها في «النساء» وغيرها إن شاء الله تعالى .

السابعة - في قوله تعالى : (وَلَمْ يَصْرُواْ) حُجَّةٌ واضحةٌ ودلالة قاطعة لما قاله سيفُ
السنة، ولسان الأمة القاضي أبو بكر بن الطيب : أن الانسان يؤخذ بما وطئ عليه ضميره ،
وعزَّم عليه بقلبه من المعصية .

قلت : وفي التستريل « وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَسَادِ يُظْلَمُ نَذَقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ » وقال :
« فَأَصْبَحَتْ كَالْعَصِيرِ » . فعوقبوا قبل فعلهم بزمهم وسيأتي بيانه . وفي البخارى « إِذَا اتَّقَى
المسلمان بسيفهما فافقتا والمقتول في النار » قالوا : يا رسول الله هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟
قال : « إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ » . فأتى الوعيد على الحرص وهو العزم وأتى إظهار
السلاح . وأنص من هذا ما أخرجه الترمذى من حديث أبي كَيْشَةَ الْإِنْبَارِىِّ وَصَحَّحَهُ مَرْفُوعًا
« إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةٍ نَفَرٍ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَعَلَيْهَا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ اللَّهُ فِيهِ
حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ . وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا فَهُوَ [صَادِقُ النِّبَا] يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي
مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ نِيَّتُهُ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ . وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَهُوَ
[يُخْطِئُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ] لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلَا يَصِلُ بِهِ رَحِمَهُ وَلَا يَعْلَمُ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ .
وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ نِيَّتُهُ
فَيُوزَرُهُمَا سَوَاءٌ » . وهذا الذى صار إليه القاضي هو الذى عليه طائفة السلف وأهل العلم من
الفقهاء والمحدثين والمتكلمين ، ولا يلتفت إلى خلاف من زعم أن ما يَتَّقِي الإنسان به وإن وطئ
عليه [نفسه] لا يؤخذ به . ولا حجة في قوله عليه السلام : « مَنْ هَمَّ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ فَعَمِلَهَا لَمْ تُكْتَبْ
عليه فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً » لأن معنى « قَلَمَ يَعْمَلُهَا » فلم يزم على عملها بدليل ما ذكرناه ،
ومعنى « فَإِنْ عَمِلَهَا » أى أظهرها أو عزَّم عليها بدليل ما وصفنا . وبالله توفيقنا .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتُ نَّجْوَىٰ مِن
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٦١﴾

رتب تعالى فضله وكرمه ففرَّادَ الذنوب لمن أخلص في توبته ولم يصِرْ على ذنبه . ويمكن
أن يتصل هذا بقصة أحد ، أى من قرَّم تاب ولم يصِرْ فله مغفرة الله .

قوله تعالى : قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾

هذا تَسْلِيَةٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَالسُّنَنُ جَمْعُ سُنَّةٍ وَهِيَ الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ . وَقُلَانِ عَلَى
السُّنَّةِ أَيُّ عَلَى طَرِيقِ الْإِسْتِوَاءِ لَا يَمِيلُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَهْوَاءِ ؛ قَالَ الْهَذَلِيُّ :
فَلَا تَجْزَعَنَّ مِنْ سُنَّةٍ أَنْتَ سِرْتَهَا • فَأَقُولُ رَاضٍ سُنَّةً مَنْ يَسِيرُهَا
وَالسُّنَّةُ : الْإِمَامُ الْمَتَّبَعُ الْمُؤْتَمَّ بِهِ ؛ يُقَالُ : سَنَّ فُلَانٌ سُنَّةَ جَنَّةٍ وَسُنَّةً إِذَا عَمِلَ عَمَلًا اقْتَدَى بِهِ فِيهِ
مَنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ؛ قَالَ لَيْدٌ :

مِنْ تَعَشَّرْتُ لَمْ أَبَاؤُهُمْ • وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا

وَالسُّنَّةُ الْأُمَّةُ ، وَالسُّنَنُ الْأَتَمُّ ، عَنْ الْمُفَضَّلِ • وَأَنْشَدَ :

مَا عَايَنَ النَّاسُ مِنْ فَضْلٍ كَفَضْلِهِمْ • وَلَا رَأَوْا مِنْهُمْ فِي سَالِفِ السَّنَةِ

قَالَ الزَّيْجَلُ : وَالْمَعْنَى أَهْلُ سَنَةٍ ، خُذَفَ الْمَضَافُ . وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ : أَسْتَأَلُ • عَطَاءٌ : شَرَاخُ .
بِمَاجِدٍ : الْمَعْنَى « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ » يَعْنِي بِالْمَلَائِكَةِ فِيمَنْ كَذَّبَ قَبْلَكُمْ كَمَا دُونَهُمْ .
وَالْعَاقِبَةُ : آخِرُ الْأَمْرِ ؛ وَهَذَا فِي يَوْمٍ أُحُدٍ . يَقُولُ فَأَنَا أَمَلُهُمْ وَأُمَلِي لَمْ وَأَسْتَدْرِجُهُمْ حَتَّى
يَبْلُغَ الْكَأَبُ أَجَلَهُ . يَعْنِي بِصُرَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَهَلَاكِ أَعْدَائِهِمُ الْكَافِرِينَ .

قوله تعالى : هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾

يَعْنِي الْقُرْآنَ ؛ عَنْ الْحَسَنِ وَغَيْرِهِ . وَقِيلَ : هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ : « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ
سُنَنٌ » . وَالْمَوْعِظَةُ الْوَعْظُ . وَقَدْ قَدَّمَ .

قوله تعالى : وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾
عَزَامُهُمْ وَسَلَامُهُمْ بِمَا نَالَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ ، وَحَثُّهُمْ عَلَى قِتَالِ عَدُوِّهِمْ وَنَهَاهُمْ عَنِ الْعِزْزِ
وَالْفُشْلِ فَقَالَ « وَلَا تَهِنُوا » أَيُّ لَا تَضَعُفُوا وَلَا تَجُبُّنَا يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ عَنْ جِهَادِ أَعْدَائِكُمْ لِمَا

أصابكم . « ولا تحزنوا » على ظهورهم ، ولا على ما أصابكم من المزعجة والمصيبة . « وأنتم الأعلون »
 أي لكم تكون العاقبة بالنصر والظفر . « إن كنتم مؤمنين » أي بصدق وعدي . وقيل :
 « إن » بمعنى « إذ » . قال ابن عباس : انتهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد
 فيناهم كذلك إذ أقبل خالد بن الوليد بجبل من المشركين ، يريد أن يملؤ ما بهم الجبل ؛ فقال
 النبي صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ لَا يَلْنَنَّ عَلَيْنَا اللَّهُمَّ لَا قُوَّةَ لَنَا إِلَّا بِكَ اللَّهُمَّ لَيْسَ بِعَدَا
 بِهذه البلدة غير هؤلاء القفر » . فأنزل الله هذه الآيات . وبات فخر من المسلمين رُماة فصعدوا
 الجبل ورموا خيل المشركين حتى هزمهم ؛ فذلك قوله تعالى : « وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ » يعني
 النالين على الأعداء بعد أحد . فلم يخرجوا بعد ذلك عسكريا إلا ظفروا في كل عسكر كان
 في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي كل عسكر كان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم
 وكان فيه واحد من الصحابة كان الظفر لهم ، وهذه البلدان كلها إنما انتصحت على عهد أصحاب
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ثم بعد انقراضهم ما انتصحت بلدة على الوجه كما كانوا يفتشون
 في ذلك الوقت . وفي هذه الآية بيان فضل هذه الأمة لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه ؛
 لأنه قال لموسى : « إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى » وقال لهذه الأمة : « وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ » . وهذه اللفظة
 مشتقة من اسمه الأعلى فهو سبحانه العلى . وقال المؤمن : « وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ » .

قوله تعالى : « إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ » . وَتِلْكَ
 الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَخَذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ
 وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ) القرح الجرح . والضم والفتح فيه لثتان عن الكسائي
 والأخفش ؛ مثل عقر وعقر . القراء : هو بالفتح الجرح ، وبالضم الله . والمعنى : إن يمسكم
 يوم أحد قرح فقد مس القوم يوم بدر قرح مثله . وقرأ محمد بن السميع « قرح » بفتح

الغاف والراء على المصدر . (وَظَكَ الْإِيَّامُ تَدَاوُلًا بَيْنَ النَّاسِ) قيل : هذا في الحرب ، تكون مرةً للؤمنين ليصر الله دينه ، ومرةً للكافرين إذا عصى المؤمنون ليدلّهم ويخلص ذنوبهم ؛ فاما إذا لم يقصوا فإن حرب الله هم الغالبون . وقيل : « تداولوا بين الناس » من قرح ونغم وصحة وسقم وعيى وقر . والدولة الكثرة ؛ قال الشاعر :

فَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ حَلِينَا * وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُفَر

قوله تعالى : (وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا) معناه وإنما كانت هذه المتداولة ليرى المؤمن من المنافق فيميز بعضهم من بعض ؛ كما قال : « وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَذَنِ اللَّهُ وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ نَافَقُوا » . وقيل : ليعلم صبر المؤمنين ، العلم الذى يقع عليه الجزاء كما علمه عيياً قبل أن كفهم . وقد تقدم في « البقرة » هذا المعنى .

قوله تعالى : (وَتَيَّخَذْ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ) فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « وَتَيَّخَذْ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ » أى يكرمكم بالشهادة ؛ أى يقتل قوم فيكونوا شهداء على الناس بأعمالهم . وقيل لهذا : قيل شهيد . وقيل : سُمي شهيدا لأنه مشهود له بالجنة . وقيل : سُمي شهيدا لأن أرواحهم آحضرت دار السلام ، لأنهم أحياء عند ربهم ، وأرواح غيرهم لا تصل إلى الجنة ؛ فالشهيد بمعنى الشاهد أى الحاضر للجنة . وهذا هو الصحيح على ما يأتى . والشهادة فضلها عظيم ، وكيفيك في فضلها قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ » الآية . وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجَارٍ تُخَيِّكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ . فُؤِمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ » إلى قوله : « ذَلِكَ أَقْوَرُ الْأَعْمَالِ » . وفى صحيح الإسنى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنَ الْقَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنَ الْقُرْصَةِ » . وروى النسائى عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما بال المؤمنين يقتلون في قبورهم إلا الشهيد ؟ قال : « كفى بيارقة السيوف على رأسه فتنة » . وفى البخارى : « مَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ »

يوم أحد^(١) منهم حمزة وأبمان والنضر بن أنس ومُصعب بن عُمير، حدثني عمرو بن مَلِ، أن معاذ بن هشام قال حدثني أبي عن قتادة قال : ما علم حيًّا من أسياء العرب أكثر شهيدًا آخر يوم القيامة من الأنصار . قال قتادة : وحدثنا أنس بن مالك أنه قُتل منهم يوم أحد سبعون ، ويوم بَرَمُوتَ سبعون ، ويوم الحِمامَة سبعون . قال : وكان بَرَمُوتَ على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ويوم الحِمامَة على عهد أبي بكر يوم مُسَيْلَمَةَ الكتاب . وقال أنس : أتني النبي صلى الله عليه وسلم بعلي بن أبي طالب وبه نَيْفٌ وستون حِراصة من طعنة وضربة ورمية ، بفعل النبي صلى الله عليه وسلم يسحقها وهي تنظم بلأذن الله تعالى حتى كأن لم تكن .

الثانية - في قوله تعالى : (وَيَخَذُّنَا مِنْكُمْ شُهَدَاءَ) دليل على أن الإرادة غير الأمر كما يقوله أهل السنة ؛ فإن الله تعالى نهى الكفار عن قتل المؤمنين حمزة وأصحابه وأراد قتلهم ، ونهى آدم عن أكل الشجرة وأراد فراقه آدم . وعكسه أنه أمر إبليس بالسجود ولم يرده فامتنع منه ؛ وعنه وقعت الإشارة بقوله الحق : « وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ » . وإن كان قد أمر جميعهم بالجهاد ولكنه خلق الكسل والأسباب القاطعة عن المسير فثبَّطُوا .

الثالثة - روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر فقال له : « خَيْرَ أَصْحَابِكَ فِي الْأَسَارَى إِنْ شَاءُوا الْقَتْلَ وَإِنْ شَاءُوا الْفِدَاءَ عَلَى أَنْ يُقْتَلَ مِنْهُمْ عَامُ الْمُقْبِلِ مِثْلُهُمْ قَتَلُوا الْقِدَاءَ وَيُقْتَلُ مِنْهُ » أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن . فأنجز الله وعده بشهادة أوليائه بعد أن خيبرهم فاخترأوا القتل . (وَأَنْتَ لَا يُجِبُ الْفَالِاحِينَ) أي المشركين ، أي وإن أنال الكفار من المؤمنين فهو لا يحبهم ، وإن أحل المأبأ بالمؤمنين فإنه يحب للمؤمنين .

قوله تعالى : وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾

(١) القى في شرح التفسير على صحيح البخاري : « وأنس بن النضر ، وهو م أنس بن مالك كما ذكره أبو نعيم وابن عبد البر وغيرهما . ولا يرد « النضر بن أنس » وهو خطأ ، والصواب الأول » .

فيه ثلاثة أقوال : يُمَحَّصُ يُخْبِرُ ، الثاني - يطهر ؛ أى من ذنوبهم فهو على حذف مضاف .
 للمعنى : ولِيُحَصِّصَ الله ذنوب الذين آمنوا ؛ قاله القراء . الثالث - يُحَصِّنُ يَخْلَصُ ؛ فهذا أغربها .
 قال الخليل يقال : عَصَّ الحبل يَحْصِي حَصًّا إذا اقطع وبره ؛ ومنه "اللَّهُمَّ حَصِّ هَذَا ذُنُوبَنَا"
 أى خلصنا من عقوبتها . وقال أبو إسحاق الزجاج : قرأت على محمد بن يزيد عن الخليل :
 التَّحْصِيصُ التَّخْلِيصُ . يقال : عَصَّه حَصًّا إذا خلصه ؛ فالله على ليل المؤمنين لِيُخَيِّبَهُمْ
 وَيُخْلَصَهُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ . (وَيُخَيِّقُ الْكَافِرِينَ) أى يستأصلهم بالهلاك .

قوله تعالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا
 مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١١٦﴾

« أم » بمعنى بل . وقيل : الميم زائدة ، والمعنى أحسبتم يا من أنتم يوم أحد أن تدخلوا الجنة
 كما دخل الذين قتلوا وصبروا على ألم الجراح والقتل من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا
 صبرهم لا ؛ حتى (يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ) أى علم شهادة حتى يقع عليه الجزاء . والمعنى :
 ولم يجاهدوا فيعلم ذلك منكم ؛ فلما معنى لم . وقرئ سيويه بين لم « و لما » ، فزع أن
 « لم يفعل » تى فعل ، وإن « لما يفعل » تى قد فعل . (وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ) منصوب بإضمار
 أن ، عن الخليل . وقرأ الحسن ويحيى بن يعمر « يعلم الصَّابِرِينَ » بالجزم على النَّسْقِ . وقرئ
 بالرفع على القطع ، أى وهو يعلم . وروى هذه القراءة عبد الوارث عن أبي عمرو .
 وقال الزجاج : الواو هنا بمعنى حتى ، أى ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم حتى يعلم صبرهم
 كما تقدم أيضا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كُنْتُمْ مَتَّوْنُونَ أَلَمَوْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ
 رَإَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١١٧﴾

أى الشهادة من قبل أن تلقوه . وقرأ الأعمش « من قبل أن تلقوه » أى من قبل
 القتل . وقيل : من قبل أن تلقوا أسباب الموت ؛ وذلك أن كثيرا من لم يحضر بئرا كانوا

يَمْتَنُونَ يَوْمًا يَكُونُ فِيهِ قِتَالٌ ؛ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْهَزَمُوا ، وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ تَجَلَّدَ حَتَّى قُتِلَ ، وَمِنْهُمْ أَنَسُ بْنُ النَّضَرِّمِ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ؛ فَإِنَّهُ قَالَ لَمَّا انْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ هَؤُلَاءِ ، وَبِأَشْرِ الْقِتَالِ وَقَالَ : لَهَا إِنِّهَا رَجَعَ الْجَنَّةُ ! إِنِّي لَا جِدُّهَا ، وَمَضَى حَتَّى اسْتَشْهِدَ . قَالَ أَنَسُ : فَمَا عَرَفْنَاهُ إِلَّا بِنَاتِهِ وَوَجَدْنَا فِيهِ بَضْعًا وَثَمَانِينَ جِرَاعَةً ، وَفِيهِ وَفِي أَمثَالِهِ نَزَلَ « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ » . فَلَايَةَ عِتَابٍ فِي حَقِّ مَنْ أَنْهَزَ ، لَا سِيَّمَا وَكَانَ مِنْهُمْ حَمَلٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ ، وَسَيِّئًا وَتَمَتَّى الْمَوْتُ بِرَجْعِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى تَمَتَّى الشَّهَادَةِ الْمُبِينَةِ عَلَى النَّبَاتِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْجِهَادِ ، لَا إِلَى قَتْلِ الْكُفَّارِ لَهُمْ ؛ لِأَنَّهُ مَعْصِيَةٌ وَكَفَرٌ وَلَا يَحُوزُ إِيرَادَةَ الْمَعْصِيَةِ . وَعَلَى هَذَا يَحْمَلُ سَوَالُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرْزُقَهُمُ الشَّهَادَةَ ، فَيَسْأَلُونَ الصَّبَرَ عَلَى الْجِهَادِ وَإِنْ أَذَى إِلَى الْقَتْلِ .

قوله تعالى : (وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) قَالَ الْأَخْفَشُ : هُوَ تَكَرُّرٌ بِمَعْنَى التَّأَكِيدِ لِقَوْلِهِ : « فَقَدْ رَأَيْتُهُ » مِثْلُ « وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ » . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ وَأَنْتُمْ بَصَرًا لَيْسَ فِي أَعْيُنِكُمْ طَلٌّ ؛ تَقُولُ : قَدْ رَأَيْتَ كَذَا وَكَذَا وَلَيْسَ فِي عَيْنِكَ عِلَّةٌ ، أَيْ فَقَدْ رَأَيْتَهُ رُؤْيَا حَقِيقَةً ؛ وَهَذَا رَاجِعٌ إِلَى مَعْنَى التَّوَكُّيدِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : « وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَفِي الْآيَةِ إِخْمَارٌ ، أَيْ فَقَدْ رَأَيْتُهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ فَلَمْ أَنْهَزْتُمْ .

قوله تعالى : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيُخْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١١١﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — رُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ بِسَبَبِ أَنْهَزَامِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ حِينَ صَاحَ الشَّيْطَانُ : قَدْ قُتِلَ مُحَمَّدٌ . قَالَ عَطِيَّةُ التَّوْقِي : قَالَ بَعْضُ النَّاسِ : قَدْ أَصِيبَ مُحَمَّدٌ فَأَعْطَوْهُمُ بِأَيْدِيهِمْ فَنَاسًا مِنْ الْخَوَافِكِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ أَصِيبَ إِلَّا مَحْضُونَ عَلَى مَا مَضَى عَلَيْهِ نَبِيُّكُمْ سَيِّئًا

تلقوا به؛ فأنزل الله تعالى في ذلك «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ» إلى قوله :
 «فَأَنذَرْتُكُمْ لَآلِهَ الدُّنْيَا» . وما نافية، وما بعدها ابتداء وخبر، وبطل عمل ما . وقرأ ابن عباس
 «قد خلت من قبليه رسل» بنير أليف ولايم . فأعلم الله تعالى في هذه الآية أن الرسل ليست
 بباقية في قومها أبداً، وأنه يجب التحسب بما أنت به الرسل وإن فقد الرسول بموت أو قتل .
 وأكرم نبيه صلى الله عليه وسلم بأسمين مشتقين من اسمه : محمد وأحمد ؛ تقول العرب : رجل
 محمود ومحمد إذا كثرت إحصائه المحموده ؛ قال الشاعر :

• إِلَى الْمَسْجِدِ الْقَرْمِ الْجَوَادِ مُحَمَّدٍ ^(١) •

وقد مضى هذا في الفاتحة ^(٢) . وقال عباس بن مرداس :

يَا خَاتِمَ النَّبَاِ إِنَّكَ مُرْسَلٌ • بِالْخَيْرِ كُلِّ هَدَى السَّبِيلِ هُدَاكَ
 إِنَّ إِلَهَهُ بَنَى عَلَيْكَ مَحَبَّةً • فِي خَلْقِهِ وَمَعْنَاهُ سَمَاكَ

فهذه الآية من تيمنة العتاب مع المنهزمين ، أى لم يكن لهم الانهزام وإن قُتل محمد ، والنبوة
 لا تدرأ الموت ، والأديان لا تزول بموت الأنبياء . والله أعلم .

الثانية - هذه الآية أدل دليل على شجاعة الصديق وجروته ؛ فإن الشجاعة والجرأة
 حذهما ثبوت القلب عند حلول المصائب ، ولا مصيبة أعظم من موت النبي صلى الله عليه وسلم
 كما تقدم بيانه في «البقرة» فظهرت عنده شجاعته وعلمه . قال الناس : لم يمُت رسول الله صلى
 الله عليه وسلم ؛ منهم عمر ، وخريس عثان ، واستضى علي ، وأضطرب الأمر فكشفه الصديق
 بهذه الآية حين قدموه من مسكنه بالسنع ، الحديث ؛ كذا في البخاري . وفي سنن ابن ماجه عن
 عائشة قالت : «لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ عِنْدَ أَمْرَائِهِ ابْنَةُ خَارِجَةٍ
 بِالْمَوَالِ ؛ فَجَعَلُوا يَقُولُونَ : لَمْ يَمُتِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا هُوَ بَعْضُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ عِنْدَ

(١) هذا عجز بيت ثلاثى ، ومصدره : • إِلَيْكَ أَيْتُ الْهِنِ كَانَ كَلَامًا •

(٢) رابع ج ١ ص ١٢٣ طبة ثانية أد تالة - (٣) رابع المسئلة الثالثة ج ٢ ص ١٧٦ طبة ثانية •

(٤) السنع (ضم) أقله وسكون النون وقد تضم) : موضع من أطراف المدينة ، وهى منازل بنى الحارث ابن
 الخزرج بسوال المدينة ، وبينها وبين منزل النبي صلى الله عليه وسلم ميل •

الوخى . بفاء أبو بكر فكشف عن وجهه وقبل بين عينيه وقال : أنت أكرم على الله أن يميتك !
مرتين . قد والله مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر في ناحية المسجد بقول : والله ما مات
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يموت حتى يقطع أيدي أناس من المنافقين كثير وأرجلهم . فقام
أبو بكر فصدع المنبر فقال : من كان يعبد الله فإن الله سمى لي يمت ، ومن كان يعبد عبداً فإن عبداً
قد مات ، « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل إِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَقْبَلْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ
يَقْبَلْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يضرَّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين » . قال عمر : فلما لم أقرأها
إلا يومئذ . ورجع عن مقالته التي قالها فيما ذكر الوائلي أبو نصر عبيد الله في كتابه الإبانة .
عن أنس بن مالك أنه سمع عمر بن الخطاب حين بُوع أبو بكر في مسجد رسول الله صلى الله
عليه وسلم وأستوى على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تشهد قبل أبي بكر فقال : أنا بعدُ
فإني قلت لكم أمس مقالة وإنها لم تكن كما قلت ، وإني والله ما وجدت المقالة التي قلت
لكم في كتاب أنزل الله ولا في عهد عهده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكني كنت أرجو
أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يدبرنا — يريد أن يقول حتى يكون آخرنا موتاً —
فأخار الله عز وجل لرسوله الذي عنده على الذي عندكم ، وهذا الكتاب الذي هدى الله به
رسوله فخذوا به تهتدوا لما هدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الوائلي أبو نصر :
المقالة التي قالها ثم رجع عنها هي « أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمت ولن يموت حتى يقطع
أيدي رجال وأرجلهم » وكان قال ذلك لعظيم ماورد عليه ، وخشي الفتنة وظهور المنافقين ،
فلما شاهد قوة يمين العديني الأكبر أبي بكر وقوّعه بقول الله عز وجل : « كل نفس
ذاتة الموت » وقوله : « إنك ميت » وما قاله ذلك اليوم تبّه وتبّت وقال : كآني لم
أسمع بالآية إلا من أبي بكر . وخرج الناس يتلون في سلك المدينة كأنها لم تتزل قط إلا ذلك
اليوم . ومات صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين بلا اختلاف ، في وقت دخوله المدينة في هجرته
حين امتد الفضة ، ودفن يوم الثلاثاء قبل ليلة الأربعاء . وقالت صفية بنت عبد المطلب
تري رسول الله صلى الله عليه وسلم

إلا يا رسول الله كنت رجاءنا . وكنت بنا برأ ولم تك جافياً
 وكنت رحماً هادياً وسلمياً . ليك عليك اليوم من كان بايكا
 لغنرك ما أبكى التي لبقسه . ولكن لما أختنى من الهزج أياً
 كأت على قلبى لذكر عميد . وما يخف من بعد التي المكاويأ
 أفاطم صلى الله رب عميد . على جنت أمتى يتفرب ناويأ
 فيبذى لرسول الله أمتى وخالتى . وعمى وآبائى وقضى وسأب
 صدقت ولبت الرسالة صادقاً . ومث صلب العود أبلغ صافياً
 ملو أنت رب الناس أمتى نيتنا . سعادنا، ولكن أمره كان ماضيأ
 عليك من الله السلام نعمة . وأدخلك جنات من المذن راضيأ
 أرى حسناً أمتك وتركته . كى ويدعو جده اليوم ناعياً

فإن قيل وهو :

الثالثة - فلم أتردف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال لأهل بيت أئروا دفن
 ميتهم : "عجلوا دفن جيفتكم ولا تؤخروها" . فالجواب من ثلاثة أوجه : الأول - ما ذكرناه
 من عدم اتفاقهم على موته . الثانى - لأنهم لا يعلمون حيث يدفونه . قال قوم فى البيع .
 وقال آخرون فى المسجد . وقال قوم : يحبس حتى يحمل إلى أبيه إبراهيم . حتى قال العالم
 الأ كبر سمعه يقول : " ما دفن نبي إلا حيث يموت " ذكره ابن ماجه والموطأ وغيرهما .
 الثالث - أنهم اشتغلوا بالخلاف الذى وقع بين المهاجرين والأنصار فى البيعة ، فظفروا فيها
 حتى استتب الأمر وانتظم الشمل واستوت الحال ، واستقرت الخلافة ف نصبها فبايعوا
 أبابكر ، ثم بايعوه من الند بيعة أخرى عن أأ منهم ورضاً ، فكشف الله بو الكفة من أهل
 الردة ، وقام به الذين ، والحمد لله رب العالمين . ثم رجعوا بعد ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم
 فظفروا فى دفنه وغسلوه وكفنوه . ونفع أعلم .

(١) يريد به أبابكر رضي الله عنه .

الرابعة - وأُخْتُفِلَ هل صَلَّى عليه أم لا؛ ففهم من قال: لم يُصَلِّ عليه أحد، وإنما وقف كل أحد يدعو؛ لأنه كان أشرف من أن يُصَلِّي عليه. وقال ابن العربي: وهذا كلام ضعيف، لأن السنة تقوم بالصلاة عليه في الجنائز، كما تقوم بالصلاة عليه في الداء؛ فيقول: اللَّهُمَّ صَلِّ على محمد إلى يوم القيامة. وذلك متعة لنا. وقيل: لم يُصَلِّ عليه لأنه لم يكن هناك إمام. وهذا ضعيف؛ فإن الذي كان يقيم بهم الصلاة الفريضة هو الذي كان يؤمهم في الصلاة. وقيل: ضلِّي عليه الناس أفرادا؛ لأنه كان آخر العهد به، فأرادوا إن يأخذ كل أحد بركته مخصوصا دون أن يكون فيها تابعا لغيره. والله أعلم بصحة ذلك.

قلت: قد خرج ابن ماجه بإسناد حسن بل صحيح من حديث ابن عباس وفيه: فلما فرغوا من جهازه يوم الثلاثاء وُضِعَ على سريره في بيته، ثم دخل الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلوا يصلون عليه، حتى إذا فرغوا أدخلوا النساء، حتى إذا فرغوا أدخلوا الصبيان، ولم يؤمهم الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد. نرجه عن نصريين على الجوهريين. أنبأنا وهب بن جرير حدثنا أبي عن محمد بن إسحاق قال حدثني حسين بن عبد الله عن عكرمة عن ابن عباس؛ الحديث بطوله.

الخامسة - في تغيير الحال بعد النبي صلى الله عليه وسلم عن أنس قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما تَفَضُّوا عن النبي صلى الله عليه وسلم الأيدي حتى أنكروا قلوبنا. أخرجه ابن ماجه وقال: حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا صفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: كان سَنِّي الكلام والانبساط إلى نساءنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مخافة أن يترل فينا القرآن، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلمنا. وأسند عن أم سلمة بنت أبي أمية زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: كان الناس في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام المصلِّي [يصلِّي] لم يَدُبْ بصر أحدكم موضع قلبيه،

(١) أرسلوا: أخرجوا دفقا متقطعة يهضم بتلوينا، وأحدم رسل، فتح الراد والسين.

(٢) زيادة عن ابن ماجه.

فَتَوَقَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكر، فكان الناس إذا قام أحدهم يصلي لم يمدَّ بصره أحدهم موضع جيبه، فوق أبو بكر وكان عمر، فكان الناس إذا قام أحدهم يصلي لم يمدَّ بصره أحدهم موضع القبلة؛ فكان عثمان بن عفان فكانت الفتنة فقلت الناس في الصلاة ميماً وشمالاً .

قوله تعالى : (أَفَأَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَلْقَيْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ) شرط، « أَوْ قُتِلَ » عطف عليه، والجواب « أَلْقَيْتُمْ » . ودخل حرف الاستفهام على حرف الجزاء لأن الشرط قد انعكس به وصار جملة واحدة وخبراً واحداً . والمعنى : ألقيتون على أعقابكم إن مات أَوْ قُتِلَ . وكذلك كل استفهام دخل على حرف الجزاء ؛ فإنه في غير موضعه، وموضعه أن يكون قبل جواب الشرط . وقوله : « أَلْقَيْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ » تمثيل، ومعناه أردتكم كفاراً بعد إيمانكم ؛ قاله قتادة وغيره . ويقال لمن عاد إلى ما كان عليه : أقلب على عقبيه . ومنه نكس على عقبيه . وقيل : المراد بالاعقاب هنا الانزمام ؛ فهو حقيقة لا مجاز . وقيل : المعنى فلم فعل المرتدين وإن لم يكن رقة .

قوله تعالى : (وَفَنَ يَلْقَىٰ عَلَىٰ عَقَبِهِ فُلُنٌ يَضُرُّهُ شَيْئًا) بل يضر نفسه ويضرها للعقاب بسبب المخالفة، والله لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية لغناه . (وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) أي الذين صبروا وجاهدوا واستشهدوا . وجاء « وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » بعد قوله : « فُلُنٌ يَضُرُّهُ شَيْئًا » وهو اتصال وعيد بوعيد .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُّوَجَّلَاتٍ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٢٥﴾

قوله تعالى : (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّوَجَّلَاتٍ) هذا حصص على الجهاد، وإعلام أن الموت لا بد منه، وأن كل إنسان مقتول أو غير مقتول ميت إذا بلغ أجله المكتوب له ؛ لأن معنى « مُّوَجَّلَاتٍ » إلى أجل . ومعنى « بِإِذْنِ اللَّهِ » بغيره الله وقدره . « وَكِتَابًا » نصب على المصدر، أي كتب الله كتاباً مؤجلاً . وأجل الموت هو الوقت الذي

في معلومه سبحانه ؛ لأن روح الحى تفارق جسده ، متى قُتل العبد علمنا أن ذلك أجله .
ولا يصح أن يقال : لو لم يقتل لعاش . والدليل عليه قوله : « كَيْفَا مُؤَجَّلًا » « إِذَا جَاءَ
أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقِيمُونَ » « إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ » « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » .
والمُعْتَرَى يقول : يتقدم الأجل ويتأخر ، وأن من قُتل فإنا يمهلك قبل أجله ، وكذلك كلما
ذبح من الحيوان كانت هلاكه قبل أجله ؛ لأنه يجب على القاتل الضمان والدية . وقد بين
الله تعالى في هذه الآية أنه لا يمهلك نفس قبل أجلها . وسأى لهذا مزيد بيان في « الأعراف »
إن شاء الله تعالى . وفيه دليل على كُتِب العلم وتدوينه . وسأى بيانه في « طه » عند قوله :
« قَالَ عَلَيْهِمْ عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ » ^(١) « إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » .

قوله تعالى : « وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » يعنى النعمة . نزلت في الذين تركوا
المركز طلبا للنعمة . وقيل : هى عاقبة فى كل من أراد الدنيا دون الآخرة ؛ والمعنى نُؤْتِهِ مِنْهَا
ما قسم له . وفى التفسير « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ » . (وَمَنْ
يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا) أى نُؤْتِهِ جزاء عمله ، على ما وصف الله تعالى من تضعيف الحسنات
لمن يشاء . وقيل : المراد بهذا عبد الله بن جبير ومن لزم المركز معه حتى قُتلوا . (وَسَنَجْزِي
الشَّاكِرِينَ) أى نؤتيهم الثواب الأبدى جزاء لهم على ترك الانهماك ؛ فهو تأكيد لما تقدم
من إنشاء مزيد الآخرة . وقيل : « وسنجزى الشاكرين » من الرزق في الدنيا لتلايتهم
أن الشاكر يحرم مما قسم له مما يناله الكافر .

قوله تعالى : « وَكَأَيِّنْ مِنْ نَجْوَى قُتِلَ مَعَهُ رَيْثُونٌ كَثِيرٌ قَالُوا وَهَؤُلَاءِ
أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكْبَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الضَّعِيفِينَ ^(٢)
وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا
وَتُبِّتْ أَرْجَانَا وَأَنْصِرْنَا عَلَى الْكُفْرَيْنِ ^(٣) »

قوله تعالى : (وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَاتِلٍ مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ) قال الزهري : صاح الشيطان يوم أُحد : قُتل محمد ، فانتزم جماعة من المسلمين . قال كعب بن مالك : فكنتُ أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى حينه من تحت المغفر ترهّان ، فناديت بأعلى صوتي : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأومأ إلى أن أسكت ، فأنزل الله عز وجل : « وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَاتِلٍ مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ فَأَوْهَوْنَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا » الآية . « وَكَانَ » بمعنى كم . قال الخليل وسيبويه : هي أي دخلت عليها كاف التشبيه وبُيئت معها فصارت في الكلام معنى كم ، وصوّرت في المصحف نونا لأنها كلمة قُلت عن أصلها فغير لفظها لتغير معناها ، ثم كثرت استعمالها فلفت بها العرب ونصرفت فيها بالقلب والحدف فحصل فيها لغات أربع فُرى بها . وقرأ ابن كثير « وَكَانَ » مثل وكاعن ، على وزن فاعل ، وأصله كَيَّ فقلبت الياء ألفا ، كما قلبت في يَبَّاسٌ فَيَبَّاسٌ ؛ قال الشاعر :

وَكَانَ بِالْأَبْطَحِ مِنْ صِدِّيقِي • يَرَانِي لَوْ أَصْبْتُ هُوَ الْمَصَابَا

وقال آخر :

وَكَانَ رَدَدْنَا عَنْكُمْ مِنْ مُدَجِّجٍ • يَحْيَى أَمَامَ الزُّكْبِ يَرْدِي مُقْنَمَا

وقال آخر :

وَكَانَ فِي الْمَسَائِيرِ مِنْ أُنَاسٍ • أَخْصَوْمٌ فَوْقَهُمْ وَهُمْ كِرَامٌ

وقرأ ابن محيى « وَكَانَ » مهموزا مقصورا مثل وَكَيْنَ ، وهو من كانن حذفت ألفه . وعنه أيضا « وَكَانَ » مثل وَكَيْنَ وهو مقلوب كَيَّ المخفف . وقرأ الباقون « كَانِ » بالتشديد مثل كَيْتٍ وهو الأصل ، قال الشاعر :

وَكَانَ مِنْ أُنَاسٍ لَمْ يَزَالُوا • أَخْصَوْمٌ فَوْقَهُمْ وَهُمْ كِرَامٌ

(١) القلب في ذلك على لغة من قلب حرف اللام الساكن المخرج ما قبله ألفا ، وهي لغة بلخاري بن كعب وشعيب وزيد وقائل من الذين كانوا ذكره الرواحي في وسيط في تفسير قوله تعالى « إِنَّ طَائِفًا لَسَاءِرَانِ » .

(٢) يردى : بمعنى الرديات (بالحرىك) وهو ضرب من المشي فيه تهمتر . والفتح : الذي تقع بالفتح ، كاليفعة والمضفر .

وقال آخر:

كَأَنِّ ابْتَدَأْتُ مِنَ عَدُوِّ بَصْرَنَا • وَكَأَنِّ ابْتَدَأْتُ مِنْ ضَعِيفٍ وَخَائِفٍ -

بجمع بين لعتين: كَأَنِّ وَكَأَنِّ، ولغة خامسة كَثَرْتُ مَثَلُ كَثِينٍ، وَكَأَنَّهُ غَضَبٌ مِنْ كَيْهِ مَقْلُوبٌ كَأَنِّ. ولم يذكر الجوهرى غير لعتين: كَأَنِّ مَثَلُ كَائِنٍ، وَكَأَنِّ مَثَلُ كَعِينٍ؛ تقول: كَأَنِّ رَجُلًا لَقِيتُ؛ بنصب ما بعد كَأَنِّ عَلَى التَّمْيِيزِ. وتقول أيضا: كَأَنِّ مِنْ رَجُلٍ لَقِيتُ؛ وإدخال مِنْ يَدْخُلُ كَأَنِّ أَكْثَرَ مِنَ النَّصْبِ بِهَا وَأَجُودُ. وَبَكَأَنَّ تَبِيعَ هَذَا الثَّوْبِ، أَيْ بِكَمْ تَبِيعَ؛ قَالَ ذُو الرُّمَّةِ: وَكَأَنِّ دَعَرْنَا مِنْ مَهَابَةِ وَرَاحٍ • بِلَادِ الْعِصْدَا لَيْسَتْ لَهُ بِلَادٌ

قال النحاس: وَوَقَفَ أَبُو عَمْرٍو «كَأَنِّ» بِغَيْرِ نُونٍ؛ لِأَنَّهُ تَوَيْنَ. وَرَوَى ذَلِكَ سَوْدَةُ ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنِ الْكِسَائِيِّ. وَوَقَفَ الْبَاقُونَ بِالنُّونِ اتِّبَاعًا لِحُطِّ الْمُصَحِّفِ. وَمَعْنَى الْآيَةِ تَسْجِيعُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْأَمْرُ بِالْإِقْدَاءِ بَيْنَ تَقَدُّمٍ مِنْ خِيَارِ اتِّبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ؛ أَيْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قُتِلَ مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرُونَ، أَوْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قُتِلُوا فَاسْأَلْتَهُمْ أَمْتَهُمْ؛ قَوْلَانِ: الْأَوَّلُ لِلْحَسَنِ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ. قَالَ الْحَسَنُ: مَا قُتِلَ نَبِيٌّ فِي حَرْبٍ قَطًّا. وَقَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ: مَا سَمِعْنَا أَنَّ نَبِيًّا قُتِلَ فِي الْقِتَالِ. وَالثَّانِي عَنْ قَتَادَةَ وَعِكْرَمَةَ. وَالْوَقْفُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ عَلَى «قَاتِلٍ» جَائِزٌ، وَهِيَ قِرَاءَةُ نَافِعٍ وَابْنِ جُبَيْرٍ وَأَبِي عَمْرٍو وَيَعْقُوبَ. وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَاسْتَأْذَنَهَا أَبُو حَاتِمٍ. وَفِيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا أَنْ تَكُونَ «قَاتِلٌ» وَاقِعًا عَلَى النَّبِيِّ وَحْدَهُ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ تَمَامُ الْكَلَامِ عِنْدَ قَوْلِهِ «قَاتِلٌ» وَيَكُونُ فِي الْكَلَامِ إِسْتِمَارٌ، أَيْ وَمَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ؛ كَمَا يُقَالُ: قَاتِلُ الْأَمِيرِ وَمَعَهُ جَيْشٌ عَظِيمٌ. وَحَرَجَتْ مَعِيَ تَحَاوَرَةٌ؛ أَيْ وَمَعِيَ. الْوَجْهُ الثَّانِي أَنْ يَكُونَ الْقَتْلُ نَالِ النَّبِيِّ وَمِنْ مَعَهُ مِنَ الرِّيبِيِّينَ، وَيَكُونُ وَجْهُ الْكَلَامِ قَتْلُ بَعْضٍ مِنْ كَانُ مَعَهُ؛ فَقَوْلُ الْعَرَبِ: قَتَلْنَا بَنِي نَعْمٍ وَبَنِي سُلَيْمٍ، وَإِنَّمَا قَتَلُوا بَعْضَهُمْ. وَيَكُونُ قَوْلُهُ «فَمَا وَهِنُوا» رَاجِعًا إِلَى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ.

قلت: وَهَذَا الْقَوْلُ أَشْبَهَ بِزَوَلِ الْآيَةِ وَأَنْسَبَ، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُقْتَلَ وَمَقُتِلَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ. وَقَرَأَ الْكُوفِيُّونَ وَابْنُ عَامِرٍ «قَاتِلٌ». وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَاسْتَأْذَنَهَا (١) الْمُهَاجَةُ: الْفِرَّةُ الْوَحْشَةُ. وَالرَّاحُ: الثَّوْرُ الْوَحْشِيُّ؛ لِأَنَّ قُرْبَهُ بِمِزَّةِ الرَّاحِ خُورَاحٍ، وَالْمَعْنَى: لَا يَهْمُ حِجُّ الْإِنْسَانِ فِي مَكَانٍ. وَرَوَى: «بِلَادُ الْوَرَى لَيْسَتْ لَهُ بِلَادٌ».

أبو عبيد وقال : إن الله إذا حِدَّ من قاتل كان من قَتَلَ داخل فيه ، وإذا حِدَّ من قَتَلَ لم يدخل فيه غيرهم ، فقال أعمى وأمدح . و « الرِّيَّون » بكسر الراء قراءة الجمهور . وقراءة على رضى الله عنه بضمها . وابن عباس بفتحها ، ثلاث لغات . والرِّيَّون الجماعة الكثيرة ، عن مجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة . واحدهم رِيٌّ بضم الراء وكسرها ، منسوب إلى الرِّية بكسر الراء أيضا وضمها ، وهى الجماعة . وقال عبد الله بن مسعود : الرِّيَّون الألوف الكثيرة . وقال ابن زيد : الرِّيَّون الأتباع . والأول أعرف فى اللغة ، ومنه يقال مخرقة التى تجمع فيها القِداح : رِية ورِبة . والرَّباب قبائل تجتمع . وقال أبا ن بن ثعلب : الرِّيَّ عشرة آلاف . وقال الحسن : هم العلماء الصَّبر . ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع والسَّدى : الجمع الكثير ، قال حسان :

وإذا مشرتجافوا عن الحق حملنا عليهم رِيا

وقال الزجاج : ما هنا قراءتان « رِيَّون » بضم الراء « ورِيَّون » بكسر الراء ، أما الرِّيَّون (بالضم) : الجماعات الكثيرة . ويقال : عشرة آلاف .

قلت : وقد روى ابن عباس « رِيَّون » بفتح الراء منسوب إلى الرِّب . قال الخليل : الرِّيَّ الواحد من العباد الذين صبروا مع الأنبياء ، وهم الرِّبانيون نسبوا إلى التَّالَّة والعبادة ومعرفة الرُّبُوبية لله تعالى . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ « وهنوا » أى ضعفوا ، وقد تقدم . والوَهْن : انكسار الحدِّ بالخوف . وقرأ الحسن وأبو السَّمال « وهنوا » بكسر الهاء وضمها ، لغتان عن أبى زيد . وهنَّ الشئ يَهِنُ وهناً . وأوته أنا وهته ضعفته . والواهنة : أسفل الأضلاع وقصارها . والوَهْن من الإبل الكَثِيف . والوَهْن ساعة تضى من الليل ، وكذلك المؤمن . وأوتها ضربنا فى تلك الساعة ، أى ما وهنوا لقتل نبيهم أو لقتل من قَتَلَ منهم ، أى ما وهن باقهم ، فغف المضاف . ﴿ وَمَا ضَعُفُوا ﴾ أى عن عدوهم . ﴿ وَمَا اسْتَكْبَرُوا ﴾ أى لما أصابهم فى الجهاد . والاستكانة : التَّالَّة والخضوع ، وأصلها « استكوا » على اضماعوا ، فأشيعت فحة الكاف فتولدت منها ألف . ومن جعلها من الكون فهى استعملوا ؛

وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ بِمَعْنَى الْآيَةِ . وَقُرِئَ « قَبْلًا وَهَنُوا وَمَا ضَعُفُوا » بِإِسْكَانِ الْمَاءِ وَالْعَيْنِ . وَحَكَى الْكِسَائِيُّ « ضَعُفُوا » بِفَتْحِ الْعَيْنِ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ بَعْدَ أَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ أَوْ قُتِلَ فِيهِمْ بِأَنَّهُمْ صَبَرُوا وَلَمْ يَفْزُوا وَوَلَّطُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْمَوْتِ ، وَاسْتَفْزَعُوا لِيَكُونَ مَوْتُهُمْ عَلَى التَّوْبَةِ مِنَ الذَّنُوبِ إِنْ رَزَقُوا الشَّهَادَةَ ، وَدَعَا فِي الثَّبَاتِ حَتَّى لَا يَنْهَزَمُوا ، وَبِالنَّصْرِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ . وَخَصَّوْا الْأَقْدَامَ بِالثَّبَاتِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْجَوَارِحِ لِأَثَرِ الْإِعْتَادِ عَلَيْهَا . يَقُولُ : فَهَلَّا فَعَلْتُمْ وَقَلَّمْ مِثْلَ ذَلِكَ يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ فَأَجَابَ دَعَاءَهُمْ وَأَعْطَاهُم النَّصْرَ وَالظَّفَرَ وَالْقِيَمَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْغُفْرَةَ فِي الْآخِرَةِ إِذَا صَارُوا إِلَيْهَا . وَهَكَذَا يَفْعَلُ اللَّهُ مَعَ عِبَادِهِ الْمُخْلِصِينَ الثَّابِتِينَ الصَّادِقِينَ النَّاصِرِينَ لِدِينِهِ ، الثَّابِتِينَ عِنْدَ لِقَاءِ عَدُوِّهِ بِوَعْدِهِ الْحَقِّ ، وَقَوْلِهِ الصَّدَقُ . (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) يَعْنِي الصَّابِرِينَ عَلَى الْجِهَادِ . وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ « وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ » بِالرَّفْعِ ، جَعَلَ الْقَوْلَ اسْمًا لِكُلِّ مَنْ يَكُونُ مَعْنَاهُ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا قَوْلُهُمْ : « رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا » . وَمِنْ قَرَأَ بِالنَّصْبِ جَعَلَ الْقَوْلَ خَبَرًا كَانَ . وَاسْمُهَا « إِلَّا أَنْ قَالُوا » . (ذُنُوبُنَا) يَعْنِي الصَّغَائِرَ (وَإِسْرَافُنَا) يَعْنِي الْكِبَارَةَ وَالْإِسْرَافَ : الْإِفْرَاطُ فِي الشَّيْءِ وَجَاوِزَةُ الْحَدِّ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْمَرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْ » وَذَكَرَ الْحَدِيثَ . فَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَعْمَلَ مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ وَصَحِيحِ السُّنَنِ مِنَ الدُّعَاءِ وَيَدْعَ مَا سِوَاهُ ، وَلَا يَقُولَ اخْتَارَ كَذَا ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ اخْتَارَ لِنَبِيِّهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَعَلَمَهُمْ كَيْفَ يَدْعُونَ

قوله تعالى : فَعَازَتْهُمْ اللَّهُ تَوَّابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ تَوَّابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ

يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١١٤)

أَيَّ أَعْطَاهُم تَوَّابَ الدُّنْيَا ، يَعْنِي النَّصْرَ وَالظَّفَرَ عَلَى عَدُوِّهِمْ . (وَحَسَنَ تَوَّابِ الْآخِرَةِ)

يَعْنِي الْخَيْرَ . وَقَرَأَ الْمُجَدِّدِيُّ « فَأَنَابَهُمُ اللَّهُ » مِنَ التَّوَّابِ . (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) قَدَّمَ -

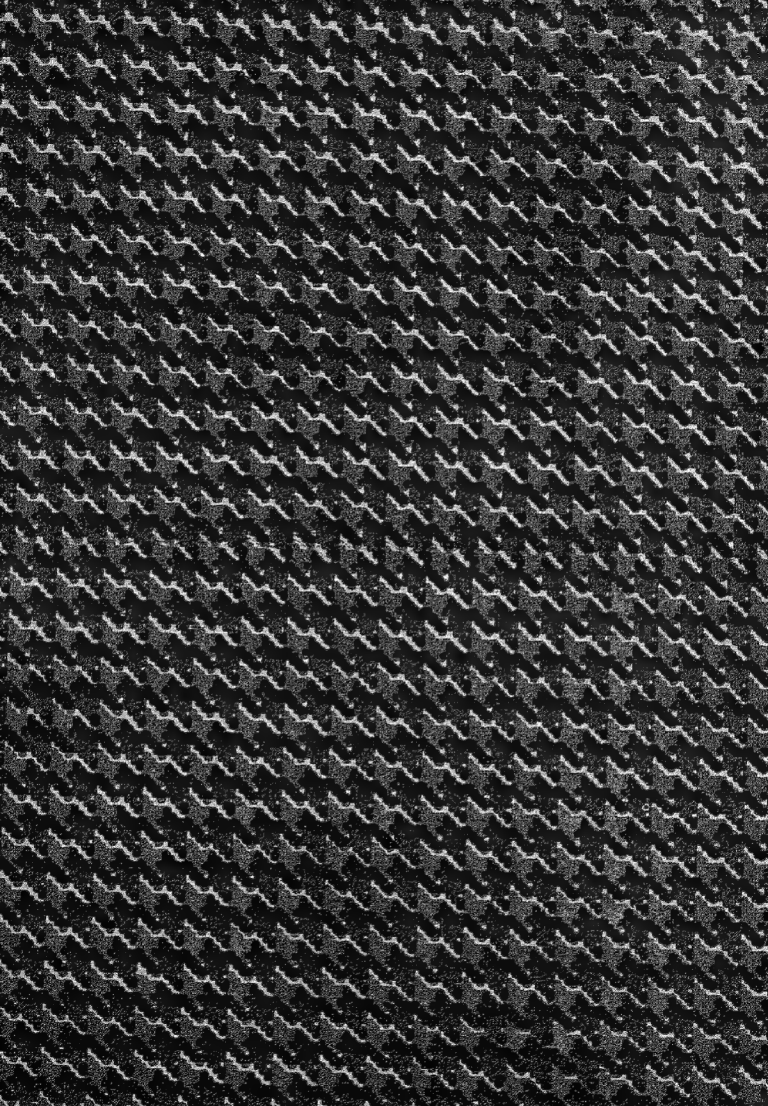
قوله تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَقْلِبُوا خَاسِرِينَ** ﴿١٥١﴾ **بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ** وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٢﴾

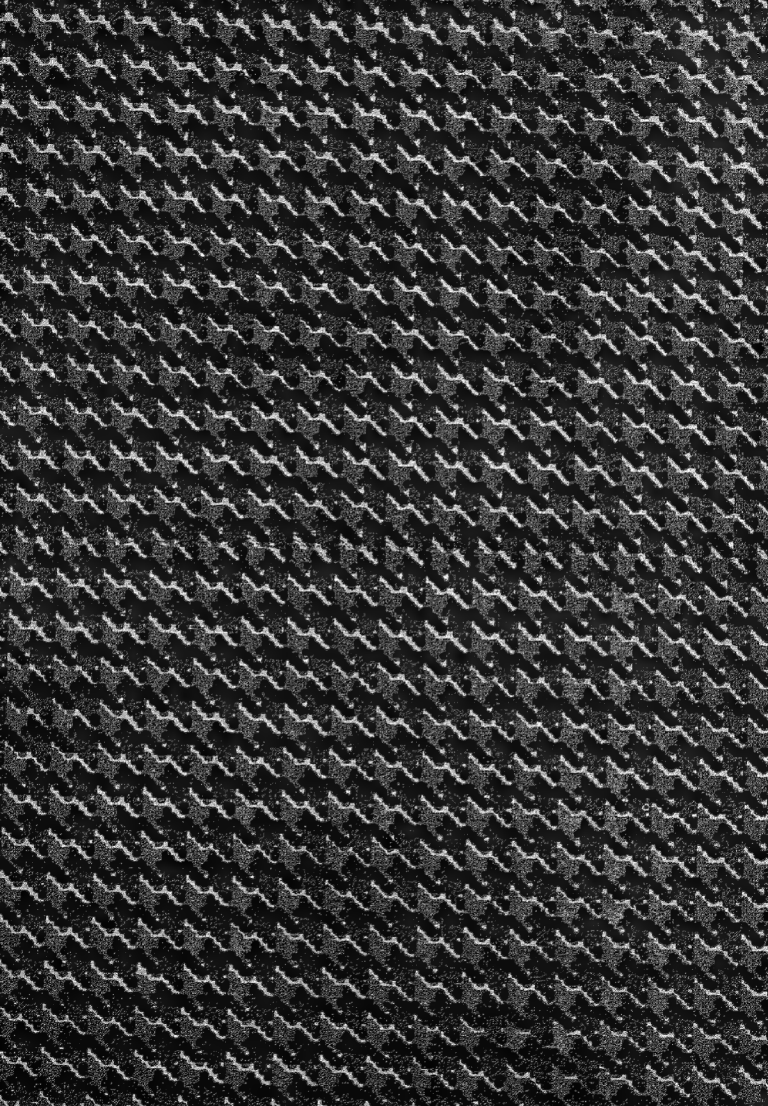
لما أمر الله تعالى بالاعتناء بمن تقسم من أنصار الأنبياء حذر طاعة الكافرين ؛ يعني مشرك العرب : أبا سعيان وأصحابه . وقيل : اليهود والنصارى . وقال علي رضي الله عنه : يعني المنافقين في قولهم للؤمنين عند الهزيمة : ارجعوا إلى دين آبائكم . (**يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ**) أي إلى الكفر . (**فَتَقْلِبُوا خَاسِرِينَ**) أي ترجعوا مفبورين . ثم قال : (**بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ**) أي متولي نصركم وحفظكم إن أطمعتموه . وقرئ « **بَلِ اللَّهُ** » بالنصب ، على تقدير بل وأطيعوا الله مولاكم .

قوله تعالى : **سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ** بِمَا أُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبَشَّ مَثْوًى الظَّالِمِينَ ﴿١٥٣﴾

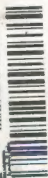
نظيره « **وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ** » . وقرأ ابن عامر واليكساني « **الرُّعْبَ** » بضم العين ؛ وهما لغتان . **والرُّعْبُ الخوف** ؛ يقال : رعبته رعباً ورعباً ، فهو مرعوب . ويجوز أن يكون الرُّعْبُ مصدراً ، **والرُّعْبُ الاسم** . وأصله من الملء ؛ يقال : سبيل راعب بلاء الوادئ . ورعبت الحوض ملاءه . والمصنى : سفلأ قلوب المشركين خوفاً وفزعاً . وقرأ السخني « **سُلْطَانًا** » بالياء ، **والباقون بنون العظمة** . قال السدي وغيره : لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين إلى مكة انطلقوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق ندموا وقالوا : بش ما صنعنا ! قتلناهم حتى لم يبق منهم إلا الشريد تركلهم ، ارجعوا فاستأصلوهم ؛ فلما عزموا على ذلك ألقى الله في قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما هموا به . والإلقاء يستعمل حقيقة في الأجسام ؛ قال الله تعالى : « **وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ** » **« فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصَمَهُمْ »** « **فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ** » . وقال الشاعر :

• فالتفت عصاه واستقر بها النوى •





Bibliotheca Alexandrina



0615381